

الكتاب الرابع من أغنيّة الجليد والنار

چورچ ر. ر. مارتن



وليمه للفريمان

ترجمة هشام فهمي




السويبر

جورج ر.ر. مارتن

وليمة للغربان

الكتاب الرابع من أغنية الجليد والنار
رواية

دار التنوير للنشر و التوزيع 

جميع الحقوق محفوظة ©



لتحويلك إلى الجروب أضغط هنا



لتحويلك إلى الموقع أضغط هنا

للمزيد من الروايات والكتب الحصرية
انضموا لجروب ساحر الكتب

sa7eralkutub.com

او زيارة موقعنا

إلى ستيقن بوشيه
ساحر الويندوز وتئين الدوس
الذي لولاه لكتبت هذه الرواية بأقلام الشمع





خريطة الجنوب

- - قلعة
- - مدينة
- - أطلال
- - بلدة



بناش
مطبعة

رأس الكراكي

شجرة فلفلية

جُزر الحديد

بلاكنايد

أوركمنت

هارلو

ويك القديعة

ويك الكبرى

جُرف الملح
بايك

بانفورت

رأس الثوارس

سيجار

خليج الرّجال الحديديين

الثّوامتان



شجرة الغدقان

تمهيد

- «الثنائين»، قالها مولاندر واختطف ثقّاحة ذابلة من على الأرض وراح يتقاذفها بين يديه.

قال أليراس أبو الهول مستحثًا إياه: «ارم الثقّاحة»، والتقط سهقا من جعبته وسحبته على وتر قوسه.

قال روون: «كم أوذ أن أرى تئيئا، أوذ هذا حقًا». الضبي الممتلى أصغرههم سئا، وما زال يفصله عامان كاملان عن بلوغ مبلغ الرجال.

فكر يايث مبدلا جلسته على الذكة بتملفل: وكم أوذ أن أنام بينما تظوقني روزي بذراعيها. بحلول الغد ستكون الفتاة قد أصبحت له. سأخذها بعيدا عن (البلدة القديمة)، أعبر بها (البحر الضيق) إلى واحدة من القدن الحرة. هناك لا يوجد مايسترات، لا أحد يثهمه.

تناهت إلى مسامعه ضحكات إما الآتية من نافذة
مغلقة المصراعين بالأعلى، ممتزجة بالصوت الأعماق
للرجل الذي تستضيفه. إنها أكبر العائلات سناً في
(الزيشة والدورق)، في الأربعين من العمر على الأقل،
وإن كانت لا تزال تتمتع بنوع معين من حسن ممتلكات
الجسد. أمّا روزي فابنتها، فتاة في الخامسة عشرة
أزهزت لتوها، وقد قصّت إما أن بكارة روزي سئكّف من
يفضّها تئينا ذهبيا كاملاً. كان يات قد اذخر تسعة أيائل
فضية ومِلء جرة من الثجوم والبنسات الثحاسية،
وعلى الرغم من هذا لا يزال بعيداً كل البعد عن المبلغ
المطلوب، وفرصة أن يجعل بيضة تئين حقيقي تفقس
أفضل من فرصة ادّخاره ما يكفي من مال لتئين ذهبي.
قال آرمن المُعاون لروون: «وُلِدَتْ متأخراً للغاية على
رؤية الثنانيين يا فتى». يضع آرمن حول عنقه شريطاً
جلدياً علّق منه حلقات من القصدير والصفائح والرصاص
والثحاس، ويبدو أنه -كأغلب المُعاونين- يعتقد أن ما
على أكتاف المبتدئين ثمار لفت لا رؤوس. «آخر تئين
مات في عهد الملك إجون الثالث».
رَدّ مولاندر بإصرار: «آخر تئين في (وستروس)
فقط».

عادَ أَليراس يستحثُّه قائلاً: «ارمِ الثَّقَّاحَةَ». الشَّابُّ
وسيم الطَّلعة، صديقهم أبو الهول الذي صارَ محطَّ شغف
جميع العاملين في المكان، وحتى روزي تمش ذراعه
أحياناً عندما تُقدَّم له التَّبيذ، فيضطرُّ پايت إلى الضَّغط
على أسنانه والتَّظاهر بأنه لم يَر.

قال آرمن بعناد: «آخِر تئين في (وستروس) كان آخِر
تئين، هذا معلوم للجميع».

كزَّر أَليراس: «الثَّقَّاحَةُ، ما لم تكن تنوي أن تأكلها».

قال مولاندر: «هاك»، وجزَّ قدمه المعوجَّة ووثب وثبةً
قصيرةً، ثم دارَ وألقى الثَّقَّاحَةَ بزاوية مستقيمة في
الصُّباب العالق فوق (نهر البتّع)⁽¹⁾. لولا التشوُّه في
قدمه لكان قد أصبح فارساً كأبيه، ففي ذراعيه
الغليظتين وكتفيه العريضتين من القوَّة ما يَكفل له هذا.
هكذا حلَّقت الثَّقَّاحَةُ مبتعدةً بسرعة...

... ولكن ليس بسرعة السَّهم الذي انطلق وراءها
صافراً في الهواء، قناته طولها ياردة كاملة من الخشب
الذهبي المزوَّد بالرَّيش القرمزي. لم يَر پايت السَّهم
يُصيب الثَّقَّاحَةَ، لكنه سمع صدى الارتطام الخافت يتردَّد
عبر النَّهر، يتبعه صوت سقوط الثَّمرة في الماء.
صفرَ مولاندر، وقال: «قوَّرتها، جميل!».

لكن ليس بنصف جمال روزي. يحبّ پايت لون البندق في عينيها ويحبّ ثدييها الثابتين، والطريقة التي تبسم بها كلّما رآته، ويحبّ الغمازتين في وجنتيها. أحيانًا تمشي حافية وهي تدور على الزبائن، لتشعر بلمس الغشب تحت قدميها، وهذا أيضًا يحبه پايت، تمامًا كما يحبّ رائحتها النّظيفة الفنعشة وشعرها الذي يتلوّلب وراء أذنيها، بل ويحبّ أصابع قدميها. ذات ليلة استدعه يَدْلُكْ هاتين القدمين ويداعبهما، وسيؤلف لها حكاية طريفة عن كلّ إصبع ليجعلها تضحك بلا انقطاع.

لعلّ الأصلح له أن يبقى على هذا الجانب من (البحر الضيق). يُمكنه أن يبتاع حمازًا بالنّقود التي ادّخرها، ويتبادل هو وروزي ركوبه بينما يجولان في أنحاء (وستروس). ربما لا يراه إيبروز جديرًا بوضع حلقة فضيّة في سلسلته، لكن پايت يعرف كيف يُجَبِّرُ العظام المكسورة ويُعَلِّقُ العَلَقَ (2). للمصابين بالخُمى. سيمتدّ العامّة لمساعدته، وإذا تعلّم أن يقضّ الشّعْر ويحلق اللّحي فمن الممكن أن يصير حَلّاقًا كذلك. قال لنفسه: يكفيني هذا ما دامت معي روزي. من الدنيا كلّها لا يريد إلّا روزي.

على أن الأمر لم يكن هكذا دائمًا. في السابق كان
خلمه أن يُصبح مايستر في قلعة، في خدمة لورد سخي
يُكزّمه لحكمته ويهب له حصانًا أبيض مطهّمًا عرفانًا
بخدمته. كان ليمتطيه بسفوف وثبل، ويبتسم للعوام من
أعلى حين يمرّ بهم على الطريق...

ذات ليلة في قاعة (الريشة والدورق) العامة، بعد أن
شرب دورقه الثاني من خمر الثّقاح القويّة للغاية، قال
بايت متبجّحًا إنه لن يظلّ مبتدئًا إلى الأبد، فردّ ليو
الكسول: «صحيح تمامًا، ستكون مبتدئًا سابقًا يرعى
الخنازير».

أفرغ ثمالة الشراب في جوفه. كانت شرفة الخان
المضاعة بالمشاعل جزيرة من الضوء في بحر من
الضباب هذا الصباح، وفي اتجاه مصب النهر تسبح
منارة (البرج العالي) البعيدة في رطوبة الليل كقمرٍ
برتقاليّ مبهم، لكن الضوء لم يفلح في رفع معنوياته إلّا
قليلاً.

كان يُفترض أن يأتي الخيميائي. هل المسألة كلها
دُعابة قاسية أم أن شيئًا جرى للرجل؟ لن تكون المرأة
الأولى التي يعبر فيها الخط في وجهها، فقد
حدث أن عدّ نفسه محظوظًا من قبل عند اختياره
لمساعدة المايستر الرئيس والجريفة العجوز على العناية
بالغدقان، دون أن يتصور أنه سرعان ما سيكلف أيضًا
بإحضار وجبات الرجل وكئس مسكنه وإلباسه ثيابه كل
صباح. يقول الجميع إن والجريفة نسي عن حرفة
الغدقان أكثر مما يتعلمه معظم المايسترات في حياتهم
كلها، فقدّر بايت أن حلقة من الحديد الأسود هي أقل ما
يأمله، فقط ليكتشف أن والجريفة لا يستطيع أن يمنحه
إياها، لأن العجوز ما زال ماستر رئيسًا على سبيل
المجاورة لا أكثر، وعلى الرغم من أنه كان ماستر عظيمًا
في الماضي، فالآن يُواري رداؤه ثيابًا داخليةً متسخةً
أكثر الوقت، وقبل نصف عام وجدّه عدد من المُعاونين
يبكي في المكتبة وقد عجز عن العثور على طريق
العودة إلى مسكنه. حاليًا يجلس المايستر جورمون
تحت القناع الحديد بدلًا من والجريفة، جورمون نفسه
الذي سبق أن اتهم بايت بالسرقة.

على شجرة الثَّقَّاح المجاورة للماء بدأ عندليب يُغَنِّي،
صوته الجميل راحة مستحيّة من صريخ الغدقان الخشن
ونعيقها المتّصل بعد أن ظلّ يآيت يعتني بها طيلة
اليوم. تعرف الغدقان البيضاء اسمه ويَتَمَتِّم بعضها به
لبعض كلّما وقعت أعينها عليه، فثَرَدَد «آيت، آيت،
آيت» إلى أن تنتابه الرّغبة في الصّراخ. تلك الطّيور
البيضاء الكبيرة مفخرة المايستر الرّئيس والجريقف،
ويريدها أن تأكله عندما يموت، وإن كان آيت يظنّ أنها
ثريد أن تأكله أيضًا.

ربما تكون خمر الثّقاح القويّة للغاية السّبب - ولم يكن
پايت قد أتى ليشرب، غير أن أليراس دعاهم إلى
الشّراب احتفالاً بحصوله على حلّقه الثّحاسيّة، والشّعور
بالذّنب أصاب پايت بالظّمأ- ولكن بدا له كأن العنديل
يَزْدَد بصوت راجف: «الذهب مقابل الحديد، الذهب
مقابل الحديد، الذهب مقابل الحديد»، وهو العجيب
نوعاً، لأن هذا ما قاله الغريب ليلة ربّيت روزي لقاءهما.
حينها سأله پايت: «مَن أنت؟»، فأجاب الرّجل:
«خيميائي، أستطيع تحويل الحديد إلى ذهب»، ثم
ظهرت قطعة الغملة في يده، تتراقص على مفاصل
أصابعه ويلمع ذهبها الأصفر الخالص في ضوء الشّموع،
على أحد وجهيها تئين ذو ثلاثة رؤوس، وعلى الآخر
رأس ملك ميت ما. تذكر پايت ما قاله الرّجل: «الذهب
مقابل الحديد، لن تجد صفقة أفضل. هل تريدها؟ هل
تُحبّها؟ قال للرّجل الذي دعا نفسه بالخيميائي: «لست
لصّاً، إنني مبتدئ في (القلعة)»، فحنى الخيميائي رأسه
مجيباً: «إذا غيّرت رأيك، سأعود بعد ثلاثة أيام من الآن
ومعي تئيني».

ومرّت ثلاثة أيام، وعاد پايت إلى (الزّيشة والدّورق)
وهو غير واثق بعد إن كان لصّاً حقاً أم لا، لكن بدلاً من
الخيميائي وجد مولاندر وآرمن وأبا الهول وفي أعقابهم
روون، ولو لم ينضمّ إليهم لأثار شكوكهم.

(الرَّيشة والدُّورق) مفتوح دائماً. طيلة ستمئة عامٍ وهو قائم على جزيرته في (نهر البتغ)، دون أن تنغلق أبوابه في وجه الرِّبائن قَطُّ، ومع أن المبنى الخشبي يميل نحو الجنوب كما يميل المبتدئون فوق دوارق الشَّراب أحياناً، فإن پايت يتوقَّع أن يظلَّ الخان قائماً ستمئة عامٍ أخرى، يبيع التَّبِيذ والمِزر(3) وخمر الثَّقَّاح القويَّة للغاية لملاحِي النُّهر والبحر، والحدَّادين والمطربين، والرُّهبان والأمراء، ومبتدئي (القلعة) ومُعاونيها.

أعلنَ مولاندر بصوتٍ أعلى من اللازم: «(البلدة القديمة) ليست العالم». إنه ابن فارس، وسكران الآن لأقصى درجة، فمنذ أتوه بخبر مقتل أبيه في معركة (النُّهر الأسود) وهو يسكر كلَّ ليلة تقريباً. لقد مشتهم حرب الملوك الخمسة جميعاً على الرغم من كونهم آمنين وراء أسوار (البلدة القديمة) بعيداً عن القتال... وإن كان المايستر الرِّئيس بنيدكت يصرُّ على أن الحرب لم تكن بين خمسة ملوكٍ حقاً، بما أن رنلي باراثيون مات قبل أن يتَّوَّج بالون جرايجوي نفسه. واصلَ مولاندر: «كان أبي يقول دومًا إن العالم أكبر من قلعة أيِّ لورد. لا بدَّ أن الثَّنائين أقلُّ ما يُمكن أن يجده المرء في (كارث) و(أشاي) و(يي تي). حكايات البخَّارة تلك...».

قاطعه آرمن: «... ليست أكثر من حكايات بخّارة. إنهم بخّارة يا عزيزي مولاندر. اذهب إلى أرصفة الميناء وأراهن أنك ستجد بخّارة يحكون لك عن عرائس البحر اللاتي ضاجعوهن، أو كيف قضوا عامًا في بطن سمكة». قال مولاندر وهو يبحث بقدمه في الغشب عن المزيد من الثّقاح: «وكيف تعلم أنهم لم يفعلوا؟ عليك أن تدخل بطن السمكة بنفسك لتجزم بأن هذا لم يحدث. حكاية من بخّار واحد، نعم، من الممكن أن تسخر منها، لكن حين يحكي بخّارة من أربع سفن مختلفة الحكاية نفسها بأربع لغات مختلفة...».

ردّ آرمن بإصرار: «الحكايات ليست واحدة. تنانين في (أشاي)، تنانين في (كارث)، تنانين في (ميرين)، تنانين مع الدوثرافي، تنانين تحزّر العبيد... كل حكاية تختلف عن الأخرى».

- «في الثّفاصيل فقط»، قال مولاندر الذي يزداد عنادًا عندما يشرب، وهو متصلّب الرّأي أصلًا حتى وهو مفيق. «الجميع يحكون عن الثّنانين، وملكة شابة جميلة».

الثّنين الوحيد الذي يُبالي به پايت مصنوع من الذهب الأصفر. تساءل عقّا جرى للخيميائي. اليوم الثّالث، قال إنه سيكون هنا.

خاطبت أليراس مولاندر قائلاً: «ثمة ثقّاحة أخرى قرب قدمك، وما زال معي سهمان في جعبتي».

قال مولاندر: «شحقًا لجعبتك»، ثم التقط ثمرةً أسقطتها الريح من الشجرة، وأضاف متذمّرًا: «فيها ديدان»، لكنه رماها رغم ذلك، وأصاب الشهم الثّقاحة إذ بدأت تُسقط وشطرها يصفين، هبط أحدهما على سطح بُرج ثم هوى إلى سطح أدنى وارتدّ وأخطأ آرمن بقدم واحد، فقال لهم الفعاون: «إذا قطعت دودة يصفين تُصبح هناك دودتان».

رَدّ أليراس بواحدة من ابتساماته الثّاعمة: «ليت الأمر كان كذلك مع الثّقاح، فما كان أحد ليجوع أبدًا». دائقا يبتسم أبو الهول كما لو أنه مطلع على دعاية سرّية ما، وقد منحه هذا مظهرًا خبيثًا يتماشى جيّدًا مع ذقنه البارز ومقدّمة شعره المدبّبة وخُصلاته الفاحمة الكثيفة المشدّبة بعناية.

سوف يُصبح أليراس مايستر ذات يوم. لقد جاء (القلعة) منذ عام واحد فقط، لكنه كوّن ثلاث حلقات من سلسلته بالفعل. صحيح أن حلقات آرمن أكثر، إلّا أنه استغرق عامًا كاملًا حتى استحقّ كلّ منها، ومع ذلك سوف يُصبح مايستر أيضًا. روون ومولاندر ما زالا مبتدئين عاريي العنق، لكن روون صغير جدّا، ومولاندر يؤثّر الشرب على القراءة.

أما پايت...

إنه في (القلعة) منذ خمسة أعوام، جاءها وهو في الثالثة عشرة من العمر لا أكثر، لكن غنقه لا يزال عاريًا كما كان يوم وصل من أراضي الغرب. مَرتين اعتقد نفسه مستعدًا؛ الأولى مثلَ فيها أمام المايستر الرئيس قايلين ليدل على معرفته بالأجرام السماوية، وبدلاً من هذا تعلم كيف حصل قايلين على لقب «الحل»، ثم استغرق الأمر يات عامين ليستجمع شجاعته من جديد ويحاول ثانية. تلك المرة قدّم نفسه إلى المايستر الرئيس إيبروز العجوز العطوف، الشهير برقة نبرته وخفة يديه، غير أن زفرات إيبروز كانت بوسيلة ما مؤلمة ككلمات قايلين الشائكة.

وعدهم أيراس قائلاً: «تفاحة أخيرة وسأخبركم بظنوني بتلك الثنائين».

دمدم مولاندر: «وما الذي تعرفه وأجهله أنا؟»، ولمح تفاحة على فرع فوئب وقطعها ورمها، فسحب أيراس وتر قوسه إلى أذنه وهو يدور برشاقة متابعًا هدفه المحلق، وأطلق سهمه لحظة أن بدأت التفاحة تسقط.

قال روون: «دائماً تخطئ الرمية الأخيرة».

وسقطت الثمرة في النهر دون أن يمشها السهم.

قال روون: «أرايت؟».

أجاب أليراس: «إذا أصبتها جميعًا ستكف عن التّحشّن»، وأرخى وتر قوسه الطّويل ودشّه بخفّة في قرابه الجليدي. القوس منحوت من القلب الذهبي، ذلك الخشب النّادر الممتاز الذي يأتي من (جُزر الصّيف)، وقد جرّب يايث أن يسحب الوتر عليه مرّة وفشل. قال يايث لنفسه متأمّلًا: أبو الهول يبدو هزيلًا، لكن ثقة قوّة في هاتين الذّراعين التّحيلتين، فيما جلس أليراس وساقاه على جانبي الدّكّة ومَدّ يده إلى كأس نبيذه معلًّا بلهجته الدورنيّة المتشدّقة: «التّنين له ثلاثة رؤوس».

تساءل روون: «أهذه أحجية؟ دائمًا ما يكون كلام آباء الهول ملغزًا في الحكايات».

رشف أليراس من الثّبيذ مجيبًا: «ليست أحجية». كانت بقيّتهم تعبّ من خمر الثّقاح القويّة للغاية التي يشتهر بها (الرّيشة والدّورق)، لكنه يُفضّل الخمر المحلّاة الغريبة من بلاد أمّه، وحتى في (البلدة القديمة) لا ثباع تلك الخمر بثمن رخيص.

كان ليو الكسول هو من لقّب أليراس بأبي الهول. أبو الهول كائن هجين؛ وجهه وجه إنسان وجسمه جسم أسد وله جناحا صقر، وأليراس مثله، فأبوه دورني وأمّه امرأة سوداء البشرة من (جُزر الصّيف)، أمّا بشرته هو فداكنة كخشب السّاج، وكنمئاليّ أبي الهول وأم الهول المنحوتين من الرّخام الأخضر ويقفان على جانبي يوّابة (القلعة) الرّئيسة، لأليراس عينان من الجُزع الأخضر.

قال آرمن المُعاون بحزم: «ليست هناك تفانين بعلاثة رؤوس إلا على الثروس والرّايات. إنه رمز لا أكثر، ثم إن آل تارجارين ماتوا جميعًا».

ردّ أليراس: «ليس جميعهم. الملك الشُّخاز كانت له أخت».

قال روون: «حسبتهم هشموا رأسه على جدار».

قال أليراس: «لا. إجون ابن الأمير ريجار الصغير هو من هشم رجال الأسد لانستر الشُّجعان رأسه على جدار. إننا نتكلّم عن أخت ريجار التي وُلدت في (دراجونستون) قبل سقوطها، تلك المسقاة دنيرس».

قال مولاندر: «وليدة العاصفة، تذكّرتها الآن»، ورفع دورقه عاليًا ليدور ما تبقى فيه من خمر الثُّفاح، وصاح: «نخبها!»، ثم جرّغ وضرب المائدة بالذّورق الخالي وتجنّشًا، قبل أن يمسح فمه بظهر يده ويسأل: «أين روزي؟ ملكتنا الشرعيّة تستحقّ دورًا آخر من الشُّراب، أليس كذلك؟».

لاح الانزعاج على آرمن المُعاون وهو يقول: «اخفض صوتك أيها الأحمق. لا يجذر بك أن تمزح مجرّد مُزاح بشأن تلك الأشياء، فلست تدري من يتنصّت. العنكبوت له آذان في كلّ مكان».

- «آه، لا تُبل في سراويلك يا آرمن. كنث أقترخ شرابًا لا ثورة».

سمعَ يَابت قهقهةً، ثم نادى صوت خبيث ناعم من ورائه قائلاً: «لطالما عرفت أنك خائن أيها الضفدع النُّطاط». كان ليو الكسول واقفاً بتراخٍ عند قدم الجسر الخشبي القديم، يرتدي الساتان المخطَّط بالأخضر والذهبي تحت حرملة⁽⁴⁾ من الحرير الأسود، يُثَبَّتُها إلى كتفه مشبك على شكل وردة من اليشب، وقد بدا من البقع على صدره أن التبيذ الذي شربه كان أحمر قانيًا، بينما سقطت خُصلة من شعره الذهبي الشاحب على إحدى عينيه.

اشتعلَ مولاندر غضبًا لمرآه، وقال: «تبًا لهذا، ارحل، ليس مرحبًا بك هنا»، فوضعَ أليراس يده على ذراعه ليَهْدئَه، في حين عبسَ آرمن قائلاً: «ليو، سيدي، حسبتك ستظلُّ محتجزًا في (القلعة)....».

قاطعه ليو: «... ثلاثة أيام أخرى»، وهزّ كتفيه مضيقًا: «پيرستان يقول إن العالم عُمره أربعون ألف عام، ومولوس يقول إنها خمسمئة ألف، فما قيمة ثلاثة أيام؟»، وعلى الرغم من وجود دسته من الموائد الخالية في الشُرْفَة، فقد جلس ليو إلى مائدتهم مردفًا: «ادعني إلى كأس من نبيذ (الكرمة) الذهبي أيها الضفدع النطاط ولن أخبر أبي بأمر نخبك. الحظ لم يُحالفني في لعب البلاطات في (الثرد المرئع) وبذدت أيلي الفضي الأخير على العشاء. خنزير رضيع في صلصة البرقوق، محشو بالكستناء والكمأة البيضاء. الإنسان يحتاج إلى الطعام. وماذا أكلتم أنتم يا أولاد؟».

غمغم مولاندر وقد بدا مستاء من الإجابة: «أكلنا ضأنًا، تقاسمنا فخذ ضأن مسلوقة».

قال ليو: «أنا واثق بأنها كانت مشبعة»، والتفت مخاطبًا أليراس: «المفترض أن يكون ابن لورد مِثْلِكَ سخيًا يا أبا الهول. بلغني أنك فزت بحلقتك الثحاسية. سأشربُ نخب هذا».

ابتسم أليراس مجيبًا: «لست أدعو إلا الأصدقاء إلى الشراب، ثم إنني لست ابن لورد كما أخبرتك. أمي كانت تاجرة».

قال ليو وفي عينيه البندقيتين لمعة النّبيذ والنّقمة:
«أُمك كانت قردةً من (جُزر الصّيف). الدورنيون
يُضاجعون أيّ شيءٍ له فتحة بين ساقيه. لا أقصدُ
إساءةً. ربما تكون بنّيًا كحبةً من الجوز، لكنك تستحمُ
على الأقل، على عكس فتى الخنازير المبّقع هذا»، ولوّح
بيده نحو پايت.

فكّر پايت: إذا ضربته في فمه بدورقي فيمكنني أن
أكسر نصف أسنانه. پايت المبّقع فتى الخنازير هو بطل
ألف من القصص البذيئة، صعلوك أبله طيب القلب
استطاع دومًا أن يتغلّب على السّادة السّمان والفرسان
المتغطرسين والشّيتونات المبهرجين الذين يُزعجونهم،
وبشكلٍ ما يتّضح أن غباءه نوع من الذّهاء غير المألوف،
ودائمًا تنتهي به الحكايات جالسًا على مقعد لورد عالي أو
في الفراش مع ابنة أحد الفرسان. لكنها مجرّد قصص،
ففي عالم الواقع لا يُحالف الثّوفيق صبية الخنازير.
أحيانًا يُفكّر پايت أن أمّه كانت تكرهه بالتّأكيد ما دامت
قد أطلقت عليه هذا الاسم.

قال أليراس وقد غابت ابتسامته: «ستعتذر».

- «حقًا؟ وكيف اعتذر وخلقى بهذا الجفاف؟».

قال أليراس: «إنك تجلب العار على عائلتك مع كلّ
كلمة تقولها، وتجلب العار على (القلعة) بكونك واحدًا
منا».

- «أعرف، فادعني إلى القليل من التَّبِيدِ إذن كي أُغرق عاري».

قال مولاندر: «أريدُ أن أقتلع لسانك من جذوره».
رَدَّ ليو: «حقًا؟ وكيف أحكي لكم عن الثَّنانين إذن؟»،
وعادَ يهزُّ كتفيه متابعًا: «الهجين على حق، ابنة الملك
المجنون حيَّة ومعهما ثلاثة تنانين».

رَدَّدَ روون مندهشًا: «ثلاثة؟».
رَبَّتَ ليو على يده مجيبًا: «أكثر من اثنين وأقلُّ من
أربعة. لو كنتُ مكانك لما حاولتُ الحصول على حلقتي
الذهبيَّة بعد».

قال مولاندر منذرًا: «دعه وشأنه».
- «يا لشهامتك أيها الضُّفدع النُّظَّاط. كما تشاء. كلُّ
رجلٍ من كلِّ سفينة أبحرت على مسافة مئة فرسخٍ من
(كارت) يتحدث عن تلك الثَّنانين، وستجد بعضهم يقول
إنه رآها بنفسه. المُشعوذ يميل إلى تصديقهم».

زَمَّ آرمن شفَّتيه استنكارًا، وقال: «ماروين معتلُّ
العقل. المايستر الرِّئيس بيرستان أول من سيقول لك
هذا».

قال روون: «هذا ما يقوله المايستر الرِّئيس ريام
أيضًا».

تثاءبَ ليو، وقال: «البحر مبتلُّ والشمس دافئة
ومعرض الوحوش يكره الدُّرواس⁽⁵⁾».

فَكَرَّ يَإَيَّت: لَدِيهِ اسْمٌ سَاخِرٌ لِكُلِّ أَحَدٍ، لَكِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْكِرَ أَنَّ مَارُوِينَ يَبْدُو أَقْرَبَ إِلَى دِرْوَاسٍ مِنْ هَايَسْتَرٍ بِالْفَعْلِ. كَأَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَعِضُّكَ. لَيْسَ الْمُشْعَوذُ كَبَقِيَّةِ الْهَايَسْتَرَاتِ، وَيَقُولُ النَّاسُ إِنَّهُ يُرَافِقُ الْعَاهِرَاتِ وَالشَّحَرَةَ الْجَوَالِينَ، وَيُكَلِّمُ الْإِيْبِنِيْزِيِّينَ الْمُشْعَرِينَ وَأَهْلَ (جُزْرِ الصَّيْفِ) ذَوِي الْبَشَرَةِ السُّودَاءِ كَالْقَارِ بِلُغَتِهِمْ، وَيُقَدِّمُ الْقَرَابِينَ لِأَلْهَةٍ غَرِيبَةٍ فِي مَعَابِدِ الْبَحَّارَةِ الصَّغِيرَةِ عِنْدَ أَرْصَفَةِ الْمَرْفَأِ، وَهَنَّاكَ مِنْ يَتَكَلَّمُونَ عَنْ رُؤْيَيْتِهِ فِي الْأَنْحَاءِ الْكَرْبِيَّةِ مِنَ الْمَدِينَةِ، فِي حَلَبَاتِ الْجِرْذَانِ (6). وَالْمَوَآخِرِ السُّودَاءِ، يُسَامِرُ الْمُمَثِّلِينَ وَالْمُطَرِبِينَ وَالْمُرْتَزِقَةَ، بَلْ وَالْمَتَسَوِّلِينَ أَيْضًا. ثُمَّ إِنْ هَنَّاكَ مِنْ يَتَهَامِسُونَ قَائِلِينَ إِنَّهُ قَتَلَ رَجُلًا ذَاتَ مَرَّةٍ بِقَبْضَتِيهِ الْعَارِيَتَيْنِ.

حِينَمَا رَجَعَ مَارُوِينَ إِلَى (الْبَلَدَةِ الْقَدِيمَةِ)، بَعْدَ أَنْ أَمْضَى ثَمَانِيَّةَ أَعْوَامٍ فِي الشَّرْقِ يَرْسُمُ خَرَائِطَ الْأَرْضِ الْبَعِيدَةِ وَيَبْحَثُ عَنْ كُتُبٍ مَفْقُودَةٍ وَيَدْرُسُ مَعَ الذَّجَالِينَ وَأَسْرَى الظُّلَّالِ، لَقَّبَهُ قَائِلِينَ الْخَلِّ بِمَارُوِينَ الْمُشْعَوذِ، وَسَرَعَانَ مَا انْتَشَرَ اللَّقْبُ فِي جَمِيعِ أَنْحَاءِ الْمَدِينَةِ، وَهُوَ مَا أَثَارَ ضَيْقَ قَائِلِينَ لِأَقْصَى دَرَجَةٍ. فِي مَرَّةٍ قَالَ الْهَايَسْتَرُ الرَّئِيسُ رِيَامَ لِيَأَيَّتَ عَلَى سَبِيلِ النَّصِيحَةِ: «دَعِ الصَّلَوَاتِ وَالتَّعَاوِيزَ لِلرُّهْبَانِ وَالشَّيْطَوْنَآتِ، وَكَرْسِ عَقْلَكَ لِتَعَلُّمِ الْحَقَائِقِ الَّتِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يَثِقَ بِهَا الْإِنْسَانُ»، لَكِنْ خَاتَمَ رِيَامَ وَصُولَ جَانِهِ وَقَنَاعَهُ مِنَ الذَّهَبِ الْأَصْفَرِ، وَسَلْسَلَتِهِ تَخْلُو مِنْ حَلَقَةٍ مِنَ الْفُولَازِ الْقَالِيرِيِّ.

لآرمن أنف طويل رفيع مدبب، مناسب تمامًا للنظرة التي رمق بها ليو الكسول من فوقه وهو يقول: «المايستر الرئيس ماروين يعتقد بالعديد من الأشياء الغريبة، لكنه لا يملك دليلًا على وجود الثنائين أكثر من مولاندر. مزيد من قصص البخارة لا أكثر».

قال ليو: «أنت مخطئ. ثقة شمعة زجاجية متقدة في مسكن الفشعوذ».

رأى الضمت على الشرفة المضاءة بالمشاعل، ثم تنهد آرمن وهز رأسه، وبدأ مولاندر يضحك، وتقرّس أبو الهول في وجه ليو بعينيه السوداوين الواسعتين، وبدت الحيرة على روون.

يعرف پايت بأمر الشموع الزجاجية، وإن لم ير واحدة مشتعلة من قبل قط. إنها الشر الأكثر انفضاحًا في (القلعة)، ويقال إنها جلبت إلى (البلدة القديمة) من (قاليريا) قبل ألف عام من هلاكها. كان پايت قد سمع بوجود أربع منها، إحداها خضراء والبقية سوداء، وكلها طويلة ملتوية.

سأل روون: «ما تلك الشموع الزجاجية؟».

تَنحَنخَ آرْمَنُ الْمُعَاوَنَ، وَأَجَابَ: «فِي اللَّيْلَةِ السَّابِقَةِ
لَحَلَفَ كُلُّ مُعَاوَنٍ الْيَمِينِ، عَلَيْهِ أَنْ يَسْهَرَ فِي الْقَبْوِ، وَغَيْرِ
مَسْمُوحٍ لَهُ أَنْ يَأْخُذَ مَعَهُ فَانُوشًا أَوْ مَشْعَلًا أَوْ مَصْبَاخًا أَوْ
فَتِيلًا مَكْسُورًا بِالشَّمْعِ... فَقَطَّ شَمْعَةً مِنَ الزُّجَاجِ الْبُرْكَانِيِّ.
هَكَذَا يَجِبُ أَنْ يَقْضِيَ اللَّيْلُ فِي الظُّلَامِ مَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ
يُشْعِلَ تِلْكَ الشَّمْعَةَ. بَعْضُهُمْ يُحَاوِلُ، الْحَمَقِيُّ وَالْعَنِيدُونَ،
أَوَّلُكَ الَّذِينَ دَرَسُوا الْغَوَامِضَ الْغَلِيَا إِيَّاهَا، وَكَثِيرًا مَا
يَجْرَحُونَ أَصَابِعَهُمْ، لِأَنَّ حَوَافِ الشَّمْعَةِ حَادَّةٌ كَالْمَوْسَى
حَسَبَ مَا يُقَالُ، ثُمَّ يَكُونُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَنْتَظِرُوا بَزُوغَ الْفَجْرِ
بِأَيْدٍ دَامِيَةٍ وَهُمْ يُفَكِّرُونَ فِي فَشْلِهِمْ. الْحُكَمَاءُ يَخْلُدُونَ
إِلَى النَّوْمِ بِبَسَاطَةٍ، أَوْ يَقْضُونَ اللَّيْلَ فِي الصَّلَاةِ، لَكِنْ
هَنَّاكَ دَائِمًا مَنْ يُصِرُّونَ عَلَى التَّجْرِيبَةِ كُلِّ عَامٍ».

قَالَ پَايْتُ الَّذِي سَمِعَ الْقِصَصَ نَفْسَهَا: «نَعَمْ، لَكِنْ مَا
الْفَائِدَةُ مِنْ شَمْعَةٍ لَا تُلْقَى ضَوْءًا؟».

جاوبه آرمن: «إنه درس، آخر درس يجب أن نتعلمه قبل أن نضع سلسلة المايسترات. المقترض أن ثقّل الشمعة الزجاجة الحقيقة والمعرفة، وهما شيان نادران وجميلان وهشّان، وهي مصنوعة على شكل شمعة كي تُذكرنا بأن على المايستر أن يلقي الضوء أينما خدم، وحادة كي تُذكرنا بأن المعرفة من شأنها أن تكون خطيرة. قد تُصيب الحكمة أصحابها بالغرور، لكن على المايستر أن يبقى متواضعًا دومًا، وهذا ما تُذكرنا الشمعة الزجاجة به أيضًا، فحتى بعد أن يحلف اليمين ويضع سلسلته ويبدأ خدمته، سيفكر المايستر في سهرته تلك ويتذكر أن شيئًا لم يكن في وسعه لإشعال الشمعة... بعض الأشياء ليس ممكنًا حتى في وجود المعرفة».

انفجر ليو الكسول في الضحك، وقال: «تعني أنه ليس ممكنًا لك. لقد رأيت الشمعة مشتعلة بعيني هاتين».

ردّ آرمن: «رأيت شمعة ما مشتعلة بلا شك، من الشمع الأسود ربما».

- «أعرف ما رأيث. الضوء كان غريبًا وساطعًا، أكثر سطوعًا من ضوء أي شمعة من شمع العسل أو الشحم، وألقى ظلالًا غريبةً دون أن يتذبذب اللهب إطلاقًا، حتى عندما هبّ تيار الهواء من الباب المفتوح ورائي».

عقدَ آرمن ذراعيه على صدره قائلاً: «الزُجاج البركاني لا يشتعل».

قال پايت وقد بدت له المعلومة مهمةً بشكلٍ ما: «زُجاج التّئين، العائمة يُسْقُونه زُجاج التّئين».

علّق أليراس أبو الهول متأملاً: «صحيح، وإذا عادت الثّنائين إلى العالم حقاً...».

قال ليو: «الثّنائين وأشياء ألّعن. الخراف الرّماديّة أغلقت أعينها، لكن الذّرواس يرى الحقيقة. القوى القديمة تستيقظ من شباتها والظلال تتحرّك، وقريباً سيبدأ عصر من العجائب والرّعب، عصر للآلهة والأبطال»، وتمطّى راسقاً على شفّتيه ابتسامته الكسول، وأضاف: «أعتقد أن الأمر يستحقّ دوراً من الشّراب».

قال آرمن: «شربنا بما فيه الكفاية. سرعان ما سيطلع الضّبح علينا، والمايستر الرّئيس إيبروز سيتحدّث اليوم عن خواص البول، وعلى من يرغب في حلقة من الفضة ألا يَفُوت حديثه».

ردّ ليو: «حاشا لي أن أعظلكم عن تذوّق البول، أمّا أنا فأفضّل مذاق نبيذ (الكرمة) الذهبية».

قال مولاندر: «إذا كان الخيار بين البول وبينك، فإنني أختار البول»، ودفع مقعده عن المائدة مخاطباً روون: «هيا بنا».

التقط أبو الهول قراب قوسه قائلاً: «أنا أيضًا سأخذ
إلى الثوم. أتوقّع أن أحلم بالثنانين والشموع
الزجاجيّة».

تساءل ليو: «كلّكم راحلون؟»، وهزّ كتفيه مردفًا:
«ليكن، روزي ستبقى. ربما أوقظ قطعة الحلوى الصّغيرة
وأجعل منها امرأة».

رأى أليراس النظرة على وجه پايت، فقال له: «إذا
كان لا يملك قطعة نحاسيّة لكأس من الثّبيذ، فلا يُمكن
أن معه ثنيّنا للفتاة».

قال مولاندر: «نعم، ثم إن الأمر يتطلّب رجلًا كي
يجعل منها امرأة. تعال معنا يا پايت. والجريف العجوز
سيستيقظ حين تُشرق الشّمس، وسيحتاج إلى
مساعدتك في الذهاب إلى المرحاض».

هذا إذا تذكر من أنا اليوم. لا يجد المايستر الرئيس
والجريف صعوبة في التّمييز بين غدايف وآخر، لكنه لا
يملك المهارة نفسها مع البشر، وفي بعض الأيام يحسب
پايت شخصًا آخر اسمه كرسن. قال لأصدقائه: «ليس
بعد، سابقى قليلًا». الفجر لم يطلع بعد، ليس تمامًا،
وربما يكون الخيميائي ما زال قادمًا، وإذا جاء فپايت
ينوي أن يجده هنا.

قال أرمن: «كما تريد»، وحَدَجَ أَلِيرَاسَ يَآيَتَ بِنَظَرَةٍ طَوِيلَةٍ، ثُمَّ عَلَّقَ قَوْسَهُ عَلَى كَتِفِهِ التَّحِيلَةَ وَتَبَعَ الْآخَرِينَ نَحْوَ الْجَسْرِ. كَانَ مَوْلَانْدَرُ سَكَرَانَ لِدَرَجَةٍ جَعَلَتْهُ يَضْطَرُّ إِلَى الْمَشْيِ مُسْتَنْدًا إِلَى كَتِفِ رَوُونِ كِي لَا يَقَعُ. لَيْسَتْ (الْقَلْعَةُ) بَعِيدَةً بِشَرَعَةِ طَيْرَانِ الْغُدَافِ، لَكِنْ لَا أَحَدٌ مِنْهُمْ غُدَافٌ، وَ(الْبَلَدَةُ الْقَدِيمَةُ) مَتَاهَةٌ فَعْلِيَّةٌ، مَلَأَى بِالْمَنْعُطَاتِ وَالْأَزْقَةِ الْمُتَقَاطِعَةِ وَالشُّوَارِعِ الضَّيِّقَةِ الْمَلْتَوِيَةِ. سَمِعَ يَآيَتَ أَرْمَنِ يَقُولُ إِذْ ابْتَلَعَ ضَبَابَ النَّهْرِ أَرْبَعَتَهُمْ: «احْذَرُوا، اللَّيْلَةُ كَانَتْ رَطْبَةً وَسَتَجِدُونَ حِجَارَةَ الشُّوَارِعِ زَلْقَةً».

لَمَّا رَحَلُوا تَطَلَّعَ لِيُو إِلَى يَآيَتَ بِنَظَرَةٍ فَظَّةٍ عَبْرَ الْمَائِدَةِ، وَقَالَ: «مَحْزَنٌ، أَبُو الْهَوْلِ هَجَزَنِي بِفَضَّتِهِ كُلَّهَا وَتَرَكَنِي لِيَايَتِ الْمَبْقَعِ فَتَى الْخَنَازِيرِ»، وَعَادَ يَتَمَطَّى مَتْنَائِبًا، وَسَأَلَ: «كَيْفَ حَالُ خُلُوتِنَا رُوزِي يَا ثُرَي؟».

أَجَابَ يَآيَتَ بِاقْتِضَابٍ: «إِنَّهَا نَائِمَةٌ».

قَالَ لِيُو بَابْتِسَامَةٍ عَرِيضَةٍ: «عَارِيَّةٌ بَلَا شَكٍّ. أَتَحْسَبُ أَنَّهَا تَسْتَحِقُّ تَثْنِيًّا كَامِلًا بِحَقِّ؟ أَظُنُّ أَنَّ عَلِيَّ أَنْ أَعْرِفَ الْإِجَابَةَ بِنَفْسِي ذَاتَ يَوْمٍ»، وَحِينَ لَمْ يَتَكَلَّمْ يَآيَتُ الْأَعْقَلُ مِنْ أَنْ يَرُدَّ، تَابَعَ لِيُو الَّذِي لَمْ يَحْتِجْ إِلَى رَدٍّ: «أَتَوَقَّعُ بِمَجَرَّدِ أَنْ أَلْجَ الْفَتَاةَ سَيَنْهَارُ بِسَعْرِهَا بِحَيْثُ يَقْدَرُ عَلَيْهِ صَبِيَّةُ الْخَنَازِيرِ أَنْفُسَهُمْ. يَجْذُرُ بِكَ أَنْ تُشْكُرَنِي».

فَكَرَّ يَإَيَّتْ: يَجْدُرْ بِي أَنْ أَقْتَلَكَ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ سَكْرَانٍ
لِدَرَجَةٍ أَنْ يُبَدِّدَ حَيَاتِهِ، فَلْيُوْ مَمْرُنْ عَلَى السَّلَاحِ،
وَمَعْرُوفٌ بِأَنَّهُ مَمِيْتُ حَقًّا حِينَ يُقَاتِلُ بِسَيْفٍ مُّبَارَظِي
الْبِرَاقُو وَالْخَنَجَرِ، وَحَتَّى إِذَا اسْتَطَاعَ يَإَيَّتْ بِوَسِيلَةٍ مَا أَنْ
يَقْتُلَهُ، فَمَعْنَى هَذَا أَنْ يَفْقِدَ رَأْسَهُ بِالتَّبَعِيَّةِ. لِلْيُوْ اسْمَانِ
فِي حِينٍ أَنْ لِيَإَيَّتْ اسْمٌ وَاحِدٌ، وَاسْمُهُ الثَّانِي تَايِرْلُ.
السَّيْرُ مَوْرِينِ تَايِرْلُ قَائِدُ حَرَسِ الْمَدِينَةِ فِي (الْبَلَدَةِ
الْقَدِيمَةِ) هُوَ أَبُو لِيُوْ، وَمَايَسُ تَايِرْلُ سَيِّدُ (هَاجَارْدَن)
وَحَاكِمُ الْجَنُوبِ ابْنُ عَقَّةٍ، نَاهِيكَ بِأَنْ شَيْخُ (الْبَلَدَةِ
الْقَدِيمَةِ) اللُّورْدُ لَايْتُونُ سَيِّدُ (الْبُرْجِ الْعَالِيِّ) -الَّذِي تَضُمُّ
أَلْقَابَهُ الْعَدِيدَةَ لِقَبِّ «حَامِي الْقَلْعَةِ»- مِنْ حَقْلَةِ رَايَةِ عَائِلَةِ
تَايِرْلُ وَالْمُقْسَمِينَ لَهَا عَلَى الْوَلَاءِ. قَالَ يَإَيَّتْ لِنَفْسِهِ: لَا
عَلَيْكَ، إِنَّهُ يَقُولُ مَا يَقُولُهُ لِيَجْرَحَنِي لَا أَكْثَرَ.

كَانَ الصُّبَابُ قَدْ بَدَأَ يَنْقَشِعُ فِي الشَّرْقِ، فَأَدْرَكَ يَإَيَّتْ
أَنَّهُ الْقَجْرُ. الْقَجْرُ طَلَعَ وَالْخِيَمِيَّاتُ لَمْ يَأْتِ. لَمْ يَدْرِ إِنْ
كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَضْحَكَ أَمْ يَبْكِي. هَلْ سَاطِلٌ لَصًا إِذَا
وَضَعْتُ كُلَّ شَيْءٍ فِي مَكَانِهِ وَلَمْ يَدْرِ أَحَدٌ؟ سَوَّالُ آخِرِ
بَلَا إِجَابَةٍ عِنْدَهُ، كَالْأَسْئَلَةِ الَّتِي طَرَحَهَا عَلَيْهِ إِيْبَرُوزُ
وَقَايِلِينَ مِنْ قَبْلِ.

عندما دفع نفسه عن المائدة ونهض، صعدت خمر
الثَّاقِح القويَّة للغاية إلى رأسه دفعةً واحدةً، واضطرَّ إلى
وضع يده على المائدة ليقف ثابتًا، ثم إنه قال على
سبيل الوداع: «دع روزي وشأنها، دَعها وشأنها وإلا ربما
أقتلك».

نقرَ ليو تايرل حُصلة الشعر عن عينه بإصبعه، وقال:
«لا أبارزُ صبية الخنازير. ارحل».

دارَ پايت وقطعَ الشُرْفَة، وتعلَّات دَقَّات كعبيه على
ألواح الجسر الخشبي القديم البالية، ولدى بلوغه الضَّفَّة
الأخرى كانت سماء الشُّرق قد بدأت تصطبغ بلونٍ وردي.
قال لنفسه: العالم فسيح. إذا اشتريتُ حمازًا فما زالَ
يُمكنني أن أجول في طرقات (الممالك السَّبع) ومسالكها،
أعْلُق العلق للعامة وأقْلِي شعرهم من القمل. يُمكنني أن
ألتحق بطاقم سفينةٍ ما وأعمل مُجدِّقًا، أبحرَ إلى (كارت)
عن طريق (بوَّابات اليشب) وأرى تلك الثَّنائين اللَّعينة
بنفسي. لا يوجد ما يدعوني إلى العودة إلى والجريف
العجوز والغدقان.

ولكن بشكلٍ ما قاذته حُطاه إلى طريق (القلعة).

حين نفذ أول خيوط ضوء الشمس من الشحب إلى الشرق بدأت أجراس الصّباح تدقّ في (سيت البحّارة) عند الميناء، وبعد لحظة انضمت إليها أجراس (سيت اللورد)، ثم (المقامات السبعة) من حدائقها عبر النهر، وأخيرًا (الشيت التّجمي) الذي كان مقرّ الشيتون الأعلى طيلة ألف عام قبل أن يرسو إجون في (كينجز لاندنج).
مما صنعت الأجراس موسيقى جليّة حقًا. وإن لم تكن بعدوبة صوت عندليب واحد صغير.

ترامى إلى مسامعه الإنشاد أيضًا بصوت أدنى من رنين الأجراس. في كلّ صباح مع أول ضوء يجتمع الرهبان الخمر للترحيب بالشمس خارج معبدهم المتواضع المجاور لأرصّة الميناء. قالّيل مظلم ومفعم بالأهوال. لقد سمعهم يهتفون بتلك الكلمات مئة مرّة، يسألون إلههم راهلور أن يُنقّذهم من الظلمات. يكتفي پايت بالآلهة السبعة، لكنه سمع أن ستانيس باراثيون يتعبّد عند الثّار الليليّة الآن، بل ووضع قلب راهلور الثّاري على رايّاته بدلًا من الوعل المتوّج. فكّر پايت: إذا ارتقى العرش الحديدي سيكون علينا جميعًا أن نتعلّم كلمات أنشودة الرهبان الخمر، لكنه لا يعتقد أن شيئًا كهذا محتفل، فقد حطّم تايوين لانستر ستانيس وراهلور في معركة (النّهر الأسود)، وقريبًا سيُجهز عليهما ويُعلّق رأس المدّعي باراثيون فوق بوابات (كينجز لاندنج).

إذ زال ضباب الضُبح بدأت (البلدة القديمة) تستردُّ شكلها من حوله، تبرز ككيانٍ شبحيٍّ من عتمةٍ ما قبل الفجر. لم يرَ يَـايت (كينجز لاندنج) قَطُّ، لكنه يعلم أنها مدينةٌ أبنيتها من الجِصّ والأغصان المجدولة، امتداد من الشوارع الطينية والشقوق القش والبيوت الخشبية. أمّا (البلدة القديمة) فمبنية بالحجارة، وشوارعها كلها معبّدة بحجر الإسكافي، بل وأحقر أزقتها كذلك. لا تبدو المدينة أجمل أبدًا مما تبدو عند بزوغ الفجر، فغرب النّهر تصطفُّ دور الرّابطات المختلفة على الضّفة كالقصور، وفي اتجاه المنبع ترتفع قباب وأبراج (القلعة) على الضّفتين، تربط بينها الجسور الحجرية المتخّمة بالقاعات والمنازل، وفي اتجاه المصب، أسفل أسوار (السّيت الحجري) الرّخام السوداء ونوافذه المقنطرة، تحتشد إيوانات المتديّنين كأطفالٍ مجتمعين عند قدمي أرملةٍ عجوز من الأعيان.

ووراء كل هذا، حيث يتسع (نهر البتة) ويمتزج بـ(النهر الهامس)، يرتفع (البرج العالي) وتتقد نار منارته في ضوء الفجر، ومن مكانه فوق جروف (جزيرة المعركة) يقطع ظل المدينة كالسيف. من ولدوا ونشأوا في (البلدة القديمة) يعرفون ساعات النهار عن طريق هذا الظل، ويزعم بعضهم أنك تستطيع أن ترى (الجدار) نفسه إذا وقفت على القمة. ربما لهذا السبب لم ينزل اللورد لايتون من أعلى منذ أكثر من عقد من الزمن، مفضلاً أن يحكم مدينته من بين السحاب.

قعقت عربة جزار مازة ببايت في طريق النهر وفي مؤخرتها خمسة خنازير صغيرة تصرخ مذعورة، وقد تحاشاها بايت في الوقت المناسب فتفادى أن تتناثر عليه الفضلات التي أفرغتها امرأة من نافذة بالأعلى. فكر: حين أصبح ماистер في قلعة سامتطي حصاناً، ثم إنه تعثر في حجر وتساءل من يحاول أن يخدع. لا سلسلة له، لا مقعد إلى مائدة عالية عند أحد اللوردات، لا حصان أبيض طويلاً يركبه. سيُمضي أيامه في الإصغاء إلى نقيب الغدقان وتنظيف ثياب الماистер الرئيس والجريف الداخلية من بقع الغائط.

كان جائئاً على زكبته يحاول مسح ردائه من الظين حين سمع صوتاً يقول: «طاب صباحك يا بايت». وكان الخيميائي واقفاً فوقه.

نهض يايت قائلا: «اليوم الثالث... قلت إنك ستكون في (الزيشة والدورق)».

- «كنت مع أصدقائك، ولم أرغب في التطفل على ضحبتكم». يرتدي الخيميائي معطف مسافرين مزوذاً بقلنسوة، بني اللون ويخلو من أي علامات مميزة، وقد بدأت الشمس المشرقة تطل من فوق سقوف المباني وراء كتفه جاعلة إبطار الوجه تحت القلنسوة صعباً. «هل قررت ماذا تكون؟».

أجب أن يجعلني أقولها؟ «أظن أني لص».

- «هذا ما حسبته».

أصعب ما في الأمر كان أن يركع على يديه وزكبتيه ليسحب الصندوق المنيع من تحت فراش المايستر الرئيس والجريف، وعلى الرغم من أن الصندوق قوي ومدعم بالحديد، فقفله مكسور، وكان المايستر جورمون قد شك في أن يايت قد كسره، لكن ذلك غير صحيح، فقد كسر والجريف القفل بنفسه بعد أن فقد مفتاحه.

في الداخل وجد يايت كيساً من الأيايل الفضية، وخصلة من الشعر الأصفر مربوطة بشريط، وصورة منمنمة مرسومة لامرأة تشبه والجريف (بما في ذلك الشارب)، بالإضافة إلى قفاز فارس مصنوع من الفولاذ المقعر لتسهيل حركة اليد. يزعم والجريف أن القفاز كان ملكاً لأمير، ولكن يبدو أنه نسي أي أمير هو، ولما رَجَّ يايت القفاز سقط منه المفتاح على الأرض.

يَذْكُرُ أَنَّهُ فَكَّرَ لِحَظَّتِهَا: إِذَا أَخَذْتَهُ فَأَنَا لَصٌّ. الْمِفْتَاحُ قَدِيمٌ وَثَقِيلٌ، مَصْنُوعٌ مِنَ الْحَدِيدِ الْأَسْوَدِ، وَيُفْتَرَضُ أَنَّهُ يَفْتَحُ كُلَّ بَابٍ فِي (الْقَلْعَةِ). لَا أَحَدٌ إِلَّا رُؤَسَاءُ الْمَايَسْتَرَاتِ يَحْمِلُ مِفَاتِيحَ كَهَذِهِ، وَيَحْتَفِظُ الْآخَرُونَ بِمِفَاتِيحِهِمْ مَعَهُمْ طَوَالَ الْوَقْتِ أَوْ يُخْفُونَهَا فِي مَكَانٍ أَمِنٍ، لَكِنْ لَوْ أَخْفَى وَالْجَرِيفُ مِفْتَاحَهُ لَمَا رَأَاهُ أَحَدٌ ثَانِيَةً أَبَدًا. اخْتَطَفَ پَايْتُ الْمِفْتَاحَ، وَكَانَ قَدْ قَطَعَ نِصْفَ الطَّرِيقِ إِلَى الْبَابِ قَبْلَ أَنْ يَعُودَ أَدْرَاجَهُ وَيَأْخُذَ الْفِصَّةَ أَيْضًا. اللَّصُّ لَصٌّ سِوَاءِ أَسْرَقَ الْقَلِيلَ أَمْ الْكَثِيرَ. سَمِعَ أَحَدُ الْغَدَفَانِ الْبَيْضَاءِ يُنَادِيهِ: «پَايْتِ، پَايْتِ، پَايْتِ!».

سَأَلَ الْخِيْمِيَّائِي: «هَلْ مَعَكَ تَنْيِينِي؟».

- «إِذَا كَانَ مَعَكَ مَا أَطْلُبُهُ».

قَالَ پَايْتُ الَّذِي لَا يَنْوِي أَنْ يَنْخَدِعَ: «أَعْطِنِي إِيَّاهُ، أَرِيدُ أَنْ أَرَاهُ».

- «طَرِيقَ النَّهْرِ لَيْسَ الْمَكَانُ الْمُنَاسِبُ. تَعَالَى».

لَمْ يَجِدْ وَقْتًا لِيُفَكِّرَ، لِيَزِنَ خِيَارَاتِهِ. كَانَ الْخِيْمِيَّائِي يَبْتَغِدُ، وَعَلَى پَايْتِ أَنْ يَتَّبِعَهُ أَوْ يَفْقِدَ رُوزِي وَالتَّيْنَيْنِ فِي آنٍ وَاحِدٍ إِلَى الْأَبَدِ. هَكَذَا تَبَقَّه، وَإِذَا مَشِيَ دَسَّ يَدَهُ فِي كَفِّهِ مَتَحَشِّسًا الْمِفْتَاحَ الْمَوْضُوعَ بِأَمَانٍ فِي الْجَيْبِ الْخَفِيِّ الَّذِي خَاطَهُ هُنَاكَ. ثِيَابُ الْمَايَسْتَرَاتِ مَلِيئَةٌ بِالْجُيُوبِ، وَهُوَ يَعْرِفُ هَذَا مِنْذُ كَانَ صَبِيًّا صَغِيرًا.

اضطرَّ إلى الهروع كي يلحق بخطوات الخيميائي
الواسعة. قطعاً زُقاقاً وداراً حول منعطفٍ وعبرا (سوق
اللصوص) القديمة وسارا بطول (عطفة الزَّبالين)،
وأخيراً دخلَ الرِّجل زُقاقاً آخرَ أكثرَ ضيقاً من الأول،
فقال پايت: «ابتعدنا بما يكفي. لا أحد في الجوار.
سنجري المبادلة هنا».

- «كما ترغب».

- «أريدُ تثنيني».

- «بالثَّاكيد». وظهرت الغملة، وراح الخيميائي يُنقلها
على مفاصل أصابعه مثلما فعلَ حينَ أجزت روزي اللِّقاءَ
بينهما، والتمعَ التثنين في ضوء الصُّباح ملقياً وهجاً
ذهبياً على أصابع الخيميائي.

التقطه پايت من يد الرِّجل ليحسَّ بدفء الذهب على
راحتِه، ثم إنه رفعه إلى فمه وعضَّ عليه كما رأى النَّاسُ
يفعلون، مع أن الحقيقة أنه لا يعرف مذاق الذهب، لكنه
لم يُرد أن يبدو كالحمقى.

تساءلَ الخيميائي بنبرة مهذَّبة: «المفتاح؟».

جعلَ شيء ما پايت يتردَّد ويسأل: «هل تريد كتاباً
ما؟». يُقال إن بعض المخطوطات القاليريَّة القديمة في
الخزائن المغلقة هي آخرُ النُّسخ الموجودة في العالم.
- «ما أريده ليس من شأنك».

- «لا». انتهى الأمر. اذهب، اجرِ إلى (الرَّيشة والدَّورق) وأيقظ روزي بقُبلة وقُل لها إنها لك. هكذا فكَّرَ پايت، وعلى الرغم من هذا لم يتحرَّك وقال: «أرني وجهك».

قال الخيميائي: «كما ترغب»، وأنزل قلنسوته. مجرَّد رجلٍ ووجهه مجرَّد وجه، وجه رجلٍ شاب، تقليدي، لحيته خفيفة للغاية ووجنتاه ممتلئتان، وعلى اليمينى ندبة باهتة، وأنفه معقوف وشعره الأسود الكثيف يتجمَّد بشدَّة حول أذنيه، ليس وجهًا مألوفًا لپايت الذي قال: «لست أعرفك».

- «ولا أنا أعرفك».

- «مَن أنت؟».

- «غريب، لا أحد حقًا».

- «أوه». كان الكلام قد نفذ من پايت، فأخرج المفتاح ووضعه في كَفِّ الغريب شاعرًا بالذَّوار يكاد يكتنف رأسه. قال لنفسه مذكَّرًا: روزي، ثم قال للزَّجل: «انتهينا إذن».

كان قد قطع نصف الرُّقاق حين أحسَّ بحجارة الرِّصف تتحرَّك تحت قدميه، ففكَّر: الحجارة مبتلَّة وزلقة، لكن الأمر لم يكن كذلك. كان قلبه يدقُّ بغنْفٍ في صدره، وقال شاعرًا بقدميه تستحيلان إلى ماء: «ماذا يحدث؟ لست أفهم».

قال صوت بخزن: «ولن تفهم أبدًا».

مسرعةً، ارتفعت حجارة الشارع لثقبه، وحاولَ پايت أن يصيح طالباً التّجدة، إلّا أن صوته تخلّى عنه أيضاً. وآخر ما فكّر فيه كان روزي.

- (1) البّتع هو نبيذ العسل. (المترجم).
- (2) العلقات كائنات طفيليّة تُشبه الديدان وتمتصّ الدّماء، وبدأ استخدامُها قبل ألفي عام بغرض تطهير الجسد من الدّم الفاسد بعملية كانت تُعرّف بتعليق الغلق، بالإضافة إلى الحفاظ على الدّم من التّجلّط في أثناء الجراحة. (المترجم).
- (3) المزر نوع من البيرة يستغرق فترةً أقصر حتى يختمر، ومذاقه غير مُر. (المترجم).
- (4) الحرملة رداء قصير واسع يُحيط بالحنق ومفتوح من الأمام. (المترجم).
- (5) الذّرواس كلب قبيح الشّكل شديد الضّخامة يُستخدم في الضّيد والحراسة. (المترجم).
- (6) حلبة الجرذان منطقة مغلقة توضع فيها الجرذان لثقلها الكلاب، وكان هذا النّشاط يُمارس في أوروبا حتى منعه البرلمان البريطاني في منتصف القرن الثّاسع عشر. (المترجم).

النّبي

كان النّبي يُغرق عددًا من الرّجال في (ويك الكبرى) حين أتوه بنبأ موت الملك.

في هذا الصّباح البارد الكثيب تلوّن البحر مثل السّماء بدرجة قاتمة من الرّمادي، وكان أول ثلاثة رجال قد قدّموا حياتهم للإله الغريق بلا خوف، لكن رابعهم ضعيف الإيمان، وقد بدأ يُقاوم بينما راحت رثتاه تُصرّخان طالبتين الهواء. واقفًا وسط الأمواج المتكسّرة المرتفعة حتى خصره، أطبقّ آرون على كتفي الصّبي العاري وعادّ يدفع رأسه تحت الماء وهو يُحاول انتزاع بضعة أنفاس، وقال له: «تشجّع. من البحر جنّا وإلى البحر نعود. افتح فمك وانهل من بركة الإله، املا رثتيك بالماء كي تموت وثولّد من جديد. لن تُجديك المقاومة نفقًا».

إمّا أن الصّبي لم يسمعه ورأسه تحت الأمواج، إمّا أن إيمانه تخلّى عنه بالكامل، إذ بدأ يركل ويتلوّى بضراوة أرغمت آرون على طلب المساعدة، فأقبل أربعة من رجاله الغرقى خائضين ليقبضوا على المأفون ويثبّتوه تحت الماء، وبصوت عميق كالبحر نفسه صلى الرّاهب قائلاً: «إلهنا الذي غرق من أجلنا، اجعل خادمك إموند يُولّد ثانية من البحر كما وُلِدْتُ. باركه بالملح، باركه بالحجر، باركه بالفولاذ».

أخيرًا انتهى الأمر؛ كَفَّت فقاقيع الهواء عن الخروج من فم الضَّبي، وغادرت القوَّة كلُّها أطرافه، وطفًا إموّند على وجهه في مياه البحر الصُّحلة، جسده شاحب بارد ساكن.

عندئذ انتبه ذو الشَّعر الرُّطب إلى وجود ثلاثة خيالة انضمُّوا إلى رجاله الغرقى على حصى الشَّاطىء. تعرَّف آرون ابن سيار، العجوز ذا الوجه الطَّويل النَّحيف والعينين الدَّامعتين، الذي يُعَدُّ صوته الرَّاَجف قانونًا في هذه المنطقة من (ويك الكُبرى)، وقد اصطحبه ابنه ستيفاريون وشاب آخر يرتدي معطفًا مبطنًا بالفرو الأحمر القاني، يُقَبِّته إلى كتفه مشبك منقَّق عليه رمز عائلة جودبراذر، البوق الحربي بلونيه الذهبى والأسود. أدرك الرَّاهب مَنْ يكون بمجرَّد النُّظر، وقال لنفسه: /أحد أبناء جورولد. ثلاثة أبناء أنجبتهُم زوجة جودبراذر في سنٍّ متأخرة بعد دسِّة من الفتيات، ويُقال إن لا أحد يستطيع التَّمييز بين الإخوة الثلاثة، فلم يتكرَّم آرون ذو الشَّعر الرُّطب بمجرَّد المحاولة. سواء أكان هذا جرايدون أم جورموّند أم جرّان، فليس لدى الرَّاهب وقت له.

زَمَجَرَ بِأَمْرِ مَقْتَضِبٍ، فَقَبِضَ رِجَالَهُ الْغَرَقَى عَلَى
ذِرَاعِي الصَّبِيِّ الْمَيِّتِ وَسَاقِيهِ لِيَحْمِلُوهُ فَوْقَ مَنْسُوبِ
الْمِيَاهِ، وَتَبِعَهُمُ الزَّاهِبُ عَارِيًّا إِلَّا مِنْ خَرَقَةٍ مِنْ جِلْدِ
الْفَقَمَاتِ تُسْثِرُ عَوْرَتَهُ. بِبِشْرَةٍ مَقْشَعْرَةٍ يَقْطُرُ مِنْهَا الْمَاءُ
عَادَ إِلَى الْيَابَسَةِ خَاطِيًّا فَوْقَ الزَّمَالِ الْبَارِدَةِ الْمَبْتَلَّةِ
وَالْحَصَى الَّذِي جَلَاهُ الْبَحْرُ، وَنَاوَلَهُ أَحَدَ رِجَالِهِ الْغَرَقَى
ثَوْبًا مِنْ الْخَيْشِ الْمَبْرَقَشِ بِدَرَجَاتِ الْأَخْضَرِ وَالْأَزْرَقِ
وَالزَّمَادِيِّ، أَلْوَانِ الْبَحْرِ وَالْإِلَهِ الْغَرِيقِ. ارْتَدَى آرون الثُّوبَ
وَحَلَّ خُصَلَاتِ شَعْرِهِ، ذَلِكَ الشَّعْرُ الْأَسْوَدُ الْمَبْتَلُ الَّذِي لَمْ
تَمْسَهُ شَفْرَةٌ مِنْذُ لَفْظِهِ الْبَحْرَ، لِيَنْسَدَلَ عَلَى كَتْفَيْهِ
كَمَعْطِفٍ خَفِيفٍ رَثٍّ وَيَتَجَاوَزُ خَصْرَهُ، وَقَدْ حَبَكَ آرونَ
جَدَائِلُ مِنَ الظُّحَالِبِ الْبَحْرِيَّةِ فِي ثَنَائِيهِ وَفِي لَحِيَّتِهِ
الْمَتَشَابِكَةِ الظَّلِيلَةِ.

كَوَّنَ رِجَالَهُ الْغَرَقَى حَلَقَةً حَوْلَ الصَّبِيِّ الْمَيِّتِ وَشَرَعُوا
فِي الصَّلَاةِ، وَتَوَلَّى نَوْرَجُنَ تَحْرِيكَ ذِرَاعِيهِ بَيْنَمَا رَكَعَ
رُوسُ فَوْقَهُ مَنفَرَجِ السَّاقَيْنِ وَأَخَذَ يَضْغُطُ عَلَى صَدْرِهِ،
لَكِنِ الْجَمِيعُ أَفْسَحُوا الطَّرِيقَ لآرونَ، الَّذِي دَسَّ أَصَابِعَهُ
بَيْنَ شَفْطَيْ الصَّبِيِّ الْبَارِدَتَيْنِ وَفَتَحَهُمَا، ثُمَّ أَعْطَى إِمُونَدَ
قُبْلَةَ الْحَيَاةِ مَرَّةً ثُمَّ أُخْرَى ثُمَّ أُخْرَى، إِلَى أَنْ تَدْفُقَ الْبَحْرُ
مِنْ فَمِهِ، وَبَدَأَ الصَّبِيُّ يَسْغُلُ وَيَبْضُقُ، وَانْفَتَحَتْ عَيْنَاهُ
الْمَلِيئَتَانِ بِالْخَوْفِ.

واحد آخر يعود. يقولون إنها أمانة على مُحاباة الإله الغريق، فكلُّ راهبٍ سواه يفقد رجلًا بين الحين والآخر، حتى تارل الفارق ثلاثًا الذي رآه الناس ذات يوم رجلًا تقيا للغاية، لدرجة أنه اختيرَ لأن يُتَّوَّج ملكًا بنفسه... الكلُّ باستثناء ذي الشَّعر الزُّطْب الذي رأى أبهاء الإله المائيَّة رأي العين وعادَ ليحكي عنها. قال للضبِّي الذي يَبْضُق الماء وهو يُزَيَّب على ظَهره العاري: «انهض. لقد أغرقت وأعدت إلينا. ما ماتَ لا يُمكن أن يموت أبدًا». غمغم الضَّبِّي: «بل يُبعث»، وسعلَ بغُفٍ مُخرجا المزيد من الماء. «يُبعث من جديد». كلُّ كلمة ينقطها معاناة، لكن هذا ديدن العالم، ويجب أن يُكافح المرء ليعيش. كزَّر إموند: «يُبعث من جديد»، ونهَضَ بصعوبة مكملًا: «أقوى وأصلب».

قال له آرون: «إنك تنتمي إلى الإله الآن»، وتجمَّع باقي الرِّجال الغرقى حول الضَّبِّي، لينال من كلِّ منهم لكزَّة وقُبلة على سبيل التَّرحيب به في أخوَّتهم. ساعده أحدهم على ارتداء ثوبٍ من الخيش المصبوغ بالأزرق والأخضر والزَّمادي، وقَدَّم له آخر هراوةً من الخشب المجروف، فيما قال آرون: «إنك تنتمي إلى البحر الآن، ولذا سلَّحك البحر. ندعو إلهنا أن تحمل هراوتك بضراوة ضد كلِّ أعدائه».

لحظتها فقط التفت الرَّاهب إلى الرَّاكبين الثلاثة الذين يُشاهدون من فوق خيولهم، وسألهم: «هل جنتم لشغركوا أيها السَّادة؟».

سَعَلَ ابن سيار، وأجاب: «لقد أغرقْتُ في صباي،
وابني يوم ميلاده».

أطلقَ آرون نَحِيْزًا ساخِزًا. لا شَكَّ لديه في أن
ستيفاريون سيار وُهِبَ إلى الإله الغريق عقب مولده، بل
ويعرف الكيفيَّة أيضًا؛ غمسة سريعة في حوض مليء
بماء البحر الذي بلَّل رأس الرضيع بالكاد. لا عجب في أن
حديديَّي الميلاد قد قُهرُوا، أولئك الذين كانوا فيما
مضى يبسطون سلطانهم على كُلِّ مكانٍ يُسَمَّع فيه
صوت الموج. خاطبَ الزَّاهِبُ الرَّاكِبِينَ قائلاً: «ذلك ليس
إغراقًا حقًّا. مَنْ لا يموت فعلاً لا أمل له في العودة من
الموت. لماذا أتيتم إذن إن لم يكن لإثبات إيمانكم؟».

أشارَ ابن سيار برأسه إلى الشَّاب في المعطف الأحمر
مجيئًا: «ابن اللورد جورولد جاء يسعى إليك حاملاً
أخبارًا».

لا يبدو أن الضَّبي يتجاوز السادسة عشرة من العُمْر،
وقد سأله آرون: «نعم، وأيُّهم أنت؟».

- «جورموند، جورموند جودبراذر، إذا سمح سيدي».

- «الإله الغريق هو من يجب أن تُطْلَب سماحه. هل
أغْرَقْتُ يا جورموند جودبراذر؟».

- «يوم ميلادي يا ذا الشَّعر الرُّطب. لقد أرسلني أبي
لأجْدِكَ وأخْذِكَ إليه، يُريد أن يراك».

رَدَّ آرون: «هأنذا، فليأتِ اللورد جورولد ويَقْطَع نظره»،
وتناول من روس قِربةً جلدِيَّةً مملوءةً للثَّوِّ بماء البحر،
وخلَعَ سِدَادَتَهَا وأخْذَ رشفةً.

قال جورموند الشاب بإصرارٍ من فوق حصانه:
«المفتَرَض أن آخذك إلى القلعة».

يخشى أن يترجّل وإلّا ابتلّ حذاؤه. «إنني مشغول بعمل الإله». آرون جرايچوي نبي، ولا يُطيق أن يُلقي عليه اللوردات الثّافهون الأوامر كأنه قِنٌّ^(Z). من الأَقنان.
قال ابن سيار: «جورولد وصلَ إليه طائر».

أضاف جورموند مؤكّداً: «طائر من المايستر في (پايك)».

أجنحة سوداء، أخبار سوداء. «الغدقان تطير فوق الملح والحجارة. إذا كانت هناك أخبار تعنيني فتكلّم الآن».

أجابّه ابن سيار: «الأخبار التي نحملها لأذنيك وحدك يا ذا الشّعَر الرّطب، ليست أشياء أرغب في الكلام عنها هنا أمام هؤلاء الآخرين».

- «هؤلاء الآخرون رجالي الغرقى، خدم الإله، مثلي تماقًا، ولست أخفي أيّ أسرار عنهم أو عن إلها الذي أقفُ عند بحره المقدّس».

تبادلَ الرّاكبون نظرةً، ثم قال ابن سيار: «أخبره»، فاستجمع الشّاب في المعطف الأحمر شجاعته، وأعلن: «الملك مات». بهذه البساطة قالها، كلمتان صغيرتان لكن البحر نفسه ارتجف حين نطقهما.

في (وستروس) ملوك أربعة، لكن آرون لم يحتج إلى سؤاله من يقصد. بالون جرايچوي لا غيره كان حاكم (جزر الحديد). الملك مات. كيف هذا؟ كان آرون قد رأى أخاه الأكبر قبل أقل من دورة قمر، لقا عاد إلى (جزر الحديد) من الإغارة على (الساحل الحجري). في غياب الزّاهب ابيض نصف شعر بالون الأشيب، ولاحت انحناءة كتفيه أكثر مما كانت عندما أفلقت السفن الطويلة من الوطن، لكن إجمالاً لم تبتد على الملك علامات المرض.

لقد شيد آرون جرايچوي حياته على عمادين راسخين، وتلكما الكلمتان الصغيرتان هدمتا أحدهما. لم يبق لي إلا الإله الغريق، فعسى أن يجعلني قويًا مثابراً كالبحر. «أخبرني كيف مات أخي».

- «كان جلالته يعبر جسراً في (پايك)، وسقط ليتحطم جسده على الضخور».

ينتصب معقل آل جرايچوي على لسان أرضي محطم، حصونه وأبراجه مبنية فوق ثلاث كومات عملاقة من الحجارة المرتفعة من البحر، وتربط الجسور بعض (پايك) ببعض؛ جسور مقنطرة من الحجر المنحوت، وأخرى متأرجحة من الألواح الخشبية وحبال القُب. سألهم آرون: «هل كانت العاصفة تائرة حين سقط؟». أجابه الشاب: «نعم، كانت تائرة».

أعلن الزّاهب: «إله العواصف أطاح به». منذ ألف ألف عام والحرب بين البحر والسماء مضطربة. من البحر جاء حديدو الميلاد والأسماك التي يقتاتون بها حتى في عمق الشتاء، لكن العواصف لا تأتي إلا بالويل والحزن. «أخي بالون جعلنا عظامًا من جديد، وهو ما جلب عليه غضبة إله العواصف. إنه يأكل وليمة الآن في أبهاء الإله الغريق المائية، حيث تُلَبّي عرائس البحر كلّ رغبة له، وعلينا نحن الباقون في هذا الوادي الموحش اليابس أن نتمّ عمله العظيم»، ودشّ آرون الشدادة في قرية الماء مضيّقًا: «سأتكلّم مع السيّد والدك. كم المسافة من هنا إلى (هامرهورن)؟».

- «سته فراسخ. ستركب معي».

- «واحد يركب أسرع من اثنين. أعطني حصانك وسيباركك الإله الغريق».

قال ستيفاريون سيار: «خذ حصاني يا ذا الشعر الرّطب».

- «لا، حصانه أقوى. حصانك يا فتى».

تردّد الشّاب لحظةً خاطفةً قبل أن يترجّل ويُمسك
العنان لأرون، الذي دَسَّ قدمًا سوداء حافيةً في أحد
الرُّكابين، ثم وثب فوق الشّرج. إنه ليس مغرمًا بالخيول،
فهي مخلوقات من الأراضي الخضراء تُساعد على
إضعاف البشر، لكن الحاجة تُجبره على الرُّكوب. /جنحة
سوداء، أخبار سوداء. ثَمّة عاصفة في طور الميلاد،
بإمكانه أن يسمعها في الأمواج، والعواصف لا تجلب إلّا
الشُّرور. قال لرجاله: «قابِلُونِي في (بلدة الحصى) أسفل
بُرج اللورد مرلين»، وأدار رأس حصانه وانطلق.

الطّريق وعر، وقد مضى آرون فيه صاعدًا تلالًا
ومجتازًا غاباتٍ وأخاديد حجريّة محدودةً، ثم قطع دربًا
ضيّقًا أخذ يختفي بين الحين والآخر تحت حوافر
الحصان. (ويك الكُبرى) أوسع (جزر الحديد)، ضخمة
لدرجة أن لعددٍ من لورداتها أملاكًا لا تطلّ على البحر
المقدّس، وجورولد جودبراذر أحد هؤلاء، فقلعته مقامة
في تلال (الحجر الضّلب)، أبعد عن ملكوت الإله الغريق
من أيّ مكانٍ آخر في الجزر كلّها، ويكدح قومه في ظُلمة
مناجمه الحجريّة تحت الأرض، حتى إن بعضهم يعيش
ويموت دون أن يرى المياه المالحة ولو مرّة. لا غرو أن
قوما كهؤلاء فاسدو الطّباع وغرباء الأطوار.

وبينما ركب آرون تحوّلت أفكاره إلى إخوته.

تسعة أبناء وُلِدوا من ضُلب كويلون جرايچوي سيّد
(جُزر الحديد). هارلون وكوينتون ودونل أنجبَتهم زوجة
اللورد كويلون الأولى التي كانت من عائلة ستونتري،
وبالون ويورون وقيكتاريون ويوريجون وآرون جاءوا
من زوجته الثانية التي كانت من آل سندرلي أولاد
(جُرف الملح)، أمّا زوجته الثالثة فكانت فتاةً من
الأراضي الخضراء أعطته ابنًا أحرق سقيمًا اسمه روبن،
الأخ الذي يُستحسن أن يُنسى. لا يذكُر الزّاهب كوينتون
أو دونل اللذين ماتا وأظفارهما لا تزال ناعمةً، وهارلون
يذكُرهُ بشكلٍ ضبابي، جالسًا بثبات ووجه رمادي في
غرفة بُرج بلا نوافذ، يتكلّم بهمسٍ يَخْفَت يومًا بعد يومٍ
والذّاء الأرمد يُحيل شفّتيه ولسانه إلى حجر. ذات يومٍ
سنحتفل بمأدبة من الأسماك معًا في أبهاء الإله الغريق
المائية، نحن الأربعة ومعنا يوري أيضًا.

تسعة أبناء وُلِدوا من ضلب كويلون جرايچوي، لكن أربعة منهم فقط عاشوا وبلغوا سنَّ الرُّجولة. إنه سَمَت هذا العالم اليارد، حيث يصطاد الرُّجال من البحر وَيَحْفَرُونَ في الأرض ويموتون، بينما تلد النساء أطفالًا قصار الأجل في أسرَّة الدَّم والألم. آرون أصغر وأدنى الكرايكن (8). الأربعة، وبالون أكبرهم وأجراهم، صبي قويٍّ مقدام لم يَعِش إِلَّا لإعادة حديدِّي الميلاد إلى مجدهم التَّليد. في سنِّ العاشرة تسلَّق (جُروف الصَّوَّان) إلى بُرج اللورد الأعمى المسكون، وفي الثَّالثة عشرة كان بإمكانه أن يُبحر بسفينة طويلة ويرقص رقصة الأصابع ببراعة أيِّ رجلٍ من الجُزر، وفي الخامسة عشرة أبحرَ مع داجمر ذي الفَكِّ المفلوق إلى (الأعتاب) وأمضى صيفًا في الإغارة، وهناك قَتَلَ رجلًا للمرَّة الأولى واتَّخذ لنفسه أول زوجتين ملحيَّتين، وفي السَّابعة عشرة صارَ بالون زُبَّانًا على سفينته الخاصَّة. كان بالون كلِّ ما ينبغي أخ كبير أن يكونه، مع أن آرون لم يز منه إِلَّا الازدراء. كنت ضعيفًا ومحقلاً بالخطايا، والازدراء أكثر مما استحقَّقت. خيِّز لي أن يزدريني بالون الشُّجاع من أن يُجِبَّني يورون عين الغراب. لكن إذا أفعقت السنون والأحزان بالون بالمرارة، فقد جعلته أيضًا أشدَّ عزمًا من أيِّ رجلٍ على قيد الحياة. لقد وُلِدَ ابنًا للورد وماتَ ملكًا، قَتَلَهُ إله غيور، والآن العاصفة آتية، عاصفة لم تشهد لها هذه الجُزر مثيلًا.

كان الظلام قد حلّ منذ مدّة طويلة عندما لمح
الزّاهب شرفات (هامرهورن) ذات البروزات الحديد
الحاذّة تخدش وجه القمر الهلال. قلعة جورولد ضخمة
متناسقة البناء، حجارتها الكبيرة مقلّعة من الجُرف
اللّائح وراءها، وأسفل أسوارها تنفتح مداخل الكهوف
والمناجم العتيقة متتابة كأفواه سوداء بلا أسنان. وجد
آرون بؤابة (هامرهورن) الحديدية مغلقة وموصدة مع
حلول اللّيل، فدقّ عليها بصخرة إلى أن أيقظ الضّجيج
أحد الحرس.

الشّاب الذي أدخله كان نسخة من جورموند الذي أخذ
حصانه، فسأله آرون: «أيهم أنت؟».

- «جران. أبي ينتظرك في الدّاخل».

دخل الزّاهب القاعة الرّطبة المأوى بالظلال وتيارات
الهواء، حيث قدّمت له إحدى بنات جورولد قرناً من
المز، وحزّكت أخرى جمر نار متواضعة ينبعث منها
دخان أكثر من الحرارة، فيما انشغل جورولد جودبرانر
نفسه بحديث خفيض مع رجل نحيل في رداء رمادي
أنيق، يضع حول عنقه سلسلة حلقاتها من مختلف
المعادن، معلنة أنه مايستر من (القلعة).

سأل جورولد حالما رأى آرون: «أين جورموند؟».

- «عائد على قدميه. اصرف فتاتيك يا سيدي،
والمايستر أيضًا». إنه لا يُكِنُّ أيَّ وُدٍّ للمايسترات،
فغدفانهم من مخلوقات إله العواصف، كما أنه لا يعق
بأساليبهم في العلاج منذ ما حدث ليوري. لا رجل
حقيقيًا يختار حياةً من العبودية أو يسعى إلى تكوين
سلسلة قُرٍّ يضعها حول عنقه.

قال جودبراذر باقتضاب: «جايزلا، جوين، اتزكانا،
وانت أيضًا يا جران. المايستر مورنميور سيبقى».
رَدَّ آرون بإصرار: «سيذهب».

- «هذه قاعتي يا ذا الشعر الرطب، وليس لك أن تُقَرِّرَ
من يبقى ومن يذهب. المايستر سيبقى».

قال آرون لنفسه: الرجل يحيا بعيدًا جدًّا عن البحر،
ثم خاطب جودبراذر معلنًا: «إنني راحل إذن»، وأصدرَ
الحصير الجاف حفيقًا تحت قدميه الحافيتين
السوداوين المشققتين إذ دارَ وبدأ يبتعد، وقد بدا له أنه
ركب كلَّ هذه المسافة بلا طائل.

كان قد بلغ الباب تقريبًا حين تنحنح المايستر، وقال:
«يورون عين الغراب جالس على كرسي حجر اليم».

التفت ذو الشعر الرطب، وقد ازدادت برودة القاعة
فجأة. عين الغراب على الجانب الآخر من العالم. بالون
طرده منذ عامين وأقسم أن يدفع حياته ثمنا إذا عاد.
قال بصوت مبحوح: «أخبرني».

وأخبره جورولد جودبراذر: «لقد رسا في (لوردزپورت) بعد موت الملك بيوم واحد وأخذ القلعة والثاج باعتباره أكبر إخوة بالون، والآن يُرسل غدفاً لاستدعاء الزبائنة والملوك من كل جزيرة إلى (پايك) ليركعوا له ويُبایعوه ملكاً عليهم».

قال آرون ذو الشعر الرطب دون أن يزن كلماته: «لا، لا حقّ إلّا لمؤمن في الجلوس على كرسي حجر اليم. عين الغراب لا يعبد إلّا كبرياءه».

تساءل جودبراذر: «كنت في (پايك) منذ فترة قصيرة ورأيت الملك، فهل ذكر لك شيئاً عن الخلافة؟».

نعم. كانا قد تكلمّا في (برج البحر) بينما تعوي الريح خارج النوافذ وتتكسر الأمواج بلا انقطاع في الأسفل، وهزّ بالون رأسه بقنوط حين أخبره آرون بما جرى لابنه الحي الأخير، وقال: «الذئاب أضعفته كما خشيث. أدعو الإله أنهم قتلوه، كي لا يعترض طريق آشا». في هذا كان بالون أعمى البصيرة، إذ رأى نفسه في ابنته الجامحة العنيدة واعتقد أنها تستطيع أن تخلّفه. كان مخطئاً، وقد حاول آرون أن يُخبره بهذا، فقال بإصرار: «لا امرأة ستحكم حديدَي الميلاد أبداً، حتى لو كانت امرأة كآشا»، إلّا أن بالون اعتاد أن يصمّ أذنيه عن كل ما لا يرغب في سماعه.

قبل أن يجيب الزاهب جورولد جودبراذر، انفتح فم المايستر ثانية ليقول: «شرعاً كرسي حجر اليم من حقّ ثيون، أو آشا إذا مات الأمير. إنه القانون».

رَدَّ آرون باحتقار: «قانون الأراضي الخضراء، ما قيمته عندنا؟ إننا حديدئو الميلاد، أولاد البحر ومختارو الإله الغريق. ليس من حقِّ امرأة أن تُحكِّمنا، أو من حقِّ أيِّ رجلٍ كافر».

سأل جورولد جودبراذر: «وقيكتاريون؟ الأسطول الحديدي تحت قيادته. هل سيُطالب قِيكتاريون بالحكم يا ذا الشَّعر الرُّطب؟».

بدأ المايستر يتكلَّم: «يورون الأكبر...».

غير أن آرون أخرسه بنظرة. في قُرى الضَّيد الصَّغيرة والقلاع الحجريَّة العظيمة على حدِّ سواء، نظرة كهذه من ذي الشَّعر الرُّطب كفيلة بإصابة الفتيات بالدُّوار ودفع الأطفال إلى الهروع صارخين إلى أمَّهاتهم، والآن كانت أكثر من كافية كي يلوذ هذا العبد مغلول العنق بالضَّمَت. قال الزَّاهب: «يورون الأكبر، لكن قِيكتاريون أتقى».

سأله المايستر: «هل ستقوم الحرب بينهما إذن؟».

- «يجب ألاَّ يُريق حديدئو الميلاد دماء حديدئي الميلاد».

قال جودبراذر: «فكرة ورعة يا ذا الشَّعر الرُّطب، لكنها ليست فكرة يُشاركك أخوك إياها. لقد أمرَ ياغراق ساوان بوتلي لقوله إن كُرسي حجر اليم من حقِّ ثيون شرعًا».

- «إذا أغرق فلم تُزق دماء».

تبادل المايستر واللورد نظرة، ثم قال جورولد جودبراذر: «عليّ أن أرسل خبرًا إلى (بايك) قريبًا، وأريد نصيحتك يا ذا الشعر الرطب. ماذا سيكون إذن؟ البيعة أم العصيان؟».

شدّ آرون شعر لحيته مفكّزًا: لقد رأيت العاصفة، واسمها يورون عين الغراب، ثم أجاب اللورد قائلاً: «لا تُرسل إلّا الضمت في الوقت الحالي. يجب أن أصلي قبل أن أجيب».

قال المايستر: «صلّ كما تشاء، لكن ذلك لن يُغيّر القانون. ثيون الوريث الشرعي، وبعده آشا».

هدر آرون: «صمّثًا! لطالما أصغى حديدثو الميلاد إليكم أيها المايسترات مغلولو الأعناق وأنتم تُثّرثرون عن الأراضي الخضراء وقوانينها. حان الوقت لأن تُصغي للبحر مجدّدًا، حان الوقت لأن تُصغي لصوت الإله». تردّد صوته في القاعة المملأ بالدخان رنًا مفعفًا بالقوة لدرجة أن جورولد جودبراذر ومايستره لم يجروءا على الرّد. الإله الغريق معي، وقد أراني السبيل.

عرض عليه جودبراذر أن يقضي الليل مستريحًا في القلعة، لكن الزّاهب رفض، فنادرًا ما ينام تحت سقف قلعة، ولا ينام أبدًا على هذا البعد من البحر. «سأعرف الرّاحة في أبهاء الإله الغريق المائيّة تحت الأمواج. لقد وُلدنا لنعاني ونستمدّ القوة من معاناتنا. لستُ أطلب إلّا حصانًا جديدًا يحملني إلى (بلدة الحصى)».

أسعد جودبرادر أن يُزّوده بالحصان، وأرسل ابنه جرايدون أيضًا ليُري الزّاهب الطّريق الأقصر عبر الثّلال إلى البحر. كانت تفصلهما عن الفجر ساعة كاملة حين تحرّكا، لكن حصانيهما قويّان ثابتا الخطى، وقد قطعاً مسافة لا بأس بها على الرغم من الظّلام. أغلق آرون عينيه ورثد ذعاء صامثاً، وبعد قليل بدأ الوسن ينتابه وهو راكب.

جاءه الصّوت بخفوت، صرخة مفصلة الباب الصّدئة. تمتّم: «يوري»، واستيقظ خائفاً. لا توجد مفصلة هنا، لا باب، لا يوري. فأس مقذوفة بتّرت نصف يد يوري وهو في الزّابعة عشرة من العُمر بينما يرقص رقصة الأصابع في غياب أبيه وإخوته الأكبر في الحرب. كانت زوجة اللورد كويلون الثّالثة من آل پاير أولاد (قلعة العذراء الوردية)، فتاة ذات ثدين كبيرين غصّين وعيّن طبيبة بئيتين، وبدلاً من علاج يد يوري على التّهج القديم بالنّار وماء البحر تركته لمايسترها القادم من الأراضي الخضراء بدوره، فأكد الرّجل أنه يستطيع أن يخيّط الأصابع المبتورة في مكانها، وقد فعل هذا ثم استخدم أدوية وكفادات وأعشاباً، لكن اليد تعفّنت وأصيبت يوري بالحُمى، ولما بتّر المايستر ذراعه كاملةً كان أوان إنقاذه قد فات.

لم يرجع اللورد كويلون من رحلته الأخيرة، إذ أنعم عليه الإله الغريق بالموت في البحر. اللورد بالون هو من رجع ومعه أخواه يورون وقيكتاريون، وحين سمع بالون بما أصاب يوري بتز ثلاثة من أصابع المايستر بساطور طاه وأرسل زوجة أبيه ابنة يايير لتخيطها، لتأتي الأدوية والكقادات بالنتيجة نفسها مع المايستر كما فعلت مع يوريجون، فمات الرجل وهو يهذي، وسرعان ما تبقت زوجة اللورد كويلون الثالثة بينما أخرجت القابلة فتاةً جهيضةً من رحمها. شرّ آرون لهذا، وقد بُتزت أصابع يوري بفأسه هو في أثناء رقصهما رقصة الأصابع معاً كما يفعل الأصدقاء والإخوة.

ما زال يَشْعُر بالخزي كلما تذكّر السنين التي تلت موت يوري. في سن السادسة عشرة وصف نفسه بالزجولة، لكن الحقيقة أنه لم يكن أكثر من جوال نبيذ بساقين، وقد تعود أن يُغْثي ويرْقُص -ولكن ليس رقصة الأصابع التي كَفَّ عنها تمامًا- ويمزح ويثرثر ويسخر من الناس، بالإضافة إلى العزف على المزمار وممارسة ألعاب الحواة وركوب الخيل، والقدرة على الشرب أكثر من آل وينش وآل بوتلي كافة، ونصف آل هارلو أيضًا. الإله الغريق يمنح كل رجل موهبة، حتى هو، فلم يكن هناك من يمكنه أن يبول أطول أو يُوجّه بوله أبعد من آرون جرايجوي، كما أثبت في كل مادة. في مرة راهن بسفينته الطويلة الجديدة مقابل قطيع من الماعز على أنه يستطيع أن يُطفئ نار مستوقد بقضيبه لا أكثر، والتهم آرون لحم الماعز طيلة عام كامل وسقى سفينته (العاصفة الذهبية)، وإن هدده بالون بتعليقه من صاريها حين عرف شكل المذك الذي أراد أخوه أن يُرْكبه على مقدماتها.

في النهاية غرقت (العاصفة الذهبية) عند (الجزيرة القصية) خلال ثورة بالون الأولى، وقد شطرها نصفين قادم (9). حربي هائل اسمه (الثورة)، لقا أوقع ستانيس باراثيون فيكتاريون في فخه وحطم الأسطول الحديدي. على أن الإله لم يفرغ من آرون وحمله إلى الشاطئ، حيث أسره بعض الصيادين وساقوه إلى (لانسپورت) مكبلاً بالأغلال، ففضى بقية الحرب في أعماق (كاسترلي روك) مثبتاً أن الكراكن تستطيع أن تبول أطول وتوجه بولها أبعد من الأسود أو الخنازير البرية أو الدجاج.

ذلك الرجل مات. لقد غرق آرون وبعث من جديد من البحر نبياً للإله، لا يحش خوفاً من أي رجل فان ولا يحشه من الظلام... أو الذكريات، عظام الأرواح. صوت باب يفتح، صرخة مفصلة صدئة. يورون جاء ثانية. لا يهم. إنه الزاهب ذو الشعر الرطب، محبوب الإله. سأله جرايدون جودبراذر وقد بدأت الشمس تضيء الثلال: «هل ستقوم حرب؟ حرب بين أخ وأخيه؟».

- «إذا شاء الإله الغريق. ليس لكافر أن يجلس على كرسي حجر اليم». لكن عين الغراب سيقاتل، هذا مؤكد. لا امرأة تستطيع أن تهزمه، ولا حتى آشا، فالنساء مخلوقات لخوض معاركهن في فراش الولادة. أمّا ثيون -إذا كان حيًا- فلا رجاء منه أيضًا، مجرّد صبي يعبس ويبتسم لا أكثر. لقد برهن في (وينترفل) على قيمته المحدودة أصلًا، لكن عين الغراب ليس صبيًا قعيذاً. أسطح سفينة يورون مطلية بالأحمر كي تخفي الدماء التي تشبعت بها ألواحها. فيكتاريون، يجب أن يكون الملك فيكتاريون وإلا دمّرتنا العاصفة جميعًا.

تركه جرايدون عندما ارتفعت الشمس في السماء، ليحمل خبر موت بالون إلى أبناء عمومته في أبراجهم بـ(الخفرة العميقة) و(قلعة قرن الغراب) و(بحيرة الجثث)، وواصل آرون الطريق وحده صاعدًا تلالًا ونازلًا إلى وديان صغيرة، يقطع دربًا حجريًا أخذ يتسع ويظهر عليه ناس أكثر مع اقترابه من البحر. في كل قرية توقّف ليعظ، وفي ساحات اللوردات الصغار أيضًا، وقد قال للأهالي بصوت عميق كالمحيط راعد كالموج: «من البحر وُلدنا وإلى البحر نعود جميعًا. في غضبته انتزع إله العواصف بالون من قلعته وأطاح به، والآن يأكل وليمة تحت الأمواج في أبياء الإله الغريق المائيّة»، ورفع يديه متابعًا: «مات بالون! مات الملك! لكن ملكًا جديدًا سيحيي! عسى الميت ألا يموت أبدًا، بل يُبعث من جديد أقوى وأصلب! سيأتينا ملك!».

ألقى بعض من سمعوه معازقهم ومعاولهم ليتبعوه،
وهكذا حين سمع الأمواج تتكسر كانت دسته من الرجال
تمشي وراء حصانه، وقد مشهم الإله وانتابتهم الرغبة
في الفرق.

تضم (بلدة الحصى) عدّة آلاف من الصيادين الذين
شيّدوا أكواخهم حول قاعدة منزل مرّيع يرتفع بُرج من
كلّ زكن من أركانه، وهناك وجدّ آرون أربعين من رجاله
الغرقى في انتظاره مخيّمين على شاطئ رماله رماديّة،
في خيام من جلد الفقّعات ومآوٍ من الخشب المجروف.
أيديهم اخشوشتت من الماء المالح، وخلفت فيها الشباك
والصنارات الثدوب، وغلّظتها المجاذيف والمعاول
والفؤوس، لكن الآن تحمل تلك الأيدي هراوات من
الخشب المجروف قويّة كالحديد، إذ سلّحهم الإله من
ترسانته في أعماق البحر.

كانوا قد بنوا للرّاهب مأوى فوق منسوب المياه
مباشرة، وقد زحف داخلًا إياه شاعرًا بالشرور بعد أن
أغرق أتباعه الجدد، ثم صلّى: إلهي، حدّثني بهدير الموج
ودلّني على ما يجب أن أفعله. الزبابة والملوك ينتظرون
كلمتك. من سيكون ملكنا بدلًا من بالون؟ عنّ لي بلغة
اللّويّاتانات⁽¹⁰⁾ كي أعرف اسمه. أخبرني يا إلهي الساكن
تحت الأمواج، من يملك القوّة لمواجهة العاصفة الثائرة
في (يايك)؟

على الرّغم من الإرهاق الذي أصابته به الرّحلة إلى
(هامرهورن)، ظلّ آرون ذو الشّعر الرّطب يتقلّب متململاً
في فراشه داخل المأوى المبنى بالخشب المجروف
وتحت سقفه المصنوع من الطّحالب البحريّة السوداء،
وقد احتشدت الشّحب حاجبةً القمر والنّجوم، وجثم
الظّلام الدّامس على البحر كما يجثم على روحه. بالون
آثر آشا ابنة جسده، لكن ليس لامرأة أن تحكّم حديدّي
الميلاد. لا بُدّ أن يكون الملك فيكتاريون. تسعة أبناء
وُلدوا من ضلب كويلون جرايچوي، وفيكتاريون
أصلبهم، رجل قوي كالثيران، شجاع ومطيع. وفي هذا
يَكْمُن الخطر. الأخ الصّغير مدين بالطّاعة لأخيه الكبير،
وفيكتاريون ليس بالرجل الذي يُبحر ضد تيّار الثّقاليد.
لكنه لا يحبّ يورون منذ مائت المرأة.

من الخارج، بصوت أدنى من غطيط رجاله الغرقى
وعويل الزّيح، تناهت إلى مسامعه دقّات الأمواج،
مطرقة إلهه تستدعيه إلى المعركة. خرج آرون من مأواه
الصّغير إلى برد اللّيل، وعارياً وقفّ، شاحباً هزيلاً طويلاً،
وعارياً خاض في البحر الأسود المالح. كانت المياه
باردة كالجليد، لكنه لم يجفل من تربيّة إلهه، وانكسرت
موجة على صدره جاعلة إياه يترنّح، والثّالية انكسرت
فوق رأسه. تذوّق الملح على شفّتيه وأحش بالإله يحقّه
وبجلال أغنيّته يتردّد في أذنيه. تسعة أبناء وُلدوا من
ضلب كويلون جرايجوي، وكنث أدناهم، ضعيفاً خائفاً
كالفتيات، لكني لم أعد كذلك. ذلك الرّجل غرق ومدّني
الإله بالقوّة. أحاط به البحر المالح البارد واحتضنه، مدّ
يده مخترقاً لحمه البشري الضّعيف ومش عظامه.
العظام، عظام الرّوح، عظام بالون ويوري. الحقيقة في
عظامنا، فاللّحم يفنى والعظام تبقى، وعلى (ثل ناجا)
عظام (يهو الملك الأشيب)...

وهزيلاً وشاحباً ومرتجفاً، عاد آرون ذو الشّعر الرّطب
إلى الشّاطئ رجلاً أكثر حكمةً مما كان عندما خاض في
البحر، إذ عثر على الإجابة في عظامه وصار الطّريق
جليّاً أمامه. كان اللّيل بارداً للغاية لدرجة أن البخار بدا
كأنه ينبعث من جسده وهو يمشي بشموخ عائداً إلى
مأواه، لكن في قلبه اضطربت الثّار، وأتاه الثّوم بسهولة
هذه المرّة، دون أن يوقظه صراخ المفصلات الحديد.

حين استيقظ وجد النهار صافياً قوياً الريح، وأفطر على مرق المحار وطحالب البحر المطبوخ فوق نار حطبها من الخشب المجروف. لم يكد يفرغ من الطعام حتى نزل ابن مرلين من منزله يسعى إليه مع نصف دسته من رجاله، فقال له ذو الشعر الرطب: «الملك مات».

- «نعم وصل إلي طائر، والآن وصل آخر». ابن مرلين رجل أصلع مستدير الجسد وممتلئه، يلقب نفسه بـ«اللورد» على غرار أهل الأراضي الخضراء، ويرتدي القراء والمخمل. «هناك غداف يستدعيني إلى (بايك) والثاني إلى (البروج العشرة). أنتم أيها الكراكن لكم أذرع كثيرة كفيلة بتمزيق المرء إرباً. ما قولك أيها الزاهب؟ أين أرسل شفني الطويلة؟».

(البروج العشرة) مقر سيّد (هارلو)، وهو ما جعل آرون يقطب وجهه ويسأل: «تقول (البروج العشرة)؟ أي كراكن يستدعيك إلى هناك؟».

- «الأميرة آشا. لقد أبحرت إلى الوطن، والقارئ أرسل غدافاً يستدعي جميع أصدقائها إلى (هارلو). يقول إن بالون أراد أن يكون كرسي حجر اليم لها».

قال الزّاهب: «الإله الغريق سيَقْرَر من يجلس على كرسي حجر اليم. اركع كي أباركك»، فرقع اللورد مرلين على زكبتيه، وخلع آرون سداة قريته وضبّ خيظا من ماء البحر على رأس الرّجل الأصلع مبتهلاً: «إلهنا الذي غرق من أجلنا، اجعل خادمك ملديد يولد ثانية من البحر. باركه بالملح، باركه بالحجر، باركه بالفولاذ». سأل الماء على وجنّتي ملديد مرلين اللّحيمتين ليتخلّل لحيته ومعطفه المصنوع من فرو الثّعالب، في حين ختم آرون صلاته: «عسى الميت ألا يموت أبداً، بل يُبعث من جديد أقوى وأصلب»، لكن عندما نهض مرلين قال له: «ابق وأصغ كي تُنشر كلمة الإله».

على بُعد ثلاثة أقدام من حافة الماء تتكسر الأمواج حول جُلمود دائري من الجرانيت، وعليه وقف آرون ذو الشّعر الرّطب ليراه جميع أتباعه ويسمعوه، ثم بدأ يتكلّم كما فعل مئة مرّة من قبل بقوله: «من البحر وُلدنا وإلى البحر نعود جميعاً»، قبل أن يُتابع: «في غضبته انتزع إله العواصف بالون من قلعته وأطاح به، والآن يأكل وليمة تحت الأمواج»، ورفع يديه صائحاً: «مات الملك! لكن ملكاً جديداً سيجيء! عسى الميت ألا يموت أبداً، بل يُبعث من جديد أقوى وأصلب!».

هتف الرّجال الغرقى مجيبين: «سيأتينا ملك!».

قال ذو الشّعر الرّطب: «سيأتي، يجب أن يأتي، لكن من؟»، وأصغى لحظة ولم يسمع رداً إلا من الأمواج، فكّر: «من سيكون ملكنا؟».

بدأ الرّجال الغرقى يضربون بعض هراواتهم ببعض
هاتفين: «ذو الشّعر الرّطب! ذو الشّعر الرّطب ملكا! آرون
ملكا! أعطنا ذا الشّعر الرّطب!».

هزّ آرون رأسه نفيا، وقال: «إذا كان لأب ابنان، أعطى
أحدهما فأسا والثاني شبكة، فأيهما يُريد أن يكون
مُحاربًا؟».

صاح روس مجيبًا: «الفأس للمُحارب والشّبكة لصياد
البحر».

- «نعم. لقد أخذني الإله إلى الأعماق تحت الموج
وأغرق الشّيء الحقيق الذي كنته، ولقا لفظني البحر
وهب لي عينيّن أرى بهما وأذنين أسمع بهما وصوتًا أنشُر
بها كلمته، كي أكون نبيّه الذي يُعلّم حقيقته لقن نسوا.
إنني لم أخلّق للجلوس على كرسي حجر اليم... وكذا
يورون عين الغراب، ذلك أني سمعتُ الإله يقول: ليس
لكافر أن يجلس على كرسي حجر اليم!».

عقد ابن مرلين ذراعيه على صدره متسائلًا: «أهي
آشا إذن؟ أم فيكتاريون؟ أخبرنا أيها الرّاهب!».

قال آرون: «الإله الغريق سيُخبركم، ولكن ليس هنا»، وأشار إلى وجه مرلين الأبيض البدين مواسلاً: «لا تتطلّعوا إليّ أو إلى قوانين البشر، بل إلى البحر. ارفع أشرعتك وأنزل مجاذيفك يا سيّدي وخذ نفسك إلى (ويك القديمة)، أنت وجميع الرّبابنة والملوك. لا تذهبوا إلى (بايك) لتركعوا للكافر، ولا إلى (هارلو) لتُخادِنوا النّساء المتآمرات، بل وجهوا سفنكم إلى (ويك القديمة)، حيث كان (يهو الملك الأشيب). باسم الإله أستدعيكم، أستدعيكم جميعاً! اتزكوا قاعاتكم وبيوتكم، اتزكوا قلاعكم وحصونكم، وارجعوا إلى (ثُل ناجا) لتُقيموا انتخاب الملك!».

حدّق ابن مرلين إليه قائلاً: «انتخاب الملك؟ لم يحدث أن أقيم انتخاب ملك حقيقي منذ...».

قاطعه آرون محزونًا: «... زمن طويل للغاية! لكن في فجر الزمان كان حديدو الميلاد يختارون ملوكهم ويرفعون الأجر بينهم. آن أوان العودة إلى نهجنا القديم، فما من شيء غيره سيرد إلينا عظمتنا. بانتخاب الملك اختير أوراس ذو القدم الحديد ملكًا أعلى ووُضع تاج من الخشب المجروف على رأسه، وسايلاس ذو الأنف الأفطس، وهاراج هور، والكراتن العجوز، جميعهم رفعهم انتخاب الملك، ومن انتخاب الملك هذا سيأتينا رجل يتم العمل الذي بدأه الملك بالون ويسترد لنا حرّيتنا. أقول مجددًا ألا تذهبوا إلى (يايك) أو بروج (هارلو) العشرة، بل اسعوا إلى (تل ناجا) وعظام (بهو الملك الأشيب)، ففي ذلك المكان المقدّس، عندما يفرق القمر ويطلع من جديد، سنختار لأنفسنا ملكًا يستحق، ملكًا مؤمنًا!»، وعاد يرفع يديه التاحلتين مردفًا: «أصغوا! أصغوا إلى الأمواج! أصغوا إلى الإله! إنه يُكلّمنا ويقول لنا: لا ملك إلّا بانتخاب الملك!».

قال قوله هذا فتعالى هدير الحاضرين، ومن جديد دقّ رجاله الفرقى بعض هراواتهم ببعض هاتفين: «انتخاب، انتخاب، انتخاب! لا ملك إلّا بانتخاب الملك!»، وكان لضجيجهم دويٌّ لا بُدَّ أن عين الغرباب سمعه في (يايك) وسمعه إله العواصف في بهوه وسط السحاب، وعلم آرون ذو الشعر الزّطب أنه أحسنّ البلاء.

(7) القنانة وضع اجتماعي واقتصادي ظهر في أوروبا خلال العصور الوسطى، فكان القن يُجبر على خدمة الشادة والعمل في أراضيهم وقلاعهم مقابل المأوى والملبس والحماية، وهو الاختلاف بينه وبين العبد. (المترجم).

(8) الكراكن وحش بحري أسطوري عملاق يظهر على سطح البحر كجزيرة، وله أذرع أخطبوطية طويلة تلتف حول السفن وتغرقها. (المترجم).

(9) القادس نوع من السفن المزودة بمجاذيف، يتميز بيده الطويل الرفيع، والقدرة على الملاحة في الظروف غير المواتية، واستخدم في الحرب والتجارة والقرصنة. (المترجم).

(10) اللويثان وحش بحري أسطوري هائل الحجم، له سبعة رؤوس. (المترجم).

قائد الحرس

بصوت متعّب علّق الأمير حين دحرج القائد كرسيّه المتحرّك إلى الشُرْفَة: «البرتقال الذّموي نضج أكثر مما ينبغي».

وبَعدها مرّت ساعات دون أن يتكلّم مرّة أخرى. ما قاله عن البرتقال صحيح، وكان بعض الثّمار قد سقط لينفطر على الرّخام الوردي الباهت، لثفعم الرّائحة اللّاذعة الخلوة أنف آريو هوتا مع كلّ نفس يلتقطه. لا ريب أن الأمير يشفّها أيضًا وهو جالس تحت الأشجار على الكرسي المتحرّك الذي صنعه له المايستر كاليوت، بوسائده المحشّوة بريش الإوز وعجلتيه الثّقيلتين المصنوعتين من خشب الأبنوس والحديد.

فترة طويلة مرّت لم يُسمّع فيها صوت إلّا للأطفال العائمين في المسابح والنّوافير، وفي مرّة ارتطام برتقالة أخرى بأرض الشُرْفَة وانفطارها، قبل أن تتناهى إلى مسامع قائد الحرس دقّات الحذاء الخافقة على الرّخام آتيةً من جانب القصر البعيد.

أوبارا. يعرف مشيتها الطويلة المتعجّلة الغاضبة، ولا يذّ أن حصانها في الاسطبل الآن، غارق في الرّغوة (11) وينزف من غنف همزها. دائمًا ما تمتطي أوبارا الفحول، وقد سمعها النّاس تقول مزهوّة إنها تستطيع ترويض أيّ حصانٍ في (دورن)... وأيّ رجلٍ كذلك. سمع القائد أيضًا خُطوات سريعة لقدمين أخريّين، وقد جدّ المايستر كاليوت السّير بحُقيّه اللّينين ليلحق بها.

دائمًا تمشي أوبارا ساند مسرعةً، تُطارِد شيئًا لا
تستطيع الإمساك به أبدًا، كما سمع القائد الأمير يقول
لابنته ذات مرّة.

حين ظهرت تحت القنطرة الثلاثيّة، دفعَ آريو هوتا
فأسه الطويلة إلى الجانب ليسدّ الطريق، الفأس ذات
الرأس المثبت على قناة من خشب الذردار الجبلي
طولها ستة أقدام، فلم تستطع أوبارا الدوران من حولها،
وقال لها القائد مدمدًا بصوته الجهير المثقل بلكنات
(نورقوس): «لا تقتربي أكثر يا سيّدتِي، الأمير لا يريد
أن يُزعجه أحد».

قبل أن يتكلّم كان وجهها حرجًا... ثم قسا. قالت له:
«أنت في طريقي يا هوتا». أوبارا ساند أكبر أفاعي
الرّمال سنًا، امرأة كبيرة العظام تُقارب الثلاثينات من
العمر، ورثت عينيها الضيّقتين وشعرها البني كفرو
الجرذان من عاهرة (البلدة القديمة) التي ولدتها. تحت
معطفها المفضل من الحرير الرّملي⁽¹²⁾ المبرقش
بالذهبي والبني المائل إلى الرّمادي ترتدي ثياب ركوب
من الجلد البني اللّين البالي، وتلك الثياب أرقّ ما فيها.
على أحد وركيها تُثبّت سوطًا ملفوفًا، وعلى ظهرها تضع
ثرسًا من الفولاذ والثّحاس، أمّا حريتها فتركتها في
الخارج، وهو ما أشعرَ آريو هوتا بالامتنان، فعلى الرغم
من شرعتها وقوّتها فإنه يعلم أنها ليست نِدًا له... لكنها
لا تعلم، وهو لا يرغب في رؤية دمانها مراقبةً على
الرّخام الوردي الباهت.

نقل المايستر كاليوت ثقله من ساقى إلى ساقى قائلاً:
«ليدي أوبارا، حاولت أن أقول لك...».

- «هل يعرف أن أبى مات؟»، سألت أوبارا القائد دون
أن تُعير المايستر اهتمامًا أكثر من ذبابة، هذا إذا كانت
هناك ذبابة بالحماسة الكافية لأن تطنّ حول رأسها.
أجاب القائد: «نعم، وصل إليه طائر».

جاء الموت (دورن) محمولًا على جناحي غُداف،
مكتوبًا بخط صغير ومختومًا بلطخة من الشمع الأحمر
اليابس. لا بُدَّ أن كاليوت قد خفّن ما تحتويه الرسالة، إذ
أعطى هوتا إياها كي يُسلّمها للأمير، فشكره هذا وإن
قضى وقتًا طويلًا للغاية دون أن يكسر الختم، وجلس
طيلة فترة الأصيل وفي حجره الرّق، يُشاهد الأطفال
يلعبون، وظلّ يُشاهد إلى أن غابت الشمس ودفعه هواء
المساء البارد إلى الدُخول، ثم أخذ يُشاهد انعكاس ضوء
الثُجوم على الماء، ولما طلع القمر أرسل هوتا يُحضّر
شمعة ليقرأ رسالته تحت شجر البُرتقال في ظلام الليل.

مَشَتْ أوبارا سوطها قائلَةً: «الآلاف يقطعون الزّمال
سيزًا على الأقدام ويصعدون إلى (طريق العظام)
ليُساعدوا إلاريا على إعادة أبي إلى الوطن. الشّيتات
مزدحمة عن آخرها بالنّاس، والرّهبان الخمر أشعلوا نار
معبدهم. في بيوت الهوى تُعاشر النّسوة كلّ رجلٍ يأتيهن
ويَرْفُضن الأجر. في (صنسيين)، على (الأذراع
المكسورة)، بطول ضفاف (الذّم الأخضر)، في الجبال
وفي غُمق الزّمال، في كلّ مكان، في كلّ مكان تُمَرِّق
النّساء شَعرهن ويَصْرُخ الرّجال غضبًا، والشّؤال نفسه
يتردّد على كلّ لسان: ماذا ستفعل (دورن)؟ ماذا سيفعل
أخو أميرنا القَتيل انتقامًا له؟»، ودنّت من القائد مضيئةً:
«وتقول إنه لا يرغب في أن يُزعجه أحد!».

كَزَّر أريو هوتا: «لا يرغب في أن يُزعجه أحد».

يعرف قائد الحرس الأمير الذي يَحْرُسُه. ذات يومٍ في
زمنٍ بعيد أتى شابٌّ غر من (نورقوس)، صبيٌّ كبير
الجسد عريض المنكبين له شعر أسود فاحم. ذلك الشّعر
أبيض الآن، وذلك الجسد يحمل ندوب معارك عديدة...
لكن قوّته لم تتخلّ عنه، وفأسه الطويلة يُحافظ على
حدّتها دومًا كما علّمه الرّهبان الملتحون. قال لنفسه: لن
تمرّ، ولها قال: «الأمير يُشاهد الأطفال يلعبون، وليس
مسموحًا بإزعاجه أبدًا بينما يُشاهد الأطفال يلعبون».

قالت أوبارا ساند: «هوتا، سَتُزيح نفسك عن طريقي
وإلا أخذت هذه الفأس...».

أتى الأمر من ورائه مقاطعًا إياها بصوت مبحوح:
«أيها القائد، دَعها تمرّ، سأتكلم معها».

سحب آريو هوتا فأسه الطويلة معيّدًا إياها إلى وضعها العمودي وأخذَ خُطوةً إلى الجانب، ورمقته أوبارا بنظرة طويلة أخيرة ثم مرّت به مسرعةً وفي أعقابها المايستر. لا يتعدّى كاليوت الأقدام الخمسة طولًا، وله رأس أصلع كالبيضة ووجه شديد الثعومة والامتلاء لدرجة أنك لا تستطيع أن تُحقّن سيئه الفعلية، لكنه هنا من قبل القائد، بل وخدم أم الأمير كذلك، وعلى الرغم من سيئه وحجمه فلا يزال رشيق الحركة بما فيه الكفاية وبالغ الذكاء، ولو أنه يتّسم بالخنوع. ليس نِدًا لأيّ من أفاعي الزمال.

في ظلّ أشجار البرتقال جلس الأمير على كرسيّه رافعا ساقيه المصابتين بالثقرس أمامه، وتحت عينيه أكياس ثقيلة... إلّا أن هوتا يجهل إن كان مصدر أرقه الخزن أم الثقرس. في الأسفل ما زال الأطفال يلعبون في التوافير والمسابح، أصغرهم لا يتجاوز الخامسة وأكبرهم لا يتجاوز العاشرة، مزيج من الضبية والفتيات، وباستطاعة هوتا أن يسمعهم يَنثرون المياه ويتصايحون بأصوات عالية حادّة. قال الأمير عندما جثّت المرأة على رُكبتيها أمام الكرسي المتحرّك: «لم يمض وقت طويل منذ كنت واحدةً من هؤلاء الأطفال في المسابح يا أوبارا».

رَدَّتْ سَاخِرَةً: «مَضَى مَا يَقْرُبُ مِنْ عَشْرِينَ عَامًا، كَمَا أَنِّي لَمْ أَبْقِ طَوِيلًا هُنَا. إِنِّي ابْنَةُ الْعَاهِرَةِ، أَمْ أَنْتِ نَسِيتِ؟»، وَلَقَا لَمْ يُجِبْ نَهَضَتْ وَوَضَعَتْ يَدَيْهَا عَلَى وَرَكَيْهَا قَائِلَةً: «لَقَدْ اغْتِيلَ أَبِي».

قَالَ الْأَمِيرُ دُورَانُ: «لَقَدْ قُتِلَ فِي نِزَالٍ فَرْدِي خِلَالِ مُحَاكَمَةٍ بِالْقِتَالِ. طَبَقًا لِلْقَانُونِ لَيْسَ هَذَا اغْتِيَالًا».

- «كَانَ أَخَاكَ!».

- «نَعَمْ».

- «وَمَاذَا تَنْوِي أَنْ تَفْعَلَ بِشَأْنِ مَوْتِهِ؟».

دُورُ الْأَمِيرِ كُرْسِيَّهِ بِصَعُوبَةٍ لِيُوَاجِهَا. عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ لَمْ يَتَجَاوَزِ الثَّانِيَةَ وَالْخَمْسِينَ، فَإِنْ دُورَانُ مَارْتِلٌ يَبْدُو أَكْبَرَ كَثِيرًا، جَسَدُهُ وَاهِنٌ مَشْوَاهٌ تَحْتَ ثِيَابِهِ الْكَثَّانِ، وَقَدَمَاهُ مِنَ الضَّعْفِ النَّظَرُ إِلَيْهِمَا، إِذْ أَلْهَبَ الثَّقَرَسُ مَفَاصِلَهُ وَخَضَّبَهَا بِالْأَحْمَرِ عَلَى نَحْوِ بَشَعٍ، فَصَارَتْ زُكْبَتُهُ الْيُسْرَى كَحَبَّةِ تَفَّاحٍ، وَالْيُمْنَى كَحَبَّةِ شَقَامٍ، وَاسْتَحَالَتْ أَصَابِعُ قَدَمَيْهِ إِلَى حَبَّاتِ عَنَبٍ حُمْرَاءَ قَانِيَةٍ تَبْدُو نَاضِجَةً عَنْ آخِرِهَا كَأَنَّ لَمَسَةً وَاحِدَةً كَفِيلَةً بِفَلْقِهَا. مَجْرَدُ ثِقَلِ غَطَاءٍ خَفِيفٍ يَجْعَلُهُ يَرْتَجِفُ أَلْقَا، مَعَ أَنَّهُ يَتَحَقَّلُهُ بِلَا شَكْوَى. ذَاتَ مَرَّةٍ سَمِعَهُ الْقَائِدُ يَقُولُ لِابْنَتِهِ: الضَّمَّتْ صَدِيقَ الْأَمْرَاءِ. الْكَلَامُ كَالشَّهَامِ يَا أَرِيَانَ، مَا إِنْ يَنْطَلِقُ فَلَا سَبِيلَ لَاسْتِعَادَتِهِ. قَالَ الْأَمِيرُ: «لَقَدْ كَتَبْتُ لِلْوَرْدِ تَايُوِينَ...».

- «كَتَبْتَ؟ لَوْ كُنْتُ نِصْفَ الرَّجُلِ الَّذِي كَانَهُ أَبِي...».

- «أَنَا لَسْتُ أَبَاكَ».

قالت أوبارا بصوت مفعم بالازدراء: «أعرف هذا».

- «ثريديني أن أذهب إلى الحرب».

- «إنني أعقل من هذا. لن تضطرَّ إلى القيام من كرسيك حتى. دعني أنا أنتقم لأبي. إن لديك جيشًا في (ممر الأمير)، واللورد يرونوود لديه جيش آخر على (طريق العظام). سلّمني قيادة أحدهما ونيم قيادة الثاني، دعها تسلك (طريق الملوك) بينما أخرج لوردات (الثخوم) من قلاعهم وأدور لأزحف على (البلدة القديمة)».

- «وكيف تأملين في السيطرة على (البلدة القديمة)؟».

- «يكفيني نهبها. ثروة عائلة هايتاور...».

- «أهو الذهب ما تريدن؟».

- «ما أريده هو الدّم».

- «اللورد تايوين سيسلّمنا رأس الجبل».

- «ومن سيسلّمنا رأس اللورد تايوين؟ لطالما كان الجبل حيوانه المدلّل».

أشار الأمير إلى المسابح قائلاً: «أوبارا، انظري إلى الأطفال إذا سمحت».

- «لا أسمع. سيرضيني أكثر أن أطعن اللورد تايوين بحريتي في بطنه. سأجعله يُعْثِي (أمطار كاستامير) بينما أنتزع أحشاءه وأبحث فيها عن الذهب».

ردّد الأمير: «انظري، هذا أمر».

كان بعض الأطفال الأكبر سنًا متمددين على بطونهم على الرُخام الوردي الأملس لشَحْفَصهم الشَّمس، في حين سيخ بعضهم في البحر أمام القصر، وانشغل ثلاثة منهم ببناء قلعة من الرَّمْل تُحاكي (برج الحربة) في (القصر القديم)، واجتمع عشرون أو أكثر في المسبح الكبير ليُشاهدوا المعارك الدائرة بين الأطفال الأصغر حجمًا الرَّاكبين على أكتاف كبار الحجم، وقد خاضوا حتى الخصر في المياه الضحلة وراح كلُّ منهم يُحاول إسقاط الآخر في الماء، وكلُّما سقط زوجان تبع صوت سقوطهما الضحك المدوي. شاهدنا فتاةً بشرتها بنّية كالجوز تسحب صبيًا فاتح الشعر من على كتفي أخيه لتسقطه مقلوبًا في مياه المسبح.

قال الأمير: «كان أبوك يلعب هذه اللعبة نفسها ذات يوم، مثلما لعبتها قبله. كان أصغر مني بعشرة أعوام، وحين كبر بما يكفي لأن يلعبها كنت قد كففت عن نزول المسابح، لكنني اعتدت أن أشاهده كلما أتيت لزيارة أمنا. كم كان قويًا، حتى في صباه، وسريعًا كتعابين الماء. كثيرًا ما رأيته يُسقط صبيّةً أكبر منه حجمًا بكثير، وقد ذكّرني بهذا يوم غادر إلى (كينجز لاندنج)، وأقسم أنه سيفعلها مرّةً أخرى، وإلا لما سمحت له بالذهاب».

رددت أوبارًا: «سمحت له بالذهاب؟»، وضحكت مردفةً: «كأن كنت تستطيع أن تمنعه. أفعوان (دورن) الأحمر كان يذهب حيثما يشاء».

- «صحيح. ليت لديّ كلام أواسيك به...».

قاططته بصوت مليء بالاستهانة: «لم آت طلباً لمواساتك. يوم جاء أبي يأخذني لم تُردني أمي أن أذهب معه، وقالت له: إنها فتاة، ولا أظن أنها ابنتك. لقد عاشرت ألف رجلٍ غيرك، فألقى حربته عند قدمي ولطم أمي بظهر يده على وجهها، وقال لها وهي تبكي: فتاة أو فتى، كلنا نخوض معاركنا، لكن الآلهة تتركنا نختار أسلحتنا، وأشار إلى الحربة ثم إلى دموع أمي، فالتقطت الحربة، وقال أبي: قلت لك إنها ابنتي، وأخذني استغرقت أمي في الشراب حتى مائت قبل أن ينقضي العام، ويقولون إنها كانت تبكي وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة»، ودئت أوبارا أكثر من الأمير في كرسيه مضيئة: «دعني أستخدم الحربة، لست أطلب أكثر من هذا».

- «إنه طلب كبير يا أوبارا. سأفكر في الأمر وأتخذ القرار بعدما أنا». -

- «لقد نمت طويلاً للغاية بالفعل».

- «ربما تكونين محقة. سأرسل لك خبراً في (سنسبير)».

قالت أوبارا: «ما دام خبر الحرب»، ودارت على عقبينها وغادرت غاضبة كما أثت، عائدة إلى الاسطبل من أجل حصان جديد توطئة لانطلاقة متهورة أخرى على الطريق.

بقي المايستر كاليوت بجسده المستدير وقامته القصيرة، وسأل: «هل تؤلمك ساقاك يا سمو الأمير؟».

ابتسم الأمير بشحوب قائلاً: «هل الشمس ساخنة؟».

- «هل أجلب دواءً للألم؟».

- «لا، أحتاج إلى الاحتفاظ بقدرتي على التفكير».

تردّد الهايستر لحظةً قبل أن يقول: «سموّ الأمير، هل... هل من الحكمة أن تسمح لليدي أوبارا بالعودة إلى (سنسبير)؟ مؤكّد أنها ستلهب مشاعر العامة. لقد أحبّوا أخاك كثيرًا».

قال الأمير: «كلّنا أحببناه كثيرًا»، وضغط بأصابعه على ضدغيه مضيّقًا: «لا، أنت محقّ. يجب أن أعود إلى (سنسبير) أيضًا».

عاد الرّجل المستدير الصّغير يتردّد قبل أن يسأله: «أهذا تصرّف حكيم؟».

- «ليس حكيّفًا لكنه ضروري. الأفضل أن تُرسل خيالًا إلى ريكاسو وتجعله يفتح مسكني في (برج الشمس)، وبلّغ ابنتي آريان أنني سأصل غدًا».

أميرتي الصّغيرة. كم يفتقدها قائد الحرس.

قال الهايستر محدّدًا: «سوف يراك النّاس».

يفهم القائد ما يعنيه. قبل عامين، حين رحلوا من (صنسيير) إلى سكينه (الحدائق المائية) وغزلتها، لم يكن يقرس الأمير دوران بهذا الشوء. في تلك الأيام كان لا يزال يمشي -ولو ببطء- مَثْكًا على غُكَّازٍ وتلتوي قسماته ألقا مع كل خطوة، لكن الأمير لم يُرد أن يعرف أعداؤه كم صارَ ضعيفًا، و(القصر القديم) ومدينته الظليلة مليئان بالأعين. أعين وسلالم لا يستطيع أن يصعدها. عليه أن يطير كي يبلُغ قَمَّة (بُرج الشمس).

قال الأمير: «يجب أن يراني الناس. لا بُدَّ أن يُهدئ أحدهم الموقف، ولا بُدَّ من تذكير (دورن) بأنها ما زالَ لها أمير»، وابتسم بوهن مضيقًا: «حتى إن كان عجوزًا أقعدَه النُّقرس».

قال كاليوت: «إذا غُدت إلى (صنسيير) فعليك أن تلتقي الأميرة مارسلا. سيكون فارسها الأبيض معها... وأنت تعلم أنه يَكُثِب رسائل لملكته». - «أظنُّ هذا».

فكّر القائد عابشا: الفارس الأبيض. كان السير آريس قد جاء (دورن) ليعتني بأميرته، تمامًا كما جاء آريو هوتا مع أميرته هو ذات يوم. حتى الاسمين متشابهان على نحو غريب: آريو وآريس، لكن التشابه بينهما لا يتعدى هذا، إذ ترك القائد (نورقوس) وزهبانها الملتحين، أمّا السير آريس أوكهارت فما زال يخدم العرش الحديدي. يشعر هوتا بنوع معيّن من الحزن متى رأى الرجل في معطفه الناصع الطويل كلّما أرسله الأمير إلى (سنسبير)، ويحش أن يومًا سيأتي ويتقاتل فيه الاثنان، وفي ذلك اليوم سيموت أوكهارت بجمجمة هشمتها فأس القائد الطويلة. مَرَّ يده على قناة الفأس الملساء متسائلًا إن كان ذلك اليوم يدنو.

كان الأمير يقول: «الأصيل في نهايته. سننتظر حتى الصباح. احرص على أن يكون هودجي جاهزًا مع أول خيوط الضوء».

حنى كاليوت رأسه قائلاً: «كما تأمر»، وتنحى القائد جانبًا ليجعله يمرّ، وأصغى إلى خطواته المبتعدة. قال الأمير بصوت خافت: «أيها القائد».

تقدّم هوتا مطوّقًا فأسه الطويلة بيده وشاعرًا بنعومة الدردار كأنه بشرة امرأة على كَفِّه، ولمّا بلغ الكرسي المتحرّك دَقَّ الأرض بكعبها بقوة معلّنا حضوره، لكن الأمير ظلّ مسلّطًا عينيه على الأطفال وحدهم، وسأله: «هل كان لك إخوة في صباك في (نورقوس) أيها القائد؟ أو أخوات؟».

أجاب هوتا: «الاثنان، أخوان وثلاث أخوات. كنت أصغرهم». أصغرهم وغير مرغوب في، فم آخر يحتاج إلى الطعام، صبي كبير يأكل كثيرًا وسرعان ما كبر على ثيابه. لا عجب أن أهله باعوه للزهبان الملتحين.

قال الأمير: «كنت الأكبر، ومع ذلك فأنا الأخير. بعد موت مورس وأوليقار في مهديهما تخلّث عن الأمل في أن يكون لي إخوة. حين وُلِدَت إليا كنت في التاسعة، مُرافقًا أخدم على (ساحل الملح)، وعندما وصل إلينا الغداف حاملاً خبر ولادة أمي مبكراً بشهر كامل، كنت كبيراً بما فيه الكفاية لأن أفهم أن الطفل لن يعيش، وحتى عندما أخبرني اللورد جارجالن بأن أمي أنجبت لي أخاً أكدت له أنها ستموت قريباً، لكنها عاشت برحمة (الأم)، وبعد عام وصل أوبرين يصرخ ويركل. كنت رجلاً بالغاً وهما يلعبان في هذه المسابح، لكن هانذا جالس هنا بينما رحل كلاهما».

لم يدر أريو هوتا يم يرث. إنه مجرّد قائد حرس، ولم يزل غريباً على هذه الأرض وإلهها ذي الوجوه الشبعة، حتى بعد كل تلك الشنين. اخيم، أطع، احم. هذه هي اليمين التي حلقها وهو في السادسة عشرة من العمر، يوم تزوّج فأسه. يمين بسيطة لرجل بسيط كما قال الزهبان الملتحون، لكنه ليس مدرباً على نصيحة الأمراء الحزاني.

كان ما زال يبحث عن كلام يردّ به حين سقطت
بِرتقالة أخرى بصوت ثقيل على بُعد أقلّ من قدم من
حيث يجلس الأمير، وقد جفل دوران للصوت كأنه آله
بوسيلة ما، ثم إنه تنهّد وقال: «كفى، يكفي هذا. اتركني
يا آريو، دعني أشاهد الأطفال بضع ساعات أخرى».

عندما غربت الشمس اكتسب الهواء شيئاً من البرودة
ودخل الأطفال بحثاً عن العشاء، ومع ذلك ظلّ الأمير
جالساً تحت أشجار البُرتقال متطلّعاً إلى المسابح
السّاكنة ومن ورائها البحر. جلب له أحد الخدم وعاءً من
الرّيتون الأرجواني مع الخبز المدوّر والجبنّة ومعجون
الحمّص، فأكل القليل وشرب كأساً من الثّبيذ الخلو
القوي الذي يحبه، ولما فرغت الكأس عاد يملأها. أحياناً
في ساعات الصّباح السّوداء يغلبه النّوم وهو جالس في
مكانه، وعندئذ فقط دحرج القائد كرسيّه في الشّرفة
المضاءة بنور القمر مارّاً بضفّ من الأعمدة الرّفيعة
وتحت قنطرة أنيقة، ودخل به خجراً تطلّ على البحر
فيها فراش عليه ملاءات خفيفة من الكتّان. أنّ دوران
عندما حرّكه القائد، لكن الآلهة كانت رحيمة ولم
يستيقظ.

تجاوز خجيرة نوم القائد خجرة الأمير، وهناك جلس
على السّرير الضيق والتقط المشحذ والقماش المزيّت
من كوّتهما وبدأ يعمل. يوم وسموه قال له الرّهبان
الملتحمون أن يحافظ على حذّة فأسه، وهذا ما التزمه
دائماً.

وبينما سَنَ هوتا الفأس اتَّجَهِت أفكاره إلى
(نورقوس)، إلى المدينة العالية على التَّل والمدينة
الواطئة على النَّهر. ما زال بإمكانه أن يسمع أصوات
الأجراس الثلاثة؛ جلجلة (نووم) العميقة التي كانت
تبعث الرَّجفة في عظامه ذاتها، ودَقَّات (نارا) القويَّة
الفخور، وضحكات (نايل) الفُضِّيَّة العذبة. من جديد ملأ
فمه مذاق الكعك الشَّتوي الغني بالزُّنجبيل وجوز
الضُّنوبر وقِطع الكرز، والذي يتلوه شراب النّاشا، وهو
حليب ماعز مخفَّر منكّه بالعسل يُقدَّم في كوب من
الحديد. رأى أمّه في فُستانها ذي الياقة المصنوعة من
فرو السُّناجب، الذي اعتادت أن ترتديه مرَّة واحدة فقط
في العام، عند ذهابهم لمشاهدة الدُّببة تُرقص على
(سلام الخطاة)، وشَم رائحة الشُّعر المحترق المنفُرة إذ
مَسَّ الرّاهب الملتحي منتصف صدره بالوسم. كان الألم
شنيقا لدرجة أنه حسب أن قلبه سيتوقَّف، لكن آريو
هوتا لم يجفل، ولم ينم الشُّعر ثانية فوق وسم الفأس.

فقط حين أصبحت حافتا الفأس حادتين لدرجة أنك
تستطيع أن تحلق لحيتك بهما، وضع القائد زوجته
المصنوعة من الذردار والحديد على السرير، ثم خلع
ملابسه المتسخة وهو يتنأب وألقاها على الأرض،
وتمدد على الحشية المبطنة بالقش. تفكيره في الوسم
جعله يستحكه، فحكه قبل أن يسدل جفنيه مفكراً: كان
حرّاً بي أن أجمع البرتقالات التي سقطت، وغاب في
النوم حالماً بمذاقها الخلو اللاذع، وبلمس الفصارة
الحمراء اللّزجة على أصابعه.

تعجل الفجر في طلوعه، وخارج الاسطبلات وقف
أصغر الهودج التي تجرّها ثلاثة أحصنة جاهزاً للأمير،
الهودج المصنوع من خشب الأرز بستائره الحريري
الحمراء. انتقى القائد لاصطحابه عشرين من حلة
الجراب من الثلاثين المكلفين بحراسة (الحدائق
المائية)، وسيبقى الآخرون لحماية المكان والأطفال
الذين يضمّون عدداً من أولاد اللوردات الكبار والشّجار
الأثرياء.

على الرغم من أن الأمير ذكر الرّحيل مع أول خيوط
الضوء، كان آريو هوتا يعلم أنه سيتلّكًا، وبينما ساعد
المايستر دوران مارتل على الاستحمام ثم ضمّد مفاصله
المتعبة بالكّثان المغموس في المستحضرات العطّفة،
ارتدى القائد قميصًا من الأقراص الثّحاسيّة يُلائم رُتبته،
وفوقه معطفا فضفاضا من الحرير الرّملي المصبوغ
بالذهبي والبني المائل إلى الرّمادي، ليحجب الشّمس عن
الثّحاس. يُنذّر هذا الثّهار بأنه سيكون حارًا، وقد مضى
زمن طويل منذ تخلّص القائد من معطفه الثّقيل
المصنوع من شعر الخيل وشترته الجلد المطّعمة
بالحديد، اللتين اعتاد ارتداهما في (نورقوس)،
فارتداؤهما هنا في (دورن) كفيل بأن يسلقه، على أنه
احتفظ بخوذته الحديد القصيرة بريشتها ذات البروزات
الحادة، وإن كان يعتمرها الآن ملفوفة بالحرير البُرْتقالي،
حابكًا إياه في البروزات وحولها، فلولاً هذا سثّصيه
أشعة الشّمس التي تضرب المعدن بالضّداع قبل أن
يُبصروا القصر.

وما زال الأمير لم يستعدّ للرحيل. قرّر أن يفطر قبل أن يتحرّك، وأكل برتقالة دموية وطبقًا من بيض الثوارس بقطع اللحم المقدّد والفلفل الحريّف، وبعدها لم يكن هناك مقرّ من أن يؤدّع عددًا كبيرًا من الأطفال الذين صارت لهم أفضليّة خاصّة عنده؛ ابن دالت، وولدي الليدي بلاكمونت، والفتاة اليتيمة التي كان أبوها يبيع الأقمشة والثوابل على ضفاف (الذم الأخضر). غطى دوران ساقيه بدثارٍ فاخر من (مير) وهو يكلمهم، ليقى الصغار منظر مفاصله الملتهبة المضّمة.

كان النهار قد انتصف عندما تحرّكوا، الأمير في هودجه، والمايستر كاليوت على ظهر حمار، والبقية على الأقدام. أمامهم سار خمسة من حفلة الجراب ووراءهم خمسة، وخمسة آخرون على كلّ من جانبي الهودج، أمّا أريو هوتا نفسه فأتخذ موقعه المعتاد على يسار الأمير، مريحًا فأسه الطويلة على كتفه وهو يمشي. يمضي الطريق من (صنسيير) إلى (الحدائق المائية) على ساحل البحر، فصاحبهم التّسيم البارد المنعش إذ قطعوا اليابسة القاحلة بحجارتها ورمالها البنيّة الصّارية إلى الحُمرة وأشجارها الملتوية ناقصة الثّمو.

وفي منتصف الطريق لحقت بهم أفعى الرّمال الثّانية.

فجأة ظهرت فوق كتيب راكبة جواد صحراء ذهبيا له
غرف كالحرير الأبيض الناعم. حتى على متن الحصان
تبدو الليدي نيم بهيئة الطلعة، وقد تألقت في ثوبها
الأرجواني الفاتح وحرملتها الحريري الكبيرة بلونها
القشدي والثحاسي، التي ترفرف مع كل هبة ريح
وتجعلها تبدو كأنها على وشك التحليق. نايميريا سائد
في الخامسة والعشرين من العمر، هيفاء كصفصافة،
ويكّل رأسها شعر أسود مسترسل عقدته في جديلة
مربوطة بسلك من الذهب الأحمر، وتنسحب مقدّمة
المدّبة إلى وراء فوق عينيها الداكنتين كعيني أبيها.
بعظم وجنتيها المرتفع وشفتيها الممتلئتين وبشرتها
الشاحبة كالحليب تتحلّى بكلّ الجمال الذي تفتقر إليه
أختها الأكبر... لكن أم أوبارا كانت عاهرة من (البلدة
القديمة)، أمّا نيم فتنحدر من أنبل دماء (قولانتيس
القديمة). كانت تتبعها دسته من حاملي الجراب
الراكبين الذين تلتهم تروسهم المستديرة في الشمس،
وقد نزلوا الكتيب وراءها.

كان الأمير قد أزاح ستائر هودجه ليستمتع أكثر
بنسيم البحر، وأبطأت الليدي نيم حركة قُرسها الذهبية
الجميلة لثجاري حركة الهودج، وصاحت كأن وجودها
هنا مصادفة محضة: «ما أحسن لُقياك يا عقّاه! أتسمح
بأن أركب معك إلى (صنسيين)؟». كان القائد راكبا على
الجانب الآخر من الهودج، لكن كلام الليدي نيم كلّه بلغ
مسامعه.

أجاب الأمير: «يسرني هذا»، ولو أن نبرته بدت للقائد خالية من الشرور، وأضاف: «الثقرس والخزن رفيقان بئسان على الطريق»، وهو ما يعلم القائد أنه يعني أن كل حصاة على الأرض تغرس مسمارًا في مفاصله المتورمة.

قالت: «الثقرس لا أستطيع أن أعينك عليه، أما الخزن فلم يكن أبي يراه ذا جدوى. الانتقام كان يناسب ذوقه أكثر. أضحى أن جريجور كليجاين اعترف بقتل إليا وطفليها؟».

- «لقد أعلن ذنبه على مسمع من البلاط كله. اللورد تايوين وعدنا برأسه».

قالت الليدي نيم: «واللانستر يُسدّد ديونه دائقا، لكن يبدو لي أن اللورد تايوين ينوي أن يدفع لنا بعملتنا. وصل إلي طائر من السير ديمون العزيز، الذي يُقسم أن أبي دغدغ ذلك الوحش بحريته أكثر من مرة خلال نزالهما، وإذا كان ذلك صحيحًا فالسير جريجور في عداد الموتى، وليس بفضل اللورد تايوين».

تقلّصت ملامح الأمير، ولكن سواء أمن ألم الثقرس أم كلام ابنة أخيه فالقائد لا يدري.

- «ربما يكون صحيحًا».

- «ربما؟ أقول إنه كذلك».

- «أوبارا تريدني أن أحارب».

ضحكت نيم قائلة: «نعم، تريد أن تُضرم النار في
(البلدة القديمة). إنها تكره تلك المدينة قدر ما تحبها
أختنا الصغيرة». - «وأنت؟».

ألقت نيم نظرة من فوق كتفها إلى حيث يركب
رفاقها على مسافة لا بأس بها وراءها، وسمعها القائد
تقول: «كنت في الفراش مع الثوأمين فاوُلر حين بلغني
الخبر. هل تعرف كلمات آل فاوُلر؟ دعوني أحلّق! هذا
كُل ما أطلبه منك يا عمّاه، دعني أحلّق. لست أحتاج إلى
جيش جزّار، بل إلى واحدة من أخواتي الجميلات
فحسب». - «أوبارا؟».

- «تايين. أوبارا صاحبة أكثر من اللازم، لكن تايين
أكثر رقةً وعذوبةً من أن يرتاب فيها أحد. أوبارا تريد أن
تجعل من (البلدة القديمة) محرقة جنازة أبينا، لكني
لست طمّاعةً لهذا الحد، وتكفيني أربع أنفيس لا أكثر؛
توأما اللورد تايوين الذهبّيّان عوضًا عن طفلي إلبا،
والأسد العجوز عوضًا عن إلبا نفسها، وأخيرًا الملك
الصغير مقابل أبي».

- «الصّبي لم يُخطئ في حقّنا قَطُّ».

- «الضبي نغل وليد الخيانة وزنى المحارم، إذا صدق ما يقوله اللورد ستانيس». اختفت الثبرة العابثة من صوتها، ووجد القائد نفسه يُراقبها مضيقًا عينيه. أختها أوبارا تضع سوطها على وركها وتحمل حريتها على مرأى من الجميع، ومع أن الليدي نيم لا تقل عنها خطورة فإنها ثواري سكاكينها جيّدًا. «لن يغسل اغتيال أبي إلا الذماء الملكية».

- «أوبرين مات في نزال فردي وهو يُقاتل في مسألة لا علاقة له بها. لا أعد هذا اغتيالًا».

- «فلتعدّه كما تشاء. لقد أرسلنا إليهم خيرة رجال (دورن)، ويرسلون إلينا كيشًا من الرُفات».

- «لقد تجاوز كل ما طلبته منه. قيم هذا الملك الضبي ومجلسه وسجل نقاط ضعفهم وقوّتهم. هذا ما قلته له ونحن في الشرفة، وكنا نأكل البرتقال. جد لنا أصدقاء إذا استطعت، واعرف ما تستطيع عن نهاية إليا، لكن احرص على عدم استفزاز اللورد تايوين بلا داع. كان هذا كلامي له، لكن أوبرين ضحك وقال: متى استفزرت أحدًا... بلا داع؟ الأفضل أن تُحذّر آل لانستر من استفزازي أنا. لقد أراد العدالة لإليا، لكنه رفض أن ينتظر...».

قاطعته الليدي نيم: «أبي انتظر سبعة عشر عامًا. لو قتلوك أنت لقاد جيوشه شمالًا قبل أن تبرد جثتك، لو قتلوك أنت لكانت الجراب تنهمر كالمطر على (الشخوم) الآن».

- «ليس لديّ شكّ في هذا».

قالت: «ولا يجذر بك أن تشكّ في هذا أيضًا يا سموّ الأمير... أنا وأخواتي لن ننتظر سبعة عشر عامًا لننال انتقامنا»، وهمّزت فُرسها وانطلقت تركّض إلى (صنسيير)، تتبّعها حاشيتها بكلّ شرعتها.

أسند الأمير ظهره إلى وسائده وأغمض عينيه، وإن أدرك هوتا أنه لم يئم. إنه يتألّم. فكّر لحظةً أن يُنادي المايستر كاليوت إلى الهودج، لكن لو أرادَه الأمير دوران لناداه بنفسه.

كانت ظلال الأصيل طويلةً داكنةً والشمس حمراء ملتهبّة كمفاصل الأمير قبل أن يلمحوا أبراج (صنسيير) إلى الشرق؛ أولًا (برج الحربة) الرّفع الذي يرتفع مئة وخمسين قدمًا وتُؤجّه حربة من الفولاذ المذهب تُضيف ثلاثين قدمًا أخرى إلى طوله، ثم (برج الشمس) المهيب بقبّته الذهبية وزُجاجه المطلي بالزّصاص، وأخيرًا (سفينة الشمس) بلونه البني الضارب إلى الزّمادي الذي يبدو كذرمونة⁽¹³⁾. هائلة جرقها الثّيار إلى الشّاطن وتحوّلت إلى حجر.

ثلاثة فراسخ فقط من الطريق الشّاحلي تفصل
(صنسيير) عن (الحدائق المائيّة)، إلّا أنّهما عالمان
مختلفان تمامًا. هناك يمرح الأطفال غرّة في الشّمس
وتُعزّف الموسيقى في ساحات من الرّخام ويحمل الهواء
رائحة الليمون والبرتقال الذّموي اللّاذعة، وهنا تُفعم
الهواء روائح الغبار والعرق والذّخان ولا يعرف اللّيل
سكونًا من أصوات المثرثرين، وبدلًا من الرّخام الوردي
الذي بُنيّت به (الحدائق المائيّة)، فإنّ بنايات (صنسيير)
من الطّمي والقش وتتأرجح ألوانها بين درجات البني
والزّمادي. يرتفع معقل عائلة مارتل العتيق في أقصى
شرق لسان أرضي من الحجر والزّمال، محاطًا بالبحر من
ثلاث نواحٍ، وإلى الغرب، في ظلّ أسوار (صنسيير)
العملاقة، تتشبّث المحال المبنية بالظّوب اللّبن والأكواخ
الخالية من الثّوافذ بالقلعة كما تتشبّث الكلابات بأبدان
الشفن، وغرب الأكواخ والمحال تنتشر الاسطبلات
والخانات والحقارات وبيوت الهوى، كثير منها مطوّق
بأسواره الخاصّة، وعلى الرغم من هذا يرتفع المزيد من
الأكواخ عند تلك الأسوار. وهكذا وهكذا وهكذا، كما
يقول الرّهبان الملتحون. مقارنةً بـ(تايروش) أو (مير) أو
(نورقوس الكبرى)، لا تعدّ مدينة الظّل أكثر من بلدة
عاديّة، لكنها أقرب ما لدى الدورنيّين إلى مدينة
حقيقيّة.

سبق وصول الليدي نيم وصولهم بعدة ساعات، ولا بُدَّ أنها نَبَّهت الخُزَّاس إلى مجيئهم، لأنهم وجدوا (البوابة الثلاثية) مفتوحة عندما بلغوها. في هذه البقعة فقط تصطفُ البوابات بعضها وراء بعض لتتيح للزائرين أن يمرُّوا أسفل الأسوار الملتفة إلى (القصر القديم) مباشرة، دون أن يضطُّروا إلى قطع أميالٍ من الأزقة الضيقة والأفنية الخفية والأسواق المزدحمة.

كان الأمير دوران قد أسدل ستائره ما إن أبصروا (برج الحربة)، ومع ذلك راح العوام يصيحون منادين إياه في أثناء مروره، ففكر القائد بتوثر: أفاعي الزمال أثاروهم حدَّ الغليان. تجاوزوا الشور الهلالي الخارجي بقذارته ودخلوا من البوابة الثانية، حيث أفعمت الريح روائح القطران والمياه المالحة والطحالب البحريَّة المتعفُّنة، وازدادت أعداد الجموع مع كلِّ خطوة. صاح فيهم آريو هوتا بصوته الجهوري وهو يدقُّ القرميد بكعب فأسه الطويلة: «أفسيحوا الطريق للأمير دوران! أفسيحوا الطريق للأمير (دورن)!».

صرخت امرأة من ورائه: «الأمير مات!».

وهذر رجل من شرفة: «إلى الجراب!».

وهتف أحد عليه القوم: «دوران! إلى الجراب!».

تخلّى هوتا عن محاولة تعرّف المتكلّمين، فالزّحام شديد وثلثهم يهتف. «إلى الجراب! الثّار للأفعوان!». لدى وصولهم إلى البوّابة الثّالثة كان الخزّاس يدفعون الثّاس جانبًا لإفساح الطّريق لهودج الأمير، وبدأ الثّاس يلقون أشياء. اندفع صبي رث الثّياب متجاوزًا حاملي الجراب وفي يده ثمرة زّمان شبه متعفّنة، لكن حين رأى آريو هوتا في طريقه وفأسه الطّويلة جاهزة ترك الثّمرة تسقط دون أن يلقوها وتراجع مسرعًا، في حين ألقى آخرون غيره على مسافة أبعد البرتقال والليمون أصفره وأخضره هاتفين: «الحرب! الحرب! إلى الجراب!». فأصيب أحد الخزّاس في عينه بليمونة وانفجرت برتقالة على قدم القائد نفسه.

لم تأت إجابة من داخل الهودج، وظلّ دوران مارتل مستترًا وراء جدرانهِ الحرير إلى أن ابتلعتهم أسوار القلعة السّميكة جميعًا وأنزلت الشّبكة الحديد من ورائهم بصلصلة صاخبة، وبدأت أصوات الضّياح تخفّت بنّطء. كانت الأميرة آريان منتظرة في السّاحة الخارجيّة لثخّي أباهما وحولها نصف البلاط؛ القهرمان ريكاسو، والسير مانفري مارتل أمين القلعة، والمايستر مايلز الشّاب بردائه الزّمادي ولحيته الثّاعمة المعطرة، وأربعون من الفرسان الدورنيّين بثيابهم الكّثان عديدة الألوان، بينما وقفت مارسلا باراثيون الصّغيرة مع سيّتها والسير آريس فارس الحرس الملكي الذي يتصبّب غرقًا في درعه المطلّية بالمينا الأبيض.

تقدّمت الأميرة آريان من الهودج في خُفّين من جلد
الثّعابين مربوطتين حتى فخذيهما، شعرها خليقات من
السّواد الفاحم منسدلة حتى أسفل ظهرها، وحول
جبهتها حلقة من الشّמוש الثّحاس. قال القائد لنفسه:
ما زالت ضئيلة الحجم. أفاعي الزّمال طويلات القامة،
بينما ورثت آريان قامة أمّها التي لم تتجاوز أقدامها
خمسة وبوصتين، لكن تحت نطاقها المحلّى بالجواهر
وطبقات الحرير الأرجواني والسّميت(14). الأصفر
الفضفاضة لها جسد امرأة غَض مستدير المنحنيات.
أعلّنت والشتائر ثفّتح: «أبي، (صنسير) مبتهجة
لعودتك».

قال الأمير: «نعم، سمعتُ البهجة»، وابتسم بشحوب
ووضع يدا حمراء منتفخة على وجنة ابنته مضيّفاً:
«تبدّين بخير. أيها القائد، ساعدني على النّزول من
فضلك».

دسّ هوتا فأسه الطّويلة في حزامها على ظهره
والتقط الأمير بذراعيه برفق لئلا يُزعج مفاصله الملتهبة،
وعلى الرغم من هذا حبس دوران مارتل شهقة ألم.
قالت آريان: «لقد أمرتُ الطّهاة بتجهيز وليمة بكلّ
أصنافك المفضّلة لهذا المساء».

ردّ الأمير: «أخشى أن لا شهية عندي»، وتطلّع بتؤدّة
في أنحاء السّاحة، وأردف: «لا أرى تايين».
- «لقد طلبت الكلام معك على انفراد، وأرسلتها
تنتظرك في قاعة العرش».

تنهّد الأمير، وقال: «ليكن. أيها القائد، فلنفرغ من هذا الأمر بشريعة لأستريح».

حمله هوتا صاعدًا سلاالم (برج الشمس) الحجرية الطويلة إلى القاعة الدائرية الكبيرة تحت القبة، حيث تتسرب خيوط ضوء الأصيل الأخيرة من زجاج النوافذ الشميكة ذي الألوان المتعددة لثرقط الرّخام بماسات من مئة لون، وهناك كانت أفعى الرمال الثالثة تنتظرهم.

وجدوها جالسة متقاطعة الساقين على وسادة أسفل المنصة المرتفعة التي يعتليها المقعدان العاليان، لكنها نهضت لدى دخولهم، وقد ارتدت فستانًا ضيقًا من السميت الأزرق الباهت بكّمين من شرائط الزينة المايرية التي جعلتها تبدو ببراءة (العذراء) نفسها، وفي إحدى يديها قطعة تطريز تعمل عليها، وفي الثانية زوجان من الإبر الذهب. شعرها ذهبي أيضًا، وعيناها لجّتان زرقاوان عميقتان... ومع ذلك فإنهما بشكل ما تذكّران القائد بعيني أبيها، رغم أن عيني أوبرين كانتا سوداوين كالليل. قال أريو هوتا لنفسه وقد فطن إلى الحقيقة فجأة: كل بنات الأمير أوبرين لهن عيناها الأفعوانيتان، بغض النظر عن اللون.

قالت تايين ساند: «عفي، كنث أنتظرك».

- «أيها القائد، ساعدني على الجلوس على المقعد

العالي».

على المنصة مقعدان أقرب إلى توأمين، مع فرق أن أحدهما على ظهره حربة آل مارتل المزخرفة بالذهب، والثاني يحمل شمس الروينار الوهاجة التي رفرقت على صواري سفن تايميريا حين رست على سواحل (دورن). أجلس القائد الأمير أسفل الحربة وابتعد.

- «هل الألم بالغ؟»، سألت الليدي تايين بنبرة رقيقة وقد بدت عذبة كالقراولة في الصيف. كانت أمها سيئة، ولتايين طابع من الرقة كأنه من عالم آخر. «أهناك ما يمكنني أن أفعله لأخفف الألم؟».

- «قولي ما لديك واتركيني أستريح، إنني مرهق يا تايين».

قالت: «صنعت هذه من أجلك يا عمّاه»، وبسّطت القطعة التي تُطرزها، التي تُظهر الأمير أوبرين مبتسماً على صهوة جواد صحراوي في درع حمراء. «إنها لك حين أفرغ منها، لئساعدك على تذكره».

- «ليس وادًا أن أنسى أبائي».

- «جيد أن تقول هذا، فكيثرون يتساءلون».

- «اللورد تايوين وعدنا برأس الجبل».

- «يا للطفه... لكن سيف الجلاد ليس نهاية تليق بالسير جريجور الشجاع. لقد صلينا من أجل موته طويلاً جدًا، وعين العدل أن يُصلي من أجله أيضًا. إنني أعرف الشم الذي استخدمه أبي، وليس هناك شم في الدنيا أبطأ مفعولاً أو أكثر إيلاقاً. قد نسمع ضراخ الجبل قريباً، حتى هنا في (صنسپين)».

زَفَرُ الأمير دوران قائلاً: «أوبارا تزعق في مطالبة بالحرب، ونيم قاعة بالاغتيال، فماذا عنك؟».

قالت تايين: «الحرب، لكن ليس حرب أختي. أحسن قتال الدورنيين على أرضهم، لذا أقول أن نشحذ جرابنا وننتظر، ولما يأتينا آل لانستر وتايرل سندمهم في الممّرات وندفنهم في الزمال كما فعلنا مئة مرة من قبل».

- «هذا إذا أتوا».

- «أوه، من المحثّم أن يأتوا، وإلا عادت البلاد تتمزّق كما كانت قبل أن نتزوّج الثّنانين. أبي من أخبرني بهذا، قال إن علينا أن نَشْكُر العفريت لأنه أرسل إلينا الأميرة مارسلا. إنها جميلة جدّاً، أليس كذلك؟ ليت لي خُصلات كخُصلاتها. لقد خُلِقَتْ لتكون ملكة، تماقاً مثل أمّها»، وأزهزت الغمّازتان في وجنّتي تايين وهي ثواصل: «سيشرفني أن أرثب الرّفاف وأشرف على صنع الثّاجين كذلك. تريستان ومارسلا شديدا البراءة، لذا فكّرْتُ أن يكون الثّاجان من الذهب الأبيض... مع الزّمرد ليتماشى مع عيني مارسلا. أوه، لا بأس بالماس واللؤلؤ أيضاً ما دام الطفلان سيتزوّجان ويثوّجان، وما علينا عندئذٍ إلا أن نُعلن مارسلا الأولى ملكة على الأنداليين والروينار والبشر الأوائل، باعتبارها الوريثة الشرعيّة لممالك (وستروس) السّبع، وننتظر مجيء الأسود».

ردّد الأمير ساخرًا: «الوريثة الشرعيّة؟».

شرحت تايين كأنه أحقق: «إنها أكبر من أخيها،
والمفترض بالقانون أن ينتقل العرش الحديدي إليها».
- «القانون الدورني».

- «عندما تزوج الملك دايرون الكريم الأميرة ميريا
وضمنا إلى المملكة كان هناك اتفاق يقضي أن يُطبّق
القانون الدورني في (دورن) دومًا، وللضدفة مارسلا في
(دورن) الآن».

قال بنبرة متذمّرة: «هي كذلك. دعيني أفكّر في
الأمر».

ردّت تايين بصرامة: «إنك تُفكّر كثيرًا جدًّا يا عقاه».
- «حقًا؟».

- «هذا ما كان أبي يقوله».

- «أوبرين كان يُفكّر إمامًا».

- «بعض الناس يُفكّر لأنه يخاف أن يفعل شيئًا».

- «هناك فرق بين الخوف والحذر».

قالت تايين: «أوه، أدعو ألا أراك خائفًا أبدًا يا عقاه،
فقد تنسى أن تتنفس»، ورفعت يدها...

ودقّ القائد الرّخام بكعب فأسه قائلاً: «إنك تتجرّئين
يا سيّدتِي. ابتعدي عن المنصّة إذا سمحت».

ردّت تايين: «لا أقصد أدّى أيها القائد. إنني أحبّ
عمّي مثلما أعلم أنه أحبّ أبي»، وجثّت أمام الأمير
مردفة: «لقد قلت كلّ ما جئت لأقوله يا عقاه. سامحني
إذا أسأت إليك، فقلبي كسير عن آخره. أما زلت أحظى
بحبك؟».

- «دائماً».

- «أعطني بركتك إذن وسأذهب».

تردد دوران هنيهة قبل أن يضع يده على رأس ابنة أخيه، ويقول: «تشجعي يا صغيرتي».

- «وكيف لا؟ إنني ابنته».

لم تكد تغادر حتى هرع المايستر كاليوت إلى المنصة قائلاً: «سمو الأمير، إنها لم... دعني أرى يدك»، وتفحص الكف أولاً ثم قلبها برفق ليتشقم أصابع الأمير، ثم قال: «لا، جيد، هذا جيد، ليست هناك خدوش، لذا...».

قال الأمير ساحباً يده: «هل لي بالقليل من حليب الخشخاش»⁽¹⁵⁾. أيها المايستر؟ كوب صغير يكفي».

- «الخشخاش، نعم، بالتأكيد».

حُثَّه الأمير قائلاً بهدوء: «الآن»، فأسرع كاليوت إلى السلال.

كانت الشمس قد غربت في الخارج، واصطبغ الضوء داخل القبة بزرقة الغسق، فيما بدأت الماسات على الأرض تحتضر وتزول، والأمير جالس على مقعده العالي تحت حربة آل مارتل بوجه ممتقع من الألم، وبعد صمت طال التفت إلى آريو هوتا سائلاً: «أيها القائد، ما مدى إخلاص خراسي؟».

أجاب القائد غير عالم بأي شيء آخر يرد: «إنهم مخلصون».

- «بعضهم أم جميعهم؟».

قال القائد: «إنهم رجال صالحون، دورثيون صالحون،
وسيفعلون ما أمرهم به»، ودَقَّ الأرض بفأسه مردفًا:
«ساقطع رأس أي رجل يخونك».

- «لا أريد رؤوسًا، أريد الطاعة».

- «هي لك». اخِدم، أطع، احم. يمين بسيطة لرجل
بسيط. «كم رجلًا تريد؟».

- «سأترك لك هذا القرار. ربما تُفيدنا قِلة من الرجال
البارعين أكثر من عشرين. أريد أن يتم الأمر بأسرع
وأهدأ ما يُمكن، دون أن تراق دماء».

- «بسرعة وهدوء ودون دماء، نعم. ما أوامرك؟».

- «ستجد بنات أخي وتقبض عليهن وتحبسهن في
الزنازين على قمة (برج الحرية)».

قال القائد بحلق جَفَّ: «أفاعي الزمال؟ كلهن...
ثمانيتهن يا سمو الأمير؟ والصغيرات أيضًا؟».

فكر الأمير لحظة قبل أن يجيب: «بنات إلاريا أصغر
من أن يُقتلن خطرًا، لكن ربما يسعى أحدهم إلى
استغلالهن ضدي. الأفضل أن يكن آمنا في متناول
اليَد. نعم، الصغيرات أيضًا... لكن تايين ونايميريا
وأوبارا أولًا».

قال القائد بقلب منزعج: «كما يأمر سمو الأمير». لن
يُعجب هذا أميرتي الصغيرة. «وماذا عن ساريل؟ إنها
امرأة ناضجة، ثقارب العشرين».

- «ما لم ترجع إلى (دورن) فليس هناك ما يُمكنني أن أفعله بشأنها غير أن أصلي أن تكون أعقل من أخواتها. دَع ساريلا... للعبتها، واقبض على الأخريات. لن أنام إلى أن أعرف أنهن آمانات وتحت الحراسة». قال القائد: «سيتم الأمر»، وتردّد لحظة قبل أن يُضيف: «عندما يبلغ الخبر الشوارع سيثور العامة». ردّ دوران مارتل بصوت تعب: «(دورن) كلُّها ستثور. أمل فقط أن يسمعهم اللورد تايوين في (كينجز لاندنج) ليعلم أن له صديقًا وفيا في (صنسيين)».

(11) عندما تعرق الخيول نتيجةً للمجهود الشديد، تخرج من مساقها مائة رغوية يتسبب بروتين معين في إفرازها. (المترجم).

(12) الحرير الزملي نوع خشن من الحرير يُنقَم بفركه بالزمل، ويُساعد على عدم ارتفاع حرارة الجسد في الأجواء الحارة. (المترجم).

(13) الدرمونة من الشفن الحريئة ذات الأشرطة والمجاذيف، تتميز بسرعتها وحجمها الكبير وقدرتها على حمل عدد كبير من الرّجال. (المترجم).

(14) السُميت نسيج حريري شديد الفخامة مضلع الحبكة. (المترجم).

(15) حليب الخشخاش مشروب حقيقي ذو أصل اسكندنافي، مخدر ومسكن للألم. (المترجم).

في الخُلم رأت نفسها جالسةً على العرش الحديدي،
ساميةً عنهم جميعًا.

كان أفراد الحاشية فئرانًا زاهية الألوان في الأسفل.
أمامها ركعَ كلُّ لورد عظيم وليدي مترقّعة، ووضعَ
الفرسان الشُّبان الأشاوس سيوفهم عند قدميها
مستجدين حظوتها، وابتسقت لهم الملكة من عليائها...
إلى أن ظهرَ القزم كأنه برزَّ من العدم، يُشير إليها ويعوي
ضحكًا، فبدأ اللوردات والليديئات في القهقهة بدورهم
وقد أخفوا ابتساماتهم وراء أيديهم، ولحظتها فقط
أدركت الملكة أنها عارية.

مذعورةً، حاولت أن تُغطّي نفسها بيديها، وانغرست
نصال العرش الحديدي وأشواكه في لحمها إذ انحنت
على نفسها محاولةً تخبئة عورتها، فسالت الدماء حمراء
على ساقِها ونهشت أسنان من الفولاذ رذفيها، ولقا
حاولت أن تنهض انزلقت قدمها في فجوة في المعدن
المشوّه، وكلّما قاومت ناشدةً الثُّحُر ابتلعها العرش أكثر،
ممزّقًا قطعًا من اللحم من ثدييها وبطنها ومشرّخًا
ذراعيها وساقِها، إلى أن اكتسبت بلمعة الخمرة الرُّلقة.
وطوال الوقت يتوثّب أخوها في الأسفل ضاحكًا.

كانت ضحكاته الجذلة لا تزال تتردد في أذنيها حين أحسّت بلمسة خفيفة على كتفها واستيقظت فجأة، ولأقل من لحظة بدت اليد جزءًا من الكابوس، فأطلقت سرسي صيحة، لكنها كانت يد سينل لا غير، وقد لاح الخوف على وجه الوصيفة الممتقع.

قالت الملكة لنفسها وقد أتاها الإدراك: لسنا وحدنا. كانت الظلال تحيط بفراشها، أشباح طويلة تلتمع حلقاتها المعدنيّة تحت معاطفها، ولكن ليس للرجال المسلّحين شأن هنا. أين خراسي؟ كانت غرفة نومها مظلمة تمامًا، لا ضوء فيها إلا ذلك المنبعث من المصباح الذي يرفعه أحد المتطفّلين عاليًا. يجب ألا أبدي خوفًا. أزاخت سرسي شعرها الذي شقّته النوم سائلة: «ماذا تريدون مني؟»، فتقدّم رجل داخلًا دائرة الضوء، وعندما رأت معطفه الأبيض قالت: «چايمي؟». أحلم بأخ فيأتي الثاني لإيقاظي.

أجابها الصوت الذي ليس لأخيها: «جلالة الملكة، حضرة القائد قال أن نأتي ونُحضرك». له شعر متموّج كچايمي، لكن شعر أخيها كالذهب المطرّق، مثلها بالضبط، أمّا هذا الرجل فشعره أسود ذهني، وقد حدّقت إليه وهو يُغمغم بكلام ما عن مرحاض ونشائيّة ويذكر اسم أبيها. ما زلت أحلم، لم أستيقظ ولم ينته كابوسي. قريبًا سيزحف تيريون خارجًا من تحت الفراش ويضحك مني.

لكن ما تُفكّر فيه شخف. أخوها القزم حبّيس الزّنازين
الشّوداء، ومحكوم عليه بالموت اليوم تحديداً. تطلّعت
إلى يديها وقلبتهما لتتأكّد من أن أصابعها كلّها لا تزال
موجودة، وحين تحسّست ذراعها وجذّت جلدها مقشعراً
ولكن سليماً، ولا جروح في ساقها أو شقوق في باطن
قدميها. حلم، لم يكن أكثر من حلم. شربث الكثير ليلة
أمس، وهذه المخاوف وليدة التّبيذ فقط. سأكون أنا
الضّاحكة مع حلول الفسق، سيصير ولداي آمنين وعرش
تومن محفوظاً، ويفقد قالونكاري الصّغير الشّائه رأسه
ويتعقّن.

وجدت چوسلين سويقت عند مرفقها ثناولها كوباً،
فأخذت سرسي رشفة لتذوق الماء المخلوط بعصير
الليمون، وكان لاذعاً لدرجة أنها بصقته. سمعت رياح
الليل ترخّ مصاريع النّوافذ، وأصبح بإمكانها الآن أن ترى
بوضوح كامل غريب. كانت چوسلين ترتجف خوفاً
كورقة شجرٍ مثل سينل، ورأت سرسي السير أوزموند
كتلبلاك واقفاً فوقها، ووراءه السير بوروس بلاونت
حاملاً المصباح، وعند الباب حرس لانستر الذين تلتمع
الأسود المذهّبة على ريشات خوذاتهم، وقد بدوا خائفين
أيضاً. تساءلت الملكة: أهذا حقيقي؟ أيمكن أن يكون
حقيقياً؟

نهضت وتركت سينل تضع معطف نوم على كتفها
لتسثر غريها، ثم ربطت الحزام بنفسها بأصابع متيئة
خرقاء، وقالت: «السيد والدي يحتفظ بخزاسه حوله
ليل نهار». أحشت بلسانها ثقيلاً، فأخذت رشفة أخرى
من الماء بالليمون ودوّرتة في فمها لثنيش أنفاسها.
كانت غثة قد دخلت المصباح الذي يحمله السير
بوروس، وسمعت سرسي طنينها ورأت ظل جناحيها
وهما يضربان الزجاج.

قال أوزموند كتلبلاك: «الخزاس كانوا في مواقعهم يا
جلالة الملكة. لقد وجدنا باباً خفياً وراء المستوقد،
طريقاً سرّياً. حضرة القائد نزل ليرى أين يقود».
استحوذ عليها الفزع فجأة كالعاصفة، وقالت:
«چايمي؟ المفترض أن يكون چايمي مع الملك...».
- «لم يمس الضبي أذى. السير چايمي أرسل دسنة
من الرجال لحراسته. جلالته نائم في سلام».
فليحظ بخلم أجمل من حلمي، وبإيقاظ أرحم. «من
مع الملك؟».

- «السير لوراس له هذا الشرف، بعد رضاك».
لكن هذا لا يرضيها. آل تايرل مجرّد وكلاء رفقههم
ملوك الثنانيين فوق مكانتهم كميّزاً، وليس أكبر من
غرورهم إلا طموحهم. قد يكون السير لوراس وسيفاً
كأحلام العذراوات، لكنه تايرل حتى الثخاع تحت
معطفه الأبيض، وعلى خد علمها فربما تكون ثمرة الليلة
الثالفة قد زُرعت وترعرعت في (هايجاردن).

لكنه شكّ لا تستطيع المجاهرة به. هكذا قالت:
«اسمحوا لي بلحظة لارتداء ثيابي. سير أوزموند،
ستصحبني إلى (برج اليد). سير بوروس، أيقظ
السّجّانين وتأكد من أن القزم ما زال في زنزانته».
ترفض أن تنطق اسمه. حدّثت نفسها قائلة: مُحال أن
يجد شجاعة أن يرفع يداً ضد أبينا، لكن عليها أن تتيقّن.
قال بلاونت: «كما تأمرين يا صاحبة الجلالة»، وناول
السير أوزموند المصباح، فلم يُثر استياء سرسي أن تراه
يرحل. لم يكن يجدر بأبي أن يُعيد إليه معطفه الأبيض
قَط. لقد برهن الرّجل على جبنه.

لدى خروجهم من (حصن ميجور) كانت السّماء قد
اصطبغت برّقة عميقة كالكوبالت، ولو أن النّجوم لا
تزال تلتمع. جميعها باستثناء واحد. نجم الغرب الشّاطع
هوى، والآن سُمّصيح اللّيلي أكثر حلّة. توقّفت على
الجسر المتحرّك الممدود فوق الخندق الجاف متطلّعة
إلى الخوازيق في الأسفل، وفكّرت: ما كانوا ليَجسّروا
على الكذب عليّ في شأن كهذا، ثم إنها سألت: «مَنْ
وجدّه؟».

أجاب السير أوزموند: «أحد خُرّاسه، لوم. ذهب يُلَبّي
نداء الطّبيعة ووجد حضرة اللورد في المرحاض».

لا، لا يُمكن أن يكون هذا صحيحًا. ليس هكذا يموت الأسد. أحسّت الملكة بهدوءٍ غريب، وتذكّرت أول مرّة فقدّت فيها سِنًا في صغرها وكيف لم تُشعر بأي ألم، وإن ولّدت الفجوة إحساسًا غريبًا في فمها جعلها لا تستطيع الكفّ عن لمسها بلسانها. والآن ثمة فجوة في العالم كان يسئها أبي، والفجوات تحتاج إلى ملء.

إذا مات تايوين لانستر حقًا فلا أحد في أمان... لا سيّما ابنها على عرشه. حين يموت اللّيث تنقُض الحيوانات الأقلّ شأنًا، العقبان وبنات آوى والكلاب الصّارية. سيحاولون تنحيّتها جانبًا كما فعلوا دومًا، وعليها أن تتحرّك بسرعةٍ مثلما فعلت حين مات روبرت. قد يكون هذا من ضنع ستانيس باراثيون من خلال أجير ما، وربما يكون تمهيدًا لهجومٍ جديد على المدينة، وهي تأمل أن يكون كذلك. فليأت. سأسحقه كما سحقه أبي، وهذه المرّة سيموت. لا يُخيفها ستانيس أكثر مما يُخيفها مايس تايرل، لا أحد يُخيفها. إنها اللبؤة ابنة (الصّخرة). لن يكون هناك المزيد من الكلام عن إرغامي على الزّواج مجدّدًا. (كاسترلي روك) لها الآن، وكلّ سلطة عائلة لانستر، ولن يستخفّ بها أحد ثانية أبدًا، وحتى عندما تنتهي حاجة تومن إلى وصيّة ستظلّ سيّدة (كاسترلي روك) قوّة لا يُستهان بها في البلاد.

خَضِبَت الشَّمْسُ المَشْرِقَةَ قَمَمَ الأَبْرَاجِ بالأَحْمَرِ الفَاقِعِ،
لَكِن تَحْتَ الأَسْوَارِ ظَلَّ اللَّيْلُ رَابِضًا، وَخَيْمٌ عَلَى القَلْعَةِ
الخَارِجِيَّةِ صَمَتٌ مَطْبِقٌ لِدَرَجَةِ أَنَّ سِرْسِي كَانَتْ لَتُصَدِّقَ
أَنَّ أَهْلَهَا جَمِيعًا قَدْ مَاتُوا. حَرَّيْ بِهِمْ أَنَّ يَمُوتُوا، فَلَا يَلِيقُ
بِتَايَوِينِ لَانْسِتَر أَنَّ يَمُوتَ وَحْدَهُ. رَجُلٌ مِثْلُهُ يَسْتَحِقُّ
حَاشِيَةً تَخْدُمُهُ فِي الجَحِيمِ.

عِنْدَ بَابِ (بُرْجِ الْيَدِ) وَقَفَ أَرْبَعَةٌ مِنْ حَامِلِي الحِرَابِ
فِي المَعَاظِفِ الحُمْرَاءِ والخِوْذَاتِ ذَاتِ رِيْشَةِ الأَسَدِ،
فَقَالَتْ لَهُمْ: «لَا أَحَدٌ يَدْخُلُ أَوْ يَخْرُجُ دُونَ إِذْنِي». صَدَرَ
مِنْهَا الأَمْرُ بِسَهْوَةٍ. أَبِي أَيْضًا كَانَ فِي صَوْتِهِ فُولَانٌ.

أَزْعَجَ ذُخَانُ المِشَاعِلِ عَيْنِيهَا دَاخِلَ البُرْجِ، إِلَّا أَنَّ قَطْرَةً
دَمَعٍ لَمْ تُسِيلْ مِنْ سِرْسِي كَمَا لَمْ تَكُنْ لَتُسِيلْ مِنْ أَبِيهَا. أَنَا
الابْنُ الحَقِيقِيُّ الوَحِيدُ الَّذِي أَنْجَبَهُ. احْتَكَّ كَعْبَاهَا بِالحِجْرِ
وَهِيَ تَصْعَدُ السَّلَالِمَ، وَلَمْ يَزَلْ يَأْمَكَانَهَا أَنَّ تَسْمَعُ ضَرْبَاتَ
جَنَاحِي الغُثَّةِ العَنِيفَةِ دَاخِلَ مَصْبَاحِ السَّيْرِ أَوْزَمُونَدَ،
فَخَاطَبَتْهَا المَلِكَةُ فِي سَرِيرَتِهَا بِضَيْقٍ: مَوْتِي، حَلَقِي إِلَى
الْأَلْهِبِ وَافْرُغِي مِنَ الأَمْرِ.

عَلَى قِمَّةِ السَّلَالِمِ وَقَفَ حَارِسَانِ آخِرَانِ بِمَعْطَفَيْنِ
أَحْمَرَيْنِ، وَتَمَتَّمَ لِسِتْرِ الأَحْمَرِ بِكَلِمَةِ عَزَاءٍ إِذْ مَرَّتْ بِهِ.
أَحْسَتِ المَلِكَةُ بِأَنْفَاسِهَا سَرِيعَةً قَصِيرَةً وَبِقَلْبِهَا يَرْتَجِفُ
فِي صَدْرِهَا، فَقَالَتْ لِنَفْسِهَا: إِنَّهَا السَّلَالِمُ، هَذَا البُرْجُ
الْمَلْعُونُ سَلَالِمُهُ كَثِيرَةٌ لِلْغَايَةِ. الحَقِيقَةُ أَنَّهَا تُشْفِرُ بِمِيلٍ
فِي نَفْسِهَا إِلَى هَدْمِهِ.

أَلَقَّت القاعة مليئةً بالحمقى الذين يتكلمون همساً،
كان اللورد تايوين نائم ويخشون أن يُوقظوه، وانكمش
الحرس والخدم على حَذِّ سواءٍ منها لدى مرورها
وأفواههم تنفتح وتنغلق، فرأت لِنَاهِم الوردية وألسنتهم
المتراقصة، لكن كلامهم لم يعنِ لها شيئاً أكثر من طنين
الغُتَّة. ماذا يفعلون هنا؟ كيف عرفوا؟ المفترض أن
يكونوا قد استدعوها هي أولاً. إنها الملكة الوصيَّة على
العرش، أم أنهم نسوا؟

أمام غرفة نوم يد الملك وقف السير مرين ترانت
بمعطفه ودرعه الأبيضين، وقد فتح مقدمة خوذته
فجعلته الأكياس الثقيلة تحت عينيه يبدو كأنه ما زال
يصف نائم. قالت له: «أبعد هؤلاء النَّاس. هل أبي في
المرحاض؟».

فتح لها السير مرين الباب مجيئاً: «حملوه إلى سريره
يا سيِّدتي».

كانت خيوط الضوء المائلة تتسرب من مصاريع
النوافذ راسمة خطوطاً ذهبية على الحوائط المقروشة
على أرضية غرفة النوم، ووجدت الملكة عفاً كيقان
على زكبتيه إلى جوار الفراش، يحاول أن يَصْلِي وبالكاد
يستطيع إخراج الكلمات من بين شفثيه. تجمّع الخرس
قرب المستوقد، وقد لاح الباب الشري الذي ذكره السير
أوزموند مفتوحاً وراء الزماد، لا يتعدى حجمه حجم
فرن، وهو ما يعني أن المتسلل منه عليه أن يزحف.
أصابته الفكرة بالغضب. لكن تيريون يصف رجلٍ فقط.
لا، القزم محبوس في زنزانية سوداء. ليس ممكناً أن هذا
من صنعه. ستانيس، ستانيس وراء الأمر. ما زال له
مناصرون في المدينة. إمّا هو وإمّا آل تايرل...

لطالما تردّد الكلام عن وجود ممزّات سرّية داخل
(القلعة الحمراء)، ويفترض أن ميّجور المتوحّش قتل
الذين بنوا القلعة ليحافظ على الشر. كم غرفة نوم
أخرى فيها أبواب خفية؟ تكوّنت في عقل سرسي فجأة
صورة للقزم يخرج زاحفاً من وراء إحدى المعلقات في
غرفة تومن وفي يده سكين، لكنها حدّثت نفسها قائلة:
تومن تحت حراسة قويّة. واللورد تاوين كان تحت
حراسة قويّة أيضاً.

مرّت لحظة دون أن تتعرّف الرّجل الميت. إن له شعراً
كشعر أبيها، نعم، وإنما مؤكّد أن هذا رجل آخر، رجل
أصغر حجماً وأكبر سنّاً بكثير، معطف نومه مرفوع حول
صدره تاركاً إياه عارياً تحت الخصر. كان الشّهم قد
أصابه فوق خاصرته بين الذّكر والشّرة، وقد انغرس في
لحمه تماماً لدرجة أن ريشته فقط بارزة، ويبيست الدّماء
الجافّة شعر عانته، بينما بدأ المزيد منها يتخثر في
شّرته.

جعلت رائحته أنفها يتقلّص اشمئزاً، وقالت امرأة:
«أخرجوا الشّهم منه. إنه يد الملك!». ووالدي، السيّد
والدي. أيجدر بي أن أصرخ وأمرّق شعري؟ يقولون إن
كاتلين ستارك مرّقت وجهها تمزيقاً حين قتلوا عزيزها
روب. أرادت أن تسأله: هل كان هذا ليروقك يا أبي أم
كنت لثريدني أن أتحلّى بالثّبات؟ هل بكيت أنت أباك؟
لقد مات جدّها وسنّها عام واحد لا أكثر، لكنها تعرف
قصة اللورد تاي توس الذي صار في غاية البدانة، وفي
يوم انفجر قلبه وهو يصعد السلالم إلى عشيقته. كان
أبوها في (كينجز لاندنج) عندما حدث هذا، يذا للملك
المجنون، وقد اعتاد اللورد تايوين أن يغيب طويلاً في
المدينة وقت طفولتها هي وچايمي، فإذا كان بكى حين
أتوه بخبر موت أبيه فقد فعلها في مكان لم ير أحد فيه
دموعه.

قالت الملكة شاعرةً بأظفارها تنغرس في راحتي يديها: «كيف تتركوه هكذا؟ أبي كان يدًا لثلاثة ملوك، أعظم رجل عرفته (الممالك السبع). لا بُدَّ أن تُدَقَّ له الأجراس كما دُقَّت لروبرت، ولا بُدَّ أن يُغَسَّل ويُكسى بثياب تليق بمكانته، بفراء القاقوم⁽¹⁶⁾. وقُماش الذهب والحرير القرمزي. أين يايسل؟ أين يايسل؟!»، والتفتت إلى الخُزَّاس قائلةً: «يوكنز، أحضر المايستر الأكبر يايسل. عليه أن يتولَّى العناية باللورد تايوين».

رَدَّ يوكنز: «لقد رآه بالفعل يا جلالة الملكة، أتى ورأى وذهب يستدعي الأخوات الضامتات».

كنث آخر من أرسلوا يستدعونه. أصابها الإدراك بحنق كادَ يُعجزها عن الكلام. ويهرب يايسل ليرسل رسالة بدلًا من أن يُلَوِّث يديه الرقيقتين المتغضنتين. هذا الرجل عديم الفائدة. قالت بنبرة أمرة: «اعثر على المايستر بالابار، اعثر على المايستر فرنكن، هذا أو ذاك»، فهرع يوكنز وذو الأذن القصيرة لتلبية الأمر، وتساءلت هي: «أين أخي؟».

- «نزل في النَّفق. ثَمَّة بئر فيها درجات حديد مثبتة في الحجر. السير چايمي ذهب ليرى غمقها».

أرادت أن تزعم فيهم: إن له يداً واحدة فقط. كان على أحدكم أن يذهب، فليس لچايمي أن يتسلق الشلال. قد يكون من قتلوا أبي كامنين في الأسفل في انتظاره. لطالما كان توأمها متهوّراً، ويبدو أن فقدانه يده لم يُعلّمه الحذر. كانت على وشك أن تأمر الحرس باللاحاق به عندما عادَ يوكنز وذو الأذن القصيرة وبينهما رجل أشيب، وقال ذو الأذن القصيرة: «جلالة الملكة، هذا الرجل يقول إنه كان مايستر».

انحنى الرجل بشدة قائلاً: «كيف أخدم جلالتك؟». وجدت سرسي وجهه مألوفاً على نحو طفيف، وإن لم تستطع أن تتذكره. عجوز، لكن ليس هرقاً كپايسل، ما زالَ يتمتع بالقليل من الحيويّة. الرجل طويل القامة لكن ظهره محنيّ بعض الشيء، وحول عينيه البنيّتين الجريئتين تجاعيد. ورقبته عارية. قالت له: «لست تضع سلسلة مايستر».

- «أخذت مني. اسمي كايبرن، بعد إذن صاحبة الجلالة. لقد عالجت يد أخيك».

- «تقصد جدعة يده». الآن تذكر أنه جاء مع چايمي من (هارنهال).

- «لم أستطع أن أنقذ يد السير چايمي، هذا صحيح، لكن فنوني أنقذت ذراعه، وربما حياته ذاتها. لقد أخذت (القلعة) سلسلتي، لكن ليس بمقدور أحد هناك أن يأخذ معرفتي».

قالت وقد حزمت أمرها: «قد تُصلح. إذا خذلتني ستفقد أكثر من مجرد سلسلة، هذا وعد. أخرج السهم من بطن أبي وجهزه للأخوات الضامات».

قال كايبرن: «كما تأمر مليكتي»، وذهب إلى الفراش، ثم توقّف ونظر خلفه متسائلاً: «وكيف أتعامل مع الفتاة يا جلالة الملكة؟».

- «الفتاة؟». لم تنتبه سوسي إلى الجئة الثانية، لكنها أسرعَت الآن إلى الفراش وطوّحت كومة الأغطية الدّامية جانباً، وها هي ذي الفتاة، عارية باردة متورّدة... باستثناء وجهها المسود كوجه جوف في مأدبة زفافه، وقد اندفقت سلسلة من الأيدي الذهبية التي يشد بعضها على بعض في لحم عنقها، والتوّت بشدّة جعلتها تخرق الجلد. هسهست سوسي كهزة غاضبة، وقالت: «ماذا تفعل هذه هنا؟».

قال ذو الأذن القصيرة: «وجدناها هنا يا جلالة الملكة. إنها عاهرة العفريت». كأن قوله يُفسّر وجودها هنا.

فَكَرَّت: لم يكن السيد والذي يُطيق العاهرات، ولم يمش امرأة بعدما ماثت أُمنا. حدّجت الحارس بنظرة تُجمّد الدماء، وقالت: «هذا ليس... حين ماث أبوه عاد اللورد تايوين إلى (كاسترلي) روك ليجد... امرأة من هذا النوع... تتحلّى بجواهر أمه وترتدي أحد فساتينها، فجَزّدها منها ومن كلّ شيء آخر، وطيلة أسبوعين جُرّست عارية في شوارع (لانسپورت)، لتقرّ لكلّ رجل تلتقيه بأنها لصة وبقي. هكذا كان اللورد تايوين يتعامل مع العاهرات. إنه لم... هذه المرأة كانت هنا لسبب آخر، وليس لـ...».

قال كايرن مقترخًا: «ربما كان حضرة اللورد يستجوب الفتاة بشأن سيّدتها. سانزا ستارك اختفت ليلة قُتل الملك حسب ما سمعت».

تمشكت سرسي بالاقتراح بحماسة، وقالت: «بالضبط. لا بُدّ أنه كان يستجوبها، لا شك في هذا على الإطلاق». كانت ترى تيريون ينظر إليها شزّا بقم ملّو بابتسامة كالقرود تحت أنفه الخرب، وتسمع القزم يهمس لها: وهل من وسيلة أفضل لاستجوابها من أن تكون عارية فاتحة ساقبها؟ هكذا أحب أن أستجوبها أيضًا.

أشاحت الملكة بوجهها. لن أنظر إليها. فجأة أصبح وجودها في الغرفة نفسها مع المرأة الميتة فوق الاحتمال، فاندفعت متجاوزة كايرن وخرجت إلى الرّدهة.

كان أوزني وأوزفريد أخوا السير أوزموند قد انضما إليه، فقالت سرسي للإخوة كِتْلَبلاك الثلاثة: «هناك امرأة ميتة في غُرْفَة اليد. يجب ألا يعلم أحد أبدًا بأنها كانت هنا».

- «حاضر يا سيّدتِي»، قال السير أوزني الذي تلوح على وجنته خدوش باهتة حيث خمشتة واحدة أخرى من عاهرات تيريون. «وماذا نفعل بها؟».

- «أطعموها لكلابكم، احتفظوا بها في سريركم، لا أبالي. إنها لم تكن هنا قط. سأقطعُ لسان من يتجرأ ويقول إنها كانت هنا، مفهوم؟».

تبادل أوزني نظرةً مع أوزفريد، ثم قال: «نعم يا جلالة الملكة».

تبعّت الأخوين إلى الدّاخل وشاهدت بينما لقا الفتاة بأغطية أبيها الدّامية. شاي، كان اسمها شاي. آخر مرّة رأتها كانت في اللّيلة السّابقة لفحكمة القزم، بعد أن عرض الثّعبان الدورني الباسم أن يُناصره في مُحكمة بالّزال. سألت شاي عن بعض الجواهر التي أعطّاها لها تيريون، وعن وعود معيّنة تقول إن سرسي قطعتها بخصوص إيوان في المدينة وفاريس يتزوّجها، فقالت الملكة بمنتهى الوضوح إن العاهرة لن تنال شيئًا منها إلى أن تُخبرهم بمكان سائزا ستارك، وأضافت: «كنتِ وصيفتها، فهل تتوقّعين أن أصدّق أنك لم تعلمي شيئًا عن مخطّطاتها؟»، وغادرت شاي باكيةً.

رفع السير أوزفريد الجثة الملفوفة على كتفه، وقالت له سرسي: «أريد هذه السلسلة. احرص على ألا تחדش الذهب»، فأوماً أوزفريد برأسه إيجاباً وبدأ يتحرّك نحو الباب، إلا أنها استوقفته قائلة: «لا، ليس عبر الساحة»، وأشارت إلى الطريق الشّريّ مردفة: «ثمة بئر تقود إلى الزّنازين، اذهب من هناك».

وبينما جثا السير أوزفريد على زُكية واحدة أمام المستوقّد توهّج الضّوء في الدّاخل وسمعت الملكة جلبة، ثم ظهر چايمي محني الظهر كامرأة مسنة، يركل حذاؤه سخام نار اللورد تاويين الأخيرة ويظّيره، وقال للأخوين كِتلبلاك: «ابتعدا عن طريقي».

هرغت سرسي إليه متسائلة: «هل وجدتهم؟ هل وجدت القثلة؟ كم عددهم؟». مؤكّد أن هناك أكثر من واحد. لا يمكن أن رجلاً وحيداً قتل أباهما.

أجاب توأمها وعلى وجهه نظرة منهكة: «البئر تنزل إلى خُجرة تتفرّع منها ستة أنفاق مغلقة بأبواب حديدية موصدة بالسلاسل. يجب أن أعثر على المفاتيح»، وجال ببصره في الغرفة مضيقاً: «قد يكون من فعلها أيّا كان لا يزال كامناً وراء الجدران. إنها متاهة مظلمة».

تخيّلت تيريون يزحف بين الجدران كجرذ وحشي. لا، دعك من هذه الأفكار السّخيفة، القزم في زنزانته. «اهدم الجدران بالمطارق، اهدم البرج كلّه إذا لزم الأمر. أريد العثور عليهم. أيّا كان من فعلها أريده أن يُقتل».

عانقها چايمي ضاغظا بيده السليمة على أسفل
ظهرها، تفوح منه رائحة الزّمام وإن كان نور شمس
الصّباح في شعره يُضفي عليه وهجًا ذهبيًا. أرادت أن
تسحب وجهه إلى وجهها لثقبّله، لكنها قالت لنفسها:
لاحقًا، لاحقًا سيأتيني ينشد المواساة. همست له: «إننا
وربّنا يا چايمي، وعلينا أن نتمّ عمله. لا بدّ أن تحلّ
محلّ أبينا كيد الملك. مؤكّد أنك ترى هذا الآن. تومن
سيحتاج إليك...».

دفعها عنه ورفع ذراعه لثواجه جددته وجهها
مباشرة، وقال: «يد بلا يد؟ دُعابة رديئة يا أختاه. لا
تُطلبني مني أن أحكم».

سمع عثمها صدّته لها، وكذا كايبرن والأخوان كتلبلاك
الذّان يحملان الكومة عبر الزّمام بصعوبة، وحتى
الخرس سمعوه؛ يوكنز وهوك وساق الحصان وذو الأذن
القصيرة. سيذيع الكلام في القلعة كلّها بحلول المساء.
أحسّت سرسي بالحرارة ترتفع إلى وجنتيها، وقالت:
«ثحكم؟ لم أقل شيئًا عن الخكم. سأحكم أنا إلى أن يبلغ
ابني».

قال أخوها: «لا أدري على من أشفق أكثر، تومن أم
(الممالك السّبع)».

هوّت على وجهه بصفعة، وارتفعت ذراع چايمي
تصدّها بسرعة القط... لكن هذا القط له جدعة مُعاقٍ
بدلًا من يد يُمْنى، فتركت أصابعها علامات حمراء على
خذه.

دفع الصّوت عقهما إلى الثّهُوض قائلاً: «أبوكما مسجّى
ميثاً هنا. تحلّيا باللياقة وخذَا شجاركما إلى الخارج».
حنى چایمی رأسه معتذراً، وقال: «سامحنا يا عقاه.
أختي أسقمها الحزن ونسيت نفسها».

أرادت أن تصفحه ثانية لقوله هذا. لا بدّ أني جئت
حين حسبت أنه يصلح لأن يكون يدا. خيّر لها أن تلغي
المنصب برؤيته. منذ متى جلب عليها يد الملك إلا البلاء؟
جون آرن وضع روبرت باراثيون في فراشها، وقبل أن
يموت بدأ يحوم حول علاقتها بچایمی أيضاً، ثم بدأ
إدارد ستارك من حيث توقّف آرن، وأجبرها تطفله على
الخلاص من روبرت في وقت أقرب مما أرادت، قبل أن
تتعامل مع أخويه المزعجين، أمّا تيريون فباع مارسلا
للدورنئين واتخذ أحد ابنيها رهينة واغتال الثاني،
وحين عاد اللورد تايوين إلى (كينجز لاندنج)...

وعدت نفسها قائلة: اليد الثّالي سيعرف مقامه. لا بدّ
أن يكون السير كيثان، فعفها دؤوب متعقل ومطيع
لأقصى الحدود، وتستطيع الاعتماد عليه مثل أبيها من
قبلها. اليد لا تُجارل الرأس. ثقة مملكة عليها أن تحكمها،
لكنها ستحتاج إلى رجال جدد لمساعدتها على الحكم.
يايسل منافق خرف، وچایمی فقد شجاعته مع يده،
ومايس تايرل وصديقه الحميمان ردواين وروان ليسوا
أهل ثقة، وعلى حدّ علمها ربما يكون لهم دور في هذا. لا
ريب أن اللورد تايرل علم أنه لن يحكم (الممالك السبع)
أبداً ما عاش تايوين لانستر.

علي أن أتصرف بحذر معه. المدينة تعجُّ برجاله، كما أنه نجح في زرع أحد أبنائه في الحرس الملكي، ويُزعم أن يزرع ابنته في فراش تومن. ما زالت تتميز غيظًا من موافقة أبيها على خطبة تومن ومارجري تايرل. الفتاة في ضعف سيئه وترملت مَرتين. يزعم مايس تايرل أن ابنته بكر، لكن سرسي تشك في صحة هذا. جوفري اغتيل قبل أن يُعاشر الفتاة، لكنها كانت زوجة رنلي أولاً... قد يُفضّل المرء مذاق الهيبوكراس⁽¹⁷⁾، لكن ضَع دورقًا من المزر أمامه وسيعثبه في لحظات. عليها أن تأمر اللورد قارس بأن يجمع ما يستطيع من معلومات. أوقفها الخاطر في مكانها. لقد نسيت أمر قارس. المفترض أن يكون هنا، إنه موجود دائمًا. متى حدث شيء مهم في (القلعة الحمراء) يظهر الخصى كأن العدم انشق ولفظه. جايمي هنا، والعُم كيغان، ويايسل جاء وذهب، لكن قارس غائب. أحسّت بإصبع بارد يمش عمودها الفقري. إنه جزء من هذا. لا بدّ أنه خشي أن يضرب أبي عنقه، فوجه ضربه أولاً. لم يكن اللورد تايوين يكرّ وذا لولي الهامسين بابتساماته المتكلّفة، وإذا كان هناك رجل واحد يعرف أسرار (القلعة الحمراء) فمؤكّد أنه ولي الهامسين. لا بدّ أنه تحالف مع اللورد ستانيس. لقد خدما معًا في مجلس روبرت رغم كلّ شيء...

اتجهت سرسي مسرعةً إلى باب الغرفة حيث يقف السير مرين ترانت، وقالت له: «ترانت، أحضر لي اللورد فارس، أحضره صارخًا مكبلاً إذا دعت الحاجة، لكن دون أن يمسه أذى».

- «كما تأمرين يا جلالة الملكة».

لكن لم يكد فارس الحرس الملكي يرحل حتى عاد آخر. كان السير بوروس بلاونت محتقن الوجه متقطع الأنفاس من اندفاعته المتعجّلة على السّلام، ولما رأى الملكة قال لاهئًا: «اختفى»، ونزل على ركبته متابعًا: «العفريت... زنائنه مفتوحة يا جلالة الملكة... لا أثر له في أي مكان».

كان الحلم حقيقةً. «لقد أمرت بأن يبقى تحت الحراسة ليل نهار...».

رَدّ بلاونت وصدره يعلو ويهبط بسرعة: «أحد السّجّانين مفقود أيضًا، اسمه روجن، ووجدنا رجلين آخرين نائمين».

قالت باذلة قصارى جهدها كي لا تصرخ: «آمل أنك لم توقيظهما يا سير بوروس. اتركهما نائمين».

رفع عينيه إليها وتساءل بارتباك ولغده يهتز: «نائمين؟ أمرك يا جلالة الملكة. إلى متى أترك...».

- «إلى الأبد. اعمل على أن يناما إلى الأبد أيها الفارس. لن أسمح بأن ينام الخدّاس في أثناء مناوَبتهم». إنه بين الجدران. قتل أبي كما قتل أمي كما قتل جوف. تعلم الملكة أن القزم سيأتيها أيضًا، تمامًا كما توغّدتها العجوز في عتمة الخيمة إياها. ضحك في وجهها، لكنها كانت تتمتع بقدرات حقيقية. لقد رأيث مستقبلي في قطرة دم، رأيث هلاكي. شعرت بقدميها ضعيفتين كالماء، وحاول السير بوروس أن يلتقط ذراعها، لكن الملكة جفلت من لمستته. ربما يكون واحدًا من مخلوقات تيريون أيضًا. صاحت: «ابتعد عني، ابتعد!»، وترنّحت قبل أن تثبت نفسها.

قال بلاونت: «هل أحضر كوبًا من الماء يا جلالة الملكة؟».

ما أحتاج إليه هو الدّم لا الماء، دّم تيريون، دّم الثالونكار. راحت المشاعل تدور حولها، فأغلقت سرسي عينيها ورأت القزم يبتسم لها بائساع. لا، لا، كنت أوشكت على الخلاص منه. لكن أصابعه انغلقت حول رقبتها، وأحسّت بها تبدأ في الانطباق.

(16) القاقوم حيوان ثديي ينتمي إلى فصيلة العرسيّات، وهو من أخطر حيوانات هذه الفصيلة على الرغم من لطف شكله وجماله، وله فرو يُستخدم في صناعة الملابس الفاخرة. (المترجم).

(17) الهيوكراس مشروب صحي يُعَدُّ من التَّبِيذ المخلوط
بالشُّكْر والثَّوَابِل، وعادةً ما يتضمَّن القرفة، ابتكره أبقراط وسُمِّي
نسبةً إليه. (المترجم).

بريان

قالت للعقيلة الشَّيباء الواقفة عند بئر القرية: «أبحث عن بنت في الثَّالثة عشرة، بنت رفيعة النُّسب رائعة الجمال، عيناها زرقاوان وشعرها كستنائي. قد تكون مُسافرةً مع فارس سمين في الأربعين، أو ربما مع مهزج. هل رأيتهما؟».

أجابَت العقيلة وهي تُنقِر على جبهتها بمفاصل أصابعها: «ليس حسب ما أذكر أيها الفارس، لكن أعدك بأن أبقى عيني مفتوحة».

الحَدَّاد كذلك لم يَرها، ولا الشَّيْطون في سِبت القرية، ولا راعي الخنازير بقطيعه، ولا الفتاة التي تقلع البصل في حديقتها، أو أيُّ من العائمة النُّسطاء الذين وجَدتهم عذراء (تارث) وسط أكواخ (روزبي) المبنية بالجِصِّ والأغصان المجدولة، وعلى الرغم من هذا ثابرت بريان وقالت لنفسها: هذا أقصر الطُّرق إلى (وادي الغسق). إذا مرّت سائرا من هنا فلا بُدَّ أن أحدا رآها. عند بؤابة القلعة ألقت سؤالها على حارسين يحملان الجراب، على شارة كلٍّ منهما ثلاثة جملونات⁽¹⁸⁾. حمراء على خلفيّة بيضاء مرقّطة بالأسود، رمز عائلة روزبي. قال لها أكبرهما سيّئا: «إذا كانت على الطُّريق هذه الأيام فلن تظُلّ بنتا طويلا»، أمّا أصغرهما فسألها إن كان للبنت ذلك الشَّعر الكستنائي بين ساقِها أيضًا.

لن أجد عونًا هنا. بينما امتطّلت بريان قُرسها مجدّدًا لمحت فتى نحيلًا على متن حصان أرقط في أقصى القرية، ففكرت: لم أتكلّم مع هذا الضّبي، لكنه اختفى وراء الشّيت قبل أن تسعى إليه، فلم تُكلّف نفسها عناء اللّحاق به، فعلى الأرجح لا يعرف شيئًا أكثر من الآخرين. (روزبي) ليست أكثر من مكان واسع على الطّريق، وليس هناك ما يحمل سائزا على البقاء فيها. هكذا عادت بريان إلى الطّريق واتّجهت شمالًا وشرقًا، مازّة ببساتين تفّاح وحقول ذرة، وسرعان ما غابت القرية وقلعتها وراءها. قالت لنفسها إن (وادي الغسق) هي المكان الذي ستجد فيه بُغيثها. إذا كانت قد سلكت هذا الطّريق أصلًا.

- «ساعتز على الفتاة وأحافظ على سلامتها، لأجل خاطر أمّها ولأجل خاطرك». هكذا وعدت بريان السير جايمي في (كينجز لاندنج). كلمات نبيلة، لكن الكلام سهل والفعل صعب. لقد ظلّت في المدينة وقتًا أطول من اللاّزم، وما توضّلت إليه يكاد لا يُذكر. كان عليّ أن أتحرّك مبكرًا... لكن إلى أين؟ سائزا ستارك اختفت ليلة موت الملك جوفري، وإذا كان أحدهم قد رآها منذ ذلك الحين، أو إن كانت عنده معرفة ولو طفيفة بالمكان الذي ذهبت إليه، فلا أحد يتكلّم. لا أحد يتكلّم معي أنا على الأقل.

تعتقد بريان أن الفتاة غادرت المدينة، فلو كانت لا تزال في (كينجز لاندنج) لعثر عليها ذوو المعاطف الذهبية. لا بُدَّ أنها ذهبت إلى مكان آخر... لكن ذلك المكان الآخر قد يكون أيّ مكان. سألت نفسها: لو كنت فتاةً أزهرت مؤخرًا، وحيدةٌ وخائفةٌ وفي خطرٍ داهم، فماذا أفعل؟ أين أذهب؟ بالنسبة إلى بريان نفسها الإجابة سهلة، إذ ستعود إلى (تارث) وإلى أبيها... أمّا أبو سانزا فقد قطعوا رأسه على مرأى منها، والسيدة والدتها مائت أيضًا، اغتيلت في (الثوامتين)، وقلعة عائلة ستارك العظيمة (وينترفيل) نُهبت وأحرقت وقُتل أهلها. ليس لها وطن تهرب إليه، ولا أب ولا أم ولا إخوة. قد تكون الفتاة في البلدة الثالية أو على متن سفينة راحلة إلى (آشاي)، الاحتمالات كافة متساوية.

حتى إذا أرادت سانزا ستارك أن تعود إلى وطنها، فكيف تصل إليه؟ (طريق الملوك) ليس آمنًا، وكل طفل يعلم هذا، وحديدو الميلاد مسيطرون على (خندق كايلن) التي تسدّ (الغلق)، وفي (الثوأميتين) يستقر آل فراي الذين اغتالوا أخا سانزا والسيدة والدتها. تستطيع الفتاة أن تُسافر بحرًا إذا كانت تملك المال، لكن الميناء في (كينجز لاندنج) لا يزال خربًا، والنهر فوضى من الأرصفة المحطّمة والقوادم المحروقة والغارقة. كانت بريان قد سألت عند أحواض السفن، لكن لا أحد تذكر رؤية سفينة ترحل ليلة مات الملك جوفري، وقال لها أحد الرجال إن بعض السفن التجاريّة الرّاسية في الخليج تُفرّغ حمولتها بالقوارب، لكن عددًا أكبر يُواصل طريقه على السّاحل إلى (وادي الغسق) التي تضمّ ميناءً مزدحمًا عن آخره.

تمتطي بريان فرشا جميلة المنظر سريعة الحركة،
وعلى الطريق قابلت مسافرين أكثر مما كانت تحسب،
فرأت إخوة شحاذين يمشون بخطى بطيئة وأوعيتهم
معلّقة بسيورٍ جلدية من رقابهم، وهروّل سبتون شاب
مازًا بها على متن حصان صغير يليق بأيّ لورد، ولاحقًا
التقت جماعة من الأخوات الصّامتات اللواتي هزن
رؤوسهن نفيًا حين ألقت عليهن سؤالها، ومضت قافلة
من العربات التي تجرّها الثيران جنوبًا حاملة غلالًا
وأجولة من الصوف، وبعدها مرّت براعي خنازير يسوق
قطيعه، وامرأة عجوز في هودج تجرّه الخيول
وئصاحبه مجموعة من الحرس الزاكبين. سألتهم جميعًا
إن كانوا قد رأوا بنتًا في الثالثة عشرة لها عينان
زرقاوان وشعر كستنائي، إلّا أن أحدًا لم يرّها. سألت عن
الطريق أمامها أيضًا، فأجابها رجل: «إنه آمن بما فيه بين
هنا و(وادي الغسق)، لكن بعد (وادي الغسق) هناك
خارجون عن القانون ورجال مكسورون⁽¹⁹⁾. في
الغابات».

وحدها أشجار الصنوبر الجندي والحارس (20). ما زال فيها اخضرار، أما الأشجار الأخرى ذات الورق العريض فانشحت بالخمري والذهبي، أو تجردت لتخدش السماء بفروع بنية عارية. كل هبة ريح تدفع سحباً دوّارة من الأوراق الميتة على الطريق المليء بالخفر، فتصدر حفيفاً وهي تتناثر حول حوافر القرس الكستنائية التي منحها چايمي لانستر لپريان. العثور على فتاة مفقودة في (وستروس) كالعثور على ورقة في مهب الريح. وجدت نفسها تتساءل إن كان چايمي قد كلفها بهذه المهمة على سبيل الذعابة القاسية. ربما تكون سائزاً ستارك ميتة، قطعوا رأسها للدور الذي لعبته في موت الملك چوفري ودفنوها في قبر بلا شاهد. وهل من وسيلة أفضل لإخفاء قتلها من إرسال فتاة حمقاء كبيرة من (تارث) للبحث عنها؟

ما كان چايمي ليفعل هذا. كان صادقاً، وأعطاني السيف وسفاه (حافظ العهد). لا فرق على كل حال. لقد وعدت الليدي كاتلين بأن تُعيد ابنتيها، وما من يمين مقدّسة كملك التي خُلفت للموتى. چايمي زعم أن الفتاة الصغرى ماثت منذ فترة طويلة، أما آريا التي أرسلها آل لانستر شمالاً لتتزوج نغل رووس بولتون فزائفة، أي أنه لم يَعد هناك إلا سائزاً، ويجب أن تُعثر عليها لپريان.

قُرب الغسق أبصرت نار مخيّم إلى جوار غدير،
يجلس عندها رجلان يشويان أسماك الترويت، وقد
كوّما أسلحتهما وعتادهما أسفل شجرة. أحدهما عجوز
والثاني أصغر بعض الشيء، وإن كان بعيدًا عن الشباب،
وهو من نهض يُخيّيها، فرأت أن له بطنًا كبيرًا يضغط
على أربطة شترته المبقّعة المصنوعة من جلد الظباء،
ولحية خشنة مشعّنة لونها كالذهب القديم تُغطّي
وجنتيه وذقنه. ناداها قائلاً: «لدينا سمك يكفي ثلاثة
أيها الفارس».

ليست هذه أول مرّة يحسب أحدهم بريان رجلًا.
خلعت خوذتها محرّرة شعزًا أصفر كالقشّ المتسخ
ويُدانيه في الهشاشة، فتطاير حول كتفها طويلاً خفيًا
وهي تقول: «أشكرك أيها الفارس».

رّر الفارس المتجول عينيه متفرّسًا في ملامحها
بشدّة جعلتها تُدرك أنه قصير النظر، وقال: «امرأة؟
مسلّحة ومدرّعة؟ إيلي، انظر إلى حجمها بحقّ الآلهة».
رّد الفارس الأكبر سنًا وهو يدور السمك على النار:
«حسبتها فارسًا أيضًا».

لو كانت بريان رجلًا لقليل إنه رجل كبير الحجم، لكن بالنسبة إلى النساء فهي ضخمة حقًا. «مسخ» هي الكلمة التي سمعتها طوال حياتها. إن لها كتفين عريضتين ووركين أعرض، وساقاها طويلتان وذراعاها غليظتان، وعضلات صدرها تجعل حجم ثدييها لا يُذكر، ويدها كبيرتان وقدماهما ضخمتان، وكل هذا علاوة على قُبْح ملامحها، فوجهها منمّش ويبدو كوجه الحصان، وأسنانها تكاد تكون كبيرة على فمها، وهي ليست في حاجة إلى أن يُذكرها أحد بكل هذا. قالت: «أيها الفارسان، هل رأيتما بنتًا في الثالثة عشرة على الطريق؟ لها عينا زرقاوان وشعر كستنائي، وربما كانت في ضحية رجل سمين متورّد الوجه في الأربعين».

حكّ الفارس المتجوّل قصير النّظر رأسه، وقال: «لا أذكر بنتًا على شاكلتها. وما هذا الشعر الكستنائي؟».

أجاب الأكبر سنًا: «أحمر مائل إلى البني. لا، لم نرّها».

وقال الأصغر: «لم نرّها يا سيّدتي. هلمّي، ترّجّلي الشمك على وشك النّضوج. أنت جائعة؟».

كانت جائعة بالفعل، لكنها حذرة أيضًا. للفارس المتجوّلين هؤلاء شمعة سيئة، ويُقال إن الفارس المتجوّل والفارس اللّص وجهان لسيف واحد. لكن هذين الاثنين لا يبدوان خطرَين لهذه الدّرجة. «هل لي أن أعرف اسميكما أيها الفارسان؟».

قال ذو البطن الكبير: «يُشَرِّفُنِي أَنْ أَكُونَ السَّيْرُ
كَرَايْتُونَ لَوْنَجِبُو الَّذِي يُغْنِي عَنْهُ الْمُطَرَّبُونَ. رُبَّمَا تَكُونِينَ
قَدْ سَمِعْتَ عَنْ مَآثِرِي فِي مَعْرَكَةِ (الْهَرِ الْأَسْوَدِ).
وَرَفِيقِي هُوَ السَّيْرُ إِيْلَيْفِرِ الْفُلَسِ».

إِذَا كَانَتْ هُنَاكَ أَغْنِيَّةٌ عَنْ كَرَايْتُونَ لَوْنَجِبُو فَهِيَ وَاحِدَةٌ
لَمْ تَسْمَعْهَا بِرِيَانٍ، وَاسْمَا الْفَارْسِيِّ لَا يَعْنِيَان شَيْئًا لَهَا
أَكْثَرُ مِنْ رَمَزِيَّهْمَا. عَلَى ثَرَسِ السَّيْرِ كَرَايْتُونَ لَيْسَ هُنَاكَ
إِلَّا شَرِيطٌ بَنِي وَشَقٌّ عَمِيقٌ صَنَعْتَهُ فَأَسَ حَرْبِيَّةٌ، أَمَّا
السَّيْرُ إِيْلَيْفِرِ فَثَرَسُهُ مَقْسَمٌ إِلَى ثَمَانِيَةِ مِثْلَآتٍ يَصِفُهَا
ذَهَبِي وَيَصِفُهَا أَبْيَضٌ مَرْقُطٌ بِالْأَسْوَدِ كَفَرُو الْقَاقُومِ، وَلَوْ
أَنْ كُلَّ شَيْءٍ فِي مَظْهَرِ الرَّجُلِ يُوحِي بِأَنَّهُ لَمْ يَعْرِفْ فِي
حَيَاتِهِ مِنَ الذَّهَبِ وَفَرُو الْقَاقُومِ إِلَّا النَّوْعَ الْمَطْلِيَّ. إِنَّهُ
فِي السَّتِّينَ مِنَ الْعُمُرِ عَلَى الْأَقْلَ، وَجْهُهُ هَزِيلٌ مَسْحُوبٌ
تَحْتَ قَلَنْسُوءَةٍ مَعْطَفَةٍ الْخَيْشِ الْمَرْقُوعِ، وَقَدْ ارْتَدَى تَحْتَهُ
قَمِيصًا مِنَ الْحَلَقَاتِ الْمَعْدَنِيَّةِ، وَإِنْ بَقِيَ الصَّدَأُ الْحَدِيدِ
كَأَنَّهُ النَّمَشُ. تَفُوقُ بِرِيَانٍ كُلِيَّهْمَا طَوْلًا بِرَأْسٍ كَامِلٍ،
نَاهِيكَ بِأَنْ مَطِيئَتَهَا وَسَلَاحُهَا أَفْضَلُ. إِذَا خَشِيتُ أَمَثَالَهُمَا
فَحَرِّئِي بِي أَنْ أَسْتَبْدَلَ بِسَيْفِي الطَّوِيلِ إِبْرَتِي خِيَاطَةً.

قالت: «أشكركما أيها الفارسان الكريمان. يسرني أن أشارككما سَمَككما»، ووثبت من فوق فُرسها وخلعت سرجها وسقتها قبل أن تُقَيِّدها وثرخي لها الحبل لترعى، ثم كوّمت أسلحتها وثرسها وجراي السرج تحت شجرة دردار، وعندئذ كان سمك الترويت قد نضج تمامًا، فناولها السير كرايتون واحدةً جلست تأكلها متقاطعة الشاقين على الأرض.

قال لها لونجبو وهو يُفَشِّخ سمكه بأصابعه: «إننا متوجّهان إلى (وادي الغسق) يا سيّدتى. خير لك أن تركبي معنا، فالطرق محفوفة بالمخاطر».

كانت بريان لتحكي له عن مخاطر الطرق أكثر مما يريد أن يعرف، لكنها أجابته: «أشكرك أيها الفارس، لكني لست في حاجة إلى حمايتكما».

- «إنني مصرّ. لا بدّ أن يُدافع الفارس الحقيقي عن الجنس اللطيف».

مست مقبض سيفها قائلةً: «هذا سيُدافع عني».

- «السيف لا ينفع إلا بقدر مهارة من يحمله».

- «إنني ماهرة في حمله بما فيه الكفاية».

- «كما ترغبين. ليس من الكياسة أن يُجايل المرء

سيّدة. سنصحبك سالمةً إلى (وادي الغسق). ثلاثة معًا يركبون في أمان أكثر من واحدٍ وحده».

كنا ثلاثة حين خرجنا من (ريقرن)، ومع ذلك فقد
چايمي يده وكليوس فراي حياته. «حصانكما لا
يستطيعان مجاراة فرسي». حصان السير كرايتون
البني المخصي مجرّد مخلوق عجوز أقعس الظهر داعم
العينين، وحصان السير إيليفر يبدو مهزولاً يتضوّر
جوعاً.

قال السير كرايتون بإصرار: «جوادي خدمني جيّداً
في معركة (الثّهر الأسود)، بل وقتلت ذات اليمين وذات
الشّمال وفزّت بدستة من الفديات. هل سمعت سيّدتي
بالسير هربرت بولينج؟ لن ثقابليه أبداً، فقد قتلتها حيث
كان يقف. عندما تتقارع الشيوف لن تجدي السير
كرايتون لونجبو في المؤخرة أبداً».

أطلق رفيقه قهقهة جافّة، وقال: «دعك منها يا كراي.
أمثالها ليسوا في حاجة إلى أمثالنا».

سألته بريان غير مدرّكة ما يرمي إليه: «أمثالي؟».

أشار السير إيليفر بإصبع رفيع إلى ثرسها. على الرغم
من أن طلاءه مشقّق متقشّر فما زال الرّمز عليه واضحاً؛
خُفّاش أسود على خلفيّة مقسومة قُطريّاً إلى ذهبي
وفضّي. «إنك تحمّلين ثرس شخص كاذب لا حقّ لك
فيه. لقد ساعد جدّ جدّي على قتل آخر أفراد عائلة
لوئستون، ومنذ ذلك الحين لم يجرؤ أحد على إظهار
هذا الخُفّاش الأسود كأفعال من كانوا يحملونه».

إنه الثرس الذي أخذَه السير چايمي من مستودع السلاح في (هارنهال)، وقد وجدته بريان في الاسطبلات مع قَرسها بالإضافة إلى أشياء أخرى كثيرة؛ الشرج واللجام، وقميص من الحلقات المعدنية وخوذة كبيرة، وضَرتين من العملات الذهب والفضة، وورقة رُقوق أئمن من الاثنين. قالت مفسرة: «لقد فقدت ثرسي».

أعلن السير كرايتون بحزم: «الثرس الوحيد الذي تحتاج إليه فتاة هو فارس حقيقي».

لم يُعره السير إيليفر انتباهًا وهو يقول: «حافي القدمين يبحث عن حذاء ينتعله، والبردان يبحث عن معطف يرتديه، لكن من ذا الذي يختار أن يرتدي العار؟ اللورد لوكاس القَوَاد كان يضع هذا الرَّمز، وابنه مانفريد ذو القلنسوة السوداء، وإنني أسأل نفسي عن سبب اتِّخاذك رمزًا كهذا ما لم تكن خطيئتكَ أقبح... وأحدث»، واستلَّ خنجره القبيح المصنوع من الحديد الرّخيص مواصلاً: «امرأة كبيرة كالمسوخ وقويّة كالمسوخ تُخفي ألوانها الحقيقيّة. كراي، انظر إلى عذراء (تارث) التي شقّت لرنلي خلقه الملكي».

- «هذه أكذوبة». بالنسبة إليها كان رنلي باراثيون أكثر من ملك. لقد أحبته منذ جاء (تارث) في رحلته المتمهلة إلى اللوردية احتفالاً ببلوغه سنّ الرّجولة، ورُحِبَ به أبوها بمأدبة وأمرها بأن تحضرها، ولولا هذا لكانت قد اختبأت في غُرفتِها كحيوانٍ جريح. حينئذٍ لم تكن أكبر من سانزا، تخاف الضّحكات السّاخرة المكتومة أكثر من الشيوخ، فقالت للورد سلوين: «سيعلمون بأمر الوردية ويضحكون مني»، لكن نجم المساء لم يتزحّج عن قراره.

وقد رأت من رنلي باراثيون كلّ كياسة كما لو أنها فتاة طبيعّية حسناء، بل ورقص معها فأحسّت بين ذراعيه بأنها رشيقة وطفّت قدماها فوق الأرض، ولاحقًا طلب آخرون الإذن في الرّقص معها بسبب المثل الذي ضربّه لهم، ومنذ ذلك اليوم لم ترغب إلّا في أن تكون قريبةً من اللورد رنلي، أن تخدمه وتحميه... لكنها في النهاية خذلته. قالت لنفسها: رنلي مات بين ذراعي، لكنني لم أقتله، على أن هذين الفارسين المتجولين لن يتفهما أبدًا. قالت لهما: «كنث لأدفع حياتي فداءً للملك رنلي وأموث سعيدة. لم أمسه بسوء، أقسم على هذا بسيفي».

قال السير كرايتون: «الفرسان فقط يُقسّمون بسيوفهم».

وأضاف السير إيليفر الففلس: «أقسمي بالآلهة الشّبعة».

- «بالآلهة السبعة إذن. لم أمسّ الملك رنلي بسوء. أقسم بـ(الأم)، عسى ألا أعرف رحمتها أبدًا إذا كنت كاذبة. أقسم بـ(الأب) وأدعوه أن يحكم عليّ بالعدل. أقسم بـ(العذراء) و(العجون)، وبـ(الحذاد) و(المُحارب)، وأقسم بـ(الغريب) الذي أسأله أن يأخذني الآن إن كنت أقول الباطل».

علّق السير كرايتون: «إنها ثجيد القسم بالنسبة إلى فتاة».

قال السير إيليفر المُفلس: «نعم»، وهزّ كتفيه مضيئًا: «طيب، إذا كانت كاذبة ستتولّى الآلهة أمرها»، وعاد يدشّ خنجره في غمده، وأردف: «نوبة الحراسة الأولى لك».

بينما غاب الفارسان المتجوّلان في الثوم دارت بريان حول المخيم الصغير مصغيةً إلى طقطقة النار. يجدر بي أن أواصل طريقَي والفرصة سانحة. إنها لا تعرف هذين الرّجلين، لكنها لا تقوى على تركهما دون حماية، فحتى في جوف الليل هناك عابرون على الطريق، وأصوات في الغابة ربما يكون مصدرها البوم والثّعالب وربما لا، وهكذا راحت بريان تذرّع المكان جيئةً وذهابًا وقد خلخلت سيفها في غمده.

كانت حراستها سهلة إجمالاً، لكن ما بعدها هو الصّعب، حين استيقظ السير إيليفر وقال إنه سيحلّ محلّها. بسّطت بريان دثاراً على الأرض واثنت على نفسها لتغلق عينيها، وعلى الرغم من جسدها المكدود قالت لنفسها: لن أنام. إنها لم تتعوّد النّوم مستريحة قَطّ في وجود الرّجال، وحتى في معسكرات اللورد رنلي كان خطر الاغتصاب حاضراً دوماً، وهو الدّرس الذي تعلّمته عند أسوار (هايجاردن)، ومزّة أخرى عندما سقطت وچايمي في أيدي رفقة الشّجعان.

تسرّبت برودة الأرض عبر أغطية بريان لتنفذ إلى عظامها، وسرعان ما أحسّت بكلّ عضلة في جسدها متيئسة متشنّجة، من فكّيها إلى أصابع قدميها. تساءلت إن كانت سائزا ستارك بردانة أيضاً أينما كانت. لقد قالت لليدي كاتلين إنها فتاة مرهفة الجش تحبّ كهكات اللّيمون والفساتين الحريري وأغاني الفروسيّة، لكن سائزا شهدت رأس أبيها يُبتر وأرغقت بعدها على الرّواج بأحد قتلته، وإذا كان يصف ما يحكى صحيحاً فالقزم أقسى آل لانستر جميعاً. إذا سقطت الملك جوفري حقاً فلا بدّ أن العفريت أجبرها. لقد كانت وحيدة بلا أصدقاء في ذلك البلاط. في (كينجز لاندنج) سقت بريان إلى العثور على امرأة اسمها بريلا كانت من وصيفات سائزا، وقالت لها المرأة إنه لم يكن هناك وُدّ بين سائزا والقزم، وربما تكون الفتاة هاربة منه كذلك علاوة على هربها من قتل جوفري.

أيًا كانت الأحلام التي رأتها بريان فقد تلاشت حينما أيقظها الفجر. شعرت بساقيها يابستين كالخشب من برودة الأرض، لكن لا أحد تحرّش بها وظلّت حاجياتها كما هي. وجدت الفارسيين المتجولين مستيقظين بالفعل، وقد انشغل السير إيليفر بتقطيع سنجاب للإفطار، ووقف السير كرايتون مواجهًا شجرة لبول طويلًا. فارسان متجولان، عجوزان ومغروران وبدينان وقصيرا النظر، لكنهما رجلا ن لطيفان على الرغم من هذا. سرّها أن تعلم أن هناك رجالًا لطافًا في العالم حتى الآن.

أفطروا على لحم السنجاب المشوي ومعجون جوز البلوط والخيار المخلّل، فيما روى لها السير كرايتون قصص بطولاته في معركة (النّهر الأسود)، حيث قتلّ دسّة من الفرسان الضّناديد الذين لم تسمع عنهم قطّ، وقال لها: «أوه، لكم كان قتالًا نادرًا يا سيّدتى، معمرة نادرة دامية»، وأضاف أن السير إيليفر قاتل ببسالة في المعركة أيضًا، أمّا إيليفر نفسه فلم يقل إلّا القليل.

حين آن أوان استئناف الرّحلة ركب الفارسان على جانبيها كحارسين يحميان ليدي عظيمة ما... وإن كانت هذه الليدي تجعل من حاميّها قزمين مقارنة بحجمها، بالإضافة إلى تفوّقها عليهما في السّلاح والعتاد. سألتها بريان: «هل مرّ أحد خلال حراستكما؟».

قال السير إيليفر الفّلس: «كبت في الثّالثة عشرة لها شعر كستنائي؟ لا يا سيّدتى، لا أحد».

عَقَّب السَّير كَرَايْتُونَ: «رَأَيْتُ بَعْضَهُمْ. صَبِي مَزْرَعَةٍ مَا عَلَى حِصَانٍ أَرْقَطَ مَرَّ بِنَا، وَبَعْدَ سَاعَةٍ يُصَفِّ دَسْتَهُ مِنَ الشَّائِرِينَ حَامِلِي الْهَرَاوَاتِ وَالْمَنَاجِلِ. لَمَحُوا نَارَنَا وَتَوَقَّفُوا لِيُلْقُوا نَظْرَةً طَوِيلَةً عَلَى الْخِيُولِ، لَكِنِّي أَرَيْتُهُمْ لَمَحَةً مِنْ فُولَازِي وَقُلْتُ لَهُمْ أَنْ يُوَاصِلُوا طَرِيقَهُمْ. رَجَالُ خَشَنُونَ كَمَا يُوحِي مَنَظَرُهُمْ، وَيَأْتِسُونَ أَيْضًا، لَكِنْ لَيْسَ لَدَرَجَةٍ أَنْ يَعْبَثُوا مَعَ السَّير كَرَايْتُونَ لَوْنَجَبُوا».

فَكَّرْتُ بِرِيَان: نَعَمْ، لَيْسَ لِهَذِهِ الدَّرَجَةِ، وَأَشَاخْتُ بِوَجْهِهَا لثُخْفِي ابْتِسَامَتَهَا، وَلِخُسْنِ الْخَطِّ أَنْ السَّير كَرَايْتُونَ كَانَ أَكْثَرَ اسْتِغْرَاقًا فِي حِكَايَةِ مَعْرَكَتِهِ الْمَلْحَمِيَّةِ مَعَ فَارِسِ الدَّجَاجَةِ الْحُمْرَاءِ مِنْ أَنْ يَلْحَظَ سَخَرِيَّةَ الْعِذْرَاءِ، الَّتِي سَرَّهَا أَنْ يَكُونَ مَعَهَا رَفِيقَانِ عَلَى الطَّرِيقِ، حَتَّى إِذَا كَانَا هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ.

كَانَ النَّهَارُ فِي مَنْتَصَفِهِ عِنْدَمَا سَمِعْتُ بِرِيَانَ الثَّرْنِيمِ آتِيًا عَبْرَ الْأَشْجَارِ الْبَيْتَةِ الْجُرْدَاءِ، وَتَسَاعَلَ السَّير كَرَايْتُونَ: «مَا هَذَا الصَّوْتُ؟».

- «إِنَّهَا أَصْوَاتُ مَرْفُوعَةٍ بِالضَّلَاةِ». تَعْرِفُ بِرِيَانَ هَذِهِ الثَّرْنِيمَةَ. يَتَضَرَّعُونَ إِلَى (الْمُحَارِبِ) أَنْ يَحْمِيَهُمْ وَإِلَى (الْعَجُوزِ) أَنْ تُنِيرَ طَرِيقَهُمْ.

جَرَّدَ السَّيرُ إِيْلِيْقِرَ الْفُلْسِ سَيْفَهُ الْبَالِيَّ وَشَدَّ عِنَانَ حِصَانِهِ لِيَنْتَظِرَ مَجِيئَهُمْ قَائِلًا: «إِنَّهُمْ قَرِيبُونَ».

أفعمت الثّرانيم هواء الغابة كرعى خاشع، وفجأة ظهر مصدر الصّوت على الطّريق أمامهم. كانت مجموعة من الإخوة الشّخّاذين تقود القادمين، رجال ملتحون مغبّرون يرتدون الخيش، بعضهم حافي القدمين وبعضهم ينتعل الأخفاف، ووراءهم تتحرّك مجموعة تتألّف من ستّين من الرّجال والنّساء والأطفال مهترئي الثّياب، ومعهم خنزيرة رقطاع وعدد كبير من الخراف، وقد حمل كثير من الرّجال فؤوسا وأكثرهم مضارب وهراوات خشبيّة بسيطة الصّنع، ووسطهم تتدحرج عربة من الخشب الرّمادي المتشظّي على عجلتين، كوّمت عليها على ارتفاع كبير الجماجم والعظام المكسورة. توقّف الإخوة الشّخّاذون لدى رؤيتهم الفارسيين المتجوّلين وسكّنت الثّرانيم، وقال أحدهم: «أيها الفارسان الكريمان، (الأم) تحبّكما».

رّد السير إيليفر: «وتحبّكم يا أخي. من أنتم؟». أجابه رجل كبير يحمل فأسا: «صعاليك». على الرغم من برودة الغابة الخريفية كان عاري الجذع، وعلى صدره نُقِشت نجمة شباعيّة، النّجمة نفسها التي نقّشها المُحاربون الأنداليّون على لحمهم حين عبروا (البحر الضيّق) ليقهروا ممالك البشر الأوائل. قالت امرأة طويلة ممسكة بأحد مَقاود العربة: «إننا متّجهون إلى المدينة لنجلب هذه العظام المقدّسة لبيلور المبارك ونطلّب العون والحماية من الملك».

وقال رجل قصير ضئيل على جسده رداء سبيتون رث
وحول غنقه سير جلدي تتدلّى منه بلّورة: «انضمّا إلينا
أيها الصديقان. (وستروس) في حاجة إلى كلّ سيف».
أعلن السير كرايتون: «إننا في الطريق إلى (وادي
الغسق)، لكن ربما يمكننا أن نصحبكم بأمان إلى (كينجز
لاندنج)».

أضاف السير إيليفر الذي يبدو عمليًا إضافةً إلى كونه
مقلّباتًا: «إذا كان معكم مال تدفعون به ثمن اصطحابنا
إياكم».

قال الشيتون: «نحن العصافير لا نحتاج إلى الذهب».
ردّد السير كرايتون حائرًا: «العصافير؟».

- «العصفور أكثر الطيور تواضعًا وشيوعًا، مثلما نحن
أكثر الناس تواضعًا وشيوعًا». للشيتون وجه ناحل حادّ
ولحية قصيرة شابها الرّمادي والبني، وشعره الخفيف
مسحوب ومربوط وراء رأسه، وقدماه الحافيتان
سوداوان خشنتان وقاسيتان كجذور الشجر. «هذه
عظام أناس أتقياء قُتلوا لإيمانهم، وقد خدموا الآلهة
السبعة حتى الموت. بعضهم جوعوه وبعضهم عذبوه.
لقد انتُهِكَت الشِيتات ونُهِتَت، والعذراوات والأُمّهات
اغتصبهن الرّنادقة وعبدت الشّياطين، وحتى الأخوات
الصّامتات تعرّضن للتّحرّش. (الأم في الأعالي) تصرّخ
لوعةً. حان الوقت لأن يتخلّى جميع الفرسان المحلّفون
عن سادتهم الدّنيويّين ويُدافعوا عن عقيدتنا المقدّسة.
تعاليا معنا إلى المدينة إذا كنتما تحبّان (السبعة)».

قال السير إيليفر: «أحبهم كثيرًا، لكن يجب أن آكل».
- «وكذا كل أطفال (الأم)».

رَدَّ السير إيليفر بجمود: «إننا ذاهبون إلى (وادي
الغسق)».

بصق أحد الإخوة الشُّخَّاذين، وأطلقت إحدى النساء
أنيثًا، وقال الرُّجل الكبير ذو النجمة على صدره: «أنتما
فارسان زائفان»، وشرع عدد من الآخرين في التلويح
بهاواتهم مهذدين.

على أن الشَّيتون هذأهم قائلًا: «لا تدينوا، فالإدانة
لـ(الأب) وحده. دعوهم يمرُّون بسلام. إنهم صعاليك
مثلنا، ضائعون في الأرض».

تقدَّمت بريان بفرسها، وقالت: «أختي ضائعة أيضًا.
إنها بنت في الثَّالثة عشرة لها شعر كستنائي وجميلة
المحيًا».

قال الشَّيتون: «كلُّ أطفال (الأم) جميلو المحيَّا. عسى
(العذراء) أن تقي تلك الفتاة المسكينة... وتقيك أيضًا
على ما أظنُّ»، ورفع أحد مقاود العربة على كتفه وبدأ
يسحب، وعادَ الإخوة الشُّخَّاذون يَرْدَدُون ترنيمتهم،
وظلَّت بريان والفارسان المتجوِّلان على متون خيولهم
بينما مرَّ الرُّكب بتؤدة سالكا الطريق المحفَّر صوب
(روزبي)، وببطءٍ خفَّت أصواتهم المترنِّمة وغابَت.

رفع السير كرايتون فلقة مؤخرته عن الشَّرج وحكَّها
متسائلًا: «من ذا الذي يَقْتُل سِيتون يخدم الآلهة؟».

تعرف بريان هذا النوع من البشر، وتذكر أن رجال رفقة الشجعان علّقوا سيّتون قُرب (بركة العذاري) من قدميه من فرع شجرة واستخدموا جُثته هدفًا لتمرين الرّماية. تساءلت إن كانت عظامه مكوّمة على العربية مع بقيّة العظام.

كان السير كرايتون يقول: «لا بُدّ أن من يغتصب أخثًا صامتةً أحرق. مجرّد أن يضع يديه عليها... يُقال إنهن زوجات (الغريب)، وإن أعضاءهن الأنتويّة باردة مبتلّة كالجليد»، ورمق بريان مردفًا: «آه... أستمحك العذر». همّزت بريان قُرسها لتسرّع إلى (وادي الغسق)، وبعد وهلة لحقّ بها السير إيليفر وتبعهما السير كرايتون في المؤخرة.

بعد ثلاث ساعات صادفوا ركبًا ثانيًا يتقدّم ببطء نحو (وادي الغسق). كان تاجرًا وخدمه، يصحبهم فارس متجوّل آخر، وقد امتطى التاجر قُرسًا رماديّة مرقّطة في حين تبادل رجاله جرّ عربته، يكدح أربعة منهم على مقاوردها ويمشي الاثنان الآخران إلى جوار العجلتين، لكن حين سمعوا صوت الخيول أحاطوا بالعربة في تشكيل استعداد رافعين الثيابيت، وأخرج التاجر نُشابيّة والفارس سيفًا. نادى التاجر قائلاً: «سامحوني إذا كنت شكّاكًا، لكننا في أوقات عصيبة، وليس هناك إلّا السير شادريك الكريم يُدافع عني. من أنتم؟».

رَدَّ السير كرايتون بنبرة جريح الكرامة: «إنني السير كرايتون لونجبو الشَّهير بالطَّبع، جنث لتؤي من معركة (الثَّهر الأسود)، وهذا رفيقي السير إيليفر المُفلِس».

وقالت بريان: «لسنا نُضِمر لكم سوءًا».

حدَّجها الثَّاجر بريية قائلاً: «سَيِّدتي، حريُّ بك أن تكوني آمنةً في بيتك. لماذا ترتدين ثيابًا غريبةً كهذه؟». أجابت دون أن تجرؤ على ذكر اسم سانزا مع اتِّهامها بقتل الملك: «أبحث عن أختي. إنها بنت جميلة رفيعة النَّسب، عيناها زرقاوان وشعرها كستنائي. ربما رأيتموها مع فارس سمين في الأربعين، أو مع مهزج سكَّير».

- «الطُّرق ملأى بالمهزجين الشَّكَّيرين والفتيات المختطفات، وبالنَّسبة إلى الفارس السَّمين فمن الصَّعب على أيِّ رجلٍ شريف أن يظلَّ بطنه ممتلئًا بينما يعوز كثيرين الطَّعام... وإن كان السير كرايتون لم يَدُق الجوع على ما يبدو».

قال السير كرايتون بعناد: «إن لي عظامًا كبيرةً. هل نركب معًا بعض الوقت؟ لستُ أشكُّك في شجاعة السير شادريك، لكنه يبدو صغير الحجم، وثلاثة سيوف أفضل من واحد».

فكرت بريان: أربعة سيوف، لكنها لَزِمَت الصَّمت.

نظر الثَّاجر إلى رفيقه متسائلًا: «ما قولك أيها الفارس؟».

- «أوه، لا خوف من هؤلاء الثلاثة». السير شادريك رجل نحيف قوي له وجه كالثعالب وأنف حاد وشعر بُرتقالي، ويمتطي جوادًا حربيًا رشيق الشيقان بلون الكستناء، ومع أن طوله لا يتجاوز أقدامًا خمسة وبوصتين، إلا أن له أسلوبًا واثقًا في الكلام. «أحدهم عجوز والثاني بدين وتلك الكبيرة امرأة. فليأتوا».

خفّض التاجر نُشابَيْتَه قائلاً: «كما تقول».

إذ واصلوا رحلتهم تقهقر الفارس المأجور وأمعن النظر إلى بريان كأنها شريحة من لحم الخنزير المملح الممتاز، وقال لها: «يبدو أنك فتاة قويّة البنية تتمتع بصحة طيبة يا هذه».

شخيرة السير چايمي جرحتها في الضمير، لكن كلام الرجل الصغير مشها بالكاد، ولذا قالت له: «إنني عملاقة مقارنة ببعضهم».

ضحك مجيبًا: «إنني كبير بما فيه الكفاية حيث يهم يا هذه».

- «التاجر قال إن اسمك شادريك».

قال: «السير شادريك من (الوادي الظليل)، وبعضهم يدعوني بالفار المجنون»، ودور ثرسه لئريها رمزه، الفار الأبيض الكبير ذا العينين الحمراوين الشرسيتين على شرائط متعرجة من البني والأزرق، ثم تابع: «البني للأراضي التي جبتها، والأزرق للأنهار التي عبرتها، والفار أنا».

- «وهل أنت مجنون؟».

- «أوه، جدًا. الفأر التقليدي يفرّ من الدماء والمعارك، والمجننون يسعى إليها سعيًا».

- «يبدو أنه نادرًا ما يجدها».

- «أجد ما يكفي مني. صحيح أنني لست فارس مباريات، لكنني أدخّر شجاعتي للمعارك يا امرأة».

قدّرت أن مخاطبتها بـ«يا امرأة» أفضل من «يا هذه» بشكلٍ طفيف، وقالت: «أنت والسير كرايتون الكريم مشتركان في أشياء عدّة إذن».

رَدّ السير شادريك ضاحكًا: «أوه، أشك في هذا، لكن ربما أشارك أنا وأنت في مهمّة معيّنة. تقولين إنها أخت صغيرة مفقودة؟ عيناها زرقاوان وشعرها كستنائي؟»، وعادَ يضحك مردفًا: «إنك لست الصيّادة الوحيدة في الغابة. أنا أيضًا أبحث عن سانزا ستارك».

حافظت بريان على جمود ملامحها كالقناع لشخصي وجلها، وقالت: «من سانزا ستارك تلك؟ ولم تبحث عنها؟».

- «من أجل الحبّ، وهل هناك سبب سواه؟».

عقدت حاجبها مرددةً: «الخب؟».

- «نعم، حُبُّ الذَّهَبِ. على عكس فارسك الكريم السير كرايتون، قاتلت أنا بالفعل في معركة (النَّهر الأسود)، لكن مع الجانب الخاسر، ودمرتني فديتي. لا بُدَّ أنك تعرفين من هو قارس، أليس كذلك؟ الخصيَّ عرضَ ضُرَّةٍ ممتلئةٍ بالذهب مقابل هذه الفتاة التي لم تسمعي بها. إنني لست طقَّاعًا. إذا ساعدتني فتاة كبيرة الحجم على العثور على تلك الطِّفلة المُشاغبة فسأقتسم معها مال العنكبوت».

- «حسبتك أجيِّزًا عند هذا التَّاجر».

- «حتى (وادي الغسق) فحسب. هيبالد بخيل قدر ما هو جبان، وهو جبان للغاية. ما قولك يا هذه؟».

ردَّت بإصرار: «لا أعرف سائزًا ستارك تلك. إنني أبحث عن أختي، بنت ربيعة النَّسب...».

- «... ذات عَيْنين زرقاوين وشعر كستنائي، نعم. أخبريني، من هذا الفارس الذي مع أختك؟ أم أنك قلت إنه مهزَّج؟»، ولم ينتظر السير شادريك إجابةً منها، وهو ما ناسبها لأن لا إجابةً لديها، وواصل: «ثقة مهزَّج معيَّن اختفى من (كينجز لاندنج) ليلة مات الملك جوفري، رجل سمين له أنف مليء بالعروق الزُّرقاء، اسمه السير دونتوس الأحمر، الذي كان تابعًا لـ (وادي الغسق) فيما مضى. أتمنى ألا يخلط أحد بين أختك ومهزَّجها السُّكير وبين سائزًا ستارك والسير دونتوس. سيكون هذا مؤسفًا للغاية»، وهمز جواده الحربي وحُب ساعيًا إلى مقدِّمة الرُّكب.

حتى چایمی لانسٹر نفسه نادراً ما أشعرَ بريان بهذا الخُمق. إنك لست الضيافة الوحيدة في الغابة. كانت المرأة بريلا قد أخبرتها كيف جُرد جوفري السير دونتوس من فُروسيّته، وكيف توشلت سانزا إلى جوفري أن يُبقي على حياته، وعندما سمعت الحكاية حُزمت بريان أمرها قائلةً لنفسها: لقد ساعدتها على الهرب. إذا عثرث على السير دونتوس سأعثر على سانزا. كان حريًا بها أن تعلم أن آخرين سيتوصلون إلى النتيجة ذاتها. وقد يكون بعضهم أقلّ كياسةً من السير شادريك. ليس في وسعها إلا أن تأمل أن يكون السير دونتوس قد أخفى سانزا جيّدًا. لكن إذا فعلَ هذا فكيف سأجدها؟

وحثت بريان كتفيها وواصلت الطريق مقطّبةً. كان الليل يتوغّل لدى وصولهم إلى الخان، وهو بناية طويلة من الخشب تطلُّ على ملتقى فرعي نهرٍ وتعلو جسرًا حجريًا قديمًا. قال لهم السير كرايتون إن هذا هو اسم الخان، (الجسر الحجري القديم)، وإن صاحب الخان صديقه، وأضاف مؤكّداً: «ليس طاهيًا سيئًا، وليس في الغرف براغيث أكثر من معظم الخانات. من يرغب في فراشٍ دافئ الليلة؟». قال السير إيليفر المُفلس: «ليس نحن، ما لم يكن صديقك يُوجّرها مجّانًا. لسنا نملك مالًا للغرف».

قالت بريان: «يُمكنني أن أدفع لثلاثتنا». إنها لا تفتقر إلى الثُقود، ففي جرابي سرجها وجدت ضُرّة متخمة بالأياثل الفُضيّة والنُجوم النُحاسيّة، وواحدة أصغر محشوّّة بالتنانين الذهبيّة، بالإضافة إلى رَقٍّ يأمر جميع رعايا الملك الأوفياء بمساعدة حاملته بريان التارثيّة التي تُمارس عملاً يخضّ جلالته، وقد وقَّعه بخُطّه الطُفولي تومن الأول ملك الأنداليّين والروينار والبشر الأوائل وسَيّد (الممالك السّبع).

آثَر هيبالد التّوقّف أيضًا، وأمرَ رجاله بترك العربّة قُرب الاسطبل. كان الضّوء الأصفر الدّافئ يسطع من وراء زُجاج التّوافذ ذي الشّكل الماسي، وسمعت بريان فحلاً يصلّ إذ اشتَم رائحة فُرسها، وبينما بدأت تخلع الشّرج خرج صبي من باب الاسطبل قائلاً: «دعني أتولّى هذا أيها الفارس».

ردّت: «لستُ فارسًا، لكن يُمكنك أن تأخذ الفُرس. احرص على إطعامها وسقايتها وتمشيّطها». توّرّد وجه الصّبي، وقال: «اعدّريني يا سيّدتِي، حسبث...».

قاطعته بريان: «إنه خطأ شائع»، وناولته العنان وتبعت الآخرين إلى داخل الخان وقد حملت جرابي الشّرج على كتفها ودشت لفافة الثّوم تحت إبطها.

في الدّاخل كانت الأرضيّة مغطّاة بئشارة الخشب،
 والهواء ثقيمه روائح حشيشة الدّينار(21) والدّخان
 واللّحم، وقد وُضع فوق الثّار تيس يُطَقِّق وينزّ الدّهن،
 وإن غاب من يتابعه في الوقت الحاضر، واستقرّ سئة
 من الشّكّان المحليّين حول مائدة يتكلّمون، لكنهم قطعوا
 حوارهم ما إن دخل الغُرباء. أحسّت بريان بنظراتهم
 المسلّطة عليها، وعلى الرغم من قميصها المعدني
 ومعطفها وسُترتها الجلديّة أحسّت كأنها عارية، ولما قال
 أحدهم: «انظروا»، علّمت أنه لا يعني السير شادريك.
 ظهرَ صاحب الخان ممسكًا بثلاثة دوارق بكلّ يد
 ويسكّب المِزر مع كلّ خُطوة، فسأله الثّاجر: «ألديك
 عُرف شاغرة أيها الرّجل الطيّب؟»
 أجاب صاحب الخان: «ربما، لمن يملكون المال».
 لاح الاستياء على السير كرايتون لونجبو وهو يقول:
 «ناجل، أهكذا تُحَيّي صديقًا قديمًا؟ هذا أنا، لونجبو».
 - «هو أنت بالفعل. إنك مدين لي بسبعة أيائل. أرني
 الفضة وسأريك الشّرير»، ووضع صاحب الخان الدّوارق
 واحدًا تلو الآخر، ساكبًا المزيد من المِزر على المائدة.
 قالت بريان مشيرةً إلى السير كرايتون والسير إيليفر:
 «سأدفعُ ثمن عُرفة لي وأخرى لرفيقي».
 وقال الثّاجر: «وسأخذُ عُرفة أيضًا، لي والسير
 شادريك الكريم، وسينام خدمي في الاسطبل إذا كان
 هذا يُناسيك».

تطلع إليهم الرجل، ثم قال: «لا يُناسِني، ولكن ربما أسمعُ به. هل تريدون عشاء؟ عندي تيس جيّد جدًا على الشيخ».

أعلن هيبالد: «سأحكم على جودته بنفسي، وسيكتفي رجالي بالخُبز ومرق الشواء».

وهكذا تناؤلوا عشاءهم، وجزّبت بريان التيس بنفسها بعد أن تبعت صاحب الخان إلى الطابق العلوي ودشت بضع غملات في يده ووضعت حاجياتها في ثاني غرفة أراها إياها. طلبت لحم التيس للسير كرايتون والسير إيليفر أيضًا، بما أنهما تقاسما معها سَمكهما، وشرب الفُرسان المتجولون والثاجر المزر مع اللحم، في حين اكتفت بريان بكوبٍ من حليب الماعز، وقد أنصتت إلى الحديث الدائر حول المائدة آملة رغم ضعف الأمل أن تسمع شيئًا يُساعدُها على التّوصل إلى سائزا.

قال أحد المحليين لهيبالد: «إنكم قادمون من (كينجز لاندنج). أصحيح أن قاتل الملك أصبح مُعاقًا؟».

أجاب هيبالد: «صحيح، فقد يد سيفه».

أضاف السير كرايتون: «نعم، قضّمها ذئب رهيب» (22). كما سمعت، أحد تلك الوحوش التي أتت من الشّمال. لا خير يأتي من الشّمال أبدًا. حتى آلهتهم غريبة».

سمعت بريان نفسها تقول: «لم يكن ذئبًا. السير چايمي فقدّ يده بأمرٍ من مرتزق كوهوري».

علّق الفار المجنون: «ليس سهلًا أن يُقاتل المرء بيدٍ لم تعرف التّدريب».

أطلق السير كرايتون لونجيو صيحة استنكار، وقال:
«يتصادف أنني أجيذ القتال بكلتا يدي».

قال السير شادريك: «أوه، لا أشك في هذا»، ورفع
دورقه على سبيل التحيّة.

تذكّرت بريان قتالها مع چايمي لانستر في الغابة.
يومها استنفّزت قواها كلّها كي تتفادى سيفه. كان
ضعيفًا بعد طول السّجن ومعصماه مقيدتين بالسّلاسل. لا
فارس في (الممالك الشّيع) بأسرها كان ليصدّق أمامه
وهو بكامل قوّته دون سلاسل تُعيقه. لقد اقترّف چايمي
شروًا كثيرة، ولكن يا لبراعته في القتال! كان تشويّهه
قسوة ما بعدها قسوة، لكن أن تُقتل أسدًا شيء وأن تُبثر
كفّه وتتركه كسيرًا مبهوثًا شيء آخر.

فجأة صار صخب القاعة العاقمة يفوق تحمّلها البقاء
فيها لحظة أخرى، فغمغمّت متمنيّة لهم ليلة طيّبة
وأخذت نفسها إلى الفراش. السقف في غرفتها واطن،
وإذ دخلت بريان حاملة فتيلًا مكسّوا بالشمع اضطرت
إلى الانحناء لئلا تصدم رأسها. الأثاث الوحيد في المكان
عبارة عن سرير واسع بما فيه الكفاية لنوم سبعة أفراد،
بالإضافة إلى بقايا شمعة من الشحم على عتبة النافذة،
فأشعلتها بنار الفتيل وأنزلت مزلاج الباب وعلقت حزام
سيفها من أحد أعمدة السرير. غمدها تقليدي تمامًا،
خشب مغلف بالجلد البني المشقّق، وسيفها أكثر
تقليديّة، وقد ابتاعته في (كينجز لاندنج) بدلًا من
السيف الذي سرّقه رفقة الشجعان. سيف رنلي. ما زال
يؤلمها فقدانه.

على أن هناك سيفًا طويلًا آخر خبأته في لفافة الثوم،
وقد جلست على السرير وأخرجته، ليلتمع الذهب
الأصفر والياقوت بالأحمر في ضوء الشمعة، وحين
سحبت بريان (حافظ العهد) من غمده المنقح احتبست
أنفاسها لمرأى التمجّجات السوداء والحمراء في أعماق
الفولاذ. فولاذ قاليري، مطّرق بالتعاوين. سيف يليق
ببطل. في صغرها ملأت مربّيتها أذنيها بحكايات البسالة
وقصّت عليها المآثر النبيلة للسير جالادون المورني
وفلوريان المهزّج والأمير إيمون الفارس الثّنين وغيرهم
من الأبطال، وكان لكلّ رجل منهم سيف شهير، ولا بدّ أن
(حافظ العهد) يصلح لضحبتهم حتى إن لم تكن هي
تصلح. «ستدافعين عن ابنة ند ستارك بفولاذ ند
ستارك». هكذا وعدّها چايمي.

ركعت بين السرير والحائط ممسكةً بالسيف، ورثّدت
صلاةً صامتةً لـ (العجوز) التي يُنير مصباحها الذهبي
السبيل للبشر في الحياة. أُرشديني، أنيري طريقي
وأريني كيف أصلُ إلى سائز. لقد خذلت رنلي وخذلت
الليدي كاتلين، ويجب ألاّ تخذل چايمي أيضًا. لقد
اتّمتني على هذا السيف، اتّمتني على شرفه.

بَعْدَهَا تَمَدَّدَتْ عَلَى الشَّرِيرِ قَدْرَ الْمُسْتَطَاعِ، وَعَلَى
الرَّغْمِ مِنْ اثْنَيْسَاعِهِ لَمْ تَجِدْهُ طَوِيلًا كَفَايَةً، فَنَامَتْ عَلَيْهِ
بِالْعَرَضِ. تَنَاهَتْ إِلَى مَسَامِعِهَا قَعْقَعَةُ الذَّوَارِقِ مِنَ
الْأَسْفَلِ، وَالْأَصْوَاتِ الَّتِي يَحْمِلُهَا الْهَوَاءُ عَلَى السَّلَالِمِ، ثُمَّ
ظَهَرَتْ الْبِرَاغِيثُ الَّتِي ذَكَرَهَا لَوْنَجَبُو، فَسَاعَدَهَا الْخَكُّ
عَلَى الْبَقَاءِ مُسْتَيْقِظَةً.

سَمِعَتْ هَيْبَالْدُ يَصْعَدُ الدَّرَجَ، وَبَعْدَ فِتْرَةٍ الْفُرْسَانِ
بِدَوْرِهِمْ، وَكَانَ السَّيْرُ كَرَايْتُونَ يَقُولُ وَهُوَ يَمْزُ: «... لَمْ
أَعْرِفْ اسْمَهُ قَطُّ، لَكِنْ كَانَتْ عَلَى ثَرَسِهِ دَجَاجَةٌ حُمْرَاءُ
قَانِيَّةٌ، وَمَنْ نَصَلَهُ يَقْطُرُ الدَّمُ...»، ثُمَّ خَبَا صَوْتُهُ، وَفِي
مَكَانٍ مَا فِي الْأَعْلَى انْفَتَحَ بَابٌ وَانْغَلَقَ.

احترقت شمعتهَا عن آخِرها، واستقرَّ الظُّلام فوق
(الجسر الحجري القديم)، ورأى على الخان صمت تام
جعلها تسمع خرير مياه النُّهر، وعندها فقط نهضت بريان
تجمع أغراضها. فتحت الباب برفقٍ وأنصت لحظةً، ثم
نزلت السَّلام بقدمين حافيتين، وفي الخارج انتعلت
حذاءها وأسرعت إلى الاسطبل لتجهِّز فَرسها
الكستنائية، قبل أن تمتطيتها مستمِحةً السير كرايتون
والسير إيليفر غُذراً صامثاً. استيقظ أحد رجال هيبالد
حين مرَّت به، لكنه لم يتحرَّك من مكانه ليمنعها، ورئت
حوافر فَرسها على حجارة الجسر القديم، وسرعان ما
ابتلعتها الأشجار السوداء كالقار الملقى بالأشباح
والذكريات، وإذ انطلقت بريان في ظُلمة اللَّيل قالت في
أعماقها: إنني قادمة يا ليدي سانزا. لا تخافي، فلن
أستريح حتى أجدك.

(18) الجملون هو الجزء الأعلى من المثلث. (المترجم).

(19) الرِّجال المكسورون هم المجنِّدون إلزامياً الذين يتهزَّبون
من الخدمة ولا يعودون إلى ديارهم، وإنما يكوَّنون عصابات من
الخارجين عن القانون، وفي عالم الواقع ظهر المصطلح قديماً
في أيرلندا وسكوتلندا وصفاً لمن يتخلَّون عن ولائهم لقبائلهم.
(المترجم).

(20) الضُّنوبر الجندي والحارس شجرتان من ابتكار المؤلف.
(المترجم).

(21) حشيشة الذينار نبات عُشبي معقر تدخُل زهرته في

صناعة البيرة. (المترجم).

(22) الذئب الذهبى حيوان حقيقى منقرض كان يقطن
الأمريكتين قبل عشرة آلاف سنة. (المترجم).

سامويل

بينما يقرأ عن (الآخرين) رأى سام الفأر.
كانت عيناه محمّرتين رطبتين، وكلّما فركهما قال
لنفسه: ينبغي ألا أفركهما كثيرًا. الغبار يُصيبهما بالحكة
ويجعلهما تدمعان، والغبار في كلّ مكان هنا، تملأ شحبه
الصغيرة الهواء متى قلب سام صفحة، ويرتفع كغمام
رمادي متى رفع كومة من الكتب ليرى ما قد يكون
متواريًا في قاعها.

لا يدري كم مضى منذ نام آخر مرّة، لكن أقلّ من
بوصة واحدة تبقى من الشّمعَة الثّخينة المصنوعة من
الشّحم، التي أشعلها حين بدأ مطالعة رزمة أوراق
مخلوعة وجدها مربوطة بخيط. كان منهكًا لأقصى
درجة، إلا أن التّوقّف صعب، وفي البداية ظلّ يقول
لنفسه: كتاب آخر ثم أتوقّف. ملزمة أخرى فقط. صفحة
أخرى ثم أصدّ وأستريح وأكل. لكن هناك دائمًا صفحة
أخرى بعد تلك الصّفحة، ثم أخرى وأخرى، وكتاب آخر
قايح تحت الكومة، فيُخير نفسه: سألقي نظرة سريعة
فقط لأرى موضوعه، وقبل أن يدري يكون قد قرأ
نصفه. لم يكن قد أكل شيئًا منذ خساء الفاصوليا واللّحم
المقّد الذي تناوله مع پيب وجين. باستثناء الخبز
والجُبنة، لكنها كانت مجرّد وجبة خفيفة. وتلك هي
اللّحظة التي رمق فيها الطّبق الفارغ فأبصر الفأر يلتهم
قُتات الخبز.

لا يتجاوز الفأر نصف طول خنصره، وله عينان سوداوان وفرو رمادي ناعم، ويعلم سام أن عليه أن يَقتله، فمع أن الفئران تُفَضِّل الخُبز والجُبنة فإنها تأكل الورق أيضًا، وقد وجد الكثير من فضلاتها وسط الرُفوف والأكوام، وبدا بعض أغلفة الكتب الجلديّة مقروصًا. لكنه مخلوق ضئيل للغاية، وجائع. كيف يضئ عليه بالقليل من فُتات الخُبز؟ لكنه يأكل الكتب...

بعد ساعات من الجلوس أصبح ظُهر سام متيبسًا
كلوح من الخشب وساقاه شبه نائمتين. يعرف أنه ليس
سريعًا بما يكفي للإمساك بالفأر، ولكن ربما يستطيع أن
يسحقه. عند مرفقه كانت تستقر نسخة ضخمة مغلقة
بالجلد من (حوليات القنطور الأسود)(23)، تقرير
الشيتون جوركوين الذي يحوي أدق تفاصيل السنوات
التسع التي قضاها أوربرت كازويل قائدًا لحرس الليل،
وفيه صفحة لكل يوم من خدمته، كل منها مستهلة
بعبارة «استيقظ اللورد أوربرت في الفجر وأفرغ
أمعاءه»، باستثناء الصفحة الأخيرة التي تقول: «وُجِدَ
اللورد أوربرت وقد مات خلال الليل». ما من فأر يُد
للشيتون جوركوين. هكذا أمسك سام الكتاب بيسراه
بمنتهى البطء فوجده سميكًا ثقيلًا، ولمّا حاول أن يرفعه
بيد واحدة انزلق من أصابعه السمينية وسقط على
المنضدة، وفي أقل من لحظة اختفى الفأر بمنتهى
السرعة. أحس سام بالراحة، فسحقه المخلوق الصغير
المسكين كان ليصيبه بالكوابيس، وقال بصوت مسموع:
«لكن لا يجذر بك أن تأكل الكُتب». ربما عليه أن يجلب
معه القليل من الجبنة عندما يأتي المرة القادمة.

أدهشهُ القليل الذي تبقي من الشمعة. هل كان حساء
الفاصوليا واللحم المقدد اليوم أم البارحة؟ البارحة، لا بد
أنه كان البارحة. جعله إدراك الوقت يتثائب. مؤكّد أن
جون يتساءل عما حلّ به، وإن كان المايستر إيمون
سيتفهم بالتأكيد. قبل أن يفقد بصره كان المايستر
يحبّ القراءة قدر ما يحبّها سامويل تارلي، ويدرك
الطريقة التي يسقط بها المرء سقوطًا في الكتب أحيانًا،
كأن كلّ صفحة فجوة تفضي إلى عالم آخر.

دفع سام نفسه عن المنضدة ناهضًا، والتوت قسماته
من التّنميل في زبّاتي ساقيه. مقعده ضلب للغاية،
وينغرس في لحم فخذه من الخلف عندما ينحني فوق
كتاب. عليّ أن أتذكّر أن أجلب وسادة. بل ومن الأفضل
أن ينام هنا، في الخجيرة التي وجدها نصف متوارية
وراء أربعة صناديق ملأى بالصفحات المخلوعة من
كتبها، لكنه لا يرغب في ترك المايستر إيمون وحده
طويلاً، فقوى الرّجل بدأت تخور في الفترة الأخيرة
وأصبح يتطلّب العون، خصوصًا في العناية بالقدفان.
صحيح أن كلايداس يساعِد إيمون، لكن سام أصغر سنًا
وأمر في التّعامل مع الطيور.

بكومية من الكتب والمخطوطات تحت إبطه الأيسر
وشمعة في يده اليمنى شقّ سام طريقه عبر الأنفاق
التي يسقيها الإخوة المسالك الدوديّة، وقد أثار خيط
شاحب من الضوء الدّرجات الحجرية المرتفعة التي
تقود إلى السطح، فعرف أن النهار طلع. ترك الشمعة
مشتعلة في كوة في الحائط وبدأ يصعد، وعند الدّرجة
الخامسة كان يلهث، وعند العاشرة توقّف لينقل الكتب
إلى ذراعه اليمنى.

خرج تحت سماء بلون الرصاص الأبيض، فضيق عينيه ورفعهما قائلاً لنفسه: سماء ثلجية. أصابته الفكرة بالتوتر، وتذكر الليلة إياها على قمة (قبضة البشر الأوائل) حين أتت الجثث الحية والثلوج في آن واحد. لا تكن جباناً هكذا. إخوتك المحلفون يحيطون بك، ناهيك بستانيس باراثيون وجميع قُرسائه. من حوله ارتفعت حصون وأبراج (القلعة السوداء)، وإن قرّمتها ضخامة (الجدار)، وقد لاح جيش صغير يزحف على الجليد في رُبع المسافة إلى أعلى، حيث ترتفع سلالم متعرجة جديدة بتؤدة لتتصل ببقايا القديمة. على الجليد ترذدت أصداء مناشير ومطارق البثائين الذين أمرهم جون بالعمل ليل نهار، وقد سمع سام بعضهم يشكو على العشاء، ويقول إن اللورد مورمونت لم يُجشّمهم مشقّة كهذه قط. ولكن من دون السلالم الضخمة ليست هناك وسيلة لبلوغ قمة (الجدار) إلا القفص المتحرّك، ومهما كرة سامويل تارلي السلالم فإنه يكره القفص أكثر، ودائماً يُغلق عينيه متى ركبته وفي نفسه يقين بأن السلسلة على وشك أن تنكسر، وكلّما احتك القفص الحديد بالجليد يتوقّف قلبه عن الخفقان لحظة.

وجدَ سام نفسه يُفَكِّر وهو يُشَاهِد القفص ينخفض
ببطء: كانت توجد تنانين هنا قبل مئتي عام، تطير
ببساطة إلى قمة (الجدار). لقد زارت الملكة أليس
(القلعة السوداء) على متن تئيتها، ولحق بها زوجها
الملك جهيرس على تئينه. أيُمكن أن سيلقروينج تركت
بيضة وراءها؟ أو هل وجد ستانيس بيضة في
(دراجونستون)؟ حتى إذا كانت في حوزته بيضة،
فكيف يجعلها تفقس؟ بيلور المبارك صلى على بيضاته،
وغيره من آل تارجارين حاولوا جعل بيضهم يفقس
بالسحر، فلم ينالوا إلا المهازل والمآسي.

قال صوت واجم: «سامويل، كنت قادمًا لإحضارك.
قيل لي أن آخذك لحضرة القائد».
تساءل سام وندفة ثلج تحط على أنفه: «چون يُريد
أن يراني؟».

أجاب إد توليت الكتيب: «لا أدري. إنني لم أرغب في
رؤية نصف الأشياء التي رأيتها، ولم أر نصف الأشياء
التي رغبت في رؤيتها. لا أظن أن للرغبة علاقة بالأمر.
لكن من الأفضل أن تذهب. اللورد سنو يُريد الكلام معك
ما إن يفرغ من زوجة كراستر».

- «جيلي».

- «بالضبط. لو كانت مُرضعتي تُشبهها لظلت أرضع
حتى الآن. مُرضعتي كان لها شارب».

- «معظم الماعز له شوارب»، صاح ييب إذ ظهر مع جرن عند أحد الأركان، وكلّ منهما يحمل قوسًا طويلًا في يده وجعبة سهام على ظهره. «أين كنت أيها القايل؟ افتقدناك ليلة أمس على العشاء. ثقة ثور مشوي كامل لم يأكله أحد».

- «لا تُنادني بالقايل»، ردّ سام متجاهلاً مزحة الثور، فهذا ديدن ييب لا أكثر. «كنت أقرأ. كان هناك فار...».

- «لا تذكر الفئران أمام جرن، إنه مرعوب منها».

أعلن جرن بغيظ: «غير صحيح!».

- «سأرعبك أن تأكل واحدًا».

- «يُمكنني أن آكل فئرانًا أكثر منك».

تنهّد إد الكنيب، وقال: «في صغري كنا نأكل الفئران في أيام الأعياد فقط. كنت الأصغر، فلم أنل إلا الذيل دائمًا. ليس هناك لحم في الذيل».

سأل جرن: «أين قوسك الطويل يا سام؟ أولمر كان ينتظرك في ساحة التدريب». اعتاد السير أليسر أن يُلقب جرن بـ«الثور»، ويبدو أن الاسم ينطبق عليه أكثر فأكثر كلّ يوم. لقد أتى (الجدار) كبير الحجم لكن بطيئًا، برقية غليظة وخصر ممتلئ ووجه أحمر وحركة خرقاء، ولئن كانت رقبتة لا تزال تحمّر كلما أوقعه ييب في حبال واحدة من دُعاباته، فإن ساعات التدريب الطويلة بالسيف والثرس سوّت بطنه وقوّت ذراعيه وفلطحت صدره. إنه قويّ حقًا، وأشعت كالثيران.

رَدَّد سام بارتباك: «أولمر». أول شيء تقريبًا فعله
چون سنو باعتباره القائد أنه قضى أن تكون تدريبات
الرَّماية يوميةً لأفراد الحامية كلها، حتى الوُكلاء
والظُّهاة، قائلًا إن حرس اللَّيل ركَّزوا أكثر من اللازم على
السَّيف وأقلَّ من اللازم على القوس، وهو أثر باقٍ من
الأيام التي كان فيها فارس من كلِّ عشرة إخوة بدلًا من
كلِّ مئة. رأى سام ما في القرار من حصافة، لكنه يكاد
يكره تدريبات الرَّماية بالقوس الطويل مثلما يكره صعود
السَّلام. عندما يضع قُفَّازيه لا يستطيع أن يُصيب شيئًا
أبدًا، وعندما يخلعهما تتقرَّح أصابعه. تلك الأقواس
خطرة بحق، والدليل أن ساتان قطع نصف ظفر إبهامه
بوتر أحدها. «نسيث».

قال پيپ: «كسرت قلب الأميرة الهمجيَّة أيها القاتل».
في الفترة الأخيرة تعوَّدت قال أن تُشاهدهم يتمرَّنون
من نافذة عُرفتها في (بُرج الملك). «كانت تبحث عنك».
- «غير صحيح! لا تقل هذا!». لم يتكلَّم سام مع قال
إلا مرَّتين، حين استدعاها المايستر إيمون لتتأكَّد من أن
الرَّضيعين في صحَّة جيِّدة، والأميرة رائعة الجمال
بحق، لدرجة أنه يجد نفسه يتلعثم ويتورَّد خجلًا في
حضورها.

قال پيپ: «ولمَ لا؟ إنها تُريد أن تحمل أطفالك. ربما
علينا أن ندعوك بسام المغوي».

احمرّ وجه سام. إنه يعلم أن عند الملك ستانيس
خُططا لقال، أنها الأداة التي ينوي أن يُحكّم بها السّلام
بين الشّماليّين وشعب الأحرار. «لا أملك وقتًا للرّماية
اليوم. يجب أن أذهب لأرى چون».

- «چون؟ چون؟ هل نعرف أحدًا اسمه چون يا
جرين؟».

- «يقصد حضرة القائد».

- «أوووه، اللورد سنو العظيم، بالتّأكيد. لماذا تُريد أن
تراه؟ إنه لا يستطيع هزهزة أذنيه»، وهزّهزّ بيّب أذنيه
الكبيرتين المحمّرتين من البرد ليُريهم أنه يستطيع،
وأضاف: «إنه اللورد سنو فعليًا الآن، أعلى نسبًا من أن
يُجالس أمثالنا».

قال سام مدافعًا عنه: «چون عليه واجبات. (الجدار)
تحت قيادته، وكلّ ما يتضمّنه هذا المنصب».

- «والمرء عليه واجبات نحو أصدقائه أيضًا. لولانا
لأصبح چانوس سلينت قائدنا. كان اللورد چانوس
ليُرسِل سنو في جولة تقصّي وهو عارٍ على ظُهر بغل،
ولقال له: اذهب إلى (قلعة كراستر) وعُد لي بمعطف
وحذاء الدّب العجوز. لقد أنقذناه من هذا، والآن واجباته
أكثر من أن يشرب معنا كوبًا من الثّبيذ المتبلّ إلى جوار
النّار؟».

أيّده جرين بقوله: «واجباته لا تحول دون نزوله
السّاحة. ستجده يُبارز أحدهم هناك معظم الأيام».

أقرّ سام مضطرًا بصحة هذا. ذات مرّة، عندما جاء
چون يتشاور مع المايستر إيمون، سأله سام لماذا يقضي
كلّ هذا الوقت في تدريبات المبارزة، وأضاف: «الذّب
العجوز لم يعتد أن يتدرّب كثيرًا حين كان قائدًا»، وهو
ما أجاب عنه چون بأن وضع سيفه (المخلب الطويل)
في يد سام وتركه يستشعر خفّته وتوازّنه، وجعله يدور
النّصل لتبرّق تموجات المعدن الداكن كالذّخان، ثم قال:
«هذا فولاذ قاليري، مطرّق بالتّعاويذ وحاد كال موسى،
يكاد يكون غير قابلٍ للإتلاف. لا بُدّ أن يكون حامل
السّيف بجودة سيفه يا سام. (المخلب الطويل) من
الفولاذ القاليري، أمّا أنا فلا، وكان باستطاعة ذي النّصف
يد أن يّقْتلني بسهولة سحقك بعوضة».

أعاد سام السّيف قائلاً: «كلّما حاولت أن أسحق
بعوضة طارت، فلا أفعل إلّا أن أضرب ذراعي. شيء
مؤلم».

أضحك قوله چون الذي رَدّ: «كما تُريد. كان
باستطاعة كورين أن يّقْتلني بسهولة أكلك وعاء من
الثّريد». سام مولع بالثّريد، خصوصًا المحلّى بالعسل.

- «ليس عندي وقت لهذا»، قالها سام لأصدقائه وشقّ
طريقه إلى مستودع السلاح ضامًا كُتبه إلى صدره. أنا
الذّرع التي تقي بلدان البشر. تساءل عمّا سيقوله هؤلاء
البشر إذا أدركوا أن بلدانهم يقيها من على شاكلة جرين
وييب وإد الكتيب.

(بُرج القائد) خَربته النَّار، و(بُرج الملك) اتَّخذه ستانيس باراثيون مقرًا لإقامته، ومن ثم استقرَّ جون سنو في مسكن دونال نوي المتواضع وراء مستودع السلاح. كانت جيلي مغادرةً حين وصلَ سام، جسدها ملفوف بالمعطف القديم الذي أعطاها إياه في أثناء فرارهما من (قلعة كراستر). كاذت الفتاة تندفع متجاوزةً إياه، لكنه أمسك ذراعها ليسقط منه كتابان، وقال: «جيلي».

رذت بصوتٍ مبحوح: «سام». لجيلي شعر داكن وجسد ناحل وعينان بنَّيتان واسعتان كعيّني ظبية، وقد ابتلعتها طيَّات معطف سام القديم وكاذ وجهها يتوارى تحت قلنسوته، وإن كانت ترتجف على الرغم من هذا، ولاخ على ملامحها الخوف والامتقاع.

سألها سام: «ما الخطب؟ كيف حال الطُفلين؟». سحبت جيلي ذراعها منه مجيبةً: «بخير يا سام، بخير».

قال بلُطف: «عجيب أنك تستطيعين الثوم في وجود الاثنين. مَنْ الذي سمعته يبكي ليلة أمس؟ حسبته لن يتوقَّف أبدًا».

غمغقت: «صبي دالا، دائقا يبكي حين يُريد أن يرضع.
أما صبي... صبي يكاد لا يبكي أبدًا. أحيانًا يُقرقر،
ولكن...»، وبتزت عبارتها واستطردت بعينين أغرقتهما
الدموع: «يجب أن أذهب. تأخرت على إطعامهما.
سأغرق نفسي باللبن إذا لم أذهب»، واندفعت تجتاز
الشاحه تاركة سام حائرًا.

اضطر إلى الزكوع على زكبتيه ليلتقط الكتابين
الذين أسقظهما. لم يكن ينبغي أن أجلب عددًا كبيرًا،
قال لنفسه وهو يمسح الوحل عن (خلاصة الشب)
لكولوكو قوتار، المجلد السميك الذي يضم حكايات
وأساطير من الغرب وأمره المايستر إيمون بالعثور عليه.
بدا الكتاب سليمًا، ولو أن الخط نفسه لم يُحالف
(عشيرة الثنائين، تاريخ عائلة تارجارين من المنفى إلى
الثأليه، مع بحث في حياة الثنائين وموتها) للمايستر
ثوماكس. انفتح الكتاب إذ سقط، وتلوثت بضع صفحات
بالوحل، منها واحدة تحوي صورة ممتازة بالأحبار
الملونة للرعب الأسود بالريون. سب سام نفسه وحرقها
وهو يسوي الصفحات ويمسحها. دائقا يربكه وجود
جيلي ويثير فيه... ما يثيره! لا يجذر بأخ محلف في
خرس الليل أن يشفر بما تشعره به جيلي، لا سيما حين
تتكلم عن ثدييها....

- «اللورد سنو ينتظرك». عند باب مستودع السلاح وقف حارسان مئكتان على حربتيهما، كلاهما يرتدي معطفاً أسود ويعتمر خوذة قصيرة من الحديد. كان هال الفشعر من تكلم، بينما ساعد مولي سام على التهوؤ، فتمتم شاكرًا وأسرع يتجاوزهما متشبثًا باستماتة بكومة الكتب وهو يمز بورشة الحدادة بسندانها وكيرها، وقد استقر قميص نصف مكتمل من الحلقات المعدنية على طاولة العمل. رأى جوست متمدًا أسفل السندان يقضم عظمة ثور ليصل إلى الثخاع، ورفع الذئب الذهب الأبيض الكبير عينيه حين مر سام، وإن لم يصدر صوتًا. تقع خجرة جون الشمسية وراء رفوف الجراب والثروس، ولدى دخوله ألفاه سام يقرأ رقا، وقد جثم غداً اللورد مورمونت على كتفه محدقًا إلى الورقة كأنه يقرأها أيضًا، لكن حين أبصر الطائر سام بسط جناحيه وحلق صوبه صائحًا: «ذرة، ذرة!».

عدل سام وضع الكتب وتدش يده في الكيس المجاور للباب ليخرج حفنة من الحبوب، فحظ الغداً على معصمه والتقط واحدة من كفه ناقرًا بقوة حدت بسام إلى الضياح وانتزاع يده بسرعة، وعاد الغداً يحلق وتناثرت الحبوب الصفراء والحمراء في كل مكان.

قال جون: «أغلق الباب يا سام. هل جرح المأفون جلدك؟». على وجنته لا تزال تلوح التدوب الباهتة التي خلفتها محاولة نسر أن يفقا عينه.

وضع سام الكتب برفق وخلع قفّازه، وأجاب شاعرًا
بالثوار: «نعم، إنني أنزف!».

رَدّ چون: «كلنا ننزف من أجل خرس الليل. ارتد
قفّازات أغلظ»، ودفع مقعدًا بقدمه نحو سام مردفًا:
«اجلس وألق نظرة على هذا»، وناولَه الرّق.

سأله سام بينما بدأ الغداف يلتقط الحبّ من وسط
الحصائر: «ما هذا؟».

- «دع من ورق».

امتصّ سام الدّم من راحة يده وهو يقرأ، وقد تعرّف
حُطّ المايستر إيمون بمجرّد النّظر. للعجوز حُطّ صغير
دقيق، لكنه لا يرى المواضع التي يُلَطّخ فيها الحبر
الورقة، فيتزك أحيانًا بقفاً قبيحة. «رسالة إلى الملك
تومن؟».

قال چون: «في (وينترفل) تبارز تومن وأخي بران
بسيّفين خشبيّين. كان يرتدي بطانةً سميكةً لدرجة أنه
بدا كأوْرة محشوّّة، وطرحه بران أرضًا»، وذهب إلى
الثّافذة مواصلاً: «ومع ذلك مات بران، والآن يجلس
تومن السّمين ذو الوجه المتورّد على العرش الحديدي،
ووسط خُصلاته الذهبيّة يستقرّ الثّاج».

أراد سام أن يقول: بران لم يمت، بل ارتحل وراء
(الجدار) مع ذي اليدين الباربتين، لكن الكلمات احتبست
في حلقه. لقد أقسمتُ ألا أقول. «لم تُوقّع الرسالة».

- «الذّب العجوز توشل العون من العرش الحديدي
مئة مرّة، فأرسلوا له چانوس سلينت. لا رسالة من شأنها
أن تجعل آل لانستر يحثّوننا أكثر ما إن يسمعون أننا
ساعِدنا ستانيس».

قال سام: «في الدّفاع عن (الجدار) فقط، وليس في
تمزّده»، وقرأ الرّسالة ثانية بشرعة قبل أن يُضيف: «هذا
هو المكتوب هنا».

قال جون: «قد يغيب الفرق عن اللورد تاويين»،
وتناول الرّسالة من سام متسائلاً: «لِمَ يُساعِدنا الآن؟ إنه
لم يفعلها من قبل قَطّ».

- «لأنه لن يُريد أن يقول الثّاس إن ستانيس هبّ
للدّفاع عن البلاد بينما يلعب الملك تومن بلُعبه. شيء
كهذا سيؤدّي إلى الشّخيرة من عائلة لانستر».

قال جون: «ما أريده لعائلة لانستر هو الموت
والذّمار»، ورفع الرّسالة وقرأ: «حرس اللّيل لا يتدخّلون
في حروب (الممالك السّبع). إنّنا نحلف أيماننا للبلاد،
والبلاد في خطرٍ داهم الآن. ستانيس باراثيون يُساعِدنا
ضد أعدائنا من وراء (الجدار)، لكننا لسنا رجاله...».

قال سام بارتباك: «طيّب، نحن لسنا رجاله بالفعل،
أليس كذلك؟».

- «لقد أعطيت ستانيس الطّعام والمأوى و(قلعة
اللّيل)، بالإضافة إلى السّماح له بتوطين عدي من شعب
الأحرار في (الهدية)، هذا كلّ شيء».

- «اللورد تاويين سيقول إن هذا كثير للغاية».

- «وستانيس يقول إنه لا يكفي. كلُّما أُعطيت ملكًا المزيد أرادَ أكثر. إننا نمشي على جسرٍ من الجليد على جانبيه هاوية. إرضاء ملكٍ واحدٍ عسير بما فيه الكفاية، أمَّا إرضاء اثنين فيكاد يكون مستحيلًا».

- «نعم، لكن... إذا كانت الغلبة لآل لانستر وقرَّر اللورد تايوين أننا خُفَّا الملك بدعمنا ستانيس فقد يعني هذا نهاية حرس اللَّيل. إن وراءه آل تايبرل وقوَّة (هايجاردن) بأكملها، كما أنه هزَم اللورد ستانيس في معركة (النَّهر الأسود)». ربما يُصيب منظر الدِّماء سام بالذَّوار، لكنه يعلم كيف تُربِّح الحروب. أبوه حرص على هذا.

- «(النَّهر الأسود) معركة واحدة. روب انتصرَ في معاركه كلَّها وفقدَ رأسه رغم ذلك. إذا استطاع ستانيس أن يحشد الشَّمال...».

أدرك سام أن چون يُحاول إقناع نفسه. لكنه غير قادر. لقد حلَّقت الغدقان من (القلعة السوداء) في عاصفةٍ من الأجنحة السوداء، تستدعي لوردات الشَّمال لإعلان تأييدهم ستانيس باراثيون وضُمَّ قوَّاتهم إلى قوَّاته، وقد أرسلَ سام معظم الطَّيور بنفسه، وحتى الآن لم يرجع إلَّا واحد، الطَّائر الذي أرسلوه إلى (كارهولد)، وفيما عدا ذلك فالضَّمَّت يصمُّ الآذان.

حتى إذا استطاع ستانيس أن يربح الشماليين في صفه، فسام لا يرى كيف يأمل في معادلة قوة (كاسترلي روك) و(هايجاردن) و(الثوأميتين) مجتمعة... لكن قضيته خاسرة لا محالة دون الشمال. خاسرة كحرس الليل إذا وصفنا اللورد تايوين بالخيانة. «آل لانستر معهم شماليون في صفوفهم، اللورد بولتون ونغله».

- «ستانيس معه آل كارستارك. إذا فاز بتأييد (الميناء الأبيض)...».

قاطعه سام ضاغظاً على الكلمة: «إذا. وإذا لم يحدث... سيدي، حتى يرع من ورق أفضل من لا شيء».

لوح جون بالورقة قائلاً: «أظن هذا»، وتنهد ثم التقط ريشة وذيل الرسالة بتوقيعه، وقال: «أحضر الشمع». وهكذا سخن سام قالباً من الشمع الأسود فوق شمعة وقطر القليل منه على الرق، ثم شاهد وجون يضغط ختم حرس الليل بقوة في الشمع الطري، قبل أن يقول أمراً: «خذها إلى المايستر إيمون حين تغادر وقُل له أن يرسل طائراً إلى (كينجز لاندنج)».

قال سام: «سأفعل»، وتردد لحظة ثم استطرد: «سيدي، إذا سمحت لي بالسؤال... لقد رأيت جيلي وهي ذاهبة، وكانت مجهشة بالبكاء».

- «قال أرسلتها تتشفع لمانس مجدداً».

- «أوه». قال أخت المرأة التي اتّخذها ملك ما وراء الجدار ملكةً له، ويطلق عليها ستانيس ورجاله «الأميرة الهمجيّة»، وقد مائت أختها دالا خلال المعركة، مع أن نصلًا لم يمّشها، بل فاضت نفسها وهي تلد ابن مانس رايدر. قريبًا سيتبعها رايدر نفسه إلى القبر، إذا صدقت الهمسات التي سمعها سام. «ماذا قلت لها؟».

أجاب جون: «إنني سأتكلم مع ستانيس، وإن كنت لا أظن أن كلامي سيؤثر فيه. أول واجبات الملك أن يُدافع عن بلاده، ومانس رايدر هاجم البلاد، وليس واردًا أن ينسى جلالته هذا. لقد اعتاد أبي أن يقول إن ستانيس باراثيون رجل عادل، لكن لا أحد قال قط إنه متسامح»، وصمت لحظةً مقطّبةً وجهه قبل أن يتابع: «أؤثر أن أقطع رأس مانس بنفسي، فقد كان رجلًا في حرس الليل ذات يوم، وبالحق يُفترض أن تكون حياته في أيدينا نحن».

- «بيب يقول إن الليدي مليساندرا تنوي أن تُحرقه لتصنع سحرًا ما».

- «على بيب أن يتعلّم أن يصون لسانه. الكلام نفسه سمعته من آخرين. دم الملوك الذي من شأنه أن يُوقظ تئيثًا، لكن لا أحد يدري أين تحسب مليساندرا أنها ستجد تئيثًا نائمًا. إنها ثرهات. دماء مانس ليست أكثر ملكيّة من دمائي. إنه لم يعتمر تاجًا أو يجلس على عرش قط. الرّجل قاطع طريق لا أكثر، وليست هناك قوّة في دماء قُطّاع الطّرق».

على الأرض رفع الغداف عينيه وصرخ: «دماء!».
لم يُعِره جون اهتمامًا، وقال: «سأصرف جيلي من
هنا».

غمغم سام: «أوه»، وأوماً برأسه قائلاً: «حسن، هذا...
هذا جيد يا سيدي». أفضل شيء لها أن تذهب إلى
مكان آمن دافئ، بعيدًا عن (الجدار) والقتال.
- «هي والضبي. علينا أن نجد مُرضعة أخرى لأخيه
في الرضاعة».

- «لا بأس بحليب الماعز حتى تجدوا واحدة. إنه
أفضل للرضع من حليب الأبقار». كان سام قد قرأ هذا
في مكان ما. اعتدل في جلسته قائلاً: «سيدي، بينما
أقرأ الحوليّات عثرتُ على قائد صبي آخر قبل أربعمئة
عام من الغزوة. أوزريك ستارك كان في العاشرة من
العمر حين اختير، لكنه خدم سَتين عامًا. هكذا أصبحوا
أربعة يا سيدي، أي أنك لست قريبًا حتى من أن تكون
أصغر رجل يُنتخب للقيادة. إنك الخامس حتى الآن».
- «والأربعة الأصغر كلهم أبناء أو إخوة أو نغول للملك
في الشمال. أخبرني بشيء مفيد، حدّثني عن عدونا».

قال سام: «(الآخرون)»، ولعق شفتيه مستدرگا: «إنهم مذكورون في السجلات، وإن لم يكن بالكثرة التي حسبتها... في السجلات التي وجدتتها وقرأتها بالأحرى، لكنني أعرف أن هناك المزيد مما لم أجده. بعض الكتب الأقدم متفسخ، والصفحات تفتت حين أحاول أن أقلبها. وبالنسبة إلى الكتب العتيقة... إِمَّا أنها تفتتت تمامًا وإِمَّا أنها مدفونة في مكان ما لم أبحث فيه بعد، وربما... ربما لا تكون هناك كتب كهذه من الأصل ولم يكن لها وجود قَط. أقدم التواريخ المدونة كان بعد مجيء الأنداليين إلى (وستروس)، بينما ترك لنا البشر الأوائل نقوشًا على الضخور فحسب، لذا فإن كل شيء نظن أننا نعرفه عن عصر الأبطال والليل الطويل يأتي من حكايات كتبها سبتونات بعد آلاف الأعوام من تلك الأحداث، وهناك ما يسترات رؤساء في (القلعة) يُشككون فيها جميعًا. تلك التواريخ القديمة ملأى بالملوك الذين حكموا مئات السنين، والفرسان الذين جابوا البلاد قبل ألف عام من وجود فرسان. أنت تعرف تلك الحكايات؛ براندون البئاء وسيميون ذو العينين النجمتين وملك الليل... نحن نقول إنك القائد التسعة وثمانية وتسعون لخرس الليل، لكن أقدم قائمة وجدتتها تضم ستمئة وأربعة وسبعين قائدًا، وهو ما يفيد بأنها كُتبت...».

قاطعه جون: «منذ زمن طويل. ماذا عن (الآخرين)؟».

- «وجدت ذكراً لرجاج التئين. أطفال الغابة تعودوا أن يعطوا حرس الليل مئة خنجر من الرجاج البركاني كل عام خلال عصر الأبطال. معظم الحكايات متفق على أن (الآخرين) يأتون في البرد، أو أن البرد يأتي معهم. أحياناً يظهرون وقت العواصف الثلجية ويختفون حين تصفو السماء، ويختبئون من ضوء الشمس ويخرجون ليلاً... أو أن الليل يحل حين يخرجون. بعض القصص يتكلم عن ركوبهم الحيوانات الميتة؛ الذبابة والذئب الزهية والماموثات والخيول، لا فرق ما دام الحيوان ميتاً. الذي قتل يول الصغير كان يمتطي حصاناً ميتاً، فواضح أن هذا الجزء صحيح. بعض الحكايات يذكر عناكب جليدية أيضاً، لكني لا أدري ماهيتها. من يسقطون في المعركة أمام (الآخرين) لا بد أن يحرقوا وإلا سينهض الموتى من جديد كعبيد لهم».

- «نعرف كل هذا. السؤال هو كيف نقاتلهم؟».

قال سام: «دروع (الآخرين) منيعة ضد معظم الأسلحة التقليدية، إذا صدقنا ما ورد في الحكايات، وسيوفهم باردة للغاية لدرجة أنها تحطم الفولاذ، لكنهم يهابون النار، ومن شأن رجاج التئين أن يؤذيهم». تذكر (الآخر) الذي واجهه في (الغابة المسكونة)، وكيف بدا أنه يذوب ذوباناً عندما طعنه بخنجر الرجاج البركاني الذي صنعه له جون. «وجدت حكاية عن الليل الطويل تقول إن البطل الأخير قتل (الآخرين) بسيف من فولاذ التئين. المفترض أنهم لا يستطيعون الصمود أمامه».

قَطَّبَ چون جبينه قائلًا: «فولاذ التَّيْنِ؟ الفولاذ
القاليري؟».

- «هذا أول ما خطرَ لي أيضًا».

- «إذن إذا استطعتُ أن أقنع لوردات (الممالك السَّبع)
بإعطائنا سيوفهم المصنوعة من الفولاذ القاليري
فستنتهي المشكلة؟»، وأطلق چون ضحكةً خاليةً من
المرح، وأردف: «هل عرفت من يكون (الآخرون)؟ من
أين يأتون؟ ماذا يريدون؟».

- «ليس بعدُ يا سيّدي، لكن لعلي كنتُ أقرأ الكُتب
الخطأ فقط. هناك مئات الكُتب التي لم أفتحها حتى
الآن. أعطني مزيدًا من الوقت وسأجد كلَّ ما يُمكن
إيجاده».

بنبرة حزينة قال چون: «ليس هناك مزيد من الوقت.
عليك أن تحزم أغراضك يا سام، إنك راحل مع جيلي».
مرّت لحظة دون أن يستوعب سام، ثم قال: «راحل؟
أنا راحل؟ إلى (القلعة الشرقيّة) يا سيّدي؟ أم... أين...».
- «(البلدة القديمة)».

- «(البلدة القديمة)؟!». خرجت الكلمة منه صريخًا.
(هورن هيل) قريبة من (البلدة القديمة). الدّيار. مجرّد
الفكرة جعلَ رأسه يدور. /بي.
- «وإيمون أيضًا».

- «إيمون؟ المايستر إيمون؟ لكن... لقد تجاوزَ المئة بعامين يا سيّدي، ولا يقوى على... سثرسله وثرسلني أيضًا يا سيّدي؟ ومن سيعتني بالغدقان؟ إذا مرضت أو جُرِحت، فمن...».

- «كلايداس، إنه مع إيمون منذ سنوات».

- «كلايداس مجرّد وكيل، وبصره يزداد ضعفًا. أنت محتاج إلى مايستر. المايستر إيمون واهن، ورحلة في البحر...». فكَر في (الكرمة) والشفينة (ملكة الكرمة) فكاذ يخنق بلسانه. «ربما... إنه شيخ، و...».

- «ستكون حياته في خطر، أدرك هذا يا سام، لكن الخطر هنا أكبر. ستانيس يعرف من هو إيمون، وإذا كانت تعاويذ المرأة الحمراء تقتضي دم الملوك...». رَدَّ سام بوجه شحَب: «أوه».

- «سينضمّ داريون إليكم في (القلعة الشرقيّة). أملي أن تُكسبنا أغانيه بعض الرّجال في الجنوب. ستحملكم (الطائر الأسود) إلى (براقوس)، ومن هناك عليكم ترتيب رحلتكم إلى (البلدة القديمة). إذا كنت لا تزال تعتزم أن تُعلن ابن جيلي نغلك، فأرسلها إلى (هورن هيل)، وإن لم يكن فسيجد لها إيمون عملاً كخادمة في (القلعة)».

- «ننغلي». لقد قال هذا، نعم، ولكن... كل تلك المياه، يُمكن أن أغرق. السفن تفرق طوال الوقت، والخريف فصل عنيف العواصف. لكن جيلي ستكون معه، وسينشأ الطفل في أمان. «نعم، أنا... أمي وأخواتي سيساعدن جيلي على العناية بالضبي». يُمكنني أن أرسل رسالة. لا حاجة إلى الذهاب إلى (هورن هيل) بنفسي. «داريون يستطيع أن يصحبها إلى (البلدة القديمة) مثلي تمامًا. إنني... إنني أتمرّن على الزمائية كل أصيل مع أولمر كما أمرت... إلا عندما أكون في القبو، لكنك قلت لي أن أكتشف ما يُمكن اكتشافه عن (الآخرين). القوس الطويل يؤلم كتفي ويجعل أصابعي تتقرّح»، ورفع يده يُري جون أحد القروح المفتوحة مواصلاً: «لكني ما زلت أتمرّن، وأستطيع أن أصيب الهدف معظم الوقت الآن، إلا أنني لا أزال أسوأ راج حمل قوسا في العالم. لكني أحب قصص أولمر. على أحدهم أن يَدُونها ويضعها في كتاب».

- «دُونها إذن. إن لديهم حبزًا وورقًا في (القلعة)، بالإضافة إلى الأقواس الطويلة. سأتوقّع منك أن تُواصل تدريباتك. سام، في حرس الليل مئات الرّجال الذين يستطيعون الرمي بالشهام، لكن ليس بينهم إلا شُرذمة ممن يُجيدون القراءة والكتابة. أريدك أن تكون ما يستري الجديد».

جعلته الكلمة يجفل. لا، أرجوك يا أبي، لن أتكلّم عن هذا ثانية، أقسم بالآلهة السبعة. أخرجني، أرجوك أخرجني. «سيدي، أنا... إن عملي هنا. الكتب...». - «ستكون هنا عندما تعود إلينا».

وضع سام يده على عنقه وهو يكاد يحشّ بالسلسلة حوله، ثخّقه. «سيدي، (القلعة)... إنهم يجعلونك تُشّرح الجثث هناك». إنهم يجعلونك تضع سلسلة حول عنقك. إذا كنت تريد سلسلة فتعالّ معي. طيلة ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ ظلّ سام ينتحب حتى يغلبه النوم وهو مقيد بالأصفاد إلى الحائط، تحيط بعنقه سلسلة مشدودة عن آخرها لدرجة أنها جرحت جلده، ومتى التّف في اتجاه خاطئ في نومه انقطعت أنفاسه. «لا يُمكنني أن أضع سلسلة».

- «بل يُمكنك، وستفعل. المايستر إيمون عجوز كفيف وقوّته تتسرّب منه. من سيحلّ محله عندما يموت؟ المايستر مولين في (برج الظلال) مُقاتل أكثر من نطاسي، والمايستر هارميون في (القلعة الشرقيّة) يسكر أكثر مما يستفيق».

- «إذا سألت (القلعة) أن تُرسل المزيد من المايسترات...».

- «هذا ما أنتويه، فسنحتاج إلى كل واحد منهم، لكن إيمون تارجارين لا يُستبدل بسهولة»، ولاخت الحيرة على جون وهو يُضيف: «كنت واثقًا بأن الأمر سيسرّك. في (القلعة) كتب أكثر مما يأمل أحد أن يقرأها كلّها. سُبلي بلاء حسنًا هناك يا سام، أعلم هذا».

- «لا. يُمكنني أن أقرأ الكتب، لكن... على المِهايستر أن يكون مُعالجًا أيضًا، والدّددم يُصيبني بالذّوار»، ورفع سام يده مرتعدًا لجون مضيفًا: «أنا سام الخائف لا سام القاتل».

- «خائف؟ ممّ؟ توبيخ بضعة رجالٍ مسّئين؟ سام، أنت رأيت الجُثث الحيّة تجتاح (القبضة)، رأيت طوفانًا من الموتى الأحياء بأيدي سوداء وأعين زرقاء لامعة. لقد قتلت واحدًا من (الآخرين)».

- «قتله زُرُزُجاج التّئين وليس أنا».

- «صمًّا. لقد كذبت وتحايّلت وتأمّرت لتجعلني القائد، سَطيّعي إذن. ستذهب إلى (القلعة) وتكوّن سلسلة، وإذا كان عليك أن تُشّرح الجُثث فليكن. على الأقل لن تعترض الجُثث في (البلدة القديمة)».

إنه لا يفهم. «سيدي، إن أأأبي، اللورد راندل، إنه، إنه، إنه، إنه... حياة المايستر حياة خدمة». يعلم سام أنه يتكلم الآن كأنه يهذي، لكنه تابع: «لا أحد من أبناء عائلة تارلي يضع سلسلة حول عنقه أبدًا. رجال (هورن هيل) لا ينحنون للوردات الأدنى ويُعْظَمونهم». إذا كنت تريد سلسلة فتعال معي. «جون، لا أستطيع أن أعصي أبي».

قال سام: «جون»، لكن جون لم يَعد هناك، ومن يُواجهه الآن هو اللورد سنو بعينيه الرماديتين وصلابته الجديدة، وقد قال اللورد سنو: «أنت لا أب لك، بل إخوة فقط، نحن فقط. إن حياتك تنتمي إلى حرس الليل، فاذهب واحشر ثيابك الداخلية في جوالٍ ومعها كل شيء آخر تريد أن تأخذه إلى (البلدة القديمة). سثغادر قبل ساعة من الشروق. وهاك أمر آخر: من اليوم فصاعدًا لن تنعت نفسك بالجبن. لقد واجهت في العام المنصرم أشياء أكثر مما يرى معظم الناس في حياتهم كلها. يمكنك أن تُواجه (القلعة)، لكنك سثواجهها باعتبارك أخًا محليًا في حرس الليل. لا أستطيع أن أمرك بأن تكون شجاعًا، لكني أستطيع أن أمرك بأن تخفي مخاوفك. لقد حلقت اليمين يا سام، أذكرك؟».

أنا السيف في الظلمات. لكنه أخرج تماها في استعمال السيف، والظلمة تخيفه. «س... سأحاول».

- «لن تُحاول، وإنما سثطيع».

خَفَقَ غُدَاف مَورمونت بِجَنَاحِيهِ الأَسودين الكَبيرين
مَرَدَّدًا: «تُطيع!».

- «كَمَا يَأمر سَيِّدي. هل... هل يَعرف المَيسِتر
إيمون؟».

قال جون: «إنها فكرته قدر ما هي فكرتي»، وفتح له
الباب مردفًا: «لا وداع. كلَّما قَلَّ عدد من يعلمون بالأمر
كان أفضل. ساعة قبل طلوع الفجر في ساحة
الأشنة(24)».

لا يَذكر سام أنه غادرَ مستودع السلاح، وإذا به يمشي
متعثرًا في الأوحال وزقع الثلج القديم إلى مسكن
المَيسِتر إيمون. قال لنفسه: يُمكنني أن أختبئ، يُمكنني
أن أختبئ في الأقبية وسط الكتب، يُمكنني أن أعيش
هناك مع القار وأتسلَّل إلى السطح ليلاً لأسرق الطعام.
يعلم أنها خواطر جنونية، عديمة الجدوى قدر ما هي
يائسة. ستكون الأقبية أول مكان يبحثون عنه فيه، أمَّا
آخر مكان يبحثون عنه فيه فوراء (الجدار)، لكن هذا
خاطر أكثر جنونًا. ربما يقبض عليَّ الهمج ويقتلونني
ببطء، ربما يحرقونني حيًّا كما تنوي المرأة الحمراء أن
تُحرق مانس رايدر.

حين وجد المَيسِتر إيمون في المِغْدفة(25) أعطاه
رسالة جون واندفع يبوح بمخاوفه بكلمات مرتبكة
صاخبة وهو يشغُر بالغثيان: «إنه لا يفهم! إذا وضعت
سلسلةً فإن السيِّد ووووالدي سي... سي... سوف...».

قال الشَّيْخُ: «أبي أيضًا أبدى الاحتجاج نفسه حين اخترث حياة الخدمة، وكان أبوه هو من أرسلني إلى (القلعة). لقد أنجبَ الملك دايرون أربعة أبناء، وثلاثة منهم أنجبوا أبناء. يوم ودَّعوني سمعتُ جلالته يقول للسَّيِّد والدي: الثَّانَيْنِ الأكثر من اللازم خطرة كالثَّانَيْنِ الأقل من اللازم»، ورفعَ إيمون يَدًا مَبْقَعَةً إلى سلسلته ذات المعادن العديدة التي تتدلَّى مرتخيةً حول رقبتِه الرِّفِيعَةِ، وأضاف: «السَّلسَلَةُ ثقيلة يا سام، لكن جَدِّي كان محقًّا، وكذا اللورد سنو».

تمتَمَ أحد الغدقان: «سنو!»، ورَدَّدَ آخَرُ: «سنو!». ثم استشرى الضَّيَّاح بين بقيَّة الطَّيُور التي راحت تُرَدَّدُ: «سنو، سنو، سنو، سنو، سنو، سنو!». سام هو من علَّمها هذه الكلمة. أدركَ أنه لن يجد مَسَاعِدَةً هنا، فالْمَايستر إيمون مغلوب على أمره مثله تمامًا، وفكَّرَ بياس: سيموت في البحر. إنه أكثر عَجْزًا من أن يحتمل رحلةً كذلك. وقد يموت ابن جيلي أيضًا. الصَّبي ليس كبيرًا وقويًا كابن دالا. هل يُريدُ جون أن يَقْضِلَنَا جميعًا؟

في الصباح التالي وجد نفسه يضع الشرج على
القرس التي ركبها من (هورن هيل) ويقودها إلى ساحة
الأشنة على الطريق الشرقي، وقد انتفخ جرابا الشرج
بالجبن والشجق والبيض المسلوق، بالإضافة إلى نصف
فخذ مملحة من لحم الخنزير أهدها له هوب ذو الثلاثة
أصابع يوم ميلاده، وقال له الظاهي: «أنت رجل يُقدَّر
الظهو حقَّ قدره أيها القاتل. نحن محتاجون إلى المزيد
من أمثالك». سيُساعدهم اللحم لا ريب، فبين هنا
و(القلعة الشرقيّة) طريق بارد طويل، وليست هناك
بلدات أو خانات في ظلّ (الجدار).

كانت الساعة السابقة للفجر مظلمة ساكنة، وعلى
(القلعة السوداء) خيم صمت عجيب. في ساحة الأشنة
انتظرتّه عربتان بعجلتين، ومعهما چاك بولوار الأسود
ودسته من الجوّالة المخضرمين الأصلاب كخيولهم.
أطلق كدج ذو العين البيضاء سبّابًا عاليًا عندما أبصر
سام بعينه السليمة، فقال له چاك الأسود: «تدعك منه
أيها القاتل. لقد خسّر رهائنًا، قال إنه سيكون علينا أن
نجرّك صارخًا من تحت فرايش ما».

لأن المايستر إيمون أوهن من أن يركب حصانًا، فقد جُهِّزَتْ له عربة وكُوِّمَتْ عليها الأغطية الفرو، وثُبَّتَتْ فوقها مظلة جلد لتقيه من المطر والثلج. ستركب جيلي وطفلها مع المايستر، أمَّا العربة الثانية فتحمل ثيابهم وأغراضهم، بالإضافة إلى صندوق من الكتب القديمة اللادرة التي خطر لإيمون أن (القلعة) قد تفتقر إليها، وكان سام قد أمضى نصف الليل بحثًا عنها، وإن لم يعثر إلا على كتاب واحد من كل أربعة. لا بأس، وإلا كنا سنحتاج إلى عربة أخرى.

عندما ظهر المايستر كان متدثرًا بفروة ذبّ تفوقه حجبًا ثلاث مرّات، وإذ قاده كلايداس إلى العربة هبّت الرّيح بقوة جعلت الرّجل الهرم يترنّج، فهرغ إليه سام وطوّقه بذراعه. هبة أخرى كهذه كفيلة بأن تُطَيِّرَه فوق (الجدار). «أمسك ذراعي أيها المايستر. العربة ليست بعيدة».

أومأ الرّجل الكفيف برأسه بينما أزاخت الرّيح قلنسوته عن رأسه، وقال: «الطقس دافئ دوماً في (البلدة القديمة). ثقة خان مُقام على جزيرة في (نهر اليتع) اعتدث الذهاب إليه وأنا مبتدئ شاب. سيكون جميلاً أن أجلس هناك ثانية وأشرب خمر الثّقاح».

لدى وضعهم المايستر على العرية كانت جيلي قد ظهرت بدورها حاملة الرضيع بين ذراعيها، وتحت قلنسوتها بدت عيناها حمراوين من البكاء. في الوقت نفسه وصل جون ومعه إد الكتيب، فناداه المايستر إيمون قائلا: «لورد سنو، لقد تركت لك كتابا في مسكنك، (خلاصة اليشب) الذي كتبه الفغامر القولانتيني كولوكو قوتار، الذي سافر إلى الشرق وزار جميع أراضي (بحر اليشب). هناك فقرة قد تثير اهتمامك، قلت لكلايداس أن يُعلمها لك».

ردّ جون سنو: «سأعرض على قراءتها».

سأل خيط من المخاط الشاحب من أنف المايستر إيمون، فمسحه بظهر قفّازه، وقال: «المعرفة سلاح يا جون، فسلح نفسك جيّدا قبل أن تخوض المعركة».

- «سأفعل». كان ثلج خفيف قد بدأ يسقط، تنزل رقاقاته الكبيرة الناعمة بكسل من السماء، فالتفت جون إلى چاك بولوار الأسود قائلا له: «أسرعوا قدر الإمكان، لكن لا داعي للمخاطرات الحمقاء. إن معكم رجلا عجوزا وطفلا رقيقا. احرص على دفنهم وإطعامهم جيّدا».

قالت جيلي: «افعل المثل يا سيّدي، افعل المثل مع الآخر، اعثر له على مربية كما قلت، لقد وعدتني بأنك ستفعل. الصبي... صبي دالا... أعني الأمير الصغير... اعثر له على امرأة صالحة ليكبر قويّا».

قال جون سنو برصانة: «لك كلمتي».

- «إياكم أن تُسْمَوْه، لا تفعلوا هذا قبل أن يتجاوز
العامين. تسميتهم وهم ما زالوا يرضعون طالع سيئ.
ربما لا تعرفون هذا أيها الغربان، لكنه صحيح».
- «كما تأمرين يا سيّدي».

اشتعل وجه جيلي غضبًا، وصاحت: «لا تُنادني بهذا.
أنا أم ولست سيّدة أحد، أنا زوجة كراستر وابنته، وأم».
أخذ إد الكئيب الطفل فيما صعّدت جيلي إلى العربة
وغطّت ساقها بالجلود الزّنخة، وعندئذ كانت سماء
الشرق قد صارت رماديّة أكثر من سوداء، وأبدى ليو
الأعسر استعجاله الرّحيل. ناول إد الطفل لجيلي فألقته
ثديها، وفكّر سام وهو يمتطي فرسه: ربما تكون هذه
آخر مرّة أرى (القلعة السوداء). قدر ما كان يكره (القلعة
السوداء) ذات يوم فإن فؤاده يتمزّق الآن لتركها.
قال بولوار أمّا: «هيا بنا»، وطرق سوط وبدأت
العربتان تتحرّكان بتؤدة على الطّريق المحفّر بينما نزلت
الثّلوج حولهم.

ظلّ سام إلى جوار كلايداس وإد الكئيب وچون سنو
ليقول: «حسن، وداغًا».

ردّ إد الكئيب: «ووداغًا لك يا سام. لا أظنّ أن
سفينتك ستغرق. الشفن لا تغرق إلّا عندما أكون على
متنها».

قال جون وهو يُراقب العربيتين: «أول مزة رأيت جيلي كان ظهرها ملتصقا بجدار (قلعة كراستر)، تلك الفتاة النحيلة ذات الشعر الداكن والبطن المنتفخ، منكشمة زعبا من جوست. كان قد افترس أرائبها، وأظن أنها خافت أن يمزق بطنها ويلتهم جنينها... ولكن الذئب لم يكن ما عليها أن تخافه، أليس كذلك؟».

فكر سام: نعم. كراستر كان الخطر، أبوها. «إنها تمتلك شجاعة أكثر مما تحسب».

قال جون: «وكذلك أنا يا سام. رحلة سريعة آمنة، واعتني بها ويأيمون والطفل»، وارتسفت على شفثيه ابتسامة غريبة حزينة وهو يضيف: «وارفع قلنسوتك. ندف الثلج تذوب في شعرك».

(23) القنطور مخلوق أسطوري يصفه السفلي حصان والغلوي إنسان. (المترجم).

(24) الأشنة كائنات تعايشية تتكوّن من ترافق بين الطحالب الخضراء أو الجراثيم الزرقاء والفطريات، وتنمو على الأبنية القديمة والقبور، ولذا يُطلق على ساحات المقابر هذا الاسم. (المترجم).

(25) المغدفة عبارة عن قفص كبير بمثابة غش لطيور الغداف. (المترجم).

آريا

خافئًا بعيدًا اتقد الضوء الواطئ في الأفق، يتلألًا
متخللاً ضباب البحر.

قالت آريا: «يبدو كنجمة».

فقال دينيو: «نجمة الوطن».

كان أبوه يزعم ملقيًا الأوامر، والبحارة يتحركون
صاعدين ونازلين الضواري الطويلة الثلاثة ويشدون
الحبال ليطووا الأشرعة الأرجوانية الثقيلة، وفي الأسفل
يكدح المجذفون على صفي المجاذيف الكبيرين، فمالت
الأسطح مصدرةً صريًا مع ميل القاليون (26). (ابنة
المارد) إلى الميمنة توطئة لتعديل اتجاهه.

نجمة الوطن. وقفت آريا عند المقدمة مريحةً يدها
على التمثال المذهب الذي يتخذ شكل فتاة تحمل وعاء
فاكهة، وتركت نفسها تتظاهر لأقل من لحظة بأن القابع
أمامهم وطنها هي.

لكن هذا سخف. وطنها ضاع، وأبواها ماتا، وإخوتها قُتلوا جميعًا باستثناء چون سنو على (الجدار)، وهو المكان الذي أرادت أن تذهب إليه، وهذا ما قالتها للرَّبان، لكن حتى الغملة الحديد لم تُقنعه. يبدو أن آريا تعجز دائمًا عن بلوغ الأماكن التي تُريد الذهاب إليها. لقد أقسمَ يورن على أن يُوصلها إلى (وينترفِل)، وانتهى بها المطاف في (هارنهال) وبيورن في قبره، وحين هربت من (هارنهال) ساعيةً إلى (ريقرزن) أسرها ليم وأنجاي وتوم أبو السُّبعات وجزّوها إلى التُّلّ الأجوف، ثم اختطفها كلب الضيد وجزّها إلى (الثوأميتين)، قبل أن تُتركه يُحتضر عند النهر وتُجّه إلى (الملاحات) آملةً أن تستقلّ سفينةً إلى قلعة خرس الليل الشرقيّة على البحر، ولكن...

ربما لا تكون (براقوس) بذلك الشؤء. سيريو كان من (براقوس)، وقد أجذّ جاكن هناك أيضًا. جاكن هو من أعطاهَا الغملة الحديد. لم يكن صديقها حقًا مثل سيريو، ولكن يَمّ نفعها الأصدقاء من قبل على كلّ حال؟ لستُ في حاجةٍ إلى أصدقاء ما دامت إبرتي معي. مشّت قبيعة الشيف الملساء بغُفلة إبهامها وهي تتمنى أن... تتمنى أن...

الحقيقة أن آريا لا تدري ماذا تتمنى، تمامًا مثلما لا
تدري ما ينتظرها هناك تحت ذلك الضوء البعيد. لقد
سمح لها الزُّبان بركوب السفينة، لكنه لم يملك وقتًا
للكلام معها، كما أن عددًا من أفراد الطاقم تجنّبها، وإن
كان بعضهم قد أعطاهم هدايا، منها شوكة فضة وقفازان
بلا أصابع وقبّعة عريضة من الضوف المرقّع بالجلد،
وأراها أحد الرجال كيف تعمل العقد الشراعية، وصبّ لها
آخر فناجين صغيرة من التّبيز النّاري. الودودون منهم
يَنقُرُون على صدورهم مرّدين أسماءهم مرارًا وتكرارًا
إلى أن تردّ بها آريا، ولو أن أحدًا لم يسألها عن اسمها
هي، وبدلًا من هذا يُسِفُونها «ملحة»، بما أنها ركبت
معهم من (الملاحات) قُرب مصب (الثالوث)، وعلى ما
تظنّ فلا فرق بينه وبين أيّ اسم آخر.
اختفى آخر نجوم الليل... كلّها باستثناء الاثنتين
الثابتتين أمامهم مباشرة، فقالت: «إنهما نجمتان الآن».
قال دينيو: «عينان. (المارد) يرانا».

المارد البراقوسي. في (وينترفل) حكت لهم العجوز نان عن (المارد)، وكيف أنه عملاق يُناهز الجبال طولًا، ومتمى حاقّ الخطر بـ(براقوس) تدبّ فيه الحياة وتشتعل عيناه نازًا، وتصرّ أطرافه الصخرية وتطّطق إذ يخوض في البحر ليسحق الأعداء. «البراقوسيون يطعمونه لحم بنات عليّة القوم الطّازج الغصّ». بهذه العبارة كانت نان تختتم حكايتها، فتصدر سائزًا صريزًا خائفًا سخيّفًا، لكن المايستر لوين قال إن (المارد) مجرّد تمثال، وقصص العجوز نان ما هي إلّا قصص.

حدّث آريا نفسها مذكّرة: (وينترفل) احترقت وسقطت. وغالبًا مات المايستر لوين والعجوز نان، وسائزًا أيضًا، ولن ينفعها أن تفكّر فيهم. كلّ البشر يُدرّكهم الموت. هذا ما تعنيه الكلمتان، الكلمتان اللتان علّمها جاكّن إياهما عندما أعطاهما الغملة الحديد البالية. منذ رحلوا من (الملاحات) تعلّمت المزيد من الكلمات البراقوسية أيضًا، مرادفات «من فضلك» و«شكرًا» و«البحر» و«الثّجوم» و«الثّبيذ الثّاري»، لكنها أثّتهم عالمة أن كلّ البشر يُدرّكهم الموت. معظم طاقم (ابنة المارد) يعرف كلمات متناثرة من اللّغة العاميّة لقضائهم ليالي وليالي على البَرّ في (البلدة القديمة) و(كينجز لاندنج) و(بركة العذارى)، وإن كان الرّبّان وأبناؤه يُجيدونها بما يكفي للكلام مع آريا. دينيو أصغر الأبناء، غلام ممتلئ بشوش في الثّانية عشرة، يُعنى بقمرة أبيه ويُساعد أخاه الأكبر في الحساب.

قالت له آريا: «آمل أن (المارد) ليس جائعًا».

ردّد حائرًا: «ليس جائعًا؟».

- «لا عليك». حتى لو كان (المارد) يأكل لحم البنات الطّازج الغصّ حقًا، فأريا لا تخافه. إنها مخلوقة هزيلة، ليست وجبةً تصلح لعملاق، وعلى وشك بلوغ الحادية عشرة من العمر، أي أنها -عمليًا- امرأة ناضجة. ثم إن ملحّة ليست من بنات عليّة القوم. سألت: «هل (المارد) إله (براقوس) أم أنكم تعبّدون الآلهة السّبعة؟».

يحبّ ابن الزّيان الكلام عن مدينته قدر ما يحبّ الكلام عن سفينة أبيه تقريبًا، وقد قال لها: «كلّ الآلهة مكزّمون في (براقوس). سيعتكّ لهم سبت هنا، (سبت ما وراء البحر)، لكن البحّارة الوستروسيّين وحدهم يتعبّدون هناك».

ليسوا سبعتي. لقد كانوا آلهة أمي، ومع ذلك تركوا آل فراي يفتالونها في (الثوامتين). تساءلت إن كانت ستجد في (براقوس) أيكة آلهة في قلبها شجرة ويروود. ربما يعرف دينيو، لكنها لا تستطيع أن تسأله. ملحّة أثت من (الملاحات)، وما الذي تعرفه فتاة من (الملاحات) عن آلهة الشمال القديمة؟ قالت لنفسها: الآلهة القديمة ماثت، ماثت مع أمي وأبي وروب وبران وريكون، الموت أخذ الجميع. تذكر أنها سمعت منذ زمن طويل أباهما يقول إنه عندما تهبّ الزّيح الباردة ينفق الذئب الوحيد وينجو القطيع. لم يعرف أن العكس هو الصّحيح. آريا، الذئبة الوحيدة، لم تزل حيّة، لكن ذئاب القطيع صيدت وقُتِلت وشلّحت.

قال دينيو: «شدة القمر قادونا إلى هذا الملاذ، حيث لم تستطع تنانين (قاليريا) العثور علينا. معبدهم أعظم المعابد في المدينة. إننا نُبجّل أبا المياه كذلك، لكن داره بُنى من جديد كلّما اتّخذ لنفسه عروشا جديدة، وبقية الآلهة تستوطن جزيرة في منتصف المدينة مقّا. هناك ستجدين ال... الإله عديد الوجوه».

ازدادَ الألق في عيني (المارد) وبدتَا أكثر تباغذا الآن.
لا تعرف آريا أيَّ إلهٍ عديد الوجود، لكن إذا كان يُجيب
الدُّعاء فربما يكون الإله الذي تبحث عنه. السير
جريجور، دانسن، راف المعسول، السير إلين، السير
مرين، الملكة سرسي. سِتَّة فقط الآن. جوفري مات،
وكلب الصيد فتكَّ بيوليقر، وآريا طعنت القدغِدغ بنفسها
بالإضافة إلى المُرافق الأحمر ذي البثور. لم أكن لأقتله
إذا لم يضع يده عليّ. وكلب الصيد كان يلفظ أنفاسه
القليلة الأخيرة حين تركته على ضفاف (الثالوث)،
تحرّقه الحَقى التي سبَّها جرحه. كان يجدر بي أن
أعطيه هديّة الرّحمة وأغرس سكّيني في قلبه.

أخذها دينيو من ذراعها ودورها صائحا: «ملحة،
انظري! هل ترين؟»، وأضاف مشيرًا: «هناك».

انجابت الضباب أمامهم كستائر رمادية مهترئة تشقُّها
مقدّمة السفينة، وشقّت (ابنة المارد) عباب المياه
الخضراء الرّمادية محلقةً بأجنحة أرجوانيّة منقوشة،
وسمعت آريا صياح طيور البحر من فوقهم. هناك، حيث
أشارَ دينيو، يرتفع صَفٌّ من الجروف الحجرية فجأةً من
البحر، تُغطّي منحدراتها الشاهقة أشجار الصنوبر الجندي
والثُّوب الأسود، لكن أمامهم مباشرةً خرق البحر ثغرةً
في الصخر، وفوق الماء يقف (المارد) بعينين مثقّتين
وشعرٍ أسود طويل يُزفِّرف في الرّيح.

ساقاه مفتوحتان فوق الثَّغرة، وقدماه مزروعتان على
الجبيلين على جانبيه، وترتفع كتفاه عن القمم المحرَّزة.
قدماه منحوتتان من الحجر المصمت، من الجرانيت
الأسود نفسه كالجبيلين البحرَّيين اللذين يقف عليهما،
وإن كان يرتدي حول وركيه ثَّورة مدرَّعة من البرونز
المخضر، وواقى صدره من البرونز أيضًا، وكذا رأسه في
خوذته الصَّغيرة ذات الرِّيشة، أمَّا شَعْرهُ المُرفرف فمن
حبال القُنب المصبوغة بالأخضر، وفي كهفي عينيه
تشتعل بؤرتا نارٍ عظيمتان. على القمَّة اليسرى تستريح
يده وقد تكوَّرت أصابعه حول كتلة من الحجر، ويده
الأخرى مرفوعة في الهواء ممسكة بمقبض سيف
مكسور.

قالت آريا لنفسها وهم لا يزالون بعيدين في البحر:
إنه أكبر من تمثال الملك بيلور في (كينجزلاندنج) قليلًا
فقط، لكن مع دنو القاليون من البقعة التي تتكسر فيها
الأمواج على حُطَّ الجُروف تعاضم حجم (المارد). كانت
تسمع أبا دينيو يرفع عقيرته العميقة بالأوامر، في حين
بدأ الرِّجال يشذون الحبال لإنزال الأشرعة. سنمُر من
بين ساقَي (المارد). رأت آريا فتحات الرِّماية في واقى
الصدر البرونزي الضَّخم، والبُقع على ذراعي التَّمثال
وكتفيه حيث تُعشَّش طيور البحر، ورجعت برأسها إلى
الوراء قائلةً لنفسها: بيلور المبارك لا يبلُغ طول زُكبتيه
حتى. إنه يستطيع أن يخطو فوق أسوار (وينترقل)
بكلِّ بساطة.

ثم أطلق (المارد) هديرًا عظيمًا.

صوته هائل ومثل، مزيج شنيع من الأنين والضرب، هادر لدرجة أنه طغى على صوت الزئان وارتطام الأمواج بتلك الجُروف المكسوة بالصنوبر. في لحظة واحدة حلق ألف من طيور البحر، وانكششت آريا على نفسها إلى أن رأت دينيو يضحك وسمعته يصيح: «إنه يُخطِر (الثرسانة) بوصولنا لا أكثر. لا داعي للخوف». ردت صائحة: «لم أكن خائفة. الصوت عالٍ فقط».

الآن أصبحت (ابنة المارد) في قبضة الرياح والموج، فساقاها بسرعة صوب المجرى، وبنعومة تحرك صفاً مجاذيفها التي راحت تضرب المياه مكونة رغوة بيضاء فيما سقط ظلُّ (المارد) عليهم. بدا لحظة أنهم سیرتطمون حتمًا بالأحجار تحت ساقيه، وقد ربضت آريا عند المقدمة مع دينيو متذوقة الملح الذي تركه الرّذاذ على وجهها. حثت رأسها تماقًا إلى الورا لتري رأس الثّمثال، ومرةً أخرى سمعت العجوز نان تقول: «البراقوسيون يُطعمونه لحم بنات علىة القوم الطّازج الغصّ»، لكنها ليست بنتًا صغيرة، ولن يُخيفها تمثال سخيف!

وعلى الرغم من هذا أبقت يدها على إبرتها وهم
يمزّون من بين ساقيه. رأت المزيد من فتحات الرّماية
المصطفة داخل الفخذين الحجريّتين العظيمتين، ولما
لوت عنقها لشاهد منصّة المراقبة أعلى الصّاري تمرّ
وفوقها عشر ياردات كاملة من الفراغ، لمحت عددًا من
المزاغل (27). تحت ثنورة (المارد) المدرّعة، ووجوها
شاحبة تُحدّق إليهم من فوق من وراء قضبان حديدية.
ثم تجاوزوا الثّمثال.

ارتفع الظلّ وتراجعت الجُروف المكسوة بالصنوبر
على الجانبين وهدأت الزّيح، ووجدوا أنفسهم يتحرّكون
في هَوْرٍ (28). عظيم.

أمامهم يقف جبل بحري آخر، كتلة من الصّخر تبرز
من الماء كقبضة شائكة تنتشر عليها كالشّعيرات
المنتصبة المقاذيف والعزّادات (29). ونافثات اللّهب. «إنها
ترسّانة (براقوس)»، قال دينيو بفخر كأنه شيدها
بنفسه. «يستطيعون أن يبنوا قادسًا حربيًا هنا في يوم
واحد». رأت آريا عشرات القوادم المربوطة إلى
المراسي والقابعة على أرصفة الإنزال، وطلّت المقدمات
المطلية لقوادم أخرى من عددٍ لا يحصى من السّقائف
الخشبيّة ككلابٍ صيدٍ في وجارها، رشيقة شرسة جائعة
تنتظر أن يذوّي بوق الصّياد ويستدعيها. حاولت أن
تُحصيها لكنها وجدتها كثيرةً للغاية، وهناك المزيد من
الأحواض والسّقائف والأرصفة حيث ينعطف خطّ
السّاحل مبتعدًا.

كان قادسان قد خرجا للقائهم منزلقين على الماء
بخفة اليعاسيب ومجازيفهما الباهتة ثومض في الضوء.
سمعت آريا الزئان يصيح لهما فيرد زباناها الضياح،
لكنها لم تفهم الكلام. دوى نفير قوي ومز القادسان على
جانبهم على مقربة شديدة جعلتها تسمع دقات الطبول
المكتومة الآتية من داخل بدنيهما الأرجوانيين، يوم يوم
يوم يوم يوم يوم، كخفقان قلب حي.

ثم أصبح القادسان وراءهم وكذا (الترسانة)، وأمامهم
امتدت مساحة شاسعة من المياه الخضراء كالبازلاء،
تترقز كلوح من الزجاج الملون، ومن قلبها البليل ترتفع
المدينة نفسها، امتداد مترامي الأطراف من القباب
والأبراج والجسور، رمادي وذهبي وأحمر. جزر
(براقوس) المنة في بحرها.

لقد درس لهم المايستر لوين حقائق عن (براقوس)،
لكن آريا نسيت معظم ما قاله. إنها مدينة مسطحة،
وباستطاعتها أن ترى هذا حتى من بعيد، على عكس
(كينجز لاندنج) القائمة فوق تلالها الثلاثة العالية. التلال
الوحيدة هنا هي تلك التي بناها الناس بالقرميد
والجرانيت والبرونز والرّخام، وثمة شيء آخر غائب
أيضًا، وقد استغرقت آريا عدة لحظات حتى أدركته.
المدينة بلا أسوار. لكن حين ذكرت هذا لدينيو ضحك
منها، وقال: «أسوارنا من الخشب وملونة بالأرجواني.
قوادسنا هي أسوارنا، ولسنا في حاجة إلى سواها».

صَرَ سطح السفينة من ورائهما، والتفتت آريا لتجد أبا دينيو واقفا فوقهما في معطفه الضوف الأرجواني الطويل. الرّبان الثّاجر ترنيسيو تيريس حليق الوجه ويحرص على العناية بشعره الأشيب القصير وتشذيبه، ليصنع إطارًا حول وجهه المرّيع الذي لوّحته الرّيح. كميّزًا ما رآته خلال الرّحلة يمزح مع أفراد طاقمه، لكن حين يتجهّم يفرّ منه الرّجال كما يفرّون من عاصفة، والآن كان متجهّمًا وهو يقول لآريا: «رحلتنا في نهايتها. سنّجّه إلى (المرفأ المرّيع)، حيث سيصعد مأمورو جمارك أمير البحر إلى المتن لتفتيش مخازننا. سيقضون نصف يوم في العمل كالمعتاد، لكن ليس هناك ما يدعو إلى انتظارك فروغهم. اجمعى حاجياتك، سأنزل قاربًا ليأخذك يوركو إلى البرّ».

عصّت آريا شفتها مفكّرة: البرّ. لقد عبّرت (البحر الضيّق) كي تصل إلى هنا، لكن لو سألتها الرّبان ل قالت إنها تُريد البقاء على متن (ابنة المارد). ملحّة أصغر حجماً من أن تعمل على مجذاف، وهي تعلم هذا الآن، غير أن بإمكانها أن تتعلّم كيف تجدل الحبال وتثني الأشرعة وتوجّه الدّفّة في البحار المالحة الفسيحة. في مرّة أخذها دينيو إلى منصّة المراقبة بالأعلى فلم تُشعر بأيّ خوف على الرغم من حجم سطح السفينة الذي بدا ضئيلاً أسفلها. أجيد الحساب أيضًا، وتنظيف القمرات وتنسيقها.

لكن القاليون ليس في حاجة إلى عامل نظافة ثانٍ،
ثم إن ما عليها إلّا أن تُنظر إلى وجه الزّبان لتري رغبته
الملحّة في الخلاص منها، وهكذا اكتفت آريا بالإيماء،
وقالت: «البر»، مع أن البرّ لا يعني إلّا الغرباء.

مَشَّ جبهته بإصبعين قائلاً: «قالار دوهايرس. أرجو
أن تتذكّري ترنيسيو تيريس والضّنيع الذي أسداك إياه».
ردّت بصوت خفيض: «سأفعل».

وشدّت الزّيح معطفها بإصرار الأشباح، وعلقت آريا أن
وقت الرّحيل حان.

قال الزّبان أن تجمع حاجياتها، لكن حاجياتها قليلة
للغاية، ليست أكثر من الثّياب على جسدها وضرة الثّقود
وهدايا الطّاقم والخنجر على وركها الأيسر و(الإبرة)
على الأيمن.

كان القارب جاهزاً قبلها، وجلس يوركو عند
المجذافين بالفعل. هو أيضاً ابن الزّبان، لكنه أكبر من
دينيو وأقلّ وُدّاً. فكّرت وهي تنزل لتنضمّ إليه: لم أودّع
دينيو، وتساءلت إن كانت ستري الغلام ثانية. كان عليّ
أن أودّعه.

تضاءلت (ابنة المارد) وراءهما بينما تعاظمت المدينة مع كل ضربة بمجذافي يوركو، وبعيدًا إلى يمينها لاح أحد المواني بشبكته المعقدة من الأحواض والأرصفة المزدحمة عليها سفن صيد الحيتان كبيرة البطن الآتية من (إيبين) والشفن البجعية من (جزر الصيف) والقوادس الأكثر من أن تحصيها الفتاة. إلى يسارها ميناء آخر أبعد، وراء مساحة غائصة من اليابسة ترتفع فيها سطوح المباني شبه الغارقة فوق صفحة الماء. لم ترَ آريا كل هذا العدد من المباني الكبيرة معًا في مكان واحد. في (كينجز لاندنج) هناك (القلعة الحمراء) و(سيت بيلور الكبير) و(جب الثنائين)، في حين يبدو أن (براقوس) تزخر بعشرات المعابد والأبراج والقصور التي تُعادل تلك البنايات الثلاث أو تفوقها حجمًا. فكّرت بكآبة: سأعود فأرا من جديد كما كنتُ في (هارنهال) قبل أن أهرب.

من حيث يقف (المارد) بدت المدينة كجزيرة واحدة كبيرة، لكن إذ دنا بهما يوركو رأت أنها جزر صغيرة عديدة متقاربة، تربط بينها الجسور الحجرية المقنطرة الممتدة فوق قنوات لا تُحصى. وراء الميناء أبصرت شوارع منازلها من الأحجار الرمادية، متدانية لدرجة أن بعضها يميل على بعض، وقد بدت غريبة المنظر في عيني آريا بطوابقها التي تبلغ أربعة أو خمسة وبنائها الرفيع للغاية وسطوحها المكسوة بالقرميد والمدية كالقبعات. لم تر قشاً على الشطوح، ومن المنازل الخشبية التي تعرف مثلها في (وستروس) رأت القليل. تبين أن لا أشجار في المدينة. (براقوس) كلها من الحجر، مدينة رمادية في بحر أخضر.

توجّه يوركو بهما شمال الميناء ودخل قناة كبيرة
يقود مجراها الأخضر الواسع إلى قلب المدينة. مرّا
تحت قناطر جسر حجريّ نُقِشت عليه عشرات من
أشكال السمك والسرطان والحبار، ثم ظهر أمامهم جسر
ثاني منقوش بأشكال النباتات المعترشة المورقة، وبعده
جسر ثالث يُحَدِّق إليهم من أعلى بألف عين مرسومة.
على جانبيهما تنفتح مداخل قنوات أصغر، ومنها تتفرّع
قنوات أصغر فأصغر، ورأت آريا أن بعض المنازل مبني
فوق المياه محوّلًا القنوات إلى أنفاق بشكل ما، وبين
المنازل تتحرّك قوارب رفيعة على شكل أفاء مائيّة
برؤوس ملوّنة وذيول مرفوعة. تلك القوارب لا تتحرّك
بالمجازيف وإنما بالعصي التي يدفعها رجال يقفون عند
مؤخرة كلّ قارب في معاطف تتراوَح ألونها بين الزمادي
والبني والأخضر الطحلي الداكن. رأت أيضًا صنادل
ضخمة مسطحة القيعان تتكدّس عليها عاليًا الأقفاص
والبراميل ويدفع كلّ منها عشرون رجلًا بعصيّهم،
ومنازل عائمة أنيقة ذات مصابيح من الزجاج الملوّن
وستائر من المخمل وتماثيل مقدّمة نحاسيّة. بعيدًا،
فوق القنوات والمنازل في آن واحد، يرتفع ما يُشبه
طريقًا ضخمًا من الحجر الزمادي، تحمله ثلاثة صفوف
من القناطر الضلّبة التي تبتعد جنوبًا لتغيب في الضباب،
فسألت آريا يونكو مشيرة: «ما هذا؟»، وأجابها: «نهر
المياه العذبة، يجليها من البرّ الرئيس عبر الشهول
الطينيّة والمياه المالحة الضحلة. مياه عذبة نقية
للثوافير».

حين نظرت وراءها وجدت أن الميناء والهّور قد غابا
عن بصرها، وأمامها رأت صفًا من الثمائل الكبيرة
الواقفة على ضفّتي القناة، تماثيل لرجال وقورين من
الحجر يرتدون ثيابًا طويلةً من البرونز لظختها فضلات
الطيور البحريّة، يحمل بعضهم كُتبا وبعضهم خناجر أو
مطارق، ويُمسك أحدهم نجمة ذهبية بيده المرفوعة،
ويقلب آخر إبريقًا حجريًا يتدفّق منه الماء في القناة بلا
انقطاع. سألت آريا: «أهؤلاء آلهة؟».

أجابها يوركو: «أمراء بحر. (جزيرة الآلهة) أبعد قليلًا.
هل ترينها؟ بعد سئة جسور على الضفّة اليمنى. هذا
(معبد شداة القمر)».

كان أحد المعابد التي لمختها آريا من الهّور، كتلة
هائلة من الرّخام الأبيض كالثلج تعلوها قبة مفضضة
ضخمة، وتُظهر نوافذه المصنوعة من الرّجاج اللّبي
أطوار القمر، وقد وقفت فتاتان من المرمر على جانبي
بؤابته، كلتاها طويلة كأمراء البحر ومعا تدعمان عتبةً
غليا على شكل هلال.

ووراءه يقف معبد آخر، صرح من الحجر الأحمر يبدو
مهيّبًا كأي قلعة، وعلى قمة بُرجة المريع العظيم تشتعل
النّار في مستوقد حديدي عرضه عشرون قدمًا، بينما
تتقد ناران أصغر على جانبي بابه الثّحاسي. قال لها
يوركو: «الرّهبان الخمر يحبّون النّار. إله الضّياء ربّهم،
راهلور الأحمر».

أعرف. تذكرت آريا ثوروس المايري بقطع الذروع القديمة التي يرتديها فوق ملابس بهتت لدرجة أنه بدا كراهب وردي لا أحمر، وعلى الرغم من ذلك أعادت قبْلته اللورد بريك من الموت. شاهدت بيت الإله الأحمر يمرّ وهي تتساءل إن كان بإمكان زهبانه البراقوسيين أن يفعلوا الشيء نفسه.

بعده كان بناء ضخّم من القرميد تنبت على جدرانهِ الأُشنة، وكانت آريا لتظنّه مخزّنًا لولا أن يوركو قال: «هذا هو (الملاذ المقدّس)، حيث تُكرّم الآلهة الصّغيرة التي نسيها العالم. ستسمعين النّاس يُسفّونه (جحر الأرانب) أيضًا». بين جدران (جحر الأرانب) العالية المغطّاة بالأشنة تمضي قناة صغيرة، فوجّه يوركو القارب يمينًا ليمرّ من نفقٍ سرعان ما خرجا منه إلى الصّوء مجدّدًا، ورأت آريا على جانبيهما مزيدًا من المقامات، فقالت: «لم أكن أعلم أن هناك آلهة بهذه الكثرة».

أصدرَ يوركو خواژًا، ودارا حول منعطفٍ ثم عبّرا تحت جسرٍ آخر، وعلى يسارهما ظهرت هضبة صخرية مدوّرة يستقرّ على قمّتها معبد من الحجر الزّمادي القائم يخلو من الثّوافذ، وتقود درجات حجرية من بابه إلى مرسى مغطّى.

سحبَ يوركو المجذافين ليرتطم القارب برفق بالدّعائم الحجرية، ومَدّ يده يطبق على حلقة حديد مثبتة لإبقائهم في مكانهم، وقال لها: «هنا أتركك».

رأت آريا المرسى مظلاً والسّلام عاليةً، وسقف
المعبد المبني بالقرميد الأسود يرتفع في قَمّة حادّة
كالمنازل المطلّة على القنوات، ومضّعت شفتها مفكّرةً:
سيريو أتى من (براقوس). ربما زارَ هذا المعبد، ربما
تسلّق هذه الدّرجات، ثم أمسكت حلقةً ودفعت نفسها
إلى المرسى.

قال يوركو من القارب: «تعرفين اسمي».
- «يوركو تيريس».

قال: «قالار دوهايرس»، ودفع القارب بمجذافٍ وعادَ
يُمخّر المياه العميقة، وشاهدته آريا يعود أدراجه إلى أن
غاب في ظلّ الجسر، وإذ تلاشى صوت المجذافين خُيّلَ
لها أنها تسمع نبض قلبها. فجأةً أضحت في مكانٍ آخر...
في (هارنهال) مع جندي ربما، أو مع كلب الضّيد في
الغابة على ضفاف (الثالوث). قالت لنفسها: ملحة طفلة
حمقاء. أنا ذئبة، ولن أخاف، وربّمت على مقبض إبرتها
طلباً للحظّ واندفعت وسط الظّلال صاعدةً السّلام
درجتين درجتين كي لا يقول أحد أبداً إنها خائفة.

عند القمّة وجدت بابًا بمصراعين خشبيين يرتفعان
اثني عشر قدمًا، الأيسر من خشب الـوَيروود الشّاحب
كالعظام، والأيمن من الأبنوس اللّامع، وفي منتصفهما
نقش وجه مستدير كالقمر، أبنوس على جانب الـوَيروود
وويروود على جانب الأبنوس. ذكّرها شكله بعض
الشيء بشجرة القلوب في أيكة الالهة في (وينترفل)،
وفكرت: الباب يُراقبني. دفعت المصراعين في آن واحد
براحتي يديها المقفّزتين لكنهما لم يتزحّزا. موصدان
ومزّجان. قالت للباب: «أدخلي أيها الأحق». لقد عبرت
(البحر الضيق)، وكوّرت قبضتها ودقّت مواصلة:
«چاكن قال لي أن آتي. معي عملة حديد»، وأخرجتها
من كيسها ورفعتها مضيئة: «أترى؟ قالار مورجولس».
ولم يُجر الباب جوابًا إلّا بالانفتاح.

انفتح المصراعان إلى الدّاخل بصمت تام دون أن
تحرّكهما يد إنسان، وتقدّمت آريا خطوة ثم أخرى، قبل
أن ينغلق الباب وراءها لتمضي لحظة وقد كفّ بصرها،
ووجدت إبرتها في يدها وإن كانت لا تذكّر أنها استلّتها.
كانت شموع قليلة مشتعلة عند الجدران، لكن ضوءها
خافت للغاية حتى إن آريا لا ترى قدميها، وتناهى إلى
مسامعها همس أحدهم بخفوت شديد فلم تُفَيّز الكلام.
سمعت أيضًا بكاء شخص غيره، وخطوات خفيفة
لقدمين يحتكّ نعلاهما الجلد بالأرض الحجريّة، وبابًا
يُفتح ويُغلق. وماء، أسمع خرير ماء أيضًا.

ببطء تكيفت عيناها مع العتمة، وبدأ المعبد من
الداخل أكبر كثيرًا مما بدا من الخارج. لسيّئات
(وستروس) سبعة جوانب وفي كلّ منها سبعة مذابح
للسبعة آلهة، لكن الآلهة هنا أكثر من سبعة، تقف تماثيلها
عند الجدران عملاقة متوغّدة، وحول أقدامها يتذبذب
ضوء الشموع الحمراء الخافت كالثجوم البعيدة. أقربها
امرأة من المرمر طولها اثنا عشر قدمًا، ومن عينيها
تنضح عبرات حقيقية لتملأ الوعاء الذي تحمله بين
ذراعيها، ووراءها رجل له رأس أسد جالس على عرش
من الأبنوس، وعلى جانب الباب الآخر يرفع جواد من
البرونز والحديد قائمتيه الأماميتين العظيمتين. على
مسافة أبعد ميّزت وجهًا حجريًا كبيرًا، ورضيعة شاحبة
في يده سيف، وكبشًا أسود أشعث بحجم ثور بري،
ورجلًا مغطى الرأس يتكى على غكاز، أمّا البقية فلاحت
لها كمجّرد أشكال غامضة شبه مرئية في العتمة. بين
الآلهة ثمة فجوات في الجدران تملأها الظلال، وهنا
وهناك شمعة موقّدة.

بصمت الظلال سارت آريا بين صفين من الذكك
الحجريّة الطويلة وسيفها في يدها، وقالت لها قدماها
إن الأرضيّة من الحجر الخشن وليس الرّخام المصقول
كما في (سيت بيلور الكبير). مرّت يبضع نساء يتهاَمسن
وهي تحشّ بالهواء دافئًا ثقيلًا، ثقيلًا لدرجة أنها
تغاءبت، واشتَمّت رائحة الشّموع أيضًا، وإن كانت غير
مألوفة لها، فقدّرت أنه نوع غريب من البخور، لكن مع
توغّلها في المعبد أكثر بدأ كأن للشّموع روائح الثلج وإبر
الصنوبر واليخنة الساخنة. قالت آريا لنفسها: روائح
طيّبة، وأحسّت بشجاعة أكبر بعض الشيء، كفيّلة بأن
تجعلها تدشّ إبرتها في غمدها.

في منتصف المعبد وجدت الماء الذي سمعت خريره،
بركة عرضها عشرة أقدام سوداء كالحبر مُضاءة
بالشّموع الحمراء شاحبة الصّوء، وإلى جوارها يجلس
شابّ في معطف يميل لونه إلى الفضيّ يبكي بصوت
خافت. شاهدته يغمس يده في الماء صانعًا تموجات
قرميّة على صفحة الماء، وحين سحبها راح يعضّ
أصابعه واحدًا تلو الآخر. لا يُدّ أنه عطشان. على حافة
البركة أكواب حجريّة، فملأت آريا أحدها وأخذته إليه
ليشرب، وحملق الشاب إليها وهلةً طويلةً حين قدّمته
له، قبل أن يقول: «قالار مورجوليس».

ردّت: «قالار دوهايرس».

عَبَّ الماء عبثًا، ثم ترك الكوب يَسْقُط في البركة محدثًا صوتًا خفيًا، ثم دفع نفسه إلى الثُهوْض مترنِّحًا وقد وضع يده على بطنه، وحسبت آريا لحظةً أنه سيقع. عندها فقط رأت البقعة الداكنة تحت حزامه تتسع، فاندفعت تقول: «أنت مطعون»، لكن الشاب لم ينتبه لها، وتحرك بلا ثبات نحو الجدار ودخل إحدى الفجوات ليتمدد على سرير من الحجر القاسي. تطلعت آريا حولها فرأت مزيدًا من الفجوات، وفي بعضها ينام أناس مستنون.

ومن أعماق ذاكرتها سمعت صوتًا كأنه يهمس في رأسها قائلاً: لا، إنهم موتى، أو يموتون. انظري بعينيك. ثم مسّت يد كتفها.

دارت آريا مبتعدةً، لكنها لم تجد إلا فتاة صغيرة شاحبة في رداء مزود بقلنسوة يكاد يبتلعها، أسود على اليمين وأبيض على اليسار، وتحت القلنسوة وجه ناحل مهزول وخدان أجوفان وعينان داكنتان تبدوان كبيرتين كصحون الفناجين. قالت آريا للقيطة محدرةً: «لا تمسكيني. لقد قتلت آخر صبي أمسكني»، ولما ردت الفتاة بكلام لم تفهمه هزت رأسها وسألتها: «ألا تعرفين اللغة العامية؟».

قال صوت من ورائها: «أنا أعرفها».

لم تَرُق آريا الطريقة التي يُباغِتونها بها. رأت رجلاً طويلاً تُخفي وجهه قلنسوة ردائه الذي يعدُّ نُسخةً أكبر من الذي ترتديه الفتاة، وتحت القلنسوة لا تلوح إلا لمعة الشموع الحمراء الخافتة المنعكسة في عينيه. سألته: «ما هذا المكان؟».

أجابها بصوت رقيق: «مكان للسلام. أنت آمنة هنا. هذه هي (دار الأبيض والأسود) يا صغيرتي، وإن كنت أصغر من أن تُنشدي هديّة الإله عديد الوجوه». - «أهو كالإله الجنوبي ذي الوجوه السبعة؟».

- «سبعة؟ لا. إن وجوهه لا تُحصى أيتها الصغيرة، وجوه بعدد ما في السّماء من نجوم. في (براقوس) يتعبّد النّاس كما يشاؤون... لكن في نهاية كلّ طريق يقف هو ذو الوجوه العديدة منتظراً. سيكون في انتظارك ذات يوم، لا تخافي، فلا تتعجّلي ضمّته». - «لم آت إلا لأجد چاكن هاجار». - «لستُ أعرف هذا الاسم».

قالت وقد غاص قلبها بين قدميها: «إنه من (لورات)، وشعره أبيض على جانب وأحمر على الآخر. قال إنه سيُعَلِّمني أسراراً وأعطاني هذه». كانت تقبض على الغملة الحديد، وعندما فتحت أصابعها ظلّت ملتصقة بكفّها المبلّلة بالعرق.

أمعن الكاهن النظر إلى الغملة وإن لم يحاول أن يلمسها، وتطلعت إليها اللقيطة ذات العينين الكبيرتين، وأخيرًا قال الرجل ذو القلنسوة: «أخبريني باسمك أيتها الصغيرة».

- «ملحة. جنث من (الملاحات) على نهر (الثالوث)».
على الرغم من أنها لا ترى وجهه فإنها بشكل ما أحسّت به يبتسم وهو يقول: «لا. أخبريني باسمك».
أجابته هذه المرأة: «الكتكوت».

- «اسمك الحقيقي أيتها الصغيرة».
- «أمي سقتني نان، لكنهم كانوا يدعونني بنت عرس...».
- «اسمك».

ابتلعت ربقها، وقالت: «آري، أنا آري».
- «اقتربت. والآن الحقيقة».
أخبرت نفسها: ضربة الخوف أمضى من الشيف، ثم قالت: «آريا». في المرأة الأولى همست بالاسم، وفي الثانية ألقت في وجهه: «أنا آريا سلية عائلة ستارك».
قال: «أنت كذلك، لكن (دار الأبيض والأسود) ليست مكانًا لآريا سلية عائلة ستارك».

- «أرجوك، ليس هناك مكان أذهب إليه».

- «هل تخافين الموت؟».

عضّت شفتها مجيبة: «لا».

قال الكاهن: «لنرِ إذن»، وأنزلَ قلنسوته. تحتها لم يكن له وجه، وإنما جمجمة مصفرة ما زالت بعض رقع الجلد متشبثةً بوجنتيها، وثقة دودة بيضاء تُخرج متلويةً من أحد المحجرين الخاويين، وبصوت جاف مبحوح كخشخشة الموت همس الرجل: «قبّليني أيتها الصغيرة».

هل يريد أن يخيفني؟ قبّلتَه آريا حيث يفترض أن يكون أنفه، والتقطت دودة القبور من عينه لتأكلها، لكنها تلاشت كظِلٍّ في يدها.

وتلاشت الجمجمة الصفراء أيضًا، وأمام آريا كان وجه أطيب رجلٍ رآته في حياتها يبتسم لها قائلاً: «لم يُحاول أحد أن يأكل الدودة من قبل. أنتِ جائعة أيتها الصغيرة؟».

أجابَت في أعماقها: نعم، لكنه ليس جوعًا للطعام.

(26) القاليون سفينة أكبر من القادس، أشرعتها مربعة وثبجر بصفين أو ثلاثة من المجاذيف، وكانت تعدُّ أكبر سفن الأسطول العثماني. (المترجم).

(27) القزغل كلمة فارسية الأصل بمعنى منفذ، وهو عبارة عن فتحة ضيقة في جدار الحصن لإلقاء الحجارة والزيت المغلي والقار وخلافه من أدوات الدفاع. (المترجم).

(28) الهور بحيرة ضحلة تتصل بمياه البحر وتُحيط بها اليابسة. (المترجم).

(29) العزادة ضرب من المنجنيق تُقذف به الأحجار والشهائم الكبيرة. (المترجم).

انهزمَ المطر البارد محيلاً لون أسوار القلعة ومتاريسها إلى حمرة قانية كالدم، بينما أمسكت الملكة الملك من يده وقادته بحزم عبر الشاحة الملوثة بالأوحال إلى حيث ينتظر الهودج ومُرافقوه، لكن الضبي قال معترضاً: «الخال چايمي قال إنه يُمكنني أن أركب حصاني وألقي البنسات للعامة».

- «هل تريد أن تُصاب بالبرد؟». لن تُجازف بحدوث ذلك، فتومن لم يكن قوياً كچوفري قُط. «كان جدك ليريد أن يليق مظهرك بالملوك حين تحضر تأبينه. لن يظهر في (السبت الكبير) مبتلين متسخين». سيئ بما فيه الكفاية أن علي أن ارتدي ملابس الجِداد ثانية. ليس الأسود باللون البهيج عليها البثرة، ومع بشرتها البضة يجعلها هي نفسها تبدو أقرب إلى جثة. كانت سرسي قد استيقظت قبل ساعة من الفجر لتستحم وتُصَفِّف شعرها، ولا تنوي أن تُترك المطر يُفسد جهودها.

داخل الهودج أسندت تومن ظهره إلى وسائده وتطلَّع إلى المطر الشاقط في الخارج قائلاً: «الآلهة تبكي جدي. الليدي چوسلين تقول إن قطرات المطر دموعها».

- «چوسلين سويفت حمقاء. لو كانت الآلهة تبكي لبكت أخاك. المطر هو المطر. أغلق الستارة قبل أن تُدخل المزيد. هذا المعطف من فرو السَّمُور، هل تريده أن يبتل؟».

فعلَ تومن كما أمرته، وإن أقلقها خنوعه. المفترض أن يكون الملك قويًا. كان جوفري ليُجابِلني. إنه لم يكن سهل الإخضاع قَط. قالت لتومن: «لا تجلس متراخيًا هكذا، أعد كتفيك إلى الوراء واضبط تاجك. هل تريد أن يقع من فوق رأسك أمام جميع لورداتك؟».

قال الضبي: «لا يا أمّاه»، واعتدل في جلسته ومَدَّ يده يضبط تاجه الذي اعتمَرَه جوف من قبله، وإن كان كبيرًا على تومن. لطالما مآل جسد ابنها إلى الامتلاء، غير أن وجهه يبدو أنحل الآن. هل يأكل جيدًا؟ يجب أن تتذكّر أن تسأل الوكيل. لن تخاطر بأن يمرض تومن، خصوصًا مع وجود مارسلا في أيدي الدورنيين. مع الوقت سيكبر ويُناسبه تاج جوف. وحتى ذلك الحين فربما يحتاج إلى واحد أصغر لا يُهدّد بابتلاع رأسه. سثفاتح الضّاعة بالأمر.

شَقُّ الهودج طريقه البطيء نازلًا (ثُل إجون العالي)، يتقدّمه رجالان من الحرس الملكي، فارسان أبيضان على حصانين أبيضين ومن أكتافهما يتدلّى معطفان أبيضان تشبعا بالماء، وفي المؤخرة خمسون من حرس لانستر يرتدون الذهبى والقرمزي.

اختلس تومن النّظر إلى الشوارع الخالية من بين الستائر، وقال: «حسبث أنه سيكون هناك ناس أكثر. حين مات أبي خرج الجميع ليُشاهدوا موكبنا».

- «المطر دفعهم إلى الدُخول». لم تحبّ (كينجز لاندنج) اللورد تايوين قَط. لكنه لم يرغب في الخُب على كُلّ حال. ذات مرّة سمعته يقول لجايمي: «لا يُمكنك أن تأكل الخُب، أو تبتاع به حصانًا، أو تُدفع به بيتك في ليلة باردة». حينئذ لم يكن أخوها أكبر من تو من.

عند (سيت بيلور الكبير)، ذلك البناء الرُّخامي المهيّب على قَمّة (ثُل قيزينيا)، بدت بوضوح قَلّة أعداد المعزّين مقارنةً بذوي المعاطف الذهبية الذين نشرهم السير أدام ماربراند في الشّاحة. قالت الملكة لنفسها بينما ساعدها السير مرين ترانت على الثّزول من الهودج: سيظهر المزيد لاحقًا. ليس مسموحًا إلّا للنبلاء وحاشيتهم بحضور مراسم العزاء الصّباحيّة، على أن تُقام مراسم أخرى للعوام بعد الظّهر، ثم تُفَتّح الصّلاة للجميع في المساء. على سُرسي أن تعود لحضور الأخيرة كي يراها العامّة تندب الفقيد، فلا بُدّ أن يُنصب للغوغاء العرض الذي ينتظرونه. مسألة مزعجة. إن عليها أن تجد من يشغل المناصب الشّاغرة وتربح الحرب وتُحكّم المملكة، وكان أبوها ليتفهم هذا.

على قمة الدّرج قابلهما الشّيتون الأعلى، رجل عجوز
محنّي الظهر له لحية شائبة خفيفة، أثقل كاهله رداؤه
المطرّز المنقّق لدرجة أن عينيه صارتا في مستوى نهدي
سرسى... ولو أن تاجه بالغ الفخامة المصنوع من البلّور
والذهب المغزول أضاف إلى طوله قدماً ونصفاً دفعةً
واحدةً. اللورد تايوين هو من أعطاه هذا الثّاج بدلاً من
الآخر الذي ضاع حينما قتل الرّعاع الشّيتون الأعلى
السّابق. يومها سحبوا الأحقق البدين من هودجه
ومزّقوه إرباً، اليوم نفسه الذي أبحّرت فيه مارسلا إلى
(دورن). الآخر كان نهماً سهل الانقياد، أمّا هذا... تذكّرت
سرسى بغتة أن الشّيتون الأعلى صنّعة تيريون،
وأزعجتها الفكرة كثيراً.

بدت يد العجوز المبقّعة أشبه بمخلب دجاجة إذ مدها
من داخل كفه المحلّى بزخارف قشرة الذهب والبلّورات
الصّغيرة. ركعت سرسى على الرّخام المبتل وطلبت من
تومن أن يحذو حذوها سائلةً نفسها: ما الذي يعرفه
عني؟ يمّ أخبره القزم؟ ابتسم الشّيتون الأعلى وهو
يقودهما إلى داخل الشّيت، لكن أهي ابتسامة تهديد من
عليه بيواطن الأمور أم مجرّد اختلاجة بلهاء لشفّتي
العجوز المتغصّنتين؟ ليست الملكة متأكّدة من الجواب.

شَقًّا طَرِيقَهُمَا وَيَدُ تَوْمن فِي يَدِهَا عَبر (بَهُو القَنادِيل)
تَحْت كُرَات الرُّجَاج المَطْلِي بِالرَّصَاصِ المَلَوْن، وَقَد سَارَ
تَرَانَت وَكِتْلِبَلَاك عَلى جَانِبِيهِمَا وَالماء يَتَقَاظِر من
مَعطِفِيهِمَا المَبْتَلِّين لِيَكُون بِرِكَآ عَلى الأَرْض، وَالشَّيْتُون
الأَعلى يَتَحَرَّك بِبُطْءٍ مَثْكُثًا عَلى غُكَّازٍ من خَشَب
الوَيروود تُتَوَّجُه كُرَّة من البَلُور، وَفِي ضَحْبَتِه سَبْعَةٌ من
مَجْلِس القَائِتين يَتَأَلَّقُون فِي ثِيَابِهِم المَفْضَلَةُ من قُمَاشِ
القُضَّة. كَانَ تَوْمن يَرْتَدِي قُمَاشِ الذَّهَب تَحْت مَعطَف
فَرَو السَّمُور، وَالمَلِكَةُ قُستَانًا قَدِيمًا من المَخْمَلِ الأَسْوَد
المَوْشَى بِفَرَو القَاقُوم، فَلَم يَكُن هُنَاكَ وَقْتُ لَتَفْصِيلِ
وَاحِدٍ جَدِيدٍ، وَلَا يُمَكِّنُهَا أَن تَرْتَدِي القُستَانِ نَفْسَه الَّذِي
حَضَرَتْ بِهِ جَنَازَةُ چَوْفَرِي أَو الَّذِي ذَهَبَتْ تَدْفِن رُوبَرْت
فِيهِ.

عَلى الأَقْل لَن يَنْتَظِر مِنِّي أَحَدٌ أَن أَرْتَدِي ثِيَابَ الجِدَادِ
عَلى تِيرِيُون. من أَجَلِه سَأَرْتَدِي الحَرِيرَ القَرْمَزي وَقُمَاشِ
الذَّهَبِ وَأَزْيُنَ شَعْرِي بِالْيَاقُوت. لَقَد أَعْلَنْتُ أَن مَن يَأْتِيهَا
بِرَأسِ القَزَمِ سَيُرْفَعُ إِلَى مَرْتَبَةٍ لَوْرَدٍ مَهْمَا كَانَ مَوْلَدُه
وَعَمَلُه وَضِيغًا، وَالآنَ تَحْمِلُ الغَدَفَانِ وَعَدَهَا إِلَى أَرْجَاءِ
(المَمَالِكِ السَّيْعِ) كُلِّهَا، وَقَرِيبًا سَيَعْبُرُ الخَبَرُ (البَحْرَ
الضَّيِّقَ) وَيَبْلُغُ تِسْعَةَ الفَدَنِ الخُرَّةَ وَمَا وَرَاءَهَا من بِلْدَانٍ.
فَلِيَهْرَبِ العِصْرِيَّتِ إِلَى أَقَاصِي الأَرْضِ، فَلَن يَفْلَتَ مِنِّي.

مَرَّ الموكب الملكي من الباب الداخلي إلى قلب
(الشَّيْط الكبير) الفسيح، وقطعَ ممشى واسعًا هو واحد
من سبعة تلتقي تحت القُبَّة. إلى اليمين واليسار ركعَ
المعزَّون مع مرور الملك والملكة، وقد حضرَ كثيرون من
حفلة راية أبيها، بالإضافة إلى فُرسان قائلوا إلى جوار
اللورد تايوين في معارك عدَّة، فأكسبتها رؤيتهم مزيدًا
من الثقة. لستُ بلا أصدقاء.

تحت قُبَّة (الشَّيْط الكبير) الشَّامخة المصنوعة من
الذهب والبلُّور كان جُثمان اللورد تايوين لانستر مسجى
فوق منصَّة مدرَّجة من الرُّخام، عند رأسها يقف جايمي
مؤدِّيًا شعيرة الشهر⁽³⁰⁾ وتُطَوَّق يده السَّليمة مقبض
سيف عظيم من الذهب يستقرُّ رأسه على الأرض.
المعطف ذو القلنسوة الذي يرتديه أبيض كالثلج الطَّازج،
وحلقات شترته المعدنيَّة الطويلة من عرق اللؤلؤ
المرصَّع بالذهب، وهو ما جعلَ سرسي تقول لنفسها: كان
اللورد تايوين ليُريده أن يرتدي الذهبي والقرمزي
كلانستر. لطالما أغضبه أن يرى جايمي مرتديًا الأبيض.
كان أخوها قد بدأ يُطلق لحيته من جديد أيضًا، فغطَّى
الرَّغب فكَّه ووجنتيه مضافًا عليه مظهرًا خشنًا فظًا.
كان يُمكنه أن ينتظر حتى يدقن رفات أبينا تحت
(الصُّخرة) على الأقل.

صعدت سرسي بالملك ثلاث درجات قصيرة ليركها
إلى جوار الجثمان، ولما رأت عيني تومن ممتلئتين
بالدموع مالت عليه قائلة: «أبك بصمت. أنت ملك لا
طفل صارخ. لورداتك يُشاهدونك»، فمسح الصبي
دموعه بظهر يده. إن له عينيها، عيني خضراوين
كالزُمُرد وكبيرتين كعيني چايمي حين كان في سنّه.
لطالما كان أخوها صبيًا جميل الظلعة... وإنما قوي أيضًا،
قوي كجوفري، شبل ابن أسد. طوّقت الملكة تومن
بذراعها وثقت خصلاته الذهبية مفكرة: سيحتاج إلي
كي أعلمه كيف يحكم وأحميه من أعدائه. ومنهم من
يحيطون بهما في هذه اللحظة، يتظاهرون بأنهم
أصدقاء.

كانت الأخوات الضامات قد ألبسن اللورد تايوين أفضل دروعه كأنما يستعد لمعركة أخيرة. هكذا ارتدى الفولاذ الثقيل المطلي بالمينا القرمزي القاني والمحلى بالزخرفة الذهبية على قفازيه وواقِي ساقيه وواقِي صدره، مع الأقراص الواقية ذات أشكال الشُموس الذهب المتفجرة، وقد قبعت لبوة ذهبية على كل كتف، واتخذت ريشة الخوذة العظيمة الموضوعة إلى جوار رأسه شكل أسد غزير اللبدة، وعلى صدره استقر سيفه الطويل في قرابٍ مذهبٍ مرصع بالياقوت، تُحيط يداه بمقبضه في قفازين من الحلقات المعدنية المذهبة. حتى في الموت يبدو وجهه نبيلًا، مع أن فمه... كان زُكنا شفتي أبيها منحنيين إلى أعلى على نحوٍ طفيف للغاية، لتبدو عليه سيما الاستمتاع الغامض. لا يفترض أن يبدو هكذا. لامت پايسل الذي كان عليه أن يُخبر الأخوات الضامات بأن اللورد تايوين لانستر لم يبتسم قط. ذلك الرجل عديم الفائدة كحلمتين على واقِي الصدر. تلك الابتسامة الخافتة تجعل اللورد تايوين يبدو أقل مهابةً بشكلٍ ما، بالإضافة إلى حقيقة أن عينيه مغلقتان. دائمًا كانت عينا أبيها مثيرتين للتوجس، لونهما الأخضر الشاحب يكاد يكون مضيئًا، وفيهما شذرات من الذهب، وكانت نظراته تسبر أغوارك وترى كم أنت ضعيف تافه قبيح من الداخل. كنت تعرف حين ينظر إليك أن نظراته تخترقك.

بلا دعوة استعادت ذكرى المأدبة التي أقامها الملك إيرس لدى مجيء سرسي إلى البلاط أول مرة، فتاة خضراء كالغشب في الصيف. كان ميريويدر العجوز يُقرّر عن زيادة الجمارك على الخمور عندما قال اللورد ريكر: «إذا كنا نحتاج إلى الذهب فحريّ بجلالته أن يجلس اللورد تايوين على وعاء فضلاته»، فدوّت ضحكات إيرس ومنافقيه، في حين حدّق أبوها إلى ريكر من فوق كأسه، وطويلاً بعد خبؤ المرح ظلت نظرتة مسلّطة على ريكر الذي أشاح بوجهه ثم عادَ ينظر في عيني أبيها، قبل أن يتجاهلهما ويشرب دورقاً من المِزر ويُغادر بوجه محتقن وقد هزمتة عينان لا تطرفان.

عينا اللورد تايوين هاتان انغلقتا إلى الأبد. الآن سحّفلهم نظراتي أنا، وعليهم أن يخافوا عبوسي أنا. إنني أسد أيضاً.

مع تلبد السماء بالغيوم في الخارج كان الضوء معتماً داخل الشيت، لكن إذا توقّفت الأمطار سيتدفّق نور الشّمس عبر البلّورات المعلّقة ليكسو الجثمان بأقواس قزح، وسيّد (كاسترلي روك) يستحقّ أقواس قزح. لقد كان رجلاً عظيقاً. لكني سأكون أعظم. بعد ألف عام من الآن، حين يُدوّن المايسترات وقائع زماننا هذا، لن يتذكّرك أحد إلا باعتبارك والد الملكة سرسي.

شدّ تومن كُفّها قائلاً: «أمي، ما هذه الرائحة؟».

قالت لنفسها: رائحة السيد والدي، وقالت له: «الموت». هي أيضًا تشفها؛ رائحة تعفن ضعيفة جعلت أنفها يريد أن يتقلص، لكن سرسي لم تُعرها اهتمامًا. كان السيتونات السبعة واقفين وراء النُعش يتضرعون إلى (الأب في الأعالي) أن يحكم على اللورد تايوين بالعدل، وحين فرغوا اجتمعت سبع وسبعون سيدة أمام مذبح (الأم) وشرعن يترنمن متوشلات رحمتها. عندئذ كان تومن قد بدأ يتملقل، وحتى الملكة نفسها بدأت رُكبتها تؤلمانها. ألقت نظرة نحو چايمي، فرأت توأمها واقفًا كأنه منحوت من الحجر، يرفض أن تلتقي عيناه عينيها.

على الذكك ركع عثمها كيقان بكتفين محنيتين وإلى جواره ابنه. لانسل يبدو أسوأ من أبي. على الرغم من أن سيئه لا تتعدى السابعة عشرة فمن الممكن أن تحسبه في السبعين، بوجهه المربد وهزاله وخذه الأجوفين وعينيهِ الغائصتين وشعره الأبيض الهش كالطباشير. كيف يظل لانسل بين الأحياء ويموت تايوين لانستر؟ هل فقدت الآلهة عقلها؟

راح اللورد جايلز يسفل أكثر من المعتاد ويُعْطِي أنفه
بمنديل مرّيع من الحرير الأحمر. هو أيضًا يشمّ الزّائحة.
وأغلق الهايستر الأكبر پايسل عينيه. إذا غاب في الثّوم
فأقسم أن أمر بجلده. إلى يمين النّعش ركع آل تايرل؛
سيّد (هاي جاردن) وأمه الشّنيعة وزوجته السّمجة وابنه
جارلان وابنته مارچري. أخبرت نفسها مذكّرة: الملكة
مارچري. أرملة چوفري وعروس تومن المقبلة. تُشبه
مارچري أخاها فارس الزّهور كثيرًا، فتساءلت الملكة إن
كانت ثقة أشياء أخرى مشتركة بينهما. وردتنا الصّغيرة
حولها ليديّات عديدات يُحطن بها ليل نهار. إن معها
الآن نحو دسّة منهن، وفي وجوههن تفرّست سرسي
متسائلة: من أكثرهن خوفًا وأكثرهن استهتارًا وأكثرهن
جوعًا للحظوة؟ من أكثر واحدة لسانها متبئّ منها؟
عليها أن تحرص على معرفة الإجابات.

أراحها أن انتهت الثرانيم أخيرًا. الزائحة المنبعثة من
جثة أبيها تبدو كأنها صارت أقوى، ولئن تحلّى أكثر
المعزيين بالكياسة وتظاهروا بأن كل شيء على ما يرام،
فقد رأت سرسي اثنتين من بنات عمومة الليدي
مارجري ثقلّصان أنفيهما الصغيرين، وبينما قطعت
الممشى عائدةً مع تومن خيّل لها أنها سمعت أحدهم
يتمّم بكلمة «مرحاض» ويطلق ضحكة مكتومة، لكن
حين دوّرت رأسها لتري من تكلم وجدت بحرًا من
الوجوه الوقورة التي ترفقها بخواء. ما كانوا ليحشروا
على التّندر عليه هكذا وهو لا يزال حيًا. كان ليحيل ما
في أحشائهم إلى ماء بمجرّد نظرة.

في (يهو القناديل) احتشد المعزون حولهما كالذباب
الظّلّان وكلّهم حماسة لإغراقها بالتّعازي الفارغة. لثم
الثّوأمين رداوين يدها وأبوهما وجنتها، ووعدها هالايين
البايرومانسر⁽³¹⁾ بأن يدا ناريّة ستضطرم في السّماء
فوق المدينة يوم رحيل زفات أبيها إلى الغرب، وبين
سعلة وسعلة قال لها اللورد جايلز إنه استأجر واحدًا من
أساتذة النّحاتين ليصنع تمثالًا للورد تايوين سيسهر
حراسةً إلى الأبد عند (بوابة الأسد)، وظهر السير
لامبرت ترنبيري بزقعة على عينه اليمنى مقسمًا أنه
سيضعها إلى أن يأتيها برأس أخيها القزم.

لم تكذ الملكة تفز من برائن ذلك الأحمق حتى وجدت نفسها تحت حصار الليدي فاليس ابنة (ستوكوورث) وزوجها السير بيرش، وهمهت فاليس قائلة: «السيدة والدتي ثيلغك اعتذارها يا جلالة الملكة. لوليس أخذت إلى الفراش لتضع طفلها وشعرت أمي بالحاجة إلى البقاء معها. إنها ثنائيدك أن ثسامحيها، وقالت أن أسألك... لقد كانت أمي معجبة بأبيك الزاحل أكثر من أي رجل آخر، وإذا ولدت أختي صبيًا فإنها راغبة في أن تُسميه تايوين، بعد... بعد إذنك».

حدقت سرسي إليها مشدوهة، وقالت: «أختك البلهاء يغتصبها نصف أهل المدينة وتاندا تفكر في إطلاق اسم أبي على النغل؟ لا أظن».

جفلت فاليس كأنها ضفقت، لكن زوجها اكتفى بالتمليس على شاربه الأشقر الكث يابهامه قائلاً: «هذا ما قلته لليدي تاندا. سنجد اسقا، آه... أنسب لنغل لوليس، لك كلمتي».

قالت سرسي: «أحرصوا على هذا»، والتفتت عنهما
مبتعدة، لتري أن تومن وقع في برائن مارچري تايرل
وجذتها. لملكة الأشواك قامة قصيرة للغاية، حتى إن
سرسی حسبته طفلةً أخرى للحظة. قبل أن تستطيع
إنقاذ ابنها من اللوردات دفع بها الرُحام إلى مواجهة
عقها، وعندما ذكّرتَه بلقائهما لاحقًا أوماً السير كيقان
برأسه بتعب واستأذنها في الانصراف، على أن لانسِل
تلكاً وقد بدا نموذجاً لرجل قدمه في القبر. لكن أهو
داخل أم خارج؟

أرغقت سرسي نفسها على الابتسام، وقالت: «لانسِل،
يُسعدني أن أراك أقوى كثيرًا. المايستر بالابار نقلَ لنا
أخبارًا مؤسفةً وخشينا على حياتك. كنت لأحسبك في
الطريق إلى (داري) الآن لتتولّى لورديتك». كان أبوها
قد رفع لانسِل إلى مرتبة لورد عقب معركة (النهر
الأسود) استرضاءً لأخيه كيقان.

- «ليس بعد. هناك خارجون عن القانون في قلعتي».
تكلّم ابن عقها بصوتٍ بالغ الخفّة كذلك الشارب فوق
شفتيه الغليا، وعلى الرغم من ابيضاض شعره ظلّ زغب
شاربه محتفظًا بلونه الزملي. كثيرًا ما تطلّعت سرسي
إليه والضّبي في داخلها يدفع نفسه جيئةً وذهابًا
بطاعة. يبدو كلطخة ثراب فوق شفتيه. لقد اعتادت أن
تهذّده بمسحه بالقليل من اللّعب. «أبي يقول إن أراضي
النهر محتاجة إلى يدٍ قوية».

أرادت أن تقول: مؤسف أنها ستنال يدك أنت، إلا أنها
ابتسمت بدلاً من هذا، وقالت: «كما أنك ستتزوج أيضًا».
مّدت على وجه الفارس الشاب الشقيم نظرة كئيبة،
ورّدت: «واحدة من بنات فراي، وليست من اختياري. إنها
ليست عذراء حتى، بل أرملة من دم داري. أبي يقول إن
هذا سيُساعِدني في التّعامل مع الفلاحين، لكن الفلاحين
كلّهم ماتوا»، ومَدَّ يده إلى يدها مواصلاً: «إنها قسوة يا
سرسى. جلالتك تعلمين أنني أحب...».

قاطعتَه منهيّة العبارة: «... عائلة لانستر. لا أحد يشك
في هذا يا لانسل. أتمنى أن تُنجب لك زوجتك أبناء
أقوياء». لكن خير لك ألا تدع جدّها يقيم الزّفاف.
«اعرف أنك ستقوم بصنائع نبيلة عديدة في (داري)».
أوما لانسل برأسه والبؤس يبدو عليه بوضوح، وقال:
«حين بدا أنني ساموث جلبت أبي السّيتون الأعلى
ليُصَلّي لأجلي. إنه رجل صالح»، وتابع ابن عمّها بعينين
مبتلّتين لامعتين كعيني طفل في وجه عجوز: «يقول
إن (الأم) أبقت على حياتي من أجل هدف سام، كي
أتوب عن خطاياي».

تساءلت سرسي كيف ينوي أن يتوب عن خطاياها معها. تنصيبه فارسا كان خطأ، ومضاجعته خطأ أكبر. لانسِل ضعيف لا يُعتقد عليه، ولا يُعجِبها ورعه المستجذ هذا على الإطلاق، ثم إنه كان مسلّياً أكثر بكثير عندما كان يُحاول أن يكون چايمي. ما الذي قاله هذا الأحمق الذامع للشيتون الأعلى؟ وماذا سيقول لابنة فراي وهما نائمان معاً في الظلام؟ إذا اعترف بمضاجعة سرسي فيمكنها أن تدحض هذا، فالرجال يكذبون بشأن النساء طوال الوقت، وتستطيع أن تعزو الأمر إلى صلف صبيّ غر فتته جمالها. لكن إذا تفوّه بشيء عن روبرت والتببذ القوي... قالت له سرسي: «أفضل الشبل لنيل الثوبة الصلاة... الصلاة الصّامّة»، وتركته يُفكّر في قولها وهيأت نفسها لمواجهة جيش تايرل.

عانقتها مارچري كأخت، وهو ما وجذته الملكة اجترأ، ولكن ليس هذا بالمكان المناسب لتوبيخها. قنعت الليدي آيري وبنات الغمومة بلثم أصابعها، وطلبت الليدي جريسفورد الخبلى إذن الملكة في تسمية وليدها تايوين إن كان صبياً أو لانا إن كانت بنتاً. كادت سرسي تنثّ ضيقاً، وقالت لنفسها: واحد آخر؟ سيغرق من اسمهم تايوين البلاد، لكنها أبدت موافقتها بأكبر قدر ممكن من الكياسة وتظاهرت بالشرور.

مَنْ سَرَّتْهَا حَقًّا هِيَ الْيَدِي مِيرِيويذر، الَّتِي قَالَتْ
بَلَكَنْتَهَا الْمَايِرِيَّةُ الْمُثِيرَةُ: «جَلَالَةُ الْمَلَكَةِ، لَقَدْ أَرْسَلْتُ خَبْرًا
لَأَصْدِقَائِي عَبْرَ (الْبَحْرِ الضَّيِّقِ)، أَسْأَلُهُمْ أَنْ يَقْبِضُوا عَلَى
الْعَفْرِيتِ فِي الْحَالِ إِذَا ظَهَرَ وَجْهُهُ الْقَبِيحُ فِي الْمَدَنِ
الْحُرَّةِ».

- «هَلْ عِنْدَكَ أَصْدِقَاءُ كَثِيرُونَ وَرَاءَ الْبَحْرِ؟».

- «كَثِيرُونَ فِي (مِيرِ)، وَفِي (لَيْسِ) أَيْضًا، وَ(تَايِرُوشِ).
رِجَالُ ذَوُو نَفُوزٍ».

لَمْ تَجِدْ سِرْسِي غُسْرًا فِي تَصْدِيقِ هَذَا، فَالْمَرَأَةُ
الْمَايِرِيَّةُ رَائِعَةُ الْجَمَالِ بِحَقِّ، طَوِيلَةُ السَّاقَيْنِ وَمَمْتَلِئَةُ
التَّهْدِيْنِ، وَلَهَا بَشْرَةٌ زَيْتُونِيَّةٌ مَلْسَاءٌ وَشَفَتَانِ نَاضِجَتَانِ
وَعَيْنَانِ كَحِيلَتَانِ وَاسْعَتَانِ لِلْغَايَةِ وَشَعْرٌ أَسْوَدٌ غَزِيرٌ يَبْدُو
دَائِمًا كَأَنَّهُا نَهَضَتْ لَتَوَّهَا مِنَ الْفِرَاشِ. بَلْ وَتَضُوعٌ مِنْهَا
رَائِحَةُ الْخَطِيئَةِ، كَأَنَّهُا زَهْرَةٌ لَوْتَسٌ غَرِيبَةٌ. قَالَتِ الْمَرَأَةُ
بِصَوْتِ كَخْرِيرِ الْقَطْطِ: «الْلُورْدُ مِيرِيويذر وَأَنَا لَا نَتَمَنَّى
إِلَّا أَنْ نَخْدُمَ جَلَالَتِكَ وَالْمَلِكَ الصَّغِيرَ». كَانَتْ عَلَى وَجْهِهَا
نَظْرَةٌ حُبْلَى بِالْإِيْحَاءَاتِ تَكَادُ ثَنَافِسُ بَطْنِ الْيَدِي
جَرِيسْفُورْدِ الْمُنْتَفَخِ.

ثُمَّ انْقَضَ عَلَيْهَا سَيِّدُ (هَائِجَارْدِنِ).

لا يكبر مايس تايرل سرسي إلا بأعوام عشرة، ومع ذلك تُفكر فيه باعتباره في سن أبيها لا سنّها. ليس الرّجل طويل القامة كما كان اللورد تاويين، لكن بقيّة جسده أكبر، فصدره مكتنز وبطنه أكثر اكتنازًا، ولشعره لون الكستناء وإن بدأ الأبيض والرّمادي يشوبان لحيته، ويبدو وجهه محمّرًا أغلب الوقت. أعلن تايرل بلهجة ثقيلة بعد أن قبّل كلتا وجنتيها: «اللورد تاويين كان رجلًا عظيمًا، رجلًا فلتة، وأخشى أننا لن نرى مثيلًا له أبدًا».

رذت سرسي عليه في سريرتها: إنك تنظر إلى مثيلته أيها الأحمق. ابنته هي الواقعة أمامك، لكنها محتاجة إلى تايرل وقوّة (هايجاردن) لإبقاء تومن على عرشه، فاكثفت بقولها: «سنفتقده كثيرًا».

وضع تايرل يده على كتفها قائلاً: «لا رجل على قيد الحياة يصلح لأن يحلّ محلّ اللورد تاويين، هذا جلي، لكن البلاد باقية ولا بُدّ أن تُحكّم. إذا كان هناك ما يُمكنني أن أفعله على الإطلاق في هذه السّاعة السوداء، فما على جلالتك إلا أن تطلّبي».

فكرت الملكة: إذا كنت تبغي أن تكون يد الملك يا سيّدي فتحلّ بالشّجاعة وقُلّها، ورسقت على شفّتيها ابتسامة مضيئة لنفسها: فليستنتج منها ما يريد أن يستنتجه، ثم إنها قالت: «مؤكّد أن هناك حاجة إلى سيّدي في (المرعى)، أليس كذلك؟».

أجاب الرّجل رافضاً أن يلحظ تلميحتها الواضح تماقاً: «ابني ويلاس فتى قدير. ربما تكون ساقه مشوّهة لكنه لا يفتقر إلى الذكاء. قريباً سيستولي جارلان على (قلعة المياه الوضّاءة) أيضاً، وبين الاثنين سيصير (المرعى) في أيّد أمينة إذا دغّت الحاجة إلى وجودي في مكان آخر. لا بُدّ أن يأتي حكم البلاد أولاً كما اعتاد اللورد تايوين أن يزدّد، ويسرّني أن أنقل لجلالتك خبراً طيّباً في هذا الضّد. عمّي جارت وافقّ على الخدمة أميئاً للتقدّ كما كان السيّد والدك يرغب، وهو في الطّريق إلى (البلدة القديمة) الآن ليستقلّ سفينةً في ضحبة ابنيه. كان اللورد تايوين قد ذكر شيئاً عن العثور على مكانين لهما أيضاً، في حرس المدينة ربما».

على وجه الملكة تجمّدت ابتسامتها بشدّة لدرجة أنها خشيت أن تتشقق أسنانها. جارت السّمين في المجلس الصّغير وابناه مع ذوي المعاطف الذهبية... هل يحسب آل تايرل أني سأقدّم لهم البلاد على طبقٍ من ذهب بهذه البساطة؟ هذه الغطرسة تذهلها حقّاً.

كان تايرل يواصل: «جارت أحسنّ خدمتي كقهرمان كما خدم أبي من قبلي. صحيح أن الإصبع الصّغير كان موهوباً في إيجاد الذهب، لكن جارت...».

قاطعته سرسي: «سيدي، أخشى أن في المسألة سوء فهم. لقد سألت اللورد جايلز أن يكون أمين نقدنا الجديد، وقد شرفني بالقبول».

حملق مايس إليها قائلاً: «روزي؟ ذلك الـ... السَّعال؟ لكن... لقد اتَّفَقنا على الأمر. جارت في طريقه إلى (البلدة القديمة)».

قالت الملكة: «الأفضل إذن أن تُرسل عُداقًا إلى اللورد هايتاور وتُطلب منه أن يحرص على عدم ركوب عَمَّكَ السفينة. سنكره أن يُواجه البحر في الخريف بلا طائل»، وابتسقت له ببشاشة.

قال تايرل والأحمر يزحف على غنقه الثَّخين: «هذا... السيّد والدك أكّد لي...»، وبدأ يلفظ كلامًا مختلطًا غير مفهوم.

ثم ظهرت أمّه وتأبَّطت ذراعه قائلةً: «يبدو أن اللورد تايرل لم يُطلع وصيَّتنا على العرش على خُططه، ولا أتصوّر السَّبب. لكن الأمر منته، فلا داعي لإزعاج جلالتها. إنها محقّة تمامًا. عليك أن تكُتب للورد لايتون قبل أن يستقلّ جارت السفينة. تعلم أن البحر سيُغثيه ويجعل فسائه أسوأ»، ومنحت الليدي أولينا سرسي ابتسامة بلا أسنان متابعةً: «ستكون رائحة قاعة مجلسك ألطف في وجود اللورد جايلز، وإن كنتَ أظنّ أن سُعاله كفيّل بتشتيت انتباهي. كلُّنا مغرمون بالعم جارت العجوز العزيز، لكن الرّجل متطبّل البطن ولا أحد يُنكر هذا. إنني أمقت الرّوائح الكريهة حقًا»، وتغصّن وجهها المتغصّن أكثر وهي تُضيف: «لقد شممت رائحة مزعجة داخل الشَّيت المقدّس في الحقيقة. هل شممتها أيضًا؟».

أجابَت سرسي ببرود: «لا. تقولين إنها رائحة؟»
- «رائحة كريهة».

- «ربما تفتقدين وردك الخريفي. لقد أبقيناك هنا أطول من اللازم». كلما عجلت بتخليص البلاط من الليدي أولينا كان أفضل، فلا شك أن اللورد تايرل سيرسل عددًا لا بأس به من فرسانه ليصحبوا أمه بأمان إلى وطنها، وكلما قلَّ عدد رجال تايرل في المدينة ستعرف الملكة نومًا أفضل.

قالت العجوز: «أعترف بأني مشتاقة إلى عطور (هايجاردن)، لكنني لا أستطيع أن أغادر بالطبع قبل أن أشهد زفاف خلوتي مارچري إلى عزيزك الصغير تومن».
أضاف تايرل: «أنا أيضًا أنتظر ذلك اليوم بلهفة. أنا واللورد تايوين كنا على وشك تحديد موعد بالفعل. ربما يمكننا أن نناقش هذا معًا يا جلالة الملكة».
- «قريبًا».

قالت الليدي أولينا متنشقة: «لا بأس. هيا بنا يا مايس، لندع جلالتها... حزنها».
تركت سرسي ملكة الأشواك تبتعد بين حارسيتها الفارعين، رجلين يبلغ كل منهما الأقدام السبعة طولًا ويروق المرأة أن تُسقيهما شمال ويمين، وإذا شاهدتها تبتعد وعدت نفسها: سأشهد موتك أيتها العجوز وسنرى كم ستكون جئتلك جميلة المنظر. واضح تمامًا أن العجوز أذكى من ابنها اللورد مرّتين.

أنقذت الملكة ابنها من مارجري وبنات عمومته
وأتجهت به إلى الباب، وفي الخارج كان المطر قد توقف
أخيرًا وصارت لهواء الخريف رائحة طازجة نقيّة. خلع
تومن تاجه، لكن سرسي قالت له امرأة: «ضعه على
رأسك».

قال الضبي: «إنه يؤلم غنقي»، لكنه أطاع الأمر،
وأردف: «هل سأتزوّج قريبًا؟ مارجري تقول إننا نستطيع
الذهاب إلى (هايجاردن) حالما نتزوّج».

ردّت سرسي: «لن تذهب إلى (هايجاردن)، لكن
يمكنك ركوب حصان إلى القلعة»، وأشارت إلى السير
مربن ترانت، وقالت له: «اجلب حصانًا لجلالته، واطلب
من اللورد جايلز أن يُشرفني بالانضمام إليّ في
الهودج». الأمور تمضي بسرعة أكبر مما توقّعت، وما من
وقت تُبذّده.

أسعدت تومن فكرة الزكوب، وبالطبع شرّفت اللورد
جايلز دعوتها... ولكن عندما سألته أن يكون أمين نقدها
الجديد بدأ الرّجل يسأل بمنتهى الغنف، حتى إنها
خشيت أن يموت هنا والآن، لكن (الأم) كانت رحيمةً
وفي النهاية تعافى جايلز بما يكفي لأن يقبل المنصب،
بل وبدأ يسأل أسماء الرّجال الذين يريد استبدالهم،
ومنهم قيّمو الجمارك ومصنّعو الأصواف الذين عيّنهم
الإصبع الصّغير، بالإضافة إلى أحد حقّظة المفاتيح.

- «سمّ البقرة التي تريدها ما دامت تنضح حليبًا. وإذا
أثير الشّوال، فقد انضممت إلى المجلس البارحة».

- «البار...». انتابته نوبة من الشعال جعلته يلتوي على نفسه. «البارحة، بالتأكيد». يستخدم اللورد جايلز منديلاً من الحرير الأحمر يسغل فيه كأنما يُحاول إخفاء الدّم في لعابه، وهو ما تظاهرت سرسي بأنها لا تلاحظه. حين يموت ساجدًا أحدًا غيره. ربما عليها أن تستدعي الإصبع الصغير إلى البلاط. إنها لا تتصوّر أن بيتر بايلش سيسقح له بالبقاء حافظًا لـ(الوادي) طويلًا وقد مائت لايسا آرن، خصوصًا أن لوردات (الوادي) بدأوا يتحرّكون بالفعل إذا ضحّ ما قاله يايسل. بمجرّد أن يأخذوا منه ذلك الصّبي المأفون سيعود اللورد بيتر زحّفاً.

- «جلالة الملكة»، قال اللورد جايلز وسعلَ ومسحَ فمه. «هل لي...»، وسعلَ ثانيةً. «... أن أسأل من...»، وعصفت به نوبة أخرى من الشعال قبل أن يتمالك نفسه ويكمل: «... من سيكون يد الملك؟».

أجابَت بشرود: «عقي».

تنقّست الملكة الضعفاء لرؤية أسوار (القلعة الحمراء) ترتفع عاليةً أمامها، وهناك عهدت بتومن إلى مرافقيه وخلّت إلى نفسها في مسكنها شاعرةً بالامتنان لفرصة الرّاحة.

لكن ما إن خلعت حذاءها حتى دخلت جوسلين على استحياء لتقول إن كايرن في الخارج ويلتمس المثلول أمامها، فقالت الملكة: «أدخليه». الحُكّام لا يعرفون الرّاحة.

كايبرن عجوز، لكن ما زال الزّمامد يغلب الثّلج في شعره، وتجاعيد الضّحك حول فمه تجعله يبدو كجَدّ فتاة صغيرة المفضّل. وإن كان جدّا رثّ الملبس. ياقة رداؤه مهترئة، وأحد كُفّيه تمرّق وزرّق بلا براعة. قال لها: «أرجو من جلالتك ألا تُؤاخِذيني لمجيئي. كنتُ في الزّنازين أحقّقُ في هروب العفريت كما أمرتُ».

- «وإلامَ توصلت؟».

- «ليلة اختفاء اللورد قارس وأخوك اختفى رجل ثالث أيضًا».

- «نعم، السّجّان، ماذا عنه؟».

- «الرّجل اسمه روجن، مُشرف سجّانين كان مسؤولًا عن الزّنازين السّوداء. رئيس السّجّانين يصفه بأنه رجل ممتلئ طليق اللّحية وغلِيظ الكلام. الملك القديم إيرس هو من كلّفه بوظيفته، واعتاد أن يروح ويجيء كما يحلو له، بالذّات مع شغور الزّنازين السّوداء معظم الوقت في السّنوات الأخيرة. يبدو أن باقي السّجّانين كانوا يخافونه، لكن لا أحد يعرف الكثير عنه. كان بلا أهل أو أصدقاء، ولم يعتد أن يشرب أو يتردّد إلى المواخير. خجيرة نومه رطبة موحشة، والقشّ الذي كان ينام عليه متعفن، ووعاء فضلاته طافح».

- «أعرف كلّ هذا». چايمي فحص خجيرة روجن، ثم فحصها رجال السير أدام مرّة أخرى.

قال كايبرن: «نعم يا جلالة الملكة، لكن هل تعرفين أن تحت وعاء الفضلات المقرّز هذا حجرًا مخلوعًا يسدّ تجويفًا صغيرًا؟ إنه من تلك الأماكن التي يُخبئ فيها أحدهم مقتنيات ثمينة لا يريد أن يكتشفها أحد».

معلومة جديدة هذه. «مقتنيات ثمينة؟ أتعني المال؟». طيلة الوقت كانت الشكوك تُخالجها في أن تيريون اشترى هذا السجّان بوسيلة ما.

- «قطعًا. صحيح أنني وجدتُ التّجويف خاليًا، فلا بدّ أن روجن أخذ ثروته الحرام معه حين هرب، ولكن بينما قرفصت فوق التّجويف بمشعلي رأيتُ شيئًا يلمع، فنقّبتُ في الثّراب حتى أخرجته»، وفتح كايبرن يده مضيقًا: «إنها غُملة ذهبية».

هو ذهب، نعم، لكن لحظة أن التقطت سرسي الغُملة أدركت أنها ليست سليمة. صغيرة ورفيعة للغاية. كانت قديمة بالية، على أحد وجهيها صورة جانبية لملك، وعلى الآخر نقش ليد. قالت: «هذا ليس تئيثًا».

أيدها كايبرن قائلاً: «نعم. إنها تعود إلى ما قبل الغزوة يا جلالة الملكة. الملك هو جارت الثاني عشر، واليد رمز آل جاردنر».

سادة (هايجاردن). أغلقت سرسي يدها على الغملة متسائلة: أي خيانة هذه؟ مايس تايرل كان أحد قضاة تيريون، ودعا إلى إعدامه على الملأ. أكانت مجرّد حيلة؟ هل كان يتآمر مع العفريت طوال الوقت ويخطفان لموت أبي؟ مع وجود تايوين لانستر في القبر يصبح اللورد تايرل الاختيار الثلقائي لليدويّة، ولو أن... قالت امرأة: «لن تذكر شيئاً عن هذا لأي أحد».

- «لك أن تتقي بكتماني يا صاحبة الجلالة. من يركب في ضحبة المرتزقة يتعلّم أن يصون لسانه خشية ألا يحتفظ به طويلاً».

قالت الملكة: «وفي ضحبتني أيضاً»، ووضعت الغملة جانباً مقرّرة أن تفكر في أمرها فيما بعد، ثم سألت: «ماذا عن المسألة الأخرى؟».

أجاب كايبرن: «السير جريجور»، وهزّ كتفيه متابعاً: «لقد فحسته كما أمرت. الشّم على حربة الأفعوان كان زُعاف مانتيكور⁽³²⁾. من الشرق، أراهن بحياتي على هذا».

- «يايسل ينفي هذا. قال لأبي إن زُعاف المانتيكور يقتل ما إن يبلغ القلب».

- «صحيح، لكن هذا الزُعاف مخفّف بوسيلة ما ليُطيل احتضار الجبل».

- «مخفّف؟ مخفّف كيف؟ بماذّة أخرى؟».

- «ربما يكون الأمر كما تقولين يا صاحبة الجلالة، ولو أن في معظم الحالات لا تتسبب إضافة مواد أخرى إلى الشموم إلّا في الحَدِّ من مفعولها. قد يكون السَّبب... لنقل إنه أقلُّ طبيعِيَّة، تعويذة على ما أعتقد».

أهذا الرّجل أحرق كبير كيايسل؟ «تقول لي إذن إن الجبل يموت بالشحر الأسود؟».

قال متجاهلاً التَّهكُّم في صوتها: «إنه يموت بالرُّعاف، ولكن ببطء وبألم لا يوصف. كجهود يايسل لم تُثمر جهودي لتخفيف الألم شيئاً. أخشى أن السير جريجور تعود تناوُل الخشخاش. مرافقوه قالوا لي إنه مبتلى بالضداع العنيف، وكثيراً يجرع حليب الخشخاش كما يجرع الرّجال الأصغر منه المزر. أيّا كان، لقد اسودّت عروقه من رأسه إلى قدميه، وبوله ملوّث بالقريح، والرُّعاف جعل جانبه يتآكل صانعاً فجوةً بحجم قبضتي. وجود الرّجل على قيد الحياة حتى الآن أعجوبة في الحقيقة».

علّقت الملكة بوجه مقطّب: «إنه حجمه. جريجور رجل كبير للغاية، وغبيّ للغاية أيضاً، أغبى من أن يعرف متى يموت على ما يبدو»، ورفعت كأسها لتملأها سينل مجدّداً، وأردفت: «ضراخه يُخيف تومن، بل ويوقظني في اللّيل أيضاً أحياناً. رأيي أن الوقت حان لاستدعاء إلين يابن».

قال كايبرن: «جلالة الملكة، هل تأذنين لي في نقل السير جريجور إلى الزنازين؟ لن يُزعجك ضراخه هناك، وسأتمكّن من العناية به بحريّة أكبر».

ردّت ضاحكة: «العناية به؟ ذع السير إلين يعتني به».

- «إذا كانت هذه رغبة جلالتك، لكن ذلك الشّم... سيكون من المفيد أن نعرف المزيد عنه، أليس كذلك؟ أرسلني فارسًا ليقتل فارسًا وراميًا ليقتل راميًا كما يقول العامة، ولمواجهة الفنون السوداء...»، ولم يتمّ كايبرن كلامه واكتفى بالابتسام لها.

واضح أنه ليس يائسل. أمعنت الملكة النظر إليه متسائلة: «لماذا أخذت (القلعة) سلسلتك؟».

- «رؤساء المايسترات كلهم جُبناء في قلوبهم، خراف رماديّة كما يدعوهم ماروين. كنتُ معالجًا ماهرًا كايبروز، لكنني طمحتُ إلى أن أتفوّق عليه. طيلة مئات السنين ورجال (القلعة) يفتحون جُثث الموتى ليدرسوا طبيعة الحياة، في حين أردتُ أنا أن أدرس طبيعة الموت ففتحتُ أجساد الأحياء، ولهذه الجريمة وصفتني الخراف الرّماديّة بالعار ودفعتنني إلى المنفى... لكنني أفهم طبيعة الحياة والموت أفضل من أيّ رجل في (البلدة القديمة)».

أثار قوله اهتمامها، فقالت له: «حقًا؟ ليكن إذن، الجبل لك، افعل به ما تريد، لكن احضر دراساتك في نطاق الرُنازين السوداء، ولقًا يموت اجلب لي رأسه، فقد وعد أبي بتسليمه لـ(دورن). لا شك أن الأمير دوران يؤثر أن يقتل جريجور بنفسه، لكن علينا جميعًا أن نعانى خيبة الأمل في هذه الحياة».

قال كايبرن: «عظيم يا جلالة الملكة»، ثم تنحنح قبل أن يضيف: «لكنني أفتقر إلى الإمكانيات المتوفرة لپايسل، ويجب أن أجهز نفسي بـ...».

- «سأكلف اللورد جايلز بتزويدك بذهب يكفي احتياجاتك. اشتر لنفسك ثيابًا جديدة أيضًا. إنك تبدو كأنك صعدت من (جحر البراغيث)»، وتمقنت الملكة في عينيه متسائلة إلى أي مدى تستطيع الثقة به، وأضافت: «هل من داع لأن أقول إن خيرًا لن يحدث لك على الإطلاق إذا تسرّبت كلمة واحدة عن... عملك... إلى خارج هذه الجدران؟».

منحها كايبرن ابتسامة مطمئنة، وقال: «لا يا جلالة الملكة. أسرارك آمنة معي».

بعد رحيله صبت سرسي لنفسها كأسًا من النبيذ القوي، وشربتها عند الثافة وهي تُشاهد الظلال تستطيل في الساحة وتُفكر في العملة. ذهب من (المرعى). لماذا يملك مُشرف سجانين في (كينجز لاندنج) ذهبًا من (المرعى) ما لم يكن قد تُقد إياه لمساعدته في موت أبي؟

مهما حاولت لم تستطع أن تتخيل وجه اللورد تايوين دون أن ترى تلك الابتسامة الصغيرة الشخيفة وتذكر الرائحة اللثنة المنبعثة من جثته، وتساءلت إن كان تيريون وراء هذا أيضًا. حيلة حقيرة قاسية مثله. هل جعل تيريون يايسل أجيره؟ لقد أرسل العجوز إلى الزنازين السوداء، الزنازين نفسها التي كان روجن مسؤولاً عنها. الخيوط كلها متشابكة بطريقة لا تعجبها. تذكرت سرسي فجأة أن الشپتون الأعلى من مخلوقات تيريون أيضًا. وجثمان أبي المسكين كان في عنايته من الليل إلى الفجر.

وصل عفا بلا إبطاء عند الغروب، يرتدي شترًا ضيقة مبطنًا، صوفها فاحم مربد كوجهه. ككل بني لانستر للسير كيقان بشرة شاحبة وشعر أشقر، وإن كان قد فقد أكثره مع بلوغه الخامسة والخمسين، لكن ما من أحد يمكن أن يصفه بالوسامة، بخصره المكتنز وكتفيه المستديرتين وذقنه المرئع البارز الذي لم تُفْلِح لحيته الصفراء المشدبة في مواراته. إنه يُذكرها بكلب درواس عجوز... لكن درواسا عجوزًا مخلصًا هو ما تتطلبه تحديدًا.

تناولا غشاءً بسيطا من الشمندر والخبز ولحم البقر الدامي مع التبيذ الدورني الأحمر، ولم يتكلم السير كيقان إلا قليلا وبالكاد مَسَّ كأسه. إنه واجم للغاية. لا بُدَّ من تكليفه بعملٍ كي يتجاوز حزنه. وهذا ما قالت له بعدما رُفِعَت أطباق الطعام وغادرَ الخدم. «أعرف كم كان أبي يعتمد عليك يا عقاه، والآن عليَّ أن أفعل مثله».

قال: «تحتاجين إلى يد، وچايمي رفض». يتكلم بلا موازنة، ليكن. «چايمي... لقد شعرت بالضيق مع موت أبي، وكنتُ أجهل ما أقوله. چايمي شجاع، لكنه أحمق نوعا، لنكن ضرحاء. تومن محتاج إلى رجل متمرس أكثر، شخص أكبر...». - «مايس تايرل أكبر».

اثسعت طاقتا أنفها غضبا، وقالت: «مستحيل»، وأزاحت خصلة شعرٍ عن جبهتها مضيئة: «آل تايرل يتخطون حدودهم».

قال السير كيقان: «ستكونين حمقاء إذا جعلتِ مايس تايرل يدا، لكن حمقاء أكبر إذا جعلته عدوك. لقد سمعتُ ما قيلَ في (بهو القناديل). كان حريّا بمايس أن يكون أعقل من أن يفتح تلك المسائل علنا، وعلى الرغم من هذا لم تكوني حكيمة حين أهنته أمام نصف البلاط».

رَدَّتْ وَقَدْ ضَايِقُهَا تَأْنِيْبِهِ: «أَفْضَلُ مِنْ أَنْ نَسْمَحَ لِتَايِرِلْ
آخِرَ بَدْخُولِ الْمَجْلِسِ. رَوْزِي سِيْكَوْنُ أَمِيْنُ نَقْدِ مَلَانْمَا.
أَنْتِ رَأَيْتِ هُوْدَجَهْ بِزْخَارْفَهْ وَسَتَاثِرَهْ الْحَرِيْرَ. خِيَوْلَه
كَسَوْتَهَا أَفْضَلُ مِنْ ثِيَابِ مَعْظَمِ الْفَرْسَانِ. رَجُلٌ بِهَذَا
الثَّرَاءِ لَنْ يَجِدَ مَشْكَلَةً فِي الْعَثُوْرِ عَلَى الذَّهَبِ. وَبِالنَّسْبَةِ
إِلَى الْيَدُوِيَّةِ... فَمَنْ أَفْضَلُ لِإِتْمَامِ عَمَلِ أَبِي مِنْ الْإِخِ الَّذِي
شَارَكَهُ خُطَطَهْ كُلَّهَا؟».

- «كُلُّ رَجُلٍ يَحْتَاجُ إِلَى أَحَدٍ يَثِقُ بِهِ. كُنْتُ أَنَا هَذَا
الشَّخْصَ عِنْدَ تَايَوِيْنِ، وَمِنْ قَبْلِي السَّيِّدَةُ وَالِدَتُكَ».
قَالَتْ سِرْسِي رَافِضَةً التَّفْكِيرَ فِي الْعَاهِرَةِ الْمِيْتَةِ فِي
فِرَاشِهِ: «لَقَدْ أَحْبَبْتُهَا لِلْغَايَةِ. أَعْرِفُ أَنَّهَا مَعَا الْآنَ».
قَالَ السَّيْرُ كَيْقَانُ: «هَذَا مَا أَتَمَنَّاؤُهُ»، وَتَفَخَّصَ وَجْهَهَا
طَوِيْلًا قَبْلَ أَنْ يُجِيبَ: «إِنَّكَ تَسْأَلِيْنِي الْكَثِيْرَ يَا
سِرْسِي».

- «لَيْسَ أَكْثَرَ مِمَّا كَانَ أَبِي يَسْأَلُكَ».
التَّقَطَّ عَفْهَا كَاسَهُ وَأَخَذَ رَشْفَةً، ثُمَّ قَالَ: «أَنَا مُتْعَبٌ.
إِنْ لِي زَوْجَةٌ لَمْ أَرَهَا مِنْذُ عَامِيْنِ، وَابْنًا مِثْلًا أُرِيدُ أَنْ أَرِثِي
لَهُ، وَابْنًا آخَرَ عَلَى وَشِكِ الزَّوْاجِ وَتَوَلَّى اللُّورْدِيَّةَ. لَا يَدُّ
مِنْ تَحْصِيْنِ (قَلْعَةِ دَارِي) مِنْ جَدِيْدٍ، وَحِمَايَةِ أَرْضِيْهَا
وَحَرْثِ زَرْعَاتِهَا حَقْوْلَهَا الْمُحْرَوْقَةَ. لَنْسَلُ مُحْتَاجٌ إِلَى
عَوْنِي».

لَمْ تَكُنْ سِرْسِي تَتَوَقَّعُ أَنْ يَتَطَلَّبَ كَيْقَانُ تَمَلُّقًا، لَكِنِهَا
قَالَتْ: «وَتَوْمَنْ أَيْضًا». إِنَّهُ لَمْ يَدَّعِ الْاسْتِحْيَاءَ مَعَ أَبِي
قَطُّ. «الْبِلَادُ تَحْتَاجُ إِلَيْكَ».

غمغم: «البلاد، أجل، وعائلة لانستر»، وأخذ رشفة أخرى من نبيذه، ثم قال: «ليكن. سأبقى وأخدم باعتباري اليد...»، فبدأت تقول: «عظيم...»، لكن السير كيثان رفع صوته وداهمها متابعًا: «... بشرط أن تُسْقيني وصيًا على العرش بالإضافة إلى اليدوية وتأخذي نفسك وتعودي إلى (كاسترلي روك)».

للحظة لم تقوَ سرسي إلا على الحملقة إليه، قبل أن تقول مذكّرة: «أنا الوصيّة على العرش».

- «كنت. تايوين لم ينتو أن تستمري في هذا الدور وأخبرني بخططه لإعادتك إلى (الصخرة) وإيجاد زوج جديد لك».

أحسّت سرسي بغضبها يتصاعد في أعماقها وهي تقول: «تكلم عن هذا، نعم، وقلّك له إنني لا أريد الزواج ثانية».

ردّ عفاها بلا تأثر: «إذا كنت عازمة على عدم الزواج ثانية فلن أجبرك، لكن بالنسبة إلى المسألة الأخرى... أنت سيّدة (كاسترلي روك) الآن، ومكانك هناك».

أرادت أن تصرخ: كيف تجرؤ؟ لكنها بدلًا من هذا قالت: «أنا الملكة الوصيّة على العرش أيضًا، ومكاني مع ابني».

- «ليس هذا ما ارتآه أبوك».

- «أبي مات».

- «ويا لُخْزني، وويلٌ للبلاد كُلِّها. افتحي عينيكَ وانظري حولك يا سرسي. المملكة خراب. كان يُمكن لتايوين أن يُصْخِّح الأوضاع، ولكن...».

صاحت سرسي: «سأُصْخِّخُ أنا الأوضاع!»، ثم خَفَّت نبرتها مردفةً: «بمساعدتك يا عَمِّي. إذا خدمتني بإخلاصك نفسه لأبي...».

- «أنتِ لستِ أباك، ولطالما عَدَّ تايوين چايمي وريثه الشرعي».

- «چايمي... چايمي حلفَ يمينًا. چايمي لا يُفَكِّرُ أبدًا، بل يسخر من كلِّ شخص وكلِّ شيء ويقول ما يعنُّ له أيًّا كان. چايمي أحق وسيم».

- «ومع ذلك كان اختيارك الأول ليد الملك، فماذا يجعلك هذا يا سرسي؟».

- «قلْتُ لك إن الخزن أسقمني ولم أفكّر...».

- «نعم، ولهذا السبب يَجْذُرُ بك أن ترجعي إلى (كاسترلي روك) وتُتْرَكِي الملك مع من يُفَكِّرون».

نهَضت سرسي زاعقةً: «الملك ابني!».

قال عَمُّها: «أجل، وممَّا رأيتُ من چوفري فأنتِ لا تُصلِّحين للأمومة مثلما لا تُصلِّحين للحكم».

وألقت سرسي محتويات كأسها في وجهه مباشرةً. وبكرامة نهَض السير كيغان متثاقلاً والثَّبيذ يسيل على وجنتيه ويَقْطُر من لحيته المشدَّبة، وقال: «هل تسمحين لي بالانصراف؟».

- «بأي حق تتجرأ وتُملي عليّ الشروط؟ إنك لست أكثر من واحد من فرسان أبي».

- «لست أملك أراضِي، هذا صحيح، لكن عندي مصادر دخل معيَّنة وصناديق من المال أحتفظ بها جانبًا. أبي لم ينسَ أحدًا من أولاده حين مات، وتايوين كان يعرف كيف يُكافئ الخدمة الوفيَّة. إنني أطعم منِّي فارس وأستطيع مضاعفة هذا العدد إذا دعت الحاجة، وثقة محاربون غير نظاميين سيتبعون رايتي، كما أني أملك الذهب لاستئجار المرتزقة. من الحكمة ألا تستخفي بي يا جلالة الملكة... وأكثر حكمة ألا تصنعني مني خصمًا».

- «هل تهذدني؟».

- «إنني أنصحك. إذا كنت لا تريدان التنازل عن الوصاية لي فعينيني أمينًا للقلعة في (كاسترلي روك) واجعلي مائيس روان أو راندل تارلي يذا للملك».

أخرسها الاقتراح. كلاهما من حملة راية تاييرل. هل اشتروه؟ هل أخذ ذهب تاييرل ليخون عائلة لانستر؟

واصل عُمُّها الغافل عن خواطرها: «ماثيس روان متعقّل وحكيم ومحبوب، ورائدل تارلي أبرع جُندي في البلاد. إنه يد غير مناسب لזמן السّلام، لكن مع موت تايوين فلا رجل أفضل منه لإنهاء الحرب. لن يَشْعُر اللورد تايِرل بالإهانة إذا اخترت أحد حملة رايته يَدًا. تارلي وروان كلاهما رجل قدير... ومخلص، فعَيّني أحد الاثنين وستجعلينه رجلك، وبهذا تُقوِّين نفسك وتضعفين (هايجاردن)، ومع ذلك سيَشْكُرُك مايس غالبًا»، وهَزَّ كتفيه مضيّقًا: «هذه نصيحتي، خُذِها أو ارفُضِها. يُمكنك أن تجعلي فتى القمر يَدًا ولن أبالي. لقد مات أخي يا امرأة، وسأخذه إلى الوطن».

خائن، مارق. تساءلت كم دفعَ له مايس تايِرل. «تريد أن تتخلّى عن مليكك وهو في أمْس الحاجة إليك، تريد أن تتخلّى عن تومن».

قال السير كيقان: «تومن معه أمّه»، ولاقت عيناه الخضراوان عينيها دون أن تطرفا، وارتجفت قطرة أخيرة من الثَّبِيد تحت ذقنه ثم سقطت أخيرًا، وأتبّع هو بعد بُرهة صمت: «أجل، وأبوه أيضًا على ما أعتقذ».

(30) شعيرة الشهر طقس ديني ترجع أصوله إلى اليهوديّة واستمرّ مع المسيحيّة، وينضّ على أن يقف شخص أو أكثر حراسةً على الميت تكريمًا له لمدة معيّنة، غالبًا من تمتدّ من الثَّابِين وحتى الدفن. في وِلّة الآلهة السّبعة في عالم الرواية يُؤدّي هذه السّعيرة الفُرسان أيضًا كجزء من طقوس تنصيبهم. (المترجم).

(31) الهايرومانسر كلمة يونانية تعني) كاهن النار)، وكانت تُستخدم قديمًا للإشارة إلى كل من يحترف قرّ التعامل مع النار لمختلف الأغراض. (المترجم).

(32) المانتيكور في الأساطير الفارسية حيوان له رأس إنسان وجسم أسد وجناحان كالوطواط وثلاثة صفوف من الأسنان الحادة كسمكة القرش. أمّا في عالم الرواية فيُطلق على حشرة لها رأس شبيه بالإنسان وذيل شائك مقوّس مليء بالشّم، وتستطيع أن تطوي أجنحتها كالجعران. (المترجم).

جايمي

وقّف السير چايمي لانستر مرتديًا أبيض على أبيض إلى جوار النّعش الذي يحمل جُثمان أبيه، وقد أغلق أصابعه الخمسة على مقبض سيف عظيم من الذهب.

مع حلول الفسق ائشح (سيت بيلور الكبير) من الدّاخل بالعتمة والغموض، وتسوّيت خيوط النّهار الأخيرة من النّوافذ العالية مضيئة قتامة حمراء على تماثيل الآلهة السّبعة الذين ثومض الشّموع المعطرة حول مذابحهم، فيما احتشدت الظّلال الكثيفة في الأجنحة وزحفت بصمت على الأرضيّة الرّخام، وخفّت أصداء أناشيد المساء برحيل آخر المعزّين.

مكثّ بالون سوان ولوراس تايرل يعد رحيل الآخرين، وقال السير بالون: «لا أحد يستطيع أن يقف ساهزًا سبعة أيام وسبع ليالٍ. متى يمت آخر مرّة يا سيّدي؟». أجاب چايمي: «عندما كان السيّد والدي حيًا».

قال السير لوراس مقترحًا: «اسمح لي بالوقوف اللّيلة بدلًا منك».

- «لم يكن أباك أنت». ولم ثقّله، أنا قتلتَه. ربما أطلق تيريون سهم النّشابيّة الذي أزهق روحه، لكنني أطلق تيريون. «اتزكاني».

قال سوان: «كما يأمر سيّدي».

لاح على السير لوراس أنه يريد أن يُجايل أكثر، لكن السير بالون أخذه من ذراعه وسحبته مبتعدًا، وأصغى جايمي إلى أصداء خطواتهما تخفت بدورها. هكذا عاد بمفرده مع السيّد والده، وسط الشموع والبلورات ورائحة الموت العطرة المغثية. كان ظهره يؤلمه بسبب وزن درعه، وساقاه شبه خدرتين، فعذل وقفته بعض الشيء وأحكم إغلاق أصابعه على مقبض السيف الذهبي. إنه لا يستطيع المبارزة بسيف، لكنه يستطيع أن يمسكه. أحس بيده المفقودة تنبض، وهو ما يكاد يكون طريقًا، ففي الطرف الذي فقده إحساس أكثر من سائر الجسد الذي تبقى له.

يدي تشتهي السيف. أحتاج إلى أن أقتل أحدًا، قارس كبداية، لكن عليّ أولاً أن أجد الصخرة التي اختبأ تحتها. قال للجثمان: «أمرث الخصي بأن يأخذه إلى سفينة، لا إلى غرفة نومك. يداه ملوئتان بالدماء تمامًا ك... كيدي تيريون». كان يقصد أن يقول: يداه ملوئتان بالدماء تمامًا كيدي، لكن الكلمات احتبست في حلقه. أيًا كان ما فعله قارس فأنا من جعله يفعل.

ليلتها انتظرَ في مسكن الخصي، حين قَرَّر أخيرًا ألا يدع أخاه الصَّغير يموت، وبينما انتظرَ راح يشحذ خنجره بيد واحدة، مستمداً شلواناً غريباً من صوت الفولاذ إذ يحتكُّ بالحجر ويحتكُّ ويحتكُّ. عندما سمع الخطوات وقفَ إلى جوار الباب، ودخلَ قارس وعلى وجهه المساحيق ومنه يفوح عبير الخزامى، فخطا چايمي وراءه وركله في باطن زكبته، ثم جثم فوق صدره ودفع الخنجر تحت ذقنه الأبيض اللّاعم رافعاً رأسه، وقال له بأسارير منبسطة: «أهلاً يا لورد قارس، عجيب أن ألتقيك هنا».

قال قارس لاهثاً: «السير چايمي؟ أخفّثني».

- «هذا ما قصدته»، ودور چايمي الخنجر لتسيل قطرة من الدّم على نصله، وأردف: «كنتُ أفكّر في أن تُساعدني على انتزاع أخي من زنزانته قبل أن يقطع السير إلين رأسه. إنه رأس قبيح لا شك، لكنه لا يملك غيره».

ردّ الخصي: «نعم... حسن... إذا سمحت بأن... ترفع الخنجر... نعم، برفق بعد إذن سيّدي، برفق، أوه، لقد وخّزني...»، ومسّ عنقه وحدّق إلى الدّم على أصابعه قائلاً «لطالما بغضتُ منظر دمائي».

- «سأريقُ المزيد لتبغضه حالاً ما لم تُساعدني».

اعتدلَ قارس جالساً بصعوبة وهو يقول: «أخوك... إذا اختفى العفريت بلا تفسيرٍ من زنزانته سثّار أ-أسئلة، وسأ-أخشى على حياتي...».

- «حياتك ملكي. لا أبالي بالأسرار التي تعرفها. إذا مات تيريون فلن تبقى حيًا بعده طويلاً، أعدك بهذا». امتصّ الخصي الدّم من على أصابعه، وقال: «إنك تُطلب شيئًا فظيفًا... أن تُطلق سراح العفريت الذي قتل ملكنا المحبوب. أم أنك تعتقد أنه بريء؟». وبكلّ حماقة قال جايمي: «بريء أو مذنب، اللانستر يَسُدّ ديونه». يا للشهولة التي أتته بها الكلمات. منذ ذلك الحين لم يتم، والآن يُمكنه أن يرى أخاه، والطريقة التي ابتسم بها القزم تحت جدعة أنفه وضوء المشعل يلحق وجهه، وكيف زمجر بصوتٍ مثقل بالغل: «يا لك من مُعاق مسكين أعمى أحمق! سرسي عاهرة كذّابة، كانت تُضاجع لانسِل وأوزموند كِتْلِبلاك وربما فتى القمر أيضًا. وأنا الوحش الذي يقولون. نعم، قتلت ابنك الكريه».

لم يقل إنه ينوي أن يَقْتُل أبانا. لو قالها لمنعته، ولأصبح أنا لا هو قاتِل الأقربين.

يتساءل جايمي أين اختبأ قارس. لم يرجع وليّ الهامسين إلى مسكنه بالطبع، ولم يُسفر عنه تفتيش (القلعة الحمراء)، فربما إذن استقلّ الخصي السفينة نفسها مع تيريون بدلًا من البقاء للإجابة عن الأسئلة المربكة. إذا كان هذا صحيحًا فالاثنتان في عرض البحر الآن، يتقاسمان إبريقًا من نبيذ (الكرمة) الذهبي في قمرة قادس.

ما لم يكن أخي قد قتل قارس أيضًا وترك جثته
تتعفن تحت القلعة. قد تمرّ سنوات كاملة هناك بالأسفل
قبل أن يعثر أحد على عظامه. لقد قادّ چايمي دسته من
الخرس إلى أسفل بالمشاعل والحبال والمصابيح،
وطوال ساعات تلمّسوا طريقهم عبر ممّرات ملتوية
وسرايب ضيقة وأبواب خفية وسلام سرّية وآبار
قيعائها غارقة في الظلام الدّامس. قلّما شعر چايمي بكلّ
هذا العجز. المرء يعدّ أشياء كثيرة من المسلّمات حين
يملك كلتا يديه، كالسّلام على سبيل المثال. حتى
الرّحف لم يكن سهلاً عليه، فلا أحد يتكلّم عن الرّحف
«على يديه وزكّتيه» عبثًا، ولا استطاع كذلك أن يحمل
مشعلًا على السّلام كالآخرين.

وكلّ هذا سدى، فلم يجدوا إلّا الظّلام والثّراب
والجرذان. والثّنانين أيضًا، ثنانين كامنة بالأسفل. تذكّر
وهج الفحم البرتقالي الكئيب في فم الثّنين الحديدي
الذي يتخذ شكله مستوقّد يُدفع هواء خجّرة في قرار
بئر تلتقي فيه دسته من الأنفاق. على الأرض رأى رسما
باليّا من الفسيفساء الحمراء والسّوداء لثّنين عائلة
تارجارين ذي الثلاثة رؤوس، وبدا كأن الوحش يقول له:
إنني أعرفك يا قاتل الملك، كنّ هنا طيلة الوقت أنتظر
أن تأتي، وخيّل لچايمي أنه يعرف الصّوت، الثّبرة
الحديدية التي كانت سمة ريجار أمير (دراجونستون).

كان نهارًا قويّ الرّيح يوم ودّع ريجار في ساحة
(القلعة الحمراء)، وقد ارتدى الأمير درعه السوداء
كالليل، وازدان صدره بالياقوت على شكل التّين ذي
الرؤوس الثلاثة. ساعتها قال چايمي متوشلاً: «يا سموّ
الأمير، دَع داري يبقى لحراسة الملك هذه المرّة، أو
السير باريستان. إن معطفيهما أبيضان كمعطفي».

هَزَّ الأمير ريجار رأسه، وقال: «والدي الملك يخشى
أباك أكثر مما يخشى ابن عمومنا روبرت. إنه يُريدك
على مقربة منه كي لا يستطيع اللورد تايوين أن يؤذيه،
ولا أجروُ على أن أسلبه تلك الدّعامة التي يستند إليها
في ساعة كهذه».

ارتفع سُخط چايمي حتى بلغ خلقومه وهو يقول:
«أنا لست دعامّة، إنني فارس في الحرس الملكي».
رَدَّ عليه السير جون داري بحدّة: «أحرّس الملك إذن.
حين ارتديت هذا المعطف أقسمت على الطّاعة».

ووضع ريجار يده على كتف چايمي قائلاً: «أنوي بعد
أن تنتهي هذه المعركة أن أعقد مجلساً. سنحدّث
تغييرات. لقد أردت أن أفعل هذا منذ فترة طويلة،
ولكن... لا داعي للكلام عن الطّرق التي لم نسلّكها.
سنحدّث حين أرجع».

كانت تلك آخر كلمات قالها له ريجار تارجارين على الإطلاق. خارج الأسوار احتشد جيش، وفي الأثناء نفسها زحف جيش آخر إلى (الثالوث)، وهكذا اعتمر أمير (دراجونستون) خوذته السوداء الطويلة وركب إلى نهايته.

كان على حق أكثر مما أدرك. حين انتهت المعركة حدثت تغييرات. قال لجثة أبيه: «إيرس ظن أن أدّى لن يمسه إذا أبقاني قريباً منه، أليس هذا طريقاً؟». بدا أن هذا رأي اللورد تايوين أيضاً، إذ كانت ابتسامته متسعة الآن عن ذي قبل. كأنه مستمتع بكونه ميتاً.

الغريب أنه لا يشعر بالخزن. أين دموعي؟ أين غضبي؟ چايمي لانستر لم يفتقر إلى طاقة الغضب قط. قال للجثة: «أنت الذي قلت لي إن الدُموع دلالة على ضعف في الزجل، فلا تتوقع مني أن أبكيك».

ألف لورد وليدي أتوا في الصباح ليصطفوا في الطابور المار بالنعش، ثم عدّة آلاف من العامة بعد الظهر، ثيابهم داكنة ووجوههم خاشعة، إلا أن چايمي ارتاب في أن كثيرين منهم مبتهجون في سريرتهم لمرأى سقوط الزجل العظيم. حتى في الغرب كان اللورد تايوين محترماً أكثر من محبوب، و(كينجز لاندنج) لم تزل تذكر يوم الذهب.

من بين جميع المعزّين بدا المايستر الأكبر پايسل الأكثر اضطرابًا، وبعد الشّعائر قال لچايمي وهو يتشقم حول الجثة بريبة: «لقد خدمتُ سئة ملوك، لكن ها هنا أمامنا يرقّد أعظم رجل عرفته على الإطلاق. لم يكن اللورد تاويون يعتمد تاجًا، لكنه تحلّى بكل ما يجب أن يكونه الملك».

دون لحيته لا يبدو پايسل مسنًا فحسب بل وواهن أيضًا. حلاقة لحيته كانت أقسى ما يمكن أن يفعله تيريون به. يعلم چايمي معنى أن تفقد جزءًا منك، الجزء الذي يجعلك أنت، ولقد كانت لحية پايسل رائعة فعلاً، بيضاء كالثلج وناعمة كصوف الجمالان، نبتة فاخرة غطت وجنتيه وذقنه وانسدلت طويلة حتى دانت حزامه، وقد اعتاد المايستر الأكبر أن يُقلّس عليها وهو يتكلّم بمنتهى الوقار، فمنحته سمت الحكماء وأخفت جميع أنواع المناظر المنفرة، من الجلد الرّخو المتدلّي تحت فكّ العجوز، إلى الفم الصغير الرّاجف والأسنان المفقودة، والثآليل والثّجاعيد وبقع الشّيوخوخة الأكثر من أن تُحصى. حاول پايسل أن يُعيد تربية ما فقده، لكن محاولاته مُنيت بالفشل، ولم ينبت من وجنتيه المتغضّنتين وذقنه الضّعيف إلّا خيوط وشعيرات خفيفة للغاية، لدرجة أن چايمي يرى الجلد الوردي المبّع أسفلها.

قال العجوز: «سير چايمي، لقد رأيت أشياء رهيبه في حياتي، حروبًا ومعارك واغتيالات آثمة... كنت صبيًا في (البلدة القديمة) عندما أتى الطاعون الأرمد على نصف المدينة وثلاثة أرباع (القلعة). حينها أحرق اللورد هايتاور كل سفينة في الميناء وأغلق البوابات وأمر خراسه بقتل كل من يحاول الفرار، سواء أكان رجلًا أم امرأة أم حتى طفلًا رضيعًا. بعد أن جرى الطاعون مجراه الطبيعي وانزاح قتلوه، في اليوم نفسه الذي أعاد فيه فتح الميناء جزؤه من على حصانه وذبحوه هو وابنه الشاب. حتى يومنا هذا يبضق الجهلاء في (البلدة القديمة) لسماع اسمه، لكن كوينتون هايتاور فعل ما كان ضروريًا. أبوك كان من هذا النوع من الرجال أيضًا، رجلًا يفعل ما هو ضروري».

- «ألهذا يبدو مسرورًا من نفسه؟».

قال پايسل والأبخرة المتصاعدة من الجنة ثدع عينيه: «اللحم... مع جفاف اللحم تشتد العضلات وتسحب شفثيه إلى أعلى. هذه ليست ابتسامه وإنما... جفاف لا أكثر»، وأغمض عينيه وفتحهما محاولًا منع الدموع، وأردف: «أرجو أن تعذرني، إنني مرهق للغاية»، واثكأ بثقل على غكازه وتحرك مغادرًا الشيت على مهل. هذا الرجل على عتبة الموت أيضًا. لا غرو أن سرسي تقول إنه عديم الفائدة.

بالطبع تعتقد أخته العزيزة أن يصف من في البلاط
إما عديمو الفائدة وإما خونة؛ پايسل والخرس الملكي
وآل تايرل وجايمي نفسه... وحتى السير إلين پاين،
الفارس الضامت الذي يعمل جَلَّادًا. عند شغله منصب
عدالة الملك أضحت الزنازين مسؤوليته، وبما أنه بلا
لسان فغالبًا ما ترك پاين واجب إدارة تلك الزنازين
لمرؤوسيه، غير أن سرسي تلومه هو على هرب تيريون
رغم ذلك. كاذ يقول لها: كان هذا من ضنعي لا ضنعه،
لكنه وعد بدلًا من ذلك بأن يحصل على ما يستطيع من
إجابات من رئيس الشجائين، وهو عجوز محني الظهر
اسمه رينيقر لونجووترز.

قهقهة الزجل بصوت كقوقاة الدجاج حين ذهب
جايمي يستجوبه، وقال له: «أراك تتساءل عن اسمي
هذا. إنه اسم قديم، هذا صحيح. لست أحب الثباهي،
لكن في عروقي دماء ملكية. إنني أنحدر من ذرية
أميرة. أبي حكى لي الحكاية وأنا صبي صغير». لم يغد
لونجووترز صبيًا صغيرًا منذ سنين عدّة كما يشي رأسه
المبقع والشعر الأبيض الثابت من ذقنه. «كانت أجمل
كنوز (قفص العذراوات)، وسلّبت الأميرال العظيم اللورد
أوكنفيست قلبه رغم أنه كان متزوّجًا بأخرى. أطلقت
على ابنتهما اسم الثغول «ووترز» تكريمًا لأبيه، وكبر الابن
ليصبح فارسًا عظيمًا، وكذا ابنه الذي وضع «لونج» في
اسمه قبل «ووترز» ليعرف الناس أنه ليس ابن حرام عن
نفسه، وهكذا هناك القليل من دم الثنّانين في عروقي».

رَدَّ چایمی: «نعم، کدثُ أحسبک إجون الفاتح». ووترز
من أسماء الثُغول الشَّائعة في منطقة (الخليج الأسود)،
وعلى الأرجح جاء لونجووترز القديم من ذُرِّيَّة أحد
فُرسان العائلات الصَّغيرة لا من أميرة. «لكن يتصادف
أن عندي اهتمامات أكثر إلحاحًا من نَسَبك».

حنى لونجووترز رأسه قائلاً: «السَّجين الضَّائع».

- «والسَّجَّان المفقود».

عَقَّب العجوز: «روجن، فُشرف سَجَّانين. كان مسؤولًا
عن المستوى الثَّالث، الزُّنازين الشُّوداء».

قال چایمی مرغفاً: «حدَّثني عنه». مهزلة لعينة. إنه
يعلم هويَّة روجن، حتى إن كان لونجووترز يجهلها.

- «أشعث الشَّعر، طويل اللِّحية، قُطُّ الأسلوب. لم يكن
الرَّجل يروقني، صحيح، أعتزُّ بهذا. كان روجن هنا
حين وصلتُ قبل اثني عشر عامًا. الملك إيرس هو من
كَلَّفه بوظيفته، ولكن يجب أن أقول إنه نادراً ما ظهر
هنا، وقد دُونْتُ هذا في تقاريري يا سيِّدي، أوْكَذِّ لك
وأعطيك كلمتي، كلمة رجلٍ في عروقه دماء ملكيَّة».

اذكُر تلك الدِّماء الملكيَّة مرَّةً أخرى وسأريقُ القليل
منها. «من رأى تلك الثَّقارير؟».

- «بعضها ذهب إلى أمين النقد وبعضها إلى ولي الهامسين، وكلها إلى رئيس السجّانين الأعلى وعدالة الملك. لطالما جرّت الأمور على هذا المنوال في الزّنازين»، وحكّ لونجووترز أنفه متابعًا: «روجن كان يظهر عند الحاجة يا سيّدي، لا مفرّ من قول هذا. قليلًا ما تُستخدم الزّنازين السّوداء. قبل أن ينزل فيها أخو جنابكم الصّغير قضى المايستر الأكبر پايسل فترةً عندنا، وقبله اللورد ستارك الخائن، وكان هناك ثلاثة آخرون من العوام، لكن اللورد ستارك سلّمهم لحرس اللّيل. لم أر إطلاق سراح أولئك الثلاثة خيرًا، لكن الأوراق كانت سليمة. هذا أيضًا دؤنته في الثّقارير، لك أن تثق بكلمتي».

- «حدّثني عن السجّانين اللذين راحا في الثّوم».

تنسّق لونجووترز قائلاً: «تقول سجّانين؟ لم يكونا سجّانين، بل مجرّد حاملّي مفاتيح. الثّاج يدفع أجور عشرين حامل مفاتيح يا سيّدي، لكن طيلة خدمتي لم يزد عددهم على الاثني عشر. المفترض أن يكون عندنا سئة مشرفي سجّانين أيضًا، اثنان في كلّ مستوى، لكن لا يوجد إلا ثلاثة».

- «أنت واثنان آخران؟».

عادَ لونجووترز يتنشق، وقال باعتداده: «أنا رئيس
مُشرقي السَّجَّانين يا سيّدي، أي أني أعلى من مُشرقي
السَّجَّانين. إنني مكلف بمراجعة الدفاتر. إذا كان سيّدي
يرغب في إلقاء نظرة عليها فسيرى أن الأرقام كلّها
مضبوطة»، ثم إنه راجع الدفتر الضخم المغلف بالجلد
المفتوح أمامه، وأردف: «حاليًا عندنا أربعة سجناء في
المستوى الأول وواحد في الثاني، بالإضافة إلى أخي
جنابكم»، ثم قَطَب وجهه مضيّقًا: «الذي قَرَّ هذا
صحيح، سأشطّب اسمه»، والتقط ريشة كتابة وبدأ
يسئها.

فكّر چایمی بجهامة: سئة سجناء، بينما ندفع أجور
عشرين حامل مفاتيح وسئة مُشرقي سَجَّانين ورئيس
مُشرقي سَجَّانين وسَجَّان وعدالة الملك. «أريد أن
استجوب حاملي المفاتيح هذين».

تخلّى رينيفر لونجووترز عن سنّ ريشته ورفع عينيه
رامقًا چایمی بارتياح، ثم سأل: «تستجوبهما يا
سيّدي؟».

- «كما سمعتني».

- «سمعتك يا سيّدي، سمعتك بالتأكيد، ولكن...
يستطيع سيّدي أن يستجوب من يشاء، هذا صحيح،
فليس لي أن أقول إنه لا يستطيع، ولكن أيها الفارس،
إذا سمحت لي، لا أظنّ أنهما سيُجيبان. إنهما ميتان يا
سيّدي».

- «ميتان؟! بأمر من؟».

- «بأمرك كما حسبت... أو ربما بأمر الملك؟ لم أسأل.
ليس... ليس لي أن أراجع رجال الحرس الملكي».
ضَبَّ الجواب الملح على جرحه. لقد استخدمت
سُرسي رجاله ليقوموا بعملها الدامي، هُم وأعرّأوها
الإخوة كِتْلِبلاك.

بَعْدَهَا، فِي الزَّنْزَانَةِ الَّتِي فَاحَتْ فِيهَا رَائِحَةُ الدَّمَاءِ
وَالْمَوْتِ، زَمَجَرَ جَايْمِي فِي بُورُوسِ بِلَاوَنْتِ وَأَوْزَمُونْدِ
كِتْلِبْلَاكِ قَائِلًا: «أَيُّهَا الْأَحْمَقَانِ عَدِيمَا الْعَقْلِ، مَاذَا حَسِبْتُمَا
نَفْسَيْكُمَا فَاعِلَيْنِ؟».

أَجَابَ السَّيْرُ بُورُوسُ الْأَقْصَرَ قَامَةً مِنْ جَايْمِي لَكِنَّهُ
أَثْقَلَ: «لَيْسَ أَكْثَرَ مِمَّا قِيلَ لَنَا يَا سَيِّدِي. جَلَالَتُهَا أَمَرَتْ
بِهَذَا، أَخْتُكَ».

وَدَشَّ السَّيْرُ أَوْزَمُونْدَ إِبْهَامَهُ فِي حِزَامِ سَيْفِهِ مُضِيفًا:
«طَلَبْتُ أَنْ يَنَامَا إِلَى الْأَبَدِ، فَحَرَصْتُ وَإِخْوَتِي عَلَى
هَذَا».

هَذَا مَا حَرَصْتُمْ عَلَيْهِ حَقًّا. كَانَتْ إِحْدَى الْجُنَّتَيْنِ مُلْقَاةً
عَلَى وَجْهِهَا عَلَى الْمَائِدَةِ كَرَجَلٍ غَابَ عَنِ الْوَعْيِ فِي أَثْنَاءِ
مَأْدِبَةٍ، لَكِنْ مَا تَحْتَ رَأْسِهِ بِرَكَةِ مِنَ الدَّمِ لَا التَّبِيدُ. أَهْمَا
حَامِلِ الْمِفَاتِيحِ الثَّانِي فَيَبْدُو أَنَّهُ اسْتَطَاعَ أَنْ يَنْهَضَ مِنْ
عَلَى الذَّكَّةِ وَيَسْحَبَ خَنْجَرَهُ قَبْلَ أَنْ يَغْرُسَ أَحَدَهُمْ سَيْفًا
طَوِيلًا فِي ضُلُوعِهِ، فَكَانَتْ نَهَائِيَتُهُ الْأَطْوَلُ وَالْأَكْثَرُ
فَوْضَى. قَلْتُ لِقَارِسِ أَلَّا يَمْشِيَ الْأَنَى أَحَدًا فِي تِلْكَ
الْمَسْأَلَةِ، وَلَكِنْ كَانَ عَلَيَّ أَنْ أَقُولَ لِأَخِي وَأَخْتِي أَيْضًا.
«أَسَأْتُمْ التَّصَرُّفَ أَيُّهَا الْفَارِسُ».

هَزَّ السَّيْرَ أَوْزَمُونَ دَ كَتَفِيهِ قَائِلًا: «لَنْ يَفْتَقِدَهُمَا أَحَدٌ.
أَرَاهُنَّ أَنَّهُمَا لَعِبَا دُورًا فِي مَا جَرَى، بِالإِضَافَةِ إِلَى الْآخِرِ
الْمَفْقُودِ».

كَانَ يُمَكِّنُ لِجَايِمِي أَنْ يَقُولَ لَهُ: لَا. قَارَسَ تَشَّ مَخْذَرًا/
فِي تَبْيِذِهِمَا لِيَنَامَا، لَكِنَّهُ قَالَ: «إِذَا صَخَّ هَذَا لَكُنَا اسْتَطَعْنَا
إِنْتِزَاعَ الْحَقِيقَةِ مِنْهُمَا»... كَانَتْ تُضَاجِعُ لَانَسْلَ وَأَوْزَمُونَ
كِتْلِبْلَاكَ وَرَبِمَا فَتَى الْقَمَرِ أَيْضًا... «لَوْ كُنْتُ ذَا طَبِيعَةٍ
شَكَّاءَةٍ لَتَسَاءَلْتُ عَنْ سَبَبِ اسْتَعْجَالِكُمُ التَّأَكُّدَ مِنْ عَدَمِ
اسْتِجْوَابِ هَذَيْنِ الْاِثْنَيْنِ أَبَدًا. هَلْ أَرَدْتُمُ إِخْرَاسَهُمَا
لِإِخْفَاءِ دُورِكُمْ فِي الْمُوَاسِمَةِ؟».

رَدَّ كِتْلِبْلَاكَ مَبْغُوثًا: «نَحْنُ؟ لَمْ نَفْعَلْ إِلَّا مَا أَمَرَتْ بِهِ
الْمَلَكَةُ، أَقْسَمُ بِكَلِمَتِي كَأَخِيكَ الْمَحْلُوفِ».

اِخْتَلَجَتْ أَصَابِعُ جَايِمِي الشُّبْحِيَّةِ وَهُوَ يَقُولُ: «أَحْضِرْ
أَوْزَنِي وَأَوْزِفْرِي وَنُظْفُوا الْفُوضَى الَّتِي صَنَعْتُمُوهَا،
وَعِنْدَمَا تَأْمُرُكَ أُخْتِي الْمَرْءَةُ الْقَادِمَةُ بِقَتْلِ أَحَدٍ تَعَالِ إِلَيَّ
أَوَّلًا. فِيمَا عَدَا هَذَا اغْزُبْ عَنْ وَجْهِهَا الْفَارِسِ».

تردّدت أصداء الكلام في عقله وهو واقف في عتمة
(سيت بيلور)، وقد اسودّت النوافذ كلّها من فوقه،
وأصبح يرى ضوء النجوم البعيدة الخافت إذ غابت
الشّمس تمامًا. ما زالت رائحة الموت التّنة تزداد قوّة
على الرغم من الشّموع المعطّرة، وذكّرت تلك الرائحة
چايمي لانستر بالمرّ أسفل (الثّاب الذّهبي) حيث حقّق
نصرًا عظيمًا في أيام الحرب الأولى. في الصّباح الثّالي
للمعركة التّهت الغريبان وليمةً من لحم المنتصرين
والمهزومين على حدّ سواء، مثلما التّهت لحم ريجار
تارجارين بعد (الثّالوث). ما قيمة الثّاج إذا كانت الغريبان
تتعثّى بلحم الملوك؟

يظنّ چايمي أن هناك غربانًا تدور حول أبراج (سيت
بيلور) الشّبعة وفقّته العظيمة الآن تحديداً، تضرب
أجنحتها الشّوداء هواء المساء وهي تبحث عن سبيل
للدّخول. حرّى بكلّ غراب في (الممالك الشّبع) أن يأتي
ويُعرب عن تقديره لك يا أبي. لقد أطعمتها جميعًا، من
(كاستامير) إلى (النّهر الأسود). سرّت الفكرة اللورد
تايوين الذي اتّسعت ابتسامته أكثر، ففكّر چايمي: بحقّ
الجحيم، إنه يبدو كعريس في أثناء إضجاعه!

كان الخاطر شاذًا لدرجة أن چايمي أطلق ضحكة
عالية.

وتردّد صداها في الأجنحة والشراديب والفصليات
كأن الموتى المدفونين داخل الجدران يضحكون أيضًا.
ولم لا؟ الأمر أكثر عبثًا من مسرحيّة هزليّة؛ وقوفي
ساهرًا على الأب الذي ساعدت على قتله، وإرسالي رجالًا
للقبض على الأخ الذي ساعدت على إطلاق سراحه...
كان قد أمر السير أدام ماربراند بتفتيش (شارع الحريص)،
وقال له: «ابحثوا تحت كلّ سرير. أنت تعلم غرام أخي
بالمواخير». سيجذّ ذوو المعاطف الذهبيّة أشياء أكثر
إثارة للاهتمام تحت فساتين العاهرات مما سيجدون
تحت أسرّتهم، حتى إن جايمي يتساءل كم نغلا سيولد
من جرّاء هذا البحث عديم الجدوى.

دون إرادة منه انتقلت أفكاره إلى بريان التارثيّة.
فتاة حمقاء عنيدة قبيحة. ترى أين هي الآن؟ امنحها
القوّة يا أبت. يكاد يكون دُعاء... لكن إلى الإله يبتهل؟
إلى (الأب في الأعالي) الذي يتألّق تمثاله المذهب
الشّاهق في ضوء الشّموع عبر المكان؟ أم أنه يُضلي
للجُثمان المسجّى أمامه؟ هل يهم؟ كلاهما لم يُنصت
قَط. منذ كبر جايمي حتى استطاع حمل السّيف كان
(المُحارب) إلهه. قد يكون من عداه من الرّجال آباء
وأبناءً وأزواجًا، أمّا جايمي لانستر فلا. إنه الرّجل ذو
السّيف الذهبي كشعره، مُحارب، وأبدا لن يكون إلّا هذا.

يَجْدُر بي أن أخبر سرسي بالحقيقة، أن أعترف بأنني
مَنْ حَزَّر أخانا الصَّغير من زَنَازنته. قول الحقيقة أتى
بنتيجة رائعة مع تيريون في النهاية. قتلْتُ ابنك الكريه،
والآن سأذهب لأقتل أبانا أيضًا. سمعَ چايمي العفريت
يضحك في العتمة، فالتفتَ يَنْظُر لكن الصَّوت لم يكن إلَّا
صدي ضحكته هو. أغلَقَ عينيه، وبالسرعة نفسها
فتحهما مجددًا. يجب إلَّا أنام. إذا نَامَ قريبًا يحلُم. أوه،
يا لضحكة تيريون الشَّاخرة تلك... عاهرة كذَّابة...
ثُضاجع لانسِل وأوزموند كِتَليلاك...

في منتصف الليل صرّت مفصلات (باب الأب) مع دخول عدّة مئات من الشّيتونات لإقامة صلواتهم، يرتدي بعضهم الأردية المفضّلة من قُماش الفضة ويعتمر الأكاليل البلّور التي تُقَيِّز مجلس القائتين، في حين علّق إخوتهم الأدنى شأنًا بلّوراتهم من سيورٍ حول أعناقهم وأوثقوا أرديتهم البيضاء بأحزمة من سبع جدائل بسبعة ألوان مختلفة. من (باب الأم) دخلت الشّيتوات من معزلهن، سبع يرتدين الأبيض ويمشين متجاورات ويترنّمن بنعومة، بينما نزلت الأخوات الضامّات (سلام الغريب) في طابور، وقد ارتدت وصيفات الموت الرّمادي الفاتح، وفوق رأس كلّ منهن قلنسوة وعلى وجهها لثام، فلا يرى منها إلّا عيناها. ظهر حشد من الإخوة أيضًا، يرتدون البني والعسلي والرّمادي الداكن، وحتى الخيش غير المصبوغ، ويشدّون ما يرتدونه على خصورهم بحبال القُنب، ويُعلّق بعضهم مطرقة (الحدّاد) الحديد من الأعناق، وبعضهم أوعية الشّحاذة.

لم يُعر أحد من المصلّين چایمی اهتمامًا، بل داروا في محيط الشّيت متعبّدين على كلّ من المذابح السبعة تكريمًا لسبعة أوجه الإله، ولكلّ إله قدّموا قُربانًا، ولكلّ واحد أنشدوا لترتفع أصواتهم وقورًا عذبة. أسدل چایمی جفنيه ليُصغي، لكنه رفعهما من جديد لَمَّا بدأ يتمايل. إنني مرهق أكثر مما حسبت.

لقد مضت سنوات منذ أذى شعيرة الشهر آخر مزة.
كنت أصغر حينئذ، غلامًا في الخامسة عشرة. لم يكن
يرتدي درعًا وقتها، بل مجرّد سترة بيضاء تقليديّة، ولم
يبلغ الشّيت الذي أمضى فيه اللّيل ثلث مساحة أيّ من
أجنحة (سيت بيلور) السّبعة. ليلتها وضعّ جايمي سيفه
على زُكبتّي (المُحارب) وكوّم برعه عند قدميه وركع
على الأرض الحجريّة الخشنة أمام المذبح، وحين بزغ
القُجر كانت زُكبتاه مسحوجتين دامتيتين، فقال له السير
آرثر داين لقًا رآه: «لا مناص من أن ينزف كلّ الفرسان يا
جايمي. الدّم خُتم إخلاصنا»، ثم إنه رفع سيفه (فُجر)
مرئيًا به على كتفي جايمي، وكان الثّصل الشّاحب حادًا
لدرجة أن تلك اللّمسة الخفيفة للغاية شقّت سترته ومن
جديد نزف... لكنه لم يشغّر بالجرح لحظة. غلامًا ركع،
وفارسًا نهض. الأسد الصّغير لا قاتل الملك.
لكن ذلك كان منذ زمن، والغلام مات.

لا يدري متى انتهت الصلوات. ربما نام وهو واقف. حين خرج المتعبّدون عاد الشكون يُخَيِّم على (الشيت الكبير)، والشموع كأنها حائط من الثجوم المتقدّة في الظلام، وإن ظلّ الهواء يعبق بالموت. عدل چایمی قبضته على السيف الذهبي العظيم. ربما كان عليه أن يدع السير لوراس يحلّ محله رغم كل شيء. كانت سرسي لتكره ذلك. فارس الزهور ما زال نصف صبي، ومغرور متكبر، لكنه يملك إمكانية أن يصبح عظيمًا، أن يكون من أهل المآثر الكبرى التي تليق بـ(الكتاب الأبيض).

سيكون (الكتاب الأبيض) في انتظاره عندما ينتهي شهره، صفحته منه مفتوحة ثرّمقه بتأنيب صامت. سأمزق الكتاب اللعين إربًا قبل أن أملاه بالأكاذيب. لكن إذا كان لن يكذب، فماذا يكذب سوى الحقيقة؟ فجأة وجد امرأة تقف أمامه.

المطر يسقط من جديد. رآها مبتلة تمامًا والماء يقطر من معطفها صانعًا بركة عند قدميها. كيف دخلت؟ لم أسمعها تدخل. كانت ترتدي ثياب ساقية في حانة، معطفًا من الخيش الثقيل مصبوغًا بلا مهارة بدرجات البني ومهترئ الحاشية، وقد أخفت قلنسوة وجهها لكنه رأى الشموع تتراقص في لجّتي عينيها الخضراوين، ولقا تحرّكت عرقها.

- «سرسی». تكلم ببطء كرجل صحا لتوّه من خلیم وما زال يتساءل أين هو. «ما الساعة الآن؟».

أجابت أخته: «ساعة الذئب» (33)، وأنزلت قلنسوتها وتقلص وجهها وهي تُضيف: «الذئب الغريق ربما»، ثم ابتسمت له بكل عذوبة، وقالت: «هل تذكر أول مرة أتيتك هكذا؟ كانت في خانٍ كئيب عند (زُقاق بنات عرس)، وارتديت ثياب خادمة لأمرٍ من خُراس أبي».

- «أذكرُ. كان في (زُقاق الحنشان)». تُريد مني شيئًا.
«ماذا تفعلين هنا في هذه السَّاعة؟ ماذا تُريدين مني؟»
تردَّدت كلمته الأخيرة في جنبات الشَّيت، مني-مني-
مني-مني-مني-مني-مني-مني-مني، وراحت تخفت
حتى غَدَت همسةً، وللحظة جروُ چايمي على أن يأمل
أن كلَّ ما تُريده سرسي هو الزَّاحة بين ذراعيه.

- «تكلّم بهدوء». كانت نبرتها غريبة... لاهثة، أقرب إلى الخوف. «چايي، كيفان رفض، لن يتولى اليدويّة. إنه... إنه يعلم بأمرنا، لمّح إلى هذا بوضوح».

قال مندهشاً: «رفض؟ وكيف يعلم؟ لا بُدَّ أنه قرأ ما كتبه ستانيس، لكن ليس هناك...».

قاطعته: «تيريون كان يعلم. من يدري ماذا حكى ذلك القزم البغيض أو لمن؟ العثم كيثان أقل المصائب... الشيتون الأعلى، تيريون هو من رقاها إلى تاجه حين مات الآخر البدين. ربما يعلم أيضًا»، ودنت منه متابعة: «لا مفر من أن تكون يد تومن. إنني لا أثق بمايس تايرل. ماذا لو كانت له يد في موت أيينا؟ ربما كان يتآمر مع تيريون. من الممكن أن يكون العفريت في طريقه إلى (هايجاردن)....».

- «غير صحيح».

قالت متوسلة: «كن يدي وسنحكّم (الممالك السبع) معًا كملك ومليكنه».

- «كنت مليكة روبرت، ولكنك تأبين أن تكوني مليكتي».

- «كنت لأفعلها إذا جرؤت، لكن ابننا...».

قاطعها بقسوة: «تومن ليس ابني كما لم يكن جوفري. لقد جعلتهما ابني روبرت أيضًا».

جفلت أخته قائلة: «لقد وعدت بأن تحبني دائمًا، وليس من المحبة أن تجعلني أتوسّل».

أفعمت أنف جايمي رائحة خوفها على الرغم من نتانة الجثة، وأراد أن يحتويها بذراعيه ويُقبلها، أن يدفن وجهه في خصلاتها الذهب ويعدّها بأن لا أحد سيمسّها بسوء أبدًا... لكنه أخبر نفسه: ليس هنا، ليس هنا أمام الآلهة وأبينا، وقال لها: «لا، لا أستطيع، ولن أفعل».

قالت وهو يسمع المطر ينهمر على التوافذ بالأعلى: «إنني محتاجة إليك، محتاجة إلى نصفي الآخر. أنت أنا وأنا أنت. أحتاج إليك إلى جوارِي، في داخلي، أرجوك يا جايمي، أرجوك».

نظر جايمي ليستوثق بأن اللورد تايوين لا ينهض في هذه اللحظة من على منصته غاضبًا، لكن أباه ظلّ متمدّدًا في مكانه، باردًا يتعفّن. «لقد خلقت لميادين المعارك لا قاعة مجلس، والآن يبدو أنني لم أعد أصلح لذلك أيضًا».

مسحت سرسي دموعها بكمّ بئي رث، وقالت: «ليكن،
إذا كانت ميادين المعارك ما تشتهي فميادين المعارك ما
سأعطيك»، ورفعت قلنسوتها بغضب مردفة: «كنث
حمقاء لمجيئي، كنث حمقاء عندما أحببتك»، ورددت
خطاها المبتعدة أصداءً عالية شقت الهدوء وتركت بقعاً
مبتلة على الأرض الرّخام.

كادَ الفجر يأخذ چايمي على حين غرة، وإذ بدأ رُجاج
القبة يستنير راخت أقواس قزح تتلألأ على الجدران
والأرضيات والأعمدة، وغمرت جثمان اللورد تايوين
بسديم من الضوء عديد الألوان. يد الملك يتعقن
بوضوح، وقد شاب وجهه اخضرار خفيف وغازت
عيناه كثيراً فأصبحتا خفرتين سوداوين عميقتين
وبدأت وجنتاه تنفتقان، بينما تسرّب سائل أبيض كربه
من مفاصلات درعه الفاخرة بلونيهما الذهبي والقرمزي
ليتجمع تحت جنته.

أول من رأى المنظر الشّيتونات عندما عادوا لأداء صلوات الفجر، فأنشدوا أناشيدهم ودعوا أدعيتهم وقلّصوا أنوفهم، لكن رأس واحد من القائتين دارَ لدرجة أنهم اضطّروا إلى مساعدته على الخروج من الشّيت، وبعدها بفترة قصيرة دخلت جماعة من الثّلامذة مؤرجحين المباخر، فأفعمّ البخور الكثيف الهواء حتى بدا النّعش ملتحمًا بالدّخان، وغابت أقواس قزح كلّها في ذلك الضّباب المعطر، إلّا أن الرائحة ظلّت قويّة، رائحة هي مزيج من العفن والشّذا جعلت الرّغبة في القيء تنتاب جايمي.

عندما فُتحت الأبواب كان آل تايرل بين أول الدّاخلين بما يُناسب مكانتهم، وقد أحضرت مارچري باقة كبيرة من الورود الذهبية وضعتها بحركة مسرحيّة عند قدم نعش اللورد تايوين، وإن احتفظت بواحدة أبقتها تحت أنفها وهي تتخذ مقعدها. إذن فالفتاة ذكية كما هي جميلة. إنها أفضل من كثيرات غيرها كملكة لتومن. ملوك قبله تزوّجوا من هن أسوأ.

حدّت رفيقات مارچري حذوها، أمّا سرسي فانتظرت حتى أخذ الباقيون أماكنهم كي تدخل وإلى جوارها تومن، يُصاحبهما السير أوزموند كيتلبلاك في درعه البيضاء المطلية بالميّنا ومعطفه الصّوف الأبيض.

- «... كانت تُضاجع لانسِل وأوزموند كيتلبلاك وربما فتى القمر أيضًا...».

رأى جايمي كتلبلاك عاريًا في الحَقَام، ورأى الشَّعر
الأسود على صدره وذلك الأشبه بالقشَّ الخشن بين
ساقيه، وتخيل ذلك الصُّدر مضغوطًا إلى صدر أخته
وذلك الشَّعر يحكُّ جلد ثدييها النَّاعم. ما كانت لتفعل
شيئًا كهذا. العفريت كاذب. الذهب المغزول والشَّعر
الأسود مشتبكان، يتصبَّبان عرقًا، وفلقنا مؤخِّرة كتلبلاك
الضيقتان تنضقان كلَّما دفعَ نفسه في داخلها، ويسمع
جايمي أنين أخته. لا، إنها كذبة.

بعينين محمَّرتين ووجه ممتقع صعَّدت سرسي
الدَّرجات وركعت إلى جوار أبيهما وسحبت تومن ليركع
معها. تراجع الصُّبي لمرأى المنظر لكن أمه أطبقت على
معصمه قبل أن يبتعد، وهمست له: «ضَلَّ»، فحاول
تومن أن يُطيع الأمر، غير أنه مجرَّد طفل في الثامنة
واللورد تايوين زُعب حقيقي. نفس يائس واحد من
الهواء وأجهش الملك بالبكاء. قالت سرسي: «كفَّ عن
هذا!»، ودور تومن رأسه وانثنى على نفسه مفرغًا
معدته، وسقط تاجه ليتدحرج على زُخام الأرض.
تراجعت أمه باشمئزان، وفي غمضة عين كان الملك
يركض إلى الباب بأقصى سرعة تُتيحها له ساقاه ذاتا
الأعوام الثمانية.

قال چايمي بحذّة بينما التفت كتلبلاك ليطارِد الثّاج:
«سير أوزموند، خُذ مكاني»، وناول الرّجل سيفه الذهبي
وهرغ وراء مليكه. في (بهو القناديل) لحقّ به أمام أعين
دستة من الشّيتوات الجافلات، وقال تومن باكيّا: «إنني
آسف. سأبلي بلاء أحسن غداً. أمّي تقول إن على الملك
أن يري الثّاس الطريق، لكن الرّائحة قلبت معدتي».

لن يصلح هذا. آذان مرهفة كثيرة وأعين ثراقب. قال
چايمي: «الأفضل أن نخرج يا جلالة الملك»، وقاد
الصّبي إلى الخارج حيث الهواء نظيف نقيّ قدر
المستطاع في مدينة كـ(كينجز لاندنج). رأى أربعين من
ذوي المعاطف الذهبيّة منتشرين في السّاحة لحراسة
الخيّل والهوارج، فأخذ الملك جانباً على مسافة لا بأس
بها من الجميع، وأجلسه على الدّرجات الرّخام، حيث
قال الصّبي بإصرار: «لم أكن خائفاً، الرّائحة قلبت
معدتي. ألم تقلب معدتك أيضاً؟ كيف تحتملها يا خالي
الفارس؟».

لقد شممت يدي وهي تتعقّن عندما جعلني قارجو
هوت أعلّقها كقلادة. قال چايمي لابنه: «الرّجل يستطيع
أن يحتمل أيّ شيء إذا لزم الأمر». لقد شممت رائحة
سواء رجل طهاه الملك إيرس في درعه. «العالم مليء
بالأهوال يا تومن، فإمّا أن تُقاومها وإمّا أن تُنظر دون أن
تري... تنسحب داخل نفسك».

فكّر تومن لحظةً، ثم قال بنبرة اعتراف: «كنت...
كنت أنسحب داخل نفسي أحياناً عندما كان جوفي...».

- «جوفري». كانت سرسي واقفة فوقهما والريح تضرب ساقياها بتثورتها. «أخوك كان اسمه جوفري، وما كان ليُخزيني هكذا».

- «لم أقصد، لم أكن خائفاً يا أمي، لكن رائحة السيّد والدك كانت سيئة...».

قالت: «هل تظنّ أنني شممت رائحة أفضل؟ إن لي أنفاً أيضاً»، وأمسكت أذنه وسحبته ليقف مضيفة: «اللورد تايرل له أنف. هل رأيته يتقيّاً في الشّيت المقدّس؟ هل رأيت الليدي مارچري تنوح كالرّضع؟».

قام جايمي قائلاً: «سرسی، كفى».

اشتعل الغضب على محيّاهما، وقالت: «ماذا تفعل هنا أيها الفارس؟ لقد أقسمت أن تسهر على جثة أبينا حتى ينتهي الثّابّين على ما أذكّر».

- «الثّابّين انتهى. اذهبي وانظري إليه».

- «لا. سبعة أيام وسبع ليالٍ كما قلت. مؤكّد أن حضرة القائد يعرف كيف يعدّ إلى سبعة. خذ عدد أصابعك وأضف اثنين».

كان آخرون قد بدأوا يتدفّقون من الدّاخل إلى الشّاحة هاربين من الرّائحة الشّنيعة، فقال لها جايمي محدّراً: «سرسی، اخفضي صوتك، اللورد تايرل يقترب».

سبّرت كلماته غضبتها وسحبت الملكة تومن إلى جانبيها، وانحنى ميس تايرل أمامهما قائلاً: «أرجو أن يكون جلالته بخير».

قالت سرسي: «خزن الملك غلبه لا أكثر».
- «كما يغلبنا جميعًا. إذا كان هناك ما بإمكانني أن أفعله...».

بعيدًا بالأعلى أطلق غراب صرخة مرتفعة وهو جاثم على تمثال الملك بيلور ويتبرّز على الرأس المقدّس.
قال چايمي: «هناك الكثير جدًّا بإمكانك أن تفعله من أجل تومن يا سيّدي. هَلَّا شَرَّفْتَ جلالتها بتناول العشاء معها بعد صلوات المساء؟».

رَمَتْه سرسي بنظرة تُذِيل الرُّع، لكنها تعقّلت وحفظت لسانها هذه المرّة، في حين بدا تايرل مندهشًا، وقال: «العشاء؟ أظنّ... بالطبع، سنتشرف بهذا أنا والسيدة زوجتي».

أجبرت الملكة نفسها على الابتسام وردّدت كلامًا فارغًا عن سرورها، لكن حين انصرف تايرل وصرّف تومن مع السير أدام ماربراند التفتت إلى چايمي ساخطة، وقالت: «أأنت سكران أم تحلم أيها الفارس؟ أخبرني من فضلك، لماذا أتناول العشاء مع هذا الأحمق الجشع وزوجته البلهاء؟»، وحزّكت هبة ريح شعرها الذهبي وهي تُضيف: «لن أعينه يدًا إذا كان هذا ما...».

قاطعتها: «أنت في حاجة إلى تايرل، ولكن ليس هنا. سليه أن يستولي على (ستورمز إند) من أجل تومن. أطري عليه وقولي له إنك تحتاجين إليه في الميدان بدلًا من أبي. مايس يتخيّل نفسه مُحاربًا مغوارًا، فإمّا يُسَلِّمك (ستورمز إند) وإمّا يُفسد الأمر ويبدو كالحمقى. في الحالتين أنتِ الزّابحة».

لاحت أمارات التّفكير على سرسي وهي تقول: «(ستورمز إند)؟ نعم، ولكن... اللورد تايرل جعل من الواضح تمامًا أنه لن يبرح (كينجز لاندنج) قبل أن يتزوَّج تومن مارجري».

تنهّد چايمي، ورث: «دعيهما يتزوَّجان إذن. ستمضي سنوات قبل أن يكبر تومن ويستطيع إتمام الزّيجة، وحتى ذلك الحين فإبطالها متاح دائمًا. أعطي تايرل زفافه وأرسله يلعب لعبة الحرب».

زحفت ابتسامة حذرة على وجه أخته، وغمغمت: «حتى الحصار له أخطاره، بل وربما يفقد سيّد (هايجاردن) حياته في مغامرة كتلك».

أيدها قائلاً: «تلك المخاطرة واردة، خصوصًا إذا نفذ صبره هذه المرّة واختار اقتحام البوّابة».

ثبّتت سرسي عينيها عليه لحظات، ثم قالت: «أتدري؟ للحظة كنت تتكلّم كأنك أبونا بالضبط».

(33) في عالم الرّواية ساعة الدّثب هي الفترة الأشدّ حلقة من

الليل، تسبقها ساعة البومة وتأتي بعدها ساعة العنديل، ثم

الفجر. (المترجم).

بريان

كانت بؤابة (وادي الغسق) مغلقة موصدة. في عتمة ما قبل الفجر التمعت أسوار البلدة بشحوب، وعلى متاريسها تحرّكت خيوط الضباب كخزّاس شبحيين، فيما توقّفت عربات اليد والعربات التي تجرّها الثيران خارج البؤابة منتظرة شروق الشمس. أخذت بريان مكانها وراء عربة محمّلة باللفت، ولمّا كانت زبلتا ساقبيها ثولمانها فقد أراحها أن تترجّل وتفردهما. لم يمض وقت طويل قبل أن ثقيل عربة يد أخرى من الغابة، وحين بدأت السماء ثنير كان الطابور يمتدّ ربع ميل.

حدّجها الفزارعون بنظرات فضوليّة وإن لم يخاطبها أحد. قالت لنفسها: عليّ أنا أن أخاطبهم، لكن الكلام مع الأغراب كان صعباً عليها دوماً. حتى في صغرها كانت خجولاً، ولم تُفلح سنوات الشخيرة الطويلة إلّا في جعلها أكثر خجلاً. يجب أن أسأل عن سائز، وإلّا كيف سأجدها؟ تنحنّخت وقالت للمرأة الجالسة على عربة اللفت: «أيتها العقيلة، هل عساك رأيت أختي على الطريق؟ إنها بنت في الثالثة عشرة، جميلة الملامح ولها عينان زرقاوان وشعر كستنائي. ربما تكون راكبة مع فارس سكّير».

هزّت المرأة رأسها نفياً، لكن زوجها قال: «أراها! إذن أنها لم تُعد بنتاً. ما اسم المسكينة؟».

وجدت بريان رأسها خاليًا. كان علي أن أخلق لها
اسمًا. أي اسم على الإطلاق يصلح، إلا أنها لم تنجح في
التفكير في واحد.

- «لا اسم؟ طيب، الطرق مليئة بالبنيات اللاتي بلا
اسم».

أضافت زوجته: «وساحات الأشنة أكثر امتلاءً». مع بزوغ الفجر ظهر الحرس في الشرفات، فصعد المزارعون إلى عرباتهم وهزّوا أزقة دوائهم، وامتطت بريان قرسها أيضًا وألقت نظرة وراءها. معظم من في الطابور المنتظر دخول (وادي الغسق) مزارعون بأحمال من الخضراوات والفواكه في طريقها إلى البيع، ووراءها بنحو دسنة من المنتظرين ثقة اثنان من رجال البلدة الأثرياء يركبان حصانين أصيلين، وعلى مسافة أبعد لمحت صبيًا نحيلًا على حصان أرقط تقليدي، لكنها لم تر أثرًا للفارسيين المتجولين أو السير شادريك الفار المجنون.

لوح الحرس للعربات بالمرور دون أن يكلفوا أنفسهم مجرّد النظر، ولكن حين بلغت بريان البوابة جعلتهم يعدلون عن وتيرتهم، وصاح قائدهم: «توقّفي يا هذه!»، وقاطع رجلان يرتديان الحلقات المعدنية حربتيهما ليسدّا طريقها، بينما أضاف القائد: «أفصحي عن غرضك هنا».

- «أبحث عن سيّد (وادي الغسق) أو مايستره».

ثَبَّتَ الْقَائِدَ نَظَرَتَهُ عَلَى ثَرَسِهَا قَائِلًا: «حُقَافُش لَوِثْسْتُونِ
الْأَسْوَدِ، رَمَزْ سَيِّئِ الشَّمْعَةِ».

- «لَيْسَ رَمْزِي، وَأَنْوِي أَنْ أُعِيدَ طَلَاءَ الثَّرَسِ».

حَكَّ الْقَائِدَ ذِقْنَهُ الْمَغْطَى بِالزُّغْبِ، وَقَالَ: «حَقًّا؟ أَخْتِي
تُزَاوِلُ هَذَا الْعَمَلَ بِالْمُنَاسِبَةِ. سَتَجْدِينَهَا فِي الْمَنْزِلِ ذِي
الْبَابِ الْمَلَوْنِ، قُبَالَةَ (الشِّيُوفِ الشَّبْعَةِ)»، وَأَشَارَ إِلَى
الْحَارِسِينَ مُرَدِّفًا: «دَعَاهَا تَمْرٌ. إِنَّهَا فَتَاةٌ».

ينفتح مبنى البوابة على ميدان الشوق، حيث يُقَرَّع من سبقوها إلى الدخول حمولاتهم من اللّفت والبصل الأصفر والشّعير لينادوا عليها، بينما يبيع آخرون أسلحةً ودروعًا، وبأسعار رخيصة للغاية أيضًا كما تشي الأرقام التي سمعتهم يزعمون بها وهي تمرّ. مع غريبان الجيف يأتي اللصوص بعد كلّ معركة. مضت بريان بفرسها لتشهد قمصانًا حلقاتها المعدن لا تزال ملوثةً بالدماء البنية وخوذات منبعجةً وسيوفًا طويلةً ثلثة، بالإضافة إلى الثياب المعروضة للبيع التي تضم أحذيةً جلد ومعاطف فرو وشترايت متسخة فيها تمرّقات في بقاع مريبة. تعرّفت عددًا كبيرًا من الشارات، كالقبضة المقفزة بالحلقات المعدنية والموظ(34). والشمس البيضاء والبلطة ذات النصلين. كلّها رموز شمالية، غير أن رجال تارلي لقوا حتفهم هنا أيضًا، وكثيرين من أراضي العواصف كذلك، إذ رأت تقاحا أحمر وأخضر، وثرسًا عليه صواعق عائلة لايجود الثلاث، وكسوة حصان مزركشة بنمل عائلة أمبروز، كما ظهر صياد اللورد تارلي طويل القدمين على كثرة كائنة من الشارات والذبابيس والشترايت. عدوا كان أم صديقًا، الغريبان لا ثبالي.

وجدت بريان ثروسة من خشب الصنوبر وخشب
الزيفون تشتري بينسات معدودة، لكنها تجاوزتها بلا
اكتراث، إذ تنوي الاحتفاظ بالثرس البلوط الثقيل الذي
أعطاهها چايمي إياه وحمله بنفسه من (هارنهال) إلى
(كينجز لاندنج). للثرس المصنوع من خشب الصنوبر
مميزاته، فهو أخف وزناً ومن ثم أسهل في الحمل، ومن
شان الخشب الطري أن يجعل سيف الخصم أو فأسه
ينغرس فيه فلا يستطيع انتزاعه، على أن البلوط يحمي
حامله أكثر إذا كان قويًا كفاية لاحتمال وزنه.

(وادي الغسق) مبنية حول مينائها. شمال البلدة ترتفع
جروف الطباشير، وإلى الجنوب يقي لسان أرض
صخرية الشفن الرأسية من العواصف الهائلة من (البحر
الضيّق)، في حين تطلّ القلعة على الميناء وتُمكن رؤية
حصنها المرّيع وأبراجها المستديرة من أيّ مكان في
البلدة. ألقت المشي أسهل من الزكوب في الشوارع
المرصوفة المزدحمة، فتركت بريان فرسها في اسطبل
وواصلت الطريق على قدميها، وقد علقت ثرسها على
ظهرها ودشت لفافة الثوم تحت إبطها.

لم يكن العثور على أخت القائد صعباً، ف(الشيوف السبعة) أكبر خان في البلدة، بناءً من أربعة طوابق يرتفع فوق جيرانه، ويُقايله منزل بابيه من مصراعين مزّينين برسم رائع الجمال لقلعة في غابة خريفية، أشجارها ملوّنة بدرجات الخمري والذهبي، ويزحف اللّباب على جذوع السّنديانات العجوز، وحتى أشجار البلوط مرسومة بعناية وشغف، ولما أمعنت بريان النّظر رأت مخلوقات وسط ورق الشّجر، منها ثعلب أحمر مكار وغصفوران على فرع، غير ظلّ الذّبّ البادي وراء الأوراق.

قالت للمرأة داكنة الشّعر التي فتحت الباب حين دقّته: «بابك جميل. أيّ قلعة هذه؟».

أجابّت أخت القائد: «جميع القلاع. الوحيدة التي أعرفها هي (قلعة الثّبة) عند الميناء. الأخرى اختلقتها من خيالي، ما ينبغي لقلعة أن تبدو. إنني لم أرَ شيئاً من قبل كذلك، ولا جريفيين⁽³⁵⁾. أو يونيكورن⁽³⁶⁾». كانت تتكلّم بأسلوبٍ مرح، لكن عندما أرّتها بريان الثّرس أظلم وجهها، وقالت: «أمّي العجوز اعتادت أن تقول إن الخفافيش العملاقة تطير من (هارنهال) في الليالي غير القمر، لتحمل الأطفال سيّئي الخلق إلى دائل المجنونة لتطبخهم. أحياناً أسمعها تُخْرِش مصاريع النّوافذ»، ثم شفّطت أسنانها مصدرةً صوتاً حاداً وفكّرت لحظة قبل أن تسأل: «ماذا تريد من مكانه؟».

رمز عائلة تارث أربعة مربّعات، اثنان لونهما وردي واثنان أزرق سماوي، وعليه شمس صفراء وهلال، لكن ما دام الناس يعتقدونها قاتلة فيريان لا تجرؤ على حمل هذا الرّمز. هكذا قالت: «بابك ذكّرني بثرس قديم رأيتَه مرّة في مستودع سلاح أبي»، ووصفّته لها قدر ما أسعفتها الذاكرة.

أومات المرأة قائلة: «أستطيع أن أرسمه في الحال، لكن الظّلاء سيحتاج إلى وقت ليجمّف. خُذي غرفة في (الشيوف السّبعة) إذا أردتِ وسأجلّب لك الثّرس في الصّباح».

لم تكن نيّة بريان أن تقضي اللّيل في (وادي الغسق)، ولكن قد يكون هذا خيّرًا، فهي لا تدري إن كان سيّد القلعة موجودًا، وإن كان سيوافق على رؤيتها. شكّرت الرّسامة وعبرّت الشّارع إلى الخان الذي تتأرجح فوق بابه لافتة عليها سبعة سيوف خشبيّة معلّقة من مسمار كبير من الحديد، وعلى الرغم من أن الجير الذي رُسّمت به السيوف يبدو مشقّقًا متقشّرًا فإن بريان تعرف معنى اللّافّة، وأن السيوف ترمز إلى أبناء عائلة داركلين السّبعة الذين ارتدوا معاطف الحرس الملكي البيضاء. لا عائلة أخرى في البلاد كلّها يُمكنها أن تتباهى بهذا العدد. كانوا مفخرة عائلتهم، والآن غدوا لافتة فوق باب خان. دفعت الباب داخلة القاعة العامّة وطلّبت من صاحب الخان غرفة وحققًا.

أنزلها في غرفة في الطابق الثاني، وأحضرت لها امرأة ذات وحمية بلون الكبد على وجهها حوضًا خشبيًا، ثم جلبت الماء سطلًا سطلًا. سألتها بريان وهي تضع جسدها في الحوض: «هل تبقى أحد من آل داركلين في (وادي الغسق)؟».

أجابَت المرأة: «هناك آل دارك. أنا منهم عن نفسي. زوجي يقول إنني كنتُ منهم قبل زواجنا ولذا سوِّدتُ معيشتَه بعد الزَّواج»، وضحكت مضيئةً: «لا يُمكنك أن ترمي حِجْزًا في (وادي الغسق) دون أن تُصيبني أحدًا من آل دارك أو داركوود أو دارجود، لكن لوردات آل داركلين بادوا عن آخرهم. اللورد دينس كان الأخير، ذلك الشاب الأحمق الجميل. هل تعلمين أن آل داركلين كانوا ملوكًا في (وادي الغسق) قبل مجيء الأنداليين؟ لن تُخفني هذا من مجرَّد النُّظر إليّ، لكن في عروقي دماء ملكيَّة، هل ترين؟ المفترض أن أجعلهم يقولون: كوب آخر من المِزر يا صاحبة الجلالة، وعاء الفضلات في حاجةٍ إلى إفراغٍ يا صاحبة الجلالة، واجلبي لي المزيد من الحطب، الثَّار تكاد تهمد يا صاحبة الجلالة الأُعينة»، وضحكت ثانيةً وأفرغت آخر قطرات الماء من السُّطل، وقالت: «هاك. هل الماء ساخن كفاية؟».

أجابَت وهي جالسة في الماء الفاتر: «لا بأس به».

- «كنتُ لأجلب المزيد، لكنه سينسكب من فوق الحافة. فتاة بحجمك تملأ حوضًا كهذا».

فقط لأنه حوض صغير ضيق. في (هارنهال) كانت الأحواض ضخمة ومصنوعة من الحجارة، وامتلاً الحقام بالبُخار المتصاعد من الماء الساخن، وأتى جايمي يخترق تلك الغشاوة عارياً كيوم مولده، يبدو نصف جثة ونصف إله. قالت لنفسها متذكّرة ووجهها يتورّد: يومها نزل إلى الحوض معي. أطبقت على قطعة من صابون القلي الضلب وحكّتها بها إبطيها محاولة أن تستدعي وجه رنلي إلى الذاكرة مرّة أخرى.

مع برود الماء كان جسدها قد صار نظيفاً تماماً، فعادت ترتدي الملابس نفسها التي خلعتها وأوثقت حزام سيفها حول وركيها، وإن تركت قميصها المعدني وخوذتها كي لا يبدو منظرها مهذّباً في (قلعة التّبة). أراحها أن تفرد ساقها، وعند بوابة القلعة وجدت حارسين يرتديان شترتين من الجلد على كلّ منهما شارة تُظهر مطرقتين حربيّتين متقاطعتين على صليب مائل. قالت لهما: «أريد أن أتكلّم مع سيّدكما».

ضحك أحدهما قائلاً: «الأفضل أن تزعقي إذن».

وقال الثاني: «اللورد ريكس خرج إلى (بركة العذارى) مع راندل تارلي وترك السير روفوس ليك أميئاً للقلعة، ليعتني بالليدي ريكس والضّغار».

وإلى ليك اصطخباها، فوجدت السير روفوس رجلًا
قصيرًا مكتنزًا أشيب اللحية، تنتهي ساقه اليسرى
بجدعة. قال لها: «أرجو أن تعذريني لعدم نهوضي».
أخرجت بريان رسالتها ليقرأها، لكن لأن ليك أمي فقد
أرسلها إلى المايستر الأصلع ذي فروة الرأس المنقشة
والشارب الأحمر اليابس.

بدا أن وجهها وشى بها، وحين سمع المايستر اسم
هولارد قطب وجهه ضيقًا، وقال: «كم مرة عليّ أن أكّـر
هذا الكلام؟ هل حسبت أنك أول من جاء يبحث عن
دونتوس؟ إنك الأولى بعد العشرين على الأقل. ذوو
المعاطف الذهبية كانوا هنا في غضون أيام بعد اغتيال
الملك ومعهم تفويض اللورد تايوين. ماذا تحملين أنت يا
ثري؟».

أزته بريان الرسالة الممهورة بختم تومن وتوقيعه
الطفولي، وهمهم الرّجل ودمدم وهو يفحص الشمع قبل
أن يعيدها إليها أخيرًا، ويقول: «تبدو سليمة»، ثم جلس
على كرسيّ وأشار لبريان بالجلوس على آخر مردفًا: «لم
أعرف السير دونتوس قط. كان صبيًا عندما رحل من
(وادي الغسق). آل هولارد كانوا عائلة نبيلة، هذا
صحيح. هل تعرفين رمزهم؟ أحمر توتي ووردي، مع
ثلاثة تيجان ذهبية على شريط أزرق. كان آل داركلين
ملوكًا صفار الشّان خلال عصر الأبطال، وثلاثة منهم
اتّخذوا زوجات من عائلة هولارد. لاحقًا ابتلعت الممالك
الأكبر مملكتهم الصغيرة، لكن آل داركلين استمروا
وخدمهم آل هولارد... نعم، حتى في التّحدي. هل
تعرفين القصة؟».

- «بعض الشّيء». كان مايسترها يقول إن تحدي
(وادي الغسق) هو ما قاد الملك إيرس إلى الجنون.

- «ما زالوا يحبّون اللورد دينس في (وادي الفسق) على الرغم من الولايات التي جلبها عليهم. إنهم يصبّون اللّوم على الليدي سيرالا، زوجته المايريّة الملقّبة بالأفعى الحريريّة. لو كان اللورد دينس قد تزوّج واحدة من بنات ستونتون أو ستوكوورث... تعلمين كيف يتمادى العامّة في الكلام. يقولون إن الأفعى الحريريّة وسوست في أذن زوجها وملأتها بالشّم المايري إلى أن هبّ اللورد دينس ضد مليكه وأخذّه أسيرًا، وخلال عمليّة الأسر نفسها قتل قيّم سلاحه السير سايمون هولارد السير جواين جونت رجل الحرس الملكي. طوال نصف عام ظلّ إيرس حبيس هذه الجدران، بينما جلس يد الملك خارج (وادي الفسق) على رأس جيش جرّار، وكان اللورد تايوين يملك قوّة كافية لاقتحام البلدة في أيّ وقت يشاء، لكن اللورد دينس أرسل له يقول إنه سيقتل الملك مع أول بادرة هجوم».

تذكّرت بريان ما جرى بعدها، وقالت: «وتحرّر الملك، السير باريستان أنقذه وأخرجّه».

قال المايستر: «نعم، وما كاذ اللورد دينس يفقد رهينته حتى فتح بواباته وأنهى التّحدي بدلاً من أن يدع اللورد تايوين يأخذ بلدته، وركع وتوشل الصّفح، لكن الملك لم يكن في مزاج متسامح. فقد اللورد دينس رأسه، بالإضافة إلى إخوته وأخته وأعمامه وأولادهم، آل داركلين قاطبةً. أمّا الأفعى الحريّة فقد أحرقت حيّةً، تلك المسكينة، لكنهم قطعوا لسانها أولاً، وأعضاءها الأنثويّة التي يُقال إنها أسرت زوجها بها. حتى الآن سيقول لك نصف أهل (وادي الغسق) إن إيرس ترفّق بها كثيرًا».

- «وآل هولارد؟».

- «أدينوا واستؤصلت شأفتهم. كنت أكوّن سلسلتي في القلعة في ذلك الحين، لكنني قرأت تقارير محاكماتهم وعقوباتهم. السير جون هولارد الوكيل كان زوج أخت اللورد دينس ومات مع أخته، وكذا ابنيهما الشاب الذي كان نصف داركلين. روبن هولارد كان مرافقًا، ولما قبض على الملك راح يرقص حوله ويشدّ لحيته، فمات على المخلعة(37). والسير سايمون هولارد قتله السير باريستان خلال هروب الملك. هكذا صودرت أراضي آل هولارد وهُدمت قلعتهم وأحرقت قراهم، وكعائلة داركلين فنّت عائلة هولارد».

- «باستعناء دونتوس».

- «صحيح. دونتوس الصغير كان ابن السير ستفون هولارد، توأم السير سايمون الذي مات قبل التّحدي بسنوات ولم يكن له دور فيه. أراد إيرس أن يضرب غنق الضّبي رغم ذلك، لكن السير باريستان سأله أن يعفو عنه، فلم يستطع الملك أن يرفض طلب الرّجل الذي أنقذه، فأخذ دونتوس إلى (كينجز لاندنج) كمرافق، وعلى حدّ علمي لم يرجع إلى (وادي الغسق) قط. ولم يفعل؟ إنه لا يملك أراضي هنا وليس له أهل أو قلعة. إذا كان دونتوس وتلك الفتاة الشّماليّة قد لعبا دورًا في اغتيال ملكنا الحبيب، فيبدو لي أنهما سيرغبان في أن يفصل أكبر عدد ممكن من الفراسخ بينهما وبين العدالة. ابحتي عنهما في (البلدة القديمة) إذا لزم الأمر، أو عبر (البحر الضيّق)، ابحتي عنهما في (دورن) أو على (الجدار)، ابحتي في مكان آخر»، ونهض المايستر مضيقًا: «أسمع غدفاني تصيح. أرجو أن تُعذّرني وطاب يومك».

بدت لها مسيرة العودة إلى الخان أطول من مسيرة الذهاب إلى (قلعة الثّبة)، وإن كان السّبب مزاجها على الأرجح. واضح الآن أنها لن تجد سائزًا ستارك في (وادي الغسق)، وإذا أخذها السير دونتوس إلى (البلدة القديمة) أو عبر بها (البحر الضيّق) -كما يظنّ المايستر- فمهمّة بريان مستحيلة. قالت لنفسها: وما لها في (البلدة القديمة)؟ المايستر لا يعرفها أكثر مما يعرف هولارد. ما كانت لتذهب إلى غرياء.

في (كينجز لاندنج) وجدت بريان واحدة من وصيفات سانزا الشابات تعمل غسالة في ماخور، وقالت لها المرأة بريلا شاكية بمرارة: «خدمت اللورد رنلي قبل الليدي سانزا، وكلاهما تحوّل إلى خائن. لا أحد من الشادة سيمشني الآن، لذا عليّ أن أغسل ثياب المومسات»، لكن حين سألتها بريان عن سانزا أجابت: «سأقول لك ما قتله اللورد تايوين. تلك الفتاة كانت تُصلي دائمًا، اعتادت أن تذهب إلى الشيت لشعل شموعها كما يليق بكلّ ليدي، لكنها كانت تذهب إلى أيكة الآلهة أيضًا كلّ ليلة تقريبًا. لقد عادت إلى الشمال، إلى الشمال. إن آلهتها هناك».

على أن الشمال شاسع، وبريان تجهل من من حقة راية أبيها تميل سانزا إلى الثقة به أكثر من غيره. /م عساها سغت إلى لحمها ودمها؟ على الرغم من أن إخوتها قتلوا جميعًا، فبريان تعلم أن لسانزا عفا وأخًا نغلًا يخدمان في حرس الليل على (الجدار)، وهناك أيضًا خالها إدميور ثلي الأسير في (الثوامتين)، لكن عقه السير برايندن ما زال مسيطرًا على (ريقرزن)، وأخت الليدي كاتلين الصغيرة تحكم في (الوادي). /الدم يُنادي /الدم. ربما هرغت سانزا إلى أحدهم بالفعل، لكن إلى أيهم؟

(الجدار) بعيد جدًا من غير ريب، ثم إنه مكان كئيب موحش، وكي تُبلغ الفتاة (ريقرزن) عليها أن تقطع أراضي النهر التي مزقتها الحرب وتمز من خطوط حصار لانستر. (الغش) الخيار الأسهل، ولا بُدَّ أن الليدي لايسا ستُرحب بابنة أختها...

أمامها انعطف الرُقاق. بشكل ما سلكت بريان مسارا خاطئا، فوجدت نفسها في طريق مسدود، فناء صغير موحد تُنقب فيه ثلاثة خنازير عن الطعام حول بئر حجريّة واطئة. قبع أحدها لمرآها، ورمقتها عجوز تسحب الماء بشك سائلة: «ماذا تريدين؟».

- «أبحث عن (الشيوف السبعة)».

- «عودي من حيث أتيت، يسارا عند الشيت».

قالت بريان: «أشكرك»، والتفتت لتعود أدراجها... وارتطفت مباشرة بشخص كان يُسرّع ليدور حول المنعطف. طرخته الصدمة أرضا، ووقع على مؤخرته في الوحل، فتمتعت: «معذرة». وجدته مجرّد صبي نحيل له شعر خفيف مفرد وذمل تحت عينه. أضافت: «هل تأذيت؟»، ومدت يدها تعاونه على النهوض، لكن الصبي تراجع متملّصا منها على كعبيه ومرفقيه. لا يمكن أن سيئه تتجاوز العاشرة أو الثانية عشرة، على الرغم من أنه يرتدي شترّة من الحلقات المعدنيّة وعلى ظهره سيف طويل في غمد جلدي. سألته بريان: «هل أعرفك؟». بشكل ضبابي يبدو وجهه مألوقا، وإن لم تستطع أن تتذكّر أين رآته من قبل.

قال: «لا، لا تعرفيني، إنك لم...»، ونهض مواصلاً:
«سسسامحيني يا سيّدتى. لم أكن أنظر، أعني أنى
كنت أنظر ولكن إلى أسفل، كنت أنظر إلى أسفل، إلى
قدمي»، وأطلق ساقيه للريح عائداً إلى حيث جاء.

شيء ما فيه أثار شكوك بريان، غير أنها لم تكن
لتطارده في شوارع (وادي الغسق) بالطبع. ثم إنها
تذكرت. خارج البوابة هذا الصّباح، هناك رأيته. كان
يمتطي حصاناً أرقط. ويخيّل لها أنها رآته في مكان آخر
أيضاً، لكن أين؟

عندما عادت بريان إلى (الشيوف السبعة) كانت
القاعة العامة قد ازدحمت. قُرب النار تجلس أربع
سيتوات في أردية لوثها وتزّيبها الطّريق، وفي باقي
المكان يملأ أهل البلدة الذّكك ويُغمّسون يخنة الشرطان
البحري الساخنة بقطع من الخبز. جعلت الزّائحة بطنها
يقرقر، لكنها لم ترّ مقاعد شاغرة، ثم قال صوت من
خلفها: «سيّدتى، تفضّلي، خذي مكاني». حتى وثب من
على الذّكّة لم تُدرك بريان أن المتكلّم قزم. لا يبلّغ الرّجل
الصّغير الأقدام الخمسة طويلاً، وله أنف منتفخ معرّق
وأسنان حمراء من مضغ الثّبع المر، ويرتدي الخيش
البني كالإخوة المتديّنين، ومن غنقه الثّخين تتدلى
مطرقة (الحذاد).

قالت: «احتفظ بمقعديك. أستطيع الوقوف ومثلك
تماماً».

- «نعم، لكن رأسي ليس قميصًا بأن يخبط السقف». يتكلم القزم بخشونة وإنما بكياسة، ورأت بريان قبة رأسه التي حلقها كثير من الإخوة المتدينين الذين يُيقون هذه البقعة جرداء. في مرة قالت لها السّيطة رويل إن الغرض من هذا أن يروا أنهم لا يخفون شيئًا عن (الأب)، فسألتها بريان: «ألا يستطيع (الأب) أن يرى عبر الشعر؟». سؤال سخيّف. لطالما كانت طفلة بطيئة الفهم، وكميزًا ما رذت السّيطة هذا، والآن تكاد تُشعر بالسّخافة نفسها، ولذا أخذت مكان الرّجل الصّغير في طرف الدّكة وأشارت طالبة اليخنة، ثم التفتت تشكر القزم، وقالت: «هل تخدم في دار عبادة في (وادي الغسق) أيها الأخ؟».

أجاب الرّجل وهو يقضم من رغيف من الخبز: «كنت أخدم قُرب (بركة العذارى) يا سيّدتي، لكن الذّئاب أحرقوا المكان. أعدنا البناء قدر الإمكان، إلى أن أتى بعض المرتزقة. لا أدري رجال من كانوا، لكنهم أخذوا خنازيرنا وقتلوا الإخوة. دسست نفسي في جذع شجرة أجوف واختبأت، لكن الآخرين كانوا أكبر حجمًا من أن يفعلوا مثلي. استغرقنا وقتًا طويلًا حتى دفنّتهم جميعًا، لكن (الحّداد) مدّني بالقوّة، وحين فرغت نقبت عن القليل من المال الذي أخفاه الأخ الكبير وخرجت وحدي».

- «التقيت عددًا من الإخوة الذّاهبين إلى (كينجز لاندنج)».

- «نعم، هناك مئات على الطرق، وليسوا إخوة فقط، بل سبتونات وعوام أيضًا، كلهم عسافير. ربما أكون غصفورًا أيضًا. لقد خلّقني (الحّداد) صغيرًا»، وقهقهة الرّجل الصّغير، وأردف: «وما حكايتك الحزينة يا سيّدتي؟».

- «أبحث عن أختي. إنها رفيعة النّسب، في الثّالثة عشرة فقط، بنت جميلة لها عينان زرقاوان وشعر كستنائي. لعلّك رأيته مسافرةً مع رجل، فارس أو ربما مهزّج. هناك ذهب لمن يُساعدني على العثور عليها».

منحها الأخ ابتسامة حمراء، وقال: «ذهب؟ يكفيني وعاء من هذه اليخنة كمكافأة، لكنني أخشى أني لا أستطيع مساعدتك. من المهزّجين قابلت الكثير، لكن من البنات الحسنات فلا»، ثم مال برأسه إلى الجانب وتفكّر لحظة، ثم أضاف: «تذكّرت الآن أني رأيت مهزّجًا في (بركة العذاري). كان يرتدي أسمالاً مئسّخة على حدّ ما رأيت، لكن تحت الوسخ ارتدى ثياب مهزّجين».

هل كان دونتوس هولارد يرتدي ثياب المهزّجين؟ لا أحد قال ليريان إنه يرتديها... لكن لا أحد قال لها العكس كذلك. لكن لماذا يرتدي الرّجل الأسما؟ هل حاقت به بليّة ما هو وسائزًا بعدما قرّأ من (كينجز لاندنج)؟ وارد جدّا في ظلّ الأخطار التي تكتنف الطرق. وربما لم يكن هو أصلًا. «هل كان لهذا المهزّج أنف أحمر مليء بالعروق الزّرقاء؟».

- «لا يُمكنني أن أجزم بذلك. الحقيقة أنني أعرتة انتباهًا قليلًا. لقد ذهبت إلى (بركة العذارى) بعد أن دفنت إخوتي مفكرًا أنني قد أجذ سفينة تحملني إلى (كينجز لاندنج)، ورأيت المهرج أول مرة على أرصفة الميناء. كان له طابع مكر، وحرص على أن يتحاشى جنود اللورد تارلي، وبعدها صادفته ثانية في (الإوزة الثتنة)».

رددت حائرة: «(الإوزة الثتنة)؟».

أجاب القزم: «مكان كريه. رجال اللورد تارلي يقومون بدوريات حول الميناء في (بركة العذارى)، لكن (الإوزة) مليئة بالبخارة دوماً، والبخارة معروفون بتهريب الناس على أسطح سفنهم إذا كان الثمن مناسبًا. المهرج كان يبحث عن مسلك لثلاثة عبر (البحر الضيق). كثيرًا ما رأيته هناك يتكلم مع ملاحى القوادس، وأحيانًا كان يُغني أغاني طريفة».

- «يبحث عن مسلك لثلاثة لا اثنين؟».

- «ثلاثة يا سيدي، أقسم على هذا بالآلهة الشبعة».

ثلاثة، سانزا والسير دونتوس... ومن الثالث؟
العفريت؟ «هل وجد المهرج سفينة؟».

قال لها القزم: «لا أدري، لكن في ليلة زار بعض جنود اللورد تارلي الحانة يبحثون عنه، وبعدها بأيام قليلة سمعت رجلًا يقول مزهواً إنه خدع مهرجًا وإن معه الذهب الذي يُعت هذا. كان سكران ويبتاع المزر للجميع».

- «خدع مهزجا. ماذا يعني؟».

- «أجهل الإجابة، لكن اسمه ديك الرشيقي، أذكر هذا»،
وبسط القزم كفيه، وقال: «أخشى أن هذا هو كل ما
أستطيع أن أقدمه لك، بالإضافة إلى دعوات رجل
صغير».

مصادقا لكلمتها اشترت له يريان وعاء من يخنة
الشرطان الشاخنة، بالإضافة إلى خبز طازج وكوبًا من
النبيذ، وإذا أكل الرجل وهو واقف إلى جوارها فكرت
مليا في ما أخبرها به. أيمكن أن العفريت انضم إليهما؟
إذا كان تيريون لانستر وليس دونتوس هولارد وراء
اختفاء سائزا، فمن المنطقي أن يلوذا بالفرار عبر (البحر
الضيّق).

حين فرغ الرجل الصغير من وعاء اليخنة أنهى ما
تبقي في وعائها أيضًا، وقال لها: «المفترض أن تأكلي
أكثر. امرأة كبيرة مثلك عليها الاحتفاظ بطاقتها.
المسافة إلى (بركة العذارى) ليست طويلة، لكن الطرق
محفوفة بالمخاطر هذه الأيام».

أعرف. على هذا الطريق تحديدًا مات السير كليوس
فراي وأسرّها الممثلون الشفّاحون مع السير چايمي.
حاول چايمي أن يقئني على الرغم من وهنه وهزاله
والأصفاة التي قيدت معصميه. ومع كل هذا كاد يغلبها،
لكن ذلك كان قبل أن يبتثر زولو يده. كان زولو ووروج
وشاجويل ليغتصبوها نصفمئة مرّة لولا أن السير چايمي
قال لهم إنها تستحق وزنها من الياقوت الأزرق.

قال القزم: «سيّدتى؟ تبدين حزينة. هل تُفكرين في
أختك؟»، وربّت على يدها، وأتبّع: «(العجوز) سئير
طريقك إليها، لا تخافي، و(العذراء) ستحفظها».
- «أدعو أن تكون محقًا».

ردّ: «إنني محقٌّ»، ثم انحنى قائلاً: «لكن عليّ الآن أن
أنصرف. ما زال أمامي طريق طويل قبل أن أبلغ (كينجز
لاندنج)».

- «هل تملك حصانًا؟ أو بغلاً؟».

ضحك الرّجل الصّغير، وجاوب: «بغلان، هما ذان
في طرفي ساقّي. إنهما يوصلانني إلى حيث أبغي
الذهاب»، وانحنى ثانية ثم اتّجه إلى الباب متمايلًا مع
كل خطوة.

ظلت جالسةً إلى المائدة بعد ذهابه وقد أطرقت
ومعها كوب من الثّبيذ المخفّف بالماء. لا تشرب بريان
الثّبيذ كثيرًا، وإن وجدت من فترة طويلة إلى فترة
طويلة أنه يُساعد على تهدئة معدتها. سألت نفسها: وأين
أريد أن أذهب؟ إلى (بركة العذاري) لأبحث عن رجل
اسمه ديك الرّشيق في مكان اسمه (الإوّة الثّمنة)؟

حين رأت (بركة العذارى) آخر مزة كانت البلدة خرابًا،
وكان سيدها حبيس قلعته وأهلها موتى أو هربوا أو
مختبئين. تذكّرت المنازل المحروقة والشوارع الخالية
والبوابات المحطّمة والكلاب الضارية التي مشّت خلسةً
وراء خيولهم، بينما طفت الجثث المنتفخة كزنايق ماءٍ
شاحبة ضخمة على سطح البركة التي يُغذيها ينبوع
واستمذت البلدة منها اسمها. چايمي غنى (ست عذارى
في بركة)، وضحك حين طلبت منه أن يصفت. ثم إن
راندل تارلي في (بركة العذارى) الآن أيضًا، وهو سبب
آخر لتحاشي البلدة. ربما الأفضل لها أن تستقل سفينةً
إلى (بلدة الثوارس) أو (الميناء الأبيض). ويمكنني أن
أفعل هذا وذاك، أزور (الإويزة الثتنة) وأتكلم مع المدعو
ديك الرشيقي، ثم أجد سفينةً هناك تأخذني شمالاً أكثر.
بدأت القاعة العامة تفرغ، ومرّقت بريان قطعةً من
الخُبز نصفين وأصغت إلى الكلام الدائر على الموائد
الأخرى، والذي كان معظمه عن موت اللورد تايوين
لانستر.

قال أحد سُكّان البلدة يبدو من منظره أنه إسكافي:
«يقولون إن ابنه قتله، ذلك القزم الصغير الآثم».
أضافت كبرى الشيتوات الأربع: «والملك مجرّد صبيّ
صغير. من سيحكمنا حتى يبلغ؟».
قال أحد الحرس: «أخو اللورد تايوين، أو ربما اللورد
تايرل، أو قاتل الملك».

أعلنَ صاحبُ الخان: «ليس هو، ليس ذلك الحانت
بالقسم»، وبصقَ في النار.

أفلتت بريان الخُبز من يديها ومسحت الفُتات على
سراويلها ونهضت. لقد سمعت ما فيه الكفاية.

ليلتها في المنام رأت نفسها في خيمة رنلي ثانية.
الشموع كلها تنطفئ والبرد قارس حولها، وثقة شيء ما
يتحرّك في الظلمة الخضراء، شيء كريبه مربع ينقض
على مليكها. أرادت أن تحميه، لكنها أحست بأطرافها
يابسة متجمدة، ومجرد رفع يدها تطلب قوة أكبر مما
تملك، وحين شق السيف الظل وافي الغنق الفولاذي
الأخضر وبدأت الدماء تتدفّق رأت أن الملك المحتضر
ليس رنلي على الإطلاق وإنما جايمي لانستر، ولقد
خذّله.

وجدتها أخت قائد البوابة في القاعة العامة تشرب
كوبًا من الحليب المخلوط بالعسل وثلاث بيضات نيئة،
وعندما أرّتها المرأة الثرس المطلي قالت لها: «عمل
جميل». المرسوم أقرب إلى صورة من رمز، وقد أعادها
منظرها عبر الشنين الطوال إلى ظلام مستودع سلاح
أبيها البارد، وتذكّرت كيف مرّرت أناملها على الظلاء
الباهت المتشقق، على أوراق الشجرة الخضراء وعلى
مسار نجم هوى.

زادت بريان الرّشامة نصف الأجر الذي اتّفقتا عليه،
وعلّقت الثّرس على كتفها حين غادرت الخان، بعد أن
ابتاعت القليل من الخبز الجامد والجبن والطّحين من
الطّاهي، ثم إنها خرجت من البلدة من البوّابة الشّماليّة
وركبت على مهل وسط الحقول والقزارع التي دار فيها
السّواد الأقبح من القتال حين هاجم الذّئاب (وادي
الغسق).

حينئذ كان اللورد راندل تارلي يقود جيش جوفري
المكوّن من رجال الغرب وأراضي العواصف وفُرسان
(المرعى)، ومن ماتوا من رجاله هنا حُمِلوا إلى داخل
البلدة ليستريحوا في قبور الأبطال تحت سِبتات (وادي
الغسق)، أمّا موتى الشّماليّين فذُفِنوا في مقبرة جماعيّة
تطلّ على البحر، وفوق الرّكام الذي يُعيّن مكان رقودهم
رفع المنتصرون لافتةً تقليديّةً من الخشب كُتِبَ عليها
«هنا يرقد الذّئاب» لا غير. توقّفت بريان إلى جوار
المقبرة ورذّدت صلاةً صامتةً لهم ولليدي كاتلين ستارك
وابنها روب وجميع من ماتوا معهما.

عادت بذاكرتها إلى الليلة التي بلغ فيها الليدي كاتلين خبر موت ابنيها، الصبيّين الصّغيرين اللذين تركتهما في (وينترفيل) حفاظًا على أمنهما. ساعتها علقت بريان أن حدثًا جليلاً قد وقع، وسألت الليدي كاتلين إن كانت هناك أنباء عن ابنيها، فأجابَت: «ليس لي أبناء غير روب». تكلمت كأنما يتلوّى سكّين في أعماقها، ومدّت بريان يدها عبر المائدة رغبةً في مواساتها، لكنها توقفت قبل أن تمش أصابعها أصابع المرأة التي كانت تكبرها سنًا. قلبت الليدي كاتلين يديها لثريها الثدوب في كفيها وأصابعها حيث انغرس خنجر في غمق لحمها، ثم شرعت تتكلّم عن ابنتيها، فقالت: «سانزا ليدي صغيرة، شديدة الكياسة دائمًا وتواقة لإسعاد من حولها، ولم تُغرم بشيء قط كغرامها بحكايات الفرسان ومآثرهم الشجاعة. ستكبر لثصبح امرأة أجمل مني بكثير، وهذا واضح في ملامحها. كثيرًا اعتدت أن أصفّف شعرها بنفسي. شعرها كستنائي، وشديد الكثافة والثعومة... ما فيه من أحمر يعكس ضوء المشاعل فيتألق كالنحاس». تكلمت أيضًا عن آريا، ابنتها الصغرى، لكن آريا مفقودة، وعلى الأرجح مائت، أمّا سانزا... أقسمت بريان لشبح الليدي كاتلين القلق: سأعثر عليها يا سيّدي. لن أكف عن البحث أبدًا. سأدفع حياتي ثمّنًا إذا لزم الأمر، سأتحلّى عن شرفي وعن أحلامي كلّها، لكنني سأعثر عليها.

وراء أرض المعركة يمتدُّ الطَّرِيق موازيًا الشَّاحِل، بين
البحر الأخضر الزَّمادي بأمواجه المتلاطمة وخطِّ تلال
الجير المنخفضة. ليست بِريان وحدها المسافرة على
الطَّرِيق، فهناك قُرى صيد تنتشر على الشَّاحِل لعدَّة
فراسخ، وَيَسْلُك الصَّيَّادون هذا الطَّرِيق ليأخذوا
أسماكهم إلى الشُّوق. قابِلت بائعة سَمَك وبناتها وهن
عائدات إلى بيتهن وقد حملن السُّلال الفارغة على
الأكثاف، وبسبب دِرْعها حسبنها فارسًا حتى رأين
وجهها، ثم راحت الفتيات يتهاَمسن ويَرْمُقنَّها بنظرات
فضوليَّة، لكنها سألتهن: «هل رأيتن بنتًا في الثَّالِثة
عشرة على الطَّرِيق؟ بنتًا رفيعة النِّسب بعينين زرقاوين
وشعر كستنائي؟». لقد دفعها السير شادريك إلى توحِّي
الحذر، ولكن لم يزل عليها أن تُحاول. «ربما كانت
مسافرةً مع مهزَّج». لم تُجر الفتيات جوابًا غير هَرَّ
رؤوسهن نفيًا والضَّحك منها من وراء ظَهرها.

في القرية الأولى جرى الضُّبية خُفاة الأقدام إلى
جوار قُرسها، وكانت قد اعتمَزت خوذتها متألِّمةً من
ضحك الصَّيَّادات، فحسبها الآخرون رجلاً. عرض أحد
الضُّبية أن يبيعهما المحار، وعرض آخَر الشَّرطان، وعرض
ثالث أخته.

اشتَرَت بِرِيان ثلاثة سرطانات من الضبي الثاني،
ولدى خروجها من القرية كان المطر قد بدأ يسقط
والريح تشتد، فألقت نظرة صوب البحر مفكرة: ثمة
عاصفة وشيكة. دقت قطرات المطر فولاذ خوذتها ورئت
في أذنيها وهي راكبة، إلا أن هذا ما زال أفضل من أن
تكون على قارب في البحر الآن.

بعد ساعة من توغلها شمالاً وجدت الطريق ينقسم
عند كومة من الحجارة تنم عن كونها أطلال قلعة
صغيرة. يمضي الفرع الأيمن مع الساحل ويتعرج نحو
(الرأس المتصدع)، وهي منطقة موحشة ملأى
بالمستنقعات وأراضي الصنوبر القاحلة، والفرع الأيسر
يشق الثلال والحقول والغابات إلى (بركة العذارى). كان
المطر ينهمر بغزارة أكثر عندئذ، فترجّلت بريان وقادت
فرسها بعيداً عن الطريق لتجد مأوى بين الأطلال. ما
زالت حدود أسوار القلعة قابلة للتمييز وسط الغليق
والحشائش وشجر الدردار البُني، لكن الأحجار التي
شيّدت بها قديماً متناثرة الآن بين الطريقين كمكعبات
الأطفال، وإن ظلّ جزء من الحصن الرئيس قائماً، أبراجه
الثلاثة من الجرانيت الرمادي كالأسوار المهدومة،
وشُرَافاتها(38) من الحجر الرملي الأصفر، وإذ تطلّعت
إليها بريان أدركت كنهها وفكرت: ثلاثة تيجان، ثلاثة
تيجان ذهبية. كانت هذه قلعة عائلة هولارد، وغالباً ولد
السير دونتوس هنا.

قَادَتِ الْفَرَسَ وَسَطَ الدَّبَشِ إِلَى مَدْخَلِ الْحَصَنِ
الرَّئِيسِ. مِنْ الْبَابِ لَمْ يَتَبَقْ إِلَّا الْمِفْصَلَاتُ الْحَدِيدُ
الضَّدَّةُ، لَكِنْ السَّقْفُ لَا يَزَالُ سَلِيمًا، وَالْمَكَانُ جَافٌ فِي
الذَّائِلِ. رِبِطَتِ بِرِيَانِ الْفَرَسِ بِحَامِلِ مِشَاعِلٍ فِي الْجِدَارِ
وَحَلَقَتِ خَوْذَتَهَا وَنَفَضَتْ شَعْرَهَا، وَكَانَتْ تَبْحَثُ عَنْ
حَطَبٍ جَافٍ لِإِشْعَالِ نَارٍ حِينَ سَمِعَتْ صَوْتَ حِصَانٍ آخَرَ
يَقْتَرِبُ. دَفَعَتْهَا غَرِيزَةٌ مَا إِلَى الثَّرَاجِعِ بَيْنَ الظُّلَالِ حَيْثُ
لَا يَرَاهَا أَحَدٌ مِنَ الطَّرِيقِ. إِنَّهُ الطَّرِيقُ عَيْنُهُ الَّذِي وَقَعَتْ
عَلَيْهِ فِي الْأَسْرِ مَعَ السَّيْرِ جَائِمِي، وَلَا تَنْوِي أَنْ تَسْمَحَ
لِهَذَا بِالتَّكْرَارِ.

تَبَيَّنَتْ أَنَّ الرَّكَّابَ رَجُلٌ صَغِيرُ الْحَجْمِ، وَمَا إِنْ رَأَتْهُ
فَكَّرَتْ: الْفَارُ الْمَجْنُونُ، تَبْعَنِي بِوَسِيلَةٍ مَا. امْتَدَّتْ يَدَهَا
إِلَى مَقْبِضِ سَيْفِهَا، وَوَجَدَتْ نَفْسَهَا تَتَسَاءَلُ إِنْ كَانَ السَّيْرِ
شَادِرِيكَ يَخَالُهَا لُقْمَةً سَائِغَةً لِمَجْرَدِ أَنَّهَا امْرَأَةٌ. لَقَدْ ارْتَكَبَ
أَمِينُ قَلْعَةِ اللُّورْدِ جِرَانْدِيسُونَ الْخَطَأَ نَفْسَهُ مِنْ قَبْلِ. كَانَ
اسْمُهُ هَمْفَرِي وَاجِسْتَاْف، عَجُوزٌ مُتَكَبِّرٌ فِي الْخَامِسَةِ
وَالسَّتِّينِ لَهُ أَنْفٌ كَمِنْقَارِ الصُّقْرِ وَرَأْسٌ أَصْلَعٌ مَبْقَعٌ، وَيَوْمَ
خَطَبَتْهُمَا حَذْرُ بِرِيَانٍ قَائِلًا إِنَّهُ يَتَوَقَّعُ مِنْهَا أَنْ تَكُونَ امْرَأَةً
قَوِيمَةً فَوْرَ أَنْ يَتَزَوَّجَا، وَأَضَافَ: «لَنْ أَسْمَحَ لِلْسَّيِّدَةِ
زَوْجَتِي بِأَنْ تَعْبَثَ وَتَلْهَوْا مَرْتَدِيَّةً دُرُوعَ الرِّجَالِ. فِي هَذَا
سَتُطِيعِينَنِي وَإِلَّا أَجْبِرْتَنِي عَلَى تَأْدِيبِكَ».

كانت في السادسة عشرة آنذاك وليست الشيوف غريبة عليها، ولكن خجلًا أيضًا على الرغم من براعتها الفائقة في الساحة، ومع هذا وجدت بطريقة ما الشجاعة الكافية لأن تقول للسير همفري إنها لن تقبل التأديب إلا من رجل قادر على هزيمتها في النزال، فارتد وجه الفارس العجوز لكنه وافق على ارتداء درعه ليُعَلِّمها مقام النسوة، وتنازل الاثنان بأسلحة المباريات الثلمة، فاستخدمت بريان هراوة بلا بروزات. يومها كسرت ثرقوة السير همفري واثنين من ضلوعه واضعة بهذا نهاية خطبتهما، وكان الرجل زوجها المنظور الثالث والأخير، ولم يصّر أبوها ثانية على زواجها.

إذا كان السير شادريك هو من يتعقبها فعلاً فلربما تكون على وشك القتال. إنها لا تنوي أن تُشارك الرجل بحثه عن سانزا أو تُتركه يتبعها إليها. إنه يُقسم بتلك الفطرسة التي تنتاب المهرة في السلاح بسهولة، لكن حجمه صغير. مدى ذراعي أوسع منه، ولا بُدّ أنني أقوى أيضًا.

بريان قويّة كأكثر الفُرسان، وقد اعتادَ قِيم السلاح الذي علّمها قديمًا أن يقول إنها أسرع مما يُمكن أن تكون أيُّ امرأةٍ بحجمها، كما أن الآلهة أنعمت عليها بقوة الاحتمال أيضًا، وهو ما عدّه السير جودوين موهبةً ثمينةً، فالقتال بالسيف والثّرس عمل متعب، وكثيرًا ما ينال الثّصر من يتمتّع بجِلْدٍ أكثر. علّمها السير جودوين أن تُقاتِل بحذر، أن تدّخر طاقتها بينما تُترك خصومها يستهلكون طاقتهم في الهجمات الضّارية، وقال لها: «سيبُخس الرّجال قدرك دومًا، وستجعلهم كبريائهم يرغبون في هزيمتك سريعًا خشية أن يُقال إن امرأةً أرهقتهم ودوّختهم». تعلّمت بريان حقيقة تلك المقولة حالما خرجت إلى العالم، وحتى چايمي هاجقها بتلك الطّريقة في الغابة قُرب (بركة العذارى)، وإذا شاءت الآلهة سيقع الفأر المجنون في الخطأ ذاته. قالت لنفسها: ربما يكون فارسًا متمرّسًا لكنه ليس چايمي لانستر، واستلّت سيفها من غمده.

لكن الذي توقّف عند مفترق الطّريق ليس جواد السير شادريك الحربي الكستنائي، وإنما حصان أرقط عجوز بائس يمتطيه صبيّ نحيل، ولما رأت بريان الحصان تراجعت بارتباك مفكّرة: مجرّد صبي، إلى أن لمحت الوجه تحت القلنسوة. الصّبي الذي ارتطم بي في (وادي الفسق)، إنه هو.

لم يرفع الضبي ناظره إلى القلعة المتهذمة على الإطلاق، بل تطلّع إلى أحد الطريقين ثم الثاني، وبعد هنيهة تردّد وجه الحصان نحو الثلال وعادّ يتحرّك، وبينما شاهدته بريان يختفي في المطر المنهمر تذكّرت بغتة أنها رأت ذلك الضبي في (روزي). إنه يتبعني خلسة، لكنها لعبة يستطيع أن يلعبها اثنان. هكذا حلّت رباط فرسها وامتطّتها وتحركت وراءه.

أبقى الضبي عينيه على الأرض وهو راكب، يُحدّق إلى الخفر في الطريق وهي تمتلئ بالماء. كنّم المطر صوت حوافر فرسها، ولا بدّ أن قلنسوة الضبي لعبت دورًا أيضًا، فلم ينظر وراءه ولو مرّة، حتى لحقت به بريان وضربت حصانه على الكفل بالجانب المسطح من سيفها الطويل، ليرفع الحصان قائمته الأماميتين ويطير راكبه من فوق متنه ومعطفه يزفر كجناحين على جانبيه. سقط الضبي في الوحل، ثم رفع وجهه وبين أسنانه الأوساخ والغشب البني الميت ليجد بريان واقفة فوقه. أدركت أنه الضبي نفسه دون شك وقد تعرّفت الذمل تحت عينه، فسألته: «من أنت؟».

تحرّك فم الضبي بلا صوت، واتسعت عيناه حتى صارتا كبيضتين، ولم يستطع أن يقول إلّا: «پوه، پوه»، وارتجف لشخّش سترته المعدنيّة وهو يكرّر: «پوه، پوه».

قالت بريان: «ماذا تقول؟»، ووضعت رأس سيفها على تقاحة حلقه مردفة: «أرجوك أخبرني من أنت ولم تتبعني».

دش الضبي إصبغا في فمه ونقر كتلة من الطين، ثم قال: «يوه-يوه-يود، اسمي، يوه-يوه-يودريك، يوه-باين».

خفصت بريان سيفها وقد غمرها التعاطف مع الضبي، وتذكرت يوما في (بهو المساء) وفارسا شابا بوردة في يده. أحضر الوردة ليعطيني إياها. أو أن هذا ما أخبرتها به سبيتها. لم يكن عليها سوى أن تزحج به في قلعة أبيها. كان في الثامنة عشرة، وله شعر أحمر طويل ينسدل على كتفيه، وكانت هي في الثانية عشرة، ترتدي فستانا يابسًا جديدًا محكمًا على جسدها ويُرّين صدره العقيق الأحمر. الاثنان كان طولهما واحدًا تقريبًا، إلا أنها لم تستطع أن تنظر في عينيه أو تزد الكلام البسيط الذي علمتها سبيتها إياه. سير رونية، مرحبًا بك في دار السيد والدي. يسرني أن أرى وجهك أخيرًا.

سألت الضبي: «لماذا تتبعني؟ هل قيل لك أن تتجسس علي؟ هل تخدم قارس أم الملكة؟».

- «لا، لا هذا ولا تلك، لا أحد».

قَدَرْتُ بِرِيَان أَنَّهُ فِي الْعَاشِرَةِ، وَإِنْ كَانَتْ خَائِبَةً تَمَاقًا فِي تَقْدِيرِ أَعْمَارِ الْأَطْفَالِ، وَلَطَالَمَا حَسَبَتْهُمْ أَصْغَرَ مِنْ سِنَّهُمْ الْفَعْلِيَّةِ، رُبَّمَا لِأَنَّهَا كَانَتْ أَكْبَرَ حَقًّا مِنْ سِنَّهَا طِيلَةَ حَيَاتِهَا، «كَبِيرَةٌ عَلَى نَحْوِ مَمْسُوحٍ وَمُسْتَرْجَلَةٌ» عَلَى حَدِّ تَعْبِيرِ الشُّبَّةِ رُوَيْلٍ. قَالَتْ لَهُ: «هَذَا الطَّرِيقُ أَخْطَرُ مِنْ أَنْ يَسْلُكَهُ صَبِيٌّ بِمُفْرَدِهِ».

- «لَيْسَ إِذَا كَانَ مُرَافِقًا. إِنَّنِي مُرَافِقُهُ، مُرَافِقُ الْيَدِ».

أَغْمَدَتْ بِرِيَان سَيْفَهَا مَتَسَائِلَةً: «اللُّورْدُ تَايُوِين؟».

- «لَا، لَيْسَ ذَلِكَ الْيَدِ، الَّذِي قَبْلَهُ، ابْنُهُ. لَقَدْ قَاتَلْتُ مَعَهُ

فِي الْمَعْرَكَةِ، وَصَحْتُ: النَّصْفُ رَجُلٌ! النَّصْفُ رَجُلٌ!».

مُرَافِقُ الْعِضْرِيَّتِ. كَانَتْ بِرِيَان تَجْهَلُ أَنَّ عِنْدَهُ وَاحِدًا، فَتِيرِيُون لَانِسْتَر لَيْسَ فَارِسًا. مِنَ الْوَارِدِ عَلَى مَا تَعْتَقِدُ أَنَّ يَكُونُ عِنْدَهُ خَادِمٌ أَوْ اثْنَانِ يُلَبِّيَانِ طَلِبَاتَهُ، وَوَصِيفٌ وَسَاقِيَةٌ وَاحِدٌ يُسَاعِدُهُ عَلَى ارْتِدَاءِ ثِيَابِهِ... لَكِنْ مُرَافِقٌ؟ «لِمَاذَا تَتْبَعُنِي؟ مَاذَا تُرِيدُ؟».

نَهَضَ الصَّبِيُّ قَائِلًا: «لَأَجِدَهَا، سَيِّدَتُهُ الَّتِي تَبْحَثُنِ عَنْهَا. بَرِيَلَا قَالَتْ لِي. إِنَّهَا زَوْجَتُهُ، الْيَدِي سَانْزَا لَا بَرِيَلَا، فَخَطَرَ لِي أَنَّكَ رُبَّمَا تَعْثُرِينَ عَلَيْهَا...»، وَالتَوَتِ قَسَمَاتِهِ بِأَسَى مَفَاجِئٍ، وَكَزَّرَ وَالْمَطَرُ يَسِيلُ عَلَى وَجْهِهِ: «إِنَّنِي مُرَافِقُهُ... لَكِنَّهُ تَرَكَّنِي!».

(34) الْمَوْظُ أَحَدُ أَنْوَاعِ الْأَيَّاتِلِ، لَهُ غُنْقٌ قَوِيٌّ وَقَرْنَانِ جَرِيدَتَانِ،

وَيَأْلَفُ الْعَيْشَ فِي الْغَابَاتِ وَالْمُسْتَنْقَعَاتِ. (الْمُتَرَجِمُ).

(35) الْجَرِيفَيْنِ مَخْلُوقِ اسْطُورِي لَهُ جِسْمُ أَسَدٍ وَرَأْسُ وَجَنَاحَا

غُقَابٍ. (الْمُتَرَجِمُ).

- (36) اليونيكورن مخلوق أسطوري عبارة عن حصان له قرن واحد ويتمتع بقدرات سحرية. (المترجم).
- (37) المخلعة آلة تعذيب تعود إلى العصور القديمة، بحيث يُربط الشخص على لوح خشبي وتشد أطرافه بالحبال حتى تتفكك مفاصله وتتمزق عضلاته. (المترجم).
- (38) الشرافات هي الزوائد الحجرية التي تُبنى وبينها فراغات على قمم الأبراج والأسوار والحصون. (المترجم).

سانزا

ذات مزة في طفولتها مكث مغر متجول معهم في (وينترفل) يصف عام. كان عجوزًا مبيض الشعر له وجنتان لؤحتهما الريح، لكنه غنى عن الفرسان والمغامرات والحسناوات، ولما حان وقت رحيله بكّت سانزا بمرارة وتوسّلت إلى أبيها ألا يسمح له بالذهاب، إلا أن اللورد إدارد قال لها برفق: «الرّجل غنى لنا كل أغنية يعرفها أكثر من ثلاث مّزات، ولا يمكنني أن أبقيه هنا ضد إرادته. لكن لا داعي لبكائك. أعدك بأن مغنيين آخرين سيأتون».

لكن أحدًا لم يأت طيلة عام أو أكثر. صلت سانزا للآلهة السبعة في سبيتها ولاة شجرة القلوب القديمة سائلة إياها أن تعيد العجوز، أو -وهذا أفضل- أن ترسل مطربًا آخر شابًا ووسيقًا، لكن الآلهة لم تجب، وظلّ الضمت يُخيم على قاعات (وينترفل).

كان ذلك وهي فتاة صغيرة حمقاء، أمّا الآن فهي شابة في الثالثة عشرة تفتّحت زهرتها، تمتلئ لياليها كلها بالأغاني، وبالنّهار تُصلي مستجديّة الضمت.

لو كانت (الغش) كسائر القلاع لما سمع غناء الرّجل
الميت إلّا السّجّانون والجرذان، فجدران الرّنازين
الثّقليديّة سمكة بما يكفي لابتلاع الأغنيّات والصّرخات
على حدّ سواء، على عكس زنازين السّماء التي لها جدار
من الهواء، ولذا تنساق كلّ نغمة يعزفها الرّجل الميت
خزّة لتتردّد أصداؤها على مناكب الجبل المسقى (زُمح
العملاق). والأغاني التي يختارها... دائماً يُغني عن
رقصة الثّنائين وعن چونكويل ومهزّجها، عن جيني بنت
(الحجر العتيق) وأمير (قلعة اليعاسيب)، عن خيانات
واغتيالات آئمة ورجالٍ معلّقين من المشانق وانتقامات
دامية، يُغني عن الحزن واللّوعة.

أينما ذهبت في القلعة لا تجد سائراً مفزاً من
الموسيقى. دوماً تنجرف من أسفل وتصعد سلالم البرج
الملتفة، فتجدها عاريةً في حقّامها، وتتناول معها
العشاء عند الغسق، وتتسلّل إلى غرفة نومها حتى عندما
تُحْكِم إغلاق النّافذة. تأتيها الموسيقى محمولةً على
الهواء البارد، وكالهواء تبعث جسدها على القشعريرة.
على الرغم من أن الثّلج لم يسقط على (الغش) منذ يوم
سقوط الليدي لايسا فالليالي كلّها هنا قارسة البرودة.

صوت المغني قوي وعذب، وتظن سائرا أنه أفضل من قبل أيضًا، أنه بشكل ما أغنى، مقعم بالألم والخوف والاشتياق، لكنها لا تفهم لماذا وهبت الآلهة صوتًا كهذا لرجل شرير مثله، واضطرت إلى أن تذكر نفسها قائلة: كان سيأخذني عنوة ونحن في (الأصابع) لولا أن بيتر كلف السير لوثر بالعناية بي، وعزف موسيقاه لتطفئ على صريخي حين حاولت الخالة لايسا أن تقبلي. لكن هذا لم يجعل سماع الغناء أسهل، حتى إنها قالت للورد بيتر متوشلة: «أرجوك، ألا يمكنك أن تجعله يتوقف؟».

- «لقد أعطيت الرجل كلمتي يا خلوتي»، قالها بيتر بايلش، سيّد (هارنهال) وسيّد أراضي (الثالوث) الأعلى والورد حافظ (الغش) و(وادي آرن)، ورفع عينيه عن الرسالة التي يكتبها. كان قد كتب زهاء مئة رسالة منذ سقطة الليدي لايسا، ورأت سائرا الطيور تحلق من المغدفة وإليها. «أفضل أن أتحمل غناءه على أن أسمع نحيبه».

الأفضل أن يغني، نعم، ولكن... «أوجب أن يظل يعزف طيلة الليل يا سيدي؟ اللورد روبرت لا يستطيع النوم. إنه يبكي...».

قاطعها بيتر: «... أمه، ولا شيء يمكننا أن نفعله حيال هذا. المرأة مائت»، وهز كتفيه مضيّفًا: «لن يطول الأمر كثيرًا. اللورد نستور سيعود الجبل غدًا».

التفت سانزا اللورد نستور رويس مرّة من قبل بعد زفاف بيتر وخالتها. رويس هو ولي (بوابات القمر)، القلعة العظيمة القائمة عند سفح الجبل وتُحرس الدّرجات الصّاعدة إلى (الغش)، وقد نزل حاضرو الزّفاف ضيوفاً عنده ليلة قبل أن يبدأوا رحلة الصّعود. ليلتها لم يُكَلّف اللورد نستور نفسه النّظر إليها مرّتين، لكن فكرة مجيئه هنا تُرعبها. إنه وكيل (الوادي) الأعلى أيضًا، تابع جون آرن والليدي لايسا المؤتمن. قالت: «إنه لن... إنك لن تدع اللورد نستور يرى ماريليون، أليس كذلك؟».

لا بُدّ أن رُعبها لآخ على وجهها، لأن بيتر وضع ريشة الكتابة، وقال: «بالعكس، سأصرّ على أن يراه»، وأشار لها بالجلوس على مقعد مجاور له، وتابع: «أنا وماريليون عقدنا اتّفاقًا. من شأن مورد أن يكون مقنعا للغاية في الحقيقة، وإذا خيّب مطربنا العزيز أملنا وغنى أغنيّة لا نريد أن نسمعها، فما عليّ أنا وأنتِ إلّا أن نقول إنه كاذب. من تخالين اللورد نستور سيُصدّق؟».

قالت سانزا وهي تتمنّى لو تتأكّد: «نحن؟».

- «بالطبع، لأن كذبنا سيُفيدة».

كانت الغرفة الشّمسيّة دافئة والنّار تُطَقِّط على نحوٍ مبهج، لكن سانزا ارتجفت رغم ذلك، وقالت: «نعم، لكن... ماذا لو...».

قال بيتر: «ماذا لو وضع اللورد نستور الشرف فوق المصلحة؟»، ووضع ذراعه حولها مواصلاً: «ماذا لو أنه يبغي الحقيقة والعدالة لسيدته القتيلة؟»، وأضاف مبتسماً: «إنني أعرف اللورد نستور يا خلوتي. أتصورين أنني سأسمح له بإيذاء ابنتي؟».

لست ابنتك، إنني سانزا ستارك ابنة اللورد إدوارد والليدي كاتلين ودم (وينترفيل). لكنها لم تقل هذا. لولا بيتر بايلش لكانت سانزا نفسها التي هوت سُمُنة قدم في فراغ السماء الزرقاء الباردة إلى ميتة حجرية بدلاً من لايسا آرن. يا لجرأته. تتمنى سانزا لو أنها تتحلّى بشجاعته، لكنها لا تريد إلا أن تعود إلى الفراش وتختبئ تحت دثارها وتغيب في نوم عميق. إنها لم تنم ليلة كاملة منذ مائت لايسا آرن. «ألا يمكنك أن تقول للورد نستور إنني متوعدة... أو...».

- «سيُريد أن يسمع شهادتك على موت لايسا».

- «سيُدي، إذا... إذا قال ماريليون الحق...».

- «تعين إذا كذب؟».

- «كذب؟ نعم... إذا كذب، إذا كانت كلمتي ضد كلمته

ونظر اللورد نستور في عيني ورأى كم أنا خائفة...».

- «لن تكون لمحة من الخوف في غير محلها يا إليني.
لقد رأيت شيئًا مخيفًا، وسيتأثر نستور»، وتفّرس بيتر
في عينيها كأنه يراها للمرة الأولى، وأردف: «إن لك
عيئي أمك، عينين صادقتين بريئتين، زرقاوين كبحر
ثنيّره الشّمس. عندما تكبرين قليلًا سيغرق رجال كثير
في هاتين العينين». لم تدر سائزًا بم ترث، وأكمل هو:
«ما عليك إلّا أن تحكي للورد نستور الحكاية نفسها التي
حكيتها للورد روبرت».

روبرت مجرّد صبيّ صغير سقيم. اللورد نستور رجل
ناضج، صارم وشكّاك. روبرت ليس قويًا ولا بُدّ من
حمايته، حتى من الحقيقة، وكان بيتر قد قال لها
مطمئنًا إن بعض الأكاذيب حُب، فذكّرتَه بهذا الآن قائلة:
«عندما كذبنا على اللورد روبرت كان هذا لتُغنيه عن
الألم».

قال بيتر: «وهذه الكذبة تُغنينا أيضًا عنه، وإلّا سنُغادر
أنا وأنتِ (العُش) من الباب نفسه كلايسا»، وعادَ يلتقط
ريشته مضيقًا: «سنسقيه الأكاذيب ونبيذ (الكرمة)
الذهبي وسيشرب ويطلب المزيد، هذا وعد».

أدركت سائزًا أنه يسقيها الأكاذيب أيضًا، وإن كانت
أكاذيب مريحة، وتحسب أن النّية منها الرّأفة. ليست
الأكاذيب بهذا الشّوء ما دامت النّية منها الرّأفة. ليتهّا
فقط تُصدّقها...

لا تزال الأشياء التي قالتها خالتها قُبيل سقوطها
تُزعج سانزا، لكن بيتر وصفها بالهذيان، وقال: «زوجتي
كانت مجنونة وقد رأيت هذا بنفسك». وهو ما رآته
سانزا بالفعل. كُلُّ ما فعلته أني بنيث قلعة من الثلج،
وأرادت هي أن تدفعني من (باب القمر). بيتر نجّني.
لقد أحبّ أمي كثيرًا، و...

ويحبّها؟ كيف يُخالجها شك في هذا؟ لقد أنقذها.
همس صوت في داخلها: لا، بل أنقذ إليني ابنته. لكنها
سانزا أيضًا... وأحيانًا يتراءى لها أن حضرة اللورد
الحافظ شخصان أيضًا. إنه بيتر، حاميتها الودود الطّريف
الرقيق، لكنه الإصبع الصّغير كذلك، اللورد الذي عرفته
في (كينجز لاندنج)، يبتسم بخبث ويُقلّس على لحيته
وهو يهمس في أذن الملكة سرسي... والإصبع الصّغير
ليس صديقها. حين جعلهم خوف يضربونها دافع عنها
العفريت لا الإصبع الصّغير. حين حاول الذّهاء
اغتنابها حملها إلى الأمان كلب الصّيد لا الإصبع
الصّغير. حين أكرهها آل لانستر على الزّواج بتيريون
واساها السير جاران الهمام لا الإصبع الصّغير. الإصبع
الصّغير لم يرفع ولو إصبعه الصّغير لئيساعدها قَطّ.

إلا عندما أخرجني. هو من فعل هذا من أجلي. ظننت
السير دونتوس وراء الأمر، فارسي فلوريان العجوز
الشكير البائس، لكنه كان بيتر طوال الوقت. الإصبع
الصغير لم يكن أكثر من قناع عليه أن يضعه. على أن
التمييز بين الرجل والقناع يستعصي على سائز أحياناً،
ذلك أن الإصبع الصغير وبيتر بايلش متشابهان لأقصى
درجة. ربما كانت لتفر من الاثنين لو أن هناك مكاناً
تذهب إليه. (وينترفل) احترقت وهجرت، وبران
وربكون جثتان باردتان، وروب غدر به واغتيل في
(الثوأميتين) مع السيّد والدتهم، وتيريون أعيد بثمة
قتل جوفري، وإذا عادت إلى (كينجز لاندنج) ستضرب
الملكة عنقها بدورها، والخالة التي أملت أن تحفظ
سلامتها حاولت قتلها بدلاً من ذلك، وخالها إدميور أسير
آل فراي، وعفه الشمكة السوداء تحت الحصار في
(ريقرزن). بتعاسة قالت سائز لنفسها: لا مكان لي إلا
هنا، ولا صديق حقيقياً إلا بيتر.

ليلتها غنى الرّجل الميّت (يوم شنقوا روبن الأسود)
و(دموع الأم) و(أمطار كاستامير)، ثم توقّف فترةً، ولكن
بينما أثقل الوسن رأس سائزا عاد الغناء مجدّداً، وغنى
الرّجل (سنة أحزان) و(الأوراق السّاقطة) و(أليسين).
أغانٍ حزينة كلّها. لمّا أغلقت عينيها رأتها في زنزانته
السّماوية رابضاً في الركن بعيداً عن السّماء السّوداء
الباردة تحت غطاءٍ من الضّوف ويؤسّد قيثارته الخشبيّة
صدره. يجب ألاّ أشفق عليه. لقد كان مغروراً قاسياً،
وقريباً سيموت. إنها لا تستطيع إنقاذه، ولماذا قد ترغب
في ذلك؟ ماريليون حاول أن يفتصبها، وبيتر أنقذ
حياتها مرّتين لا واحدة. بعض الأكاذيب يجب أن يُقال.
لم يُحافظ على حياتها في (كينجز لاندنج) إلاّ الأكاذيب،
ولو لم تكذب على جوفري لضربها رجال الحرس الملكي
حتى أراقوا دماءها.

بعد (أليسين) توقّف المغني ثانية لتختطف سائزا
ساعة من الرّاحة، ولكن إذ بدأت خيوط الفجر الأولى
تنفذ من خصاص نافذتها سمعت أنغام (ذات صباح
غائم) الثّاعمة تتصاعد من أسفل، واستيقظت في
الحال. المفترض أنها أغنيّة نسائيّة، مرثاة تُغنيها أم في
الفجر الثّالي لمعركة رهيبة بينما تبحث بين القتلى عن
جثة ابنها الوحيد. الأم تُغني عن حرقها على ابنها
الميت، لكن ماريليون حزين على أصابعه، وعلى عينيّه.
طقت الكلمات من أسفل كالسّهام، وفي الظّلام
طعنتها.

أوه، أيها الفارس الكريم

هل رأيت ولدي؟

إن شعره بئى كالكستناء

وقد وعدني بالعودة

إلي وإلى ديارنا

التي في (بلدة ونديش)

غظت سائزا أذنيها بوسادة محشوة بريش الإوز
لتحجب عنهما بقية الأغنية، ولكن بلا جدوى. لقد طلع
النهار واستيقظت، واللورد نستور رويس يصعد الجبل.
بلغ الوكيل الأعلى ومجموعته (الغش) في أواخر
الأصيل، وقد صبغ الذهبي والخمري الوادي أسفلهم
واشتدت الرياح، ومعه جاء ابنه السير ألبار ودسته من
الفرسان وعشرون من الجنود. غرياء كثيرون جدًا.
تطلعت سائزا إلى وجوههم بقلق متسائلة إن كانوا
أصدقاء أم أعداء.

رُحِبَ بِيْتَرُ بِزُؤَارِهِ مُرْتَدِيًا سِتْرَةً مِنَ الْمُخْمَلِ الْأَسْوَدِ
لَهَا كُفَّانُ رَمَادِيَّانِ كَسْرَاوِيلُهُ الضَّوْفُ، فَأَضْفَى اللَّوْنُ نَوْعًا
مَعِيْنًا مِنَ الظُّلْمَةِ عَلَى عَيْنَيْهِ الْخَضْرَاوِينَ الزَّمَادِيَّتَيْنِ.
إِلَى جَوَارِهِ وَقَفَ الْإِمَائِسْتِرُ كُولْمُونُ وَحَوْلَ غُنْقِهِ الطُّوِيلِ
الرَّفِيعِ تَرْتَخِي سُلْسُلَتُهُ ذَاتُ الْمَعَادِنِ الْعَدِيدَةِ، وَعَلَى
الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الْإِمَائِسْتِرَ أَطْوَلَ الرِّجْلَيْنِ قَامَةً فَالْلُورْدِ
الْحَافِظُ هُوَ مَنْ لَفَتْ الْأَنْظَارُ. يَبْدُو أَنَّهُ تَخَلَّى عَنْ تَبَشُّمِهِ
الْمَعْتَادِ الْيَوْمَ، فَأَصْفَى بَوْقَارِ وَالْلُورْدِ رُوَيْسَ يُقَدِّمُ
الْقُرْسَانَ الَّذِينَ رَافَقُوهُ، ثُمَّ قَالَ: «مَرْحَبًا بِكُمْ أَيُّهَا السَّادَةُ.
إِنْكُمْ تَعْرِفُونَ الْإِمَائِسْتِرَ كُولْمُونُ بِالطَّبِيعِ. لُورْدِ نَسْتُورُ، هَلْ
تَذْكُرُ ابْنَتِي الطَّبِيعِيَّةَ (39). إِلَيْنِي؟».

- «بِالتَّأَكِيدِ». لِلْأُورْدِ نَسْتُورُ مَظْهَرُ صَارْمِ وَرَقْبَةِ غَلِيظَةِ
وَصَدْرٍ عَرِيضٍ، يَزْحَفُ عَلَى رَأْسِهِ الصَّلْعُ وَيَخِطُّ الشَّيْبُ
لَحِيَّتَهُ، وَقَدْ حَنَى رَأْسَهُ نِصْفَ بُوْصَةٍ كَامِلًا تَحِيَّةً لَهَا.
انْحَنَتْ سَانَزَا بِدَوْرَهَا خَائِفَةً أَنْ تَنْطِقَ فَتَقُولَ شَيْئًا
خَطَأً، ثُمَّ سَحَبَهَا بِيْتَرُ مِنْ يَدِهَا قَائِلًا: «كُونِي فَتَاةً مَهَذَّبَةً
يَا خُلُوتِي وَاجْلِبِي الْأُورْدِ رُوبِرْتِ إِلَى (الْقَاعَةِ الْعَالِيَةِ)
لِيَسْتَقْبَلَ ضِيُوفَهُ».

- «حَاضِرُ يَا أَبِي». بَدَأَ صَوْتُهَا رَفِيقًا مَشْدُودًا، وَبَيْنَمَا
أَسْرَعَتْ تَصْعَدُ الدَّرَجَ وَتَعْبُرُ الشَّرْفَةَ إِلَى (بُرْجِ الْقَمَرِ)
قَالَتْ لِنَفْسِهَا: صَوْتُ كَاذِبَةٍ، صَوْتُ مَذْنُوبَةٍ.

كانت جرتشل ومادي تُساعدان اللورد روبرت على ارتداء سراويله عندما دخلت غرفة نومه. كان سيّد (العش) يبكي ثانيةً، كما تنمّ عيناه المحمّرتان الرّطبتان وأهدابه اليابسة وأنفه المنتفخ السّائل، وقد التمعّ خيط من الفخاط تحت أحد منخريه ولوّث الدّم شفّته السفلى حيث عضّها. فكّرت سانزا بقنوط: يجب ألا يراه اللورد نستور هكذا، وطلبت من جرتشل أن تحضّر الطّست، ثم أخذت الصّبي من يده وسحبته من على الفراش قائلة: «هل نامّ غصفوري الجميل جيّدًا ليلة أمس؟».

أجاب متنشّقًا: «لا، لم أنم إطلاقًا يا إيني. كان يُعْثي ثانيةً، ووجدت بابي موصدًا. ناديتهم ليخرجوني لكن لا أحد أتى. أحدهم حبسني في غرفتي».

- «يا لهم من أشرار». غمست قماشة ناعمة في الماء الدّافئ وشرّعت تُنظّف وجهه... برفق شديد، بمنتهى منتهى الرّفق. إذا حكّت جسد روبرت بقوة أكبر من اللازم فربما يبدأ في الارتجاف. الصّبي هُشّ، وصغير للغاية بالنّسبة إلى سنّه. أي نعم هو في الثامنة، لكن سانزا عرّقت أطفالًا في الخامسة أكبر منه حجقًا.

ارتعشت شفة روبرت، وقال: «كنت سآتي لأنام معك».

أُعرفَ هذا. لقد اعتادَ الغُصفور الجميل الثوم إلى جانب أمّه إلى أن تزوّجت اللورد بيتّر، ومنذ موت الليدي لايسا عمدَ الصّبي إلى الثّجوال في أنحاء (الغش) بحثًا عن أسرّة أخرى، وأكثر ما راقّه منها سرير سائزا... ولهذا السّبب طلبت من السير لوثور برون أن يُوصد بابه ليلة البارحة. ما كانت لثمانع لو أنه ينام فقط، لكنه يُحاول دومًا أن يُقرّغ أنفه في تدييها، ثم إنه غالبًا ما يُبلّل الفراش عندما تُصيبه نوبة الرّجفة.

قالت سائزا وهي تمسح تحت أنفه: «اللورد نستور صعدَ من (بوّابات القصر) ليراك».

- «لا أريدُ أن أراه. أريدُ قصّةً، واحدةً عن الفارس المجنّح».

- «فيما بعد. أولاً عليك أن ترى اللورد نستور».

قال روبرت: «اللورد نستور لديه شامة. مامي قالت إنه شنيع». إنها تعلم أن الصّبي يخاف من لهم شامات.

سَوْت سانزا شَعْرَه قائلَةً: «عُصفوري الجميل المسكين. أعرفُ أنك تفتقدها. اللورد بيتر يفتقدها أيضًا. لقد أحبَّها مثلما تحبُّها تماقا». تلك أكذوبة، لكن الغرض منها الرَّأفة. المرأة الوحيدة التي أحبَّها اللورد بيتر في حياته هي أم سانزا القتيلة، وقد اعترف بهذا لليدي لايسا قبل أن يدفعها من (باب القمر) مباشرة. كانت مجنونَّة وخطرة. لقد قتلت السيد زوجها، وكانت لتقتلني أيضًا لو لم يأت بيتر ويُغيثني. لكن روبرت ليس في حاجة إلى معرفة ذلك. إنه مجرَّد صبي صغير مريض أحبَّ أمه. قالت: «هكذا يليق مظهرك باللوردات. مادي، أحضري معطفه». المعطف من صوف الحملان، ناعم ودافئ وأنيق بلونه الأزرق السماوي الذي أبرزَ لون شترة الصَّبي القشدي، وثبَّتته سانزا على كتفيه بدبوس فضي على شكل هلال، ثم أخذته من يده فمضى معها بخنوع هذه المرَّة.

ظَلَّت (القاعة العالية) مغلقة منذ سقطت الليدي لايسا، وقد بعث دخولها ثانية في سائزا القشعريرة. إنها تراها طويلة فخمة جميلة، لكنها لا تحب وجودها هنا في هذا المكان الشاحب الذي تسوده البرودة حتى في أحسن الأوقات، حيث تبدو الأعمدة الرقيقة كعظم الأصابع وتذكر العروق الزرقاء في الرخام الأبيض بالعروق في ساق حيزبون هرمة. على الرغم من اصطفا ف خمسين حامل فضي على الجدران فالمشاعل الموقدة تقل عن دسنة، فراحت الظلال تتراقص على الأرضية وتحتشد في كل زكن بينما ترددت أصداء خطواتهم على الرخام وسمعت سائزا الريح ترج (باب القم)، فأخبرت نفسها: يجب ألا أنظر إليه وإلا اعتزتي رجفة عنيفة مثل روبرت.

بمساعدة مادي أجلس روبرت فوق كومة من الوسائد على عرشه المصنوع من خشب الويروود، ثم أرسلت خبزا بأن حضرة اللورد مستعد لاستقبال ضيوفه، ففتح حارسان في معطفين من الأزرق السماوي الباب في طرف القاعة القصي، ليقود بيتر الضيوف إلى الداخل على البساط الأزرق الطويل الممتد بين صفين من الأعمدة البيضاء كالعظام.

حيًا الصبي اللورد نستور بأسلوب كيس وصوت كالضرب ولم يذكر شامته، وعندما سأله الوكيل الأعلى عن السيدة والدته سرت في يدي روبرت رعشة طفيفة، وقال: «ماريليون آذى أمي، ألقاها من (باب القم)».

- «هل رأى حضرة اللورد هذا بنفسه؟»، سأل السير ماروين بلمور، وهو فارس طويل نحيف له شعر بني محقر، كان قائد حرس لايسا إلى أن عيّن بيتر السير لوثور برون بدلاً منه.

أجاب الضّبي: «إليني رأت، والسيد زوج أمي». رمقها اللورد نستور، ووجدتهم ينظرون إليها، السير ألبار والسير ماروين والميايستر كولمون، الجميع. كانت خالتي لكنها أرادت أن تقئلني، جرّتني إلى (باب القصر) وحاولت أن تدفعني منه. لم أرغب في تلك القبلة قط. كنتُ أبني قلعة في الثلج. احتضنت سانزا نفسها لتمنعها من الارتجاف.

قال بيتر بهدوء: «سامحوها أيها السّادة، إنها لا تزال ترى ذلك اليوم في الكوابيس. لا عجب أنها لا تطيق الكلام عنه»، ثم وقف وراءها ووضع يديه بخفة على كتفيها قائلاً: «أدرك صعوبة الأمر عليك يا إليني، لكن يجب أن يسمع أصدقاؤنا الحقيقة».

أحسّت بخلقها جافاً مشدوداً لدرجة أن الكلام كاد يؤلمها وهي تقول: «نعم، رأيث... كنتُ مع الليدي لايسا عندما...»، وسالت دمة على وجنتها ففكرت: جيد، جيد أن تنزل مني دمة، وواصلت: «... عندما... دفعها ماريليون»، وحكّت الحكاية ثانية وهي تكاد لا تسمع الكلمات التي تدفقت منها.

قبل أن تُبلِّغَ منتصف الحكاية بدأ روبرت يبكي، ومالت الوسائد على نحوٍ خطرٍ تحته إذ صاح: «لقد قتل أمي. أريده أن يطير!»، واشتدَّت رجفة يديه وبدأت ذراعاها ترتجفان أيضًا، ثم انتفض رأس الضبي بحركة عنيفة وراحت أسنانه تصطك وضربت ذراعاها وساقاه الهواء بضراوة وهو يصرخ: «يطير، يطير، يطير!»، فأسرع لوثر برون إلى المنصة في الوقت المناسب ليلقف الضبي الذي انزلق ساقطًا عن عرشه، ووراءه بخطوة واحدة المايستر كولمون، وإن لم يكن هناك ما يُمكنه أن يفعله.

عاجزة كالآخرين، وقفت سائرا وشاهدت حتى جرت الثوبة مجراها. ركلت إحدى ساقي روبرت السير لوثر في وجهه، فأطلق سبابًا وإن ظلَّ متمسكًا بالضبي وهو يرتجف ويتشجج ويُبَلِّل نفسه، في حين لم ينبس أيُّ من زائريهم بكلمة، فاللورد نستور على الأقل شهد تلك الثوبات من قبل. لحظات طويلة مرّت قبل أن تهمد تشججات روبرت، بل وبدت أطول من هذا كذلك، وفي النهاية كان اللورد الصغير واهنًا عاجزًا حتى عن الوقوف، فقال اللورد بيتر للمايستر: «الأفضل أن تأخذ حضرة اللورد إلى فراشه وتعلّق له العلق». هكذا حمل برون الضبي بين ذراعيه وخرج به من القاعة، وتبعه المايستر كولمون بوجه متجهّم.

حين تلاشت خطوات أقدامهما ران صمت تام على
قاعة (الغش) العالية، وسمعت سائرا رياح المساء تنثُر
في الخارج وتخمش (باب القمر)، وتساءلت شاعرة ببريد
وإرهاق شديدين: **أيجب أن أحكي الحكاية ثانية؟**

لكن لا بُدّ أنها أحسنت حكايتها، لأن اللورد نستور
تنحنح ودمدم: «ذلك المغني لم يُعجبني من البداية. لقد
حُثث الليدي لايسا على صرفه، عدّة مرّات الحث
عليها».

قال بيتر: «لطالما مددتها بالنصائح الشديدة يا
سيّدي».

ردّ رويس بتذمّر: «لكنها لم تُصغ، سمعتني كرها على
كره ولم تُصغ».

قال بيتر بحنان بالغ كان ليُجعل سائرا تُصدّق أنه
أحبّ زوجته حقّا: «سيّدتى كانت أسرع ثقةً من أن
يستأهلها هذا العالم. لم يكن بمقدور لايسا أن ترى الشرّ
في البشر، بل الخير فقط. كان ماريليون يُغني أعذب
الأغاني، واعتقدت أن تلك طبيعته».

قال السير ألبار رويس: «لقد دعانا بالخنازير». بعلامحه الضارمة وكتفيه العريضتين يبدو السير ألبار نسخة أصغر سنًا من أبيه، وقد حلق الفارس ذقنه وإن أطلق شعر وجنتيه الأسود الكثيف ليصنع إطارًا كسياج من الشجيرات حول وجهه التقليدي. «ألف أغنيّة عن خنزيرين يرعيان حول جبل ويأكلان فضالة صقر، وبهذا كان يعنينا نحن، لكن حين قلت له هذا ضحك مني، ورَدَّ: إنها مجرّد أغنيّة عن زوجين من الخنازير أيها الفارس!». أضاف السير ماروين بلمور: «وسخر مني كذلك، سقاني السير جلاجل، ولمّا أقسمت أن أقطع لسانه هرغ إلى الليدي لايسا واختبأ وراء ثورتها».

قال اللورد نستور: «كما تعوّد أن يفعل. الرّجل كان جبانًا، لكن تحيّر الليدي لايسا له أصابه بالغطرسة. لقد ألبسته كاللوردات، وأهدت إليه خواتم ذهبيّة وحزامًا مرضعًا بأحجار القمر».

عقب فارس على سترته شموع عائلة واكسلي البيضاء الست: «وحتى صقر اللورد چون المفضّل، ولكم أحبّ حضرة اللورد ذلك الصّقر. لقد أهداه الملك روبرت إليه».

زفر بيتر بايلش، وقال مؤيّدًا: «لم يكن الوضع يليق، وقد وضعت نهايةً له. لايسا وافقت على صرفه، ولذا التّقته هنا يومها. كان عليّ أن أكون معها، لكنني لم أتخيّل قط أن... لو لم أصمّم... أنا الذي قتلتها».

فَكَرَّتْ سَانْزَا بِهِلَع: لَا، لَا تَقُلْ هَذَا، لَا تُخْبِرْهُمْ، لَا تَفْعَلْهَا،
لَكِنْ أَلْبَار رُويس هَزْ رَاسَه قَانَلَا: «لَا يَا سَيِّدِي، يَجِبُ أَلَا
تَلُومَ نَفْسِكَ».

وَوَافَّقَهُ أَبُوهُ بِقَوْلِهِ: «الْمَغْنِي هُوَ مَنْ فَعَلَهَا. فَلَتَأْتِ بِهِ
أَيُّهَا اللورد پيتر، دَعُونَا نَكْتُبُ نَهَايَةَ لِهَذِهِ الْقِصَّةِ
الْمُؤَسَفَةِ».

بِجَنَانٍ ثَابِتٍ قَالَ پيتر بَايِلَش: «كَمَا تَشَاءُ يَا سَيِّدِي»،
وَالْتَفَتَ إِلَى حَارْسِيهِ وَأَلْقَى أَمْرًا، وَجِيءَ بِالْمَغْنِي مِنَ
الرُّنَازِينَ. جَاءَ مَعَهُ السَّجَّانُ مُورِدُ ذُو الْمَلَامِحِ الْوَحْشِيَّةِ
وَالْعَيْنِينَ السُّودَاوِينَ الصَّغِيرَتَيْنِ وَالْوَجْهَ الْمَائِلَ الشَّائِهَ.
فِي مَعْرَكَةٍ مَا طَارَتْ إِحْدَى أُذُنَيْهِ وَجُزْءٌ مِنْ وَجْنَتِهِ، وَإِنْ
ظَلَّتْ فِي جَسَدِهِ أَكْوَامٌ مِنَ اللَّحْمِ الْأَبْيَضِ الْمَمْتَقِعِ، وَقَدْ
ارْتَدَى ثِيَابًا لَا تُنَاسِبُ مِقَاسَهُ وَفَاحَتْ مِنْهُ رَائِحَةٌ مَنفُورَةٌ.

عَلَى الثَّقِيضِ بَدَأَ مَارِيلْيُونُ اقْرَبَ إِلَى الْأَنَاقَةِ. وَقَدْ
حَقَمَهُ أَحَدُهُمْ وَأَلْبَسَهُ سِرَاوِيلَ مِنَ الْأَزْرَقِ الشَّمَاوِيِّ
وَسِتْرَةً قَصِيرَةً فَضْفَاضَةً بِكُمَيْنِ مَنْتَفَخَيْنِ، مَرْبُوطَةً بِزَنَارٍ
فَضِّي كَانَ هَدِيَّةً مِنَ الْيَدِيِّ لَايسَا، بَيْنَمَا غَطَّى يَدَيْهِ
قُقَازَانٍ مِنَ الْحَرِيرِ الْأَبْيَضِ، وَأَغْنَتْ عَصَابَةَ حَرِيرِيَّةٍ
بِيضَاءِ الشَّادَةِ الْحَاضِرِينَ عَنْ رُؤْيَا مَنْظَرِ عَيْنِيهِ.

وَقَفَّ مُورِدٌ وَرَاءَهُ حَامِلًا كُرْبَاجًا، وَحِينَ نَكَرَهُ السَّجَّانُ
فِي ضُلُوعِهِ هَوَى الْمَغْنِي عَلَى زُكْبَتِهِ قَانَلَا: «أَتَوْشَلُ
مَغْفَرَتَكُمْ أَيُّهَا الشَّادَةُ».

سَأَلَهُ اللورد نَسْتُورُ بَعْبُوسُ: «هَلْ تَعْتَرِفُ بِجَرِيْمَتِكَ؟».

كان صوت المغني القوي الواثق ليلاً راجحاً هامساً الآن وهو يُجيب: «لو أن لي عيينين لبكيث. لقد أحببتها كثيرًا، ولم أحتمل أن أراها بين ذراعي رجل آخر، أن أعلم أنها تُشاركه فراشه. لم أكن أنوي أن أمسّ سيّدتي الجميلة بأذى، أقسم على هذا، وأوصدت الباب فقط كي لا يُزعجنا أحد بينما أعتزّف لها بعاطفتي، لكن الليدي لايسا كانت باردة للغاية معي... لَمَّا قالت لي إنها تحمل طفل اللورد پيتر... تملّكني الجنون...».

حدّقت سائزًا إلى يديه وهو يتكلّم. مادي البدينة زعمت أن مورد بتز ثلاثة من أصابعه، كلا الخنصرين وإحدى السّبابتين، وبشكل ما بدا إصبعاه الصّغيرين أكثر تبيّسًا من البقية بالفعل، لكن من الصّعب أن تتيقّن في وجود هذين القّقازين. ربما لا تكون أكثر من قصّة مختلّقة. وما أدري مادي؟

قال المغني الأعمى: «اللورد پيتر تكزّم وترك لي قيثارتِي، قيثارتِي و... لساني... كي أغني. كم كانت الليدي لايسا مولعةً بأغاني...».

قال اللورد نستور بغلظة: «خُذوا هذا المخلوق من هنا وإلا قتلته بنفسه. مجرّد النّظر إليه يُغثيني».

خاطب پيتر الشّجّان قائلاً: «مورد، أعدّه إلى زنزانتِه».

رَدَّ مورد: «نعم سيدي»، وأمسك ماريليون من ياقته بخشونة، وقال له: «لا مزيد كلام». حين تكلم رأت سائزا -لدهشتها- أن أسنان الشَّجَّان من الذهب، وشاهدته مع الآخرين وهو يجرُّ المغني ويدفعه نحو الباب.

أعلن ماروين بلمور عقب خروجهما: «لا بُدَّ أن يموت هذا الرَّجل. كان ينبغي أن يتبع الليدي لايسا من (باب القمر)».

أضاف السير ألبار رويس: «دون لسانه، دون هذا اللسان الكاذب الشَّاخر».

بلهجة اعتذارية قال بيتر بايلش: «أعرفُ أنني ترفقتُ به كثيرًا. الحقيقة أنني أشفقُ عليه. لقد قتل من أجل الحب».

قال بلمور: «من أجل الحب أو الكراهية، لا بُدَّ أن يموت».

قال اللورد نستور بفضاظة: «قريبًا. لا أحد يبقى طويلًا في زنازين السماء. سوف يُناديه الأزرق».

قال بيتر بايلش: «ربما، لكن سواء أأجاب ماريليون النداء أم لم يُجِبْه فهو وحده يعرف»، وأشار ليفتح حارساه الباب في نهاية القاعة، واستطرد: «أيها القُرسان، لا بُدَّ أنكم متعبون من صعودكم. لقد أعدنا غُرفًا لكم جميعًا لقضاء اللَّيل، والطَّعام والتَّبيذ في انتظاركم في (القاعة السُّفلىة). أوزويل، أرهم الطَّريق واحرص على تلبية احتياجاتهم كُلِّها»، ثم التفت إلى نستور رويس قائلاً: «هَلَّا تناولت معي كأسًا من التَّبيذ في غُرفتي السُّمسيَّة يا سيِّدي؟ إليني يا خلوتي، تعالي وضُبِّي لنا».

كانت نار خافتة مشتعلة في الغرفة السُّمسيَّة حيث ينتظرهم إبريق من التَّبيذ. نبيذ ذهبي من (الكرمة). وملأت سانزا كأس اللورد رويس فيما حرَّك بيتر الحطب بمسعر حديدي.

جلس اللورد نستور إلى جوار النَّار، وقال لبيتر كأن سانزا ليست موجودة: «لن تكون هذه النَّهاية. ابن عَمِّي ينوي استجواب المغني بنفسه».

دفع بيتر قطعة من الحطب جانبًا قائلاً: «يون البرونزي لا يثق بي».

- «إنه يُزِمِعُ المجيء على رأس قوَّة، وسينضمُّ إليه سايموند تميلتون، إياك أن تشكَّ في هذا، والليدي واينوود أيضًا كما أخشى».

- «واللورد بلمور واللورد هنتر الشاب وهورتون ردفورت، وسيجلبون معهم سام ستون القوي وآل توليت وآل شت وآل كولدووتر وعدداً من آل كوربراي». - «أنت واسع الاطلاع. مَنْ مِنْ آل كوربراي؟ اللورد لايونل؟».

- «لا، أخوه. السير لين لا يحبني لسبب ما». قال اللورد نستور بإصرار: «لين كوربراي رجل خطير. ماذا تنوي أن تفعل؟». رَدَّ پيتر: «وما الذي بإمكانني أن أفعله إلا الترحيب بهم إذا أتوا؟»، وحزَّكَ المسعر ليُزَكِّي النار أكثر ثم وضعه. - «ابن عقي ينوي أن يخلعك من منصب اللورد الحافظ».

- «إذا كان هذا صحيحاً فليس بمقدوري أن أمنعه. إنني أحتفظ بحامية لا تزيد على العشرين رجلاً، واللورد رويس وأصدقاؤه يستطيعون حشد عشرين ألف»، وذهب پيتر إلى الصندوق البُلُوط الموضوع أسفل الثافذة، وأضاف وهو يركع أمامه: «يون البرونزي سيفعل ما يُريد أن يفعله»، ثم فتح الصندوق وأخرج رَقّاً ملفوفاً وناولَ اللورد نستور إياه قائلاً: «سيدي، هذه أمانة على الحب الذي كانت سيديتي تُكِنُّه لك».

شاهدت سائراً رويس يبسط الرُّقَّ ويقول: «هذا... هذا غير متوقَّع يا سيدي»، وأذهلها أن ترى في عينيه دموعاً.

- «غير متوقَّع لكنه ليس غير مستحق. لقد قدَّرتك سيِّدتي أكثر من سائر حفلة رايتهَا، وقالت لي إنك صخرتها».

قال اللورد نستور بوجه توَّرد: «صخرتها. هي قالت هذا؟».

أجاب بيتر: «مرازا»، وأشار إلى الورقة مستدركا: «وها هو ذا الدليل».

- «هذا... يسْؤني أن أعرف هذا. أعلم أن جون آرن كان يُقدَّر خدمتي، لكن الليدي لايسا... لقد استخفَّت بي حين أتيتُ أخطبُ وُدَّها، وخشيتُ أن...»، وعقد اللورد نستور حاجبيه مغمغقا: «أرى أنه يحمل ختم آرن، لكن التوقيع...».

- «لايسا قُتِلت قبل أن تُقدِّم لها الوثيقة لثوْقَها، فوقَّعتها باعتباري اللورد الحافظ. أعلم أنها كانت لترغب في هذا».

قال اللورد نستور: «مفهوم»، وطوى الرُّقَّ متابعًا: «أنت... وفي يا سيِّدي، نعم، ولا تعوزك الشَّجاعة. سيقول بعضهم إن هذه المنحة لا تليق ويلومونك على تقديمها. منصب الوليِّ لم يكن متوازئًا قَطُّ. آل آرن هم من شيَّدوا (بوَّابات القمر) في إِبَّانِ اعتمارهم تاج الضَّقر وخكَّمهم ملوكًا في (الوادي). كانت (العُش) مقرُّهم الضَّيفي، لكن مع بدء سقوط الثُّلوج اعتاد البلاط أن ينزل الجبل. ستجد من يقولون إن (بوَّابات القمر) لا تقلُّ ملكيَّةً عن (العُش)».

عَلَّقَ بِيْتَرُ بَايْلَشُ: «لَمْ يَغْدَ هُنَاكَ مَلِكٌ فِي (الْوَادِي) مِنْذُ ثَلَاثِمِئَةِ سَنَةٍ».

أَيَّدَهُ اللُّوردُ نِسْتُورُ قَائِلًا: «حِينَ أَتَى الثَّنَانِينَ، لَكِنْ حَتَّى بَعْدَهَا ظَلَّتْ (بَوَابَاتُ الْقَمَرِ) قَلْعَةً تَابِعَةً لِعَائِلَةِ آرِن. چُون آرِن نَفْسَهُ كَانَ وَلِيَّ الْبَوَابَاتِ فِي حَيَاةِ أَبِيهِ، وَبَعْدَ تَوَلَّيْهِ الْحُكْمَ كَرَّمُ أَخَاهُ رُونَلُ بِالْمَنْصَبِ، وَلاحِقًا دِينَسُ ابْنِ عَقِّهِ».

- «اللُّوردُ رُوبَرْتُ بِلَا إِخْوَةٍ، وَأَبْنَاءُ عُمُومَتِهِ بَعِيدُونَ».

أَطْبَقَ اللُّوردُ نِسْتُورُ عَلَى الْوَثِيقَةِ، وَقَالَ: «صَحِيحٌ. لَنْ أَقُولَ إِنَّنِي لَمْ أَتَمِّمْ هَذَا. حِينَ كَانَ اللُّوردُ چُون يَحْكُمُ الْبِلَادَ بِصِفَتِهِ يَدُ الْمَلِكِ وَقَعَ عَلَى عَاتِقِي أَنْ أَحْكُمَ (الْوَادِي) مِنْ أَجْلِهِ، وَفَعَلْتُ كُلَّ مَا طَلَبَهُ مِنِّي وَلَمْ أَسْأَلْهُ شَيْئًا لِنَفْسِي، لَكِنِّي اسْتَحَقَقْتُ هَذَا بِحَقِّ الْإِلَهَةِ!».

قَالَ بِيْتَرُ: «اسْتَحَقَقْتَهُ بِالْفِعْلِ، وَاللُّوردُ رُوبَرْتُ يَنَامُ بَارْتِيَاچَ أَكْثَرَ عَالِمًا أَنَّكَ مَوْجُودٌ دَائِمًا، صَدِيقُ صَدُوقٍ عِنْدَ سَفْحِ جَبَلِهِ»، وَرَفَعَ كَأْسَهُ مَرْدَقًا: «إِذَنْ... لِنَشْرَبْ نَخْبًا يَا سَيِّدِي. فِي صَحَّةِ آلِ رُويَسِ أَوْلِيَاءِ (بَوَابَاتِ الْقَمَرِ)... الْآنَ وَإِلَى الْأَبَدِ».

رَدَّدَ رُويَسُ: «الْآنَ وَإِلَى الْأَبَدِ، أَجْلُ!»، وَتَقَارَعَتِ الْكَأْسَانِ الْفَضِيَّتَانِ.

لاحقًا، بعدها بوقت طال، بعد أن فرغ إبريق نبيذ (الكرمة) الذهبي، استأذن اللورد نستور في الانصراف لينضم إلى رفقة فرسانه من جديد، وعندئذ كان الثعاس يُغالب سائرا الواقفة بلا رغبة إلا في الذهاب إلى فراشها، لكن بيتر أمسك معصمها قائلاً: «أترين الأعاجيب التي يصنعها الكذب ونبيذ (الكرمة) الذهبي؟».

لماذا تريد أن تبكي إذن؟ من الجيد أن نستور رويس معهما. سألته: «أكان كل ما قيل كذب؟».

- «ليس كله. كثيرًا ما دعت لايسا اللورد نستور بالصخرة، وإن كنت لا أظن أنها قصدتها كإطراء، وتعوّدت أن تدعو ابنه بكثرة الطين. كانت تعلم أن اللورد نستور يحلم بالانفراد بحكم (بوّابات القمر)، أن يكون لورد حقيقة لا اسمًا فقط، لكن لايسا كانت تحلم بإنجاب أبناء آخرين وانتوت أن تذهب القلعة إلى أخي روبرت الصغير»، ونهض بيتر سائلًا إياها: «هل تفهمين ما حدث هنا يا إيني؟».

تردّدت سائرا برهة، ثم قالت: «منحت اللورد نستور (بوّابات القمر) لتتأكد من دعمه لك».

- «نعم، لكن صخرتنا من آل رويس، أي أنه شديد الاعتداد بالنفس وسريع الغضب. لو كنت سألتها عن سعره لانتفخ كضفدع غاضب لإهانتني شرفه، أمّا بهذه الطريقة... الرجل ليس غيبًا تمامًا، لكن الأكاذيب التي قدّمتها له أحلى من الحقيقة. إنه يريد أن يُصدّق أن لايسا قدرته أكثر من بقيّة حفلة رايتها، فأحد هؤلاء الآخرين يون البرونزي في النهاية، ونستور يعني جدًا حقيقة أنه من فرع أدنى لعائلة رويس، ويرغب في المزيد لابنه. الشرفاء يفعلون في سبيل أولادهم أشياء ما كانوا ليُفكّروا في فعلها لأنفسهم بتاتًا».

أومأت برأسها متفهمّة، وقالت: «التّوقيع... كان يُمكنك أن تجعل اللورد روبرت يُوقّع الوثيقة ويختتمها، لكن بدلًا من هذا...».

- «... وقّعتها بنفسى باعتباري اللورد الحافظ. لماذا؟».

- «لأن... في حالة إزاحتك أو... أو قتلك...».

- «... سيُصبح امتلاك اللورد نستور (بوابات القصر) فجأة محلّ شك. أوكد لك أن شيئًا كهذا لم يفتّه. براعة منك أن تلحظي، وإن لم أتوقّع أقلّ من هذا من ابنتي».

- «أشكرك»، قالت شاعرة بفخرٍ شديد باستنتاجها السليم، ولو أن فخرها امتزج بالحيرة. «لكني لست ابنتك، ليس حقًا. أعني أنني أتظاهر بكوني إيني، لكنك تعلم...».

وضع الإصبع الصغير إصبعه على شفتيها، وقال:
«أعلم ما أعلم وتعلمين ما تعلمين. الأفضل ألا يُقال
بعض الأشياء يا خلوتي».

- «حتى ونحن وحدنا؟».

- «بالذات ونحن وحدنا، وإلا قد يأتي يوم ويدخل
خادم غرفة دون تنبيه أو يسمع حارس على الباب شيئاً
لا ينبغي أن يسمعه. هل تريدان المزيد من الدماء على
يديك الجميلتين يا عزيزتي؟».

رأت وجه ماريليون يسبح في الهواء أمامها وعلى
عينيه العصابة الباهتة، ووراءه رأت السير دونتوس
وسهام الثَّشَابِيَّة مغروسة في جسده. هكذا قالت سائرا:
«لا، أرجوك».

- «وددت لو أقول إننا لسنا في لعبة يا بنيّتي، لكنها
كذلك بالطبع. إنها لعبة العروش».

لم أطلب أن ألعب قَط. واللّعبة محفوفة بالمخاطر.
زلّة واحدة واموٲ. «أوزويل... سيّدي، أوزويل جُدّف
بي من (كينجز لاندنج) ليلة هروبي. لا بُدّ أنه يعرف
هويّتي الحقيقيّة».

قال: «مؤكد أنه يعرفها إذا كان يملك نصف ذكاء خروف، والسير لوثور يعرف أيضًا، لكن أوزويل يعمل في خدمتي منذ زمن طويل، ووبرون كنوم بطبيعته. كتليلاك يُراقب برون من أجلي، ووبرون يُراقب كتليلاك. ذات مرّة قلت لإدارد ستارك ألا يثق بأحد، لكنه أبى أن يُصغي. أنتِ إليني، ويجب أن تكوني إليني طوال الوقت»، ووضع إصبعين على ثديها الأيسر متابعًا: «حتى هنا، في قلبك. هل يمكنك أن تفعلي هذا؟ هل يمكنك أن تكوني ابنتي في قلبك؟».

- «إنني...». كادت تقول: لا أدري يا سيدي، لكن ذلك ليس ما يُريد أن يسمعه، فقالت لنفسها: الأكاذيب وتبيذ (الكرمة) الذهبى، وأجابته: «إنني إليني يا أبى، ومن غيرها؟».

لثم اللورد الإصبع الصغير وجنتها، وقال: «بعقلي وجمال كات سيكون العالم ملك يمينك يا خلوتي. والآن إلى الفراش».

وجدت سائزا أن جرتشل أشعلت نازًا في مستوقدها ونفشت حشية فراشها الریش، فخلعت ثيابها ودخلت تحت الأغطية، وترجّت في قرارة نفسها: لن يُعْثي الليلة في وجود اللورد نستور والآخرين في القلعة، لن يجرو، وأسدت جفنيها.

وفي هزيع ما من الليل استيقظت إذ انضم إليها روبرت الصغير في الفراش. نسيث أن أقول للسيرلوثور أن يحبسه ثانية. لم يكن هناك ما يمكنها أن تفعله، فطوّقته بذراعها قائلة: «غصفوري الجميل، يمكنك أن تبقى، لكن حاول ألا تتقلب. أغلق عينيك وثم أيها الصغير».

قال: «حاضر»، والتصق بها ووضع رأسه بين ثدييها، وسألها: «إليني، أنت أمي الآن؟». أجابته: «أظنّ هذا». لا أذى في أكذوبة النّية منها الرّأفة.

(39) الطفل الطبيعي مصطلح من القرون الوسطى يُطلق على الأولاد غير الشرعيين. (المترجم).

ابنة الكراكن

ضجّت القاعة بصخب رجال هارلو الشكرانيين، كلهم من أبناء خؤولتها، وكلّ لورد منهم يُعلّق رايته وراء مجموعة الذكك التي يجلس عليها رجاله، وقد تطلّعت آشا جرايچوي إليهم من الشُرفة مفكّرة: قِلّة قليلة للغاية، قِلّة لا تُذكر. ثلاثة أرباع الذكك كان شاغراً.

كارل البكر قال ما مؤدّاه الخُلاصة نفسها وهما على متن (الزّيح السّوداء) المقبلة من البحر، إذ أحصى الشفن الطّويلة الرّاسية أسفل قلعة خالها، ثم زَمّ فاه معلّقاً: «لم يأتوا، أو لم يأت عدد كاف». لم يكن مخطئاً، إلّا أن آشا لم تستطع أن تُؤمّن على كلامه في مكانٍ مفتوح حيث يُمكن أن يسمعها أفراد طاقمها. إنها لا تشكّ في إخلاصهم، لكن حتى حديدَيّ الميلاد يتردّدون في بذل حياتهم في سبيل قضية من الجليّ للعيان أنها خاسرة.

أصدقائي قلائل لهذه الدرجة حقًا؟ ضمن الزايات
رأت سمكة آل بوتلي الفضّية، وشجرة آل ستونترى
الحجريّة، ولّويان آل قولمارك الأسود، وأناشيط آل
ماير. أمّا البقيّة فمناجل آل هارلو. يضع بورموند منجله
على خلفيّة زرقاء شاحبة، ومنجل هوئو محاط بإطار له
شكل شرفات الحصن، والفارس أضاف إلى منجله
الطاووسين المبهرجين رمز عائلة أمّه، علاوةً على راية
سيجفريد ذي الشعر الفضي التي تُظهر منجلين
متعارضين على خلفيّة مقسومة بقيل إلى لونين. وحده
اللورد هارلو على رايته منجل فضي خالص على خلفيّة
بسواد اللَّيل، تمامًا كما كانت تخفق في فجر الزّمان. إنه
رودريك الملقّب بالقارئ، سيّد (البروج العشرة) وسيّد
(هارلو)، زعيم عائلة هارلو في (هارلو)... والمفضّل
عندها من بين أشقاء أبيها وأمّها.

كان مقعد اللورد رودريك العالي شاغرا أيضًا، وقد
تقاطع فوقه منجلان من الفضة المطرّقة، هائلان حتى
إن واحدًا من العمالقة أنفسهم كان ليجد غسّرًا في
حملهما، لكن تحتها تستقرّ الوسائد خالية. لم تندesh
أشأ، فالمأدبة انتهت منذ مدّة طويلة، وعلى الموائد لم
يتبقّ غير العظام والأطباق المتسخة بالدهون. الآن ليس
هناك في المكان إلّا من يشربون، وخالها رودريك لم يكن
ميّالًا قطّ إلى ضحبة الشكاري المشاكسين.

التفتت إلى ذات الثلاث أسنان، امرأة في أرذل العمر
تعمل وكيلة لخالها منذ كانت تُدعى ذات الاثنتي عشرة
سن، وسألتها: «خالي مع كتبه؟».

- «نعم، وهل هناك غيرها؟». المرأة طاعنة في السن
لدرجة أن أحد الشيتونات قال في مرّة إنها حتقاً
أرضعت (العجوز)، لكن ذلك كان في عهد التسامح مع
عقيدة الآلهة السبعة على الجزر. الآن يحتفظ خالها بعدد
من الشيتونات في (البروج العشرة)، ليس من أجل
خلاص روحه وإنما من أجل الكتب. «مع الكتب وبوتلي.
هو أيضًا كان معه».

راية بوتلي أيضًا معلّقة في القاعة، سرب من الشمك
الفضي على خلفيّة خضراء باهتة، وإن لم ترَ أشا سفينته
(الرّعنة الشريفة) وسط الشفن الطويلة الأخرى. قالت:
«سمعت أن عمي عين الغراب أغرق العجوز ساوان
بوتلي».

- «أقصّد اللورد تريستيفر بوتلي».

تريس. تساءلت عمّا جرى لابن ساوان الأكبر هارن. لا
شكّ أني سأعرف قريباً. لن يكون موقفاً مريحاً. إنها لم
ترَ تريس بوتلي منذ... لا، يجب ألاّ تُسهب في التفكير
في ذلك. «والسيّدة أمي؟».

- «في فراشها في (برج الأرملة)».

نعم، وهل هناك مكان غيره؟ الأرملة التي استمدَّ
البرج منها اسمه هي خالتها الليدي جوينيس، التي أتت
ترثي زوجها الذي مات عند (الجزيرة القصية) خلال
تمزّد بالون جرايجوي الأول، ومعلوم أنها قالت لأخيها:
«سأبقى حتى ينتهي جدادي فقط، مع أن المفترض حقًا
أن تكون (البرج العشرة) لي، لأنني أكبرك بسبعة
أعوام». سنوات طويلة مرّت منذ ذلك الحين، وظلّت
الأرملة في جدادها، وبين الآن والآخر تُتميم أن القلعة
من حقّها. والآن عند اللورد رودريك أخت أرملة شبيهة
مجنونة أخرى تحت سقفه. لا عجب أنه يسعى إلى
العزاء وسط كُتبه. حتى الآن يصعب استيعاب أن الليدي
الانيس الشقيقة الهشة حية بينما مات زوجها اللورد
بالون الذي بدا شديد القوة والصلابة. عندما أبحرت آشا
إلى الحرب كان قلبها مثقلًا بالهم، وتخشى أن تموت
أمّها قبل عودتها، ولم يخطر لها مرّة أن أباه سيموت
أولًا. الإله الغريق يُمازحنا مزاحًا قاسيًا، لكن البشر أشدّ
قسوة. عاصفة مفاجئة وحبل مقطوع ألقيا ببالون
جرايجوي إلى مصرعه. أو هكذا يزعمون.

آخِر مَرَّةٍ رَأَتْ أُمَّهَا كَانَتْ حِينَ تَوَقَّفَتْ فِي (الْبُرُوجِ
الْعَشْرَةِ) لَتَعْبِئَةَ الْمِيَاهِ الْعَذْبَةِ وَهِيَ فِي الطَّرِيقِ شِمَالًا
لِمَهَاجِمَةِ (رَبْوَةِ الْغَابَةِ). لَمْ تَتَمَتَّعِ أَلَانِيسُ هَارِلُو قَطُّ بِنُوعِ
الْجَمَالِ الَّذِي يُثَقِّنُهُ الْمَغْنُونُونَ، لَكِنْ لَطَالَمَا أَحْبَبَتْ ابْنَتَهَا
مَلَامَحَهَا الْحَادَّةَ الْقَوِيَّةَ وَعَيْنَيْهَا الصُّحُوكَتَيْنِ، عَلَى أَنَّهَا
فِي تِلْكَ الزِّيَارَةِ الْأَخِيرَةِ وَجَدَتْ اللَّيْدِي أَلَانِيسَ جَالِسَةً
عَلَى مَقْعَدٍ مَجَاوِرٍ لِلثَّافِذَةِ تَحْتَ كُومَةٍ مِنَ الْفُرُوعِ، تُحَدِّقُ
إِلَى الْبَحْرِ، وَتَذْكُرُ آشَا أَنَّهَا تَسَاءَلَتْ فِي نَفْسِهَا وَهِيَ تُقْبِلُ
وَجَنَّتَهَا: أَهَذِهِ أُمِّي أَمْ سَبِيحَهَا؟ كَانَ جِلْدُ أُمَّهَا رَقِيقًا كَوَرَقِ
الرُّقُوقِ وَشَعْرُهَا الطَّوِيلُ مَبِيضًا، وَلَثْنٌ تَبَقَّى شَيْءٌ مِنَ
الْكِبْرِيَاءِ فِي الطَّرِيقَةِ الَّتِي تَرْفَعُ بِهَا رَأْسَهَا، فَقَدْ بَدَتْ
عَيْنَاهَا مِنْطَفِئَتَيْنِ غَائِمَتَيْنِ، وَاخْتَلَجَ فَمُهَا وَهِيَ تَسْأَلُ عَنْ
ثِيُونَ قَائِلَةً: «هَلْ أَتَيْتِ بَابَنِي الصَّغِيرَ؟». كَانَ ثِيُونَ فِي
الْعَاشِرَةِ مِنَ الْغَمْرِ حِينَمَا أُخِذَ رَهِينَةً إِلَى (وِينْتِرْفَل)،
وَيَبْدُو أَنَّهُ سَيَظُلُّ هَكَذَا دَوْمًا فِي مَخِيلَةِ اللَّيْدِي أَلَانِيسَ.
أَجَابَتْهَا آشَا مُضْطَرَّةً: «ثِيُونَ لَمْ يَأْتِ. أَبِي أَرْسَلَهُ يُغَيِّرُ
عَلَى (السَّاحِلِ الْحَجْرِيِّ)»، فَلَمْ تَرُدَّ اللَّيْدِي أَلَانِيسَ، بَلْ
اكَتَفَتْ بِالْإِيْمَاءِ بِرَأْسِهَا بِنِطَاءٍ، وَإِنْ كَانَ الْجَرْحُ الْبَلِيغُ الَّذِي
أَصَابَتْهَا بِهِ كَلِمَاتُ ابْنَتِهَا جَلِيًّا تَمَاقًا.

والآن عليّ أن أخبرها بموت ثيون وأعمد في قوادها
خنجرًا آخر. ثقة سكينان مغروسان هناك بالفعل، وعلى
نصليهما نُقشَ اسمَا رودريك ومارون، وكثيرًا ما يُقرَّقان
نياط قلب أمّها في جوف اللَّيل. قالت آشا لنفسها
متعهدّة: سأراها غدًا. لقد قطعت رحلةً طويلةً مرهقةً،
وليس بمقدورها أن تُواجه أمّها الآن.

خاطبت ذات الثلاث أسنان قائلة: «يجب أن أتكلّم مع
اللورد رودريك. اعتني بأفراد طاقمي بمجرّد أن ينتهوا
من تفريغ حمولة (الريح السوداء). سيكون معهم أسرى.
أريدهم أن يناموا في أسرة دافئة ويأكلوا وجبةً
ساخنة».

ردّت العجوز: «هناك لحم بقري بارد في المطابخ،
وخردل في جرّة حجريّة كبيرة من (البلدة القديمة)»،
وجعلها ذكر ذلك الخردل تبتسم، لتلوح سنّ بيّنة طويلة
واحدة متمسكة بِلثتها.

قالت آشا: «لن يصلح هذا. رحلتنا كانت شاقّة، وأريدُ
شيئًا ساخنًا في بطونهم»، ودست إبهامها في الحزام
المرضع بالحديد المحيط بوركياها، وأضافت: «يجب ألا
يعوز الليدي جلوفر وصغيريها الطّعام أو الدّفء أبدًا.
ضعيهم في بُرج وليس في الزّنازين. الرّضيعة مريضة».
- «الرّضع يمرضون طول الوقت، ويموت معظمهم
ويتشعر النَّاس بالأسف. سأسأل سيّدي أين أضغ قوم
الذّئاب هؤلاء».

أَمَسَكْتَ أَنْفَ الْعَجُوزِ بَيْنَ إِبْهَامِهَا وَسَبَّابَتِهَا وَقَرَصْتَهُ
قَائِلَةً بِغِلْظَةٍ: «سَتَفْعَلِينَ كَمَا أَقُولُ، وَإِذَا مَأْتَتْ هَذِهِ
الرَّضِيعَةُ فَلَنْ يَأْسِفَ أَحَدٌ أَكْثَرَ مِنْكَ»، فَصَاخَتْ ذَاتَ
الثَّلَاثِ أَسْنَانُ بِحِدَّةٍ وَوَعَدَتْ بِأَنْ تُطِيعَ، إِلَى أَنْ أَطْلَقَتْ
آشَا سِرَاحَهَا وَذَهَبَتْ إِلَى خَالِهَا.

جَمِيلٌ أَنْ تَمْشِيَ فِي هَذِهِ الْأَرْوَقَةِ مِنْ جَدِيدٍ، فَلَطَالَمَا
عَدَّتْ آشَا (الْبُرُوجُ الْعَشْرَةَ) بَيْتَهَا أَكْثَرَ مِنْ (يَايِكَ)،
وَعِنْدَمَا رَأَتْهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ فَكَّرَتْ: لَيْسَتْ قَلْعَةٌ وَاحِدَةً وَإِنَّمَا
عَشْرُ قَلَاعٍ مَنَحْشَرَةٌ مَعًا. لَا تَزَالُ تُذَكِّرُ سَبَاقَاتِ لَاهْتِهِ
عَلَى الشَّلَالِمِ وَبَطُولِ مَمَاشِي الْأَسْوَارِ وَالْجُسُورِ الْمَغْطَاةِ،
وَصَيْدِ الْأَسْمَاكِ عَلَى (الرَّصِيفِ الْحَجَرِيِّ الطَّوِيلِ)، وَأَيَّامًا
وَلِيَالِي أَمْضَتْهَا مُسْتَغْرَقَةً فِي ثَرْوَةِ خَالِهَا مِنَ الْكُتُبِ. جَذُّ
جَذِّهِ هُوَ مَنْ أَقَامَ الْقَلْعَةَ الَّتِي تَعُدُّ الْأَجْدَدُ عَلَى الْجُزْرِ،
وَكَانَ لِلَّوْرْدِ ثِيُومُورِ هَارْلُو ثَلَاثَةُ أَبْنَاءٍ مَاتُوا فِي الْمَهْدِ،
وَقَدْ أَلْقَى اللَّوْمُ عَلَى الْأَقْبِيَةِ الْمَغْمُورَةِ وَالْأَحْجَارِ الرُّطْبَةِ
وَالنُّطْرُونِ الْفَاسِدِ فِي (بَهُو هَارْلُو) الْعَرِيقِ، أَمَّا (الْبُرُوجُ
الْعَشْرَةُ) فَأَحْسَنُ تَهْوِيَّةٍ وَأَكْثَرُ رَاحَةٍ وَأَفْضَلُ مَوْقِعًا...
لَكِنِ اللَّوْرْدِ ثِيُومُورِ كَانَ رَجُلًا مُتَقَلِّبَ الْأَطْوَارِ كَمَا كَانَتْ
أَيُّ مِنْ زَوْجَاتِهِ لَتَشْهَدُ، وَقَدْ كَانَتْ لَهُ سِتُّ مِنْهُنَّ، كُلُّهُنَّ
مُتَبَايِنَاتُ كَأَبْرَاجِهِ الْعَشْرَةِ.

(بُرج الكتب) أوسع العشرة، متقن الأضلاع ومشيد بقوالب ضخمة من الحجارة المنحوتة، وسلالمه مبنية داخل الجدران السميكة. صعدت آشا مسرعة إلى الطابق الخامس حيث الغرفة التي يقرأ فيها خالها. ولو أنه لا توجد عُرف لا يقرأ فيها. نادرًا ما يرى اللورد رودريك دون كتاب في يده، سواء أكان هذا في المرحاض أم على سطح سفينته (أغنية البحر) أم في أثناء مقابلاته، وكثيرًا ما رآته آشا يقرأ على مقعده العالي تحت المنجلين الفضيين، فيُنصت إلى كل حالة تُطرح عليه ويُصدر حكمه... ثم ينال قسطًا من القراءة بينما يذهب قائد حرسه للإتيان بالملتبس التالي.

وجدته مائلًا على منضدة عند نافذة، تُحيط به مخطوطات ربما أثت من (قاليريا) نفسها قبل هلاكها، وكتب ثقيلة مغلّفة بالجلد ولها مشابك من البرونز والحديد، وعلى جانبيه تشتعل شموع سميكة طويلة كذراع رجل في شمعدانات حديدية منقّقة. ليس اللورد رودريك هارلو بديئًا أو نحيقًا، ولا طويلًا أو قصيرًا، ولا قبيحًا أو وسيقًا، وله شعر بُني كعينيّه، وإن شابت اللحية القصيرة المشدّبة التي تعود العناية بها. إجمالًا يبدو الرّجل تقليديًا، ولا يُقَيّزه إلّا حبه للكلمة المكتوبة، وهو ما يعذه كثيرون جدًا من حديديّ الميلاد تخننًا وانحرافًا.

أغلقت الباب وراءها قائلة: «خالي، ما القراءة العاجلة التي تجعلك تترك ضيوفك بلا مضيف؟».

قال: «(كتاب الكتب المفقودة) للمايستر الرئيس ماروين»، ورفع ناظرينه عن الصفحة يرفقها متابعًا: «هوئو أحضر لي نسخة من (البلدة القديمة). إن له ابنة يُريدني أن أتزوجها»، ونقر اللورد رودريك على الكتاب بظفر طويل، وأردف: «انظري هنا، ماروين يزعم أنه عثر على ثلاث صفحات من (علامات وآيات)، الرؤى التي دوّنتها ابنة إينار تارجارين العذراء قبل أن يأتي الهلاك (قاليريا). هل تعرف لاني أنك هنا؟».

لاني هو اسم التّديل الذي يُطلقه على أمّها، ووحده القارئ يدعوها به. أجابت آشا: «ليس بعد». دَعَا تستريح، ونقلت كومة من الكتب من على كرسيّ وجلست مستطردة: «يبدو أن ذات الثلاث أسنان فقدت سَئِنَ أخريّين. هل تدعوها بذات السِّنّ الواحدة الآن؟».

- «نادرًا ما أدعوها على الإطلاق. تلك المرأة تُخيفني. ما السّاعة الآن؟»، ونظر اللورد رودريك من النّافذة إلى البحر الذي أنارَه القمر، ثم أردف: «خلّ الظّلام بهذه السّرعة؟ لم ألاحظ. لقد تأخّرت، انتظرنا مجيئك منذ أيام».

- «كانت الريح ضدنا وقلقت على أسراي، زوجة روبيت جلوفر وطفلاه. الضغرى لا تزال رضيعة، ولبن الليدي جلوفر جف خلال رحلتنا، فلم أجد خيارًا إلا الرسو بـ(الريح السوداء) على (الساحل الحجري) وإرسال رجالي للعثور على مرضعة، وبدلاً من هذا وجدوا عنزة. الفتاة ليست في صحة طيبة. هل هناك أم ترضع في القرية؟ (ربوة الغابة) مهمة لخططي».

- «يجب أن تتبدل خططك. لقد أتيت متأخرة كثيرًا». قالت: «متأخرة وجائعة»، ومدت ساقها الطويلتين تحت المنضدة وقلبت صفحات أقرب كتاب إليها، محاضرة أحد الشيتونات عن حرب ميجور المتوحش على جماعة الصعاليك، وأضافت: «أوه، وظمأى أيضًا. لا بأس بقرن من المزر الآن يا خالي».

رَمَّ اللورد رودريك شفتيه قائلاً: «تعلمين أنني لا أسمح بالطعام والشراب في مكتبتى. الكتب...».

أكملت آشا عبارته ضاحكة: «... ربما يُصيبها أنى».

قَطَّبَ خالها جبينه، وقال: «تحيين استفزازي حقًا».

- «أوه، لا تبدو متضرراً هكذا. إنني لم ألتق رجلاً لم أستفزه قط، والمفترض أنك تعلم هذا جيداً. لكن كفى كلاماً عني. هل أنت بخير؟».

هَزَّ كتفيه مجيباً: «بخير بما فيه الكفاية. نظري يَضْفَف. بعثت إلى (مير) أطلب عدسة تُساعدني على القراءة».

- «وكيف حال خالتي؟».

تنهّد اللورد رودريك، وقال: «ما زالت تكبرني بسبع سنوات ومقتنعة بأن (البروج العشرة) يجب أن تكون لها. أصبحت جوينيس كثيرة النسيان، لكن هذا ما لا تنساه أبدًا. إنها ترثي زوجي الميت بالحرارة نفسها كيوم موته، مع أنها لا تتذكر اسمه دائمًا».

قالت آشا: «لست واثقة بأنها كانت تعرف اسمه أصلًا»، وأغلقت كتاب السيتون بقوة متسائلة: «هل قيلَ أبي؟».

- «هذا ما تعتقده أمك».

ثقة أوقات معينة كان ليسعدها فيها أن تقتله بنفسها. «وما الذي يعتقده خالي؟».

- «بالون هوى إلى موته عندما انقطع جسر من الحبال من تحته. كانت العاصفة ثائرة والجسر يتمايل ويتلوى مع كل هبة ريح»، وعاد رودريك يهز كتفيه مضيقًا: «أو أن هذا ما قيلَ لنا. أمك وصلَ إليها طائر من المايستر ويندامير».

سحبت آشا خنجرها من غمده وطفقت تُنظف ما تحت أظفارها من وسخ، وقالت: «يغيب عين الغراب ثلاثة أعوام ثم يعود يوم موت أبي تحديدًا».

- «في اليوم التالي كما سمعنا. (الضمت) كانت لا تزال في البحر عندما مات بالون، أو أن هذا ما يُقال، ومع ذلك أؤيدك في أن عودة يورون... لنقل إنها كانت في حينها».

علقت آشا: «لم أكن لأصفها هكذا»، ثم إنها غرست رأس خنجرها في المنضدة، وقالت: «أين سفني؟! لقد أحصيْتُ نحو أربعين من السفن الطويلة الرأسية بالأسفل، ليس عددًا يكفي ولو بعض الشيء لإزاحة عين الغراب عن كرسي أبي».

- «لقد أرسلت الاستدعاءات باسمك لأجل ما أكثه لك ولأمك من خب. عائلة هارلو اجتمعت، وكذا عائلتا ستونتري وقلولمارك وبعض عائلة ماير...».

- «كلهم من (هارلو)... جزيرة واحدة من سبع. رأيت راية بوتلي وحيدة من (بايك) في القاعة. أين سفن سولتكليف وأوركوود؟ أين سفن (ويك القديمة) و(ويك الكبرى)؟».

- «بيلور بلاكتايد أتى من (بلاكتايد) يتشاور معي وسرعان ما رحل من جديد»، وأغلق رودريك (كتاب الكتب المفقودة) مضيئًا: «إنه في (ويك القديمة) الآن».

- «(ويك القديمة)؟». كانت آشا تخشى أن يقول إنهم ذهبوا جميعًا إلى (بايك) ليبياعوا عين الغراب. «لماذا (ويك القديمة)؟».

- «حسبتك سمعت. آرون ذو الشعر الرطب دعا إلى انتخاب ملك».

ألقت آشا رأسها إلى الوراء ضاحكة، ثم قالت: «لا بُدَّ أن الإله الغريق دس سمكةً شائكةً في ذبر العم آرون. انتخاب ملك؟ أهذه دعاية أم أنه يعني ما يقول حقًا؟».

- «ذو الشَّعر الرُّطب لم يمزح قَط منذ غرق، ثم إن
الرُّهبان الآخرين تبثُّوا الدَّعوة؛ ييرون بلاكتايد الأعمى
وتارل الغارق ثلاثًا... حتى الثُّورس الرَّمادي العجوز ترك
الصَّخرة التي يعيش عليها ليُبشِّر بهذا الانتخاب في
أنحاء (هارلو). الرِّبابة يجتمعون في (ويك القديمة)
حاليًا».

سألته آشا مندهشة: «هل وافق عين الغراب على
حضور تلك المهزلة المقدَّسة والإذعان لقرارها؟»
- «عين الغراب لا يُطلِّعني على قراراته. منذ
استدعاني إلى (يايك) لأبايعه لم تصلني أخبار من
يورون».

انتخاب ملك. شيء جديد هذا... أو بالأحرى شيء
قديم للغاية. «وعمي فيكتاريون؟ ما رأيه في فكرة ذي
الشَّعر الرُّطب؟».

- «فيكتاريون أعلم بموت أبيك، وبانتخاب الملك إياه
أيضًا لا ريب، لكني لا أدري أكثر من هذا».

مجيء ملك بالانتخاب أفضل من مجيئه بالحرب.
قالت آشا: «أعتقد أنني سأقبل قدمي ذي الشَّعر الرُّطب
رغم رائحتهما الكريهة وألتقط طحالب البحر من بين
أصابعهما»، وانتزعت خنجرها من خشب المنضدة
ودسَّته في الغمد مضيفة: «انتخاب ملك لعين!».

- «في (ويك القديمة)، وإن كنت أصلي ألا يكون
لعينًا. كنت أراجع (تاريخ حديدي الميلاد) لهايرج.
عندما اجتمع الملوك الملحئون والملوك الصخرئون آخر
مرة في انتخاب ملك أطلق أوران ابن (أوركمنت)
رجاله حاملي الفؤوس بينهم واصطبغت ضلوع ناجا
بخمرة الدماء، وبعد ذلك اليوم الملعون حكمت عائلة
جرايآيرون غير مختارة طيلة ألف عام إلى أن جاء
الأنداليون».

- «يجب أن تُعيرني كتاب هايرج هذا يا خالي». عليها
أن تتعلم كل ما يمكنها عن انتخابات الملوك قبل وصولها
إلى (ويك القديمة).

ردّ: «يمكنك قراءته هنا. إنه قديم وهش»، وأمعن
النظر إليها عاقدا حاجبيه، وقال: «المايستر الرئيس
ريجنى كتب يقول إن التاريخ عجلة، لأن سليقة الإنسان
لا تتغير أبدًا، وإن ما حدث من قبل سيحدث ثانية
بالضرورة. كلما تأملت في طبيعة عين الغراب فكّرت في
هذه المقولة. إن ليورون جرايچوي وقفًا على هاتين
الأذنين العجوزين لا يختلف عن أوران جرايآيرون. لن
أذهب إلى (ويك القديمة)، ولا ينبغي لك أن تذهبي
كذلك».

ابتسمت آشا قائلة: «ويفوتني أول انتخاب ملك يُعقد
منذ... منذ متى يا خالي؟».

- «أربعة آلاف عام إذا صدّقنا هايرج، أو نصف تلك المدة إذا قبلنا حُجج المايستر دنستان في (الأسئلة). الذهاب إلى (ويك القديمة) لن يُجدي نفعًا. ذلك الحلم بالملك جنون في دمناء، وهذا ما قلته لأبيك حين تمزّد أول مرّة، وكلامي أصدق الآن مما كان آنذاك. إننا في حاجة إلى الأرض لا الثيجان، ومع تنافّس ستانيس باراثيون وتايوين لانستر على العرش الحديدي أمامنا فرصة نادرة لتحسين أوضاعنا. لنأخذ هذا الجانب أو ذاك ونُعينه على الثّصر بأساطيلنا ونَحْضِل على الأراضي التي نحتاج إليها من ملك شكور».

- «قد تستحقّ هذه الفكرة التّفكير حالما أجلس على كرسي حجر اليم».

تنهّد خالها، وقال: «لن تُريدي أن تسمعي هذا يا آشا، لكنك لن تُختاري. لم يحدث قطّ أن حكمت امرأة حديديّ الميлад. جوينيس تكبرني بسبع سنوات بالفعل، لكن حين مات أبي انتقلت (البروج العشرة) إليّ، وسيحدث المثل معك. أنت ابنة بالون لا ابنه، ولك ثلاثة أعمام».

- «ثلاثة أعمام وخال».

- «ثلاثة أعمام كراكن. أنا لا أحسب».

- «أنت محسوب عندي. ما دام معي خالي سيّد (البروج العشرة) فمعي (هارلو)». ليست (هارلو) أكبر (جزر الحديد)، لكنها الأغنى والأكثر عمازًا بالشكّان، وسطوة اللورد رودريك لا يُستهان بها. ليس لهارلو من منافيس في (هارلو)، وصحيح أن آل قولمارك وستونثري لهم أملاك كبيرة على الجزيرة ويتباهون بربابنة مشاهير ومُحاربين أشداء من بين ظهرانيهم، لكن حتى أقواهم ينحني تحت رمز المنجل، أمّا عائلتا كنينج وماير اللتان كانتا عدوين لدودين في الماضي فقد هُزِمَتَا منذ زمن طويل وتحوّل أولادهما إلى أتباع.

قال اللورد رودريك: «أبناء عمومتي مدينون لي بالطّاعة، وفي الحرب تكون سيوفهم وأشرعتهم تحت إمرتي، أمّا في انتخاب الملك...»، وهزّ رأسه مستدرّكًا: «تحت عظام ناجا يقف جميع الرّبابنة سواسية. ربما يهتف بعضهم باسمك، لا أشكّ في هذا، ولكنهم لن يكفوا، وحين يذوّي الهتاف لفيكتاريون أو عين الغراب سينضمّ بعض من يشربون الآن في قاعتي إلى البقيّة. أقول لك ثانية ألا تُبحري إلى تلك العاصفة. معركتك يائسة».

- «لا معركة يائسة إلى أن تُخاض. الدّعوى الأفضل دعواي. إنني وريثة بالون ومن ضلّبه».

- «ما زلت طفلةً عنيدةً. فكّري في أمك البائسة. لم يتبقّ للاني إلّاك. سأضرمّ النار في (الزّيح السوداء) إذا لزم الأمر لأبقيك هنا».

- «وتجعلني أسبخ إلى (ويك القديمة)؟».

- «ستكون سباحة طويلة باردة من أجل تاج لا تستطيعين الاحتفاظ به. أبوك كان يتمتع بالشجاعة أكثر من الحكمة. لقد نفع التهج القديم جزرنا حين كنا مملكة واحدة صغيرة من بين كثيرات، لكن غزوة إجون وضعت نهاية لذلك. بالون رفض أن يرى الجلي أمامه، أن التهج القديم مات مع هارن الأسود وأبنائه».

- «أعرف هذا». لقد أحببت آشا أباهما لكنها لم تحاول أن تضل نفسها، ذلك أن بالون كان أعمى في بعض التواحي بالفعل. رجل شجاع لكن حاكم سيئ. «أيعني هذا أن علينا أن نعيش ونموت خدماً للعرش الحديدي؟ إذا كانت هناك صخور إلى ميمنة السفينة وعاصفة إلى ميسرتها فالزبان الحكيم يختار مسارًا ثالثًا».

- «أريني ذلك المسار الثالث».

- «سأفعل... في انتخاب الملكة. خالي، كيف تفكر مجرّد تفكير في عدم الحضور؟ سيكون هذا تاريخًا حيًا...».

- «أفضل التاريخ ميتًا. التاريخ الميت مكتوب بالحب، أما الحي فبالدم».

- «أتريد أن تموت عجوزًا جبانًا في سريرك؟».

قال اللورد رودريك: «وهل هناك غير هذا؟ ولكن ليس قبل أن أفرغ من القراءة»، ثم ذهب إلى النافذة مردفًا: «لم تسألي عن السيّدة والدتك».

كنت خائفة. «كيف حالها؟».

- «أقوى. ربما تظل حية بعد موتنا جميعًا، ومؤكّد أنك ستموتين قبلها إذا أصررت على هذه الحماقة. إنها تأكل أكثر مما كانت عندما أثت هنا، وكثيرًا ما تنام الليل بطوله».

- «عظيم». في سنينها الأخيرة في (يايك) جافى الثوم الليدي ألانيس، واعتادت أن تجوب الأروقة والأبهاء ليلاً بحثًا عن أبنائها، فثنادي بصوت حاد: «مارون؟ رودريك، أين أنت؟ ثيون يا صغيري، تعال إلى أمك». مرّات عديدة شاهدت آشا بينما أخرج المايستر الشّطايا من كعبي أمّها في الصّباح بعد أن عبرت الجسر الخشبي المتمايل إلى (برج البحر) بقدمين حافيتين. «سأراها في الصّباح».

- «ستسأل عن ثيون».

أمير (وينترفيل). «ماذا قلت لها؟».

أجاب: «أقلّ القليل. لم يكن هناك ما يُقال»، وتردّد لحظة قبل أن يسألها: «أأنت واثقة بأنه مات؟».

- «لست واثقة بشيء».

- «هل وجدتم جثة؟».

- «وجدنا أجزاء من جثث كثيرة. الذئاب سبقتنا إلى هناك... ذئاب من النوع ذي الأربع سيقان، لكنها لم تُبدِ تقديرًا لأقربائها ذوي السّاقين. كانت عظام القتلى متناثرة في كل مكان ومكسورة لاستخلاص النّخاع. أعترف بأن معرفة ما حدث هناك عصيّة. لقد بدا كأن الشماليّين قاتلوا بعضهم بعضًا».

قال اللورد رودريك: «الغربان تتقائل على لحم الموتى
ويقتل بعضها بعضًا من أجل التهام أعينهم»، وحدّق إلى
البحر مشاهدًا تراقص نور القمر على الأمواج، وأردف:
«كان لنا ملك واحد ثم خمسة، والآن لا أرى إلا غريبًا
تتنازع على جثة (وستروس)»، وأغلق النافذة مضيقًا:
«لا تذهبي إلى (ويك القديمة) يا آشا، ابقِ مع أمك.
أخشى أنها لن تظل معنا طويلًا».

اعتدلت آشا في جلستها، وقالت: «أفي ربّتي على أن
أكون جريئة. إذا لم أذهب سأقضي بقيّة حياتي أسأل
نفسي عمّا كان ليحدث لو ذهبت».

- «إذا ذهبت فربما تكون بقيّة حياتك أقصر من أن
تقضيها في التّساؤل».

- «ذلك أفضل من أن أظلّ أشكو ما تبقى لي من عمري
من أن كرسي حجر اليم حقّي. إنني لست جوينيس».

جعل قولها ملامحه تتقلّص انزعاجًا، وقال: «آشا،
ابنائي الطويلان تحوّلًا إلى طعام للشرّاطين عند
(الجزيرة القصيّة)، وليس محتملًا أن أتزوّج ثانية. ابقِ
وسأسقيك وريئة لـ(البروج العشرة). اقنعي بهذا».

- «(البروج العشرة)؟». ليتني أستطيع. «لن يروق
هذا أبناء عمومتك؛ الفارس وسيجفريد العجوز وهوثو
الأحدب...».

- «إن لهم أراضيههم ومقرّاتهم الخاصّة».

صحيح. (يهو هارلو) الرّطب العيّن ينتمي إلى العجوز
سيجفريد هارلو ذي الشّعر الفضيّ، وهوّو الأحدب مقرّه
في (برج البريق) فوق جرف على الشّاحل الغربيّ،
والفارس السير هاراس هارلو بلاطه في (الحديقة
الرّماديّة)، وبورموند الأزرق يحكم من على قمّة (تل
هاريدان)، لكن جميعهم خاضع للورد رودريك. قالت آشا:
«بورموند عنده ثلاثة أبناء، وسيجفريد ذو الشّعر الفضيّ
عنده أحفاد، وهوّو عنده ظموحات. كلّهم يسعون إلى
خلافتك، حتّى سيجفريد. ذلك الرّجل ينوي أن يعيش
إلى الأبد».

رَدّ خالها: «الفارس سيصبح سيّد (هارلو) من بعدي،
لكنه يستطيع أن يحكم من (الحديقة الرّماديّة)
بالسهولة نفسها. قدّمي للسير هاراس فروض الولاء من
أجل القلعة وسيحميك».

قالت: «يُمكنني أن أحمي نفسي. إنني كراكن يا خالي،
آشا سليلة عائلة جرايچوي»، ونهضت مضيفة: «أريدُ
كُرسِيّ أبي لا كُرسِيّك. منجلاك هذان يبدوان خطرين،
وقد يسقط أحدهما ويقطع رأسي. لا، سأجلس على
كُرسِيّ حجر اليم».

قال اللورد رودريك: «إذن فأنت مجرّد غرابٍ آخر
يصرّخ مريدًا الجيفة»، وعادَ يجلس مردفًا: «اذهبي.
أريدُ أن أعود إلى ماروين وبحثه».

- «أعلمني إذا عثرَ على صفحة أخرى». خالها هو خالها ولن يتغيّر أبدًا، لكنه سيأتي إلى (ويك القديمة) بقصّ النظر عن كلامه.

لا بُدَّ أن أفراد طاقمها يتناولون طعامهم في القاعة الآن، وتعلم آشا أن عليها أن تنضمّ إليهم لتتكلّم عن هذا الاجتماع في (ويك القديمة) وما يعنيه لهم. سيقف رجالها وراءها راسخين، لكنها ستحتاج إلى البقية أيضًا، أبناء خؤولتها من عائلة هارلو وآل قولمارك وآل ستوننتري. هؤلاء من يجب أن أكسبهم. سينفعها انتصارها في (ربوة الغابة) حالما يبدأ رجالها في الثفاخر به، وهي تعرف أنهم سيفعلون. يجذ رجال طاقم (الزّيح السوداء) نوعًا منحرفًا من الفخر بمآثر رؤّانتهم. نصفهم يحبّها كابنة والنّصف الآخر يريد أن يفتح ساقبها، لكن كلا الصّنفين مستعدّ للموت من أجلها. وأنا من أجلهم، قالت لنفسها وهي تُخرج من الباب عند قاعدة السّلالم إلى السّاحة المضاءة بنور القمر.

وهناك خرج ظلّ من وراء البئر قائلاً: «آشا؟».

ذهبت يدها إلى خنجرها من فورها... ثم إن نور القمر حوّل الثّكويين الأسود إلى رجل في معطف من جلد الفقّمات. شبح آخر. «تريس، حسبتني سأجذك في القاعة».

- «أردت أن أراك».

قالت بابتسامة عريضة: «أيّ جزءٍ مني يا ثري؟ حسن، هأنذا، بالغة راشدة. انظر كما تشاء».

دنا منها قائلاً: «امرأة، وجميلة».

امتلاً جسد تريستيفر بوتلي منذ آخر مرّة رآته، ولكن ما زال له الشعر الأشعث نفسه الذي تذكّره، والعينين الواسعتين الصادقتين كعيون كلاب البحر. عينان طيّبتان بحق. وتلك مشكلة تريستيفر المسكين، أنه أطيب قلباً من أن يكون من بني (جزر الحديد). أصبحت ملامحه وسيمة. في صباه ابثليّ تريس بالبتور، وقاست آشا البلوى نفسها، ولعلّ هذا ما اجتذبت كلاهما إلى الآخر.

قالت: «أسفث لقا سمعت بما جرى لأبيك».

- «وأنا حزين على أبيك».

كادت تسأله: لماذا؟ بالون هو من صرف الضبي من (يايك) ليفدو ربيب بيلور بلاكتايد. «أصحيح أنك اللورد بوتلي الآن؟».

- «اسمًا على الأقل. هارن ماث عند (خندق كايلن)، أحد شياطين المستنقعات أصابه بسهم مسموم. لكني لا أتسيّد شيئاً. عندما أنكرّ أبي حقّ عين الغراب في كرسي حجر اليم أغرقه وجعل أعمامي يُقسمون له على الولاء، وحتى بعد ذلك ضمّ نصف أراضي أبي إلى (الأجمة الحديدية)، لأن اللورد وينش كان أول من يركع له ويدعوه بالملك».

لعائلة وينش نفوذ في (يايك)، لكن آشا حرصت على عدم إظهار انزعاجها وهي تقول: «وينش لم يتحلّ بشجاعة أبيك قط».

قال تريس: «عمك اشتراه. (الضمت) عادت بمخازن
مكتظة بالكنوز؛ دروع ولآلى، زمرد وياقوت، صقير
بحجم البيض، أجولة من العملة ثقيلة لدرجة أن لا رجل
يستطيع أن يرفعها... عين الغراب يشتري رجالاً ذات
اليمين وذات الشمال. عمي جرموند يُسمّي نفسه اللورد
بوتلي الآن، ويحكم في (لوردزپورت) باعتباره رجل
عمك».

قالت له مطمئنة: «أنت اللورد بوتلي الشرعي. بمجرد
أن أجلس على كرسي حجر اليم سأعيد أراضي أبيك».
- «إذا أردت. الأمر لا يعني في شيء. تبدين رائعة
الجمال في نور القمر يا آشا. إنك امرأة بالغة الآن، لكني
أذكر عندما كنت فتاة نحيلة بوجه مليء بالبثور».
لماذا يصرون على ذكر البثور دومًا؟ «أذكر هذا
أيضًا». وإنما ليس بالحنين ذاته مثلك. من بين الضبية
الخمسة الذين جلبتهم أمها إلى (يايك) لثريتهم - بعد أن
أخذ ند ستارك ابنها الحي الأخير رهينة - كان تريس
الأقرب إلى آشا في السن. لم يكن أول صبي قبّلته، لكنه
كان أول من يحلّ أربطة شترتها ويدش يده المبللة
بالعرق ليتحسس ثدييها الصغيرين.

كنت لأسمح له بتحشس المزيد لو تجزأ كفايةً. لقد
أزهزت في أثناء الحرب واستيقظت رغبتها، لكن حتى
قبل ذلك كانت آشا تحش بالفضول. كان موجودًا، كان
في سيئي وراغبًا... هذا كل ما في الأمر... بالإضافة إلى
الزيف القمري. وعلى الرغم من ذلك سقطته خُبًا، إلى أن
راح تريس يتكلم عن الأبناء الذين ستحملهم له، ستة
منهم على الأقل... أوه، وبعض الفتيات أيضًا، إلا أنها
قالت له مذعورة: «لا أريد أن أنجب ستة من الأبناء،
أريد أن أخوض مغامرات». لم يمض وقت طويل بعدها
حتى ضبطهما المايستر كالن يلعبان، وأرسل تريسيفر
بوتلي الصغير إلى (بلاكنايد).

قال: «كتب لك رسائل، لكن المايستر جوزران رفض
أن يرسلها. في مرة نقدت ملاحًا على سفينة تجارية
مُتجهة إلى (لوردزيورت) أيلًا فضيًا ووعدني بأن يضع
الرّسالة في يدك».

- «الملاح خدعك وألقى رسالتك في البحر».

- «هذا ما خشيته. إنهم لم يعطوني رسائلك كذلك».

لأنني لم أكتب أي رسائل. الحقيقة أنها أحست بالراحة
عندما ضُرف تريس، ففي ذلك الحين كانت قد بدأت
تُشعر بالملل من عبثه بصدرها، لكن ذلك ليس بالشئ
الذي يرغب في سماعه، وهكذا قالت: «آرون ذو الشعر
الزّطب دعا إلى انتخاب ملك. هل ستأتي وتحدث نيابة
عني؟».

- «سأذهب إلى أي مكان معك، لكن... اللورد بلاكتايد يقول إن انتخاب الملك هذا حماقة خطيرة، ويظن أن عمك سيهاجمهم ويقتلهم جميعًا كما فعل أورو». -

إنه مجنون بما يكفي لأن يفعلها. «إنه لا يملك القوة».

- «لكنك تجهلين قوته. إنه يجمع الرجال في (بايك).

أوركوود سيّد (أوركمونت) جلب له عشرين سفينة طويلة، وچون ماير ذو الوجه المسحوب دستة. لوكاس كود الأعسر معهم، وهارن النصف هور، والملاح الأحمر، وكيميت بايك الثعل، ورودريك المولود خزا، وتورولد ذو السن البنية...».

قالت آشا التي تعرفهم جميعًا: «رجال ضئيلو الشأن، أبناء الزوجات الملحيات وأحفاد الأقنان. آل كود... هل تعرف كلماتهم؟».

أجاب تريس: «مع أن كل الناس يحتقروننا... لكن إذا أوقعوك في شباكهم فستموتين كما لو أنهم من سادة الثنائين. وثقة ما هو أسوأ. عين الغراب جلب معه وحوشًا من الشرق... نعم، وسحرة أيضًا».

- «لطالما كان عمي مولغا بالمسوخ والحمقى. كثيرًا ما تشاجر أبي معه في هذا الصدد. دَع السحرة يبتهلون لآلهتهم وسيبتهل ذو الشعر الزطب لإلهنا ويغرقهم. هل سأحظى بصوتك في انتخاب الملكة يا تريس؟».

- «ستحظين بي كلي. إنني رجلك إلى الأبد. أريد أن أتزوجك يا آشا. لقد وافقت السيّدة والدتك بالفعل».

كُتِمَتْ آهَةٌ اسْتِنكَارٍ مَفْكَرَةٌ: كَانَ يُمَكِّنُكَ أَنْ تَسْأَلَنِي
أَوَّلًا... مَعَ أَنْ الْجَوَابَ لَمْ يَكُنْ لِيَرْوِقَكَ.

وَاصِلٌ هُوَ: «لَمْ أَعِدْ ابْنًا ثَانِيًا. إِنْنِي اللُّوردُ بَوْتْلِي
الشَّرْعِي كَمَا قَلْتِ بِنَفْسِكَ، وَأَنْتِ...».

- «مَا سَأَكُونُهُ أَنَا سَيَتَحَدَّدُ فِي (وَيْكَ الْقَدِيمَةِ). تَرِيسُ،
إِنَّنَا لَمْ نَعُدْ طِفْلَيْنِ يَلْعَبَانِ وَيُحَاوِلَانِ أَنْ يَرِيَا مَاذَا يَوْضَعُ
أَيْنَ. إِنَّكَ تَحْسَبُ أَنَّكَ تُرِيدُ أَنْ تَتَزَوَّجَنِي، لَكِنَّكَ لَا تُرِيدُ
حَقًّا».

- «لَكِنِّي أَرِيدُ. إِنْنِي لَا أَحْلُمُ بِسِوَاكِ. آشَا، أَقْسَمُ بِعِظَامِ
نَاجَا أَنَّنِي لَمْ أَلْمَسْ امْرَأَةً أُخْرَى».

- «أَذْهَبُ وَالْمَسَ وَاحِدَةً إِذْن... أَوْ اثْنَتَيْنِ، أَوْ عَشْرًا.
عَنْ نَفْسِي لَمَسْتُ رِجَالًا أَكْثَرَ مِمَّا أُسْتَطِيعُ أَنْ أَحْصِي،
بَعْضُهُمْ بِشَفَتَيَّ وَالْمَزِيدُ بِفَاسِي». فِي سَنِّ السَّادِسَةِ
عَشْرَةَ سَلَّمْتُ آشَا بِتَوَلَّتْهَا لِبَحَارٍ أَشْقَرٍ جَمِيلٍ الظَّلْعَةِ عَلَى
سَفِينَةٍ تِجَارِيَّةٍ مِنْ (لِيس). لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ إِلَّا كَلِمَاتٍ سِتًّا
مِنْ اللُّغَةِ الْعَامِيَّةِ، لَكِنْ «مُضَاجَعَةٌ» كَانَتْ وَاحِدَةً مِنْهَا،
الْكَلِمَةُ الَّتِي أَمَلْتُ أَنْ تَسْمَعَهَا تَحْدِيدًا. بَعْدَهَا تَصَرَّفَتْ
بِعَقْلِ وَذَهَبَتْ إِلَى سَاحِرَةٍ غَابِيَةِ أَرْتَهَا كَيْفَ تَعُدُّ شَايَ الْقَمَرِ
كِي لَا يَنْتَفِخَ بَطْنُهَا.

حَمَلَقَ بَوْتْلِي إِلَيْهَا كَأَنَّهُ لَمْ يَسْتَوْعِبْ مَا قَالَتْهُ، وَقَالَ:
«أَنْتِ... خَلَّتْكَ سِتْنَتَانِ. لِمَاذَا...»، وَفَرَّكَ فَمَهُ سَائِلًا:
«آشَا، هَلْ كُنْتِ مَرْغَمَةً؟».

- «كنت مرغمة لدرجة أنني مزقت شترته. لست تريد أن تزوجني، يُق بكلمتي. أنت صبي طيب ولطالما كنت كذلك، لكني لست بنثا طيبة. إذا تزوجنا فسرعان ما ستكرهني».

- «مستحيل. لقد ألقني الاشتياق إليك يا آشا».

قررت أنها سمعت ما فيه الكفاية. أم مريضة وأب قتيل ووبال من الأعمام، كل هذا يكفي أي امرأة ويزيد، وليست في حاجة إلى جرو أضناه الغرام أيضًا. هكذا قالت: «اذهب إلى ماخور يا تريس وسيعالجك هناك من هذا الألم».

هز تريسيفر رأسه نفيا قائلاً: «لا يمكنني أبدا أن... أنا وأنت قدرنا أن نكون معا يا آشا. لقد علمت دوما أنك ستصيرين زوجتي وأم أبنائي»، وأطبق بيده على عضدها.

وفي غمضة عين كان خنجرها على خلقه وكلماتها في أذنيه: «ارفع يدك وإلا لن تعيش لثنجب أي أبناء، الآن»، ولما فعل خفضت السلاح قائلة: «تريد امرأة، لا بأس، سأضع واحدة في فراشك الليلة. تظاهر بأنها أنا إذا كان هذا سيسرك، لكن إياك أن تتجراً وتضع يدك علي ثانية. إنني ملكتك لا زوجتك، تذكر هذا»، وأغمدت آشا خنجرها وتركته واقفاً هناك بقطرة كبيرة من الدّم تسيل على عنقه، سوداء في نور القمر الشاحب.

قالت چوسلين سويقت وهي تعقد أربطة فُستان الملكة: «أوه، أرجو ألا تجعل الآلهة المطر يسقط على زفاف الملك».

- «لا أحد يريد المطر». عن نفسها تريد سرسي ثلوجًا وجليدًا، ريحًا تعوي ورعدًا يربح أحجار (القلعة الحمراء) ذاتها، تريد عاصفة تُضاهي الثورة في داخلها. قالت لچوسلين: «أكثر، أحكمي شدّ الأربطة أكثر أيتها البلاء المتملّقة».

الرّفاف مصدر غضبها الحقيقي، وإن كانت ابنة سويقت بطينة البديهة تُشكّل هدفًا أكثر أمنا تصبّ عليه هذا الغضب. قبضة تومن على العرش الحديدي ليست مُحكمة بما يكفي لأن تُقدم على إهانة (هايجاردن)، ليس وستانيس باراثيون لم يزل مسيطرًا على (دراجونستون) و(ستورمز إند)، و(ريقرزن) مستمرة في تحذّيها، والحديديون يجوبون البحار كالذئاب. هكذا على چوسلين أن تأكل الوجبة التي كانت سرسي تؤثر أن تُقدّمها لمارجري تايرل وجذّتها المتغضّنة المقيّنة.

من أجل إفطارها أرسلت الملكة إلى المطابخ تطلب بيضتين مسلوقتين ورغيفًا من الخبز ووعاء من العسل، لكن حين قشّرت أول بيضة ووجدت في داخلها كتكوًا داميًا نصف مكتمل التكوين انقلبت معدتها، وقالت لسينل: «خذي هذا وأحضري لي نبيذًا متبلاً ساخناً». كان البرد في الهواء ينخر عظامها، وما زال أمامها يوم طويل كربه.

كما أن چايمي لم يُساعد على تحسين مزاجها عندما جاء مرتديًا الأبيض دون أن يحلق لحيته، ليحدثها عن التدابير التي اتخذها للحيلولة دون تسميم ابنها، فقال: «سأضع رجالًا في المطبخ يُراقبون بينما يعدّ كل صنف، وسيصحب رجال السير أدام الخدم وهم يحملون الطعام إلى الموائد ليتأكدوا من عدم التلّغّب به في الطريق، والسير بوروس سيتذوّق كل صنف قبل أن يضع تومن لقمةً في فمه. وإذا لم ينجح شيء من هذا سيكون المايستر بالابار جالسًا في نهاية القاعة ومعه عقاقير مطهرة وترياقات لعشرين نوعًا معروفًا من السموم. أعدك بأن تومن سيكون آمنًا».

- «آمنًا». كان للكلمة مذاق مُرّ على لسانها. چايمي لا يفهم، لا أحد يفهم. وحدها ميلارا كانت موجودة في الخيمة لتسمع العجوز الشَّمطاء تُلقي تهديداتها بنبرة كالثَّعيق، وميلارا مائت منذ زمن طويل. «تيريون لن يَقْتُل بالوسيلة نفسها مرّتين، إنه أمكر من أن يفعل ذلك. ربما يكون تحت الأرضيّة الآن تحديدًا، يتنصّت على كلّ كلمة يقولها ويَحْطُط لذبح تومن».

قال چايمي: «لنفترض جدًّا أن هذا صحيح. أيّا كانت الخُطط التي يضعها سيظلّ صغيرًا قصيرًا، وتومن سيكون محاطًا بخيرة فُرسان (وستروس). رجال الحرس الملكي سيحمونه».

نظرت سرسي إلى حيث طوي كُثم سِترة أخيها الحرير البيضاء وثبّت بدبّويس فوق جدعته، وردّت: «أذكر كم أحسن فُرسانك المغاوير هؤلاء حماية جوفري. أريدك أن تبقى مع تومن طوال الليل، مفهوم؟».

- «سأضع حارسًا أمام بابه».

أطبقت على ذراعه قائلة: «لا حُرّاس، أنت، وداخل غرفة نومه».

- «في حال خروج تيريون من المستوقد؟ لن يحدث».

- «هذا ما تقوله أنت. هل ستخبرني بأنك عثرت على جميع الأنفاق الخفيّة وراء هذه الجدران؟». كلاهما يعلم أن ذلك مستبعد. «لن أسمح لمارچري بالانفراد بتومن ولو لجزء من لحظة».

- «لن يكونا وحدهما، بنات عمومتهما سيكون معهما».

- «وأنت أيضًا. آمرك بهذا باسم الملك».

لم تكن سرسي تريد أن ينام تومن وزوجته في فراش واحد على الإطلاق، إلا أن آل تايرل أصرّوا، وقالت ملكة الأشواك: «المفترض أن ينام الزوج والزوجة معًا حتى إذا لم يفعلوا ما هو أكثر من النوم. مؤكّد أن سرير جلالته يسع اثنين، أليس كذلك؟».

أيّدت الليدي آيري حماتها قائلة: «دعي الطفلين يستدفئ كلاهما بالآخر في الليل، سيجعلهما هذا أقرب. كثيرًا ما تشارك مارجري بنات عمومتهما فراشها، ويُغفّين ويلعبن ويتهاقسن الأسرار بعدما تنطفئ الشموع».

ردّت سرسي: «يا للبهجة. يُمكنهن الاستمرار في هذا بالطّبع... في (قفص العذراوات)».

قالت الليدي أولينا لليدي آيري: «أنا واثقة بأن جلالتهما تعرف الأصلح. إنها أم الضّبي في النهاية، ونحن من هذا متأكّدون. لا بُدّ أننا نستطيع الاتفاق على ليلة الزّفاف على الأقل، أليس كذلك؟ لا ينبغي أن ينام العريس وعروسه منفصلين ليلة زفافهما. فال سيئ لزوجهما أن يفعلوا».

تعهدت الملكة في نفسها: يومًا ما سأعلّمكِ معنى الفأل السيئ، لكنها وجّدت نفسها مرغمة على أن تقول: «يُمكن لمارجري أن تنام في غرفة تومن تلك الليلة فقط، لكن ليس أكثر من ذلك».

رَدَّت ملكة الأشواك: «جلالتك شديدة الكرم»، وتبادل
الجميع الابتسامات.

كانت أصابع سرسي مغروسة في ذراع جايمي بقوة
كفيلة بترك كدمات وهي تُواصل: «أريدُ عَينين داخل
تلك الغرفة».

- «لرؤية ماذا؟ خطر الجِماع ليس وارداً لأن تومن
صغير للغاية».

- «وأوسيفر يلوم كان ميثًا للغاية، لكن هذا لم يمنعه
من إنجاب طفل!».

لاحت الحيرة على أخيها إذ قال: «مَن أوسيفر يلوم؟
هل كان أبا اللورد فيليب أم... مَن؟».

يكاد يكون جاهلاً كروبرت. عقله كله كان في يد
السيف. «انسَ يلوم. تذكر فقط ما قلته لك. أقسم لي
أنك ستبقى إلى جانب تومن حتى تُشرق الشمس».

قال بلهجة تُوحى بأنه يرى مخاوفها بلا مبرر: «كما
تأمرين. أما زلتِ تنتوين المضي في إحراق (بُرج
اليد)؟».

- «بعد المأدبة». إنه الجزء الوحيد من احتفالات
اليوم الذي تعتقد سرسي أنها ستستمتع به. «السيد
والدنا قُتل في هذا البُرج ولا أطيعُ النَّظر إليه. إذا
شاءت الآلهة ستدفع النار بعض الجردان إلى الخروج
من الأنقاض».

دَوَّر جايمي عينيه قائلاً بملل: «تعين تيريون».

- «هو واللورد قارس وذلك السَّجَّان».

- «لو كان أيهم مختبئًا في البرج لوجدناه. لقد كلّفت جيشًا صغيرًا بالتّقيب فيه بالمعاول والمطارق، وهدمنا جدرانًا وحطّمنا أرضياتٍ واكتشفنا عشرات الممرّات السريّة».

- «وربما تكون هناك عشرات الممرّات الأخرى». بعض الأنفاق السريّة وجدوه صغيرًا للغاية، حتى إنّ چايمي لجأ إلى عددٍ من الخدم وصبيان الاسطبلات لاستكشافها، وأسفر البحث عن ممرٍّ إلى الزّنازين السّوداء وبئرٍ حجريّة تبدو بلا قرار، بالإضافة إلى خُجرة ملأى بالجماجم والعظام المصفّرة، وأربعة أجولة من الغمّلات الفضيّة المعيوية من عهد الملك قسیرس الأول، ناهيك بآلاف الجرّدان... لكن لا تيريون ولا قارس كانا بينها، وفي النّهاية أصرّ چايمي على وضع نهاية للبحث. أحد الضّبية انحسّر في ممرٍّ ضيق واضطّروا إلى سحبه من قدميه وهو يصرخ، وآخر سقط في بئر سلّم وكسر ساقه، واختفى حارسان بينما يستكشفان نفقًا جانبيًا. أقسم بعض الخُراس الآخرون أنّهم سمعوا صياحهما الخافت عبر الأحجار، لكن حين هدم رجال چايمي الجدار لم يجدوا على الجانب الآخر إلّا الثّربة والرّكام. «العفريت صغير أريب، وربما لا يزال مختبئًا بين الجدران. إذا كان كذلك فسُجّيره الثّار على الخروج».

- «حتى إذا كان تيريون ما زال مختبئًا في القلعة فلن يكون في (برج اليد). إنّنا لم نُبْقِ منه إلّا هيكله».

- «ليتنا نستطيع أن نفعل المثل ببقية هذه القلعة الكريهة. بعد الحرب أنوي أن أبني قصرًا جديدًا وراء النهر». لقد حلمت به ليلة أول من أمس، بصرح أبيض بديع تحيط به الغابات والبساتين ويغد فراسخ طويلة عن (كينجز لاندنج) بضوضائها وروائحها المقرفة. «هذه المدينة مجرور. مقابل نصف جروت(40) يمكنني أن أنقل البلاط إلى (لانسپورت) وأحكم البلاد من (كاسترلي روك)».

- «تلك حماقة أكبر من إحراق (برج اليد). ما دام تومن جالسًا على العرش الحديدي ستراه البلاد الملك الحقيقي، لكن خبثيه تحت (الصخرة) وسيصبح مجرد مُطالب آخر بالعرش لا فرق بينه وبين ستانيس». بحدة قالت الملكة: «أعي هذا. قلت إنني أريد أن أنقل البلاط إلى (لانسپورت) وليس إنني سأفعلها حقًا. هل كنت بطيء الفهم هكذا دومًا أم أن فقدانك يدك أصابك بالغباء؟».

تجاهل سؤالها قائلاً: «إذا انتشر اللهب بعيدًا عن نطاق البرج فربما ينتهي بك الأمر وقد أحرقت القلعة حقًا سواء أقصدت أم لم تقصدي. النار الشعواء(41) خداعة».

منذ أسبوعين ورابطة الخيميائيين تُصنع نازًا شعواء طازجة. «اللورد هالين أكّد لي أن اليايرومانسرات يستطيعون التحكم في النار. فلتز (كينجز لاندنج) كلها اللهب، سيكون درسا لأعدائنا».

- «الآن تتكلمين كأنك إيرس».

ردّت غاضبة: «احفظ لسانك أيها الفارس».

- «أنا أيضًا أحبّك يا أختي الجميلة».

يعد أن رحل سألت نفسها: كيف أحييت هذا المخلوق
الثّعلب يوفما؟ وهمس صوت آخر في داخلها مجيبًا: كان
توأملك، ظلّك، نصفك الآخر، فجاوبته: ربما فيما مضى،
لكنه لم يعد كذلك. لقد أصبح غريبًا عني.

مقارنة بزفاف چوفري كان زفاف الملك تومن صغيرًا
متواضعًا. لا أحد أراد احتفالًا باذخًا آخر، لا سيّما الملكة،
ولا أحد أراد أن يدفع تكلفته، لا سيّما آل تايرل، وهكذا
اتخذ الملك الصغير مارجري تايرل زوجة له في سبت
(القلعة الحمراء) الملكي، في حضور أقل من مئة ضيف
بدلًا من الآلاف الذين شهدوا قران أخيه بالمرأة نفسها.

بدّت العروس رائقة مرحة جميلة، والعريس لا يزال
طفوليّ الوجه ممتلئًا، وقد ردّد نذوره بصوت صبياني
مرتفع، واعدًا ابنة مايس تايرل المترملة مرّتين بحبه
وإخلاصه، فيما ارتدّت مارجري الفُستان ذاته الذي
ارتدّته يوم زفافها إلى چوفري، بتصميمه الرّقيق من
الحرير العاجي الشّفاف وشرائط الزّينة المايريّة واللّآلئ
الصّغيرة. أمّا سرسي نفسها فما زالت ترتدي الأسود
علامة على رثائها ابنها البكري القليل. ربما يحلو لأرملته
أن تضحك وتشرب وثرقص وتزيح ذكرى خوف بزومتها
من عقلها، لكن أمّه لن تنساه بهذه البساطة.

فكرت سرسي: ليس هذا سليقًا. لقد تعجلوا جدًا. عام، عامان، كان ذلك ليكفي. كان على (هايجاردن) أن تقنع بالخطبة فقط، وألقت نظرة وراءها إلى حيث يقف مايس تايرل بين زوجته وأمه، وقالت له: أنت الذي أجبرتني على مهزلة الزفاف هذه يا سيدي، ولن أنسى هذا في أي وقت قريب.

لما آن أوان تبادل المعطفين نزلت العروس على ركبتها بحركة رشيقة أنيقة، وكساها تومن بالذاهية الثقيلة المفضلة من قماش الذهب التي ألبس روبرت سرسي إياها يوم زفافهما، المعطف الذي خيظ وعل باراثيون على ظهره بحبات الجزع. أرادت سرسي أن ترتدي مارجري المعطف الحريري الأحمر الناعم الذي استخدمه جوفري، وشرحت لآل تايرل قائلة: «إنه المعطف الذي استخدمه السيد والدي حين تزوج السيدة والدتي»، لكن ملكة الأشواك عارضتها في هذا أيضًا، وقالت الحيزبون: «ذلك الشيء القديم؟ إنه يبدو لي مهترئًا بعض الشيء... وأجسرُ على أن أقول إنه... منحوس أيضًا. وألن يكون الوعل أليق بابن الملك روبرت الشرعي؟ في زماني كانت العروس ترتدي ألوان زوجها لا ألوان السيدة والدته».

بسبب ستانيس ورسالته القذرة ثقة شائعات كثيرة
للغاية بالفعل تحوم حول نسب تومن، فلم تجرؤ سرسي
على صبّ المزيد من الزيت على النار بأن تُصمّم على أن
يُليس ابنها عروسه معطف لانستر القرمزي، وهكذا
رضخت بقدر ما أمكنها من كياسة، وإن كان منظر كل
هذا الذهب والجُزَع يُفعمها بالشُخْط. كلّما أُعطينا آل
تايرل طألبونا بالمزيد.

لدى فروغهما من ترديد الثُذور خطا الملكة والملكة
إلى خارج الشِيت ليتلقيا الثّهاني، وقال لهما السير لايِل
كراكهول بصوت جهوري: «(وستروس) لها ملكتان الآن،
والصّغيرة جميلة كالكبيرة». كراكهول هذا فارس مأفون
يُذكّر سرسي كثيرًا بزوجها الزّاحل غير مأسوف عليه،
وقد أرادت أن تصفّعه لحظتها. حاول جايِلز روزي أن
يلثم يدها ولم ينجح إلّا في الشّعال على أصابعها،
ولثّقها اللورد ردواين على وجنتها ومايس تايرل على
كلتا الوجنتين، وقال لها المايستر الأكبر پايسل إنها لم
تفقد ابناً بل كسبت ابنةً، لكنها على الأقل لم تُبتَلْ
بأحضان الليدي تاندا الدّامعة، إذ لم تظهر أيّ من نساء
ستوكوورث، وهو ما أشعّر الملكة بالامتنان.

بين أواخر المهثّين كان كيغان لانستر، الذي قالت له
الملكة: «بلغني أنك ستتركنا لتحضر زفافاً آخر».

- «الحجر الصّلب أجلى الرّجال المكسورين من (قلعة
داري). عروس لانسل تنتظرنا هناك».

- «هل ستنضمّ إليك السيّدة زوجتك لحضور الزّفاف؟».

- «ما زالت أراضي النّهر محفوفة بالأخطار. ختالة قارجو هوت ظلّقاء، وبريك دونداريون يشنق أبناء فراي. أصحيخ أن ساندور كليجاين انضمّ إليه؟».

كيف عرف هذا؟ «هكذا يقول بعضهم. الثّقارير مرتبكة». كان الطّائر قد وصل ليلة البارحة من سيطري⁽⁴²⁾. على جزيرة عند مصب (الثّالوث) مباشرة، والأخبار أن بلدة (الملاحات) القريبة تعرّضت إلى غارة ضارية من جماعة من الخارجين عن القانون، ويدّعي بعض الثّاجين أن شخصًا وحشيًا يعتمر خوذة على شكل كلب صيد كان بين المفجرين، ويفترض أنه قتل دسّته من الرّجال واغتصب فتاة في الثّانية عشرة. «لا شك أن لانسل يتوق إلى القبض على كليجاين واللورد بريك ليسود سلام الملك أراضي النّهر من جديد».

حدّق السير كيفان إلى عينيها وهلة، ثم قال: «ابني ليس الرّجل المناسب للتعامل مع ساندور كليجاين». هذا على الأقلّ نثّق عليه. «قد يكون أبوه كذلك». ضغط عظمها فكّيه قائلاً: «ما دامت خدمتي ليست مطلوبة في (الضّخرة)....».

خدمتك كانت مطلوبة هنا. عيّنت سرسي داميون لانستر ابن خؤولتها أميئًا للقلعة في (كاسترلي روك)، وابن خالي آخر هو السير داقن لانستر حاكمًا للغرب. للعجرفة ثمنها يا عقاه. «اثبتنا برأس ساندور وأعلم أن جلالته سيكون في غاية الامتنان. ربما كان الرجل يروق جوف، لكنه لطالما أخاف تومن... ولسبب وجيه على ما يبدو».

قال السير كيقان: «عندما يُسيء الكلب التصرف فاللوم على سيّده»، ثم دار على عقبه وابتعد. رافقها چايمي إلى (القاعة الصغرى) حيث يجري تجهيز المأدبة، وبينما يمشيان همست له: «إنني ألومك أنت على كل هذا. قلت أن أدعهما يتزوّجان. المفترض أن تكون مارچري في جداد على جوفري لا أن تتزوّج أخاه، المفترض أن تكون غارقة في الأحزان مثلي. لا أصدّق أنها عذراء. رنلي كان له قضيب، أليس كذلك؟ لقد كان أخا روبرت، فمؤكّد أنه كان له قضيب. إذا كانت تلك الحيزبون العجوز المقرّزة تظنّ أنني سأسمح لابني ب...».

قاطعها چايمي بهدوء: «قريبًا جدًا ستتخلّصين من الليدي أولينا. إنها راحلة إلى (هايجاردن) غدا». قالت سرسي التي لا تثق بأيّ من وعود آل تايرل: «هكذا تقول».

رَدَّ بإصرار: «إنها راحلة. مايس سيأخذ نصف قوَّات تايرل إلى (ستورمز إند)، والنَّصف الثَّاني عائد إلى (المرعى) مع السير جارلان ليأخذ حقَّه في (قلعة المياه الوضَّاءة). بضع أيَّام أخرى ولن تتبقَّى في (كينجز لاندنج) ورود إلَّا مارچري ورفيقاتها وخُرَّاس قلائل». - «والسير لوراس، أم أنك نسيت أخاك المحلَّف؟».

- «السير لوراس فارس في الحرس الملكي».

- «السير لوراس ينتمي إلى آل تايرل لدرجة أنه يتبوَّل ماء ورد. لم يكن ينبغي أن يُعطى معطفاً أبيض». - «لم أكن لأختاره، هذا صحيح، لكن أحداً لم يستشرني. أظنُّ أن لوراس سيُبلي بلاءً حسناً. المعطف الأبيض يُغيِّر الرِّجل حالما يرتديه».

- «لقد غيَّرك بالتأكيد، وليس إلى الأفضل».

قال: «أنا أيضاً أحبُّك يا أختي الجميلة»، وفتح لها الباب وسارَ معها إلى المائدة العالية حيث مقعدها إلى جوار الملك، بينما ستجلس مارچري على جانب تومن الآخر في موضع الشُّرف. حين دخلت الملكة متأبطةً ذراع الملك الصَّغير تعمَّدت أن تتوقَّف لتلثم سرسي على وجنتيها وتُعانيقها، وبجراحةٍ برّاقة كالشُّحاس الأصفر المصقول قالت الفتاة: «جلالة الملكة، أشعرُ كأن لي أمًا ثانية الآن. أدعو الآلهة أن تكون قريبتين للغاية ويؤخِّد بيننا خُبنا لابنك الجميل».

- «لقد أحببتُ كلا ابني».

قالت مارچري: «چوفري في صلواتي أيضًا. لقد أحببته حُبًا جفًا مع أني لم أنل فرصة معرفته». كاذبة. لو أحببته ولو لحظة لما استعجلت الزواج بأخيه على هذا النحو المخزي. إنك لم تُريدي إلا تاجه. مقابل نصف جروت كانت سرسي لتصفع العروس على وجهها المتورّد في مكانها على المنصة على مرأى من نصف البلاط.

على غرار المراسم كانت مأدبة الزفاف متواضعة. الليدي آيري هي من قامت بالترتيبات كلّها، إذ لم تكن لدى سرسي أدنى رغبة في مواجهة تلك المهمة الجسيمة ثانية بعد الطريقة التي انتهى بها زفاف چوفري. لم يُقدّم أكثر من سبعة أصناف، وسلّى برميل الزبدة وفتى القمر الضيوف بين كلّ طبق وطبق، فيما عزف الموسيقيّون وهم يأكلون، فاستمعوا إلى المزمّار والكمّنجة والعود والثّاي والقيثارة الشّامية⁽⁴³⁾. المغني الوحيد في الحفل كان أحد المفضّلين عند الليدي مارچري، شاب متأنّق مختال كالطاووس ثيابه كلّها درجات من اللازورد ويدعو نفسه بالشّاعر الأزرق، وقد غنّى عددًا من أغاني الحبّ ثم انسحب، فقالت الليدي أولينا متبرّمة بصوت مسموع: «يا لها من خيبة أمل. كنّ أرجو أن أسمع (أمطار كاستامير)».

متى نظرت سرسي إلى الحيزبون رأت وجه ماجي
الصفدة سابحا في الهواء أمامها بتجاعيده وبشاعته
وحكمته. حاولت أن تظمن نفسها قائلة: كل العجائز
يتشابهن، هذا كل ما هنالك. والحقيقة أن المشعوذة ذات
الظهر المحني لم تكن تشبه ملكة الأشواك على الإطلاق،
ومع ذلك ظل منظر ابتسامة الليدي أولينا البغيضة كفيلا
بإعادتها إلى خيمة ماجي من جديد. ما زالت تذكر
رائحتها العابقة بالثوابل الشرقية الغربية، وطراوة لثة
ماجي إذ امتصت الدّم من إصبعها، وكيف وعدتها
العجوز والدّم لا يزال يُبَلّ شفثيها ويلتمع عليهما: ملكة
ستكونين، إلى أن تأتي أخرى أصغر منك وأجمل، لثطّيح
بك وتسلبك كل ما تعذّينه عزيزًا.

تجاوزت سرسي تومن ببصرها لثرقق مارجري
الجالسة تضحك مع أبيها، وقالت لنفسها: حسنها لا بأس
به، لكن معظمه شباب. حتى بنات الفلاحين يكن
حسناوات في سنّ معينة، وهن لا يزلن يافعات بريئات
عفيفات، وأكثرهن لهن نفس العيون البتية والشعر البتي
مثلها. لا أحد يدّعي أنها أجمل مني إلا وكان أحمق. غير
أن العالم مليء بالحمقى، وكذا بلاط ابنها.

لم يتحسّن مزاجها عندما نهض مايس تايرل ليبادر برفع الأنخاب، فرفع كأسًا ذهبيةً عاليًا وهو يتسم لابنته الحسناء، وبصوت مدوّ قال: «نخب الملك والملكة!»، وتعالى ثغاء الخرفان وهي تقرع الكؤوس وتزدد: «الملك والملكة! الملك والملكة!». لم تجد سرسي خيارًا إلا أن تشاركهم الشرب بينما تتمنى في أعماقها لو أن جميع الضيوف لهم وجه واحد كي تلقى نبيذها في أعينهم وتذكّرهم بأنها هي الملكة الحقيقية. الوحيد الذي بدا أنه يتذكّرها على الإطلاق من بين مداهني تايرل هو باكستر ردواين، إذ نهض يرفع نخبه وجسده يترنّج بعض الشيء، وصاح بمرح: «نخب ملكتنا! نخب الملكة الصغيرة والكبيرة!».

شربت سرسي عذّة كؤوس من التّبيذ وراحت تُحرّك طعامها في طبق ذهبي، أمّا جايمي فأكل أقلّ منها، ونادراً ما حاول احتلال مقعده على المنصة. أدركت الملكة أنه متوتّر مثلها تمامًا وهي تُشاهده يذرع القاعة جيئةً وذهابًا، يُزيح المعلّقات بيده السليمة ليتأكّد من أن لا أحد مختبئ خلفها. إنها تعلم أن رجال لانستر حاملو الجراب منتشرون حول المبنى، بينما يحرس السير أوزموند كِتلبلاك أحد البابين والسير مرين ترانت الثاني، وقد وقفّ بالون سوان وراء مقعد الملك ولوراس تايرل وراء مقعد الملكة، وتعلم كذلك أن الشيوف الوحيدة المسموح بها في المأدبة هي تلك التي يحملها رجال الحرس الملكي.

قالت لنفسها: ابني آمن. لا أذى يُمكن أن يمسّه، ليس هنا، ليس الآن، ورغم ذلك كلّما نظرت إلى تومن رأت جوفري يخمش خلقه، ولقّا بدأ الصّبي يسفل توقّف قلب الملكة عن الخفقان لحظة، وفي خضمّ استعجالها بلوغه أوقعت إحدى الخادِمات.

طمأنّتها مارجري تايرل قائلة: «لقد شرق بالقليل من النّبيذ لا أكثر»، والتقطت يد تومن وقبّلتها مضيئة: «على حبيبي الصّغير أن يأخذ رشقات أصغر. انظر، كدت تُخيف السيّدة والدتك حتى الموت». قال تومن بخجل: «آسف يا أمّي».

كان الموقف يفوق احتمال سرسي، وحين أحسّت بالذمّوع تترقّق في عينيها قالت لنفسها: لا يُمكنني أن أدعهم يرون دموعي، وتحركت مازّة بالسير مرين وخرجت إلى الزّواق الخلفي، وعندما باتت بمفردها تحت شمعة من الشّحم سمحت لنفسها بانتحاية راجفة، ثم أخرى. يُمكن للمرأة أن تبكي، ولكن ليس الملكة. قال صوت من ورائها: «جلالة الملكة، هل أتطلّع عليك؟».

صوت امرأة هو، منكّه بلكنات الشرق، وللحظة خشيت سرسي أن ماجي الضفدعة تكلّمها من القبر، لكن المرأة لم تكن إلّا زوجة ميريويدر، الجميلة داكنة العينين التي تزوّجها اللورد أورتون في منفاه وأخذها معه إلى دياره في (الطاولة الطويلة). سمعت سرسي نفسها تقول: «هواء (القاعة الضغرى) فاسد. الذخان أدمع عيني».

- «وعيني أيضًا يا جلالة الملكة». تُضاهي زوجة ميريويدر الملكة طولًا، لكنها سمراء بدلًا من بيضاء، شعرها أسود كريش الغدقان وبشرتها زيتونيّة وتصفرها بعقد كامل، وقد قدّمت للملكة منديلًا أزرق باهتًا من الحرير المؤطر بشرائط الزينة قائلّة: «إن لي ابناً أيضًا، وأعرف أنني سأبكي أنهازا يوم زفافه».

مسحت سرسي وجنتيها وقد أحنتها أن يرى أحد دموعها، وقالت بجمود: «أشكركِ».

قالت المرأة المايريّة: «جلالة الملكة، إنني...»، وخفّضت صوتها مكملّة: «ثقة شيء يجب أن تعرفيه. وصيفتك مرتشية، إنها تُخبر الليدي مارجري بكل شيء تفعلينه».

- «سينل؟». تلوّت ثورة مفاجئة في بطن سرسي. ألا يوجد من يُمكنها الثقة به؟ «أأنت متأكّدة؟».

- «مُري أحدهم بأن يتبعها. مارچري لا تلتقيها وجهًا لوجه أبدًا، لكن بنات عمومتهما هن غدفانها ويحملن إليها الرّسائل. أحيانًا إلينور، أحيانًا آلا، أحيانًا مِجا. كلهن قريبات من مارچري كأنهن أخواتها. إنهن يلتقينها في الشّيت ويتظاهرن بالصّلاة. ضعي أحد رجالك في الشّرفة غدًا وسيرى سينل تهمس لمِجا عند مذبح (العذراء)».

- «إذا كان هذا صحيحًا فلماذا تُخبريني؟ إنك واحدة من رفيقات مارچري، فلم تخونينها؟». لقد تعلّمت سرسي الارتياب وهي لا تزال تجلس على زُكبة أبيها. ربما يكون هذا فخًا، كذبة تُزرع الخلاف بين الأسد والوردة.

أجابَت المرأة ملقيةً شعرها الأسود إلى الوراء: «ربما تكون (الطاولة الطويلة) مقسمةً على الولاء لـ(هايجاردن)، لكنني من (مير)، وولائي لزوجي وابني، ولا أريدُ إلّا الأفضل لهما».

- «مفهوم». في الممرّ الضيق أفعم أنف الملكة عطر المرأة الأخرى، أريج كالمسك هو مزيج من رائحة الطحالب والثربة والأزهار البرّية، وتحتته شقت سرسي رائحة الطموح. قالت لنفسها وقد تذكّرت فجأة: لقد شهدت في محاكمة تيريون، رأت العفريت يضع الشمّ في كأس جوف ولم تخف أن تتكلّم. وعدّتها قائلة: «سأنظر في هذه المسألة، وإذا كان ما تقولينه صحيحًا فستنالين مكافأة». وإذا كنت تكذّبين عليّ فسأقطع لسانك وأصادر أراضي زوجك وذهبه أيضًا.

قالت الليدي ميريويدز: «جلالتك لطيفة، وجميلة أيضًا»، وابتسقت لتلوح أسنانها البيضاء بين شفّتيها الممتلئتين الذاكنتين.

حين عادت الملكة إلى (القاعة الضعوى) ألقت أخاها يمشي جيئةً وذهابًا بتوثر، وقال لها: «مجرد رشفة من الثّبيذ جعلته يشرق، لكنها أفزعّني أيضًا».

دمدقت في وجهه: «بطني مقلوب لدرجة أنني لا أستطيع الأكل، والثّبيذ مذاقه كالمرّة. هذا الزّفاف غلطة».

- «هذا الزّفاف ضروري. الضّبي في أمان».

قالت: «أحمق. لا أحد يعتمر تاجًا في أمان أبدًا»،
وجاست بنظرها في القاعة لترى مايس تايرل يضحك
وسط فُرساته، واللوردين ردواين وروان يتكلمان بصوت
خفيض، والسير كيقان جالسا بوجوم مع كأسه في نهاية
القاعة، بينما يهمس لانسل بشيء ما لأحد الشيتونات،
وتتحرك سينل بطول المائدة مألئة كؤوس بنات عمومة
العروس بنبيذ أحمر كالدم، في حين غاب المايستر
الأكبر پايسل في الثوم. فكّرت بكآبة: لا أحد بإمكانه
الاعتماد عليه، ولا حتى جايمي. عليّ أن أزيح كل هؤلاء
وأحيط الملك بأناسي.

لاحقًا، بعدما قُذمت الحلويات والمكشّرات والجُبنة
وزُفّعت، بدأت مارچري وتومن الرّقص، وقد بدؤا على
قدرٍ لا بأس به من الشّخف وهما يدوران. ابنة تايرل
تفوق زوجها الصّغير بقدمٍ ونصف طولًا، وتومن راقص
أخرق في أحسن أحواله، لا يملك أيّا من رشاقة جوفري
الثّقائيّة، وإن بذل قصارى جهده وبدا غافلًا عن الفُرجة
التي صنعها من نفسه... ولم تكذ العذراء مارچري تُفرّغ
منه حتى انقضّت عليه بنات عمومتها واحدةً تلو الأخرى
مصمّماتٍ على أن يرقّص صاحب الجلالة معهن أيضًا.
فكّرت سرّسي بامتعاّض وهي تُشاهد: سيجعلنه يتعثر
ويترنّح لَمّا يَفْرُغن منه. نصف البلاط سيتهكّم عليه من
وراء ظهره.

بينما أخذت كل من آلا وإلينور ومجا دورها مع تومن،
رقصت مارجري مرّة مع أبيها ثم مع أخيها فارس
الزهور، الذي ارتدى الحرير الأبيض وأوثق حول خصره
حزامًا من الورود الذهبية وثبت معطفه بدبوس على
شكل وردة من اليشب. فكّرت سرسي وهي تشاهدهما:
كأنهما توأمان. يكبر السير لوراس أخته بعام، لكن كليهما
له العينان البنيتان الواسعتان نفسيهما والشعر البني
الكثيف الذي ينسدل في خليقات طبيعية على أكتافهما،
وكذا البشرة الملساء التي لا تشوبها شائبة. قدر وافر من
البثور سيعلّمهما شيئًا من الثواضع. لوراس أطول قامّة
وله زغب بني ناعم خفيف على وجهه، ومارجري لها
جسد امرأة، لكن فيما عدا ذلك فإنهما متشابهان أكثر من
سرسي وجايمي، وهو ما أثار استياءها أيضًا.
قطع توأمها أفكارها بقوله: «هل تسمح صاحبة
الجلالة بتشريف فارسها الأبيض برقصة؟».
حدّجته بنظرة مهلكة قائلة: «وأتركك تتلقّسني عبثًا
بهذه الجدعة؟ لا. لكنني سأتركك تملأ كأسي، إذا كنت
تحسب أنك تقدر دون أن تسكّب الثّبيذ».
زد: «مُعاق مثلي؟ لا أظن»، وابتعد وعاد يدور في
أرجاء القاعة، وملأت هي الكأس بنفسها.

رفضت سرسي أن ترقص مع مايس تايرل ثم لانس،
فهم الآخرون التلميح ولم يطلب أحد آخر الرقص
معه. أصدقائنا الصديقون ولورداتنا المخلصون. إنها لا
تستطيع الثقة بالغريبيين منهم حتى، حملة راية أبيها
ورجاله المقسمين على الولاء، لا تستطيع إذا كان عمها
ذاته يتآمر مع أعدائها...

كانت مارجري ترقص مع ابنة عموماتها آلا، ومجا مع
السير تالاد الطويل، وابنة العمومة الأخرى إلينور تشرب
كأسا من النبيذ مع أوران ووترز، نغل (دريفتمارك)
الوسيم. ليست هذه أول مرة تلحظ الملكة ووترز،
الشاب النحيل ذي العينين الخضراوين الضاربتين إلى
الزمادي والشعر الطويل الذهبي المائل إلى الفضي. حين
رأته للمرة الأولى كادت تحسب لأقل من لحظة أن
ريجار تارجارين قد عاد من الزماد. قالت لنفسها: شعره
السبب. إنه ليس بنصف الوسامة التي كانها ريجار،
ووجهه ضيق للغاية وهناك ذلك الشق في نقه. على أن
آل فيلاريون ينحدرون من ذرية فاليريّة قديمة،
ولبعضهم الشعر المائل إلى الفضي الذي كان لملوك
الثنانين القدامى.

عادَ تومن إلى مقعده ليقضم من كعكة تفّاح، ونظرت
الملكة إلى مقعد عمّها لتجده شاغراً، وأخيراً وجدته في
زُكن يتكلّم باهتمام بالغ مع ابن مایس تايرل جارلان. عمّ
يتكلّمان؟ ربما يُلقّب أهل (المرعى) السير جارلان
بالهمام، لكنها لا تثق به أكثر من مارچري أو لوراس. إنها
لم تنس العملة القديمة التي اكتشفها كايبرن تحت وعاء
فضلات الشّجان. يد ذهبية من (هايجاردن)، ومارچري
تتجسّس على. عندما ظهرت سينل لتملأ كأسها قاومت
الملكة مضطرةً رغبتها الملحة في أن تقبض على رقبتها
وثخثقها، وقالت لها في سريرتها: لا تتظاهري بالتبسم
لي أيتها الحقيرة الخائنة. ستتوشلين مني الرّحمة قبل
أن أفرغ منك.

سمعت شقيقها چایمي يقول: «أظنّ أن صاحبة
الجلالة شربت نبيذاً بما يكفي الليلة». لا، كلّ ما في العالم من نبيذ لن يكفي لأن أتحمّل هذا
الرّفاف. نهضت بسرعة جعلتها ثوبك على الشقوق، لكن
چایمي أمسكها من ذراعها وثبّتها، فانتزعت الذراع منه
وصفقت لتتوقّف الموسيقى وتصفّت الأصوات، وبصوت
عالٍ قالت سرسي: «أيها الشّادة والسّيّدات، أرجو أن
تتفضّلوا وتخرّجوا معي لئشعل شمعة احتفالاً باتّحاد
(هايجاردن) و(كاسترلي روك) وبعصرٍ جديد من السّلام
والرّخاء لممالكنا الشّيع».

مظلمًا كثيبًا وقفَ (بُرج اليد)، تحتلُّ الفتحات الواسعة مكان أبوابه البلوط الثقيلة ومصاريع نوافذه، لكن حتى في خرابه وتجرده من زينته ظلَّ مرتفعًا فوق الساحة الخارجية، ومَرَّ ضيوف الرِّفاف في ظلِّه إذ خرجوا من (القاعة الصُّغرى). حين نظرت سرسي إلى أعلى رأت شُرَافات البُرج تنهش قمر الضيادين⁽⁴⁴⁾، وتساءلت كم يذا لكم ملك قطن في هذا المكان على مَرِّ القرون الثلاثة المنصرمة.

على بُعد مئة ياردة من البُرج أخذت نفسًا عميقًا لثوقف رأسها عن الدوران، وصاحت: «لورد هالايين، يمكنك أن تبدأ!».

قال هالايين اليايرومانسر: «هممممم»، ولوَّح بالمشعل الذي يحمله، فلَقَم الرُّماة على الأسوار أقواسهم وأطلقوا دسته من الشَّهام النَّارية عبر النُّوافذ المفتوحة.

وشبَّت النَّار في البُرج بصوتٍ كالضحج. خلال أقلَّ من لحظة دبَّت الحياة في داخله بالأحمر والأصفر والبرتقالي... والأخضر، أخضر داكن يُنذر بالويل، لون المِرَّة واليشب وبول اليايرومانسرات. يُسْقِيها الخيميائيون «المادَّة»، لكن العامَّة يُطلقون عليها «النَّار الشَّعواء»، وقد وُضِعَت خمسون جرَّة منها داخل (بُرج اليد)، بالإضافة إلى الحطب وبراميل القار والسَّواد الأعظم من مقتنيات قزيم اسمه تيريون لانستر.

شعرت الملكة بحرارة اللهب الأخضر. يقول
البايرومانسرات إن أشياء ثلاثة فحسب أشد حرارة من
مادّتهم: لهب الثنائين والنار في باطن الأرض وشمس
الضيف. شهقت بعض الليدييات عندما ظهر اللهب في
الثوافذ يلحق الجدران من الخارج كألسنة خضراء
طويلة، في حين هلّ آخرون ورفعوا الأنخاب.

قالت لنفسها: جميلة، جميلة كجوفري حين وضعوه
بين ذراعَي. لم يُشعرها رجل قطّ بذلك الاستمتاع الذي
أحسّت به عندما التقم حلمتها ليرضع.

حدّق تومن إلى الثيران بعينين متسعيتين، مفتونًا
بقدر ما هو خائف، إلى أن همست مارجري في أذنه
بشيء جعله يضحك، وبدأ بعض الفرسان يتراهنون على
الفترة التي سيستغرقها البرج قبل أن ينهار، بينما وقف
اللورد هالايين يُهمهم لنفسه ويتأرجح على كعبيه.

فكرت سرسي في جميع أيادي الملوك الذين عرفتهم
على مرّ السنين؛ أوين ميريويدز، وچون كوننجتون،
وكارلتون تشيلستد، وچون آرن، وإدارد ستارك، وشقيقها
تيريون... وفي أبيها اللورد تايوين لانستر، في أبيها على
وجه الخصوص. قالت لنفسها مستمتعة بالفكرة: كلهم
يحترقون الآن، موتى ويحترقون جميعًا ومعهم
مخططاتهم ومؤامراتهم وخياناتهم. لقد أتى زماني.
هذي قلعتي وهذي مملكتي.

أصدرَ (بُرج اليد) قعقةً مباغتهً دَوَّت بشدةٍ لدرجة أن
المحادثات جميعها توقفت دفعةً واحدة، وتشققت
الحجارة وتصدعت وهوى جزء من الشُرفة العليا وحطَّ
بارتطامِ صَمِّ الأذان وَرَجَّ الثَّلَّ مثيرًا سحابةً من الغبار
والدُخان، وإذ تدفَّق الهواء الطَّلَق من الثُّغرات الجديدة
في الحجر تأججت النار أكثر واندفعت إلى أعلى، لتثب
ألسنة اللهب الأخضر في السماء ويدور بعضها حول
بعض. نكص تومن، إلا أن مارچري أمسكت يده قائلةً:
«انظر، اللهب يرقص كما كنا نرقص يا حبيبي».
رَدَّ بصوت أفعمته الدهشة: «نعم. أمي، انظري، اللهب
يرقص».

- «أراه. لورد هالاين، كم ستبقى النار مشتعلة؟».

- «طوال الليل يا مولاتي».

قالت أولينا تايرل المستندة إلى عُكازها بين حارسيها
شمال ويمين: «شمعة جميلة بالفعل، مضيئة بما يكفي
لأن نخلد إلى النوم في أمان على ما أظن. العظام
العجوز تتعب، وهذان الصغيران شهدا إثارة تكفي هذه
الليلة. حان الوقت لأن يذهب الملك والملكة إلى
الفراش».

قالت سرسي: «نعم»، وأشارت إلى چايمي مردفةً:
«حضرة القائد، اصحب جلالته وملكته الصغيرة إلى
فراسهما إذا سمحت».

- «كما تأمرين. وأنت أيضًا؟».

- «لا داعي». تحش سرسي بحيويّة لا تحتاج معها إلى الثوم. النار الشّعواء تُظهِرها، تحرق غضبها وخوفها كلّها وتملاها بالعزيمة. «اللّهب جميل للغاية. أريد أن أشاهده فترة».

قال جايمي بترّد: «لا ينبغي أن تكوني وحدك».

- «لن أكون وحدي. السير أوزموند يُمكنه أن يبقى ويحميني، أخوك المحلّف».

قال كيتلبلاد: «إذا كان هذا يسرّ صاحبة الجلالة».

ردّت: «يسرّني»، وتأبّطت ذراعه، وجنبا إلى جنب شاهدَا الثيران تستعرّ.

(40) الجروت غملة كانت متداولةً قديماً في إنجلترا وأيرلندا وسكوتلندا، وثساوي أربعة بنسات. (المترجم).

(41) تُعرّف النار الشّعواء في عالم الواقع باسم نار الإغريق، وهي سائل حارق سريع الاشتعال تكثر استخدامه في المعارك البحرية قديماً، ولا أحد يعرف مكوناته على وجه الدقّة. (المترجم).

(42) إذا كان الشيت معادلاً للكنيسة في عالم الواقع، فالشيتري يعادل الدير. (المترجم).

(43) آلة موسيقىّة من خيال المؤلف. (المترجم).

(44) في عالم الواقع قمر الصّيادين هو أول قمر مكتمل يتلو قمر الحصاد في فترة الاعتدال الخريفي، وغالباً يطلع في شهر سبتمبر أو أكتوبر ويكون لونه بُرتقالياً لاقترابه الشّديد من الأفق. (المترجم).

الفارس الملوّث

اللَّيْلَةُ بارِدةٌ عَلَى غيرِ العَادَةِ، حَتَّى بِالنِّسْبَةِ إِلَى
الْخَرِيفِ، وَفِي الْأَزْقَى تَلْتَفُّ دَوَامَاتُ الرِّيحِ الْبَلِيلَةِ
السَّريْعَةِ مُحَرَّكَةً أَتْرَبَةَ النَّهَارِ. رِيحٌ شِمَالِيَّةٌ مُشْتَبِعَةٌ
بِالْبُرُودَةِ. رَفَعَ السَّيْرَ آرِيَسُ أَوَكْهَارَتِ قَلْنَسُوتَهُ لِيُخْفِيَ
وَجْهَهُ، فَلَيْسَ فِي صَالِحِهِ أَنْ يَتَعَرَّفَهُ أَحَدٌ. قَبْلَ أَسْبُوعَيْنِ
ذُبِخَ تَاجِرٌ فِي مَدِينَةِ الظِّلِّ، رَجُلٌ مَسَالِمٌ أَتَى (دُورِن)
لِأَجْلِ فَوَاكِهَها وَبَدَلًا مِنَ الثَّمُورِ وَجَدَ نَحْبَهُ، وَجَرِيرَتَهُ
الْوَحِيدَةَ أَنَّهُ كَانَ مِنْ (كِينْجَزْ لَانْدَنْج).

سيجدني الزّاع خصماً أشدّ بأساً. الحقيقة أنه يكاد
يَرْحُب باعتداءٍ عليه. تحرّكت يده تتحسّس بخفّة
مقبض السيف الطّويل شبه المتواري بين طيّات ملابسه
الكثّان التي يرتدى طبقتين منها، المعطف الخارجي
بخطوطه الفيروزيّة وصفوف الشّموس الذهبية،
والداخلي الأخف بلونه البرتقالي. الثّياب الدورنيّة
مريحة، إلّا أن أباه كان لينزعج أيّما انزعاج لو أنه عاش
ليرى ابنه يرتديها. إنه من أبناء (المرعى)، والدورنيّون
أعداؤه منذ عصور سحيقة كما تشهد المعلّقات في
(السّنديانة القديمة). ما على آريس إلّا أن يغلّق عينيه
ليراها؛ اللورد إدجيران السّخي جالساً بسموّ وقد تكوّمت
حول قدميه رؤوس مئة من الدورنيّين، وورقات الشّجر
الثّلاث -رمز عائلة أوكهارت- التي اخترقتها جراب
الدورنيّين في (ممر الأمير)، وآلستر ينفّخ في بوقه
الحربي لافظّاً آخر أنفاسه، والسير أوليقار الملقّب
بالسّنديانة الخضراء يرتدي أبيض على أبيض بينما
يحتضّر إلى جانب الثّنين الصّغير. (دورن) ليست مكاناً
ملائماً لأيّ من آل أوكهارت.

حتى قبل موت الأمير أوبرين أصاب الفارس التوثر
متى خرج من (صنسيير) ليمشي في أزقة مدينة الظل.
أيّما ذهب يشغّر بأعينهم المسلّطة عليه، أعين دورنيّة
سوداء صغيرة ترمقه بعداوة بيّنة، وفي كلّ زكن يبدّل
أصحاب الحوانيت قصارى جهدهم للاحتيال عليه، حتى
إنه يتساءل أحيانًا إن كان شقاة الحانات ييضقون في
مشروباته. في مرّة راحت مجموعة صبية يرتدون
الأسمال ترجمه بالحجارة، إلى أن سحب سيفه فولّوا
الأدبار. ثم جاء موت الأفعوان الأحمر ليُلهب الدورنيين
أكثر، مع أن الشوارع هدأت نوعًا منذ حبس الأمير
دوران أفاعي الزمال في بُرج، لكن لو ارتدى معطفه
الأبيض في مدينة الظل على الرغم من هذا فكأنه
يدعوهم للهجوم عليه. كان قد جلب ثلاثة معاطف
بيضاء معه؛ اثنين من الضوف أحدهما خفيف والثاني
ثقيل، وواحدًا من الحرير الناعم، والآن يحس كأنه عارٍ
دون واحدٍ يتدلّى من على كتفيه.

قال لنفسه: الغري أفضل من الموت. إنني ما زلت
حارشا ملكيًا، حتى من دون معطفى. لا بدّ أن تحترم
هذا، لا بدّ أن أجعلها تفهم. ما كان يجدر به قَطّ أن يتّرك
نفسه يتورّط، لكن المغني قال إن الخبّ قمين بإصابة
أيّ رجلٍ بالبلاهة.

غالبًا تبدو المدينة الواقعة في ظلّ (صنسيير) مهجورة في قيظ النّهار، الفترة التي لا يتحرّك فيها في الشّوارع المتربة إلّا الذّباب الطّنان، لكن حالما يأتي المساء تدبّ الحياة في تلك الشّوارع. سمع السير آريس موسيقى خافتة تتسرّب من الثّوافذ المزوّدة بفتحات تهوية وهو يمرّ أسفلها، وفي مكانٍ ما كانت الطّبول اليدويّة تُدقّ بإيقاع رقصة الجِراب السّريع جاعلةً لليل نبضًا. حيث تلتقي ثلاثة أزقة أسفل ثاني الأسوار الملتفة ناذته إحدى بنات الهوى من شرفة وليس على جسدها إلّا الجواهر والزّيوت، فألقى نظرة سريعة عليها ثم ثنى كتفيه وواصل طريقه متوغّلًا وسط أنياب الزّيح. نحن معشر الرّجال ضعاف. حتى أنبلنا تخونهم أجسادهم. فكّر في الملك بيلور المبارك الذي اعتاد الصّيام إلى حدّ الشّقوط مغشيًا عليه ليُرّوض الشّهوات التي أخزته. أعليه أن يحذو حذوه؟

رأى رجلًا قصيرًا واقفًا في مدخل مقنطر يشوي قطعًا
من لحم الثعابين على مستوقد ويقلّبها بملقط خشبي
بينما تنضج، وأدمغت رائحة صلصات الرجل النفاذة
عيئي الفارس، الذي سمع أن أفضل صلصات الثعابين
يحتوي على قطرة من الزعاف، بالإضافة إلى بذور
الخردل وفلفل الثنّانين. استهوى الطعام الدورني
الأميرة مارسلا بالسرعة نفسها التي استهواها بها أميرها
الدورني، وبين الحين والآخر يُجَرَّب السير آريس صنفًا
لإرضائها، فيسفع الطعام فمه ويجعله يشهق طالبًا الثبيذ،
ويحرقه خروجه من جسده أكثر من دخوله، لكن أميرته
الصغيرة تحبّه.

كان قد تركها في مسكنها منحنية فوق طاولة لعب في مواجهة الأمير تريستان، تُحرّك قطعًا منقّعة على خانات من اليشب والعقيق الأحمر واللازؤرد. كانت شفتا مارسلا الممتلئتان مفترقتين بعض الشيء، وقد ضيّقت عينيها تركيزًا. اللعبة اسمها السايقاس، ووصلت إلى (بلدة الأخشاب) على قاديس تجاري من (قولانتيس)، فنشرها الأيتام بطول ضفاف (الذم الأخضر)، ووقع البلاط الدورني في غرامها. أمّا السير آريس فيجدها مثيرةً للجنون، فثمة عشر قطع مختلفة، كلٌ منها لها خصائصها وقدراتها، والرُّقعة تتبدّل من مباراة إلى مباراة اعتمادًا على ترتيب اللاعبين لخاناتهم. راقّت اللعبة الأمير تريستان في الحال، وتعلّمتها مارسلا كي تلعب معه. إنها لم تُبلّغ الحادية عشرة بعد، وخطيبها في الثالثة عشرة، لكن على الرغم من هذا بدأت تغلبه أكثر فأكثر في الفترة الأخيرة، ولا يبدو أن تريستان يُمانع. لا يمكن أن يبدو هذان الطفلان أكثر اختلافًا؛ هو ببشرته الزّيتونيّة وشعره الأسود المقرود، وهي ببشرتها الشّاحبة كالحليب وخصلاتها الذهبية، الفاتح والغامق، كالملكة سرسي والملك روبرت. يتمنّى أن تجد مارسلا مسرّة أكثر في صبيّها الدورني مما وجدت أمّها في زوجها سيّد أراضي العواصف.

أشعره تركها بالقلق، مع أن المفترض أن تكون آمنة كفاية داخل القلعة. هناك بابان فقط يقودان إلى مسكن مارسلا في (برج الشمس)، وقد عيّن السير آريس رجلين على كلّ منهما، وكلّهم من حرس لانستر، رجال أتوا معهم من (كينجز لاندنج)، وإن كان لهم باع في المعارك، ثم إنهم أوفياء حتى الثخاع. ومع مارسلا وصيفاتها والسبيّة إجلانتين أيضًا، والأمير تريستان يرافقه حارسه الشخصي السير جاسكوين ابن (الدم الأخضر). قال لنفسه: لن يُزعجها أحد، وفي غضون أسبوعين سنكون قد رحلنا إلى الأمان.

هذا ما وعده به الأمير دوران. على الرغم من صدمة آريس لمراى منظر الأمير الدورني العاجز الهرم، فإنه لم يشك في كلمته، وقد قال له مارتل حين أدخلوه غرفته الشمسيّة: «أسف لأنني لم أستطع أن أراك حتى الآن أو ألتقي الأميرة مارسلا، لكنني واثق بأن ابنتي آريان احتقت بوجودك هنا في (دورن) أيها الفارس».

أجاب راجيا ألا تخونه خمرة الخجل: «نعم يا سمو الأمير».

- «أرضنا قاسية وفقيرة، لكنها لا تخلو من المحاسن. يُؤسفنا أنك لم تز من (دورن) أكثر من (صنسيير)، لكنني أخشى أن لا أنت ولا أميرتك ستكونان آمنين خارج هذه الأسوار. نحن الدورنيون قوم حارو الدماء، غضبتنا سريعة ومغفرتنا بطيئة. كان ليفرح قلبي أن أؤكد لك أن أفاعي الزمال وحدهن الراغبات في الحرب، لكنني لن أكذب عليك أيها الفارس. لقد سمعت رعاياي في الشوارع يطالبونني بأن أحشد جرابي، وأخشى أن يصف لورداتي مثفقون معهم».

وأتت الفارس الجراءة على أن يسأل: «وأنت يا سمو الأمير؟».

إذا كان السؤال الفج قد أساء إلى الأمير دوران فقد أخفى مشاعره جيدًا وهو يجيب: «منذ زمن طويل علّمتني أمي أن المجانين وحدهم يخوضون حروبًا لا يستطيعون الانتصار فيها، لكن سلامنا هذا هش... هش كأميرتك».

- «لا يؤذي بنتًا صغيرة إلا وحش».

قال الأمير: «أختي إليا كانت لها بنت صغيرة اسمها ريينس، وكانت أميرة أيضًا»، وتنهد متابعًا: «من يرغبون في طعن الأميرة مارسلا بالخناجر لا يكثون لها ضغينة ما، تمامًا كالسير آموري لورك عندما قتل ريينس، لو أنه قتلها حقًا. إنهم يسعون فقط إلى إرغامي على الحرب، فمن سيصدق إنكاري إذا قُتلت مارسلا وهي في (دورن) تحت حمايتي؟».

- «لا أحد سيمش مارسلا بسوء ما دمت حيًا».

رَدَّ دوران مارتل بابتسامة واهية: «تعهد نبيل، لكنك مجرّد رجل واحد أيها الفارس. لقد أملتُ أن يُهدئ حبس بنات أخي العنيدات الأمور، لكننا لم نُفلح إلّا في دفع الصّراصير إلى الاختباء في جحورها. كلّ ليلة أسمعها تنهّامس وتشحذ سكاكينها».

لحظتها أدرك أريس أنه خائف. /نظر، يده ترتجف.
أمير (دورن) مرعوب. خذله الكلام ولم يستطع أن يُعلّق.

قال الأمير دوران: «تقبّل اعتذاري أيها الفارس. إنني واهن وفي صحّة متدهورة، وأحيانًا... تُتعبني (صنسيير) بجلبتها وأتربتها وروائحها. إنني أنوي العودة إلى (الحدائق المائية) حالما تُتيح لي واجباتي، ووقتها سأخذ الأميرة مارسلا معي»، وقبل أن يعترض الفارس رفع الأمير يدا مفاصلها حمراء متورّمة، وواصل: «أنت أيضًا ستذهب، علاوة على سيّتها ووصيفاتها وخُرّاسها. أسوار (صنسيير) قويّة، لكن أسفلها تقع مدينة الظل، وحتى داخل القلعة يجيء المئات ويذهبون بصفة يوميّة. (الحدائق) ملاذي. لقد ابتناها الأمير مارون كهديّة لعروسه ابنة تارجارين احتفالًا بزواج (دورن) بالعرش الحديدي. الخريف فصل جميل هناك... التّهارات حارّة والليالي معتدلة البرودة، والنسيم المالح يهبّ من البحر، بالإضافة إلى التّوافير والمسابح، كما أن هناك أطفالًا آخرين، صبيّة وصبايا من أولاد عليّة القوم. سيكون لمارسلا أصدقاء من سيّتها تلعب معهم، لن تشعر بالوحدة».

- «كما تشاء». دقّت كلمات الأمير في رأسه. ستكون آمنّة هناك. لماذا إذن ألخّ عليه دوران مارتل ألا يكتّب لـ (كينجز لاندنج) بشأن انتقالها؟ الأكثر أمنًا لمارسلا ألا يعلم أحد مكانها. ووافقّه السير آريس، لكن أكان يملك خيارًا آخر؟ إنه فارس في الخرس الملكي، غير أنه رجل واحد فقط رغم ذلك، تمامًا كما قال الأمير.

انفتح الزُّقاق فجأةً على باحةٍ يُنيرها القمر. في رسالتها كتبت: بعد محلّ صانع الشموع، بؤابة وسلام خارجية قصيرة. دخل من البؤابة وصعد الدرجات البالية إلى بابٍ لا علامة عليه. هل عليّ أن أطرقه؟ بدلاً من هذا فتح الباب، ليجد نفسه في غرفةٍ واسعة معتمة ذات سقفٍ واطئ، مضاءة بشمعتين معظرتين تتذبذبان في تجويفين في الجدار الفخاري السّميك، وتحت خُفيه رأى بسطاً مايريّة منقوشةً، ومعلقةً على الحائط، وسريزاً.

نادى: «سيّدتى، أين أنت؟».

أجابّت: «هنا»، وخرجت من الظّل وراء الباب، على ساعدها الأيمن يلتفُّ ثعبان منمّق التمتع حراشفه الثحاسيّة والذهبيّة حين تحرّكت، وهو كلّ ما ترتدي.

كانت نيّته أن يقول لها: لا، لم آت إلا لأخبرك بأن عليّ
الزّحيل، لكن عندما رآها تتألق في ضوء الشّمعيتين بدأ
كأنه فقد القدرة على النطق وأحسّ بخلقه جافاً كالزّمال
الدورنيّة. صامئاً وقّف ينهل من مفاتن جسدها؛ من غور
خلقها، والنّهدين المستديرين الشّامخين بحلمتيهما
الذاكنتين الكبيرتين، والانحناءات النّاضرة في الخصر
والوركين... وإذا به بوسيلة ما يحتويها وبها تخلع ثيابه،
ولمّا بلغت سترته الثّحتيّة أمسكتها من الكتفين ومزّقت
الحرير حتى سرّته، لكن أريس كان قد تجاوز مرحلة
المبالاة بالفعل. بشرتها ملساء تحت أصابعه، دافئة
الملمس كالزّمل في شمس (دورن). رفع رأسها ووجد
شفتيها، وانفتح فمها تحت فمه وملأ نهداها كقّيه، وشعر
بحلمتيها تنتصبان إذ مشهما بإبهاميه. شعرها أسود غزير
رائحته كزهور الأوركيد، رائحة كالثّرية الخصبة جعلت
انتصابه يكاد يُوجّعه.

همست المرأة في أذنه: «المسني أيها الفارس»،
وزحقت يده على بطنها الصغير المستدير إلى البقعة
الخلوة المبتلة تحت أيكة الشعر الأسود، وتمتمت هي
حين ولجها بإصبعه: «نعم، هناك»، وتأوّهت وسحبته
إلى الفراش ودفعته عليه. «أكثر، أوه، أكثر، نعم، جميل،
فارسي، فارسي، فارسي الأبيض الجميل، نعم، أنت،
أنت، أريدك أنت». قاذته يداها إلى داخلها، ثم طوّقتا
ظهره مقرّبتين إياه أكثر، وهمست: «أعمق، نعم، أوه».
حين لقت ساقها حوله شعر بقوّتهما التي تُداني الفولاذ،
وخدشت أظفارها ظهره وهو يغوص فيها مرّة ومرّة
ومرّة، إلى أن صرخت وقوّست ظهرها تحته، وبينما
فعلت هذا وجدت أصابعها حلمتيه وقرصتهما إلى أن
أفرغ لذّته في داخلها. قال الفارس لنفسه: يُمكنني أن
أموت سعيدًا الآن، ولفترة قصيرة أحسّ بالسكينة.
ولم يفت.

رغبته كانت عميقة لا متناهية كالبحار، لكن مع مجيء الجزر ارتفعت صخور الذنب والخزي من الأعماق بحدّتها المعهودة. أحيانًا تُغطّيها الأمواج، لكنها باقية تحت الماء، قاسية، سوداء، زلقة. سأل نفسه: إنني فارس في الخرس الملكي. ما هذا الذي أفعله؟ تدحرج من فوقها ليتمدّد محدّقًا إلى السّقف الذي يمتدّ صدع كبير فيه من حائط إلى حائط. لم يلحظ هذا من قبل، مثلما لم يلحظ المشهد المرسوم على المعلّقة الذي يُصوّر نايميريا وشفنها العشرة آلاف. لم أكن أرى إلّاها. لو أن تثنّيًا أدخل رأسه من الثّافذة لما رأيث إلاّ ثدييها ووجهها وبسمتها.

غمغمت وهي تريح رأسها على عنقه: «هناك نبيذ»، ووضعت يدها على صدره سائلة: «أأنت عطشان؟». قال: «لا»، واعتدلّ جالسًا على حافة الفراش. الغرفة ساخنة، وعلى الرغم من هذا يرتجف.

- «إنك تنزف، خدشتك بقوة».

حين مشّت يده جفل كأن أصابعها مشتعلة نازًا، ونهض عاريًا وقال: «لا، كفى».

- «معي بلسم للخدوش».

لكن لا بلسم لعاري. «الخدوش لا شيء. سامحيني يا سيّدتي، يجب أن أذهب...».

- «بهذه السرعة؟». لها صوت مبحوح رخيم، وفم واسع مخلوق للهمس، وشفتان ممتلئتان يانعتان جاهزتان دوماً للقبلات، وينسدل شعرها الفاحم الكثيف على كتفيها العاريتين إلى قَمَتي نهديها العامرين متجعّداً في خَلِيقَاتٍ طَبِيعِيَّةٍ ناعمة، وحتى الشَّعر على جبل زهرتها ناعم مجعّد. «ابقْ معي اللَّيلة أيها الفارس. ما زالت عندي أشياء كثيرة أعلّمك إياها».

- «تعلّمتُ منك الكثير بالفعل».

- «بدوت مسروراً كفايةً بالذُّروس في حينها أيها الفارس. أنت واثق بأنك لست ذاهباً إلى فراشٍ آخر وامرأةٍ أخرى؟ قل لي مَنْ هي. سأقاتلها من أجلك بصدر عارٍ، سَكِينٍ في مواجهة سَكِينٍ»، وابتسمت مردفةً: «ما لم تكن من أفاعي الزّمال. إذا كانت كذلك فيمكننا أن نتقاسمك. إنني أحبُّ بنات عَمِّي كثيراً».

- «تعلمين أن لا امرأةٍ أخرى لي. هناك فقط...
الواجب».

استندت على مرفقها لترفع بصرها إليه فتَبْرُقَ عيناها السوداوان الواسعتان في ضوء الشَّمعتين، وقالت: «تلك الحقيرة المجدورة؟ إنني أعرفها؛ جافّة كالشراب بين السّاقين وثريق قُبلاتها دماءك. دَعِ الواجب ينام وحده هذه المرّة وابقْ معي اللَّيلة».

- «مكاني في القصر».

تنهّدت معقبةً: «مع أميرتك. ستثير غيرتي. أظن أنك تحبها أكثر مما تحبني. الفتاة صغيرة للغاية عليك. إنك في حاجة إلى امرأة لا فتاة صغيرة، لكن أستطيع أن ألعب دور البريئة إذا كان هذا يثيرك».

- «لا يجدر بك أن تقولي تلك الأشياء». تذكر أنها دورنيّة. في (المرعى) يقولون إن الطعام هو ما يجعل الدورنيّين حارّي المزاج ونساءهم ضاريات خليعات. الفلفل الحريّف والبهارات الغريبة تُحمي الدماء. لا تستطيع أن تمنع نفسها. «إنني أحبّ مارسلا كأنها ابنتي». لا يمكنه أن يُنجب ابنةً أو يتخذ لنفسه زوجةً، وبدلاً من هذا عنده معطف أبيض ناصع. «نحن ذاهبون إلى (الحدائق المائية)».

- «في النهاية، مع أن كلّ شيء يستغرق أربعة أضعاف الوقت المفترض مع أبي. إذا قال إنه ينوي أن يغادر غداً فالأكيد أنكم لن تتحرّكوا قبل أسبوعين كاملين. ستشعر بالوحدة في (الحدائق)، أو كذّ لك. وأين الفارس الباسل الشاب الذي قال إنه يتمنى أن يقضي بقيّة حياته بين ذراعي».

- «كنتُ ثملاً عندما قلتُ هذا».

- «لم تشرب إلّا ثلاثة أكواب من النبيذ المخفّف بالماء».

- «كنتُ ثملاً بك. لقد مرّت عشرة أعوام منذ... إنني لم ألمس امرأةً قبلك منذ ارتديت المعطف الأبيض. لم أعرف قطّ معنى الحب، لكني الآن... خائف».

- «وما الذي يُخيف فارسي الأبيض؟».

- «أخاف على شرفي وشرفك».

قالت: «يمكنني أن أعتنى بشرفي»، ومشت ثديها بإصبعها مدوّرة إياه ببطءٍ حول حلمتها، وأضافت: «وأن أعتنى بلدّتي أيضًا إذا لزم الأمر. إنني امرأة بالغة».

هي كذلك دون شك. رؤيتها هكذا على الفراش المحشو بالريش، تبتسم تلك الابتسامة الخبيثة وتعبث بثديها... أهنأك امرأة في العالم لها هاتان الحلمتان الكبيرتان وشرعة استجابتهما؟ بالكاد يستطيع النّظر إليهما دون أن يرغب في الإمساك بهما وأخذهما في فمه إلى أن تنتصبا وتبتلاً وتلتمعا...

أشاح بنظره. كانت ثيابه الدّاخليّة ملقاةً على الأرض، وانحنى الفارس يلتقطها.

قالت: «يداك ترتعشان. أظنّ أنهما تُكبّذان التّمليس عليّ. أينبغي أن تستعجل ارتداء ثيابك هكذا أيها الفارس؟ إنني أفضّلك كما أنت. في الفراش دون ملابس تكون في أصدق حالاتنا، رجلًا وامرأة، حبيين، جسدًا واحدًا، أقرب ما يُمكن لاثنيين أن يكونا. أوثر أن أكون لحقًا ودما على الحرير والجواهر، وأنت... أنت لست معطفك الأبيض أيها الفارس».

قال السير آريس: «لكني كذلك، أنا معطفي، وما بيننا لا بُدّ أن ينتهي، لأجل صالحك علاوةً على صالحِي. إذا افتضح أمرنا...».

- «سيعذّبك النّاس محظوظًا».

- «سيعذني الناس ناقصًا للعهد. ماذا لو ذهب أحدهم إلى أبوك وحكى له كيف لوُثث شرفك؟».

- «لأبي خصال سيئة كثيرة، لكن أحدًا لم يقل قَطُّ إنه أحمق. نغل (عطية الآلهة) قُض بَكَارتي حين كان كلانا في الزابغة عشرة. هل تعلم ما فعله أبي عندما سمع؟»، وضمت الأغطية في قبضتها وسحبته تحت ذقنها لثواري غريها، وتابعت: «لا شيء. أبي بارع للغاية في فعل اللا شيء، ويُسمي هذا تفكيرًا. اصدقني القول أيها الفارس، هل يُقلقك تلويث شرفي حقًا أم شرفك أنت؟».

رَدَّ وقد ألمه اتهامها: «كلاهما، ولذا يجب أن تكون هذه مرثنا الأخيرة».

- «هذا ما قلته من قبل».

قلته وعنيته أيضًا، لكني ضعيف، وإلا لما كنت هنا الآن. لا يمكنه أن يخبرها بهذا لأنها من النساء اللاتي يحتقرن الضعف كما يؤكّد له إحساسه. فيها من عقها أكثر من أبيها. التفت عنها ووجد سترة الحرير المخططة تحت كرسي، السترة التي مرّقتها حتى الشرة عندما أنزلتها على ذراعيه. قال متذمّرًا: «إنها تالفة. كيف ارتديها الآن؟».

- «بالعكس. لن يرى أحد المزق بمجرد أن ترتدي معطفك. ربما ترتقها لك أميرتك الصغيرة، أم أن عليّ أن أرسل واحدة جديدة إلى (الحدائق المائية)؟».

- «لا تُرسلني لي أي هدايا». لن يتسبب ذلك إلا في لفت الانتباه. نفّض الشترّة وارتماها بالعكس، وشعر بحريرها باردًا على جلده، وإن التصقّت بظهره حيث خدشته، لكنها ستكون كافية لإعادةّه إلى القصر على الأقل. «لا أريد إلا أن أنهي هذه ال... ال...».

- «أهذه شهامة أيها الفارس؟ إنك تؤلمني، وبدأت أظن أن كل كلامك عن الحبّ كان كذبًا».

ليس بمقدوري أن أكذب عليك أبدًا. قال السير آريس شاعرًا كأنها صفّته: «إن لم يكن من أجل الحبّ فلم تخلّيت عن شرفي بزمّته؟ حين أكون معك... أكاذ لا أقوى على التفكير. إنك كل ما حلمت به في حياتي، ولكن...».

- «الكلام هواء. إذا كنت تحبّني فلا تُتركّني».

- «لقد أقسمت...».

- «ألا تتزوّج أو تُنجب أطفالًا. طيب، لقد شربيت شاي القمر، وأنت تعلم أنني لا أستطيع أن أتزوّجك»، وابتسمت مردفةً: «وإن كان يُمكنني أن أقنع بأن أحتفظ بك خليلاً لي».

- «الآن تسخرين مني».

- «قليلاً ربما. أتحسب أنك الحارس الملكي الوحيد الذي أحبّ امرأة؟».

أَقْرَ مجيبًا: «لطالما وُجِدَ رجال كان أسهل عليهم أن يحلفوا الأيمان من أن يحفظوها». السير بوروس بلاونت ليس غريبًا على (شارع الحريين)، والسير پرستون جرينفيلد اعتاد أن يزور منزل تاجر أجواخ معيّن كلما غاب صاحبه، لكن آريس يرفض أن يخزي إخوته المحلفين بالحديث عن تلك الثقائن، وبدلاً من هذا قال: «السير تيرانس توين ضيَّط في الفراش مع عشيقه مليكه. أقسم إنه خب، لكنه كلّفه حياته وحياتها، وجلب انهيار عائلته وموت أنبل فارس عرفه العالم».

- «نعم، وماذا عن لوكامور الشهواني وزوجاته الثلاث وأطفاله الستة عشر؟ تلك الأغنية تضجكني دومًا».

- «الحقيقة ليست بهذه الطرافة. لم يكن يُسمّى لوكامور الشهواني وهو حي، بل كان اسمه لوكامور سترونج، وحياته كلها كانت كذبة. حين اكتشف خداعه خصاه إخوته المحلفون وأرسله الملك العجوز إلى (الجدار)، وترك أولئك الأطفال الستة عشر لدموعهم. لم يكن فارسًا حقيقيًا، تمامًا مثل تيرانس توين...».

أزاحت الأغطية جانبًا وأنزلت قدميها على الأرض قائلة: «والفارس التّئين؟ تقول إنه أنبل فارس عرفه العالم، ومع ذلك أخذ مليكته إلى الفراش وحبّلت منه».

رَدَّ شاعرًا بالإهانة: «لن أصدّق ذلك. حكاية خيانة الأمير إيمون والملكة نييرس ليست أكثر من حكاية، كذبة قالها أخوه عندما أراد أن يُزيح ابنه الشرعي محاباةً لنغله. إجون لم يُلقَّب بغير الجدير بلا داع»، ووجد حزام سيفه وربطه حول خصره، ورغم أنه يبدو غريب المنظر وهو يُحيط بالسترة الدورنية الحرير فقد ذكره ثقل السيف الطويل والخنجر المألوف بهويّته، فأعلن: «لن أجعل النَّاس يتذكّرونني باعتباري السير آريس غير الجدير، لن ألوث معطفي».

- «نعم، ذلك المعطف الأبيض الأنيق. إنك تنسى أن عمّي الكبير ارتدى معطفًا مماثلاً. لقد مات وأنا صغيرة، لكنني أذكره. كان طويلًا كالبرج، واعتاد أن يُدغدغني حتى تنقطع أنفاسي من الضحك».

- «لم أتشرف بمعرفة الأمير ليوين، لكن الجميع مثفقون على أنه كان فارسًا عظيمًا».

- «فارسًا عظيمًا له خلية. إنها عجوز الآن، لكن النَّاس يقولون إنها كانت ذات جمالي نادر في شبابها».

الأمير ليوين؟ تلك الحكاية لم يسمعها السير آريس، وقد صدمته حقًا. خيانة تيرانس توين وخداع لوكامور الشهواني مدوّنان في (الكتاب الأبيض)، لكن ليست هناك إشارة على الإطلاق لامرأة في صفحة ليوين مارتل.

واصلت: «اعتاد عفي أن يُرَدِّد دوماً أن السيف في يد
الرَّجل هو ما يُحَدِّد قيمته، وليس الذي بين ساقيه،
فأعفني من كلامك الورع هذا عن المعاطف الملوثة.
حبنا ليس ما لوَّث شرفك، بل الوحوش الذين خدمتهم
والحيوانات الذين دعوتهم بإخوتك».

طعنته كلماتها على مقربة شديدة من الجرح، فقال:
«روبرت لم يكن وحشاً».

- «لقد ارتقى عرشه على جثث الأطفال، وإن كنت
أعترف بأنه لم يكن كجوفري».

جوفري. كان فتى وسيماً، طويلاً وقوياً بالنسبة إلى
سنه، إلا أن هذا كل ما يمكن أن يُقال عنه من خير. ما
زال يُخجل السير آريس أن يتذكَّر المَرات التي ضرب
فيها ابنة ستارك المسكينة بأمر الضبي، وحين اختاره
تيريون للذهاب مع مارسلا إلى (دورن) أشعلَ شمعةً
لـ(الضارب) شكزاً. «جوفري مات، العفريت سقمه». لم
يكن يخال القزم قادراً على جريمة منكرة كهذه قَط.
«تومن الملك الآن، وتومن ليس كأخيه».

- «وليس كأخته».

ما تقوله صحيح. تو من رجل صغير طيب القلب يبذل أقصى جهده دائمًا، لكن آخر مرة رآه السير آريس كان الضبي يبكي على رصيف الميناء، في حين لم تذرف مارسلا ولو دمعَةً، مع أنها هي التي كانت مغادرة بيتها وأهلها لشبرم حلقًا بغذريتها. الحقيقة أن الأميرة أشجع من أخيها، وأذكى وأكثر ثقة بنفسها كذلك، وبديعتها أسرع ومجاملاتها أفضل تهذيبيًا، وما من شيء يرهبها أبدًا، حتى جوفري نفسه. النساء هن الأقوى حقًا. لحظتها لم يكن يُفكر في مارسلا وحدها، بل في أمها وأمه أيضًا، وفي ملكة الأشواك وأفاعي الزمال بنات الأفعوان الأحمر الحسنات المميتات... وفي الأميرة آريان مارتل، فيها تحديدًا. قال بصوت أجش: «لن أقول إنك مخطئة».

- «لن تقول؟ ولا يمكنك أن تقول! مارسلا تُصلح للحكم أكثر من...».

- «الابن يسبق الابنة».

- «لماذا؟! من الإله الذي فرض هذا؟ إنني وريثة أبي، فهل علي أن أتخلى عن حقوقي لأخوي؟».

- «إنك تلوين كلامي. لم أقل إطلاقًا... (دورن) تختلف. لم تكن لـ (الممالك السبع) ملكة حاکمة قَطُّ».

- «قسيس الأول انتوى أن تخلفه ابنته رينيرا، هل تُنكر هذا؟ لكن بينما يُحتضِر الملك قَرَر قائد حرسه الملكي أن يكون الأمر غير هذا».

السير كريستون كول. كريستون صانع الملوك وضع الأخ في مواجهة أخيه وجعل حرس الملك ينقسمون على أنفسهم، لتنشب الحرب الزهيدة التي يُسمّيها المغثون رقصة الثنائيين. بعضهم يزعم أنه تصرف بدافع الظموح، لأن الأمير إجون كان أسهل انقيادًا من أخته الأكبر العنيدة، في حين يتذرع له غيرهم بدوافع أكثر ثبلاً، ويحاولون أن يُبرهنوا على أنه كان يدافع عن التقاليد الأندالية القديمة، وثقة قلائل يقولون همّسا إن السير كريستون كان عشيق الأميرة رينيرا قبل أن يرتدي المعطف الأبيض وأراد أن ينتقم من المرأة التي نبذته. قال السير آريس: «صانع الملوك جلب أذى شنيعًا على البلاد ودفع الثمن غاليًا، ولكن...».

- «ولكن ربما أرسلتك الآلهة السبعة إلى هنا كي يعدل فارس أبيض ما مثله فارس أبيض آخر. إنك تعلم أن أبي ينوي أن يأخذ مارسلا معه حينما يعود إلى (الحدائق المائية)، أليس كذلك؟».

- «ليحميها مقن يريدون إيذاءها».

قالت: «لا، بل ليُبَعِدَها عن يريدون تتويجها. كان الأمير أوبرين الأفعوان ليضع التاج على رأسها بنفسه لو عاش، لكن أبي يفتقر إلى الشجاعة»، ونهضت متابعه: «تقول إنك تحب الفتاة كما لو أنك تحب ابنة من دمك، فهل تسمح بأن تُسلَب ابنتك حقوقها وتُسجن؟».

ردّ محتجًا بضعف: «(الحدائق المائية) ليست سجنًا».

- «لأن لا سجن فيه نوافير وأشجار تين، أهذا ما تعتقده؟ لكن بمجرّد أن تصل الفتاة فلن يُسَمَح لها أو لك بالمغادرة. هوتا سيحرص على ذلك. أنت لا تعرفه مثلي. إنه رهيب عندما يُسْتَمَار».

عقدَ السير آريس حاجبيه. لطالما أشعره القائد النورقوشي الضخم بوجهه التديب بانزعاج بالغ. يقولون إنه ينام وتلك الفأس إلى جواره. «ماذا تريدني أن أفعل؟».

- «ليس أكثر مما أقسمت عليه. احمِ مارسلا بحياتك، دافع عنها... وعن حقوقها. ضَع الثَّاج على رأسها».

- «لقد حلفتُ يمينًا!».

- «لجوفري لا تومن».

- «نعم، لكن تومن صبيّ طيّب القلب. سيكون ملكًا أفضل من جوفري».

- «ولكن ليس أفضل من مارسلا. إنها تحبّ الضبي أيضًا، وأعلم أنها لن تسمح بأن يحلّ به أذى. (ستورمز إند) له شرعًا بما أن اللورد رنلي لم يتزك وريثًا واللورد ستانيس خرم من أملاكه، وبعد فترة ستنتقل (كاسترلي روك) إليه أيضًا من خلال أمه. سيكون من أعظم اللوردات في البلاد... لكن الواجب أن تجلس مارسلا على العرش الحديدي».

- «القانون... لا أدري...».

قالت: «أنا أدري»، ووقفت أمامه لتسقط خصلات شعرها السوداء الطويلة حتى أسفل ظهرها، وواصلت: «إجون التئين أنشأ الخرس الملكي وأيمانه، لكن ما فعله ملك يستطيع آخر أن يعكسه، أو يغيّره. في السابق كان رجال الخرس الملكي يخدمون مدى الحياة، لكن جوفري صرف السير باريستان ليؤفر معطفاً لكلبه. سثريدك مارسلا أن تكون سعيداً، كما أنها مولعة بي أيضاً، وستعطينا الإذن في الزواج إذا طلبنا»، ووضعت آريان ذراعيها حوله وأراحت وجهها على صدره قبل أن رأسها أسفل ذقنه، وأضافت: «يمكنك أن تحظى بي وبمعطفك الأبيض في آن واحد إن كان هذا ما تريده».

إنها ثمّرقني إريّا. «تعرفين أنني أريده، لكن...».

قالت بصوتها المبحوح: «أنا أميرة دورنيّة، ولا يليق أن تجعلني أتوسّل».

اشتّم السير آريس العطر في شعرها وشعر بنبضات قلبها وهي تضغط جسدها إلى جسده الذي بدأ يستجيب لقربها منه، ولا شكّ لديه أنها تشغّر باستجابته أيضاً. حين وضع ذراعيه على كتفيها أدرك أنها ترتجف، فسألها: «آريان، أميرتي، ما الخطب يا حبيبتني؟».

- «أوجب أن أقولها أيها الفارس؟ إنني خائفة. تقول إنني حبيبتك، ومع ذلك ترفضني وأنا في أمش حاجتي إليك. أهي جريمة أن أرغب في فارس يحميني؟».

لم يسمعها تتكلّم بهذه الهشاشة من قبل قط، فقال: «لا، لكن عندك خرس أبيض يحمونك، فلم...».

للحظة بذت نبرتها أصغر من نبرة مارسلا وهي تقول:
«حرس أبي هم من أخشاهم، حرس أبي هم من جزوا
بنات عمي مكبلات بالسلاسل».
- «لم يكن مكبلات. سمعت أن كل شبل الراحة متاحة
لهن».

أطلقت ضحكة مريرة، وسألته: «هل رأيتهن؟ أتعلم
أنه منعني من رؤيتهن؟».

- «كن يتكلمن عن الخيانة، يحرضن على الحرب...».
- «لوريذا في السادسة ودوريا في الثامنة، فما
الحروب التي حرّضتا عليها؟ ورغم ذلك سجنهما أبي مع
أخواتهما. أنت رأيتيه. الخوف يجعل الأقوياء يفعلون
أشياء ما كانوا ليفعلوها في ظروف أخرى، وأبي لم يكن
قويًا قط. آريس يا قلبي، اسمعني لأجل الحب الذي
تقول إنك تكئه لي. إنني لم أكن مقدامة كبنت عمي قط
لأنني نبتة بذرة أضعف، لكن تايين وأنا قريبتان في
السن ومنذ طفولتنا ونحن كأختين. ليست هناك أسرار
بيننا. إذا كان يمكن أن تُسجن هي فالمثل ينطبق عليّ
للسبب ذاته... مارسلا».

- «لا يمكن لأبوك أن يفعل ذلك أبدًا».

- «أنت لا تعرف أبي. إنني أخيب أمله منذ خرجت
إلى هذا العالم دون قضيب. عدّة مرّات حاول تزويجي
بمسّئين سقطت أسنانهم، كل منهم أوضع من سابقه.
صحيح أنه لم يأمرني بالزواج بأيّهم، لكن العروض
وحدها تثبت كم يبخس قدري».

- «ومع ذلك أنت وريثته».

- «أنا وريثته حقاً؟».

- «لقد تركك تُحكّمين في (صنسيير) لَمَّا أَخَذَ نفسه إلى (الحدائق المائيّة)، أليس كذلك؟».

- «أحكم؟ لا، بل ترك السير مانفري ابن عمّه أميئًا للقلعة، وريكاسو العجوز الأعمى قهرمانًا، ووُكلاء أملاكه ليجمعوا الضرائب والجمارك لشخصيتها خازنته أليس ليديبرايت، ومفوضيه ليكونوا عسس مدينة الظل، وقضاته ليحكموا في القضايا، والمايستر مايلز ليتعامل مع الرسائل التي لا تتطلب عناية الأمير، وفوقهم جميعًا وضع الأفعوان الأحمر. تكليفي أنا كان المآدب والحفلات وضيافة الزائرين عوالي المقام. أوبرين اعتاد أن يزور (الحدائق المائيّة) مرّتين كلّ أسبوعين، أمّا أنا فاستدعاني أبي مرّتين في العام. إنني لست الوريث الذي أرادّه أبي، وقد جعلَ هذا واضحًا. قوانيننا تُقيّده، لكنني أعلم أنه يُؤثر أن يخلفه أخي».

ردّد السير آريس: «أخولك؟»، ووضع يده تحت ذقنها ليرفع رأسها وينظر في عينيها، وقال: «لا يُعقل أنك تعنين تريستان. إنه مجرّد صبي».

أجابته بنظرة لا تطرف من عينيها الجريئتين كنور الشمس: «ليس تريس، بل كوينتن. إنني أعرف الحقيقة منذ كنت في الرابعة عشرة، منذ اليوم الذي دخلت فيه غرفة أبي الشمسية لأعطيه قبلة المساء ولم أجده. لاحقًا سمعت أن أمي أرسلت تطلبه. كان قد ترك شمعةً مشتعلةً، وحين ذهب أطفئها وجدت إلى جوارها رسالةً غير مكتملة، رسالةً إلى أخي كوينتن الذي كان غائبًا في (يرونوود)، وكتب فيها أبي لكوينتن أن عليه أن يفعل كل ما يُعلمه عليه المايستر وقيم السلاح، لأنك ذات يوم ستجلس حيث أجلس وتُحكم (دورن) كلها، ويجب أن يكون الحاكم قوي العقل والجسد»، وسالت عبدة على خذ آريان الثاعم، وتابعت: «كلمات أبي المكتوبة بخط يده. لقد وسقت نفسها في ذاكرتي. ليلتها بكيث حتى غلبني النوم، وليالي كثيرةً بعدها».

لم يلتق السير آريس كوينتن مارتل بعد، فالضبي ربيب اللورد يرونوود منذ نعومة أظفاره، وخدمه كوصيف ثم كفراق، بل وحبذ أن يُقلده القروسية على الأفعوان الأحمر. فكّر: لو كنت أبا لأردت أن يخلفني ابني أيضًا، لكنه سمع الألم في صوتها ويعلم أنه سيفقدها إذا باح لها بما يُفكر فيه. هكذا قال: «ربما أسأت الفهم. لقد كنت طفلةً، وربما قال الأمير هذا ليُشجّع أخاك على الاجتهاد أكثر فحسب».

- «أتظن هذا؟ أخبرني إذن، أين كوينتن الآن؟».

أجاب السير آريس بحذر: «الأمير مع جيش اللورد يرونوود في (طريق العظام)». هذا ما أخبره به أمين قلعة (صنسير) الشيخ لدى وصوله إلى (دورن)، والمايستر ذو اللحية الملساء قال الكلام نفسه.

على أن آريان خالفته قائلة: «هذا ما يريد أبي أن نعتقده، لكن لي أصدقاء يُخبرونني بأشياء مختلفة. أخي عبر (البحر الضيق) في السر متنكرًا في هيئة تاجر تقليدي، فلم؟».

- «وما أدراني؟ قد يكون هناك مئة سبب».

- «أو سبب واحد. هل تدرك أن الجماعة الذهبية فسخت عقدها مع (مير)؟».

- «المرتزقة يفسخون العقود طوال الوقت».

- «ليس الجماعة الذهبية. كلمتنا من ذهب. هكذا يتباهون منذ أيام الفولاذ الأليم. (مير) على شفا الحرب مع (ليس) و(تايروش)، فلم يفسخون عقدًا يعدهم بالأجر الوافر والغنائم الجزيلة؟».

- «ربما عرضت عليهم (ليس) أو (تايروش) أجزاء أكبر».

قالت: «لا. أصدّق أن تفعل هذا أي جماعة خُزّة أخرى، فمعظمها يُبذل ولاءه ولو مقابل نصف جروت إضافي، لكن الجماعة الذهبية مختلفة. إنها أخوة من المنفيين وأبناء المنفيين يؤخذها حُلم الفولاذ الأليم، يريدون الوطن بقدر ما يريدون الذهب، واللورد يرونوود يعلم هذا مثلي تمامًا. لقد ركب أسلافه مع الفولاذ الأليم في ثلاث من ثورات بلاكفاير»، وأمسكت يد السير أريس وشبكت أصابعها في أصابعه مردفة: «هل رأيت رمز آل تولاند أولاد (ثُل الأشباح)؟».

فكر لحظة، ثم قال: «تئين يلتهم ذيله؟».

- «التئين هو الزّمن، بلا بداية أو نهاية، وهكذا تتكرّر الحوادث كلّها. أندرز يرونوود هو كريستون كول وقد وُلد ثانية. إنه يهمس في أذن أخي قائلًا إن الأجدد به هو أن يخلف أبي في الحُكم، إنه ليس من الصّواب أن يركع الرّجال للنساء... إن آريان على وجه الخصوص لا تُصلح حاكمة لكونها عنيدة لعوبًا»، وألقت آريان شعرها إلى الوراء بتحدّ مضيفة: «إذن فأميرتاك مشتركان في قضية واحدة أيها الفارس... ومشتركتان أيضًا في فارس يزعم أنه يحبّهما لكنه يأبى القتال في سبيلهما».

هوى السير آريس على زكبته قائلاً: «سأقاتل. مارسلا
الأكبر والأصلح للثَّاج. مَنْ سيدافع عن حقوقها إن لم
يكن حارسها الملكي؟ سيفي وحياتي وشرفي لها... ولك
يا بهجة القلب. أقسم أن لا رجل سيسرق حقك بالميلاد
ما دمت أملك قوّة تكفي لأن أرفع سيفي. أنا لك، فماذا
تسأليني؟».

انحنّت ثقُبل شفتيه، وقالت: «كلّ شيء، كلّ شيء يا
حبيبي، يا حبيبي الوحيد، يا حبيبي الجميل، وإلى الأبد.
لكن أولاً...».

- «سلي وهو لك».

- «... مارسلا».

بريان

الشور الحجري قديم متداعٍ، لكن منظره عبر الحقل جعل الشعيرات على مؤخرة عنقها تنتصب.

هنا اختبأ الزماعة وقتلوا المسكين كليوس فراي... لكنها بعد نصف ميل مرّت بسور آخر يُشبه الأول إلى حدّ كبير، فلم تُعد متأكّدة. الطريق المحقّر ينعطف ويلتوي، والأشجار البنيّة الجرداء تبدو مختلفة عن الخضراء التي تذكّرها. هل تجاوزت البقعة التي انتزع فيها السير چايمي سيف ابن عمّته من غمده؟ أين الغابة التي تقائلا فيها؟ والغدير الذي خاضا في مياهه وتقارع سيفاهما إلى أن لفّتا انتباه رجال رفقة الشجعان إليهما؟ - «سيّدتي، أيتها الفارس»، قال يودريك الذي يبدو أنه لا يعرف أبدًا بِم يدعوها. «غمّ تبحثين؟».

الأشباح. «سور مررث به مرّة، ليس شيئًا ذا بال». آنذاك كان السير چايمي لا يزال يملك كلتا يديه. لكم احتقرته باستهزائه وابتساماته. «الزم الهدوء يا يودريك. ربما ما زال هناك خارجون عن القانون في هذه الغابة». تطلّع الضّبي إلى الأشجار البنيّة العارية والأوراق المبتلة والطريق الموحد أمامهما، وقال: «معي سيف طويل، أستطيع أن أقاتل».

ليس ببراعة كافية. لا تشكّ بريان في شجاعة الضّبي، وإنما في تدريبه فحسب، فربما يكون مُرافقًا -اسقًا على الأقل- لكن الرّجال الذين رافقهم عادوا عليه بالضرر حقًا.

استخلصت بريان قصّة الصّبي منه على فترات متقطّعة وهما في الطّريق من (وادي الغسق). إنه ينتمي إلى فرع أدنى من عائلة يابن، ذرّيّة فقيرة يعود أصلها إلى أحد أبناء العائلة الأصغر، وقد أمضى أبوه حياته مُرافقًا لأبناء عمومته الأغنى، وأنجب يودريك من ابنة صانع شموع تزوّجها قبل أن يرحل ليموت في تمزّد جرايچوي، وبعدها تخلّت عنه أمّه لأحد أبناء العمومة هؤلاء وهو في الزّابعة من العُمر، لثلاجق مطرًا متجوّلًا وضع طفلًا آخر في بطنها. لا يذكّر يودريك شكلها. أقرب ما عرف في حياته إلى أب أو أمّ كان السير سدريك يابن، وإن بدا لبريان من روايته المتلعثمة أن الرّجل كان يُعامل يودريك كخادم أكثر من ابن. حين استدعت (كاسترلي روك) راياتها أخذّه الفارس معه ليعتني بحصانه ويُنظّف درعه، ثم قُتل السير سدريك في أراضي النّهر بينما يُحارب في جيش اللورد تايوين.

بعيدًا عن الدّيار ووحيدًا ومفلستًا، ألحق الصّبي نفسه
بخدمة فارس متجوّل بدين اسمه السير لوريمر الكرش،
كان جزءًا من فرقة اللورد ليفورد المكلفة بحماية قافلة
المؤن، وقد أحبّ السير لوريمر أن يزدّد أن الضّبية الذين
يحرّسون الأطعمة يأكلون أفضل من غيرهم دوماً، إلى
أن ضبطوه ومعه فخذ خنزير مملّحة سرّقها من مخازن
اللورد تايوين الخاصّة، فاخترّ تايوين لانستر أن يشنقه
كدريس للأصوص الآخرين. كان يودريك قد شاركه اللحم
ولربما شاركه المشنقة كذلك، لكن اسمه أنقذه وتولّى
السير كيثان لانستر مسؤوليّته، وبعد فترة أرسله يعمل
مرافقًا لتيريون ابن أخيه.

السير سدريك علّم يودريك أن يسوس الخيول
ويتفقد حدودها بحثًا عن الحجارة، والسير لوريمر علّمه
السّرقَة، لكن كليهما لم يدرّبه على المبارزة إلّا قليلًا، أمّا
العفريت فعلى الأقل أرسله إلى قيم سلاح (القلعة
الحمراء) حين ذهب إلى البلاط، إلّا أن السير أرون
سانتاجار كان بين القتلى خلال فِتنة الخُبز، وبهذا كانت
نهاية تدريب يودريك.

قَطَّعت بِريَان سِيفين خَشَبِيَّين من الغصون الشَّاقطة
كي تُقَيِّم مَهَارَات پودريك، وَسَرَّهَا أَن تُدْرِكَ أَن الصَّبِي
سريع اليد على الرغم من بُطء كلامه، لكنه على الرغم
من إقدامه وانتباهه ما زالَ نَاحِلًا ناقص الثَّغْذِيَّة، وليس
قويًا كفايَةً على الإِطْلَاق. إِذَا كَانَ قد نَجَا حَقًّا من معركة
(الْهُرَّ الْأَسْوَد) كَمَا يَدَّعِي، فَالْشَّبَابُ الْوَحِيدُ أَن أَحَدًا لَمْ
يَحْسَب أَن لِقَتْلَهُ قِيَمَةٌ. قَالَتْ لَهُ: «رَبِّمَا تَدْعُو نَفْسَكَ
بِالْمُرَافِقِ، لَكِنِّي رَأَيْتُ وَصْفَاءً فِي نِصْفِ سِنِّكَ يُمَكِّنُهُم أَن
يَضْرِبُوكَ حَتَّى تَسِيلَ دِمَاؤُكَ. إِذَا بَقِيتَ مَعِي سَتُخْلَدُ إِلَى
النُّومِ بِقُرُوحٍ عَلَى يَدِكَ وَكِدَمَاتٍ عَلَى ذِرَاعِكَ كُلِّ لَيْلَةٍ
تَقْرِيْبًا، وَسَيَكُونُ الْأَلَمُ فِي جِسْمِكَ الْمَتَخَشِّبِ بِالْعَاقِبَةِ حَتَّى
إِنَّكَ بِالْكَادِ سَتَنَامُ. لَسْتُ تُرِيدُ ذَلِكَ».

رَدَّ الصَّبِي بِإِصْرَارٍ: «بَلْ أُرِيدُهُ، أُرِيدُ ذَلِكَ، الْكِدَمَاتُ
وَالْقُرُوحُ. أَعْنِي أَنِّي لَا أُرِيدُهَا، لَكِنِّي أُرِيدُهَا أَيْتَهَا الْفَارِسُ،
يَا سَيِّدَتِي».

حتى الآن والضبي موفٍ بكلمته، وكذا بريان. لم يشتك يودريك البتة، وكلما ظهر قرح جديد على يد سيفه أحس بالحاجة إلى أن يريها إياه بفخر، ثم إنه يحسن العناية بحصانیهما أيضًا. قالت لنفسها مذكرة: إنه ليس مُرافقًا رغم ذلك، كما أني لست فارشا مهما ناداني بـ «أيتها الفارس». كانت لتصرفه لولا أن لا مكان يذهب إليه، وبالإضافة إلى هذا، ومع أن يودريك قال إنه يجهل أين ذهبت سائزا ستارك، فربما يعلم أكثر مما يظن، وربما يكفّن مفتاح مهمة بريان في ملاحظة عابرة شبه منسيّة.

قال يودريك مشيرًا: «أيتها الفارس، سيّدتي، هناك عربة أمامنا».

رأتها بريان، عربة خشبيّة يجزّها عادةً ثور، لها عجلتان وجوانب مرتفعة، لكن بدلًا من الثور يكدح رجل وامرأة على مقوديهما ويسحبانها وسط الحُفر في اتجاه (بركة العذاري). مُزارعان كما يدلّ منظرهما. قالت للضبي: «تحرك ببطء. قد يحسباننا من الخارجين عن القانون. تفوّه بما هو ضروري فقط وتكلّم بدمائة».

- «سأفعل أيها الفارس، سأكون دمئًا يا سيّدتي». يبدو الضبي أقرب إلى الشرور بفكرة أن يحسبه أحدهم خارجًا عن القانون.

راقبهما الفزارعان بحذر وهما يَخْبَتَان بحصانيهما
مقترين، لكن بمجرد أن أوضحت لبريان أنهما لا ينويان
إيذاءهما تركاها تركب إلى جوارهما، وبينما يشقون
طريقهم وسط الحقول المختنقة بالحشائش وبحيرات
الظمي اللين والأشجار المحروقة المسوذة قال لها
الرجل العجوز بوجه محتقن من مجهود جَرّ العربة:
«كان لدينا ثور لكن الذئاب سرقوه، وخطفوا ابنتنا أيضًا
وفعلوا بها ما فعلوه، لكنها عادت بعد المعركة في (وادي
الغسق)، أمّا الثور فلم يَعد. أعتقد أن الذئاب أكلوه».

لم تُصِف المرأة شيئًا إلى كلامه. إنها تصغره بنحو
عشرين عامًا، ومع أنها لم تقل شيئًا لبريان فقد تطلّعت
إليها بالطريقة نفسها التي كانت لتحجج بها عجلًا
برأسين. رأت عذراء (تارث) نظرات مشابهة من قبل،
ولئن عاملتها الليدي ستارك بعطف فإن معظم النساء
يُتسمن بالقسوة نفسها كالرجال. لا تدري من ثولمها
نظراتهن أكثر؛ الفتيات الحسنات بالسنتهن اللاذعة
كالذبابير وضحكاتهن الجافّة، أم الليديات ذوات الأعين
الباردة اللاتي يُوارين ازدراءهن تحت قناع من
الكياسة... ونسوة العوام أسوأ من كلا النوعين أحيانًا.
قالت: «(بركة العذاري) كانت خرابًا عندما رأيتها آخر
مرة، البوابة محطّمة ويُصف البلدة محترق».

- «أعادوا بناءها نوغًا. تارلي هذا رجل قاي، لكنه لورد أشجع من موتون. ما زال في الغابة خارجون عن القانون، لكن ليس بالأعداد نفسها كما من قبل. تارلي قبض على أسوأهم وضرب أعناقهم بسيفه الكبير إياه»، ودور الرجل رأسه وبصق، ثم أضاف: «ألم تريا خارجين عن القانون على الطريق؟».

- «إطلاقًا». ليس هذه المرة. كلما ابتعدا عن (وادي الغسق) خلا الطريق أكثر، والفسافرون الوحيدون الذين لمحاهم ذابوا في الغابة قبل أن يبلغاهم، باستثناء سيبتون ملتج كبير الجسد قابلاه يمشي جنوبًا مع نحو أربعين من الأتباع متقزحي الأقدام. الخانات التي مرّا بها كانت منهوبة مهجورة أو حوّلت إلى مخيمات مسلحة، والبارحة قابلا إحدى دوريات اللورد راندل الحافلة بحاملي الشّبابيّة والزّمح، وقد أحاط بهما الخيّالة فيما استجوب قائدهم بريان، لكنه تركهما يمضيان في سبيلهما في النهاية، وقال لها: «عليك بالاحتراس يا امرأة. ربما لا يكون الرجال الذين ثقابليتهم بعدنا أمناء كفتيتي. لقد عبر كلب الصيد (الثالوث) بمئة من المجرمين، ويُقال إنهم يفتصبون كلّ أنثى في طريقهم ويقطعون أثداءهن ويأخذونها غنائم».

أحسّت بريان أن واجبها أن تنقل التحذير إلى الفزارع وزوجته، وأوماً الرّجل برأسه بينما أخبرته، لكن حين فرغت بصق ثانية، وقال: «الكلاب والذئاب والأسود، فليأخذهم (الآخرون) جميعًا. لن يجرؤ هؤلاء المجرمون على الاقتراب من (بركة العذارى) ما دام اللورد تارلي الحاكم هناك».

تعرف بريان اللورد راندل تارلي منذ الفترة التي قضتها في جيش رنلي، ومع أنها لا تستطيع أن تجد في نفسها القدرة على أن تحبّ الرّجل، فلا يُمكنها أن تنسى الدّين الذي عليها له أيضًا. إذا شاءت الآلهة سنمّر من (بركة العذارى) قبل أن يعرف أنني هناك. قالت للفزارع: «البلدة ستزُد إلى اللورد موتون حالما ينتهي القتال. حضرة اللورد تلقى عفواً من الملك».

رَدّ الرّجل ضاحكًا: «عفواً؟ غم؟ جلوسه على مؤخرته في قلعته اللّعينة؟ لقد أرسل رجالًا إلى (ريقررن) للقتال لكنه لم يذهب بنفسه. الذئاب نهبوا البلدة، ثم الأسود، ثم المرتزقة، وظلّ حضرة اللورد وراء أسواره في أمان. ما كان أخوه ليختبئ هكذا إطلاقًا. السير مايلز كان شديد الجرأة إلى أن قتله روبرت هذا».

مزيد من الأشباح. «إنني أبحث عن أختي، بنت جميلة في الثالثة عشرة. ربما رأيته».

- «لم أرَ بناتًا جميلات أو قبيحات».

لا أحد رآها. لكن عليها أن تواصل السؤال.

تابع الرجل: «فتاة موتون بنت، حتى الإضجاع على الأقل. هذا البيض لزفافها إلى ابن تارلي. سيحتاج الظهارة إلى بيض للكعك».

- «صحيح». ابن اللورد تارلي، سيكون الصغير سيتزوج. حاولت أن تتذكر سيئه، وتظن أنه في الثامنة أو العاشرة. في السابعة خطبت بريان إلى صبي يكبرها بثلاث سنوات، ابن اللورد كارون الأصغر، وكان صبيًا خجولًا له شامة فوق شفته. مرة وحيدة التقيا، وتلك المرة كانت بمناسبة خطبتهما، وبعد عامين مات بنوبة البرد نفسها التي أتت على اللورد والليدي كارون وبناتهما. لو عاش لتزوجا في غضون عام من إزهارها، ولاختلفت حياتها كليّة. ما كانت لتصبح هنا الآن، ترتدي دروع الرجال وتحمل سيفًا وثلاجق طفلة امرأة ميتة، وإنما لكانت غالبًا في (الثغريدة)، تلف طفلتها هي بالقماط وترضع طفلًا آخر. ليست هذه بالفكرة الجديدة على بريان، ودائمًا ما تشعرها بشيء من الحزن، لكنها تبث فيها شيئًا من الراحة أيضًا.

كانت الشمس شبه مختبئة خلف مجموعة من الشحب حين خرجوا من بين الأشجار المتفخمة ليُبصروا (بركة العذارى) أمامهم، وقد لاحت مياه الخليج العميقة وراءها. رأت بريان على الفور أن بؤابة البلدة قد بُنيت من جديد، وعادَ زُماة الثَّشَابِيَّة يمشون فوق الأسوار الحجر الوردية. فوق مبنى البؤابة تُزفرف راية تومن الملكية، الوعل الأسود والأسد الذهبي المتواجهان على خلفيّة مقسومة إلى ذهبي وقرمزي، وعلى رايات أخرى يظهر صيَّاد تارلي، بينما لا ترتفع راية عائلة موتون ذات سمكة السلمون الحمراء إلّا على قلعته فوق ثُلّها.

عند الشبكة الحديدية وجدوا دسنة من الحرس المسلّحين بالقطارد⁽⁴⁵⁾، تشي شاراتهم بأنهم جنود في جيش اللورد تارلي، وإن لم يكن أحد منهم من رجاله. رأت قنطورين وصاعقة برقي وخنفسة زرقاء وسهماً أخضر، ولكن ليس صيَّاد (هورن هيل) طويل القدمين. على صدر رقيبهم طاووس بهت ذيله الزّاهي من الغرضة الشمس، ولما أوقف المزارعان عربتهما أطلق صفيّزاً، وقال: «ما هذا؟ بيض؟»، والتقط واحدةً وألقاها في الهواء وتلقّفها، وأضاف بابتسامة عريضة: «سنأخذه».

صاح العجوز بحدة: «بيضنا للورد موتون، لكعك الرُّفاف وما إلى ذلك».

قال الرّقيب: «اجعل دجاجاتك تبيض المزيد. إنني لم أكل بيضاً منذ نصف عام. هاك، كي لا تقل إنك لم تتلقَ ثَمناً»، وألقى حفنة من البنسات عند قدمي العجوز. نطقت الزّوجة للمرّة الأولى قائلة: «هذا لا يكفي، لا يكفي إطلاقاً».

ردّ الرّقيب: «أقول إنه كافٍ، مقابل البيض ومقابلك أيضاً. ائتوا بها يا أولاد، إنها صغيرة جدّاً على هذا العجوز».

أسند حارسان مطرديهما إلى الجدار وسحبا المرأة بعيداً عن العربة وهي تُقاوم، وشاهد المزارع بوجه مربد لكنه لم يجرؤ على الحركة، أمّا بريان فهمزت فُرسها متقدّمة، وقالت: «أطلقا سراحها».

جعلت نبرتها الحارسين يتردّدان لحظة تملّصت خلالها زوجة المزارع من قبضتيهما، وقال أحد الآخرين: «ليس هذا من شأنك. احفظي لسانك يا هذه». وبدلاً من هذا امتشقت بريان سيفها.

قال الرّقيب: «هكذا إذن، فولاذ مجرّد. يبدو أنني أستم رائحة خارجة عن القانون. أتعرفين ما يفعله اللورد تارلي بالخارجين عن القانون؟». كان لا يزال ممسكاً بالبيضة التي أخذها من العربة، وانطبقت يده عليها ونزّ الصفار من بين أصابعه.

قالت بريان: «أعرف ما يفعله اللورد تارلي بالخارجين عن القانون، وأعرف ما يفعله بالمغتصبين أيضاً».

كانت تأمل أن يرهبهم الاسم، لكن الرقيب اكتفى
بنفض البيض عن أصابعه وأشار لرجاله بالانتشار لتجد
پريان نفسها محاصرة بالزؤوس الفولاذ، وقال لها: «ماذا
كنت تقولين يا هذه؟ ماذا يفعل اللورد تارلي بال...».

- «... بالمغتصبين»، قال صوت أعمق متفًا العبارة.
«إنه يخصيهم أو يرسلهم إلى (الجدان)، وأحيانًا هذا ثم
ذاك. حضرته يقطع أصابع اللصوص أيضًا». خرج شاب
متراخ من مبنى البوابة متمنطقًا بحزام سيف، وقد
ارتدى فوق درعه الفولاذ معطفًا كان أبيض ذات يوم،
وهنا وهناك لا يزال كذلك، لكن معظمه ملوث ببقع
الغشب والذماء الجافة، وعلى صدره رمز غزال بئي
ميت ومعلق من عود خشبي.

هو. صوته بمثابة لكمة في بطنها، ووجهه كنصل
انغرس في أحشائها. قالت بجمود: «سير هایل».

قال السير هایل هنت محدّزًا: «الأفضل أن تدعوها
تمز يا أولاد. هذه پريان المليحة، عذراء (تارث) التي
قتلت الملك رنلي ونصف حرس قوس قزح. إنها شرسة
بقدر ما هي قبيحة، وليس هناك من هو أقبح منها...
ربما باستثناءك أنت يا وعاء البول، لكن أباك كان يُشبهه
ذبر ثور بزّي، فلك غدر مقبول، أمّا هي فأبوها نجم
المساء سيّد (تارث)».

ضحك الخراس، لكنهم أزاحوا مطاردتهم، وسأل
الرقيب: «ألا يجب أن نقبض عليها أيها الفارس؟ لقتلها
رنلي؟».

- «لماذا؟ رنلي كان متمرّدا، تماقا كما كنا جميعا متمرّدين عن آخرنا، لكننا فتية تومن الأوفياء الآن»، وأشار الفارس للمزارعين بالمرور من البوابة قائلا لهما: «سيسرّ وكيل حضرة اللورد لرؤية هذا البيض. ستجدانه في الشوق».

دقّ العجوز بمفاصل أصابعه على جبهته، وقال: «أشكرك يا سيّدي. واضح تماقا أنك فارس حقيقي. هيا يا زوجتي»، وعاد الاثنان يدفعان بأكتافهما العربية التي مرّت مقعقة من البوابة.

دخلت بريان وراءهما وفي أعقابها يودريك، وفكرت عابسة: فارس حقيقي. جذبت عنان القرس داخل البلدة، وإلى يسارها رأت أنقاض اسطبل تطلّ على زقاقٍ موحد تقف قبّالته في شرفة ماخور ثلاث عاهرات شبه عاريات يتهاوسن، وتُشبه إحداهن نوعا تابعة معسكرات ذهبّت إلى بريان في مرّة لتسألها إن كان ما بين ساقها أيضا أم فرجا.

قال السير هايل مشيرًا إلى حصان يودريك: «أظنّ أن هذا أقبح حصان رأيته على الإطلاق. يُدهشني أنك لم تركبيه يا سيّدي. هل تنوين أن تُشكريني على مساعدتي؟».

وثبت بريان من فوق قُرسها لتقف أمام السير هايل الذي تفوقه طولًا برأس كامل، وردّت: «ذات يوم سأشكرك في التحام جماعي أيها الفارس».

سألها هایل ضاحكًا: «كما شكرت رونيت الأحمر؟». ضحكته عميقة رثانة على الرغم من وجهه الذي لا يُميزه شيء، وجهه حسبته صادقًا يَوْمًا قبل أن تتعلم الحقيقة. له شعر بُني أشعث وعينان بلون البندق وندبة صغيرة عند أذنه اليسرى، وذقنه مشقوق وأنفه معوج، لكن ضحكاته قويّة ومتكرّرة.

- «ألا يفترض أن تُراقب البوابة؟».

قال بامتعاض: «آلن ابن عقي خرج يُطارِد الخارجين عن القانون. لا شك أن سيعود برأس كلب الضيد وقد كلّل نفسه بالزّهو والمجد. أمّا أنا فمبتلى بحراسة هذه البوابة بسببك. أمل أن تكوني مسرورة يا جميلتي. غمّ تبحثين؟».

- «اسطبل».

- «هناك عند البوابة الشرقيّة. هذا احترق».

أرى هذا. قالت: «ما قلته لهؤلاء الرّجال... كنتُ مع الملك رنلي حين ماتَ فعلاً، لكن شعوزة ما هي التي قتلتَه أيها الفارس، أقسمُ بسيفي»، ووضعت يدها على المقبض متأهبةً للقتال إذا نعتها هنت بالكذب في وجهها.

- «نعم، وفارس الزهور هو من فتك بخرس قوس قزح. ربما كان يُمكنك أن تهزمي السير إمون في ظروف مواتية، فقد كان مُحاربًا متهورًا ويتعب بسهولة. لكن رويس؟ لا. السير روبار كان مُحاربًا أبرع منك مرّتين... مع أنك لست مُحاربًا، أليس كذلك؟ هل لكلمة «مُبارزة» وجود؟ ثرى ما الذي أتى بك إلى (بركة العذارى)؟».

كأدت تقول: أبحث عن أختي، بنت في الثالثة عشرة، لكن السير هايل يعلم أنها بلا أخوات، ولذا قالت: «هناك رجل أبحث عنه، موجود في مكان اسمه (الإوزة الثّنية)».

قال بابتسامة لا تخلو من قسوة: «حسبث أن بريان المليحة لا تحتاج إلى الرجال. (الإوزة الثّنية)، اسم على مسقى... الجزء الخاص بالثّثانة على الأقل. الحانة عند الميناء، لكنك ستأتين معي أولاً لرؤية حضرة اللورد».

لا تخشى بريان السير هايل، لكنه أحد قادة راندل تارلي، وبصفير واحد من فمه سيهرع مئة رجل للدّفاع عنه. هكذا سألت: «هل سيقبض عليّ؟».

قال: «لماذا؟ لقتل رنلي؟ من كان رنلي؟ لقد بدّلنا الملوك منذ ذلك الحين، بعضنا مرّتين. لا أحد يعبا، لا أحد يتذكّر»، ووضع يده بخفّة على ذراعها مردفًا: «من هنا إذا سمحت».

انتزعت ذراعها قائلة: «لك شكري إذا لم تلمسني».

ردّ بابتسامة هازئة: «الشكر أخيرًا».

حينما رأت (بركة العذارى) آخر مَرَّةٍ كانت البلدة مقفرةً، مكانًا كئيِّبًا شوارعه خالية وبيوته محترقة، لكن الآن تعجُّ الشُّوارع بالخنازير والأطفال، وأكثر المباني المحترقة سُويَّ بالأرض، لتحلَّ محلَّ بعضها خضراوات مزروعة ومحلَّ غيرها خيام الثَّجَّار وسُرادقات القُرسان. رأت بريان منازل جديدةً تُبنى، وخائنًا حجريًا يرتفع مكان السَّابق الخشبي، وسطحًا جديدًا من ألواح الأردواز فوق السَّيت. في هواء الخريف البارد تردَّدت أصوات المطارق والمناشير، بينما حملَ الرِّجال الأخشاب في الشُّوارع ودفعَ عُقال المحاجر عرباتهم في الأزقة الموحلة، كثيرون منهم على صدورهم رمز الصِّيَّاد. قالت مندهشةً: «الجنود يُعيدون بناء البلدة».

- «لا شكَّ أنهم يُفضَّلون أن يلعبوا الثُّرد ويشربوا وينكحوا، لكن اللورد راندل يُؤمن بتكليف العاطلين بالعمل».

توقَّعت أن يأخذها إلى القلعة، لكن هُنت قاتهما بدلًا من ذلك إلى الميناء المزدحم، حيث سرَّها أن ترى الثَّجارة عادت إلى (بركة العذارى). في المرسى قادس وقاليون وكوج⁽⁴⁶⁾، له صاريتان، بالإضافة إلى عشرين تقريبًا من قوارب الضِّيد الصَّغيرة، وفي الخليج لآخ المزيد من صيَّادي الأسماك. حُزمت بريان أمرها، وقالت لنفسها: إذا لم تُتمِر زيارة (الإوزة الثَّينة) شيئًا سأسْتَقِلُّ سفينةً. (بلدة الثَّوارس) لا تُبغد كثيرًا، ومن هناك يُمكنها أن تشقَّ طريقها إلى (الوادي) بسهولة.

وجدوا اللورد تارلي في سوق السمك يُقيم العدل.
قرب الماء منصّة منصوبة يستطيع حضرة اللورد أن
يُنظر من فوقها إلى المتهمين، وإلى يساره تمتد مشنقة
طويلة تكفي حبالها عشرين رجلاً، وقد تدلّت منها أربع
جثث، إحداها تبدو جديدةً في حين يقول منظر الثلاث
الأخريات بوضوح إنها هنا منذ مُدة. كان غراب ينتزع
قطعا من لحم أحد الموتى المتهتك، بينما تشبّثت
الغريبان الأخرى حذراً من أهل البلدة الذين احتشدوا
على أمل أن يتفرّجوا على أحد يُشئق.

تقاسم اللورد راندل المنصّة مع اللورد موتون، وهو
رجل شاحب لحيم له مظهر ليّن، يرتدي شترةً بيضاء
وسراويل حمراء، ويثبت معطفه المصنوع من فرو
الцаقوم إلى كتفه مشبك من الذهب الأحمر على شكل
سمكة سلمون. أمّا اللورد تارلي فارتدى الحلقات
المعدنيّة والجلد المقوّى بالزيت المغلي وواقي صدر من
الفولاذ الرّمادي، ومن وراء كتفه اليسرى برز مقبض
السيف العظيم المسقى (آفة القلوب)، مفخرة عائلة
تارلي.

كان مراهق في معطف من الخيش وشترة جلدية
متسخة يتكلّم حين وصلوا، وسمّته بريان يقول: «لم
أضُرّ بأحد يا سيّدي. أخذت فقط ما تركه الشيتونات
عندما هربوا. إذا كان عليك أن تقطع إصبعي مقابل هذا
فاقطعه».

رَدَّ اللورد تارلي بنبرة صارمة: «العُرف إن يُقَطَّع لِلصَّ
إصبع، لكن مَنْ يسرق مِنْ سِبت يسرق مِنْ الآلهة»،
والتفت إلى قائد حرسه قائلاً: «سبعة أصابع، اترك
الإبهامين».

رَدَّ اللص بوجه امتنع: «سبعة؟!». حين قبض عليه
الخزّاس حاول أن يُقاوم وإنما بوهن كأن أصابعه بُتِرَت
بالفعل، وإذ شاهدته بريان لم تستطع إلا أن تُفكّر في
السير چايمي وكيف صرخ عندما هوى أراخ زولو على
يده.

الثّالي كان خبّازاً مثهماً بغش طحيته بئشارة الخشب،
فغزّمه اللورد راندل خمسة أيائل فضيّة، ولما أقسم
الخبّاز أنه لا يملك ذلك المبلغ من الفضة قضى حضرة
اللورد أن يُجلّد بدلاً من كلّ أيل ينقصه. بعده حان دور
عاهرة مهزولة الجسد سقيمة الملامح متّهمة بإصابة
أربعة من جنود تارلي بالجُدري، فقال تارلي آمراً:
«اغسلوا عورتها بصابون القلي وألقوا بها في زنزانة».

بينما جَرَّ الجنود العاهرة باكيةً أبصر حضرة اللورد
بريان على حافة الرّحام بين يودريك والسير هایل،
وعبّس في وجهها لكن نظرت له ثم ثوَّح بأنه تعرّفها على
الإطلاق.

تلا العاهرة بخار من القاليون، والمتهم قوأس من
حامية اللورد موتون يده مضقدة وعلى صدره سمكة
سلمون، وقد خاطب تارلي قائلاً: «يعد إذن سيدي، هذا
الوغد غرس خنجره في يدي، قال إنني كنت أغشه في
لعب الثرد».

أشاح اللورد تارلي بنظره عن بريان ليتطلع إلى
الرجلين أمامه، وسأل: «وهل كنت تغش؟».
- «لا يا سيدي، لا أغش أبدا».

- «سأقطع إصبعًا جزاء السرقة، لكن اكذب عليّ
وسأشנקك. هل عليّ أن أطلب أن أرى ذلك الثرد؟».

- «الثرد؟». نظر القوأس إلى موتون، لكن حضرة
اللورد كان يتطلع إلى قوارب الصيد، فابتلع الرجل لعابه،
وقال: «ربما أكون... ذلك الثرد يجلب لي الحظ، حقًا،
لكنني...».

قال تارلي وقد سمع ما يكفي: «اقطعوا إصبعه
الصغير. يمكنه أن يختار اليد. وليثق مسمار في كف
الآخر»، ونهض مردفًا: «انتهينا. خذوا البقية إلى
الزنازين. سأتعامل معهم غدا»، والتفت مشيرًا إلى السير
هايل بالتقدم، فتقدمت بريان بدورها، وقالت عندما
وقفت أمام اللورد راندل شاعرة بأنها في الثامنة من
العمر من جديد: «سيدي».

- «سيديتي، إلام ندين بهذا... الشرف؟».
أجابت: «لقد أرسلت لأبحث عن... عن...»، وتردّدت
باترة عبارتها.

- «كيف ستعثرين عليه إذا كنت لا تعرفين اسمه؟ هل قتلت اللورد رنلي؟»
- «لا».

وزن تارلي الكلمة. إنه يحكم علي كما حكم على أولئك الآخرين. أخيرًا قال: «لا، لكنك تركته يموت فقط».

لقد مات رنلي بين ذراعيها وأغرقتها دماؤه المسفوقة، وقد جفّت بريان من الاتهام، وقالت: «كانت شعودة. إنني لم...».

قاطعها بصوت استحال إلى سوط: «لم؟! بلى، لم يكن عليك قَط أن ترتدي الحلقات المعدنية أو تحملي سيفًا، لم يكن عليك قَط أن تبرحي دار أبيك. إننا في حرب وليس احتفال حصاد. بحق الآلهة كلها حري بي أن أشحنك في سفينة إلى (تارت)».

خرجت نبرتها بناتية عالية في حين أرادت أن تكون ضلبة إذ قالت: «افعل ذلك وسيكون عليك أن تشرح أسبابك للعرش. يودريك، في جرابي ستجد زُقا. اجلبه إلى حضرة اللورد».

تناول تارلي الرسالة وبسطها عابثًا، وتحزّكت شفّته وهو يقرأ، ثم قال: «عملاً يخض الملك؟ عملاً من أي نوع؟».

اكذب علي وسأشنعك. «سسانزا ستارك».

- «لو كانت ابنة ستارك هنا لعرفت. أراهن أنها هربت عائدةً إلى الشمال على أمل أن تجد ملاذًا عند أحد حقله راية أبيها. خيّر لها أن تختار الرّجل الصّحيح».

سمعت بريان نفسها تقول باندفاع: «ربما تكون قد ذهبت إلى (الوادي)، إلى أخت أمّها».

رمقها اللورد راندل بازدراء، وقال: «الليدي لايسا مائت، مغرّ ما دفعها من فوق جبل. الإصبع الصّغير يسود (الوادي) الآن... لكنه وضع مؤقت. لوردات (الوادي) ليسوا رجالًا يركعون لقرى مختال تخطى منزلته وبلا مواهب غير عدّ الثّقود»، وأعاد إليها الرّسالة متابعًا: «اذهبي حيث شئت وافعلي ما تريدين... لكن عندما تُغتصبين لا تتطلّعي إليّ ناشدةً العدالة. ستكونين قد استحققت هذا بحماقتك»، ورمق السير هايل قائلاً: «وأنت أيها الفارس يُفترض أن تكون على بوأبتك. لقد كلّفتك بالقيادة هناك، أليس كذلك؟».

أجاب السير هايل: «بلى يا سيّدي، لكنني فكّرتُ أن...».

قاطعه اللورد تارلي: «إنك تُفكّر أكثر من اللازم»، وابتعد بخطوات واسعة.

لايسا تلي مائت. وقفت بريان تحت المشنقة وفي يدها الوثيقة الثّمينة، وقد تفرّق الجمهور وعادت الغربان تستأنف وليمتها. مغرّ دفعها من فوق جبل. هل التهمت الغربان لحم أخت الليدي كاتلين أيضًا؟

قال السير هايل: «ذكرت (الإوزة الثتنة) يا سيدي.
إذا أردت فيمكنني أن أريك...».
- «غد إلى بوابتك».

لاخت على وجهه نظرة ضيق عابرة. وجهه لا يميزه
شيء، ليس وجهها صادقًا. «إذا كانت هذه رغبتك».
- «إنها كذلك».

قال: «كانت مجرد لعبة لتزجية الوقت، لم نقصد
أذى»، وتردد قبل أن يضيف: «بن مات، قُتل في معركة
(النهر الأسود)، وفارو أيضًا، وويل اللقلق، ومارك مالندور
أصيب بجرح كلفه نصف ذراعه».

أرادت بريان أن تقول: عظيم، عظيم، لقد استحق
هذا، غير أنها تذكرت مالندور جالسًا أمام شرادقه وعلى
كتفه قرده في بذلة صغيرة من الحلقات المعدنية،
وكلاهما يرسم على وجهه تعبيرات مضحكة. يم دعتهم
كاتلين ستارك ليلتها في (جسر العلقم)؟ فرسان الضيف.
والآن حل الخريف وها هم يتساقطون كأوراق الشجر...
أدارت ظهرها للسير هايل هنت، وقالت: «هلم يا
يودريك».

تبعها الضبي قائدًا حصانيهما، وتساءل: «هل سنبحث
عن ذلك المكان؟ (الإوزة الثتنة)؟».

- «أنا سأبحث عنه. أنت ستذهب إلى الاسطبل عند
البوابة الشرقيّة. سل الشائس عن خان نقضي فيه
الليل».

قال يودريك: «حاضر أيتها الفارس، يا سيّدتى»،
وبيئنا سارا حدّق إلى الأرض راكلاً الحجارة بين الحين
والآخر، ثم إنه سأّلها: «هل تعرفين مكان الإوزة؟ أعني
(الإوزة الثّنة)». -

- «لا».

- «قال إنه سيّرنا، ذلك الفارس، السير كايل».

- «هايل».

- «هايل. ماذا فعل بك أيتها الفارس؟ أعني يا

سيّدتى».

الضّبي متلعثم لكنه ليس غبّيّا. «في (هايجاردن)،
عندما استدعى الملك رنلي راياته، لعب عدد من الرّجال
بي لعبة. السير هايل أحدهم. كانت لعبة قاسية، مؤذية
وتخلو من الثّبل»، ثم توقّفت بريان وقالت له: «البوابة
الشرقيّة من هنا. انتظرني هناك».

- «كما تقولين يا سيّدتى، أيتها الفارس».

لا لافتة تُحدّد مكان (الإوْزة الثّنية)، فاستغرقت نحو ساعة حتى وجدت الحانة عند قاعدة سلالم خشبيّة تحت زريبة قصاب لحم جيف. كان القبو معتمًا وسقفه واطئًا، واختبِظ رأس بريان في إحدى عوارضه وهي تدخّل. لم ترَ أيّ إوْز في المكان، وقد تناثرت بضعة مقاعد هنا وهناك، ووُضعت دكّة عند حائط طيني، ورُصّت موائد هي براميل نبيذ قديمة رماديّة نخرّبها الدّود. اشتقت بريان الثّانة الموعودة المتغلّغلة في كلّ شيء، معظمها نبيذ ورطوبة وعفن فطري، لكن فيها شيئًا من رائحة المراحيز أيضًا، والقليل من رائحة القبور.

الشّاربون الوحيدون في المكان ثلاثة بخّارة تايروشيّون يُخاطب بعضهم بعضًا بلُغتهم الخشنة من وراء لحاهم الخضراء والأرجوانيّة، وقد تفحصوها بأعينهم باقتضاب وقال أحدهم شيئًا أضحك الآخرين. كانت مالكة الحانة واقفة وراء لوح من الخشب مرفوع على برميلين، امرأة شاحبة مستديرة الجسد ويزحف الصّلع على رأسها، ولها نهدان ضخمان متهذّلان يتأرجحان تحت منزر مئسّخ، وإجمالًا تبدو كأنّ الآلهة خلّقتهما من عجين نيء.

لم تجرؤ بريان على طلب الماء هنا، وبدلًا منه طلبت كوبًا من الثّبيذ، وقالت: «أبحث عن رجل اسمه ديك الرّشيق».

أجابَت المرأة: «ديك كراب، يأتي كل ليلة تقريبًا»،
ورمقت قميص بريان المعدني وسيفها مضيئة: «إذا
كنت تنوين قتله فافعلي ذلك في مكان آخر. لا أريد
متاعب مع اللورد تارلي».

ردّت: «أريد أن أتكلّم معه. لماذا أؤذيه؟». هزّت المرأة
كنفِها بلا جواب، فقالت لها بريان: «إذا أشرت عليه
عندما يأتي ساكون شاكراً».
- «شاكراً لأي درجة؟».

وضعت بريان نجمة نحاسية على اللوح الخشبي
بينهما، ثم وجدت مكانًا وسط الظلال ترى منه السّلام
بوضوح.

جذبت التّبِيذ. له مذاق زيتي على اللّسان، وفي الكوب
وجدت شعرة طافية فكّرت وهي تُزيلها: شعرة ضئيلة
كأملِي في العثور على سانزا. لقد طارَدَت السير
دونتوس بلا طائل، وبموت الليدي لايسا لم يَغْد
(الوادي) ملاذًا محتفلًا. أين أنت يا ليدي سانزا؟ هل
فررت إلى ديارك في (وينترفيل) أم أنك مع زوجك كما
يحسب يودريك؟ لا تريد بريان أن تلاحق الفتاة عبر
(البحر الضيق) حيث اللّغة نفسها غريبة عليها. سأبدو
كالمسوخ أكثر فأكثر هناك وأنا أزمجر وأشير كي
يفهمونني. سيضحكون مني كما ضحكوا في
(هايجاردن).

زحفت الخمرة على وجنتيها إذ تذكّرت.

حين تَوَجَّ رنلي نفسه ركبت عذراء (تارث) قاطعةً
(المرعى) كله لتنضم إليه، واستقبلها الملك بكياسةٍ
ورحِب بها في خدمته، ولكن ليس لورداته وقرسانه. لم
تكن بريان تتوقع استقبالًا حارًا، وهيأت نفسها للبرودة
والشخيرة والغدوانية، فكلُّ هذا ألقتَه من قبلها. ليس
تهكُّم الكثرة ما يُخَيِّرُها ويجرحها، وإنما لطف القلَّة، ذلك
أن عذراء (تارث) خُطبت ثلاث مرَّات، إلَّا أن أحدًا لم
يُغازِلها قَطُّ حتى ذهبت إلى (هايجاردن).

أولهم كان بن بوشي الكبير، أحد الرُّجال القلائل في
معسكر رنلي الذين يتجاوزونها طولًا، وقد أرسل إليها
مُرافقه ليُنظِّف دِرْعها وأهدى إليها قرن شرابٍ فضيًّا،
لكن السير إدموند أمبروز تفوَّق عليه بدرجةٍ إذ جلب لها
زهوًّا وسألها أن تركب معه، أمَّا السير هايل هنت فغلب
الاثنين وأعطاهما كتابًا زاخرًا بالزُسوم الجميلة وعشرات
الحكايات عن بسالة الفرسان، وأحضر تفاحًا وجزرًا
لأحصنتها وريشةً حريئةً زرقاء لخوذتها، وأخبرها بما
يدور في المعسكر من نَميمةٍ وألقى تعليقاتٍ ذكيةً لاذعةً
جعلتها تبتسم، بل وتدرَّب معها أيضًا ذات يوم، وهو ما
عنى لها أكثر من سائر ما فعله.

ظننت أن بسببه بدأ الآخرون يُعاملونها بكياسة بدورهم. بأكثر من الكياسة. على المائدة تشاجر الرجال على مكان إلى جوارها عارضين أن يملأوا كأسها أو يُناولوها الكعك، وعزف السير ريتشارد فارو أغاني الحب على عوده خارج شرادقها، وجلب لها السير هيو بيزبوري جزّة من العسل «الخلو كعذراوات (تارث)»، وأضحكها السير مارك مالندور بطرائف قرده الصغير الذي أتى بلونيه الأبيض والأسود من (جُزر الضيف)، وعرض فارس متجوّل اسمه ويل اللقلق أن يُذلّك كتفيها ليبسط عضلاتهما المشدودة.

ورفضته بريان، رفضتهم جميعًا. عندما أمسكها السير أوين إنشفيلد ذات ليلة وقبلها رغما عنها أسقطته على مؤخرته في بؤرة نار، وبعدها تطلّعت إلى نفسها في المرأة، فرأت وجهها عريضا منقشا كبير الأسنان كما كان دوما، وشفتيها كبيرتين وفكّها سميكا. يا للثبح. لم تكن تُريد إلّا أن تُصبح فارسا وتخدم الملك رنلي، لكن الآن... لم تكن المرأة الوحيدة هناك. حتى تابعات المعسكرات كن أجمل منها، وفي القلعة اعتاد اللورد تايرل أن يُقيم ماديةً للملك رنلي كلّ ليلة فيما تُرقص الفتيات عاليات المقام والليديّات الجسان على أنغام المزمار والبوق والقيثار. متى ألقى عليها فارس غريب مجاملة ما أرادت أن تُصرخ فيه: لماذا تُعاملني بلطف؟! ماذا تُريد؟!!

وحل راندل تارلي اللغز يوم أرسل اثنين من جنوده لاستدعائها إلى شراذقه، حيث قال لها إن ابنه الصغير سيكون سمع أربعة فرسان يضحكون وهم يضعون على خيولهم سروجها، وأخبر أباه بما قالوه. كانوا متراهنين عليها.

أخبرها بأن ثلاثة من الفرسان الشباب بدأوا الرهان، أمبروز وبوشي، بالإضافة إلى هایل هنت الذي ينتمي إلى حرس أهل بيته، لكن إذ انتشر الخبر في المعسكر انضم آخرون إلى اللعبة. كان على كل رجل يرغب في الانضمام إلى المسابقة أن يدفع تئيتًا ذهبيًا، على أن يجني المبلغ الإجمالي من يفز بكارتها.

قال لها تارلي: «لقد وضعت نهايةً للعبتهم. بعض هؤلاء... المتنافسين... بعضهم أقل شرفًا من غيرهم، والرّهانات كانت تتزايد كل يوم. كانت مسألة وقت فقط قبل أن يُقزّر أحدهم أن ينال غنيمته بالإكراه».

قالت مذهولة: «إنهم فرسان، فرسان منصّبون».

- «ورجال شرفاء. أنتِ الملومة».

ردّت وقد أجفلها الاتهام: «إنني لم... سيّدي، أنا لم أفعل شيئًا لأشجعهم».

- «وجودك هنا شجعهم. إذا تصرّفت امرأة كتابعة معسكرات فلا يُمكنها أن تحتجّ على معاملتها كواحدة. الجيش ليس مكانًا للفتيات. إذا كنتِ تحترمين عقّتكِ أو شرف عائلتكِ على الإطلاق فاخلعي هذه الدرع وارجعي إلى ديارك وتوشلي إلى أبيك أن يجد لك زوجًا».

قالت بإصرار: «جنث لأقاتل، لأكون فارساً».

قال راندل تارلي: «الآلهة خلقت الرجال للقتال والنساء لحمل الأطفال. حرب المرأة في فراش الولادة». رأت بريان أحدهم نازلاً السلالم إلى القبو، فنحّت نبيذها جانباً بينما دخل رجل رثّ الملبس مهزول القوام مدّبب الوجه له شعر بنيّ مّتسخ. ألقى على البخّارة التايروشيّين نظرة سريعة وعلى بريان نظرة أكثر إمعاناً، ثم ذهب إلى المشرب، وقال: «نبيذ، ومن دون بول خيول، شكراً».

نظرت المرأة إلى بريان وأومات برأسها، فنادت: «سأشتري لك التّبيذ مقابل كلمة معك».

تفّّس الرّجل فيها بعينين حذرتين، ثم قال: «كلمة؟ أعرف كلمات كثيرة»، وجلس على الكرسي المقابل لها متابعاً: «أخبريني أيّ كلمة تريد سيّدتى أن تسمعها وسيقولها ديك الرّشيق».

- «سمعت أنك خدعت مهزّجاً».

كان الرّجل الصّاوي يرتدي شترّة باهتة ممزّقة انثزعت من على صدرها شارة لورد ما، وقد رشّف من نبيذه مفكّزاً، قبل أن يقول: «ربما وربما لا. من يُريد أن يعرف؟».

أجابّت: «الملك روبرت»، ووضعت قطعة فضيّة على البرميل بينهما، على أحد وجهيها رأس روبرت وعلى الثاني رمز الوعل.

قال الرَّجل: «حقًا؟»، والتقطَّ الغُملَة ودوَّرها، وأردف:
«أحبُّ أن أرى ملكًا يرقِّص، هاي-نوني هاي-نوني هاي-
نوني-هو(47). ربما رأيتَ مهزَّجك هذا».

- «أكانت معه بنت؟».

أجاب من فوره: «بنتان».

- «بنتان؟!». هل يُمكن أن تكون الثانية أريا؟

- «لم أرَ الخلوتين الصغيرتين، لكنه أرادَ رحلةً لثلاثة».

- «رحلة إلى أين؟».

- «إلى البَرِّ الآخر من البحر على ما أذكر».

- «هل تُذكر شكله؟».

اختطفَ الغُملَة التي تدور على سطح المائدة وقد
بدأت حركتها تتباطأ وجعلها تختفي مجيبًا: «مهزَّج،
مهزَّج خائف».

- «خائف ومم؟».

هَزَّ كتفيه قائلًا: «لم يقل، لكن ديك الرِّشيق يعرف
رائحة الخوف. اعتادَ أن يأتي هنا كلَّ ليلة تقريبًا، يدعو
البُخَّارة إلى الشُّراب ويُلقي الثُّكَّات ويُعْثِي. ثم في ليلة
جاء رجال على صدورهم الضِّيَّاد فشحب وجه مهزَّجك
كالحليب وخرس حتى رحلوا»، ودنا منها أكثر مواصلاً:
«تارلي هذا جنوده يجوبون الميناء مراقبين كلَّ سفينة
آتية أو ذاهبة. مَنْ يُريد غزلاً يذهب إلى الغابة، ومَنْ
يُريد سفينةً يذهب إلى الميناء. مهزَّجك لم يجرو،
فعرضت عليه المساعدة».

- «مساغة من أي نوع؟».

- «التَّوَع الذي يُكَلِّف أكثر من قطعة فضة واحدة».

- «أخبرني وسأعطيك أخرى».

قال: «لنرّها»، فوضعت غملة أخرى على البرميل،
ليُدَوِّرها ويبتسم ويلتقطها مجيئًا: «مَن لا يستطيع
الذهاب إلى الشفن يحتاج إلى أن تذهب الشفن إليه.
قلتُ له إنني أعرف مكانًا يُتاح فيه هذا، مكان خفي».

اقشعرَّ جلد بريان على ذراعيها، وقالت: «وكر مهزَّبين،
أرسلت المهزَّج إلى مهزَّبين».

رَدَّ مقهقهة: «هو والبنتان. المشكلة فقط أن المكان
الذي أرسلته إليه لم تأتِه سفينة منذ فترة، نحو ثلاثين
عامًا»، وحكَّ أنفه متسائلًا: «ما أهميَّة هذا المهزَّج
عندك؟».

- «هاتان البنتان أختاي».

- «حقًا؟ مسكينتان. كانت لي أخت ذات يوم، فتاة
نحيلة بركبتين ناتنتين، لكن بعد ذلك نما لها زوج من
الأثداء ودخل ابن فارس بين ساقَيْها. آخر مرَّة رأيتها
كانت في طريقها إلى (كينجز لاندنج) لتكسب قوتها
على ظهرها».

- «أين أرسلتهم؟».

عادَ يهرُز كتفيه قائلًا: «هذا لا أذكره».

دقَّت بريان المائدة بأيل فضي آخر مكرَّرًا: «أين؟».

دفعَ الغملة ناحيتها بسبَّابته، وقال: «إنه مكان لم
يَدْخُلْه أيل من قبل... لكن تئيًا يستطيع».

أدرکت أن الفضة لن تستخلص منه الحقيقة. ربما
يفلح الذهب، وربما لا. الفولاذ أضمن. مسّت بريان
خنجرها، لكنها بدلًا من هذا دسّت يدها في ضرّتها
والتقطت تئيبًا ذهبيًا وضعتّه على البرميل، وكزّرت:
«أين؟».

اختطف الرجل الأشعث الغملة وعضّ عليها، ثم قال:
«جميل، يذكّرني بـ(الرأس المتصدّع)، شمالًا من هنا. إنها
براري مليئة بالثلال والمستنقعات، لكني وُلدت وتربيّت
هناك. اسمي ديك كراب، مع أن أكثر القوم يدعونني
بديك الرّشيق».

لم تُجاوبه باسمها، وسألت: «أين في (الرأس
المتصدّع)؟».

- «(قلعة الهمس). مؤكّد أنك سمعت عن كلارنس
كراب».
- «لا».

قال وقد لاحت عليه الدهشة: «السير كلارنس كراب
كما قلت. إن دمه في عروقي. كان يبلغ ثمانية أقدام
طولًا، وقوّته هائلة لدرجة أن يجتثّ شجرة صنوبر من
الأرض بيد واحدة ويلقيها على بُعد نصف ميل. لم يكن
هناك حصان يحتمل ثقله، فامتطى ثورًا برّيًا».
- «ما علاقته بوكر المهزيين؟».

- «زوجته كانت ساحرة غابة. كلما قتل السير كلارنس رجلًا أخذ رأسه معه إلى زوجته، فثَقْبِلَ الرأس على الشَّفتين وُثِّعِيده إلى الحياة. كانت رؤوس لوردات وسحرة وفُرسان وقراصنة مشاهير، وأحدها كان رأس ملك (وادي الغسق). تلك الرؤوس أسدت لكراب نصائح مفيدة، لكن لأنها رؤوس فقط فلم تستطع أن ترفع صوتها، ومع ذلك لم تُصَفَّ لحظة. عندما يكون المرء رأسًا فقط فالكلام كل ما لديه لتمضية الوقت. هكذا سَمَّيت قلعة كراب (قلعة الهمس)، وما زال هذا اسمها مع أنها خربت منذ ألف عام. مكان موحش»، وقلَّب الرِّجل الغملة برشاقة على مفاصل أصابعه مردفًا: «تئين واحد تُصِيبه الوحدة، أمّا عشرة تنانين...».

- «عشرة تنانين ثروة. أتحسبني بلهاء؟».

رَدَّ والغملة تتراقص من جانب إلى جانب: «لا، لكنني أستطيع أن أقودك إلى المهزج، أقودك إلى (قلعة الهمس) يا سيّدتى».

لم تُزَق بِريان الطّريقة التي تتلاعب بها أصابعه بالغملة الذهبية، ومع ذلك... «سِتّة تنانين إذا وجدنا أختي، اثنان إذا وجدنا المهزج، ولا شيء إذا لم نجد شيئًا».

هَزَّ كراب كتفيه قائلاً: «لا بأس بسِتّة، سِتّة مبلغ مناسب».

قَبْلَ بَشْرَةٍ بِالْفَعِّ. أَطْبَقْتُ عَلَى مَعْصَمِهِ قَبْلَ أَنْ يَدْشَ
الْعُمْلَةَ فِي جَيْبِهِ، وَقَالَتْ: «إِيَّاكَ أَنْ تُحَاوِلَ خِدَاعِي. لَنْ
تُجِدَنِي لُقْمَةً سَائِغَةً»، وَلَقَا أَطْلَقَتْ سِرَاحَهُ فَرَكَ كِرَابَ
مَعْصَمِهِ مَتَمَتِّمَا: «تَبَّأ، أَلَمَتْ يَدِي».

- «آسَفَةٌ لِهَذَا. أُخْتِي بِنْتُ فِي الثَّلَاثَةِ عَشْرَةَ، وَيَجِبُ أَنْ
أَعْثُرَ عَلَيْهَا قَبْلَ...».

- «... قَبْلَ أَنْ يَضَعَ فَارَسُ نَفْسِهِ فِي فَتْحَتِهَا. نَعَمْ،
أَفْهَمُكَ. اْعْتَبِرِيهَا فِي عِدَادِ الثَّاجِينَ. دِيكَ الزَّشِيقُ مَعَكَ
الْآنَ. قَابِلِينِي أَمَامَ الْبُؤَابَةِ الشَّرْقِيَّةِ عِنْدَ مَطْلَعِ الْفَجْرِ.
هَنَّاكَ رَجُلَ عَلِيٍّ أَنْ أَرَاهُ بِخُصُوصِ حِصَانٍ».

(45) الْمَطْرَدُ سِلَاحٌ قَدِيمٌ يَتَأَلَّفُ مِنْ رَأْسِ حَرِيَّةٍ وَرَأْسِ فَايِسٍ
مُتَبَتِّينَ فِي الْقَنَاةِ نَفْسَهَا. (الْمُتَرْجِمُ).

(46) الْكُوجُ سَفِينَةٌ لَهَا شِرَاعٌ وَاحِدٌ مَرْتِعٌ عَادَةٌ وَأَحْيَانًا شِرَاعَانِ،
وَتُبْنَى مِنْ خَشَبِ الْبُلُوطِ. (الْمُتَرْجِمُ).

(47) كَلِمَةُ بَلَا مَعْنَى كَانَتْ تُسْتَخْدَمُ كَثِيرًا فِي الْأَغَانِي الشَّعْبِيَّةِ
فِي الْعَصْرِ الْإِلِيْزَابِيْثِيِّ فِي إِنْجِلْتَرَا، وَقَدْ وَرَدَتْ فِي إِحْدَى أَغْنِيَا
مُسْرَحِيَّةٍ (جَعَجَعَةُ بَلَا طَحْن) لِشِيْكَسْبِير. (الْمُتَرْجِمُ).

سامويل

أصاب البحر سامويل تارلي بغثيان فظيع.
ليس السَّبب بالكامل خوفه من الغرق، ولو أن جزءاً
كبيراً منه كذلك بالفعل، وإنما حركة السفينة أيضاً،
الطريقة التي يتمايل بها السطح ويهتز تحت قدميه.
يوم أبخروا من (القلعة الشرقيّة) اعترف لداريون قائلاً:
«بطني يُصيبه الغثيان بسهولة»، فربت المغني على
ظهره ورَدَّ: «مع بطني كبير كبطنك أيها القاتل فهذا
إفراط في الغثيان».

حاول سام أن يرسم على وجهه قناعًا من الشَّجاعة،
لأجل خاطر جيلي قبل كل شيء، فالفتاة لم تر بحرًا في
حياتها قط. لما خاضا الثُلوج بشقِّ الأتْفَس بعد الهرب
من (قلعة كراستر) صادفَا بُحيرات عِدَّة في طريقهما،
لكن حتى تلك البحيرات كانت لها بمثابة أعجوبة. بينما
ابتعدت (الظائر الأسود) عن اليابسة راحت الفتاة
ترتجف وسالت قطرات الدُموع المالحة الكبيرة على
وجنتيها، وسمعها سام تهمس: «يا للآلهة». اختفت
(القلعة الشرقيّة) أولًا، ثم أخذ (الجدار) يتضاءل
ويتضاءل حتى غاب عن الأنظار تمامًا، وحينئذ كانت
الريّح قد بدأت تشتدّ. للقلوع لون رمادي باهت كمعطف
أسود غُسلَ مرارًا وتكرارًا، ووجه جيلي كان أبيض
ممتقعًا من فرط الخوف، فقال لها سام مبتغيًا طمأننتها:
«هذه سفينة قويّة، لا داعي للخوف»، غير أنها نظرت
إليه فحسب وضقت رضيعها إليها أكثر وفرت إلى
أسفل.

سرعان ما وجد سام نفسه يتشبّث بحافة السفينة ويُشاهد حركة المجاذيف الرّتيبة، فألقى التّطّلع إلى الطّريقة التي تتحرّك بها معًا جميلًا، بل وأفضل من النّظر إلى الماء. النّظر إلى الماء لا يجعله يُفكّر إلّا في الغرق. في صغره جرّب السيّد والده أن يُعلّمه السّباحة بإلقائه في البركة التي تطلّ عليها (هورن هيل)، فدخلت المياه أنفه وفمه ورئتيه، ولازمه الشعال والثنّفس الممزوج بالصّفير طيلة ساعاتٍ بعد أن أخرجه السير هايل، ومنذ ذلك الحين لم يَجسر على الثّزول في الماء على غمقٍ أعلى من خصره.

(خليج الفقّعات) أعمق من خصره كثيرًا، وليس ساكنًا كبركة الأسماك الصّغيرة عند قلعة أبيه، مياهه رماديّة وخضراء ومتقلّبة، والسّاحل المحرّج بالأشجار الذي يمضون بمحاذاته غابة من الضّخور والدّوامات. حتى إذا استطاع بوسيلةٍ ما أن يقطع كلّ تلك المسافة رفسًا وزحفًا فالأرجح أن الأمواج ستدفعه ليرتطم بحجرٍ ما ويهشّم رأسه تهشيقًا.

قال داريون حين رأى سام واقفًا يتطلّع عبر الخليج: «هل تبحث عن عرائس البحر أيها القاتل؟». بشعره الفاتح وعينيّه البندقيّتين يبدو المغثي الشّاب الوسيم الآتي من (القلعة الشّرقية) أقرب إلى أمير ظلام من أخ أسود.

- «لا». لا يدري سام غمّ يبحث أو ماذا يفعل على متن هذه السفينة. قال لنفسه: أنا ذاهب إلى (القلعة) لأكون سلسلة وأصبح مايستر كي أخدم حرس الليل بشكل أفضل، لكن الفكرة أصابته بالضجر لا أكثر. إنه لا يريد أن يصبح مايستر يلف حول عنقه سلسلة ثقيلة حلقاتها باردة على جلده، لا يريد أن يتزك إخوته والأصدقاء الوحيدين الذين عرفهم طول حياته، وقطعًا لا يريد أن يواجه أباه الذي أرسله إلى (الجدران) ليموت. الأمر مختلف مع الآخرين، فبالنسبة إليهم للرحلة نهاية سعيدة. جيلي ستكون آمنة في (هورن هيل)، وبينها وبين الأهوال التي خبرتها في (الغابة المسكونة) عرض (وستروس) بأكمله. باعتبارها خادمة في قلعة أبيه ستحظى بالذِّفء وخسن التغذية، ستكون جزءًا صغيرًا من عالم رحب لم تحلم به قط وهي زوجة كراستر، وسترى ابنها ينمو كبيرًا قويًا ويصير صيادًا أو عامل اسطبل أو حدّادًا، وإذا أبدى الصّبي جدارة بحمل السلاح فربما يتّخذه فارس ما مرافقًا كذلك. والمايستر إيمون ذاهب إلى مكان أفضل أيضًا، ومن السّار أن يفكر سام فيه إذ يقضي ما تبقى له من عمره يستمتع بنسيم (البلدة القديمة) الدافئ ويتناقش مع زملائه المايسترات وينقل حكمته إلى المعاوين والمبتدئين. لقد استحقّ الرّجل راحته أضعافًا مضاعفة.

حتى داريون سيكون أسعد. إنه يزعم دوماً أنه بريء
من تهمة الاغتصاب التي نجم عنها إرساله إلى (الجدار)،
ويصرّ على أن مكانه يُفترض أن يكون في بلاط أحد
اللوردات ليُغني له على الغشاء، والآن سينال تلك
الفرصة وقد عيّنه چون مجنّداً ليحلّ محلّ رجل اسمه
يورن اختفى وأصبح في عداد الموتى. مهمته أن يجوب
(الممالك السبع) ويُغني عن بأس حرس الليل، وبين
الحين والآخر يعود إلى (الجدار) بذفعة جديدة من
المجنّدين.

ستكون الرحلة طويلةً مضطربةً ولا أحد يُنكر ذلك،
لكن على الأقل تنتظر الآخرين نهاية سعيدة، وهذا عزاء
سام الذي قال لنفسه: إنني ذاهب من أجلهم، من أجل
حرس الليل والنّهاية السعيدة. على أنه كلّما تطلّع إلى
البحر أكثر بدا أبرد وأعمق.

لكن عدم النّظر إلى الماء أسوأ وأسوأ، كما أدرك سام في القمرة الضيّقة التي يشترك فيها المسافرين تحت السلوقيّة (48). الخلفيّة. حاول أن ينأى بأفكاره عن الهياج في معدته بأن يُكلّم جيلي بينما تُرضع ابنها، فقال: «هذه السفينة ستأخذنا حتى (براقوس)، وهناك سنجد سفينة أخرى تحملنا إلى (البلدة القديمة). قرأتُ كتابًا عن (براقوس) في طفولتي. المدينة كلّها مبنية في هور على مئة جزيرة صغيرة، وعندهم مارد هناك، رجل حجري طوله منات الأقدام. إنهم يركبون القوارب بدلًا من الخيول، ويُقدّم ممثلوهم قصصًا مكتوبة بدلًا من اختلاق المهازل السخيفة المعتادة. الطّعام جيّد جدًا أيضًا، خصوصًا الأسماك، لأنهم يصطادون مختلف أنواع الحلزون والمحار وتعابين الماء الطّازجة من الهور. المفترض أن نقضي بضعة أيام هناك بين الرّحلتين، وإذا فعلنا فلنذهب لمشاهدة عرض تمثيلي ونأكل المحار». حسب أن ذلك سيثير حماسها، لكنه كان مخطئًا تمامًا، إذ حدّقت جيلي إليه بنظرة فائرة خاوية من بين خصلات شعرها المتّسخ، وقالت: «إذا أردت يا سيّدي». سألتها سام: «ماذا تريدان أنت؟». ردّت: «لا شيء»، والتفتت عنه ونقلت ابنها من تدي إلى الآخر.

كانت حركة السفينة تُقلِّب ما في معدة سام من البيض واللحم المقدد والخبز المحقَّر الذي أكله قبل بداية الرحلة، وعلى حين غزّة لم يَعد يستطيع البقاء في القمرة لحظة أخرى، فدفع نفسه إلى القيام وتسَلَّق السلم ليعطي إفطاره للبحر. داهقه الغثيان بقوة شديدة حتى إنه لم يتوقَّف ليُعَيِّن اتجاه هبوب الرِّيح، فتقيأ من الجانب الخطأ ولوَّث نفسه بالقيء، وعلى الرغم من هذا أحسَّ بتحسُّن كبير بعدها... ولكن ليس لفترة طويلة.

(الطائر الأسود) أكبر قوادس الخرس الثلاثة. (غراب العواصف) و(البرثن) أسرع، كما أخبر كوتر يايك المايستر إيمون وهم في (القلعة الشرقيّة)، لكنهما سفينتان حربيّتان، طائران كاسران سريعان رشيقان يجلس فيهما الملاحون على السطح المفتوح، أمّا (الطائر الأسود) فخير أفضل لمياه (البحر الضيق) الهائجة وراء (سكاجوس). قال لهم يايك محدّراً: «ثقة عواصف منذ فترة. عواصف الشّتاء أسوأ، لكن عواصف الخريف متكرّرة».

الأيام العشرة الأولى كانت هادئة فيما مخّرت السفينة عباب (خليج الفقمات) دون أن تبتعد عن منظر اليابسة إطلاقاً، ورغم أن الجوّ يَبْزُد عندما تهبّ الرِّيح ففي رائحة الملح في الهواء شيء منشّط منعش كذلك. بالكاد استطاع سام أن يأكل، وكلّما أرغم نفسه على ابتلاع شيء لا يبقى في معدته طويلاً، لكنه لم يُعانِ كثيراً بغضّ النظر عن هذا.

حاول أن يشحذ همّة جيلي ويبثّ فيها ما يستطيع
من ابتهاج، إلّا أنه وجد المهمة عسيرة، فمهما قال
رفضت أن تصعد إلى السطح وفُضلت أن تبقى قابضة
في الظلام مع ابنها. ويبدو أن الرضيع لا يروقه وجوده
على السفينة أكثر من أمه، فحين لا يصرخ يتقيأ اللبن
الذي أرضعته إياه، بالإضافة إلى الإسهال الذي أصابه
ليلاً القرو الذي تلقاه به جيلي لتدفنته ويملاً الهواء
برائحة بئىة كريهة، ولا يهم كم شمعة معطرة يُشعلها
سام، فرائحة الخراء لا تزال باقية.

يطيب لسام أكثر أن يبقى بالأعلى في الهواء الطلق،
بالذات عندما يُغَنِّي داريون. يعرف ملاحو (الطائر
الأسود) المطرب الذي تعود أن يُغَنِّي لهم بينما يُجَدِّفون،
كما أنه يعرف جميع أغانيهم المفضلة؛ منها الحزين
كـ(يوم شنقوا روبن الأسود) و(مرثية عروس البحر)
و(خريف غمري)، والحماسي كـ(الزماح الحديد) و(سبعة
سيوف لسبعة أبناء)، والخليع كـ(عشاء سيديتي)
و(زهرتها الصغيرة) و(ماجيت كانت فتاة مرحة، فتاة
مرحة كانت)، وحين يُغَنِّي (الجميلة والذئب) ينضم إليه
الملاحون فيبدو كأن السفينة تطير على الماء طيرانًا.
ليس داريون بالفبارز الماهر -كما يعلم سام منذ أيام
تدريبهما تحت إمرة أليسر ثورن- لكن له صوتًا جميلًا،
«عسل مصبوب على رعد» على حدّ تعبير المايستر
إيمون ذات مرّة. إنه يعزف على القيثارة الخشبية
والكمنجة أيضًا، بل ويكُثِّب أغنياته الخاصة... مع أن
سام لا يحسبها جيّدة إلى هذا الحد. ومع ذلك فمن
المستحب عند سام أن يجلس ويصغي، ولو أن
الضندوق الذي يجلس عليه ضلب كثير الشّطايا، لدرجة
أنه يكاد يشغّر بالامتنان لشمنة مؤخرته. البدين يحمل
معه وسادة أينما ذهب.

يُفَضِّل المايستر إيمون أيضًا أن يقضي النهار على
الشّطح قابغا تحت كومة من الفرو ويتطلّع إلى الماء،
وذاات يوم تساءل داريون قائلًا: «إلام ينظر؟ بالنسبة
إليه الظلام هنا وبالأسفل في القمرة واحد».

سمعَه العجوز. رغم أن عيني إيمون انطفأتا إلى الأبد
فما زالت أذناه تعملان بكفاءة تامة، وقد قال لهما مذكّرا:
«إنني لم أولد أعمى. حين مررت من هذا الطريق آخر
مرة رأيت كلّ صخرة وشجرة وموجة، وشاهدت
النوارس الرمادية تحلق في أعقابنا. كنت في الخامسة
والثلاثين، وأصبحت وايستر مسلسلا قبلها بسنة عشر
عاما. إيج أرادني أن أعينه على الحكم، لكنني كنت أعرف
أن مكاني هنا. أرسلني شمالا على متن (التنين الذهبي)
وأصرّ على أن يصحبني صديقه السير دنكان إلى (القلعة
الشرقية). لم يصل مجنّد إلى (الجدار) قط بتلك الأبهة
منذ أرسلت نايميريا إلى حرس الليل سنة ملوك مقيد
بالأصفاد الذهبية. أفرغ إيج الزنازين أيضا كي لا أضطر
إلى جلف اليمين بمفردي. سقاهم حرس شرف، وأحدهم
لم يكن أقل من بريندن ريفرز شخصيا، الذي اختير فيما
بعد ليكون حضرة القائد».

قال داريون: «غدا فالدّم؟ أعرف أغنية عنه، اسمها
(ألف عين وعين). لكنني حسبته أنه عاش منذ مئة
عام».

- «كلنا عشنا منذ مئة عام. لقد كنت شابا ممتلك ذات
يوم». بدا أن الفكرة أحزنته، وسعل وأغلق عينيه وغاب
في النوم، وكلما هزت موجة ما السفينة تمايل تحت
أغطيته.

تحت سماوات رماديّة أبحروا، شرقًا وجنوبًا ثم شرقًا
من جديد فيما اتّسع (خليج الفقمات) من حولهم. الرّبان
أخ أشيب له بطن كبرميل المزر ويرتدي ثيابًا مئسّخة
للغاية وباهتة لدرجة أن أفراد الطّاقم لقّبوه بذي
الأسمال المالحة العجوز. نادرًا ما ينبس الرّجل ببنت
شفة، ويُعوّض نائبه صمته بتلوّث الهواء بالشباب
واللّعنات متى سكّنت الرّياح أو تلكًا الملاحون. في
الصّباح يأكلون ثريد الشّوفان، وبعّد الطّهر ثريد البازلاء،
وليلاً اللحم البقري المملّح ولحم الضّأن المملّح وسمك
القّد المملّح، ويشربون مع وجبتهم القليل من المزر.

يُغني داريون، ويتقيًا سام، وتبكي جيلي وثرضع
صغيرها، وينام المايستر إيمون ويرتجف، وتشتدّ برودة
الريّح وشرعتها بمرور كلّ يوم.

وعلى الرغم من كلّ هذا فالرحلة أفضل من آخر مرّة
أبحر فيها سام. لم يكن يتجاوز العاشرة عندما ركب
قاليون اللورد رداوين المسقى (ملكة الكرمة). كانت
السّفينة أكبر من (الطائر الأسود) خمس مرّات ومهيبة
المنظر، لها ثلاثة أشرعة خمريّة وصفوف من المجاذيف
ثومض بالذهبي والأبيض في نور الشّمس، وقد
احتبست أنفاس سام انبهازا بمرآها ترتفع وتنخفض وهم
يتحرّكون من (البلدة القديمة)... لكن تلك آخر ذكرى
طيّبة لديه عن (بوغاز رداوين)، فحينها كما الآن أصابه
البحر بالغثيان، وبالثّالي أصاب هو السيّد والده
بالاشمئزاز.

وحيث بلغوا (الكرمة) تدهورت الأمور من سيئ إلى أسوأ. من النظرة الأولى احتقر ابن اللورد ردواين الثوام سام، وكل صباح وجد وسيلة جديدة لتكليله بالخزي في ساحة التدريب. في اليوم الثالث جعله هوراس ردواين يصرخ كالخنازير متوشلاً الرحمة، وفي اليوم الخامس ألبس أخوه هوبر إحدى عاملات المطابخ برعه وتركها تضرب سام بسيف خشبي إلى أن أجهش بالبكاء، ولما أفصحت عن نفسها تفجرت ضحكات جميع المرافقين والأوصفاء وعاملي الاسطبلات المدوية.

ليلتها قال أبوه للورد ردواين: «الضبي يحتاج إلى القليل من التمرّس لا أكثر»، لكن مهزج ردواين رَجَّ حُشْحِيشته ورَدَّ: «بل يحتاج إلى القليل من الفلفل والقرنفل وتَفَاحَة في فمه»، وبعدها حرّم اللورد راندل على سام أن يأكل الثّفّاح ما داموا تحت سقف باكستر ردواين. انتابه ذوار البحر في رحلة العودة إلى الدّيار أيضًا، لكنه كان يحش براحَة بالغة للرّحيل حتى إنه كاد يُزْحِب بطعم القيء في مؤخّرة خلقه. انتظرت أمّه رجوعهم إلى (هورن هيل) لثخيره بأن أباه لم يكن ينوي عودته، وقالت له: «كان هوراس سيأتي معنا بدلًا منك، في حين كنت ستبقى أنت في (الكرمة) وصيفًا وساقيًا عند اللورد باكستر، ولو سررته لخطبت ابنته». ما زال سام يذكّر لمسة يد أمّه الثّاعمة إذ مسحت وجهه من الدّموع بقطعة من الحرير المبلّل بأعابها وهي تُغمّغم: «صغيري المسكين سام، صغيري المسكين المسكين سام».

فكّر وهو يتمشك بحاجز (الطائر الأسود) ويُشاهد الأمواج تتكسّر على السّاحل الحجري: سيكون جيّدًا أن أراها ثانية، بل وربما تفخر بي إذا رأتنى في ثيابي السّوداء. يمكنني أن أقول لها: «إنني رجل الآن يا أمّاه، وكيل وأخ في حرس اللّيل. أحيانًا يدعوني إخوتي بسام القاتل». وسيرى أخاه سيكون وأخواته أيضًا. يمكنني أن أقول لهم: «انظروا، انظروا، اتّضح أنني أصلح لشيء».

لكن إذا ذهب إلى (هورن هيل) فربما يكون أبوه هناك.

جعلَ الخاطر معدته تتور من جديد، ومالَ سام من فوق الحاجز وعادَ يقيء، ولكن ليس في اتجاه الريح، إذ ذهب إلى الحاجز الصحيح هذه المرة. لقد بدأ يبرع في التقيؤ.

أو أن هذا ما كان يحسبه، إلى أن ابتعدت (الطائر الأسود) عن اليابسة وتوجَّهت شرقًا عبر الخليج نحو سواحل (سكاجوس).

تقع الجزيرة في مدخل (خليج الفقمات)، مساحتها هائلة وجبالها ضخمة وأرضها قاسية وعرة يسكنها البرابرة. سبق لسام أن قرأ أنهم يقطنون بالكهوف والجبال المنعزلة، ويمتطون اليونيكورنات الشعناء الضخمة إلى الحرب. في اللغة القديمة كلمة «سكاجوس» معناها «حجر»، ويسمّي السكاجوسيون أنفسهم حجرّي الميلاد، لكن من عداهم من أهل الشمال يسمّونهم «سكاجيين» ولا يكتّون لهم مودة. قبل مئة عام فقط تمزّد السكاجييون، واستغرق إخماد ثورتهم سنوات وأتى على حياة سيّد (وينترفل) ومئات من جنده. يقول بعض الأغاني إن السكاجيين أكلة لحوم بشر، ويفترض أن محاربيهم يأكلون قلوب وأكباد من يقتلون، وفي الماضي السحيق أبحر السكاجوسيون إلى جزيرة (سكاين) القريبة وسبوا نساءها وذبحوا رجالها وأكلوهم على الشاطئ في وليمة استمرت أسبوعين كاملين، وحتى اليوم تظلّ (سكاين) مقفرة.

داريون أيضًا يعرف الأغاني، فحين ارتفعت قمم (سكاجوس) الزمادية الكثيبة من البحر انضمّ إلى سام عند مقدمة السفينة، وقال: «إذا شاءت الآلهة سنلمح يونيكورن».

- «إذا شاءت الآلهة لن نقرب لتلك الدرجة. الثّيارات خدّاعة حول (سكاجوس)، وثمة صخور يمكن أن تكسر بدن السفينة كقشرة البيضة. لكن لا تذكّر هذا لجيلي، إنها خائفة بما فيه الكفاية».

- «هي وابنها الذي لا ينقطع عن البكاء. لا أدري أيهما أكثر صخبًا. الوقت الوحيد الذي لا يبكي فيه لقا تدش حلمتها في فمه، وعندئذ تشرع هي في البكاء!».
كان سام قد لاحظ هذا أيضًا، لكنه قال بكلل: «ربما يؤلمها الرضيع. إذا كان قد بدأ يُسْتَن...».

نقر داريون على أوتار عوده بإصبع واحد عازفًا نغمة ساخرة، وقال: «سمعتُ أن الهمج أشجع من هذا». رَدَّ سام بإصرار: «إنها شجاعة»، ولو أنه هو نفسه عليه أن يقرَّ بأنه لم يرَ جيلي في تلك الحالة المزرية من قبل. على الرغم من أنها تخفي وجهها أغلب الوقت وتُحافظ على عتمة القمرة فإنه يرى عينيها محمّرتين دائمًا والذموع تُبلل وجنتيها، لكن عندما سألها عما هنالك اكتفت بهزُّ رأسها وتركته يبحث عن الإجابات بنفسه. قال لداريون: «البحر يُخيفها لا أكثر. قبل ذهابها إلى (الجدار) لم تعرف في حياتها إلا (قلعة كراستر) والغابة المحيطة بها. لا أظنُّ أنها ابتعدت أكثر من نصف فرسخ عن المكان الذي وُلدت فيه. إنها تعرف الجداول والأنهار، لكنها لم ترَ بحيرةً قطُّ إلى أن صادفنا واحدة، والبحر... البحر مخيف».

- «اليابسة لم تُغِب عن أعيننا إطلاقًا».

- «لكنها ستغيب». سام أيضًا لا يتطلّع إلى تلك المرحلة من الرحلة.

- «مؤكد أن القاتل لا يخشى القليل من الماء».

قال سام كاذبًا: «ليس أنا، بل جيلي... قد يُساعد
الرُّضيع على الثَّوم أن تُغْنِي لهما بعض أغاني المهد».
التوى فم داريون اشمئزازًا، وقال: «فقط إذا دشت
سداةٌ في مؤخرته. لست أطيعُ الرَّائحة».

في اليوم الثَّالي بدأت الأمطار وازدادَ البحر تقلُّبًا،
فقال سام لإيمون: «الأفضل أن ننزل بعيدًا عن البلل»،
لكن المايستر الهَرَم ابتسم قائلاً: «أحبُّ الشُّعور بالمطر
على وجهي يا سام، كأنه دموع. دعني أبقى فترةً أطول
قليلاً أرجوك. لقد مضى زمن طويل منذ بكيث».

إذا أرادَ المايستر إيمون أن يبقى على الشَّطح على
الرغم من شيخوخته وهشاشته فلا خيار لدى سام إلَّا
البقاء معه. هكذا جلس إلى جوار الرِّجل ما يَقْرُب من
ساعة، وقد ربَضَ بمعطفه الذي غاصت فيه قطرات
المطر النَّاعمة الثَّابتة وتخلَّته حتى الجلد، أمَّا إيمون
فبدأ أنه يشغُر به بالكاد. تنهَّد العجوز وأغلق عينيه، ودنا
سام منه أكثر ليقيه من الرِّيح قدر الإمكان قائلاً لنفسه:
سَيَطْلُبُ مني أن آخذه إلى القمرة قريبًا، لا بُدَّ أن يفعل،
لكن إيمون لم يفعل، وأخيرًا بدأ هزيم الرِّعد يتردَّد من
بعيد ناحية الشَّرق، ليقول سام مرتعدًا: «يجب أن
ننزل». لم يُجبه المايستر إيمون، وعندئذٍ فقط تبَيَّن سام
أن العجوز غاب في الثَّوم، فقال وهو يهزُّه من كتفه
برفق: «أيها المايستر، مايستر إيمون، استيقظ».

انفتحت عينا إيمون البيضاء والكيفتان، وقال
والمطر ينهمر على وجنتيه: «إج؟ إج، حلمت بأني
عجوز».

لم يدر سام ماذا يفعل. انحنى ورفع العجوز وحمله
إلى أسفل. لم يصفه أحد بالقوة قَطُّ، وقد تشبعت
ملابس المايستر إيمون السوداء بالماء مضاعفة وزنه،
ومع ذلك لم يكن أثقل من طفل. حين اندفع إلى القمرة
وإيمون بين ذراعيه وجد أن جيلي تركت الشموع كلها
تنطفئ. كان الرضيع نائقا، وتكورت هي على نفسها في
زكني باكية بخفوت بين طيات المعطف الأسود الكبير
الذي أعطاها سام إياه. قال مستعجلا إياها: «ساعديني،
يجب أن نجففه ونذفنه».

نهضت من فورها، ومعا خلعا عن المايستر العجوز
ثيابه المبتلة ودفناه تحت كومة من الفرو، لكن جلده
كان رطبًا باردًا دبِقَ الملمس، فقال سام لجيلي: «ادخلي
معه تحت الأغطية، ضميه إليك، دقنيه بجسدك، يجب
أن نذفنيه». أطاعته في هذا أيضًا دون أن تقول كلمة
وإن ظلت تتنشق. سأل سام: «أين داريون؟ سندفأ أكثر
إذا كنا كلنا معا. ينبغي أن يكون هنا أيضًا». كان في
الطريق إلى أعلى ثانية ليجد المغني عندما ارتفعت
الأرض من تحته ثم هوت. ولولت جيلي، وسقط فاقدا
توازئه، واستيقظ الرضيع صارخا.

وَأَتَتْ رَجَّةَ السَّفِينَةِ الثَّالِيَةِ بَيْنَمَا يُحَاوِلُ الثُّهُوضَ
بِصُعُوبَةٍ، فَأَلْقَتْ جِيلِي بَيْنَ ذِرَاعِيهِ وَتَشَبَّثَتْ بِهِ الْفَتَاةُ
الْهَمْجِيَّةُ بِشِدَّةٍ مُسْتَمِيتَةٍ جَعَلَتْهُ يَكَادُ لَا يَسْتَطِيعُ التَّقَاطُ
أَنْفَاسِهِ، لَكِنَّهُ قَالَ لَهَا: «لَا تَخَافِي، هَذِهِ مَغَامَرَةٌ فَحَسَبُ.
ذَاتَ يَوْمٍ سَتَحْكِيَنَّ لِابْنِكَ عَنْهَا». لَمْ يُفْلِحْ قَوْلُهُ إِلَّا فِي
جَعْلِهَا تَغْرِسَ أَظْفَارِهَا أَكْثَرَ فِي ذِرَاعِيهِ، وَارْتَعَدَتْ وَاهْتَزَّتْ
جَسَدُهَا كُلُّهُ مِنْ غُفٍّ نَحِيْبِهَا. مَهْمَا قَلَّتْ أَزِيدَ الْأَمْرُ
سُوءًا. اِحْتَوَاهَا بِقُوَّةٍ وَهُوَ يَعِي عَلَى نَحْوٍ غَيْرِ مُرِيحٍ أَنْ
تُدِييَهَا مُلْتَصِقَانِ بِصَدْرِهِ، وَعَلَى الرِّغْمِ مِنْ دُعْرِهِ كَانَ هَذَا
كَافِيًا لِاسْتِثَارَتِهِ. قَالَ لِنَفْسِهِ خَجَلًا: سَتَشْفُرُ بِهِ، لَكِنْ إِذَا
شَعَرْتَ جِيلِي بِشَيْءٍ فَإِنَّهَا لَمْ تُبِدْ أَمَارَةً عَلَى ذَلِكَ، بَلْ
تَمَسَّكَتْ بِهِ أَكْثَرَ.

اِخْتَلَطَتْ الْأَيَّامُ مَعًا بَعْدَ ذَلِكَ. لَمْ يَرَوْا الشَّمْسَ قَطُّ،
وَاصْطَبَقَتْ النَّهَارَاتُ بِالزَّمَادِيِّ وَاللَّيَالِي بِالْأَسْوَدِ، إِلَّا عِنْدَمَا
يُضِيءُ الْبَرْقُ السَّمَاءَ فَوْقَ ذُرَى (سَكَا جُوسَ)، وَجَمِيعُهُمْ
يَتَضَوَّرُ جَوْعًا لَكِنْ لَا أَحَدٌ يَقْدِرُ عَلَى الْأَكْلِ. فَتَحَ الرُّبَّانُ
بِرْمِيلَ نَبِيذِ نَارِي لِتَقْوِيَةِ الْمَلَّاحِينَ، وَجَزَّبَ سَامَ كَوْبًا مِنْهُ
وَتَنَهَّدَ إِذْ أَحْسَسَ بِنُعَابِينَ سَاخِنَةٍ تَزْحَفُ دَاخِلَ خَلْقِهِ إِلَى
صَدْرِهِ، وَأَعْجَبَ الشَّرَابُ دَارِيُونَ أَيْضًا، وَمِنْذَ حِينِهَا لَا
يَسْتَفِيقُ إِلَّا نَادِرًا.

ارتفعت القلوع وانخفضت، وتمزق أحدها من صاريته
وطار مبتعدًا كطائر رمادي ضخم، وإذ دارت (الطائر
الأسود) حول ساحل (سكاجوس) الجنوبي أبصروا
خطام قاديس على الضخور، وقد انجرف عدد من أفراد
طاقمه إلى الشاطئ، واحتشدت طيور الرُّخ (49)
والشراطين تحتفي بهم على طريقتهما. دمدَم ذو الأسماك
المالحة العجوز: «قريبون للغاية. نفخة واحدة قويّة
كفيلة بتحطيمنا إلى جوارهم». على الرغم من إعيائهم
مالَ ملاحوه على مجازيفهم من جديد، ويغسر راحت
السفينة تشق الأمواج المعتلجة جنوبًا صوب (البحر
الضيّق)، إلى أن تضاءلت (سكاجوس) ولم يَعد يلوح
منها إلّا بضعة أشكالٍ قاتمة في السماء ربما تكون زُكامًا
رعديًا (50). أو قمم جبالٍ سوداء شاهقة، أو هذا وذاك.
بعدها مرّت عليهم أيام ثمانية وليالٍ سبع من الإبحار
الهادئ في أجواء صافية.
ثم هبت عواصف أخرى أسوأ من سابقتها.

أكانت ثلاث عواصف أم عاصفة واحدة تخللتها فترات هدوء؟ لم يعرف سام الإجابة، وإن حاول بكل جوارحه أن يكثر، حتى إن داريون صرخ فيه مژة بينما تلمأوا مغا في القمرة: «ما الفرق؟!»، فأراد سام أن يقول له: لا فرق، لكن ما دمك أفكر في هذا فلن أفكر في الفرق أو الغثيان أو رجفة المايستر إيمون. أجاب بنبرة كالضرب: «لا فرق...»، لكن الرعد طغى على بقية كلامه، وتمايلت السفينة ورقته إلى الجانب. كانت جيلي تنوح، والرضيع يعوي، ومن الأعلى بلغ مسامع سام صوت ذي الأسماك المألحة العجوز يهدر في طاقمه، الرئان الأشعث الذي قلما يتكلم.

كم أكره البحر، كم أكره البحر، كم أكره البحر، كم أكره البحر. ومضة البرق التالية كانت ساطعة لدرجة أنها أضاءت القمرة من خلال الشقوق في ألواح الخشب أعلاهم. هذه سفينة قوية متينة، سفينة قوية متينة، سفينة قوية، لن تغرق، لسث خائفًا.

خلال واحدة من فترات الهدوء بين عاصفتين، وبينما تشبث سام ومفاصل أصابعه مبيضة بالحاجز راغبًا بقوة في أن يقيء، سمع بعضًا من أفراد الطاقم يقولون متذمرين إنهم آلا إلى هذا الموقف بسبب وجود امرأة على السفينة، بل وامرأة همجية أيضًا. سمع أحدهم يقول والريح تشتد مجذذا: «ضاجعت أباه. هذا أسوأ من العهر، أسوأ من أي شيء. سنغرق جميعًا ما لم نتخلص منها ومن ذلك المسخ الذي ولدته».

لم يجرؤ سام على مواجهتهم. إنهم رجال قُساء أصلاب، أذرعهم وأكتافهم غلظتها سنوات العمل على المجاذيف، لكنه حرص على شحذ سكينه والذهاب مع جيلي متى خرجت من القمرة لتقضي حاجتها.

حتى داريون لم يقل خيرًا عن الفتاة الهمجيّة. في مرّة بالحاج من سام بدأ يُغني تهويدهً لتهدئة الرضيع، لكن في منتصف البيت الأول انفجرت جيلي في بكاء عنيف، فقال داريون بحدّة: «بحقّ الجحائم السبع اللعينة! ألا يمكنك أن تنقطعي قليلًا لتسمعي أغنية؟!».

ناشده سام قائلاً: «اعزف فقط، غنّ لها الأغنية».

ردّ داريون: «ليست تحتاج إلى أغنية، بل إلى الصّفع على مؤخّرتها، أو ربما إلى أن ينكحها أحد بقوة. ابتعد عن طريقي أيها القاتل»، ودفع سام جانبًا وخرج من القمرة ليجد شيئًا من السّلوّ في كوب من التّبّيد الثّاري مع أخوة الملاحين الخشنة.

عندئذ كانت الأسباب قد تقطّعت بسام. إنه يكاد يعتاد الرّوائح، لكن بين العواصف وبكاء جيلي لم يُراوده النّوم منذ أيام. حين رأى المايستر إيمون مستيقظًا سأله بخفوت شديد: «أما من شيء يمكنك أن تُعطيها إياه؟ غشبا أو عقّارًا كي لا تخاف؟».

قال له العجوز: «ليس صوت الخوف ما تسمع وإنما الحزن، وليس هناك عقّار يُداوي هذا. دع دموعها تنهمر حتى تنفد يا سام، فلا يمكنك أن تسدّ التّبع».

لم يفهم سام، فسأل: «إنها ذاهبة إلى مكان آمن، مكان دافئ، فلم تحزن؟».

همس العجوز: «سام، إن لك عينين سلیمتین ورغم ذلك لا ترى. إنها أم حزينة على طفلها».

- «إنه مصاب بالغثيان لا أكثر، كلنا مصابون بالغثيان. حالما نرسو في (براغوس)...».

- «... سيظل الرضيع ابن دالا وليس الطفل الذي خرج من جسدها».

استغرق سام وهلة حتى أدرك ما يرمي إليه إيمون، ثم قال: «لا يمكن أن... إنها لا... هو ابنها بالطبع. ما كانت جيلي لتترك (الجدار) دون ابنها إطلاقاً. إنها تحبه».

- «لقد أرضعت الاثنين وأحببت الاثنين، لكن ليس على حدّ سواء. لا أم تحب أطفالها جميعاً بالدرجة نفسها، ولا حتى (الأم في الأعلى). إنني واثق بأن جيلي لم تترك الطفل برغبتها. ما ألقاه حضرة القائد من تهديدات أو وعود ليس بوسعي إلا أن أخفنه... لكن المؤكّد أنه وعد وتوعد».

- «لا، لا، خطأ، ما كان چون ل...».

- «ما كان چون ليفعل ذلك، أمّا من فعله فحضرة القائد. أحياناً لا توجد خيارات سعيدة يا سام، بل خيارات أقلّ جسامّة من غيرها».

لا خيارات سعيدة. فكّر سام في كل المحن التي مرّ بها مع جيلي؛ في (قلعة كراستر) ومصرع الذب العجوز، في الثلج والجليد والرياح التي تُجمّد الثخاع في العظم، في أيام وأيام وأيام من المشي، في الجُثث الحيّة في (وايتري)، في ذي اليدين الباردتين وشجرة الغدقان، في (الجدار)، (الجدار)، (الجدار)، والبوابة السوداء تحت الأرض. وإلامّ أفضى كل ذلك؟ لا خيارات سعيدة ولا نهايات سعيدة.

أراد أن يصرخ. أراد أن يؤلّول وينتحب ويرتجف ويتكوّر على نفسه في الزكن ويبكي. بذل الطفلين، بذلها ليحمي الأمير الصغير، ليبعده عن نيران الليدي مليساندرا وإلهها الأحمر. إذا أحرقت ابن جيلي فغن سيبالي؟ لا أحد إلّا جيلي. إنه ابن كراستر لا أكثر، مسخ وُلد من زنى المحارم، وليس ابن ملك ما وراء الجدار. لا يصلح رهينة، ولا يصلح قُربانًا، لا يصلح لشيء، بل إنه بلا اسم حتى.

بلا كلمة صعد سام مترنخًا إلى السطح ليُفرِّغ معدته، لكنه وجدها خاويةً. كان الليل قد حلَّ عليهم، ليل ساكن غريب لم يروا مثيله منذ أيام. البحر أسود كالزجاج، والملاحون مستريحون على المجاذيف وقد غابَ واحد أو اثنان منهم في النوم في موضعيهما، والريح تدفع الأشرعة، وإلى الشمال كوكبة من النجوم رآها سام علاوةً على الرِّخال الأحمر الذي يُسقيهِ شعب الأحرار (اللص)، ففكر ببؤس: المفترض أن يكون هذا نجمي. لقد ساعدت على جعل جون القائد وجليبث له جيلي والرضيع. ليست هناك نهايات سعيدة.

ظهر داريون إلى جواره غير واع لألمه، وقال: «أيها القاتل، ليلة حلوة أخيرًا. انظر، النجوم بدأت تظهر، وقد نرى لمحةً من القمر أيضًا. ربما انتهى الأسوأ».

ردَّ سام: «لا»، ومسح أنفه وأشار جنوبًا بإصبع سمين إلى الظلام الحالك، وأضاف: «هناك». ولم يكذ يتكلم حتى ومضَ البرق مباغتًا صامتًا ساطعًا يُعمي الأعين، ولأقلَّ من لحظة توهَّجت الشحب البعيدة، جبال مكومة على جبال، أرجوانية وحمراء وصفراء، أطول من العالم ذاته. «الأسوأ لم ينتهِ، الأسوأ في بدايته فقط، وليست هناك نهايات سعيدة».

ضحكًا قال داريون: «بحقَّ الآلهة أيها القاتل، يا لك من جبان».

(48) كانت الشفن القديمة، خصوصاً الحربي منها، تُجهّز ببنايين محصّنين في المقدمة والمؤخرة، يُطلق على كلّ منهما سلوقيّة. (المترجم).

(49) الرّخ طائر أسود صغير من الغرابيّات، ويختلف عن طائر الرّخ الحُرّافي المذكور في أساطير الإغريق. (المترجم).

(50) الزّكام الرّعدي نوع من السّحاب يتشكّل على نحو عمودي كعيف ويحمل المطر ويتزامن مع هبوب العواصف الرّعديّة. (المترجم).

جايمي

دخل اللورد تايوين لانستر المدينة على صهوة جواده،
يرعه المطلية بالمينا القرمزي مصقولة برّاقة وتتألق فيها
الجواهر والزخارف الذهب، وخرج منها في عربة طويلة
مكسوة بالزّيات القرمزية، بينما تركب ست أخوات
صامتات مصاحبات زفاته.

غادر الموكب الجنائزي (كينجز لاندنج) من (بوابة
الآلهة) الأوسع والأفخم من (بوابة الأسد)، غير أن
جايمي أحسّ بخطأ هذا الاختيار، فأبوه كان أسداً ولا
أحد ينكر ذلك، لكن حتى اللورد تايوين نفسه لم يدّع
الالوهية قط.

أحاط بعربة اللورد تايوين حرس شرف من خمسين
فارشا ثرّفرف الأعلام القرمزية على رماحهم، وقد راحت
الريح تلهو براياتهم جاعلة رموزهم تتراقص وتنتفض،
وإذ حبّ جايمي بحصانه نحو مقدّمة الموكب مرّ
بخنازير بريّة وغزيرات⁽⁵¹⁾ وخنافس، وبسهم أخضر
وثور أحمر، ومطردين متقاطعين وحريتين متقاطعتين،
وقيظ أشجار وثمرّة فراولة وكّم سيّدة⁽⁵²⁾، وأربع
شموس متفجرة في مربّعات متباينة الألوان.

ارتدى اللورد براكس سِتْرَةً رَمَادِيَّةً باهتةً مشرّطةً
بِقَمَاشِ الفِصَّةِ، وثبّت فوق قلبه دُبُوسًا من الجَمَشَتِ
على شكل يونيكورن، ودَرَّعَ اللورد چاست نفسه بالفولاذ
الأسود، وقد زخرقت واقي صدره ثلاثة رؤوس أسود
ذهبيّة، وإن كان منظره يشي بأن شائعات موته لم تُبَالِغْ
كثيرًا، إذ تركته الإصابات وفترة السّجن ظِلًّا للزّجل الذي
كانه من قبل، أمّا اللورد بانفورت فقد خلص من المعركة
في حال أفضل وبدأ مستعدًّا للعودة إلى الحرب في
الحال. كان يلوم يرتدي الأرجواني ويرستر الأبيض
المزركش بالأسود ومورلاند الخمري والأخضر، لكن كلاً
منهم وضع على كتفيه معطفاً من الحرير القرمزي
تكريماً للزّجل الذي يصحبونه إلى الوطن.

وراء اللوردات تحرّك مئة من زُمَالة الثُّشَابِيَّةِ وثلاثمئة
من الجنود الفُشَاة الذين ينسدل القرمزي من على
أكتافهم أيضًا، في حين شعر چايمي في معطفه الأبيض
وذرعه البيضاء بأنه في غير محله في هذا البحر
الأحمر.

ولم يَهْوُنْ عَمُّه عليه الأمر. قال السير كيغان عندما
لحقَّ به چايمي في مقدّمة الرّكب: «حضرة القائد، أهنأك
أمر أخير من صاحبة الجلالة لي؟».

- «لست هنا من أجل سرسي». بدأت طبلّة تدقُّ
وراءهما بإيقاع جنائزي بطيء موزون، فبدأ كأنها تقول:
ميت، ميت، ميت. «جنث أوّدعه. لقد كان أبي».

- «وأباها».

- «أنا لست سرسي. إن لي لحيّة ولها ثديان. إذا كنت لا تزال تخلط بيننا يا عقاه فاحص أيدينا. سرسي لها اثنتان».

قال عمّه: «كلاكما يتلذذ بالشخرية. أعفني من يكاتك أيها الفارس، فأنا لا أجد لذة فيها».

- «كما تشاء». الكلام لا يمضي على الوتيرة التي أملتها. «كانت سرسي لترغب في توديعك بنفسها، لكن عليها واجبات كثيرة ملحة».

رَدَّ السير كيثان ساخرًا: «كلّنا كذلك. كيف حال مليكك؟». جعلت نبرته السؤال تأنيبًا.

أجاب چايمي بلهجة دفاعيّة: «بخير. بالون سوان يقضي معه الضباح. إنه فارس صالح شجاع».

- «في الماضي كان هذا من نافلة القول عندما يتكلم الناس عمّن يرتدون المعطف الأبيض».

فكر چايمي: لا رجل يختار إخوته. اتزكوا لي فرصة اختيار رجالي بنفسي وسيعود الخرس الملكي عظامًا من جديد. لكن دعه يقولها على المكشوف وستبدو ذريعة واهية، خيلاء فارغة من رجلٍ ثلّقه البلاد بقاتل الملك. رجل شرفه خراء. صرف چايمي المسألة من ذهنة، فهو لم يأت ليتجادل مع عمّه، وبدلاً من ذلك قال: «أيها الفارس، عليك أن تهدن سرسي».

- «أنحن في حرب؟ لا أحد أخبرني».

تجاهل چايمي التعليق، وقال: «الشقاق بين لانستر ولانستر لن يؤدّي إلّا إلى مساعدة أعداء عائلتنا».

- «إذا كان هناك شقاق فهو ليس من ضنعي. سرسي
ثريد أن تحكم، ليكن إذن، البلاد لها. لا أريد إلا أن أترك
في سلام. إن مكاني في (داري) مع ابني. لا بُدَّ من
ترميم القلعة وزرع الأراضي وحمايتها»، وأطلق السير
كيقان ضحكة مريرة قصيرة، ثم أضاف: «كما أن أختك
تركت لي قليلاً يشغل وقتي غير ذلك. عليّ أن أحضر
زفاف لانسل. عروسه صبرها ينفد وهي جالسة تنتظر
ذهابنا إلى (داري)».

عروسه الأرملة ابنة (الثوأميتين). كان لانسل ابن عمه
راكبًا وراءهما على بُعد عشر ياردات، وقد بدا بنظراته
الخاوية وشعره الأبيض الجاف أكثر عجزًا من اللورد
چاست. أحس چايمي بأصابعه الشبيهة تستحكه لمجرد
مراه... تضاجع لانسل وأوزموند كتلبلاك وربما فتى
القمر أيضًا... لقد حاول أن يتكلم مع لانسل مرّات أكثر
مما يستطيع أن يُحصي، لكنه لم يجده بمفرده قط، فإذا
لم يكن أبوه معه فهناك سبتون ما يُلَازِمُه دوماً. ربما
يكون ابن كيقان، لكن ما في عروقه لبن. تيريون كذب
عليّ، لم يقل ما قاله إلا ليجرحني.

نحى چايمي لانسل عن باله، وعادَ يلتفت إلى عمه
متسائلاً: «هل ستبقى في (داري) بعد الزفاف؟».

- «فترةً ربما. يبدو أن ساندور كليجاين يشنُّ الغارات
في أنحاء (الثالوث). أختك ثريد رأسه. محتفل أنه
انضمَّ إلى دونداريون».

سمع چايمي بما حاق بـ(الملاحات)، ولا بُدَّ أن نصف
البلاد سمع أيضًا. الغارة كانت استثنائية في وحشيتها؛
النساء اغتصبن وقطعت أثداءهن، والأطفال ذبحوا بين
أذرع أمهاتهم، ونصف البلدة أضرم فيه النار. «راندل
تارلي في (بركة العذارى). دعه يتعامل مع الخارجين
عن القانون. عن نفسي أفضل أن تذهب إلى (ريقرزن)».
- «السير داقن له القيادة هناك، حاكم الغرب. ليس هو
من يحتاج إلي بل لانس».

- «كما تقول يا عمّاه». كان رأس چايمي يدق بنفس
إيقاع الطبلّة، ميت، ميت، ميت. «خير لك أن تحتفظ
بقرسانك حولك».

رمقه عمّه ببرود سائلاً: «أهذا تهديد أيها الفارس؟».
تهديد؟ ردّ وقد باغته الكلمة: «إنه تنبيه. قصدت
فقط أن... ساندور رجل خطر».

- «إنني أشنق الخارجين عن القانون والفرسان
اللصوص وأنت لا تزال تتبرز في قماطك. لن أذهب
وأواجه كليجاين ودونداريون بنفسي إذا كان هذا ما
تخشاه أيها الفارس. اشتاء المجد بكل حماقة ليس من
خصال جميع أبناء لانستر».

اعتقد أنك تتكلم عني أنا يا عمّاه. «أدام ماربراند
يستطيع التعامل مع هؤلاء المجرمين مثلك تمامًا، وكذا
براكس أو بانفورت أو يلوم أو أي الآخرين، لكن لا أحد
منهم مناسب لأن يكون يد ملك صالحا».

- «أختك تعرف شروطي، وشروطي لم تتغير. قل لها هذا عندما تذهب إلى غرفة نومها المرة القادمة»، وهمز السير كيغان جواده الحربي وهرول إلى الأمام واضعاً نهايةً مبتورةً لحوارهما.

تركه چايمي يذهب شاعراً بيد سيفه المفقودة ترتعش. كان يأمل رغم وهن الأمل أن سرسي أساءت الفهم بشكل ما، لكن الواضح أن ذلك خطأ. إنه يعلم بأمرنا، بأمر تومن ومارسلا، وسرسي تعلم أنه يعلم. السير كيغان عثما لانستر من أولاد (كاسترلي روك)، ولا يُصدّق چايمي أنها تستطيع أن تؤذيه بأي وسيلة، ولكن... لقد أخطأت بشأن تيريون، فلم لا أكوّن مخطئاً بشأن سرسي أيضاً؟ في زمانٍ يقتل فيه الأبناء آباءهم ما الذي يردع ابنة أخٍ عن الأمر بقتل عثما؟ وهو عمّ مزعج يعرف أكثر من اللازم. ولو أن محتملاً أن سرسي تأمل أن يقوم كلب الصيد بعملها بدلاً منها. إذا قتل ساندور كليجاين السير كيغان فلن تحتاج إلى تلويث يديها بالدماء. وإذا التقيا فسيقُتلها. في الماضي كان كيغان لانستر رجلاً ضلّماً، إلّا أنه لم يَغْدِ شاباً، وكنب الصيد...

لحقّ به الموكب، وإذ مرّ به ابن عمّه وعلى جانبيه سيتونان ناداه چايمي قائلاً: «لانسلا يا ابن العم، أردت أن أهتلك على زواجك. لا يؤسفني إلّا أن واجباتي لا تسمح لي بالحضور».

- «لا بُدّ أن يظلّ صاحب الجلالة محميّاً».

- «وسيكون كذلك. لكني أكره أن يفوتني إضجاعك.
إنها زيجتك الأولى وزيجتها الثانية حسب ما فهمت. أنا
واثق بأن سيديتي سيسرّها أن ثريك ما الذي يُوضَع
أين».

دفعت الملاحظة البذيئة عددًا من اللوردات القريبين
إلى الضحك وسيتوئي لانسل إلى النّظر إليه باستنكار،
في حين اعتدل ابن عمّه متململاً فوق سرجه، وقال:
«أعرف ما يكفي لأن أوّدي واجبي كزوج أيها الفارس».
- «بالضبط ما تُريده العروس ليلة زفافها، زوجًا يعرف
كيف يُؤدّي واجبه».

زحف الاحتقان على وجنتي لانسل، وقال: «إنني
أصلي من أجلك يا ابن العم، ومن أجل جلالتها أيضًا.
عسى أن تقودها (العجوز) إلى الحكمة وأن يُدافع عنها
(الفحارب)».

قال جايمي: «ولم تحتاج إلى (الفحارب) وأنا أدافع
عنها؟»، ودار بحصانه ليخفق معطفه الأبيض في الريح.
العفريت كان يكذب. سرسي تُؤثر أن تأخذ جئة روبرت
بين ساقَيْها على أحرق متدين كلانسل. تيريون أيها
الوغد الشرير، كان يجذر بك أن تكذب بشأن أحد أكثر
قابليّة للتصديق.

هرول مجتازًا عربة جنازة أبيه صوب المدينة التي
تلوح من بعيد.

بَدَتْ شَوَارِعَ (كينجز لاندنج) أَقْرَبَ إِلَى الْقَفْرِ بَيْنَمَا
شَقَّ چَايْمِي لَانْسْتِر طَرِيقَهُ إِلَى (القلعة الحمراء) فَوْقَ
(تَلِّ إِجُونِ الْعَالِي). إِلَى حَدِّ كَبِيرِ رَحْلِ الْجُنُودِ الَّذِينَ
كَانُوا يَشْغُلُونَ أَوْكَارَ الْقَمَارِ وَمَحَالِ الْأَكْلِ فِي الْمَدِينَةِ، إِذْ
عَادَ جَارْلَانِ الْهُمَامِ بِنِصْفِ قُوَّاتِ تَايِرِلِ إِلَى (هَاجَارْدِن)
وَذَهَبَتْ السَّيِّدَةُ وَالِدَتُهُ وَجَدَّتُهُ مَعَهُ، فِي حِينِ زَحْفِ
النِّصْفِ الْآخَرِ جَنُوبًا مَعَ مَایْسِ تَايِرِلِ وَمَاثِیْسِ رَوَانِ
لِتَطْوِيقِ (سْتُورْمَزِ إِنْدِ).

وَبِالنِّسْبَةِ إِلَى جِيشِ لَانْسْتِرِ فَمَا زَالَ أَلْفَانِ مِنْ
الْفَحَارِبِينَ الْمُحْتَكِينَ مَخِیمَیْنِ خَارِجَ أَسْوَارِ الْمَدِينَةِ فِي
إِنْتَظَارِ وَصُولِ أَسْطُولِ پَاكْسْتِرِ رِدَوَايْنِ لِيَحْمِلَهُمْ عَبْرَ
(الْخَلِیْجِ الْأَسْوَدِ) إِلَى (دِرَاجُونْسْتُونِ). یَبْدُو أَنَّ اللَّوْرْدَ
سْتَانِیْسَ تَرَكَ وَرَاءَهُ حَامِیَّةً صَغِيرَةً عِنْدَمَا أَبْحَرَ شَمَالًا،
أَيَّ أَنَّ أَلْفَیْنِ عِدَدٍ یَكْفِیْ وَیَزِیدُ كَمَا قَدَّرْتُ سِرْسِی.

بَاقِیَ الْغَرِیْبِیْنِ عَادُوا إِلَى زَوْجَاتِهِمْ وَأَطْفَالِهِمْ، لِیُعِیدُوا
بِنَاءَ بَیُوتِهِمْ وَیَزْرَعُوا حَقُولَهُمْ فِي سَبِيلِ حَصَادِ مُحْصُولِ
أَخِيرِ. قَبْلَ أَنْ یُغَادِرُوا أَخَذْتُ سِرْسِیَ تَوْمَنْ فِي جَوْلَةٍ
فِي مَخِیمَاتِهِمْ لِیُخِیُّوْا مَلِیْکَهُمُ الصَّغِيرَ. لَمْ تَبَدْ جَمِیلَةً قَطُّ
كَمَا بَدَتْ یَوْمَهَا، عَلَى شَفْطِیْهَا ابْتِسَامَةٌ وَضُوءُ شَمْسِ
الْخَرِیْفِ یَلْتَمِعُ فِي شَعْرَهَا. أَيَّْا كَانَ مَا یُمْكِنُ لِأَمْرِئٍ أَنْ
یَقُولَهُ عَنْ أُخْتِهِ، فَإِنَّهَا تَعْرِفُ كَیْفَ تَجْعَلُ الرِّجَالَ یَهْیَمُونَ
بِهَا حُبًّا عِنْدَمَا تَأْبَهُ كَفَایَةً بِالمَحَاوَلَةِ.

حين دخل جايمي من بؤابة القلعة لاقى نحو دستتين
من الفرسان يتمرنون على الطاووس (53). في الساحة
الخارجية، فقال لنفسه: شيء آخر لم يعد بمقدوري أن
أفعله. الرُمح أثقل وأكثر إرهاقًا من السيف، والشيوف
ثبت استعصاء المِبارزة بها عليه بالفعل. ربما يمكنه أن
يَجْزِب حمل الرُمح بإسراه، لكن ذلك يعني أن ينقل
ثُرسه إلى ذراعه اليمنى، وفي النزال يكون الخصم دائمًا
إلى اليسار، أي أن تعليق الثُرس على ذراعه اليمنى عديم
الجدوى كحلمتين على وافي الصدر. فكّر وهو يترجّل:
لا، أيامي في مضمار النزال انتهت... لكن على الرغم من
هذا توقّف يُشاهد بعض الوقت.

سقط السير تالاد الطويل من فوق حصانه عندما دار
كيس الرُمح وارتطم برأسه، وهوى السير لایل كراكهول
الملقّب بالغُفر القوي (54). على الثُرس بضربة عنيفة
شقّفته، ثم حطّم كينوس ابن بلدة (كايس) بقيّته، ليعلّق
ثُرس جديد للسير درموت ابن (الغابة المطيرة). وجه
لامبرت ترنبري ضربةً عابرةً فحسب، لكن چون بتلي
الحليق وهمفري سويفت وآلن ستاكسبير وجّهوا ضرباتٍ
مُحكّمةً جميعًا، وحطّم رونيت كوننجتون الأحمر رُمحه
إذ أصاب الهدف... ثم امتطى فارس الزهور حصانه
وأخزى الآخرين كلّهم.

لطالبها آمنَ چايمي بأن فَن ركب الخيل يُقَتِّل ثلاثة أرباع النّزال، والسير لوراس يركب ببراعة فائقة ويحمل الرّمح كأنه وُلِدَ قابضًا عليه... وهو ما يُفسّر التّعبير المتقلّص دومًا على وجه أمّه لا ريب. يضع الرّأس حيث يُريد أن يضعه بالضبط ويتمتّع بتوازن القِططة. ربما لم يكن إسقاطه إياي عن حصاني خطأ محضًا. مؤسف أنه لن ينال فرصة مواجهة الضبي ثانية أبدًا.

هكذا ترك الرجال لرياضتهم، ليجد سرسي في عُرفتها الشمسيّة في (حصن ميجور)، ومعها تومن وزوجة اللورد ميريويدر المايريّة ذات الشّعر الداكن، وكان ثلاثتهم يضحكون من المايستر الأكبر پايسل، فقال چايمي حين دخل من الباب: «هل فائتني مزحة طريفة ما؟».

قرقرت الليدي ميريويدر: «أوه، انظري، لقد عادَ أخوك الشّجاع يا جلالة الملكة».

- «معظمه عادَ». لاحظ چايمي أن الملكة ثملة. في الفترة الأخيرة يبدو أن في متناول سرسي إبريقًا من التّبيذ طوال الوقت، وهي التي كانت من قبل تزجر روبرت باراثيون لإسرافه في الشّرب. لا يُعجبه هذا، لكن لا شيء تفعله أخته هذه الأيام يُعجبه. قالت: «أيها المايستر الأكبر، أطلع حضرة القائد على الخبر من فضلك».

بدا يايسل مرتبكا للغاية وهو يقول: «وصل إلينا طائر من (ستوكوورث)، الليدي تاندا أرسلت خبرا بوضع ابنتها لوليس ابنا قويا في صحة طيبة».

- «ولن تُحَقَّن أبدا الاسم الذي أطلقوه على النغل الصغير يا أخي».

- «أذكر أنهم أرادوا تسميته تايوين».

- «نعم، لكنني نهيتهم عن ذلك. قلت لفاليس إنني لن أسمح بأن يُطلق اسم أبينا الثبيل على ابن حرام أنجبته راعي خنازير من خنزيرة بلهاء».

قال المايستر الأكبر يايسل وقد نضحت جبهته المتغضنة غرقا: «الليدي ستوكوورث تؤكد أن اسم الطفل لم يكن من اختيارها، وكتبت أن زوج لوليس هو من اختاره، ذلك الرجل برون... يبدو أنه...».

قال چايمي مخمنا: «تيريون، سقى الطفل تيريون»، وأوما العجوز برأسه باضطراب وهو يخفف جبهته بكم ردائه، فضحك چايمي رغما عنه قائلا: «هاك يا אחتي الجميلة. كنت تبحثين عن تيريون في كل مكان وهو مختبئ في رجم لوليس».

- «طريف. أنت وبرون شديدا الطرافة. لا شك أن النغل يمتص اللبن من أحد ضرعي لوليس بينما نتكلم، بينما يشاهد المرتزق مبتسما لصفاقته».

علقت الليدي ميريويدز: «ربما بين هذا الطفل وأخيك شبه ما، ربما ولد مشوها أو بلا أنف»، وأطلقت ضحكة مبحوحة.

أعلنت الملكة: «علينا أن نرسل هدية إلى الصغير العزيز، أليس كذلك يا تومن؟».

- «يُمكننا أن نرسل إليه هزة صغيرة».

قالت الليدي ميريويدز: «فلنرسل له شيئاً»، وقالت ابتسامتها: ليَمَزُق خلقه الصغير.

ردت سرسي: «كنت أفكر في هدية من نوع آخر».

زوج أم جديد على الأرجح. يعرف چايمي هذه النظرة في عيني أخته. لقد رآها من قبل، أقرب مرة كانت ليلة زفاف تومن حين أحرقت (برج اليد). ساعتها غمر ضوء النار الشعواء الأخضر وجوه المشاهدين فلم يبدووا إلا أشبه بجثث تتعفن، قطع من الغيلان الطروب، لكن بعض الجثث كان أجمل من غيره. حتى في الوهج المشؤوم ظلت سرسي رائعة الجمال، وقد وقفت واطعة يداً على صدرها وافترقت شفاتها وتألقت عيناها الخضراوان. تبين چايمي أنها تبكي، لكن سواء أكان يكاؤها ناجماً عن الحزن أم النشوة فلا يدري.

أفعقه المشهد بالانزعاج إذ ذكره بإيرس تارجارين وكيف كان الحرق يُهَيِّج شبقه. لا يُخفي الملك أسرارًا عن حرسه الملكي، وقد كانت العلاقة بين إيرس ومملكته متوترةً خلال السنوات الأخيرة من حكمه، فناما منفصلين وبذلا قصارى جهدهما ليتحاشى كلُّ منهما الثاني في ساعات اليقظة، لكن متى سلّم إيرس رجلًا للئار كان يأتي الملكة رييلا زائر ليلي. يوم أحرق يد الصولجان والخنجر وقفّ چايمي وچون داري خارج غُرفتها بينما قضى الملك وطره، وسمعا رييلا تصيح من وراء الباب البلوطي السُميك: «إنك تؤلمني». على نحو غريب كان هذا أسوأ من ضراخ اللورد تشيلستد، وأخيرًا وجدّ چايمي نفسه مرغمًا على أن يقول: «لقد أقسمنا على حمايتها أيضًا»، فردّ داري باقتضاب: «نعم، ولكن ليس منه».

رأى چايمي رييلا مرّةً واحدةً فقط بعدها في صبيحة اليوم الذي غادرت فيه إلى (دراجونستون). كانت الملكة ترتدي معطفًا رفعت قلنسوته وهي تدخل المركبة الملكية التي ستنزل بها (ثل إجون العالي) إلى السفينة المنتظرة، لكنه سمع وصيفاتها يتهاقسن عقب رحيلها، ويقلن إن الملكة بدت كأن وحشًا افترسها، خمّش فخذها ومضغّ ثدييها. وحش متوّج.

قُرب النّهاية أضحي الملك المجنون خوّافًا لدرجة أنه
حرّم وجود أيّ نصالٍ في حضوره باستثناء سيوف
الخرس الملكي، وقد تلبّدت لحيته وأثسخت، وصارَ
شعره الذهبي الفضي شبكةً تصل إلى خصره،
واستحالت أظفاره إلى مخالب صفراء متشققة طولها
تسع بوصات. لكن النّصال ظلت تُعذّبه، تلك التي لم
يستطع منها فراژًا، نصال العرش الحديدي. طيلة الوقت
كانت الجلب والجروح شبه المندملة تُغطّي ذراعيه
وساقيه.

تذكر جايمي كلماته بينما يُمعن النّظر إلى وجه
سرسى: فليكن ملكًا على العظام المتفحمة واللّحم
المشوي، فليكن ملكًا على الزّماد. ثم إنه قال: «جلالة
الملكة، هل تسمحين بأن نتكلّم على انفراد؟».

- «كما ترغب. تومن، تأخّرت على الذهاب إلى درس
اليوم. اذهب مع المايستر الأكبر».

- «حاضر يا أمّاه. إننا ندرس قصّة بيلور المبارك».
استأذنت الليدي ميريويزر في الانصراف أيضًا،
وقبّلت الملكة على وجنتيها متسائلة: «هل أعود على
العشاء يا صاحبة الجلالة؟».

- «سأستاء منك كثيرًا إذا لم تفعل».

لم يستطيع جايمي أن يمنع نفسه من ملاحظة الطريقة التي تُحرّك بها المايريّة وركيها وهي تمشي. كلُّ خطوةٍ /غراء. حين انغلق الباب وراءها تنحنح وقال: «أولاً الإخوة كتلبلاك، ثم كايبزن، والآن هي. تحتفظين بمجموعة وحويش غريبة هذه الأيام يا أختي الجميلة».

- «أصبحت مولعةً بالليدي تاينا، إنها تُسلّيني».

- «إنها واحدة من رفيقات مارجري تايرل. لا بُدَّ أنها تتجسّس عليك لحساب الملكة الصغيرة».

قالت سرسي: «طبعا»، وذهبت إلى الخوان لشعيد مَلء كأسها، وأردفت: «مارجري اهتزت طربًا عندما طلبت إذنها في أن آخذ تاينا رفيقةً لي. كان يجب أن تسمعها. ستكون أختًا لك كما كانت لي. يجب أن تأخذها بالطبع! إن معي بنات عمومتي ورفيقاتي الأخريات. ملكتنا الصغيرة لا تُريدني أن أشعر بالوحدة».

- «إذا كنت تعلمين أنها جاسوسة فلم أخذتها؟».

برقت عينا سرسي خُبنا وهي تُجيب: «مارجري ليست بنصف الذكاء الذي تخاله. إنها لا تملك أدنى فكرة عن الأفعى الفاتنة في أعماق تلك المايريّة القذرة، بينما أستغلُّ أنا تاينا في إطعام الملكة الصغيرة ما أريدها أن تعرفه، وبعضه صحيح كذلك، وتاينا تُخبرني بكلِّ ما تفعله العذراء مارجري».

- «حقًا؟ ما الذي تعرفينه عن تلك المرأة؟».

- «أعرف أنها أم لها ابن صغير تُريده أن يسمو إلى مكانة عالية في هذا العالم، وستفعل كل ما يلزم لتحرص على تحقق ذلك. الأقهار كلهن واحد. ربما تكون الليدي ميريويدر أفعى، لكنها بعيدة كل البعد عن الغباء، وتعرف أنها تستطيع الاستفادة مني أكثر من مارجري، ولذا تجعل نفسها مفيدة لي. سيدهشك أن تسمع الأشياء الشائقة التي أخبرتني بها».

- «أشياء مثل ماذا؟».

جلست سرسي عند النافذة، وقالت: «هل تعلم أن ملكة الأشواك تحتفظ بصندوق من الثقود في مركبتها؟ إنه ذهب قديم من قبل الغزوة، فإذا تحامق تاجر ما وطلب ثمن بضاعته ذهباً نقدته إياه بعملة (هايجاردن) التي تزن الواحدة منها نصف واحد من ثنائينا. من التاجر الذي يجرو على الشكوى من أن السيدة والددة مايس تايرل غشته؟»، ورشفت من نبيذها، وسألته: «هل استمتعت برحلتك القصيرة؟».

- «عقنا علق على غيابك».

- «تعليقات عقنا لا تهمني».

- «المفترض أن تهفك. بإمكانك أن تحسني استغلاله، إن لم يكن في (ريقرن) أو (الصخرة) ففي الشمال ضد اللورد ستانيس. لطالما اعتمد أبونا على كيثان عندما...».

- «رووس بولتون حاكم الشمال، سيتعامل هو مع ستانيس».

- «اللورد بولتون محبوس تحت (العُنق)، الحديدئون في (خندق كايلن) يعترضون طريقه إلى الشَّمال».

- «لن يدوم هذا طويلًا. قريبًا سيُزيل ابن بولتون الثَّغل هذه العقبة الصَّغيرة، وسيكون مع اللورد بولتون مدد من جنود فراي قوامه ألفا رجلٍ لدعم قُواته، تحت قيادة هوستين وإينس ابني اللورد والدر. المفترَض أن يكفي هذا للتعامل مع ستانيس وبضعة آلاف من الرِّجال المكسورين».

- «السير كيثان...».

- «... سيكون مشغولًا تمامًا في (داري) بتعليم لانسِل كيف يمسح مؤخرته. لقد جرَّده موت أبينا من شجاعته وأصبح رجلًا عجوزًا انتهى أمره. داقن وداميون سيُحسنان خدمتنا أكثر».

قال جايمي الذي لا يرى ما يعيب ابني خُولته: «لا بأس بهما، لكنك ستحتاجين إلى يد. إن لم يكن عمُّنا فقن؟».

قالت أخته ضاحكة: «ليس أنت، لا تخف. ربما زوج تاينا. جُده كان يد إيرس».

يد قرن الوفرة(55). ما زال جايمي يذكُر أوين ميريويدر جيّدًا. كان رجلًا دمئيًا لكن غير فَعّال في منصبه. «حسب ما أذكُر فقد أبلى الرِّجل بلاءً رائعا حتى إن إيرس نفاه وصادرَ أراضيه».

- «روبرت أعادها، بعضها على الأقل. ستسعد تاينا إذا استغلَّ الباقي».

- «وَهَلْ الْغَرَضُ إِسْعَادُ عَاهِرَةِ مَايِرِيَّةَ؟ حَسِبْتُ أَنَّهُ
خُكْمُ الْبِلَادِ».

- «أَنَا أَحْكُمُ الْبِلَادِ».

صَحِيحٌ، وَلِتَرْحَمْنَا الْإِلَهَةُ. تَحِبُّ أُخْتَهُ أَنْ تَعْتَبِرَ نَفْسَهَا
اللَّوْرِدَ تَايَوِيَيْنَ بِمُحْدِيَيْنَ، لَكِنَهَا مَخْطِئَةٌ. أَبُوهُمَا كَانَ شَدِيدَ
الْقَسْوَةِ وَالْعِنَادِ كَنَهْرٍ جَلِيدِيٍّ، أَمَّا سِرْسِيٌّ فَنَارُ شَعْوَاءٍ
خَالِصَةٍ، خُصُوصًا عِنْدَمَا يُعَارِضُهَا أَحَدٌ. لَقَدْ تَاهَتْ فَرْحًا
كَفْتَاةٍ صَغِيرَةٍ حِينَ عَلِقَتْ أَنْ سِتَانِيْسَ هَجَرَ
(دِرَاجُونِسْتُون) وَقَدْ أَيْقَنْتَ بِأَنَّهُ تَخْلَى عَنِ الْقِتَالِ أَخِيرًا
وَأُبْحَرَ إِلَى الْمَنْفَى، لَكِنَ حِينَ وَصَلَ الْخَبْرَ مِنَ الشُّمَالِ
بَأَنَّهُ ظَهَرَ مَجْدَّدًا عِنْدَ (الْجِدَارِ) كَانَتْ غَضَبَتُهَا تُخِيفُ
النَّاظِرِينَ. إِنَّهَا لَا تَفْتَقِرُ إِلَى الذَّكَاءِ، لَكِنَ يَعُوزُهَا حُسْنُ
التَّقْدِيرِ وَالضَّبَرِ. «إِنَّكَ مُحْتَاجَةٌ إِلَى يَدٍ قَوِيٍّ يُسَاعِدُكَ».

قَالَتْ: «الْحَاكِمُ الضَّعِيفُ يَحْتَاجُ إِلَى يَدٍ قَوِيٍّ، كَمَا
يَحْتَاجُ إِيْرَسُ إِلَى أَبِيْنَا، لَكِنَ الْحَاكِمُ الْقَوِيُّ لَا يَتَطَلَّبُ إِلَّا
خَادِمًا مَطِيعًا يُنْقِذُ أَوَامِرَهُ»، وَدَوَّرَتْ نَبِيذَهَا فِي الْكَأْسِ
مَتَابَعَةً: «رَبَّمَا يَصْلُحُ اللَّوْرِدُ هَالَايْنِ. لَنْ يَكُونَ أَوَّلُ
بَايِرُومَانَسَرٍ يَشْغُلُ مَنَصَبَ يَدِ الْمَلِكِ».

نَعَمْ. لَقَدْ قَتَلْتُ الشَّابِقَ. «ثَقَّةٌ كَلَامٌ عَنْ نِيَّتِكَ تَعْيِينُ
أُورَانِ وَوَتَرَزٍ قِيَّامًا لِلشَّفَنِ».

سَأَلَتْهُ: «هَلْ هُنَاكَ مَنْ يَتَجَسَّسُ عَلَيَّ؟»، وَلَقَا لَمْ يُجِبْ
أَلَقَتْ سِرْسِيٌّ شَعْرَهَا إِلَى الْوَرَاءِ، وَقَالَتْ: «وَوَتَرَزٌ مَنَاسِبٌ
جَدًّا لِلْمَنَصَبِ. لَقَدْ قَضَى نِصْفَ حَيَاتِهِ عَلَى مَتُونِ
الشَّفَنِ».

- «نصف حياته؟ إنه يبدو في العشرين على الأكثر».
- «في الثانية والعشرين، وماذا في هذا؟ أبونا لم يكن قد بلغ الحادية والعشرين عندما عيَّنه إيرس تارجارين يداً. حان الوقت لأن يُحيط بتومن شَبَّان بدلاً من أولئك المسنَّين المتغضَّنين. أوران قوي ونشيط».

قوي ونشيط ووسيم... كانت تُضاجع لانسِل وأوزموند كِنِلبلاك وربما فتى القمر أيضاً... «باكستر ردواين خيار أفضل. إنه يقود أكبر أسطول في (وستروس)، في حين يستطيع أوران ووترز أن يقود قاربًا، بشرط أن تبتاعه له».

- «أنت طفل يا چايمي. ردواين من حملة راية تايرل وابن شقيق أمه الشنيعة تلك. لست أريد أياً من مخلوقات اللورد تايرل في مجلسي».

- «تعين مجلس تومن».

- «تعلم ما أعنيه».

جيداً/جداً. «أعلم أن أوران ووترز فكرة سيئة وهالين فكرة أسوأ، وبالنسبة إلى كايرن... بحق الآلهة يا سرسي، لقد كان من جماعة قارجو هوت، (القلعة) جرّده من سلسلته!».

- «الخراف الزماديّة. كايرن جعل نفسه مفيذاً لي لأقصى درجة، كما أنه مخلص، وهذا أكثر مما يُمكن أن أقول عن أهلي أنفسهم».

ستلتهم الغربان وليمةً من لحومنا جميعًا إذا استمرت
في هذا الطريق يا أختي الجميلة. «سرسی، أنصتي إلى
نفسك. إنك ترين الأقسام في كلَّ ظلٍّ وتصنعين من
الأصدقاء أعداء. القم كيغان ليس عدوك، أنا لست
عدوك».

انقلبت سحنتها حنقًا، وقالت: «لقد توشلت إليك أن
تساعدني، ركعت على ركبتي أمامك ورفضتني!».
- «قسمي...».

- «... لم يردك عن قتل إيرس. الكلام هواء. كان
بإمكانك أن تحظى بي، لكنك اخترت معطفاً أبيض بدلاً
مني. اخرج».

- «أختاه...».

- «قلّ اخرج. لقد سئمْتُ من النظر إلى جدعتك
القبیحة هذه. اخرج!»، ولتدفعه إلى المغادرة بسرعة
ألقت كأس نبیذها نحو رأسه. أخطأت سرسي التّصویب،
لكن چایمی فهم التلميح.

حلّ عليه المساء وهو جالس وحده في الحُجرة
المشتركة بـ(برج السيف الأبيض) ومعه كأس من التّبیذ
الدورني الأحمر و(الكتاب الأبيض)، وكان يقلب
الصفحات بجذعة يده المبتورة حين دخل فارس الزّهور
وخلع معطفه وحزامه وعلّقهما على مشجب على
الحائط إلى جوار معطف وحزام چایمی، الذي قال:
«رايتك في السّاحة اليوم. أحسنت الرّكوب».

رَدَّ السير لوراس: «أحسنْتُ وأكثرت بالتأكيد»، وَصَبَتْ
لنفسه كأسًا وجلسَ قُبَالَتِهِ إِلَى الطَّاوِلَةِ ذاتِ الشَّكْلِ
الهَلَالِيِّ.

- «كَانَ رَجُلٌ أَكْثَرَ تَوَاضُّعًا لِيَقُولَ: أَشْكُرُ لِسَيِّدِي لُطْفَهُ،
أَوْ كَانَ حِصَانِي جَيِّدًا».

- «الْحِصَانُ كَانَ مَلَائِقًا، وَسَيِّدِي لَطِيفٌ بِقَدْرِ مَا أَنَا
مَتَوَاضِعٌ»، وَأَشَارَ لُورَاسُ إِلَى الْكِتَابِ مُسْتَطَرِّدًا: «اعْتَادَ
اللَّوردُ رَنَلِي أَنْ يَقُولَ إِنَّ الْكُتُبَ لِلْمَايَسْتِرَاتِ».

- «هَذَا الْكِتَابُ لَنَا. تَارِيخُ كُلِّ رَجُلٍ ارْتَدَى الْمَعْطَفَ
الْأَبْيَضَ مَدُونٌ هُنَا».

- «أَلْقَيْتُ نَظْرَةً عَلَيْهِ. الثَّرُوسُ جَمِيلَةٌ. أَفْضَلُ الْكُتُبِ
الَّتِي تَحْتَوِي عَلَى رَسُومٍ أَكْثَرَ. اللَّوردُ رَنَلِي كَانَ يَمْلِكُ
مَجْمُوعَةً فِيهَا رَسُومٌ كَفِيلَةٌ بِأَنْ تُعْمِيَ الشَّيْطَانُونَ الَّذِي
يَقْرَأُهَا».

ابْتَسَمَ جَايْمِي رَغَمًا عَنْهُ، وَقَالَ: «لَا شَيْءَ مِنْ هَذَا هُنَا
أَيُّهَا الْفَارِسُ، لَكِنَّ الْقِصَصَ سَتَفْتَحُ عَيْنِيكَ. مَفِيدٌ لَكَ أَنْ
تَعْلَمَ سِيرَ مَنْ سَبَقُوكَ».

- «أَعْرِفُهَا. الْأَمِيرُ إِيْمُونُ الْفَارِسُ التَّيْنِ، السَّيْرُ رَايْمَانُ
رِدْوَايْنِ، الْقَلْبُ الْكَبِيرُ، بَارِيَسْتَانُ الْبَاسِلِ...».

- «... جَوَايْنُ كُورِبْرَايْ، آلَنُ كُونَنْجَتُونُ، شَيْطَانُ
(دَارِي)، نَعَمْ. لَا بُدَّ أَنَّكَ سَمِعْتَ بُلُوكَامُورَ سَتْرُونْجَ أَيْضًا».

أجاب السير لوراس وقد لاح عليه الاستمتاع: «السير
لوكامور الشهواني؟ ثلاث زوجات وثلاثون طفلاً، أليس
كذلك؟ لقد قطعوا قضيبه. هل أغني لك الأغنيّة يا
سيّدي؟».

- «والسير تيرانس توين؟».

- «ضاجع عشيقه الملك ومات صارخاً. الدّرس
المستفاد أن على من يرتدون السّراويل البيضاء أن
يعقدوا أربطتها بإحكام».

- «وجايلز ذو المعطف الزّمادي؟ وأوريقل طليق
اليدين؟».

- «جايلز كان خائناً وأوريقل كان جبائلاً، رجلين لوّثا
المعطف الأبيض. ما الذي يرمي إليه سيّدي؟».

- «لا شيء. لا تُشعّرَن بإهانة لم تُوجّه أيها الفارس.
ماذا عن توم كوستاين الطّويل؟».

هزّ لوراس رأسه نفياً.

- «كان فارساً في الحرس الملكي طيلة ستّين عامًا».

- «متى كان ذلك؟ إنني لم...».

- «السير دونل ابن (وادي الفسق) إذن؟».

- «ربما سمعت الاسم، لكن...».

- «أديسون هيل؟ البومة البيضاء مايكل مرتينز؟

جيفوري نوركروس؟ كانوا يُلقّبونه باللا مستسلم.

روبرت فلاورز الأحمر؟ يمّ يُمكنك أن تُخبرني عنهم؟».

- «فلاورز اسم نغولة، وكذا هيل».

- «لكن كليهما ترقى حتى قاد الخرس الملكي.
حكائتاهما في الكتاب. رولاند داركلين هنا أيضًا، أصغر
رجل خدم في الخرس الملكي على الإطلاق، إلى أن
جثث أنا. لقد مُنح معطفه في ميدان القتال ومات خلال
ساعة من ارتدائه».

- «لا يمكن أنه كان بارغا إذن».

- «كان بارغا بما فيه الكفاية. لقد مات، لكن مليكه
عاش. رجال شجعان كثر ارتدوا المعطف الأبيض، لكن
أكثرهم طواه النسيان».

- «أكثرهم استحق النسيان، لكن الأبطال سيذكرون
دوماً، الأفضل».

- «الأفضل والأسوأ». أي أن أحداً سيعيش في
الأغاني غالباً. أضاف چايمي وهو ينقر على الصفحة
التي كان يقرأها: «وقلائل مَن كانوا مزيحاً من هذا
وذاك، مثله».

اشرب السير لوراس بغنقه ليرى، وقال: «مَن؟ عشر
كُريات سوداء على خلفية قرمزية. لا أعرف هذا الرمز».
قال چايمي: «كان رمز كريستون كول الذي خدم
قسيرس الأول وإجون الثاني»، وأغلق (الكتاب الأبيض)
مضيفاً: «كانوا يُشفونه صانع الملوك».

(51) الفزير حيوان من أكلة اللحوم من فصيلة العرسيات،
تجمع هيئته بين الكلب والشفور، وله قوائم سوداء قصيرة.
(المترجم).

(52) كَمْ السَّيِّدَةُ مِنْ شَعَارَاتِ الثُّبَالَةِ الْقَدِيمَةِ فِي فَرَنْسَا
وَسْكَوْتَلَنْدَا وَإِنْجَلْتِرَا، وَيُضَوِّرُ دُونَ بَقِيَّةِ الْفُسْتَانِ دَلَالَةً عَلَى عَادَةِ
فَصْلِ السَّيِّدَاتِ أَكْمَامِهِنَّ وَإِعْطَانِهَا لِلْفُرْسَانِ دَلِيلًا عَلَى الْمَحَابَةِ
قَبْلَ نَزْوِلِهِمْ إِلَى مَضَامِيرِ الثُّزَالِ. (المترجم).

(53) الطَّاوُوسُ مَجْسُومٌ عَلَى شَكْلِ إِنْسَانٍ يَدُورُ عَلَى مَحْوَرٍ،
يُسْتَخْدَمُ فِي التَّدْرِيبِ عَلَى الثُّزَالِ، وَعَادَةً مَا يُقْبَتُ ثَرَسٌ فِي
إِحْدَى يَدَيْهِ، وَفِي الثَّانِيَةِ سَيْفٌ أَوْ زُمَحٌ غَيْرُ حَادٍ أَوْ كَيْسٌ رَمَلٍ.
(المترجم).

(54) الْغُفْرُ نَوْعٌ مِنَ الْخَنَازِيرِ الْبَرْيَةِ الضَّارِيَةِ. (المترجم).

(55) قَرْنُ الْوُفْرَةِ رَمْزٌ إِقْطَاعِي قَدِيمٌ، تَعُودُ أَصُولُهُ إِلَى الْأَسَاطِيرِ
الْإِغْرِيْقِيَّةِ، وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ قَرْنٍ مَلِيءٍ عَنْ أَجْرِهِ بِالزُّهُورِ وَالْفَاكِهَةِ
وَالْحُلُوى وَغَيْرِهَا مِمَّا يَدُلُّ عَلَى الْوُفْرِ وَالْخُصُوبَةِ. (المترجم).

قالت الملكة لنفسها إذ خُروا راكعين أمامها: ثلاثة حمقى مافونيين معهم كيس من الجلد. لم تجد منظرهم مشجِّعًا على الإطلاق. لكن هنالك فرصة دائمة على ما أظن.

خاطبها كايدون قائلاً بهدوء: «جلالة الملكة، المجلس الصغير...».

- «... سينتظر ذهابي على راحتى. محتفل أن نزل إليهم خبر موت أحد الخونة». عبر المدينة تترنم أجراس (سيت بيلور) بلحن الجداد، لكن سرسى فكرت: لا أجراس ستدق لك يا تيريون. سأغمس رأسك في القطران وأرمي جسدك المشوه للكلاب. قالت للثلاثة الزاغيين في أن يكونوا لوردات: «أروني ما جلبتموه لي».

نهضوا، ثلاثة رجال قباح يرتدون أسمالاً، أحدهم على عنقه ذمل ولا أحد منهم استحم منذ نصف عام. وجدت فكرة رفع أمثالهم إلى اللوردية طريفة. يمكنني أن أجلسهم إلى جوار مارجري في المآدب. حين حل كبير الحمقى رباط الكيس ودس فيه يده أفعقت رائحة العفونة قاعة اجتماعات الملكة كوردة زنخة، ثم إنه أخرج رأساً استحال لونه إلى الأخضر والزمادي ويغض باليرقات. رائحته كأبي. شهقت دوركاس وغطت جوسلين فمها وأفرغت معدتها.

تطلّعت الملكة إلى غنيمتها بجنان ثابت، وأخيرًا قالت
ضاغطةً أسنانها مع كل كلمة: «قتلتهم القزم الخطأ».
تجزأ أحد الحمقى على أن يقول: «لا، إطلاقًا، لا بدّ
أنه هو يا سيّدتي. إنه قزم، انظري. تعقّن قليلًا فقط».
علقت سرسي: «ونبت له أنف جديد، بل وأنف منتفخ
أيضًا. أنف تيريون قُطِعَ في معركة».
تبادل ثلاثة الحمقى النظرات، ثم قال الممسك
بالرأس: «لا أحد أخبرنا. هذا جاء يمشي متبخترًا بكلّ
جراحة، قزم قبيح ما، فحسبنا...».
أضاف ذو الدُمَل: «قال إنه عُصفور»، وأشار إلى
الرّجل الثالث متابعًا: «وأنت قلت إنه يكذب».
أحسّت الملكة بالغضب لفكرة أنها تركت مجلسها
الصّغير ينتظر من أجل هذه المهزلة، وقالت: «لقد
ضيّعتم وقتي وقتلتهم رجلًا بريئًا. حريّ بي أن أمر بقطع
رؤوسكم». لكن إذا فعلت ذلك فربما يتردّد الرّجل الثّالي
ويترك العفريت يفلت، وسرسي لن تسمح بحدوث ذلك
حتى لو صنعت كومةً من جُثث الأقزام ترتفع عشرة
أقدام كاملة. هكذا قالت لهم: «اغزبوا عن وجهي».
قال الدُمَل: «حاضر يا جلالة الملكة، نستميحك
العذر».

وسألها حامل الرأس: «هل تريدينه؟».

- «أعط السير مرين إياه. لا، في الكيس أيها الأبله!

نعم. سير أوزموند، اصحبهم إلى الخارج».

خرج ترانت بالرأس وكتلبلاك بمن قطعوه، تاركين
 إفطار الليدي چوسلين على الأرض الدليل الوحيد على
 الزيارة. قالت لها الملكة امرأة: «نظفي هذا في الحال».
 إنه ثالث رأس يأتيها به أحدهم. على الأقل كان رأس
 قزم هذه المرة. السابق كان مجرد طفل قبيح.
 قال السير أوزموند مطمئناً عندما عاد: «سيعثر
 أحدهم على القزم، لا تخافي، وحينها سنفتك به».
 حقاً؟ ليلة البارحة حلقت سرسي بالعجوز بلغدها
 المتغضن ونبرتها الناعبة. في (لانسپورت) كانوا
 يسفونها ماجي الضفدعة. لو علم أبي بما قالت له لي لقطع
 لسانها. على أن سرسي لم تخبر أحداً قط، ولا حتى
 چايمي. ميلارا قالت إننا إذا لم نتكلم عن الثبوات
 فسنسأها، قالت إن الثبوة المنسية لا يمكن أن تتحقق.
 قال كايرن: «عندي مخبرون يتقضون عن العفريت
 في كل مكان يا جلالة الملكة». كان قد ألبس نفسه رداءً
 يشبه أردية المايسترات كميّزًا، لكنه أبيض بدلاً من
 الزمادي، ناصع كمعاطف رجال الخرس الملكي، وثريّين
 دوائر لولبيّة من الخيط الذهبي حاشيته وكُفّيه وياقته
 العالية اليابسة، وحول خصره وشاح ذهبي مربوط.
 «(البلدة القديمة)، (بلدة الثوارس)، (دورن)، وحتى
 الفدن الحرّة. أينما قرّ سيعثر عليه هامسوي».

- «إنك تفترض أنه ترك (كينجز لاندنج). على حد علمنا قد يكون مختبئًا في (سيت بيلور) الآن، يتأرجح على حبال الأجراس ليصنع هذه الضوضاء الشنيعة، ورسقت سرسي على وجهها الامتعاض وتركت دوركاس تُساعدُها على النهوض قائلة: «هلم يا سيدي، مجلسي ينتظر»، وبينما ينزلان السلالم تأبطت ذراع كايبرن، وسألته: «هل نفدت المهمة الصغيرة التي كلفتك بها؟».

- «نعم يا جلالة الملكة. آسف لأنها استغرقت وقتًا طويلًا. إنه رأس كبير جدًا، والخنافس استغرقت ساعات كثيرة حتى نظفتها من اللحم. على سبيل الاعتذار بطنث صندوقًا من خشب الأبنوس والفضة باللياد ليكون تقديم الجمجمة لائقًا».

- «كيس من القماش يصلح أيضًا. الأمير دوران يريد الرأس، ولن يُبالي مقدار ذرة الصندوق الذي يتسلمه فيه».

كانت جلجلة الأجراس أعلى في الشاحة، فقالت لنفسها: كان مجرّد سيّتون أعلى. إلى متى علينا أن نتحقّل هذا؟ أي نعم في الزّنين لحن أكثر من صرخات الجبل قبل أن تُصفت، ولكن...

بدا أن كايبرن استشفّ ما يجول ببالها، فقال: «الأجراس ستُصفت عند الغروب يا جلالة الملكة».

- «ستكون راحة عظيمة. كيف عرفت؟».

- «المعرفة طبيعة خدمتي».

قارس جعلنا جميعًا نصدّق أنه غير قابل للاستبدال.
كم كنا حمقى. حالما أذاعت الملكة خبر شغل كايرن
منصب الخصي لم يُبدّد الهوام المعتادون وقتًا قبل أن
يقدموا أنفسهم له، ليبادلوا ما لديهم من همسات بالقليل
من المال. طوال الوقت كانت الفضة ما يحركهم وليس
العنكبوت. كايرن سيخدمنا بالكفاءة نفسها. كم تتطلع
إلى رؤية النظرة على وجه پايسل عندما يأخذ كايرن
مكانه.

دائمًا يقف فارس من الخرس الملكي على باب قاعة
المجلس الصغير عندما يجتمع أعضاؤه، واليوم دور
السير بوروس بلاونت، الذي قالت له الملكة ببساطة:
«سير بوروس، تبدو متوَعِّكًا للغاية هذا الصُّباح. أهو
شيء أكلته ربما؟». كان چايمي قد جعله ذؤاق الملك.
واجب لذيذ، لكنه مخجل إذا كنت فارسًا. وبلاونت يكره
واجبه هذا، وقد ارتجف لُغده المتدلي إذ فتح لهما الباب.
بتّر المستشارون كلامهم لدى دخولها. سعل اللورد
جايلز على سبيل التحيّة بصوت عالٍ أيقظ پايسل،
ونهمّ الآخرون لافظين المجاملات، فأباحت سرسي
لنفسها ابتسامة خافتة للغاية، وقالت: «أعلم أنكم
ستغفرون لي تأخري أيها السادة».

رَدّ السير هاريس سويفت: «نحن هنا لنخدم جلالتك،
ومن دواعي سرورنا أن ننتظر وصولك».
- «مؤكّد أن جميعكم يعرف اللورد كايرن».

لم يُخَيِّب المايستر الأكبر پايسل أملها، وقال بوجه كظيم: «اللورد كايرن؟! جلالة الملكة، هذا... المايستر يحلف يمينًا مقدسة بعدم امتلاك أراضٍ أو حياة لوردية...».

قالت سرسي: «قلعتكم جرّدتها من سلسلته. إن لم يكن مايستر فلا يُمكن إلزامه بيمين المايسترات. لقد دعونا الخصي باللورد أيضًا إذا كنت تذكّر».

اندفع پايسل يقول: «هذا الرجل... إنه لا يصلح...».

- «لا تُكلمني عن الصّلاح بعد المهزلة العفنة التي صنعتها من جثة السيّد والدي».

رفع يده المبقّعة كأنما يردّأ عن نفسه ضربة، وقال: «لا يُمكن أن جلالتك تظنّين... الأخوات الصّامتات أزلن أحشاء اللورد تاويين وأعضاءه الداخليّة وأفرغن دماءه... لقد التزمنا العناية الكاملة... حشونا الجثة بالأملّاح والأعشاب العطّرة...».

- «أوه، أعفني من التّفاصيل المقرّزة. لقد شممت نتيجة عنايتك. فنون اللورد كايرن العلاجيّة أنقذت حياة أخي، ولا أشكّ في أنه سيخدم الملك ببراعة أكثر من ذلك الخصي المتزلف. سيّدي، هل تعرف زملاءك المستشارين؟».

أجاب كايرن: «إذا لم أعرفهم فأنا مُخبر خائب يا جلالة الملكة»، واتّخذ مقعدًا بين أورتون ميريويدر وجايلز روزبي.

أعضاء مجلسي. اقتلعت سرسي كل وردة وكل مدين
بمعروف لعفها وأخيها، ووضعت مكانهم رجالاً إخلصهم
لها هي، بل وأطلقت عليهم ألقاباً جديدة استعارتها من
الفن الخزة، فلن يكون في البلاط «قيّمون» إلّاها.
أورتون ميريويدز كبير قضااتها، وجايلز روزي خازنها،
وأوران ووترز-نغل (دريفتمارك) الشاب الوسيم- أميرالها
الأعلى.

ويدها السير هاريس سويفت.

رجل لئن أصلع خنوع هو، له لحية صغيرة بيضاء
سخيفة تُغطّي ذقنه، وعلى وجهه شترته القطيفة
الصفراء الديك الأزرق الصغير رمز عائلته مطرزاً بحبات
اللازورد، وقد ارتدى فوقها معطفاً من المخمل الأزرق
مزيّناً بمئة يد ذهبية. طار السير هاريس فرحاً بتكليفه
لكونه أكثر بلاهة من أن يعي أنه أقرب إلى الرّهينة من
اليّد، فابنته زوجة غم سرسي، وكيقان يحب زوجته
الثّافهة على الرغم من صدرها المسطح وساقها
الرّفيعتين كسيقان الدّجاج. ما دام السير هاريس تحت
تصرّفها فعلى السير كيقان لانستر أن يفكر مرّتين قبل
أن يُعارضها. صحيح أن الحم ليس رهينة مثاليّة لكن
وقاية ضعيفة أفضل من لا شيء.

سألها أورتون ميريويدز: «هل سينضم إلينا الملك؟».

- «ابني يلعب مع ملكته الصغيرة. في الوقت الرّاهن
فكرته عن الملك أن يضع الختم الملكي على الأوراق. ما
زال جلالته صغيراً للغاية على استيعاب شؤون الدّولة».

- «وحضرة القائد الهمام؟».

- «السير چايمي عند صانع السلاح يُرَكَّب يَدًا. أعرف أننا جميعًا سئمنا من منظر تلك الجذعة القبيحة، ولي أن أضيف أنه سيجد جلستنا هذه مضجرة كما سيجدها تومن». قهقهة أوران ووترز لقولها، ففكرت سرسي: جيد، كلما ضحكوا أكثر شكّل چايمي تهديدًا أضعف. فليضحكوا. «هل عندنا نبيذ؟».

- «نعم يا جلالة الملكة». ليس أورتون ميريويدر بالرجل الوسيم، بأنفه الكبير وشعره البرتقالي المحقر الأشعث، لكن الكياسة لا تعوزه أبدًا. «عندنا نبيذ أحمر من (دورن) ونبيذ ذهبي من (الكرمة)، وهيوكراس خلو ممتاز من (هايجاردن)».

- «الذهبي على ما أظن. إنني أجذ الخمر الدورنية رديئة كالدورنيين أنفسهم»، وبينما ملأ ميريويدر كأسها أضافت سرسي: «أرى أن نبدأ بهم إذن».

كانت شفتا المايستر الأكبر پايسل ما زالتا ترتعدان، لكنه وجد القدرة على الكلام بوسيلة ما، فقال: «كما تأمرين. الأمير دوران قبض على نفلات أخيه المشاغبات، لكن (صنسيير) لم تزل تغلي. الأمير كتب أن لا أمل لديه في تهدئة الأوضاع إلى أن يتلقّى العدالة التي وُعدَ بها».

- «بالتأكيد». كائن متعجب هذا الأمير. «انتظاره الطويل يُشارف نهايته. سأرسل بالون سوان إلى (سنسبير) ليؤصل له رأس جريجور كليجاين». وعلى السير بالون مهمة أخرى يُنقذها أيضًا، لكن الأفضل ألا تذكر هذا الجزء.

داعت السير هاريس سويقت لحيته الصغيرة المضحكة بسببته وإبهامه متسائلًا: «آه، هل مات إذن؟ السير جريجور؟».

أجابهُ أوران ووترز بجفاف: «أظنُّ هذا يا سيدي. قيل لي إن قطع الرأس عن الجسد مميت في أغلب الحالات».

تحب سرسي القليل من الطرافة بشرط ألا تكون هدفها، ولذا أيدته بابتسامة، وقالت: «السير جريجور مات متأثرًا بجراحه، تمامًا كما تنبأ المايستر الأكبر پايسل».

تنحنخ پايسل ورمق كايبرن بعبوس قائلاً: «الحربة كانت مسقمة، لم يكن باستطاعة أحد أن يُنقذه». علقت الملكة: «هذا ما قلته من قبل، أذكره جيدًا»، والتفتت إلى يدها تسأله: «غم كنتم تتكلمون حين دخلت يا سير هاريس؟».

- «العصافير يا جلالة الملكة. الشيتون راينارد يقول إن هناك زهاء ألفين في المدينة، والمزيد منهم يصل كل يوم. قادتهم يرددون مواعظ عن الهلاك وعبادة الشياطين...».

رَشَقَتْ سِرْسِي مِنَ التَّبِيدِ. لَذِيذٌ جَدًّا. «وهو ما كان يجب أن يحدث منذ زمن، أليس كذلك؟ ماذا تُسْقِي ذلك الإله الأحمر الذي يَعْبُدُه ستانيس إن لم يكن شيطانًا؟ المفترض أن تُعارض العقيدة هذا الشر». كايبرن -هذا الرجل الفطن- هو من ذكَّرها بالأمر. «أخشى أن الشيتون الأعلى الرَّاحل تغاضى عن الكثير. الشئ أضعفت بصره واستنزفت قوّته».

ابتسم كايبرن لپايسل قائلاً: «كان رجلًا هَرِمًا يا جلالة الملكة، ولم يكن ينبغي أن يُفاجئنا موته. لا أحد يطلب أكثر من أن يموت بسلام في فراشه وقد عاش سنيًا طوالًا».

قالت سِرْسِي: «نعم، لكن علينا أن نأمل أن يكون خليفته أكثر نشاطًا. أصدقائي على التّل الآخر يقولون لي إنه سيكون توربرت أو راينارد على الأرجح».

عادَ المايستر الأكبر پايسل يتنحنح، وقال: «إن لي أصدقاء في مجلس القائتين أيضًا، ويتكلّمون عن الشيتون أوليدور».

قال كايبرن: «ولا تستبعدوا ذلك الرجل لو شن أيضًا. ليلة أمس أولم لثلاثين من مجلس القائتين، أطعمهم الخنازير الرّضيعة وسقاهاهم نبيذ (الكرمة) الذهبي، وبالنّهار يُحسن إلى الفقراء بالخُبز الجامد ليُثبت تقواه».

بدا أوران ووترز شاعرًا بالملل كسرسي بالضبط من كل هذه الثروة عن الشيتونات. حين تراه على مقربة يتضح أن شعره أقرب إلى الفضي من الذهبي، وعينه خضراوان مائلتان إلى الرمادي في حين كانت عينا الأمير ريجار أرجوانيتين، وعلى الرغم من هذا فالشبه... تساءلت إن كان ووترز يقبل أن يحلق لحيته من أجلها. مع أنه يصغرها بعشرة أعوام فإنه يصبو إليها، وسرسي ترى هذا في الطريقة التي يرمقها بها، الطريقة نفسها التي يرمقها بها الرجال منذ بدأ ثدياها ينبتان. لأنني كنت جميلة جدًا كما قالوا، لكن جايمي كان جميلًا أيضًا، ومع ذلك لم ينظروا إليه بتلك الطريقة قَط. في صغرها كانت أحيانًا ترتدي ثياب أخيها على سبيل اللهو، ولطالما أذهلتها المعاملة المختلفة تمامًا التي وجدها من الناس وهم يحسبونها جايمي. حتى اللورد تايوين نفسه...

كان پايسل وميريويذر ما زالا يتجادلان بشأن الرجل الجدير بأن يكون الشيتون الأعلى الجديد، فأعلنت باترة كلامهما: «أيهم يصلح، لكن أيًا كان من يعتمر الثاج البلوري عليه أن يقضي بالحرمان العقائدي على العفريت». كان التزام الشيتون الأعلى السابق الضمت بخصوص تيريون جليًا على نحو فاضح. «وبالنسبة إلى هؤلاء العصافير المتحمسين، فما داموا لا يحرضون على الخيانة فهم مشكلة العقيدة لا مشكلتنا».

تمتّع اللورد أورتون والسير هاريس موافقين، أمّا محاولة جايلز روزبي أن يفعل المثل فدحضتها نوبة من الشعال، وأشاحت سرسي بوجهها باشمئزازٍ إذ سعلَ كتلةً من البلغم الدّامي، وسألت: «أيها المايستر، هل جلبت الرّسالة التي وصلت من (الوادي)؟».

أجاب پايسل: «نعم يا جلالة الملكة»، والتقط الرّسالة من بين كومة أوراقه وسوّاها متابعًا: «إنه أقرب إلى بيانٍ من رسالة، وقّعه في (رونستون) كلٌّ من يون رويس البرونزي والليدي واينوود واللوردات هنتر وردفروت وبلمور، بالإضافة إلى سايموند تميلتون فارس (الثجوم الثّسع). كلهم وضعوا أختامهم، ويكُتبون قائلين...».

... قدرًا لا بأس به من الهراء. «يُمكنكم أن تقرأوا الرّسالة إذا شئتم أيها السّادة. رويس والآخرين يحشدون الرّجال أسفل (العش)، وينوون إزاحة الإصبع الصّغير عن منصب اللورد حافظ (الوادي)، بالإكراه إلى لزم الأمر. الشّؤال الآن، هل نسمح بهذا؟».

سألها هاريس سويفت: «هل يطلّب اللورد بايلش مساعدتنا؟».

- «ليس بعد. الواقع أنه لا يبدو قلقًا على الإطلاق. في رسالته الأخيرة ذكر عابر للمتمرّدين قبل أن يُناشدني أن أشحن له بضع معلّقاتٍ قديمة كانت ملكًا لروبرت».

داعب السير هاريس لحية ذقنه متسائلًا: «وهؤلاء اللوردات الذين وقَّعوا البيان، هل يلتمسون من الملك أن يتدخل؟».

- «لا».

- «إذن... ربما ليس علينا أن نفعل شيئًا».

قال يايسل: «نشوب حرب في (الوادي) سيكون أمرًا مأساويًا للغاية».

رَدَّ أورتون ميريويدر ضاحكًا: «حرب؟ اللورد بايلش رجل مسلَّ جدًا، لكن المرء لا يخوض الحروب بالذُّعابة. أشك أن دما سيُراق، وهل يهم من الوصي على اللورد روبرت الصَّغير ما دام (الوادي) يدفع ما عليه من ضرائب؟».

قالت سرسي لنفسها وقد حزمت أمرها: لا. الحقيقة أن الإصبع الصَّغير كان مفيدًا أكثر في البلاط. كان موهوبًا في إيجاد الذهب، ولم يسْغُل قَط. هكذا قالت: «اللورد أورتون أقنعني. ماистер يايسل، أمل على لوردات البيان هؤلاء ألا يمشَ بيتر أذى، وفيما عدا ذلك فالثَّاج راضٍ عن أيِّ ترتيبات يتخذونها إزاء الحُكم في (الوادي) خلال فترة قصور روبرت آرن».

- «أمرك يا جلالة الملكة».

قال أوران ووترز: «هَلَا ناقشنا الأسطول؟ أقل من دستة من شفننا نجا من جحيم (النهر الأسود)، ولا بُدَّ أن نسترجع قوَّتنا في البحر».

أوماً هاريس سويفت برأسه قائلاً: «القوة البحرية ضرورية للغاية».

سأل أورتون ميريويدز: «هل نستطيع استغلال الحديديين؟ أعداء أعدائنا؟ ما الذي قد يطلبه كرسي حجر اليم منا ثمناً لحلف؟».

أجاب المايستر الأكبر پايسل: «يُريدون الشمال، ووالد ملكتنا الثبيل وعدّ اللورد بولتون بالشمال».

قال ميريويدز: «مؤسف. لكن الشمال كبير ويمكن تقسيم أراضيه. ليس ضرورياً أن يكون الاتفاق دائماً، وربما يقبل بولتون إذا أكّدنا له أن قوّتنا ستكون في صفّه بمجرد تدمير ستانيس».

قال السير هاريس سويفت: «سمعتُ أن بالون جرايچوي مات. هل نعرف من يحكم الجزر الآن؟ هل كان للورد بالون ابن؟».

سعل اللورد جايلز متسائلاً: «ليو؟ ثيو؟».

قال كايرن: «ثيون جرايچوي نشأ في (وينترفيل) ربيعاً لإدارد ستارك، وليس محتملاً أن يكون صديقاً لنا». قال ميريويدز: «سمعتُ أنه قُتل».

شدّ السير هاريس سويفت لحيته الصغيرة، وسأل: «أكان له ابن واحد فقط؟ إخوة، كان هناك إخوة، أليس كذلك؟».

فكّرت سرسي بضيق: كان قارس ليعلم، ثم إنها قالت:
«لا أقترح أن نتحالف مع سرب الأسماك البائس هذا.
دورهم سيحين بعد أن نتعامل مع ستائيس. إننا نحتاج
إلى أسطولنا الخاص».

قال أوران ووترز: «أقترح أن نبني ذرمونات جديدة،
عشرًا كبداية».

سأل يايسل: «وأتى لنا بالشكفة؟».

اعتبر اللورد جايلز السؤال دعوةً للشعال من جديد،
فخرج منه المزيد من اللُعب الوردي الذي جفّفه بمنديل
مرّيع من الحرير الأحمر، ثم إنه استطاع أن يقول:
«ليس هناك... لا... ليس لدينا...»، قبل أن يبتلع الشعال
كلامه.

أثبت السير هاريس أنه سريع كفاية في إدراك المعنى
على الأقل، وقال معترضًا: «دخول الثّاج لم تكن أكبر
مما هي الآن قُط. السير كيقان أخبرني بهذا بنفسه».
قال اللورد جايلز ساعلاً: «...المصروفات... ذوو
المعاطف الذهبية...».

قالت سرسي التي سبق لها أن سمعت اعتراضاته: «اللورد الخازن يُحاول أن يقول إن عندنا كثيرين من ذوي المعاطف الذهبية وقليلًا من الذهب». بدأ شعال روزبي يُضايقها. ربما لم يكن جارت الشمين بهذا الشوء. «مع أن دخول الثاج كبيرة فإنها لا تكفي لتسديد ديون روبرت، وبناءً عليه قرّرت أن تُؤجل دفعنا المبالغ التي ندين بها للعقيدة المقدسة ومصرف (براقوس) الحديدي حتى نهاية الحرب». لا شك أن السيتون الأعلى الجديد سيؤلول احتجاجًا ويرغي البراقوسيون ويزيدوا في وجهها، لكن وماذا في هذا؟ «المبالغ الموقرة ستستخدم في بناء أسطولنا الجديد».

قال اللورد ميريويدز: «جلالتك رشيدة. إنه إجراء حكيم، وضروري أيضًا حتى تضع الحرب أوزارها. أوافق».

قال السير هاريس: «وأنا أيضًا».

وبصوت راجف قال پايسل: «جلالة الملكة، أخشى أن هذا سيُسبب متاعب أكثر مما تحسب. (المصرف الحديدي)».

- «... سيظل في (براقوس)، بعيدًا وراء البحر. سينالون ذهبهم أيها المايستر. اللانستر يُشدّ ديونه».

رُتت حلقات سلسلة پايسل ذات الجواهر بصوت ناعم وهو يقول: «البراقوسيون عندهم مقولة أيضًا، يقولون: (المصرف الحديدي) سينال ما له».

- «(المصرف الحديدي) سينال ما له عندما أقول إنه سيناله، وحتى ذلك الحين سينتظر (المصرف الحديدي) باحترام. لورد ووترز، اشرع في بناء ذرموناتك». - «ممتاز يا جلالة الملكة».

قلب السير هاريس بعض الأوراق، ثم قال: «المسألة التالية... وصلت إلينا رسالة من اللورد فراي يعرض فيها عددًا من الدعاوى...».

قاطعته الملكة محتدة: «كم يريد هذا الرجل من أراض وتكريم؟ لا بُدَّ أن أمه كانت لها ثلاثة أئداء!». قال كايرن: «ربما لا يعلم سادتي هذا، لكن في الخفارات ومحال الأكل في هذه المدينة من يَلْمَحون إلى أن الثاج كان متواطئًا على نحو ما مع اللورد والدر في جريمته».

حدجَه المستشارون الآخرون حائرين، ثم سأل أوران ووترز: «هل تشير إلى الرُفاف الأحمر؟»، وردّد السير هاريس: «جريمته؟»، وتنحنح پايسل بصوت مزعج، وسعل اللورد جايلز.

قال كايرن منبهاً: «هؤلاء العصافير يتكلمون بجرأة أكثر من غيرهم بكثير، يقولون إن الرُفاف الأحمر كان إهانة لكل شرائع الآلهة والبشر، وإن من كانت لهم يد فيه ملعونون».

أدرگت سرسي ما يعنيه بلا إبطاء، فقالت: «مؤكّد أن اللورد والدِر سيخضع لحكم (الأب) قريبًا. إنه طاعن في الشن. فليبيضق العصافير على ذكراه. لا علاقة لنا بالأمر».

قال السير هاريس: «نعم»، وقال اللورد أورتون: «نعم»، وقال پايسل: «لا أحد يُمكنه أن يظنّ هذا»، وسعل اللورد جايلز.

أيدهم كايرن قائلاً: «القليل من البصاق على قبر اللورد والدِر لن يُزعج الدود، لكن من المفيد أيضًا أن يُعاقب أحد على الرّفاف الأحمر. بعض رؤوس أبناء فراي سينفع كثيرًا في تهدئة الشّمال».

قال پايسل: «اللورد والدِر لن يُضّخي بذويه أبدًا». ردت سرسي متأملّة: «صحيح، لكن ربما لا يميل وريثه إلى الاعتراض. اللورد والدِر سيتعظّف علينا ويموت قريبًا كما نأمل، فهل يملك سيّد (المعبر) الجديد وسيلة لتخليص نفسه من أنصاف الإخوة المزعجين وأبناء العمومة السّمجيين والأخوات المتآمرات أفضل من إلصاق الذّنب بهم؟».

قال أوران ووترز: «بينما ننتظر موت اللورد والدِر ثمة مسألة أخرى. الجماعة الذهبية فسّخت عقدها مع (مير). سمعتُ على أرصفة الميناء من يقولون إن اللورد ستانيس استأجرهم وسيعبّر بهم البحر».

سأل ميريويذر: «وكيف سيدفع أجرهم؟ ثلجًا؟ إن اسمها الجماعة الذهبية. كم يملك ستانيس من الذهب؟».

أجابَت سرسي: «القليل جدًا. اللورد كايبرن تكلم مع طاقم القادس المايري الرّاسي في الخليج، الذي يقول إن الجماعة الذهبية في طريقها إلى (قولانتيس). إذا كانوا ينتوون عبور البحر إلى (وستروس) فإنهم يتحرّكون في الاتجاه الخاطئ».

اقترح اللورد ميريويذر قائلاً: «ربما سئموا من القتال مع الجانب الخاسر».

أيّدته الملكة قائلةً: «هناك هذا السبب أيضًا. أعمى فقط من يفشل في رؤية أننا في حكم المنتصرين في حربنا. اللورد تايرل يَطُوق (ستورمز إند)، و(ربقرزن) يُحاصرها آل فراي وداغن ابن خالي حاكم الغرب الجديد، وشفن اللورد ردواين عبرت (مضيق تارث) وتُبحر مسرعةً بمحاذاة الساحل. لم يتبقَّ في (دراجونستون) إلا قوارب صيد قليلة تُواجه رسو ردواين. قد تُصدّ القلعة فترةً، لكن ما إن نستولي على المرفأ سنقطع الحامية عن البحر، وعندها لن يبقى إلا ستانيس نفسه يُزعجنا».

قال المايستر الأكبر يايسل منبهاً: «إذا صدّقنا ما قاله اللورد چانوس فإنه يُحاول أن يعقد حلفًا مع الهمج».

أعلن اللورد ميريويدز: «برابرة يرتدون الجلود. مؤكّد أن اللورد ستانيس يائس حقًا ما دام يسعى إلى تحالف كهذا».

قالت الملكة موافقةً: «يائس وأحمق. الشماليون يكرهون الهمج، فلن يُواجه رووس بولتون مشكلةً في كسبهم إلى صفوفنا. بعضهم انضمّ إلى ابنه الثّغل بالفعل لمساعدته على إجلاء هؤلاء الحديدّيّين الدّمام من (خندق كالين) وإخلاء الطّريق لعودة اللورد بولتون. أومبر وريزويل... نسيث أسماء الآخرين. حتى (الميناء الأبيض) على وشك الانضمام إلينا. سيّدها وافقّ على تزويج كلتا حفيدتيه يائنين من أصدقائنا أبناء فراي وفتح المرفأ لسفننا».

قال السير هاريس حائرًا: «حسبث أن لا سفن عندنا». قال المايستر الأكبر پايسل: «وايمان ماندرلي حامل راية إدارد ستارك المخلص. هل يُمكن أن نثق برجلٍ مثله؟».

لا أحد جدير بالثّقة. «إنه رجل عجوز بدين وخائف، لكنه ما زال يُعانِد في نقطة واحدة، يصرّ على أنه لن يخضع حتى يُعاد وريثه إليه».

سأل السير هاريس: «وهل وريثه عندنا؟».

- «سيكون في (هارنهال) إذا كان حيًا. جريجور كليجاين أسره». لم يكن الجبل يترقق بشجنائه دائقا، حتى من يستحقون فدية لا بأس بها. «إذا مات فأظن أن علينا أن نرسل للورد ماندرلي رؤوس من قتلوه، مصحوبة بخالص اعتذارنا». إذا كان رأس واحد يكفي لاسترضاء أمير (دورن)، فلا بُدَّ أن كيسا من الرؤوس يناسب شماليا بدينا يرتدي جلد الفقمة.

سأل پايسل: «ألن يسعى اللورد ستانيس إلى الفوز بولاء (الميناء الأبيض) أيضًا؟».

- «أوه، لقد حاول. اللورد ماندرلي بعث لنا برسائله وأجابها بالأعذار. ستانيس يطالب بسيوف (الميناء الأبيض) وفصتها، ومقابلها يعرض... لا شيء». ذات يوم عليها أن تشعل شمعة لـ (المحارب) الذي أخذ رنلي وترك ستانيس، فلو حدث العكس لكانت حياتها أشق كثيرًا. «صبيحة اليوم تحديدًا وصل إلينا طائر آخر. ستانيس أرسل مهذب البصل للتعامل مع (الميناء الأبيض) نيابة عنه، فألقى ماندرلي المأفون في زنزانية ويسألنا ماذا يفعل به».

قال اللورد ميريويدز مقترخًا: «فليُرسله إلينا هنا كي نستجوبه. ربما يعرف الرجل الكثير من المعلومات القيمة».

وقال كايرن: «فليقت. سيكون موته درسًا للشماليين، يُريهم ما يحل بالخونة».

ردّت الملكة: «أَتَفَقُ تمامًا. لقد أمرت اللورد ماندري بأن يقطع رأسه في الحال. سيكون هذا قميئًا بأن يضع نهايةً لقرص تأييد (الميناء الأبيض) ستانيس». علق أوران ووترز مقهقهًا: «ستانيس سيحتاج إلى يد جديد. فارس اللفت ربما؟».

قال السير هاريس سويفت حائرًا: «فارس إفت؟ من هذا الرّجل؟ لم أسمع عنه من قبل»، فلم يُجر ووترز جوابًا إلا بتدوير عينيه في محجريهما استهجانًا، في حين سأل ميريويذر: «وماذا لو رفض اللورد ماندري؟». قالت سرسي: «لن يجرؤ. رأس فارس البصل هو الغملة التي عليه أن يشتري بها حياة ابنه»، وابتسقت مردفة: «ربما كان العجوز الأحمق البدين مخلصًا لآل ستارك على طريقته، لكن مع فناء ذئاب (وينترفل)....». قال يايسل: «جلالتك نسيت الليدي سانزا».

- «بكل تأكيد لم أنس تلك الذئبة الصغيرة»، قالت الملكة مغضبةً، رافضةً أن تنطق اسم الفتاة. «كان الأحرى بي أن ألقياها في الزّنازين السوداء باعتبارها ابنة خائن، وبدلاً من هذا جعلتها من أهل بيتي. لقد شاركتني الدّفء والماوى ولعبت مع أطفالي، وأطعمتها وألبستها وحاولت أن أجعلها أقلّ جهلاً بالعالم، فكيف ردّت لي الجميل؟ ساعدت على اغتيال ابني. حين نُعثر على العفريت سنعثر على الليدي سانزا أيضًا. إنها لم تُفت... لكني أعدكم بأنني لن أفرغ منها قبل أن أجعلها تُعْثي لـ(الغريب) متوشلةً قبيلته».

تلا كلامها صمت متوثر، فسألت سرسي نفسها بضيق:
هل ابتلعوا ألسنتهم جميعًا؟ صمتهم يكفي لأن تتساءل
لِمَ تثعب نفسها وتجتمع مع المجلس من الأصل.
تابعت الملكة: «على كل حال، ابنة اللورد إدوارد
الصغيرى عند اللورد بولتون، وستتزوج ابنه رامزي ما إن
تسقط (خندق كايلن)». شريطة أن تلعب الفتاة دورها
ببراعة كافية لتوطيد حق مطالبتهما بـ(وينترفيل)، فلن
يُبالي ابنا بولتون كثيرًا بأنها في الحقيقة ابنة وكيل ما
دبر الإصبع الصغير هويتها الزائفة. «ما دام محققًا أن
يكون في الشمال ستارك فسنعطيهم ستارك». تركت
اللورد ميريويدر يُعيد مَلء كأسها، وواصلت: «لكن ثقة
مشكلة أخرى ظهرت على (الجدار). إخوان خرس الليل
فقدوا عقولهم واختاروا ابن ند ستارك الثعل قائدًا لهم».
- «اسمه سنو»، قال يايسل فلم يُضف جديدًا.

قالت الملكة: «لمحته مرّة في (وينترفل)، ولو أن آل ستارك بذلوا أقصى جهدهم لمواراته. إنه يُشبه أباه كثيرًا». كان نغول زوجها يُشبهونه أيضًا، وإن تمثّع روبرت بالكياسة وأبقاهم بعيدًا عن الأنظار على الأقل. ذات مرّة، بعد تلك الحادثة المؤسفة مع القطّة، جعجع قائلاً شيئًا ما عن الإتيان بابنة غير شرعيّة إلى البلاط، فقالت له: «افعل ما تشاء، لكنك قد تجد المدينة مكانًا ضارًا بفتاة في طور الثمو». استعصى عليها إخفاء الكدمة التي نالتها من جرّاء تلك الكلمات عن چايمي، لكنهم لم يسمعوا المزيد عن تلك الثغلة. كاتلين تلي كانت فأرة، وإلا لكانت كتّمت أنفاس جون سنو هذا في المهد، وبدلًا من هذا تركت المهمة القذرة لي. «سنو يشترك مع اللورد إدارد في الجنوح إلى الخيانة أيضًا. الأب أراد أن يُسلّم البلاد لستانيس، والابن أعطاه أراضٍ وقلاعًا».

قال پايسل مذكرًا إياهم: «خرس الليل مقسمون على عدم التّدخل في حروب (الممالك السبع). منذ آلاف السنين والإخوة الشود يصونون هذا الثقليد».

قالت سرسي: «حتى الآن. الثغل كتب لنا مؤكّدًا أن خرس الليل لا يتدخّلون، لكن أفعاله تفضح أكاذيبه. لقد أعطى ستانيس الطّعام والمأوى، ومع ذلك ما زال بالصّفاقة الكافية لأن يُناشدنا أن نُرسل إليه أسلحة ورجالًا».

أعلن اللورد ميربويذر: «مهزلة! لا يمكن أن نسمح لحرس الليل بضَم قوّتهم إلى اللورد ستانيس». قال السير هاريس سويفت مثففاً: «يجب أن نُعلن سنو هذا خائناً ومتمردًا. لا بُدَّ أن يُزيحه الإخوة الشود». أوما المايستر الأكبر يايسل برأسه بتؤدة، وقال: «أقترح أن نُبلغ (القلعة السوداء) بأننا لن نبعث إليهم بمزيد من الرّجال حتى يرحل سنو».

قال أوران ووترز: «ذرموناتنا الجديدة ستحتاج إلى ملاحين. لئلي على اللوردات أن يُرسلوا اللصوص ومنتهكي حرمة الأراضي إلّي من الآن فصاعدًا بدلًا من (الجدار)».

مال كايبرن إلى الأمام قائلاً بابتسامة: «حرس الليل يدافعون عنا جميعًا ضد السناركات والجرامكنات (56)». أيها السّادة، رأيي أن علينا أن نساعد إخوتنا الشود الشّجعان».

رمقته سرسي بحدّة متسائلة: «ماذا تقول؟». - «ما قلته. منذ سنوات وحرس الليل يلتمسون الرّجال، وقد أجاب اللورد ستانيس التماسهم، فهل يمكن أن يفعل الملك تومن ما هو أقل؟ يجدر بجلالته أن يُرسل مئة رجلٍ إلى (الجدار)... ليرتدوا المعاطف السوداء ظاهريًا، أمّا في الحقيقة...».

أكمّلت سرسي العبارة مسرورة: «... ليقصوا چون
سنو عن القيادة». كنث أعلم أني محقة حين أردته في
مجلسي. قالت ضاحكة: «وهذا ما سنفعله بالضبط». إذا
كان ذلك الثغل ابن أبيه حقًا فلن يرتاب في شيء، بل
وربما يشكرني قبل أن ينغرس الثصل بين ضلوعه.
«يجب أن يتفقد هذا بحرص بالتأكيد. اتزكوا لي الباقي
أيها السادة». هكذا ينبغي الثعامل مع العدو، بخنجر لا
بإعلان. «أحسنًا عملاً اليوم أيها السادة، أشكركم. هل
من شيء آخر؟».

أجاب أوران ووترز بنبرة اعتذارية: «شيء واحد أخير
يا صاحبة الجلالة. أتردّد في أن أستهلك وقت المجلس
في الثوافه، لكن هناك كلامًا غريبًا يدور في الميناء في
الفترة الأخيرة. البحارة الآتون من الشرق يتكلمون عن
الثنانين...».

قاطعته سرسي: «... والمانتيكورات والسناركات
الملتحية أيضًا دون شك، أليس كذلك؟»، وأطلقت
ضحكة قصيرة مردفة: «غد إلي عندما تسمع شيئًا عن
الأقزام يا سيدي»، ونهضت مشيرة بهذا إلى نهاية
الاجتماع.

كانت ربح خريفيّة عاتية تهبّ عندما غادرت سرسي
قاعة المجلس، ولا تزال أجراس بيلور المبارك تصدح
بأغنيّة الجداد في هواء المدينة من بعيد، وفي السّاحة
نحو أربعين من الفرسان يكرّ بعضهم على بعض
بالشيوف والثّروس مضيفين إلى الصّخب صخبًا. رافق
السير بوروس بلاونت الملكة إلى مسكنها، حيث وجدت
الليدي ميريويزر تضحك مع چوسلين ودوركاس،
فسألتهن: «ما الطّريف لهذه الدّرجة؟».

أجابّت تايّنا: «الثّوأمان ردواين، كلاهما وقع في هوى
الليدي مارجري. من قبل اعتادا أن يتشاجرا على من
سيُصبح سيّد (الكرمة) الثّالي، أمّا الآن فكلاهما يرغب
في الانضمام إلى الحرس الملكي لمجرّد أن يكون قُرب
الملكة الصّغيرة».

- «النّمش على وجوه آل ردواين أكثر دائما من الذّكاء
في عقولهم». على أنّها معلومة مفيدة. إذا ضُبط هورور
أو سلوبر في الفراش مع مارجري... تساءلت سرسي إن
كانت الملكة الصّغيرة تحبّ النّمش. «دوركاس، اجلبي
السير أوزني كِتلبلاك».

تورّد وجه دوركاس، وقالت: «كما تأمرين».

لما خرجت الفتاة رمقت تايّنا ميريويزر الملكة بنظرة
فضوليّة، وسألتهَا: «لماذا احمّر وجهها هكذا؟».

أجابتها سرسي وقد حان دورها في الضحك: «إنه الخب. فارسنا السير أوزني يستهويها». إنه أصغر الإخوة كتلبلاك، صاحب الوجه الحليق، ومع أن له نفس الشعر الأسود والأنف المعقوف والابتسامة العفوية كأخيه أوزموند، فعلى إحدى وجنتيه ثلاثة خدوش طويلة بفضل واحدة من عاهرات تيريون. «أظن أن ندوبه تُعجبها».

التمع الخُبث في عيني الليدي ميريويدر الذاكتين وهي تقول: «بالضبط. الثدوب تجعل الرجل يبدو خطيرًا، والخطر مثير».

قالت الملكة مداعبة: «إنك تصدميني يا سيّدتى. إذا كان الخطر يُثيرك هكذا فلم تزوّجِ اللورد أورتون؟ كلنا نحبه، هذا صحيح، ولكن...». كان بيتر قد علق مرةً قائلاً إن بوق الوفرة الذي يُرّين رايات عائلة ميريويدر يلائم اللورد أورتون على نحوٍ رائع، بما أن شعره له لون الجزر وأنفه منتفخ كثمرة شمندر وذكاءه يُضاهي وعاء من ثريد البازلاء.

قالت تاينا ضاحكة: «سيّدى يتمتع بالوفرة أكثر من الخطر بالفعل، ورغم ذلك... أمل أنى لن أحظ من قدر نفسي في نظر جلالتك، لكنى لم أذهب عذراء إلى فراش أورتون».

كلكن عاهرات في القُدن الحُرّة، أليس كذلك؟ جيّد أن تعلم هذا، فربما تتمكن من استغلاله ذات يوم. «وثرى من هذا الحبيب الذي كان... مليئًا بالخطر؟».

ازدادت بشرة تاينا الزيتونية ذكنةً إذ تخصّبت بالأحمر، وقالت: «أوه، لم يكن يجب أن أتكلّم. جلالتك ستحافظين على سرّي، أليس كذلك؟».

قالت سرسي: «للرجال الثدوب وللنساء الأسرار»، وقبّلتها على وجنتيها مفكرةً: سأستخلص هذا الاسم منك قريباً.

صرقت الملكة رفيقاتها حين عادت دوركاس بالسير أوزني كتلبلاك، ثم قالت له: «تعال اجلس معي عند الثافذة يا سير أوزني. هل تريد كأساً من النبيذ؟»، وصبت واحدةً لنفسها متابعةً: «معطفك مهترئ. أفكر في أن أضعك في واحد جديد».

- «ماذا؟ معطف أبيض؟ من مات؟».

- «ليس بعد. أهذه رغبتك؟ أن تنضمّ إلى أخيك أوزموند في الحرس الملكي؟».

- «أفضل أن أكون حارس الملكة فقط، بعد إذن جلالتك»، وابتسم أوزني ابتسامة عريضة لتلمع الثدوب على وجنته بالأحمر، فتحسستها سرسي بأناملها قائلةً: «لسانك جريء أيها الفارس. ستجعلني أنسى نفسي ثانية».

أجاب السير أوزني: «جيد»، والتقط يدها وقبّل أصابعها بخشونة مضيقة: «ملكتي الجميلة».

همست الملكة: «أنت رجل شرير، ولا أظنك فارساً حقيقياً كذلك»، وتركته يلمس ثدييها من فوق حرير فستانها، ثم قالت: «كفى».

- «لا. إنني أريدك».

- «لقد نلتني».

قال: «مزة فقط»، وأمسك ثديها الأيسر واعتصره بخزق ذكرها بروبرت.

- «ليلة طيبة لفاريس طيب. لقد أسديتني صنيغاً شجاعاً ونلت مكافأتك»، ومشّت سرسي أصابعها على أربطة سراويله وشعرت به ينتصب. سألته: «أهذا حصان جديد الذي كنت تمتطيه في الساحة صباح أمس؟».

- «الفحل الأسود؟ أجل. هديّة من أخي أوزفريد. أسقيّه منتصف الليل».

يا للابتكار! قالت: «مطية رائعة للمعارك، أمّا للمتعة فلا شيء يُقارَن بركوب مُهرة صغيرة مفعمة بالحيويّة»، ومنحته ابتساماً واعتصرت ذكره مزة متابعه: «اصدقني القول، هل تحسب ملكتنا الصغيرة جميلة؟». تراجع السير أوزني قائلاً بحذر: «أظنّ هذا، بالنسبة إلى فتاة. أفضل أن أحظى بامرأة».

همست: «ولمّ ليس الاثنتين؟ اقطف الوردة الصغيرة من أجلي ولن تجدني ناكرة للجميل».

رَدّ السير أوزني وحرارته تخمد في سراويله: «الملكة... تعنين مارچري؟ إنها زوجة الملك. ألم يكن هناك حارس ملكي فقد رأسه لمضاجعة زوجة الملك؟».

- «منذ عصور». كانت عشيقه الملك لا زوجته، ورأسه الشيء الوحيد الذي لم يفقده. إجون مثل به قطعة قطعة وجعل المرأة تشاهد. غير أن سرسي لا ثريده أن يفكر في تلك الحادثة الكريهة الموعلة في القدم، فقالت: «تومن ليس إجون غير الجدير. لا تخف، سيفعل ما أطلبه منه. إنني أنوي أن تفقد مارچري رأسها وليس أنت».

جعلها هذا يتردد لحظة ويسأل: «تقصدين بكارتها؟». - «وهذه أيضًا. طريف أنها ما زالت محتفظة بها»، وعادت تتحسس ندوبه مردفة: «ما لم تكن تحسب أن مارچري لن تستجيب إلى... سحرك».

رمقها أوزني بنظرة جريئة، وقال: «إنني أعجبها بما فيه الكفاية بالفعل. بنات عمومتهما يعاينني بشأن أنفي دائمًا، كم هو كبير وما إلى ذلك، لكن آخر مرة فعلت مجا ذلك أمزتهن مارچري بالتوقف وقالت إن لي وجهًا جميلًا».

- «هكذا إذن».

قال الرجل بنبرة ملؤها الشك: «هكذا إذن، لكن أين سأذهب إذا كانت... إذا كنت... بعد أن...».

- «... تفعلنا فعلتكما؟». منخته سرسي ابتسامة شائكة، وأجابته: «الثوم مع الملكة خيانة. لن يجد تومن خيارًا إلا إرسالك إلى (الجدران)». ردد مذعورًا: «(الجدران)؟!».

بذلت كلَّ جهدها لتمنع نفسها من الضحك مفكرةً: لا، الأفضل ألا أضحك. الرجال يكرهون أن يضحك منهم أحد، وبدلاً من ذلك قالت: «المعطف الأسود سيتماشي جيّداً مع عينيك وشعرك الأسود هذا».

- «لا أحد يعود من (الجدار)».

- «أنت ستعود، وما عليك إلا أن تقتل صبيّاً؟».

- «مَن؟».

- «صبيّ نغل متواطئ مع ستانيس. إنه صغير

وأخضر، وسيكون معك مئة رجل».

اشتقت رائحة الخوف المنبعثة من كتلبلاك، وإن كان أكثر غروّاً من أن يعترف بخوفه. كلُّ الرجال واحد. قال بإصرار: «لقد قتلتُ صبيةً أكثر مما أستطيع أن أحصي. بمجرّد أن يموت ذلك الصّبي هل سأنال عقوي من الملك؟».

- «العفو بالإضافة إلى لوردية». ما لم يشقك إخوة سنو/وَلَا. «لا بُدَّ أن يكون للملكة رفيق لا يعرف الخوف».

قال: «اللورد كتلبلاك؟»، وزحفت ابتسامة بطيئة على وجهه والتهبت ثدوبه بالأحمر، وأردف: «نعم، يروقني وقع الكلمة، لورد من اللوردات...».

- «... ولائق بأن يُضاجع ملكة».

قطب وجهه قائلاً: «(الجدار) بارد».

وضعت سرسي ذراعيها حول عنقه، وردت: «وأنا دافئة. ضاجع فتاةً واقتل صبيًا وأنا لك. هل تملك الشجاعة؟».

فكر أوزني لحظةً قبل أن يومئ إيجابًا ويقول: «أنا رجلك».

قالت: «أنت رجلي أيها الفارس»، وقبّلته وجعلته يتذوق لسانها قليلًا قبل أن تتراجع قائلة: «يكفي هذا الآن، يجب أن ينتظر الباقي. هل ستحلّم بي الليلة؟». أجاب بصوت مبحوح: «أجل».

سأله مداعبةً: «وحين تكون في الفراش مع مارجري؟ حين تكون في داخلها هل ستحلّم بي؟». أقسم أوزني كتلبلاك قائلاً: «أجل».

- «عظيم».

بعد ذهابه استدعت سرسي جوسلين لثَقْشَط شعرها
بينما خلعت حذاءها وتمطت كهزة. قالت لنفسها: /نني
مخلوقة من أجل هذا. أناقة الخطة الخالصة أكثر ما
يسرّها. حتى مايس تايرل نفسه لن يجرؤ على الدّفاع
عن ابنته الغالية إذا ضُيِّطت متلبسةً مع أمثال أوزني
كتلبلاك، ولن يجد ستانيس باراثيون أو جون سنو ما
يدعو إلى التّساؤل عن سبب إرسال أوزني إلى
(الجدار). سوف تحرص على أن يكون السير أوزموند
هو من يكتشف أخاه مع الملكة الصّغيرة، وبهذه الطّريقة
لن يطعن أحد في ولاء الأخوين كتلبلاك الآخرين. لو
رآني أبي الآن لما سارع بالكلام عن تزويجي ثانيةً.
مؤسف أنه مات، هو وروبرت وجون آرن وإدارد ستارك
ورنلي باراثيون، كلّهم ماتوا وما بقي إلا تيريون، وليس
طويلاً.

ليلتها استدعت الملكة الليدي ميريويدر إلى غرفة
نومها، حيث سألتها: «هل تشربين كأساً من النّبيذ؟»
أجابّت المايريّة ضاحكة: «واحدةً صغيرةً، واحدةً
كبيرةً».

قالت سرسي بينما تضع دوركاس عليها ثياب النّوم:
«أريدك أن تزوري زوجة ابني غداً».
- «الليدي مارچري تسعد لرؤيتي دوماً».

- «أعرف». لم يَفُت الملكة أن تلحظ اللقب الذي تستخدمه تاينا عند الإشارة إلى زوجة تومن الصغيرة. «قولي لها إنني أرسلت سبع شموع من شمع النحل إلى (سبت بيلور) إحياءً لذكرى الشيتون الأعلى العزيز».

ضحكت تاينا، وقالت: «إذن فسُترسل هي سبعة وسبعين شمعة كي لا تتفوّقي عليها».

أجابَت الملكة باسمّة: «سأستاء كثيرًا إذا لم تفعل. أخبريها أيضًا بأن لها معجبًا سرّيًا، فارسًا مفتونًا للغاية بجمالها حتى إنه لا يستطيع النوم ليلاً».

برق المكر في عيني تاينا الواسعتين الداكنتين وهي تسألها: «هل لي أن أسأل جلالتك أي فارس؟ أيمن أنه السير أوزني؟».

- «ربما، لكن لا تُقدّمي لها الاسم طواعيةً، اجعليها تنتزعه منك. هلأ فعلت ذلك؟».

- «إذا كان يسرّك. هذا كل ما أتمنى يا صاحبة الجلالة».

في الخارج كانت الزّيح الباردة تشتدّ. ظلّت الاثنتان ساهرتين حتى ساعة متأخرة من الصّباح، تشريان نبيذ (الكرمة) الذهبي وتتبادلان الحكايات. سكّرت تاينا تماها واستخلصت منها سرسي اسم حبيبها السّري، الذي كان زبّانًا من (مير)، يصف قُرصانٍ له شعر أسود ينسدل على كتفيه ونُدبة على وجهه من الدّقن إلى الأذن. قالت لها المرأة الأخرى: «مئة مرّة قلت له لا وقال نعم، إلى أن وجدت نفسي أقول نعم في النهاية أيضًا. لم يكن رجلًا يرقّض».

قالت الملكة بابتسامة ملتوية: «أعرف هذا النوع».

- «هل عرفت صاحبة الجلالة رجلًا كهذا يا ثري؟».

أجابَت كاذبةً وهي تُفكّر في چايمي: «روبرت».

لكن حين أسدلت جفنيها كان الأخ الآخر هو من حلقت به، وبثلاثة الحمقى المأفونين الذين بدأت بهم يومها. في الخلم أتوها برأس تيريون في الكيس الجلدي، فطلّته بالبرونز واحتفظت به في وعاء الفضلات.

(56) السنارك والجرامكن مخلوقان خياليتان يرد ذكرهما في

الحكايات الشعبيّة في) وستروس)، الأول وحش ليس له وصف

محدّد، والثاني يُقال إنه يُحقّق الأمانى بالسّحر). المترجم).

الربان الحديدي

كانت الرّيح تهبّ من الشّمال فيما دارت (النّصر الحديدي) حول الرّأس الأرضي ودخلت الخليج المقدّس المسقى (مهد ناجا).

انضمّ فيكتاريون إلى نيوت الحلاق عند مقدّمة السفينة، وقد لاح أمامهما ساحل (ويك القديمة) المقدّس والتّل المعشوشب فوقه، حيث ترتفع ضلوع ناجا من الأرض كجذوع أشجار بيضاء عظيمة، كلّ منها يَنَاطِر صاري الدّرمونة في العرض ويَبْلُغُ ضِعْفَهُ طَوْلًا.

عظام (بهو الملك الأشيب). شعر فيكتاريون بما في هذا المكان من سحر، وقال متذكّرًا: «بالون وقف أسفل هذه العظام حين نُضِبَ نفسه ملكًا. أقسم أن يستردّ لنا حُرّيَّتَنَا، ووضع تارل الغارق ثلاثًا تاجًا من الخشب المجروف على رأسه، وهتَفَ النَّاسُ: بالون! بالون! بالون ملكًا!».

قال نيوت: «سَيَدَوِّي هتافهم باسمك أيضًا». أوما فيكتاريون برأسه مؤمّنًا، ولو أنه لا يُشارك الحلاق ثقته حقًا. بالون كان له ثلاثة أبناء، وابنة أحبّها كثيرًا.

هذا ما قاله لربابنته في (خندق كايلن) حين أوعزوا إليه بأن يُطالب بكرسي حجر اليم، وقال رالف ستونهاوس الأحمر: «أبناء بالون ماتوا، وآشا امرأة. لقد كنت ذراع أخيك اليمنى القويّة، ويجب أن تلتقط السيف الذي أفلته»، لكن عندما ذكرهم فيكتاريون بأن بالون أمره بالدفاع عن (الخندق) ضد الشماليين قال رالف كنينج: «الذئاب انكسروا يا سيدي. ما جدوى أن تكسب هذا المستنقع ونخسر الجزر؟»، وأضاف رالف الأعرج: «عين الغراب غاب عنا طويلاً، إنه لا يعرفنا». يورون جرايچوي، ملك الجزر والشمال. أيقظ الخاطر غصبة قديمة في قلبه، ورغم ذلك...

قال لهم فيكتاريون: «الكلام هواء، والهواء الجيد الوحيد هو الذي يدفع أشرعتنا. هل تريدونني أن أقاتل عين الغراب؟ الأخ ضد الأخ والحديدي ضد الحديدي؟». ما زال يورون أخاه الكبير مهما كان بينهما من ضغائن. ما من أحد ملعون كقاتل الأقربين.

لكن كل شيء تغير حين وصل استدعاء ذي الشعر الرطب ودعوته إلى انتخاب الملك.

ذَكَرَ فَيَكْتَارِيُونَ نَفْسَهُ قَائِلًا: آرُونَ يَتَكَلَّمُ بِصَوْتِ الْإِلَهِ الْغَرِيقِ، وَإِذَا كَانَتْ مَشِيئَةُ الْإِلَهِ الْغَرِيقِ أَنْ أَجْلِسَ عَلَى كُرْسِيِّ حَجَرِ الْيَمِّ... فِي الْيَوْمِ الثَّالِي وَلَّى رَافُفُ كَنِينِجَ قِيَادَةً (خَنْدَقُ كَايِلِن)، وَتَحَرَّكَ بَرْأُ صُوبِ (النَّهْرِ الْمَحْمُومِ) حَيْثُ يَرَسُو الْأَسْطُولَ الْحَدِيدِيَّ وَسَطَ أَحْرَاجِ الْقَصَبِ وَأَشْجَارِ الصَّفْصَافِ. بَعْدَهَا أَخْرَهُمُ هَيَاجُ الْبَحْرِ وَتَقَلُّبُ الرِّيحِ، لَكِنْ سَفِينَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَطْ فُقِدَتْ، وَعَادَ فَيَكْتَارِيُونَ إِلَى الْوَطَنِ.

تَحَرَّكَتِ (الثَّأْرُ الْحَدِيدِي) وَ(الثُّبُورُ) عَلَى مَقْرِبَةٍ وَرَاءَ (النَّصْرِ الْحَدِيدِي) بَيْنَمَا تَجَاوَزَتْ لِسَانَ الْيَابِسَةِ، وَوَرَاءَهُمَا جَاءَتِ (الْيَدُ الْقَوِيَّةُ) وَ(الرِّيحُ الْحَدِيدُ) وَ(الشُّبْحُ الزَّمَادِي) وَ(اللُّورْدُ كَوِيلُونُ) وَ(اللُّورْدُ فَيَكُونُ) وَ(اللُّورْدُ دَاجُونُ) وَالبَقِيَّةُ، تَسْعَةُ أَعْشَارِ الْأَسْطُولِ الْحَدِيدِيِّ الْمُبْحَرِ فِي تَيَّارِ الْمَسَاءِ فِي صَفٍّ غَيْرِ مُنْتَظَمٍ يَمْتَدُّ فَرَاخًا عَدِيدَةً إِلَى الْوَرَاءِ. مَلَأَ مَنَظَرَ الْقُلُوعِ فَيَكْتَارِيُونَ جَرَايِجِي بِالرِّضَا. لَا رَجُلٌ فِي الدُّنْيَا أَحَبُّ زَوْجَاتِهِ كَمَا يَحُبُّ حَضْرَةَ الرُّبَّانِ الْقَائِدِ سَفِينَهُ.

عَلَى شَاطِئِ (وَيْكُ الْقَدِيمَةِ) الْمُقَدَّسِ تَصْطَفُّ الشُّفَنُ الطَّوِيلَةُ عَلَى مَدَى الْبَصْرِ بِصَوَارٍ مُرْتَفَعَةٍ كَالْجِرَابِ، وَفِي الْبُقْعِ الْأَعْمَقِ مِنَ الْمِيَاهِ تَرَسُو الْغَنَائِمُ؛ أَكْوَاجُ وَقَرَاقِيرِ (57) وَدَرْمُونَاتُ ظُفَرٍ بِهَا فِي الْغَارَاتِ أَوْ الْحُرُوبِ، وَتَمْنَعُهَا أَحْجَامُهَا الْكَبِيرَةُ مِنَ الدُّنُوِّ مِنَ الشَّاطِئِ، وَعَلَى مَقْدَمَاتِهَا وَمُؤَخَّرَاتِهَا وَصَوَارِيهَا تَخْفِقُ رَايَاتُ مَأْلُوفَةٍ.

ضيق نيوت الحلاق عينيه ناظرًا إلى الشاطئ،
وتساءل: «أهذه (أغنية البحر) سفينة اللورد هارلو؟»
الحلاق رجل غليظ البنية له ساقان متقوّستان وذراعان
طويلتان، لكن بصره لم يَغد حادًا كما كان في شبابه. في
تلك الأيام كان بإمكانه رمي الفأس بمنتهى البراعة،
حتى إن الناس قالوا إنه يستطيع أن يحلق لحيتك بها.
يبدو أن رودريك القارئ ترك كتبه. «(أغنية البحر)،
نعم. وهذه هي (الزاعد) سفينة دروم العجوز، وإلى
جوارها (طيار الليل) سفينة بلاكتايد». ما زالت عينا
فيكتاريون تتمتعان بحدّتهما المعهودة، وعلى الرغم من
انطواء الأشرعة وارتخاء الرّايات فقد تعرّف الشفن كما
يليق بحضرة الزّيان قائد الأسطول الحديدي.
«و(الرّعفة الفضّية) أيضًا. لا بُدّ أنه من أقرباء ساوان
بوتلي». سمع فيكتاريون أن عين الغراب أغرق اللورد
بوتلي، كما أن وريثه مات في (خندق كايلن)، لكن هناك
إخوة وأبناء آخريّن أيضًا. كم؟ أربعة؟ لا، خمسة، ولا
أحد منهم عنده سبب يجعله يحبّ عين الغراب.

ثم إنه رآها. للسفينة صارية واحدة، بدنها رفيع واطئ وله لون أحمر قان، وأشرعتها -المطوية الآن- سوداء كسماء بلا نجوم. حتى في المرسى تبدو (الضمت) قاسية سريعة. على مقدمتها فتاة حديدية سوداء تمذ أحد ذراعيها، خصرها ممشوق ونهداها عاليان شامخان وساقاها طويلتان رشيقتان، ومن رأسها يُرفرف شعرها الحديد الأسود كأن الريح تُطيره، وفي عينيها يلتمع عرق اللؤلؤ، لكنها بلا فم.

انغلقت قبضتا فيكتاريون. بهاتين اليدين ضرب أربعة رجال حتى الموت، وزوجة أيضًا. رغم الشيب الذي وخط شعره فإنه لا يزال محتفظًا بقوة كاملة، صدره عريض كالثيران وبطنه مسطح كالضبيان. قاتل الأقربين ملعون في أعين الآلهة والبشر. هذا ما ذكره به بالون يوم صرف عين الغراب إلى البحر.

قال فيكتاريون للحلاق: «إنه هنا. أنزلوا الأشرعة، سنتقدم بالمجاذيف فقط. ومُر (الثبور) و(الثار الحديدي) بالوقوف بين (الضمت) والبحر، ولثغلق بقيّة السفن الخليج. لا أحد يُغادر إلّا بأمرى، سواء أكان رجلًا أم غرابًا».

كان من على الشَّاطِئِ قد أبصروا أشرعتهم، وتردَّد هتافهم عبر الخليج إذ رفع الأصدقاء والأهل عقائدهم بالثَّحيَّات... لكن صوتًا لم يَخْرُج من (الصَّمت). على ظَهرها لم تُصدِّر كلمة واحدة من طاقمها المتنافر من البُكم والهجان إذ دنت (النَّصر الحديدي)، وحقَّق إليه رجال سود كالقار وآخرون قصار مكتنزون مشعرون كقردة (سوثيريوس). وحوش.

ألقوا المرساة على بُعد عشرين ياردةً من (الصَّمت)، وقال فيكتاريون: «أنزلوا قاربًا، أريد الذهاب إلى الشَّاطِئ»، ثم إنه تمنطقٌ بحزامه فيما أخذ الملاحون أماكنهم، ليستقرَّ سيفه الطويل على أحد وركيه وخنجره على الثاني. حول كتفي حُصرة القائد ثبتت نيوت الحلاق معطفه المصنوع من تسع طبقات من قماش الذهب والمفضل على شكل كراكن عائلة جرايجوي وتتدلَّى ذراعاه حتى حذائه، وقد ارتدى تحته قميصًا ثقيلًا من الحلقات المعدنية الزماديَّة فوق الجلد الأسود المقوَّى. كان قد اعتاد ارتداء الحلقات المعدنية في (موت كايلن) ليل نهار، فاحتمال تبيُّس كتفيه وألم ظَهره أسهل من الإسهال الدَّموي، إذ يكفي أن يخدش أحد سهام شياطين المستنقعات المسمومة المرء مجرَّد خدش، وخلال ساعات قليلة ستجده يصرخ بينما تسيل حياته من بين ساقيه في دفقات من الأحمر والبني. سأتعامل مع شياطين المستنقعات أيَّا كان الفائز بكرسي حجر اليم.

اعتمَرَ قِيكَتَارِيُونُ خُوذَةً حَرِيَّةً سَوْدَاءَ طَوِيلَةً، مَطْرَقَةً
عَلَى شَكْلِ كَرَائِنِ حَدِيدِي تَلْتَفُّ أَذْرَعَهُ حَوْلَ وَجْنَتَيْهِ
وَتَلْتَقِي أَسْفَلَ فُكِّهِ. عِنْدئِذٍ كَانَ الْقَارِبُ قَدْ صَارَ جَاهِزًا،
فَقَالَ لِنِيُوتَ وَهُوَ يَنْزِلُ عَلَى جَانِبِ السَّفِينَةِ: «لَقَدْ
وَضَعْتُ الصَّنَادِيقَ فِي عَهْدَتِكَ. احْرِصْ عَلَى وَضْعِ
حِرَاسَةٍ مُشَدَّدَةٍ عَلَيْهَا». الْكَثِيرُ يَعْتَمِدُ عَلَى هَذِهِ
الصَّنَادِيقِ.

- «كَمَا تَأْمُرُ يَا جَلَالَةُ الْمَلِكِ».

أَجَابَهُ قِيكَتَارِيُونُ بِوَجْهِ عَابِسٍ: «لَسْتُ الْمَلِكَ بَعْدَ»،
وَنَزَلَ إِلَى الْقَارِبِ.

وَكَانَ آرُونُ ذُو الشَّعْرِ الرُّطْبِ فِي انْتِظَارِهِ وَسُطِ
الْأَمْوَاجِ الْمَتَكَشِّرَةِ عَلَى الشَّاطِئِ، وَقَدْ عَلَّقَ قَرِيبَ الْمَاءِ
الْمَالِحِ تَحْتَ ذِرَاعِهِ. الرَّاهِبُ نَحِيلٌ طَوِيلٌ وَلَكِنْ أَقْصَرُ
قَامَةً مِنْ قِيكَتَارِيُونِ، وَيَبْزُرُ أَنْفَهُ كَزَعْنَفَةٍ سَمَكَةٍ قِرْشٍ مِنْ
وَجْهِهِ الْمَهْزُولِ تَحْتَ عَيْنَيْنِ مِنْ حَدِيدٍ، وَتُبْلُغُ لِحِيَّتُهُ
خَصْرَهُ، وَعِنْدَمَا تَهْبُ الرِّيحُ يَصْفَعُ شَعْرَهُ الطَّوِيلَ
الْمَتَشَابِكَ كَالْحَبَالِ مُؤَخَّرَةً سَاقِيهِ. قَالَ وَالْمَوْجُ الْأَبْيَضُ
الْبَارِدُ يَتَكَشَّرُ حَوْلَ كَاحِلِيهِ: «أَخِي، مَا مَاتَ لَا يُمَكِّنُ أَنْ
يَمُوتَ أَبَدًا».

رَدَّ قِيكَتَارِيُونُ: «بَلْ يُبْعَثُ مِنْ جَدِيدٍ أَقْوَى وَأَصْلَبَ»،
وَخَلَعَ خُوذَتَهُ وَرَكَعَ لَتَمَلَأَ مِيَاهُ الْخَلِيجِ حَذَاءَهُ وَتُبْلُلَ
سَرَائِيلَهُ بَيْنَمَا صَبَّ آرُونُ خَيْطًا مِنَ الْمَاءِ الْمَالِحِ عَلَى
جَبْهَتِهِ، وَشَرَعَ الْاِثْنَانِ فِي الصَّلَاةِ، وَلَمَّا فَرَّغَا سَأَلَ حَضْرَةَ
الْقَائِدِ ذَا الشَّعْرِ الرُّطْبِ: «أَيْنَ أَخُونَا عَيْنَ الْغُرَابِ؟».

- «خيمته تلك المصنوعة من قُماش الذهب، هناك حيث اللَّغَط أَشَدُّ. إنه يُحيط نفسه بالكافرين والوحوش، أسوأ من قبل. فيه فسدت دماء أبينا».

- «ودماء أُمنا أيضًا». يَرْفُضُ فيكتاريون أن يتكلَّم عن قتل الأقربين هنا في هذا المكان المقدَّس أسفل عظام ناجا و(بهو الملك الأشيب)، ولكن كم من ليلة حلم فيها بنفسه يهوي على وجه يورون الباسم بقبضة مقفزة بالحديد، إلى أن يتشقق لحمه وتسيل دماؤه الفاسدة حمراء حُرَّةً. إياك أن تفعل ذلك. لقد أعطيت بالون كلمتك. سأل أخاه الزَّاهب: «هل أتى الجميع؟».

- «جميع من لهم أهميَّة، الرِّبَابنة والملوك». في (جُزر الحديد) الاثنان سيَّان، لأن كلَّ زُبَّان ملك على سطح سفينته، وكلَّ ملك لا بُدَّ أن يكون زُبَّانًا. «هل تنوي المطالبة بتاج أبينا؟».

أجاب فيكتاريون متخيلاً نفسه يجلس على كرسي حجر اليم: «إذا شاء الإله الغريق».

قال آرون ذو الشَّعر الرُّطب وهو يلتفت مبتعدًا: «سيقول الموج كلمته، فأصغِ إلى الموج يا أخي».

- «أجل». تساءل كيف سيكون وقع اسمه إذ تهمسه الأمواج ويهتف به الرِّبَابنة والملوك. إذا أُنْتِنِي الكأس فأنا ذائقها.

كانوا قد ازدحموا يتمثون له التّوفيق ويتودّدون إليه،
فراى قيكّتاريون رجالاً من كلّ جزيرة، من آل بلاكتايد
وآل تاوني وآل أوركوود وآل ستونّتري وآل وينش
وكثيرين غيرهم، وقد حضرَ أيضًا آل جودبراذر أولاد
(ويك القديمة) وآل جودبراذر أولاد (ويك الكبرى) وآل
جودبراذر أولاد (أوركموننت) جميعًا، بالإضافة إلى آل
كوود على الرغم من احتقار الجميع لهم، بينما خالط آل
شيبارد وآل ويقر وآل نتلي المتواضعون رجالاً من
عائلاتٍ عريقة أبيّة، بل وخالطهم آل همبل المتواضعون
أيضًا مع أنهم من نسل الأقنان والزّوجات الملحيات.
رَبّت واحد من آل قولمارك على ظُهر قيكّتاريون بقوة،
ودسّ اثنان من آل سيار قرية نبيذ في يده، فشرب
كثيرًا ومسحّ فمه وتركّهم يحملونه إلى بؤر النّار لسمع
كلامهم عن الحرب والثّيجان والغنائم وما ينتظرهم من
أمجادٍ وحزّية في عهده.

ليلتها نصب رجال الأسطول الحديدي خيمة ضخمة
من قماش الأشرعة فوق خط القد، وأقام قيكтариون
مأدبة لنصفمئة من مشاهير الزبانية، أطعمهم فيها لحم
الجديان المشوي وسمك القد المملح والكركد، وجاء
آرون أيضًا وأكل السمك وشرب الماء، في حين تجرّع
الزبانية مِرزا يكفي لأن يُبحر فيه الأسطول الحديدي.
وعده كثيرون بأصواتهم، منهم فرالج القوي وآلقن
شارپ الأريب، وكذا هوئو هارلو الأحدب الذي عرض
عليه ابنته لتكون ملكته، فقال له قيكтариون: «حظي
في الزواج سيئ». زوجته الأولى ماتت في أثناء الولادة
ومنحته ابنة جهيضة، والثانية فتك بها الجدري،
والثالثة...

قال هوئو بإصرار: «لا بُد أن يكون للملك وريث. عين
الغراب جلبت ثلاثة من أبنائه يعرضهم في انتخاب
الملك».

- «نقول وهجان. كم سن ابنتك هذه؟».

أجاب هوئو: «اثنا عشر عامًا، جميلة وخصبة، أزهرت
حديثًا، وشعرها بلون العسل. ما زال ثدياها صغيرين،
لكن وركيها قويّتان. إنها تشبه أمها أكثر مني».

أدرك فيكتاريون أن معنى هذا أن الفتاة بلا حذبة في ظهرها، لكن حين حاول أن يتصوّرها لم يَزِ إِلَّا الزّوجة التي قتلها. مع كلّ ضربة هوى عليها بها انتحب، وبعدها حملها إلى الضّخور ليعطي سراطين البحر إياها. قال: «يسرّني أن ألقى نظرة على الفتاة حالما أتوّج». كان هذا أقصى ما جرّؤ هوئو على أن يأمله، فابتعدَ قانغا.

على أن إرضاء بيلور بلاكتايد أصعب، وقد جلس إلى جوار فيكتاريون بوجهه النّاعم الوسيم وقميصه المفضّل من صوف الجملان المضلّع بالأسود والأخضر، وقد ارتدى فوقه معطفاً من فرو السّفور ثبّته نجمة شباعية من الفضة. أمضى الرّجل ثماني سنوات رهينة في (البلدة القديمة)، وعادَ منها عابداً لآلهة الأراضي الخضراء السّبعة. قال اللورد بيلور: «بالون كان مجنوناً وآرون أكثر جنوناً ويورون الأكثر جنوناً على الإطلاق، فماذا عنك يا حضرة القائد؟ إذا هتفتُ باسمك فهل ستضع نهايةً لهذه الحرب المجنونة؟».

قطب فيكتاريون جبينه متسائلاً: «هل تُريدني أن أركع؟».

- «إذا لزم الأمر. إننا لا نستطيع الضمود وحدنا أمام (وستروس) كلّها. الملك روبرت أثبت هذا وأذاقنا الويل. بالون قال إنه يُريد أن يدفع الثّمن الحديدي لقاء الحرّية، لكن نساءنا اشتريّن تيجان بالون بالأسرة الخالية. أمّي كانت واحدةً منهن. التّهج القديم مات».

- «ما مات لا يمكن أن يموت أبدًا، بل يُبعث من جديد أقوى وأصلب. بعد مئة عام سيظل الناس يُعْثون عن بالون المقدام».

- «الأحرى أن تُسَمِّيه بالون صانع الأرامل. كنت لأبادل حُرِّيَّته تلك بأبٍ بكل سرور. أعندك أب تُعطيني إياه؟»، ولما لم يُجب فيكتاريون أطلق بلاكتايد نخيرًا ساخرًا وترَّكه.

ارتفعت الحرارة داخل الخيمة وامتلأت بالدخان. قلب اثنان من أبناء جورولد جودبرادر مائدة في شجار، وخسر ويل همبل رهانًا ترثب عليه أن يأكل حذاءه، وعزف لينوود تاووني الصَّغير على الكمنجة، بينما غنى رومني ويقر (الكأس الدَّامية) و(أمطار من فولاذ) وغيرهما من أغاني المُغيرين، ورقص كارل البكر وإلدريد كود رقصة الأصابع، فدوى الضحك عندما طار أحد أصابع إلدريد وسقط في نبيذ رالف الأعرج.

بين الضَّاحكين كانت امرأة. نهض فيكتاريون وراها عند سديلة الخيمة، تهمس بشيء ما في أذن كارل البكر جعله يضحك بدوره. كان يأمل أنها ليست بالحماقة الكافية لأن تأتي، غير أن مرآها حدا به إلى الابتسام رغم ذلك، فنادى بصوت أمر: «آشا، ابنة أخي».

سَقَّت طريقها إلى جانبه وقد بدَّت نحيلاً رشيقةً في
حذائها العالي الذي بَقَّع جلده الملح وسراويلها الضوف
الخضراء وقميصها البني المبطن وسترتها الجلديّة
عديمة الأكمام التي عقدت نصف أربطتها. آشا
جرايچوي طويلة القامة بالنسبة إلى امرأة، وعلى الرغم
من هذا شَبَّت على أصابع قدميها لتلثم وجنته قائلةً:
«عقاه، يسرّني أن أراك في انتخاب الملكة».

رَدَّ ضاحكاً: «انتخاب الملكة؟ أنتِ سكرانة يا ابنة
أخي؟ اجلسي. لم ألمح سفينتك (الزّيح السوداء) على
الشّاطئ».

- «رسوْث بها عند قلعة اللورد جودبراذر وقطعت
الجزيرة ركوباً»، وجلست آشا على كرسي، وبلا إذن
تناولت نبيذ نيوت الحلاق وشربت منه، إلّا أن نيوت لم
يعترض، إذ كان قد غاب في النّوم سكران منذ مدّة.
«لن القيادة في (الخندق)؟».

- «رالف كنينج. بموت الذئب الصغير لم يَعد يقضّ
مضاجعنا إلّا شياطين المستنقعات».

- «آل ستارك لم يكونوا الشّماليّين الوحيدين. العرش
الحديدي قلّد سيّد (معقل الخوف) حُكم الشّمال».

- «هل تُلَقِّنني دروساً في الحرب؟ إنني أخوض
المعارك وأنتِ ما زلتِ ترضعين لبن أمكِ».

أضافت آشا: «وتخسر المعارك أيضاً»، وأخذت رشفةً
من النّبيذ.

لا يحب فيكتاريون أن يذكّره أحد بـ(الجزيرة القصيّة)، فقال: «على كلّ رجل أن يخسر معركة في شبابه كي لا يخسر حربًا حين يكبر. أمل أنك لم تجيني للمطالبة بالحكم».

قالت بابتسامة عابثة: «وماذا لو أتي جنّث لهذا؟».

- «هناك رجال يذكّرونك عندما كنتِ بنتًا صغيرة تسبح عارية في البحر وتلعب بدميتها».

- «ولعبت بالفؤوس أيضًا».

قال مقرّأ: «نعم... لكن المرأة تحتاج إلى زوج لا إلى تاج. حين أصبح ملكًا سأعطيك واحدًا».

- «يا لحنان عقي عليّ. هل أجذ لك زوجة حسنة حين أصبح ملكة؟».

- «حظي في الزّواج سيئ. منذ متى وأنتِ هنا؟».

- «منذ فترة تكفي لأن أرى أن ذا الشّعْر الرّطب آثار أكثر مما كان ينتوي. دروم يُزْمَع أن يُطالب بالحكم، وتارل الغارق ثلاثًا سَمِعَ يقول إن مارون قولمارك الوريث الشرعي لذوي النّسب الأسود من العائلة».

- «لا بُدّ أن يكون الملك من الكراكن».

قالت آشا: «عين الغراب كراكن. الأخ الكبير يسبق الصّغير»، ومالت آشا دانية، وأردفت: «لكني ابنة الملك بالون ومن ضلّبه، ولذا أسبقُ كليكما. اسمعني يا عمّاه...».

غير أن الضمت ران فجأة على المكان. سكت الغناء
وخفض لينوود تاووني الصغير كمنجته، ودور الرجال
رؤوسهم، بل وسكنت جلبة الأطباق والشكاكين.

دسته من الواقدين الجدد دخلت خيمة المأدبة، ورأى
فيكتاريون چون ماير ذي الوجه المسحوب، وتوروولد
ذي السن البنية، ولوكاس كود الأعسر، إضافة إلى
جرموند بوتلي الذي عقد ذراعيه على واقي صدره
المذهب الذي أخذه من جثة أحد قادة لانستر خلال
تمرد بالون الأول، وقد وقف إلى جواره أوركوود سيد
(أوركمونت)، ووارءهما ذو اليد الحجر وكويلون همبل
والملاح الأحمر بشعره الثاري المضفور، ومعهم رالف
الزاعي ورالف ابن (لانسپورت) وكارل القن.

وعين الغراب، يورون جرايجوي.

قال فيكتاريون لنفسه: لا يبدو عليه تغيير، يبدو تمامًا
كما كان يوم سخر مني ورحل. يورون أوسم أبناء اللورد
كويلون، ولم تُغيّر ثلاثة أعوام في المنفى هذا. ما زال
شعره أسود كالبحر في منتصف الليل دون أيّ لمحة من
الأبيض، وما زال وجهه ناعمًا شاحبًا تحت لحيته
الفاحمة المشدبة. تُغطي عين يورون اليسرى رقعة
جلدية سوداء، لكن اليمنى زرقاء كسماء الضيف.

فكر فيكتاريون: عينه الباسمة، وقال: «عين الغراب».
- «الملك عين الغراب يا أخي»، ردّ يورون مبتسمًا،
فبدت شفتاه داكنتين للغاية في ضوء المصابيح،
مكدومتين مزرقتين.

نهض ذو الشعر الرطب قائلاً: «لا ملك إلا بانتخاب الملك. ليس لكافر...».

قاطعه يورون: «... أن يجلس على كرسي حجر اليم، نعم»، وتطلع عبر الخيمة متابعًا: «يتصادف أنني جلست على كرسي حجر اليم كثيرًا في الفترة الأخيرة ولم يعترض»، والتمعت عينه الباسمة وهو يواصل: «من يعرف عن الآلهة أكثر مني؟ آلهة خيول وآلهة نارثيون، آلهة من الذهب أعينها أحجار كريمة، آلهة منحوتة من خشب الأرز وآلهة منحوتة في الجبال وآلهة من هواء... أعرفها جميعًا. رأيت عبادها يضعون على رؤوسها أكاليل الزهر ويسفحون دماء الماعز والثيران والأطفال باسمها، وسمعت الصلوات بعشرات اللغات. أشف ساقى العاجزة، اجعل الفتاة تحبني، امنحني ابنًا سليفًا معافي، أنقذني، أسعفني، أثرنني... احمني! احمني من أعدائي، احمني من الظلام، احمني من المرض في بطني، من سادة الخيول، من الثخاسين، من المرتزقة على بابي، احمني من (الضمت)!!»، وضحك قائلاً: «كافر؟ آرون، إنني أكثر رجل إيمانًا في التاريخ! تخدم أنت إلهًا واحدًا يا ذا الشعر الرطب، أمّا أنا فخدمت عشرة آلاف. من (إيب) إلى (آشاي)، حين يرى الناس أشرعتي يصلّون».

رفع الزاهب إصبعًا رقيقًا، وقال: «إنهم يصلّون للأشجار والأصنام الذهب والمسوخ ذات رؤوس الكباش، آلهة زائفة...».

قال يورون: «بالضبط، ولهذه الخطيئة أقتلهم جميعًا، أريق دماءهم في البحار وأزرع في نسوتهم الصّارخات بذرتي. آلهتهم الثّافهة لا تقوى على صدي، فواضح إذن أنها آلهة زائفة. إنني أكثر تقوى منك شخصيًا يا آرون. ربما عليك أنت أن تركع أمامي طالبا البركة».

أطلق الملاح الأحمر ضحكةً صاخبةً لقوله، وحذا الآخرون حذوه، في حين قال الزّاهب: «حمقى، ما أنتم إلا حمقى وأقنان وغمي. ألا ترون الواقف أمامكم؟». قال كويلون همبل: «نرى ملكًا».

بصق ذو الشّعر الزّطب على الأرض، وخرج إلى الليل بخطوات واسعة.

وحين رحل التفّت يورون بعينه الباسمة إلى فيكتاريون قائلاً: «حضرة القائد، ألن تُخَيّي أخاك الذي طال غيابُه؟ ولا أنت يا آشا؟ كيف حال السيّدة والدتك؟».

أجابَت آشا: «ليست بخير، رجل ما جعلها أرملة». هزّ يورون كتفيه، وقال: «سمعتُ أن إله العواصف ألقى ببالون إلى حتفه. من هذا الرّجل الذي قتله؟ أخبريني باسمه يا ابنة أخي لأثار لنفسي منه».

قامت آشا قائلةً: «تعرف اسمه مثلما أعرفه. ثلاث سنوات غبت عنا، ثم ترجع (الضمت) في غضون يوم واحد من موت أبي».

سألها يورون بوداعة: «هل تّهميني؟».

- «هل يجدر بي أن أتهمك؟». حذت نبرة آشا الحادة بفيكتاريون إلى العبوس. من الخطر أن يكلم المرء عين الغراب بهذا الأسلوب، حتى والعبث يلتمع في عينه الباسمة.

سأل عين الغراب حيواناته المدللة: «هل تأتمر الزيح بأمرى؟».

قال أوركوود سيّد (أوركموند): «لا يا جلالة الملك». وقال جرموند بوتلي: «الزّيح لا تأتمر بأمر إنسان». وقال الملاح الأحمر: «ليتها تأتمر بأمرك. كنت لشجير حيثما شئت ولا تُعاني سكونها أبدًا».

- «ها قد سمعت الحقيقة من ثلاثة رجالٍ شجعان. (الضّمت) كانت في البحر حين مات بالون. إذا كنت تُشكّكين في كلمة عمك فلك الإذن في سؤال طاقمي». - «طاقمك الآخرس؟ نعم، سينفعني هذا حقًا».

قال يورون: «سينفعك أن تتزوّجي»، وعادّ يلتفت إلى أتباعه متسائلًا: «توروولد، لقد نسيث، ألك زوجة؟».

- «زوجتي الوحيدة»، أجاب توروولد ذو الشن البنيّة بابتسامة عريضة ليُريهم كيف اكتسب لقبه.

أعلن لوكاس كود الأعسر: «أنا أعزب».

قالت آشا: «لسبب وجيه. كلّ النساء يحتقرن آل كود. لا تُنظر إليّ بهذا الحزن يا لوكاس، فما زالت لديك يدك الشهيرة»، وصنعت حركةً بذيئةً بقبضتها.

راح كود يسب ويلعن إلى أن وضع عين الغراب يده
على صدره قائلاً: «أهذه لباقة يا آشا؟ لقد جرحت
لوكاس في الصميم».

- «أسهل من جرحه في القضيبي. إنني أجيذ رمي
الفؤوس كأي رجل، لكن عندما يكون الهدف صغيراً
هكذا...».

زمرّ چون ماير ذو الوجه المسحوب: «هذه الفتاة
تنسى نفسها. بالون تركها تعتقد أنها رجل».

ردّت آشا: «أبوك ارتكب الغلطة نفسها معك».

قال الملاح الأحمر: «أعطني إياها يا يورون.
سأصفعها على مؤخّرتها إلى أن تحمّر كشعري».

قالت آشا: «تعالّ وحاول، وبعدئذ سنسقيك الخصي
الأحمر»، وظهرت في يدها فأس ألقتها في الهواء
والتقطتها ببراعة متابعة: «ها هو ذا زوجي يا عمّاه.
على الرجل الذي يريدني أن يتعامل معه أولاً».

هوى فيكتاريون بقبضته على المائدة صائخاً: «لن
أسمح بإراقة الدماء هنا. يورون، خُذ... حيواناتك
الأيّفة... واخرج».

- «كنث أتطلّع إلى ترحيب أكثر دفئاً منك يا أخي.
إنني أخوك الكبير... وقريباً مليكك».

اغبرّ وجه فيكتاريون، وقال: «حين يقول انتخاب
الملك كلمته سنرى من يعتمد تاج الخشب المجروف».

قال يورون: «على هذا نثفق»، ورفع إصبعين إلى الرُّقعة التي تُغَطِّي عينه اليسرى وانصرف، وخرج الآخرون في أعقابهِ ككلابٍ مهجَّنة. ظلَّ الضَّمَت مخيِّفاً عقب خروجهم، إلى أن أمسك لينوود تاووني الضَّغير كمنجته مجدِّداً وعادَ الثُّبُيد والمِزر يتدقَّقان، وإن لآخ على مجموعةٍ كبيرة من الضُّيوف أنهم لم يعودوا ظمَّانين. انسلَّ إلدريد كود من الخيمة محتضناً يده الدَّامية، ثم تبعه ويل همبل وهوَّو هارلو وعدد لا بأس به من أبناء جودبراذر.

وضعت آشا يدها على كتف فيكتاريون قائلةً: «عقاه، تمشْ معي إذا سمحت».

كانت الرِّيح تشتدُّ خارج الخيمة، والشَّحاب يجري أمام وجه القمر الشَّاحب فيبدو كقوادس تندفع لتدكَّ سفن العدو، والثُّجُوم قليلة خافتة. بطول الشَّاطئ السفن الطويلة راسية، صواربها العالية ترتفع كغابة وسط الأمواج. سمع فيكتاريون صرير أبدانها وهي تستريح على الرُّمال، وسمع صوت انشداد حبالها الحادَّ وخفقان الرَّايات عليها، ووراءها في الجزء الأعرق من الخليج رأى السفن الأخرى الأكبر تتمايل في مرسأها كظلالٍ قاتمة يتغلَّفها الضُّباب.

قالت آشا إذ سارا معاً على الشَّاطئ فوق حُطَّ القد مباشرةً وبعيداً عن المخيِّمات وبؤر النَّار: «اصدقني القول يا عقاه، لماذا رحلَ يورون فجأة؟».

- «عين الغراب اعتادَ الدَّهاب للإغارة كثيرًا».

- «لكن ليس لفترات طويلة».

- «لقد أخذ (الضمت) إلى الشرق. إنها رحلة طويلة».

- «سألت لماذا رحل وليس أين»، فلما لم يجبها تابعت

آشا: «كنت غائبة عندما أقلت (الضمت)، أخذت (الريح

والشوداء) ودرت حول (الكرمة) إلى (الأعتاب) لأسرق

القليل من الغنائم من القراصنة اللاليسينيين، وحين

عدت كان يورون قد رحل وماتت زوجتك الجديدة».

- «كانت مجرّد زوجة ملحيّة». إنه لم يمش امرأة

أخرى منذ أعطى سراطين البحر إياها. عليّ أن أتخذ

زوجة حين أتوّج ملكاً، زوجة حقيقية تكون ملكتي

وتحمل لي أبنائي. يجب أن يكون للملك وريث.

قالت آشا: «أبي رفض أن يتكلّم عنها».

ردّ: «لا ينفع المرء الكلام عن أشياء لا يستطيع أحد

تغييرها»، واستطردّ وقد سئم من الموضوع: «رأيث

سفينة القارئ».

- «إخراجه من (برج الكتب) تطلّب سحري كلّ».

آل هارلو يؤيّدونها إذن. ازداد وجه فيكتاريون

عبوساً، وقال: «لا أمل لك في الحكم. إنك امرأة».

ضاحكة قالت آشا: «ألهذا أخسر دومًا في مسابقات التَّبُول؟»، ثم إنها أردفت: «عَمِّي، يُؤسفني أن أقولها، لكن ربما تكون مصيَّبًا. منذ أربعة أيام وأربع ليالٍ وأنا أشربُ مع الزَّيَابنة والملوك وأصغي لما يقولونه... وما لا يقولونه. إن رجالي معي، وكثيرين من آل هارلو، ومعهم تريس بوتلي أيضًا وبعض الآخرين. لا يكفون»، وركلت صخرةً وطيرتها لتسقط في الماء بين سفينتين طويلتين، وأضافت: «أفكّر في أن أهتف باسم عَمِّي».

سألها: «باسم أيِّ عم؟ إن لك ثلاثة».

- «ثلاثة أعمام وخال. اسمعني يا عقاه. سأضع تاج الخشب المجروف على رأسك بنفسي... إذا وافقت على مشاركة الحكم».

- «مشاركة الحكم؟ كيف؟». المرأة لا تقول كلامًا معقولًا. هل تريد أن تكون ملكتي؟ وجدَ فيكتاريون نفسه يَنظر إلى آشا بطريقة جديدة تمامًا، وأحسَّ بذكره يتحرّك، فذكر نفسه قائلاً: إنها ابنة بالون، وتذكرها وهي فتاة صغيرة ترمي الفؤوس على باب. عقد ذراعيه على صدره، وقال: «لا مكان على كرسي حجر اليم إلا لواحد».

- «فليجلس عَمِّي عليه إذن، وسأقف وراءك أحمي ظهرك وأهمش في أذنك. لا ملك يستطيع أن يحكم وحده. حتى عندما جلس الثَّنائين على العرش الحديدي كان هناك مَنْ يُساعدونهم، أيادي الملوك. دعني أكون يدك يا عقاه».

لم يحتج ملك للجزر إلى يد في تاريخها كله، ناهيك
بكون ذلك اليد امرأة. سيسخر مني الزبائنة والملوك
وهم يشربون. «لماذا ترغبين في أن تكوني يدي؟».

- «لنضع نهاية لهذه الحرب قبل أن تضع نهايتنا. لقد
كسبنا كل ما يمكننا أن نكسبه... ومعرضون لأن نخسر
كل شيء بالسرعة نفسها ما لم نعقد صلحا. لقد أريث
الليدي جلوفر كل كياسة ممكنة، وبقسم أن سيدها
سيتفاوض معي. تقول إنه إذا رددنا (ربوة الغابة)
و(مرتع تورين) و(خندق كايلى) فسيتنازل لنا الشماليون
عن (رأس التين البحري) و(الشاحل الحجري) بأكمله.
تلك الأراضي معمورة بقليل من السكان، لكنها تفوق
مساحة الجزر مجتمعة عشر مرات. سنبرم الصفقة
بتبادل الأسرى، وسيوافق كل طرف على التحالف مع
الثاني إذا ما قرّر العرش الحديدي...».

قاطعها فيكتاريون مقهقها، وقال: «الليدي جلوفر هذه
تستحمقك يا ابنة أخي. (رأس التين البحري)
و(الشاحل الحجري) لنا بالفعل، فلم نرُد أي شيء؟
(وينترفل) احترقت وتهذمت، والذئب الصغير تحت
الأرض بلا رأس. سوف ننال الشمال كله كما كان أبوك
يحلم».

- «عندما تتعلّم الشفن الطويلة الإبحار وسط الأشجار ربما. قد يعلق خُطاف صياد بلّويّان رمادي، لكن اللّويّان سيجزّهُ إلى موته في الأعماق ما لم يقطع الحبل. الشّمال أوسع من أن نستطيع الشّيطرة عليه، ومليء للغاية بالشّماليّين».

قال فيكتاريون: «عودي إلى ذمّاك يا ابنة أخي، واتّزكي ربح الحروب للمُحاربين»، وأراها قبضتِه مردفًا: «إن لي يدين. لا أحد يحتاج إلى ثلاث».

- «لكنني أعرف رجلًا يحتاج إلى عائلة هارلو».

- «هوئو الأحذب عرض عليّ ابنته لتكون الملكة. إذا قبلتها فسأحظى بعائلة هارلو».

أدهش قوله آشا التي قالت: «اللورد رودريك يحكم عائلة هارلو».

- «رودريك ليس عنده بنات وإنما الكُتب فقط. هوئو سيكون خليفته، وسأكونُ الملك». ما إن قالها بصوت عالٍ حتّى بدا وقعها واقعِيًا. «عين الغراب غاب طويلاً جدًا».

قالت آشا منذرةً: «بعض الرّجال يبدو أكبر من حجمه الحقيقي من بُعد. امشِ بين بؤر النّار إذا جرّوت وأنصت. إنهم لا يحكون ويتحاكون عن قوّتك أو جمالي الشّهير، بل يتكلّمون عن عين الغراب فحسب، البلاد البعيدة التي رآها والنّساء اللاتي اغتصبهن والرّجال الذين قتلهم والمدائن التي نهّبها، وكيف أحرّق أسطول اللورد تايوين في (لانسپورت)....».

قال بإصرار: «أنا أحرقت أسطول الأسد. بيدي هاتين ألقى المشعل الأول على سفينته الأم».

قالت آشا: «عين الغراب هو من وضع الخطة»، ووضعت يدها على ذراعه مضيفة: «وقتل زوجتك أيضًا... أليس كذلك؟».

كان بالون قد أمرهم بعدم الإتيان على ذكر تلك المسألة، لكن بالون مات. «لقد وضع طفلًا في بطنها وجعلني أقتلها بنفسى. كنت لأقتله أيضًا لولا أن بالون رفض قتل الأقربين تحت سقفه رفضًا قاطعًا، ونفى يورون بلا عودة...».

- «... ما دام بالون حيًا؟».

رمق فيكتاريون قبضتيه قائلاً: «لقد ركبتي لي قرنين. لم أملك خيارًا». لو افتضح الأمر لضحك الناس مني، كما ضحك عين الغراب حين واجهته وقال متبجحًا: «لقد أثنتي مبتلةً راغبةً. يبدو أن فيكتاريون كبير في كل شيء باستثناء الجزء المهم». لكنه لم يستطع أن يبوح لها بذلك.

قالت آشا: «آسفة لما جرى لك، وأكثر أسفًا لما جرى لها... لكنك لا تترك لي اختيارًا إلا المطالبة بكُرسي حجر اليم لنفسى».

لا يمكنك. «حياتك ملكك، فبذيتها كما شئت يا امرأة».

ردت: «هي كذلك»، وتركته.

(57) القرقور سفينة ضخمة تحمل آلات الحرب والمؤن والعتاد،
وتتسع لعدد كبير من المجذفين والبخّارة. (المترجم).

الغريق

فقط حينما خدّر البرد ذراعيه وساقيه تماقًا عاد آرون جرايچوي أدراجه إلى الشاطئ وارتدى ثيابه.

لقد قرّ من عين الغراب كأنه لا يزال ذلك الشيء الضعيف الذي كانه، لكن حين تكشّرت الأمواج فوق رأسه ذكّرتّه بأن ذلك الرّجل مات. وُلِدَتْ ثَانِيَّةٌ مِنَ الْبَحْرِ، رَجُلًا أَقْوَى وَأَصْلَبَ. لَا فَنِي يُخِيفُهُ، وَلَا الظُّلَامُ يُخِيفُهُ، وَلَا عِظَامُ رُوحِهِ، تِلْكَ الْعِظَامُ الرُّمَادِيَّةُ الْعَجُوزُ. صَوْتُ بَابٍ يَنْفَتَحُ، وَصِرْخَةٌ مِفْصَلِيَّةٌ حَدِيدِيَّةٌ صَدْتِ.

طَقَطَقَ رِداؤُهُ إِذْ سَحَبَهُ عَلَى جَسَدِهِ وَالْمَلْحَ لَا يَزَالُ يُبَيِّسُهُ مِنْذُ غَسَلَهُ آخِرَ مَرَّةٍ قَبْلَ أَسْبُوعَيْنِ، وَالتَّصَقُّ النَّسِيجِ بِصَدْرِهِ الْمَبْتَلِ مَتَشَرِّبًا الْمَاءَ الْمَالِحَ الَّذِي يَسِيلُ مِنْ شَعْرِهِ، ثُمَّ إِنْ الزَّاهِبُ مَلَأَ قَرْبَتَهُ وَعَلَّقَهَا مِنْ كَتْفِهِ.

بَيْنَمَا يَقْطَعُ الشَّاطِئُ بِخُطَوَاتٍ وَاسِعَةٍ فِي الظُّلَامِ عَثَرَ فِيهِ رَجُلٌ غَارِقٌ عَائِدٌ مِنْ تَلْبِيَةِ نَدَاءِ الطَّبِيعَةِ، فَتَمَتَّمَ: «ذُو الشَّعْرِ الرَّطْبِ»، وَوَضَعَ آرونُ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ وَبَارَكَهُ وَوَأَصَلَ طَرِيقَهُ. بَدَأَتْ الْأَرْضُ تَرْتَفِعُ تَحْتَ قَدَمَيْهِ، بِاعْتِدَالٍ أَوَّلًا ثُمَّ بِحَذَّةٍ أَكْثَرَ، وَلَقَا أَحْسَنَ بِالْغُشْبِ الْقَصِيرِ بَيْنَ أَصَابِعِهِ عَرَفَ أَنَّ الشَّاطِئَ أَصْبَحَ وَرَاءَهُ الْآنَ، وَبَتَأَنًّ صَعَدَ مَصْفِيًا إِلَى الْمَوْجِ. الْبَحْرُ لَا يَكُلُّ أَبَدًا، وَمِثْلُهُ يَجِبُ أَلَّا أَكُلَّ.

على قمة التل ترتفع من الأرض أربع وأربعون ضلعًا
حجريّة هائلة الحجم كجذوع أشجارٍ شاحبة ضخمة،
وجعلَ منظرها نبض قلب آرون يتسارع. ناجا كانت
تئينة البحر الأولى، أعتى الثنّانين التي انشقت عنها
الأمواج، وكانت تقّات بلحوم الكراكن واللّويثانات
وتغرق جزرًا كاملةً في خضمّ ثورتها، إلّا أن الملك
الأشيب قتلها وحول الإله الغريق عظامها إلى حجرٍ كي
لا يكفّ الناس عن التّعجب من شجاعة الملوك الأوائل
أبدًا، وصارت ضلوع ناجا أعمدة وعوارض قاعته
الطويلة، تمامًا كما صار فكاها عرشه. طيلة ألف عامٍ
وسبعة حكم هنا، وهنا اتخذ عروس البحر زوجةً له
وخطّط لحروبه ضدّ إله العواصف، ومن هنا كان سيّدًا
على الملح والحجر، يرتدي ثيابًا من طحالب البحر
المجدولة ويعتمر تاجًا طويلًا شاحبًا من أسنان ناجا.

لكن ذلك كان في فجر الزمان، حين كان جبابرة البشر
ما زالوا يستوطنون البحر واليابسة. كانت تُدَقُّ القاعة
نيران ناجا الحيّة التي سخرها الملك الأشيب لخدمته،
وعلى جدرانها تدلّت معلّقات مجدولة من طحالب بحر
فضيّة تسرّ الأعين، والتهمّ مُحاربو الملك الأشيب ولائم
من فضل البحر على مائدة شكلها كنجمة بحر عظيمة،
بينما يجلسون على عروش منحوتة من عرق اللؤلؤ.
وراح المجد كلّهُ، راح. الآن البشر أضال وأعمارهم أقصر.
أطفأ إله العواصف نيران ناجا بعد وفاة الملك الأشيب،
وشرّقت المقاعد والمعلّقات، وتعقّنت الشقوق والجدران
وزالت، وحتى عرش الأثياب العظيم الذي جلس عليه
الملك الأشيب ابتلعه البحر، ولا يبقى إلا عظام ناجا
لثدّكر الحديديين بالأعجوبة التي كانت.
قال آرون جرايجوي لنفسه: وهذا يكفي.

في قمة الثَّل تسع درجات منحوتة في الحجر، ومن ورائها تلوح تلال (ويك القديمة) العاصفة، وفي الخلفية البعيدة الجبال السوداء الموحشة. توقّف آرون حيث كانت البوابة في الماضي، وخلع سداة قريته وأخذ رشفة من الماء المالح، ثم التفت يُواجه البحر. من البحر وُلدنا وإلى البحر نعود. حتى من هذا الارتفاع يسمع هدير الأمواج اللامتناهي ويشعر بقدرة الإله الكامن في الأعماق. ركع آرون على زكبيته، وصلى: قد أرسلت إلي قومك، تركوا منازلهم وأكواخهم وقلاعهم وحصونهم وأتوا هنا إلى عظام ناجا، من كل قرية صيد وكل وادٍ خفي، فامنحهم في هذه الساعة الحكمة ليعرفوا الملك الحق حين يقف أمامهم، والقوة لينبذوا الباطل. ظلّ يُصلي طيلة الليل، فعندما يحلّ فيه الإله لا يحتاج آرون جرايجوي إلى النوم، تمامًا كما لا يحتاج إليه الموج أو السمك في البحر.

أزجت الرّيح السّحاب القاتم بينما تسَلّت خيوط
الصّوء الأولى إلى العالم. استحالّت السّماء من الأسود
إلى رماديّ صخر الأردواز، وتحوّل سواد البحر إلى
أخضر رمادي، واصطبغت جبال (ويك القديمة) السوداء
عبر الخليج بدرجات الأخضر المزرق كأشجار الصّنوبر
الجندي. مع عودة الألوان على استحياء إلى الدّنيا
ارتفعت مئة راية خفاقة، ورأى آرون سمكة بوتلي
الفضيّة وقمر وينش الدّامي وأشجار أوركوود الخضراء
الدّاكنة، علاوة على أبواق الحرب واللّويثانات
والمناجل، وفي كلّ مكان الكراكن الذهبية العظيمة.
تحت الرّايات بدأ الأقنان والزّوجات الملحيات يتحرّكون
في المكان، يُقلّبون الجمر الخامد ويُعيدونه إلى الحياة،
ويُنظّفون الأسماك لإفطار الرّبابنة والملوك. قسّ ضوء
القُجر الشّاطن الحجري وشاهد الزّاهب الرّجال يقومون
من نومهم مزبحين أغطيّة من جلد الفقّعات ويطلّبون
قرن المزر الأول، فقال لهم في نفسه: اشربوا وارثوا،
فعلينا اليوم أن نعمل عمل الإله.

كان البحر يتحرّك أيضًا. تعاظمت الأمواج مع اشتداد
الرّيح دافعة أعمدة من الرّذاذ تتكسر على أبدان الشّفن
الطّويلة، ففكر آرون: الإله الغريق يستيقظ. سمع صوته
ينبع من أعماق البحر قائلاً له: سأكون معك هنا اليوم يا
خادمي القوي الأمين. لا كافر سيجلس على كرسي حجر
يقي.

ترك الرجال بؤر النار ليشقوا طريقهم إلى (بهو الملك
الأشيب)؛ ملاحون وموجهو دفة، ضناع أشرعة
وسقانون، الفحاربون بفؤوسهم والضّيادون بشباكهم،
بعضهم معه أقنان وبعضهم معه زوجات ملحيّات،
وغيرهم ممّن أبحروا أكثر من اللازم إلى الأراضي
الخضراء رافقهم ما يسترات ومغثون وفُرسان، فيما
تزاحم العائمة مشكّلين هلالاً حول سفح الثّل، ونحو
المؤخرة وقفّ الأقنان والنساء والأطفال. سلك الزّبابنة
والملوك المنحدرات صاعدين، ورأى آرون سيجفري
ستونتري بوجهه البشوش وأندريك اللا مبتسم والفارس
السير هاراس هارلو، واللورد بيلور بلاكتايد إلى جوار
اللورد ستونهاوس في معطف مهترئ من جلد الفقّمات.
وقفّ أخوه فيكتاريون مجاوزًا الجميع طولًا باستثناء
أندريك، ولئن لم يعتمر خوذته فقد ارتدى درعه كاملةً
وتسربل بمعطف الكراكن الذهبي. سيكون ملكنا. من ذا
الذي ينظر إليه ويخالجه الشك؟

حين رفع ذو الشعر الرّطب يديه المعروقتين صمّث
الظبول والأبواق وخفض الرجال الغرقى هراواتهم
وسكّنت كلّ الأصوات. بهدوء قال آرون أولاً كي يرهفوا
أسماعهم: «من البحر وُلدنا وإلى البحر نعود جميعًا. في
غضبه انتزع إله العواصف بالون من قلّعتة وأطاح به،
لكنه الآن يأكل وليمةً تحت الأمواج في أبهاء الإله
الغريق المائيّة»، ورفع عينيه إلى السّماء صائحًا: «مات
بالون! مات الملك!».

رَدَّد رجاله الفرقي: «مات الملك!».

- «لكن عسى الميت ألا يموت أبدًا، بل يُبعث من جديد أقوى وأصلب. سقط بالون، أخي بالون الذي بَرَّ بالثَّهَج القديم ودفع الثَّمن الحديدي. بالون الشَّجاع، بالون المبارك، بالون الفارق مرَّتين، الذي استردَّ لنا حرَّيتنا وإلهنا. مات بالون... لكن ملكًا حديدًا سيأتينا ليجلس على كرسي حجر اليم ويحكم الجزر». رَدُّوا: «سيأتينا ملك! سيأتينا ملك!».

بصوت كرعد الأمواج قال آرون: «سيأتينا، لا بُدَّ أن يأتي، لكن مَنْ هو؟ مَنْ سيجلس في مكان بالون؟ مَنْ سيحكم هذه الجزر المقدَّسة؟ أهو بيننا الآن؟»، وبسط الزَّاهب كُفَّيه عن آخرهما مردِّفًا: «مَنْ سيكون ملكًا علينا؟».

رَدَّد عليه نورس صارخًا، وبدأ المحتشدون يتحرَّكون في أماكنهم كأنهم يستيقظون من خلم، كلُّ رجلٍ يتطلَّع إلى جيرانه ليرى مَنْ منهم ثَوَاتِيهِ الجِراة على المطابَّة بالثَّاج. قال آرون ذو الشَّعر الزَّطْب لنفسه: عين الغراب لم يكن صبورًا قَطُّ. ربما يتكلَّم أولًا. وإذا فعلَ فهي نهايته. لقد قطع الزَّباينة والملوك ظرْفًا طويلة من أجل هذه المأدبة، ولن يختاروا أول صنف يوضع أمامهم. سيريدون أن يتذوَّقوا ويُعاينوا، قِصْمة من هذا ولُقْمة من ذاك، إلى أن يجدوا أكثر من يُناسِبهم.

لكن لا بُدَّ أن يورون يعي هذا أيضًا، إذ وقفَ عاقداً ذراعيه على صدره وسط خُرسه ووحوشه، ولم يُجب نداء آرون إلَّا الرِّيح والموج.

وبعد صمت طال كثر الزَّاهب: «لا مناص من أن يكون للحديدَّيين ملك. أسألكم ثانيةً، مَنْ سيكون ملكًا علينا؟».

أتى الجواب من أسفل: «أنا».

في الحال ارتفع هتاف «جيلبرت! جيلبرت ملكًا!» بأصوات خشنة، وأفسح الزَّبابنة الطَّريق للقطالب وأنصاره ليصعدوا الثَّلَّ ويقفوا إلى جوار آرون أسفل ضلوع ناجا.

هذا الذي يُريد أن يكون ملكًا لورد فارع القامة مهزول الجسد، تبدو عليه سيماء الكآبة وله وجه طويل نحيل مخلوق بعناية. أخذ أنصاره الثلاثة أماكنهم أسفل بدرجتين حاملين سيفه وثرسه ورايته، وقد بدا عليهم تشابه معيّن مع اللورد الطَّويل، فقدَّر آرون أنهم أبناؤه. بسط أحدهم الرَّاية التي تُصوِّر سفينةً طويلةً سوداء أمام شمس غاربة، وقال اللورد لناخبي الملك: «أنا جيلبرت فارويند، سيِّد (المنارة الوحيدة)».

يعرف آرون بعض آل فارويند، وهُم قوم غُرباء
الأطوار يملكون أراضي على السّواحل في أقصى غرب
(ويك القديمة) والجزر الصّغيرة المتفرّقة وراءها،
صخور صغيرة للغاية يَتَسَّع معظمها لأسرة واحدة فقط،
و(المنارة الوحيدة) أبعدُها على الإطلاق، فلكي تَبْلُغها
عليك الإبحار ثمانية أيام وسط مستعمرات الفقمات
وسباع البحر في محيط رمادي مترامي الأطراف. آل
فارويند هناك أغرب أطوارًا من البقيّة، ويُقال إنهم
مخلوقات آثمة تُبَدِّل هياثها فتأخذ شكل سباع البحر
والأفَظاظ(58)، وحتى الحيتان الرّقطاء التي تعدّ ذئاب
البحر المائج.

بدأ اللورد جيلبرت حديثه، فتكلّم عن أرض عجيبة
تقع وراء (بحر الغروب)، أرض بلا شتاءٍ أو فاقة وليس
للموت فيها من سلطان. صاح: «اجعلوني ملككم
وسأقودكم إلى هناك. سنبنّي عشرة آلاف سفينة كما
فعلت نايميريا ونُبحر بشعبنا كلّهُ إلى تلك الأرض وراء
مغرب الشّمس، وهناك سيصير كلّ رجلٍ ملكًا وكلّ زوجة
ملكة».

عيناه... رآهما آرون تتغيّران، الآن رماديّتان، الآن زرقاوان، متقلّبتان كالبحر. عيناان مجنونتان، عيناأحمق. لا ريب أن الرؤيا التي يتكلّم عنها شرك نصّبه إله العواصف ليستدرج الحديديين إلى دمارهم. تضقّت الهبات التي سكّتها رجال اللورد جيلبرت من الصّناديق أمام ناخبي الملك جلود فقمت وأنياب أفضاظ وحلقات أذرع من عظام الحيتان وأبواقًا حربيّة مطعّمة بالبرونز، وقد تطلّع الرّبابنة إليها ثم أشاحوا بأنظارهم تاركين الرّجال الأدنى شأنًا ينتقون ما يُريدون. حين فرغ الأحمق من الكلام وبدأ أنصاره يهتفون باسمه لم يُسمع صوت إلّا لال فارويند، وليس جميعهم كذلك، وسرعان ما خفت هتاف «جيلبرت! جيلبرت ملكا!» حتى صمت.

صرخ النّورس يازعاج من فوقهم وحطّ فوق أحد ضلوع ناجا بينما عاد سيّد (المنازة الوحيدة) ينزل الثّل، وتقدّم آرون ذو الشعر الرّطب، وقال: «ثانية أسألكم، من سيكون ملكا علينا؟».

دوى صوت عميق معلّنا: «أنا»، ومرة أخرى أفسح المتزاحمون الطّريق.

حَمَلَ المتكَلِّمُ إِلَى قَمَّةِ التِّلْ عَلَى مَقْعِدٍ مَنْقُوشٍ مِنَ
الْخَشَبِ الْمَجْرُوفِ فَوْقَ أَكْتَافِ أَحْفَادِهِ. رَجُلٌ ضَخْمٌ
مَتَهَالِكٌ يَبْلُغُ أَرْبَعَمِئَةَ رَطْلٍ وَزَنًا وَيُنَافِزُ التُّسْعِينَ عُمْرًا
وَيَرْتَدِي مَعْطَفًا مِنْ جِلْدِ الْفَقَمَاتِ الْأَبْيَضِ، شَعْرُهُ نَاصِعُ
الْبَيَاضِ أَيْضًا، وَلَحِيَّتُهُ الْمَدِيدَةُ تُغَطِّيهِ كَأَنَّهُا دِتَارٌ مِنْ
خَذْيِهِ إِلَى فَخْذِهِ مَصْغَبَةٌ التَّمْيِيزِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْمَعْطَفِ،
وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ أَحْفَادَهُ ضَخَامٌ أَقْوِيَاءُ الْبَنِيَّةِ فَقَدْ
نَاضَلُوا لِاحْتِمَالِ وَزْنِهِ عَلَى الدَّرَجَاتِ الْحَجَرِيَّةِ الْمُنْحَدِرَةِ
قَبْلَ أَنْ يَضَعُوهُ أَمَامَ (بِهِوَ الْمَلِكِ الْأَشْيَبِ)، وَظَلَّ ثَلَاثَةَ
مِنْهُ وَاقِفِينَ أَدْنَاهُ بِاعْتِبَارِهِمْ أَنْصَارَهُ.

فَكَّرَ آرُونُ: قَبْلَ سَتَيْنِ عَامًا كَانَ التَّائَخِبُونَ لِيَنْحَازُوا
إِلَى هَذَا الرَّجُلِ، لَكِنْ الدَّهْرُ عَفَا عَلَيْهِ.

وإذ رفع أحفاده أصواتهم بالهتاف تقدّم أبناؤهم بصناديق على أكتافهم، وحين قلبوها عند قاعدة الدّرجات الحجريّة انهمز وابل من الفضة والبرونز والفولاذ؛ حلقات أذرع وأطواق وسكاكين وخناجر وفؤوس. اختطف بعض الرّبابنة صفوة القطع وأضافوا أصواتهم إلى الهتاف المتزايد، لكنه لم يكد يبدأ يتفاقم حتى شقّه صوت امرأة صائحا: «إريك!». أفسح لها الرّجال الطّريق لتمزّ، وبقدم واحدة على الدّرجة الأدنى قالت: «إريك، انهض».

ساد الضّمّت. استمرّت الزّيح في الهبوب والموج في الانكسار على الشّاحل وراح بعض الرّجال يهتمهم في أذان بعض، وحقّق إريك آيرونميكّر الحديد من أعلى إلى آشا جرايجوي قائلا: «أيتها الفتاة، أيتها الفتاة الملعونة ثلاثا، ماذا قلت؟».

صاحت: «انهض، انهض يا إريك وسأهتف باسمك مع البقيّة، انهض وسأكون أول من يتبعك. تريد الثّاج، نعم، فانهض وخذه».

في مكانه في الرّحام ضحك عين الغراب، فحملق إريك إليه عابسا. أطبق الرّجل الكبير بإحكام على ذراعي عرش الخشب المجروف، واحمرّ وجهه ثم اسودّ، وارتجفت ذراعاه من المجهود، ورأى آرون عرقا أزرق تخيئا ينبض في عنقه بينما يكافح للتهوض. للحظة بدا كأنه على وشك أن يفعلها، لكن قواه كلّها خارت دفعة واحدة وأطلق أنيئا وعاد ينحط على وسادته.

طأطأ الرجل الكبير رأسه وهرم في غمضة عين،
وحمله أحفاده نازلين به الثل.

من جديد صاح آرون ذو الشعر الرطب: «مَن سيحكم
حديدي الميلاد؟ مَن سيكون ملكًا علينا؟».

تطلع بعض الرجال إلى بعض، بعضهم إلى يورون
وبعضهم إلى فيكتاريون وبعضهم إلى آشا، وتكشرت
الأمواج خضراء وبيضاء على أبدان السفن الطويلة
وصاح الثورس مرة أخرى، صرخته كثيفة خشنة.

نادى ابن مرلين: «اطرح دعواك يا فيكتاريون، دعنا
نفرغ من هذه المهزلة».

رد فيكتاريون النداء: «حين أستعد».

سر هذا آرون. الأفضل أن ينتظر.

التالي كان ابن دروم، عجز آخر وإن كان لا يداني
إريك في هزمه، فصعد الثل على ساقيه وقد استقر على
وركه سيفه الشهير (المطر الأحمر) المطرق من الفولاذ
القاليري في أيام ما قبل الهلاك. أنصاره رجال مرموقون،
قابناه دينس ودونل مقاتلان قويان، وبينهما أندريك اللا
مبتسم، الرجل العملاق ذو الذراعين الغليظتين كجذوع
الأشجار، الذي يعد تأييد رجل مثله بشير خير لابن
دروم.

بدأ دروم خُطبته قائلاً: «مكتوبٌ أين أن ملكنا يجب أن يكون كراكن؟ ما أحقيّة (پايك) في حكمنا؟ (ويك الكُبرى) أكبر الجُزر، و(هارلو) أغناها، و(ويك القديمة) أقدمها. حين التهمت نار الثُنانين الحُطّ الأسود من العائلة ولّى الحديدئون فيكون جرایجوي عليهم، نعم... لكن باعتباره لورد لا ملكاً».

بداية موفّقة. سمعَ آرون صيحات تأييد، لكنها خفّت عندما بدأ الرّجل يحكي عن أمجاد آل دروم، فتكلّم عن دايل الفرع ورورين الفُغير والأبناء المئة الذين أنجبهم جورموند دروم الأب العجوز، واستلّ (المطر الأحمر) وحكى لهم كيف أخذه هيلمار دروم الماكر من فارس مدرّع بعقله وهراوة خشبيّة لا أكثر، وتكلّم عن شفن ضاعت منذ زمن ومعارك تُسيّت من ثمانمئة عام، وبدأ الجمهور يُصاب بالضّجر. تكلّم وتكلّم، ثم إنه تكلّم أكثر. ولما فُتحت صناديق دروم رأى الرّبابة هدايا الضّنين التي أتاها بها، وقال ذو الشّعر الرّطب لنفسه: لا أحد اشترى عرشاً بالبرونز قَطّ. وصارت حقيقة هذا جليّة للأسماع إذ خفّت هتافات «دروم! دروم! دروم ملكاً!» وصمّت.

أَحْسَ آرون بِمَعْدَتِهِ تَتَلَبَّكْ، وَخُيِّلَ إِلَيْهِ أَنَّ الْمَوْجَ
يَتَلَاظِمُ بِهَدِيرٍ أَصْخَبَ مِنْ قَبْلِ، فَفَكَّرَ: الْآنَ، حَانَ الْوَقْتُ
لَأَنْ يَطْرَحَ قَيْكْتَارِيُونَ سَعْوَاهُ. مَرَّةً أُخْرَى صَاخَ الزَّاهِبُ:
«مَنْ سَيَكُونُ مُلْكًا عَلَيْنَا؟»، لَكِنْ هَذِهِ الْمَرَّةُ وَقَعَتْ عَيْنَاهُ
الشُّودَاوَانَ الثَّاقِبَتَانِ عَلَى أَخِيهِ فِي الزُّحَامِ، وَأَضَافَ:
«تَسْعَةُ أَبْنَاءٍ وُلِدُوا مِنْ ضَلْبِ كَوِيلُونَ جَرَايَجُوي، أَحَدُهُمْ
أَقْوَى مِنْ سَائِرِهِمْ وَلَا يَعْرِفُ الْخَوْفَ».

قَابَلَ قَيْكْتَارِيُونَ نَظَرَتَهُ وَأَوْمَأَ إِيْجَابًا، وَعِنْدَمَا بَلَغَ
الْقَفَّةَ قَالَ: «بَارِكْنِي يَا أَخِي»، وَرَكَعَ وَحَنَى رَأْسَهُ، فَخَلَعَ
آرون سَدَادَةَ قَرْبَتِهِ وَصَبَّ خَيْطًا مِنْ مَاءِ الْبَحْرِ عَلَى
جِبْهَةِ أَخِيهِ، ثُمَّ قَالَ الزَّاهِبُ: «مَا مَاتَ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَمُوتَ
أَبَدًا»، وَرَدَّ قَيْكْتَارِيُونَ: «بَلْ يُبْعَثُ مِنْ جَدِيدٍ أَقْوَى
وَأَصْلَبَ».

حين قام فيكتاريون ارتضى أنصاره على درجة أدنى منه؛ رالف الأعرج ورالف ستونهاوس الأحمر ونيوت الحلاق، وكلهم مُحاربون ذائعو الصيت. رفع ستونهاوس راية جرايجوي، الكراكن الذهبي على خلفية سوداء كبحر منتصف الليل، وما إن رفرقت حتى بدأ الرّبابنة والملوك يهتفون باسم حضرة الرّبان القائد، فانتظر فيكتاريون حتى سكتوا، ثم قال: «كلّكم تعرفونني. إذا كنتم تريدون الكلام المعسول فتطلّعوا إلى أحد غيري. إنني لا أتمتّع بلسان المغنّين، بل بفأس، وبهاتين»، ورفع لهم يديه الصّخمتين المققرّتين بالحلقات المعدنيّة، ورفع نيوت الحلاق فأسه الفولاذيّة المخيفة. تابع فيكتاريون: «كنتُ أخا مخلصًا. عندما تزوّج بالون أرسلني أنا إلى (هارلو) لآتي بعروسه، وقدتُ سفنه الطويلة في معارك عديدة ولم أخسر إلّا واحدة. أول مرّة اعتمَرَ بالون تاجًا أبحرث أنا إلى (لانسپورت) لأحرق ذيل الأسد، وفي المرّة الثّانية أرسلني أنا لأسلخ الدّئب الصّغير إذا ما قرّر أن يعود عاويًا إلى وطنه. كلُّ ما ستنالونه مني هو المزيد مما نلتم من بالون، وهذا كلُّ ما عندي».

بختام كلامه بدأ أنصاره يصيحون: «فيكتاريون! فيكتاريون! فيكتاريون ملكًا!»، وفي الأسفل سكب رجاله محتويات صناديقه في شلالٍ من الفضة والذهب والجواهر، ثروة من الغنائم تسابق الرّبابنة للاستيلاء على أفضلها بينما يهتفون: «فيكتاريون! فيكتاريون! فيكتاريون ملكًا!».

هدر الرجل من حيث يجلس بصوت يُعادل بدنه ضخامة: «نعم، أنا! ولم لا؟ ومن أفضل؟ أنا إريك آيرونميكس إذا كان العميان لا يرون، إريك العادل، إريك محظّم السنادين. أَرهم مطرقتي يا ثورمور». رفعها أحد أنصاره ليراها الجميع بحجمها الهائل، مقبضها ملفوف بالجلد القديم ورأسها قالب من الفولاذ بحجم رغيف الخبز. قال إريك: «لا أستطيع أن أحصي كم يذا حوّلتها إلى عجين بهذه المطرقة، ولكن ربما تجدون لُصًا ما يُخبركم. ولا أدري كم رأسًا سحقث على سنداني كذلك، لكن هناك أرامل يُمكنهن أن يقلن لكم. أستطيع أن أحكي لكم عن كلّ مآثري في المعارك، لكنني في الثّامنة والثّمانين ولن أعيش حتى أفرغ. إذا كانت الشّيخوخة تعني الحكمة فليس هناك من هو أكثر حكمةً مني، وإذا كانت الضّخامة تعني القوّة فلن تجدوا من هو أقوى مني. هل تريدون ملكًا له ورثة؟ إن عندي منهم أكثر مما يُمكنني أن أحصي. الملك إريك، نعم، يروقني وقعها. هلمّوا، قولوها معي. إريك! إريك محظّم السنادين! إريك ملكًا!».

راقب آرون عين الغراب متسائلًا في نفسه: هل
سيتكلم الآن أم يتزك الانتخاب ينتهي؟
كان أوركوود سيّد (أوركمونت) يهمس في أذن
يورون بشيء ما.

على أن يورون ليس من وضع نهاية للهتاف، وإنما
المرأة. وضعت آشا إصبعين في فمها وأطلقت صفيًا
حادًا صاحبًا شقّ الهرج والمرج كما يشقّ السكين قالبًا
من الزبدة، ثم صاحت: «عقاه! عقاه!»، وانحنت تختطف
طوقًا ذهبيًا ملتويًا وأسرعت تصعد الدرجات. أطبق
نيوت على ذراعها، ولجزء من لحظة راود آرون الأمل
في أن ينجح أنصار أخيه في إسكاتها، إلا أن آشا
انتزعت ذراعها من الحلق وقالت شيئًا لرافل الأحمر
جعله يفسح لها الطريق، وإذ تجاوزته صمت التهليل.
إنها ابنة بالون جرايچوي، والناس راغبون في سماعها.
قالت آشا لفيكتاريون: «لطف منك أن تجلب تلك
الهدايا لانتخاب الملكة يا عمي، لكن ليس هناك ما
يدعوك إلى تدريع نفسك لهذه الدرجة. أعد بأني لن
أؤذيك»، والتفتت ثواجه الزبابة متابعه: «لا أحد أشجع
من عمي، ولا أحد أقوى، ولا أحد أضرى في القتال،
ويمكنه أيضًا أن يعدّ إلى عشرة أسرع من أيّ أحد. لقد
رأيتَه يفعل هذا... ولو أنه يضطرّ إلى خلع حذائه عندما
يعدّ إلى عشرين». جعلهم قولها هذا يضحكون. «لكنه
بلا أبناء، وزوجاته يفتن. عين الغراب أكبر منه ودعواه
أقوى...».

زَعَقَ المَلَّاحُ الأحمر من أسفل: «نعم!».

- «آه، لكن دعواي أقوى وأقوى»، ووضعت آشا الطوق على رأسها بزاوية عابثة ليلتمع الذهب في شعرها الداكن، وأردفت: «لا يجوز أن يسبق أخو بالون ابن بالون!».

صاح رالف الأعرج: «أبناء بالون ماتوا ولا أرى إلا ابنته الصغيرة!».

رَدَّتْ آشا: «ابنته؟»، ودشت يدها في شترتها الجلدية قائلَةً: «أوهو! ما هذا؟ هل أريكم؟ بعضكم لم يَرِ واحدًا منذ قُطِمتُم»، وضحكت مواصلةً: «وجود ثديين على ملك شيء شنيع، أهذا ما تقوله؟ رالف، إنك على حق، أنا امرأة... ولو أنني لستُ امرأةً عجوزًا مثلك. رالف الأعرج... ألا يُفترض أن يكون اسمك رالف الرّخو؟»، وسحبت آشا خنجرًا من بين ثدييها رفَعته معلنةً: «إنني أم أيضًا، وهذا ابني الرضيع! وها هم أولاء أنصاري!». تقدّموا متجاوزين أنصار فيكتاريون الثلاثة ووقفوا أسفلها؛ كارل البكر وتريستيفر بوتلي والفارس السير هاراس هارلو الذي لا يقلُّ سيفه (غروب) شهرةً عن (المطر الأحمر) سيف دنستان دروم. «عمي قال إنكم تعرفونه. إنكم تعرفونني أيضًا...».

صاح أحدهم: «أريدُ أن أعرفك أفضل!».

رَدَّتْ آسَا: «غَدَ إِلَى بَيْتِكَ وَاعْرِفْ زَوْجَتَكَ»، ثُمَّ إِنَّهَا اسْتَدْرَكَتْ: «يَقُولُ عَمِّي إِنَّهُ سَيُعْطِيكُمْ الْمَزِيدَ مِمَّا أَعْطَاكُمْ أَبِي. طَيِّبْ، وَمَاذَا كَانَ هَذَا؟ سَيَقُولُ الْبَعْضُ الذَّهَبَ وَالْمَجْدَ، الْحَرْيَّةَ الثَّمِينَةَ. نَعَمْ، بِالْفَعْلِ، هَذَا مَا أَعْطَانَا إِيَّاهُ... وَالْأَرَامِلَ أَيْضًا كَمَا سَيَقُولُ لَكُمْ اللُّوردُ بِلَاكْنَايد. كَمْ مِنْكُمْ احْتَرَقَ بَيْتُهُ حِينَ أَتَى رُوبَرْت؟ كَمْ مِنْكُمْ اغْتَصَبَتْ ابْنَتُهُ وَانْتَهَكَ عَرْضُهَا؟ الْقَرْىَ الْمَحْرُوقَةَ وَالْقِلَاعَ الْمَتَهَذَّمَةَ، هَذَا مَا نَلْتَمُوهُ مِنْ أَبِي، نَلْتَمِ الْهَزِيمَةَ. عَمِّي سَيُعْطِيكُمْ الْمَزِيدَ، أَمَّا أَنَا فَلَا».

سَأَلَهَا لُوكَاسُ كُود: «وَمَاذَا سَتُعْطِينَا أَنْتِ؟ الْحَيَاكَةُ؟».

أَجَابَتْ: «أَجَلْ يَا لُوكَاسُ، سَأُحِيكَ لَنَا مَمْلَكَةً»، وَتَقَاذَفَتْ خَنَجَرَهَا مِنْ يَدٍ إِلَى يَدٍ مُرْدَفَةً: «عَلَيْنَا أَنْ نَتَعَلَّمَ دَرْسًا مِنَ الذَّنْبِ الصَّغِيرِ الَّذِي انْتَصَرَ فِي كُلِّ مَعْرَكَةٍ... وَخَسِرَ كُلُّ شَيْءٍ».

قَالَ قِيَكْتَارِيونَ بَاسْتَهْجَانٍ: «الذَّنْبُ لَيْسَ كِرَاكِنَ. مَا يُطَبَّقُ عَلَيْهِ الْكِراكِينَ لَا يُفْلِتُهُ أَبَدًا، سِوَاءِ أَكَانَ سَفِينَةً طَوِيلَةً أَمْ لَوِيَاثَانًا».

- «وعلامٌ يُطَبَّقُ يا عَقَاه؟ الشَّمال؟ وما الشَّمال إلَّا فراسخٌ وفراسخٌ من الفراسخ والفراسخ بعيْدًا عن صوت البحر؟ لقد استولينا على (خندق كايلن) و(ربوة الغابة) و(مرئع تورين)، بل وعلى (وينترفل) ذاتها، فماذا جنينا؟»، وأشارت آشا فتقدَّم رجالها من طاقم (الزَّيح السوداء) حاملين صناديق من البلوط والحديد، وقالت بينما سَكَبَتْ محتويات أولها: «أقدِّمُ لكم ثروة (السَّاحل الحجري)»، وانهمزَ سيلٌ من الحصى على الدَّرجات، حصى رمادي وأسود وأبيض صقلته مياه البحر. قالت والصُّندوق الثاني يُفْتَحُ: «أقدِّمُ لكم ثروات (ربوة الغابة)»، وتدفَّقت أكواز الصُّنوبر لتتدحرج وترتطم بأجساد المتزاحمين. قالت: «وأخيرًا أقدِّمُ لكم ذهب (وينترفل)»، ومن الصُّندوق الثالث سقطت ثمار اللَّفت الأصفر المستديرة الضُّلْبة الكبيرة كُرَّاس رجل، وحطَّت وسط الحصى وأكواز الصُّنوبر. غرست آشا خنجرها في إحداها، وصاحت: «هارموند شارپ، ابنك هاراج مات في (وينترفل) من أجل هذا»، ونزعت الثُّصل من الثُّمرة وألقَتْها إليه مضيضةً: «أظنُّ أن لك أبناءً آخريْن. إذا كنت ترغب في مبادلة حياتهم باللَّفت فاهتف باسم عمِّي!». سأَلها هارموند: «وماذا لو هتفتُ باسمكِ؟».

أجابت آشا: «السلام، الأرض، النصر. سأعطيكم (رأس
التنين البحري) و(الساحل الحجري)، ثربة سوداء
وأشجار طويلة وأحجار تكفي لأن يبني كل ابن صغير
قاعة لنفسه. سنكسب الشماليين أيضًا... كأصدقاء
يقفون معنا ضد العرش الحديدي. خياركم بسيط.
توجوني في سبيل السلام والنصر أو توجوا عمي في
سبيل المزيد من الحروب والهزائم»، ودشت خنجرها
في مكانه متسائلة: «ماذا تختارون أيها الحديثون؟».
زعم رودريك القارئ وقد كور يديه حول فمه:
«النصر! النصر وآشا!».

ورد اللورد بيلور بلاكتايد: «آشا! آشا ملكة!».
وانضم رجال طاقم آشا إلى الهتاف مرّدين: «آشا!
آشا! آشا ملكة!». دبذبوا على الأرض بأقدامهم وهزّوا
قبضاتهم في الهواء بينما أصغى ذو الشعر الرطب
مذهولاً. تريد أن تُدمر ما بناه أبوها! لكن تريستيفر
بوتلي يهتف باسمها، ومعه كثر من آل هارلو وبعض آل
جودبراذر واللورد مرلين ذو الوجه المحتقن، رجال أكثر
مما كان الزّاهب ليتخيّل... ومن أجل امرأة!

على أن آخرين لاذوا بالضمّت أو راحوا يُتمّمون لجيرانهم، وهدّر رالف الأعرج: «لا لسلام الجُبَناء!». ولوّح رالف ستونهاوس الأحمر بראה جرايچوي مجعجعا: «فيكتاريون! فيكتاريون! فيكتاريون!». بدأ الرّجال يتدافّعون، وألقى أحدهم كوز صنوبر على رأس آشا، فلمّا انحنت تتفاداه سقط تاجها المرتجل عن رأسها، وللحظات خيّل إلى الرّاهب أنه واقف على قمة كثيب نملٍ عملاق، وعند قدميه ألف نملة تائرة. جاشت الهتافات بأسقي آشا وفيكتاريون جيئةً وذهابًا، وبدا كأن عاصفةً عاتيةً على شفا ابتلاعهم جميعًا. إله العواصف بيننا، يَبْذُرُ الفِتْنَةَ والشَّقَاقَ.

وَكَطْعَنَةُ السَّيْفِ النَّجْلَاءُ شَقُّ النَّفِيرِ الْهَوَاءُ شَقًّا.

ثاقب مفجع صوته، صرخة حارّة راجفة تجعل عظام
المرء تهتز كالأوتار في داخله، صيحة طال مقامها في
هواء البحر الرطب،

ریمیں بھی !

التفتت الأعين كلها نحو الصّوت. كان واحد من هجان
يورون ينفخ في بوق، رجل رهيب الحجم له رأس
حليق، تلتمع حلقات من الذهب واليشب والكهرمان
الأسود على ذراعيه، وعلى صدره العريض وشم لطائر
ما من الكواسر تقطر من برائنه الذماء.

[illegible]

انقطعت أنفاس نافخ البوق أخيرًا وترنّح وكاد يقع،
ورأى الزّاهب أوركوود سيّد (أوركموننت) يُمسكه من
ذراعه ليثبّته، في حين تناول لوكاس كود الأعسر منه
البوق الذي يتصاعد منه خيط رفيع من الدّخان، أمّا من
نفخ فيه فرأى الزّاهب دمًا وقروحًا على شفّتيه، وكان
الظّائر على صدره ينزف أيضًا.

صعد يورون جرايچوي الثّل بتؤدة وأعين الجميع
عليه، وأعلاهم صرخ الثّوس وصرخ. فكرّ آرون: ليس
لكافر أن يجلس على كرسي حجر اليم، لكنه يعلم أن
عليه أن يدع أخاه يتكلّم، فتحزّكت شفّته بصلاة
صامتة.

انتحى أنصار آشا وقيكتاريون جانبًا، وتقهقر الزّاهب
خُطوةً وأسند يده إلى أحد أحجار ضلوع ناجا الخشنة.
توقّف عين الغراب على قمّة الدّرجات أمام باب (بهو
الملك الأشيب) ورمق الرّبابنة والملوك بعينه الباسمة،
لكن آرون شعر بعينه الأخرى أيضًا، العين التي يخفيها.

قال يورون جرايچوي: «أيها الحديدثون، قد سمعتم
بوقي، والآن اسمعوا كلامي. أنا أخو بالون، أكبر أبناء
كويلون الأحياء، في عروقي دماء اللورد قيكون ودماء
الكراكن العجوز، لكني أبحرث أبعد منهم جميعًا. كراكن
حيّ واحد لم يعرف الهزيمة قطّ، واحد فقط لم يركع
قطّ، واحد فقط أبحرّ إلى (آشاي) عند (بلاد الظّل) ورأى
عجائب وأهوالًا تفوق الخيال...».

صاح كارل البكر نصير آشا ذو الوجه المتورّد: «إذا كنت تحبّ (بلاد الظل) كثيرًا هكذا فقد إليها».

تجاهلّه عين الغراب مستكملًا: «أخي الصغير يريد أن ينهي حرب بالون ويحوز الشمال، وابنة أخي العزيزة تريد إعطاءنا السلام وأكواز الصنوبر»، والتوت شفتاة الزرقاوان في ابتسامة، وتايغ: «آشا تؤثر النّصر على الهزيمة، وقيكتاريون يرغب في مملكة وليس بضع ياردات تافهة من الأرض. مني ستنالون الاثنين. تُسمّونني عين الغراب. حسن، ومن بصره أثقب من الغراب؟ عقب كلّ معركة تأتي الغربان بالملئات والآلاف وتلتهم وليمة من لحم الشّاقطين. الغراب يُبصر الموت من بعيد، وأقول لكم الآن إن (وستروس) قاطبة تُحتضّر، ومن يتبعونني سيلتهمون الولاثم ما تبقى لهم من غمر. إننا حديدو الميلاد، وفي ماضينا كنا غزاة فاتحين، لنا سطوة على كلّ حدب وصوب يُسقع فيه صوت الموج. أخي يريدكم أن تقنعوا بالشّمال البارد الكتيب، وابنة أخي بما هو أقلّ... أمّا أنا فسأعطيك (لانسپورت) و(هايجاردن)، (الكرمة) و(البلدة القديمة)، أراضي النّهر و(المرعى)، (غابة الملوك) و(الغابة المطيرة)، (دورن) وثخومها، (جبال القمر) و(وادي آرن)، (تارث) و(الأعتاب). أقول لكم أن نأخذ كلّ شيء، أقول أن نأخذ (وستروس)!!»، ورمق الزّاهب مضيّفًا: «وكُلّ هذا لأجل مجد إلها الغريق بالطّبع».

لأقل من لحظة فتنت جسارة كلامه آرون. لقد حلم
الزاهب الخلم نفسه حين رأى المذئب الأحمر في السماء
أول مرة. سنكتسح الأراضي الخضراء بالنار والشف،
نجتث آلهة الشيتونات الشبعة وأشجار الشمالين
البيضاء...

رفعت آشا عقيرتها قائلة: «هل تركت عقلك في
(آشاي) يا عين الغراب؟ إذا كنا لا نستطيع السيطرة على
الشمال -ولسنا نستطيع- فكيف نظفر بكامل (الممالك
الشبع)؟».

- «سبق أن حدث هذا. ألم يُعلم بالون ابنته إلا القليل
عن طبائع الحرب؟ فيكتاريون، ابنة أخينا لم تسمع
ياجون الفاتح على ما يبدو».

عقد فيكتاريون ذراعيه على صدره المدرع متسائلاً:
«إجون؟ وما صلة الفاتح بنا؟».

قالت آشا: «أعرف الحرب مثلك تمامًا يا عين الغراب.
إجون تارجارين غزا (وستروس) بالثنانين».

رَدَّ يورون جرايچوي: «كما سنغزوها نحن. البوق الذي
سمعتموه وجدته وسط الأطلال الداخنة التي كانت
(قاليريا)، حيث لم يجرؤ أحد على الذهاب إلّاي. لقد
سمعتم صوته وشعرتم بقوة. إنه بوق ثنانين، مطعم
بالذهب الأحمر والفولاذ القاليري المنقوشين بالثعاويذ.
كان سادة الثنانين القدامى ينفخون في أبواق مشابهة
قبل أن يلتهمهم الهلاك، وبهذا البوق أيها الحديدئون
أستطيع أن أسحر الثنانين لإرادتي».

أطلقت آشا ضحكةً عاليةً، وقالت: «ستجد نفقًا أكثر في بوقي يُسخر الماعز لإرادتك يا عين الغراب. لم تُعد هناك تنانين».

- «مرّةً أخرى تُخطئين يا فتاة. هناك ثلاثة، وأعرف أين أجدها. مؤكّد أن هذا يستأهل تاجًا من الخشب المجروف».

صاح لوكاس كود الأعسر: «يورون!». وهتف الملاح الأحمر: «يورون! عين الغراب! يورون!».

فتح الخرس والهجان من طاقم (الضمت) صناديق يورون وسكبوا هداياه أمام الزبانية والملوك، ثم سمع الزاهب صوت هوثو هارلو يهتف إذ ملأ يديه بالذهب، وهتف جورولد جودبراذر أيضًا، وإريك محظّم السنادين. «يورون! يورون! يورون!». استحال الهتاف إلى هدير. «يورون! يورون! عين الغراب! يورون ملكًا!». زلزل (تِل ناجا) كأن إله العواصف يرحّ الشحاب. «يورون! يورون! يورون! يورون! يورون!».

حتى الزاهب يُمكن أن تُخامره الشكوك. بحث آرون ذو الشعر الرطب في أعماقه عن ربّه ولم يكتشف إلّا الضمت، وإذ هدر ألف صوتٍ باسم أخيه لم يستطع أن يسمع إلّا صرخة مفصلة حديدية صدنة.

(58) القُط حيوان بحري شبيه بالفقمة، يتميز بشاربه الكثيف

وفمه العريض الذي يخرج منه زوجان من الأنياب العاجية

الحادة. (المترجم).

بريان

شرق (بركة العذاري) ترتفع الثلال الوعرة وتنفلق عليهم أشجار الضنوبر كجيش جنده خضر رماديون صامتون. قال ديك الرشيقي إن الطريق الساحلي الأقصر والأسهل، ولذا فنادرًا ما غاب الخليج عن أنظارهم، وإذا مضوا تضاءلت مساحات البلدات والقرى المطلّة على الساحل وتزايدت المسافات بينها. عند الغروب يبحثون عن خان يقضون فيه الليل، فينام كراب في الفراش المشترك مع غيره من المسافرين، في حين تأخذ بريان غرفة لها وليودريك، وهو ما جعل ديك الرشيقي يقول لها: «أرخص أن ننام كلنا في فراش واحد يا سيّدتى. يُمكنك أن تضعي سيفك بيننا. ديك العجوز شخص وديع وشهم كالفرسان، ولك أن تثقي بأمانته كما تثقين بطول النهار».

علقت بريان: «النهار أصبح أقصر مما كان».

- «نعم، ربما. إذا كنت لا تثقين بوجودي في الفراش فيمكنني أن أنام على الأرض يا سيّدتى».
- «ليس على أرض عُرفتى».
- «قد يحسب المرء أنك لا تثقين بي إطلاقًا».
- «الثقة تُكتسب، ومثلها مثل الذهب».

قال كراب: «كما تقولين يا سيّدتى، لكن في الشمال حيث ينتهي الطريق سيكون عليك أن تثقي بديك. إذا أردت أن آخذ ذهبك بخذ السيف فمن سيمنعني؟».

- «إنك لا تملك سيفًا، أمّا أنا فأملك».

أغلقت الباب بينهما ووقفت تُصفي حتى تأكدت من ابتعاده. مهما كان رشيقيًا فديك كراب ليس چايمي لانستر أو الفار المجنون، ولا حتى همفري واجستاف. إنه مهزول سيئ التغذية، وورعه الوحيدة خوزة قصيرة منبعجة مبرقشة بالضد، وبدلاً من الشيف يحمل خنجراً قديماً تحرّز نصله. ما دأمت مستيقظة فإنه لا يَمُتّل خطرًا. قالت ليودريك: «سيأتي وقت لا نجد فيه خانًا يؤوينا. إنني لا أثق بمُرشدنا. عندما نُخَيّم هَلّا سهرت علي وأنا نائمة؟».

قال: «أبقى مستيقظًا يا سيّدتِي، أيتها الفارس؟»، وفكّر لحظة ثم أضاف: «إن معي سيفًا. إذا حاول كراب أن يؤذيك سأقتله».

ردّت بصرامة: «لا، لا تُحاول أن تُقاتله. لا أطلب إلا أن تُراقبه وأنا نائمة وثوقظني إذا فعل شيئًا مريبًا. ستجدني أستيقظ بسرعة».

بالت حقيقة كراب في اليوم التالي عندما توقّفوا لسقي الخيول. ذهبت بريان وراء بعض الشجيرات لتفرغ مثانتها، وبينما أقعت سمعت پودريك يقول: «ماذا تفعل؟ ابتعد عنه»، فأنهت ما تفعله ورفعت سراويلها وعادت إلى الطريق لتجد ديك الرّشيق يُنظّف يديه من الطّحين. أخبرته: «لن تجد تنائين في جراب الشّرج. إنني أحتفظ بذهبي معي». بعضه في الجراب المعلق من حزامها، والباقي مخبأ في جيابين مخيطين داخل ثيابها، أمّا الضّرة المنتفخة في جراب شرجها فملينة بالعمّلات النحاسيّة كبيرها وصغيرها والبنسات وأنصاف البنسات والجراوت والنجوم... والطّحين الأبيض الناعم ليجعلها أكثر انتفاخًا. كانت قد اشتترته من الظاهي في (الشيوف السبعة) صبيحة خروجها من (وادي الغسق).

قال ناقضاً أصابعه الملوثة بالظحين لئريها أنه لا يحمل
سلاحاً: «ديك لم يقصد سوءاً يا سيّدتى. كنت أنظر لأرى إن
كانت معك الثنائين التي وعدتني بها. العالم مليء بالكاذبين
المتحفّزين لسرقة الشرفاء. لا أعني أنك منهم طبعاً».

قالت بريان آملة أنه يجيد الإرشاد عن اللّصوصيّة: «الأفضل
أن نستأنف طريقنا»، وعادّت تمتطي قَرسها.

تعوّد ديك الغناء وهم راكبون مقاً، ولو أنه لا يُغني أغنية
كاملة أبداً وإنما مجرّد مقطوعة من هنا وبيت من هناك، وقد
ارتابت بريان في أنه يريد أن يخطب وُذها ومن ثمّ تتخلّى عن
حذرها. أحياناً يُحاول أن يجعلها وبودريك يُغنيان معه ولكن بلا
جدوى، فالضبي خجول للغاية ولسانه معقود، وبريان لا تُغني
أبداً. ذات مرّة في (ريقرزن) سألتها الليدي كاتلين: «أكنت تُغني
لأبيك؟ أكنت تُغني لرنلي؟»، لكنها لم تُقرّ قطّ حقّاً، مع أنها
أرادت... أرادّت...

عندما لا يُغني ديك الرّشيق فإنه يتكلّم ويُتجفهما بحكايات
عن (الرّأس المتصدّع). يقول إن لكلّ وادٍ موحش هناك سيّده،
ولا يؤخّذ هؤلاء إلّا انعدام ثقتهم بالغرباء، ففي عروقهم تتدفّق
دماء البشر الأوائل قانية قويّة. «الأنديون حاولوا الاستيلاء
على (الرّأس المتصدّع) فأرقنا دماءهم في الوديان وأغرقناهم
في المستنقعات، لكن ما لم يستطع أبناؤهم الفوز به بالشيوف
نألتهم بناتهم بالقبلات. لقد صاهروا العائلات التي لم يستطيعوا
إخضاعها، نعم».

حاول آل داركلين ملوك (وادي الفسق) فرض هيمنتهم على (الرأس المتصدع)، كما حاول آل موتون سادة (بركة العذاري) أيضًا، ولاحقًا آل سلتيجار سادة (جزيرة الشراطين) المتغطرسون، لكن أهل (الرأس المتصدع) يعرفون مستنقعاتهم وغاباتهم أفضل من أي غريب على الإطلاق، وإذا أرغموا فإنهم يختفون في المغارات المنتشرة في تلالهم، عندما لا يُقاتلون من يحاولون غزوهم ينشغل بعضهم بقتال بعض، لأن ما بينهم من ثار وضاغتن أعمق وأكثر سوادًا من المستنقعات بين تلالهم. من حين إلى آخر ينجح بطل ما في إحلال السلام بالمنطقة، لكنه يدوم ما دام حيًا لا أكثر. اللورد لوسيفر هاردي كان واحدًا من العظماء، والأخوان برون أيضًا، وأعظم منهم كاسر العظام العجوز، لكن آل كراب أعظمهم كافةً، وما زال ديك يرفض أن يصدق أن بريان لم تسمع بالسير كلارنس كراب ومناقبه.

قالت له: «ولم أكذب؟ كل مكان له أبطاله المحليون. في ديار يَغثون عن السير جالادون المورني، الفارس المثالي». رد ساخرًا: «السير جالادون المازا؟ لم أسمع به من قبل. ولم كان مثاليًا؟».

- «السير جالادون كان بطلًا شديد البسالة لدرجة أنه سلب (العذراء) نفسها قلبها، فأنعقت عليه بسيف مسحور دلالة على حبها. كان اسمه (العذراء العادلة)، ولم يكن يمكن لأي سيف تقليدي أن يصد تلك العذراء أو لأي ثريس أن يتحمل قلبتها. حمل السير جالادون (العذراء العادلة) بفخر لكنه لم يُجَرِّدها إلا ثلاث مرّات، إذ رفض أن يُقاتل بها رجلًا فانيًا لأن قوتها تجعل أي قتال كهذا غير عادل».

وجد كراب حكايتها هزلية للغاية، وقال: «الفارس المثالي؟ يبدو أنه كان الأحمق المثالي. ما المغزى من حمل سيف مسحور إذا كان لا يستخدمه أبدًا؟».

أجابت: «الشرف، المغزى هو الشرف».

جعلَه رثُها يُطَلِّق ضحكةً أعلى ويقول: «كان السير كلارنس كراب ليمسح مؤخرته المشعرة بفارسك المثالي يا سيّدتى. لو التقيا لكان رأس إضافي موضوعًا الآن على الرُفوف في (قلعة الهمس) إذا طلبت رأيي، يقول للزُّؤوس الأخرى: كان عليّ أن أستخدم السيف المسحور كان عليّ أن أستخدم السيف اللعين!».

لم تستطع بريان أن تمنع ابتسامتها، وقالت: «ربما، لكن السير جالادون لم يكن أحق. ضد غريم يبلغ ثمانية أقدام طولًا ويمتطي ثورًا برّيًا كان ليَجْرُد (العذراء العادلة). يقولون إنه قتل بها تئينا ذات مرّة».

قال ديك الرّشيق دون أن يبدو عليه تأثر: «كاسر العظام العجوز قاتل تئينا أيضًا لكنه لم يحتج إلى سيف مسحور، بل اكتفى بربط غنقه على نفسه، وهكذا كلّما نفث النار أحرق مؤخرته».

سألته بريان: «وماذا فعل كاسر العظام حين أتى إجون وأختاه؟».

رمقها كراب بنظرة جانبية مجيئة: «كان قد مات حينئذ. مؤكّد
أن سيّدتي تعلم هذا. إجون أرسل أخته إلى (الرأس المتصدّع)،
تلك المسقاة قيزينيا. كان اللوردات قد سمعوا بنهاية هارن،
ولأنهم ليسوا حمقى فقد وضعوا سيوفهم عند قدميها، فأخذتهم
الملكة رجالاً لها وقالت إنهم لن يدينوا بالولاء لـ (بركة العذارى)
أو (جزيرة الشراطين) أو (وادي الغسق)، لكن هذا لم يمنع آل
سليجار الملاعين من إرسال رجال إلى الساحل الشرقي لجني
الضرائب لسيدهم. إذا أرسل عدداً كافياً يعود إليه بعضهم...
وفيما عدا ذلك فنحن لا ننحني إلا لسادتنا والملك، الملك
الحقيقي وليس روبرت ومن هم على شاكلته»، وبصق قبل أن
يتابع: «كان هناك رجال من آل كراب وبرون وبوجز مع الأمير
ريجار في معركة (الثالوث)، وفي الخرس الملكي أيضاً. واحد
من آل هاردي، وواحد من آل كايق، وواحد من آل پاين، وثلاثة
من آل كراب؛ كليمنت وروبرت وكلارنس القصير. كان طوله
سنة أقدام، لكنه ما زال قصيراً مقارنةً بالسير كلارنس الحقيقي.
كلنا من رجال التئين المخلصون في (الرأس المتصدّع)
ونواحيها».

استمرت حركة المسافرين في الانحسار مع توغلهم شمالاً وشرقاً، إلى أن لم تعد هناك خانات يقضون فيها الليل، وعندئذٍ كان طريق الخليج قد أصبح ممتلئاً بالحشائش أكثر من الخفر. ليلتها أووا إلى قرية صيادين، ونقذت بريان القرويين القليل من العملات النحاسية ليسمحوا لهم بالمبيت في مخزن تبن. أخذت الغليئة لنفسها وليودريك، وبعد صعودهما سحبت السلم، فنادى كراب من أسفل: «إذا تركتني هنا وحدي فيمكنني أن أسرق حصانكما بكل سهولة. الأفضل أن تأخذيها إلى أعلى معك يا سيديتي»، ولقا تجاهلته واصل: «سيسقط المطر الليلة، مطر بارد غزير. أنت ويودز ستنامان مستريحين دافئين وديك العجوز المسكين سيبقى هنا يرتجف وحده»، وهز رأسه مهمهما إذ افترش كومة من التبن، وأضاف: «لم أعرف فتاة شكاكة مثلك إطلاقاً».

تكورت بريان على نفسها تحت معطفها وإلى جوارها يودريك يتعالب، وقد أرادت أن تصيح في كراب بالأسفل قائلة: لم أكن حذرة دائماً. في صغري اعتقدت أن كل الرجال ثبلاء كأبي. حتى الرجال الذين أخبروها كم هي جميلة، كم هي فارعة القامة وبهيّة وذكية، كم هي رشيقة عندما ترقص. السيتة رويل هي التي رفعت الغشاوة عن عينيها، وقالت لها: «لا يقولون تلك الأشياء إلا لينالوا رضا السيد والدك. ستجدين الحقيقة في مرآتك وليس على السنة الرجال». درس قايس انهمزت له دموعها، إلا أنه أجداها النفع في (هارنهال) عندما لعب السير هایل وأصدقائه لعبتهم. حين بدأ المطر يهطل كانت تفكر: على البنت أن تكون شكاكة في هذا العالم وإلا لن تبقى بنتاً طويلاً.

في الالتحام الجماعي في (جسر العلقم) بحثت عن توددوا إليها وأوسفتهم ضربًا واحدًا تلو الآخر؛ فارو وأمبروز وبوشي ومارك مالدور ورايموند نايلاند وويل اللقلق، ودعست هاري سوير بحصانها وكسرت خوذة روبن بوتر وخلفت على وجهه ندبة قبيحة، ولما سقط آخرهم سلمتها (الأم) كوننجتون، وهذه المرة كان في يد السير روثيت سيف لا وردة، فكانت كل ضربة هوت بها عليه أعذب من القبلات. لوراس تايرل كان آخر من واجه غضبتها يومها، ولئن لم يكن ممن غارلوها بل وبالكاد نظر إليها أصلًا- فقد كانت على ثرسه ثلاث وردات ذهبية في ذلك اليوم، وپريان ثمقت الورد، فبت مجرد منظره فيها قوة عاتية. غابت في الثوم حالمة بالقتال الذي دار بينهما، وبالسير چايمي یقبت معطف قوس قزح حول كتفها.

تواصل نزول المطر في الصباح التالي، وبينما أفطروا اقترح ديك الرشيح أن ينتظروا حتى يتوقف، فقالت پريان: «ومتى سيتوقف؟ غدا؟ بعد أسبوعين؟ عندما يحل الضيف ثانية؟ لا، إن معنا معاطف، وأمامنا فراسخ طويلة نقطعها».

انهمز المطر طيلة النهار. سرعان ما استحال الدرب الضيق الذي يسلكونه إلى وحل من تحتهم، وما راوه من أشجار كان أجرد، وقد حوّل المطر الثابت أوراقها الشاقطة إلى بساط بئي مشبع بالماء. على الرغم من بطانة معطف ديك المصنوعة من جلد السناجب فقد تخلّله الماء، ورأت پريان الرّجل يرتجف فشعزت بالشفقة عليه لحظة. واضح أنه لم يأكل جيدًا. تساءلت إن كان هناك وكر مهزبين أو أطلال اسمها (قلعة الهمس) حقًا. الجوعى يقتربون أفعالًا دافعها اليأس، وربما تكون هذه محاولة للاحتيال عليها.

قلبت الشكوك معدتها.

لفترة بدا كأن جور المطر الثابت هو الصّوت الوحيد في العالم. تقدّم ديك الرّشيق لا يلوي على شيء، وراقبته بريان من كتب ملاحظة الطريقة التي يحني بها ظهره كأن ركوبه منكمشًا على نفسه هكذا سيقية من البلل. هذه المرّة لم تكن هناك قرية قريبة عندما خلّ عليهم الظلام، ولا حتى شجر يحتمون به، فخيّموا مجترين وسط الضّخور على بُعد خمسين ياردة فوق حُطّ القد، لكن على الأقل ستحميهم الضّخور من الرّيح. قال لها كراب وهي تعاني لإشعال النّار في خشب مجروف: «الأفضل أن نسهر حراسة اللّيلة يا سيّدتى. في مكان كهذا قد يكون هناك هزّاسون».

رمقته بريان بريّة مرّدة: «هزّاسون؟».

فسّر ديك الرّشيق باستمتاع: «وحوش، يبدوون كالبشر إلى أن تقتربي منهم، لكن رؤوسهم كبيرة للغاية ولهم حراشف بدلًا من الشّعير عند البشر. لونهم أبيض كبطون الشمك وبين أصابعهم شباك، وملمسهم رطب دومًا ورائحتهم ذفرة ووراء شفاههم الرّخوة صفوف من الأسنان الحادة كالإبر. بعض النّاس يقول إن البشر الأوائل قتلوهم جميعًا، لكن لا تُصدّقي ذلك. إنهم يمشون على أقدام بين أصابعها شباك مصدرين أصوات هرس، ويأتون ليلاً ليختطفوا الأطفال سيّئي الخلق، فيحتفظون بالفتيات ليتزاوجوا بهن، لكنهم يلتهمون الضّبية ويقرّقون لحمهم بتلك الأسنان الخضراء الحادة»، وأعطى يودريك ابتسامة عريضة مضيقًا: «يُمكنهم أن يأكلوك يا فتى، يُمكنهم أن يأكلوا لحمك نيًّا».

مَش يودريك سيفه مجيبًا: «سأقتلهم إذا حاولوا».

- «جرب، لك أن تجرب. الهزّاسون لا يموتون بسهولة»، وغمز كراب لبريان متسائلًا: «هل كنت فتاة سيّئة الخلق يا سيّدتى؟».

- «لا». كنتُ حمقاء فحسب. وجدتُ بريان الخشب أكثر ابتلااً من أن يشتعل مهما أُصدرَ الفولاذ والصّوّان من شرر. انبعث القليل من الدخان من الهشيم، لكن هذا كلُّ شيء، فتخلّلت عنه ممتعضةً وأسندت ظهرها إلى صخرة وسحبت معطفها على جسدها واستسلمت لقضاء ليلة باردة بليلة، ثم راحت تحلّم بوجبة ساخنة وهي تقضم من شريحة من اللحم البقري المملح القاسي، بينما حكى ديك الرّشيق عن المرأة التي قاتلَ فيها السير كلارنس كراب ملك الهزّاسين. قالت لنفسها معترفةً: حكاياته مسلية حقاً، لكن مارك مالدور كان مسلياً أيضاً بقدره الصغير.

الأمطار أغزر من أن يروا الشّمس تغيب والسّماء أكثر تلوثاً بالغيوم من أن يروا القمر يطلع، فحلّ عليهم اللّيل حالكا بلا نجوم. نضبت الحكايات من كراب وخلد إلى النّوم، وسرعان ما بدأ يودريك يغطّ أيضاً، وظلّت بريان جالسةً مسندةً ظهرها إلى الصّخرة، تُصغي إلى الأمواج وتتساءل: أنتِ قريبة من البحر يا سائزاً؟ أنتِ في (قلعة الهمس) تنتظرين سفينةً لن تأتي أبداً؟ من معكِ؟ قال إنها رحلة لثلاثة. هل انضمّ العفريت إليك أنتِ والسير دونتوس أم أنكِ عثرتِ على أختكِ الصغيرة؟

كان يومهم طويلاً وبريان متعبة، وحتى مع جلوسها وظهرها إلى الصّخرة والمطر يسقط بنعومةٍ حولها أحسّت بجفنيها يثقّلان. مرّتين غفّت، وفي المرأة الثانية استيقظت فجأةً وقلبها يدقّ بغنّيف وهي على قناعةٍ بأن أحدهم كان يميل عليها. كانت أطرافها متخشّبة وانعقد معطفها حول كاحليها، فركلته متملّصةً منه وقامت، لتجد ديك متكوّزا على نفسه إلى جوار صخرة، مدفوناً في الرّمال المبتلة الثّقيلة ونائماً. كان خلقاً، مجرّد حلم.

ربما أخطأت بتخليها عن السير كرايتون والسير إيليفر. لقد
بدوّا رجلين صادقين. فكّرت: ليت چايمي أتى معي... لكن
چايمي فارس في الحرس الملكي، ومكانه الواجب إلى جوار
مليكه. ثم إن رنلي هو من تريد. أقسمت أن أحصيه وأخفقت، ثم
أقسمت على الانتقام له وأخفقت في هذا أيضًا، وقررت مع
الليدي كاتلين لكني خذتها بدورها. تبذل اتجاه الرّيح، والآن
يسيل المطر على وجهها.

في اليوم الثّالي اضمحلّ الطريق حتى صار كخيطة رفيع من
الحصى، وأخيرًا أصبح هناك إحياء فقط بوجود طريق، وقرب
انتصاف النهار انتهى فجأة عند سفح جرف نحته الرّيح. أعلى
الجرف ترتفع قلعة عابسة فوق الأمواج، أبراجها الثلاثة المعوجة
بارزة تحت السّماء الغائمة.

سأل يودريك: «أهذه هي (قلعة الهمس)؟».

ردّ كراب بحذّة: «هل تبدو لك كأطلال؟ إنها (عرين داير)، مقرّ
اللورد برون. لكن الطريق ينتهي هنا. ليس هناك إلا غابات
الضّنوبر من الآن فصاعدًا».

جاست بريان بنظرها في الجرف متسائلة: «كيف نصعد؟».

أجاب ديك الرّشيق دائرًا بحصانه: «بسهولة. ابقيا على مقربة
من ديك. الهّراسون يجنحون إلى أخذ المتلكنين».

اُتُّضح أن الطَّرِيق إلى أعلى ممزَّج حجري متحدَّر متوارٍ داخل صدعٍ في الصُّخر، معظمه طبيعي لكن هنا وهناك درجات منحوتة لتسهيل الصُّعود. أحاطت بهم من الجانبين جدران صخرية عمودية تآكلت على مَرَّ قرونٍ من عصف الرِّيح ورذاذ الماء، وقد اُتُّخذت في بعض المواضع أشكالاً عجيبَةً أشارَ ديك الرُّشيق إلى عددٍ منها وهم يصعدون. «هذا رأس أوجر(59)، هل تريئه؟»، وابتسمت بريان لَمَّا رآته، فأضاف: «وهذا هناك تَئين حجري. الجناح الآخر سقط في صُغر أبي. فوقه هذان ضرعان متدليَّان كئديَّي عجوزٍ شمطاء»، وألقى نظرةً سريعةً وراءه على صدرها.

قال يودريك: «أيتها الفارس، سيِّدتي، هناك خيال».

- «أين؟». لا يوجد تكوين صخري يُوحى لها بشكل خيال.

- «على الطَّرِيق، ليس خيالاً في الصُّخر، خيال حقيقي يتبعنا،

بالأسفل».

أشارَ يودريك والتوت بريان فوق سرجها تَنظُر. كانوا قد بلغوا ارتفاعاً يُتيح لهم الرؤية على مدى فراسخ طويلة بطول الشَّاحل، ورأت الحصان يسلك الطَّرِيق نفسه الذي سلَّكه، متخلِّفاً عنهم بميلين أو ثلاثة. مرَّةً أخرى؟ رمت ديك الرُّشيق بنظرة شك.

قال كراب: «لا تَنظري إلي هكذا. أيَّا كان فلا علاقة له بالعجوز ديك الرُّشيق. إنه أحد رجال برون غالباً، عائد من الحروب، أو واحد من المغنَّين الذين يجولون من مكانٍ إلى مكان»، ودوَّر رأسه وبصق، ثم أردف: «ليس هَراساً، هذا مؤكَّد. نوعهم لا يركب الخيل».

رَدَّت بريان: «نعم». على هذا على الأقل يتفقان.

الأقدام المئة الأخيرة من صعودهم كانت الأكثر تحذراً وخطورة. تحرّك الحصى المخلخل تحت حوافر أحصنتهم وسقط متدحرجاً على الممرّ الحجري وراءهم، وحين خرجوا من الضدع أخيراً وجدوا أنفسهم أسفل سور القلعة، ومن شُرْفَةِ أعلاهم ألقى عليهم وجه نظرة ثم اختفى، فحقّنت بريان أنه وجه امرأة، وقالت هذا لديك الرّشيق الذي أيّدها قائلاً: «برون أكثر هرقاً من أن يمشي على الأسوار، وأبناؤه وأحفاده ذهبوا إلى الحروب. لم يتبقّ أحد في الدّاخل إلّا النّسوة وربما طفل سائل الأنف أو ثلاثة».

كان على شفّتها سؤال فرسدها عن الملك الذي ناصره اللورد برون، لكن الجواب لم يَغْدِهم. لقد رحل أبناؤه، وربما لا يعود بعضهم. لن نجد ترحاتنا هنا اللّيلة. ليس وارداً أن تفتح قلعة مليئة بالمستئين والنساء والأطفال أبوابها لأغراب مسلّحين. قالت لديك: «تكلّم عن اللورد برون كأنك تعرفه». - «ربما عرفته في الماضي».

نظرت إلى صدر شترته، إلى الخيوط المحلولة ورُقعة النسيج الأغمق المهترئة حيث كانت الشّارة التي انتزعتها. دليلها متهزّب دون شك. هل يُمكن أن يكون الخيال وراءهم أخاه في السّلاح؟ قال ديك مستحقّاً إياها: «يجدر بنا أن نواصل الطّريق قبل أن يبدأ برون يتساءل عفا نفعله عند أسواره. حتى النّساء يستطعن إطلاق نَشابيّة لعينة»، وأشار إلى تلال الحجر الجيري المرتفعة وراء القلعة بمنحدراتها المشجّرة مضيّقاً: «لا طريق من الآن فصاعداً، فقط الجداول ودروب الفرائس، لكن لا داعي للقلق يا سيّدتى. ديك الرّشيق يعرف هذه الأنحاء».

وهذا ما تخشاه بريان. كانت الرّيح تهبّ على قمّة الجرف، إلّا أنها لا تشمّ إلّا قحّاً. سألت: «وماذا عن ذلك الخيال؟». ما لم يكن حصانه يستطيع الشّير على الموج فسرعان ما سيبلغ القمّة بدوره.

- «ماذا عنه؟ إذا كان أحرق ما من (بركة العذاري) فربما لا يجد الممرّ اللعين أصلاً، وإذا فعل فسئُذَّله في الغابة. هناك لن يجد طريقاً يتبعنا عليه».

لن يجد إلا آثارنا فقط. تساءلت بريان إن كان الأسلم أن تواجه الخيال هنا وسيفها في يدها. سأبدو في غاية الحمق إذا كان مطرباً متجوّلاً أو أحد أبناء اللورد برون. قد يكون كراب محققاً. إذا ظلّ وراءنا غداً سأتعاملُ معه حينها. قالت دائرة بفرسها نحو الغابة: «كما تشاء».

تساءلت قلعة اللورد برون وراء ظهورهم وسرعان ما غابت عن الأنظار، وارتفع شجر الحارس والضنوبر الجندي من حولهم في كل اتجاه، جراب شاهقة مكسوة بالأخضر تطعن السماء. أرض الغابة طبقة من الإبر الساقطة سميكة كسور قلعة، تتناثر عليها هنا وهناك أكواز الضنوبر، وبدا كأن حوافر خيولهم لا تُصدر صوتاً إذ وطأتها. تساقطت الأمطار بعض الوقت وانقطعت ثم عاودت الشقوق، لكنهم لم يشعروا بقطرة تقريباً وسط الأشجار.

الحركة في الغابة أبطأ كثيراً. قادت بريان فرسها في العتمة الخضراء ومضت بها تتعرج وسط الأشجار، وقد أدركت أن الضياع هنا سهل للغاية، فكل اتجاهٍ تنظر فيه يشبه غيره، والهواء نفسه يبدو رمادياً وأخضر وساكتاً. خدشت أغصان الضنوبر ذراعيها واحتكت بصوت مزعج بثرسها حديث الظلاء، وشعرت بالضمت الغريب يحز في نفسها أكثر فأكثر مع كل ساعة تمر.

أزعجت الأجواء ديك الرُشيق أيضاً. في أواخر النهار والغسق يدنو حاول أن يغني، وبصوت خشن كسراويل من الضوف ردد: «كان هناك دب، دب، دب، كُله أسود وبلي ومفطى بالشعر»، لكن شجر الضنوبر تشرب صوته كما تشرب المطر والريح، وبعد فترة قصيرة كَفَّ عن الغناء.

قال يودريك: «كُلُّ شَيْءٍ سَيِّئٌ هُنَا، هَذَا مَكَانٌ سَيِّئٌ». هذا ما تُشْعِرُ بِهِ بَرِيَّانٌ أَيْضًا، لَكِنْ لَنْ يَنْفَعَهُ أَنْ تَقْرَأَ بِهِ، فَقَالَتْ: «غَابَةُ الضُّنُوبِ مَكَانٌ كَثِيبٌ، لَكِنِّهَا فِي الْهُيَاةِ مَجْرَدٌ غَابَةٌ. لَا يَوْجَدُ هُنَا مَا نَخْشَاهُ».

- «وَمَاذَا عَنِ الْهَرَّاسِيَّينَ؟ وَالرُّؤُوسِ؟».

قال ديك الرِّشِيقُ ضَاحِكًا: «صَبِيٌّ ذَكِيٌّ».

رَمَقَتْهُ بَرِيَّانٌ بِاسْتِيَاءٍ وَأَجَابَتْ يودريك: «لَيْسَ هُنَاكَ هَرَّاسُونَ وَلَيْسَتْ هُنَاكَ رُؤُوسٌ».

ارْتَفَعَتِ الثَّلَالُ، انْخَفَضَتِ الثَّلَالُ، وَوَجَدَتْ بَرِيَّانٌ نَفْسَهَا تُصَلِّيَ أَنْ دِيكَ الرِّشِيقُ صَادِقٌ وَيَعْلَمُ أَيْنَ يَقُودُهُمَا. إِنَّهَا لَيْسَتْ وَائِقَةٌ بِاسْتَطَاعَتِهَا أَنْ تَجِدَ الْبَحْرَ ثَانِيَةً إِذَا كَانَتْ بِمُفْرَدِهَا. لَيْلًا أَوْ نَهَارًا السَّمَاءُ رَمَادِيَّةٌ مَصْمُتَةٌ مَلْبُودَةٌ بِالْغَيُومِ، وَلَا شَمْسٌ أَوْ نَجُومٌ تُعِينُهَا عَلَى الْعُتُورِ عَلَى طَرِيقِهَا.

خَيَّمُوا فِي سَاعَةٍ مُبَكَّرَةٍ تِلْكَ اللَّيْلَةِ، بَعْدَ أَنْ نَزَلُوا تَلًّا وَوَجَدُوا أَنْفُسَهُمْ عَلَى حَافَةِ مُسْتَنْقَعٍ أَخْضَرَ لَامِعٍ. فِي الضُّوءِ الْأَخْضَرِ الرَّمَادِيِّ بَدَتْ الْأَرْضُ أَمَامَهُمْ ضَلْبَةً كَفَايَةً، لَكِنْ حِينَ دَاسُوا عَلَيْهَا غَاضَتْ فِيهَا خِيُولُهُمْ حَتَّى الْكَاهِلِ، فَدَارُوا مُضْطَرِّينَ وَكَافَحُوا لِيَشْشُقُوا طَرِيقًا إِلَى أَرْضٍ ثَابِتَةٍ. قَالَ لَهَا كِرَابٌ مُطْمَئِنًّا: «لَا يَهْمُ. سَنَصْعَدُ الثَّلَّ ثَانِيَةً وَنَنْزِلُ مِنْ طَرِيقٍ آخَرَ».

لَمْ يَخْتَلَفِ الْيَوْمَ الثَّلَالِي. رَكَبُوا وَسَطَ أَشْجَارِ الضُّنُوبِ وَالْمُسْتَنْقَعَاتِ تَحْتَ سَمَاءٍ قَاتِمَةٍ وَمَطَرٍ مُتَقَطِّعٍ، مَازِينَ بِانْهِيَارَاتِ أَرْضِيَّةٍ وَكُهُوفٍ وَأَنْقَاضٍ مُعَاقِلٍ عَتِيقَةٍ اكْتَسَتْ جُدْرَانَهَا بِالظُّحَالِبِ. لَكُلِّ كَوْمَةٍ مِنَ الْأَحْجَارِ قِصَّةٌ، وَقَدْ حَكَاهَا دِيكَ الرِّشِيقُ جَمِيعًا، وَحَسَبَ كَلَامَهُ كَانَ أَهْلُ (الرَّاسِ الْمُتَصَدِّعِ) يَرَوْنَ أَشْجَارَهُمْ بِالْذَّمَاءِ. سَرَعَانَ مَا بَدَأَ صَبْرُ بَرِيَّانٍ يَنْفَدُ، وَأَخِيرًا قَالَتْ لَهُ: «كَمْ تَبْقَى؟ لَا بَدَأْنَا رَأَيْنَا كُلَّ شَجَرَةٍ فِي (الرَّاسِ الْمُتَصَدِّعِ) بِالْفَعْلِ».

أجاب كراب: «إطلاقًا. نحن قريبون. انظري، كثافة الأشجار تقل. إننا بالقرب من (البحر الضيق)».

فكّرت بريان: هذا المهزج الذي وعدني به سيكون انعكاسي في بركة على الأرجح، وإن بدا لها أن من العبث أن تعود أدراجها الآن بعد أن قطعت شوطًا طويلًا. كانت ساقاها متصلبتين كالحديد من جزاء الجلوس على الشرج، وفي الأيام الأخيرة نامت أربع ساعات فقط في الليلة بينما يحرسها يودريك. إذا كان ديك الزشيق ينوي أن يحاول قتلها غيلةً فإنها على يقين بأنه سيفعلها هنا على أرض يعرفها جيدًا. ربما يقودهما إلى وكر لصوص له فيه أهل مخادعون مثله، أو ربما يقودهما في دوائر فحسب منتظرًا أن يلحق الخيال إياه بهم. لم يروا أثرًا للزجل منذ رحلوا من عند قلعة اللورد برون، لكن ذلك لا يعني أنه تخلّى عن المطاردة.

في ليلة قالت لنفسها بينما تذرع الأرض حول المخيم: قد أضطر إلى قتله. أصابها الخاطر بالاضطراب. لطالما شكك قيم السلاح العجوز الذي درّبها في تمثّعها بالصلابة الكافية لمواجهة المعارك، وأكثر من مرّة قال لها السير جودوين: «تتحلّين بقوة الرّجال في ذراعيك، لكنك خرعة القلب كأني فتاة. التدريب في السّاحة بسيف مثلوم شيء، وشيء آخر أن تُغمدي قدمًا من الفولاذ المشحوذ في أحشاء رجل وتري الضّوء ينطفئ في عينيه». لجعلها أكثر صلابة أرسلها السير جودوين إلى جرّار أبيها لتذبح الجمالان والخنازير الرّضيعة. صرّخت الجمالان والخنازير كأطفالٍ مرعوبين، ولدى فروغها من الذّبح كانت الدّموع قد أعقت بريان وتلوّثت ثيابها بالذّماء لدرجة أنها أعطت وصيفتها إياها لثحرّقها. على أن الشّكوك ظلّت تُساور السير جودوين، وقال لها: «الخنزير خنزير. الأمر مختلف مع الرّجال. حين كنت مرافقًا صغيرًا في سنّك كان لي صديق قوي سريع رشيق، بطل في السّاحة، وكنا نعلم جميعًا أنه سيفدو فارشا مغوازا ذات يوم. ثم اشتعلت الحرب في (الاعتاب)، ورأيث صديقي يسقط خصمه على ركبتيه ويظّوح بفأسه من يده، لكن عندما كان يُفتَرَض أن يُجهز عليه تردّد أقلّ من لحظة، وفي المعركة اللّحظة أو دونها غمر كامل. استلّ الرّجل خنجره ووجد شقًا في درع صديقي. قوّته، سرعته، شجاعته، مهارته التي اكتسبها بالاجتهاد... كلّ هذا كانت قيمته أقلّ من فسوة، لأنه جفّل من القتل. تذكّري هذا يا فتاة».

وعدت طيفه هناك في غابة الصّنوبر: سأتذكّر، وجلست على صخرة وسحبت سيفها وراحت تشحذ نصله. سأتذكّر، وأدعو ألا أجفل.

بَزَغَ فَجَرَ الْيَوْمِ الثَّالِي بَارِدًا غَائِقًا مَغْفًا. لَمْ يَرَوْا الشَّمْسَ
تُشْرِقُ، لَكِنْ عِنْدَمَا اسْتَحَالَ السَّوَادُ إِلَى رَمَادِي عَرَقَتْ بِرِيَانِ أَنْ
الْوَقْتُ حَانَ لِمَوَاضِلَةِ الزُّكُوبِ. قَادَ دِيكَ الرُّشِيقَ الطَّرِيقَ إِذْ عَادُوا
يَخْوُضُونَ وَسَطَ الْأَشْجَارِ، وَتَبِعْتَهُ بِرِيَانِ عَلَى مَقَرِبَةٍ بَيْنَمَا تَحْزُكُ
يُودَرِيكَ فِي الْمُؤَخَّرَةِ عَلَى مَتْنِ حِصَانِهِ الْأَرْقَطِ.

فَاجَأَتْهُمْ الْقَلْعَةُ دُونَ سَابِقِ إِنْذَارٍ. فِي لَحْظَةٍ كَانُوا فِي أَعْمَاقِ
الْغَابَةِ وَلَا شَيْءَ يُحِيطُ بِهِمْ إِلَّا أَشْجَارُ الصُّنُوبِرِ الْمَمْتَدَّةُ فِرَاسِخَ
وَقِرَاسِخَ، ثُمَّ دَارُوا حَوْلَ جُلُودٍ وَلاَحَتْ ثَغْرَةً أَمَامَهُمْ، وَبَعْدَ مِيلٍ
وَاحِدٍ انْتَهَتْ الْغَابَةُ عَلَى حِينِ غُرَّةٍ. وَرَاءَهَا كَانَتْ السَّمَاءُ
وَالْبَحْرُ... وَقَلْعَةٌ عَتِيقَةٌ عَلَى شَفِيرِ جُرْفٍ، مَتَهْذَمَةٌ وَمَهْجُورَةٌ
وَتَنْمُو فِي جَنْبَاتِهَا الْحَشَائِشُ الْكَثِيفَةُ.

قَالَ دِيكَ الرُّشِيقُ: «أَنْصِتَا. يُمَكِّنْكَمَا أَنْ تَسْمَعَا الرُّؤُوسَ».

فَغَزَّ يُودَرِيكَ فَاهُ قَائِلًا: «أَسْمَعْهَا».

وَسَمِعَتْهَا بِرِيَانِ أَيْضًا، غَمْغَمَةٌ خَافِتَةٌ كَأَنَّهَا تَنْبَعْتُ مِنَ الْأَرْضِ
بِقَدَرِ مَا تَأْتِي مِنَ الْقَلْعَةِ. تَعَالَى الصَّوْتُ مَعَ اقْتِرَابِهَا مِنَ الْجُرُوفِ،
ثُمَّ إِنَّهَا أُدْرِكَتْ فَجَاءَتْ أَنَّهُ صَوْتُ الْبَحْرِ، وَأَنَّ الضُّخُورَ فِي الْأَسْفَلِ
تَأْكَلَتْ وَثَقَبَتْهَا الْمَوْجُ الَّذِي يَتَدَفَّقُ هَادِرًا فِي كَهُوفٍ وَأَنْفَاقٍ تَحْتَ
الْأَرْضِ. قَالَتْ: «لَيْسَتْ هُنَاكَ رُؤُوسٌ. مَا تَسْمَعُهُ هُوَ هَمْسُ
الْأَمْوَاجِ».

- «الْأَمْوَاجُ لَا تَهْمَسُ. إِنَّهَا الرُّؤُوسُ».

القلعة مبنية بأحجار قديمة غير مملطة لا يتماثل منها اثنان، والظحالب نامية بكثافة في الضدوع بين الضخور، والأشجار نابتة من الأساسات. معظم القلاع القديمة يضم أيكة آلهة، أمّا (قلعة الهمس) فمُنظرها يشي بأن فيها القليل عدا ذلك. قادت بريان قَرسها إلى حافة الجُرف حيث تداعى الشور وتنمو أكوام من اللّباب الأحمر الشام فوق الرُكام، وربّطت القُرس بشجرة واقتربت من شفا الهاوية بقدر ما أتاحت لها جرأتها، فرأت تحتها بخمسين قدمًا الموج يدور داخل وحول بقايا بُرجٍ محطّم، ولمحت وراءه مدخل كهفٍ واسع.

قال ديك الرّشيق الذي وقف وراءها: «هذا بُرج المنارة القديم. سقط وأنا في نصف سنّ يودز. كانت هناك سلالم تقود إلى الكهف لكنها سقطت أيضًا مع انهيار الجُرف، وبعدها امتنع المهزّبون عن الرّسو هنا. في الماضي كانوا يَدْخلون الكهف بقواربهم، لكن ذلك انتهى، هل ترين؟»، ووضع يداً على ظهرها وأشار بالأخرى.

واقشعز جلد بريان. دفعة واحدة وسأصبح في الأسفل مع البرج. تراجعت قائلة: «أبعد يديك عني». عقد كراب حاجبيه، وقال: «كنتُ فقط...». - «لا أبالي بما كنته فقط. أين البوابة؟».

أجاب: «الناحية الأخرى»، وتردّد لحظة ثم قال بتوتر: «مهزّجك هذا ليس رجلًا يكرّ ضفينّة، أليس كذلك؟ أعني... ليلة أميس فكّرت أنه قد يكون غاضبًا من العجوز ديك الرّشيق بسبب الخريطة التي يعته إياها ولأني لم أذكر الجزء الخاص بعدم رسو المهزّبين هنا».

- «يُمكنك بالذهب الذي ستقبضه أن تردّ له ما نقدك إياه ل... لمساغدتك». لا تتصوّر بريان أن دونتوس هولارد يُشكّل تهديدًا. «هذا إذا كان هنا من الأصل».

داروا حول الأسوار. كانت القلعة مثلثة وفي كل زاوية برج مربع، وقد تعفن مصراعا بوابتها تمامًا، فلما شدت بريان أحدهما تشقق خشبه وانخلعت شظاياها الطويلة المبتلة وانهار نصف البوابة عليها. رأت مزيدًا من العتمة الخضراء في الداخل، إذ اخترقت الغابة الأسوار وابتلعت الحصن والفناء، لكن وراء البوابة ثمة شبكة حديدية أنيابها غائصة بعمق في الأرض اللينة الموحلة. صيغ الصدا الحديد بالأحمر، لكنه صمد عندما رجته بريان، فقالت: «لا أحد استخدم هذه البوابة منذ زمن بعيد».

قال يودريك مقترحًا: «أستطيع أن أتسلق من ناحية الجرف حيث سقط الشور».

- «المخاطرة شديدة. الأحجار بدت لي مخلخلة، واللبلاب الأحمر سام. لا بُد من وجود باب جانبي».

وجدوه على جانب القلعة الشمالي، شبه متوارٍ وراء أجمة توت أسود ضخمة، وقد قُطِف الثوت كله وقُطِع نصف الشجيرات لإخلاء سبيل إلى الباب. أفعم منظر الفصون المكسورة بريان بالقلق، وقالت: «أحدهم مرّ من هنا، ومنذ فترة قريبة».

قال كراب: «المهزج وتلكما الفتاتان، كما قلت لك».

سانزا؟ لا تقوى بريان على التصديق. حتى سكير منقوع في اللبذ كدونتوس هولارد سيكون أعقل من أن يأتي بها إلى هذا المكان القفر. شيء ما في هذه الأطلال يملأها وجلًا. لن تجد ابنة ستارك هنا... لكن عليها أن تُلقي نظرة. أحدهم كان هنا، أحد أراد أن يختفي عن الأعين. قالت: «سأدخل. كراب، ستأتي معي. يودريك، أريدك أن تحرس الخيول».

- «أريد أن آتي أيضًا. إنني مرافق، أستطيع أن أقاتل».

- «لهذا أريدك أن تبقى هنا. قد يكون هناك خارجون عن

القانون في هذه الغابة، وينبغي ألا نترك الخيول بلا حراسة».

حك يودريك صخرة بحذائه قائلًا: «كما تقولين».

هكذا دخلت وسط أجمة الثوث الأسود وجذبت حلقة حديدية صدئة، فقاوم الباب الجانبي لحظة ثم انفتح بحركة حادة بينما تُصرخ مفصلاته اعتراضًا، وجعل الضوت الشعيرات على مؤخرة عنقها تنتصب. استلّت سيفها، وحتى وهي ترتدي الحلقات المعدنية والجلد المقوي أحسّت كأنها عارية.

حَثّها ديك الواقف وراءها قائلاً: «هيا يا سيّدتى. ماذا تنتظرين؟ كراب العجوز مات منذ ألف عام».

ماذا تنتظر حقًا؟ قالت بريان لِنفسها إنها تتصوّف بحمق. الضوت ليس إلّا صوت البحر الذي تتردّد أصداؤه بلا نهاية في الكهوف تحت القلعة، ترتفع وتنخفض مع كلّ موجة. لكن له وقع الهمس فعلاً، وللحظة كادت ترى الرؤوس المستقرّة على الرُفوف يَتَمَيّم بعضها لبعض، ويقول أحدها: كان عليّ أن أستخدم السيف، كان عليّ أن أستخدم السيف المسحور.

قالت بريان: «يودريك، ثقة سيف وغمد داخل لفافة نومي. أحضرهما إليّ».

رَدّ الضبي: «حاضر أيتها الفارس، يا سيّدتى، حالاً»، وهرع يَلْبِي الأمر.

حكّ ديك الرّشيق وراء أذنه متسائلاً: «سيف؟ إن معك واحداً في يدك، فلم تحتاجين إلى آخر؟».

قدّمته له بريان من المقبض مجيبةً: «هذا لك».

مَدّ كراب يده بتردّد كأن الثّصل سيعضّه، وقال: «حقًا؟ الفتاة الشّكّاكة تُعطي ديك العجوز سيفًا؟».

- «تعرف كيف تستخدمه، أليس كذلك؟».

أجاب مختطفاً السيف الطويل من يدها: «أنا من آل كراب، في عروقي دماء السير كلارنس»، وشقّ الهواء ثم منحها ابتسامة عريضة، وأضاف: «السيف يصنع اللورد كما يقولون».

عاد يودريك يابن حاملاً (حافظ العهد) بحذر بالغ كأنه طفل صغير، وأطلق ديك الرّشيق صفيّاً لمرأى الغمد المنقّق وضفّ رؤوس الأسود عليه، لكنه لاذّ بالضمت حين استلّت السيف وشقّت به الهواء. حتى صوته أحد من أيّ سيف تقليدي. قالت لكراب: «معي»، ودخلت بجانبها من الباب وقد حنت رأسها لتمرّ من تحت القنطرة.

الفتح أمامها الفناء بحشائشه الكثيفة. إلى يسارها تقع البوّابة الرّئيسة والهيكل المنهار لما كان اسطبلًا، تبرز من نصف مرابطه الشجيرات وتنفذ من القشّ البني الجاف الذي يغطّي سقفه، وإلى يمينها رأت سلالم خشبيّة متعقّنة تنزل إلى ظلمة زنزانية أو قبو ما. حيث ارتفع الحصن من قبل كانت الآن كومة من الحجارة المتهذمة تنمو عليها الطحالب الأرجوانيّة والخضراء، وأرض الفناء كلّها تفترشها الحشائش والإبر التي سقطت من أشجار الصنوبر الجندي الثامية في كلّ مكان في صفوف مهيبة، ووسطها شجرة غريبة شاحبة، شجرة ويروود رفيعة شابّة أبيض لونها كتياب فتاة مترهينة، ومن فروعها المديدة تثبت الأوراق الحمراء الذاكنة. وراء كلّ هذا كان فراغ السماء والبحر حيث سقط الشور...

... وبقايا نار.

راحت الهمسات تقرض أذنيها بعناد، وركعت بريان إلى جوار بؤرة النار والتقّطت عودًا مسودًا وتشقّمته وحركت به الزماد. أحدهم كان يحاول أن يتدقّق ليلة البارحة، أو ربما كان يحاول إرسال إشارة إلى سفينة عابرة.

نادى ديك الرّشيق: «هالووووو! هل من أحد هنا؟».

قالت له بريان: «صمّثا».

رَدَّ: «ربما يكون أحدهم مختبئًا، يُريد أن يُلقي علينا نظرة قبل أن يكشف عن نفسه»، وذهب إلى حيث تنزل الشّلالم تحت الأرض وحقّق إلى الظّلام منادياً من جديد: «هالووووو! هل من أحد بالأسفل؟».

رأت بريان شجيرة تميل، ومن الدّغل خرج رجل تكثّل عليه الطّين لدرجة أنه بدا كأن الأرض انشقت عنه. كان يحمل سيفًا مكسوًا في يده، لكن وجهه هو ما جعلها تتردّد، العينان الصّغيرتان والمنخران العريضان المسطّحان.

تعرف بريان هذا الأنف، تعرف هاتين العينين. كان أصدقاؤه يدعونه ببيج.

كان كلّ شيء حدث في غمضة عين. خرج رجل ثانٍ من فوق حافة البئر دون أن يُصدر صوتًا أكثر مما يَصِدُّره ثعبان يزحف على كومة من أوراق الشّجر المبتلة، يعتمر خوذة حديدية قصيرة ملفوفة بالحرير الأحمر المتسخ، ويحمل حربة قصيرة غليظة في يده. تعرف بريان هذا الرّجل أيضًا. سمعت من ورائها حفيقًا وظلّ وجهه من بين الأوراق الحمراء، وكان كراب واقفًا تحت شجرة الويروود، قرفع رأسه ورأى الوجه، لينادي بريان قائلاً: «ها هو ذا مهزّجك».

ووثب شاجويل من شجرة الويروود مطلقًا ضحكات كنهيق الحمير. كان يرتدي ثياب المهزجين، لكنها باهتة ومثسخة تمامًا لدرجة أن لونها الآن بني أكثر من رمادي أو وردي، وبدلاً من مدرس المهزجين يحمل هراوة ثلاثية الرؤوس، ثلاث كرات شائكة مثبتة إلى قناة خشبية بالسلاسل، وقد هوى بها بغنىف مفجّزًا إحدى زكبتى كراب في دفقة من الدّم والعظم، وإذا سقط نعق شاجويل قائلاً: «هذا طريف!». طار السيف الذي أعطت ديك إياه من يده واختفى وسط الحشائش، وما انفك هو يتلوّى على الأرض صارخًا ومتمشكًا ببقايا زكبته. قال شاجويل: «أوه، انظرا، إنه ديك المهزب الذي رسم لنا الخارطة. هل قطعت كل هذه المسافة لتردّ لنا ذهبنا؟».

قال ديك منتحبًا: «أرجوك، أرجوك لا، ساقى...».

- «هل تؤلمك؟ يمكنني أن أجعل الألم يتوقّف».

قالت بريان: «دعه وشأنه».

وصرخ ديك رافعًا يدين داميتين يقى رأسه، ومزّة أخرى دؤر شاجويل كرات الهراوة حول رأسه وهوى بها على وجه كراب في المنتصف تمامًا، ليتعالى صوت تهشيم مغبّ، وفي الضمت الذي تلاه سمعت بريان خفقات قلبها المتسارعة.

قال الذي خرج متسلّلاً من البئر: «شاجز السيئ»، ولما رأى وجه بريان ضحك وقال: «أنت ثانية يا امرأة؟ هل جئت تطاردينا أم أن وجوهنا الودود أوحشتك؟».

تراقص شاجويل من قدم إلى قدم ملوّحًا بمدرسه القاتل، وقال: «أنت من أجلي. إنها تحلم بي كل ليلة عندما تضع أصابعها في فتحتها. إنها تريدني. الحصان الكبير افتقدت حبيبها شاجز المرح! سأنكحها من ذبرها وأضح فيها نطفة المهزجين حتى تلد نسخة صغيرة مني».

قال تيميون ولكنته الدورنية المتشدّقة: «عليك أن تستخدم

فتحة مختلفة لأجل هذا يا شاجز».

رَدَّ المَهْزَجُ: «الأفضل أن أستخدم فتحاتها كلها إذن على سبيل الاحتياط»، وتحرك إلى يمينها بينما دار ييج إلى يسارها مجبرًا إياها على أن تؤلّي حافة الجرف ظهرها.

فكّرت بريان: رحلة لثلاثة، وقالت لهم: «أنتم ثلاثة فقط». هزّ تيميون كتفيه مجيبًا: «كلنا ذهب إلى حال سبيله بعد خروجنا من (هارنهل). أوزويك وشرذمته ركبوا جنوبًا إلى (البلدة القديمة)، ورورج حسب أنه يستطيع الخروج متسللًا من (الملاحات)، أمّا أنا ورفيقي فذهبنا إلى (بركة العذاري)، لكننا لم نستطع الاقتراب من سفينة»، ووازن الدورني حربته مواصلاً: «هل تعلمين أنك فتكت بقارجو بعصتك إياها؟ أذنه اسودّت وبدأت تنزّ صديداً. أراد رورج وأوزويك الزحيل، لكن الكبش قال إن علينا الدفاع عن قلعته، إنه سيّد (هارنهل) ولا أحد سيأخذها منه. قالها ولعابه يسيل بالطبع كما كان يحدث دوماً عندما يتكلّم. سمعنا أن الجبل قتله قطعة قطعة، يذا اليوم وقدّمنا غداً، بمنتهى البراعة والنظافة. كانوا يضمّدون الجذعات كي لا يموت هوت. ادّخر كليجاين قضيبه للنهاية، لكن طائرًا من (كينجز لاندنج) استدعاه فأجهز على الكبش ورحل».

- «لست هنا من أجلكم. إنني أبحث عن...». كادت تقول أختي. «... عن مهزج».

أعلن شاجويل بسعادة: «أنا مهزج». اندفعت بريان تقول: «المهزج الخطأ. من أريده موجود مع فتاة رفيعة النسب، ابنة اللورد ستارك سيّد (وينترفيل)». قال تيميون: «إذن فكلب الصيد من ثريدين. لكنه ليس هنا كذلك، نحن فقط».

- «ساندور كليجاين؟ ماذا تعني؟». - «هو من عثر على ابنة ستارك. حسب ما سمعنا فقد كانت في الطريق إلى (ريقرزن) حين اختطفها، الكلب ملعون».

(ريقررن)، كانت مَّجْهَةٌ إلى (ريقررن)، إلى خالها وعمّه. «وما أدراك؟».

- «أخبزني واحد من جماعة بريك. سيّد البرق يبحث عنها أيضًا، وأرسلَ رجاله بطول (الثالوث) وعرضه يقتفون أثرها. صادفنا ثلاثة منهم بعد (هارنهال) وانتزعنا الحكاية من أحدهم قبل أن يموت».

- «ربما كان يكذب».

- «ربما، لكنه لم يكذب. لاحقًا سمعنا أن كلب الصيد قتل ثلاثة من رجال أخيه في خانٍ على مفترق الطرق. الفتاة كانت معه هناك. صاحب الخان أقسم على هذا قبل أن يَقْتُلَهُ رورج، والعاهرات كزرن الكلام نفسه. كم كن قبيحات! لسن بثبحك بالطبع، ومع ذلك...».

أدركت بريان ما يحدث، وقالت لنفسها: يُحاول إلهائي، يستغلُّ صوته لأركّز عليه وحده. كان ييج يدنو بتؤدة، ووثب شاجويل خطوةً صوبها، فتراجعت مفكّرةً: سيدفعونني إلى السقوط في الهوة إذا سمحت لهم. قالت لهم منذرةً: «لا تقتربوا».

أعلن شاجويل: «أظنّ أنني سأنكحك في أنفك يا هذه. ألن يكون هذا طريقًا؟».

وأضاف تيميون: «قضييه صغير للغاية. أفلتي هذا السيف الأنيق ولربما نترقّق بك يا امرأة. نريد ذهبًا ندفع به أجر المهزّبين، هذا كلُّ شيء».

- «وإذا أعطيتكم الذهب ستتركونا نرحل؟».

ابتسم تيميون مجيئًا: «نعم، بمجرد أن ينكحك ثلاثتنا. سننقذك أجرك كأي عاهرة محترفة، قطعة فضية لكل نكحة. إمّا هذا وإمّا أن نأخذ الذهب ونغتصبك على كلِّ حال ونفعل بك ما فعله الجبل باللورد قارجو. ماذا تختارين؟».

ردّت بريان: «هذا»، وألقت نفسها على ييج.

أسرع يرفع سيفه المكسور ليحمي وجهه، ولكن لئن سَدَّ
النَّصل إلى أعلى سَدَّدت هي نصلها إلى أسفل، وشَقَّ (حافظ
العهد) الجلد والضوف والعضلات ليفوص في فخذ المرتزق.
لَوْح يبيح بسيفه بشراسة وساقه تتداعى من تحته، فاحتك
بقميصها المعدني قبل أن يحط على ظهره، وطعنته بريان في
خلفه ودوّرت النَّصل بقوة، ثم سحبته ودارت في اللحظة نفسها
التي ومضت فيها حربة تيميون خادشة وجهها، وإذ سأل الدّم
على وجنتها فكّرت: لم أجفل. هل رأيت يا سير جودوين؟
شعرت بالجرح بالكاد، وبينما أخرج الدورني حربة ثانية أقصر
وأغلظ من الأولى قالت له: «دورك، ألقها».

- «كي تتفاديه وتنقضي عليّ؟ في هذا موتي كبيج. لا. نل
منها يا شاجز».

قال شاجويل: «نل منها أنت. هل رأيت ما فعلته ببيج؟ لقد
أجرّ الثّيف القمري جنونها».

المهزج وراءها وتيميون أمامها، ومهما دارت سيكون ظهرها
إلى أحدهما.

قال تيميون مستحقًا شاجويل: «نل منها ويمكنك أن تنكح
جنتها».

- «أوه، إنك تحبني حقًا». كانت الهراوة الشائكة تدور، وقالت
بريان لنفسها: اختاري أحدهما، اختاريه واقئليه بسرعة.

ثم أتى حجر محلّقًا من اللا مكان وأصاب شاجويل في
رأسه... ولم تتردّد بريان وانقضّت على تيميون.

الدورني أبرع من ييج، لكنه يحمل مجرّد حربة قصيرة، أمّا هي فتحمل سيفًا من الفولاذ القاليري. دبّت الحياة في (حافظ العهد) في يدها، ولم تحسّ بريان بحركتها سريعة هكذا من قبل قَط، واستحال النّصل إلى غشاوة رماديّة في الهواء. جرحها تيميون في كتفها إذ كرّت عليه، لكنها بتّرت أذنه ويصف وجنته وطيّرت رأس حربته وأغمّدت قدمًا من الفولاذ المتموّج في بطنه عبر حلقات الشّترة المعدنيّة التي يرتديها.

كان تيميون لا يزال يُحاول القتال عندما انتزعت من بطنه سيفها الذي تخضّب واقيه العرضي بخمرة الدّماء. فُتّش مسعوزًا في حزامه ورفع خنجرًا، فقطعت بريان يده. من أجل جايمي. شهق الدورني والدّم يجيش من فمه وينبجس من معصمه، وقال لاهثًا: «رُحماك يا أمّنا. أجهزي عليّ، أعيديني إلى (دورن) أيتها الحقيرة الملعونة».

ونفّذت بريان طلبه.

وجدت شاجويل على رُكبتيه لمّا التفتت وقد بدا دائخًا وهو يتحسّس الأرض بحثًا عن هراوته الثلاثية الشّائكة، وإذ نهض مترنخًا ارتطم حجر آخر بأذنه. كان يودريك قد تسلّق الشّور المنهار ويقف محملقًا بتجهّم وسط فروع اللّبلاب وفي يده صخرة جديدة، وصاح فيها من أعلى: «قلّث لك إنني أستطيع القتال!».

حاول شاجويل أن يزحف مبتعدًا، وصاح: «أستسلم، أستسلم! يجب ألاّ تؤذي شاجويل العزيز. إنني أطرف من أن أموت».

- «لست أفضل من بقيّتهم. لقد سرقت واغتصبت وقتلت».

- «أوه، فعلت هذا، فعلت هذا، لن أنكر... لكنني أسليّ الرّجال

بذعاباتي وتوثّبي، أجعلهم يضحكون».

- «وثبكي النّساء».

- «أهذه غلطتي؟ النّساء لا يملكن جسّ ذعابة».

خَفَضَتْ بِرِيان (حافظ العهد) قائلةً: «احفَر قَبْرًا. هناك، تحت
الوِروود»، وَأَشَارَتْ بِالشَّيْفِ.

- «ليس معي جاروف».

- «لديك يدان». أَكْثَرُ مِمَّا تَزْكُمُ لِحَايِمِي.

- «وما الفائدة؟ أَتَزْكِيهِمَا لِلغُرْبَانِ».

- «فَلتَأْكُلِ الغُرْبَانُ تِيْمِيونَ وَيُيَجِّحُ القَبْرَ لَدَيْكَ الرَّشِيقَ. لَقَدْ كَانَ
مِنْ آلِ كِرَابٍ، وَهَذَا مَكَانُهُ».

كَانَتْ الْأَرْضُ مَبْتَلَةً مِنْ جِزَاءِ الْأَمْطَارِ، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ هَذَا
اسْتَفْرَقَ الْمَهْزُجُ بَقِيَّةَ النَّهَارِ حَتَّى حَفَرَ قَبْرًا عَمِيقًا كَفَايَةً، وَلَدَى
انْتِهَائِهِ وَاللَّيْلُ يَبْدَأُ يَتَسَيَّدُ السَّمَاءَ كَانَتْ يَدَاهُ قَدْ تَقَرَّحَتَا وَأَخَذَتَا
تَنْزِفَانِ. دَسَّتْ بِرِيانُ سَيْفَهَا فِي غِمْدِهِ وَرَفَعَتْ دِيكَ كِرَابٍ بَيْنَ
ذِرَاعَيْهَا وَحَمَلَتْهُ إِلَى الْحَفْرَةِ مُتَجَنِّبَةً النَّظَرَ إِلَى وَجْهِهِ الْخَرِبِ،
وَقَالَتْ لَهُ: «أَسَفَةٌ لِأَنِّي لَمْ أَتَّقِ بِكَ. لَمْ أَعُدْ أَدْرِي كَيْفَ أَفْعَلُ
ذَلِكَ».

وَبَيْنَمَا رَكَعَتْ تَضَعُ الْجُثْمَانِ فِي الْقَبْرِ فَكَّرَتْ: سَيُقَدِّمُ الْمَهْزُجُ
عَلَى قَتْلِي الْآنَ وَظَهَرِي لَهُ.

سَمِعَتْ أَلْفَاسَهُ الْخَشَنَةَ قَبْلَ أَقَلِّ مِنْ لَحْظَةٍ مِنْ صِيَاحِ يُوْدْرِيكَ
مَحْدَّرًا. فِي يَدِ شَاجُوِيلِ كَانَتْ صَخْرَةٌ مُحَرَّزَةٌ، وَتَحْتَ كَمِّ بِرِيانِ
خَنْجَرُهَا.

وَالْخَنْجَرُ يَغْلِبُ الصُّخْرَةَ كُلَّ مَرَّةٍ تَقْرِبُهَا.

ضَرَبَتْ ذِرَاعَهُ مَزِيحَةً إِيَّاهَا وَغَرَسَتْ الْفُولَاذَ فِي أَحْشَائِهِ
مَزْمَجَرَةً: «اضْحَك»، وَبَدَلًا مِنْ هَذَا أُنْ. «اضْحَك»، كَزَّرَتْ وَهِيَ
تُطَبِّقُ عَلَى رَقَبَتِهِ بِيَدٍ وَتَطْعَنُهُ فِي بَطْنِهِ مَرَّةً تَلُو الْمَرَّةَ.
«اضْحَك!». ظَلَّتْ تَقُولُهَا وَتَقُولُهَا وَتَقُولُهَا إِلَى أَنْ احْمَرَّتْ يَدَاهَا
حَتَّى الْمَعْصَمِ وَكَادَتْ رَائِحَةُ احْتِضَارِ الْمَهْزُجِ النَّتْنَةَ تُخْنَقُهَا. لَكِنْ
شَاجُوِيلُ لَمْ يَضْحَكْ، وَالتَّحِيْبُ الَّذِي سَمِعَتْهُ بِرِيانُ كَانَ نَحِيْبَهَا،
وَلَقَا أَدْرَكَتْ هَذَا أَفْلَأَتْ الْخَنْجَرُ مَرْتَعِدَةً.

عاوئها يودريك على وضع ديك الرّشيق في حفرتة، ولدى فروغهما كان القمر يرتفع في السماء. فركت بريان الثراب من يديها وألقت تئنينين ذهبئين فوق القبر، فسألها يودريك: «لماذا فعلت هذا يا سيّدتى، أيتها الفارس؟».

- «إنها المكافأة التي وعده بها للعثور على المهزّج».

دوى الضّحك من ورائهما، فانتزعت بريان سيفها من غمده ودارت على عقبها متوقّعة المزيد من الممثلين الشّفاحين... لكنها لم تر إلّا السير هایل هنت جالسًا متقاطع الشّاقين على قمّة الشور المتهذّم. صاح الفارس من أعلى: «إذا كانت هناك مواخير في الجحيم فسيشكرك المأفون، وفيما عدا ذلك فإنك تُبذّدين ذهبًا قيّمًا».

- «إنني أوفي بوعودي. ماذا تفعل هنا؟».

- «اللورد راندل أمزني بأن أتبعك، قال لي أن أعود بسانزا ستارك إلى (بركة العذارى) إذا عمرت عليها بمعجزة ما. لا تخافي، لقد أمزني بآلا أمسسك بسوء».

ردّت بريان ساخرة: «كانك تستطيع».

- «ماذا ستفعلين الآن يا سيّدتى؟».

- «سأغظيه».

- «قصّدت إزاء الفتاة، الليدي سانزا».

فكرت بريان لحظة، ثم أجابت: «كانت ذاهبة إلى (ريقرن) إذا صدّق تيميون، وفي مكان ما في الطريق أخذها كلب الضيد. إذا وجدته...».

- «... سيقتلك».

قالت بعناد: «أو سأقتله. هلاً ساعدتني على تغطية كراب المسكين أيها الفارس؟».

أجاب السير هايل: «لا فارس حقيقياً يرقص طلباً لهذا الجمال»، ونزل من على الشور، ومعا كؤماً الشراب فوق جثة ديك الرشيح بينما ارتفع القمر أكثر في السماء وما فتأت رؤوس الملوك المنسيين تتهامس الأسرار تحت الأرض.

(59) الأوجر كائن أسطوري شبيه بالغول، يوصف بضخامة البدن والرأس وغازاة الشعر والتهم الوحشي والقوة البدنية الخارقة، وقد ظهر أولاً في الحكايات الشعبية الفرنسية. (المترجم).

صانعة الملكات

تحت شمس (دورن) الحارقة تُقاس الثروة بالمياه كما تُقاس بالذهب، ولذا توضع الآبار كلها تحت حراسة مشددة. على أن البئر في (شانديستون) جفت قبل مئة عام، ورحل خراسها إلى مكان أكثر بلًا هاجرین معقلهم المتواضع بأعمدته المحرزة وقناطره الثلاثية، وبعدها عادت الرمال تزحف على المكان مستردة ما لها.

وصلت آريان مارتل مع دراي وسيلفا بينما تميل الشمس إلى المغيب، والغرب لوحة مزدانة بالذهبي والأرجواني والسحاب يتوهج بالقرمزي. بذت الأطلال متوهجة أيضًا، إذ برقت الأعمدة الشاقطة بلون وردي، وزحفت الظلال الحمراء على الأرضيات الحجرية المتشققة، واستحالت الرمال نفسها من الذهبي إلى البرتقالي إلى الأرجواني مع خفوت الضوء شيئًا فشيئًا. كان جارین قد سبقهم إلى الوصول بساعة، والفارس المسقى النجم المظلم بيوم.

علق دراي بينما يساعد جارین على سقي الخيول: «المكان جميل هنا». كانوا قد حملوا ماءهم معهم، فعلى الرغم من أن جياذ الصحراء الدورنية سريعة لا تكل، وتستطيع الاستمرار في العذو فراسخ طويلة بعد أن يُصيب الإعياء عداها من الخيول، فإنها لا تقوى على ذلك دون ماء. «كيف عرفت هذا المكان؟».

أجابت آريان والذكرى ترسم ابتسامة على شفتيها: «عقي جاء بي هنا مع تايين وساريل. اصطاد بعض الأفاعي وأرى تايين الطريقة الأسلم لاستحلاب الرُعاف منها. ساريل اُلبت الضخور ونفضت الرمل عن الضور الفسيفساء وأرادت أن تعرف كل شيء عن عاشوا هنا».

سألها سيلفا الرقطاء: «وماذا فعلت أنت أيتها الأميرة؟».

جلسث إلى جوار البئر وتظاهرت بأن فارسًا لُصًا أتى بي هنا
لئال مني مناله، رجلًا طويلًا ضلُبا عيناه سوداوان وينحسر
شعره عن مقدمة رأسه. قالت وقد أصابتها الذكرى بالاضطراب:
«استغرقت في الأحلام، ولما غابت الشمس جلسث مربعة ساقي
عند قدمي عقي وناشدته أن يحكي قصة».

- «الأمير أوبرين كان يعرف قصصًا عديدة». جارين أيضًا
كان معهم يومها. إنه أخو آريان في الرضاعة، وطيلة حياتهما
والاثنتان متلازمان حتى من قبل أن يتعلما المشي. «أذكر أنه
حكى عن الأمير جارين الذي شقيث على اسمه».

أضاف دراى: «جارين العظيم، أعجوبة (الروين)».

- «هو ذا، الذي جعل (قاليريا) ترتجف».

قال السير جيرولد: «ارتجفوا ثم قتلوه. إذا قدث ربع مليون
رجل إلى حتفهم فهل سيستقوئني جيرولد العظيم؟»، وأطلق
نخيزًا ساخرًا، وأردف: «أظنني سأبقي النجم المظلم، فهو اسمي
على الأقل»، واستل سيفه الطويل وجلس على حافة البئر
الجافة وبدأ يشحذ الثصل بحجر زيتي.

راقبته آريان بحذر مفكرة: نسه رفيع كفاية لأن يكون أهلاً
لي كزوج. سيشتك أبي في سلامة اختياري، لكن أطفالنا
سيكونون أبهياء كسادة الثنائين. إذا كان هناك رجل أوسم في
(دورن) فإنها لا تعرفه. للسير جيرولد داین أنف معقوف وعظام
وجنتين مرتفعة وفك قوي، ويحافظ على وجهه حليقًا لكن
شعره الكثيف ينسدل حتى ياقته كنهر من الجليد الفضي،
ويقسمه من المنتصف خط أسود كالليل. لكن فمه قابس، ولسانه
أقسى. بدت عيناه سوداوين وهو جالس محددا بنور الشمس
المحتضرة يشحذ فولاده، لكنها نظرت إليهما من زاوية أقرب من
قبل وتعلم أنهما أرجوانيتان. أرجوانيتان داكنتان، داكنتان
وغاضبتان.

لا بُدَّ أنه شعرَ بتحديقها إليه، إذ رفعَ عينيه عن سيفه ولاقى نظرتها بنظرته وابتسم، وأحسَّت آريان بالحرارة تسري في وجهها. لم يكن عليَّ أن أجلبه. إذا رمقني بنظرة كهذه في وجود أريس سُراق الدماء على الزمال. إلَّا أنها تجهل دماء من، فالعادة جرَّت على أن رجال الحرس الملكي أفضل فرسان (الممالك الشيع) على الإطلاق... لكن النجم المظلم هو النجم المظلم.

على الزمال يشتدُّ البرد في ليالي (دورن)، ولذا جمع لهم جارين الحطب من فروع الأشجار البيضاء التي ذبلت وماتت منذ مئة سنة، وتولَّى دراى إشعال النار وهو يصفر بينما يقدح الشرر بحجر صوّان.

ما إن شَبَّ اللهب في الحطب حتى جلسوا حوله ممزّرين قربةً من التبيذ الضيفي من يد إلى يد... باستثناء النجم المظلم الذي يُقَضَّل شرب عصير الليمون غير المحلّى. كان جارين في مزاجٍ مرح وسلاهم بأجدد الحكايات من (بلدة الأخشاب) عند مصب (الذم الأخضر)، حيث يأتي أيتام النهر للتجارة مع القراقير والاكواج والقوادس الآتية من وراء (البحر الضيق). إذا صدق البخارة فالشرق يغلي بالأعاجيب والأهوال. ثورة عبيد في (أستاپور)، وتنانين في (كارث)، وطاعون أرمد في (يي تي)، وملك قراصنة جديد ظهر في (جزر البازيليسق) (60). وشنَّ غارةً على (بلدة الأشجار الطويلة)، وفي (كوهور) أثار أتباع الزهبان الخمر شغبًا وحاوّلوا إحراق الكبش الأسود. «والجماعة الذهبية فسخت عقدها مع (مير) قبيل دخول المايريين الحرب ضد (ليس)».

قالت سيلقا مخفنة: «اللايسينيون اشتروهم».

عقب دراى: «اللايسينيون الأذكاء، اللايسينيون الأذكاء الجبناء».

لكن أريان تعرف خيّرًا عنهم. إذا كانت الجماعة الذهبية وراء كوينتن... «تحت الذهب الفولاذ الأليم» هتافهم في المعارك. ستحتاج إلى الفولاذ الأليم وأكثر يا أخي إذا كنت تُفكر في تنحيّتي. أريان محبوبه في (دورن)، أمّا كوينتن فلا يعرفه إلّا قلائل، ولا جماعة من المرتزقة يمكنها أن تُغيّر هذا. قام السير جيرولد قائلاً: «أظنّ أنني سأذهب لأتبّول». قال دراي محدّثاً: «انتبه لموطن قدميك. لقد مرّت فترة طويلة منذ استحلّبت الأمير أوبرين الأفاعي في هذه الأنحاء». ردّ السير جيرولد: «لقد قُطعت على الرُعاف يا دالت. الأفعى التي تلدغني ستندم»، واختفى تحت قنطرة مكسورة. حين رحل تبادل الآخرون نظرة، وقال جارين برفق: «اعذّرني أيتها الأميرة، لكن هذا الرّجل لا يروقني». قال له دراي: «مؤسف. أعتقد أنه شبه واقع في غرامك». ردّت أريان مذكرةً إياهم: «إننا محتاجون إليه. ربما نحتاج إلى سيفه، ومؤكّد أننا سنحتاج إلى قلعته». عيّبت سيلفا الرّقطاء: «(الصّومعة العالية) ليست القلعة الوحيدة في (دورن)، ثم إن معك فُرساً آخرين يحثّونك للغاية. دراي فارس». أيّدها قائلاً: «نعم، وأملك حصاناً رائعاً وسيفاً ممتازاً، ولا يفوقني شجاعة... إلّا كثيرون في الحقيقة». قال جارين: «عدّة منات على الأرجح أيها الفارس».

تركهم أريان لمزاحهم. دراي وسيلقا الرُّقطاء أعزُّ أصدقائها
علاوةً على تايين ابنة عمِّها، وجارين يُعابِها منذ كان كلاهما
يرضع من ثديي أمِّه، لكنها في هذه اللَّحظة تحديداً ليست في
مزاج مزاح. كانت الشُّمس قد غابت وامتلات السَّماء بالثُّجوم.
كثيرة جداً. أسندت ظَهرها إلى عمودٍ محزَّز وتساءلت إن كان
أخوها يتطلَّع إلى الثُّجوم نفسها اللَّيلة أينما كان. هل ترى الثُّجم
الأبيض يا كوينتن؟ هذا نجم نايميريا المثَّقد، والكوكبة البيضاء
كالحليب وراءه سفنها العشرة آلاف. لقد بازت الرُّجال جميعاً في
الألق، وكذا سأكون أنا. لن تسلبني حقِّي ميلادي!

كان كوينتن حديث السنِّ حين أرسلَ إلى (يرونوود)، صغيراً
لِلغاية حسب تعبير أمِّهما. ليس من تقاليد النورثوشيين أن
يُرسلوا أطفالهم إلى غيرهم ليُزيَّوهم، والليدي ميلاريو لم تغفر
للأمير دوران قَطُّ إبعاده ابنها عنها. في مرَّة سمعت أريان أباه
مصادفةً يقول: «الأمر لا يروقني أكثر منك، لكن هناك دين دم،
وكوينتن الغملة الوحيدة التي سيقبلها اللورد أورموند».

صرخت أمُّها: «غملة؟! إنه ابنك! أيُّ صنف من الآباء يُسَدِّد
ديونه بلحمه ودمه؟».

أجاب دوران مارتل: «صنف الأمراء».

ما زال الأمير دوران يتظاهر بأن أخاها مع اللورد يرونوود، لكن أم جارين رآته في (بلدة الأخشاب) متنكّزا في هيئة تاجر. لأحد رفاقه عين كسول، تمامًا مثل كليتوس يرونوود ابن اللورد أندرز الشّهواني، وفي صحبتهما مايستر أيضًا، مايستر ضليع في اللّغات. أخي ليس بالذكاء الذي يخاله. كان رجل ذكي ليغار من (البلدة القديمة)، حتى إذا كان ذلك يعني رحلة أطول في البحر. في (البلدة القديمة) كانت فرصة أن يتعرّفه أحد ضعيفه. لآريان أصدقاء وسط أيتام (بلدة الأخشاب)، وقد شعر بعضهم بالفضول إزاء سفر أمير وابن لورد تحت اسمين مستعارين وسعيهما إلى عبور (البحر الضيق). في ليلة تسلّل أحدهم من نافذة وعالج قفل صندوق كوينتن المتين، ووجد لفائف الرّقوق في الدّاخل.

كانت آريان لتدفع ثمنًا باهظًا كي تعلم أن هذه الرّحلة السريّة عبر (البحر الضيق) من صنع أخيها كوينتن وحده... لكن الوثائق التي يحملها مختومة بشمس (دورن) وحريتها. لم يجرؤ ابن عمّ جارين على كسر الاختام ليقرأ محتوياتها، ولكن...

- «سموّ الأميرة»، قال السير جيرولد داين إذ وقف وراءها، يصفه في ضوء الثّجوم ويصفه في الظلال. سألته آريان بحُبث: «كيف كان تبؤلك؟».

قال داين: «الزّمال في غاية الامتنان»، ووضع قدمه على رأس تمثالٍ ربما كان لـ(العذراء) قبل أن تطمس الزّمال ملامحه، وأردف: «خطر لي وأنا أتبؤل أن خطّتك هذه قد لا تُعمر ما تُريدنه».

- «وما الذي أريده أيها الفارس؟».

- «إطلاق سراح أفاعي الزّمال، الانتقام لأوبرين وإليا. أعرف تلك الأغنية. تُريدين تذوّق دماء الأسد».

هذا، وحقّي في الميلاد. أريدُ (صنسيير) ومقعد أبي، أريدُ (دورن). «أريدُ العدل».

- «أسميه كما تشائين. تتويج ابنة لانستر لفتة فارغة. إنها لن تجلس على العرش الحديدي أبدًا، ولن تنالي الحرب التي تريدونها. الأسد لا يستقر بسهولة».

- «الأسد مات. من يدري أي الشبلين المتبقين تفضل اللبوة؟».

قال السير جيرولد: «الشبل الذي في عرينها»، وامتشق سيفه ليبرزق في ضوء الثجوم بحدة الأكاذيب، وتابع: «هكذا تبدئين حربًا، ليس بتاج من ذهب وإنما بنصل من فولاذ».

لست قاتلة أطفال. «أغمد هذا الشيء. مارسلا تحت حمايتي، والسير آريس لن يسمح بأن يمس أميرته الغالية أذى، وأنت تعلم هذا».

- «لا يا سيديتي. ما أعلمه أن آل داين يُقتلون آل أوكهارت منذ آلاف السنين».

رذت وقد أذهلتها غطرسته: «يبدو لي أن آل أوكهارت كانوا يُقتلون آل داين طيلة الفترة نفسها».

دس النجم المظلم سيفه في غمده قائلاً: «كلنا لنا تقاليدنا العائلية. القمر يطلع، وأرى رجلك القدوة يقترب».

بصره ثاقب حقًا. راكب الجواد الحربي الزمادي الطويل هو السير آريس بالفعل، يخفق معطفه وراء ظهره في منظر بهي بينما ينطلق على الزمال، وقد ركبت الأميرة مارسلا وراءه متدثرة بمعطف مزود بقلنسوة تخفي خصلاتها الذهبية.

ساعدها السير آريس على النزول، وجتا دراى على زكبة واحدة أمامها قائلاً: «جلالة الملكة».

وقالت سيلقا الرقطاء إذ جئت إلى جواره: «مولاتي».

وقال جارين راكفا على كلتا زكبتيه: «أنا رجلك يا مليكتي».

أمسكت مارسلا ذراع السير آريس حائرة، وسأله بنبرة وجلة: «لماذا يدعوني بجلالة الملكة؟ سير آريس، ما هذا المكان

ومن هؤلاء؟».

ألم يُخبرها بشيء؟ تقدّمت آريان في دوّامة من الحريق، وابتسقت لثظمتين الطفلة قائلة: «إنهم أصدقاؤني الأوفياء المخلصون يا جلالة الملكة... ويرغبون في أن يُصبحوا أصدقاءك أيضًا».

قالت مارسلا: «الأميرة آريان»، واحتضنتها متسائلة: «لماذا يدعووني بالملكة؟ هل حدث شيء لتومن؟». أجابتها آريان: «لقد تورّط مع أناس أشرار يا جلالة الملكة، وأخشى أنهم تأمروا معه على سرقة عرشك». قالت الفتاة وقد تضاعفت حيرتها: «عرشي؟ تعين العرش الحديدي؟ لكنه لم يسرقه. تومن...». - «... أصغر منك قطعًا، أليس كذلك؟». - «أنا أكبره بعام».

قالت آريان: «ومعنى هذا أن العرش الحديدي حقك. أخوك مجرّد صبي صغير ويجب ألا تلوميه. مستشاروه هم السيئون... أمّا أنتِ فلكِ أصدقاء. هلّا منحّني شرف تقديمهم؟»، وأمسكت يد الطفلة قائلة: «جلالة الملكة، أقدم لك السير أندراي دالت وريث (غابة اللّيمون)».

- «أصدقاؤني يُسفّونني دراي، وسيكون شرقًا عظيمًا لي أن تدعوني صاحبة الجلالة بالاسم نفسه».

على الرغم من وجه دراي الضريح وابتسامته العفويّة رمقته مارسلا بحذر قائلة: «حتى أعرفك عليّ أن أدعوك بالفارس». - «أنا رجل صاحبة الجلالة أيّا كان الاسم الذي تُفضّله».

تنحنحت سيلقا إلى أن قالت آريان: «أسمح لي بأن أقدم الليدي سيلقا سانتاجار يا مولاتي، سيلقا الرّقطاء صديقتي الأعز».

سألت مارسلا: «لماذا يُطلقون عليك هذا اللقب؟».

أجابتها سيلقا: «بسبب نقشي يا جلالة الملكة، مع أنهم يتظاهرون جميعًا بأن الشّيب أني وريثة (الغابة الرّقطاء)».

حان دور جارين بينيته الرشيقة وبشرته السمراء وأنفه الطويل وجلية من اليشب في إحدى أذنيه، وقالت آريان: «هذا جارين اليتيم المرح. أمه كانت مَرْضَعَتِي». قالت مارسلا: «أسفة لأنها ماثت».

ردّ جارين: «لم تَمُتْ يا ملكتنا الجميلة»، وابتسم كاشفاً عن السنّ الذهبية التي ابتاعها له آريان بدلاً من التي كسرتها، وأضاف: «سيّدتِي تعني أَنِي من أيتام (الذم الأخضر)».

ستجد مارسلا وقتاً يكفي لأن تتعلّم تاريخ الأيتام في أثناء رحلتها في النهر، وهكذا قادت آريان ملكتها المقبلة إلى العضو الأخير في مجموعتها الصغيرة، وقالت: «أخيذا -ولكن أولاً في الشجاعة- أقدم لك السير جيرولد داين فارس (ستارفول)».

جثا السير جيرولد على زكبته، ولمع ضوء النجوم في عينيه الذاكنتين إذ رمق الفتاة ببرود، وقالت مارسلا: «كان هناك آرثر داين، كان فارساً في الخرس الملكي في عهد الملك المجنون إيرس».

- «كان سيف الصّباح. لقد مات».

- «وأنت سيف الصّباح الآن؟».

- «لا، يدعونني بالنّجم المظلم. إنني ابن اللّيل».

سحبت آريان الطّفلة قائلة: «لا بُدّ أنك جائعة. معنا تمر وجبنة وزيتون وعصير ليمون محلى، لكن لا يجدر بك أن تأكلي أو تشربي كثيراً. بعد راحة قصيرة علينا أن نتحرّك. هنا على الرّمال الأفضل دائماً أن نتحرّك ليلاً قبل أن تطلع الشّمس في السّماء، رفقاً بالخيل».

أضافت سيلفا الرّقطاء: «وبالزّاكبين. هلقِي يا صاحبة الجلالة، دقّني نفسك. من دواعي شرفي أن تسمح لي بتقديم الطّعام لك».

وبينما قادت سيلفا الأميرة إلى النار وجدت آريان السير
جيرولد وراءها يقول متذمراً: «تاريخ عائلتي يعود عشرة آلاف
عام إلى فجر الزمان، فلم لا يذكر الناس من آل داين كلهم إلا ابن
عمومتي؟».

علق السير آريس أوكهارت: «كان فارساً عظيمًا».

ردّ النجم المظلم: «كان سيفه عظيمًا».

قال السير آريس: «وقلبه أيضًا»، وأخذ آريان من ذراعها
قائلًا: «سموّ الأميرة، اسمحي لي بلحظة على انفراد».

- «تعال». قادت السير آريس وتوغّلت به أكثر بين الأطلال.
تحت معطفه يرتدي الفارس شترّة من قماش الذهب مطرّزة
بورقات الشنديان الثلاث رمز عائلته، وعلى رأسه خوذة فولاذيّة
خفيفة تعلوها ريشة محرّزة ومربوط عليها وشاح أصفر على
الطريقة الدورنيّة. كان يُمكن أن يحسبه الناس فارساً تقليديّاً
لولا معطفه المفضّل من الحرير الأبيض الناصع، شاحب كنور
القمر وخفيف كالنسيم. معطف فاريس في الحرس الملكي دون
أدنى شك. الأحمق اللبيل. سألته: «ما الذي تعرفه الطّفلة؟».

- «القليل. قبل أن تُغادر (كينجز لاندنج) ذكرّها خالها بأنّي
حاميها وقال لها إن أيّ أوامر أمليها عليها الغرض منها الحفاظ
على سلامتها. هي أيضًا سمعتهم في الشّوارع يهتفون مطالبين
بالنار، وتعرف أن هذه ليست لعبة. الفتاة شجاعة وحكمتها تفوق
سنيّها. لقد فعلت كلّ ما طلبته منها ولم تُلقي سؤالاً واحداً،
وأمسك الفارس ذراعها وتلقّت حوله، ثم خفضّ صوته قائلًا:
«هناك أخبار أخرى يجب أن تعرفيها. تايوين لانستر مات».
ردّدت مصدومة: «مات؟».

- «قتله الوفریت. الملكة تولّت الوصاية على العرش».

- «حقًا؟». امرأة على العرش الحديدي؟ تفكرت آريان في الأمر لحظة ثم قرّرت أنه في صالحها. إذا ألف لوردات (الممالك السبع) حكم الملكة سرسي فسيكون ركوعهم للملكة مارسلا أسهل كثيرًا. ثم إن اللورد تايوين كان خصمًا خطيرًا، وفي غيابه أعداء (دورن) أضعف كثيرًا. أولاد لانستر يَقتُلون أولاد لانستر، رائع. «وماذا جرى للقزم؟».

قال السير أريس: «هرب. سرسي عرضت اللوردية على من يأتيها برأسه أيًا كان».

في ساحة داخلية مفروشة بالبلاط وتكاد الرمال المنجرفة تدفنها دفع الفارس ظهر الأميرة إلى عمود ليَقْبَلها ووضع يده على ثديها. قبلها بشبق طال، وكان ليرفع ثورتها لولا أن آريان تملّصت منه ضاحكة، وقالت: «أرى أن صناعة الملكات تُعيرك أيها الفارس، لكن لا وقت لهذا الآن. لاحقًا، أعدك»، ومشّت وجنته متسائلة: «هل قابلتكم مشكلة؟».

- «تريستان فقط. أراد أن يجلس إلى جوار فراش مارسلا ويلعب معها السايكاس».

- «قلّث لك إنه أصيب بداء البقع الحمراء وهو في الزابعة. المرء يُصاب به مرّة فقط في العمر. كان عليك أن تُذيع أن مارسلا مصابة بالذاء الأرمد لئلا يتعد عنها تماقا».

- «الضبي ربما، ولكن ليس مايستر أبيك».

- «كاليوت. هل حاول أن يراها؟».

- «ليس بعد أن وصفت له البقع الحمراء على وجهها. قال إن لا شيء في الإمكان حتى يجري المرض مجراه، وأعطاني جرّة من المرهم لتهدئة الحكّة».

لا أحد دون العاشرة يموت من البقع الحمراء أبدًا، لكن من شأن الذاء أن يكون مميتًا للكبار، والمايستر كاليوت لم يُصب به في صغره كما علقت آريان حين أصابها الذاء نفسه في الثامنة. «عظيم. وماذا عن الوصيفة؟ أهي مقبّعة؟».

- «من بعيد. العفريت انتقاها لهذا السبب من بين فتيات
كثيرات كريمات المحتد. مارسلا ساعدتها على تجعيد شعرها
ورسقت البقع على وجهها بنفسها. إنهما قريبتان من بعيد.
(لانسپورت) تعج بآل لاني وآل لانيت وآل لانتل والفروع الأدنى
من عائلة لانستر، ويصفهم له الشعر الأصفر نفسه. الفتاة ترتدي
معطف نوم مارسلا ووجهها ملطخ بمرهم المايستر... كانت
لتخدعني أنا نفسي في إضاءة خافتة. الأصعب كان عثوري على
رجلي يأخذ مكاني. دايك الأقرب إلى طولي لكنه أسمن من
اللازم، فألبست رولدر درعي وقلث له أن يخفض مقدمة خوذته.
إنه أقصر مني بثلاث بوصات، لكن ربما لا يلحظ أحد الفرق إذا
لم أكن هناك لأقف إلى جواره. سيلزم مسكن مارسلا على كل
حال».

- «لا نحتاج إلا إلى أيام قليلة فقط، وعندئذ ستكون الأميرة
قد ابتعدت عن متناول أبي».

سحبها إليه ومزغ أنفه في رقبتها متسائلاً: «أين؟ حان
الوقت لأن أخبريني ببقية خطتك، أليس كذلك؟».
دفعته ضاحكاً، وقالت: «لا، حان وقت الزكوب».

كان القمر قد تَوَجَّح كوكبة (عذراء القمر) عندما خرجوا من
أطلال (شانديستون) المغبرة الجافة مثجهين جنوبًا وغربًا.
قادتهم آريان والسير آريس وبينهما مارسلا على متن قَريس
رشيقة، وعلى مقربة تبغهم جارين مع سيلقا الرُّقطاء، بينما ركب
الفرسان الدورثيان في المؤخرة. نحن سبعة. أدركت آريان هذا
وهم راكبون، ولم تكن قد فكَّرت فيه من قبل، إلا أنه بدا لها
بشير خير لقضيَّتهم. سبعة راكبين في طريقهم إلى المجد. ذات
يوم سيُخلَّدنا جميعًا المفئذون. أرادَ دراي مجموعة أكبر، لكن ذلك
كان ليلفت انتباهًا غير مرغوب، كما أن كلَّ رجلٍ إضافي يُضاعف
خطر الخيانة. أُنبي علَّمني هذا القدر على الأقل. حتى في وقت
تمثُّعه بالشباب والقوَّة كان دوران مارتل رجلًا حذرًا يجنح كثيرًا
إلى الضَّمَت والسُرَّة. أنَّ أوان أن يتخلَّى عن الأعباء التي تُثقل
كاهله، لكنني لن أسمح بإهانة لشرفه أو لشخصه. سثعيده إلى
حدائقه المائية ليعيش ما تبقى له من عُمرٍ محاطًا بالأطفال
الضَّاحكين وروائح الليمون والبرتقال. نعم، وليصاحبه كوينتن.
حالما أتَوَّجَّح مارسلا وأطلق سراح أفاعي الزَّمال ستحتشد
(دورن) أجمعها تحت رايتي. ربما يُعلن آل يرونوود تأييدهم
كوينتن، لكنهم لا يُشكِّلون تهديدًا بمفردهم، وإذا منحوا تومن
وآل لانستر ولاءهم فستجعل النُّجم المظلم يستأصلهم من
جذورهم.

قالت مارسلا بعد عدَّة ساعات من الرُّكوب: «أنا متعبة. أما
زَال المكان بعيدًا؟ أين نحن ذاهبون؟»
أجابها السير آريس مطمئنًا: «الأميرة آريان تأخذ جلالتك إلى
مكانٍ تكونين آمنةً فيه».

قالت آريان: «إنها رحلة طويلة، لكنها ستصبح أسهل ما إن نبلغ (الذم الأخضر). سيقابلنا بعض قوم جارين هناك، أيتام النهر. إنهم يعيشون على القوارب ويسوقونها في (الذم الأخضر) وروافده، يصطادون السمك ويقطفون الفواكه ويقومون بالأعمال الضرورية».

صاح جارين بمرح: «نعم، ونقضي ونلعب ونرقص على الماء، ونعرف الكثير من فنون العلاج. أمي أفضل قابلة في (وستروس)، وأبي يستطيع شفاء الثآليل».

سألت الفتاة: «كيف تكونون أيتامًا ولكم أمهات وآباء؟». فسرت آريان قائلة: «إنهم الروينار، وأُمهم كانت نهر (الروين)».

قالت مارسلا التي لم تفهم: «حسبتكم أنتم الروينار، أنتم الدورنيون أعني».

- «نحن كذلك جزئيًا يا جلالة الملكة. إن دماء نايميريا في عروقي، وكذا دماء مورس مارتل، اللورد الدورني الذي تزوجته. يوم زفافهما أضرمت نايميريا النار في سفنها كي يفهم قومها أن لا سبيل للعودة. سرّ أغلبهم لرؤية اللهب لأن رحلتهم كانت طويلة شنيعة قبل وصولهم إلى (دورن)، وفقدوا كثيرين منهم بسبب العواصف والأمراض والنحاسين. على أن بعضهم حزن، أولئك الذين لم يحبوا هذه الأرض الحمراء الجافة أو آلهتها الشبعة، فتمسكوا بعاداتهم القديمة وبنوا قوارب من أبدان السفن المحروقة وأصبحوا أيتام (الذم الأخضر). الأم في أغانيهم ليست (الأم) إلهتنا، وإنما (الأم الروين) التي غذتهم مياهها منذ فجر الزمان».

قال السير أريس: «سمعت أن الروينار لهم إله سلحفاة». أجابه جارين: «رجل النهر العجوز إله أدنى. هو أيضًا وُلد من النهر الأم، وقاتل ملك الشراطين ليظفر بالهيمنة على كل ما يحيا تحت المياه الجارية».

غمغمت مارسلا: «أوه».

قال دراى بأكثر نبراتة مرحًا: «بلغني أنك خضت معارك
ضروسًا أيضًا يا جلالة الملكة. يقال إنك لا تزين أميرنا الشجاع
تيرستان رحمةً على طاولة السايقاس».

قالت مارسلا: «إنه يرض قطعه بالطريقة نفسها دائمًا، الجبال
كلها في المقدمة والأقيال في الممزات، فأرسل تئنتي لتأكل
أقياله».

سألها دراى: «هل تلعب وصيفتك السايقاس أيضًا؟».
- «روزاموند؟ لا. حاولت أن أعلمها لكنها قالت إن القواعد
صعبة للغاية».

سألته الليدي سيلقا: «أهي من عائلة لانستر أيضًا؟».
- «لانستر من (لانسپورت) لا (كاسترلي روك). شعرها لونه
كشعري، لكنه مفرد بدلًا من مجعد. روزاموند لا تشبهني حقًا،
لكن حين ترتدي ثيابي يظنّها من لا يعرفوننا أنا».
- «هل فعلتما هذا من قبل إذن؟».

- «أوه، نعم. لقد تبادلنا الأماكن على متن (مغوار البحر) في
الطريق إلى (براقوس). الشبّة إجلانتين صبغت شعري بالبني
وقالت إنها لعبة، لكن الغرض كان حمايتي في حال استيلاء
عقي ستانيس على السفينة».

كان واضحًا أن الفتاة تزدد إرهابًا، فدعّتهم آريان إلى
التوقف. سقوا الخيول ثانيةً واستراحوا قليلًا وأكلوا الجبنة
والفواكه، واقتسقت مارسلا برتقالةً مع سيلقا الرقطاء، بينما أكل
جارين الزيتون وبصق الثوى على دراى.

كانت آريان تأمل أن يَبْلُغُوا النَّهْرَ قَبْلَ مَطْلَعِ الشَّمْسِ، لكنهم بدأوا رحلتهم بَعْدَ الوقت المزمع بفترة طويلة، ولذا كانوا ما زالوا على متون خيولهم حين اصطَبَغَتْ سماء الشَّرْقِ بالأحمر. لحقَّ النَّجم المظلم بها قائلاً: «أيتها الأميرة، يَحْسُنُ أن تُسْرِعَ ما لم تكوني تنتوين قتل الفتاة حقًا. ليست معنا خيام، والزَّمال قاسية بالنَّهار».

قالت له: «أعرفُ الزَّمالِ مثلك تمامًا أيها الفارس»، ومع ذلك نَفَّذَتْ اقتراحه، وهو ما شَقَّ على دوابِّهم، لكن خسارة سِنَّةٍ أحصنة خير من خسارة أميرة واحدة.

سرعان ما بدأت الرِّيح تهبُّ من الغرب ساخنة جافَّةً ومحمَّلةً بخبيبات الرَّمْلِ. سحبت آريان على وجهها لثاقًا من الحرير البَازِق، من أعلى أخضر باهت ومن أسفل أصفر، وكلا اللَّونين مندمج في الآخر، وقد أَضَافَتْ لآلئ خضراء صغيرة مزيدًا إلى وزنه وخشخشت بنعومة بينما تركب.

قال السير أريس وهي ثَقُبَتْ لثامها بضدغي خوذتها الثَّحاسِيَّة: «أعرفُ لِمَ ثَلَّمُ أميرتي وجهها. إذا لم تفعل فسيفوق جَمالها الشَّمْسُ سطوعًا».

ضحكت رغما عنها، وقالت: «لا، أميرتك ثَلَّمُ وجهها لتقي عينيها من الوهج وفمها من الرَّمال. حريٌّ بك أن تفعل المِثْلَ أيها الفارس». تساءَلَتْ منذ متى يَنْقُح فارسها الأبيض مجاملته الشَّمجة هذه. السير أريس ضحبة ساوَّة في الفراش، لكنه وخفَّة الظِّلِّ غريبان.

غَطَى رفاقها الدورنيون وجوههم مثلها، وساعدت سيلًا الرِّقطاء الأميرة الصغيرة على وقاية وجهها من الشمس، إلا أن السير آريس ظلَّ عنيذًا، ولم يمض وقت طويل قبل أن يسيل الفرق على وجهه وتتوزد وجنتاه بلونٍ وردي. فترة أطول قليلًا وسينشوي في هذه الملابس الثقيلة. لن يكون الأول، ففي القرون المنصرمة دخل أكثر من جيش (دورن) من (ممر الأمين) تحت الرايات الخفاقة، فقط ليزوي كلَّ منهم وتشويه الزَّمال الدورنية الشاخنة. في كتابه المتباهي (غزو دورن) كتب التَّين الصغير قائلًا: «رمز عائلة مارتل يتكوّن من شمسٍ وحربة، وهما سلاحا الدورنيين المفضَّلان، لكن بين الاثنين الشمس مميتة أكثر».

لحسن الحظَّ أنهم لا يحتاجون إلى الثوغل في الزَّمال وإنما إلى قطع مساحةٍ محدودة من الأراضي الجافة لا أكثر، ولما لمكت آريان صقرًا يدور بعيدًا أعلاهم تحت سماءٍ بلا سحب علقَت أن الأسوأ صار وراءهم بالفعل، وسرعان ما صادفوا شجرةً. صحيح أنها ملتوية كثيرة العقد وأشواكها تُعايل أوراقها -ككلِّ الأشجار التي تنتمي إلى النوع المسقى شخاذ الزَّمال- لكن وجودها يعني أنهم ليسوا بعيدين الآن عن الماء.

- «كدنا نصل يا جلالة الملكة»، قال جارين لمارسلا ببشاشة عندما لمخ مزيدًا من سخاخي الزمال أمامهم، دغلاً منها ينمو حول قاع جدولٍ جاف. كانت الشمس تهوي عليهم بضرباتها كمطرقة نارئة، لكن هذا لا يهّم ما دامت رحلتهم قرب نهايتها. توقّفوا لسقي الخيول مرّة أخرى ونهلوا من قربهم وبلّلوا لثمتهم، ثم عادوا يركبون توطئةً للمرحلة الأخيرة، وخلال نصف فرسخ كانوا يطنون الغشب الشيطاني ويمزّون ببساتين الزيتون، ووراء خطّ من التلال الحجرية أصبح الغشب أكثر اخضياً ونضارةً، وثقةً بساتين ليمون ترويهما شبكة من القنوات القديمة. كان جارين أول من لمخ النهر يلتمع بالأخضر، فأطلق صيحةً وانطلق سابقاً إياهم.

ذات مرّة عبّرت آريان مارتل نهر (الماندر) حين ذهبت مع ثلاثة من أفاعي الزمال لزيارة أم تايين، ومقارنةً بذلك المجري المائي العظيم يكاد (الذم الأخضر) لا يستحق أن يسقى نهراً، وعلى الرغم من ذلك يبقى شريان الحياة في (دورن). يستمدّ النهر اسمه من لون مياهه الزاكدة الأخضر الداكن، لكن مع دنوّهم بدا أن نور الشمس يصبغ تلك المياه بالذهبي. لم ترَ آريان منظراً أجمل من قبل قطّ، وقالت لنفسها: المفترض أن يكون الجزء التالي بطيئاً وبسيطاً، نتحرّك في (الذم الأخضر) ومنه إلى نهر (قايث)، أطول مسافة يستطيع القارب أن يقطعها. سيمنحها هذا وقتاً يكفي لإعداد مارسلا لما سيحدث. وراء (قايث) تنتظرهم الزمال العميقة، وسيحتاجون إلى عون (حجر الزمل) و(هضبة الجحيم) ليعبروها، لكنها لا تشك في استعدادهما للمساعدة. لقد ترى الأفعوان الأحمر في (حجر الزمل)، وإلاريا ساند خليفة الأمير أوبرين ابنة اللورد أولر الطبيعية، وأربع من أفاعي الزمال حفيداته. سأتوّج مارسلا في (هضبة الجحيم) وأرفع راياتي هناك.

وجدوا القارب على بُعد نصف فرسخ في اتجاه المصب، متواريًا تحت الغصون المتدلّية من صفصافة خضراء ضخمة. القوارب التي تُدفع بالعصي واطنة السّقف وعريضة من المنتصف وغاطسها لا يُذكر، وقد استخفّ بها التّئين الضّغير باعتبارها «أكواخًا مبنية على أطواف»، ولو أن ذلك ليس عادلاً حقًا. جميع تلك القوارب باستثناء التي يملكها أفقر اليتامى محلّي بنقوش وألوان أخاذة، وقاربهم هذا مطلي بدرجات الأخضر، وله ذراع دقّة خشبية منحوتة على شكل عروس بحر، ومن حواجزه تطلّ وجوه أسماك، وعلى سطحه تصطفّ العصي والحبال وبرطمانات زيت الزّيتون، ومن مقدّمته ومؤخّرتة تتأرجح مصاييح حديدية. غير أن أريان لم ترأيا من الأيتام، وتساءلت: أين الطّاقم؟

أوقف جارين حصانه تحت الضّفصافة، ونادى بينما وثب من فوق الشّرج: «استيقظوا أيها الكسالى. ملكتكم هنا وثرید ترحيبها الملكي. هلمّوا، اخزجوا. سنقّئي ونشرب الثّبيذ المحلّي. فمي جاهز لـ...».

وانفتح باب القارب بغنف، وإلى ضوء الشّمس خرج أريو هوتا حاملاً فأسه الطّويلة.

توقف جارين بحذّة، وشعزت أريان كأن بلطة أصابتها في بطنها. لم يكن يُفترّض أن تكون هذه الثّهاية، لم يكن يُفترّض أن يحدث هذا. ولقا سمعت دراى يقول: «آخر وجه كنث أمل أن أراه»، علقت أن عليها أن تتصرّف، وصاحت وهي تنب فوق حصانها من جديد: «ابتعدوا! سير أريس، أحم الأميرة...».

دقّ هوتا سطح القارب بكعب فأسه الطّويلة، ومن وراء الحواجز المنقّقة نهضت دسته من الخزّاس المسلّحين بالجراّب والثّشايّيات، وظهز المزيد منهم فوق القمرّة، ونادى قائدهم: «استسلمي يا أميرتي، وإلا فعلينا أن نقتل الجميع باستثناءك والطفلة بأمر أبيك».

ظَلَّتِ الأَمِيرَةُ مارسلَا عَلَى مَتْنِ قَرَسِهَا بِلَا حَرَكَ، وَتَرَا جَعِ
جَارِينَ بِتَوْدَةٍ عَنِ الْقَارِبِ رَافِقًا يَدِيهِ، وَخَلَّ دِرَايَ حَزَامِ سَيْفِهِ،
وَصَاحَ مُخَاطِبًا أَرِيَانَ إِذْ ارْتَطَمَ السَّيْفُ بِالأَرْضِ: «الاستسلام
يَبْدُو التَّصَرُّفَ الأَسْلَمَ».

- «لَا!»، صَاحَ السَّيْرُ أَرِيَسَ أَوَكْهَارَتَ وَوَضَعَ حِصَانَهُ بَيْنَ أَرِيَانَ
وَالنَّشَابِيَّاتِ وَسَيْفِهِ يَلْتَمِعُ قَضِيًّا فِي يَدِهِ، وَكَانَ قَدْ خَلَعَ ثَرَسَهُ
وَدَسَّ ذِرَاعَهُ فِي الأَحْزَمَةِ. «لَنْ تَأْخُذُوهَا وَفِي صَدْرِي أَنْفَاسٌ
تَتَرَدَّدُ».

لَمْ تَجِدْ أَرِيَانَ وَقْتًُا إِلَّا لَتَقُولَ لَهُ دُونَ كَلَامٍ: أَيُّهَا الأَحْمَقُ
الْمَتَهَوِّرُ، مَاذَا تَحْسِبُ نَفْسَكَ فَاعْلَمْ؟

وَزَيْتُ ضَحْكَةِ النُّجْمِ المَظْلَمِ إِذْ قَالَ: «أَأَنْتِ أَعْمَى أَمْ غَيْبِي يَا
أَوَكْهَارَتَ؟ إِنَّهُمْ كَثِيرُونَ لِلْغَايَةِ. أَتَزْكُ سَيْفَكَ».

وَاسْتَحَثَّهُ دِرَايَ قَائِلًا: «أَفْعَلْ كَمَا يَقُولُ أَيُّهَا الْفَارِسُ».

أَرَادَتْ أَرِيَانَ أَنْ تُنَادِيَهُ وَتَقُولَ: لَقَدْ وَقَعْنَا فِي الأَسْرِ أَيُّهَا
الْفَارِسُ. مَوْتِكَ لَنْ يُحْزِنَنَا. إِذَا كُنْتَ تَحِبُّ أَمِيرَتَكَ فَاسْتَسْلِمِ، لَكِنْ
حِينَ حَاوَلْتَ أَنْ تَتَكَلَّمَ احْتَبَسَتْ الْكَلِمَاتُ فِي حَلْقِهَا.

رَمَقَهَا السَّيْرُ أَرِيَسَ أَوَكْهَارَتَ بِنَظَرَةٍ اشْتِيَاقٍ أَخِيرَةٍ، ثُمَّ ضَرَبَ
حِصَانَهُ بِمَهْمَزِهِ الذَّهَبِيِّينَ وَانْقَضَ.

انطلق صوب القارب مباشرةً ومعطفه الأبيض يخفق وراءه، ولم تَرَ أريان مارتل في حياتها كلها شيئًا بهذه الشجاعة أو بهذه الحماسة. صرخت: «لاااا!»، لكنها عثرت على صوتها متأخرًا جدًا. انطلق سهم ثشائية ثم آخر، وهدر هوتا بأمر. من هذه المسافة القصيرة فكأن درع الفارس الأبيض من ورق، فاخترق السهم الأول ثرسه البلوطي الثقيل ممبًا إياه إلى كتفه، وكشط الثاني قوده، في حين أصابت حربة مقذوفة حصانه في الخاصرة، وعلى الرغم من هذا واصل الحصان الانقضاض وترنح إذ ارتطم بالمعبر الخشبي. كانت فتاة ما تصيح، فتاة صغيرة حمقاء تصيح: «لا، لا، أرجوكم، لم يكن يفترض أن يحدث هذا»، وسمعت أريان مارسلا تصرخ أيضًا بصوت رفيع حاد من جزاء الهلع.

ضرب سيف السير آريس الطويل ذات اليمين وذات الشمال، وسقط اثنان من حاملي الجراب. رفع حصانه قائمته الأماميتين ورفض أحد زُمة الثشائية في وجهه بينما يحاول إعادة تلقيمها، لكن سهام الثشائيات الأخرى انطلقت لتنفرس في جسم الجواد الحربي الكبير بغنف بالغ أسقطه على سطح القارب. بوسيلة ما وثب آريس أوكهارت مفلتًا، بل واستطاع الحفاظ على سيفه في يده كذلك، وبصعوبة اعتدل راكعًا على زكبتيه إلى جوار حصانه المحتضر...
... ووجد آريو هوتا واقفًا فوقه.

رفع الفارس الأبيض سيفه ولكن ببطء شديد، وبتزت فأس هوتا الطويلة ذراعه تحت الكتف مباشرةً ودازت نائرة الدماء، ثم عادت ثومض بضربة رهيبة أطارت رأس السير آريس وطوّحت به في الهواء ليحظ وسط أعواد البوص ويبتلع (الدم الأخضر) الأحمر بصوت خافت.

لا تذكّر أريان أنها ترجّلت عن حصانها. ربما سقطت، لكن ذلك أيضًا لا تذكره. فقط وجدت نفسها على يديها وقدميها فوق الزّمال، ترتجف وتنتحب وتقيء غشاءها، ولم تستطع أن تقول لنفسها إلا: لا، لا، لم يكن يفترض أن يتأذى أحد، كل شيء كان مخطّطا، كنت حذرة للغاية. سمعت أريو هوتا يجأر: «وراءه. إياكم أن يهرب. وراءه!». كانت مارسلا على الأرض تُؤلّول وترتعد، وجهها الشّاحب في يديها والذّماء تسيل من بين أصابعها. لم تفهم أريان. كان بعض الرّجال يهرع ممتطّيا الخيول وبعضهم يُحيط بها وبرفاقها، لكن لا شيء بدأ لها مفهوماً. لقد وقعت في خلم، في كابويس أحمر شنيع. لا يمكن أن يكون هذا حقيقياً. سأصحو قريباً وأضحك مما أصابني ليلاً من فزع.

حين قيّدوا يديها وراء ظهرها لم تُحاول المقاومة، ثم سحبها أحد الخرس بحذّة لتقف فرأت أنه يرتدي ألوان أبيها، وانحنى آخر وانتزع من حذائها سكّينها الذي كان هديّة من ابنة عمّها الليدي نيم. التقطه أريو هوتا من الرّجل، وأعلن ودماء أريس أوكهارت ثلّطخ وجنتيه وجبهته: «الأمير قال إن عليّ أن أعيدك إلى (صنسيين). أسفّ يا أميرتي الصّغيرة».

رفعت أريان وجهها خطّطته الذّموع، وسألت قائد الخرس: «كيف عرف؟ لقد توخّيت الحذر الشديد. كيف أمكنه أن يعرف؟».

هزّ هوتا كتفيه مجيئاً: «أحدهم وشى، أحدهم يشي دوماً».

(60). البازيليسق مخلوق زاحف أسطوري، يتميز بالقدرة على القتل بشقه الرّعاف، ويُقال إنه ملك الأفاعي. (المترجم).

آريا

كل ليلة قبل النوم تُتمِّم بصلاتها لوسادتها: «السير جريجور، دانسن، راف المعسول، السير إلين، السير مرين، الملكة سوسي». كانت لتهمس بأسماء آل فراي سادة (المعبر) أيضًا لو أنها تعرفها. ذات يوم سأعرف، وعندها سأقتلهم جميعًا.

لا همسة أكثر خفوتًا من أن تُسقع في (دار الأبيض والأسود)، ولذا سألتها الرّجل الطيب في مرّة: «ما تلك الأسماء التي تهمسين بها ليلاً أيتها الصغيرة؟».

قالت: «لست أهمس بأيّ أسماء».

- «كاذبة. كل البشر يكذبون وهم خائفون. بعضهم يكذب كثيرًا وبعضهم قليلًا، وبعضهم عنده كذبة واحدة كبيرة يزّددونها طويلاً إلى أن يكادوا يصدّقونها... ولو أن جزءًا صغيرًا منهم يعرف دائمًا أنها لا تزال كذبة، وهو ما يلوح على وجوههم. حدّثيني عن تلك الأسماء».

مضّغت شفّتها قائلة: «الأسماء لا تهم».

رّذ الرّجل الطيب بإصرار: «بل تهم. أخبريني أيتها الصغيرة». سمعت لسان حاله يقول: أخبريني وإلا طردناكِ، فقالت: «إنهم أناس أكرههم، أريدهم أن يموتوا».

- «نسمع صلوات كثيرة كهذه في هذا المكان».

قالت آريا: «أعرف». سبق أن أجاب چاكن هاجار ثلاثًا من صلواتها. ما كان عليّ إلا أن أهمس...

واصل الرّجل الطيب: «ألذا أتيت إلينا؟ لتتعلمي فنونا كي ثقّلي من تكرهين؟».

لم تدري آريا يَمّ ثجيب، فقالت: «ربما».

- «إذن فقد أتيت إلى المكان الخطأ. ليس لك أن تُقرّري من يعيش ومن يموت. الهدية تنتمي إليه هو ذي الوجوه العديدة، وما نحن إلا خُدّامه المقسمون على تنفيذ إرادته».

- «أوه». تطلعت آريا إلى الثمائل الواقفة عند الجدران
والشموع الوامضة عند أقدامها، وسألت: «أي إله هو؟».
جاوبها الكاهن المثشح بالأبيض والأسود: «إنه هم جميعًا».
لم يخبرها الرّجل باسمه قط، وكذا اللقيطة، الفتاة الصغيرة
ذات العينين الكبيرتين والوجه الضّاوي التي تُذكرها بصغيرة
أخرى اسمها بنت عرس. مثل آريا تعيش اللقيطة تحت المعبد
مع ثلاثة من المُعاونين وخادمين وطاهية اسمها أوما. تحب
أوما الكلام فيما تعمل، غير أن آريا لا تفهم كلمة تتفوّه بها، أمّا
الآخرون فلا أسماء لهم، أو أنهم محجّمون عن الإفصاح بها. أحد
الخادمين عجوز للغاية وظهره محني كالقوس، والثاني متورّد
الوجه وينمو الشعر من أذنيه، وقد حسبتهما آريا أبكمين إلى أن
سمعتهما يَصْلَيَان. المُعاونون أصغر؛ أكبرهم في سنّ أبيها
والاثنان الآخران لا يمكن أن يكونا أكبر من سائرا التي كانت
أختها، ويرتدي ثلاثهم الأبيض والأسود أيضًا، لكن أرديتهم بلا
قلنسوة، وسوداء على اليسار وببيضاء على اليمين، في حين
يرتدي الرّجل الطيب واللّقيطة العكس. أعطيت آريا ملابس
الخدم؛ شترّة قصيرة من الضوف غير المصبوغ وسراويل
فضفاضة وثيابًا داخلية من الكتّان، بالإضافة إلى خُفين من
القماش لقدميها.

وحده الرجل الطيب يعرف اللغة العامية، وكلّ يوم يسألها: «من أنت؟»، فتجيب: «لا أحد». تقولها تلك التي كانت آريا سلية عائلة ستارك، آريا القُداسة، آريا وجه الحصان، والتي كانت أيضًا آري وبنت عرس والكتكوت وملحة، وكانت نان السّاقية، فأزا رماديًا، نعجة، شبح (هارنهال)... لكن ليس حقًا، ليس في أعماق أعماقها. هناك هي آريا ابنة (وينترفل)، وليدة اللورد إدارد ستارك والليدي كاتلين، التي كان لها في الماضي إخوة يُسمّون روب وبران وريكون، وأخت اسمها سانزا، وذئبة رهيبة اسمها نايميريا، وأخ غير شقيق اسمه جون سنو. هناك في الدّاخل هي شخص ما... لكن تلك ليست الإجابة التي يرغب فيها.

دون لغة مشتركة لا تجد آريا وسيلة للكلام مع الآخرين، لكنها تُصفي إليهم وتكرّر الكلمات التي تسمعها لنفسها بينما تُمارس عملها. مع أن أصغر المُعاونين أعمى فإنه المسؤول عن الشّموع، فيطوف في المعبد بخُفين لئنين محاطًا بغمغمة النساء المسنّات اللاتي يأتين بصفة يومية للصلاة، وحتى بلا بصر يعرف دائمًا أيّ الشّموع انطفأ، وهو ما علّله الرجل الطيب قائلًا: «الزّائحة تُرثده، والهواء أكثر دفئًا حيث تشتعل الشّموع»، وقال لآريا أن تُغلق عينيها وتجرّب بنفسها.

في الفجر يُصلّون راکعين حول البركة السوداء الزّاكدة قبل أن يُفطروا، وفي بعض الأيام يقود الرجل الطيب الصلاة وفي بعضها تقودها اللّقيطة. لا تعرف آريا إلّا كلمات معدودة من البراقوسية، تلك التي لها المعاني نفسها بالقاليرية الفصحى، ولذا تتوجّه بصلاتها الخاصّة إلى الإله عديد الوجوه. «السير جريجور، دانسن، راف المعسول، السير إلين، السير مرين، الملكة سرسي». تُصلي في صمت، وإذا كان الإله عديد الوجوه إلّاها حقًا فسيسمعها.

يأتي المتعبّدون (دار الأبيض والأسود) كلّ يوم. معظمهم يأتي وحده ويجلس وحده، فيشعلون الشموع عند مذبح أو آخر ويضّلّون إلى جوار البركة وأحيانًا يكون، ويشرب بعضهم من الكوب الأسود ويخلّد إلى النّوم، لكن عددًا أكبر لا يشرب. ليست هناك شعائر أو ترانيم أو أناشيد ثناء تسرّ الآلهة، ولا يمتلئ المعبد أبدًا، لكن بين الفينة والفينة يطّلب أحد المتعبّدين أن يرى كاهنًا، فيأخذه الرّجل الطيّب أو اللّقيطة إلى المعتكف في الأسفل، لكن ذلك لا يحدث كثيرًا.

ثلاثون إلها مختلفًا يقفون عند الجدران محاطين بالأضواء الخافتة. رأت آريا أن المرأة الباكية هي المفضّلة عند النّساء المسنّات، بينما يُفضّل الأثرياء أسد اللّيل والفُقراء عابر السبيل المقلّس، ويضّيء الجنود الشموع للّطفل الشّاحب باكالون، والبخّارة للعذراء شاحبة القمر وملك شعب البحار. للإله الغريب مقامه هنا أيضًا، ولو أن المتعبّدين عنده نُدرة، وأكثر الوقت تقف شمعة وحيدة تتذبذب عند قدميه، لكن الرّجل الطيّب أخبرها بأن هذا لا يهم، وقال: «إن له وجوها عدّة وآذانًا عدّة يسمع بها».

الهضبة التي يرتفع فوقها المعبد ملأى في باطنها بالممرّات المنحوتة في الصّخر. في المستوى الأول حُجيرات نوم الكهنة والمعاونين، وفي الثّاني تنام آريا والخدم، أمّا المستوى الأدنى فمحزّم دخوله على الجميع باستثناء الكهنة، إذ يضمّ المعتكف المقدّس.

عندما لا تعمل آريا تكون لها حِزَّة الثَّجَوال في الأقبية والمخازن، شريطة ألا تُغادر المعبد أو تنزل إلى المستوى الثالث. وجدت حَجَرَةً تملأها الأسلحة والذروع؛ خُود منققة وواقيات صدور قديمة غريبة الشَّكل وسيوف طويلة وسكاكين وخناجر ونُشَابِيَّات وجراب طويلة تَتَّخِذُ رؤوسها شكل أوراق الشَّجر. ووجدت أحد الأقبية متخفًا بالملابس؛ فراء سميك وحرير فاخر بعشرات الألوان إلى جوار أكواب من الأسمال كريهة الرائحة والخيش المهترئ. قالت آريا لنفسها بثقة: لا بُدَّ أن هناك حِجراتٍ فيها كنوز أيضًا، وتخيَّلت أكداشًا من الأطباق الذهب وضرزًا ملأى بالعملات الفضة والياقوت الأزرق كالبحر وحبالًا من اللآلئ الخضراء الكبيرة.

في يوم وجدت الرُّجل الطَّيِّب أمامها على غير انتظار يسألها عما تفعله، فقالت له إنها ضَلَّت الطريق.

- «كاذبة، والأدهى أنك لا تُجيدين الكذب. من أنت؟».

- «لا أحد».

تنهد قائلاً: «كذبة أخرى».

كان ويز ليضربها حتى يُدميها لو ضبطها متلبسةً بالكذب، لكن الأمر مختلف في (دار الأبيض والأسود). عندما تُساعد في المطبخ تضربها أوما أحيانًا بملعقتها إذا اعترضت طريقها، لكن أحدًا آخر لم يرفع يده عليها. لا يرفعون أيديهم إلَّا للقتل.

انسجقت آريا مع الظاهية بما فيه الكفاية. تضع أوما سَكِينًا في يدها وتُشير إلى بصلة فتَقَطِّعها، تدفعها أوما نحو كُتْلَةٍ من العجين فتعجنها إلى أن تقول لها الظاهية أن تتوقَّف (و«توقفي» هي أول كلمة براقوسية تعلَّمتها)، تُناولها أوما سمكة فتُنظِّفها وتَقَطِّعها إلى شرائح تُدَوِّرها في المكشرات التي تسحقها الظاهية.

شرح لها الرّجل الطيّب أن المياه المسوس (61) التي تُحيط
بـ(براقوس) تعجّ بأسماء وأصداف من جميع الأنواع، وثقّة نهر
بئي بطيء يصبّ في الهور من الجنوب ويمضي متعزّجاً في
مساحة مديدة من البوص والبرك المذيّة والشهول الطينيّة، ولذا
فهناك وفرة وفيرة دائمة من المحار وأمّ الخلول وبلح البحر
وسمك الكراكي والضفادع والسلاحف وسراطين الوحل
والسراطين الرّقطاء والسراطين المتسلّقة وتعابين الماء الحمراء
والشوداء والمخططة وأسماء الشلق ومحار اللؤلؤ، وكلّ هذه
الأصناف يتكرّر ظهوره على المائدة الخشبيّة المنقوشة التي
يتناول عليها خدم الإله عديد الوجوه وجباتهم. في بعض
الليالي تُبَلّ أوما السمك بملح البحر وحبّ الفلفل المكشّر أو
تطهو تعابين الماء بالثوم المفروم، وكلّ فترة طويلة تُضيف
الظاهية قليلاً من الرّعفران أيضاً. كان هوت ياي ليحبّ هذا.

العشاء وقتها المفضّل من اليوم، فقد مضى وقت طويل منذ
خلدت آريا إلى الثوم كلّ ليلة ببطن ممتلئ. في بعض الليالي
يسمح لها الرّجل الطيّب بأن تُلقّي عليه أسئلة، فسألته في مرّة
لماذا يبدو النّاس الذين يأتون المعبد هادئين في سلام دائمة. في
وطنها يخاف النّاس الموت، وتذكّر كيف بكى المرافق ذو البثور
حين طعنّه في بطنه، وكيف توشل السير آموري لورك حين
ألّقه الكباش في حبّ الذّب، وتذكّر القرية عند (عين الآلهة)
وصريخ القرويين وعويلهم ونحيبهم ما إن يبدأ المدغدغ في
السؤال عن الذهب.

أجابتها الرّجل الطّيب: «الموت ليس أسوأ شيء في الدّنيا. إنه هديّة الإله إلينا، نهاية للحاجة والألم. يوم نولّد يرسل الإله عديد الوجوه إلى كلّ منا ملاك ظلّمة يمضي إلى جوارنا في الحياة، وحين تصير خطايانا ومعاناتنا أثقل من أن نستطيع حملها يأخذنا الملاك من يدنا ويقودنا إلى أراضٍ اللّيل حيث تلتهم الثّجوم بلا نهاية. من يأتون للشّرب من الكوب الأسود يبحثون عن ملائكتهم، وإذا كانوا خائفين تُهذّئ الشّموع روعهم. عندما تشقّين شموعنا ففيم تجعلك تُفكّرين يا صغيرتي؟».

أرادت أن تقول: (وينترفل). أشمّ الفلج والدّخان وإبر الضّنوب، أشمّ الاسطبلات، أشمّ هودور يضحك وچون وروب يتبارزان في الشّاحة وسانزا تُقّي عن ليدي جميلة حمقاء ما، أشمّ الشّراذيب حيث يجلس الملوك الحجرّيون، أشمّ الخبز الطّازج، أشمّ أكلة الآلهة، أشمّ ذئبتي، أشمّ فروها كأنها لم تزل إلى جوارِي، غير أنها ردّت لترى ما سيقوله: «لا أشمّ شيئاً».

- «كاذبة، لكن لك أن تحتفظي بأسرارك إذا شئت يا آريا يا سلية عائلة ستارك». لا يدعوها بهذا الاسم إلّا عندما تُثير استياءه. «تعرفين أنك تستطيعين مغادرة هذا المكان. إنك لست منا بعد. يُمكنك العودة إلى وطنك متى أردت».

- «قلت لي إنني إذا غادرتُ فلا يُمكنني العودة».

- «بالضّبط».

أحزنتها الكلمة. اعتاد سيريو أن يقولها أيضًا، كان يقولها طوال الوقت. سيريو فورل علّمها أشغال الإبرة ومات من أجلها. «لا أريد أن أرحل».

- «ابقي إذن... لكن تذكّري أن (دار الأبيض والأسود) ليست بيتًا للأيتام. كلّ البشر واجبههم الخدمة تحت هذا السّقف. قالار دوهايرس كما نقولها هنا. ابقي إذا شئت، لكن اعلمي أننا سنتطلّب طاعتك في جميع الأحيان وفي كلّ الأشياء. إذا كنت لا تستطيعين التّزام الطّاعة فعليك أن ترحلي».

- «أستطيع التزام الطاعة».

- «سنرى».

كلّفوها بواجبات أخرى بخلاف مساعدة أوما، فتكنس آريا أرضيات المعبد وثقّدّم الوجبات وتصبّ الشراب وتفرز أكوام ثياب الموتى وثفرغ ضرر نقودهم وتُحصي العملات الغريبة. كلّ صباح تسير إلى جوار الرّجل الطيّب بينما يدور في أنحاء المعبد بحثًا عمّن ماتوا، فتقول لنفسها متذكّرة سيريو: بصمت الظلال. تحمل مصباحًا بمصاريع حديدية سميكة، وعند كلّ فجوة ثوارب مصراعًا لترى إن كان هناك أحدهم ميتًا فيها.

ليس العثور على الموتى عسيرًا أبدًا. إنهم يأتون (دار الأبيض والأسود) ويضّلّون ساعة أو يومًا أو عامًا، ثم يشربون الماء الذّاكن الخلو من البركة، ويتمدّدون على فراش من حجر وراء إله أو آخر، ويغلقون أعينهم وينامون ولا يستيقظون بعدها أبدًا. قال لها الرّجل الطيّب: «هدية الإله عديد الوجوه تتخذ عديد الضّور، لكنها رفيقة دومًا هنا». حين يجدان جثة يزّدد صلاة ويتأكّد من أن الرّوح قاضت، وتجلب آريا الخادمين المكلفين بحمل الموتى إلى الأقبية، وهناك يجردّ المعاؤون الجثث من الثّياب ويغسلونها، وتوضع الثّياب والثّقود والمقتنيات الأخرى في سلّة للفرز، ثم تؤخذ الأجساد الميتة الباردة إلى المعتكف في الأسفل حيث الدّخول متاح للكهنة وحدهم، أمّا ما يحدث هناك فليس مسموحًا لآريا بأن تعرفه. في مرّة بينما تتناول عشاءها استحوذَ عليها شكّ رهيب، ووضعت سكّينها وحدّقت بريية إلى شريحة من اللحم الأبيض الشّاحب، فرأى الرّجل الطيّب الرّعب على وجهها، وقال لها: «إنه لحم خنزير أيتها الصّغيرة، لحم خنزير فقط».

سريرتها من الحجر ويذكرها بـ(هارنهال) والشرير الذي نأمت عليه هناك وقت أن كانت تُنظف السلالم لويز، وحشيتته مليئة بالخرق بدلًا من القش، وهو ما جعلها أكثر تكثلاً من تلك التي اعتادت الثوم عليها في (هارنهال)، لكنها أقل وخزًا أيضًا. مسموخ لها بالعدد الذي ثريده من الأغذية الضوف السمكية، منها الأحمر والأخضر ومرّيع القش، كما أن خجيرتها لها وحدها، وهناك تحتفظ بكنوزها؛ الشوكة الفضية والقبعة العريضة والقفاز الذي بلا أصابع، وكلها أشياء أهداها إليها بخارة (ابنة المارد)، بالإضافة إلى خنجرها وحذائها وحزامها وحصيلتها الصغيرة من الثقود والملابس التي كانت ترتديها...

و(الإبرة).

على الرغم من أن واجباتها تتزك لها قليلًا من الوقت لأشغال الإبرة فإنها تتدرب متى استطاعت وتنازل ظلّها على ضوء شمعة زرقاء. ذات يوم مزّت القسيطة مصادفة ورأت آريا في مران المبارزة، فلم تقل الفتاة شيئًا ولكن في اليوم التالي ساق الرجل الطيب آريا إلى خجيرتها، وقال لها مشيرًا إلى كنوزها: «عليك أن تتخلصي من كل هذه الأشياء».

قالت آريا مذعورة: «إنها ملكي».

- «ومن أنت؟».

- «لا أحد».

التقط شوكتها الفضة، وقال: «هذه ملك آريا سليمة عائلة ستارك، كل هذا ملكها. لا مكان لهذه الأشياء هنا، ولا مكان لها أيضًا. إن اسمها اسم رفيع للغاية، ولا مجال هنا للترفع. إننا خدم».

مجروحة قالت: «أنا أخدم». لقد أحبت هذه الشوكة الفضة.

- «بل تلعبين دور الخادمة، لكنك ما زلت ابنة لورد في قلبك. لقد حملت أسماء أخرى، لكنك وضعتها على نفسك بالاستخفاف نفسه كما لو أنك تضعين قُستًا، وتحتها ظلت آريا موجودة دائمًا».

- «لا أرثدي الفساتين! لا يمكنك أن تُقاتل بينما ترتدي قُستًا سخيفًا!».

سألها: «ولم تُريدين أن تُقاتلي؟ هل أنت مُبارز براهو يتبختر في الأزقة متعطفًا للدماء؟»، وتنهَّد متابعًا: «قبل أن تُشربي من الكوب البارد عليك أن تهبي كيائك كله له هو ذي الوجوه العديدة؛ جسدك، روحك، نفسك. إذا كنت لا تستطيعين أن تدفعي نفسك إلى فعل ذلك فيجب أن تُغادري هذا المكان».

- «العملة الحديد...».

- «... دفعت بها ثمن رحلتك إلى هنا، ومن هنا عليك أن تدفعي لتسلكي طريقك، والتكلفة باهظة».

- «لا أملك ذهبًا».

- «ما نُقدِّمه لا يُشترى بالذهب. التكلفة أنتِ بأكملك. البشر يسلكون مختلف الطرق في وادي الذموع والالام هذا، وطريقنا الأصعب، قلائل مخلوقون للمشي فيه. إنه يتطلب قوَّة نادرة للجسد والروح، وقلبًا ضلِّبًا وطيدًا».

هناك فجوة في الموضع الذي يُفترض أن يحتله قلبي، ولا مكان آخر أذهب إليه. «إنني قوِّية، قوِّية مثلك، إنني ضلبة».

قال كأنه سمع أفكارها: «تعتقدين أن هذا هو المكان الوحيد لك، لكنك مخطئة. ستجدين خدمة أقل مشقة في منزل أحد الثَّجَّار، أم أنك تفضِّلين أن تكوني محظيَّة يتغلَّون بجمالها؟ ما عليك إلَّا أن تقولي وسئرسلك إلى (اللؤلؤة السوداء) أو (ابنة الغسق). ستنامين على بتلات الورد وترتدين تنانير حريريَّة تحفَّ حين تمشين، وسيدفع الشَّادة العظام ثرواث طائلة ويفقدون أنفسهم من أجل دم بكَارتك. أو إذا كنت راغبة في الرُّواج والأطفال فأخبريني وسنجد لك زوجًا، صبيًا جرفيًا ما أو عجوزًا غنيًا أو رُحال بحار، أيَّا كان ما تُريدين».

لا تُريد آريا شيئًا من ذلك، ولذا هزَّت رأسها بصمت.

- «هل تحلمين بـ(وستروس) إذن أيتها الصَّغيرة؟ (سيِّدة البريق) سفينة لوكو پريستين سترحل غداً إلى (بلدة الثَّوارس) و(كينجز لاندنج) و(تايروش). هل نجد لك مكانًا عليها؟».

- «لقد جنَّت لتؤي من (وستروس)!». أحيانًا يبدو كأن ألف عام مرَّت منذ فرَّت من (كينجز لاندنج)، وأحيانًا كأن هذا حدث البارحة فحسب، لكنها تعلم أنها لا تستطيع العودة. «سأذهب إذا كنت لا تُريدني، لكني لن أذهب إلى هناك».

قال الرُّجل الطَّيب: «ما أريده لا يهَمُّ. ربما قادك الإله عديد الوجوه إلى هنا لتكوني أداته، لكن حين أنظرُ إليك أرى طفلة... والأدهى أنك فتاة. كثيرون خدموا الإله عديد الوجوه على مرَّ القرون، لكن أقلَّ القليل من خدمه كن نساء. النساء يأتين بالحياة إلى الدُّنيا، ونحن نجلب هديَّة الموت. لا أحد يستطيع أن يفعل هذا وذلك».

يُحاول أن يخيِّفني لأرحل كما فعل من قبل بالدَّودة. «لا أبالي بهذا».

- «عليك أن تُبالي. ابقِ وسياخذ الإله عديد الوجوه أذنك وأنفك ولسانك، سياخذ عينيك الزماديتين الحزینتین اللتین رأیتا الكثير، سياخذ يديك وقدميك وساقيك وعورتك، سياخذ أمالك وأحلامك وخُبك وکراهيتك. مَن ينخرطون في خدمته عليهم التَّخْلِي عن كُلِّ ما يجعلهم هَم. هل تستطيعين أن تفعلي ذلك؟»، وأمسك الرَّجل الطَّيب ذقنها بأصابعه وتطلَّع إلى عينيها سابِراً أغوارهما لدرجة جعلتها ترتجف، وأردف: «لا، لا أظنُّ أنكِ تستطيعين».

ضربت آريا يده مزيحة إياها، وقالت: «أستطيع إذا أردت».

- «هذا ما تقوله آريا سليلة عائلة ستارك، آكلة دود القبور».

- «أستطيع التَّخْلِي عن أيِّ شيء أريده!».

أشارَ إلى كنوزها قائلاً: «أبدني بهذه إذن».

ليلتها بعد الغشاء عادت آريا إلى خجيرتها وخلعت ثيابها وهمست بأسمائها، لكن الثوم أبى أن يأتيها، وظلَّت تتقلب على الحشية المليئة بالخرق وهي تمضغ شفتها شاعرةً بالفجوة في داخلها حيث كان قلبها.

في جوف الليل قامت ثانية وارتدت الثياب التي كانت عليها في الطريق من (وستروس)، وتمنطقت بحزام سيفها معلقة (الإبرة) على أحد وركيها وخنجرها على الثاني. بقبعتها العريضة على رأسها وقفازاها عديم الأصابع المدسوس في حزامها وشوكتها الفضية في يدها تحرَّكت صاعدةً الشلالم بخفة مفكرة: لا مكان هنا لآريا سليلة عائلة ستارك. مكان آريا في (وينترفل)، لكن (وينترفل) ضاغت. عندما تسقط الخُلوج وتهبُّ الرِّيح البيضاء ينفق الذئب الوحيد بينما ينجو القطيع. غير أنها بلا قطيع. لقد قتلوا قطيعها، قتله السير إلين والسير مرين والملكة، ولما حاولت أن تُكوِّن واحداً جديداً قرَّ أفرادَه جميعاً؛ هوت پاي وجندري ويورن ولومي أخضر اليد، وحتى هاروين الذي كان رجل أبيها.

خرجت من الباب إلى الليل.

إنها المرة الأولى التي تخرج فيها منذ دخلت المعبد. كانت السماء غائمة والأرض يُغطّيها الضباب كدثارٍ رمادي متهتك، وإلى يمينها سمعت تجديفًا من إحدى القنوات، ففكرت: (براقوس)، المدينة السريّة. يبدو لها الاسم لائقًا للغاية. انسلت نازلةً الشلال المندحرة إلى الرّصيف المسقوف بينما تدور دوّامات الضباب حول قدميها بكثافةٍ حالت دون أن ترى الماء، وإن سمعته يرتطم بنعومة بالزّكازل الحجرية، ورأت من بعيد ضوءًا يتوهج في الغيوم، فخطر لها أنها النار الليلية في معبد الزهبان الخمر.

توقفت على حافة الماء وفي يدها الشوكة المصنوعة من الفضة الخالصة. ليست شوكتي، لقد أهداها إلى ملحة. ألقتها إلى أسفل وسمعت صوت تناثر المياه الخافت إذ غاصت فيها. بعدها ألقت القبعة العريضة والقفاز، فهما أيضًا ملك لملحة، ثم إنها أفرغت محتويات جرابها في كفّها؛ خمسة أيائل فضية وتسع نجوم نحاسية وبعض البنسات وأنصاف البنسات والجراوت. نثرتها جميعًا في الماء، ثم حان دور حذائها الذي أحدث الضّوت الأعلى، وبعده الخنجر الذي أخذته من القوّاس الذي توشل من كلب الضيد الرّحمة، ثم ألقت حزام سيفها في القناة، ومعطفها وشترتها وسراويلها وثيابها الداخلية. ألقت كلّ شيء باستثناء إبرتها.

وقفت في أقصى الرّصيف شاحبةً مقشعةً الجلد ترتجف في الضباب، في يدها إبرتها كأنها تهمس لها وتقول: /طعنيهم بالظرف المدب، وتقول: لا تخيري سائرًا! على التّصل علامة يمكن. إنه مجرّد سيف. إذا احتاجت إلى سيفٍ فهناك مئة تحت المعبد، ثم إن (الإبرة) أصغر من أن يكون سيفًا حقيقيًا، بالكاد أكثر من لعبة. لقد كانت فتاةً صغيرةً حمقاء حين صنعه جون لها. «إنه مجرّد سيف»، قالتها بصوت عالٍ هذه المرة...

... لكنه ليس كذلك.

إبرتها روب وبران وريكون، أمها وأبوها، وحتى سائزا. إبرتها جدران (ويتترقل) الزمادية وضحك أهلها. إبرتها ثلوج الضيف وقصص العجوز نان وشجرة القلوب بأوراقها الحمراء ووجهها المخيف ورائحة الثربة الدافئة في الضوبة الزجاجية وصوت رياح الشمال إذ ترخ مصاريع غرفتها. إبرتها ابتسامة جون سنو. قالت لنفسها متذكّرة: اعتاد أن ينفش شعري ويدعوني بـ«أختي الصغيرة»، وفجأة كانت العبرات تُفرق عينيها.

يوليقر سرق منها السيف عندما أسرها رجال الجبل، ثم إذا به هناك حين دخلت الخان على تقاطع الطرق مع كلب الضيد. الآلهة أرادتني أن أحمله. ليست الآلهة الشبعة ولا الإله عديد الوجوه، بل آلهة أبيها، آلهة الشمال القديمة. فليأخذ الإله عديد الوجوه البقية، لكن لا يمكنه أن يأخذ هذا.

صعدت الشلالم عارية كيوم مولدها وقد أطبقت على إبرتها، وفي منتصف الطريق إلى أعلى اهتز حجر تحت قدمها، فركفت آريا وحفرت حول حوافه بأصابعها. لم يتحرك في البداية، لكنها تابرت مكسرة الملاط المتفتت بأظفارها، إلى أن تحرك الحجر أخيرًا، فأثت ومدت يديها مفا تسحبه، وانفتح شق أمامها.

قالت لـ(الإبرة): «ستكون آمنًا هنا. لا أحد يعرف مكانك غيري»، ودشت السيف والفم وراء الدّرجة ثم أعادت الحجر إلى موضعه ليبدو كسائر الأحجار الأخرى من جديد، وبينما واصلت طريقها إلى أعلى عدت الدّرجات لتعلم أين تجد السيف ثانية. ذات يوم قد تحتاج إليه. همست لنفسها: «ذات يوم».

لم تُخبر الرّجل الطيّب بما فعلته، لكنه علم، وفي الليلة التالية أتاه في خجيرتها بعد العشاء، وقال: «تعالى واجلسي معي أيتها الصغيرة. عندي حكاية أوّد أن أحكيها لك». سألته بحذر: «حكاية ماذا؟».

- «حكاية بداياتنا. إذا كنت تريد أن تكوني منا فالأفضل أن تعرفي من نحن وكيف جئنا إلى الوجود. ربما يتهاوس الناس عن رجال (براقوس) عديمي الوجوه، لكننا أقدم من المدينة السريّة. قبل أن يرتفع (المارد) وقبل أن يُميط أوثيرو اللثام عن المدينة وقبل تأسيسها كنا نحن. لقد أينعنا في (براقوس) وسط هذا الضباب الشمالي، لكن جذورنا تعود إلى (قاليريا) وعبيدها البائسين الذين كدحوا في المناجم العميقة تحت (الأربع عشرة شُعلة) التي كانت تُضيء ليالي المعقل الخُر قديماً. معظم المناجم مظلم بارد ومحفور في الحجر الميت، لكن (الأربع عشرة شُعلة) كانت جبلاً حيّة عروقتها من صخر مصهور وقلوبها من نار، وهكذا كانت مناجم (قاليريا) ساخنة دوماً، وتزايدت سخونتها أكثر فأكثر كلما حفرّ المزيد من الأنفاق في الأعماق. كان العبيد يكدّون في أتون، الضُخور حولهم أسخن من أن يلمسوها، والهواء يعبق برائحة الكبريت ويسفع رئاتهم مع كل نفس يدخل صدورهم، وتُحرق الأرض باطن أقدامهم وتقرّحها حتى مع انتعالهم أكثر الضنادل سماكةً. أحياناً عندما يخرقون جداراً بحثاً عن الذهب كانوا يجدون بدلاً منه بُخاراً أو مياهًا تغلي أو صخوراً مصهورة، وبعض الأنفاق كان واطناً للغاية ولا يستطيع العبيد الوقوف فيه معتدلين، فكانوا يزحفون أو ينحنون. وكانت هناك ديدان في تلك الظلمة الحمراء أيضاً. سألتهم مقظبةً جبينها: «ديدان الأرض؟».

- «ديدان النار. يقول بعضهم إنها من جنس الثنائين، فتلدك الديدان تنفث النار أيضاً، ولكن بدلاً من التحليق في السماء تنخر الحجارة والثربة. إذا صدّقنا الحكايات القديمة فديدان النار كانت تعيش في (الأربع عشرة شُعلة) من قبل مجيء الثنائين. أصفرها ليس أكبر من ذراعك الناحلة هذه، لكنها تنمو إلى أحجام رهيبة ولا تحب البشر على الإطلاق».

- «هل قتلت العبيد؟».

- «كثيرًا ما كان يُعثر على الجثث المحروقة والمسودة في الأنفاق التي تشققت جدرانها أو امتلأت بالفتحات، وعلى الرغم من ذلك تواصل حفر الأنفاق في أعماق أبلغ وأبلغ. كان العبيد يهلكون بالعشرات لكن أسيادهم لم يُبالوا. بالنسبة إليهم كان الذهب الأحمر والأصفر والفضة أثمن من أنفس العبيد، والعبيد كانوا رخيصين في المعقل الحر القديم. في الحروب كان القاليريون يأسرونهم بالآلاف، وفي أوقات السلام كانوا يجعلونهم يتوالدون، ولو أن أسوأهم فقط كان يُرسل ليموت في الظلمة الحمراء».

- «ألم يثر العبيد ويُقاتلوا؟».

- «بعضهم. كانت الثمرذات شائعة في المناجم، لكن قليلًا منها حقق شيئًا. سادة الثنائين في المعقل الحر القديم كانوا أقوياء في الشعوذة، وكان من هم أدنى منهم يتحدثونهم معرضين أنفسهم للخطر. أول رجل عديم الوجه كان من هؤلاء».

اندفعت آريا تسأل قبل أن تتوقف لتفكر: «من كان؟».

أجابها: «لا أحد. بعضهم يقول إنه كان عبدًا، ويصرُّ غيرهم على أنه كان ابنًا لأحد الأسياد مولودًا من شلالة نبيلة، بل وهناك من يقول إنه كان مُشرقًا أشفقَّ على من يعملون تحت إمرته، لكن الحقيقة أن لا أحد يعلم. أيًا كان فقد اعتاد أن يتحرَّك بين الرقيق ويسمع صلواتهم. كان أناس من مئة أمة مختلفة يُعانون في المناجم، كلُّ منهم يدعو ربَّه بلُغته، لكن جميعهم كان يُصَلِّي طالبًا الشَّيء نفسه. كانوا يَطلبون الخلاص ونهاية الألم، شيء صغير بسيط، لكن ألَهِتهم لم تُجِب واستمرَّ عذابهم. تساءل الرَّجل: هل ألَهِتهم كُلُّها صقَّاء؟ إلى أن أتته الإجابة ذات ليلة في الظُّلمة الحمراء. لكلِّ الآلهة أدواتها، رجال ونساء يخدمونها ويُساعدون على تنفيذ إرادتها على الأرض. لم يكن العبيد يتضرَّعون إلى مئة إله مختلف كما بدا، وإنما إلى إله واحد له مئة وجه مختلف... والرَّجل كان أداة هذا الإله. في اللَّيلة ذاتها اختارَ أكثر العبيد تعاسةً، الذي كان يُصَلِّي بحرارة أشد من غيره ناشدًا الخلاص، وعتقه من عبوديَّته. ليلتها أعطيت الهدية الأولى».

تراجعت آريا قائلةً وقد بدا لها الكلام خاطئًا: «قتل العبد؟! كان المفترض أن يُقتل الأسياد».

- «لاحقًا أعطاهم الهدية أيضًا... لكن تلك حكاية ليومٍ آخر، حكاية الأفضل أن تُطلع عليها من هي لا أحد»، وحنى الرَّجل الطَّيب رأسه إلى الجانب سائلًا: «ومن أنتِ أيتها الصغيرة؟».

- «لا أحد».

- «كاذبة».

- «وما أدراك؟ أهو الشحر؟».

قال: «ليس ضروريًا أن يكون الإنسان ساحرًا ليعرف الصدق من الكذب إذا كانت له عينان. عليك فقط أن تتعلّمي قراءة الوجوه. انظري إلى العينين، إلى الفم، والعضلات هنا في ركن الفك، وهنا حيث يلتحم العنق بالكتفين»، ومشها بإصبعين بخفة متابعًا: «بعض الكذابين تطرف أعينهم، وبعضهم يُخملق، وبعضهم يُشبح بوجهه، وبعضهم يلحق شفّتيه، وكثيرون يُفْطون أفواههم قبل أن ينطقوا كذبًا كأنهم يُحاولون إخفاء خداعهم. ثقة علامات أخرى أقل وضوحًا، لكنها موجودة دائمًا. قد تتشابه ابتسامة زائفة وأخرى صادقة، لكنهما مختلفتان كما الفسق والفجر. هل يمكنك تمييز الفسق من الفجر؟».

أومأت آريا برأسها إيجابًا، مع أنها ليست واثقة باستطاعتها هذا حقًا.

- «إذن فيمكنك أن تتعلّمي رؤية الأكاذيب... وبمجرد أن تتعلّمي قلن يأمن منك سر».

- «علّمني». سئصّيح لا أحد ما دام هذا ما يتطلّبه الأمر. إذا كانت لا أحد قلن تكون في داخلها فجوة.

- «هي سئعلّمك»، قال الرّجل الطيّب إذ ظهرت اللقيطة خارج بابها. «بدايةً بلغة (براقوس). ما فائدتك إذا كنت لا تتكلّمينها أو تفهمينها؟ وسئعلّمينها أنت لُغتك، وبهذا ستتعلم كلتاكما معا من الأخرى. هل ستفعلين هذا؟».

أجابّت: «نعم»، ومنذ تلك اللحظة باتت مبتدئة في (دار الأبيض والأسود). أخذوا منها ملابس الخدم وأعطوها بدلًا منها رداءً من الأبيض والأسود شديد الثعومة كالذّثار الأحمر القديم الذي كانت تتفطى به في (وينترفل)، وتحتّه ارتدّت ثيابًا داخلية من الكتّان الأبيض الناعم وشترّة تحتية سوداء تدلّت على جسدها متجاوزة زكبتها.

منذ ذلك الحين تقضي واللقيطة أوقاتهما معا في لمس الأشياء والإشارة إليها، وكلّ منها تُحاول تعليم الأخرى بضع كلمات من لغتها. بدأت بكلمات بسيطة ككوب وشمعة وحذاء، ثم كلمات أصعب، ثم جملي كاملة. في الماضي اعتاد سيريو فورل أن يجعلها تقف على ساق واحدة حتى ترتعد، وبعدها أرسلها تُطارِد القطط، ورقصت آريا رقصة المياه على فروع الأشجار وفي يدها سيف من خشب. كل هذه الأشياء كان صعبا، لكن هذا أصعب.

حتى الخياطة كانت أمتع من اللغات، قالت لنفسها في ليلة بعد أن نسيت نصف الكلمات التي ظنّت أنها تعلّمتها وأساءت نطق النصف الآخر لدرجة أضحكت اللقيطة منها. عباراتي معوجة كما كانت عُزلي. لو لم تكن الفتاة صغيرة مهزولة لهشمت آريا وجهها الشخيف، لكنها راحت ثمضغ شففتها بدلا من ذلك. أغبى من أن أتعلّم وأغبى من أن أستسلم.

تعلّمت اللقيطة اللغة العامية أسرع، وذات ليلة التفتت إليها وسألتها: «من أنت؟».

أجابتها آريا بالبراقوسية: «لا أحد».

- «كاذبة. يجب أن تكذبي مفضل».

ضحكت آريا قائلة: «مفضل؟ تعنين أفضل يا حمقاء».

- «أفضل يا حمقاء. سأريك».

في اليوم التالي بدأت لعبة الأكاذيب التي تتبادل فيها كلتاها إلقاء الأسئلة على الأخرى. أحيانا تُجيبان صدقا وأحيانا تكذبان، وعلى السائلة أن تُحاول التفريق بين هذا وذاك. بدا أن اللقيطة تعرف دائما، أما آريا فعليها أن تُخمن، وأكثر الوقت يكون تخمينها خاطئا.

في مرّة سألتها اللقيطة باللغة العاميّة: «كم عامًا عندك؟»، فجاوبت آريا: «عشرة»، ورفعت عشرة أصابع. ظلّها أنها لا تزال في العاشرة، ولو أن الثيقن عويص، كما أن البراقوسيين يعدّون الأيام بشكل مختلف عن الوستروسيين. ربما حلّ يوم ميلادها وانقضى بالفعل.

أومات اللقيطة برأسها وردّت آريا الإيماءة، وبأفضل ما تعرف من البراقوسية سألت: «كم عامًا عندك؟».

أزتها اللقيطة عشرة أصابع، ثم عشرة أخرى، ثم عشرة أخرى، ثم سبعة. ظلّ وجهها بهدوء المياه الزاكدة، وفكرت آريا: لا يمكن أن تكون في السادسة والثلاثين، إنها بنت صغيرة. قالت لها: «أنت كاذبة»، فهزّت اللقيطة رأسها نفيا وأزتها ثانية: 10 و 10 و 6، وقالت مقابل 36 بالبراقوسية وجعلت آريا تزددها.

أخبزت الرّجل الطيب بما ادّعتة اللقيطة في اليوم التالي، فقال الكاهن مقهقهّا: «لم تكذب. من تُسمّينها اللقيطة امرأة بالغة قصّت حياتها في خدمة الإله عديد الوجوه. لقد سلّمته كيائها كلّ ما كان يمكن أن تكونه وكلّ ما في داخلها من حيوات».

عضّت آريا شفّتها، وسألته: «هل سأصبح مثلها؟».

- «لا، ما لم تُريدي ذلك. الشّموم هي ما جعلها تبدو كما تربنها».

الشّموم. الآن تفهم. كلّ ليلة بعد الصّلاة تُفرغ اللقيطة إبريقًا حجريًا في مياه البركة السوداء.

ليست اللقيطة والرجل الطيب خادمي الإله عديد الوجوه
الوحيدين، فمن حين إلى آخر يزور غيرهما (دار الأبيض
والأسود). الرجل البدين له عينان سوداوان شرستان وأنف
معقوف وفم عريض مليء بالأسنان المصفرة، وصاحب الوجه
الضارم لا يبتسم أبدًا وعيناه شاحبتان وشفثاه ممتلئتان
داكنتان، والوسيم يتغير لون لحيته كلما رآته ويتغير شكل أنفه
أيضًا، لكنه يتحلّى دوماً بالوسامة. هؤلاء الثلاثة أكثر من يأتون،
لكن هنالك آخرين، مثل ضيق العينين واللورد الصغير والرجل
المهزول. في مرّة جاء البدين وضيق العينين معًا، فأرسلت أوما
أريا تصبّ لهما الشراب، وكان الرجل الطيب قد قال لها: «عندما
لا تصبّين عليك أن تقفي ثابتةً كأنك منحوتة من الحجر. هل
يمكنك هذا؟».

- «نعم». قبل أن تتعلّمي الحركة يجب أن تتعلّمي الثبات.
سيريو فورل أوصاها بهذا منذ زمنٍ طويل في (كينجز لاندنج)،
ولقد تعلّمت. في (هارنهال) عملت أريا ساقيةً عند رووس
بولتون، الرجل الذي يمكنه أن يسلّخك إذا سكبت نبيذه.

قال الرجل الطيب: «عظيم. والأفضل أن تكوني عمياء صماء
أيضًا. ربما تسمعين أشياء، لكن عليك أن تتزكّيتها تدخّل من أذنٍ
وتخرج من الثانية. لا ثنصتي».

سمعت أريا الكثير والكثير ليلتها، لكن معظمه تقريبًا كان بلغة
(براقوس)، وبالكاد فهمت كلمةً من عشر. قالت لنفسها: بتمبات
الحجر، لكنها وجدت مقاومة الثناؤب صعبةً، وقبل نهاية الليل
كان ذهنها قد شردَ بعيدًا، وإذ وقفت هناك حاملةً الإبريق حلفت
بأنها ذئبة تركّض حرةً في غابةٍ ينيرها القمر وفي أعقابها قطع
عظيم يعوي.

في الصباح التالي سألت الرجل الطيب: «هل الرجال الآخرون
كهنة كلهم؟ أتلّك وجوههم الحقيقية؟».

- «ماذا تحسبين أيتها الصغيرة؟».

- قالت لنفسها: لا، وقالت له: «هل چاكن هاجار كاهن أيضًا؟ هل تعرف إن كان چاكن سيعود إلى (براقوس)؟».
- ببراءة سألتها: «مَن؟».
- «چاكن هاجارا! لقد أعطاني الغملة الحديد».
- «لا أعرف أحدًا بهذا الاسم أيتها الصغيرة».
- «سألته كيف يُبَدَّل ملامحه وقال إن هذا ليس أصعب من انتحال اسم جديد إذا عرفت الوسيلة».
- «حقًا؟».
- «هل ستريني كيف أبَدِّل ملامحي؟».
- قال: «إذا أردت»، وأمسك ذقنها بأصابعه ودور رأسها مردفًا: «انفخي وجنتيك وأخرجي لسانك».
- ونفخت آريا وجنتيها وأخرجت لسانها.
- «ها قد تبَدَّلَت ملامحك».
- «لم أعني هذا. چاكن استخدم الشحر».
- «كُل الشحر يأتي بتكلفته أيتها الصغيرة، ولا بُدَّ من سنين من الصلاة والتَّضحية والذَّراسة لإتقان الثمويه».
- رذدت مصدومة: «سنين؟!».
- «لو كان ذلك سهلًا لفعله البشر كلهم. يجب أن تمشي قبل أن تجري. لم تستخدمين تعويذة بينما تُصَلِّح حيل الممثلين؟».
- «لا أعرف أيَّ حيل ممثلين كذلك».
- «تمرّني على الثَّلاغب بقسماتك. تحت جلدك عضلات، فتعلّمي كيف تستخدمينها. هذا وجهك، وجنتاك، شفتاك، أذناك. يجب ألاَّ يباغتك الابتسام والعبوس بالظهور على وجهك دون إرادتك. الواجب أن تكون الابتسامة خادمة لك وتأتي فقط حين تستدعينها. تعلّمي أن تتحكّمي في وجهك».
- «أرني كيف».

قال: «انفخي وجنتيك»، ففعلت. «ارفعي حاجبيك. لا، أعلى»، ففعلت هذا أيضًا. «عظيم. انظري كم من الوقت تستطيعين إبقاءهما هكذا. لن يستمر هذا طويلًا، لكن جزبي ثانية غدًا. ستجدين مرآة مايريّة في الأقبية. تمرّني أمامها ساعة كل يوم. العينان والمنخران والوجنتان والأذنان والشفتان، تعلّمي الثّحكّم فيها جميعًا»، وعادَ يضمُّ أصابعه على ذقنها ويسألها: «من أنت؟».

- «لا أحد».

- «كذبة، كذبة محزنة أيتها الصّغيرة».

وجدت المرأة المايريّة في اليوم الثّالي، وتعوّدت الجلوس أمامها تتلأغب بقسماتها كل صباح وكل مساءً وعلى جانبيها شمعتين. تحكّمي في وجهك وستستطيعين الكذب.

بعدها بفترة قصيرة أمرها الرّجل الطيّب بمساعدة الفعاونين على تجهيز الخُمت، فلم تجد في عملها هذا صعوبةً تُداني تنظيف السّلالم لويّز. أحيانًا إذا كانت الجُتّة كبيرةً أو سميكةً يشقُّ عليها ثقلها، لكن أكثر الموتى عظام قديمة جافّة تحت جلود متفصّنة، وبينما تُغسلهم آريا تتطلّع إليهم وتتساءل عقًا دفعهم إلى البركة السوداء. تذكرت حكاية روتها العجوز نان عن الأشتية الطويلة، وكيف يُعلن من يبلغون من الكبر عتيًا أنهم ذاهبون للصيد، وسمعت العجوز نان تقول: فتبكي بناتهم ويُشبح أبنائهم بوجوههم إلى الثّار، لكن لا أحد يمنعهم أو يسألهم عن الفرائس التي ينتوون اقتناصها في الثّلوج العميقة بينما تعوي الرّيح الباردة. تساءلت عقًا يقوله البراقوسيون العجائز لأبنائهم وبناتهم قبل أن يرحلوا إلى (دار الأبيض والأسود).

دار القمر ودار ثانيةً ولو أن آريا لم تراه. ظلّت تخدم وتُغسل الموتى وتتلاغب بقسماتها في المرأة وتتعلم البراقوسية وتحاول أن تتذكّر أنها لا أحد.

ثم أرسل الرجل الطيب يستدعيها ذات يوم، وقال لها: «لهجتك شنيعة، لكنك تعرفين كلمات تكفي لجعل الناس يفهمون ما تريدينه إلى حد ما. حان الوقت لأن تتركينا فترة. الطريقة الوحيدة التي سنجيدن بها لغتنا حقًا أن تتكلميها من الفسق إلى الفجر. يجب أن تغادري». سألته: «متى؟ إلى أين؟».

- «الآن. وراء هذه الجدران ستجدين جزر (براقوس) المنة في بحرها. لقد تعلمت مرادفات بلح البحر وأم الخلول والمحار، أليس كذلك؟».

أجابته: «نعم»، ورددتها بأفضل براقوسية تقدر عليها. جعلته أفضل براقوسية تقدر عليها يبتسم، وقال: «لا بأس. على الأرصفة قبل (البلدة الغارقة) ستجدين تاجر أسماك اسمه بروسكو، رجل صالح يعاني تعبًا في ظهره. إنه في حاجة إلى فتاة تدفع عربته وتبيع أم الخلول والمحار وبلح البحر للبخارة. ستكونين هذه الفتاة، مفهوم؟».

- «نعم».

- «ولمّا يسألك بروسكو فمن أنت؟».

- «لا أحد».

- «لا، لن يصلح ذلك خارج هذه الدار».

قالت بعد تردد: «يمكنني أن أكون ملحة من (الملاحات)».

«ملحة معروفة لترنيسيو تيريس ورجال (ابنة المارد). إنك موسومة بالطريقة التي تتكلمين بها، ولذا يجب أن تكوني فتاة من (وستروس)... لكن فتاة مختلفة على ما أظن».

عصت شفتها متسائلة: «أيمكنني أن أكون كات؟».

فكر لحظة، ثم قال: «كات، نعم. (براقوس) تعج بالقطط، ولن يلحظ أحد قطّة إضافية. أنت كات، يتيمة من...».

- «(كينجز لاندنج)». لقد زارت (الميناء الأبيض) مع أبيها

مرتين، لكن معرفتها بـ(كينجز لاندنج) أفضل.

- «بِالضَّبْطِ. أَبُولُكَ كَانَ مُشْرِفَ مَلَاَحِينَ عَلَى مَتْنِ قَادِسٍ، وَلَقَا مَائَتَ أَهْلِكَ أَخَذَكَ مَعَهُ إِلَى الْبَحْرِ، ثُمَّ مَاتَ بِدَوْرِهِ وَلَمْ يَجِدْ زَيْتَانَهُ حَاجَةً إِلَيْكَ، فَأَنْزَلَكَ مِنَ السَّفِينَةِ فِي (بِرَاقُوسٍ). وَمَاذَا كَانَ اسْمُ السَّفِينَةِ؟».

أَجَابَتْ مِنْ فُورِهَا: «(نَايْمِيرِيَا)».

لَيْلَتَهَا تَرَكَّتْ (دَارَ الْأَبْيَضِ وَالْأَسْوَدِ)، عَلَى وَرَكِّهَا الْأَيْمَنِ سَكِينِ حَدِيدِي طَوِيلٍ يُخْفِيهِ مَعْطَفُهَا الْمَرْقُوعُ الْبَاهِتُ كَمَا يَنْبَغِي لِمَعْطَفٍ تَرْتَدِيهِ فَتَاةٌ يَتِيمَةٌ أَنْ يَكُونَ. كَانَ حَذَاؤُهَا ضَيْقًا عَلَى أَصَابِعِ قَدَمَيْهَا وَشَتْرَتْهَا خَفِيفَةٌ لِدَرَجَةٍ أَنْ الرِّيحُ تَخْلَلَتْهَا مَبَاشَرَةً... لَكِنْ (بِرَاقُوسٍ) تَمْتَدُّ أَمَامَهَا، وَهَوَاءُ اللَّيْلِ يَعْبُقُ بِرَوَانِحِ الذُّخَانِ وَالْمَلْحِ وَالْأَسْمَاكِ، وَالْقَنَوَاتِ مَلْتَوِيَةٍ وَالْأَزْقَةُ أَكْثَرُ التَّوَاءِ. رَمَقَهَا النَّاسُ بِفَضُولٍ وَهِيَ تَمْزُ وَنَادَاهَا الْأَطْفَالُ الْمَتَسَوِّلُونَ بِكَلِمَاتٍ لَمْ تَفْهَمَهَا، وَلَمْ يَمُضْ وَقْتُ طَوِيلٍ قَبْلَ أَنْ تَتَوَهَّ فِي الْمَدِينَةِ تَمَاقًا.

قَطَعَتْ جِسْرًا حَجْرِيًّا تَحْمِلُهُ أَرْبَعُ قَنَاطِرٍ، وَمِنْ مَنْتَصَفِهِ رَأَتْ صَوَارِي السُّفُنِ الزَّاسِيَةِ فِي (مِينَاءِ رَاجِمَانٍ)، وَبَيْنَمَا تَمْشِي تَرْتَمَّتْ: «السَّيْرُ جَرِيْجُورٍ، دَانْسَنُ، رَافُ الْمَعْسُولِ، السَّيْرُ إِلَيْنِ، السَّيْرُ مَرَيْنِ، الْمَلِكَةُ سَرَسِي». بَدَأَ الْمَطَرُ يَسْقُطُ، وَرَفَعَتْ أَرِيَا وَجْهَهَا لِتَغْسِلَهُ الْقَطَرَاتُ شَاعِرَةً بِسَعَادَةٍ بِالْغَةِ تَجْعَلُهَا تَرْغِبُ فِي الرِّقْصِ، وَأَضَافَتْ: «قَالَارُ مَوْرَجُولِسُ، قَالَارُ مَوْرَجُولِسُ، قَالَارُ مَوْرَجُولِسُ».

(61). الْمِيَاهُ الْفَسُوسُ هِيَ الْمِيَاهُ الْأَمْلَحُ مِنَ الْمِيَاهِ الْعَذْبَةِ وَالْأَعَذْبُ مِنَ الْمِيَاهِ الْمَالِحَةِ. (الْمُتَرْجِمُ).

إليني

تدفّق ضوء الشّمس المشرقة من الثّوافذ لتعتدل إليني جالسةً في فراشها وتتمطّط، وسمفتها جرتشل تترجّل فنهضت في الحال تُحضّر لها معطفها، إذ كان المسكن قد بردَ خلال اللّيل. وما إن يستبدّ بنا الشّتاء سيكون الطّقس أسوأ هنا. الشّتاء سيجعل هذا المكان باردًا كمقبرة. ارتدت إليني المعطف وربّطته حول خصرها قائلةً: «الثّار تكاد تنطفئ. ضعي المزيد من الحطب إذا سمحت».

قالت العجوز: «كما ترغب سيّدتي».

مسكنها في (برج العذراء) أوسع وأفخم من غرفة الثّوم الصّغيرة التي وُضعت فيها حين كانت الليدي لايسا حيّة، ولها الآن غرفة تبديل ملابس ومرحاض خاصّان بها، بالإضافة إلى شرفة من الحجر الأبيض المنحوت تطلّ على (الوادي). بينما تولّت جرتشل إذكاء الثّار قطعت إليني الغرفة حافية القدمين وخرجت إلى الشّرفة. كانت الأحجار باردةً تحت قدميها والريّح تعوي بشراسةٍ كما تفعل هنا دائمًا، لكن المنظر جعلها تنسى كلّ هذا برهةً. يقع (برج العذراء) في أقصى شرق أبراج (العش) الرّقيقة السّبعة، جاعلاً (الوادي) كلّهُ يمتدّ أمامها بغاباته ونهوره وحقوله المبهمة في ضوء الصّباح، وقد سقطت أشعة الشّمس على الجبال جاعلةً إياها تبدو كأنها من الذهب الخالص.

يا للجمال. من فوقها تلوح قمّة (زُمح العملاق) الملتحفة بالثلوج. يُقرّم الجبل الهائل بصخوره وجليده القلعة القابعة على منكبه، بينما تتدلى كتل من الجليد بطول عشرين قدمًا على شفا الجرف الذي تنهمر عليه (دموع أليسا) في الضّيف، وفوق الشّلال المتجمّد يُخلّق صقر بجناحين أزرقين مبسوطين عن آخرهما في سماء الصّباح. يا ليتني أملك جناحين أيضًا.

أراحت يديها على الحاجز الحجري وجعلت نفسها تُلقَى نظرةً من فوق الحافة، فرأت تحتها بسُتْمَةٌ قديم القلعة الفرعية (سواء) والدرجات الحجرية المنحوتة في جسم الجبل، الطريق الملتف الذي يمرُّ بـ(ثلج) و(حجر) نازلًا إلى أرض الوادي، ورأت أيضًا أبراج وحصون (بوابات القمر) صغيرة كُعب الأطفال، وقد بدأ رجال لوردات البيان حول أسوارها يتحرّكون خارجين من خيامهم كمن يزحف من كتيبه. لو كانوا نملًا حقًا لدهسناهم وسحقناهم.

قبل يومين انضمّ اللورد هنتر اليافع وجنوده إلى الآخرين. كان نستور رويس قد أغلق (بوابات القمر) أمامهم، لكن في حاميته أقلّ من ثلاثمئة رجل، في حين جلب كلّ من لوردات البيان السُتّة ألف رجل. تعرف إليني أسماءهم كما تعرف أسماء: بنيدار بلمور سيّد (الأغرودة)، وسایموند تميلتون فارس (الثجوم التاسع)، وهورتون ردفورت سيّد (ردفورت)، وآينا وأينوود سيّدة (السندية الحديدية)، وجيلوود هنتر سيّد (يهو القوس الطويل) الذي يلقّبه القاصي والذاني باللورد هنتر اليافع، بالإضافة إلى يون رويس، أقواهم جميعًا، يون البرونزي المهيّب سيّد (رونستون)، ابن عمومة نستور وزعيم الفرع الأعلى من عائلة رويس. اجتمع سِتُّهم في (رونستون) بعد سقطة الليدي لايسا، وهناك تعاقدوا معًا وتعهدوا أن يدافعوا عن اللورد روبرت و(الوادي) وبعضهم بعضًا. لم يذكّر بيانهم اللورد الحافظ، وإن ورد فيه كلام عن «سوء الحكم» الذي يجب أن يوضع له حدّ و«الأصدقاء الزائفين والمستشارين الأشرار» أيضًا.

هبت الريح الباردة ضاربة ساقها، فدخلت لتختار فستانًا
تتناول إقطارها فيه. كان بيتر قد أعطاها ملابس زوجته
الزاحلة، ثروة من الحرير والشاتان والمخمل والفراء أفخر من أي
شيء حلقت به، وإن كان الشواد الأعظم منها كبير المقاس عليها
للغاية، إذ امتلأ جسد الليدي لايسا كثيرًا خلال سلسلة الحمل
والإملاص والإجهاض الطويلة التي مرّت بها. على أن بعضًا من
الفساتين القديمة كان مفضلًا للشابة لايسا ثلي سليلة (ريقرزن)،
وثقة فساتين أخرى استطاعت جرتشل تعديلها لئناسب مقاس
إليني، التي تكاد ساقاها في سنّ الثالثة عشرة تبلغان طول
ساقَي خالتها لما كانت في العشرين.

هذا الصباح لفت نظرها فستان مبرقش بأحمر وأزرق عائلة
ثلي ومبطن بفرو السناجب، وساعدتها جرتشل على دش ذراعيها
في الكفين الواسعين وعقدت الأربطة على ظهرها، ثم مشطت
شعرها وثبتته بالذبابيس. ليلة البارحة قبل ذهابها إلى النوم
صبغته إليني بلون داكن ثانية، وكانت الصبغة التي أعطتها
خالتها إياها قد بدلت لون شعرها الكستنائي الفني بلون شعر
إليني البني المحروق، لكن نادرًا ما يطول الوقت قبل أن يعاود
الأحمر الزحف على جذوره من جديد. وماذا أفعل حين تنفد
الصبغة؟ لقد جليت من (تايروش) وراء (البحر الضيق).

في طريقها إلى أسفل لتناول الفطور عادت الدهشة تُصيب
إليني من سكون (الغش)، التي لا توجد قلعة أكثر هدوءًا منها
في (الممالك الشيع) كلها. الخدم هنا قليلون ومسئون ويتكلمون
بأصوات خفيفة كي لا يُزعجوا اللورد الصغير، وليست هناك
خيول على الجبل أو كلاب صيد تنبح وتُرمجر أو قُرسان
يتمزنون في الشاحنة، وحتى وقع أقدام الخُراس يبدو مكتومًا
وهم يقطعون الأروقة الحجرية الشاحنة. تسمع إليني الزيح تنث
وتتنهد حول البرج، لكن هذا كل شيء. في بداية مجيئها إلى
(الغش) كانت تسمع خرير (دموع أليسا) أيضًا، إلا أن الشلال
تجمد، وقالت جرتشل إنه سيبقى صامدًا حتى الزبيع.

وجدت اللورد روبرت وحده في (قاعة الضباح)، يدفع ملعقة
خشبية بفتور في وعاء كبير من الثريد والعسل، وحين رآها قال
متبرّها: «أردت أن أكل البيض، أردت ثلاث بيضات مسلوقة
ولحماً مقذًا».

ليس عندهم بيض أو لحم مقذد. حاليًا تحوي صوامع الغلال
في (الغش) من الشوفان والذرة والشعير ما يكفي لإطعامهم
عاقًا، لكنهم يعتمدون على الفتاة الثغلة المسقاة ميا ستون في
إحضار الأغذية الطازجة من الوادي بالأسفل، والآن مع عسكرة
لوردات البيان عند سفح الجبل فلا سبيل لميا للمرور. كان اللورد
بلمور -أول من وصل إلى (بوابات القمر) من السئة- قد أرسل
غداً إلى الإصبع الصغير قائلاً في رسالته إن لا مزيد من
الطعام سيصعد إلى (الغش) ما لم يُرسل إليه اللورد روبرت. إنه
ليس حصارًا بعد، لكنه أقرب شيء إليه.

وعدت إليني اللورد الصغير قائلة: «يُمكنك أن تأكل كل ما
ثريده من بيض حين تأتي ميا. ستجلب بيضًا وزبدة وشفاها
وكل الأصناف الشهية».

قال الضبي دون أن يبدو عليه الرضا: «أردت بيضًا اليوم!».

ردّت: «ليس هناك بيض يا غصفوري الجميل، تعلم هذا. أرجوك، كل ثريدك، إنه لذيذ للغاية»، وأكلت ملعقةً منه. عاد روبرت يدفع المعلقة في الوعاء لكنه لم يرفعها إلى فمه، وأخيرًا قال: «لست جائعًا. أريد العودة إلى الفراش. لم أنم ليلة أمس. سمعت غناء! المايستر كولمون سقاني نبيذ الثوم لكنني ظلت أسمع».

وضعت إليني ملعقتها قائلة: «لو كان هناك غناء لسمعته أيضًا. لقد رأيت خلقًا سيئًا لا أكثر».

قال وقد اغرورقت عيناه بالدموع: «لا، لم يكن خلقًا. ماريليون كان يغني ثانية. أبوك يقول إنه مات لكنه لم يمت». - «بل مات». أرعبها أن تسمعه يتكلم هكذا. سيئ كفاية أنه ضئيل سقيم. ماذا لو كان مجنونًا أيضًا؟ «إنه ميت يا غصفوري الجميل. ماريليون أحب السيدة والدتك كثيرًا ولم يستطع الحياة بعد ما فعله بها، فخطا إلى السماء». لم تز إليني الجثة كما لم يزها روبرت، لكنها لا تشك في حقيقة موت المغني. «لقد مات، حقًا».

- «لكنني أسمع كل ليلة، حتى حين أغلق الثوافذ وأضع وسادة على رأسي. كان على أبيك أن يقطع لسانه. قلت له أن يقطعه لكنه رفض».

كان في حاجة إلى لسان ليعترف. ناشدته إليني قائلة: «كن صبيًا مهذبًا وكل ثريدك. أرجوك، لأجل خاطري».

صاح روبرت: «لا أريد الثريد»، وطوح بملعقته عبر القاعة لترتطم بمعلقة وترتد عنها تاركة لطخة من الثريد على قمر من الحرير الأبيض. «اللورد يريد بيضًا!».

قال صوت بيتر من ورائهما: «اللورد سيأكل الثريد ويكون شاكزًا».

التفتت إليني ورأته في المدخل المقنطر وإلى جواره
المايستر كولمون، الذي قال: «عليك أن تُصغي إلى حضرة اللورد
الحافظ يا سيّدي. اللوردات حقلة رايتك يصعدون الجبل
ليُقَدِّموا لك فروض الولاء، وستحتاج إلى كامل قوّتك».
فرك روبرت عينه اليسرى بمفصل إصبعه، وقال: «اصرفوهم.
لا أريدهم. إذا أتوا سأجعلهم يطiron».
قال بيتر: «إنك تُغريني بأن أفعل ذلك للغاية يا سيّدي، لكنني
أخشى أنني وعدتهم بالأمان، وعلى كلّ حال فات أوان أن يعودوا
أدراجهم. لا بُدّ أنهم بلغوا (حجر) بالفعل».
ولوّت إليني: «لماذا لا يدعوننا وشأننا؟ إننا لم نمشهم بسوء
قَط. ماذا يريدون منا؟».
أجاب بيتر مبتسمًا: «اللورد روبرت فقط، هو و(الوادي).
سيكونون ثمانية. اللورد نستور يقودهم إلى هنا، ولين كوربراي
معه. السير لين ليس بالزجل الذي يعزف عن الحضور إذا كانت
إراقة الدماء وشيكة».

لم يُفلح كلامه في تهدئة مخاوفها. لقد قتلَ لين كوربراي رجالًا في الثالِ في عدد من قتلَ في المعارك، وتعلم أنه ظفر بفُروسيتته في أثناء ثورة روبرت، إذ قاتلَ أولاً ضد اللورد جون آرن على أبواب (بلدة الثوارس)، ولاحقًا تحت رايته في معركة (الثالوث)، حيث قتلَ الأمير ليوين الدورني الذي كان فارسًا أبيض في الحرس الملكي. قال بيتر إن الأمير ليوين كان متخفيًا بالجراح بالفعل حين جرفه تيار المعركة إلى رقصته الأخيرة مع سيف السير لين المسقى (سيدة البؤس)، لكنه أضاف: «إلا أن تلك ليست نقطةً ثريدين إثارتهَا مع كوربراي، فَمَن يفعلون سرعان ما ينالون فرصة سؤال مارتل نفسه عن الحقيقة في دركات الجحيم». إذا كان نصف ما سمعته من حرس اللورد روبرت صحيحًا فلين كوربراي أخطر من سئة لوردات البيان مجتمعين. سألت بيتر: «لماذا سيأتي؟ حسب آل كوربراي يُؤيدونك».

- «لايونل كوربراي مَيال جدًا إلى حُكمي، لكن أخاه يَسلك سبيله الخاص. في معركة (الثالوث)، عندما سقط أبوهما جريحًا كان لين هو من التقطَ (سيدة البؤس) وقتلَ الرّجل الذي أصابه، وبينما حملَ لايونل الأب العجوز إلى المايسترات في المؤخرة قادَ لين هجمةً ضد الدورنيين الذين يَهْذون ميسرة روبرت وحظّم صفوفهم وفتك بليوين مارتل، ولذا أسبغَ اللورد كوربراي الشّيف على ابنه الأصغر لدى موته. لايونل نالَ أراضٍ أبيه ولقبه وقلعته وماله كلّهُ، ومع ذلك ما زالَ يَشعر بأنه سلبَ حقّ ميلاده. أمّا السير لين... إنه يحبّ لايونل بقدر ما يحبني. لقد أرادَ يد لايسا لنفسه».

قال روبرت بعناد: «لا أحبّ السير لين ولا أريده هنا. اجعله يعود. لم أقل إنه يستطيع المجيء، ليس هنا. أمي قالت إن (الغش) منيعة».

قال بيتر: «أملك مائت يا سيدي، وحتى يوم ميلادك السادس عشر أنا حاكم (الغش)»، والتفت إلى الخادمة محنية الظهر التي تحوم قرب سلالم المطبخ، وخاطبها قائلاً: «ميلا، أحضري ملعقة أخرى لحضرة اللورد. إنه يريد أن يأكل ثريده».

- «لا أريده! أريد أن يطير الثريد!». هذه المرة طوح بالوعاء بما فيه من ثريد وعسل، ليتفاداه بيتر بايلش برشاقة وسرعة لا يتمتع بهما المايستر كولمون، فأصابه الوعاء الخشبي في صدره مباشرة وتفجرت محتوياته إلى أعلى على وجهه وكففيه. ولول الرجل على نحو لا يليق بـمايستر على الإطلاق، في حين التفثت إليني تهذي اللورد الصغير، ولكن متأخراً جداً. لقد أصابته الثوبة بالفعل، وطار إبريق من الحليب إذ ضربته يده، ولما حاول أن ينهض أوقع كرسيه إلى الوراء وسقط فوقه، وأصابته ساقه إليني في بطنها بقوة أفرغت الهواء من صدرها، وسمعت بيتر يقول بامتعاض: «أوه، بحق الآلهة».

لوثت كتل الثريد وجه المايستر كولمون وشعره إذ ركع فوق عهدته متمتماً بكلمات مهذنة، وزحفت واحدة منها على خذه الأيسر كدمعة بنية رمادية ثقيلة. فكرت إليني محاولة أن تكون متفائلة: ليست الثوبة سيئة كالمرّة السابقة. لدى انتهاء الرجفة كان حارسان في معطفين بزرقة السماء وقميصين معدنيين فضيين قد أتيا على إثر استدعاء بيتر، وقال لهما اللورد الحافظ: «خُذاه إلى الفراش ليغلق له الغلق»، فحمل أطولهما قامة الضبي بين ذراعيه، وقالت إليني لنفسها: أستطيع أن أحمله بنفسي. إنه ليس أثقل من نومة.

مكث كولمون لحظة قبل أن يتبعهما، وقال: «سيدي، ربما الأفضل أن تؤجل هذه المفاوضات إلى يوم آخر. لقد ساءت نوبات حضرة اللورد منذ موت الليدي لايسا، صارت أكثر تكراراً وأكثر غنقا. إنني أعلق له الغلق متى أجرو، وأمزج له نبيذ الثوم وحليب الخشخاش لمساعدته على النوم، ولكن...».

قاطعه بيتر: «إنه ينام اثنتي عشرة ساعة في اليوم، وأحتاج إليه مستيقظًا بين الحين والآخر».

مّر المايستر أصابعه في شعره مسقطًا كتلاً من الثريد على الأرض، وقال: «الليدي لايسا اعتادت إرضاع حضرة اللورد متى أحتاج. المايستر إيبروز يقول بأن لبن الأم فيه الكثير من الخصائص الصحيّة».

- «أهذه مشورتك أيها المايستر؟ أن نجد مَرضعةً لسيد (الفش) وحامي (الوادي)؟ متى نفطمه إذن؟ يوم زفافه؟ هكذا ينتقل مباشرةً من حلمتي مَرضعته إلى حلمتي زوجته»، وجعلت ضحكة اللورد بيتر رأيَه في هذا جليًا قبل أن يُضيف: «لا، لا أظنّ. أقترح أن تجد وسيلةً أخرى. الضبي مولع بالحلويات، أليس كذلك؟».

- «الحلويات؟».

- «الحلويات. الكعك والفطير، المرثى والهلام، أقراص العسل. ربما رشّة من خلّو الكرى في حليبه، هل جرّبت هذا؟ رشّة صغيرة لتهدئته وإيقاف تلك الرّجفة اللّعيّنة».

رّد كولمون: «رشّة؟»، وتحركت تفاحة خلقه إلى أعلى وأسفل إذ ازدرد ريقه، ثم قال: «رشّة واحدة صغيرة... ربما، ربما. ليس الكثير، وليس في أوقات متقاربة، نعم، يُمكنني أن أجرب...».

قال اللورد بيتر: «رشّة قبل أن تأتي به للقاء اللوردات».

قال المايستر: «كما تأمر يا سيّدي»، وأسرع مغادرًا وسلسلته ترنّ بخفوتٍ مع كلّ خطوة.

سألّت إليني بعد خروجه: «هل تريد وعاءً من الثريد لإفطارك يا أبي؟».

رمقها بعينيّ الإصبع الضّغير قائلًا: «أكره الثريد. أفضل أن أفطر على قُبلة».

الابنة الحقيقية لا تأبى على أبيها قُبلةً، وهكذا ذهبت إليه
إليني وقبلته، مجرّد قُبلة سريعة جافّة على الخدّ تراجعت بعدها
بالسرعة نفسها.

قال الإصبع الصغير مبتسمًا بفمه ولكن ليس بعينيه: «يا لك
من... مطيعة. حسن، إن عندي واجبات أخرى لك بهذه المناسبة.
قولي للظاهي أن يَتَبَّلَ التَّبِيذَ الأحمر بالعسل والزُّبَيْب. سيكون
ضيوفنا بردانين ظمآنين بعد طول الضُّعُود. ستستقبلينهم لدى
وصولهم وثُقَدَمين لهم التَّبِيذ والخُبْز والجُبنة. ما نوع الجُبنة
المتبقّي عندنا؟».

- «البيضاء اللّاذعة والزُّرقاء العفنة».

- «البيضاء، والأفضل أن تُبَدِّلَ ثيابك أيضًا».

نظرت إليني إلى فُستانها بأزرقه الداكن وأحمره القاني الغني،
لوثي (ريقرزن)، وقالت: «أهو...».

- «إنه ثلي أكثر من اللازم! لن يسرّ لوردات البيان منظر ابنتي
الثغلة تتهادى مرتدية ثياب زوجتي الميتة. انتقي شيئًا آخر. هل
عليّ أن أذكرك بأن تتجنّبي الأزرق السماوي والقشدي؟».

- «لا». الأزرق السماوي والقشدي لونا عائلة آرن. «قلت إنهم
ثمانية... هل يون البرونزي أحدهم؟».

- «الوحيد الذي يهم».

قالت مذكرة إياه: «يون البرونزي يعرفني. لقد نزل ضيفًا في
(وينترفل) حين ذهب ابنه شمالًا للالتحاق بحرس الليل». كم
كانت متيعة بالسير وإيمار. ما زالت تذكّره بعض الشيء، لكن
ذلك كان منذ عُمر كامل، عندما كانت فتاة صغيرة حمقاء. «ولم
تكن تلك المرّة الوحيدة. اللورد رويس رأى... رأى سانزا ستارك
ثانية في (كينجز لاندنج) في أثناء دورة مباريات اليد».

وضع بيتر إصبغا تحت ذقنها قائلاً: «لا أشك في أن رويس رأى هذا الوجه الجميل، لكنه كان وجهًا واحدًا وسط ألف. ثمة أشياء يهتم بها الرجل الذي يُقاتل في دورة مباريات أكثر من طفلة ما في الزحام. وفي (وينترفيل) كانت سانزا فتاة صغيرة كستنائية الشعر، أما ابنتي فطويلة جميلة وشعرها بُني. الناس يرون ما يريدون أن يروه يا إليني»، وطبع قبلًا على أنفها مضيئًا: «قولي لمادي أن تُشعل نازًا في الغرفة الشمسية. سأستقبل لوردات البيان هناك».

- «ليس في (القاعة العالية)؟».

- «لا. حاشا للآلهة أن يروني قرب مقعد آل آرن العالي. قد يحسبونني أنتوي الجلوس عليه. المولود بفلقتي مؤخرًا وضيعتين مثلي يجب ألا يطمح إلى الجلوس على وسائد وثيرة كتلك أبدًا».

- «الغرفة الشمسية». كان عليها أن تتوقف عند هذا الحد، لكن الكلام تدفّق منها رغماً عنها: «إذا أعطيتهم روبرت...».

- «... و(الوادي)؟».

- «(الوادي) في أيديهم بالفعل».

- «أوه، أكثره، هذا صحيح، ولكن ليس كلّ. إنني محبوب في (بلدة الثوارس)، وعندي بعض الأصدقاء الأعيان كذلك. جرافتون، ليندرلي، لايونل كوربراي... ولو أنهم ليسوا أندادا للوردات البيان بالفعل. وأين تريدنا أن نذهب يا إليني؟ نعود إلى معقلي العظيم في (الأصابع)؟».

كانت قد فكّرت في هذا من قبل، فأجابت: «جوفري منكك (هارنهال). إنك سيّدها الشرعي».

- «اسفا. لقد احتجث إلى مقرّ عظيم لأتزوج لايسا، وآل لانستر ما كانوا ليمنحوني (كاسترلي روك)».

- «نعم، لكن القلعة لك».

- «آه، ويا لها من قلعة. قاعات فسيحة وأبراج متهتمة وأشباح وتيارات هواء عنيفة، تدفنتها عسيرة وإقامة حامية فيها مستحيلة... وهناك المسألة الصغيرة الخاصة باللعنة».

- «اللعنات لا توجد إلا في الأغاني والقصص فقط».

بدا أنه وجد رذها طريقًا إذ قال: «هل ألف أحد أغنية عن موت جريجور كليجاين بحرية مسمومة؟ أو عن المرتزق من قبله الذي قطع السير جريجور أطرافه مفصلًا مفصلًا؟ ذلك المرتزق أخذ القلعة من السير آموري لورك الذي تلقاها من اللورد تايوين. أحدهما قتله دب والثاني قتله قزمك. سمعت أن الليدي وونت ماثت أيضًا. آل لوئستون، آل سترونج، آل هارووي... (هارنهال) أودت بكل من مشها».

- «أعط اللورد فراي إياها إذن».

ضحك بيتر، وقال: «ربما أفعل، أو الأفضل أن أعطي عزيزتنا سرسي إياها، ولو أنه لا يجدر بي أن أتكلّم عنها بقسوة لأنها أرسلت إلي بضع معلقات رائعة. أليس هذا لطفاً منها؟».

جعلها ذكر اسم الملكة تتسقر وتقول: «سرسی ليست لطيفة. إنها تخيفني. إذا علقت مكاني...».

- «... فربما أضطر إلى إزاحتها من اللعبة في وقت أقرب مما خططت، هذا إذا لم ترح نفسها أولاً»، وداعبها بيتر بابتسامة متابعًا: «في لعبة العروش حتى أكثر البيادق تواضعًا يمكن أن تكون له إرادته الخاصة، وأحيانًا يرفض بعض البيادق أن يتحرك كما خططت له. احفظي هذا عن ظهر قلب يا إليني. إنه درس ما زال على سرسي لانستر أن تتعلمه. والآن أليست عليك واجبات تؤدّينها؟».

عليها واجبات بالفعل. أشرقت أولاً على تبيل الثبيذ، ووجدت قالباً مناسباً من الخبنة البيضاء اللاذعة، وأمزت الظاهي بخبز خبز يكفي عشرين فرداً تحشبتاً لأن يجلب لوردات البيان رجالاً أكثر من المتوقع. حالما يأكلون عيشنا وملحنا سيصبحون ضيوفنا ولن يمكنهم إيداءنا. آل فراي ضربوا بجميع قوانين الضيافة عرض الحائط عندما اغتالوا السيدة والدتها وأخاها في (الثوأميتين)، لكنها لا تُصدّق أن رجلاً نبيلًا كاللورد يون رويس بإمكانه أن ينحدر إلى اقتراف فعلٍ وضع كهذا.

بعد ذلك ذهبت إلى الغرفة الشمسية. الأرضية هناك مغطاة ببساط مايري، وليس هناك داعٍ إلى فرشها بالحصائر. طلبت إليني من اثنين من الخدم أن ينصبا الطاولة ويجلبا ثمانية من المقاعد الثقيلة المصنوعة من السنديان والجلد. في حال إقامة مأدبة كانت لتضع واحدًا عند رأس الطاولة وواحدًا عند قدمها وثلاثة على كل جانب، لكن هذه ليست مأدبة، ولذا جعلت الخادمين يرصّان سثة مقاعد على أحد الجانبين ومقعدين على الجانب الآخر. لا بدّ أن لوردات البيان بلغوا (تلج) الآن بالفعل. الضعود يستغرق أكثر اليوم حتى على ظهور البغال، وعلى الأقدام يستغرق عدّة أيام.

ربما ينهمك اللوردات في الحديث حتى ساعة متأخرة من الليل وسيحتاجون إلى شموع جديدة، ولذا بعد أن أشعلت مادي النار أرسلتها إليني لتجلب الشموع المعطرة التي أهداها اللورد واكسلي إلى الليدي لايسا حين سعى إلى الفوز بيدها، ثم إنها عادت إلى المطبخ لتتأكد من أن الثبيذ والخبز جاهزان. بدا كل شيء على ما يرام، وما زال أمامها وقت لتستحم وتغسل شعرها وتبذل ثيابها.

ثقة فُستان من الحرير الأرجواني توقفت عنده لحظة، وآخر من المخمل الأزرق الداكن مشرط بالفضي من شأنه أن يوقظ كل ما في عينيها من ألوان، لكنها في النهاية تذكرت أن إليني رغم كل شيء نغلة ويجب ألا تتجراً وترتدي شيئاً يفوق مقامها. هكذا انتقت فُستاناً من صوف الجملان لونه بلّي داكن وتفصيلته بسيطة، على صدره وكفّيه وحاشيته أوراق شجر ونباتات معترشة مطرزة بخيط ذهبي. اختارته لأنه متواضع وملئم، وإن كان ليس أفخم كثيراً من فُستان ترتديه خادمة. كان بيتر قد أعطاها جميع خلي الليدي لايسا أيضاً، فجريت عدة قلادات لكنها بدت مبهرجة كلها، وفي آخر الأمر اختارت شريطاً بسيطاً من المخمل بلون الذهب الخفيفي، ولما جلبت لها جرتشل مرآة لايسا المفضضة بدا اللون مثاليًا مع شعر إليني البني القاتم. لن يتعرفني اللورد رويس أبداً. إنني بالكاد أتعرف نفسي. شاعرة بجراة ثداني جراءة بيتر بايلس، رسقت إليني ستون ابتسامتها على شفتيها ونزلت تستقبل الضيوف.

(الغش) القلعة الوحيدة في (الممالك السبع) التي يقع مدخلها الرئيس تحت الأنارين. على جانب الجبل ترتفع الشلال الحجري المنحدرة متجاوزة القلعتين الفرعيتين (حجر) و(ثلج)، لكنها تنتهي عند شقيقتيها (سماء)، أما الأقدام السثمانة المتبقية من رحلة الضعود فعمودية تُجبر الزائرين على الترحل عن بغالهم والاختيار، فإما أن يركبوا السلّة الخشبية المتأرجحة التي تُستخدم لرفع المؤن، وإما أن يتسلقوا مدخنة صخرية مستخدمين دعائم منحوتة في الصخر.

اختار اللورد ردفورت والليدي واينوود -أكبر لوردات البيان سيئا- أن تسحبهم الزافعة إلى أعلى، وبعدها أنزلت السلة ثانية للورد بلمور الشمين، في حين تسلق اللوردات الآخرون المدخنة. استقبلتهم إليني في (قاعة الهلال) إلى جوار مستوقد نار، حيث رُحبت بهم باسم اللورد روبرت وقُدّمت لهم الخبز والجبنّة ونبِيذاً متبّلاً ساخناً في كؤوس فضيّة.

كان بيتر قد أعطاهم لفافة من رموز الثبالة تدرسها لتتعرفهم من رموزهم إن لم يكن من وجوههم. القلعة الحمراء لردفورت بالطبع، وهو رجل قصير القامة له لحية شائبة مشدّبة وعينان وديعتان. الليدي آنيا المرأة الوحيدة بين لوردات البيان، وقد ارتدت معطفاً أخضر داكناً عليه العجلة المكسورة رمز عائلة واينوود مطرّزة بالكهرمان الأسود. الأجراس الفضيّة السئة على المعطف الأرجواني هي رمز بلمور ذي البطن الكبير والكثفين المستديرتين واللّحية الحمراء الضّاربة إلى الزّمادي، لحية شنيعة نابطة من ذقنه المترهّل. على العكس منه لحية سايموند تميلتون سوداء مدبّية تماماً، وقد جعل الأنف المعقوف والعينان الزّرقاوان الباردتان كالثلج فارس (الثّجوم الثّسع) يبدو كطائر كاسر أنيق، خصوصاً مع شترته القصيرة بنجماتها السوداء الثّسع المرسومة على صليب ذهبي مائل. حيّرها معطف اللورد هنتر اليافع المصنوع من فرو القاقوم إلى أن لمحت الذّبّوس الذي يُثبّته مثخداً شكل خمسة سهام فضيّة منشورة كالمروحة. قدّرت إليني أن يسئه أقرب إلى الخمسين من الأربعين. كان أبوه قد حكم في (بهو القوس الطويل) فترةً تقرب من سئين عاماً، فقط ليموت على نحوٍ مباغت للغاية، حتى إن بعضهم قال هامساً إن اللورد الجديد استعجل الحصول على إرثه. لهنتر وجنتان وأنف بلون الثّقاح الأحمر، وهو ما يشي بولع معين بالعنب، ولذا حرصت على إعادة ملء كأسه ما إن يفرغها.

أصغر رجل في المجموعة على صدره ثلاثة غُدفان كلُّ منها يقبض على قلب أحمر دام ببرائته، ويبلغ شعره البني كتفيه بينما تتجعد خُصلة نافرة منه على جبهته. بنظرة حذرة إلى فمه القاسي وعينيهِ الضَّجرتين قالت إليني لنفسها: السير لين كوربراي.

آخرهم ابنا عائلة رويس، اللورد نستور ويون البرونزي. يُعادل سيّد (رونستون) كلب الضيد طولًا، وعلى الرغم من شيب شعره وتجاعيد وجهه فلم يزل اللورد يون يبدو قادرًا على كسر رجال أصغر منه سنًا كفضينات الشجر بهاتين اليدين الضَّخمتين الخشتيتين. أعادَ وجهه الضَّارم المتفُضن إلى سائرنا جميع ذكرياتها عنه في (وينترفل)، وتذكّرتَه جالسًا إلى المائدة يتكلّم بهدوءٍ مع أمّها، وسمعت صوته الجهوري يتردّد على الأسوار إذ عادَ من الضيد بظبي وراءه على حصانه، ورأته في الشاحة وفي يده سيف تدريب يهوي به على أبيها بلا كللٍ حتى أسقطه ثم يلتفت ليهزم السير رودريك أيضًا. سيتعرّفني، وكيف لا؟ خطر لها أن تُلقي نفسها عند قدميه وتتوسّل حمايته، لكنها أحجفت قائلةً لنفسها: إنه لم يُقاتل من أجل روب، فلم يُقاتل من أجلي؟ الحرب انتهت و(وينترفل) سقطت. سأأته بخفر: «لورد رويس، هل تشرب كأسًا من النّبيذ تُدقّنك من البرد؟».

ليون البرونزي عيان رماديتان كصخر الأردواز، شبه متواريتين تحت أكتف حاجبين رأتهما على الإطلاق، وقد انعقدتا حين نظَرَ إليها من أعلى متسائلًا: «هل أعرفك يا فتاة؟». أحسّت إليني كأنها ابتلعت لسانها، لكن اللورد نستور أنقذها برّده على ابن عمومته بلهجته الفظة: «إليني ابنة اللورد الحافظ الطّبيعيّة».

قال لين كوربراي بابتسامة خبيثة: «يبدو أن إصبع الإصبع الضّغير الضّغير كان مشغولًا»، فضحك بلمور وأحسّت إليني بوجنتيها تتخضبان بالخمرة.

سألتها الليدي واينوود: «كم سنُك أيتها الصغيرة؟».

- «أربع... أربع عشرة سنة يا سيّدتى». للحظة نسيت سنّ
إليني المفتّضة. «ولست صغيرة. إننى فتاة مزهرة».
قال اللورد هنتر اليافع وقد أخفى شاربه الكثّ فمه تمامًا:
«لكن أحدًا لم يقطف زهرتك كما أمل».

قال لين كوربراي كأنها ليست موجودة: «ليس بعد، لكنى أرى
أنها ناضجة جاهزة للقطف قريبًا».

- «أهذا ما يعدّ كياسةً في (بيت القلوب)؟». لأنيا واينوود
شعر يزحف عليه الشيب وتجاعيد حول عينيها وجلد رخو تحت
ذقنها، لكن لا مجال لإخطاء طابع الثبل فيها. «الفتاة صغيرة
وطيبة النّسب وعانت ما يكفي من أهوال. احفظ لسانك أيها
الفارس».

ردّ كوربراي: «لساني يخضني وحدي، وعلى حضرة الليدي أن
تحرص على حفظ لسانها هي. إننى لم أعدّ التّعامل مع الثّوبيخ
بلطفٍ قطّ، كما سيؤكّد لك عدد كبير من الموتى».

التفتت الليدي واينوود عنه، وقالت: «الأفضل أن تأخذينا إلى
أبيك يا إليني. كلّما عجلنا بالفروغ من هذا كان أفضل».

- «حضرة اللورد الحافظ ينتظركم في الغرفة الشمسيّة. أرجو
أن تتفضّلوا وتتبعونى». من (قاعة الهلال) قادتهم صاعدةً
السّلام الرّخام العالية التي تتجاوز الأقبية والرّنازين وتمرّ تحت
ثلاث فتحات دفاعٍ تظاهر لوردات البيان بأنهم لا يرونها،
وسرعان ما بدأ بلمور ينفخ ككير الحدّاد، واصطبغ وجهه ردفورت
بالزّمادي كشعره. رفع الخزّاس على قفّة السّلام الشبكة
الحديدية لدى وصولهم، وقالت إليني للضيوف: «تفضّلوا من هنا
أيها السّادة»، وقادتهم عبر الرّواق المقنطر مروزا بدستة من
المعلّقات البديعة، وكان السير لوتور برون واقفًا خارج الغرفة
الشمسيّة، ففتح لهم الباب ثم تبغهم إلى الدّاخل.

كان بيتر جالسًا إلى الطاولة وقرب يده كأس نبيذ، يقرأ رَقًا أبيض مجفدًا، وإذ دخل لوردات البيان رفع عينيه قائلاً: «مرحبًا بكم أيها السادة، وبك أيضًا يا سيّدتَي. أعرف أن الضُعود كان متعبًا. تفضّلوا بالجلوس. إليني يا خلوتي، المزيد من النبيذ لضيوفنا الثّباء».

- «كما تقول يا أبي». سرّها أن ترى الشّموع مضاءً وتشمّ في هواء الغرفة رائحة جوز الطيب وغيره من الثوابل الثّفيسة. ذهبت تحضر الإبريق فيما رثب الزائرون أنفسهم جنبًا إلى جنب على المقاعد... كلهم باستثناء نستور رويس الذي تردّد قبل أن يدور حول الطاولة ليأخذ المقعد الشّاغر إلى جوار اللورد بيتر، ولين كوربراي الذي وقف إلى جوار المستوقّد، لتلتمع الياقوتة ذات شكل القلب في قبيلة سيفه بالأحمر إذ دقًا يديه فوق الثّار. رآته إليني يبتسم للسير لوثور برون، ففكرت: السير لين وسيم للغاية بالنسبة إلى رجلٍ أكبر سنًا، لكن ابتسامته لا تُعجبني. استهلّ بيتر الكلام قائلاً: «كنت أقرأ بيانكم المهمّ هذا. مدهش. المايستر الذي كتبه أيّا كان يتمتّع بفصاحة بالغة. ليتكم فقط دعوتهموني لأوقّعه أيضًا».

باغثهم قوله، ورّد بلمور: «أنت؟ ثوّع؟».

- «أستطيع الكتابة بالريشة كأَيٍّ أحد، ولا إنسان يحب اللورد روبرت أكثر مني. وبالنسبة إلى هؤلاء الأصدقاء الرّائفين والمستشارين الأشرار فهيا بنا نستأصلهم مهما كلف الأمر. إنني معكم قلبًا وقالبا أيها السادة. أروني أين أوقّع أرجوكم».

بينما تصبّ إليني النبيذ سمعت لين كوربراي يقهقه، في حين بدا الآخرون حائرين، إلى أن فرقّع يون رويس البرونزي مفاصل أصابعه، وقال: «لم نأت من أجل توقيعك، ولا ننوي أن نتراشق معك الكلام أيها الإصبع الضّغير».

- «مؤسف. إنني أحب الكلام المتراشق»، وأزاح بيتر الرُّق قائلاً: «كما ترغبون، لنتكلم بلا موازنة. ماذا تريدون مني أيها الشّادة والسّيّدة؟».

ثبّت سايموند تميلتون نظرتة الرُّقاء الباردة على اللورد الحافظ مجيئاً: «لا تُريد منك شيئاً، تُريدك أن ترحل». تساءل بيتر متظاهراً بالذهشة: «أرحل؟ إلى أين؟». قال اللورد هنتر اليافع: «الثّاج نصّبك سيّداً على (هارنهاب). المفترض أن يكفي أيّ رجل بهذا».

وأضاف اللورد هورتون ردفورت العجوز: «أراضي النّهر في حاجة إلى حاكم. (ريقرن) محاضرة، وآل براكن وآل بلاكوود في حرب مفتوحة، والخارجون عن القانون يجولون على جانبي (الثّالوث) بحريّة مطلقة، يسرقون ويقتلون كما يشاؤون. الجثث غير المدفونة تفترش أرض الرّيف أينما ذهب المرء».

أجاب بيتر: «تجعل الأمر يبدو جذاباً للغاية يا لورد ردفورت، لكن الحقيقة أن عليّ واجبات ملحة هنا. ويجب وضع اللورد روبرت في الاعتبار أيضاً. هل تريدونني أن أجزّ طفلاً سقيماً معي في غمار تلك الفوضى؟».

أعلن رون رويس: «حضرة اللورد سيبقي في (الوادي). إنني أنوي أن أخذه معي إلى (رونستون) وأرّبيه لكي يصير فارساً كان چون آرّن ليفخر به».

سأل بيتر متأملاً: «ولم (رونستون)؟ لم ليس (السّنديانة الحديدية) أو قلعة (ردفورت) أو (بهو القوس الطويل)؟».

قال اللورد بلمور بحزم: «أيّ مكان من هذه يصلح، وفي الوقت المناسب سيزور حضرة اللورد كلّاً منها». بنبرة تشي بالشك قال بيتر: «حقاً؟».

تنهّدت الليدي واينوود، وقالت: «لورد بيتر، إذا كنت ترمي إلى إحداث الواقعة بيننا فوفّر على نفسك الجهد. إننا نتكلّم بصوت واحد، و(رونستون) ثنائينا جميعًا. اللورد يون ربّي ثلاثة أبناء صالحين، وليس هناك من هو أنسب منه لتربية حضرة اللورد الصغير، ثم إن المايستر هليويج أكبر سنًا وأكثر خبرةً بكثير من مايسترك كولمون وأقدر على علاج ضعف اللورد روبرت. في (رونستون) سيتعلّم الضّبي فنون الحرب من سام ستون القوي، ولا أحد يأمل أن يكون معلّم سلاحه رجلًا أفضل، وسيُرشده السّبتون لوكوس في أمور الرّوح. وفي (رونستون) سيجد أيضًا صبيّة آخرين من سنّه، رفاقًا أنسب له من المسنّات والمرتزقة الذين يُحيطون به الآن».

داعت بيتر بايلش لحيته بأصابه قائلاً: «حضرة اللورد في حاجة إلى رفاق، لا أخالفكم في هذا، لكن إليني ليست مسئلة. اللورد روبرت مغرم بابنتي وسيسرّه أن يُخبركم بهذا بنفسه. وبهذه المناسبة، حدث أن طلبت من اللورد جرافتون واللورد ليندرلي أن يرسل كلّ منهما إليّ ابناً يكون ربيبي. كلاهما له ابن في سنّ روبرت».

قال لين كوربراي ضاحكًا: «جروان ابنا كلبين خانعين».

- «يجب أن يكون هناك فتى أكبر في رفقة روبرت أيضًا، مرافق شاب واعد مثلاً، شخص يُعجب به ويُحاول أن يحتذي مثاله»، والتفت بيتر إلى الليدي واينوود مخاطبًا إياها: «إن عندك فتى كهذا في (السّنديانة الحديدية) يا سيّدي. ربما ثواقفين على أن تُرسلي إليّ هارولد هاردينج».

ردّت أنيا واينوود وقد وجّدت قوله طريقًا: «لورد بيتر، أنت أجراء يرضى التقية على الإطلاق».

- «لست أرغب في سرقة الفتى، لكن ينبغي أن يكون هو واللورد روبرت صديقين».

مال يون رويس البرونزي إلى الأمام قائلاً: «ملائم تمامًا أن يُصادق اللورد روبرت الفتى هاري، وسيفعل... في (رونستون) تحت رعايتي، باعتباره ربيبي ومُرافقِي».

وقال اللورد بلمور: «أعطينا الصُبي ولك أن ترحل من (الغش) دون أن يعترض طريقك أحد إلى مقرّك اللائق في (هارنهال)».

رمقه بيتر بنظرة تأنيب خفيف، وقال: «هل تُلَمِّح إلى أن أذى سيمشني في حال عدم حدوث ذلك يا سيّدي؟ لا أستطيع التّفكير في سبب. زوجتي الرّاحلة ارتأت أن هذا مقرّي اللائق».

قالت الليدي واينوود: «لورد بايلش، لايسا ثلي كانت زوجة جون آرن وأم ابنه، وحكمت هنا باعتبارها الوصيّة عليه، أمّا أنت... لنكن ضرحاء، أنت لست من آل آرن واللورد روبرت ليس من دمك. بأيّ حقّ تُحاول أن تُحكّمنا؟».

- «لايسا سمّنتي اللورد الحافظ على ما أذكّر».

قال اللورد هنتر اليافع: «لايسا ثلي لم تكن ابنة (الوادي) حقًا، ولم يكن لها الحقّ في إدارة شؤوننا».

- «واللورد روبرت؟ هل سيّزغم حضرة اللورد أيضًا أن الليدي لايسا لم يكن لها الحقّ في إدارة شؤون ابنها؟».

ظَلّ نستور رويس صامئًا طوال الوقت، لكنه رفع صوته الآن قائلاً: «لقد أملتُ أن أتزوَّج الليدي لايسا من قبل عن نفسي، كما كان يأمل أبو اللورد هنتر وابن الليدي أنيا، وكوربراي برح جانبها بالكاد طيلة نصف عام. لو اختارت أيّا منا لما جادل أحد هنا في حقّه في أن يكون اللورد الحافظ... لكنها اختارت اللورد الإصبع الضّغير وعهدت إليه برعاية ولدها».

قال يون البرونزي عابسًا في وجه ولي (بؤابات القمص): «إنه ولد جون آرن أيضًا يا ابن العم، ومكانه في (الوادي)».

تظاهر بيتر بالذهشة قائلاً: «(الغش) جزء من (الوادي) تمامًا كـ(رونستون)، ما لم يكن أحدهم قد نقلها».

رَدَّ اللورد بلمور مغضبًا: «امزح كما تُريد أيها الإصبع الضَّغير.
الضُّبي سيأتي معنا».

- «أكره أن أخيب أملككم يا لورد بلمور، لكن ابن زوجتي
سيبقى هنا معي. إنه ليس طفلًا قويًا كما تعلمون جميعًا،
والزَّحلة ستنهكه لأقصى درجة. بصفتي زوج أمّه واللورد
الحافظ لا أستطيع أن أسمح بذلك».

تنحنخ سايموند تميلتون، وقال: «كُلُّ منا معه ألف رجل عند
سفح الجبل أيها الإصبع الضَّغير».

- «مكان رائع لهم».

- «ويمكننا استدعاء المزيد إذا دعت الحاجة».

سأله بيتر دون أن يلوح في نبرته أدنى خوف: «هل تُهدِّدني
بالحرب أيها الفارس؟».

قال يون البرونزي: «سنأخذ اللورد روبرت».

بدأ أنهم بلغوا طريقًا مسدودًا، إلى أن التفت لين كوربراي عن
النار قائلاً: «كُلُّ هذا الكلام يُصيبني بالفعل. الإصبع الضَّغير
سيقنِّعكم بخلع ثيابكم الداخلية إذا أصفيتم له كفاية. الطريقة
الوحيدة للتعامل مع أمثاله الفولاذ»، واستلَّ سيفه الطويل.

بسط بيتر يديه قائلاً: «لست أحمل سيفًا أيها الفارس».

تموَّج ضوء الشموع على الفولاذ الرَّمادي كالذَّخان، الذَّاكن
لدرجة ذكَّرت سائرًا بسيف أبيها العظيم (جليد)، ورَدَّ كوربراي:
«مشكلة سهلة العلاج. رجلك آكل الثُّقَّاح يحمل سيفًا. قُلْ له أن
يُعطيك إياه أو اسحب هذا الخنجر».

رأت لوثور برون يمدُّ يده إلى سيفه، لكن قبل أن يتقارع
الثَّصلان نهض يون رويس البرونزي قائلاً بحنق: «ضع سيفك
في غمده أيها الفارس! أنت كوربراي أم فراي؟ نحن ضيوف
هنا».

وزمَّت الليدي واينوود شفيتها قائلة: «هذا لا يليق».

ورّد اللورد هنتر اليافع: «أغمد سيفك يا كوربراي. إنك تُخزينا جميعًا بتصرفك هذا».

وقال اللورد ردفورت موبّخًا بنبرة الطف: «هلمّ يا لين، لن يُفيدك هذا إطلاقًا. ضَع (سَيِّدة اليُوس) في غَمدها».

رَدّ السير لين بعناد: «سَيِّدتي ظمأى. كلُّما خرجت ترقُص رغبت في قطرة من الأحمر».

وضع يون البرونزي نفسه في طريق كوربراي مباشرة قائلاً: «فلتظلّ سيِّدتك ظمأى».

أطلق لين كوربراي نحيْزًا ساخرًا، وقال: «لوردات البيان. كان حربًا بكم أن تُسمّوا أنفسكم المسنَّات السّت»، وعادَ يدشّ الشيف القاتم في غمده وتركهم مازًا بلوئور برون كأنه ليس موجودًا، وسمعت إليني وقع خُطواته يخفت.

تبادلت آنيا واينوود وهورتون ردفورت نظرةً، وأفرغَ هنتر كأسه في جوفه ورفعها لثملاً من جديد، بينما قال السير سايموند: «لورد بايلش، أرجو أن تغفر لنا هذا الابتذال».

قال الإصبع الصغير بنبرة زحف عليها البرود: «حقًا؟ لقد أتيتم به هنا أيها الشادة».

قال يون البرونزي: «لم تكن نيتنا قَطُّ أن...».

- «أنتم أتيتم به هنا! سيكون من حقّي تمامًا أن أستدعي حرسى وألقي القبض عليكم جميعًا».

هَبّ هنتر واقفًا بغنْفٍ كادَ يُسقط الإبريق من يد إليني، وقال: «لقد وعدتنا بالأمان!».

رَدَّ پيتر بنبرة غاضبة لم تسمعها في صوته من قبل إطلاقاً: «نعم. فلتمتثلوا لتحلي بالشرف أكثر من بعض الناس. لقد قرأت بيانكم وسمعت مطالبكم، والآن اسمعوا مطالبي. أبعدوا جيوشكم عن هذا الجبل، عودوا إلى دياركم واتزكوا ابني في سلام. كان هناك سوء حكم بالفعل ولن أنكر هذا، لكنه كان من صنع لايسا لا ضنعي. امنحوني عامًا واحدًا فقط، وبمساعدة اللورد نستور أعدكم بأن لا أحد منكم سيجد سببًا للشكوى».

قال بلمور: «هذا ما تقوله، لكن كيف نثق بك؟».

- «هل تجرؤ على القول بأنني لست أهلاً للثقة؟ لست أنا من جرد فولاذه في أثناء التفاوض. لقد كتبتم عن الدفاع عن اللورد روبرت بينما تأبون عليه الطعام. يجب أن ينتهي هذا. إنني لست مُحاربًا لكني سأقاتلكم إذا لم ترفعوا هذا الحصار. هناك لوردات غيركم في (الوادي)، وسثرسل (كينجز لاندنج) رجالًا أيضًا. إذا كانت الحرب ما تريدون فقولوا وسثراق الذماء في (الوادي)». رأت إليني زهور الشك تتفتح في أعين لوردات البيان، وقال اللورد ردفورت بتردد: «عام ليس وقتًا طويلًا. ربما... إذا أعطيتنا ضمانات...».

أيدته الليدي واينوود قائلة: «لا أحد منا يريد الحرب. الخريف يُشارف نهايته ولا بد أن نهيئ أنفسنا للشتاء».

تنحنح بلمور، وقال: «في نهاية هذا العام...».

- «... إذا لم أصحح الأوضاع في (الوادي) فسأتنحى عن

منصب اللورد الحافظ بإرادتي».

عقب نستور رويس: «أظن هذا عادلاً وأكثر».

وقال تميلتون بإصرار: «يجب ألا يكون هناك قصاص أو كلام

عن الخيانة أو التمرّد. عليك أن تقسم على هذا أيضًا».

قال بيتر: «يسعدني أن أفعل. إنني أرغب في الأصدقاء لا الأعداء. سأعفو عنكم جميعاً، كتابةً إذا أردتم، حتى لين كوربراي. أخوه رجل صالح، ولا داعي إلى تكليل عائلة نبيلة بالعار».

التفتت الليدي واينوود إلى رفاقها لوردات البيان قائلة: «هل نطرح الأمر للمشاورة أيها السادة؟».

قال يون البرونزي: «لا داعي. واضح أنه فاز»، وتفؤس في بيتر بايلش بعينيه الرماديتين مردفاً: «لا يروقني هذا، لكن يبدو أن لك العام الذي تطلبه. خير لك أن تحسن استغلاله يا سيدي، فليس من السهل خداعنا جميعاً»، وفتح الباب بقوة عاتية كادت تخلعه من مفاصله.

لاحقاً أقيم ما هو أشبه بالمأدبة، وإن اضطرَّ بيتر إلى الاعتذار إليهم بسبب الطعام المتواضع، وجيء بروبرت في شترة من القشدي والأزرق ولعب دور اللورد الصغير بتهذيب شديد، في حين تغيب يون البرونزي إذ رحل بالفعل من (الغش) ليبدأ رحلة الثرول الطويلة التي سبقه إليها السير لين كوربراي، وظلّ الباكون معهم حتى الضباح.

ليلتها بينما تمددت إليني في الفراش مصغيةً إلى غواء الريح في الخارج فكّرت: لقد سحرهم. لا تدري من أين أتى الارتياب الذي انتابها، لكن بمجرد أن جالّ ببالها حرمة الثوم، وراحت تتقلب وهو ينهشها كما ينهش الكلب عظمة، وأخيراً نهضت وارتدت ثيابها تاركة جرتشل لأحلامها.

كان بيتر لا يزال مستيقظاً يخط رسالة، ولما دخلت عليه سألتها: «إلين يا خلوتي، ماذا تفعلين هنا في هذه الساعة المتأخرة؟».

- «يجب أن أعرف. ما الذي سيحدث خلال عام؟».

وضع ريشته مجيئاً: «ردفورت وواينوود عجوزان، وربما يموت أحدهما أو كلاهما. جيلوود هنتر سيفتاله إخوته، غالباً هارلان الشاب الذي رثب موت اللورد إيون. كما أقول دائماً، إذا سرقت فاسرقي أياً. بلمور فاسد ويمكن شراؤه. تميلتون سأصايقه. أما يون رويس البرونزي فأخشى أنه سيظل معادياً، لكن ما دام وحده فلن يشكل تهديداً يُذكر».

- «والسير لين كوربراي؟».

تراقص ضوء الشموع في عينيه إذ أجاب: «السير لين سيبقى عدو اللدود، وسيتكلم عني بسخرية وازدراء مع كل من يلتقي ويشارك بسيفه في كل مؤامرة سرية للإطاحة بي».

هنا استحالت ربيتها إلى يقين، فقالت: «وكيف ستكافئه على خدمته؟».

أطلق الإصبع الصغير ضحكة عالية، وقال: «بالذهب والغلمان والوعود بالطبع. السير لين رجل بسيط الذوق يا خلوتي، لا يحب إلا الذهب والغلمان والقتل».

بشفتين ممطوتتين استياءً قال لها الملك: «أريد أن أجلس على العرش الحديدي. كنت تدعين جوف يجلس عليه دائماً».

- «جوفري كان في الثانية عشرة».

- «لكنني الملك! العرش ينتمي إلي!».

سألته سرسى: «من أخبرك بهذا؟»، وأخذت نفساً عميقاً كي تعقد دوركاس أربطة فستانها بمزيد من الإحكام. إنها فتاة كبيرة الحجم وأقوى كثيرًا من سينل، وإن كانت أكثر خرقًا أيضًا.

احمرّ وجه تومن، وقال: «لا أحد أخبرني».

- «لا أحد؟ أبهذا تدعو السيدة زوجتك؟». رائحة مارچري تايرل فائحة من هذا العصيان مفعمة أنف الملكة. «إذا كذبت عليّ فلن تترك لي خيارًا إلا استدعاء پايت ليضرب حتى ينزف». پايت هو كبش فداء⁽⁶²⁾ تومن كما كان لجوفري من قبله. «أهذا ما تريد؟».

أجاب الملك بتجهّم: «لا».

- «من أخبرك إذن؟».

جرجر قدميه على الأرض قائلاً: «الليدي مارچري». الضبي أعقل من أن يدعوها بالملكة في حضور أمه.

- «هذا أفضل. تومن، إن على عاتقي أمورًا جسيمة عليّ أن أتخذ قرارًا فيها، أمورًا أنت أصغر كثيرًا جدًا من أن تفهمها، ولست في حاجة إلى صبيّ سخيف يتملقل على العرش وراثي ويشتت انتباهي بالأسئلة الطفولية. أظن أن مارچري ترى أن عليك حضور اجتماعات مجلسي أيضًا، أليس كذلك؟».

- «بلى، تقول إن عليّ أن أتعلّم أن أكون ملكًا».

قالت له سرسي: «عندما تكبر يُمكنك أن تحضر كل ما تُريد من اجتماعات. أعدك بأنها سرعان ما سثُصيبك بالملل. روبرت كان ينعس في تلك الجلسات». حين كان يُجشُم نفسه عناء الحضور من الأصل. «كان يُفَضِّل الضيد والقنص تاركًا الشؤون المملّة للورد آرن العجوز. هل تذكّره؟».

- «لقد ماتَ بألم في البطن».

- «صحيح، الرّجل المسكين. ما ذُمت توافًا إلى الثّعلُم فربما عليك أن تتعلّم أسماء جميع ملوك (وستروس) والأيدي الذين خدموهم. يُمكنك أن تتلوها عليّ غداً».

رَدّ صاغزًا: «حاضر يا أمّاه».

- «هذا صبيّ المهدّب». الحكم لها، ولا تنوي سرسي أن تتخلّى عنه قبل أن يبلُغ تومن سنّ الرّشد. أنا انتظرتُ، وهو أيضًا يستطيع الانتظار. نصف حياتي قضيتها انتظارًا. لقد لعبت دور الابنة المطيعة والعروس الخجلى والزّوجة المطواعة، وتحقّلت تلبّس روبرت جسدها وهو سكران وغيره چايمي وسخرية رنلي وضحكات قارس المكبوتة وصرير أسنان ستانيس اللا نهائي، وناقست جون آرن وند ستارك وأخاها القزم القاتل الخائن البغيض، وطيلة كلّ ذلك الوقت ظلّت تُعد نفسها بأن أوانها سيأتي. إذا كانت مارجري تايرل تبقي حرمانني ساعتني في الشّمس فعلى الحقيرة أن تُعيد النّظر.

وعلى الرغم من ذلك فما زالت هذه بداية سيئة ليومها الذي لم يتحسّن بعدها كثيرًا. أمضت سرسي بقية الصباح مع اللورد جايلز ودفاتره، تُصغي إليه يسفل عن الثجوم والأياثل والثنانين، وبعده وصل اللورد ووترز ليخبرها بأن ذرموناتها الثلاث الأولى تُشارف الاكتمال ويطلب مزيدًا من الذهب لإنهائها بالفخامة التي تستحقها، فسَرَّ الملكة أن ثلّبي طلبه. لاحقًا توثّب فتى القمر أمامها فيما تناولت وجبة منتصف النهار مع أعضاء من روابط الثجّار وأنصتت إلى شكواهم من العصافير الذين يتسكعون في الشوارع وينامون في الميادين. ربما أحتاج إلى استخدام ذوي المعاطف الذهبية في طرد هؤلاء العصافير من المدينة. كانت تُفكّر في هذا عندما دخل عليها پايسل.

مؤخرًا صار المايستر الأكبر كثير الاعتراض بصورة مبالغ فيها في اجتماعات المجلس، وفي أثناء الجلسة الأخيرة اشتكى بشدة من الرجال الذين اختارهم أوران ووترز لقيادة ذرموناتهم الجديدة. يريد ووترز أن يُعطي السفن لرجال أكثر شبابًا، في حين يحثّ پايسل على اللجوء إلى ذوي الخبرة، ويصرّ على أن القيادة ينبغي أن تكون للزبابة الذين نجوا من حريق (النهر الأسود)، واصفًا إياهم بأنهم «رجال محنّكون أثبتوا ولاءهم»، أمّا سرسي فقالت إنهم مسئّون وانحازت إلى اللورد ووترز قائلة: «الشّيء الوحيد الذي أثبته هؤلاء الزبابة أنهم يُجيدون السباحة. لا يجدر بأنّهم أن تعيش بعد موت أطفالها ولا يجدر برّيان أن يعيش بعد غرق سفينته».

تلقى پايسل تبكيته على مضض، وإن بدا أقلّ مشاكسة اليوم، بل ونجح في رسم ابتسامة راجفة على شفّتيه كذلك إذ خاطبها معلّنا: «أخبار سارة يا جلالة الملكة. وايمان مائدرلي نفّذ ما أمرت به وقطع رأس فارس البصل رجل اللورد ستانيس». - «أهذا أكيد؟».

- «لقد غُلّق رأس الرّجل ويداه على أسوار (الميناء الأبيض). اللورد وايمان صرّح بهذا وآل قراي يُؤكّدونه. لقد رأوا الرأس هناك وفي فمه بصلة، وأيضًا رأوا اليدين اللتين تُقيّز إحداهما أصابعها المقصّرة».

قالت سرسي: «عظيم. أُرسل طائرًا إلى ماندري وبلفه بأن ابنه سيُعاد إليه في الحال ما دام قد برهن على إخلاصه». قريبًا ستعود (الميناء الأبيض) إلى سلام الملك، ورووس بولتون وابنه الثّفل يُضَيّقان الخناق على (خندق كايلن) من الجنوب والشّمال، وبمجرّد استيلائهما على القلعة ستنضمّ قوّاتهما لطرد الحديديّين من (مرّيع تورين) و(ربوة الغابة) أيضًا، ومن شأن هذا أن يُكسبهما ولاء حفلة راية ند ستارك المتبقّين حين يأتي وقت الرّحف ضد اللورد ستانيس.

في تلك الأثناء أقام مايس تايرل في الجنوب مدينةً من الخيام خارج (ستورمز إند)، وثقّة دسّة من المجانيق تضرب أسوار القلعة العملاقة بالحجارة، ولكن بلا تأثير يُذكر حتى الآن. قالت الملكة لنفسها متأمّلة: اللورد تايرل المُحارب. المفترض أن يكون رمزه رجلًا سميرًا جالسًا على مؤخّرتة.

بعد الظّهر وصل المبعوث البراقوسي الكالغ للقاءه معها، والذي أرجأته سرسي أسبوعين وكانت لُرجئته عاقًا آخر لولا أن اللورد جايلز قال إنه لم يَعد قادرًا على الثّعامل مع الرّجل... وإن كانت الملكة قد بدأت تتساءل إن كان جايلز قادرًا على أيّ شيء غير الشّعال.

قال البراقوسي إن اسمه نوهو ديميتيس. اسم مزعج لرجل مزعج. صوته أيضًا مزعج، وقد تملأت سرسي في جلستها بينما تكلم وتكلم، متسائلة كم عليها أن تتحمل غطرسته، ومن ورائها يرتفع العرش الحديدي وتلقي نصاله وبروزاته ظلالًا ملتوية على الأرض. وحده الملك أو يده يستطيع الجلوس على العرش نفسه، ولذا جلست سرسي عند قاعدته على مقعد من الخشب المذهب تكومت عليه الوسائد القرمزية.

حين توقف البراقوسي ليلتقط أنفاسه اغتنقت الفرصة قائلة: «هذه مسألة تليق أكثر باللورد الخازن».

بدا أن الإجابة لم تسر النبيل نوهو إذ قال: «لقد تكلمت مع اللورد جايلز ست مّرات، فلا يفعل إلا الشعال في وجهي والتّحجج يا جلالة الملكة، لكن الذهب ما زال غير حاضر».

قالت سرسي مقترحةً بعذوبة: «تكلم معه مرّة سابعة. الرّمم 7 مقدّس عند آلهتنا».

- «أرى أن المزاح يسرّ صاحبة الجلالة».

- «حين أمزح أبتسم. هل تراني مبتسمة؟ هل تسمع ضحكًا؟ أو كذّ لك أن الناس يضحكون عندما أمزح».

- «الملك روبرت...».

قاطفته بحذّة: «... مات. (المصرف الحديدي) سينال ذهبه عندما يُخفّد هذا الثّمرد».

جرّؤ الرّجل على أن يعبس في وجهها بكلّ عجرفة قائلاً: «جلالة الملكة».

قالت سرسي التي تحمّلت ما يكفيها تمامًا اليوم: «هذا اللقاء انتهى. سير مّرين، اصحب النبيل نوهو ديميتيس إلى الباب. سير أوزموند، يُمكنك أن تصحبني إلى مسكني». سيصل ضيفاها قريبًا، وعليها أن تستحمّ وتبذل ثيابها، ولو أن الغشاء المنتظر يعد بأن يكون مضجّرًا كذلك. حكم مملكة واحدة صعب بما فيه الكفاية، ناهيك بسبع ممالك.

لحق بها السير أوزموند كتلبلاك على الدّرج، طويلًا رشيّقًا في ثياب الخرس الملكي البيضاء، وحين تأكدت سُرسي من وجودهما وحدهما تأبطت ذراعه متسائلة: «كيف حال أخيك الصغير يا ثرى؟».

لاح الارتباك على السير أوزموند إذ قال: «آه... بخير، غير أن...».

تركت الملكة لمحة من الغضب تشوب نبرتها وهي تردّ: «غير أن؟ عليّ أن أعترف بأن صبري على أوزني العزيز بدأ ينفد. حان الوقت لأن يلج تلك الفهرة الصغيرة. لقد عيّنته حارسًا شخصيًا لتومن كي يقضي وقتًا كلّ يوم في ضحبة مارجري. المفترض أن يكون قد اقتطف الوردة بالفعل. هل الملكة الصغيرة معميّة عن سحره؟».

- «سحره يعمل بكفاءة. إنه كتلبلاك، أليس كذلك؟ أرجو ألا تؤاخذيني»، ومزّر السير أوزموند أصابعه في شعره الأسود الذهني مضيّفًا: «إنها هي المشكلة».

- «وما السبب؟». بدأت الشكوك تُساور الملكة في السير أوزني. ربما هناك رجل آخر يروق مارجري أكثر. أوران ووترز بشعره الفضي، أو رجل كبير قوي البنية كالسير تالاد. «هل تُفضّل الفتاة أحدًا آخر؟ هل يُزعجها وجه أخيك؟».

- «إنها تحب وجهه. قال لي إنها تحششت ندوبه منذ يومين وسألته عن المرأة التي أصابته بها. لم يقل أوزني قطّ إنها امرأة، لكنها عرفت. ربما أخبرها أحد. يقول إنها تلمسه دائمًا عندما يتكلمان، تُعدّل دُبوس معطفه وتُسوّي شعره وما إلى ذلك، وفي مرّة في تدريب الزماية جعلته يربها كيف تحمل القوس الطويل، فطوّقها بذراعيه. أوزني يحكي لها نكاتًا بذيئة فتضحك وتردّ بنكات أكثر بذاءة. لا، إنها راغبة فيه، هذا واضح، ولكن...».

استحثته سُرسي قائلة: «ولكن؟».

- «إنه لا ينفرد بها أبدًا. الملك معهما أغلب الوقت، وإن لم يكن هو فهناك غيره. اثنتان من رفيقاتها تنامان معها في فراشها، اثنتان مختلفتان كل ليلة، واثنتان أخريان تجلبان لها الإفطار وتساعدانها على ارتداء ثيابها. إنها تُصلي مع سيبتها وتقرأ مع بنت عمومته إلبنور وثقفي مع بنت عمومته آلا وتخطط مع بنت عمومته مجا، وحين لا تذهب للصيد بالضقور مع جانا فوسواي وميري كرين تلعب (تعال إلى قلعتي) مع ابنة بولوار الصغيرة، ولا تذهب لركوب الخيل أبدًا دون أن تأخذ حاشية من أربعة أو خمسة رفاق ودستة على الأقل من الخُراس، وهناك رجال حولها دوقا، حتى في (قفص العذراوات)».

- «رجال. من هم؟ أخبرني؟». هذا أفضل من لا شيء وينطوي على احتمالات.

هَزَّ السير أوزموند كتفيه مجيبًا: «مغثون. إنها مغرمة بالمغثين والخواة وأمثالهم، وثمة فرسان يأتون للتُحديق ولها إلى بنات عمومته. السير تالاد أسوأهم كما يقول أوزني. الأبله الكبير لا يدري إن كان يريد إلبنور أم آلا، لكنه يعرف أنه يريد لها للغاية. الثوأمين ردواين يأتیان لزيارتها أيضًا. سلويزر يجلب زهورًا وفواكه، وهورور تعلم العزف على العود. حسب كلام أوزني فخنق القُطط يُصدر أحيانًا أفضل. رجل (جزر الضيف) حاضر دائمًا أيضًا».

قالت سرسي: «جالابار شو؟»، وأطلقت نخير سخرية مردفة: «يتوشل منها الذهب والزّجال لاسترداد وطنه على الأرجح». تحت جواهره وريشه ليس شو أكثر من شخاڏ ينحدر من أصل عريق. كان بمقدور روبرت أن يضع نهايةً لإلحاحه بـ«لا» واحدة حازمة، إلّا أن فكرة غزو (جزر الضيف) استهوت زوجها الجلف الشكّير. لا ريب أنه كان يحلم بالنساء بليّات البشرة العاريات تحت المعاطف الزّيش وحلماتهن السوداء كالفحم، ولذا بدلًا من «لا» اعتاد روبرت أن يقول لشو: «العام المقبل»، مع أن ذلك العام المقبل لم يقبل قطّ.

رَدّ السير أوزموند: «لا أدري إن كان يتوشل أم لا يا جلالة الملكة. أوزني يقول إنه يعلمهم لغة الضيف. ليس أوزني، بل الملك... الفهرة وبنات عمومته».

قالت الملكة بجفاف: «الحصان الذي يتكلّم لغة الضيف يحدث انطباعًا قويًا. قل لأخيك أن يحافظ على حذّة مهمّزته. قريبًا سأجد وسيلةً له ليمتطي الفهرة، لك أن تتق بهذا».

- «سأخبره يا جلالة الملكة. إنه متشوّق إلى تلك الزكوبة، لا تحسبي العكس. تلك الفهرة حسناء حقًا».

إنه متشوّق إلى أنا أيها الأحق. لا يريد من مارجري إلّا اللوردية التي بين ساقبيها. على الرغم من ولعها بأوزموند فإنه يبدو بطيء الفهم كروبرت أحيانًا. أمل أن يكون سيفه أسرع من بديته، فربما يأتي يوم يحتاج فيه تومن إليه.

كانا يمزّان في ظلّ أنقاض (برج اليد) حين تعالى صوت الثهلل ليغمّرهما. عبر الشّاحة كان مرافق ما قد سدّد ضربةً إلى الطاووس مدوّرا ذراعه العرضيّة، وقد قادت الهتاف مارجري تايرل ودجاجاتها. فكّرت سرسي: جعجعة صاحبة لطحن لا يُذكر. كان المرء ليحسب الضّبي قارّ في دورة مباريات، ثم أذهلّها أن ترى أن من على متن الجواد الحربي هو تومن مدرّغا بالصفائح المعدنية المذهّبة.

لم تجد الملكة خيارًا إلا أن ترسم ابتسامةً على شفتيها وتذهب لتري ابنها، وبلغته بينما ساعده فارس الزهور على النزول من فوق حصانه. كان الضبي متقطع الأنفاس من فرط الإثارة، ويسأل الجميع: «هل رأيتم؟ فعلتها كما قال السير لوراس تمامًا. هل رأيت يا سير أوزني؟».

أجاب أوزني كتبلال: «رأيث. منظر جميل».

أضاف السير درموت: «ثجيد الزكوب أفضل مني يا مولاي».

- «كسرث الزمخ أيضًا. هل سمعته يا سير لوراس؟».

- «كأنه هزيم الزعد». كانت وردة من الذهب واليشب تثبت

معطف السير لوراس الأبيض عند الكتف، والريح تفرج خصلاته

البنيّة بأناقة. «لقد ركبت بمنتهى البراعة، لكن مرّة واحدة لا

تكفي. عليك أن تكررّها غدًا. يجب أن تتركب كلّ يوم إلى أن

تصبح كلّ ضربة تؤجّجها ثابتة مستقيمة ويصير الزمخ جزءًا من

جسدك ومثله مثل ذراعك».

- «أريد هذا».

قالت له مارجري: «كنت مجيدًا»، وجثت على زكبتها ولتفت

الملك على وجنته ووضعت ذراعها على كتفه قائلةً للوراس:

«أظنّ أن زوجي الباسل سيستطيك عن حصانك خلال سنوات

قليلة»، وأيدتها بنات عمومتهما الثلاث، وبدأت ابنة بولوار

المأفونة تتوثّب مترنمة: «تومن سيكون البطل، البطل، البطل!».

قالت سرسي: «حين يصبح رجلًا بالغًا».

ذبلت ابتساماتهم كوردات قبلها الضقيع، وكانت الشبّة ذات

الوجه المجدور أول من يركع، وتبعها الآخرون باستثناء الملكة

وأخيها.

لم يبدُ على تومن أنه لاحظ البرودة المفاجئة في الهواء،

واندفع يقول بسعادة: «هل رأيّني يا أمي؟ لقد كسرث زمحي

على الثرس ولم يضربني كيس الزمل!».

- «شاهدتك عبر الشّاحة. أحسنت البلاء للغاية يا تومن. لا أتوقّع منك ما هو أقل. إن النّزال في دمك، وذات يوم ستسود المضامير مثل أبيك».

منحت مارجري تايرل الملكة ابتسامةً ظاهرها الخجل قائلةً: «لا أحد سيصفّد أمامه. لكني لم أعرف أن الملك روبرت كان صاحب إنجازات في النّزال. أخبرينا من فضلك يا جلالة الملكة، ما المباريات التي فازَ فيها؟ من الفرسان العظام الذين أسقطهم من فوق خيولهم؟ أعرف أن الملك يحب أن يُحيط علقًا بانتصارات أبيه».

زحف الأحمر على غنق سرسي. لقد أوقعها الفتاة في مصيدة. الحقيقة أن روبرت باراثيون لم يكن يُبالي بالنّزال في المضامير، وخلال المباريات كان يُفضّل الالتحامات الجماعية كثيرًا، حيث يمكنه أن يطيح في الرّجال ضربًا بفأس ثلثة أو مطرقة حتى يُدميهم. حين تكلمت كانت تُفكّر في جايمي. ليس من ريدني أن أنسى نفسي. هكذا قالت مرغمة: «روبرت فازَ في مباراة (الثّالوث)، أسقط الأمير ريجار وسقاني ملكة الحبّ والجمال. يُدهشني أنك لا تعرفين هذه القصة يا زوجة ابني»، ولم تمنح مارجري فرصةً للرّد إذ قالت: «سير أوزموند، ساعد ابني على خلع درعه إذا سمحت. سير لوراس، امشِ معي، أريد أن أتكلّم معك».

لم يجد فارس الزّهور ما يفعله إلّا أن يمشي في أعقابها كالجرو، وانتظرت سرسي حتى أصبحت على الدّرجات الملتفة لتقول: «ثري من صاحب هذه الفكرة؟».

أجاب مضطّرًا: «أختي. السير تالاد والسير درموت والسير يورتيفر كانوا يتمزّنون على الطّاووس، واقتُرحت الملكة أن يأخذ صاحب الجلالة دوزًا».

يدعوها بهذا اللّقب ليضايقني. «وماذا فعلت أنت؟».

- «ساعدت جلالته على ارتداء درعه وأريته كيف يُشدّ الزمّح».

- «ذلك الحصان كان كبيرًا عليه للغاية. ماذا لو سقط؟ ماذا لو ضرب كيس الزّمل رأسه؟».

- «الكدمات والشّفاة الدّامية جزء من تكوين الفارس».

قالت: «بدأت أفهم لماذا أصبح أخوك معاقًا»، فسَرّها مرأى قولها يمسح الابتسامة عن وجهه الوسيم، وتابعت: «ربما أخفق أخي في شرح واجباتك لك أيها الفارس. أنت هنا لحماية ابني من أعدائه، أمّا تدريبه على الفروسية فمسؤولية قيّم السلاح».

قال السير لوراس وفي نبرته لمحة لوم: «ليس في (القلعة الحمراء) قيّم سلاح منذ مقتل أرون سانتاجار. جلالته يكاد يبلغ التاسعة، وتوّاق إلى الثّعلّم. في سنّه هذه يفترض أن يكون مُرافقًا، وعلى أحدهم أن يُعلّمه».

أحدهم سيُعلّمه، لكنه لن يكون أنت. سألته بعذوبة: «أخبرني، من الذي كنت مُرافقه؟ اللورد رثلي، أليس كذلك؟».

- «كان لي هذا الشّرف».

- «نعم هذا ما حسبته». رأت سرسي الأواصر القويّة التي تنعقد بين المُرافقين والفرسان الذين يخدمونهم، ولا تُريد أن تنشأ علاقة مشابهة بين تومن ولوراس تايرل، ففارس الزّهور ليس بالزّجل الذي يحذو أيّ صبيّ حذوه. «لقد قصّرت في هذا. في خضمّ حُكم البلاد وخوض الحرب والحزن على أبي فأتتني المسألة الملحّة الخاصّة بتعيين قيّم سلاح جديد. سأصلّح هذا الخطأ في الحال».

أزاح السير لوراس خُصلةً بيّنة سقطت على جبهته قائلاً: «لن تجد صاحبة الجلالة رجلًا أمهر مني في القتال بالسيف والزمّح».

يا لتواضعك. «تومن مولاك لا مُرافقك. سثقايل في سبيله وتموت في سبيله إذا لزم الأمر، وليس أكثر من هذا».

تركته على الجسر المتحرك الممتد فوق الخندق الجاف والخوازيق البارزة من قاعه ودخلت (حصن ميجون) وحدها، وبينما صعدت السلالم إلى مسكنها سألت نفسها: أين أجد قتيلاً للصلاح؟ بعد أن رفضت السير لوراس لا تستطيع أن تلجأ إلى فارس آخر في الخرس الملكي، إذ سيكون ذلك بمثابة ملح على الجرح، ولا شك أنه سيثير حفيظة (هايجاردن). السير تالاد؟ السير درموت؟ لا بُدَّ من أحد. تومن أصبح مولعاً بحارسه الشخصي الجديد، لكن أوزني أثبت أنه أقلَّ مهارة مما أملت في مسألة العذراء مارچري، كما أنها تُفكر في منصب آخر لأخيه أوزفريد. مؤسف أن كلب الضيد أصابه الشعار. لطالما خاف تومن صوت ساندور كليجاين الأجنح ووجهه المحروق، ولكنها سخرية كليجاين بمثابة الثرياق المتالي لشهامة لوراس تايرل المداهنة.

أرون سانتاجار كان دورنيا. يُمكنني أن أبعث برسالة إلى (دورن). بين (صنسيير) و(هايجاردن) قرون من الدّم. نعم، قد يصلح رجل دورني لمتطلباتي تماماً. لا بُدَّ من وجود مُقاتلين بارعين في (دورن).

دخلت غرفتها الشمسية لتجد اللورد كايبرن جالساً يقرأ على مقعد مجاور للنافذة، ولما رآها قال: «بعد إذن جلالة الملكة، معي تقارير».

قالت سرسي: «المزيد من المؤامرات والخيانة؟ كان يومي طويلاً ومتعباً، فأخبرني سريعاً».

ابتسم بتعاطف قائلاً: «كما تشائين. ثقة كلام عن عرض أركون (63). (تايروش) على (ليس) شروط هدنة لإنهاء حرب التجارة الحالية بينهما. كان أشيع أن (مير) على وشك دخول الحرب في صف (تايروش)، لكن من دون الجماعة الذهبية لم ير المايرثون أنهم يستطيعون...».

- «ما يراه المايرثون لا يهمني». دائقا يحارب بعض القدن
الخزّة بعضًا، وخياناتهم وتحالفاتهم اللا نهائية تعني القليل جدًا
لـ(وستروس). «هل لديك أخبار أكثر أهمية؟».

- «ثورة العبيد في (أستايون) امتدّت إلى (ميرين) على ما
يبدو، وبخّارة دسّية من الشفن يتكلّمون عن الثّنائين...».

- «الهارييات، في (ميرين) هارييات». إنّها تذكّر هذه المعلومة
من مكانٍ ما. (ميرين) واقعة في أقصى الأرض، شرقًا وراء
(قاليريا). «فليُثر العبيد. لماذا أعبأ؟ لا عبيد عندنا في
(وستروس). أهذا كلّ ما لديك؟».

- «ثقة أخبار من (دورن) قد تجدها صاحبة الجلالة أكثر
إثارة للاهتمام. الأمير دوران سجنّ السير ديمون ساند، النّغل
الذي كان مرافقًا للأفعوان الأحمر».

- «أذكره». كان السير ديمون من الفرسان الذين رافقوا الأمير
أوبرين إلى (كينجز لاندنج). «ماذا فعل؟».

- «طالب بإطلاق سراح بنات الأمير أوبرين».
- «أحمق».

تايع كايرن: «هناك أيضًا ابنة فارس (الغابة الرّقطاء) التي
خُطبت على نحو غير متوقّع للورد إسترمونت، حسب إفادة
أصدقائنا في (دورن). في اللّيلة نفسها أرسلت إلى (الحجر
الأخضر)، ويُقال إنّها وإسترمونت تزوّجا بالفعل».

قالت سرسي مداعبةً خُصلةً من شعرها: «نغل في بطنها
يشرح الشّيب. كم سيثّ العروس الخجلى؟».

- «ثلاثة وعشرون سنةً يا جلالة الملكة، بينما إسترمونت...».

- «... في الشّيعين على الأقل، أعي هذا». آل إسترموننت أصهارها من خلال روبرت، الذي تزوّج أبوه واحدةً منهم في خُطوة لا يُمكن تفسيرها إلّا بنوبة شهوة أو جنون. لدى زواج سرسي بالملك كانت أم روبرت قد رحلت منذ زمنٍ طويل، وإن حضر كلا أخويها زفافهما وبقياً يُصف عامٍ في المدينة، وبعدها أصرّ روبرت على ردّ الجميل بزيارة (إسترموننت)، الجزيرة الجبلية الصغيرة الواقعة عند (رأس الغضب)، وكان الأسبوعان الكنبيان الرّطبان اللذان أمضتهما سرسي في (الحجر الأخضر) -مقر عائلة إسترموننت- الأطول في شبابها على الإطلاق. بمجرّد التّظر سقى چايمي القلعة «الخراء الأخضر»، وسرعان ما حدّت سرسي حذوه، وفيما عدا ذلك قضّت وقتها في مشاهدة زوجها الملوكي يصيد ويقنص ويشرب مع خاليه ويُبرّح عدداً كبيراً من أبناء الخؤولة ضرباً في ساحة (الخراء الأخضر).

كانت هناك ابنة خالٍ ما أيضاً، أرملة قصيرة مكتنزة ذات نهدين كبيرين كِبْطِيختين ماتَ زوجها وأبوها عند (ستورمز إند) في أثناء الحصار، وعنها قال روبرت لسرسي: «أبوها عاملني بطيبة، وكنا نلعب معاً في صغرنا». لم يستغرق وقتاً طويلاً قبل أن يبدأ اللّعب معها من جديد، وبمجرّد أن تُغلق سرسي عينيها تعود الملك أن يتسلّل ليؤاسي الأرملة الوحيدة المسكينة. في ليلة جعلت چايمي يتبعه ليؤكّد شكوكها، ولقّا عادَ أخوها سألها إن كانت تُريده أن يقتل روبرت، فأجابّت: «لا، أريدُ أن أركّب له قرنين». تحبّ سرسي أن تعتقد أن تلك هي اللّيلة التي حبّلت فيها بجوفري.

قالت لكايبرن: «إلدون إسترموننت تزوّج فتاةً تصغره بخمسين عامًا، فلم أكرث لهذا؟».

هَرُ كُفِيه قَانَلَا: «لَا أَقُولُ إِنَّكَ يَجِبُ أَنْ تُكْثِرْتَنِي... لَكِنْ دِيْمُون سَانْد وَابْنَة سَانْتَا جَار تَلْكَ قَرِيْبَان مِنْ آرِيَان ابْنَة الْأَمِير دُورَان، أَوْ أَنْ هَذَا مَا يُشِيعُهُ الدُورْنِيُون. رِبْمَا لَا يَعْنِي الْأَمْرُ شَيْئًا، لَكِنْ خَطَرٌ لِي أَنْ عَلَى جَلَالَتِكَ أَنْ تُعْرِفَنِي».

قَالَتْ وَقَدْ بَدَأَ صَبْرَهَا يَنْفَدُ: «وَالآنَ أَعْرِفُ. هَلْ لَدَيْكَ الْمَزِيدُ؟».

رَدَّتْ: «شَيْءٌ وَاحِدٌ آخَرُ، مَسْأَلَةٌ تَافِهَةٌ»، وَابْتَسَمَ لَهَا مُعْتَذِرًا وَأَخْبَرَهَا عَنْ عَرْضِ ذُمَى لَأَقَى إِقْبَالًا كَبِيرًا مِنْ عَامَّةِ الْمَدِينَةِ فِي الْفَتْرَةِ الْأَخِيرَةِ، عَرْضِ ثَحْكَمٍ فِيهِ مَمْلَكَةُ الْحَيَوَانِ الْأَسْوَدِ الْمُتَكَبِّرَةِ. «مَعَ تَوَاضُلِ هَذِهِ الْحِكَايَةِ الْمُحَرِّضَةِ عَلَى الْخِيَانَةِ تُصْبِحُ الْأَسْوَدُ الذُّمَى أَكْثَرَ طَمَعًا وَخِيَلًا، إِلَى أَنْ تَبْدَأَ فِي افْتِرَاسِ رِعَايَاهَا، وَحِينَ يَعْتَرِضُ الْوَعْلُ الثَّبِيلَ تَفْتَرِسُهُ الْأَسْوَدُ أَيْضًا وَتُزَارُ بِأَنْ هَذَا حَقُّهَا بِاعْتِبَارِهَا أَقْوَى الْحَيَوَانَاتِ».

سَأَلَتْهُ سِرْسِي بِاسْتِمْتَاعٍ: «أَهْذِهِ هِيَ النِّهَايَةُ؟». إِذَا نَظَرَ الْمَرْءُ إِلَى الْحِكَايَةِ مِنَ الزَّائِيَةِ السَّلِيمَةِ فَرِبْمَا يَرَاهَا كَدَرِيسٍ مُفِيدٍ.

- «لَا يَا جَلَالَةُ الْمَلِكَةِ. فِي النِّهَايَةِ يَخْرُجُ ثَلَاثِينَ مِنْ بَيْضَةٍ وَيَلْتَهُمُ الْأَسْوَدُ كُلُّهَا».

هَكَذَا تَنْقُلُ النِّهَايَةَ عَرْضِ الذُّمَى مِنْ خَانَةِ الْإِهَانَةِ الْبَسِيطَةِ إِلَى الْخِيَانَةِ الْبَيْئَةِ. قَالَتْ سِرْسِي: «أَغْبِيَاءُ حَمَقَى، لَا يُخَاطِرُ بِرَأْسِهِ مِنْ أَجْلِ ثَلَاثِينَ خَشَبِي إِلَّا مُخْتَلٌ»، وَتَفَكَّرَتْ لِحِظَةً ثُمَّ أَرْدَقَتْ: «أُرْسِلْ بَعْضُ هَامْسِيكَ إِلَى تَلْكَ الْعُرُوضِ وَاجْعَلْهُمْ يُعَايِنُونَ الْحَاضِرِينَ. إِذَا كَانَ أَثَمُهُمْ مِنَ الْإِنْسَانِ الْبَارِزِينَ فَارِيدُ أَنْ أَعْرِفَ أَسْمَاءَهُمْ».

- «وَمَاذَا سَيَحْدُثُ لَهُمْ إِذَا سَمَحْتَ لِي بِالسُّؤَالِ؟».

- «الْأَثْرِيَاءُ مِنْهُمْ سَيُغْرَمُونَ. يَكْفِي نِصْفَ ثُرَوَاتِهِمْ لِتَلْقِينَهُمْ دَرْسًا قَاسِيًا وَإِعَادَةَ قُلُوبِهِمْ خَزَائِنًا دُونَ خَرَابِ بَيْوتِهِمْ. الْأَفْقَرُ مِنْ أَنْ يَدْفَعُوا ثَقْفًا لَهُمْ عَيْنَ لِمَشَاهِدَتِهِمُ الْخِيَانَةَ، وَالْإِعْدَامَ بِالْفَاسِ لِمَحْزُكِي الذُّمَى».

- «إنهم أربعة. ربما تسمح لي صاحبة الجلالة باثنين منهم لأجل أغراضي. امرأة بالذات ستكون...».

قاطعته الملكة محتدة: «لقد أعطيتك سينل».

- «للأسف الفتاة المسكينة... منهكة تمامًا».

لا يروق سرسي التفكير في هذا. لقد ذهبت الفتاة معها دون أن يخالجهما أدنى شك، متصورة أنها ستقدم الطعام وتصب الشراب، وحتى حين طوق كايبرن معصمها بالسلسلة لم يبد عليها الفهم. ما زالت الذكرى تُصيب الملكة بالغثيان. كانت الرنازين قارسة البرودة، وحتى المشاعل كانت ترتجف، وذلك الشيء الكريه كان يصرخ في الظلام... «حسن، يمكنك أن تأخذ امرأة. خذ اثنتين إذا أردت. لكني أريد الأسماء أولاً».

قال كايبرن قبل أن ينسحب: «كما تأمرين».

مالت الشمس إلى المغيب في الخارج. كانت قد دوركاس قد جهزت لها حقاها، وبينما غاضت الملكة مسرورة في الماء الدافئ مفكرة في ما ستقوله لضييفها على الغشاء اقتحم جايمي الباب وأمر جوسلين ودوركاس بالخروج. بدا أخوها مفتقرا إلى الأناقة والنظافة وقد فاحت منه رائحة الخيول إذ دخل ومعه تومن، وقال لها: «أختي الجميلة، الملك يطلب كلمة منك».

كانت حُصل سرسي الذهبية طافية في مياه الاستحمام والبُخار يُفعم الغرفة، وأحسّت بقطرة من العرق تسيل على وجنتها وهي تقول بنبرة شديدة الخطورة من فرط نعومتها: «تومن، ما الأمر الآن؟».

يعرف الضبي هذه الثبرة، ولذا انكمش على نفسه متراجعا، في حين قال جايمي: «جلالته يريد جواده الأبيض غدا من أجل درس الثزال».

اعتدلت جالسة في الحوض، وردت: «لن يكون هناك نزال».

مظ تومن شفته السفلى قائلا: «بل سيكون. يجب أن أركب

كل يوم».

أعلنت الملكة: «وستفعل بمجرد أن نعين قيم سلاح لائقًا
يشرف على تدريبك».

- «لا أريد قيم سلاح لائقًا، أريد السير لوراس».

- «إنك ترفع شأن ذلك الضبي كثيرًا. أعرف أن زوجتك
الصغيرة ملأت رأسك بكلام سخيف عن براعته الفائقة، لكن
أوزموند كتبلاك فارس أفضل من لوراس ثلاث مرّات».

علق چايمي ضاحكًا: «ليس أوزموند كتبلاك الذي أعرفه».

كانت لتخنقه لحظتها. ربما عليّ أن أمر السير لوراس بأن
يدع السير أوزموند يسقطه عن حصانه. قد يفلح هذا في وضع
حذّ لافتتان تومن به. قصقص ريش الظاووس وكلّل البطل
بالعار وفي الحال ينحط مقامهما. قالت: «سأرسل لأطلب رجلًا
دورنيًا يدربك. الدورنيون أفضل المنازلين في البلاد».

قال تومن: «لا، ليسوا كذلك، وعلى كلّ حال لا أريد رجلًا
دورنيًا سخيّفًا، بل أريد السير لوراس. هذا أمر!».

عاد چايمي يضحك، ففكرت الملكة: لا يساعيني على
الإطلاق. هل يحسب هذا طريقًا؟ ضربت الماء غاضبةً، وقالت:
«هل عليّ أن أرسل في استدعاء بايت؟ إنني لا أمتثل لأوامرك،
أنا أمك».

زدّ تومن: «نعم، لكنني الملك. مارچري تقول إن على الجميع
طاعة ما يقوله الملك. أريد أن يجهّز جوادي الأبيض غدا كي
يقلّمني السير لوراس التّزال. أريد هريرة أيضًا، ولا أريد أن أكل
الشّمندر».

كان چايمي لا يزال يضحك، لكن الملكة تجاهلته قائلة: «تومن، تعال هنا»، ولما لم يتحرك الصبي تنهدت وقالت له: «أنت خائف؟ يجب ألا يُبدي الملك خوفًا». هكذا دنا ابنها من الحوض مطرقًا عينيه، فمدت يدها ثقلس على شعره الذهبي، وقالت: «ملك أم لا، أنت صبي صغير، والحكم لي حتى تبلغ سنّ الرشد. سوف تتعلّم النّزال، أعدك بهذا، لكن ليس من لوراس. فرسان الحرس الملكي عليهم واجبات أهم من اللعب مع طفل. سئل حضرة القائد. أليس كذلك أيها الفارس؟».

أجاب چايمي بابتسامة رفيعة: «واجبات مهمّة للغاية. الدّوران حول أسوار المدينة على سبيل المثال». قال تومن وقد بدا على وشك البكاء: «هل لي بهريرة إذن؟». أجابت الملكة: «ربما، ما دمّث لن أسمع المزيد من الهراء عن النّزال. هل تعدني بهذا؟».

جرجز قدميه قائلاً: «نعم».

- «عظيم. والآن اذهب. ضيفاي سيصلان قريبًا».

هرغ تومن مغادرًا، لكن قبل أن يخرج التفث وقال: «حين أصبح الملك وحدي سأحرّم أكل الشّمندرا».

أغلق أخوها الباب بجذعة يده، ولما انفرد بسرسي سألها: «كنت أسأل نفسي يا صاحبة الجلالة، أأنت سكرانة أم حمقاء فقط؟».

ضربت الماء مرّة أخرى نائرة إياه على قدميه، وقالت: «ضن لسائك وإلا...».

- «... وإلا ماذا؟ سترسليني لفحص الأسوار ثانية؟»، وجلس
جايمي واضعًا ساقًا على ساقٍ مردفًا: «أسوارك اللعينة سليمة.
لقد زحفت على كل بوصة منها وألقيت نظرة على السبع بوابات.
مفصلات (البوابة الحديدية) صدئة، ويجب استبدال (بوابة
الملك) و(بوابة الظمي) بعد أن هشمهما ستانيس بمدكاته.
الأسوار قوية كما كانت دومًا... لكن هل نسيت صاحبة الجلالة
أن أصدقاءنا من (هايجاردن) داخل الأسوار لا خارجها؟».

- «لا أنسى شيئًا»، ردّت عليه مفكرةً في عملة ذهبية معينة
على أحد وجهيها يد وعلى الوجه الآخر رأس ملك منسي ما.
كيف تحضّل سجان بائس حقير على عملة كهذه وخبأها تحت
وعاء فضلاته؟ كيف وصل رجل كروجن إلى ذهب قديم من
(هايجاردن)؟

- «هذه أول مرّة أسمع بتعيين قيّم سلاح جديد. ستحتاجين
إلى بحث طويل دقيق عن منازل أفضل من لوراس تايرل. السير
لوراس...».

بتزّت عبارته شاعرةً بماء حمامها يفثر: «أعرف السير لوراس
ولا أريده قرب ابني. الأفضل أن تُذكره بواجباته».
- «إنه يعرف واجباته، وليس هناك من يحمل الزمح
أفضل...».

- «أنت كنت أفضل قبل أن تفقد يدك، والسير باريستان في شبابه، وأرثر داین كان أفضل، والأمير ريجار كان نڈا له. كفى ثرثرة عن قوّة الزهرة. إنه مجرّد صبي». لقد ملّت معارضة چایمی. لا أحد كان يعارض السید والدها. حين يتكلّم تايوین لانستر كان الناس يطيعون، وحين تتكلّم سرسي يعطون أنفسهم حُرّة إعطائها المشورة ومناقضتها، بل ورفض أوامرها. كلّ هذا لأنني امرأة، لأنني لا أستطيع قتالهم بالشيف. لقد احترموا روبرت أكثر مما يحترموني، وروبرت كان سكّيزا أبله. لن تسمح بهذا، خصوصًا من چایمی. يجب أن أخلّص نفسي منه، وعاجلاً. في سالف الأيام كانت تُحلّم بأن يحكما (الممالك السبع) جنبًا إلى جنب، لكن چایمی أضحى عائقًا أكثر منه عونًا.

نهضت سرسي من الحوض لتسيل المياه على ساقِها وثقّظت من شعرها، وقالت: «عندما أريدُ نصيحتك سأطلبها. اتزكني أيها الفارس. عليّ أن أرتدي ملابسي».

قال چایمی: «ضيفاك على الغشاء، أعرف. وأيّ مؤامرة هذه تحديدًا؟ إنها كثيرة للغاية وفائتي بعضها»، وسقطت نظرتَه على قطرات الماء المتلذّذة على الشعر الذهبي بين ساقِها.

ما زالَ راجبًا قتي. «هل تشتاق إلى ما فقدته يا أخي؟».

رفع عينيه قائلاً: «أنا أيضًا أحبك يا أختي الجميلة، لكنك حمقاء، حمقاء ذهبيّة جميلة».

أوجفتها كلماته، وفكّرت: وصفتني بكلماتٍ لطف في (الحجر الأخضر) ليلة زرعت جوفري في داخلي. قالت له: «أخرج»، وأدارت له ظهرها وسمّفته يغادر متلقّسًا الباب بجذعته بارتباك.

بينما تأكدت جوسلين من أن كل شيء جاهز للعشاء، ساعدت دوركاس الملكة على ارتداء فستانها الجديد، المفضل على شكل خطوط من الساتان الأخضر اللامع بالتبادل مع خطوط من القطيفة السوداء، بالإضافة إلى شرائط الزينة المايريّة السوداء الدقيقة فوق الصدر. شرائط الزينة المايريّة مكلفة، لكن من الضروري أن تبدو الملكة في أبهى ضورها طوال الوقت، كما أن غشالاتها الحقيرات تسببن في انكماش عدد كبير من فساتينها القديمة فلم تُعدّ ثنائسها. كانت لتجلدهن لاستهتارهن لولا أن تاينا حثتها على الرّافة، وقالت لها: «سيحكك العوام أكثر إذا كنت رحيمة»، وهكذا أمرت سرسي بخصم قيمة الفساتين من أجور الغشالات، وهو الحل الأكثر أناقة بكثير.

وضعت دوركاس مرآة فضيّة في يدها، ففكرت الملكة مبتسمة لانعكاسها: جميل جدًا. من السّار أن تخلع ثياب الجداد، فالأسود يجعلها تبدو شاحبة للغاية. مؤسف أنني لن أتناول عشاءي مع الليدي ميريويندر. كان يومها طويلًا، ودائمًا تُبهجها تاينا بخمّة دمها. لم تكن لسرسي صديقة تستمتع بصحبتها لهذه الدرجة منذ ميلارا هيزرسيون، وميلارا اتّضح أنها متأمرة جشعة في دماغها أفكار تتجاوز مقامها. لا يجدر بي أن أفكر فيها بسوء. لقد غرقت وماتت، وعلمتني ألا أثق بأحد غير جايمي أبدًا.

حين انضمت إليهما في الغرفة الشمسيّة كان ضيفاها قد قطعاً شوطًا لا بأس به في شرب الهيبوكراس بالفعل، وعندما لاحظت سرسي الإبريق نصف الفارغ قالت لنفسها: الليدي فاليس لا تبدو كسمكة فحسب، بل تشرب كواحدة أيضًا. صاحت مقبلة المرأة على وجنتها: «فاليس العزيزة والسير بالمان الشجاع، لقد فجعتني أن أسمع بما جرى لأملك الغالية. كيف حال الليدي تاندا؟».

بَدَت الليدي فاليس كأنها على وشك الإجهاش بالبكاء إذ أجابت: «لطف من جلالتك أن تسألني. المايستر فرنكن يقول إن الشقطة حطمت ورك أمي. لقد فعل ما يستطيع، والآن نُصلي، ولكن...».

صَلُّوا كما تشاءون، لكنها ستموت لا محالة قبل أن يدور القمر. النساء المسنات كتاندا ستوكوورث لا يتعافين من ورك مكسور. «سأضيف صلواتي إلى صلواتكم. اللورد كايبرن أخبرني بأن تاندا سقطت من فوق حصانها».

رَدَّ السير بالمان بيرش: «حزام سرجها انفتق وهي راكبة. كان على عامل الاسطبل أن يرى أنه تالف. لقد عوقب».

قالت الملكة: «أمل أن العقاب كان شديداً»، وجلست مشيرةً لضييفها بالجلوس بدورهما، واستطردت: «هل تشربين كأساً أخرى من الهيبوكراس يا فاليس؟ أذكر أنك لطالما كنت مولعةً به».

- «لطف بالغ منك أن تتذكّري يا جلالة الملكة».

وكيف أنسى؟ جايمي قال إنها أعجوبة أنك لا تتبؤلينه. «كيف كانت رحلتكما؟».

أجابت فاليس بتأفف: «غير مريحة. المطر ظلّ يسقط معظم اليوم. فكّرنا أن نقضي الليل في (روزبي)، لكن ربيب اللورد جايلز الشاب رفض تضييفنا»، وتنشّقت متابعةً: «لك أن تتخي بأنه بمجرد موت جايلز سيفرُ ذلك المأفون وضع الميلاد بذهبه كلّهُ، بل وربما يُحاول الاستيلاء على أراضيه ولورديّته، مع أن الحق أن تنتقل (روزبي) إلينا بعد موت جايلز. السيّدّة أمي خالة زوجته الثّانية، وابنة خُؤولة ثالثة لجايلز نفسه».

تساءلت سرسي في أعماقها: هل رمزكم حمل يا سيدتي أم
قرد طمّاع؟ قالت: «اللورد جايلز يَهْدِدُ بالموت منذ عرفته، لكنه
لا يزال معنا وآمل أن يظلّ كذلك سنواتٍ طويلة»، وابتسقت
ببشاشةٍ مردفة: «لا شك أنه سيظلّ يسفل بعد أن نذهب جميعًا
إلى قبورنا».

قال السير بالمان: «غالبًا سيحدث هذا. على أن ربيب روزي
لم يكن الوحيد الذي أزعجنا يا جلالة الملكة. لقد قابلنا عددًا من
الهمجيين على الطريق أيضًا، مخلوقاتٍ قذرة بشعة الهيئة تحمل
الثروس الجلد والفؤوس، بعضها على صدره نجوم مخيطة،
نجوم شباعية مقدسة، لكن منظر هؤلاء الرجال أوحى بالشّر
رغم ذلك».

أضافت فاليس: «أنا واثقة بأنهم كانوا مقفلين أيضًا».
قالت سرسي: «يُسَفُّون أنفسهم العصافير. إنهم وباء يجتاح
البلاد. على السّيتون الأعلى الجديد أن يتعامل معهم بمجرد
تتويجه، وإذا لم يفعل فسأتعامل معهم بنفسِي».

سألته فاليس: «هل اختيرَ صاحب القداسة بعد؟».
أجابت الملكة مقرّة: «لا. كان السّيتون أوليدور على شفا
الاختيار إلى أن تبعه بعض هؤلاء العصافير إلى ماخور وجزوه
عاريًا إلى الشارع. يبدو أن لوشن الخيار المرجح الآن، ولو أن
أصدقاءنا على الثّل الآخر يقولون إن بضعة أصواتٍ ما زالت
تنقّصه ليبلغ العدد المطلوب».

قالت الليدي فاليس بمنتهى الخشوع: «عسى (العجوز) أن
ترثد المداوولات بمصباح الحكمة الذهبي».

اعتدل السير بالمان في مقعده قائلاً: «جلالة الملكة، هذه مسألة محرّجة، ولكن... خشية أن تنمو المشاعر السيئة بيننا، يجب أن تعرفي أن زوجتي الكريمة وأُمّها لم يكن لهما دور على الإطلاق في تسمية الوليد الثّغل. لوليس مخلوقة بسيطة، وزوجها يميل إلى المزاح الأسود. قلتُ له أن يختار اسماً أليق للضّبي، فضحك».

رشفت الملكة من نبيذها وأمعنت الثّظر إليه. في الماضي كان السير بالمان مُنازلاً بارزاً، وأحد أوّسم الفرسان في (الممالك السّبع) كذلك، ولئن ما زال فوق شفته شارب فاخر فإن الثّقْدُم في الفم لم يترقّق به، فانسحب شعره الأشقر المتموّج، في حين تقدّم بطنه بعناد ضاغظاً على شترته. قالت لنفسها: كأداة، يَنْقُصُه الكثير، لكن لا بأس به. «تيريون كان اسماً ملكياً قبل مجيء الثّنائين. العفريت لوّته، لكن ربما يرث الضّغير إلى الاسم شرفه». هذا إذا عاش الثّغل. «أعرف أن لا لوم عليكم. الليدي تاندا هي الأخت التي لم أحظّ بها قطّ، وأنتما...»، وتهذج صوتها إذ استدركت: «سامحاني، إنني أعيش في خوف».

فتحت فاليس فاها وأغلقتّه، وهو ما جعلها تبدو كسمكة تحترق الغياء، ورددت متسائلة: «في... في خوف يا جلالة الملكة؟».

قالت سرسي: «لم أنم ليلةً بأكملها البتّة منذ موت جوفري»، وأعادت ملء الكؤوس بالهيبوكراس مواصلةً: «أيها الضّديقان... أنتما صديقاَي كما آمل، أليس كذلك؟ وصديقا الملك تومن؟». أعلن السير بالمان: «ذلك الضّبي الجميل. جلالة الملكة، كلمات عائلة ستوكورث ذاتها تقول: نفخر بإخلاصنا».

- «ليت هناك المزيد من أمثالكما أيها الفارس الكريم. أقول لكم صدقاً إن شكوكاً جادّة تُساورني إزاء السير برون فارس (الثّهر الأسود)».

تبادل الزوج والزوجة نظرة، وقالت فاليس: «ذلك الرجل وقح يا جلالة الملكة، فُظّ وسلط اللسان».

أضاف السير بالمان: «ليس فارسًا حقيقيًا».

ابتسقت سرسي له وحده قائلة: «نعم، وأنت فارس يعرف الفروسيّة الحقّة. إنني أذكر مشاهدتك ثنازل في... ما دورة المباريات التي قاتلت فيها بكلّ عظمة أيها الفارس؟».

أجاب مبتسمًا بتواضع: «تلك التي كانت في (وادي الغسق) منذ ستّة أعوام؟ لا، لم تكوني حاضرة، وإلاّ لثوّجت ملكة للحبّ والجمال بكلّ تأكيد. أكانت دورة المباريات التي أقيمت في (لانسپورت) بعد تمزّد جرايچوي؟ لقد أسقطت فيها عدّة فرسان بارعين...».

ردّت: «هي بالضبط»، ثمّ تجهّم وجهها إذ أردفت: «العفريت اختفى ليلة موت أبي تاركًا سجانين أمينين في بركة من الدماء. بعضهم يدّعي أنه قرّ عابزًا (البحر الضيق)، لكنني أتساءل. القزم ماكر. ربما لا يزال كامنًا على مقربة ويحطّط للمزيد من الاغتيالات، ربما يخفيه صديق ما».

ملّس السير بالمان على شاربه الكُثّ متسائلًا: «برون؟».

- «لقد كان مخلوق العفريت دوقًا، و(الفريب) وحده يعلم كم رجلًا أرسل إلى الجحيم بأمر تيريون».

قال السير بالمان: «جلالة الملكة، أعتقد أنني كنت لألاحظ لو أن هناك قزمًا متواريًا في أراضينا».

ردّت سرسي: «أخي صغير الحجم ومخلوق للثواري»، وتركت يدها ترتجف مواصلة: «اسم الطفل مسألة صغيرة... لكن الوقاحة التي تمزّد دون عقاب تستولد الخيانة، ثم إن كايبيرن أخبرني بأن ذلك الرجل برون يجمع المرتزقة حوله».

قالت فاليس: «لقد ضمّ أربعة فرسان إلى أهل بيته».

أطلق السير بالمان نخيزًا ساخرًا، وقال: «زوجتي تُطري عليهم بوصفهم بالفرسان. إنهم مرتزقة متسلقون دون ذرة واحدة من الفروسية بين أربعتهم».

قالت سرسي منتحبة: «كما خشيت. برون يحشد رجالًا للقم، ولينقذ (السبعة) ابني الصغير. العفريت سيقتله كما قتل أخاه. أيها الصديقان، إنني أضغ شرقي في أيديكما... لكن ما قيمة شرف الملكة أمام مخاوف الأم؟».

طمأنها السير بالمان قائلاً: «تكلمي يا صاحبة الجلالة. لن يخرج كلامك من هذه الغرفة أبدًا».

مدت سرسي يدها عبر المائدة واعتصرت يده قائلة: «س... سأنام مطمئنة البال أكثر إذا سمعت أن السير برون أصابته... أصابته حادثة... وهو يصطاد ربما».

فكر السير بالمان لحظة قبل أن يسأل: «حادثة مميتة؟».

لا، أريد أن يكسر إصبع قدمه الصغير. عضت شفتها كاظمة غيظها، وقالت لنفسها: أعدائي في كل مكان وأصدقائي بله. همست: «أتوشل إليك أيها الفارس، لا تجعلني أقولها...».

قال السير بالمان رافقًا إصبعه: «فهمث».

كانت حبة لفت لتفهم أسرع منك. «أنت فارس حقيقي، جواب لدعاء أم خائفة»، وقبلته سرسي متابعة: «عجل بفعلها من فضلك. برون حوله رجال قلائل الآن، لكن إذا لم نتصرف فمؤكد أنه سيجمع المزيد»، وقبلت فاليس، وقالت: «لن أنسى هذا أبدًا أيها الصديقان، يا صديقي المخلصان في (ستوكوورث). نفخر بإخلاصنا. لكما كلمتي، سنجد للوليس زوجًا أفضل عند الانتهاء من هذا الأمر». من عائلة كتلبلاك ربما.

«نحن أولاد لانستر نُسَدُ ديوننا».

كانت البقية المزيد من الهيبوكراس مع الشمندر بالزبدة والخبز الشاخن وسمك الكراكي المغلف بالأعشاب وضلع الخنازير البرية. باثت سرسي مغرمة للغاية بلحم الخنازير البرية منذ موت روبرت، حتى إنها لم تجد غضاضة في صحبتها الحالية، على الرغم من أن فاليس راحت تتزلف إليها وأخذ بالمان يتفاخر بلا توقف من طبق الكساء إلى طبق الحلويات. كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل قبل أن تُخلص نفسها منهما. أثبت السير بالمان أنه مولع بالشرب حين اقترح تقديم إبريق آخر، فلم تجد الملكة أن من الحصافة أن ترفض، وعندما رحلا أخيرًا قالت لنفسها: كان يُمكنني أن أستأجر رجلًا عديم الوجه يقتل برون مقابل نصف ما أنفقته على الهيبوكراس.

في هذه الساعة كان تومن غائبًا في نوم عميق، لكن سرسي ألقت نظرة عليه قبل أن تذهب إلى فراشها. أدهشها أن ترى ثلاث هريرات نائمة بسكينة إلى جواره، فسألت السير مرين الواقف خارج غرفة النوم الملكية: «من أين أتت تلك القطط؟» - «الملكة الصغيرة أعطتها له. كانت سئعطيه واحدة فقط

لكنه لم يستطع أن يحدد أيها تروقه أكثر».

أفضل من شق بطن أمها وإخراجها منه على ما اعتقد. محاولات مارجري الزعناء للغواية مفضوحة لدرجة تبعث على الضحك. تومن صغير للغاية على القبل فبدلاً منها تُعطيه القطط. على أن سرسي تتمنى لو لم يكن لونها أسود، فالقطط السوداء قال سيئ، كما اكتشفت ابنة ريجار الصغيرة في هذه القلعة ذاتها. لولا دُعابة الملك المجنون القاسية مع أبي لكانت ابنتي. لا بُد أن الجنون هو ما قاد إيرس إلى رفض ابنة اللورد تايوين وأخذ ابنه بدلاً منها، بينما زوج ابنه هو بأميرة دورنية واهنة عيناها سوداوان وصدرها مسطح.

ما زالت ذكرى الرّفص تعتمل في نفسها بعد كلّ هذه السّنين.
ليالي كثيرة تفرّجت على الأمير ريجار في القاعة يعزف على
قيثارته ذات الأوتار الفضيّة بأصابعه الطويلة الأنيقة. هل عرف
العالم رجلًا أجمل؟ لكنه كان أكثر من مجرّد رجل. دماؤه كانت
دماء (قاليريا) القديمة، دماء الثّنانين والآلهة. في صباها وعدّها
أبوها بأنها ستتزوّج ريجار. آنذاك لم تكن قد تجاوزت السادسة
أو السّابعة، وبينما يبتسم تلك الابتسامة السّريّة التي لم يزها
بشريّ إلا سرسي قال لها: «لا تذكّري الأمر لأحد أبدًا يا صغيرتي
إلى أن يوافق جلالته على الخطبة. يجب أن يظلّ هذا سرّنا في
الوقت الحالي». وظلّ الشّريط الكتمان، مع أنها في مرّة رسفت
نفسها محلقة وراء ريجار على متن تئين وقد لفت ذراعيها
ياحكام حول صدره، ولقا اكتشف چايمي الرّسم قالت له إنهما
الملكة أليسين والملك جهيرس.

كانت في العاشرة حين رأت الأمير بشحمه ولحمه أخيرًا، في
دورة المباريات التي أقامها أبوها ترحيبًا بالملك إيرس في
الغرب. نصبت منصّات المتفرّجين عند أسوار (لانسپورت)،
وتردّدت أصداء هتاف العاقّة على أسوار (كاسترلي روك)
كقصف الرّعد. دوى تهليلهم لأبي أعلى مرّتين من تهليلهم للملك،
لكنهم هلّلوا للأمير ريجار أعلى مما هلّلوا لأبي مرّتين.

حينئذ كان ريجار تارجارين في السابعة عشرة وحديث العهد بالفروسيّة، وقد ارتدى درعاً سوداء فوق قميص من الحلقات المعدنية الذهبية عندما حُبّ بحصانه إلى مضمار التّزال، ورفرت شرائط طويلة من الحرير الأحمر والذهبي والبرتقالي من خوذته كالسنة اللّهب. سقط اثنان من أعمامها أمام زمحه، علاوة على دسّية من أفضل منازل أبيها، زهور الغرب، وفي الليل اعتاد الأمير العزف على قيثارته الفضيّة لتنهمر دموعها. عندما قُدّمت إليه كادت سرسي تفرق في أعماق عينيه الأرجوانيتين الحزبتين، وتذكّر أنها فكّرت: لقد جرح، لكنني سأشفي جرحه حين نتزوّج. مقارنة بريجار بدا أخوها الجميل جايي نفسه مجرّد صبي غر، وقالت لنفسها وقد أسكرتها الإثارة: سيصبح الأمير زوجي، وعندما يموت الملك العجوز سأغدو الملكة. أفصحت لها عفتها عن تلك الحقيقة قبل دورة المباريات، وقالت لها الليدي چنا بينما تُسوّي قُستانها: «يجب أن تبدي في غاية الجمال، فخلال المأدبة الأخيرة ستُعلن خطبتك إلى الأمير ريجار».

كم كانت سرسي سعيدة يومها، وإلا لما كانت قد جرّوت قُظ على الدّهاب إلى خيمة ماجي الضّفدعة، لكنها لم تفعلها إلا لثبّرهن لجاين وميلارا على أن الثّبوة لا تخشى شيئاً. كنث سأصبح ملكة، ولم تخاف الملكة من عجوز دميّة؟ لا تزال ذكرى الثّبوة تجعل جلدّها يقشعُرُ بعد الغمر الذي انقضى. جاين فرّت من الخيمة تصرّخ خوفاً، لكن ميلارا مكثت ومكثت أنا. تركناها تتذوّق دمنّا وضحكنا من ثبوءاتها الشّخيفة التي لم يكن أيّها يُعقل. كانت ستُصبح زوجة الأمير ريجار مهما قالت المرأة. لقد وعدّها أبوها، وكلمة تايوين لانستر من ذهب.

مأّت ضحكاتها مع نهاية المباريات. لا أقيمت مأدبة أخيرة ولا ارتفعت الأنخاب احتفالاً بخطبتها إلى الأمير ريجار. لا شيء إلا الضمت البارد والنظرات الفاترة بين الملك وأبيها. لاحقاً، بعدما رحل إيرس وابنه وجميع قُرسائه البواسل إلى (كينجز لاندنج)، ذهبت الفتاة إلى عمتها باكية لا تفهم، فأخبرتها الليدي چنا: «أبوك عرضَ الزُّيجة لكن إيرس رفض أن يسمعه، وقال له: أنت أكفأ خدمي يا تايوين، لكن الرّجل لا يُزوّج وريثه بابنة خادمه. جفّفي دموعك هذه أيتها الصّغيرة. هل رأيت أسداً يبكي من قبل؟ سيجد أبوك لك رجلاً آخر، رجلاً أفضل من ريجار».

لكن عمتها كذبت وخذلها أبوها، تماقاً كما يخذلها چايمي الآن. لم يجد أبي رجلاً أفضل، بل أعطاني روبرت، وأينعت لعنة ماجي كزهرة ساقّة. لو أنها تزوّجت ريجار كما شاءت الآلهة لما نظرَ مزّتين إلى الذئبة الصّغيرة. ولكنّا اليوم ولكنّ ملكته وأُمّ أولاده.

لم تغفر سرسي لروبرت قتله قَطّ.

إلا أن الأسود لا تُجيد المغفرة، وهو الدّرس الذي سيتعلّمه السير برون فارس (الثّهر الأسود) قريباً.

(62) كبش الفداء كان صبيّاً يتلقّى العقاب جَلْداً أو ضرباً بدلاً من صغار العائلات الملكية في أوروبا في الفترة بين نهاية العصور الوسطى وبداية الثورة الصناعيّة. (المترجم).

(63) الأركون كلمة يونانيّة قديمة تعني حرفيّاً «الحاكم»، وإن كانت قد استُخدمت مع عددٍ مختلف من أصحاب المناصب الرّسمية وكبار الشّجار في روما القديمة والإمبراطوريّة البيزنطيّة، كما استخدمها العرب للإشارة إلى العظيم من الذّهقان الفُرس. (المترجم).

پریان

أَصْرُ السَّيْرِ هَائِلٌ هَنْتٌ عَلَى أَنْ يَأْخُذُوا مَعَهُمُ الرُّؤُوسَ، وَقَالَ:
«تَارِلِي سَيْرِيدَهَا لِيَعْلَقَهَا عَلَى الْأَسْوَارِ».

عَلَّقَتْ بِرِيَانَ الَّتِي لَا تُرِيدُ أَنْ تَجْتَازَ ظُلْمَةَ غَايَةِ الضُّنُوبِ
الْخَضِرَاءِ وَمَعَهَا رُؤُوسُ الرِّجَالِ الَّذِينَ قَتَلْتَهُمْ: «لَيْسَ مَعَنَا
قَطْرَانٌ. اللَّحْمُ سَيَتَعَفَّنُ. اتْرُكْهَا».

لَكِنْ هَنْتٌ رَفَضَ الْإِصْفَاءَ، وَجَزَّ أَعْنَاقَ الْمَوْتَى بِنَفْسِهِ وَرَبِطَ
الرُّؤُوسَ الثَّلَاثَةَ مَعًا مِنْ شَعْرِهَا وَعَلَّقَهَا مِنْ سَرَجِهِ، فَلَمْ تَجِدْ
بِرِيَانَ بُدًّا مِنْ مَحَاوَلَةِ التَّظَاهَرِ بِأَنَّهَا غَيْرُ مَوْجُودَةٍ، وَإِنْ كَانَتْ
أَحْيَا نَا - لَا سَيِّمًا لَيْلًا - تَشْغُرُ بِأَعْيُنِهَا الْمَيِّتَةَ تُحَدِّقُ إِلَى ظَهْرِهَا،
وَفِي مَرَّةٍ حَلَمَتْ بِأَنَّهَا تَسْمَعُ بَعْضَهَا يَهْمَسُ لِبَعْضٍ.

كَانَتْ الْأَجْوَاءُ بَارِدَةً مَبْتَلَّةً فِي (الرَّأْسِ الْمُتَصَدِّعِ) إِذْ عَادُوا
أَدْرَاجَهُمْ. فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ تُمِطِرُ السَّمَاءُ وَفِي بَعْضِهَا تَتَوَعَّدُ
بِالْمَطَرِ، وَلَمْ يَشْغُرُوا بِالذَّفءِ قَطُّ، وَحَتَّى عِنْدَمَا يُخَيِّمُونَ
يَسْتَعْصِي عَلَيْهِمُ الْعُتُورُ عَلَى حَطَبٍ جَافٍ لِإِشْعَالِ النَّارِ.

لَدَى بُلُوغِهِمْ بَوَابَ (بِرْكَةِ الْعَذَارَى) كَانَ سَرَبٌ مِنَ الذُّبَابِ
يُصَاجِبُهُمْ، وَقَدْ أَكَلَ غُرَابٌ عَيْنِي شَاجُوِيلَ وَعَجَّ رَأْسًا يَبِيجُ
وَتِيْمِيُونَ بِالْيِرْقَاتِ. قَبْلَهَا بِفَتْرَةٍ طَوِيلَةٍ تَعُوذَتْ بِرِيَانَ وَيُودْرِيكَ
الرُّكُوبُ مُتَقَدِّمِينَ بِمَنَةِ يَارِدَةٍ لَتَظُلُّ رَائِحَةُ الْعَفْنِ وَرَاءَهُمَا، أَمَّا
السَّيْرِ هَائِلُ فَزَعَمَ أَنَّهُ فَقَدْ حَاسَتْهُ الشَّمُّ تَمَاقًا. كُلَّمَا خَيَّمُوا لَيْلًا
سَأَلَتْهُ بِرِيَانَ أَنْ يُحْرِقَ الرُّؤُوسَ، لَكِنْ هَنْتٌ شَدِيدُ الْعِنَادِ حَقًّا.
عَلَى الْأَرْجَحِ سَيَقُولُ اللُّورْدُ رَانْدَلُ إِنَّهُ قَتَلَ ثَلَاثَتَهُمْ بِنَفْسِهِ.

إِلَّا أَنَّ الْفَارِسَ تَحَلَّى بِالشَّرَفِ وَلَمْ يَفْعَلْ شَيْئًا مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ.
- «الْفَرَّاقُ الْمُتَلَعْنَمُ أَلْقَى صَخْرَةً»، قَالَ هَنْتٌ عِنْدَمَا مَثَلَ مَعَ
بِرِيَانَ أَمَامَ تَارِلِي فِي سَاحَةِ قَلْعَةِ مَوْتُونَ، بَعْدَ أَنْ قُدِّمَتْ الرُّؤُوسُ
إِلَى رَقِيبِ الْخُرَّاسِ الَّذِي أَمَرَ بِتَنْظِيفِهَا وَغَمْسِهَا فِي الْقَطْرَانِ
وَتَعْلِيْقِهَا فَوْقَ الْبَوَابَةِ. «الْمُبَارِزَةُ قَامَتْ بِالْبَاقِي».

لاح الشك على اللورد راندل إذ سأله: «الثلاثة؟».

- «بالطريقة التي قاتلت بها كان بإمكانها أن تقتل ثلاثة آخرين».

سألها تارلي: «وهل وجدت ابنة ستارك؟».

- «لا يا سيدي».

- «وبدلاً من ذلك قتلت بضعة فئران. هل استمتعت بهذا؟».

- «لا يا سيدي».

- «مؤسف. حسن، ها قد جزيبت مذاق الدّم وأثبت ما أردت إثباته. حان الوقت لأن تخلعي هذه الحلقات المعدنية وترتدي ثياباً لائقة. ثمة سفن في الميناء، ومؤكّد أن إحداها ستتوقّف في (تارث). سأضعك عليها».

- «أشكرك يا سيدي، لكن لا».

ثمّ وجه اللورد تارلي عن أنه لا يرغب في شيء أكثر من أن يغرس خازوقاً في رأسها ويعلّقه فوق بؤابة (بركة العذارى) إلى جوار تيميون وبيج وشاجويل، وبغلظة سألها: «أتنوين الاستمرار في هذه الحماقة؟».

- «أنوي العثور على الليدي سانزا».

قال السير هايل: «بعد إذن سيدي، لقد شاهدتها ثقاتل الممثلين. إنها أقوى من معظم الرجال، وسريعة...».

قاطعها تارلي بحدة: «سيفها هو الشّريع. هذه طبيعة الفولاذ القاليري. أقوى من معظم الرجال؟ أجل، إنها مسخ، مُحال أن أنكر هذا».

فكرت بريان: لن يحبني أمثاله أبداً مهما فعلت. «سيدي، ربما يعرف ساندور كليجاين شيئاً عن الفتاة. إذا وجدته...».

- «كليجاين أصبح مجرمًا. إنه يركب مع جماعة بريك دونداريون الآن على ما يبدو، وربما لا، الحكايات متعددة. أريني أين مخبأهما وبكل سرور سابقز بطنيهما وأخرج أمعاءهما وأحرقها. لقد شنقنا عشرات من الخارجيين عن القانون، لكن القادة ما زالوا يُضَلَّلوننا؛ كليجاين ودونداريون والزَّاهب الأحمر، والآن تلك المرأة قلب الحجر... كيف تعتزمين العثور عليهم بينما لا أستطيع أنا؟».

قالت عاجزة عن إعطائه إجابة جيِّدة: «سيّدي، إنني... ليس في وسعي إلّا أن أحاول».

- «حاولي إذن. إن معك وثيقتك ولست محتاجةً إلى إذن، لكنني سأعطيك إياه مع ذلك. إذا كنت محظوظةً فلن يُصيبك لقاء عنائك أكثر من أوجاع الركوب، وإن لم يكن قريباً يتزعّك كليجاين حيّة بعد أن يفرغ وقطيعه من اغتصابك، وعندئذٍ يُمكنك أن تعودِي إلى (تارث) وفي بطنك نغل كلب ما».

تجاهلت بريان زّده قائلةً: «بعد إذن سيّدي، كم رجلاً مع كلب الضيّد؟».

- «سئة أو سئون أو سئمة. الإجابة مرهونة بقن تسالين».

كان جليًا أن راندل تارلي اكتفى من هذه المحادثة إذ بدأ يلتفت مبتعدًا، لكن بريان قالت: «أستاذك ومُرافقِي في كرم ضيافتك حتى...».

- «لك أن تستأذني كما شئت، لكني لن أسمح بوجودك تحت سقفي».

تقدّم السير هایل هنت قائلاً: «بعد إذن سيّدي، معلومي أن هذا لا يزال سقف اللورد موتون».

حدج تارلي الفارس بنظرة سامة مجيئة: «موتون يملك
شجاعة الذود. لن تكلمني عن موتون. وبالنسبة إليك يا سيديتي
فيقال إن أباك رجل صالح، وإذا كان هذا صحيحًا فإنني أشفق
عليه. بعض الرجال يرزق أبناءً وبعضهم يرزق بنات، لكن لا أحد
يستحق أن تحلّ به لعنة مثلك. عيشي أو موتي يا ليدي بريان،
لكن لا تعودِي إلى (بركة العذارى) وهي تحت حكمي».

قالت بريان لنفسها: الكلام هواء، لا يمكنه أن يجرحك، لا
تدعيه يؤثّر فيك، وحاولت أن تقول له: «كما تأمر يا سيدي»،
لكن تارلي رحل قبل أن تخرج منها الكلمات، فخرجت هي من
الشاحّة شاعرةً كأنها نائمة، لا تدري أين تذهب.

لحقّ بها السير هایل قائلاً: «هناك خانات».

هزّت رأسها دون رد، فليست راغبةً في الكلام مع هایل هنت.
- «هل تذكّرين (الإوزة اللتنة)؟».

ما زالت رائحة المكان عالقةً بمعطفها. «لماذا؟».

- «قابليني هناك غداً في منتصف النهار. ألن ابن عمي كان
مقن أرسلوا للعثور على كلب الصيد. سأتكلم معه».

- «ولم تفعل شيئاً كهذا؟».

- «ولم لا؟ إذا نجحت في ما فشلت فيه ألن سأستطيع التّندر
عليه أعواماً».

لم يكن السير هایل مخطئاً، فما زالت في (بركة العذارى)
خانات، إلّا أن بعضها احترق خلال نهبٍ أو آخر ولم يبقَ ثمانية
بعد، والمتبقّي مكتظّ عن آخره بجنود جيش اللورد تارلي. بعد
الظّهيرة زارتها ويودريك جميعاً، ولم يجدوا في أيّ منها أسراً
شاغرةً.

قال يودريك بينما تنخفض الشمس في الغرب: «أيتها
الفارس، سيديتي، هناك سفن. السفن فيها أسراً، شباك نوم أو
أسراً بدورين».

لم يزل رجال اللورد راندل يذرعون أرصفة الميناء بكثافة
الذباب الذي غطى رؤوس الممثلين الشفّاحين الثلاثة، لكن
رقيبهم تعرّف بريان بمجرّد النّظر وتركها تمرّ. كان الصّيادون
المحلّيون يربطون قواربهم مع دنوّ الليل وينادون على ما
اصطادوه نهازا، لكن ما يههّها هو الشفن الكبيرة التي تمخر مياه
(البحر الضيق) العاصفة. وجذّت نصف دسته منها راسيةً، وإن
رأت قاليونا اسمه (ابنة المارد) يُلقي حباله ليبحر في تيار
المساء، وطاقت مع يودريك بالشفن المتبقية، فحسبها زبّان
(بنت بلدة الثّوارس) عاهرةً وقال لهما إن سفينته ليست بيت
دعارة، وعرض عليها صياد إيبنيزي من سفينة صيد حيثان أن
يشترى صبيّها، لكنهما صادفا حظًا أفضل في غيرهما من الشفن.
ابتاعت ليودريك برتقالةً على متن (جوّال البحر)، وهو كوج
وصل للثوّ من (البلدة القديمة) عن طريق (تايروش) و(ينتوس)
(وادي الغسق)، وقال لها زبّانه: «(بلدة الثّوارس) وجهتنا
الثّالية، ومن هناك ندور حول (الأصابع) إلى (بلدة الأخوات)
(والميناء الأبيض)، إذا تركت لنا العواصف الفرصة. (الجوّال)
سفينة نظيفة، ليست عليها جردان كثيرة كأغلب الشفن، وعندنا
بيض طازج وزبدة ممخوضة حديثًا. هل ترغب سيّدتي في
الذهاب شمالاً؟».

- «لا». ليس بعد. الفكرة مغرية، ولكن...

في طريقهما إلى الرّصيف الثّالي قال يودريك مجرّجًا
قدميه: «أيتها الفارس، سيّدتي، ماذا لو عادت سيّدتي إلى
وطنها؟ أعني سيّدتي الأخرى أيتها الفارس، الليدي سائزا».
- «لقد أحرقوا وطنها».

- «ولو، إن ألقتها هناك، والآلهة لا تموت».

الآلهة لا تموت لكن الفتيات يفتن. «تيميون كان قاتلاً
متوحّشًا، لكني لا أظنّ أنه كذب بشأن كلب الصيد. لا يمكننا أن
نذهب شمالاً إلى أن نتأكّد. ستكون هناك شفن أخرى».

في أقصى شرق الميناء وجدا مأوى لهما الليلة على متن قاديس تجاري حطمته عاصفة اسمه (سيّدة مير). كان مائلاً على نحو سيئ وقد فقد صاريته ونصف طاقمه في العاصفة، لكن زبّانه لا يملك المال الكافي لإصلاحه، فسوّّه أن يأخذ القليل من البنسات من بريان ويسمح لها ويود بأن يتقاسما قمرة خالية.

لم تكن ليلتهما مريحة. ثلاث مرّات استيقظت بريان، الأولى عندما بدأ المطر يسقط، والثالثة مع صرير جعلها تحسب أن ديك الرّشيق يتسلّل زاحفاً ليقولها. في المرّة الثانية استيقظت وسكّينها في يدها، لكن شيئاً لم يكن هنالك، وفي ظلام القمرة الصغيرة الضيقة استغرقت لحظة لتتذكّر أن ديك الرّشيق مات، وفي النهاية لقّا غابت في الثوم مجذّداً حلقت بالزّجال الذين قتلّتهم. كانوا يرقّصون حولها، يسخرون منها ويحاولون قرصها بينما هوّت عليهم بسيفها. مرّقتهم إرباً دامية، لكنهم ظلّوا يدورون حولها كالبعوض... شاجويل وتيميون وبيج، نعم، ولكن راندل تارلي أيضاً، وفارجو هوت ورونيت كوننجتون الأحمر. حمل رونيت وردةً بأصابعه، وحين قدّمها لها بتّرت يده.

صحت تتصبّب غرقاً، وقضت باقي الليل منكشّة تحت معطفها تُصغي إلى المطر يدقّ سطح السفينة فوق رأسها دقّاً. كانت ليلة ليلاء، ومن حين إلى آخر سمعت هزيم رعد بعيد جعلها تُفكّر في السفينة البراغوسية التي أقلعت مساءً.

في اليوم الثّالي عادت إلى (الإوزة الثّينة) وأيقظت مالكة الحانة القذرة ونقذتها ثمن القليل من الشّجق والخبز المحقّر ونصف كوب نبّيز وإبريق من الماء المغلي وكوبين نظيفين. زرّت المرأة عينيها راميةً بريان بينما وضعت الماء على الثّار، وقالت: «أنت الفتاة الكبيرة التي ذهبت مع ديك الرّشيق. هل خدعك؟»

- «لا».

- «اغتصبك؟».

- «لا».

- «سرق حسانك؟».

- «لا. لقد قتله خارجون عن القانون».

لاح على المرأة الفضول أكثر من الضيق وهي تقول:
«خارجون عن القانون؟ لطالما تصوّرت أن ديك سينشق أو
يرسل إلى (الجدران)».

أكلا الخبز المحقر ونصف الشجق، وازدرد يودريك باين
طعامه بالماء المنكه بالثبيذ، في حين رشقت بريان ببطناء من
الثبيذ المخفف بالماء وتساءلت عن سبب مجيئها هنا. هایل هنت
ليس فارساً حقيقياً، ووجهه الضريح مجرّد قناع ممثّلين. قالت
لنفسها: لست محتاجة إلى عونه ولا إلى حمايته، ولست
محتاجة إليه. إنه لن يأتي على الأرجح. قال لي أن أقابله هنا
كمزحة أخرى لا أكثر.

كانت ناهضة لثغابره عندما وصل السير هایل قائلاً: «سيدتي،
يودريك»، وتطلّع إلى الكوبيين والأطباق وبقية الشجق التي تبرد
في بركة من الدهن، وقال: «بحقّ الآلهة، أمل أنكما لم تأكلا شيئاً
هنا!».

ردّت بريان: «ما أكلناه لا يخضك. هل وجدت ابن عمك؟ بم
أخبرك؟».

- «ساندور كليجاين شوّهت آخر مرّة في (الملاحات) يوم
الغارة، وبعدها ركب غرباً بمحاذاة (الثالوث)».

قالت مقظبة جبينها: «(الثالوث) نهر طويل».

- «أجل، لكنني لا أظن أن كلبنا ابتعد كثيرًا عن مصبه. يبدو أن (وستروس) فقدت سحرها في ناظره، لأنه كان يبحث عن سفينة في (الملاحات)، وسحب السير هائل لفافة من جلد الخراف من حذائه، وأزاح الشجق جانبًا وبسّطها، فأتضح أنها خارطة. «كلب الصيد فتك بثلاثة من رجال أخيه في الخان القديم عند مفترق الطرق، هنا، ثم قاد الغارة على (الملاحات)، هنا»، ونقر على (الملاحات) بإصبعه متابعًا: «ربما يكون عالقًا. آل فراي هنا في (التوأمتين)، و(داري) و(هارنهال) في الجنوب على ضفة (الثالوث) الأخرى، وفي الغرب هناك قتال دائر بين آل بلاكوود وآل براكن، واللورد راندل هنا في (بركة العذاري)، و(الطريق العالي) الذي يقود إلى (الوادي) مسدود بالثلوج، حتى إذا استطاع تجاوز قبائل الجبال. أين يذهب الكلب إذن؟».

- «إذا كان مع دونداريون...؟».

- «ليس معه، آلن واثق بهذا. رجال دونداريون يبحثون عنه أيضًا، وأذاعوا أنهم ينوون شنقه لما ارتكبه في (الملاحات). لم يكن لهم دور في ذلك، لكن اللورد راندل يُشيع العكس على أمل أن ينقلب العوام على بريك وأخوته. إنه لن يقبض على سيد البرق أبدًا ما دام الأهالي يحمونهم. ثم إن هناك تلك الجماعة الأخرى التي تقودها المرأة قلب الحجر... عشيقة اللورد بريك وفقًا لإحدى الحكايات. يُقال إن آل فراي شنقوها، لكن دونداريون قبلها وأعادها إلى الحياة، والآن أصبحت مثله لا تموت».

تفحّصت بريان الخارطة، وقالت: «إذا شوهدت كليجاين آخر مرّة في (الملاحات) فهذا هو المكان الذي سنجد فيه أثره».

- «لم يتبق أحد في (الملاحات) إلا فارس عجوز مختبئ في قلعته، هذا ما قاله آلن».

- «ولو، إنه مكان نبدأ منه على الأقل».

قال السير هايل: «هناك رجل، سيبتون دخل من بوابتي قبل ظهورك بيوم، اسمه ميريبولد، وُلِدَ في أراضي النهر ونشأ فيها، وخدم هنا طيلة حياته. سيرحل غذا ليبدأ دورته، ودائماً يزور (الملاحات). يمكننا أن نذهب معه».

رفقت بريان عينيها بحذّة مرّدة: «نذهب؟».

- «أنا ذاهب معكم».

- «لا، لن تذهب».

- «طيب، أنا ذاهب مع الشبتون ميريبولد إلى (الملاحات).

أنت وپودريك تستطيعان الذهاب حيثما تريدان».

- «هل أمرك اللورد تارلي بأن تتبعني ثانية؟».

- «بل أمرني بالابتعاد عنك. اللورد راندل يرى أن شيئاً من

الاعتصاب العنيف سينفعك».

- «لماذا تريد أن تأتي معي إذن؟».

- «إما هذا وإما العودة إلى واجب البوابة».

- «إذا أمرك سيّدك...».

- «إنه لم يَغْد سيّدي».

أدهشها هذا، فسألته: «تركت خدمته؟».

- «حضرة اللورد أبلغني بأنه لم يَغْد محتاجاً إلى سيفي أو

إلى وقاحتي، لا فرق. من الآن فصاعداً سأستمتع بحياة المغامرة

كفاريس متجوّل... وإن كنت أتصوّر أننا سننال مكافأة سخية إذا

عثرنا على سائزاً ستارك».

الذهب والأراضي، هذا كل ما يرى في الأمر. «إنني أنوي إنقاذ

الفتاة لا بيعها. لقد حلفت يميناً».

- «وأنا لا أذكر أنني حلفت».

- «ولذا لن تأتي معي».

في الصّباح الثّالي بينما تُشرق الشّمس غادروا.

كان موكبنا غريبًا؛ السير هائل على جواد كستنائي، وپريان على قَرسها الرَّماديَّة الطويلة، وپودريك پاين على حصانه الأرقط الثَّعس، وإلى جوارهم يمشي الشَّيتون ميريبولد مثكثًا على نِثوت ويقود حمازًا صغيرًا وكلبًا كبيرًا. على ظَهر الحمار حمولة شديدة الثَّقل لدرجة أن پريان خَشِيت أن ينكسر، وكان الشَّيتون ميريبولد قد قال لهم عند بؤابة (بركة العذارى): «طعام للفقراء والجائعين في أراضي الثَّهر؛ بذور ومكشرات وفواكه مجفَّفة وثرید شوفان وطحين وخبز شعير وثلاثة قوالب من الجُبنة الضَّفراء من الخان عند (بؤابة المهزجين)، وسمك قَد مملَّح لي، وضأن مملَّح لكلب... أوه، وملح، وبصل وجزر ولُفت وجوالان من الفاصوليا وأربعة أجولة من الشَّعير وتسعة أجولة من البُرْتقال. أعتَرَف بأنني ضعيف الإرادة أمام البُرْتقال. لقد حصلْتُ عليه من بخارٍ وأخشى أنه آخِر ما سأذوقه منه حتى الزَّبيع».

ميريبولد سَيتون بلا سَيت، يعلو درجةً واحدةً فقط على الإخوة الشَّخَّاذين في تدْرج العقيدة الهرمي. هناك منات مثله، رجال بانسون وأجبههم المتواضع أن يمشوا من قرية ضئيلة إلى أخرى ليؤدُّوا المراسم المقدَّسة ويُقيموا طقوس الرِّفاف ويغفروا الخطايا. معظم من يزورهم يَنتظر منهم أن يُطعموه ويؤووه، لكن أكثرهم فقراء مثله، ولذا لا يبقى ميريبولد في مكانٍ واحدٍ طويلًا دون أن يُثقل على مُضيفيه. أحيانًا يسمح له أصحاب الخانات الطَّيبون بالمبيت في مطابخهم أو اسطبلاتهم، وثُمَّة سَيتري هنا أو معقل هناك بل وبضع قلاعٍ أيضًا يعلم أنه سيلاقي ترحيبًا فيها، وحين لا يكون هناك مكان من هذه في الجوار ينام تحت شجرة أو سياج من الشَّجيرات. «في أراضي الثَّهر سوج شجيرات ممتازة كثيرة. أفضلها الأقدم. لا شيء يفوق سياج شجيرات غمره مئة عام. داخلها يستطيع المرء أن ينام ملء جفنيه كأنه في خان، ولا يخشى البراغيث كثيرًا».

لا يقرأ السِّيتون أو يَكْثِب، وهو ما اعترفَ لهم به بمرح على الطريق، لكنه يعرف مئةً من الأدعية ويستطيع أن يتلو مقاطع طويلة من (النَّجْمَة الشُّبَاعِيَّة) من الذَّاكِرَة، وهذا كلُّ المطلوب في القرى. للرجل وجه متغصن لوحتته الرِّيح وشعر شائب كثيف وتجاعيد عند زكّني عينيّه، وعلى الرغم من حجمه الكبير وطوله الذي يُناهز الأقدام السِّتَة فإنه يحني ظهره إلى الأمام بينما يمشي بطريقة تجعله أقصر قامَةً بكثير. يداه كبيرتان متينتان، ومفاصل أصابعه حمراء وتحت أظفاره وسخ، كما أن له أكبر قدمين رأتهما بريان على الإطلاق، حافيتان وسوداوان وقاسيتان كقرون الغزلان.

قال الرجل لبريان: «لم أنتعل حذاءً منذ عشرين عامًا. في العام الأول كانت في قدمي قروح أكثر من الأصابع، وكان باطنهما ينزف كالخنازير كلّما وطأت حذاءً ضلّبا، لكنني صليتُ وقوّى (الإسكاف في الأعالي) جلدي ومثّنه».

قال يودريك محتجًا: «ليس هناك إسكاف في الأعالي».

- «بل هناك أيها الضّبي... وإن كنت تدعوه باسم آخر ربما. أخبرني، من أكثر من تحب من الآلهة السبعة؟».

أجاب يودريك بلا لحظة تردّد: «(الفحارب)».

تنحنكت بريان، وقالت: «في (بهو المساء) كان سِيتون أبي يقول دومًا إن هناك إلهاً واحداً».

- «إله واحد بسبعة وجوه. هذا صحيح يا سيّدي ولك الحق في الإشارة إليه، لكن طلسم السبعة الذين هم واحد ليس سهل الإدراك عند البسطاء، وأنا رجل شديد البساطة، ولذا أتكلّم عن آلهة سبعة». وعاد ميريبولد يلتفت إلى يودريك قائلاً: «لم أعرف قطّ صبيّاً لا يحبّ (المُحارب)، لكنني عجوز، ولأني عجوز أحبّ (الحذّاد)، فدون عمله غمّ سيّدافع (المُحارب)؟ في كلّ بلدة وكلّ قلعة حذّاد، وهؤلاء الحذّادون يصنعون المحارّث التي نحتاج إليها لزراعة محاصيلنا، والمسامير التي نستخدمها لبناء سفننا، والحدوات لحفظ حوافر خيولنا المخلصة، وسيوف ساداتنا اللامعة. لا أحد يُشكّك في قيمة الحذّاد، ولذا تُسقى أحد آلهتنا السبعة هكذا تكريماً له، لكن كان يُمكن بالشهولة نفسها أن تُسقى المزارع أو الضياد أو الثّجار أو الإسكاف. ما يعمل عليه لا يهمّ، المهمّ أنه يعمل. (الأب) يحكم و(المُحارب) يُقاتل و(الحذّاد) يحكم، ومما يفعلون كلّ ما هو في صالح الإنسان. مثلما (الحذّاد) وجه واحد للالوهيّة ف(الإسكاف) وجه واحد لـ(الحذّاد)، وهو من سمع صلواتي وشفّى قدمي».

قال السير هایل بجفاف: «الآلهة كريمة، ولكن لم تُزعجها بينما كان بإمكانك الاحتفاظ بحذائك بالبساطة نفسها؟».

- «المشي حافي القدمين كفّارتي. حتى السيتونات الأتقياء يُمكن أن يكونوا خطاةً، وجسدي كان ضعيفاً أيما ضعف. كنت شاباً غزّاء، والفتيات... من الممكن أن يبدو سيتون ما نبيلاً كفارس إذا كان الرّجل الوحيد الذي تعرفه الفتاة وارتحل أكثر من ميل واحد عن قريتها. كنت أتلو عليهن من (النّجمة الشّباعيّة)، وأثمر (سفر العذراء) أفضل الثّائج. أوه، كم كنت رجلاً شريفاً قبل أن أتخلّص من حذائي. يُخزّيني أن أفكر في كلّ العذراوات اللاتي دُستهن».

اعتدلت بريان فوق سرجها بتوثر مفكرة في المعسكر أسفل أسوار (هايجاردن) ورهان السير هایل والآخرين لرؤية من يستطيع أن يضاجعها أولاً.

قال يودريك يابن: «إننا نبحث عن فتاة، فتاة رفيعة النسب في الثالثة عشرة لها شعر كستنائي».

- «اعتقدت أنكم تبحثون عن بعض الخارجين عن القانون».

- «هم أيضًا».

قال الشيتون ميريبولد: «معظم المسافرين يفعلون ما في وسعهم لتحاشي أمثال هؤلاء، ومع ذلك تبحثان أنتما عنهم».

قالت بريان: «نبحث عن واحد فقط، كلب الصيد».

- «هكذا أخبرني السير هایل. عسي (الشبعة) أن يُنقذوك يا بنيّتي. يُقال إنه يتّرك وراءه أثرًا من الأطفال المذبوحين والعذراوات المدنّسات، وسمعتُ من يدعوهُ بكلب (الملاحات) المسعور. ما الذي يُريده أناس صالحون من رجل كهذا؟».

- «الفتاة التي ذكرها يودريك قد تكون معه».

- «حقًا؟ إذن يجب أن نُصلي من أجل المسكينة».

قالت بريان في قرارتها: ومن أجلي، صلاة من أجلي أيضًا.

سل (العجوز) أن ترفع مصباحها وتقودني إلى الليدي سائز، وسل (المُحارب) أن يبتّ القوة في ذراعي كي أَدافع عنها. على أن الكلام لم يَخُزْ من شفقتها، فليست تُريد هایل هنت أن يسمعه ويسخر من ضعفها الأنتوي.

مع سير الشيتون ميريبولد على قدميه والحمولة الثقيلة على ظهر حماره كان تقدّمهم بطيئًا طيلة هذا اليوم. لم يأخذوا الطريق الرئيس غربًا، الطريق الذي سبق أن سلّكته بريان مع السير چايمي عندما أتيا من الأتجاه الآخر ليجدا (بركة العذارى) منهوبةً ملأى بالجمّت، وبدلاً من ذلك اتّجهوا إلى الشمال الغربي مثبّعين ساحل (خليج الشراطين) على درّب معوج صغير لدرجة أنه لا يظهر على أيّ من خريطتي جلد الخراف الثمينتين اللتين يحملهما السير هایل. على هذا الجانب من (بركة العذارى) ليس هناك وجود لتلال (الرأس المتصدّع) شديدة التحدّر أو مستنقعاته السوداء أو غاباته الصنوبريّة، أمّا الأراضي التي يرتحلون فيها فواطنة بليّة، براري من الكتبان الرملية والمستنقعات المالحة تحت سماءٍ رحبة يمتزج فيها الرّمادي بالأزرق. أحيانًا يختفي الطريق وسط أعواد البوص والبرك المديّة، فقط ليعاود الظهور بعد ميل، وتعلم بريان أن لولا ميريبولد لضلّوا الطريق لا محالة. الأرض تحتهم طريّة في مواضع كثيرة، ولذا يسبقهم الشيتون في بقاع بعينها ويدقّ بنبؤته ليتأكّد من صلابة موطن أقدامهم، ويمضون دون رؤية أيّ أشجار لفراسخ وفراسخ، وما من شيء حولهم إلّا البحر والسماء والرّمال.

شأن ما بين هذه الأرض و(تارت) بجزبالها وشلّالاتها ومروجها العالية ووديانها الظليلة، وإن خطرَ لبريان أن لهذا المكان جماله الخاص رغم ذلك. مڑوا بدستة من التهيرات بطينة الثيار التي تزخر بالضفادع وصراصير الحقل، وشاهدوا طيور خطّاف البحر تُخلّق عاليًا فوق الخليج، وسمعوا طيور زمار الرّمل تصدح من بين الكتبان، وفي مرّة صادفوا ثعلبًا جعلّ كلب ميريبولد ينبح بضراوة.

وهناك أناس أيضًا، بعضهم يَقْظَن وسط البوص في بيوت من الظمي والقش، في حين يصطاد آخرون من الخليج في زوارق صغيرة من الجلد ويبنون بيوتهم على ركائز خشبية متقلقلة فوق الكتبان، ويبدو أن أغلبهم يعيش وحده معتكفا عن سائر الناس. يبدو في الغالب قوفاً خجولين منطوين، لكن قُرب منتصف النهار بدأ الكلب ينبح ثانيةً، وخرجت ثلاث نسوة من بين أعواد البوص وأعطين ميريبولد سلّةً مجدولةً ملأى بأم الخُلُول، فأعطى كلّاً منهن بُرتقالةً في المقابل، مع أن أم الخُلُول منتشرة كالظمي في هذه الأنحاء والبُرتقال نادر نفيس. إحدى النسوة عجوز للغاية والثانية خبلى منتفخة البطن والثالثة فتاة ناضرة جميلة كزهرة في الربيع، ولما انتحى بهن ميريبولد جانباً ليسمع خطاياهن قهقهة السير هایل، وقال: «يبدو أن الآلهة معنا... على الأقل (العذراء) و(الأم) و(العجوز)»، فلاحت على يودريك دهشة بالغة حدّت بريان إلى أن تشرح له أنهن مجرّد ثلاث نساء من أهل المستنقعات.

لاحقاً حين استأنفوا رحلتهم التفتت إلى الشيتون قائلةً: «هؤلاء الناس لا يَيفدون أكثر من يومٍ من الرُكوب عن (بركة العذاري)، لكن القتال لم يمتهم».

- «لأنهم يملكون القليل مما يَفش يا سيّدتى. كنوزهم الأصداف والحجارة والزوارق الجلديّة، وأفضل أسلحتهم سكاكين من الحديد الضدئ. يُولدون ويعيشون ويحبّون ويموتون. إنهم يعلمون أن اللورد موتون يَحكم أراضِيهم، لكن قلائل منهم رأوه، و(ريقرتن) و(كينجز لاندنج) وغيرهما مجرّد أسماء بالنسبة إليهم».

قالت بريان: «ومع ذلك يعرفون الآلهة. هذا عملك في رأيي. منذ متى تجول في أراضي النهر؟».

- «قريبًا سيتم تجوالي أربعين عامًا»، أجاب الشيتون، وأطلق كلبه نباحًا عاليًا. «من (بركة العذارى) إلى (بركة العذارى) تستغرق جولتي نصف عام وكميزًا ما تطول عن هذا، وإن كنت لا أدعي أنني أعرف (الثالث). إنني أبصر قلاع اللوردات العظام من بعيد فقط، لكنني أعرف بلدات الأسواق والمعازل، والقرى الأصغر من أن تكون لها أسماء، وسُوج الشجيرات والثلال، والفُدران التي يشرب منها العطاشى، والكهوف التي يستطيعون أن يَأووا إليها، وأعرف الطرق التي يسلكها العامة، الذُروب الموحلة المتعزجة التي لا تظهر على أي خريطة من ورق الرُّقوق»، وقهقهة مضيئًا: «يَجْدر بي أن أعرف. لقد وطأت قدمي كل ميل منها عشر مرّات».

المجرمون يَسْلُكون الطُّرق الخلفيّة، والكهوف مكان مثالي لاختباء المطاردين. جعلت لمحة من الارتياح بريان تتساءل عن قدر معرفة السير هايل بهذا الزجل. «لا بُدّ أنها حياة مفعمة بالوحدة أيها الشيتون».

قال ميريبولد: «(السبعة) معي دومًا، ولديّ خادمي المخلص، وكلب أيضًا».

سأله يودريك باين: «ألكبك اسم؟».

- «مؤكّد، لكنه ليس كلبى، ليس هذا».

نبخ الكلب وهزهزّ ذيله. إنه مخلوق ضخم أشعث، يزن مئة رطل على الأقل، لكنه ودود.

سأل يودريك: «إلى من ينتمي إذن؟».

- «إلى نفسه بالطبع، وإلى الآلهة. أمّا اسمه فلم يُخبرني به، ولذا أدعوه بكلب».

- «أوه». كان واضحًا أن يودريك يجهل ماذا يقول عن كلب اسمه كلب، وقد فكّر في هذا فترة، ثم قال: «كان عندي كلب في صغري، سميته هيرو».

- «وهل كان اسمًا على مسقى؟».

- «كان ماذا؟».

- «بطلًا».

- «لا، لكنه كان كلبًا مطيعًا. لقد مات».

قال الشيتون: «كلب يُحافظ على سلامتي على الطرق، حتى في أوقات عصيبة كهذه. لا ذنب أو خارج عن القانون يجسر على إزعاجي ما دام كلب إلى جانبي»، وعقد حاجبيه مردفًا: «الذئاب أصبحت شنيعة في الآونة الأخيرة. في أماكن بعينها خيز للمرء أن يجد شجرة ينام فوقها. في حياتي كلها أكبر قطيع رأيته كانت ذنابه أقل من دسته، لكن القطيع العظيم الذي يجوب أراضي (الثالوث) الآن تعداده بالمئات».

سأله السير هايل: «هل رأيت تلك الذئاب بنفسك؟».

- «أعفيت من ذلك وليحمني (الشبعة)، لكني سمعتها ليلاً أكثر من مرة. أصوات كثيرة للغاية... صوت يُختر دماء المرء في عروقه ويجعل كلب نفسه يرتعد، مع أنه قتل دسته من الذئاب من قبل»، وداعت رأس الكلب نافسًا شعره، وتايغ: «ستجدين مَنْ يقول لك إنها شياطين. يقولون إن القطيع تقوده ذئبة وحشية أشبه بظُلّ شبحي، شرسة وشهباء وضخمة، ويقولون إنها معروفة بافتراس الثيران البرّية بمفردها، وإن لا قح أو شرك يُقَيِّدها، وإنها لا تخاف الفولاذ أو النار وثقل أي ذنب يُحاول اعتلاءها ولا تلتهم إلا لحم البشر».

قال السير هايل هنت ضاحكًا: «ها قد فعلتها أيها الشيتون، الآن عينا يودريك المسكين مئسعتان كأنهما بيضتان مسلوقتان».

رَدَّ يودريك ساخطًا: «غير صحيح»، وأطلق كلب نباحًا.

ليلتها أقاموا مخيمًا باردًا وسط الكثبان. أرسلت بريان يودريك يمشي على الساحل ويبحث عن خشب مجروف لإشعال النار، لكنه عاد خاوي الوفاض والظمي يُغْطي ساقيه حتى الركبتين.

نصحه الشيتون ميريبولد قائلاً: «ابتعد عن الظمي يا بُني.
الظمي لا يحب الغرباء، وإذا مشيت في المكان الخطأ سينشق
ويبتلعك».

قال يودريك بإصرار: «إنه طمي فحسب».
قال الرّجل: «إلى أن يملأ فمك ويبدأ الرّحف داخل أنفك.
عندئذ هو الموت»، وابتسم ليكسر حدة كلامه مردقاً: «امسح
الظمي وتعال كل فضا من البرتقال يا بُني».

كان اليوم الثالي مزيداً من الأشياء نفسها. أفضروا على ستمك
القُد والمزيد من فصوص البرتقال، وواصلوا طريقهم قبل أن
تشرق الشمس تماماً، من ورائهم سماء وردية ومن أمامهم سماء
أرجوانية. قاد كلب الطريق متشققاً كل كتلة من البوص
ومتوقفاً بين الفينة والفينة ليتبول على إحداها، وقد بدا أنه
يعرف الطريق مثل ميريبولد بالضبط، وشق صياح طيور خطاف
البحر الزاجف هواء الصّباح مع تدفق مياه القد.

قرب منتصف النهار توقّفوا في قرية ضئيلة هي الأولى التي
صادفوها، حيث ترتفع ثمانية بيوت على ركائز خشبية فوق
جدول صغير. كان الزّجال يصطادون في زوارقهم الجلدية، لكن
النساء والأطفال نزلوا على سلالمدلاة من الحبال وتجمعوا
حول الشيتون ميريبولد ليصلّوا، وعقب الطقوس غفر لهم
خطاياهم، ثم تركهم بعد أن أعطاهم القليل من اللفت وجوالاً من
الفاصوليا وأثنتين من برتقالاته الثمينة.

عندما عادوا إلى الطريق قال الشيتون: «خيز لنا أن نعيّن
حراسة الليلة أيها الأصدقاء. أهل القرية قالوا إنهم رأوا ثلاثة
رجال مكسورين يتسلّلون حول الكثبان غرب برج المراقبة
القديم».

ابتسم السير هایل قائلاً: «ثلاثة فقط؟ ثلاثة بمثابة العسل
عند مبارزتنا العزيزة. ليس محتملاً أن يزيعجوا قوماً مسلّحين».

قال السّيتون: «ما لم يكونوا يتضوّرون جوعًا. في هذه المستنقعات طعام، ولكن فقط لمن يعرف أين يبحث، أمّا هؤلاء الرّجال فأغراب، ناجون من معركة أو أخرى. إذا دنوا منا فأرجوك أيها الفارس أن تتزكهم لي».

- «وماذا ستفعل معهم؟».

- «سأطعمهم، سأسألهم أن يعترفوا بخطاياهم كي أغفرها لهم، وأدعوهم إلى المجيء معنا إلى (جزيرة الهدوء)».

رَدَّ هائل هُنت: «كانك تدعوهم إلى ذبحنا ونحن نائمون. اللورد رائدل له سبيل أفضل للتعامل مع الرّجال المكسورين... الفولاذ والحبال».

تساءل يودريك: «أيتها الفارس، سيّدتي، هل الرّجل المكسور خارج عن القانون؟».

أجابَت بريان: «بشكل ما».

ناقضها السّيتون ميريبولد قائلاً: «الأمر ليس بهذه البساطة. الخارجون عن القانون أنواعهم كثيرة كثرة أنواع الطّيور. زَمَار الرّمل ونورس البحر كلاهما له جناحان، لكنهما مختلفان. يحبّ المطربون الغناء عن الرّجال الصّالحين الذين أرغموا على الخروج عن القانون لقتال أحد اللوردات الأشرار، لكن معظم الخارجين عن القانون أقرب إلى كلب الضّيد المفترس هذا من سيّد البرق. إنهم سفلة يحزّكهم الجشع ويلوّثهم الحقد، يستخفّون بالآلهة ولا يكثرثون إلّا لأنفسهم. أمّا الرّجال المكسورون فيستحقّون شفقّتنا أكثر، ولو أنهم لا يقلّون خطراً. كلّهم تقريباً أولاد عوام، قوم بسطاء لم يبتعدوا أكثر من ميل واحد عن البيت الذي وُلِدوا فيه، إلى أن يحين يوم ويأتي أحد اللوردات ليأخذهم إلى الحرب. بأحذية بالية وثياب مهترئة يسيرون تحت راياته، وفي أغلب الأحيان لا يكون سلاحهم أفضل من منجل أو معزقي مسنون، أو مطرقة صنعوها بأنفسهم يربط حجر على عصا بشريط من الجلد.

يسير الإخوة مع إخوتهم والأبناء مع آبائهم والأصدقاء مع أصدقائهم. لقد سمعوا الأغاني والقصص، فيذهبون بقلوب متشوّقة حالمين بالأعاجيب التي سيرونها وبما سيكسبون من ذهب ومجد. تبدو لهم الحرب مغامرة رائعة، أعظم ما سيشهده أكثرهم في حياته... ثم يذوقون طعم المعركة. بالنسبة إلى بعضهم يكفي هذا المذاق الواحد لكسرهم، في حين يستمرّ آخرون سنوات إلى أن يعجزوا عن إحصاء المعارك التي قاتلوا فيها، لكن حتى الرّجل الذي نجا من مئة قتالٍ يُمكن أن ينكسر في القتال الواحد بعد المئة. يُشاهد الإخوة إخوتهم يموتون، ويفقد الآباء أبناءهم، ويرى الأصدقاء أصدقاءهم يُحاولون إعادة أحشائهم إلى بطونهم التي بقزتها فأس، يرون اللورد الذي قادهم يُقتل، ويسمعون غيره يصيح أنهم رجاله الآن. يُصابون بجرح، وقبل أن يندمل يُصابون بآخر، وليس هناك طعام كافٍ أبداً، وأحذيتهم تتفشخ من طول السير، وثيابهم ممزّقة تتعفن، ويُصفهم يتبرز في سراويله من جرّاء شرب المياه الفاسدة. إذا أرادوا حذاءً جديداً أو معطفاً أثقل أو ربما خوذة قصيرة صدئة فعليهم أن يخلعوها عن جيئة، ولا يمضي وقت طويل قبل أن يبدأوا في سرقة الأحياء أيضاً، فيسرقون من الأهالي الذين يُقاتلون في أراضيتهم، من أناس يُشبهون كثيراً من كانوا يذبحون خرافهم ويسطون على دجاجهم، ومن هنا تفصلهم خطوة قصيرة فقط عن اختطاف بناتهم أيضاً.

ثم يتطلعون حولهم في يوم من الأيام ليدركوا أن أهلهم وأصدقاءهم جميعًا لم يعودوا هناك، أنهم يُقاتلون إلى جوار غرباء تحت راية يتعرّفونها بالكاد. لا يعرفون أين هم الآن ولا كيف يرجعون إلى ديارهم، واللورد الذي يُقاتلون من أجله يجهل أسماءهم، لكن ها هو ذا يزعم فيهم أن يتخذوا تشكيلهم ويُكوّنوا صفًا من الحراب والمناجل والمعاذق المسنونة، أن يثبتوا... ثم ينقضّ عليهم الفرسان، رجال بلا وجوه مدرّعون بالفولاذ، ويملاً هدير هجمتهم الحديدية العالم... وعندئذ ينكسر الرّجل؛ يستدير ويهزّب، أو يزحف مبتعدًا بعدها فوق جثث القتلى، أو ينسلّ تحت جناح الظلام ويجد مكانًا يختبئ فيه. ما عاد في عقله خاطر عن الوطن، والملوك واللوردات والآلهة لا قيمة لهم عنده تزيد على قيمة فخّذ من اللحم الفاسد سبقيه على قيد الحياة يوقا آخر، أو قرية من اللبذ الثالف قد تُغرق مخاوفه بضع ساعات. الرّجل المكسور يحيا من يوم إلى يوم، من وجبة إلى وجبة، أقرب إلى حيوانٍ من إنسان. الليدي بريان ليست مخطئة. في أوقات كهذه يجب أن يحذر المسافرين الرّجال المكسورين ويخافوهم... لكن يجب أن يُشفقوا عليهم أيضًا».

حين فرغ الشيتون ميريبولد من الكلام رانّ صمت مهيب على مجموعتهم الصغيرة. سمعت بريان هفيف الرّيح في كتلة من الضفصاف القصير، وفي مكانٍ ما أبعد طائر غواص يصيح، وسمعت كلب يلهث بخفوت وهو يتوّب إلى جوار الشيتون وحماره وقد تدلّى لسانه من فمه.

امتدّ الهدوء وامتدّ، إلى أن قالت أخيرًا: «في أي سن أخذوك إلى الحرب؟».

أجاب ميريبولد: «لم أكن أكبر من صبيك هذا، صغيّرًا للغاية على القتال والحق يُقال، لكن إخوتي كلهم كانوا ذاهبين ولم أريد أن يتزكوني وحدي. قال ويلام إنه يمكنني أن أكون مرافقه، ولو أن ويل لم يكن فارسًا، بل مجرد ساق مسلح بسكين مطبخ سرقه من الخان. لقد مات في (الأعتاب) دون أن يضرب ضربة واحدة. الخمي أجهزت عليه وعلى أخي روبن. أوين مات بهراوة فلقت رأسه، وصديقه جون المجدور شقيق بثمة الاغتصاب». سأل السير هايل هنت: «حرب ملوك التسع بنسات؟». - «هكذا أطلقوا عليها، مع أنني لم أر ملكًا أو أجن بنسًا. لكنها كانت حربًا، كانت حربًا حقًا».

سامويل

وقف سام أمام الثافذة يتأرجح على كعبيه بعصبية ويُشاهد البصيص الأخير من نور الشمس يختفي وراء صف من الشقوق المدئية، وبكآبة قال لنفسه: لا بد أنه سكر ثانية، أو قابل فتاة أخرى. لا يدري هل يسب ويلعن أم يبكي. المفروض أن داريون أخوه. اطلب منه أن يُعْثِي ولا أحد أفضل منه، لكن اطلب منه أن يفعل أي شيء آخر...

بدأ ضباب المساء يرتفع مرسلاً أصابع رمادية تزحف على جدران المباني المصطفة على ضفة القناة القديمة، وقال سام: «لقد وعد بأنه سيعود. أنت أيضًا سمعته».

رمقته جيلي بعينين منتفختين مؤظرتين بالأحمر، وقد تدلى شعرها على وجهها متشابكًا متسخًا، فبذت كحيوان حذر يختلس النظر من داخل دغل. أيام عدة مرّت منذ شعروا بحرارة النار، لكن الفتاة الهمجية تحبّ الجثوم قرب المستوقد، كأن لمحة من الدفء لا تزال عالقة بالزّمام البارد. قالت له هامسة كي لا تُوقظ الرضيع: «إنه لا يحب البقاء معنا، المكان حزين هنا. يحب البقاء حيث الثبيذ والابتسامات».

فكر سام: نعم، والثبيذ في كل مكانٍ إلّا هنا. (براهوس) ملأى بالخانات والحانات والمواخير، وإذا كان داريون يؤثر النار وكوبًا من الثبيذ المتبل على الخبز البائت وضحية امرأة باكية وجبان بدين وعجوز مريض، فمن يلومه؟ أنا ألومه. قال إنه سيعود قبل الشفق، قال إنه سي جلب لنا نبيذًا وطعامًا.

مرّة أخرى نظر من النافذة أملًا رغم خيبة الأمل أن يرى المغني مسرعًا بالعودة. كان الظلام يحلّ على المدينة السريّة ويتسلّل إلى الأزقة والقنوات. قريبًا سيفلق أهل (براقوس) الطيّبون مصاريع نوافذهم وينزلون مزاليج أبوابهم، فالليل ينتمي إلى مبارزي البراقو والمحظّيات. فكّر سام بمرارة: «أصدقاء داريون الجدد. في الفترة الأخيرة لا يتكلّم داريون إلّا عنهم، ويحاول أن يكّتب أغنيّة عن محظّية اسمها ظل القمر سمقته يُقنّي إلى جوار (بركة القمر) وجارّته بقبلة. قال له سام: «كان واجبك أن تطلّب الفضة. إننا محتاجون إلى الثّقود لا القبلات»، لكن المغني اكتفى بالابتسام مجيبًا: «بعض القبلات أئمن من الذهب الأصفر أيها القاتل».

هذا أيضًا يغضبه، فلا يفترض أن يؤلّف داريون الأغاني عن المحظّيات، وإنما ينبغي له أن يُقنّي عن (الجدران) وشجاعة حرس اللّيل. كان جون يأمل أن تنجح أغانيه في إقناع عددٍ من الشّبّان بارتداء الأسود، لكن بدلًا من ذلك يُقنّي داريون عن القبلات الذهبيّة والشعر الفضيّ والشّفاة الحمراء المتورّدة، ولا أحد أبدًا يرتدي أسود حرس اللّيل من أجل الشّفاة الحمراء المتورّدة.

أحيانًا يوقظ غناؤه الرّضيع أيضًا فينفجر في العويل، ويزعق داريون فيه أن يصفّت، وتنتحب جيلي، ويندفع المغني مغادرًا ويغيب أياها. «كلّ هذا البكاء يجعلني أريد أن أصفعها، وأكاذ لا أستطيع الثّوم من نحيبها».

كاذ سام يقول: كنت لتنتحب أيضًا لو كان لك ابن وفقدته. ليس في مقدوره أن يلوم جيلي على حزنها، لكنه يلوم جون سنو ويتساءل متى استحال قلبه إلى حجر. في مرّة ألقى هذا الشّوال تحديداً على المايستر إيمون حين نزلت جيلي إلى القناة تجلب لهم ماء، فأجاب العجوز: «حين رفعته إلى القيادة».

حتى الآن وهو يتعمّن هنا في هذه الغرفة الباردة تحت إفريز الشّطح، ما زال جزء من سام لا يريد أن يصدّق أن جون فعل ما يعتقد المايستر إيمون. لكن لا بدّ أنها الحقيقة، وإلا فلم تبكي جيلي بلا انقطاع؟ ما عليه إلّا أن يسألها ابن من تُرضع من ثديها، لكنه لا يملك شجاعة الشّوال ويخشى الجواب. ما زلّ جبانًا يا جون. أينما ذهب في هذا العالم الفسيح لازمته مخاوفه.

تردّت أصداء هدير عميق على سقوف (براقوس) كهزيم رعد بعيد إذ أطلق (المارد) نفيّر المساء عبر الهور. كان الصّوت صاخبًا لدرجة أيقظت الرّضيع، ليوقظ عويله المايستر إيمون بدوره، وبينما ذهبت جيلي إلى الصّغير لثلقمه ثديها انفتحت عينا العجوز وتحرك بوهن على الشّرير الضيّق قائلاً: «إج؟ المكان مظلم. لماذا هذا الظّلام الدّامس؟».

لأنك أعمى. منذ وصلوا إلى (براقوس) وعقل إيمون يتوه أكثر فأكثر. في بعض الأيام لا يعرف أين هو، وفي بعضها يشردّ ذهنه وهو يقول شيئًا ما ويهيم في الكلام عن أبيه أو أخيه. قال سام لنفسه مذكّرًا: إنه في المئة والاثنتين من العمر. غير أن الرّجل كان في الشّئ نفسها في (القلعة الشّوداء) ولم يثّث عقله هناك قطّ.

قال مضطّرًا: «هذا أنا، سامويل تارلي، وكيلك». لعقّ المايستر إيمون شفّتيه وأغمض عينيه وفتحهما قائلاً: «سام، نعم، وهذه (براقوس). سامحني يا سام. هل أتى الصّباح؟».

- «لا»، وتحشّس سام جبهة العجوز، ليجد جلده مبلّلاً بالفرق وملامسه بارد رخو، علاوة على أن كلّ نفيس يلفظه يخرج منه مصحوبًا بصفير خافت. «إنه اللّيل أيها المايستر. كنت نائمًا». - «نمّث طويلًا جدّا. المكان بارد».

رَدَّ سام: «ليس عندنا حطب، وصاحب الخان يَرْفُض إعطاءنا المزيد إلى أن ندفع ثمنه». إنها المرة الرابعة أو الخامسة التي يُقال فيها الكلام ذاته، وكلُّ مَرَّةٍ يُؤَبِّخ سام نفسه قائلاً: كان عليّ أن أشتري حطبًا بالثُّقود، كان عليّ أن أكون عاقلاً وأحافظ على رقبته.

وبدلاً من ذلك بَدَّد آخر ما معهم من قِصَّةٍ على مُعالِجٍ من (بيت الأيدي الحمراء)، رجل طويل شاحب يرتدي ثياباً مطرزةً بخطوطٍ دَوَّامةٍ من الأحمر والأبيض. لم يَحْضُلُوا بِالْفِصَّةِ على أكثر من نصف قنينةٍ من نبيذ الثوم، وقال البراقوسي بنبرةٍ لم تفتقر إلى الرِّفق: «قد يُساعد هذا على تسهيل الزَّحِيل عليه»، فسأله سام إن كان يستطيع أن يفعل المزيد، لكن الرُّجل هَزَّ رأسه نفياً، وأجاب: «إن عندي مراهم وعقاقير وأنقعةً وصبغاتٍ وسموماً وكقادات، وأستطيع أن أعطيه دواءً مسهلاً للبطن أو أعلِّق له العلق... لكن لماذا؟ لا غِلَّةٌ سترُدُّ إليه شبابه. هذا رجل هَرَم، والموت في رثتيه. اسقه هذا ودعه ينام».

ونام العجوز طيلة الليل وطيلة النهار، وإن كان الآن يُكافِح للاعتدال جالساً، ويقول: «يجب أن نذهب إلى السفن».

السفن مَرَّةً أُخرى. رغماً عنه قال له سام: «إنك أضعف من أن تُخْرَج». أصاب المايستر إيمون بردٌ في أثناء رحلتهم في البحر وكَمَنَ في صدره، ولدى بلوغهم (براقوس) كان واهناً لدرجة أنهم حملوه حملاً إلى الشاطئ. حينئذٍ كانت لا تزال معهم ضُرَّةٌ منتفخةٌ بالفِصَّة، فطلب داريون أكبر أسرَّة الخان، وحصلوا على واحدٍ يَتَّسع لثمانية، فأصرَّ صاحب الخان على أن يَنْقُدوه ثَمَن هذا العدد.

وعده سام قائلاً: «غدا نذهب إلى الميناء. يمكنك أن تستعلم عما تريد وتعرف ما السفينة التالية المبحرة إلى (البلدة القديمة)». حتى في الخريف تظل (براقوس) ميناء مزدحماً، وبمجرد أن يسترد المايستر إيمون ما يكفي من طاقة للسفر فلن يجدوا مشكلة في العثور على سفينة تأخذهم إلى حيث يريدون الذهاب. الأصعب أن يدفعوا تكلفة رحلتهم، وأفضل أمل لهم أن تكون السفينة من (الممالك الشيع). سفينة تجارية من (البلدة القديمة) ربما، لبخارتها أقارب في حرس الليل. لا بد أن بعض الناس ما زال يحتفي بالرجال الذين يحرسون (الجدار).

صفزت أنفاس المايستر إيمون وهو يقول: «(البلدة القديمة)، نعم. لقد حلمت بـ(البلدة القديمة) يا سام. كنت شاباً من جديد وكان معي أخي إج وذلك الفارس الكبير الذي يخدمه. كنا نشرب في الخان القديم الذي يُقدّمون فيه خمر الثّقاح القويّة للغاية». حاول ثانية أن ينهض، لكنه ألقى المجهود أقوى منه، وبعد لحظة عاد يتمدد، وقال: «الشفن. سنجد الإجابة هناك، بخصوص الثنائين. أحتاج إلى المعرفة».

لا، ما تحتاج إليه هو الطعام والدّفء، تحتاج إلى معدة ممتلئة ونار تُطّقطق في المستوقد. «أنت جائع أيها المايستر؟ تبقى لدينا القليل من الخبز والجبنة».

- «ليس الآن يا سام، لاحقاً حين أصبح أقوى».

- «كيف سئصبح أقوى ما لم تأكل؟». لم يأكل أيُّهم الكثير في البحر منذ (سكاجوس). طوال طريقهم عبر (البحر الضيق) استيذت بهم عواصف الخريف، تهبُّ أحيانًا من الجنوب مصحوبةً بالرَّعد والبرق والأمطار السوداء التي تنهمر أياها بلا انقطاع، وأحيانًا من الشَّمال باردةً كثيفةً تنفذ ريحها العاتية إلى عظام المرء. في مَرَّةٍ اشتدَّ البرد على نحوٍ غير مسبوق، حتى إنَّ سام استيقظ ليجد السفينة كلها مغلفةً بجليد أبيض يلتصق كاللؤلؤ. كان الرُّبان قد أنزلَ الضَّاري وربَّطه على السطح ليكمل الرِّحلة بالمجاذيف فقط، ولدى رؤيتهم (المارد) أخيرًا لم يكن أحدهم يأكل.

لكن حالما صاروا آمنين على الشاطئ وجدَّ سام معدته تُصرخ جوعًا، مثله مثل داريون وجيلي، وحتى الصغير بدأ يرضع بشراهةٍ أكثر، أمَّا إيمون...

قال سام للعجوز: «الخُبز بائت، لكن يُمكنني أن أتوشل القليل من المرق من المطبخ لثَّقَمِّسه به». صاحب الخان رجل قارس يارد العينين ويرتاب في هؤلاء الأغراب السود تحت سقفه، لكن الظَّاهي أكثر وُدًا.

- «لا، لكن هل لي برشفةٍ من الثَّبيذ؟».

ليس لديهم نبيذ. كان داريون قد وعدَ بابتِباع القليل منه بما سيَجنيه من غنائه. قال سام: «سنشرب النبيذ فيما بعد. عندنا ماء، لكنه ليس الماء النظيف». الماء النظيف يأتي من فوق قناطر القناة القرميد العظيمة التي يَسقيها البراقوسيون نهر المياه العذبة، والتي يضخُّ الأثرياء ماءها إلى منازلهم، في حين يملأ الفقراء دلاءهم وشطولهم من النواير العامة. كان سام قد أرسلَ جيلي لتجلب القليل منه ناسيًا أن الفتاة الهمجية عاشت حياتها كلها في حدود (قلعة كراستر) دون أن ترى ولو بلدة سوق صغيرة. أخافتها المتاهة الحجرية المسقاة (براقوس) بجزرها وقنواتها وخلوها من الغشب والشجر وامتلائها بالغرباء الذين يَحذِّثونها بكلمات لا تفهمها—أخافتها لدرجة أنها فقدت الخارطة وسرعان ما تاهت، ووجدتها سام تبكي عند قدمي تمثال أمير بحر مات منذ زمن بعيد. قال للمايستر إيمون: «ليس عندنا إلا ماء القناة، لكن الظاهي غلاه. هناك نبيذ نوم أيضًا إذا كنت تريد المزيد منه».

- «لقد نمث وحلمت بما فيه الكفاية. لا بأس بماء القناة. ساعدني من فضلك».

برفقي ساعد سام العجوز على الاعتدال ورفع كوبًا إلى شفثيه الجاقتين المشققتين، وعلى الرغم من هذا انسكب نصف الماء على صدر المايستر، وبعد بضع رشقات سعل وقال: «كفى، سثفرقني»، وارتجف بين ذراعي سام متسائلًا: «لماذا الغرفة باردة هكذا؟».

- «لم يَفِدْ لدينا حطب». كان داريون قد نَقَدَ صاحب الخان ضَعْفَ الأجرة لأجل غُرْفَةٍ مزوَّدة بمستوقد، لكن لا أحد منهم كان يعلم أن الحطب باهظ الثمن هنا لهذه الدرجة، فالأشجار لا تنمو في (براقوس) إلا في ساحات وحدائق عليّة القوم، كما أن البراقوسيين يأبون قطع شجر الصنوبر الذي يُقَطَّلِي الجُزُرَ الثائية المحيطة بالهور العظيم ويعمل كحواجز ريح تقيهم العواصف، وبدلاً من هذا يأتون بالحطب بالقوارب عبر النهر والهور. حتى الزوّث مكلف هنا، فالبراقوسيون يستخدمون القوارب بدلاً من الخيول. ما كان شيء من هذا ليهمّ لو أنهم رحلوا إلى (البلدة القديمة) وفق الخطة، لكن مع مرض المايستر إيمون الشَّدِيدِ ثَبَّتَتْ استحالة ذلك، إذ إن رحلة أخرى في البحر كفيلة بالقضاء عليه.

زحفت يد إيمون على الأغطية بحثاً عن نراع سام، وقال له: «يجب أن نذهب إلى الميناء يا سام».

- «حين تُصْبِح أقوى». ليس العجوز في حالة تُتيح له أن يَواجِه الزّاذ المالح والريّح البليّة على الواجهة المائيّة، و(براقوس) كلّها واجهة مائيّة. إلى الشّمال (الميناء الأرجواني)، حيث ترسو الشفن التجاريّة البراقوسيّة أسفل قباب وأبراج (قصر أمير البحر)، وإلى الغرب (ميناء راجمان) المزدحم بالشفن من القدن الخزّة الأخرى و(وستروس) و(إيبين) وبلدان الشّرق البعيدة المحفوفة بالأساطير، وفي كلّ مكانٍ آخر تنتشر الأرضفة الضّغيرة ومراسي العبّارات والمرافئ الزّماديّة القديمة التي يربط صيادو الأسماك والزّوبيان والشّراطين مراكبهم عندها بعد العمل في الشّهول الطّينيّة ومصبّات النّهر. «سيكون المجهود شديداً عليك».

قال إيمون بالحاح: «اذهب بدلاً مني إذن واجلب لي أحداً رأى تلك الثّنائين».

رَدَّ سام وقد أفرغته الفكرة: «أنا؟ أيها المايستر، إنها مجرد قصة، قصة بخارة». داريون الملووم على هذا أيضًا، إذ اعتاد المغني أن يعود إليهم بمختلف أنواع الحكايات العجيبة من الحانات والمواخير، لكنه لسوء الحظ كان ثملًا عندما سمع حكاية الثنائيين ولا يتذكر تفاصيلها. «ربما اختلقها داريون بزمّتها. هذا ما يفعله المغنون، يُلَقِّقون الحكايات».

قال المايستر إيمون: «نعم، لكن ربما يحوي أكثر الأغاني شطوحًا في الخيال لمحةً من الحقيقة. اعثر على تلك الحقيقة من أجلي يا سام».

- «لن أدري من أسأل أو كيف أسأله. إنني أعرف القليل فقط من القاليريّة الفصحى، وعندما يكلّمونني بالبراقوسية لا أفهم يصف ما يقولون. أنت تتكلّم لغات أكثر مني، وما إن تُصبح أقوى...».

- «متى سأصبح أقوى يا سام؟ أخبرني».

- «قريبًا، إذا استرحت وأكلت. حين نصل إلى (البلدة القديمة)».

قاطعه العجوز: «إنني لن أرى (البلدة القديمة) ثانية أبدًا، أعلم هذا الآن»، وأحكم قبضته على ذراع سام متابعًا: «قريبًا سأكون مع إخوتي. بعضهم ربطتني بهم الأيمان وبعضهم ربطني به الدّم، لكنهم كانوا إخوتي جميعًا. وأبي... إنه لم يحسب قط أن العرش سينتقل إليه، لكنه انتقل، وردّد كثيرًا أن هذا عقابه على الضربة التي أودّت بحياة أخيه. أدعو الآلهة أنه وجد في الموت السّلام الذي لم يعرفه قط في الحياة. السّيتونات يترنّمون عن راحة جميلة، عن تخليّنا عن همومنا والارتحال إلى أرض بعيدة رائعة نضحك ونحبّ ونلتهم الولائم فيها حتى آخر الزّمان... لكن ماذا لو لم يكن لأرض الثور والعسل تلك وجود؟ وماذا لو لم يكن هناك إلّا البرد والظلمة والالام وراء الجدار المسقى الموت؟».

إنه خائف. «لست تُحتَضِر. إنك مريض فحسب، والمرض سينقضي».

- «ليس هذه المرّة يا سام. لقد حلمت... في جوف الليل يسأل المرء ما لا يجرؤ عليه في ضوء النّهار من أسئلة، وبالنسبة إليّ لم يتبقّ لديّ إلّا سؤال واحد في السنوات الأخيرة. لماذا تأخذ الآلهة عيني وقوّتي ومع ذلك تُحكّم عليّ بالحياة الطويلة مجفّدا منسيا؟ ما فائدة شيخ منتهٍ مثلي عندها؟»، وارتعشت أصابع إيمون الشّبهيّة بفصينات رفيعة مغلّفة بالجلد المبّقّع، وأضاف: «إنني أذكر يا سام، ما زلت أذكر». سأله سام الذي لم يفهم: «تذكر ماذا؟».

همس إيمون: «الثّنائين، بليّة عائلتي ومجدها».

- «آخِر الثّنائين مات قبل أن تولّد، فكيف تذكّرها؟».

- «إنني أراها في أحلامي يا سام، أرى نجما أحمر ينزف في السّماء. ما زلت أذكر الأحمر. أرى ظلالها على الثّلج وأسمع خفقان أجنحتها الجليديّة وأشعر بأنفاسها الساخنة. إخوتي أيضًا حلموا بالثّنائين وقتلتهم أحلامهم جميعًا بلا استثناء. سام، إننا نقف راجفين على حافة نبوءات نصف منسيّة، وأمامنا أعاجيب وأهوال لا أمل لإنسانٍ حيّ في استيعابها... أو...».

- «أو؟».

- «... أو لا»، وقهقهة إيمون بخفوت، وأردف: «أو أنني عجوز محموم يُحتَضِر»، وأغمض عينيه البيضاوين يارهاق، ثم أجبرهما على الانفتاح من جديد قائلا: «ما كان عليّ أن أترك (الجدار) قُط. لم يكن بإمكان اللورد سنو أن يعلم، لكن كان حريّا بي أنا أن أرى. النّار تُذوي، أمّا البرد فيحفظ. (الجدار)... لكن أوان العودة فات. (الغريب) منتظر خارج بابي ولن يُحرّم غنيمته. أيها الوكيل، لقد خدمتني بإخلاص، فأدّ هذه المهمّة الشّجاعة الأخيرة من أجلي. اذهب إلى الشّفن يا سام واعرف كلّ ما تستطيع عن تلك الثّنائين».

سحب سام ذراعه من قبضة العجوز بهدوء، وقال: «سأفعل ما ذمتُ ثريد هذا. إنني فقط...». لا يدري ماذا يقول غير هذا. لا أستطيع أن أرفض طلبه. يمكنه أن يبحث عن داريون أيضًا عند أرصفة ومراسي (ميناء راجمان). سأجد داريون أولًا ونذهب إلى السفن مفا، ولما نعود سيكون معنا طعام ونبيذ وحطب. سنشعل نارا ونأكل وجبة ساخنة شهية. نهض قائلاً: «حسن، سأذهب الآن ما دمّث ذاهبًا. جيلي ستكون هنا. جيلي، أنزلي مزلاج الباب بعد خروجي». (الغريب) منتظر خارج الباب.

أومات جيلي برأسها ضامة الصغير إلى صدرها والذموع تترقرق في عينيها. ستبكي ثانية. هذا يفوق احتمالها حقًا. كان حزام سيفه معلقًا من مشجب على الحائط إلى جوار البوق المكسور الذي أعطاه جون إياه، فاخطفه وتمنطق به، ثم وضع معطفه الضوف الأسود على كتفيه المستديرتين، وخرج من الباب بخطى متثاقلة ونزل السلم الذي صرّت درجاته الخشبية تحت وطأة وزنه. للخان بابان أماميان، أحدهما ينفتح على شارع والثاني على قناة، فخرج سام من الأول ليتجنب القاعة العامة، حيث من المؤكد أن يراه صاحب الخان ويرمقه بالعبوس الذي يذخره للثراء الذين يمكنون بعد زوال الترحاب بهم.

في الهواء برودة، لكن الليلة ليست كثيفة الضباب كأكثر الليالي، وهو ما أشعر سام بالامتنان. أحيانًا يكسو الضباب الأرض بكثافة تحول دون أن يرى المرء قدميه، وفي مرة فصلته خطوة واحدة عن الشقوق في إحدى القنوات.

في صباحه قرأ سام تاريخ (براقوس) وحلم بأن يزورها يوقا. أراد أن يرى (المارد) يرتفع صارقًا مهيبًا من البحر، ويبحر في القنوات بقارب أفعواني مازًا بالقصور والمعابد، ويشاهد مبارزي البراقو يرقصون رقصة الماء وثومض نصالهم في ضوء الثجوم، لكن الآن وقد صار هنا بالفعل فلا شيء يرغب فيه أكثر من الزحيل إلى (البلدة القديمة).

بقلنسوة مرفوعة ومعطف يزفر في الريح قطع الطرقات
المرصوفة بالحصى صوب (ميناء راجمان)، وقد ظل حزام سيفه
يَهْدُد بالشقوق حول كاحليه، فاضطرَّ إلى شدّه إلى أعلى كلّ
مُدّة بينما يمضي. التزم المشي في الشوارع الصغيرة المظلمة،
حيث تقلّ احتمالات أن يلتقي أحداً، إلّا أن كلّ قُطْعة مرّت به
جعلت قلبه يخفق بعنف... و(براقوس) تعجّ بالقُطط. يجب أن
أعثر على داريون. إنه رجل في حرس اللّيل، أخي المحلّف. معاً
سنتوصل إلى ما يمكننا أن نفعله. المايستر إيمون خازن قُواه،
وجيلي كانت لتضيع هنا حتى من دون الأسى الذي يَغفرها، لكن
داريون... لا تجدر بي أن أسيء به الظن. ربما يكون جريحاً
ولهذا السبب لم يرجع، وربما يكون ميتاً، منطرحاً في زقاق ما
في بركة من الدّم، أو طافياً على وجهه في إحدى القنوات. في
اللّيل يمشي فُبارزو البراقو متبخترين في أنحاء المدينة بثيابهم
المبرقشة المبهرجة، ساعين إلى إثبات براعتهم في القتال
بالسيوف الرّفيعة التي يحملونها. بعضهم يُقاتل لأيّ سبب
وبعضهم دون سبب على الإطلاق، وداريون طليق اللسان سريع
الغضب، خصوصاً عندما يشرب. ليس معنى أنه يستطيع الغناء
عن المعارك أنه قادر بالضرورة على خوضها.

تقع أفضل الحانات والخانات والمواخير قُرب (الميناء الأرجواني) و(بركة القمر)، غير أن داريون يُفَضِّل (ميناء راجمان)، حيث فُرصة أن يتكلَّم الزُّبائن اللُّغة العاميَّة أكبر. بدأ سام بحثه في (خان ثُعبان الماء الأخضر) و(المَلَّاح الأسود) و(موروجو)، وكلُّها أماكن سبق لداريون أن غنَّى فيها، لكنه لم يَعرُ على شيء في أيِّها. خارج (بيت الضُّباب) كانت عدَّة قوارب أفعوانية مربوطة في انتظار الزُّبائن، وحاولَ سام أن يسأل المَلَّاحين إن كانوا قد رأوا مطربًا يرتدي السَّواد، لكن لا أحد منهم فهمَ قائليريته الفُصحى. /مَّا هذا وإمَّا أنهم يختارون أَلَّا يفهموا/. ألقى سام نظرة داخل الخُفَّارة القذرة تحت قنطرة (جسر نابو) الثَّانية التي تُتَّسع بالكاد لعشرة أفراد، ولم يكن داريون أحدهم، ثم جُزِبَ (خان المنبوذين) و(دار القناديل الشَّبعة)، ثم الماخور المسقَّى (المقططة)، حيث تلقَّى نظرات الارتياب لكن لا عون على الإطلاق.

بينما يُغادر كاذ يرتطم بشائين واقفين تحت مصباح (المقططة) الأحمر، أحدهما دَاكن الشَّعر والثَّاني أشقره، وقد قال الأول شيئًا ما بالبراقوسية، فرَّد سام مضطرًا: «أسف، لكنني لا أفهمك»، وبدأ يبتعد عنهما خائفًا. في (الممالك الشَّيع) يكسو الثُّبلاء أنفسهم بالمخمل والحرير والشميت من مئة لون، بينما يرتدي الفلاحون والعامة الضَّوف غير المصبوغ والخيش البني الباهت، أمَّا في (براقوس) فالعكس بالعكس، فيمشي مُبارزو البراقو مختالين كالظَّواويس مداعبين سيوفهم، بينما يرتدي الأعيان الزَّمادي الفاحم والأرجواني والأزرق القاتم كالأسود والأسود الحالك كليلة بلا قمر.

- «صديقي تيرو يقول إن بدانتك تقلب معدته»، قال مبارز البراقو الأشقر، الذي يرتدي شتره مقسومةً طولياً إلى مخمل أخضر وقماش فضة. «صديقي تيرو يقول إن صلصلة سيفك تُضدع رأسه». كان يخاطب سام باللغة العامية، أمّا الآخر، البراقو أسود الشعر الذي يرتدي الشتره الخمرية الموشاة تحت معطف أصفر ويبدو أن اسمه تيرو، فألقى تعليقاً ما بالبراقوسية جعل صديقه الأشقر يضحك ويقول: «صديقي تيرو يقول إنك ترتدي ثياباً أعلى من مقامك. أنت أحد اللوردات العظام لترتدي الأسود؟».

أراد سام أن يهزّب، لكن إذا فعل فعلى الأرجح سيتعثر في حزامه بينما يجري. قال لنفسه: لا تلمس سيفك. مجرّد إصبع على المقبض قمين بأن يعتبره أحدهما دعوةً للزّال. حاول التفكير في كلام يسترضيهما، فلم يَخْرُج منه إلّا: «لست...».

تدخّل صوت طفولي قائلاً: «ليس لورد، إنه في حرس الليل أيها الأحمقان، من (وستروس)»، وخرجت فتاة صغيرة إلى الضوء دافعةً عربة يد ملأى بالطحالب البحرية، مخلوقة بانسة نحيلة تنتعل حذاءً كبيراً ولها شعر أشعث مئسج. أخبرت مبارزي البراقو: «هناك واحد آخر في (الميناء الشعيد) يُفْئِي لزوجته البخار»، ولسام قالت: «إذا سألك أي براقو من أجمل امرأة في العالم فقل إنها العندليب وإلا تحذّك للزّال. هل تشتري أم الخلول؟ لقد بعث محاري كلّه».

أجاب سام: «ليس معي مال».

قال البراقو الأشقر ساخراً: «ليس معه مال»، فابتسم صديقه فاحم الشعر ابتسامة عريضة، وقال شيئاً بالبراقوسية ترجمه الأشقر: «صديقي تيرو بردان. كن صديقنا البدين الكريم وأعطه معطفك».

قالت فتاة العربة: «لا تفعل هذا أيضًا وإلا طلبا حذاءك بعده وسرعان ما ستجد نفسك عاريًا».

خاطبها البراقو الأشقر منذراً: «القطط الصغيرة التي تموء بصوت مزعج يُفِرُّونها في القنوات».

ردّت الفتاة: «ليس إذا كان لها مخالب»، وفجأة ظهر في يدها اليسرى سكين نصله رفيع كقوامها، فقال المدعو تيرو شيئاً لصديقه الأشقر، ثم ابتعد الاثنان مقهقهين.

قال سام للفتاة بعد رحيلهما: «أشكركِ».

اختفى سكينها، وقالت: «إذا حملت شيئاً ليلًا فمعنى هذا أنك قابل للثّحدِي. هل أردت أن تُقاتِلهما؟».

خرجت الكلمة من سام كصرير أجفله: «لا!».

سألته الفتاة: «أنت في خرس الليل حقاً؟ لم أرَ أحداً أسود مثلك من قبل»، وأشارت إلى العربة مضيفة: «يُمكنك أن تأكل أم الخُلول المتبقية. لقد سادَ الظلام ولن يبتاعها أحد. هل سُبجر إلى (الجِدان)؟».

أجاب سام: «إلى (البلدة القديمة)»، وأخذ واحدة من أم الخُلول المخبوزة والتهفها بنهم، ثم قال: «نحن بين سفينتين الآن». وجدّ أم الخُلول لذيذة، فأكل أخرى.

- «مبارزو البراقو لا يُزعجون أحداً لا يحمل شيئاً أبداً، حتى فروج الثوق الحمقى مثل تيرو وأوربيلو».

- «من أنت؟».

قالت ورائحة السمك الذّفرة تفوح منها: «لا أحد. كنتُ أحداً من قبل ولم أعُد كذلك. يُمكنك أن تدعوني بكات إذا أردت. من أنت؟».

- «سامويل سليل عائلة تارلي. إنكِ تتكلمين العامية».

- «أبي كان مُشرف الملاحين على متن (نايميريا). قتله براقو لأنه قال إن أمي أجمل من العندليب، ليس واحدًا من فروج الثوق الذين التقيت اثنين منهم، مُبارز براقو حقيقي. في يوم ما سأذبحه. قال الزَّبان إن (نايميريا) ليست في حاجة إلى البنات الصغار وأنزلني، ويَعدها أَخْذني بروسكو إلى بيته وأعطاني عربة». ورفعت عينيها إليه متسائلة: «ما السفينة التي سترحلون عليها؟».

- «دفعنا ثمن رحلة على (الليدي أوشانورا)».

ضيقت الفتاة عينيها بشكِّ قائلة: «لقد رحلت. ألم تعلم؟ غادرت منذ أيام طويلة».

كان سام ليُجيب: أعلم. هو وداريون وقفوا على الرّصيف يُشاهدان مجاذيفها ترتفع وتنخفض بينما تشق طريقها نحو (المارد) والبحر المفتوح، وقال المغني: «طيب، انتهينا إذن». لو كان سام رجلًا أشجع لدفعه في الماء. حين يتعلّق الأمر بإقناع الفتيات بخلع ثيابهن يَقطر من لسان داريون الشَّهد، لكن بوسيلة ما في قمرة الزَّبان وقع عبء الكلام على كاهل سام وحده إذ حاول إقناع الـبراقوسي بانتظارهم، لكن الرجل قال: «انتظرتُ العجوز ثلاثة أيام كاملة. إن مخازني ممتلئة ورجالي نكحوا زوجاتهم ووتّعوهن. بكم أو دونكم سترحل (الليدي) مع الجزر». متوسلاً قال سام: «أرجوك، أيام إضافية قليلة، لا أطلب سوى هذا، كي يستردّ المايستر إيمون قوّته».

كان الرّبان قد زار الخان في اللّيلة السّابقة ليرى المايستر
إيمون بنفسه، فقال: «قوّته كلّها خازت. إنه عجوز ومريض ولا
أريده أن يموت على متن (الليدي). ابقوا معه أو اتزكوه، لا فرق
عندي. أنا مبحز». الأسوأ أنه رفض أن يردّ ثمن الرّحلة الذي
نقدوه إياه بالفعل، الفضة التي كان يفترض أن تأخذهم بأمان
إلى (البلدة القديمة). «لقد استأجرتكم أفضل قمراتي، وهي
موجودة في انتظاركم. إذا اخترتم ألا تشغلوها فليس هذا ذنبي.
لماذا أتحمل الخسارة؟».

قال سام لنفسه محزونًا: لكننا قد بلغنا (وادي الفسق) الآن
بالفعل، بل وربما (بنتوس) أيضًا لو ترققت بنا الرّياح.
لكن شيئًا من هذا لن يهم فتاة العربة، فقال لها: «ذكرت أنك
رأيت مغنيًا...».

- «في (الميناء السعيد). سيتزوّج زوجة البخار».

- «يتزوّج؟».

- «إنها تُضاجع من يتزوّجونها فقط».

- «أين هذا (الميناء السعيد)؟».

- «قبالة (سفينة الممثلين). يُمكنني أن أدلك على الطّريق».

- «أعرف الطّريق». سبقّت لسام رؤية (سفينة الممثلين). لا

يُمكن لداريون أن يتزوّج! لقد حلف اليمين! «يجب أن أذهب».

ركض سام. كان الطّريق طويلًا على حجارة الرّصف الرّلقة،
وسرعان ما راح يلهث ومعطفه الأسود الكبير يخفق بإزعاج
وراءه، وقد أمسك حزام سيفه بينما يركض. رمقه القلائل الذين
صادقهم بنظرات الفضول، ورفعت قطة عجيزتها وهسهست في
وجهه، ولدى بلوغه السفينة كان يترنّح.

قُبالتها في الرُقاق وجدَ (الميناء السعيد)، وما إن دخل سام بوجه محتقن وأنفاس متقطعة حتى طوّقت امرأة عوراء عنقه بذراعيها، فقال لها: «لا. لست هنا لأجل هذا». قالت شيئًا بالبراقوسية، فردّ سام بالقاليرية الفصحى: «لا أتكلّم تلك اللّغة». في المكان شموع مضاءة ونار مشتعلة في المستوقد، وأحدهم يعزف على الكمنجة، ورأى فتاتين ثرقصان حول راهب أحمر بأيدي متشابكة. ضغطت العوراء ثدييها إلى صدره، فصاح: «لا تفعل! هذا! لست هنا لأجل هذا!».

رَنّ صوت داريون المألوف قائلاً: «سام! يانا، دعيه، هذا سام القاتل، أخي المحلف!».

أزاحت العوراء ذراعيها وإن أبقت يداً على ذراعه، ونادت إحدى الزاقصتين قائلةً: «يُمكنه أن يَقْتُلني إذا أرادَ»، وسألت الأخرى: «هل تظنّ أنه سيَتَزَكّي المس سيفه؟». وراءهما قاليون أرجواني مرسوم على الحائط، طاقمه نساء ينتعلن أحذية ترتفع حتى الفخذ ولا يرتدين شيئاً آخر، وفي أحد الأركان ثمة بخار تايروشي غائب عن الوعي ويغظ من تحت لحيته القرمزية الضخمة، وفي موضع آخر امرأة أكبر سنّاً ذات نهدين عظيمين تلعب البلاطات مع رجلٍ عملاق من (جزر الضيف) يرتدي الزيش الأسود والقرمزي، وفي مركز كل هذا يجلس داريون ممزّغاً أنفه في رقبة المرأة الجالسة في حجره مرتديةً معطفه الأسود.

نادى المغني بلسان أثقلته الخمر: «أيها القاتل، تعال والتقي السيدة زوجتي». شعره رمل وعسل، وابتسامته دافئة. «غثيث لها أغاني الحب. النساء يذبن كالزبدة حين أغني. كيف أقاوم هذا الوجه؟»، وقبّل أنفها، وتابّع: «أعطي سام قبلةً يا زوجتي، إنه أخي». لقد نهضت الفتاة رأى سام أنها عارية تحت المعطف، وقال داريون ضاحكاً: «إياك أن تعبت بجسد زوجتي أيها القاتل، لكن إذا أردت واحدةً من أخواتها ففضل. ما زال معي مال يكفي على ما أظنّ».

مال كان يُمكن أن تشتري به لنا طعامًا، مال كنا لنشتري به
حطبًا ليتدقَّ المايستر إيمون. «ماذا فعلت؟ لا يُمكنك أن تتزوَّج.
لقد حلفت اليمين مثلي. يُمكن أن يقطعوا رأسك من أجل هذا».
- «إننا متزوَّجان لليلة واحدة فقط أيها القاتل. حتى في
(وستروس) لا أحد يقطع رأسك من أجل هذا. ألم تذهب إلى
(بلدة المناجذ) ولو مرَّة لثقب عن الكنوز الدفينة؟».

احتقن وجه سام، وقال: «نعم، لا يُمكنني أبدًا أن...».
- «وماذا عن فتاتك الهمجية؟ لا بُدَّ أنك ضاجعتها مرَّة أو
ثلاثًا. كلُّ تلك الليالي في الغابة تحت معطفك، لا تقل لي إنك لم
تضعه فيها قط»، ولوح داريون بيده نحو مقعد مردقًا: «اجلس
أيها القاتل. خذ كوبًا من الثبيذ، خذ عاهرة، خذ الاثنين».
قال سام الذي لا يُريد كوبًا من الثبيذ: «لقد وعدتني بالعودة
قبل الشفق، بأن تجلب نبيذًا وطعامًا».

ردَّ داريون: «أهكذا قتلت (الآخر)؟ بتوبيخه حتى الموت؟»،
وضحك قائلاً: «هي زوجتي لا أنت. ما دُمت لن تشرب نخب
زواجي فغادر».

- «تعال معي. المايستر إيمون استيقظ ويُريد أن يسمع ما
يُقال عن تلك الثنائين. إنه يتكلَّم عن الشجوم الثازفة والظلال
البيضاء والأحلام و... إذا عرفنا المزيد عن تلك الثنائين فربما
يُريحه هذا. ساعدني».

- «غذا، ليس ليلة زفافي»، ودفع داريون نفسه إلى الوقوف،
وأخذ عروسه من يدها وبدأ يتحرَّك نحو الشلالم ساحبًا إياها.
اعترض سام طريقه قائلاً: «لقد وعدت يا داريون، وحلفت
اليمين. المفروض أنك أخي».

- «في (وستروس). هل يبدو لك أننا في (وستروس)؟».

- «المايستر إيمون...».

قاطعه داريون بفم قسا: «... يُحتَضِر. هذا ما قاله المُعالج
المخطّط الذي بدّدت عليه قُصَّتنا. خُذ فتاةً أو ارحل يا سام. إنك
تُفسد زفافي».

قال سام: «سأذهب، لكنك آتٍ معي».

- «لا، لقد فرغْتَ منك وفرغْتَ من الأسود»، وانتزع داريون
معطفه من على جسد عروسه العاري ورماه في وجه سام قائلاً:
«هاك. ألقِ هذه الخرقه على العجوز وربما تُدقِّنه أكثر قليلاً. لن
أحتاج إليها. قريباً سأرقلُ في المخمل، والعام القادم سأكون
مرتدياً الفراء وآكل...».

وضربه سام.

لم يُفكِّر. ارتفعت يده وتكوّرت قبضته وارتطقت بفم المغني،
ليُطلق داريون سباباً وتصرّخ زوجته العارية، وألقى سام نفسه
على المغني وأسقطه على ظهره فوق مائدة واطنة. الاثنان
قريبان في الطول، لكن سام يفوقه وزناً مرّتين، وهذه المرّة على
الأقل هو أكثر غضباً من أن يخاف. لكم المغني في وجهه
وبطنه، وراح يهوي على كتفيه بقبضتيه، ولما أمسك داريون
معصميه نطحه سام برأسه وشقّ شفته، فتخلّى المغني عن
معصميه وضرّبه في أنفه. في مكانٍ ما كان رجل يضحك وامرأة
تسبّ وتلعن، وبدأ أن حركة العراق تتباطأ، كأنهما ذبابتان
سوداوان تخوضان في قطعة من الكهرمان... ثم جرّ أحدهم
سام من فوق صدر المغني، فضرب هذا الشخص أيضاً، ثم هوى
شيء على رأسه.

بعدها لم يشفر إلا بنفسه في الخارج طائراً في الضباب،
ولأقل من لحظة رأى المياه السوداء تحته، ثم ارتفعت القناة
ولطقت على وجهه.

وغاض سام كالحجر، كالجلمود، كالجبل.

دخل الماء عينيه وأنفه قاتقا باردًا مالخًا، ولمّا حاول أن يصيح مستغيثًا ابتلع المزيد، وراح يرقّس ويشهق منقلبا والفقاقيع تتفجّر من أنفه. قال لنفسه: *أسبح، أسبح*. لسع الملح عينيه عندما فتحهما وأعماههما، وبرز رأسه من الشطح لحظة غبّ خلالها الهواء وضرب الماء بياض بيد واحدة بينما تحششت الثانية جدار القناة، لكنه وجد الحجارة زلقة لزجة ولم يستطع الإمساك بها... وعاد يغوص.

أحسّ سام بالبرودة على جلده مع نفاذ المياه من ثيابه، وانزلق حزام سيفه على ساقيه واشتبك حول كاحليه، وبهلع أسود أعمى قال لنفسه: *سأغرق*. تلوّى محاولًا العبور على طريق العودة إلى الشطح، وبدلاً من هذا لطفه قاع القناة على وجهه. *إنني مقلوب، إنني أغرق*. تحرّك شيء تحت يده الضاربة بهياج، ثعبان ماء أو سمكة انزلقت بين أصابعه. *لا يمكن أن أموت. المايستر إيمون سيموت من غيري، ولن يعود لجيلي أحد*. يجب أن أسبح، يجب أن...

سمع شيئاً ضخماً يرتطم بالماء، وشعر بشيء ما يظوّقه من تحت ذراعيه وحول صدره، وأول ما خطر له كان: *ثعبان الماء، الثعبان طوّقني، سيسحبني إلى أسفل*. فتح فمه ليصرخ فابتلع المزيد من الماء، وآخر فكرة دارت بباله كانت: *لقد غرقت، أوه، بحقّ الآلهة، لقد غرقت*.

حين فتح عينيه كان على ظهره ورجل (جزر الضيف) الأسود الكبير يدقّ على بطنه بقبضتين ضخمتين. حاول سام أن يصرخ: *توقّف، إنك تؤلمني*، لكن بدلاً من الكلمات خرج منه الماء وشهق. كان مبتلاً عن آخره ويرتعد على الأرض في بركة من الماء. لكفه الرّجل في بطنه ثانيةً وانبثق المزيد من الماء من أنفه، وقال سام لاهثاً: «توقّف، لم أغرق، لم أغرق».

مال مُنْقَذَه الأسود الضَّخْم عليه والماء يَقْطُر منه، وقال: «نعم. أنت مدين لزوندو بريش كثير. الماء أقسَدَ معطف زوندو الأنيق».

رأى سام صُحَّة هذا في ريشات المعطف المبتلة المتسخة الملتصقة بكتفي الأسود الضَّخْمَتَيْن، وقال: «لم أكن أقصد...». - «... أن تسبح؟ زوندو رأى. تلويح كثير جدًا. المفترض أن يطفو الشمان»، وأطبق الرجل على سترة سام بقبضة سوداء هائلة وسحبته موقِّفًا إياه، وقال: «زوندو وكيل زيان على (ريح القرفة). لغات كثيرة يتكلَّم بعض الشيء. في الداخل يضحك زوندو لرؤيتك تلكم المغني. وزوندو يسمع»، واثسعت ابتسامة بيضاء على وجهه إذ أضاف: «زوندو يعرف هذه الثنائين».

- «كنت أمل أنك سئمت من هذه اللحية الشنيعة. كل هذا الشعر يجعلك تُشبه روبرت». كانت أخته قد نبذت ثياب الحداد، وبدلاً منها ارتدت فستاناً بلون اليشب الأخضر له كُفّان من شرائط الزينة المايريّة المفصّضة، وطوّقت عنقها بسلسلة ذهبية تتدلّى منها زمردة بحجم بيضة حمامة.

- «لحية روبرت كانت سوداء، لحيتي أنا ذهبية».

سألته سرسي: «ذهبية أم فضّية؟»، ونبّقت شعرةً من تحت ذقنه، شعرةً شائبة رفعتها قائلة: «الألوان كلّها تتسرّب منك يا أخي. لقد صرت شبّاحاً للزجل الذي كنته، شيئاً باهتاً عاجزاً، وشاحباً للغاية أيضاً، دائماً تلبس الأبيض»، ونقرت الشعرة بطرف إصبعها مضيئة: «أفضلك مرتدياً القرمزي والذهبي».

وأفضلك موشاة بنور الشمس وقطرات الماء تتلألأ على بشرتك العارية. يريد أن يُقبّلها، أن يحملها إلى غرفة نومها ويلقيها على الفراش... كانت تُضاجع لانسِل وأوزموند كِتْلِبلاك وفتى القمر... «سأعقد معك صفقة. أعفيني من هذا الواجب وسأضع الموسيقى تحت أمرك».

تقلّص قمها. كانت تشرب النّبيذ المتبل الساخن وتتضوّع منها رائحة جوز الطيب. «هل تتجزأ وئساومني؟ أعلي أن أذكرك بأنك أقسمت على الطّاعة؟».

- «أقسمت على حماية الملك، ومكاني إلى جانبه».

- «مكانك أينما يُرسلك».

- «تومن يختم كل ورقة تضعينها أمامه. هذه فعلتك أنت، وحماقة. لماذا تُقلّدين داقن حكم الغرب إذا كنت لا تثقين به؟».

جلست سرسي على مقعد أسفل الثّافذة، وسألت جايمي المتطلّع إلى أطلال (برج اليد) المسوّدة وراءها: «ما الذي يُنفّرك هكذا من مهمّتك أيها الفارس؟ هل فقدت شجاعتك مع يدك؟».

- «لقد أقسمت لليدي ستارك ألا أرفع السلاح ضد آل ستارك أو تلي ثانية أبدًا».

- «وعد شخص مخمور قطعته وعلى غنقك سيف مصلت».

- «كيف أدافع عن تومن إن لم أكن معه؟».

- «بهزيمة أعدائه. لطالما قال أبونا إن ضربة السيف السريعة دفاع أفضل من أي ثرس... ولو أنني لا أنكر أن معظم ضربات الشيوف يحتاج إلى يد، لكن حتى الأسد الفعاق يمكن أن يُثير الخوف. أريد (ريقرزن)، أريد برايندن تلي سجينًا أو ميثًا، وعلى أحدهم أن يضح الأوضاع في (هارنهال). إننا في حاجة ماسة إلى وايليس ماندري، بفرض أنه لا يزال حيًا وأسيرًا، لكن الحامية لم ترد على أي من غدفاننا».

ذكرها چايمي قائلًا: «مَن في (هارنهال) رجال جريجور. الجبل كان يُفضلهم قساةً وحمقى. على الأرجح أكلوا غدفانك برسائلها».

- «لهذا سأرسلك. ربما يأكلونك أيضًا يا أخي الشجاع، لكنني واثقة بأنك ستصيبهم بفسر الهضم»، وسوّت سرسي ثورتها مردفة: «أريد أن يقود السير أوزموند الحرس الملكي في غيابك».

... كانت تضاجع لانسِل وأوزموند كِتْلَبلاك وربما فتى القمر أيضًا... «الخيار ليس لك. إذا كنت ذاهبًا لا محالة فسيتولّى السير لوراس القيادة هنا بدلًا مني».

- «أهذه مزحة؟ أنت تعرف شعوري نحو السير لوراس».

- «لو لم ترسلني بالون سوان إلى (دورن)...».

- «أحتاج إلى وجوده هناك. أولئك الدورنيون ليسوا أهلًا للثقة. الثعبان الأحمر ناصر تيريون، هل نسيت؟ لن أترك ابنتي تحت رحمتهم، ولن أترك لوراس تايرل يقود الحرس الملكي».

- «السير لوراس أكثر رجولة من السير أوزموند ثلاث مرّات».

- «أفكارك عن الرجولة تغيرت بعض الشيء يا أخي».

قال چايمي شاعرًا بغضبه تتصاعد، «صحيح، السير لوراس لا يُحْمَلُ إلى تديك باشتهاء كالسير أوزموند، لكنني لا أفكر في...».

- «فكر في هذه»، ولطفته سرسي على وجهه.

لم يحاول چايمي أن يصد اللطمة، وقال: «أرى أنني في حاجة إلى لحية أثقل تُلطف تربييت مليكتي». يريد أن ينتزع قُستانها من عليها ويحوّل ضرباتها إلى قُبلات. لقد فعلها من قبل، عندما كانت له يدان سليمتان.

قالت الملكة بعينين من الجليد الأخضر: «خير لك أن تذهب أيها الفارس».

...لانسِل وأوزموند كِتْلَبلاك وفتى القمر...

- «أنت أصم علاوة على عاهتك؟ ستجد الباب وراءك أيها الفارس».

رَدَّ چايمي: «أمرّك»، ودارَ على عقبه وتركها.

لا بُدَّ أن الآلهة تضحك في مكان ما. سرسي لا تتلقّى المعارِضة بصدْرٍ رحب أبدًا، وهو يعلم هذا. ربما كانت كلمات أرقُّ لتجعلها تستجيب، لكن في الفترة الأخيرة يُغضبه مجرّد منظرها.

جزء منه سيُسَرُّ لوضع (كينجز لاندنج) وراءه. إنه لا يُطبق ضربة الفرائين والبله المحيطين بسرسي، «المجلس الوضع» كما يُسمّونهم في (جحر البراغيت) وفق كلام أدام ماربراند. ثم إن كايبرن... ربما أنقذ الرّجل حياته، لكنه لا يزال من الممثلين السّفاحين، وقد قال چايمي لسرسي منذًا: «رائحة الأسرار العفنة تفوح من كايبرن»، فردّت عليه ضاحكة: «كلّنا لنا أسرارنا يا أخي».

... كانت تُضاجع لانسِل وأوزموند كِتْلَبلاك وربما فتى القمر

أيضًا...

أربعون فارسًا ومثلهم من المرافقين كانوا ينتظرونه خارج اسطبلات (القلعة الحمراء)، نصفهم من الغربيين المقسمين على الولاء لعائلة لانستر، والآخرين كانوا أعداء حتى فترة قريبة قبل أن يُصبحوا أصدقاء مشكوكًا فيهم. سيحمل السير درموت ابن (الغابة المطيرة) غلم تومن، وروثيت كوننجتون الأحمر راية الخرس الملكي البيضاء، في حين سيتقاسم واحد من كل من آل يايير ويايچ ويكلدون شرف مرافقة حضرة القائد. «ضع أصدقاءك وراء ظهرك وأعداءك أمام ناظريك». هكذا نصحه سمنر كراكهول ذات يوم... أم أن أباه من قالها؟

حصان ركوبه كستنائي غني بالخمرة، وجواده الحربي قُحِل رمادي مطهم. سنوات طويلة مرّت منذ سقى چايمي أيًا من خيوله، إذ رأى كثيرًا منها يموت في المعارك، وهذا أصعب على النفس عندما تكون للخيل أسماء، لكن حين بدأ ابن يايير يدعو حصانيه بأوثر وجلوري، ضحك چايمي وأجاز الاسمين. على جلوري كسوة بلون لانستر القرمزي، وعلى أوثر أبيض الخرس الملكي، وقد أمسك چوزمين يكلدون زمام الثاني بينما امتطاه السير چايمي. المرافق نحيل كالحرية، طويل الذراعين والساقين، وله شعر بني كالفران ووجنتان ينبت منهما الرغبة الفاعم، ويرتدي معطف لانستر القرمزي، لكن على شترته نجومات عائلته الأرجوانية العشر المصفوفة على خلفية صفراء. سأله الضبي: «هل ستريد يدك الجديدة يا سيدي؟».

استحثه السير كينوس الكايسي قائلاً: «ضعها يا چايمي، لَوْح بها للعاقبة وامنحهم حكاية يحكونها لأطفالهم».

- «لا أظن!». لن يُري الجماهير كذبة من ذهب. فليروا العاهة، فليروا العاق. «لكن لك حُرّة أن تُعوضهم يا سير كينوس. لَوْح بكلتا يديك وارْقُس بقدميك أيضًا إذا أردت»، ولملم چايمي العنان بيسراه ودار بالحصان، ونادي بينما اتخذ الباكون تشكيلهم: «ياين، ستركب إلى جوارِي».

سَقُّ السير إلين پاين طريقه إلى چايمي باديا كالشَّخَّازين
وسط الأئهة المحيطة، وقد ارتدى قميصًا قديمًا من الحلقات
المعدنية الضدنة فوق شترة مئسخة من الجلد المقوى. لا يحمل
الزجل أو دابته أي شعارات ئبالة، وئرسه بال مكشّر لدرجة
ئصّقب معرفة لون الظلاء الذي كان يُقْطّيه. بوجهه الكئيب
وعينيه الغائصتين ونظرتهما الخاوية كان المرء ليحسب السير
إلين الموت نفسه... وهو الذور الذي لعبه أعواقًا.

لكنه لم يُعد كذلك. السير إلين هو نصف الثمن الذي طلبه
چايمي كي يبتلع أمر مليكه الصبي باعتباره قائد الحرس الملكي
المطيع، والنصف الثاني هو السير أدام ماربراند. قال لأخته إنه
محتاج إليهما، ولم تُعارضه سوسي. إنها في الغالب مسرورة
لخلاصها منهما. السير أدام صديق صبا چايمي، والجلاد الضامت
كان ينتمي إلى أبيهما إن كان ينتمي إلى أي أحد. كان پاين قائد
حرس يد الملك حين سمع يقول بزهو إن اللورد تايوين هو من
يُحكّم (الممالك الشبع) ويُملي على الملك إيرس ما يفعله، ولأجل
هذا قطع إيرس تارجارين لسانه.

قال چايمي: «افتحوا البؤابة»، فزعق الغفر القوي بصوته
الجهوري: «افتحوا البؤابة!».

حين خرج مايس تايرل من (بؤابة الظمي) على وقع الطبل
والكمنجات اصطفّ ألوف في الشوارع لتحيتته، وانضمّ صبية
صغار إلى المسيرة ماشين إلى جوار جنود تايرل برؤوس
مرفوعة وأرجل تدق الأرض، بينما رقت أخواتهم القبلات من
النواقذ.

ليس الأمر هكذا اليوم. صاحت بعض العاهرات داعيات إياهم وهم يمشون، ونادى بائع فطير لحم على بضاعته، وفي (ميدان الأساكفة) كان غصفوران رثًا الثياب يخطبان في عذّة منات من العائمة داعين بالهلاك على الكافرين وعبدة الشياطين. أفسح المتزاحمون الطريق للمسيرة، ورمقهم الغصفوران والأساكفة على خذ سواء بنظرات فاترة، فعلق جايمي: «تُعجبهم رائحة الورد لكنهم لا يحبون الأسود. من الحكمة أن تأخذ أختي هذا بعين الاعتبار». لم يرد السير إلين، فقال لنفسه: الرفيق المثالي لرحلة طويلة. سأستمتع بمحادثاتي معه.

كان الجزء الأكبر من قوته في انتظاره خارج أسوار المدينة؛ السير أدام ماربراند مع جنوده، والسير ستفون سويقت مع قافلة الأمتعة، والسير بونيفر الضالّح ورجاله الأتقياء المئة، وزمالة سارسفيلد الزاكبون، والمايستر جوليان بأربعة أقفاص مليئة بالغدقان، ومئتان من الخيول الثقيلة تحت قيادة السير فليمنت براكس. ليس جيشًا جزًاًا بشكل عام، أقل من ألف رجل إجماليًا، على أن الأعداد آخر ما يحتاجون إليه في (ريقررن)، فأحد جيوش لانستر يحاصر القلعة بالفعل، وثقة قوة أكبر من رجال فراي أيضًا. آخر طائر جاءهم لقحت رسالته إلى أن المحاصرين يجدون صعوبة في إطعام أنفسهم، إذ استولى برايندن تلي على ما في الأراضي المحيطة بالكامل قبل أن ينسحب وراء أسواره. ولو أنه لم يكن هناك كثير يستولي عليه. مما رأى جايمي في أراضي النهر لا يكاد يتبقى حقل لم يحرق أو بلدة لم تنهب أو فتاة لم ينتهك عرضها. والآن تُرسلني أختي الجميلة لأتم العمل الذي بداه آموري لورك وجريجور كليجاين. تركت الفكرة في فمه مذاقًا مريزا.

على هذه المقربة من (كينجز لاندنج) يعدّ (طريق الملوك) أكثر أمنا من أيّ طريق آخر في وقت كهذا، وعلى الرغم من ذلك أرسل جايمي ماربراند وكشافته لاستطلاع الطريق، وقال: «روب ستارك أخذني على حين غرة في (الغابة الهامسة)، ولن يحدث ذلك ثانية أبداً».

- «لك كلمتي». يبدو ماربراند مسترخيا بوضوح لوجوده على صهوة حصان من جديد، وقد ارتدى معطف عائلته الزمادي الذخاني بدلا من صوف حرس المدينة الذهبي. «إذا دنا أيّ عدو أكثر من دسّة من الفراسخ فستعرف بوجوده قبلها».

كان جايمي قد أعطى أوامر مشددة بعدم خروج أحد من الضفّ دون إذنه، فلولا هذا سيجد لوردات صفار يشغرون بالملل فيتسابقون في الحقول ويشتتون قطعان الماشية ويدعسون المحاصيل. ما زالت هناك أبقار وخراف قرب المدينة، وتفتح على الأشجار وتوت في الأنجمات، وسنابل ذرة وشوفان وقمح شتوي في الحقول، وعربات يد وعربات تجرها الثيران على الطريق، لكن على مسافات أبعد لن تكون الأمور وريئة هكذا.

يكاد جايمي يحش بالقناعة وهو راكب على رأس الجيش وإلى جواره السير إلين الضامت. الشمس دافئة على ظهره والرياح ثداغب شعره كأصابع امرأة، ولقا هرول ليو يايير الصغير إليه بملء خوزة من الثوت الأسود أكل جايمي حفنة وقال للضبي أن يتقاسم الباقي مع زملائه المرافقين والسير إلين يابن.

يبدو پاين مرتاحاً في صمته مثلما يرتاح في قميصه المعدني
الصدئ وجلده المقوى، لا يصدر منه صوت إلا طقطقة حوافر
حصانه المخصي وصلصلة سيفه في غمده كلما عدل نفسه فوق
سرجه. على الرغم من وجهه المجذور الكئيب وعينييه الباردتين
كالجليد على إحيرة في الشتاء يشفر چايمي بأن الرّجل مسرور
لمجيبته. قال لنفسه مذكّراً: لقد منحته الخيار. كان بإمكانه أن
يرفض ويبقى جلاًد الملك.

كان تعيين السير إلين في منصب عدالة الملك هدية زفاف
من روبرت باراثيون لوالد عروسه، وظيفة تدّر دخلاً بلا جهد
تعويضاً لباين عن اللسان الذي فقده في خدمة عائلة لانستر.
عمل الرّجل سيقاً ممتازاً، ولم يفسد إعداماً قط وناذراً ما احتاج
إلى ضربة ثانية، كما أن هناك شيئاً في صمته يوقع الخوف في
القوب. قلماً بدا عدالة ملك مناسباً لمنصبه تماماً.

حين قرّر چايمي أن يأخذه سعى إليه في مسكنه في طرف
البرج المسمّى (مشية الخونة). ينقسم الطابق العلوي من البرج
القصير نصف المستدير إلى زنازين الشجناء الذين يتطلّبون نوعاً
من الراحة، الأسرى من الفُرسان وصغار اللوردات الذين
ينتظرون دفع فديتهم أو مبادلتهم، ويقع مدخل الزنازين
الحقيقية في الطابق الأرضي، وراء باب من الحديد المطرّق
وباب ثانٍ من الخشب الرّمادي المشقّق، وتضمّ الطوابق الأخرى
غرفاً مخصّصة لرئيس الشجنائين واللورد قيّم الاعترافات
 وعدالة الملك. الأخير جلاًد، ولكن جرى الغرف على أن يكون
مسؤولاً أيضاً عن الزنازين ورجالها.

ولهذه المهمة تحديدًا لم يكن السير إلين باين مناسبًا على الإطلاق، فيما أنه لا يقرأ أو يكتب أو يتكلم، ترك السير إلين إدارة الزنازين لمرفؤوسيه، وهم قلائل. على أن البلاد لم تعرف قديمًا للاعترافات منذ عهد دايرون الثاني، وأجر رئيس سجنائين كان تاجر أقمشة اشترى الوظيفة من الإصبع الصغير خلال حكم روبرت. لا شك أن الرجل أحسن الانتفاع من منصبه بضعة أعوام، إلى أن ارتكب غلطة الثأمر مع عدد من الأغنياء الحمقى الآخرين على إعطاء ستانيس العرش الحديدي. كانوا يسفون أنفسهم رجال القرون، فدق جوف في رؤوسهم قرونًا قبل أن يرميهم بالمنجنيق من فوق أسوار المدينة، وهكذا وقع فتح باب الزنازين لجايمي على عاتق رينيفر لونجووترز، رئيس مشرفي السجنائين ذي الظهر المحني الذي يسهب على نحو ممل في ادعاء أن في عروقه «قطرة من دماء الثنائين». قاده الرجل صاعدًا الشلال الضيقة المنحوتة داخل الجدران إلى حيث يسكن السير إلين باين منذ خمسة عشر عامًا.

كانت رائحة الطعام المتعفن تفعم الغرفة، والحصير يعج بالحشرات، وإذ دخل جايمي كاد يتعثر في جرد. رأى سيف باين العظيم مستقرًا على طاولة إلى جانب مشحذ وقطعة لزجة من القماش المزيت. لا تشوب الفولاذ شائبة، ويلتمع حذو بالأزرق في الضوء الشاحب، لكن فيما عدا ذلك تناثرت أكوام الثياب المتسخة على الأرض، وقطع الحلقات المعدنية والذروع الملقاة هنا وهناك مبعقة بالضد الأحمر، ولم يستطع جايمي إحصاء أنية التبيذ المكسورة. الرجل لا يعبأ إلا بالقتل، قال لنفسه بينما خرج السير إلين من غرفة نوم تفوح منها رائحة أوعية الفضلات الطافحة. خاطب الرجل قائلًا: «صاحب الجلالة طلب مني أن أسترّد أراضيه نهره. أريدك معي... إذا كنت تطيق التخلي عن كل هذا».

جاوبه الصّمت، ونظرة طويلة بعينين لا تطرفان، لكن قبيل أن يلتفت ليغادر أوماً يابن برأسه موافقاً.

رمقَ چايمي رفيقه مفكّراً: وها هو ذا راكب معي. ربما لم يزل هناك أمل لكلينا.

ليلتها خيموا أسفل قلعة عائلة هايفورد القائمة فوق تلّها. مع ميل الشّمس إلى المغيب ارتفعت مئة خيمة عند سفح الثّل على ضفاف الجدول الجاري إلى جواره، وعيّن چايمي الحراسة بنفسه. لا يتوقّع متاعب على هذا القرب من المدينة، لكن عمّه ستافورد حسب نفسه آمناً في (أوكسكروس) أيضاً، والأفضل ألاّ يجازف.

حين وصلت الدّعوة من أعلى لأن يتناول العشاء مع أمين قلعة الليدي هايفورد، أخذَ چايمي معه السير إلين بالإضافة إلى السير أدام ماربراند والسير بونيفر هاستي ورونيت كوننجتون الأحمر والغفر ومجموعة أخرى من الفرسان وصغار اللوردات، وقبل أن يصعد قال لپك: «أظنّ أن عليّ أن أضع اليد».

جلبها الضّبي في الحال. اليد مطرّقة من الذهب، يُحاكي تكوينها يداً حقيقيّة بشدّة، ومرصّعة بأظفار من عرق اللؤلؤ، وأصابعها الخمسة نصف مغلقة بحيث تُحيط بساق الكأس. قال لنفسه بينما أحكم الضّبي عقد الأربطة التي ثبّتتها إلى جدرته: لا أستطيع القتال لكنني أستطيع أن أشرب. عندما ركّبها صانع السّلاح على معصم چايمي أول مرّة قال له مؤكّداً: «سيدعوك النّاس بذِي اليد الذهبية من الآن فصاعداً يا سيّدي». كان مخطئاً. سباقى قاتل الملك إلى أن أموت.

كانت اليد الذهبية محظّ العديد من تعليقات الإعجاب خلال العشاء، على الأقل حتى خبط چايمي كأس نبيذ وأسقطها، وعندها تمكّن منه حنقه، وقال لفليمنت براكس: «إذا كانت اليد اللّعينة تُعجبك لهذه الدرجة فابثر يد سيفك وخذها».

بَعْدَهَا سَكَتَ الْكَلَامَ عَنْ يَدِهِ تَمَاقًا، وَاسْتَطَاعَ أَنْ يَشْرَبَ الْقَلِيلَ مِنَ الثَّبِيدِ فِي سَلَامٍ.

تَنْتَمِي سَيِّدَةُ الْقَلْعَةِ إِلَى عَائِلَةٍ لَانِسْتَرِ بِالزَّوْاجِ، وَهِيَ طِفْلَةٌ مَمْتَلَنَةٌ لَا تَزَالُ تَتَعَلَّمُ الْمَشْيَ رُؤُوجَتْ بِتَايْرِكَ ابْنِ عَمِّهِ قَبْلَ أَنْ تَتِمَّ الْعَامُ. حَسَبَ الْأَصُولِ جِيءَ بِاللَّيْدِيِّ إِرْمِيْسَانْدَ وَغَرِضَتْ عَلَى الضُّيُوفِ لِأَجْلِ اسْتِحْسَانِهِمْ، وَقَدْ أَلْبَسُوهَا قُسْتَانًا صَغِيرًا مِنْ قُمَاشِ الذَّهَبِ عَلَيْهِ رَمَزُ عَائِلَةِ هَايْفُورْدِ -الشَّبِكَةُ الْخَضْرَاءُ الْمَائِلَةُ وَالْحُطُّ الْمَمُوجُ الْأَخْضَرُ الْبَاهِتُ- مَشْغُولًا بِحَيَاتِ الْيَتِيمِ. لَكِنْ سَرَعَانَ مَا انْفَجَرَتِ الصُّغِيرَةُ فِي الْبُكَاءِ، وَبَلَا إِبْطَاءٍ حَمَلَتْهَا فَرَضَعَتْهَا إِلَى الْفَرَّاشِ.

بَيْنَمَا يُقَدِّمُ طَبَقَ سَمَكِ التَّرْوِيْتِ سَأَلَ أَمِينَ الْقَلْعَةِ: «أَلَا تَوْجَدُ أَخْبَارَ عَنِ الْلُورْدِ تَايْرِكَ؟».

- «إِطْلَاقًا». اخْتَفَى تَايْرِكَ لَانِسْتَرِ فِي أَثْنَاءِ الشُّغْبِ فِي (كِينْجَزْ لَانْدِنْج) وَقَدْ كَانَ جَايْمِي نَفْسَهُ أَسِيرًا فِي (رِيْفِرْزَنْ)، وَبِافْتِرَاضِ وَجُودِهِ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ فَقَدْ بَلَغَ الصُّبْحُ الرَّابِعَةُ عَشْرَةَ.

عَلَّقَ السَّيْرُ أَدَامَ مَارْبِرَانْدَ وَهُوَ يُزِيلُ شَوْكَ سَمَكِهِ: «قَدْ تَبَحُّثًا بِنَفْسِي بِأَمْرِ الْلُورْدِ تَايُوِينِ، لَكِنِّي لَمْ أَجِدْ أَكْثَرَ مِمَّا وَجَدَهُ بَايُوُوتَرُ مِنْ قَبْلِي. آخِرُ مَرَّةٍ شَوَّهَدَ الصُّبْحِي كَانَ عَلَى مَتْنِ حِصَانِهِ حِينَ اخْتَرَقَ الْغُوغَاءُ صَفُوفَ ذَوِي الْمَعَاطِفِ الذَّهَبِيَّةِ، لَكِنْ بَعْدَهَا... لَقَدْ غَيَّرَ عَلَى حِصَانِهِ مِنْ دُونِ الزَّاكِبِ. عَلَى الْأَرْجَحِ سَحَبُوهُ مِنْ فَوْقِهِ وَقَتَلُوهُ، لَكِنْ إِذَا كَانَ هَذَا مَا حَدَثَ، فَأَيْنَ الْجَنَّةُ؟ الْغُوغَاءُ تَرَكَوْا الْجَنَّتَ الْآخَرِيَّ، فَلِمَ لَيْسَ هُوَ أَيْضًا؟».

قَالَ الْغُفْرُ: «قِيَمَتُهُ أَعْلَى حَيًّا. أَيُّ لَانِسْتَرِ يَسْتَحِقُّ فِدْيَةً ضَخْمَةً».

زَدَّ مَارْبِرَانْدَ: «لَا شَكَّ، لَكِنْ لَا أَحَدٌ طَلَبَ فِدْيَةً بِتَانًا. الصُّبْحِي اخْتَفَى بِبَسَاطَةٍ».

- «الضبي مات». كان چايمي قد شرب ثلاثة كؤوس نبيذ، ويشعر بيده الذهبية تزداد ثقلًا وخزقًا بمرور كل لحظة. سينفعني حُطاف بالقدر نفسه. «إذا تبينوا من قتلوا فلا ريب أنهم ألقوه في النهر خشية غضبة أبي. إنهم يعرفون مذاقها في (كينجز لاندنج). اللورد تايوين كان يُسَدّد ديوته دائمًا».

أيده الغفر قائلًا: «دائمًا»، وبهذا انتهى الكلام في الموضوع. لكن لاحقًا، وهو وحده في غرفة البرج التي أنزلوه فيها الليلة، وجد چايمي نفسه يتساءل. تايرك خدم الملك روبرت كرفاق جنبًا إلى جنب لانسِل، ومن شأن المعرفة أن تكون أئمن من الذهب ومميتة أكثر من الخنجر. عندئذ فكر في قارس مبتسقا وتفوح منه رائحة الخُزامى. كان للخصي مُخبرون وجواسيس في جميع أنحاء المدينة، وكان سهلًا عليه للغاية أن يُزَّتب لاختطاف تايرك وسط البلبلة... بفرض أنه عرف باندلاع شغب الزعاع مسبقًا. وقارس كان يعرف كل شيء، أو أنه أرادنا أن نعتقد هذا، لكنه لم يُحذّر سرسي من الشغب، ولا نزل إلى الرّصيف لوداع مارسلا.

فتح النافذة ليشرق بالبرودة تتوغل في الليل، والتمعت يده في ضوء القمر الفحاق الشاحب. لا تُصلح لخنق المخصّيين لكنها ثقيلة بما فيه الكفاية لتهشيم ذلك الوجه الباسم اللّزج وتحويله إلى خرابٍ أحمر. يُريد أن يضرب أحدًا.

عثر چايمي على السير إلين يشحذ سيفه العظيم، وقال له: «حان الوقت»، فنهض الجَلاد وتبعه، يحتك حذاؤه الجلد المشقّق بالدرجات الحجرية العالية بينما ينزلان. ينفتح مستودع السلاح على ساحة صغيرة، وهناك وجد ثرسين وخوذتين قصيرتين وسيقي مباريات مثلومين، ناول يابن أحدهما وحمل الثاني بيسراه ودش اليمنى في أحزمة ثرسه الجلديّة. أصابعه الذهبية منحنية بما يكفي للإمساك بالأحزمة لكن لا يمكنها الإطباق عليها، فلم يستطع حمل الثرس بإحكام.

قال چايمي: «كنت قارسًا ذات يوم، وأنا كذلك. لنز من نحن الآن».

رفع السير إلين سيفه ردًا، وتحرك چايمي منقضا عليه من فوره. كانت مهارة پاين صدئة كقميصه المعدني، وقوته ليست مفرطة كبريان، لكنه قابل كل ضربة بسيفه أو اعترضها بثرسه. رقصا تحت الفحاق والتصلان المثلومان يزددان أغنيتهما الفولاذية، وقنع الفارس الضامت بترك چايمي يقود الرقصة بعض الوقت، لكنه بدأ أخيرًا يرث الضربة بالضربة، وحالما انتقل من الدفاع إلى الهجوم أصاب چايمي على فخذه وكتفه وساعده، وثلاث مزاب دق رأسه بضربات سدها إلى خوذته، وانتزعت أخرى ثرسه من ذراعه اليمنى وكادت ثمرق الأحزمة التي تربط يده الذهبية بجذعته. حين خفضا سيفيهما كان مكدوما جريحا، لكن أثر التبيذ زال تمامًا وصفا رأسه. وعد السير إلين قائلاً: «سرقص ثانية، غدا وبعد غد. كل يوم سرقص إلى أن أجيد القتال بيسراي كما كنت أجيده بيمناي».

فتح السير إلين فمه وأصدر قطعة، وبعد لحظة أدرك چايمي أنه يضحك، والتوى شيء ما في أعماقه.

في الصباح لم يتجزأ أحد الآخرين ويذكر كدماته، ويبدو أن أحدا منهم لم يسمع أصوات المبارزة ليلاً، لكن لدى نزولهم الثل إلى المعسكر أفصح ليو پاير الصغير عن الشوال الذي لم يجسر الفرسان وصغار اللوردات على إلقائه، فرث عليه چايمي بابتسامة عريضة: «عندهم فتيات شقيقات في عائلة هايفورد. هذه لدغات حب يا فتى».

يوم آخر مشرق قويّ الرّيح مَرَّ عليهم، تبعه يوم غائم ثم ثلاثة أيام من المطر، لكن الرّيح والماء لم يصنعا فرقًا، وحافظ الرّكب على سرعة تقدّمه شمالًا على (طريق الملوك). كلّ ليلة يجد چايمي مكانًا منعزلًا ليجني المزيد من لدغات الحُب، وهكذا تبارّزا داخل اسطبلٍ بينما تفرّج عليهما بغل أعور، وفي قبو خان وسط براميل الثّبيذ والمِزر، وفي حظيرة حجريّة لم يتبقّ منها إلّا هيكلها المسوّد، وعلى جزيرة مشجّرة في جدولٍ ضحل، وفي حقلٍ مفتوح والمطر يُظطق بنعومة على خوذتيهما وثرسيهما.

اختلق چايمي الأعذار للذهاب في غزواته اللّيلية، لكنه ليس بالحماقة التي تجعله يخال الآخرين يُصدّقونها. مؤكّد أن أدام ماربراند يعرف ما يفعله، ولا بُدّ أن بعض غيره من القادة خفّوه، لكن لا أحد ذكر هذا على مسمعٍ منه... وبما أن الشّاهد الوحيد بلا لسانٍ فليس هناك ما يدعو چايمي إلى خشية أن يعرف أحد كم أصبح قاتِل الملك مُبارزًا فاشلًا.

سرعان ما لاحت آثار الحرب في كلّ حدبٍ وصوب. في الحقول التي ينبغي أن ينضج فيها القمح الخريفي تنمو الحشائش والأشواك والشّجيرات الكثيفة بارتفاع رأس الحصان، و(طريق الملوك) خالٍ من المسافرين، والدّئاب تُحكّم العالم المتعب من الفسق إلى الفجر. أكثر الحيوانات حذرٌ بما يكفي للاحتفاظ بمسافةٍ بينه وبينهم، لكن حصان أحد كشافة ماربراند هوجم وقُتل عندما ترجّل الرّجل ليتبوّل، فأعلن السير بونيقر الصّالح بوجهه الضّارم الحزين: «لا حيوان يتمتّع بهذه الجرأة. تلك شياطين في فرو ذئاب، أرسلت لثعاقبنا على آثامنا».

قال چايمي الواقف فوق بقايا الحيوان المسكين: «لا بُدّ أنه كان حصانًا آثمًا للغاية إذن»، وأمر بتقطيع بقيّة الجثّة وتعليق اللحم، فربما يحتاجون إليه.

في مكان اسمه (قرن الخنزيرة) وجدوا فارسًا عجوزًا متين
البنيان يُسَمَّى السير روجر هوج قابلاً بعناد في بُرجه مع سئة
جنود وأربعة من زُماة الثَّشَابِيَّة ونحو عشرين من الفلاحين.
السير روجر رجل كبير الحجم غزير الشعر كالخنازير، واقترح
السير كينوس أنه ربما يكون ابناً مفقوداً لآل كراكهول، بما أن
رمزهم خنزير بُزِّي مخطَّط، وقد بدا أن الغُفر يعتقد هذا، إذ
أمضى ساعة يستجوب السير روجر عن أسلافه بمنتهى الجِدَّة.
أمَّا چایمی فاهتمَّ أكثر بما لدى الرّجل أن يقوله عن الذُّناب،
فأخبره الفارس العجوز: «واجهنا متاعب من جماعة من ذناب
النجمة البيضاء إياهم. كانوا يتشقمون أثرك يا سيدي لكننا
طردناهم، ودفنّا ثلاثة منهم عند حقل اللّفت. قبلهم جاء قطع
من الأسود اللّعينة، لا تُؤاخِذني. كان على ثرس قائدهم
مانتيكور».

فشر چایمی: «السير آموري لورك. السيّد والدي أمره بالإغارة
على أراضي الثَّهر».

رَدّ السير روجر بقوة: «التي لسنا جزءاً منها. إنني أدينُ
بالولاء لعائلة هايفورد، والليدي إرميساند تحني هامتها الضَّغيرة
(كينجز لاندنج)، أو أنها ستفعل عندما تتعلّم المشي. أخبرته
بهذا، لكن لورك رفض الإصغاء، وذبح نصف خرافي وثلاثاً من
الماعز الحلوب الممتازة، وحاول أن يشويني في بُرجي، لكن
جدرائي من الحجر المصمت وشمكها ثمانية أقدام، فرحل شاعراً
بالممل بعد أن خمدت ناره. لاحقاً أثت الذُّناب ذات الشَّيقان الأربع
وأكلت الخراف التي تركها لي المانتيكور. حصلت على بضع
فروايت لا بأس بها على سبيل التَّعويض، لكن الفرو لا يُشبع
الجائعين. ماذا نفعل يا سيدي؟».

أجاب چایمی: «ازرعوا وصلّوا من أجل حصادٍ أخير». ليست
إجابة مفعمّة بالأمل، لكنها الوحيدة التي لديه.

في اليوم التالي عبروا النهر الذي يَفْتِنُ الحدود بين الأراضي
المدينة بالولاء لـ(كينجز لاندنج) وتلك المدينة به لـ(ريقرزن).
رجع المايستر جوليان إلى خريطة ثم أعلن أن هذه الثلال تابعة
للأخوين وود، وهما فارسان من مُلاك الأراضي مقسمان على
الولاء لـ(هارنهال)... لكن مقرهم هم مبني من الثرية والخشب،
ولم يتبق منه إلا العوارض المتفخمة.

لم يظهر الأخوان وود أو أي من قومهم، وإن كان عدد من
الخارجين عن القانون أوى إلى القبو الأدنى تحت حصن الأخ
الثاني، وقد ارتدى أحدهم أسمال معطف قرمزي، لكن چايمي
شنقه مع الباقيين. أحس بالراحة. هذه هي العدالة. اجعلها عادةً
يا لانستر وربما يأتي يوم ويدعوك الناس بذي اليد الذهبية حقًا،
ني اليد الذهبية العادل.

بات العالم أكثر اكفهازا مع دنوهم من (هارنهال)، وركبوا
تحت سماء رمادية ملبدة وإلى جوار مياه قديمة تلتمع بالبرد
كصفائح الفولاذ المطرق. وجد چايمي يتساءل إن كانت بريان
قد سبقته إلى المرور من هذا الطريق. إذا حسبت أن سائرا
ستارك توجهت إلى (ريقرزن)... لو قابلوا مسافرين غيرهم
لتوقف وسأل إن كان أحدهم قد صادف فتاة جميلة بشعر
كستنائي أو واحدة كبيرة قبيحة لها وجه يختر الحليب، لكن لا
أحد على الطرق إلا الذئاب، وليست في غوائها إجابة.

عبر مياه البحيرة الرمادية كالقصدير ظهرت أبراج حماقة
هارن الأسود أخيرًا، خمسة أصابع ملتوية من الحجارة السوداء
المشوّهة تحاول بلوغ غنان السماء. على الرغم من تنصيب
الإصبع الصغير سيّذا على (هارنهال) فلا يبدو أنه متعجل على
احتلال مقره الجديد، وهكذا وقع على كاهل چايمي لانستر أن
«يسوّي الأمور» في (هارنهال) في طريقه إلى (ريقرزن).

ولا شكّ لديه في أن الأمور في حاجة إلى تسوية. كان جريجور كليجاين قد انتزع القلعة الهائلة الكثيبة من الممثلين الشفّاحين قبل أن تستدعيه سرسي إلى (كينجز لاندنج)، ومؤكّد أن رجال الجبل ما زالوا متناثرين في الدّاخل بلا هدف، لكنهم ليسوا مهيّنين لمهمة إعادة سلام الملك إلى (الثالوث). السّلام الوحيد الذي ناله أحد من شُرذمة السير جريجور هو سلام القبر. كان كشافة السير أدام قد بلّغهم بأن بؤابة (هارنهال) مغلقة وموصدة، فضفّ چايمي رجاله أمامها وأمر السير كينوس الكايسي بالنّفخ في بوق هيروك الأسود المتوي المطوّق بالذهب القديم.

حين تردّدت ثلاث دفقات على الأسوار سمعوا أنين المفصلات الحديد وانفتحت البؤابة ببطء. أسوار حماقة هارن الأسود سميكة للغاية، حتى إن چايمي مرّ من تحت دسّة من فتحات الدّفاع قبل أن يخرّج فجأة إلى ضوء الشّمس في السّاحة التي وُدع فيها الممثلين الشفّاحين قبل فترة ليست بالطويلة. كانت الحشائش تنبت من الأرض الضّلبة، والدّباب ينزّ حول جئة حصان.

خرجت حفنة من أتباع السير جريجور من الأبراج وشاهدوه يترجّل، رجال قُساء الأعين قُساء الأفواه عن آخرهم. لا بدّ أن يكونوا كذلك ليركبوا في ضحبة الجبل. أفضل ما يمكن أن يُقال عن رجال جريجور إنهم ليسوا كريهين عنيفين كرفقة الشّجعان، وقد اندفع جندي أشيب منهم يقول: «فتحلّ بي اللّعة، إنه چايمي لانستر. إنه قاتل الملك الثّعس يا أولاد. فلتنكني حربة!». سأله چايمي: «مَن أنت؟».

قال الرّجل: «سيّدنا كان يدعوني بفم الخراء، يعدّ إنني سيّدي»، وبصق في يديه ومسح بهما وجنتيه، كأن هذا سيجعل منظره مقبولاً أكثر.

- «بديع. هل أنت القائد هنا؟».

- «أنا؟ تبًا، لا يا سيدي، فلتنكني حربة لعينة». في لحية المدعو قم الخراء قُتات طعام يكفي لإطعام الحامية بأكملها. ضحك جايمي رغماً عنه، فاعتبر الرجل هذا تشجيعاً، وكثر: «فلتنكني حربة لعينة»، وبدأ يضحك بدوره.

قال جايمي لإلين يابن: «سمعت الرجل. جد حربة طويلة جيدة وذشها في ذبره».

لا يحمل السير إلين حراثاً، لكن سرّ جون بتلي الحليق أن يلقي إليه واحدة، ليبتئّر فم الخراء ضحكاته السكرانة قائلاً: «أبعد هذا الشيء اللعين عني».

قال جايمي: «احزم أمرك. لقن القيادة هنا؟ هل عئن السير جريجور أمينا للقلعة؟».

أجابته رجل آخر: «بوليقر، لكن كلب الصيد قتله يا سيدي، هو والفدغدغ، بالإضافة إلى صبي سارسفيلد».

كلب الصيد مرّة أخرى. «أنت واثق بأنه كان ساندور؟ هل رأيتموه».

- «ليس نحن يا سيدي. صاحب الخان أخبرنا».

- «حدث هذا في الخان على مفترق الطرق يا سيدي». المتكلّم رجل أصغر سناً له شعر رملي، ويضع حول عنقه سلسلة العملات التي كانت ملكاً لقارجو هوت؛ عملات من عشرات المدائن البعيدة، ذهب وفضة ونحاس وبرونز، مربعة ومدوّرة ومثلثة، وحلقات وقطع من العظم. «صاحب الخان أقسم أن جانب وجه الرجل محترق، وقالت عاهراته الكلام نفسه. كان مع ساندور صبي ما، ابن فلاح يرتدي ثياباً رثة. قيل لنا إنهما مرّقاً يولي والفدغدغ إرباً وركباً نحو (الثالوث)».

- «هل أرسلتم رجالاً في أعقابهما؟».

تجهّم وجه فم الخراء كأن الفكرة في حدّ ذاتها مؤلمة، وقال: «لا يا سيدي، فلئنك جميعاً، لم تُرسل أحداً».

- «عندما يُصاب الكلب بالشعار يُذبح».

فرك الرجل فمه قائلا: «ذلك الخراء يولي لم أحبه قط، والكلب كان أبا سيّدنا، ف...».

تدخل صاحب سلسلة العملات قائلا: «نحن سيّئون يا سيّدي، لكن من يواجه كلب الصيد يجب أن يكون مجنونًا». تطلّع إليه چايي مفكّرًا: *أجرا من البقية وليس سكران كهم الخراء*. «كنتم خائفين منه».

- «لا أقول إننا كنا خائفين يا سيّدي، بل إننا تركناه لقن هم أفضل منا، لأحد مثل سيّدنا، أو مثلك».

مئلي حينما كانت لي يدا. لا يخادع چايي نفسه. الآن يستطيع ساندور أن يفتك به في لحظات. «ألك اسم؟».

- «رافورد، بعد إذن سيّدي. يدعونني براف».

- «راف، اجمع الحامية في (قاعة المنة مستوقد). وأسراكم أيضًا، أريد أن أراهم. وعاهرات مفترق الطرق كذلك. أوه، وهوت. أحزنني أن أسمع بموته، وأريد أن أرى رأسه».

حين أتوه به ألفى شفّتي الكبش مقطوعتين، بالإضافة إلى أذنيه ومعظم أنفه، وكانت الغربان قد التهمت عينيه، وإن ظلّ تعرّفه كهوت ممكّنًا، إذ كان چايي ليعرف لحيته في أيّ مكان، حبل الشعر الشخيف الذي يتدلّى من ذقن مدبّب بطول قدمين، لكن فيما عدا هذا لم يتبقّ على جمجمة الكوهوري إلا قطع يابسة من اللحم. سأل چايي: «أين بقيّته؟».

لم يرغب أحد في إخباره، وفي النهاية خفض فم الخراء بصره، وغمغم: «تعفّن يا سيّدي، وأكل».

قال رافورد: «أحد الأسرى كان يتوشل الطعام دائقًا، فقال سيّدنا أن نطعمه لحم الكبش المشوي. لم يكن في جسد الكوهوري لحم كثير، وقطع سيّدنا يديه وقدميه أولاً، ثم ذراعيه وساقيه».

أضاف فم الخراء: «البدين اللعين حصل على أغلبه يا سيدي، لكن سيّدنا قال أن نحرض على أن يذوق جميع الأسرى اللحم، وهوت أيضًا، لحم نفسه. كان ريق ابن العاهرة يجري عندما نُطعمه والذهن يسيل على لحيته الرّفيعه هذه».

كلا كلبك أصابه الشعار يا أبي. وجد نفسه يتذكّر حكايات سمعها أول مرّة في طفولته في (كاسترلي روك)، عن الليدي لوئستون المجنونة التي كانت تستحمّ في أحواض ملأى بالذّماء وتُشرف على ولائم من اللحم البشري في هذه القلعة بالذّات.

بوسيلة ما فقد الانتقام مذاقه الخلو، فقال چايمي ليك: «خذ هذه وألقها في البحيرة»، ورماها له ثم التفت يواجه الحامية قائلاً: «إلى أن يحين الوقت ويأتي اللورد پيتر ليُتخذ مقرّه، سيتولّى السير بونيفر هاستي قيادة (هارنهال) باسم الثّاج. من يرغب منكم في الانضمام إليه فلينضمّ إذا قبله، والبقية ستركب معي إلى (ريقرذن)».

تطلّع بعض رجال الجبل إلى بعض، ثم قال أحدهم: «إن لنا دينًا. سيّدنا وعدنا، قال إننا سننال مكافآت سخية».

وافقه فم الخراء قائلاً: «كلامه بالضبط: مكافآت سخية لمن يركبون معي»، وبدأ دسته من الآخرين يُثمتمون مؤيدين.

رفع السير بونيفر يده المقفّزة قائلاً: «كلّ رجل يبقى معي هنا سيحصل على قطعة من الأرض يعمل فيها، وقطعة ثانية عندما يتزوّج، وثالثة عند مولد طفله الأول».

قال فم الخراء بحذّة: «أرض يا سيدي؟ بول على هذا! لو أردنا أن نعزق الثّربة اللّعينه لبقينا في ديارنا، لا تُؤاخذني أيها الفارس. سيّدنا قال مكافآت سخية، أي الذهب».

قال چايمي: «إذا كانت لديكم شكوى فاذهبوا إلى (كينجز لاندنج) واعرضوها على أختي الجميلة»، والتفت إلى رافورد قائلاً: «سأرى الأسرى الآن، بدايةً بالسير وايليس ماندرلي».

سأله رافورد: «أهو الشمين؟».

- «أمل هذا بشدة، ولا تحك لي قصة حزينه عن موته وإلا سيحدث المثل لكم جميعاً».

خابت كل آمالي راودته في العتور على شاجويل أو ييج أو زولو في الرنازين، إذ يبدو أن رجال رفقة الشجعان قد تخلوا عن قارجو هوت عن آخرهم. من قوم الليدي وئت تبقى ثلاثة فحسب؛ الظاهي الذي فتح البوابة الجانبية للسير جريجور، وصانع سلاح محني الظهر اسمه بن ذو الإبهام الأسود، وفتاة اسمها پيا لم تعد جميلة كما كانت حين رآها چايمي آخر مرة. أحدهم كسر أنفها وحطم نصف أسنانها، ولقا رآته الفتاة ارتقت على قدميه باكية متمسكة بساقيه بقوة جنونية، إلى أن سحبها الغفر عنه.

قال لها چايمي: «لا أحد سيؤذيك الآن»، لكن قوله لم يفلح إلا في جعل بكائها يتصاعد.

لاقى الشجناء الآخرون معاملة أفضل. كان السير وايليس ماندري بينهم، ومعه عدة شماليين عوالي المقام أسرهم الجبل راكب الخيول في أثناء القتال في مخاضات (الثالوث)، رهائن مفيدون يستحقون فدية كبيرة، كلهم مؤسوخ زث الثياب أشعث الشعر، وبعضهم لديه كدمات حديثة وأسنان مكسورة وأصابع مفقودة، لكن جروحهم مفسولة مضمدة، ولا أحد منهم يعاني الجوع. تساءل چايمي إن كانت لدى أيهم أدنى فكرة عما كانوا يأكلونه، وقرّر أن من الأفضل ألا يسأل.

لم يتبقَّ في أحدٍ منهم تحدُّ، لا سيَّما السير وايليس الشَّمين بلحيته الكُثَّة وعينيَّه الفاترتين ولُغده الشَّاحب المتدلِّي، وحين أخبره جايمي بأن هناك من سيصطحبه إلى (بركة العذارى) كي يوضَّع على متن سفينة إلى (الميناء الأبيض)، خُزَّ السير وايليس على زُكبتيه على الأرض وانفجَرَ في بكاءٍ أعلى وأطول من بيا، وتطلَّب الأمر أربعة رجالٍ لإعادته إلى الوقوف على قدميه. قال جايمي لنفسه: لحم كبش مشوي كثير للغاية. بحقِّ الآلهة، لكم أمقت هذه القلعة. في أعوامها الثلاثمئة شهدت (هارنهال) أهوالاً أكثر من (كاسترلي روك) خلال ثلاثة آلاف عام.

أمر جايمي بإشعال النار في (قاعة المئة مستوقد)، وأرسل الظاهي مسرعاً إلى المطبخ ليعدَّ وجبة ساخنة لرجالِه قائلاً له: «أيَّ شيءٍ إلَّا لحم الكباش».

تناول عشاءه في (قاعة الضيادين) مع السير بونيفر هاستي، وهو رجل نحيل وقور ينزع إلى تبيل كلامه بذكر الآلهة السبعة. «لا أريدُ أيًا من أتباع السير جريجور»، أعلن الرُّجل وهو يقطع حبة كُفترى ذابلةً ومثله، كأنما يحرص على ألاَّ يُنقع عصيرها المعدوم سترته الأرجوانية التي لا تشوبها شائبة، والمطرز عليها الشريط المائل رمز عائلته. «لن أسمح بوجود خُطاة أمثالهم في خدمتي».

- «اعتاد سيتوني أن يقول إن كلَّ البشر خُطاة».

ردَّ السير بونيفر: «لم يكن مخطئًا، لكن ثقة خطايا أكثر سوادًا من غيرها، ورائحتها أكثر عفناً في أنوف (السبعة)».

إذن فمثل أخي الصغير لا أنف لك، وإلَّا لجعلت خطاياي حبة الكُفترى هذه تسدُّ خلقتك. «ليكن، سأريحك من شرذمة جريجور». يستطيع دائمًا أن يستفيد من المقاتلين، وإن لم يكن لغرض آخر فيمكنه أن يرسلهم لصعود الشلالِ أولًا إذا اضطرَّ إلى اقتحام (ريقرزن).

قال السير بونيفر يالاحاح: «خُذ العاهرة أيضًا. أنت تعرفها، تلك الفتاة من الرُنازين».

- «بيا». آخر مرّة كان هنا أرسل كايبرن الفتاة إلى فراشه معتقدًا أن هذا سيسّره، لكن بيا التي أتوا بها من الرُنازين مخلوقة مختلفة عن تلك الخلوة البسيطة الضّحوك التي دشت نفسها تحت أغطيته. ارتكبت الفتاة غلطة الكلام في وقت أراد فيه السير جريجور الهدوء، فحظّم الجبل أسنانها بقبضته المقفّزة بالحلقات المعدنية وكسر أنفها الجميل الصّغير أيضًا، ولا ريب أنه كان ليفعل بها ما هو أسوأ لو لم تستدّعه سرسي إلى (كينجز لاندنج) ليواجه حربة الأفعوان الأحمر. لن يبكيه جايمي. قال للسير بونيفر: «بيا مولودة في هذه القلعة. إنها البيت الوحيد الذي تعرفه».

- «إنها نبع فساد. لا أريدها قُرب رجالي تتميّع ب... بمفاتنها».

- «أعتقد أن أيام ميوعتها ولّت، لكن ما ذُمت تجدها منقّرة لهذه الدّرجة فساخذها». يُمكنه أن يَشغّلها غشالّة. مُرافقوه لا يمانعون أن ينضبوا خيمته ويسوسوا حصانيه ويَنظّفوا درعه، لكنهم يجدون واجب غسل ثيابه لا يليق بالرجال. سأل جايمي: «هل تستطيع الشّيطرة على (هارنهال) بأتقيائك المئة فقط؟». المفترض أن يكون اسمهم الأتقياء السّئة وثمانون، إذ فقدوا أربعة عشر رجلًا في معركة (الّهر الأسود)، لكن مؤكّد أن السير بونيفر سيَقوِّض النّقص حالما يَعرّ على مجنّدين يرى فيهم الورع المطلوب.

- «لا أتوقّع متاعب. (العجون) سثّير طريقنا و(الفحارب) سيبيث القوّة في أذرّعنا».

أو سيزور (الغريب) جماعتكم المؤمنة كلها. لا يدري چايمي من بالضبط أقنع سرسي بتعيين السير بونيفر أميئا للقلعة في (هارنغال)، لكن رائحة أورتون ميريويدر تفوح من الأمر. إنه يذكر بشيء من الغموض أن هاستي خدم جد ميريويدر، كما أن كبير القضاة ذو الشعر البرتقالي كالجزر من النوع الأبله الشاذج بما يكفي لأن يعتقد أن أحدا ملقبا بـ«الضالح» هو عينه الذواء الذي تحتاج إليه أراضي النهر لتندمل جراحها التي خلفها رووس بولتون وقارجو هوت وجريجور كليجاين.

لكن ربما لا يكون مخطئا. ينحدر هاستي من أراضي العواصف، أي أن لا أصدقاء له أو أعداء على ضفاف (الثالوث)، لا ضفائن يدفع ثمنها أو ديون يستددها أو أصحاب يكافئهم، والزجل يقظ وعادل ومطيع، ورجاله الأتقياء السئة وثمانون منضبطون كأي جنود في (الممالك الشيع)، ويصنعون منظرا رائعا عندما يدورون بخيولهم المخصية الزمادية الطويلة ويرمحون بها. في مرّة قال الإصبع الصغير مازحا إن السير بونيفر خصى رجاله أيضا بالتأكيد، فسمعتهم ناصعة لا يرقى إليها الشك.

وعلى الرغم من هذا ساورت چايمي الشكوك في جنود مصدر شهرتهم خيولهم المطهّمة لا الأعداء الذين قتلوهم. يجيدون الصلاة على ما أظن، لكن هل يستطيعون القتال؟ على حد علمه لم يكللوا أنفسهم بالعار في معركة (النهر الأسود)، لكنهم لم يتميّزوا كذلك. السير بونيفر نفسه كان فارسا واعدّا في شبابه، إلا أن شيئا ما حلّ به، هزيمة أو وصمة أو مناوشة وشيكة مع الموت، وبعدها قرّر أن التّزال خيلاء فارغة وتخلّى عن زّمحه إلى الأبد.

لكن لا بُدَّ من الحفاظ على (هارنهال)، وبيلاور فتحة الشرج هذا هو الرجل الذي اختارته سرسي للحفاظ عليها. قال للسير بونيفر محدّثًا: «هذه القلعة سيئة الشمعة، وعن جدارة. يُقال إن هارن وأبناءه ما زالوا يمشون في طرقاتها ليلاً مشتعلين نازًا، ومن يَنْظُرُون إليهم يشبّ فيهم اللهب».

- «لا أخاف الأشباح. مكتوب في (النجمة الشباعتية) أنه ليس بإمكان الأرواح والجُثث الحيّة والعائدين من الموت أذية الأتقياء ما داموا مدرّعين بإيمانهم».

- «درّع نفسك بالإيمان إذن كما شئت، لكن ارتدِ الحلقات المعدنيّة والفولاذ أيضًا. كلٌّ من يتولّى القيادة في هذه القلعة يؤول إلى نهاية سيئة؛ الجبل، والكبش، وحتى أبي...».

- «أرجو أن تُعذّرني لقولي هذا، لكنهم لم يكونوا رجالًا متديّنين مثلنا. (المُحارب) يدافع عنا، والعون قريب دومًا إذا هُذنا عدوّ ما. المايستر جوليان سيبقي مع غُدفانه، واللورد لانسِل قريب في (داري) مع حاميته، واللورد راندل يُسيطر على (بركة العذارى). مغا سَلاجِق وتُدَمّر كلَّ مَنْ يجوبون هذه الأنحاء من الخارجين عن القانون، وفور الفروع من هذا سيقود (الشبعة) الأهالي الطيّبين معيدين إياهم إلى قُراهم ليُحزّنوا ويزرعوا ويُعيدوا البناء».

مَنْ لم يَقْتُلْهم الكبش على الأقل. وضع جايمي أصابعه الذهبية حول ساق كأسه، وقال: «إذا وقع أحد من رجال هوت في أيديكم أريدك أن تُرسل إليّ خبرًا في الحال». ربما اختطف (الغريب) الكبش قبل أن يبلّغه جايمي، لكن زولو البدين لا يزال طليقًا، وكذا شاجويل ورورج وأورزويك الوفي والباقون.

- «لثُعْذِبْهم وثَقْلْهم؟».

- «أظنّ أنك كنت لثُسامِحْهم لو أنك في مكاني؟».

- «إذا أخلصوا التوبة عن ذنوبهم... نعم، سأقبلهم جميعًا
كإخوة وأصلي معهم قبل أن أرسلهم إلى قُرمة الجَلاد. الخطايا
قابلة للغفران، والجرائم تستوجب العقاب»، وشبك هاستي
أصابعه أمامه بطريقة ذكرت چايمي على نحو غير مريح بأبيه،
وتساءل: «إذا واجهنا ساندور كليجاين فماذا تريدني أن
أفعل؟».

ضَلَّ بحرارة واهرب. «أرسله لينضمَّ إلى أخيه الحبيب واشكر
الآلهة لأنها خلقت سبع جحائم، فواحدة فقط لا تكفي لاحتواء
كلا الأخوين كليجاين»، ودفع نفسه إلى القيام بغير راحة
مضيقًا: «بريك دونداريون مسألة أخرى. إذا قبضت عليه
فاحتفظ به حتى أعود. سأريء أن أسوقه إلى (كينجز لاندنج)
بحبل حول عنقه وأجعل السير إلين يقطع رأسه حيث يراه
نصف أهل البلاد».

- «والزاهب المايري الذي يركب معه؟ يُقال إنه ينشر عقيدته
الباطلة في كل مكان».

- «اقطله أو قبّله أو ضلّ معه، كما ترغب».

- «لا رغبة لديّ في تقبيل الرّجل يا سيّدي».

قال چايمي: «لا شك أنه سيقول المثل عنك»، واستحالت
ابتسامته إلى تناؤب، فأردف: «اعذرني، أستأذن منك في
الانصراف إن لم يكن لديك اعتراض».

ردّ هاستي: «إطلاقًا يا سيّدي». مؤكّد أنه يريد أن يضلّي.

يُريد چايمي أن يُقاتِل أحداً. نزل الدّرجات اثنتين في المَرّة خارجاً إلى هواء اللّيل البارد الجاف. في السّاحة المضاءة بالمشاعل كان الغفر والسير فليمنت براكس يتقاتلان وسط حلقة من الجنود المشجّعين. وقال لنفسه: لا ريب أن السير لايل سيفلب براكس. يجب أن أعمُر على السير إلين. في أصابعه تلك الحاجة إلى القتال من جديد. قادته خُطاه بعيداً عن الضّوء والضّوضاء، ومَرّ من تحت الجسر المغطّى وعبر (ساحة الحجر المصهور) قبل أن يعي أين يثّجه.

مع دنوّه من جُبّ الذّب رأى وهج مصباح يغمر نوره البارد الشّاحب المدرّجات الحجريّة العالية. يبدو أن أحدهم سبقني إلى هنا. الجُبّ مكان لا بأس به للرقص، وربما توفّق السير إلين مجيئه.

لكن الفارس الواقف عند الجُبّ أكبر حجماً، رجل ملتجّ متين يرتدي شترّة طويلة حمراء وبيضاء ويُرّثنها اثنان من الجرافين. كوننجتون. ماذا يفعل هنا؟ في الأسفل كانت جثّة الذّب لا تزال ملقاة تُشبه مدفونة في الرّمْل، وإن لم يتبقّ منها إلّا العظم والفرو المتهلّك. أحسّ چايمي بالشفقة على الحيوان تعتصر قلبه، وقال لنفسه: على الأقلّ مات في المعركة، ثم إنه نادى: «سير رونييت، هل ضللت طريقك؟ أعرف أنها قلعة كبيرة».

رفع رونييت الأحمر مصباحه قائلاً: «أردت أن أرى أين رقص الذّب مع تلك التي ليست جميلة». كانت لحيته تلتمع في الضّوء كأنها مثقّدة، واشتمّ چايمي رائحة الخمر في أنفاسه. «أصحيح أن الفتاة قاتلته عارية؟».

أجاب متسائلاً كيف أضيفت هذه التّفصيلة إلى القصة: «عارية؟ لا. الممثلون ألبسوها فُستاناً وردياً من الحرير ووضعوا في يدها سيف مباريات. أراد الكيش أن يكون موتها «مُثلياً»، لكن فيما عدا هذا...».

قال كوننجتون ضاحكًا: «كان منظر بريان عاريةً يجعل الذبّ يقرّ مفزوعًا».

لكن جايمي لم يضحك، وقال: «تتكلم عن الليدي كأنك تعرفها».

- «كنت خطيبها».

فاجأه هذا. لم تذكر بريان خطبةً قط. «أبوها رثب لها زيجة...».

- «ثلاث مرّات. أنا الثاني. فكرة أبي. كنت قد سمعت أن الفتاة قبيحة وأخبرته بهذا، لكنه قال إن كل النساء واحد عندما تنطفئ الشموع».

- «أبوك». حنق جايمي إلى ستره رونيت الأحمر التي يتواجه عليها اثنان من الجرافين على خلفيّة من الأحمر والأبيض. الجرافين الزّاقصة. «كان... شقيق يد الملك الزّاحل، اليس كذلك؟».

- «ابن عمّه. لم يكن للورد جون إخوة».

- «نعم». عادت إليه الذكريات كلّها. كان جون كوننجتون صديق الأمير ريجار، ولقّا فشل ميريويندر فشلًا ذريعًا في احتواء ثورة روبرت ولم يستطع أحد العثور على الأمير ريجار، لجأ إيرس إلى أفضل رجل بعده ورفع كوننجتون إلى اليدويّة، لكن الملك المجنون اعتاد أن يقطع أيديه، وقطع اللورد جون بعد معركة الأجراس مجزّأ إياه من ألقابه وأراضيه وثروته، وأرسله عبر (البحر الضيّق) ليقضي بقيّة حياته في المنفى، وسرعان ما ظلّ الرّجل يشرب حتى مات. أمّا ابن العمّ -أبو رونيت الأحمر- فقد انضمّ إلى الثورة وكوّن بـ(وكر الجرافين) بعد معركة (الثالوث)، لكنه لم يحصل إلّا على القلعة، إذ استحوذ روبرت على الذهب وأسبغ الشّواد الأعظم من أراضي كوننجتون على مؤيدين أكثر حماسةً.

السير روئيت يملك أراضى محدودة لا أكثر، ولأي رجل مثله
لكانت عذراء (تارت) ثمرة شهية بالفعل. سأله چايمي: «ولم لم
تتزوجا؟».

- «ذهب إلى (تارت) ورأيتها. إنني أكبرها بسنة أعوام، لكنني
وجدت الفتاة ثناهنى طولاً، خنزيرة ترتدي الحرير، ولو أن أكثر
الخنزيرات له أذاء أكبر. لقد حاولت أن تتكلم كاذت تختنق
بلسانها. أعطيتها وردة وقلت لها إنها لن تنال غيرها مني»، ونظر
كوننجتون إلى الجب متابعاً: «أراهن أن الذب كان له شعر أقل
من تلك المسخ، و...».

لقلت يد چايمي الذهبية الفارس الآخر في فمه بقوة
أسقطته على المدرجات، ووقع مصباحه وتحطم وتناثر زيت
المشتعل. «إنك تتكلم عن ليدي رفيعة النسب أيها الفارس.
ادعها باسمها، ادعها بـپريان».

زحف كوننجتون على يديه وزكبتيه مبتعداً عن اللهب
المنتشر، وقال: «پريان، بعد إذن سيدي»، وبصق كتلة من الدم
عند قدم چايمي، وأضاف: «پريان المليحة».

ببطءٍ صعوداً (ثُل قيزينيا)، وإذ كذت الخيول متحرّكةً إلى أعلى أسندت الملكة ظهرها إلى وسادة قرمزية منتفخة، ومن الخارج أتى صوت السير أوزموند كتلبلاك يصيح: «أفسحوا الطريق، أخلوا الشارع، أفسحوا الطريق لصاحبة الجلالة الملكة!».

كانت الليدي ميريوينذر تقول: «مارجري محاطة بضحية مثيرة حقاً. عندنا خواة وممثلون وشعراء ومحزّكو دُمى...».

استحقتها سرسي سائلةً: «ومفثون؟».

- «كثيرون يا جلالة الملكة. هاميش ذو القيثارة يُغني لها مرّة كلّ أسبوعين، وفي بعض الأماسي يُسلّينا الأريك الأيزيني، لكن الشاعر الأزرق مطربها المفضّل».

تذكّر سرسي الشاعر من زفاف تومن. شابٌ وسيم الظلعة. هل ثقة شيء واعد هنا؟ «سمعتُ أن هناك رجالاً آخرين، قرساناً ورجال حاشية، معجبين. أخبريني بالحقيقة يا سيّدتى، هل تحسبين أن مارجري لا تزال بكراً؟».

- «هذا ما تقوله يا جلالة الملكة».

- «هذا ما تقوله هي، فماذا تقولين أنت؟».

أجابَت تاينا والمكر يترقّق في عينيها السوداوين: «حين تزوّجت اللورد رنلي في (هايجاردن) ساعدتُ على خلع ملابسه من أجل الإضجاع. حضرة اللورد كان رجلاً حسن البنيان، ومفعفاً بالشهوة. رأيتُ الدليل على هذا عندما ألقيناه في فراش الرُفاف حيث انتظرتُه عروسه العارية كيوم مولدها ببشرة محمّرة خجلاً تحت الأغطية الخفيفة. السير لوراس حملها على السلالم بنفسه. ربما تقول مارجري إن الزيجة لم تتمّ، إن اللورد رنلي أفرط في شرب الثيبذ خلال المأدبة، لكنني أؤكد لك أن ما بين ساقيه لم يكن متعباً على الإطلاق لما رأيته آخر مرّة».

سألها سرسي: «هل رأيت فراش الزوجية في الصباح التالي؟ هل نزلت؟».

- «لم يز أحد الملاءة يا جلالة الملكة».

مؤسف. على أن غياب الملاءة الدامية يعني القليل في حد ذاته. بنات الفلاحين ينزفن كالخنازير ليلة زفافهن حسب ما سمعت، لكن ذلك لا ينطبق بالدرجة نفسها على العذراوات كريمات المحتد كمارجري تايرل. يقال إن بنات اللوردات يفقدن غزيرتهن من جزاء ركوب الخيل أكثر من الزواج، ومارجري اعتادت الركوب منذ تعلمت المشي. «بلغني أن للملكة الصغيرة معجبين بين فرسان بيتنا. الثوأمان ردواين والسير تالاد... أخبريني، ومن أيضًا؟».

هزت الليدي ميريويندر كفيها قائلة: «السير لامبرت، الأحمق الذي يخبئ عينه الشليمة برقعة، بايارد نوركروس، كورتناي جرينهيل، الأخوان وودرايت، أحيانًا پورتيفر وغالبًا لوكانتين. أوه، والمايستر الأكبر پايسل زائر متكرر».

- «پايسل؟ حقًا؟». هل هجرت الذودة العجوز الخرفة الأسد إلى الوردية؟ إن صُخ هذا قسيندم. «من أيضًا؟».

- «رجل (جزر الضيف) ذو المعطف الزيش. كيف أنساه ببشرته السوداء كالحبر؟ هناك آخرون يأتون ليتوّدوا إلى بنات عمومتهن. إلينور موعودة لابن أمبروز لكنها تحبّ المغارلة، ومجا يأتيها خاطب جديد كل أسبوعين. في مرة قبّلت عاملاً في المطبخ. سمعت كلامًا عن زواجها بأخي الليدي بولوار، لكن إذا كان لمجا الاختيار بنفسها فستفضل مارك مالندور، إنني واثقة». ضحكت سرسي، وقالت: «فارس الفراشات الذي فقد ذراعه في معركة (الثّهر الأسود)؟ ما جدوى نصف رجل؟».

- «مجا تراه محببًا. لقد سألت الليدي مارجري أن تساعدنا على العثور على قريد له».

رددت الملكة: «قرد». لا تدري ماذا تقول عن هذا. عصافير وقرود. حقًا أصاب هذه البلاد الجنون. «وماذا عن فارسنا الشجاع السير لوراس؟ كم يزور أخته؟».

أجابت الليدي تاينا: «أكثر من كل الآخرين»، وعقدت حاجبيها لتظهر تجعيدة ضئيلة بين عينيها الذاكنتين، وتابعت: «كل صباح وكل مساء يزورها، ما لم يعيقه واجبه. أخوها مخلص لها، ويتشاركان كل شيء... أوه...». للحظة بدت المايروية كأنها مصدومة، ثم اتسعت ابتسامة على وجهها، وقالت: «خطرت لي فكرة شريرة للغاية يا جلالة الملكة».

- «يُستحسن أن تحتفظي بها لنفسك. العصافير منتشرون على الثل، وكلنا يعلم كم يبغض العصافير الشر». - «سمعت أنهم يبغضون الماء والضابون أيضًا يا جلالة الملكة».

- «ربما يحرم الإكثار من الصلاة المرء حاشة الشم. سأحرض على سؤال صاحب القداسة الأعلى».

قالت الليدي تاينا والشتائر القرمزية الحرير تتأرجح: «أورتون قال لي إن الشيتون الأعلى لا اسم له. أهذا صحيح؟ في (مير) كلنا لنا أسماء».

أجابت الملكة: «أوه، كان له اسم من قبل. كلهم كذلك»، ولوّحت بيدها باستهانة مضيئة: «حتى الشيتونات أبناء العائلات النبيلة يعزفون فقط بأسمائهم الأولى حالما يحلفون اليمين، وعندما يترقى أحدهم إلى مقام الشيتون الأعلى يتخلى عن هذا الاسم أيضًا. تقول العقيدة إنه لم يَعد في حاجة إلى اسم بشري، إذ أصبح تجشّدًا للآلهة».

- «وكيف تُقيّزون بين شيتون أعلى وغيره؟».

- «بصعوبة. عليك أن تقولي: السّمين، أو الذي سبق السّمين، أو العجوز الذي مات في نومه. يُمكنك دائمًا أن تتوضّلي إلى الأسماء التي وُلِدوا بها إذا أردت، لكن استخدامها يُضايقهم، يذكّرهم بأنهم وُلِدوا بشراً عاديين، ولا يحثّون هذا».

- «السّيد زوجي يقول لي إن هذا الشّيتون الأعلى وُلد وتحت أظفاره الوسخ».

- «هذا ما أرتاب فيه. كقاعدة يرفع مجلس القانتين واحدًا من أفرادهم، لكن ثمة استثناءات». كان المايستر الأكبر پايسل قد أخبرها بالتاريخ بتفصيل ممل. «في عهد الملك بيلور المبارك اختير حجار بسيط لمنصب الشّيتون الأعلى. كان ينحت أشكالًا في غاية الجمال من الحجارة لدرجة أن بيلور اعتقد أنه (الحذاد) وقد وُلد من جديد في هيئة بشريّة. لم يكن الرّجل يقرأ أو يكتُب أو يتذكّر كلمات أبسط الادّعية». ما زال البعض يزعم أن يد بيلور سقم الرّجل ليُعفي البلاد من الإحراج. «بعد موته رُفِعَ صبيّ في الثّامنة إلى المنصب، مرّة أخرى بإيعاز من الملك بيلور، وأعلن جلالته أن الضّبي يصنع المعجزات، ولو أن يديه الشّافيتين الصغيرتين لم تنجحا في إنقاذ بيلور نفسه وقت صيامه الأخير».

أطلقت الليدي ميريويدر ضحكة، وقالت: «في الثّامنة؟ ربما يستطيع ابني أن يُصبح الشّيتون الأعلى إذن. إنه يكاد يبلُغ السّابعة».

سألته الملكة: «هل يُضلي كميّزاً؟».

- «يُفضّل اللعب بالشيوف».

- «صبيّ حقيقيّ إذن. هل يعرف أسماء الآلهة الشّبعة جميعاً؟».

- «أظنّ هذا».

- «سأضعه في الاعتبار». لا تشك سרسي في أن وجود عدد ما من الضبية الذين بإمكانهم تكريم الثاج البلوري أكثر من المأفون الذي اختار مجلس القائتين أن يهبه له. هذا ما ينتج عن ترك الحمقى والجبناء يحكمون أنفسهم. المرة القادمة سأختار لهم سيدهم. وربما لا تتأخر المرة القادمة كثيرًا إذا استمرّ الشيتون الأعلى الجديد في إزعاجها، فليس عند يد بيلور كثير يلقن سרسي لانستر إياه في مثل هذه الأمور.

كان السير أوزموند كتبللاك يزعم: «أخلوا الشارع! أفسحوا الطريق لصاحبة الجلالة!».

بدأت حركة الهودج تتباطأ، وهو ما يعني أنهم دنوا من قمة الثل. قالت سרسي لليدي ميريويزر: «يجذر بك أن تجلبي ابنك هذا إلى البلاط. سئة أعوام ليست سئًا صغيرة جدًا. تو من محتاج إلى صبية آخرين حوله، فلم لا يكون ابنك أحدهم؟».

حسب ما تذكر لم يكن لجوفري صديق مقرب من سئيه قط. كان الضبي المسكين وحيدًا دومًا. في طفولتي كان عندي جايمي... وميلارا، إلى أن سقطت في البئر. أي نعم كان جوف مغرمًا بكلب الضيد، لكنها لم تكن صداقة، بل كان يبحث عن الأب الذي لم يجده في روبرت. قد يكون أخ في الثرية ما يحتاج إليه تو من بالضبط لقطامه عن مارجري ودجاجاتها. ومع الوقت ربما يصيحيان قريبين قرب روبرت وصديق صباه ند ستارك. أحقق، لكنه أحقق مخلص، وتو من سيحتاج إلى أصدقاء مخلصين لحماية ظهره.

- «جلالتك لطيفة، لكن راسل لم يعرف بيتًا إلا (الطاولة الطويلة)، وأخشى أن يضيع في هذه المدينة العظيمة».

علقت الملكة: «في البداية، لكن سرعان ما سيتغلب على ذلك مثلما تغلبت عليه. حين أرسلني أبي إلى البلاط بكيث وثار جايمي، إلى أن أجلسني عفتي في (الحديقة الحجرية) وأفهمتني أنه ليس هناك من أخشاه في (كينجز لاندنج). قالت: أنت لبوة، وعلى كل الدواب الأدنى أن تخشاك. ابنك أيضا سيُعثر على شجاعته. مؤكد أنك تريدنه قريبًا منك حيث تستطيعين رؤيته كل يوم. إنه طفلك الوحيد، أليس كذلك؟».

- «في الوقت الحالي. السيد زوجي سأل الآلهة أن تُرزقنا بابن آخر في حال...».

- «أعرف». فكرت سرسي في جوفري وهو يخمش غنقه. في لحظاته الأخيرة نظر إليها بضراعة يائسة، وأوقفت ذكرى مباغته قلبها عن الخفقان؛ قطرة من الدّم الأحمر تُهسّس في لهب شمعة، وصوت مشؤوم يتكلم عن الثيجان والأكفان، عن الموت على يدي القالونكار.

خارج الهودج كان السير أوزموند يزعم بشيء ما ويرث عليه أحدهم زاعقًا، ثم توقف الهودج بحركة حادة، وهدر كتلبلاك: «أنتم موتى جميعًا؟ ابتعدوا عن الطريق اللعين!».

أزاحت الملكة زكن الستار، وأشارت إلى السير مرين ترانت متسائلة: «ما المشكلة؟».

كان السير مرين يرتدي درعًا بيضاء تحت معطفه، وقد علق خوذته وثرسه من سرجه. أجابها: «العصافير يا جلالة الملكة. إنهم مخيمون في الشوارع. سنجعلهم ينزاحون».

- «افعلوا هذا ولكن برفق. لا أريد أن أجد نفسي وسط شغب آخر»، وأفلتت سرسي الستار قائلة: «هذا سخف».

قالت الليدي ميريويدر مؤيدة: «نعم يا جلالة الملكة. كان ينبغي أن يأتيك الشيطون الأعلى بنفسه، وهؤلاء العصافير الخقراء...».

- «إنه يُطعمهم ويُدلّهم ويُبَارِكهم، ومع ذلك يَرْفُض مِبارَكة الملك». تعلم أن المِبارَكة طقس فارغ، لكن للطقوس والمراسم سطوة في أعين الجاهلين. إجون الفاتح نفسه حدّد تاريخ بداية مملكته بيوم مرَّحه السَّيتون الأعلى بالزُّيوت المقدَّسة في (البلدة القديمة). «إمّا أن يخضع ذلك الرّاهب الثّافه وإمّا سيَتعلّم أنه لا يزال إنسانًا ضعيفًا».

- «أورتون يقول إن ما يريده حقًا هو الذهب، إنه ينوي الإمساك عن مِبارَكة الملك إلى أن يستأنف الثّاج دفع ديونه».

- «ستُحضل العقيدة على ذهبها ما إن يحلّ السّلام».

السَّيتون توربرت والسَّيتون راينارد تفهّما أزمتهما تمامًا... على عكس البراقوسي المأفون الذي ألخّ على اللورد جايلز المسكين بلا رحمة، إلى أن أخذ إلى فراشه وهو يَسْغُل دما. كان من الضّروري أن نبني تلك الشّفن. لا تستطيع سرسي الاعتماد على (الكرمة) في شأن قوَّتها البحريّة، قال ردواين قريباون للغاية من آل تايرل، وهي محتاجة إلى قوَّتها الخاصّة في البحر.

سَمَنَحَها الذُّرمونات التي ترتفع في الثَّهر هذا. سفينة القيادة سَئِجِر بضعف مجاذيف (مطرقة الملك روبرت)، وقد طلب أوران إذنَها في تسميتها (اللورد تاويين)، فقبلت سرسي مسرورة، وتتطَّلَع إلى أن تسمع النَّاس يتكَلِّمون عن أبيها باعتباره أنثى. إحدى الشفن الأخرى سَتَسَمَّى (الجميلة سرسي)، وستحمل تمثال مقدِّمة مذهَّبًا منحوتًا بحيث يُحاكي ملامحها بينما ترتدي الحلقات المعدنية وتعتمر خوذة الأسد وتحمل حربًا. ستتبعها (جوفري الشُّجاع) و(الليدي جوانا) و(اللُّبوة) إلى البحر، بالإضافة إلى (الملكة مارجري) و(الوردة الذهبية) و(اللورد رنلي) و(الليدي أولينا) و(الأميرة مارسلا). ارتكبت الملكة خطأ إخبار تومن بأنه يستطيع تسمية الشفن الخمس الأخيرة، والحقيقة أنه اختار اسم (فتى القمر) لإحداها، وفقط حين علَّق اللورد أوران قائلًا إن الرِّجال قد لا يرغبون في الخدمة على متن سفينة مسقاة على اسم مهزج، قبل الضبي على مضض بتكريم أخته بدلًا من ذلك.

قالت لتاينا: «إذا كان هذا الشَّيتون الوضع يحسب أنه سيجعلني أشترى مباركة تومن فسيتعلَّم واقع الأشياء قريبًا». لا تنوي الملكة أن تنصاع لقطيع من الرُّهبان.

توقَّف الهودج ثانيةً بشكلٍ مباغت لدرجة رجَّت جسد سرسي، فقالت: «أوه، لم يَغْد هذا يُطاق»، ومالت إلى الخارج فرأت أنهم بلغوا قَمَّة (تِل قيزينيا). أمامها لاح (سيت بيلور الكبير) بقَبْته المهيبة وبوجه الشبعة البرَّاقة، لكن بينها وبين درجاته الرُّخام بحر كئيب من البشر مسمرِّي البشرة لابسي الأسمال مَثْسخي الأجساد. فكَّرت متنشِّقة: عَصافير، ولو أن لا غُصفور تفوح منه رائحة عفنٍ ونتاجة كهذه.

ارتفعت سرسي للمنظر. كان كايبرن قد جلب لها تقارير بأعدادهم، لكن السماع بها شيء ورؤيتها رأي العين شيء مختلف. في الشاحة يُخَيِّم المئات، وفي الحدائق مئات أكثر، تُفَعِّم بؤر نيرانهم الهواء بالذخان والزوايح المنفُرة، وتُلَوِّث خيامهم الخيش وأكوأخهم الحقيبة المبنية بالظمي وفُضالة الأخشاب الأرضية الرُخام العريقة، بل ويتلملمون بالمثل على السلالم أمام باب (الشيت الكبير) الشاهق.

عاد السير أوزموند إليها خبيثًا، وإلى جواره يركب السير أوزفريد فحلًا ذهبيًا كمعطفه. أوزفريد أوسط الإخوة كتلبلاك، وأكثر من أخويه هدوءًا وجنوحًا إلى العبوس عن الابتسام. وأقسى كذلك إذا صدقت الحكايات. ربما كان عليّ أن أرسله إلى (الجدار).

أراد إلياستر الأكبر پايسل رجلًا أكبر سنًا «متمرّسًا في أمور الحرب» لقيادة ذوي المعاطف الذهبية، واتفق معه كثيرون من مستشاريها الآخرين، فقالت لهم: «السير أوزفريد متمرّس بما فيه الكفاية»، لكن حتى هذا لم يُخرسهم. ينبحون في وجهي كقطيع من الجراء المزعجة. يكاد صبرها على پايسل ينفد عن آخره. بكلّ سفاهة اعترض الرجل على إرسالها إلى (دورن) طالبة قِيم سلاح، بزعم أن شيئًا كهذا قد يُسيء إلى آل تايرل، وعندها سألته متهمّة: «ولم تحسبني أفعل هذا؟».

قال السير أوزموند: «أستميحك الغدر يا صاحبة الجلالة. أخي يستدعي المزيد من ذوي المعاطف الذهبية. سنفتح طريقًا، لا تخافي».

- «ليس لديّ وقت. سأواصل على قدمي».

أمسكت تاينا ذراعها قائلة: «أرجوك يا جلالة الملكة، أنا خائفة منهم. إنهم مئات، ومُتسخون للغاية».

طبعت سرسي قُبلةً على وجنتها، وقالت: «الْيَت لا يخشى
الغصفور... لكن لطف منك أن تُلقني بالآ لسلامتي. أعلم أنك
تحبّيني كثيرًا يا سيّدي. سير أوزموند، ساعدني على التّزول
من فضلك».

لو عرفتُ أنّي سأضطرُّ إلى المشي لارتديتُ ما يُناسبه. اليوم
ترتدي فُستاتًا أبيض مشرّطًا بقماش الذهب، فيه تخريم لكن لا
يعوزه الاحتشام. آخر مرّة وضعتُه الملكة على جسدها كانت منذ
عدّة أعوام، والآن تجده ضيقًا من المنتصف على نحو غير
مريح. خاطبت رجالها قائلةً: «سير أوزموند، سير مرين،
ستصحباني. سير أوزفريد، احرص على سلامة هودجي». بعض
العصافير يبدو ضاويًا غائص العينين بما فيه الكفاية لالتهام
خيولها.

بينما شقّت طريقها في زحام المعدمين مازّة ببؤر نيرانهم
وعرباتهم ومساكنهم البائسة، وجذت الملكة نفسها تتذكّر مرّة
سابقة ازدحم فيها الناس في هذه السّاحة. يوم زفافها إلى
روبرت باراثيون جاء آلاف يهتفون لهما. ارتدت كلّ النّساء أفضل
ثيابهن وحملَ نصف الرّجال أطفالهم على أكتافهم، ولما خرجت
من السّيت ويدها في يد الملك الشّاب أطلق الجمهور هديرًا
مدوّيًا من شأنه أن يسمّع في (لانسيورت)، فهمس روبرت في
أذنها: «يحبّونك للغاية يا سيّدي. انظري، الوجوه كلّها
مبتسمة». في هذه اللّحظة الواحدة العابرة كانت سعيدة في
زواجها... إلى أن وقع ناظرها مصادفةً على چايمي، وتذكّر أنها
فكرت لحظتها: لا، ليس كلّ الوجوه يا سيّدي.

لا أحد يبتسم الآن. النظرات التي يرميها بها العصافير فاترة كئيبة عدوانية، وقد أفسحوا لها الطريق على مضض. لو كانوا عصافير حقًا لطيرتهم صيحة. مئة من نوي المعاطف الذهبية بالعصي والسيوف والهرافات يستطيعون طرد هؤلاء الغوغاء خلال وقت قصير. هذا ما كان اللورد تايوين ليفعله. كان ليدعسهم بدلًا من المشي وسطهم.

حين رأت ما فعلوه بيلور المبارك وقع الأسف في قلب الملكة الرقيق. الثمناي المرمر العظيم الذي يرتفع مبتسمًا في الساحة منذ مئة عام مغطى حتى الخصر بكومة من العظم والجماجم، وبعض الجماجم ما زالت رقع لحم عالقة به، وقد حُطَّ غراب على واحدة من هذه ليستمتع بوليمته اليابسة الجافة، وراخ الذباب يطرئ في كل مكان. سألت الجمع: «ما هذا؟ هل تريدون دفن بيلور المبارك تحت جبل من الجيف؟».

تقدم رجل بساق واحدة مثكنا على غكار خشبي، وقال: «جلالة الملكة، هذه عظام مؤمنين ومؤمنات قُتلوا لإيمانهم، سيتونات وسيتوات، وإخوة بنيون ورماديون وخضر، وأخوات بيضاوات وزرقاوات ورماديّات. بعضهم شقّ وبعضهم يُقرّ بطنه. الشيتات نُهِيت والفتيات وأمهاتهن اغتصبهن الكافرون وعبدت الشياطين. حتى الأخوات الضامتات تعرّضن للتحرش. (الأم في الأعلى) تصرخ لوعة. لقد جلبنا عظامهم من جميع أنحاء البلاد لتشهد على كرب العقيدة المقدسة».

شعرت سرسي بثقل النظرات المسلطة عليها، وبرصانة أجابت: «سيعرف الملك بهذه البشاعات وسيشارككم تومن غضبتكم. هذا عمل ستانيس وساحرته الحمراء، وعمل الشماليين الهمجيين عابدي الأشجار والذئاب»، ورفعت صوتها مضيفة: «أيها القوم الكرام، ستنالون تأر موتاكم!».

هَلْ قلائِل، ولكن قلائِل فحسب، وقال ذو الشَّاق الواحدة: «لا نَطْلُبُ ثأْرًا لموتانا وإنما الحماية للأحياء، وللشَّيتات والأماكن المقدَّسة».

دمدم جلف ضخْم على جبهته نجمة سباعيَّة مرسومة: «يجب أن يدافع العرش الحديدي عن العقيدة. الملك الذي لا يحمي شعبه ليس ملكًا على الإطلاق»، فارتفعت همهمات التأييد من حوله، وكان أحدهم بالثُّزْق الكافي لأن يُصَبِّحَ معصم السير مرين ويقول: «آن أوان أن يتخلَّى جميع الفُرسان المحلِّفين عن سادتهم الذُّنيويِّين ويدافعوا عن عقيدتنا المقدَّسة. قِف معنا أيها الفارس إذا كنت تحبُّ (الشَّبعة)».

انتزع السير مرين يده قائلاً: «اتركني».

قالت سرسي: «أسمعكم. ابني صغير، لكنه يحبُّ (الشَّبعة) حبًّا جفًّا. ستحظون بحمايته وحمايتي أيضًا».

لم يقتنع الكبير ذو النُّجمة على جبهته، وقال: «(الفحارب) سيدافع عنا، وليس ذلك الملك الضُّبِّي البدين».

هَذَا مَرِين ترانت يده إلى سيفه، لكن سرسي أثنته عن هذا قبل أن يستلَّه. إن معها فارسين لا أكثر في بحرٍ من العصافير، كما أنها ترى عصيًا ومناجل ونبابيت وهراوات وعدَّة فؤوس. قالت: «لن أسمح بسفك الدِّماء في هذا المكان المقدَّس أيها الفارس». لماذا الرِّجال جميعهم أطفال؟ اقْتُلْهُ وسيَقْرُقنا البقيَّة تمزيقًا. «كلُّنا أطفال (الأم). هيا، صاحب القداسة الأعلى ينتظرنا». لكن إذ خظت وسط الزُّحام إلى درجات الشَّيت تقدَّمت جماعة من المسلَّحين لتحول بينها وبين الباب. يرتدون الحلقات المعدنيَّة والجلد المقوَّى بالزُّيت المغلي، وهنا وهناك قطعة منبوعة من درع، ويحمل بعضهم الجراب وبعضهم الشيوف الطويلة، في حين يُفَضِّلُ أكثرهم الفؤوس، وقد خاطوا نجمات حمراء على شتراتهم البيضاء الطويلة، وبلغت الوقاحة باثنين منهم أن يُقاطعا حربتيهما ويسدَّا طريقها.

سألتهم: «أهكذا تستقبلون ملككم؟ أين راينارد وتوربرت؟». ليس من عادة هذين الاثنين أن يَفُوتَا فُرصة تملُّقها، ودائما يركع توربرت على رُكبتيه ويغسل قدميها على نحو استعراضي. قال واحد ممن يحملون النُّجمة الحمراء على ستراتهم: «لا أعرف عَمَن تتكلمين، لكن إذا كانا من رجال العقيدة فلا بُدَّ أن الآلهة احتاجت إلى خدماتهما».

قالت سرسي: «الشيتون راينارد والشيتون توربرت من مجلس القائتين، وسيُفَضِّلُهُما أن يعلما أنكم أعقتموني. هل تمنعوني من دخول بيت بيلور المقدس؟».

أجابها شيخ بكتفين محنيتين: «مرحبًا بك هنا يا جلالة الملكة، لكن على رجلك أن يَتَزَكَّا حزاميهما. ليس مسموحًا بالأسلحة في الداخل بأمر الشيتون الأعلى».

- «فُرسان الخرس الملكي لا يتخلَّون عن سيوفهم حتى في حضرة الملك».

زَدَّ الفارس المسرُّ: «في بيت الملك الكلمة للملك، لكن هذا بيت الآلهة».

احتقن وجهها. كلمة واحدة لمرين ترانت وسيلقى الشيخ محني الظهر آلهته خلال وقت أقرب مما يحب. لكن ليس هنا، ليس الآن. قالت لفارسي الخرس الملكي باقتضاب: «انتظرائني»، ووحدها صعدت السَّلام. سحب حاملي الجراب حربتيهما، ودفع اثنان آخران مصراغي الباب بالأكثاف لينفتحا مصدرين قعقة عظيمة.

في (بهو القناديل) وجدت عشرين من الشيتونات راكعين، ولكن ليس للصلاة. كانت معهم دلاء من الماء والضابون ويمسحون الأرض. دفعت ثيابهم الخيش وصنادلهم سرسي إلى اعتقادهم عسافير، إلى أن رفع أحدهم رأسه، لترى وجهه المحقر كالبنجر والقروح المفتوحة النازقة في يديه. خاطبها الرُّجل قائلاً: «جلالة الملكة؟».

قالت وهي تكاد لا تُصدّق ما تراه: «الشّيتون راينارد؟ ماذا تفعل على زكبتيك؟».

- «يُنظّف الأرض». المتكلّم أقصر قامَةً من الملكة بعدّة بوصات، ورفيع كعصا المقشّة. «العمل صورة من صور العبادة، ويُرضي (الحذاد) للغاية»، ونهض الرّجل حاملاً فُرشاةً خشنة، وقال: «جلالة الملكة، كنا ننتظر حضورك».

لحية الرّجل بيّنة شائبة ومشدّبة بعناية، وشعره معقود بإحكام وراء رأسه، وعلى الرغم من أن ردائه نظيف فإنه مهترئ ومرتوق، وكان قد شَمّر كَمِيه حتى المرفقين بينما يحكّ الأرض، لكن تحت زكبتيه القماش مبتلّ تمامًا. له وجه مدبّب وعينان غائستان بيّتان كالظمي، ورأت سرسي قدميه فقالت لنفسها مشدوّهة: حافيتان. ثم إنهما شنيعتان أيضًا، ضلبتان قاسيتان وجلدتهما يابس. «أنت صاحب القداسة الأعلى؟».

- «نحن كذلك».

أبانا، امنحني القوّة. تعلم الملكة أن عليها أن تركع، لكن الأرض مبتلّة بالمياه المتسخة والضّابون، وليست راغبة في إتلاف فُستانها. تطلّعت إلى المسّئين على زكبتهم، وقالت: «لا أرى صديقي الشّيتون توربرت».

- «الشّيتون توربرت محتجز في صومعة توبة ويقتات بالخُبز والماء. من الإثم أن يكون رجل ما بدينًا هكذا بينما يتضورُ يُصف البلاد جوعًا».

تحقّلت سرسي ما يكفي ليوم واحد، فتركته يرى غضبها إذ قالت: «أهكذا تُحيّيني؟ بفُرشاةٍ يَظفر منها الماء في يدك؟ هل تعرف من أنا؟».

أجاب الرّجل: «أنتِ صاحبة الجلالة الملكة الوصيّة على عرش (الممالك الشّيع)، لكن مكتوب في (النجمة الشّباعيّة) أنه كما يحني الإنسان رأسه لسادته، والشّادة لملوكهم، فعلى الملوك والملكات حني رؤوسهم للشّبعة الذين هم واحد».

هل يقول لي أن أركع؟ إذا كان الأمر هكذا فهو لا يعرفها
جيدًا. «كان المفترض أن ثقّيلني على الشّلالم في أبهى صورة
وعلى رأسك التّاج البلّوري».

- «ليس لدينا تاج يا جلالة الملكة».

ردّت بوجه ازداد جهامة: «السّيد والدي أهدى إلى سلفك تاجًا
نادر الجمال من البلّور والذهب المغزول».

قال الشّيتون الأعلى: «ولهذه الهدية تذكّره بالخير في
صلواتنا، لكن الفقراء في حاجة إلى طعام في بطونهم أكثر مما
نحتاج إلى الذهب والبلّور على رأسنا. ذلك التّاج بيع، وكذا
جميع الثّيجان الأخرى في خزائننا، إضافة إلى خواتمنا وأرديتنا
المصنوعة من قماش الذهب وقماش الفضة. الصّوف يصلح
لتدفئة المرء بالقدر ذاته. لهذا خلق (الشّبعة) الخراف».

يا لجنونه المطبق. لا بدّ أن أعضاء مجلس القائتين كانوا
مجانين أيضًا إذ رقّوا مخلوقًا كهذا... مجانين أو مرعوبين من
المتسوّلين على أبوابهم. هامسو كايبرن ادّعوا أن تسعة أصوات
كانت تفصل الشّيتون لوشن عن التّرقية حين انفتحت تلك
الأبواب، وتدقّق العصافير إلى (الشّيت الكبير) حاملين قائدهم
على أكتافهم والفؤوس في أيديهم.

حدّقت إلى الرّجل الصّغير بنظرة جليديّة متسائلة: «أهناك
مكان نستطيع الكلام فيه على انفراد يا صاحب القداسة؟».
ناول الشّيتون الأعلى أحد القائتين فُرشاته مجيئة: «تفضّلي
واتبعيني يا صاحبة الجلالة».

قَادَهَا عبر الباب الداخلي إلى صحن الشَّيْت وتردَّدت أصدقاء
خُطَاهُما على الأرضيَّة الرُّخَام، وقد طفا الهبَاء في أشْغَةِ الضُّوء
الملوَّن المتسلِّلة من رُجَاج القُبَّة العظيمة المطلي بالرَّصاص،
وعَطَّر البخور الهواء، وإلى جوار المذابح الشَّبعة تألَّقت الشُّموع
كالنُّجوم. لـ(الأم) تتلَّالاً ألف شمعة، ولـ(العذراء) نحوها، لكن
يَمَكُنكَ أن تُحصي الشُّموع المضاءة لـ(الغريب) على أقلَّ من
عشرة أصابع.

بلغ غزو العصافير قلب الشَّيْت. أمام (الفحارب) تركع دسته
من الفُرسان المتجولين مثنَّسي الملبس، يتضرَّعون إليه أن
يَبَارِكَ الشُّيُوف التي كُؤموها عند قدميه، وعند مذبح (الأم) يقود
يسيتون منة من العصافير في الضَّلَاة، بعيدة أصواتهم كالموج
على الشَّاحل. قَادَ الشَّيْتون الأعلى سرسي إلى حيث ترفع
(العجون) مصباحها، ولَمَّا ركعَ أمام مذبحها لم تجد خيَازًا إلَّا
الرُّكُوع إلى جواره، لكن من الرُّحمة أن هذا الشَّيْتون الأعلى لا
يجنح إلى الإطناب في الضَّلَاة كسلفه الشَّمين. اظنُّ أن عليَّ أن
أمتنُّ لهذا على الأقل.

لم يُحاول صاحب القداسة الأعلى القيام حين فرغ من
الضَّلَاة، ويبدو أن عليهما أن يتشاوَّرا راكعين. فكَّرت وقد وجذت
هذا طريقًا: حيلة من رجلٍ وضع. «صاحب القداسة، هؤلاء
العصافير يُخيفون أهل المدينة. أريدكم أن يرحلوا».
- «وأين يذهبون يا جلالة الملكة؟».

ثَمَّة سبع جحائم، أي منها يَصْلُح. «إلى حيث جاءوا كما
أتصوُّر».

- «لقد جاءوا من كلِّ مكان. مثل الفُصفور الأكثر تواضُّعا
وشيوعًا بين الطُّيور، هم أكثر النَّاس تواضُّعا وشيوعًا».

إنهم شائعون بالفعل، على هذا نثُفق. «هل رأيت ما فعلوه
بتمثال بيلور المبارك؟ إنهم يذُنسون الشَّاحة بخنازيرهم
وماعزهم وفضلاتهم».

- «غسل الفضلات أسهل من غسل الدماء يا جلالة الملكة. إذا دُئِست الشّاحة فقد دُئِسها الإعدام الذي تَمّ هنا».

هل يجرو على إلقاء ند ستارك في وجهي؟ «كلّنا آسفون لهذا. جوفري كان صغيّرًا ولا يتمنّع بحكمة كافية. كان يجب قطع رأس اللورد ستارك في مكان آخر احترامًا لبيلور المبارك... لكن دعنا لا ننسى أن الرّجل كان خائنًا».

- «الملك بيلور عفا عن تأمروا ضده».

الملك بيلور حبس أخواته اللاتي كانت جريرتهن الوحيدة جمالهن. أول مرّة سمعت سرسي هذه الحكاية ذهبت إلى غرفة تيريون الرّضيع وقرضته حتى انفجر باكيا. كان حرّا بي أن أكتّم أنفاسه وأدش جوربي في فمه. أجبرت نفسها على الابتسام قائلة: «والملك تومن سيعفو عن العصافير أيضًا ما إن يرحلوا إلى ديارهم».

- «أكثرهم فقد داره. المعاناة في كلّ مكان... والخزن والموت. قبل مجيئي إلى (كينجز لاندنج) اعتدت الثّجوال بين عشرات القرى الأصغر من أن يكون لها سيتونها الخاص، وسرث من كلّ واحدة إلى الثّالية مقيمًا طقوس الرّفاف وغافرا خطايا الخطاة ومسقيًا المواليد. تلك القرى لم يَغد لها وجود يا جلالة الملكة، والحشائش والأشواك تنمو حيث كانت الحدائق المزهرة، وعظام الموتى ملقاة على قارعة الطّريق».

- «الحرب شيء فظيع. هذه البشاعات من صنع الشماليين واللورد ستانيس ورجاله عبدة الشّياطين».

- «بعض عصافيري يتكلّمون عن جماعات من الأسود انتهكت حرمتهم... وعن كلب الضّيد الذي كان رجلكم الوفي. في (الملاحات) فتك بسيتون مسن واغتصب فتاة في الثّانية عشرة، طفلة بريئة موعودة للعقيدة. كان يرتدي درعه بينما يفتصبها، ومزقت حلقاته المعدنيّة لحمها الغضّ وسحقه، ولما فرغ منها تركها لرجاله الذين قطعوا أنفها وئديها».

- «لا يُمكن تحميل جلالة الملك مسؤولية كل رجل سبقَتْ له خدمة عائلة لانستر. ساندور كليجاين خائن متوحش. لماذا تحسبني صرفته من خدمتنا؟ إنه يُقاتل لحساب المجرم بريك دونداريون الآن، وليس الملك تومن».

- «كما تقولين، لكن يجب ألا نُفعل هذا السؤال... أين كان قُرسان الملك عندما جرى هذا؟ ألم يُقسم جهيرس المُصلح ذات يوم على العرش الحديدي نفسه أن الثاج سيُدافع عن العقيدة دوماً ويحميها؟».

لا تدري سرسي بم أقسم جهيرس المُصلح، لكنها قالت مثففة: «صحيح، وباركه السَّيتون الأعلى ومرَّحه بالزُّيوت المقدَّسة باعتباره الملك. لقد جرَّت العادة على أن يُبارك كل سَيتون أعلى جديد الملك... ومع ذلك تُرفض مباركة الملك تومن».

- «جلالتك مخطئة. نحن لم تُرفض».

- «لكنك لم تأت».

- «لم تَجن ساعة القطاف بعد».

أأنت راهب أم خُضري؟ «وما الذي يُمكن أن يجعلها... تحين؟». إذا جرَّو على ذِكر الذهب سأتعاملُ معه كما تعاملتُ مع سابقه وأجد طفلاً ورعاً في الثامنة يعتمر الثاج البلّوري.

- «البلاد ملأى بالملوك، ولثعلي العقيدة واحدًا فوق البقية يجب أن نكون واثقين. قبل ثلاثمئة عام، عندما رسا إجون الفاتح عند هذا الثُلّ تحديدًا، حبس الشيتون الأعلى نفسه في (الشيت التجمي) في (البلدة القديمة) وصلى سبعة أيام وسبع ليالٍ دون غذاء إلاّ الخبز والماء، وحين خرج أعلن أن العقيدة لن ثناوي إجون وأخيه، لأن (العجون) رفعت مصباحها وأزته المستقبل. لو رفعت (البلدة القديمة) السلاح ضد التئين لاحتُرقت، ولحاق الخراب والذمار بـ(البرج العالي) و(القلعة) و(الشيت التجمي). اللورد هايتاور كان رجلًا متديّنًا، ولما سمع الثبوة أبقى قوّاته في دياره وفتح بوابات المدينة لإجون لدى وصوله، ومرّح صاحب القداسة الأعلى الفاتح بالزيوت الشبعة. عليّ أن أفعل ما فعله الشيتون الأعلى قبل ثلاثمئة عام، عليّ أن أصلي وأصوم».

- «سبعة أيام وسبع ليالٍ؟».

- «مهما تطلّب الأمر».

فكرت سرسي وهي تتحرّق شوقًا إلى صفعه على وجهه الرّصين: أستطيع مساعدتك على الضيام، أستطيع أن أحبسك في بُرج ما وأحرص على ألاّ يأتيك أحد بطعام إلى أن تقول الآلهة كلمتها. قالت له مذكّرة: «هؤلاء الملوك الرّائفون يعتنقون أديانًا باطلة. ملكنا تومن يُدافع عن العقيدة المقدّسة».

- «ومع ذلك تُحرّق الشيتات وتُسرق في كلّ مكان، وحتى الأخوات الصّامتات اغثّصبن ويرفعن أصواتهن الملتاعة إلى السّماء. هل رأت صاحبة الجلالة عظام وجماجم إخوتنا المؤمنين؟».

ردّت مرغمة: «رأيتها. امنح تومن البركة وسيضع نهاية لهذه الانتهاكات».

- «وكيف سيفعل ذلك يا جلالة الملكة؟ هل سيؤرسل فارساً يمشي على الطُّرق مع كلِّ أخٍ شخاذ؟ هل سيُعطينا رجالاً لحماية سيتواتنا من الذئاب والأسود؟».

سأُتظاهرُ بأنك لم تذكر الأسود. «البلاد في حرب. صاحب الجلالة في حاجة إلى كلِّ رجل». لا نية لدى سרسي في تبديد قوّة تومن بإرسال رجاله للعب دور الفُرُضعات مع العصافير أو حراسة الفروج المتفُضّنة لألف سِپتة كئيبة. على الأرجح يُصَلّي يصفهن طلباً للاغتصاب. «عصافيرك يحملون هراوات وفؤوساً. فليُدافعوا عن أنفسهم».

- «قوانين الملك ميجور تُحظَر ذلك كما تعلم صاحبة الجلالة بالتأكيد. بمرسوم منه لم تُغَد العقيدة تحمل السيوف».

- «تومن الملك الآن لا ميجور». لِمَ تُبالي بما فرضه ميجور المتوخّش قبل ثلاثمئة عام؟ بدلاً من أخذ السيوف من أيدي المؤمنين كان عليه استغلالها في تحقيق مآربة. أشارت إلى (المُحارب) الواقف فوق مذبحه الرُّخامي الأحمر، وسألت: «ما هذا الذي يحمله؟».

- «إنه سيف».

- «هل نسي كيف يستخدمه؟».

- «قوانين ميجور...».

- «... قابلة للإلغاء»، قالتها وتركت القول يسبح في الهواء منتظرة أن يلتقط الشيتون الأعلى الطعم.

ولم يُخَيّب الرّجل ظنّها، وقال: «ميلاد مُناضلي العقيدة من جديد... ستكون هذه إجابةً لثلاثمئة عامٍ من الدُّعاء يا جلالة الملكة. سيرفع (المُحارب) سيفه ثانيةً ويُظهر هذه البلاد الأثيمة من شرورها. إذا سمح لي صاحب الجلالة بإحياء جماعتي الشيف والنّجمة العريقتين المباركتين فسيعرف كلُّ مؤمن في (الممالك السبع) يقيناً أنه مولانا الشرعي الحق».

رائع أن تسمع هذا، لكن سرسي حرصت على عدم إبداء لهفتها، وقالت: «تكلّمت منذ قليل عن العفو يا صاحب القداسة الأعلى. في هذه الأوقات العصيبة سيكون الملك تومن ممتثًا للغاية إذا وجدت وسيلة للعفو عن ديون الثّاج. على حدّ علمي نحن مدينون للعقيدة بنحو تسعمئة ألف تئين».

- «تسعمئة ألف وستمئة وأربعة وسبعون، ذهب من شأنه إطعام الجياع وإعادة بناء ألف بيت».

سأله الملكة: «هل تريد الذهب أم إبطال قوانين ميجور التي عفا عليها الزمن؟».

فكر السّيتون الأعلى لحظة، ثم قال: «كما ترغبين. سنعفو عن هذا الدين، وسينال الملك تومن البركة. سيصحبني أبناء الضّحارب إليه متألّقين بمجد عقيدتهم، بينما يذهب عصافيري للدّفاع عن الضّعفاء والمساكين في البلاد، مولودين من جديد كجماعة الضّعاليك القديمة».

نهضت الملكة وسوّت ثئورتها قائلة: «سامرّ بتجهيز الأوراق، وسيؤقّعها جلالته ويضع عليها الختم الملكي». إذا كان هناك جزء من الفلك يحبّه تومن فهو اللّعب بختمه.

قال السّيتون الأعلى: «فليحمه (الشبعة) وعسى أن يطول حكمه»، وشبك أصابعه ورفع عينيه إلى السّماء، وأردق: «فليرتجف الأشرار!».

هل تسمع يا لورد ستائيس؟ لم تستطع سرسي أن تمنع نفسها من الابتسام. ما كان السيّد والدها نفسه ليُبلي بلاءً أحسن. بضربة واحدة خلّصت (كينجز لاندنج) من وباء العصافير وأمنت بركة تومن وخفّضت نحو مليون تئين من ديون الثّاج. كان قلبها يخلّق تحليقًا إذ سمكت للسّيتون الأعلى باصطحابها عائدةً إلى (بهو القناديل).

شاركتها الليدي ميريوينذر ابتهاجها، مع أنها لم تسمع قَطُّ
بأبناء الفُحارب أو جماعة الضُعاليك، فشرخت لها سرسي قائلةً:
«تاريخهم يرجع إلى ما قبل غزوة إجون. أبناء الفُحارب كانوا
جماعةً من الفُرسان الذين تنازَلوا عن أراضِيهم وذهبهم وأقسموا
على تكريس سيوفهم لصاحب القداسة الأعلى. الضُعاليك...
كانوا رجالًا أكثر تواضعًا ولو أن أعدادهم كانت أكبر كثيرًا، نوغًا
من الإخوة الشُخازين ولكن يحملون الفؤوس بدلًا من الآتية.
اعتادوا أن يجوبوا الطُرق ويصطحبوا المسافرين من سِيت إلى
سِيت وبلدة إلى بلدة حاملين شارة النُجمة الشُباعِيَّة، أحمر على
أبيض، فسقاهم العائمة الثُجوم. أمَّا أبناء الفُحارب فارتدوا
معاطف بألوان قوس قزح ودروغًا فضِيَّة مزخرفة فوق قمصانٍ
من الشَّعر، وكانت في قبِيعة سيف كلِّ منهم بلُورة على شكل
نُجمة. هؤلاء كانوا الشيوف. مؤمنون، متنشكون، متعضِّبون،
مشعوذون، قَتلة تنانين، صيادوا شياطين... الحكايات عنهم
عديدة، لكن جميعها متَّفِق على أنهم كانوا لا يُبارون في
كراهيتهم لكلِّ أعداء العقيدة المقدَّسة».

قالت الليدي ميريوينذر وقد فهمت في الحال: «أعداء كاللورد
ستانيس ومشعوذته الحمراء مثلًا؟».

ردَّت سرسي: «نعم، بالفعل»، وقهقهت كفتاة صغيرة، وقالت:
«هل نفتح برميلاً من الهيبوكراس ونشرب نخب حمِيَّة أبناء
الفُحارب في طريقنا؟».

- «نخب حمِيَّة أبناء الفُحارب وعبقريَّة الملكة الوصيَّة على
العرش! نخب سرسي الأولى!».

كان الهيبوكراس خلُواً لذيذاً كانتصار سرسي، وبدا هودج
الملكة كأنه طاف في الهواء في طريق العودة عبر المدينة.

لكن عند سفح (تَلْ إجون العالي) صادفت مارجري تايرل وبنات عمومتهما العائدات من ركوب الخيل، ولما وقفت عيناها على الملكة الصغيرة قالت سرسي لنفسها بضيق: تُزعجني في كل مكان.

وراء مارجري طابور طويل من أفراد حاشيتها، خُراس وخدم يحمل كثيرون منهم سلاّلاً من الزهور الناضرة، وقد لازم كلّاً من بنات عمومتهما أحد المعجبين، فركب الرفاق الطويل الهزيل آلن أمبروز إلى جوار خطيبته إلينور، والسير تالاد مع آلا الخجول، ومقطوع الذراع مارك مالندور مع مِجا الممتلئة الضحوك، وصاحب الثّوامان ردواين اثنتين من رقيقات مارجري الأخريات، ميريديت كرين وچانا فوسواي. وضعت كلّ النساء في شعورهن الزهور، وضمّ چالابار شو نفسه إلى الزّكب أيضاً، بالإضافة إلى السير لامبرت ترنبري بالزّقعة على عينه، والمغني الوسيم المعروف باسم الشّاعر الأزرق.

وبالطّبع لا بُدّ أن يُصاحب فارس من الحرس الملكي الملكة الصغيرة، وبالطّبع هو فارس الزّهور. بدا السير لوراس متألّفاً في درعه البيضاء المنقوشة بالذهبي. على الرغم من أنه لم يُحاول ثانية أن يذبّ تومن على السّلاح فما زال الملك الصغير يقضي أوقاتاً طويلةً للغاية معه، وكلّما عاد الضّبي بعد أن أمضى الأصيل مع زوجته الصغيرة حكى قصّة جديدة عن شيء قاله السير لوراس أو فعله.

حيّتهم مارجري عندما التقى الزّكبان وركبت إلى جوار هودج الملكة. كانت وجنتاها متورّدتين، وخليقات شعرها البليّة تنسدل بلا انتظام على كتفيها، تُحرّكها مجرّد نفخة ربح خفيفة. قالت لهم: «كنا نقطف زهور الخريف من (غابة الملوك)».

أعرف أين كنتم. فخبروها مفلحون للغاية في إطلاعها على كل حركات مارچري وسكناتها. فتاة ملول للغاية ملكتنا الصغيرة هذه. نادرًا ما تترك ثلاثة أيام بأكملها تمر دون أن تخرج للركوب. أحيانًا يركبون على طريق (روزي) لصيد الأصداف والاكل على شاطئ البحر، وفي أحيان أخرى تأخذ حاشيتها عبر النهر لقضاء الأصيل في الصيد بالضقور. الملكة الصغيرة مولعة بركوب القوارب أيضًا، والإبحار جيئةً وذهابًا في (النهر الأسود) بلا وجهة بعينها، ولما يعز إليها الإيمان تغادر القلعة لتُصلي في (سيت بيلور)، ثم إنها زبونة عند دسنة من الخياطات، ومعروفة جيدًا وسط صاغة المدينة، بل ومعروفة أيضًا بزيارة سوق السمك عند (بوابة الظمي) لتلقي نظرة على صيد اليوم. أينما ذهبت يتزلف إليها العامة، والليدي مارچري تفعل كل ما في إمكانها لثلب حماسهم. بلا انقطاع تتصدق على المتسولين وتشتري الفطير الساخن من عربات الخبازين وتوقف حصانها لتتكلّم مع عوام الثّجار.

لو كان الأمر بيدها لجعلت تومن يفعل كل تلك الأشياء أيضًا. طوال الوقت تدعوه إلى المجيء معها ودجاجاتها في مغامراتهن، وطوال الوقت يتوسل الضبي إلى أمه لتأذن له في الذهاب، وقد وافقت الملكة بضع مرّات، ولو فقط لتسمح للسير أوزني بقضاء بضع ساعاتٍ إضافية في رفقة مارچري. كأن هذا أثمر شيئًا. أوزني خيب آمالي تمامًا. سألت سרسي ابنها: «هل تذكر يوم أبحرت أختك إلى (دورن)؟ هل تذكر غواء الرّاع في طريق عودتنا إلى القلعة؟ والحجارة واللّعنات؟».

لكن بفضل الملكة الصغيرة ضمّ الملك أذنيه عن سماع صوت العقل، وقال: «إذا اختلطنا بالعامة فسيحبّثونا أكثر».

ذكرته قائلة: «الرّاع أحبوا السّبتون الأعلى السّمين لدرجة أنهم مرّقوه إربًا رغم قدسيّته»، لكن قولها لم يفض إلا إلى وجوم تومن. أراهن أن هذا ما أراسته مارجري بالضبط. كل يوم تُحاول بكلّ وسيلة أن تسرقه مني. كان جوفري ليستشف الدّسائس المتوارية تحت ابتساماتها، لكن تومن أكثر سذاجة. فكّرت متذكّرة الغملة الذهب التي وجدها كايبزن: كانت تعلم أن جوف أقوى من أن تحتال عليه، ولأجل أن يكون لعائلة تايرل أمل في الحكم كان يجب أن يزاح. عادَ إلى ذاكرتها فجأة أن مارجري وجّدتها الشّنيعة خطّطتا ذات مرّة لتزويج سانزا ستارك بويلاس أخي الملكة الصغيرة المُعاق، وقد أحبط اللورد تايوين هذا المخطّط باستباق آل تايرل وتزويج سانزا بتيريون، لكن الرّابط موجود. قالت لنفسها مفزوعة وقد حطّ عليها الإدراك: كلهم متآمرون معًا. آل تايرل رشوا الشّجّانين لإطلاق سراح تيريون وهزيوه على (الطريق الوردي) لينضمّ إلى عروسه البغيضة. لا بدّ أنهما آمان الآن في (هايجاردن)، مختبئان وراء جدار من الورود.

بينما صعدوا منحدر (تل إجون العالي) واصلت المتأمرة الصغيرة ثرثرتها قائلة: «ليتك أتيت معنا يا جلالة الملكة. كنا لنقضي وقتًا رائعًا معًا. الأشجار مثشحة بالذهبي والأحمر والبرتقالي، والزهور في كل مكان، والكستناء أيضًا. شوينا القليل في طريق العودة».

قالت سرسي: «ليس لديّ وقت للزّكوب في الغابة وقطف الزّهور. إن عندي مملكة أحكمها».

رَدَّت مارجري: «واحدة فقط يا جلالة الملكة؟ ومن يَحْكُم
السَّت الأخريات؟»، وأطلقت ضحكةً مرحةً قصيرةً، وأردفت:
«أمل أن تغفري لي مزحتي. أعرفُ العبء الذي تحمليته. يَجْدُر
بك أن تدعيني أشاركك إياه. لا بُدَّ من وجود أشياء يُمكنني
فعلها لأعينك. سيضع هذا حدًا لكل الكلام الدائر عن تنافُسنا
على الملك».

مبتسمةً قالت سرسي: «أهذا ما يقولون؟ حماقة. إنني لم
أعدك منافسةً قط ولو لحظةً».

لم يبدُ على الفتاة أنها أدركت ما في رَدِّها من استخفاف،
وقالت: «يسرُّني للغاية أن أسمع هذا. يجب أن تأتي معنا أنتِ
وتومن المزة القادمة. أعرفُ أن جلالته سيحبُّ هذا. الشَّاعر
الأزرق يُغني لنا، والسير تالاد أَرانا كيف نُقاتِل بالثَّبابيت على
غرار العوام. الغابة جميلة للغاية في الخريف».

- «زوجي الزَّاحل أحبُّ الغابة أيضًا». في سنوات زواجهما
الأولى كان روبرت يُناشدُها طوال الوقت أن تذهب معه للصيد،
لكن سرسي اعتذرت دوماً، إذ أتاحت لها رحلاته قضاء الوقت مع
جايمي. نهارات من ذهب وليلات من فضة. لا شكَّ أنهما كانا
يُجازِفان، ف(القلعة الحمراء) ملأى بالأعين والأذان دوماً، ولم
يكونا متأكدين متى قد يعود روبرت، لكن بوسيلةٍ ما جعل
الخطر أوقاتهما مغا تبداً أكثر إثارةً مَرَّاً. قالت للملكة الصغيرة
محدرةً: «ولو أن الجمال من شأنه أن يُخفي خطراً مميثاً أحياناً.
روبرت فقدَ حياته في الغابة».

منحت مارجري السير لوراس ابتسامةً أخويةً عذبةً مفعمةً
بالحنان، وقالت: «لطف من جلالتك أن تخافي عليّ، لكن أخي
يحميني جيِّداً».

عشرات المَرَّات ألحَّت سرسي على روبرت قائلةً: /ذهب
للصيد، أخي يحميني جيِّداً/. تذكَّرت ما قالته تايَنا قبلاً، وتفجَّرت
من بين شفَّتيها ضحكةً.

ابتسّمت لها الليدي مارچري بفضول، وقالت: «ضحكة
جلالتك جميلة للغاية. هلاً أشركتنا في الذّعابة؟»
ردّت الملكة: «ستشتركون فيها، هذا وعد».

دَقَّتْ طبول المعركة و(النصر الحديدي) تتقدَّم بسرعة، يشقُّ مدكُّها المياه الخضراء المتلاطمة نحو السفينة الأصغر حجماً التي تدور أمامهم ومجاذيفها تضرب البحر وعلى راياتها تُزقرف الورود؛ من كلِّ من المقدَّمة والمؤخِّرة ترتفع وردة بيضاء على خلفيَّة حمراء بشكل المجنَّ، وفوق صاريتها وردة ذهبيَّة على خلفيَّة خضراء كالنَّجيل. ارتطمت (النصر الحديدي) بجانبها بغنِّف أفقَد نصف رجال فرقة الاقتحام توازُّنهم، وانقصمت المجاذيف وتشطَّطت بصوت تردَّد في أذني القائد كلحن أخذ.

وثب من فوق الحاجز وحطَّ على الشطح الأدنى ومعطفه الذهبي يخفق وراء ظهره، فتراجعت الورود البيضاء كدأب الرِّجال الذائم لدى مرأى فيكتاريون جرايجوي مسلَّحاً مدرِّعاً وقد توارى وجهه تحت خوذة الكراكن. كانوا يحملون سيوفاً وجرايِّاً وفؤوساً، غير أن تسعة من كلِّ عشرة لا تحميهم دروع، والعاشر لا يرتدي أكثر من قميص من الحلقات المعدنيَّة المخيطة. هؤلاء ليسوا رجالاً حديدَّيين، ما زالوا يخافون الفرق. صاح أحدهم: «نلوا منه! إنه بمفرده!».

وهذر فيكتاريون مجيِّباً: «هلفوا! تعالوا واقتلوني إن استطعتم!».

من كلِّ صوب التَّفِّ محاربو الورود حوله، في أيديهم الفولاذ الزَّمادي وفي أعينهم الدُّعر، محسوس ملموس خوفهم لدرجة أنه تذوِّقه على لسانه. شمالاً ويميئاً انهال بضرباته شاطرًا ذراع الرِّجل الأول من عند المرفق وقالقاً كتف الثاني، ودفن الثالث رأس فأسه في خشب ثرس فيكتاريون الضنوبري اللَّين، فهوى به على وجه الأحمق طارحاً إياه أرضاً، وقتله لمَّا حاول الثُّهوض.

بينما يُحاول انتزاع فأسه من قفص القَتيل الصُّدري وخزّته
حربة بين لوحَي الكتفين، فأحس كأن أحدًا لطفه على ظهره،
وداز فيكتاريون على عقبه وهوى بفأسه على رأس حامل
الحربة شاعرًا بتأثير الضّمة في ذراعه إذ شقّ الفولاذ الخوذة
والشَّعر والجمجمة. ترنَّح الرّجل لحظةً أو أقلّ، ثم انتزع القائد
الحديدي فولاده وترك الجثّة تسقط بأطراف مرتخية على سطح
السّفينة وهي تبدو سكرانة أكثر من ميتة.

عندها كان رجاله الحديديّون قد تبعوه إلى سطح السّفينة
الطويلة المحظّمة. سمع وولف ذا الأذن الواحدة يُطلق غواءً وهو
يبدأ العمل، ولمح راجنور بايك في قميصه المعدني الضّدي،
ورأى نيوت الحلاق يُلقي فأسًا دازت في الهواء وأصابت أحد
الخصوم في صدره. قتل فيكتاريون رجلًا آخر وآخر، وكان
ليقتل ثالثًا على الثّوالي، لكن راجنور أرداه أولًا، فجأز مخاطبًا
إياه: «أحسنّت القتلة!».

حين التفت باحثًا عن ضحية فأسه الثّالية أبصر الرّبان الآخر
عبر سطح السّفينة، شترته البيضاء الطويلة ملوّثة بالدم الطّازج
والمتخثر، إلّا أن فيكتاريون ميّز الرّمز على صدره، الوردة
البيضاء على المِجنّ الأحمر، وقد حمل ثُرسه الرّمز نفسه على
خلفيّة بيضاء مؤظرة بشكل شرفات الحصن. ناداه الرّبان
الحديدي عبر المقتلة بينهما: «أنت! أنت! أنت يا حامل الوردة! أنت
سيّد (ثُرس الجنوب)؟».

رفع الرّبان الآخر مقدّمة خوذته ليظهر وجهه الحليق، وأجاب:
«ابنه ووريثه، السير تالبرت سيري. ومن أنت أيها الكرايكن؟».
ردّ فيكتاريون: «موتك»، وانقضّ عليه.

وثب سيري يُجابهه رافعًا سيفه الفولاذي المطرّق في قلعة،
وقد جعله الفارس الشاب يُغَيّي. كانت ضربته الأولى منخفضة
وتلقاها فيكتاريون على فأسه، وأصابت الثانية الزّئان الحديدي
على خوذته قبل أن يرفع ثرسه، فردّها بضربة جانبية من فأسه
اعترضها ثرس سيري لتتطاير شظايا الخشب وتنشق الوردة
البيضاء بالظّول بصوت حاد عذب. هوى الشيف الطويل على
فخذه مرّة واثنين وثلاثًا صارخًا مع احتكاكه بفولاذ درعه،
فقال الزّئان الحديدي لنفسه: الضّبي سريع، وهوى بثرسه على
وجه سيري دافعًا إياه إلى التّراجع مترنّخًا إلى الحاجز، ثم رفع
فيكتاريون فأسه واضعًا ثقله كلّ وراء ضربتها ليفلق جسد
الضّبي من الغنق إلى ملتقى الفخذين، لكن سيري دار متملّصًا،
وانغرس رأس الفأس في الحاجز الخشبي مطيّرًا الشّظايا، ولما
حاول فيكتاريون انتزاعه وجده عالقًا... وتحرك ظهر السفينة
تحت قدميه وسقط على ركبته.

ألقي السير تالبرت ثرسه المهشّم وسدّد ضربةً بسيفه الطويل،
وكان ثرس فيكتاريون قد التوى جزئيًا حين سقط، فضدّ التّصل
بقبضة من حديد، ليتحطم فولاذ قفّازه المقعر وتسري في ذراعه
طعنة من الألم جعلته يئنّ، لكنه ظلّ متشبّثًا، وقال: «أنا أيضًا
سريع يا فتى»، وانتزع الشيف من يد الفارس وألقاه في البحر.
اتّسعت عينا السير تالبرت، وغمغم: «سيفي...».

طوّق فيكتاريون رقبة الضّبي بقبضته الدّامية قائلاً: «اذهب
واعثر عليه»، وألقاه من فوق الحاجز في المياه الملطّخة
بالذّماء.

منحه هذا فترة راحة ليحزّر فأسه من الخشب. كانت الورود البيضاء تتراجع أمام الشيل الحديدي، يحاول بعضها الفرار إلى قلب السفينة ويصرخ بعضها متوسلاً الرحمة. شعر فيكتاريون بالذم الدافئ يسيل على أصابعه تحت الحلقات المعدنية والجلد والفولاذ المقفر، لكن هذا لا شيء. حول الضارية رأى مجموعة ملتزمة من الخصوم يواصلون القتال كتحف إلى كتف في حلقة، ففكر: هؤلاء القلائل رجال على الأقل، يؤثرون الموت على الاستسلام، ودق بفأسه على ثرسه وانقض عليهم.

لم يخلق الإله الغريق فيكتاريون جراجيوي للقتال بالكلمات في انتخاب الملك، ولا لمغالبه الأعداء الخفيين المتسللين في مستنقعات بلا نهاية، أمّا هذا فهو ما وُضع على هذه الأرض لكي يفعله، لأن يقف مدرّغا بالفولاذ وفي يده فأس حمراء يقطر منها الدّم، مُعملاً الموت مع كل ضربة.

من الأمام والخلف هاجموه، لكن سيوفهم لم تُصبه بأذى كأنها غصون صفصاف. لا نصل يُمكنه التّفاذ من درع فيكتاريون جراجيوي الثقيلة، ولا أعطى هو غرماءه فرصة العثور على نقاط الضعف عند المفاصل حيث لا يقيه إلا الجلد وحلقات المعدن. فلهذا هاجمه ثلاثة رجال، أو أربعة، أو خمسة، لا فرق. واحداً تلو الآخر قتلهم مؤتمناً فولاذه على حمايته من الآخرين، وإذا سقط كل غريم سلط فيكتاريون ثورته على التالي.

لا يَدُّ أن آخِرَ رجلٍ واجهه حذاد، فللرَّجلِ كَتفانِ ضَخمتانِ
كَأَكْتافِ كَالثَّيْرَانِ وإِحْدَاهُمَا مَفْتُولَةُ العَضَلَاتِ أَكْثَرُ مِنَ الثَّانِيَةِ
بِكَثِيرٍ. لَيْسَتْ دِرْعُهُ أَكْثَرُ مِنْ سِتْرَةِ جِلْدِيَّةٍ مَرُضَّةٍ بِالْحَدِيدِ
وَقَبْعةٍ مِنَ الجِلْدِ المَقْوَى، وَالضَّرْبَةُ الوَحِيدَةُ الَّتِي سَدَّهَا أَكْمَلَتْ
دِمَارَ ثُرُسِ قِيكَتَارِيُونَ، لَكِنِ الضَّرْبَةُ الَّتِي رَدَّ بِهَا القَائِدَ شَطَرَتْ
رَأْسَهُ نِصْفَيْنِ. لَيْتَنِي أُسْتَطِيعُ التَّعَامُلَ مَعَ عَيْنِ القُرَابِ بِهَذِهِ
البَسَاطَةِ. حِينَ انْتَزَعَ رَأْسَ فَأْسِهِ ثَانِيَةً انفَجَرَ رَأْسُ الحَذَادِ،
وَتَنَائَزَتِ العِظَامُ وَالدَّمَاءُ وَخَلَايَا الفُخِّ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَسَقَطَتْ
الجُثَّةُ إِلَى الأَمَامِ عَلَى سَاقِيهِ، وَفَكَّرَ قِيكَتَارِيُونَ وَهُوَ يُخَلِّصُ
نَفْسَهُ مِنَ الرَّجْلِ المَيِّتِ: فَاتِ أَوَانِ تَوْشَلِ الرَّحْمَةِ.

عِنْدَئِذٍ كَانَ سَطْحُ الشَّفِينَةِ قَدْ صَارَ زَلْزَلًا تَحْتَ قَدَمِيهِ، وَأَكْوَامُ
المَوْتَى وَالمَحْتَضِرِينَ عَلَى كُلِّ جَانِبٍ. أَلْقَى ثُرُسُهُ وَغَبَّ الهَوَاءَ،
وَسَمِعَ الحَلَّاقَ يَقُولُ مِنْ جَانِبِهِ: «حَضْرَةُ القَائِدِ، النُّصْرَ لَنَا».

حَوْلَهُمْ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ امْتَلَأَ البَحْرُ بِالسُّفُنِ، بَعْضُهَا يَحْتَرِقُ
وَبَعْضُهَا يَفْرَقُ وَبَعْضُهَا تَحْطُمُ تَمَاقًا، وَبَيْنَ أَبْدَانِهَا المِيَاهُ زَاخِرَةٌ
بِالجُثَثِ وَالمَجَازِيِفِ المَكْسُورَةِ وَالرِّجَالِ المَتَمَشِّكِينَ بِالخُطَامِ،
وَمِنْ بَعِيدٍ نِصْفُ دَسْتَةٍ مِنْ سُفُنِ الجَنُوبِيِّينَ الطَّوِيلَةِ تَهْرَعُ صَوْبَ
نَهْرِ (الْمَانْدَرِ). قَلِيذْهَبُوا وَيَحْكُوا الحِكَايَةَ. مَا إِنْ يُؤَلِّي الرَّجُلُ
الأَدْبَارَ وَيَفِرُّ مِنَ المَعْرَكَةِ لَا يَعُودُ رَجُلًا.

كَانَتْ عَيْنَاهُ تُؤَلِّمَانِهِ مِنَ العَرَقِ الَّذِي سَالَ فِيهِمَا خِلَالِ القِتَالِ.
سَاعَدَهُ اثْنَانِ مِنْ مَلَّاحِيهِ عَلَى خَلِّ أُرْبُطَةِ خَوْذَةِ الكِرَاكِينِ لِيَرْفَعَهَا،
وَجَقَّفَ قِيكَتَارِيُونَ جِبْهَتَهُ مَدْمَدِمًا: «الفَارِسُ، فَارِسُ الوَرْدَةِ
البَيْضَاءِ. هَلْ سَحَبَهُ أَحَدٌ مِنَ المَاءِ؟». الضُّبِّيُّ ابْنُ لُورْدٍ وَيَسْتَحِقُّ
فَدِيَّةً لَا بَأْسَ بِهَا، مِنْ أَبِيهِ إِذَا نَجَا اللُّورْدُ سِيرِي مِنَ المَعْرَكَةِ، وَإِنْ
لَمْ يَكُنْ فَمِنْ وَلِيِّ أَمْرِهِ فِي (هَاجَارْدِن).

على أن أحدًا من رجاله لم يز ما جرى للفرس بعد أن سقط
في الماء، وعلى الأرجح غرق، فقال قيكاريون: «عسى أن ينعم
كما قاتل في أبهاء الإله الغريق المائيّة». مع أن أهل (جزر
الثروس) يقولون عن أنفسهم إنهم بخّارة، فإنهم يجتازون البحر
في خوف ويدخلون المعارك مرتدين ثيابًا خفيفة خشية الفرق،
أما سيري الشاب فمختلف. رجل شجاع، يكاد يكون حديدًا.

أعطى راجنور يايك السفينة المأسورة واختار دستة من
الرجال لطاقتها، ثم عاد يصعد إلى سطح سفينته (النصر
الحديدي)، حيث قال لنيوت الحلاق: «جردوا الأسرى من
السلاح والذروع وضقدوا جراحهم، وألقوا المحتضرين في
البحر. إذا توّسل أحدهم الرّحمة فاذبحوه». لا يشغر قيكاريون
إلا بالاحتقار نحو أمثالهم، فالمفترض أن خيّرًا لهم أن يفرقوا في
مياه البحر من الدماء. «أريد إحصاء السفن التي ظفرنا بها
وجميع الفرسان وصغار اللوردات الذين أسرناهم، وأريد راياتهم
كذلك». ذات يوم سيغلّقها في قاعته، وعندما يشيخ ويتمكّن
منه الوهن سيتذكّر كلّ الأعداء الذين بطش بهم وقت أن كان
يتمتع بقوّته وغنفوانه.

ردّ نيوت بابتسامة واسعة: «كما تأمر. إنه انتصار عظيم».

أجل، انتصار عظيم لعين القُراب وسحرته. سيهتف الرّبابنة الآخرون باسم أخيه من جديد عندما تَبْلُغ الأنباء (ثُرس السّنديان). لقد سحرهم يورون بلسانه المعسول وعينه الباسمة وضفهم إلى قضيتته بغنائم من عشرات البلدان البعيدة؛ ذهب وفضة، ودروع منقّعة وسيوف مقوّسة بقبايع مذهّبة وخناجر من الفولاذ القاليري، وجلود نمور مخظّطة وقطط رقطاع، ومانتيكورات من اليشب وتمائيل أبي هول عتيقة من (قاليريا)، وصناديق من جوز الطيب والقرنفل والرّعفران، وأنياب من العاج وقرون يونيكورنات، وريش أخضر وبُرتقالي وأصفر من (جُزر الضيف)، ولفائف من الحرير الناعم والشميت البّراق... لكن كلّ هذا لا يُذكر مقارنةً بما أعطاهم إياه الآن. الآن أعطاهم الغزو وأصبحوا له بلا رجعة. تركت الفكرة مذاقًا مُرًا على لسانه. هذا انتصاري أنا لا انتصاره. أين هو؟ في (ثُرس السّنديان) يجلس متكاسلاً في قلعة. لقد سرق زوجتي وسرق عرشي، والآن يسرق مجدي.

الظّاعة من طباع فيكتاريون جرايجوي ومفطور عليها. خلال نشأته في ظلّ إخوته وقبل بلوغه مبلغ الرّجال تبع بالون بإخلاص في كلّ ما فعله، ولاحقًا بعد مولد أبناء بالون تقبّل مع مرور الوقت حقيقة أنه سيركع لهم أيضًا عندما يحلّ أحدهم محلّ أبيه على كرسي حجر اليم. إلّا أن الإله الغريق استدعى بالون وأبناءه إلى أبيائه المائيّة، والآن لا يستطيع فيكتاريون أن يدعو يورون بالملك دون أن يذوق المرارة في خلقه.

الريّح منعشة، وعطشه يتأجّج. دائمًا يشتهي التّبّيذ بعد المعركة، وهكذا سلّم نيوت سطح السفينة وذهب إلى أسفل، وفي قمرته الضيّقة في المؤخّرة وجد المرأة الشّمراء مبتلّة وجاهزة. ربما أحقت المعركة دماءها أيضًا. أخذها مرّتين متتاليتين بلا استراحة، ولقا فرغًا كان الدّم يُلطّخ ثدييها وفخذيها وبطنها، لكنه دمه هو الثّأف من الجرح البليغ في يدي

غسلته له الشمراء بالخل المغلي، وبينما تركع إلى جواره قال فيكتاريون: «الخطة كانت موفقة، أعترف بهذا. (الماندر) مفتوح لنا الآن كما كان من قديم». إنه نهر خامل، واسع وبطيء الجريان ومليء بأخطار غصون الأشجار الشاقطة والامتدادات الزمليّة المرتفعة، وهكذا لا يجرؤ معظم مراكب البحر على الإبحار فيه بعد (هايجاردن)، لكن السفن الطويلة بغواطسها المسطحة بإمكانها الإبحار في اتجاه التيار حتى (جسر العلقم). في سالف الزمن اعتاد حديدو الميلاد خوض النهر بجرأة والإغارة على جانبيه وعلى روافده... إلى أن سلّح ملوك الأراضي الخضراء صيادي الجزر الأربع الصغيرة عند مصب (الماندر) وسفوها ثروسه.

ألفا عام مزا، لكن في أبراج المراقبة على شواطئ الجزر الوعرة ما زال المسئون يقفون حراسة حتى الآن، وعند أول بادرة للسفن الطويلة يشعل هؤلاء العجائز نيران مناراتهم ويثب النداء من تلّ إلى تلّ ومن جزيرة إلى جزيرة. خوف! أعداء! مُغيرون! مُغيرون! حين يرى الصيادون النار مضطربة في البقاع العالية يضعون شباكهم ومحاربتهم جانباً ويحملون الشيوف والفؤوس، ويهرع سادتهم من قلاعهم وفي ضحبتهم فرسانهم وجنودهم، وتذوي أبواق الحرب عبر الماء من (الثرس الأخضر) و(الثرس الزمادي) و(الثرس السنديان) و(الثرس الجنوب)، وتخرج سفنهم الطويلة من أحواضها الحجرية المغطاة بالطحالب بطول الشيطان، تومض مجاذيفها بينما تحتشد في المضائق لإغلاق (الماندر) ومطاردة المغيّرين وسياقتهم إلى حتفهم.

أرسل يورون كلاً من توروولد ذي الشن البنية والملح الأحمر
يخوضان (الماندر) بدستة من الشفن الطويلة الشريعة كي
يندفع لوردات (جزر الثروس) إلى مطازدتهما، ولدى وصول
القوة الأساسية من أسطوله لم تعد هناك إلا حفنة من الفقاتلين
المتبقين للدفاع عن الجزر نفسها. أتى الحديدئون مبحرين في
تيار المساء، ليخفيهم وهج الشمس الغاربة عن أعين المسئين
في أبراج المراقبة حتى يفوت الأوان. كانت الرياح تهب من
ورائهم مثلما ظلت منذ إقلاعهم من (ويك القديمة)، وقد سرت
عبر الأسطول همسات تقول إن سحرة يورون لعبوا دورًا كبيرًا
في هذا، إن عين الغراب استرضى إله العواصف بقرايين الدّم،
وإلا كيف كان ليحضر على التوغّل غربًا هكذا بدلًا من الإبحار
بمحاذاة الساحل كما جرت العادة؟

رسا حديدؤو الميلاد بشفنهم الطويلة على الأرصفة الحجرية
وتدققوا منها في الغسق الأرجواني والفولاذ ييزق في أيديهم.
عندئذ كانت المنارات قد أضيئت في البقاع العالية، ولكن في
وجود قلائل يحملون السلاح. سقطت (الثرس الزمادي)
(الثرس الأخضر) و(ثرس الجنوب) قبل شروق الشمس، بينما
ظلت (ثرس الشنديان) صامدة طول نصف النهار، وحين تخلّى
رجال (جزر الثروس) عن مطازدتهم توروولد والملح الأحمر
وعادوا أدراجهم وجدوا الأسطول الحديدي ينتظرهم عند مصب
(الماندر).

قال للشمراء وهي تُصَمِّد يده بالكئان: «كُلُّ شيءٍ جرى كما قال يورون. لا بُدَّ أن سحرته رأوا هذا». إن معه ثلاثة على متن (الضمت)، كما باخ له كويلون همبل همشا، رجالًا أغرابًا فُطْعاء، لكن عين الغراب استعبدتهم. واصل فيكتاريون بإصراره: «لكنه ما زال محتاجًا إليّ لخوض المعارك. لا بأس بالسحرة، لكن الحروب تُربِّح بالدم والفلولاذ». جعل الخُلُّ ألم جرحه أسوأ من قبل، فدفع الشمراء جانبًا وأغلق قبضته بسحنة مكفهزة، وقال: «أحضري لي نبيذًا».

شرب في الظلام مفكِّزًا في أخيه. إذا لم أوجه الضربة بيدي أفما زلت قاتل أقربين؟ لا يخشى فيكتاريون إنسانًا، لكن لعنة الإله الغريق تبعث على الثرؤد. إذا جندله أحد غيري بأمرٍ فهل ثلوت دماؤه يدي أنا؟ كان آرون ذو الشعر الزطب ليعرف الجواب، لكن الزاهب في مكانٍ ما في (جزر الحديد)، لا يزال يأمل أن يُجيش الحديديين ضد ملكهم المتوَّج لتؤه. نيوت يُمكنه أن يحلق لحية رجلٍ برمية فأيس من بُعد مئة ياردة، ولا أحد من هجان يورون يقوى على الضمود ضد وولف ذي الأذن الواحدة أو أندريك اللا مبتسم. بإمكان أيَّهم أن يفعلها... لكن ما يستطيع الزجل أن يفعله شيء وما يقبل أن يفعله شيء مختلف، وهو ما يعلمه فيكتاريون.

في (ويك القديمة) تنبأ آرون قائلًا: «تجديف يورون سيستجلب غصبة الإله الغريق علينا جميعًا. يجب أن نُوقفه يا أخي. إننا ما زلنا من دم بالون، أليس كذلك؟».

ردَّ فيكتاريون: «وهو أيضًا. الأمر لا يروقني أكثر منك، لكن يورون الملك. الانتخاب الذي دعوت أنت إليه رفعه، وبنفسك وضعت تاج الخشب المجروف على رأسه!».

قال الزّاهب والماء يَقْطُر من طحالب البحر في شَعْره: «وضعت الثّاج على رأسه، وعن طيب خاطرٍ سأنتزعه من عليه وأضعه على رأسك بدلًا منه. أنت الوحيد القوي بما فيه الكفاية لمقاتلته».

قال فيكتاريون متذمّرًا: «الإله الفريق رفقه، فلنترك الإله الفريق يطيح به».

رماه آرون بنظرةٍ مُهلكة، تلك النظرة المعروفة بتسميم الآبار وجعل النساء عواقر، وقال: «ليس الإله من تكلم. يورون معروف بالاحتفاظ بالسّحرة والمشعوذين البغيضين على سفينته الحمراء. لقد ألقوا تعويذة بيننا كي لا نسمع البحر. الرّياينة والملوك أسكّزهم الكلام عن الثّنانين».

- «أسكّزهم الكلام وأخافهم ذلك البوق. أنت سمعت الصّوت الذي خرج منه. لا يهم، يورون مليكنا».

أعلن الزّاهب: «ليس مليكي. الإله الفريق يُعين الجسورين لا من يتوارون في بطون سفنهم حين تتور العاصفة. ما دُمت لن تُحرّك ساكنًا لإزاحة عين الغراب من على كرسي حجر اليم، فعليّ أن أتولّى هذه المهمة بنفسِي».

- «كيف؟ إنك لا تملك سفنًا ولا يتبعك جنود».

زّد الزّاهب: «إن لديّ صوتي، والإله معي. قوّتي قوّة البحر، قوّة لا أمل لعين الغراب في الثّصدي لها. ربما تتكسر الأمواج على الجبل، لكنها تظلّ تأتي موجةً عقب موجة، وفي الثّهاية لا يتبقى من الجبل الشّامخ إلّا الحصى، وسرعان ما ينجرّف الحصى ويفغوص إلى قرار البحر ويفترشه إلى الأبد».

دمدم فيكتاريون: «حصى؟ أنت مجنون إذا كنت تحسب أنك ستطيح بعين الغراب بالكلام عن الموج والحصى».

قال ذو الشَّعر الرُّطب: «حديثُو الميلاد سيكونون الموج،
ليس الغُظماء والشَّادة وإنما البُسطاء الذين يفلحون الأرض
ويصطادون من البحر. الرُّبابنة والملوك رفعوا يورون، لكن العامة
سيُسقِطونه. سأذهب إلى (ويك الكبرى)، إلى (هارلو)، إلى
(أوركموث)، إلى (بايك) ذاتها. في كلِّ بلدةٍ وقريةٍ
سيُسمعونني. ليس لكافر أن يجلس على كرسي حجر اليم!»،
وهزَّ رأسه الأشعث وعادَ يَخْرُج ليغيب في اللَّيل، وحين أشرقَت
الشَّمس في اليوم الثَّالي كان آرون ذو الشَّعر الرُّطب قد اختفى
من (ويك القديمة)، وحتى رجاله الفرقي لم يعرفوا مكانه،
وقالوا إن عين الغراب اكتفى بالضَّحك حين علم.

لكن على الرغم من غياب الرَّاهب ظَلَّت تحذيراته الملحَّة في
عقل فيكتاريون، الذي وجد نفسه يستعيد ما قاله له بيلور
بلاكتايد أيضًا. «بالون كان مجنونا وآرون أكثر جنونا ويورون
الأكثر جنونا على الإطلاق». حاول اللورد الشَّاب الإبحار إلى
دياره بعد انتخاب الملك رافضًا أن يقبل يورون مولاه، لكن
الأسطول الحديدي كان قد أغلق الخليج، وعادة الطَّاعة متجذِّرة
في فيكتاريون جراجوي، ويورون يعتمر تاج الخشب
المجروف، وهكذا استولِيَ على (طيار اللَّيل) وأخذ اللورد
بلاكتايد إلى الملك مكبلاً بالسَّلاسل، ثم قَطَّعه بكم يورون
وهجانه إلى سبعة قِطعٍ لإطعام آلهة الأراضي الخضراء السَّبعة
التي كان يَعْبُدُها.

مكافأة على خدمته المخلصة، منح الملك حديث التتويج فيكتاريون المرأة السمراء التي أخذها من سفينة نخاسين كانت متجهة إلى (ليس)، فقال لأخيه بازدراء: «لا أريد شيئاً من فضالتك»، لكن لما قال عين الغراب إنها ستموت إن لم يأخذها ضعفت مقاومته. لسانها مقطوع، لكنها فيما عدا هذا سليمة، ثم إنها جميلة أيضاً، بشرتها بيضاء كخشب الساج المزيت، غير أنه عندما ينظر إليها يجد نفسه أحياناً يتذكر المرأة الأولى التي منحه أخوه إياها لتصنع منه رجلاً.

أراد فيكتاريون أن يستعمل السمراء مرة أخرى، لكنه لم يجد في نفسه القدرة، فقال لها: «أحضري لي قربة نبيذ أخرى ثم اخزجي»، وحين عادت بقربة من النبيذ الأحمر الفر صعد بها القائد إلى الشطح ليتنشق هواء البحر اللطيف. شرب نصف القربة وضبت البقية في البحر لأجل كل من ماتوا.

ظلت (النصر الحديدي) راسية عند مصب (الماتدر) ساعات، وبينما أبحر الجزء الأكبر من الأسطول الحديدي إلى (ثرس السنديان) احتفظ فيكتاريون بكل من (الثبور) و(اللورد داجون) و(الزبح الحديد) و(لعنة العذراء) حوله لحراسة المؤخرة. سحبوا الثاجين من البحر وشاهدوا (اليد القوية) تفرق بينطء، يجرّها إلى أسفل خطام السفينة التي دكّتها، ولدى غيابها تحت الماء بلغ فيكتاريون الإحصاء الذي طلبه، وعرف أنه فقد ست سفن وأسر ثمانين وثلاثين. قال لنيوت: «لا بأس. إلى المجاذيف، سنعود إلى (بلدة اللورد هيويت)».

جذف ملاحوه نحو (ثرس السنديان)، وعاد الزئان الحديدي إلى قمرته مجدداً، حيث قال للشمرء: «يمكنني أن أقتله، ولو أنه إثم عظيم أن يقتل المرء مليكه، وإثم أعظم أن يقتل أخاه»، وقطب جبينه مردفاً: «كان على آشا أن تعطيني صوتها». كيف أملت أن تكسب الرّبابنة والملوك بأكواز الضنوبر واللّفت؟ في عروقتها دماء بالون، لكنها تظلّ امرأة. فرّت آشا بعد انتخاب الملك. ليلة وُضع تاج الخشب المجروف على رأس يورون ذاتت هي وطاقمها، وفي أعماق فيكتاريون جزء صغير مسرور لهذا. إذا احتفظت الفتاة بعقلها فستتزوج أحد لوردات الشمال وتحيا معه في قلعته بعيداً عن البحر ويورون عين الغراب.

نادى أحد رجال الطاقم: «(بلدة اللورد هيويت) يا حضرة القائد».

نهض فيكتاريون. كان التبيذ قد خفف نبض الألم في يده. ربما يجعل المايستر الذي يخدم هيويت يلقي نظرة عليها إذا لم يكن قد قُتل. عاد إلى السطح بينما يدورون حول لسان من اليابسة، ورأى قلعة اللورد هيويت مستقرّة فوق الميناء فذكرته بـ(لوردزيورت)، مع أن هذه البلدة تبلّغ ضعفها مساحةً. بعد الميناء يخوض نحو عشرين من الشفن الطويلة المياه وعلى ذيولها يتلوّى الكراكن الذهبي، في حين ترسو مئات أخرى بطول الأرصفة مربوطة بالحبال، وعند رصيف حجري ثمة ثلاثة أكواج عظيمة ودسته من الأكواج الأصغر تحمّل بالغنائم والمؤن. أمر فيكتاريون بأن تلقى (النصر الحديدي) مرساتها، وقال لرجاله: «جهّزوا لي قارباً».

بَدَتْ البلدة هادئةً على نحو غريب مع اقترابهم. معظم المحال والمنازل نُهبَ كما تشهد الأبواب المحظمة والثوابذ المهشمة، لكن وحده الشيت أحرق، وفي الشوارع تتناثر الجثث، كلُّ منها يتحلّق حوله سرب صغير من غُربان الجيف. راحت مجموعة من الناجين العابسين تتحرّك بينها طاردة الطيور السوداء وملقية الموتى على ظهر عربة ليؤخّذوا إلى المدافن، وهو ما أفعم فيكتاريون بالازدراء، فلا ولد حقيقياً للبحر يرغب في أن يتعمّن في باطن الأرض، وإلا فكيف سيُعثر على أبهاء الإله الغريق المائيّة لينعم بالمأكل والمشرب أبد الدهر؟

من بين السفن التي مّزوا بها (الضمت). انجذبت نظرة فيكتاريون إلى تمثال المقدّمة الحديدي، الفتاة عديمة الفم ذات الشعر الذي يَهْفَهف في الرّيح والذّراع الممدودة، وقد بدا كأن عينيها المصنوعتين من عرق اللؤلؤ تتبععانه، فقال لنفسه: كان لها قم كأني امرأة أخرى، إلى أن خاطه عين الغراب وأغلّقه.

مع دنوّهم من الشّاطئ لاحظ مجموعة من النّساء والأطفال المصفوفين على متن أحد الكواج العظيمة، بعضهم يدها مقيّدتان وراء ظهره، وحول أعناقهم جميعاً حبال من القنب. سأل الرّجال الذين ساعدوا على ربط القارب: «من هؤلاء؟».

- «أرامل وأيتام، سيّباعون كعبيد».

- «يُباعون؟». ليس في (جزر الحديد) عبيد، بل أقنان فقط، والقنّ ملزم بالخدمة لكنه ليس ملكاً لسيّده، ويُولد أطفاله أحراراً شريطة أن يعطوا للإله الغريق، ثم إن الأقنان لا يُشترّون أو يُباعون بالذهب أبداً، فعلى الرّجل أن يدفع الثمن الحديدي مقابلهم وإلا فلا أقنان له على الإطلاق. قال متبرّماً: «المفترض أن يكونوا أقناناً أو زوجاتٍ ملحيّات».

رَدَّ الرّجل: «هذا أمر الملك».

قال نيوت الحلاق: «الأقوياء يأخذون من الضعاف دوماً. أقنان أو عبيد، لا فرق. رجالهم لم يستطيعوا الدفاع عنهم، والآن أصبحوا لنا لنفعل بهم ما نشاء».

كان ليقول: ليس هذا اللهج القديم، ولكنه لم يجد وقتاً، إذ سبقته أخبار انتصاره واحتشد الرجال حوله يُقدّمون له التّهاني. تركهم فيكتاريون يداهنونه، إلى أن بدأ أحدهم يثني على جرأة يورون، فزمر: «جرأة حقاً أن تُبجر بعيداً عن اليابسة كي لا تَبْلُغ كلمة عن مجيئنا هذه الجزر القابعة أمامنا، لكن عبور نصف العالم لصيد الثنائين شيء آخر»، ولم ينتظر ردّاً بل تحرّك شاقّاً طريقه في الزحام وصعد إلى القلعة.

قلعة اللورد هيويت صغيرة لكن قويّة، أسوارها سميقة وبوابتها المصنوعة من السنديان المدغم بالحديد تستدعي إلى الذهن رمز عائلته العريق، المجرّ السندياني المطغم بالحديد على خلفية من الأزرق والأبيض المتموجين. على أن كراكن عائلة جرايچوي هو ما يخفق فوق الأبراج ذات الشطوح الخضراء الآن، ووجدوا البوابة العظيمة محروقة محظمة، وفي الشرفات يمشي الحديدئون حاملين الجراب والفؤوس، بالإضافة إلى بعض هجان يورون.

في الساحة وجد فيكتاريون جورولد جودبراذر ودروم العجوز يتكلمان بهدوء مع رودريك هارلو. أطلق نيوت الحلاق صيحة هازئة لمرآهم، ونادى: «أيها القارئ، لماذا الوجه العابس؟ هواجسك كانت بلا داع. انصبر لنا، ولنا الغنائم!».

رّم اللورد رودريك فمه قائلاً: «تعني هذه الضخور؟ أربعتها ممّا أصغر من (هارلو). لم تُفّر إلّا ببعض الأحجار والأشجار والخلي الرّخصية، وعداوة عائلة تايرل».

قال نيوت ضاحكاً: «الورود؟ وما الوردة التي بإمكانها إيذاء كراكن الأعماق؟ لقد سلبناهم ثروسهم وحظمتناها تحطيقاً. من يحميهم الآن؟».

رَدَّ القارئ: «(هايجاردن). قريبًا ستحتشد قوَّات (المرعى) كلها ضدنا أيها الحَلَّاق، وعندها قد تتعلَّم أن لبعض الورد أشواكًا من فولاذ».

أوما دروم برأسه موافقًا وقد استقرَّت يده على مقبض سيفه (المطر الأحمر)، وقال: «اللورد تارلي يحمل الشيف العظيم (آفة القلوب) المصنوع من الفولاذ القاليري، ودائمًا يقود طليعة جيش اللورد تايرل».

قال فيكتاريون وقد اشتعلت غضبته: «فليأت. سأخذ سيفه لنفسه مثلما أخذ سلفك (المطر الأحمر). فليأتوا جميعًا ويجلبوا آل لانستر معهم أيضًا. ربما تكون للأسد السطوة على اليايسة، لكن في البحر للكراكن السيادة المطلقة». يمكنه أن يتخلَّى عن نصف أسنانه لقاء فُرصة لتجربة فأسه ضد قاتل الملك أو فارس الزهور. هذا هو نوع المعارك الذي يفهمه. قاتل الأقربين ملعون عند الآلهة والبشر، لكن الفحارب مكْرَم موقر.

قال القارئ: «لا تخف يا حضرة القائد، سيأتون. جلالته يتمنى هذا، وإلا فلم أمرنا بترك غد فان هيويت تُخلَق؟».

قال نيوت: «تقرأ كثيرًا للغاية وثقائل قليلًا للغاية. إن دماءك حليب»، لكن القارئ تظاهر بأنه لم يسمع.

كانت في القاعة مادية صاخبة عندما دخل فيكتاريون،
يحتشد حديدئو الميلاد على الموائد يشربون ويتصايحون
ويتدافعون ويتباهون بقتلاهم ومآثرهم وما سلبوه، وقد تحلى
كثيرون منهم بالغنائم، فارتدى لوكاس كود الأعسر وكويلون
همبل معطفين من المعلقات التي انتزعها من على الحوائط،
ووضع جرموند بوتلي عقدًا من اللؤلؤ والعقيق الأحمر فوق
واقي صدره المذهب الذي كان لأحد قادة لانستر، وتحرك
أندريك اللا مبتسم مترنخًا ومطوِّقًا بكل من ذراعيه امرأة، وعلى
الرغم من أنه ظلّ غير مبتسم فعلى أصابعه كلّها خواتم، وبدلًا
من الضحاف المصنوعة من الخبز الجامد البانت كان الزبانية
يأكلون من أطباق من الفضة الخالصة.

أربذ وجه نيوت الحلاق غضبًا إذ تطلّع حوله، وقال: «يرسلنا
عين الغراب لمواجهة السفن الطويلة فيما يأخذ رجاله القلاع
والقرى ويستولون على الغنائم والثساء. ماذا ترك لنا؟»
- «المجد لنا».

- «لا بأس بالمجد، لكن الذهب أفضل».

هزّ فيكتاريون كتفيه قائلاً: «عين الغراب يقول إننا سننال
(وستروس) كلّها. (الكرمة)، (البلدة القديمة)، (هايجاردن)...
هناك ستجد الذهب. لكن كفى كلامًا، إنني جائع».

بحقّ الدّم كان فيكتاريون ليثخذ مقعدًا على المنضّة، لكنه لا
يرغب في الأكل مع يورون ومخلوقاته، وبدلًا من هذا اختار
مكانًا إلى جوار رالف الأعرج زّيان (اللورد كويلون).

قال له الأعرج: «نصر عظيم يا حضرة القائد، نصر يستحقّ
لوردية. المفترض أن تنال إحدى الجزر».

اللورد فيكتاريون، أجل، ولم لا؟ ربما لا يحظى بكُرسي حجر
اليم، لكن ذلك أفضل من لا شيء.

كان هوتو هارلو جالسًا قُبالتهما على الطاولة ينهش اللحم من على عظمة، ثم إنه ألقاها جانبًا ومالَ إلى الأمام قائلاً: «الفارس سينال (الثرس الزمادي)، هل سمعت؟».

أجاب فيكتاريون: «لا»، وتطلَّع عبر القاعة إلى حيث يجلس السير هاراس هارلو يشرب النبيذ من كأس ذهبية. الفارس رجل مديد القامة، له وجه طويل وقسمات صارمة. «لماذا يمنح يورون أحدًا مثله جزيرة؟».

رفع هوتو كأسه الفارغة لتملأها له شابة شاحبة في قستان من المخمل الأزرق وشرائط الزينة المذهبة، وقال: «الفارس استولى على (جريمستن) بنفسه، غرس رايته عند القلعة وتحذى آل جريم أن يواجهوه، فتحذاه أحدهم، ثم آخر وآخر، وقتلهم جميعًا... أو ما يقرب من هذا، اثنان منهم استسلموا. حين سقط الزجل السابع حزم سيتون اللورد جريم أمره وأعلن أن الآلهة قالت كلمتها وسلم القلعة»، وضحك هوتو مواصلاً: «سيصير سيّد (الثرس الزمادي)، وهنيئًا له بها. في غيابه أصبح أنا وريث القارئ»، ودق صدره بكأسه، وأضاف: «هوتو الأحذب، سيّد (هارلو)».

- «تقول سبعة؟». تساءل فيكتاريون في قرارة نفسه كيف يمكن أن يُبلي سيف الفارس المسقى (غروب) في مواجهة فأسه. إنه لم يُقاتل رجلًا يحمل سيفًا من الفولاذ القاليري قَطُّ، وإن كان قد غلب هاراس هارلو مرّات عدّة في صباهما. في صغره كان هارلو صديقًا صدوقًا لرودريك أكبر أبناء بالون، الذي مات عند أسوار (سيجارد).

المأدبة جيدة، أفضل ما فيها التّبيد، وهناك أيضًا لحم ثيران مشوي، داج وغير تام الاستواء، بالإضافة إلى بَطّ محشو ودلاء من الشّراطيين الطّازجة. لم يغب عن عينيّ حضرة الرّثان القائد أن الخادّات يرتدين ملابس مترفّة من الصّوف والمخمل، وفي البداية حسبن مساعدات طبّاخ في ثياب الليدي هيويت ورقيقاتها، إلى أن أخبره هوّو بأنهن الليدي هيويت ورقيقاتها أنفسهن، إذ طاب لعين الغراب أن يجعلهن يقدّمن الطّعام ويصنّ الشّراب. هناك ثمانية منهن؛ حضرة الليدي نفسها التي لا تزال حسناء على الرغم من امتلاء قوامها، وسبعة أخريات أصغر منها، تتراوح أعمارهن من الخامسة والعشرين إلى العاشرة، بناتها وزوجات أبنائها.

اللورد هيويت نفسه جالس في مكانه المعتاد على المنصّة مرتديًا أفخر ثيابه التي تحمل رمز وألوان عائلته، لكن ذراعيه وساقيه مقيدة إلى مقعده، وثقة حبة فجل بيضاء ضخمة مدسوسة بين أسنانه لمنعه من الكلام... ولو أنه يرى ويسمع. اتّخذ عين الغراب موضع الشّرف إلى يمين حضرة اللورد، وقد جلست فتاة حسناء عامرة الضّدر في السّابعة أو الثّامنة عشرة في حجره حافية القدمين منفوشة الشّعر واطعة ذراعيها حول عنقه. سأل فيكتاريون الرّجال المحيطين به: «مَن هذه؟».

أجابّه هوّو ضاحكًا: «ابنة حضرة اللورد الثّغلة. قبل استيلاء يورون على القلعة كانت مرغمة على خدمة الآخرين على المائدة وأكل وجباتها مع الخدم».

وضع يورون شفّتيه الزُّرقاوين على حلقها، فقَهَقَت الفتاة وهمست بشيء ما في أذنه، ليبتسم ويُقَبِّل حلقها ثانيةً. كانت العلامات الحمراء تُغَطِّي بشرتها البيضاء حيث قَبَّلها، وتصنع قلادة ورديةً حول رقبتها وكتفَيها. همسة أخرى في الأذن دفعت عين الغراب إلى الضحك بصوت عالٍ هذه المرة، ثم إنه دقَّ المائدة بكأسه آمراً بالضمت، ونادى خادmates رقيقات النسب قائلاً: «سَيِّداتي الكريمات، فاليا قلقة على فساتينكن الأنيقة ولا تُريدها أن تتسخ بالدهون والثبيذ والأصابع القذرة التي تتحسّسكن، لأنني وعدتها بأن تختار ثيابها من أصونتك بعد المأدبة. الأفضل أن تخلعنها إذن».

دوى الضحك الهادر في أنحاء القاعة الكبيرة، واحتقن وجه اللورد هيويت لدرجة أن فيكتاريون حسب أن رأسه سينفجر. لم تجد النساء خياراً إلا الطاعة، وبكت أصغرن قليلاً لكن أمها واستها وحلت الأريطة على ظهر فُستانها، وبعدها تابعن الخدمة كما من قبل وتحزّكن بين الموائد بأباريق الثبيذ لقلء الكؤوس الفارغة، مع فرق أنهن يفعلن هذا عاريات الآن.

فكّر القائد متذكّراً الزوجة التي سألت دموعه وهو يضربها: ينل هيويت كما نلني من قبل. يعلم أن أهل (الثروس الأربعة) يتزوَّج بعضهم بعضاً غالباً مثل حديدِّي الميلاد، وربما تكون واحدة من هؤلاء الخادmates العاريات زوجة السير تالبرت سيري. أن تقتل عدوك شيء وأن تُهين شرفه شيء آخر. كؤور فيكتاريون قبضته وقد تلوثت يده بدماء جرحه التي تغلغلّت في كُثان الضمادة.

على المنصة دفع يورون مومسه جانباً ووقف فوق المائدة، فبدأ الزبائنة يدقّون الموائد بالكؤوس والأرض بالأقدام هاتفين: «يورون! يورون! يورون! يورون!»، كأنه انتخاب الملك ثانيةً.

حين هدأت الجلبة قال عين الغراب: «أقسمت أن أعطيكم (وستروس)، وهاكم أول مذاق منها، لقيمة لا أكثر... لكننا سناكل الوليمة قبل أن يحل الليل!». على الجدران تتوهج المشاعل وضأة، وكذا هو بشفتيه الزرقاوين وعينه الزرقاء وجسده كله. «ما يطبق عليه الكراكن لا يفلته. هذه الجزر كانت لنا من قبل، والآن عادت لنا من جديد... لكننا نحتاج إلى رجال أقوياء للحفاظ عليها، فانهض أيها السير هاراس هارلو سيّد (الثرس الرمادي)». نهض الفارس مريخا يده على قبعة سيفه (غروب) المصنوعة من أحجار القمر، وتابع يورون: «انهض يا أندريك اللا مبتسم سيّد (ثرس الجنوب)»، فدفع أندريك امرأته جانبًا وهب واقفًا كجبل يرتفع على حين غرة من البحر. «انهض يا مارون قولمارك سيّد (الثرس الأخضر)»، فنهض قولمارك الضبي الحليق ذو الستة عشر عاها باديًا كأنه سيّد الأرائب. «وانهض يا نيوت الحلاق سيّد (ثرس السنديان)».

اكتسبت نظرة نيوت بالحذر كأنه يخشى أن يكون مرمى دعاية قاسية، وتساءل: «أنا لورد؟».

كان فيكتاريون يتوقع أن يمنح عين الغراب اللورديات لمخلوقاتة، مثل ذي اليد الحجر والملّاح الأحمر ولوكاس كود الأعسر. حاول أن يقول لنفسه: على الملك أن يكون سخيا، إلا أن صوتًا مختلفًا همس: هدايا يورون مسمومة. لقا دؤر الخاطر في رأسه رأى الأمر بوضوح. الفارس كان وريث القارئ المختار، وأندريك اللا مبتسم ذراع دنستان دروم اليمنى القويّة، وقولمارك صبيّ غرير لكن دماء هارن الأسود في عروقه من خلال أمّه، والحلاق...

أمسكه فيكتاريون من ساعده قائلاً: «أرفض!».

رمقه نيوت كأن صوابه طار، وزد: «أرفض؟ الأراضي واللوردية؟ هل سترفعني أنت إلى مصاف اللوردات؟»، وانتزع ذراعه وقام يتنغم بهتاف الهاتفين.

تلاعبت ابتسامة على شفّتي يورون الزرقاوين إذا قال: «أنا العاصفة يا سيّدي، العاصفة الأولى والأخيرة. لقد أخذت (الضمت) في رحلات أطول من هذه وأخطر مرازا. هل نسيت؟ لقد أبحرث في (بحر الذخان) ورأيث (قاليريا).»

كلّ رجلٍ حاضر يعلم أن الشلطة المطلقة لا تزال للهلاك في (قاليريا). هناك تغلي مياه البحر ذاته وينبعث منها الذخان، واليابسة تجتاحها الشياطين، ويُقال إن أيّ بحارٍ يرى ولو لمحةً من جبال (قاليريا) النَّاريّة ترتفع فوق الموج سرعان ما تحقيق به ميتة شنعاء، لكن عين الغراب ذهب إلى هناك وعاد.

بمنتهى الهدوء سأله القارئ: «حقاً؟»

اختفت ابتسامة يورون الزرقاء، وفي الشكون الذي خيم قال: «أيها القارئ، خيرٌ لك أن تُبقي أنفك مدسوساً في كتّبك.»

شعرَ فيكتاريون بالثوثر في القاعة، فنهض قائلاً بصوت جهوري: «أخي، إنك لم تُجب أسئلة هارلو.»

هزّ يورون كتفيه، وقال: «أسعار العبيد ترتفع. سنبيع عبيدنا في (ليس) و(قولانتيس). مقابلهم بالإضافة إلى ما أخذناه من هنا من غنائم سيكون معنا ذهب يكفي لشراء المؤن.»

سأله القارئ: «أنحن نخاسون الآن؟ ومن أجل ماذا؟ تنائين لا أحد هنا رآها؟ هل سنطارِد وهم بخارٍ سكران إلى أطراف الأرض؟»

استدّرت كلماته همهمات التأييد. رفع رالف الأعرج صوته قائلاً: «(خليج الثخاسين) بعيد للغاية»، وصاح كويلون همبل: «وقريب للغاية من (قاليريا)»، وقال فرالج القوي: «(هايجاردن) قريبة. رأيي أن نبحث عن الثنائين هناك، الثنائين الذهب!»، وأضاف آلن شارب: «لماذا تُبجر عبر العالم و(الماندر) مفتوح أمامنا؟»، وهبّ رالف ستونهاوس الأحمر معلناً: «(البلدة القديمة) أغنى، و(الكرمة) أغنى وأغنى. أسطول ردواين بعيد، وما علينا إلّا أن نمذّ يدنا لنقطف أبنع ثمرةً في (وستروس).»

قال الملك وقد بدت عينه سوداء أكثر من زرقاء: «ثمرة؟ لا يسرق الثمار بينما يستطيع الاستيلاء على البستان كله إلا جبان».

قال رالف الأحمر: «نريد (الكرمة)»، وسرى الهتاف بين الرجال الآخرين، فترك عين الغراب صيحاتهم تغمره، ثم وثب من فوق المائدة وأخذ المومس من ذراعها وسحبها خارجاً من القاعة.

هرب كالكلاب. لم تُعد سيطرة يورون على كرسي حجر اليم تبدو محكمة كما كانت قبل دقائق قليلة. لن يتبعوه إلى (خليج اللُحاسين). ربما ليسوا كلاباً حمقى كما خشيت. الفكرة لذيدة لدرجة أن فيكتاريون اضطرّ إلى ازديادها بالثبيذ، فشرب كأساً مع الحلاق ليُريه أنه لا يحسده على لورديته، حتى إذا جاءت من يد يورون.

كانت الشمس قد غربت في الخارج وتوغل الظلام وراء الأسوار، لكن في الداخل تُضيء المشاعل بوهج بُرتقالي ضارب إلى الحمرة ويتكاثف دخانها تحت عوارض السقف كسحابة رمادية. بدأ السكرانون يرقصون رقصة الأصابع، وفي لحظة ما قرّر لوكاس كود الأعسر أنه راغب في إحدى بنات اللورد هيويت، وأخذها هناك على مائدة بينما صرخت أخواتها وانتخبن.

شعر فيكتاريون بتربيّة على كتفه. كان أحد هجان يورون واقفاً وراءه، صبي في العاشرة له شعر كالضوف وبشرة بلون الظمي قال له: «أبي يريد أن يتكلّم معك».

قام فيكتاريون بلا ثبات. على الرغم من كونه رجلًا كبير الحجم وقادرًا على شرب الكثير من النبيذ فقد شرب أكثر من اللازم بالفعل. ضربتها حتى الموت بيدي، لكن عين الغراب هو من قتلها عندما ولجها. لم أملك خيارًا. تبغ الضبي النفل من القاعة وصعد وراءه سلالم حجريّة ملتفة، ومع صعودهما خفت أصوات الاغتصاب والمرح الضاخب، إلى أن لم يقد هناك إلا صوت احتكاك نعالهما بالحجر.

علاوة على ابنته النفلة أخذ عين الغراب غرفة نوم اللورد هيويت أيضًا، ولما دخل فيكتاريون كانت الفتاة متمددة عارية على الفراش وتغط بصوت خافت، في حين وقف يورون عند النافذة يشرب من كأس فضية، وقد ارتدى معطف فرو الشفور الذي أخذه من بلاكتايد وزقعة عينه الجلدية الحمراء ولا شيء غيرهما. أعلن قائلًا: «في صباي حلمت بأني أستطيع الطيران، وحين استيقظت لم أستطع... أو أن هذا ما قاله المايستر. لكن ماذا لو أنه كذب؟».

كان فيكتاريون يشم رائحة البحر الداخلة من النافذة المفتوحة مع أن الغرفة تُفعمها روائح النبيذ والدم والجنس، وساعد الهواء المالح البارد على صفاء دماغه إذ سأل: «ماذا تعني؟».

التفت يورون يواجهه، والتوت شفتاه الزرقاوان المكدومتان في ابتسامة صغيرة وهو يجيب: «ربما نستطيع الطيران كلنا. كيف سنعرف ما لم نقفز من برج شاهق؟». هبت الريح من النافذة محرّكة معطفه، وكان في غريه شيء ما فاحش مزعج. «لا أحد يدري ما يقدر على فعله حقًا ما لم يجرؤ على القفز».

- «ها هي النافذة، اقفز». لا يملك فيكتاريون صبرًا على هذا، كما أن يده الجريحة تؤلمه. «ماذا تريد؟».

- «العالم». في عين يورون يلتصع نور النار. عينه الباسمة.
«هل تشرب كأسًا من نبيذ اللورد هيويت؟ لا خمر بحلاوة الخمر
الماخوذة من عدو مهزوم».

أجاب فيكتاريون: «لا»، وأشاح بنظره مضيئًا: «غَطَّ نفسك».
جلس يورون وشَدَّ معطفه لِيَقْطِي عورته، وقال: «كنت قد
نسيث أن رجالي الحديديين قوم ضال مزعجون. أريد أن آتيهم
بالتنانين فيزعقون طالبين العنب».

- «العنب حقيقي ملموس ويستطيع المرء أن يلتهم ما يشاء
منه، ثم إن عصيره خلو ويصنع منه النبيذ. ما الذي تصنعه
التنانين؟».

أجاب عين الغراب: «الويل»، ورشَفَ من كأسه الفضة، وتابع:
«في مرّة حملت بيضة تئين بيدي هذه يا أخي. ذلك الشاحر
المايري أقسم أنه يستطيع أن يجعلها تفقس إذا أمهلهت عاها
وأعطيته كل ما يتطلّب من ذهب. حين ملكت أعذاره قتلته،
وبينما رأى أحشاءه تنزلق بين أصابعه قال: لكن عاها لم يمض!».
وضحك مردفًا: «هل تعلم أن كراجورن مات؟».

- «من؟».

- «الرجل الذي نفخ في بوق التنانين. حين فتح المايستر
صدره وجد رنتيه متفخمتين مسوّدتين كالشخام».

مرتجفًا قال فيكتاريون: «أرني بيضة التئين هذه».

- «رميتها في البحر في خلال إحدى نوبات غضبي»، وهَزَّ
يورون كتفيه متابعًا: «يبدو لي أن القارئ ليس مخطئًا. إذا كان
الأسطول أكبر من اللازم فلن يستطيع الثماشك طيلة تلك
المسافة. الرّحلة طويلة جدًا وخطيرة جدًا، ولا أمل إلّا لأفضل
شفقنا وأطقمنا في الإبحار إلى (خليج الثّخاسين) ثم الإياب،
الأسطول الحديدي».

فكّر فيكتاريون: الأسطول الحديدي لي، لكنه لم يقل شيئًا.

ملاً عين الغراب كأسين بنبیذ أسود غریب قوامه ثخين كالعسل، وقال: «اشرب معي يا أخي، تذوق هذا»، ومدّ يده لفيكتاريون ياخذی الكأسین.

التقط فيكتاريون الكأس التي لم یَقْدَمها يورون وتشمّم محتوياتها بارتیاب. من قُرْب يبدو الشراب أقرب إلى الأزرق من الأسود، وله منظر زيتي خائر ورائحة كالأسماك المتعفّنة. جرّب رشفة صغيرة بصقّها من فوره، وقال: «شراب كریه. هل تُريد أن تُسَقِّمني؟».

ردّ يورون: «أريد أن أفتح عينيك»، وجرع من كأسه، ثم ابتسم مواصلاً: «صبغة المساء، خمر الدجالين. وجدت برميلاً منها عندما استوليت على قالیون معين من (كارث)، بالإضافة إلى القليل من القرنفل وجوز الطيب وأربعين لقة من الحرير الأخضر وأربعة دجالين حكوا حكاية تُثير الاهتمام. أحدهم تجرّأ على تهديدي فقتلته وأطعمت الثلاثة الآخرين إياه. في البدء رفضوا أكل لحم صديقهم، لكن حين استبذ بهم الجوع غيروا رأيهم. البشر لحم».

بالون كان مجنوناً وآرون أكثر جنوناً ويورون الأكثر جنوناً على الإطلاق. كان فيكتاريون يلتفت ليُفادِر عندما قال عين الغراب: «يجب أن تكون للملك زوجة تمنحه ورثة. إنني في حاجة إليك يا أخي. هل تذهب إلى (خليج الثخاسين) وتعود إليّ بحبيبتي؟».

تكوّرت قبضتا فيكتاريون وسقطت قطرة دماء على الأرض إذ قال في قرارته: كانت لي حبيبة ذات يوم أيضاً. يجدر بي أن أبزحك ضرباً وأطعمك للشراطين كما فعلت بها. أجاب أخاه: «إن لك أبناء».

- «هجان نفول، أبناء العاهرات والثائحات».

- «لقد خرجوا من جسدك».

- «وكذا محتويات وعاء فضلاتي. لا أحد منهم يصلح للجلوس على كرسي حجر اليم، ناهيك بالعرش الحديدي. لا، إنني محتاج إلى امرأة مختلفة كي أنجب وريثًا يليق به (هو). حين يتزوج الكراكن الثئينة يا أخي فليحذر العالم كله».

تساءل فيكتاريون مقظبا جبينه: «أي ثئينة؟».

- «آخر شلاتها. يقولون إنها أجمل امرأة في العالم، إن شعرها ذهب وفضة وعينيها جقشت... لكنك لست مضطرا إلى تصديق كلمتي يا أخي. اذهب إلى (خليج النحاسين) واظطلع على جمالها بنفسك وارجع إلي بها».

سأله فيكتاريون: «ولم أفعل ذلك؟».

- «لأجل الخب، لأجل الواجب، لأن مليكك أمرك، وقهقهة يورون مضيئا: «ولأجل كرسي حجر اليم. إنه لك حالما أرتقي العرش الحديدي. ستتبعني كما تبعث بالون... وذات يوم سوف يتبعك أبناؤك الشرعيون».

ابنائي. ولكن لكي ينجب الزجل ابنا شرعيا يجب أن تكون له زوجة أولا، وفيكتاريون سيئن الحظ في الزواج. قال لنفسه مذكرا: هدايا يورون مسمومة، ومع ذلك...

- «الخيار لك يا أخي. عيش قنا أو مت ملكا. هل تجسر على الطيران؟ ما لم تقفز فلن تعرف أبدا»، والتمعت الشخيرة في عين يورون الباسمة إذ أردف: «أم أنني أحملك ما لا طاقة لك به؟ الإبحار بعد (قاليريا) مخيف حقا».

رد فيكتاريون: «سأبحر بالأسطول الحديدي إلى الجحيم إذا لزم الأمر»، وفتح يده ليجد راحتها مبللة بالدماء، وتابع: «سأذهب إلى (خليج النحاسين)، أجل، وسأجذ تلك الثئينة وأرجع بها». ولكن ليس من أجلك. لقد سرقت زوجتي وهتكت عرضها، ولذا سأظفر بامراتك، أجمل نساء العالم، لي أنا.

چایمی

عادت الحقول خارج أسوار (داري) تُحَرِّث من جديد بعد أن جُرِّقَت المحاصيل المحروقة، وأبلغه كشافة السير أدام برؤية نسوة في الأخاديد يقتلن الحشائش، في حين تُفْهَد مجموعة من الثيران أرضًا جديدةً للزراعة على حافة غاية قريبة، وقد وقفت دسته من الرجال الملتحين حاملي الفؤوس حراسةً عليها فيما تعمل.

لدى بلوغ چایمی وركبه القلعة كانوا قد فُزُوا جميعًا إلى ما وراء الأسوار، ووجد (داري) مغلقةً في وجهه مثل (هارنهال) من قبلها، ففكر: استقبال بارد من لحمي ودمي. قال أمّا: «أطلق النّفير»، فخلع السير كينوس الكايسي بوق هيروك من على كتفه ونفخ فيه، وبينما انتظر چایمی ردًا من القلعة رمق الزّاية الخافقة بالبئى والقرمزي فوق حصن ابن عمّه الأمامي. يبدو أن لانسِل اختار تقسيم رايته إلى أربعة مربّعات على كلّ اثنين منها أسد لانسِر وحارث داري، ورأى چایمی يد عمّه في هذا كما رآها في اختيار عروس لانسِل. منذ أطاح الأنداليون بالبشر الأوائل والحكم في هذه الأنحاء لعائلة داري، ولا شك أن السير كيقان ارتأى أن المهمة ستكون أيسر على ابنه إذا رآه الفلاحون استمرّازًا للشّلالّة القديمة، يحكم هذه الأراضي بحقّ المصاهرة بالأحرى من مرسوم ملكي. المفترض أن يكون كيقان يد تومن. هاريس سويقت رجل تافه، وأختى حمقاء إذا كانت تعتقد غير هذا.

انفتحت بؤابة القلعة ببطء، وقال چایمی للغفر: «ليست عند ابن عمّي مساحة لإيواء ألف رجل. سننصب المعسكر عند الشّور الغربي. أريد حفر الخنادق وغرس الخوازيق في محيطنا. ما زالت هناك جماعات من الخارجيين عن القانون في هذه المنطقة».

- «سيكونون مجانيين بالتأكيد إذا هاجموا قوّة كقوّتنا».

- «مجانين أو يتضوّرون جوعًا». إلى أن تُصبح لديه فكرة أفضل عن هؤلاء الخارجين عن القانون وقوّتهم لا ينوي چايمي أن يُجازف بالاستهانة بدفاعاته. كُرّر: «خنادق وخوازيق»، ثم همزًا أوثر نحو البوابة، وإلى جواره يركب السير درموت حاملًا الوعل والأسد الملكيين، والسير هيوغو قانس براية الخرس الملكي. كان چايمي قد كلّف رونيت الأحمر بمهمة توصيل وايليس ماندرلي إلى (بركة العذارى)، كي لا يضطرّ إلى رؤية وجهه ثانية أبدًا.

مع مرافقيه تركب پيا الحصان المخصّي الذي وجده لها پك، وقد سمعها چايمي تقول: «كانها قلعة لعبة»، فحدث نفسه متأملًا: الفتاة لم تعرف بيثًا إلّا (هارنهال). كلُّ قلعة في البلاد ستبدو لها صغيرة، باستثناء (الضخرة).

رَدّ جوزمين يكلدون عليها بالكلام نفسه قائلاً: «لا يجب أن تُحكّمي بـ(هارنهال). هارن الأسود بناها بضخامة غير عادية». وأصغّت پيا ياذعان فتاة في الخامسة تتلقّى الدروس من سيّتها. ليست إلّا هذا، فتاة صغيرة في جسد امرأة، على جسدها اللدوب وفي نفسها الخوف. على أن پك مفتون بها. لا يظنّ چايمي أن الضّبي عرف امرأة من قبل، وپيا لا تزال حسناء بما فيه الكفاية ما دام فمها مغلقًا. لا أظنّ أن هناك أنثى في أن يُضاجعها، بشرط أن تكون راغبة.

في (هارنهال) حاول أحد رجال الجبل اغتصاب الفتاة، وبدأ مندهشًا بصدق عندما أمر چايمي إلين يابن بقطع رأسه، وإذ أرغموه على الزّكوع ظلّ يَرَدّد: «لقد استعملتها مئة مرّة من قبل، مئة مرّة يا سيّدي، كلنا استعملناها». حين قدّم السير إلين الرّأس لپيا بعدها ابتسقت كاشفة خطام أسنانها.

أيد كثيرة تداولت (داري) في أثناء القتال، واحترقت قلعتها مرّة ونهبت مرّتين على الأقل، وإن يبدو أن لانسل لم يُضَيّع وقتًا قبل الشروع في تصحيح الأوضاع. هكذا غلّق مصراعان جديدان للبوابة من ألواح الشنديان الخام المدعّمة بالحديد، والآن يُبنى اسطبل جديد في مكان القديم الذي أحرق، كما استُبدلت الشلالم الضّاعدة إلى الحصن ومصاريع نوافذ كثيرة. ما زالت الأحجار المسوّدة تشي بالبقاع التي لعقتها أسنة اللّهب، لكنها ستبهت مع مرور الوقت وسقوط الأمطار.

داخل القلعة يذرع زُمة الثّشائية الشّرفات، بعضهم يرتدي المعاطف القرمزيّة وخوذات الأسد، وبعضهم يرتدي أزرق ورمادي عائلة فراي. حُبّ چايمي في السّاحة ليفز الذّجاج من تحت حوافر أوثر، وثقت الخراف وحدجه الفلاحون بنظرات باهتة. لم يفتّه أنهم فلاحون مسلّحون، منهم من يحمل المناجل ومنهم حاملو الهراوات والمعاول مدّية الرّؤوس، وهناك من يحملون فؤوسًا أيضًا، كما لمخ عدّة رجالٍ ملتحين خيظت على ستراتهم الرّئة المتسخة نجوم شباعية حمراء. المزيد من العسافير الملاعين. من أين يأتي كلّ هؤلاء؟

لم يرَ أثرًا لعفه كيغان أو لانسل، ولم يَخْرُج لتحيّته إلّا مايستر يخفق رداؤه الرّمادي حول ساقيه الثّاحلتين، وقد خاطبه الرّجل قائلاً: «حضرة القائد، شُرّفت (داري) بهذه... الزيارة غير المتوقّعة. أرجو أن تُعذرنا لعدم استعدادنا. ظننّا أنك في طريقك إلى (ريقرزن)».

رَدّ چايمي كاذبًا: «كانت (داري) في طريقي». (ريقرزن) ستنتظر. وإذا تصادف أن ينتهي الحصار قبل أن يبلُغ القلعة فسيُعفى من الاضطرار إلى حمل السّلاح ضدّ آل ثلي. ترجّل وناول أحد غُقال الاسطبل زمام أوثر متسائلًا: «هل ساجذ عمّي هنا؟». لم يذكّر الاسم، فالسير كيغان العثم الأوحـد الذي تبقى له، آخِر أبناء تايـتوس لانـستر الأحياء.

أجاب الإيستر: «لا يا سيدي. السير كيفان رحل بعد الزفاف»، وشد سلسلته كأنها ضاقت على عنقه، وتابع: «أعلم أن اللورد لانسل سيستُر لرؤيتك و... وجميع فرسانك البواسل، لكن يؤسفني أن أعترف بأن (داري) لا تستطيع إطعام هذا العدد الكبير».

- «إن معنا مؤننا. من أنت؟».

- «الإيستر أوتومور، بعد إذن سيدي. الليدي أميري رغبت في الترحيب بك بنفسها، لكنها تُشرف على تجهيز مائدة على شرفك، وتتمنى أن تتمكن وكبار فرسانك وقادتك من الانضمام إلينا على المائدة هذا المساء».

- «نُرحب بوجبة ساخنة بالتأكيد. الأيام الماضية كانت باردة مطيرة»، وتطلع چايمي عبر الشاحة إلى وجوه العصفير الملتحين مفكّزا: كثيرون جدّا، ورجال فراري كثيرون جدّا أيضًا. «أين أجد الحجر الضّلب؟».

- «بلغتنا أنباء عن وجود خارجين عن القانون على ضفة (الثالوث) الأخرى، فأخذ السير هاروين خمسة فرسان وعشرين من الزّماة وخرج يتعامل معهم».

- «واللورد لانسل؟».

- «يُصلي. حضرة اللورد أمرنا بعدم إزعاجه أبدًا في أثناء الصّلاة».

هو والسير بونيفر سينسجمان معًا. «ليكن». لاحقًا سيجد الوقت الكافي للحديث مع ابن عمه. «اصحبني إلى مسكني واجعلهم يجلبون لي حوض استحمام».

- «بعد إذن سيدي، سنُنزلك في (حصن الحارث). سأريك الطريق».

- «أعرف الطريق». ليست هذه القلعة غريبةً على چایمی، إذ سبق أن نزل وسرسي هنا ضيفين مَرَّتَيْن، الأولى في الطريق إلى (وينترفيل) والثانية في طريق العودة إلى (كينجز لاندنج). على الرغم من صغر مساحة القلعة فإنها أكبر من أيَّ خان، وعند النهر ثمة بقاع جيّدة للصيد، وروبرت باراثيون لم يعزف قَطُّ عن استغلال كرم ضيافة رعاياه.

وجد چایمی الحصن كما يذكّره، وبينما قطع به المايستر رواقًا علّق: «الجدران لا تزال عارية».

قال أوتومور: «اللورد لانسل يأمل أن يُغطّيها ذات يوم بالمعلّقات، مشاهد تُعبّر عن الورع والبر».

رُذد في سريره باذلاً قصارى جهده كي لا يضحك: الورع والبر. كانت الجدران عارية في زيارته الأولى أيضًا، وأشار تيريون إلى مربّعات الحجارة الأغمق حيث كانت المعلّقات من قبل. استطاع السير رايمون أن يزيل المعلّقات ولكن ليس الآثار التي تركتها. لاحقًا رشا العفريت أحد خدم داري بحفنة من الأيائل الفضيّة من أجل مفتاح القبو الذي يحوي المعلّقات المفقودة، وقد أرى چایمی إياها على ضوء شمعة وقد ارتسفت على شفّتيه ابتسامة عريضة. كانت الثّور المنسوجة لجميع ملوك عائلة تارجارين من إجون الأول إلى إينس الثاني، وقال القزم بضحكة خافتة: «إذا أخبرث روبرت فلربما يجعلني أنا سيّد (داري)».

قاد المايستر أوتومور چایمی إلى قمّة الحصن، حيث قال: «إنني واثق بأنك ستكون مستريحًا هنا يا سيّدي. ثمة مرحاض لتلبية نداء الطبيعة، وناقذتك تطلّ على أيكة الآلهة. غرفة نومك مجاورة لغرفة حضرة الليدي، وبينهما حُجيرة خادمة».

- «كان هذا مسكن اللورد داري».

- «نعم يا سيّدي».

- «ابن عمي في غاية اللطف. لم أكن أريد إخراج لانسل من غرفة نومه».

- «اللورد لانسل ينام في الشيت».

ينام مع (الأم) و(العذراء) في حين أن له زوجة دافنة وراء الباب؟ لا يدري جايمي هل يضحك أم يبكي. ربما يُضَلِّي لكي ينتصب قضيبه. في (كينجز لاندنج) لاكت الألسنة شائعة عن أن جراح لانسل تركته عاجزًا. ولو، حربي به أن يكون عاقلاً كفاية ويُحاول. لن يُحكّم ابن عمه سيطرته على هذه الأراضي الجديدة إلى أن يُنجب ابنًا من زوجته المنتمية نصفًا إلى عائلة داري. بدأ اللدم يُراود جايمي على اللزوة التي دفقته إلى المجيء هنا.

شكر أوتومور وذكره بالحقام وأمر بك باصطحابه إلى الخارج.

تغيّرت غرفة نوم اللورد منذ زيارته الأخيرة، وليس للأفضل. الأرض يُغطّيها الحصير القديم بدلًا من البساط المايري الفاخر، والأثاث كله جديد بسيط. كان سرير السير رايمون داري يسع ستة أفراد، وله ستائر بيضاء من المخمل وأعمدة من خشب الشنديان منقوشة عليها نباتات متسلقة وأوراق شجر، أما سرير لانسل فحشيّة من القش المتكتل موضوعة أسفل الثافذة حيث يضمن أن يُوقظه أول خيوط النهار. لا ريب أن الشرير الآخر قد أحرق أو خظّم أو سرق، ومع ذلك...

حين وصل حوض الاستحمام خلَعَ ليو الصغير حذاء چايمي وساعده على حُلّ يده الذهبية، بينما جلب بك وجاريت الماء ووجدت له بيا ثيابًا نظيفة يرتديها على العشاء. رمقته الفتاة بخجل وهي تنفض شترته، ووجد چايمي نفسه يلحظ على نحو غير مريح انحناءات وركيها وتدييها تحت فُستانها الخيش البني، ليتذكر الأشياء التي همست له بها في (هارنهال) ليلة أرسلها كايرن إلى فراشه. أحيانًا وأنا مع رجلٍ ما أغلق عيني وأتخيل أنك أنت فوقِي.

شعر بالامتنان لغَمق الحوض الذي أخفى إثارته، وإذ نزل في المياه الساخنة تذكر حَقًا آخر، ذلك الذي تقاسمه مع بريان. كان محمومًا واهنًا من جزاء ما فقد من دماء، ودوّرت الحرارة رأسه فوجد نفسه يقول أشياء كان أفضل ألا تُقال، أمّا هذه المرة فلا عذر له. تذكر قَسَمك. بيا أصلح لفراش تيريون من فراشك. قال لك: «أحضر لي صابونًا وفرشاة يابسة»، ولييا قال: «يُمكنك أن تتزكينا».

ردّت مفضيةً فمها كي تُخفي أسنانها المكسورة: «حاضر يا سيدي، شكرا يا سيدي».

حين خرجت سأَل چايمي بك: «هل تُريدها؟»، ولما احمرّ وجه الفراق كالبنجر قال له: «إذا قبلتِك فخذها. لا شك لديّ في أنها سَتُعَلِّمك أشياء ستجدها نافعة ليلة زفافك، وليس محتملًا أن تزرع نغلًا في بطنها». لقد فتحت بيا ساقها لنصف رجال جيش أبيها ولم تحبل، وعلى الأرجح الفتاة عاقر. «لكن إن ضاجعتها فتلطّف بها».

- «أتلطّف يا سيدي؟ كيف... كيف يُمكنني أن...».

- «كلمات خلوة، لمسات رقيقة. لست تُريد أن تتزوّجها، لكن ما دأقت معك في الفراش فعاملها كأنها عروسك».

أوما الصبي برأسه، وقال: «سيدي، إنني... أين يُمكنني أن أفعل ذلك معها؟ ليس هناك مكان أبدًا...».

أَكْمَلَ چايمي قوله: «... لتكونا وحدكما؟»، وابتسم ابتسامة واسعة مردقًا: «سنغيب عذّة ساعات على العشاء. القش يبدو متكثلاً لكن يُفْتَرَض أن يكون مناسبًا».

انُسعت عيناك، وسأله: «سرير حضرة اللورد؟».

- «ستشعر كأنك لورد عن نفسك عندما تفرغ، إذا كانت پيا تعرف ما تفعله». وحرّني بأحدهم أن يستغلّ تلك الحشية القش البائسة.

حينما نزل لحضور المأدبة ليلتها كان چايمي لانستر يرتدي سترة ضيقة من المخمل الأحمر المشرّط بقماش الذهب، ووضع حول رقبته سلسلة ذهبية مطقمة بالماسات السوداء، وقد ربط يده الذهبية إلى جدعته أيضًا بعد تلميعها وصقلها حتى تألّقت. ليس هذا بالمكان الملائم لارتداء ثيابه البيضاء، فواجهه ينتظره في (ريقررن)، بينما بعثته حاجة أكثر سوادًا على المجيء هنا.

لا يُقال عن قاعة (داري) الكبرى إنها كبرى إلا على سبيل المجاملة، إذ تتزاحم فيها الموائد من جدار إلى جدار، وعوارض الشّقف مسوّدة من الدخان. وضعوا چايمي على المنضّة إلى يمين مقعد لانسل الشاغر، وبينما جلس سأل: «ألن ينضمّ إلينا ابن عمّي على العشاء؟».

أجابّت زوجة لانسل: «سُيَدي يُفَضّل الصّيام. إنه حزين لأقصى حدّ على الشّيتون الأعلى المسكين». الليدي أميري فتاة طويلة الشاقين عامرة الصّدر قويّة البنية، تَبْلُغ من الغمر نحو الثامنة عشرة، ويبدو من منظرها أنها تتمتع بالصّحة، وإن كان وجهها المدبّب الممصوص يذكّر چايمي بكليوس ابن عمته الراحل غير مأسوف عليه، الذي بدا دومًا أشبه بابن عرس.

الضّيام؟ إنه أكثر حُفًا مما ظننت إذن. المفترض أن ينشغل ابن عمه بإنجاب وريث له وجه ابن عرس من زوجته الأرملة بدلًا من تجويع نفسه حتى الموت. تساءل عمًا كان السير كيقان ليقوله عن حماسة ابنه المستجدة هذه. أهذا هو الشّيب وراء رحيل عمه المتعجل؟

بينما يتناولون خساء الفاصوليا واللّحم المقدّد حكّت الليدي أميري لجايمي عن زوجها الأول الذي قتله السير جريجور كليجاين عندما كان آل فراي ما زالوا يحاربون في صفوف روب ستارك. «توشلت إليه ألا يذهب، لكن عزيزي يايت كان شديد الشّجاعة وأقسم أنه سيكون الرّجل الذي يقتل الوحش. أراد أن يصنع اسقا عظيمًا لنفسه».

كلّنا كذلك. «حين كنت مرافقًا قلت لنفسي إنني سأكون الرّجل الذي يقتل الفارس الباسم».

سألته حائرة: «الفارس الباسم؟ من هو؟».

جبل صباي، يصفه في الحجم وضعفه في الجنون. «خارج عن القانون مات منذ زمن، ليس أحدًا يهتم حضرة الليدي».

ارتعشت شفقتها وسالت الذّموع من عينيها البئيتين، فقالت امرأة أكبر سنًا: «أرجو أن تُعذر ابنتي، إنها لا تزال حزينة على أبيها». كانت الليدي أميري قد جلبت معها زهاء عشرين من آل فراي إلى (داري)، أخثا وعمًا ونصف عمّ وعددا من أبناء وبنات العمومة، بالإضافة إلى أمها المولودة في (داري).

باكية قالت أميري: «المجرمون قتلوه. لم يذهب أبي إلا لدفع فدية بيتر ذي الذّمامل. أحضر لهم الذهب الذي طلبوه، لكنهم علّقوه على كلّ حال».

قالت الليدي ماريا: «شئقوه يا أمي، أبوك لم يكن لافتة»، والتفتت إلى جايمي قائلة: «أعتقد أنك كنت تعرفه أيها الفارس».

- «كلانا كان مُرافقًا في (كراكهول)». لن يتمادي ويزعم أنهما كانا صديقين. حين وصلَ چايي كان ميريت فراي بلطجي القلعة الذي يفرض سيطرته على الضبية الأصغر سنًا. ثم حاولَ البلطجة عليّ. «لقد كان... قويًا للغاية». هذا هو الثناء الوحيد الذي خطرَ بباله. ميريت كان بطيئًا وأخرق وأحمق، لكنه لم يفتقر إلى القوة إطلاقًا.

قالت الليدي أميري متنشقة: «لقد قائلتما أخوة غابة الملوك معًا. اعتادَ أبي أن يحكي لي».

تعين أن أبالك اعتادَ أن يتباهى ويكذب. «صحيح». أكبر إسهامات فراي في القتال كان الإصابة بعدوى الجدري من تابعة معسكراتٍ والشماح لنفسه بالوقوع في أسر الطُبية البيضاء. آنذاك وسّمت ملكة الخارجيين عن القانون مؤخرته برمزها قبل أن تُعيده إلى سمنر كراكهول لقاء فدية، وطيلة أسبوعين لم يستطع ميريت الجلوس، وإن كان چايي قد شكَّ في أن الحديد الملتهب آلفه بقدر الشخيرة التي انهالت عليه من زُملائه المُرافقين فور عودته. الضبية أقسى مخلوقاتٍ على وجه الأرض. طوق كأس نبذه بيده الذهبية، ورفعها قائلاً: «لذكرى ميريت». أسهل عليه أن يشرب نخب الرّجل من أن يتكلّم عنه.

بعد النّخب كُفّت الليدي أميري عن البكاء وتحوّل حديث المائدة إلى الذّئاب، تحديدًا النوع ذي الأقدام الأربع. زعم السير دانويل فراي إن هناك أعدادًا أكبر منها الآن مما يتذكّر جُده نفسه، وقال: «لم تُعد تعرف خوفًا من البشر. قُطعان منها هاجمت قافلة أمتعتنا ونحن في الطريق من (الثوأميتين)، وغرس زُماتنا سهامهم في نحو ستة منها قبل أن تفرّ البقية»، فرّد السير أدام ماربراند معترفًا بأن ركبهم واجه متاعب مشابهة في الطريق من (كينجز لاندنج).

ركّز چايمي على الطعام أمامه، مقطّعا الخُبز بيده اليسرى وممسكا بيّمناه كأس البيض بحركة خرقاء. شاهد أدام ماربراند يجتذب الفتاة الجالسة إلى جواره، وستفون سويقت يُعيد خوض معركة (كينجز لاندنج) بالخُبز والمكشرات والجزر، بينما شدّ السير كينوس خادمة وأجلستها في حجره وحثّها على التّملّيس على بوقه، وسلّى السير درموت عددًا من المرافقين بحكايات تطواف الفُرسان في (الغابة المطيرة). في موضع أبعد على المائدة كان هيو جو قانس قد أغمض عينيه، ففكّر چايمي: يُفكّر في غوامض الحياة ربما، أو أنه يغفو بين صنف وصنف. عاد يلتفت إلى الليدي ماريا قائلاً: «الخارجون عن القانون الذين قتلوا زوجك... أهم من جماعة اللورد بريك؟».

على الرغم من الشّيب الذي وخطّ شعر الليدي ماريا فإنها لا تزال امرأةً حسناء، وقد أجابته: «هذا ما حسبناه في البداية. القتلة تفرّقوا حين غادروا (الحجر العتيق). تعقّب اللورد قايرن مجموعة منهم إلى (الشوق القصيّة) لكنه فقد أثرهم هناك، وقاد والدر الأسود قناصين وكلاب صيد إلى (مستنقع هاج) مطارداً الآخرين. أنكر الفلاحون رؤيتهم، لكن عند استجوابهم بغلظة غيروا أقوالهم وتكلّموا عن رجلٍ بعينٍ واحدة وآخر يرتدي معطفاً أصفر... وعن امرأةٍ تخفي ملامحها تحت قلنسوة معطفها».

- «أمراة؟». كان ليحسب أن الطّبية البيضاء علّمت ميريت أن يظلّ بمنأى عن الخارجات عن القانون. «كانت هناك امرأة مع أخوة غابة الملوك أيضاً».

- «سمعتُ بها»، قالت الليدي ماريا، فيما قالت لبرتها: وكيف لا وقد تركتُ وسمها على زوجي؟ «الطّبية البيضاء كانت شائئة جميلة حسب ما يُقال، أمّا تلك المرأة المقلّسة فلا هذا ولا ذاك. الفلاحون يؤكّدون أن وجهها ممزّق مليء بالثدوب ونظرة عينيها مريعة، ويذّعون أنها تقود الخارجين عن القانون».

قال چايمي الذي يجد هذا عصيًا على التصديق: «تقودهم؟
بريك دونداريون والزاهب الأحمر...».

أتقت الليدي ماريا عبارته بنبرة واثقة: «... لم يرها أحد».
قال الغفر: «دونداريون مات. الجبل أغمد سكينًا في عينه،
ومعنا رجال رأوا هذا بأنفسهم».

عقب أدام ماربراند: «هذه حكاية واحدة. سيقول لك آخرون
إن اللورد بريك لا يُقتل».

لقت الليدي أميري حُصلةً من شعرها حول إصبعها قائلة:
«السير هاروين يقول إن تلك الحكايات كاذبة. لقد وعدني برأس
اللورد بريك. إنه شهم للغاية»، وعلى الرغم من دموعها تخضب
وجهها بالخمرة.

استعاد چايمي في ذاكرته الرأس الذي أعطى پيا إياه، وفي
الآن نفسه كاذب يسمع أخاه الصغير يُقهقه. كان تيريون ليسأل:
ماذا جرى لإعطاء النساء الزهور؟ وكان ليقول بضع كلمات
منتقاة عن هاروين يلوم أيضًا، ولو أن «شهم» ليست واحدة
منها. أخوا يلوم رجلان كبيران لحيما ن لكل منهما غنق تخين
ووجه متورّد، وكلاهما صاخب شبق سريع الضحك سريع
الغضب سريع الغفران... أمّا هاروين فصنف مختلف من آل
يلوم، صموت قاسي العينين لا يعرف الشماح، كما أنه مميت
وفي يده مطرقة. إنه رجل صالح لقيادة الحامية، لكنه ليس
رجلًا يُحب. مع /ن... رمق چايمي الليدي أميري بنظرة متفرّسة.

جاء الخدم بطبق سمك الكراكي النهري المخبوز بالأعشاب
والمكشرات المفرومة، فتذوّقته زوجة لانسِل وأبذت استحسانها،
ثم أمرت بتقديم الحصة الأولى لجايمي، وبينما يضعون السمك
أمامه مالت من فوق مكان زوجها لتمشّ يده الذهبية قائلة:
«أنت تستطيع أن تقتل اللورد بريك يا سير جايمي كما قتلت
ذلك الفارس المبتسم. أرجوك يا سيّدي، أتوسّل إليك، ابقْ
وساعدنا على الثغلب على اللورد بريك وكلب الصّيد»، ومشدت
أصابعها الشّاحبة أصابعه الذهبية.

هل تحسبني أشعر بهذا؟ «سيف الضّباح هو من قتل الفارس
الباسم يا سيّدي، السير آرثر داين، فارس أفضل مني»، وسحب
جايمي يده الذهبية والتفت إلى الليدي ماريا مخاطبًا إياها:
«إلى أين تعقب والدر الأسود تلك المرأة ذات القلنسوة
ورجالها؟».

أجابته المرأة الأكبر سنًا: «كلابه التقطت رائحتهم ثانية شمال
(مستنقع هاج). يُقسم أنه لم يكن وراءهم بأكثر من نصف يوم
حين اختفوا في (الغلق)».

أعلن السير كينوس بمرح: «فليتعمّنوا هناك. إذا شاءت الآلهة
ستبتلعهم الزّمال المتحرّكة أو تلتهمهم الأسود الزّواحف» (64).

قال السير دانويل فراي: «أو يأخذهم أكلة الصّفادع. لن
يدهشني أن يؤوي أهل المستنقعات الخارجين عن القانون».
قالت الليدي ماريا: «ليتهم الوحيدون. بعض لوردات النّهر
متواطئ مع رجال اللورد بريك أيضًا».

تنشّقت ابنتها، وقالت: «والعامة أيضًا. السير هاروين يقول
إنهم يخبّؤونهم ويطعمونهم، ولما يسألهم أين ذهبوا يكذبون.
يكذبون على سادتهم!».

حضّها الغفر قائلاً: «اقطعوا ألسنتهم إذن».

قال چايمي: «حظًا سعيدًا في الحصول على إجابات إذن. إذا أردتم مساعدتهم فعليكم أن تجعلوهم يحبّونكم. هذا ما فعله آرثر داين حين خرجنا لقتال أخوة غابة الملوك؛ نقدّ العائمة ثمن الطعام الذي أكلناه، وأطلع الملك إيرس على مظلالمهم، ووسّع مساحات الرعي حول قراهم، بل وكسب لهم حقّ قطع عدد معين من الأشجار كلّ عام وصيد بعض غزلان الملك في الخريف. أهل الغابة تطلّعوا إلى توين لينقذهم، لكن السير آرثر فعل من أجلهم أضعاف ما كانت الأخوة لتأمل أن تفعله، وكسبهم إلى صفّنا، وبَعدها كانت البقية سهلة».

قالت الليدي ماريا: «حضرة القائد يتكلّم بحكمة. لن نتخلّص من هؤلاء المجرمين أبدًا ما لم يحبّ العائمة لانسِل كما أحبّوا أبي وجدّي من قبل».

رمق چايمي مكان ابن عمّه الخالي مفكّرًا: غير أن لانسِل لن يربح حبّهم بالصّلاة أبدًا.

مظّت الليدي أميري شفّتها قائلة: «سير چايمي، أتوسّل إليك ألا تتخلّى عنا. إن زوجي في حاجة إليك وكذلك أنا. نحن في زمنٍ مخيف حقًا. في بعض الليالي أكاد لا أستطيع النوم من خوفي».

- «مكاني مع الملك يا سيّدتي».

قال الغفر: «أنا سأتي. حالما تُفرغ من (ريقرزن) سأكون متشوّفًا إلى قتالٍ آخر، ولو أن اللورد بريك لن يصفّد أمامي. إنني أذكره في دورات المباريات السابقة. كان فتى وسيقًا في معطف أنيق، نحيلاً وعرّاء».

قال السير أروود فراي الشاب: «كان هذا قبل أن يموت. العائمة يقولون إن الموت غيرهِ. يُمكنك أن تقتله لكنه لن يبقى ميثًا. كيف تقتل رجلًا كهذا؟ وهناك كلب الصّيد أيضًا. لقد قتل عشرين رجلًا في (الملاحات)».

قهقهة الغفر بقوة، وقال: «قتل عشرين صاحب خان بدينا ربما، عشرين خادما يبولون في سراويلهم، عشرين أخا شخاذا مسلحين بالآتية. ليس عشرين فارسا، ليس أنا».

رَد السير آروود بإصرار: «ثقة فارس في (الملاحات). الرّجل اختبأ وراء أسواره بينما عاثّ كليجاين وكلابه المسعورة تدميرا في بلدته. إنك لم ترّ الأشياء التي فعلها أيها الفارس، أنا رأيتهـا. حين بلغت الأخبار (الثّوأمتين) خرجت مع السير هاريس هاي وأخيه دونل وخمسين من الرّماة والفشاة. كنا نظنّ أن اللورد بريك هو من فعل هذا وأملنا أن نجد أثره لنقتفيه. لم يتبقّ في (الملاحات) إلّا القلعة، وكان السير كوينسي العجوز مرعوبا لدرجة أنه رفض فتح بوابته، وخاطبنا بالرّعيق من فوق أسواره بالأعلى. البقية عظام ورماد، البلدة بأكملها. كلب الضيد أحرق المباني وقتل الشكّان وغادر ضاحكا. النساء... لن تُصدّقوا ما فعله ببعض النساء. لن أتكلّم عن هذا على المائدة. مجرّد مرآه أثار غثياني».

قالت الليدي آميري: «لقد بكيت عندما سمعت».

رشقّ جايمي من نبذه، وسأل: «وما الذي يجعلكم واثقين بأنه كلب الضيد؟». ما يصفونه أقرب إلى أفعال جريجور من ساندور. صحيح أن ساندور قايس ضلب، لكن أخاه الكبير هو الوحش الحقيقي في عائلة كليجاين.

قال السير آروود: «هناك من رأوه. ليس من الشهل ألاّ يتعرّف المرء خوذته إياها أو ينساها، وثقة من نجوا ليحكوا ما جرى؛ الفتاة التي اغتصبها، وبعض الضّبية الذين تواروا، وامرأة وجدناها حبيسة تحت عارضة متفخمة، والضّيادون الذين شاهدوا المجزرة من قواربهم...».

قالت الليدي آميري بخفوت: «لا تصفها بالمجزرة، إنها إهانة للجزارين الشرفاء في كلّ مكان. ما حدث في (الملاحات) من صنع حيوان رهيب في هيئة بشريّة».

هذا زمن الحيوانات، الأسود والذئاب والكلاب الغاضبة، زمن
الغدقان وغربان الجيف.

عاد الغفر يملأ كأسه قائلاً: «عمل آثم. ليدي هاريا، ليدي
أميري، لقد أثرت في محنتكما. لكما كلمتي، ما إن تسقط
(ريقرزن) سأعود لملاحقة كلب الضيد وأقتله من أجلكما. الكلاب
لا تخيفني».

المفترض أن يخيفك هذا الكلب. كلا الزجلين كبير الحجم
قوي، إلا أن ساندور كليجاين أسرع كثيرًا، ويُقاتل بشراسة لا
يقوى لایل كراكهول على مضاهاتها.

على أن الليدي أميري قالت مفتونة: «أنت فارس حقيقي يا
سير لایل لمساعدتك ليدي في محنة مثلي».

لم تدع نفسها بالفتاة على الأقل. مَدَّ چايمي يده الذهب إلى
كأسه فأسقطها، ليتشرب مفرش المائدة الكثاني الثبيذ، وبينما
اتسعت بقعة الأحمر تظاهر رفاقه جميعًا بأنه لم يلحظوا. قال
لنفسه: إنها كياسة المائدة العالية، لكن مذاقها في فمه لم
يختلف عن مذاق الشفقة. نهض على حين غرة قائلاً: «سيديتي،
أرجو أن تعذريني».

بدا الانزعاج على الليدي أميري، وقالت: «هل ستتركنا؟ ما
زلنا سنأكل لحم الغزلان، وهناك ديوك محشوة بالكرفس
والفطر».

- «لا شك أنهما صنفان شهيان، لكني لن أستطيع أن أكل لقمة
أخرى. يجب أن أرى ابن عفي»، وحنى چايمي رأسه وتركهم
لطعامهم.

كان الرّجال يأكلون في السّاحة أيضًا، وقد تحلّق العصافير حول دسته من يؤر الثّار لتدفئة أيديهم من برد الغسق ومتابعة أصابع الشّجق السّمينّة التي تُطقطق وينزّ منها الدّهن فوق الثّار. لا بُدّ أنّهم منّة على الأقل. أفواه معدومة القيمة. تساءلّ چایمی عن مخزون الشّجق لدى لانسِل وكيف ينوي إطعام العصافير حين ينفد. بحلول الشّتاء ستجدهم يأكلون الجرّذان، ما لم يجدوا محصولًا يحصدونه. في هذا الوقت المتأخّر من الخريف قرصة حصاد آخر ضعيفة.

وجد سیت القلعة في الجناح الدّاخلی، مبنى سُبّاعي الجوانب بلا نوافذ، نصفه من الخشب وبابه الخشبي منقوش وسطحه مغطّى بالبلاط. على الدّرجات يجلس ثلاثة من العصافير، وقد نهضوا مع اقتراب چایمی، وسألّه أحدهم: «أین أنت ذاهب یا سیّدي؟». هو أصغر الثّلاثة، لكن لحيته الأكبر.

- «إلى الدّاخل؟».

- «حضرة اللورد في الدّاخل، یُصلّي».

- «حضرة اللورد ابن عقی».

قال غصفور آخر، رجل أصلع ضخّم فوق عينه رسم لنجمة سُبّاعيّة: «إذن فلست تُريد إزعاج ابن عمّك في أثناء صلاته یا سیّدي».

- «اللورد لانسِل یسأل (الأب في الأعلى) الهدایة»، قال الغصفور الثّالث الحلیق، الذي حسبه چایمی صبيًا أولًا، لكن صوتهأ أخبره بأنّها امرأة تترتدي أسما لا بلا شكلي وقميصًا من الحلقات المعدنيّة الضّدّة. «یُصلّي لأجل أرواح الشّیتون الأعلى وكلّ من ماتوا».

أجابتها چایمی: «سیظلّون موتی غدا. (الأب في الأعلى) لديه وقت أطول مني. هل تعرفون من أنا؟».

رَدّ الكبير ذو العين المنجمة: «لورد ما».

وقال الصّغير ذو اللّحية الكبيرة: «مُعاق ما».

وقالت المرأة: «قَاتِلِ الملك، لكننا لسنا ملوكًا وإنما مجرد صعاليك، ولا يُمكنك الدُخول ما لم يقل حضرة اللورد أن تُدْخِل»، ورفعت هراوة مدبّبة ورفغ الصّغير فأشأ.

انفتح الباب من ورائهم، وقال لانسِل برفق: «دعوا ابن عمّي يمرّ بسلام أيها الأصدقاء، كنث في انتظاره».

وانزاح العصافير في الحال.

يبدو لانسِل أكثر هزأًا مما كان في (كينجز لاندنج)، ثم إنه حافي القدمين ويرتدي شِترَةً قصيرةً تقليديّةً من الصوف غير المصبوغ تجعله يبدو أقرب إلى متسوّلٍ من لورد، وكان قد حلق قَمّةَ رأسه ونبتَ زغبٍ لحيته بعض الشيء، ولو أن من الضّعب أن يعدّ ما على وجهه زغبًا، خصوصًا أنه لا يتماشى مع الشّعر الأبيض حول أذنيه.

قال چایمی لقا صارا وحدهما داخل الشّيت: «هل فقدت عقلك يا ابن العم؟».

- «أوتز أن أقول إنني عمرث على إيماني».

- «أين أبوك؟».

أجاب لانسِل: «رحل. لقد تشاجرنا»، وركع أمام مذبج أبيه الآخر قائلاً: «هَلَا صَلَّيتَ معي يا چایمی؟».

- «هل سيُعطيني (الأب) يدًا جديدةً إذا صَلَّيتَ جيّدًا؟».

- «لا، لكن (المُحارب) سيُعطيك الشّجاعة، و(الحذاد) القوّة،

و(العجوز) الحكمة».

- «إنني محتاج إلى يد». فوق المذابح المنحوتة ترتفع الآلهة

السّبعة ويلتمع خشبها الدّاكن في ضوء الشّموع، وفي الهواء رائحة بخورٍ خفيفة. «هل تنام هنا؟».

- «كلّ ليلة أناّم عند مذبجٍ مختلفٍ ويرسل لي (السّبعة)

رؤى».

كان بيلور المبارك يرى رؤى أيضًا. خصوصًا عندما يصوم.

«متى أكلت آخر مرّة؟».

- «إيماني الغذاء الوحيد الذي يلزمي».
- «الإيمان كالثريد، أفضل بالحليب والعسل».
- «لقد حلمت بأنك ستأتي. في الحلم كنت تعرف الذي فعلته وما ارتكبت من خطايا، ولأجل هذا قتلتنى».
- «الأرجح أنك ستقتل نفسك بكل هذا الصيام. ألم يضم بيلور المبارك حتى الموت؟».
- «ما حيواتنا إلا لهب شموع، كما تقول (النَّجْمَةُ الشَّابَعِيَّةُ)، مجرّد هبة ريح شاردة كفيلة بإطفائها. الموت ليس بعيدًا أبدًا في هذا العالم، وثقة سبع جحائم تنتظر الخطاة الذين لم يتوبوا عن خطاياهم. صلّ معي يا چايمي».
- «إذا فعلت فهل ستأكل وعاء من الثريد؟». لم يجبه ابن عمه، فزفر چايمي، وقال: «حريّ بك أن تنام مع زوجتك لا (العذراء). إنك في حاجة إلى ابن في عروقه دماء داري إذا أردت الاحتفاظ بهذه القلعة».
- قال لانسِل: «كومة حجارة باردة لم أطلبها ولم أردّها، لم أرد إلا أن...»، وارتجف مردفًا: «فليحميني (السبعة)، لكنني أردت أن أكون أنت».
- ضحك چايمي رغما عنه، وقال: «أنا أفضل من بيلور المقدّس. (داري) محتاجة إلى أسد يا ابن عمي، وكذا زوجتك الصغيرة ابنة فراي. كلّما أتى أحدهم على ذكر الحجر الصّلب ابتلّ ما بين ساقيهما. إذا لم تكن قد ضاقت به بعد فستفعل قريبًا».
- «إذا كانت تحبّه فأتمنى أن يجد كلاهما المسرّة في الآخر».
- «لا يجدر بالأسد أن يكون له قرنان. لقد تزوّجت الفتاة».
- «رُدّت بعض الكلمات وأعطيتها معطفاً أحمر، ولكن لإرضاء أبي فحسب. الرّيجة تتطلّب أن تتمّ في الفراش. الملك بيلور اضطرّ إلى الرّواج بأخته داينا، لكنهما لم يعيشا كزوج وزوجة قَطّ، وحال تتويجه اعتزلها».

- «كان أصلح للبلاد أن يَغلق عينيه وينكحها. أعرف ما يكفي من التاريخ لأدرك هذا. على كل حال ليس وارداً أن يحسبك أحد كـبيلور المبارك».

- «صحيح. لقد كان صاحب نفس نادرة، نفس نقيّة وشجاعة وبرينة لم تمسّها شرور العالم. أمّا أنا فأثم، ولديّ كثير أكفّر عنه».

وضع جايمي يده على كتف ابن عمّه، وقال: «ماذا تعرف عن الآثام يا ابن عمّي؟ لقد قتلت ملكي».

- «الشجاع يَقتل بالشيف، والجبان بقربة نبيذ. كلانا قاتل ملك أيها الفارس».

- «روبرت لم يكن ملكاً حقاً، بل وقد يقول بعضهم إن الوعل فريسة الأسد الطبيعيّة». كان جايمي يشغّر بالعظم البارز تحت جلد ابن عمّه... وبشيء آخر أيضاً، إذ يرتدي لانس قميضاً من الشعر تحت شترته. «ماذا فعلت غير هذا ويتطلب تكفيراً؟ أخبرني؟».

طأطأ ابن عمّه رأسه والذمّوع تجري على وجنتيه. وكانت هذه الذمّوع كلّ الإجابة التي أرادها جايمي، الذي قال: «قتلت الملك ثم نكحت الملكة».

- «لم يحدث قط...».

- «... أن نمت مع أختي الجميلة؟». قلها، قلها!

- «لم يحدث قطّ أني أفرغت منّي في... في...».

- «... فرجها؟».

- «... في رحمها. إنها ليست خيانة ما لم تُفرغ المنّي في الداخل. لقد واسيتها بعد موت الملك. كنت أنت أسيراً وأبوك في ميدان المعركة وأخوك... كانت تخشاه، ولسبب وجيه. لقد جعلني أخونها».

- «حقاً؟». لانس والسير أوزموند وكم غيرهما؟ هل قال فتى

القمر على سبيل الاستهزاء؟ هل أكرهتها؟».

- «لا! لقد أحببتها، أردت أن أحميها».

أردت أن تكون أنا. أحس بأصابعه الشَّبَحِيَّة تستحكه. يوم أئته أخته في (برج السيف الأبيض) تتوشل إليه أن يتبرأ من قَسمه—يومها ضحكت بعد أن رفض وقالت متبجحة إنها كذبت عليه ألف مرة، لكن چايمي اعتبرها محاولة رعناء لإيلامه كما ألقها. ربما كان هذا الشيء الحقيقي الوحيد الذي قالت له لي.

ناشده لانسِل قائلاً: «لا تُسنِ الظنَّ بالملكة. كل مخلوق من لحم ضعيف يا چايمي. لم يَنْتُج عن خطيئتنا أذى، لا... لا نغول».

- «نعم، نادرًا ما يَنْتُج الثُّغول عن إفراغ المني على البطن».
تساءل عفا سيقوله ابن عقه إذا اعترف له بخطاياها هو، بالخانات الثلاث التي سقتها سرسي چوفري وتومن ومارسلا.
- «كنت غاضبًا من جلالتها بعد المعركة، لكن الشيتون الأعلى قال إن عليّ أن أسامحها».

- «إذن فقد اعترفت بخطاياك لصاحب القداسة الأعلى، أليس كذلك؟».

- «لقد صُلّي معي عندما كنت جريحًا. كان رجلًا صالحًا».
إنه رجل ميت، دَقُوا له الأجراس بالفعل. تساءل إن كانت لدى ابن عقه فكرة عفا قد تُعمره كلماته. «لانسِل، أنت أحمق كبير».
قال لانسِل: «لست مخطئًا، لكني وضعت حماقتي ورائي أيها الفارس. لقد سألت (الأب في الأعلى) أن يريني الشبيل، وقد فعل. سأتحلّى عن هذه اللوردية وهذه الزوجة. هنيئًا للحجر الضلب بهما إذا أراد. غدا سأعود إلى (كينجز لاندنج) وأتعهد بسيفي للشيتون الأعلى الجديد و(الشبعة). إنني أنوي حلفان اليمين والانضمام إلى أبناء الفحارب».

علق چايمي الذي لم يفهم ما قاله الضبي: «أبناء الفحارب محظورون منذ ثلاثمئة عام».

- «السَّيِّئُونَ الْأَعْلَى الْجَدِيدِ أَحْيَاهُمْ، وَأَرْسَلَ يَسْتَدْعِي
الْفَرَسَانَ الْجَدِيرِينَ لِيَتَعَهَّدُوا بِأَنْفُسِهِمْ وَسَيُوقَهُمْ لخدمة
(الشَّيْبَةِ). جماعة الضَّعَالِيكَ ستعود ثانية أيضًا».

- «ولمَّ يَسْمَحِ الْعَرْشُ الْحَدِيدِي بِهَذَا؟». يَذْكُرُ جَايْمِي أَنَّ أَحَدَ
مُلُوكِ تَارْجَارَيْنِ الْأَوَائِلِ كَافَخَ أَعْوَامًا لَقَمَعَ الْجَمَاعَتَيْنِ
الْعَسْكَرِيَّتَيْنِ، وَإِنْ كَانَ قَدْ نَسِيَ مِنْ، مِيجُورِ رَبِّمَا، أَوْ جِهْيِرْسِ
الْأَوَّلِ. كَانَ تِيرِيُونُ لِيَعْرِفَ.

- «صَاحِبُ الْقِدَاسَةِ الْأَعْلَى كَتَبَ قَائِلًا إِنَّ الْمَلِكَ تُوْمَنَ وَافَقَ.
سَأْرِيكَ الرِّسَالَةَ إِذَا أَرَدْتَ».

- «حَتَّى إِذَا كَانَ هَذَا صَحِيحًا... أَنْتَ أَسَدٌ مِنْ أَوْلَادِ
(الضَّخْرَةِ)، لَوْرْدَا! إِنَّ لَكَ زَوْجَةً وَقَلْعَةً وَأَرَاضِي تُدَافِعُ عَنْهَا وَرِعَايَا
تَحْمِيهِمْ، وَإِذَا شَاءَتِ الْآلِهَةُ سَيَكُونُ لَكَ أَبْنَاءٌ مِنْ دَمِكَ يَخْلِفُونَكَ.
لِمَاذَا تَهْجُرُ كُلَّ هَذَا مِنْ أَجْلِ... مِنْ أَجْلِ يَمِينٍ؟».

سَأَلَهُ لَانْسَلُ: «لِمَاذَا هَجَرْتَ أَنْتَ مَا كَانَ لَكَ؟».

كَانَ جَايْمِي لِيَجِيبَ: مِنْ أَجْلِ الشَّرَفِ، مِنْ أَجْلِ الْمَجْدِ، وَلَكِنْ
لَكَانَتْ إِجَابَتُهُ كَاذِبَةً. أَيُّ نَعَمٍ لَعِبَ الشَّرَفَ وَالْمَجْدَ دَوْرًا، إِلَّا أَنْ
الْجُزْءَ الْأَكْبَرَ مِنْ حَافِزِهِ كَانَ سَرَسِي. فَزَتْ ضَحْكَةٌ مِنْ بَيْنِ
شَفَتَيْهِ، وَقَالَ: «هَلْ تَهْرَعُ إِلَى السَّيِّئُونَ الْأَعْلَى أَمْ إِلَى أُخْتِي
الْجَمِيلَةِ؟ ضَلَّ لَتَعْرِفَ الْإِجَابَةَ يَا ابْنَ عَقِي، ضَلَّ كَثِيرًا».

- «هَلَّا صَلَّيْتُ مَعِي يَا جَايْمِي؟».

تَطَلَّعَ إِلَى الْآلِهَةِ فِي جَوَائِبِ الشَّيْءِ؛ إِلَى (الْأُمِّ) الْمَلَايَ
بِالرَّحْمَةِ، وَ(الْأَبِ) الضَّارِمِ فِي حُكْمِهِ، وَ(الْمُحَارِبِ) الْمُسْتَقْرَّةَ يَدَهُ
عَلَى سَيْفِهِ، وَإِلَى (الْغَرِيبِ) وَسَطِ الظُّلَالِ، يَتَوَارَى وَجْهَهُ نِصْفَ
الْإِنْسَانِي تَحْتَ قَلَنْسُوءَةٍ مَعْطَفَةٍ. حَسِبْتُ نَفْسِي (الْمُحَارِبِ)
وَسَرَسِي (الْعِذْرَاءَ)، لَكِنَّمَا كَانَتْ (الْغَرِيبَ) طَيِّلَةَ الْوَقْتِ، تُخْفِي
وَجْهَهَا الْحَقِيقِي عَنْ بَصْرِي. قَالَ لَابْنُ عَقْمَه: «ضَلَّ مِنْ أَجْلِي إِذَا
أَرَدْتَ. لَقَدْ نَسِيتُ الْكَلِمَاتَ كُلَّهَا».

كان العصافير ما زالوا يُزقِرِفون على الدّرج عندما خرج
چايمي إلى اللّيل، فقال لهم: «أشكركم. أشعرُ بأنّي أكثر إيمانًا
بكثير الآن».

وذهب ووجد السير إلين وزوجين من الشيوخ.
ساحة القلعة مليئة بالأعين والأذان، ولتحاشيها سعيًا إلى
أيكة الآلهة. لا يوجد عصافير هناك، فقط سكينّة الأشجار
الجرداء التي تخذش فروعها السوداء السّماء، وقد افترش
الأرض بساط من أوراق ميتة سحقتها أقدامهما.

أشار چايمي بسيفه قائلاً: «هل ترى هذه النّاقذة أيها الفارس؟
كانت هذه غُرفة نوم رايمون داري، حيث نام روبرت خلال رحلة
عودتنا من (وينترفيل). لا بدّ أنّك تذكّر أنّ ابنة ند ستارك هربت
بعد أن هاجمت ذئبتها خوف. أرادت أختي أن تُقطع يد الفتاة،
العقوبة القديمة لضرب أحد ذوي الدّم الملكي، فقال لها روبرت
إنّها متوحّشة مجنونة، وقضيا نصف اللّيلة في الشّجار... أو أن
سرسي تشاجرت في حين شرب روبرت. بعد منتصف اللّيل
استدعّني الملكة إلى داخل الغُرفة، وكان الملك قد فقد وعيه
وراح يغطّ في نوم عميق على البساط المايري. سألت أختي إن
كانت تُريدني أن أحمله إلى الفراش، فقالت لي أن أحملها هي
إلى الفراش وخلعت ثوبها، وأخذتها هناك على فراش رايمون
داري بعد أن خطونا فوق روبرت. لو استيقظ جلالته لقتله في
مكانه في لحظتها، ولما كان أول ملك يموت بسيفي... لكنك
تعرف تلك القصة، أليس كذلك؟»، وضرب غصن شجرة شاطرًا
إياه نصفين، وتاب: «بينما أضاجف سرسي صاحت: أريد. ظننتها
تُريدني أنا، لكن من أرادته كان ابنة ستارك، إمّا مشوّهة وإمّا
ميتة». يا للأشياء التي أفعّلها من أجل الحب. «تصادف أن عثر
رجال ستارك على الفتاة قبلي، لكن لو عثرث عليها أولاً...».

في ضوء المشعل بدت آثار الجُدري على وجه السير إلين
كتقوب سوداء مظلمة كروح چايمي، وأصدر الرجل صوت
الظقطة إياه.

فكر چايمي لانستر: يضحك مني، وقال بحدّة: «على حدّ
علمي ربما تكون قد ضاجعت أختي أيضًا أيها الوغد المجدور.
حسن، أغلق فمك اللعين واقتلني إن استطعت».

(64). الأسود الزّواحف الاسم الذي يُطلقه الـوستروسيّون على الثّماسيح
التي تعيش في المستنقعات. (المترجم).

پریان

یرتفع الشیتری فوق جزیرة منبقة من قلب الماء على بُعد یصف میل من السّاحل، حیث یُتسع ثغر (الثّالوث) الواسع أكثر فأكثر لیقبّل (خلیج الشراطین). حتی من الشّاطئ یدو ازدهارها جلیّاً؛ منحدراتها مغطّاة بالحقول المدرّجة، وأسفلها یرك أسماك وأعلاها طاحونة هواء تدور ریشاتها المصنوعة من الخشب وقماش الأشرعة بنّطء فی نسیم الخلیج، ورأت پریان خرافاً ترعى على جانب الثّل ولقالق تخوض فی المیاء الضّحلة حول مرسى العبارة.

قال الشیتون میریبولد مشیّاً شمالاً عبر الخلیج: «(الملاحات) على الضّفة الأخرى. سیعبر بنا الإخوة غداً فی تیار الضّباح، ولو أننى متوجّس خیفَةً مما سنجدہ هناك. لنستمتع بوجبة شهیة ساخنة قبل أن نواجهه. الإخوة عندهم دائماً عظم یرستفنون عنه لكلب». مع قوله الآخر نبخّ كلب وهزّه ذیله.

كانت المیاء التي تفصل الجزیرة عن السّاحل تنحسر بسرعة مع الجزر، تاركةً مساحةً شاسعةً من الشّھول الطینیة اللّامعة التي تنتشر فیها البرك المذیة المتألّنة كفملاط من الذّهب فی شمس الأصل. حكّت پریان مؤخّرة عنقها حیث لدغتها حشرة، وكانت قد رفعت شعرها وثبّتته بدبّوبس ودقّات الشّمس بشرتها. سأل پودریك: «لماذا یسمّونها (جزیرة الهدوء)؟».

- «مَن یقطنون هنا تائبون یسعون إلى التّكفیر عن ذنوبهم عن طریق التّأمل والصّلاة والصّمت. فقط الأخ الكبير ونظّاره مسموح لهم بالكلام، والنّظار یتكلّمون یوماً واحداً فقط من كلّ سبعة».

قال پودریك: «الأخوات الضّامتات لا یتكلّمن أبداً. سمعتُ أنهن بلا السنّة».

ابْتَسَمَ الشَّيْطَانُ مِيرِيْبُولِدَ، وَقَالَ: «مَنْذُ كُنْتُ فِي سِنِّكَ أَسْمَعُ
الْأَمْهَاتِ يُخْفِنُ بَنَاتَهُنَّ بِهَذِهِ الْحِكَايَةِ، لَكِنَّا لَمْ تَمُتْ لِلْحَقِيقَةِ بِصِلَةِ
أَنْذَاكَ وَلَا تَمُتْ لَهَا بِصِلَةِ الْآنَ. نَذِرُ الضَّمَّتْ فَعَلَ الْغَرَضُ مِنْهُ
الثُّوبَةُ، تَضْحِيَةٌ تُثَبِّتُ بِهَا انْكَبَابُنَا عَلَى عِبَادَةِ (الشَّيْبَةِ فِي
الْأَعَالِي). أَنْ يَأْخُذَ الْآخَرَسُ عَلَى نَفْسِهِ نَذِرَ صَمْتٍ أَشْبَهَ بِأَنْ
يَعْتَزِلَ رَجُلٌ بِلَا سَاقَيْنِ الرُّقْصِ»، وَقَادَ حَمَارَهُ نَازِلًا بِهِ الْمُنْحَدَ،
وَأَشَارَ لَهُمْ بِأَنْ يَتَّبِعُوهُ مُسْتَطَرِّدًا: «إِذَا أَرَدْتُمْ الثُّومَ تَحْتَ سَقْفِ
الَّيْلَةِ فَعَلَيْكُمْ أَنْ تَتَرَجَّلُوا وَتَعْبُرُوا الْأَوْحَالَ مَعِيَ. نُسَمِّيهِ طَرِيقَ
الْإِيمَانِ. وَحَدَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ يَسْتَطِيعُونَ عُبُورَهُ بِأَمَانٍ، أَمَّا الْآثَمُونَ
فَتَبْتَاعُهُمُ الرِّمَالُ الْمُتَحَرِّكَةُ أَوْ يَفَرِّقُونَ عِنْدَمَا يَتَدَقَّقُ الْقُدُّ. أَمَلُ
أَنْ لَا أَحَدٌ مِنْكُمْ آثَمٌ. وَمَعَ ذَلِكَ أَنْصَحُكُمْ بِالْإِنْتِبَاهِ إِلَى مَوْطِنِ
أَقْدَامِكُمْ. امْشُوا حَيْثُ أَمْشِي فَقَطْ وَسَتَبْلُغُونَ الْجَانِبَ الْآخَرَ».

لَمْ يَكُنْ بِمَقْدُورِ بَرِيَانٍ إِلَّا تَلَحَّظَ أَنَّ طَرِيقَ الْإِيمَانِ مَعُوجٌ،
فَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الْجَزِيرَةَ تَرْتَفِعُ إِلَى شِمَالِ شَرْقِ الْبُقْعَةِ الَّتِي
تَحْرَكُوا مِنْهَا عَلَى الشَّاطِئِ، لَمْ يَتَّجِهْ الشَّيْطَانُ مِيرِيْبُولِدَ صَوْبَهَا
فِي خَطِّ مُسْتَقِيمٍ، وَبَدَلًا مِنْ هَذَا تَحْرَكَ شَرْقًا نَحْوَ مِيَاهِ الْخَلِيجِ
الْأَعْمَقِ الَّتِي تَبْرُقُ بِالْأَزْرَقِ وَالْفُضِّي مِنْ بَعِيدٍ. انْهَرَسَ الظُّمَى
الْبَيْتِيُّ اللَّيْنُ بَيْنَ أَصَابِعِ قَدَمَيْهِ، وَفِي أَثْنَاءِ سِيرِهِ كَانَ يَتَوَقَّفُ بَيْنَ
الْفِينَةِ وَالْفِينَةِ وَيَجْشُ الطَّرِيقَ أَمَامَهُ بِنُبُوتِهِ، وَقَدْ ظَلَّ كَلْبٌ
يَمْشِي فِي أَعْقَابِهِ مَتَشَمِّمًا كُلَّ صَخْرَةٍ وَصَدْفَةٍ وَكُتْلَةٍ مِنْ طَحَالِبِ
الْبَحْرِ، مَمْتَنِّغًا هَذِهِ الْمَرَّةَ عَنْ اسْتِبَاقِهِمْ أَوْ الْحِيدِ عَنِ الطَّرِيقِ.

تحرّكت بريان بحريص على الالتزام بخَطّ الآثار الذي يرسمه الكلب والحمار ورجل الذين، ووراءها يودريك ثم السير هایل. بعد أن قطعوا مئة ياردة انعطَف ميريبولد بغتةً إلى الجنوب فكادَ ظهره يُصبح إلى الشيتري مباشرةً، وقد واصلَ السير في هذا الاتجاه مئة ياردة أخرى قائداً إياهم بين بركتين مديّتين ضحلتين. دَسَّ كلب قمه في إحداهما ونَبَحَ عندما قرّضه سرطان بمخالبه، ثم اندلَع قتال قصير لكن عنيف قبل أن يعود الكلب متوتّباً وقد ابتلَّ جسمه وتلوّث بالوحل وبين فكّيه الشرطان.

نادى السير هایل من ورائهم مشيّرًا إلى الشيتري: «ألَسنا نريد الذهاب إلى هناك؟ يبدو أننا نمشي في كُلِّ اتجاهٍ ما عدا نحوه». ردَّ الشيتون ميريبولد بنبرة ملّحة: «الإيمان. آمِن وتاير واتبع وسنجد السلام الذي نسعى إليه».

من كُلِّ جهة حولهم تلتَمع الأرض المسطّحة المبتلّة المرقّشة بعشرات درجات الألوان. الظّمي بُني داكن للغاية لدرجة أنه يكاد يبدو أسود، لكن هناك زَقَعًا من الرّمْل الذهبى أيضًا، وصخورًا منتصبّة حمراء ورماديّة، وشبّاكًا من الظّحالب البحريّة السوداء والخضراء. في البرك المديّة تتحرّك اللّقالق تاركةً آثار أقدامها في كُلِّ مكان، وتجري الشراطين مسرعةً على سطوح المياه الضّحلة، بينما تُفعم الهواء روائح الملح والعفن، وتمتصُّ الأرض أقدامهم ولا تُتركها تتحرّر إلّا على مضضٍ بصوت كالفرقة المصحوبة بتنهيذة بليلة. انعطَف الشيتون ميريبولد مرّةً أخرى وأخرى وأخرى، لتمتلئ آثار قدميه بالماء ثوً أن يخطو مبتعدًا، وحين أصبحت الأرض أكثر صلابةً وبدأت ترتفع تحت أقدامهم أخيرًا كانوا قد قطعوا ميلًا ونصفًا على الأقل.

كان ثلاثة رجال في انتظارهم وهم يتسلقون الحجارة المكشرة التي تَطُوق ساحل الجزيرة، يرتدون ثياب الإخوة ذات الأكمام الواسعة والقلانس المدببة بلونيهما البني والرمادي، ومنهما اثنان يلف كلاهما وشاحا من الصوف حول نصف وجهه السفلي أيضًا، فلا يلوح منه إلا العينان. الأخ الثالث هو من تكلم منادياً: «الشيتون ميريبولد. مضى ما يقرب من عام. أهلاً بك وبرفاقك أيضًا».

هزهز كلب ذيله، ونفض ميريبولد الوحل عن قدميه قائلاً: «هل لنا في التماس كرم ضيافتكم ليلة؟».

- «نعم، بالطبع. سنتناول يخنة الشمك هذا المساء. هل ستحتاجون إلى العبارة في الصباح؟».

أجاب ميريبولد: «إن لم تكن تُثقل عليكم»، والتفت إلى رفاقه، وقال: «الأخ ناربرت من نطار الجماعة، ولذا فمسموح له بالكلام يومًا واحدًا من كل سبعة. أيها الأخ، هؤلاء القوم الطيبون ساعدوني في الطريق. السير هایل فارس همام من (المرعى)، والضبي هو يودريك پاين الذي أصبح من الغربيين منذ فترة قريبة، وهذه هي الليدي بريان المعروفة بعذراء (تارث)».

توقف الأخ ناربرت فجأة، وغمغم: «امرأة».

خلعت بريان دُبُوس شعرها ونفضته قائلة: «نعم أيها الأخ. ليست عندكم نساء هنا؟».

رد ناربرت: «ليس في الوقت الزاهن. النساء اللاتي يَزرُننا يأتيننا مريضات أو جريحات أو حوامل. لقد بارك (الشبعة) أخانا الكبير بيدين شافيتين، وعليهما تعاقي رجال كثيرون لم يستطيعوا المايسترات أنفسهم علاجهم، ونسوة كثيرات أيضًا».

- «لست مريضة أو جريحة أو حاملاً».

قال الشيتون ميريبولد: «الليدي بريان فتاة مُحاربة، تُطارِد

كلب الضيد».

لاحت الذهبشة على ناربرت، وتساءل: «حقًا؟ لأي غاية؟».

مشّت بريان مقبض (حافظ العهد) مجيبة: «نهايته».

تقرّس الناظر في ملامحها قائلاً: «إنك... قويّة بالنسبة إلى امرأة، هذا صحيح، ولكن... ربما عليّ أن آخذك إلى الأخ الكبير. لا بُدّ أنه رآكم تعبّرون الأوحال. تعالوا».

قادّهم ناربرت في ممزّ مفروش بالحصى وعبر بُستان تَفْاح إلى اسطبلٍ مطليّ بالجير الأبيض له سقف مدبّب من القش، حيث قال لهم: «يُمكنكم أن تتزكوا حيواناتكم هنا. سيحرص الأخ جيلام على إطعامها وسقائها».

أكثر من ثلاثة أرباع الاسطبل خالي. في أحد طرفيه نصف دسّة من البغال يرعاها أخ صغير متقوّس الشاقين خفّت بريان أنه جيلام، وفي الطرف الأقصى، بعيدًا تمامًا عن الحيوانات الأخرى، جواد أدهم ضخم دوى صهيله حين سمع أصواتهم ورفّس باب مربطه.

حدج السير هایل الفحل الكبير بنظرة إعجاب وهو يتناول الأخ جيلام عنان حصانه، وقال: «دابة فارهة».

تنهد الأخ ناربرت معلقًا: «(الشبعة) يرسلون لنا نَعَقًا ويرسلون لنا صِحْنا. ربما يكون فارها، لكن دريفتوود وُلِدَ في الجحيم من غير ريب. عندما حاولنا ربطه بمحراث رفس الأخ راوَنِي وكسر قصبة ساقه في موضعين. كنا نأمل أن يُحسّن الإخفاء مزاجه الأسود، ولكن... هلّا أريتهم أيها الأخ جيلام؟».

أنزَلَ الأخ جيلام قلنسوته، ليلوح من تحتها شعره الأشقر وقمّة رأسه المخلوكة وضمادة ملوّثة بالذم تحتل مكان أذنه. شهق يودريك، وسأل: «الحصان قضم أذنك؟!».

أوما جيلام برأسه إيجابًا وعادَ يُغطّي رأسه، وقال له السير هایل: «سامحني أيها الأخ، لكنني كنتُ لآخذ الآن الأخرى لو اقتربت مني حاملًا مقصًا».

لم تُعجب الذُعابة الأخ ناربرت، الذي قال: «أنت فارس يا سيدي، ودريفتوود دابة أحمال. (الحدّاد) وهب الخيل للبشر لإعانتهم على أشغالهم»، والتفت مضيقًا: «تفضّلوا معي. لا شك أن الأخ الكبير ينتظركم».

وجدوا المنحدر أشدّ ارتفاعًا مما بدا من الناحية الأخرى من الشّهل الطّينيّة، ولتسهيله رفع الإخوة سلالم خشبيّة تتعزّج يمينًا ويسارًا على جانب الثّل وبين البنايات. بعد يومٍ طويل من الجلوس فوق الشّرج صرّت بريان لفرصة فرد قدميها.

مضوا بدستة من إخوة الجماعة في طريقهم إلى أعلى، رجال يغطّون رؤوسهم بالقلانس ويرتدون البني والزّمادي رمقوهم بنظرات فضوليّة لدى مرّاهم وإن لم ينبسوا بكلمة تحيّة واحدة، أحدهم يقود بقرتين حلوبين نحو حظيرة واطئة سقفها من الثّجيل، بينما يعمل آخر على ممخضة زُبدة. على المنحدرات الأعلى رأوا ثلاثة صبيان يسوقون الأغنام، وفي مستوى أعلى من هذا مضوا بساحة دفن فيها أخ أكبر حجمًا من بريان يكدح في حفر قبر، وقد بدا بوضوح من الطّريقة التي يتحرّك بها أنه أعرج، وإذ طوّح بملء مجراف من الثّربة الحجريّة من فوق كتفه تنائر القليل على أقدامهم، وقال الأخ ناربرت مؤثّبًا: «توحّى الحذر أكثر، الثّراب كان سيّدخل قم الشّيتون ميريبولد»، فخفض حقّار القبور رأسه، ولما ذهب إليه كلب يتشمّمه أفلت مجرافه وحكّ أذنه.

قال ناربرت مفسّرًا: «إنه مبتدئ».

سأله السير هایل بينما استأنفوا صعود السّلالم الخشب: «لنّ القبر؟».

- «الأخ كليمنت، عسى (الاب) أن يَحكّم عليه بالعدل».

سأل پودريك پاين: «هل كان متقدّمًا في السّن؟».

- «إذا كنت تعدُّ الثَّامنة والأربعين تقدُّماً في السَّن، نعم، لكن ليست السَّن ما قتله، بل مات بالجروح التي أصيبت بها في (المَلَّاحات). كان قد أخذ القليل من يتعنا إلى الشوق هناك يوم هاجم الخارجون عن القانون البلدة».

سألت بريان: «كلب الضيد؟».

- «واحد آخر، لكنه يعادله توحشًا. لقد قطع لسان كليمنت المسكين عندما رفض الكلام، وقال الهُجَام إنه ليس في حاجة إليه ما دام قد أخذ على نفسه نذر الضمت. الأخ الكبير سيعرف المزيد. إنه يحتفظ بأسوأ الأخبار من الخارج لنفسه كي لا يقلق سكيئة الشيتري. كثيرون من إخوتنا جاءوا هنا للهرب من أهوال العالم وليس للإسهاب في التفكير فيها. لم يكن الأخ كليمنت الوحيد الجريح منا، فتقة جراح لا تتبدى للأعين»، وأشار الأخ ناربرت إلى يمينهم، واستطرد: «هناك كرمتنا الضيفة. العنب صغير ولائع، لكننا نصنع منه نبيذًا صالحًا للشرب، ونصنع مزرنا الخاص أيضًا، كما أن البتع وخمر الثفاح اللذين ننتجهما ذائعا الضيت».

سأله بريان: «ألم تمسكم الحرب هنا؟».

- «ليس هذه الحرب والشكر لـ (الشبعة). صلواتنا تحمينا».

أضاف الشيتون ميريبولد: «والقد والجزر أيضًا»، ونبح كلب مؤيذاً.

قمة الثل متوجة بسور من الحجارة غير المملطة يحيط بمجموعة من المباني الكبيرة؛ الطاحونة التي تصر ريشاتها مع دورانها، والمساكن التي ينام فيها الإخوة، والقاعة العائمة التي يتناولون فيها وجباتهم، بالإضافة إلى سبت خشبي للصلاة والثأمل له نوافذ من الزجاج المطلي بالزصاص، وباب مصراعه الكبيران منقوش عليهما شكلا (الأم) و(الأب)، وبرج شباعي الجوانب على قمته ممشي، ووراءه حديقة خضراوات يجتث منها إخوة أكبر سنا الحشائش.

قَادَ الْآخَ نَارِبَرْتِ الزُّوَارَ دَائِرًا حَوْلَ شَجَرَةٍ كَسْتَنَاءَ إِلَى بَابٍ خَشْبِيٍّ فِي جَانِبِ الثَّلِّ، فَتَسَاءَلَ السَّيْرَ هَائِلٍ مِنْدَهَشًا: «كَهْفٌ بِيَاب؟».

ابْتَسَمَ السَّيْتُونَ مِيرِييُولْدَ قَائِلًا: «يُسَمَّى (خُفْرَةُ الْمُتَنَشِّكِينَ). أَوَّلُ رَجُلٍ دِينَ وَجَدَ طَرِيقَهُ إِلَى هُنَا أَقَامَ فِي الدَّخْلِ وَصَنَعَ أَعَاجِيبَ دَفَعَتْ آخَرِينَ إِلَى الْإِتْيَانِ وَالانْضِمَامِ إِلَيْهِ. يَقُولُونَ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ مِنْذُ أَلْفِي عَامٍ، أَمَّا الْبَابُ فَوُضِعَ فِي زَمَنِ لَاحِقٍ».

رَبِمَا كَانَتْ (خُفْرَةُ الْمُتَنَشِّكِينَ) مَكَانًا مُظْلَمًا رَطْبًا قَبْلَ أَلْفِي عَامٍ، أَرْضُهُ مِنْ ثَرَابٍ وَتَتَرَدَّدُ فِيهِ أَصْدَاءُ تَقَاطَرِ الْمِيَاهِ، لَكِنَّهُ لَمْ يَفِدْ كَذَلِكَ، فَالْكَهْفُ الَّذِي دَخَلَتْهُ بَرِيَانٌ وَرَفَاقُهَا تَحَوَّلَ إِلَى مَعْتَكِفٍ دَافِيٍّ مَرِيحٍ، تُغَطِّيهِ الْبَسْطُ الضُّوْفُ أَرْضُهُ وَالْمَعْلُقاتُ جُدْرَانُهُ، وَتَشَعُّ فِيهِ الشُّمُوعُ الطَّوِيلَةُ ضَوْءًا يَكْفِي وَيَزِيدُ. الْأَتَاتُ غَرِيبٌ لَكِنْ بَسِيطٌ؛ طَاوِلَةٌ طَوِيلَةٌ وَدَكَّةٌ وَصَنْدُوقٌ وَعِدَّةٌ رَفُوفٌ مَلَأَى بِالْكَتَبِ وَمَقَاعِدِ، كُلُّهَا مُصْنُوعٌ مِنَ الْأَخْشَابِ الْمَجْرُوفَةِ ذَاتِ الْأَشْكَالِ الْمُتَنَافِرَةِ، وَإِنْ نُشِقَّتْ مَعًا بِبِرَاعَةٍ وَضُقِلَتْ حَتَّى صَارَتْ تَلْتَمِعُ بِلَوْنٍ زَهَبِيٍّ عَمِيقٍ فِي ضَوْءِ الشُّمُوعِ.

لَيْسَ الْآخُ الْكَبِيرُ كَمَا تَوَقَّعَتْهُ بَرِيَانٌ. بَدَائِيَّةٌ، لَا يَبْدُو مِنْ مَظْهَرِهِ أَنَّ لِقَبَ «الْكَبِيرِ» يَصْلَحُ لَهُ، فَبَيْنَمَا لِلْإِخْوَةِ الْآخَرِينَ الَّذِينَ يَنْتَزِعُونَ الْحَشَائِشَ فِي الْحَدِيقَةِ أَكْتَافَ وَظُهُورَ الرِّجَالِ الْأَكْبَرِ سِلًّا الْمَحْنِيَّةَ، يَقِفُ هُوَ مُنْتَصِبٌ الْقَامَةُ طَوِيلَهَا وَيَتَحَرَّكُ بِنَشَاطِ رَجُلٍ فِي رِيْعَانِ الشُّبَابِ، كَمَا أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِالْوَجْهِ الْحَنُونِ الطَّيِّبِ الَّذِي تَوَقَّعْتَ أَنَّ يَكُونُ لِمُعَالِجٍ، فِرَاسُهُ كَبِيرٌ مَرِيعٌ، وَعَيْنَاهُ ثَاقِبَتَانِ، وَأَنْفُهُ أَحْمَرٌ مَلِيءٌ بِالْعُرُوقِ، وَمَعَ أَنَّ قَفَّةَ رَأْسِهِ جَرْدَاءٌ فَشَعْرُهُ كَثِيفٌ كَالَّذِي يُغَطِّي فَكَّهُ الثَّقِيلَ.

فَكَّرَتْ عِذْرَاءُ (تَارْتُ): يَبْدُو أَقْرَبَ إِلَى رَجُلٍ مُخْلُوقٍ لِكَسْرِ الْعِظَامِ مِنْ تَجْبِيرِهَا.

تقدّم الأخ الكبير بخطوات واسعة ليُعائِق السّيتون ميريبولد ويُرَبِّت على كلب، ثم أعلن: «يوم سعيد دومًا عندما يُشْرِقنا صديقنا ميريبولد وكلب بزيارة أخرى»، والتفت إلى ضيوفه الآخرين قائلاً: «والوجوه الجديدة مرّحّب بها دائماً، إننا نرى القليل منها».

أدّى ميريبولد المجاملات المعتادة ثم جلس على الدّكّة. على عكس ناربرت لم يبذ الأخ الكبير منزعجًا من جنس بريان، لكن ابتسامته تذبذبت وخفّت حين أخبره السّيتون بسبب مجيئها والسير هائل، ولم يرّد إلّا بـ«مفهوم»، قبل أن يلتفت قائلاً: «لا يذّ أنكم ظمآنون. تفضّلوا، اشربوا القليل من خمر تفّاحنا المحلّة لتفسلوا حلوقكم من غبار الطّريق». صبّ لهم بنفسه في أكواب من الخشب المجروف لا يتشابه منها اثنان، ولما أثنت عليها بريان قال لها: «سيّدتي شديدة اللّطف. لا نفعل أكثر من تقطيع الخشب وتلميعه. إننا في نعمة هنا. حيث يلتقي النّهر بالخليج تتصارع التّيّارات فتدفع إلينا أشياء غريبةً عجيبَةً كثيرةً نجدها على شواطئنا. الخشب المجروف أقلّها. لقد وجدنا كؤوسًا من الفضة وأوعية من الحديد وأجولة من الصّوف ولفافات من الحرير وخوذات صدئة وسيوفًا لامعة... أجل، وعثرنا على ياقوت أيضًا».

أثار هذا اهتمام السير هائل، فسأل: «ياقوت ريجار؟». - «ربما. من يدري؟ المعركة دارت على بُعد فراسخ عديدة من هنا، لكن النّهر صبور لا يتعب. عثرنا على ستّ حباتٍ وننتظر الشّابعة».

عقب السّيتون ميريبولد وهو يفرّك قدمه ليتقشّر الطّين تحت أصابعه: «الياقوت أفضل من العظام. ليست كلّ هدايا النّهر تسرّ. الإخوة الكرام ينتشلون الموتى من الماء أيضًا؛ الأبقار والغزلان الغارقة، والخنازير الميتة التي تنتفخ فتبلّغ يُصف حجم الحصان، أجل، والجثث البشريّة أيضًا».

تنهّد الأخ الكبير قائلاً: «جُمْتُ كثيرة هذه الأيام. حقّار القبور لا يعرف الرّاحة. رجال من أراضي النّهر ومن الغرب ومن الشّمال، كلّهم تجرفهم المياه إلينا، الفرسان والخدم على حدّ سواء. ندفنهم جنباً إلى جنب، ستارك ولانستر، بلاكوود وبراكّن، فراي وداري. هذا هو الواجب الذي يطلّبه النّهر منا لقاء هداياه، وتؤدّيه بأفضل ما نستطيع. لكننا نجد امرأةً أحياناً... أو أسوأ، طفلاً صغيراً. تلك أقسى الهدايا طرّاً». والتفت إلى الشّيتون ميريبولد، وقال: «أمل أن لديك الوقت لإبرائنا من خطايانا. منذ قتل المُغيرون الشّيتون بينيت العجوز لم يأتنا أحد لسماع اعترافاتنا».

قال ميريبولد: «سأجد وقتاً، وإن كنت أمل أن ذنوبكم هذه المرّة أفضل من آخر مرّة زرتكم فيها». نبّح كلب، فأردف: «أترى؟ لقد أصابت كلب نفسه بالمل».

لاخت الحيرة على يودريك يابن، الذي قال: «ظننت أن لا أحد يستطيع الكلام. ليس لا أحد، وإنما الإخوة، الإخوة الآخرون وليس أنت».

أجابته الأخ الكبير: «مسموح لنا بالخروج عن الضمت عند الاعتراف. من العسير الكلام عن الخطايا بالإشارات والإيماءات».

سأله هايل هنت: «هل أحرقوا الشّيت في (الملاحات)؟».

اِخْتَفَت اِبْتِسَامَةُ الرَّجُلِ، وَقَالَ: «أَحْزَقُوا كُلَّ شَيْءٍ فِي (المَلَّاحَاتِ) بِاسْتِعْنَاءِ الْقَلْعَةِ. الْفَرْقُ أَنَّهَا مَبْنِيَّةٌ مِنَ الْحَجَر... وَلَوْ أَنَّهَا لَمْ تَنْفَعِ الْبَلَدَةَ فِي شَيْءٍ كَأَنَّهَا مَبْنِيَّةٌ مِنَ الْوَرَقِ. وَقَعَ عَلَى عَاتِقِي أَنْ أَعَالِجَ بَعْضَ الثَّاجِينَ الَّذِينَ جَلِبَهُمُ الصَّيَّادُونَ إِلَيَّ عَبْرَ الْخَلِيجِ بَعْدَ أَنْ هَمَزَتِ النَّارُ وَوَجَدُوا الرِّسَّو آمِنًا. ثَمَّةُ امْرَأَةٍ بَائِسَةٍ اغْتَضَبُوهَا مَرَارًا، وَثَدِيهَا... سَيِّدَتِي، إِنَّكَ تَرْتَدِينَ دُرُوعَ الرِّجَالِ، فَلَنْ أَعْفِيكَ مِنْ ذِكْرِ هَذِهِ الْأَهْوَالِ... ثَدِيهَا مُزْقًا وَنُهْشًا وَأَكِلًا أَكَلًا، كَأَنَّ مِنْ فَعَلٍ بِهَا هَذَا... وَحَشَّ كَاسِرٌ. فَعَلْتُ مَا اسْتَطَعْتُ مِنْ أَجْلِهَا مَعَ أَنَّهُ قَلِيلٌ، وَبَيْنَمَا تَلْفِظُ آخِرَ أَنْفَاسِهَا لَمْ تَصُبَّ أَسْوَأَ لَعْنَاتِهَا عَلَى مَنْ اغْتَضَبُوهَا أَوْ عَلَى الْوَحْشِ الَّذِي اتَّهَمَ لَحْمَهَا الْحَيَّ، بَلْ عَلَى السَّيْرِ كُوَيْنَسِيِّ كَوَكْسِ الَّذِي أَوْصَدَ أَبْوَابَهُ عِنْدَمَا دَخَلَ الْخَارِجُونَ عَنِ الْقَانُونِ الْبَلَدَةَ، وَجَلَسَ فِي الْأَمَانِ وَرَاءَ أَسْوَارِهِ الْحَجَرِيَّةِ فِي حِينَ صَرَخَ قَوْمُهُ وَمَاتُوا».

قَالَ الشَّيْتُونَ مِيرِيْبُولْدُ بَرْفَقُ: «السَّيْرِ كُوَيْنَسِيِّ رَجُلٌ عَجُوزٌ، أَبْنَاؤُهُ وَزَوْجَا ابْنَتَيْهِ الْوَحِيدَتَيْنِ بَعِيدُونَ أَوْ مَوْتَى، وَأَحْفَادُهُ مَا زَالُوا صَغَارًا. مَاذَا كَانَ لِيَفْعَلَ وَهُوَ رَجُلٌ وَاحِدٌ ضِدَّ كَثِيرِينَ؟».

فَكَّرَتْ بَرِيَانُ: كَانَ يُمَكِّنُهُ أَنْ يُحَاوِلَ، أَنْ يَمُوتَ. عَجُوزًا كَانَ أَمْ شَائِئًا، الْفَارِسُ الْحَقِيقِيُّ يُقْسِمُ عَلَى حِمَايَةِ مَنْ هُمْ أَوْعَفُ مِنْهُ، أَوْ يَمُوتَ وَهُوَ يُحَاوِلُ.

قَالَ الْإِخُ الْكَبِيرُ لِلشَّيْتُونَ مِيرِيْبُولْدُ: «كَلَامٌ صَحِيحٌ وَحَكِيمٌ. لَا شَكَّ أَنَّ السَّيْرِ كُوَيْنَسِيِّ سَيَسْأَلُكَ الْمَغْفِرَةَ عِنْدَمَا تُعْبَرُ إِلَى (المَلَّاحَاتِ). يَسْأَلُنِي أَنْكَ هُنَا لِإِعْطَائِهِ إِيَّاهَا، فَأَنَا لَمْ أُسْتَطِعْ»، وَوَضَعَ كُوبَ الْخَشَبِ الْمَجْرُوفِ، وَنَهَضَ مُسْتَطَرِّدًا: «جَرَسَ الْعِشَاءُ سَيَذُقُّ قَرِيبًا. أَيُّهَا الْأَصْدِقَاءُ، هَلَّا أَتَيْتُمْ مَعِيَ إِلَى الشَّيْتِ لِتُصَلِّيَ لِأَرْوَاحِ أَهْلِ (المَلَّاحَاتِ) الطَّيِّبِينَ قَبْلَ أَنْ نَجْلِسَ وَنَتَقَاسَمَ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ؟».

أَجَابَ مِيرِيْبُولْدُ: «يَسْأَلُنَا هَذَا»، وَنَبَحَ كَلْبٌ.

كان غشاؤهم في الشيتري أغرب وجبة شهذتها بريان في حياتها، وإن لم تكن سيئة على الإطلاق. الطعام تقليدي غير أنه شهي للغاية؛ أرغفة من الخبز الساخن، وأنية من الزبدة الطازجة، وعسل من خلايا نحل الشيتري، ويخنة غنية بالسراطين وبلح البحر وثلاثة أنواع على الأقل من السمك. شرب الشيتون ميريبولد والسير هایل البتع الذي يصنعه الإخوة وأعلن أنه ممتاز، في حين قنعت هي ويودريك بالمزيد من خمر الثفاح الخلوة. ولم تكن الوجبة كثيفة كذلك، إذ ردّد ميريبولد صلاة قبل تقديم الطعام، وبينما أكل الإخوة الجالسون إلى الموائد الطويلة الأربع عزف لهم أحدهم على القيثارة الشامية مالًا القاعة بالأنغام الهادئة العذبة، ولما أذن الأخ الكبير للمغني في تناول وجبته تبادل الأخ ناربرت وناظر آخر القراءة من (النجمة الشباعية).

مع ختام القراءة كانت الأطباق قد رفعها المبتدئون المكلفون بالخدمة، أكثرهم صبية في سنّ يودريك أو أصغر، لكن هناك رجالًا بالغين أيضًا، منهم حفار القبور الكبير الذي صاتفوه بينما يصعدون الثّل وله تلك المشية الخرقاء المتمايلة كأنه نصف مشلول. لدى فروغ القاعة طلب الأخ الكبير من ناربرت أن يري يودريك والسير هایل سريريهما في المساكن، وقال لهما: «أمل أنكما لا ثمانعان في اقتسام خجيرة واحدة. ليست واسعة، لكنكما ستجدانها مريحة».

قال يودريك: «أريد البقاء مع الفارس، أعني سيديتي». ردّد الأخ ناربرت: «ما تفعله أنت والليدي بريان في الخارج بينكما وبين (الشبعة)، لكن على (جزيرة الهدوء) لا ينام رجل وامرأة تحت سقف واحد ما لم يكونا متزوّجين».

قال الأخ الكبير: «عندنا بعض الأكواخ المتواضعة المخصصة للنساء اللاتي يَؤرننا، سواء أكن نبيلات أم قرويات. إنها لا تُستخدم كثيرًا، لكننا نحافظ على نظافتها وجفافها. ليدي بريان، هل تسمحين لي بأن أريك الطريق؟».

- «نعم، شكرًا. يودريك، اذهب مع السير هایل. إننا ضيوف الإخوة المؤمنين، وتحت سقفهم تسري قواعدهم».

تقع أكواخ النساء في الجانب الشرقي من الجزيرة، وتطل على مساحة شاسعة من الأوحال ومياه (خليج السراطين) البعيدة. المكان أكثر برودة ووعورة هنا من الجانب الآخر المحجوب، والثّل أكثر تحدّزًا، والطريق يتعزّج بين الحشائش والنباتات البريّة والضُخور التي نحتتها الزّيح والأشجار الشائكة الملثوية المتعلّقة بعناب بجانب الثّل. حمل الأخ الكبير مصباحًا ليضيء طريقهم إلى أسفل، وعند أحد المنعطفات توقّف قائلاً: «في الليالي الضّافية يمكنك أن تري أنوار (الملاحات) من هنا، عبر الخليج، هناك»، وأشار إلى البقعة التي يعنيها.

قالت بريان: «ليس هناك شيء».

- «لم يتبقّ إلّا القلعة. الضّيادون أنفسهم رحلوا، القلائل المحظوظون الذين كانوا في الماء عندما أتى المغيرون وشاهدوا بيوتهم تحترق وسمعوا الصّرخ والبكاء يتردّدان عبر الميناء خائفين من الرّسو بقواربهم، وحين رسوا أخيرًا ذهبوا لدفن أهاليهم وأصدقائهم. ما الذي تبقى لهم في (الملاحات) إلّا العظام والذكريات المريّة؟ لقد نزحوا إلى (بركة العذارى) أو بلدات أخرى»، وأشار الأخ الكبير بمصباحه وواصل الثّزول قائلاً: «لم تكن (الملاحات) من المواني المهمّة قطّ، لكن الشفن اعتادت الرّسو هناك بين الحين والآخر. هذا ما أرادّه المغيرون، كانوا يبحثون عن قاديس أو كوج يحملهم عبر (البحر الضيّق)، وعندما لم يجدوا واحدًا أفرغوا غضبهم ويأسهم في أهل البلدة. إنني أتساءل يا سيّدتى... علام تأملين أن تعثري هناك؟».

أجابته: «فتاة، بنت رفيعة النسب في الثالثة عشرة، لها وجه جميل وشعر كستنائي».

بخفوت قال الرجل: «سانزا ستارك. هل تعتقدين أن تلك المسكينة مع كلب الضيد؟».

- «الدورني قال إنها كانت في طريقها إلى (ريقرزن). تيميون، كان مرتزقًا من رفقة الشجعان، قاتلاً ومغتصبًا كذابًا، لكني لا أظن أنه كذب بشأن هذا. قال إن كلب الضيد اختطفها وقَرَّبها».

- «مفهوم». انعطف الطريق مرّة أخرى وإذا بالأكواخ أمامهما. الأخ الكبير ذكّر أنها متواضعة، وهي كذلك بالفعل، إذ تبدو كأنها خلايا نحل مبنية من الحجارة. قال مشيرًا إلى أقربها: «هنا»، وهو الكوخ الوحيد الذي يتصاعد الدخان من فتحة التهوية في منتصف سقفه. اضطرت بريان إلى طأطأة رأسها حين دخلت كي لا يصطدم رأسها بالعارضة، وفي الداخل وجدت أرضية من الثربة وسريزًا من القش وأغطية من الفرو وحوض ماء وإبريقًا من خمر الثّقاح والقليل من الخبز والجبنَة وبؤرة نار صغيرة. بالإضافة إلى مقعدين صغيرين جلس الأخ الكبير على أحدهما ووضع المصباح قائلاً: «هل تسمحين بأن أبقى قليلًا؟ أشعر أن علينا أن نتكلم».

قالت بريان: «إذا أردت»، وخلعت حزام سيفها وعلّقه على المقعد الثاني، ثم جلست مربعة ساقيها على الشرير.

قال الأخ الكبير: «ذلك الدورني لم يكذب، لكني أخشى أنك لم تفهميه. إنك تُطاردين الذئبة الخطأ يا سيّدتِي. إدّارد ستارك كانت له بنتان، والأخرى هي من قَرَّبها كلب الضيد، الصغيرة».

حملت إليه بريان مذهولة بفم مفغور، ثم قالت: «آريا ستارك؟ أنت واثق؟ أخت الليدي سانزا حيّة؟».

- «آنذاك، أمّا الآن... فلا أدري. ربما كانت بين الأطفال الذين قُتلوا في (الملاحات)».

أَحْسَتْ بِكَلَامِهِ كَسْغَيْنِ فِي بَطْنِهَا. لَا، لَا، سَتَكُونُ هَذِهِ قَسْوَةً لَا تُطَاقُ. «رَبِّمَا... بِمَعْنَى أَنَّكَ لَسْتَ وَاثِقًا؟».

- «مَا أَتَقُّ بِهِ أَنَّ الْفَتَاةَ كَانَتْ مَعَ سَانْدُورِ كَلِيَجَايْنِ فِي الْخَانِ عِنْدَ مَفْتَرَقِ الطَّرِيقِ، ذَلِكَ الَّذِي كَانَتْ صَاحِبَتَهُ الْعَجُوزُ مَا شَا هَيْلَ قَبْلَ أَنْ يَشْنُقَهَا الْأَسْوَدُ، وَوَاثِقُ بَأَنَّهُمَا كَانَا فِي طَرِيقَهُمَا إِلَى (الْمَلْأَحَاتِ)، لَكِنْ بَعْدَهَا... لَا، لَا أَدْرِي أَيْنَ هِيَ أَوْ إِنْ كَانَتْ حَيَّةً حَتَّى. عَلَى أَنَّ هُنَاكَ شَيْئًا وَاحِدًا أَعْرِفُهُ... الرَّجُلُ الَّذِي تُطَارِدِينَهُ مَاتَ».

صَدَمَهَا هَذَا أَيْضًا، وَتَسَاءَلَتْ: «كَيْفَ مَاتَ؟».

- «كَمَا عَاشَ، بِالشَّيْفِ».

- «أَتَعْرِفُ هَذَا يَقِينًا؟».

- «دفنته بنفسي. يُمكنني أن أخبرك بموضع قبره إذا أردت. لقد غطيته بالحجارة لئلا ينبش أكلة الجيف جثمانه ووضعت خوذته فوق كومة الركام لأعلم متواه الأخير. كان هذا خطأ فادحاً، إذ عثر مُسافر آخر على علامتي وأخذها لنفسه. الرّجل الذي اغتصب وقُتل في (الملاحات) لم يكن ساندور كليجاين، ولو أنه لا يقلّ خطورة. أراضي النّهر ملأى بأمثاله من حيوانات الجيف. لن أدعوهم بالذئاب، فالذئاب أنبل من هذا... والكلاب كذلك على ما أظن. لا أعرف إلا القليل عن هذا الرّجل ساندور كليجاين. كان حارس الأمير جوفري الشّخصي لعدّة سنوات، وحتى هنا كنا نسمع بأفعاله خيرها وشرّها. إذا كان نصف ما سمعناه فقط صحيحاً فقد كان صاحب روح مريرة معذّبة، رجلاً آثماً يسخر من الآلهة والبشر على حدّ سواء. لقد خدم لكنه لم يجد فخراً في خدمته، وقاتل لكنه لم يعرف بهجة النّصر، وشرب ليُغرق ألمه في بحر من التّبيذ. لم يُحبّ أو يُحبّ، دافعه الوحيد الكراهية، وارتكب خطايا عديدة لكنه لم يسع إلى الغفران، وفي حين حلم غيره بالحبّ أو الثّراء أو المجد كان هذا الرّجل ساندور كليجاين يحلم بقتل أخيه، خطيئة شنيعة يجعلني مجرّد الكلام عنها أرتجف، لكنها كانت الرّاد الذي تغدّي به والوقود الذي أبقي ناره مشتعلة. على الرغم من خلّوه من الثّبل كان أمل رؤية دماء أخيه على سيفه كلّ ما عاش هذا المخلوق الحزين الغاضب من أجله... وحتى ذلك لم ينله عندما طعن الأمير أوبرين الدورني السير جريجور بحربة مسمومة». قالت بريان: «تكلّم كأنك تُشفق عليه».

- «أشفقت عليه بالفعل، وكنت لشوقي عليه أيضًا لو أنك رأيته في النهاية. لقد وجدته عند (الثالوث) وقد اجتذبتني إليه ضراخ ألمه، وتوشل إلي أن أعطيه هدية الزحمة، لكني مقسم على عدم القتل ثانية، وبدلاً من ذلك غسلت جبهته المثقدة بماء النهر وأعطيته نبيذًا يشربه وكقادة لجرحه، لكن جهودي كانت أقل من اللازم وفات أوانها. كلب الصيد مات هناك بين ذراعي. ربما رأيت فحلًا أسود كبيرًا في الاسطبل. كان هذا جواده الحربي سترينجر. اسم فيه تجديف على الآلهة. نُقِصَل أن نُسقيهِ دريفتوود بما أننا وجدناه عند النهر كالخشب المجروف. أخشى أن له طبيعة سيّده السابق».

الحصان. لقد رآته وسمفته يرقس، لكنها لم تفهم. خيول الحرب مدربة على الزفس والعص، وفي المعارك تعدّ سلاحًا كالزجال الذين يمتطونها. مثل كلب الصيد. قالت بقنوط: «الأمر صحيح إذن، ساندور كليجاين مات».

قال الأخ الكبير: «لقد استراخ»، وصمت لحظة قبل أن يردف: «أنت صغيرة يا بنيتي. لقد أحصيـث أربعة وأربعين يوم ميلاد... أي أنني أفوقك سنًا مـزتين على ما أظن. هل سيدهشك أن تعلمي أنني كنت فارشا ذات يوم؟».

- «لا، إنك تبدو أقرب إلى فارس من رجل دين». يبوح بهذا صدره وكتفاه وفكه المرثع السميك. «لماذا تخلّيت عن الفروسيّة؟».

- «لم أختَرها قَطُّ. أبي كان فارسًا، وكذا أبوه من قبله، وجميع إخوتي. تدرِّبُث على المعارك منذ يوم قَرَرُوا أنني كبير بما فيه الكفاية لأن أحمل سيفًا خشبيًا، وقد رأيتُ نصيبي منها ولم أكلل نفسي بالعار. كانت لي نساء أيضًا، وفي هذا كلُّتُ نفسي بالعار، لأنني أخذتُ بعضهن قسْرًا. كانت هناك فتاة أردتُ أن أتزوَّجها، ابنة صُغرى لأحد اللوردات الصغار، لكنني كنتُ ابن أبي الثالث ولم أملك أرضًا أو ثروة أقدمها لها... فقط سيفي وحصاني وثرسي. إجمالًا كنتُ رجلًا حزينًا، عندما لا أقاتل أسكن، حياتي مسطورة بالأحمر، بالدم والثَّبيذ».

سألته بريان: «ومتى تغيَّرت؟».

«حين مِتْ في معركة (الثالوث). كنتُ أقاتلُ في سبيل الأمير ريجار، ولو أنه لم يعرف اسمي قَط. لا أستطيعُ إخبارك بسببِ إلّا أن اللورد الذي خدمته خدم لورد يخدم لورد قَرّر تأييد التّين بدلًا من الوعل، ولو قَرّر العكس لكنتُ على الجانب الآخر من النّهر. كانت المعركة داميةً. أغاني المطربين تُريدنا أن نُصدّق أنها كانت كلّها بين ريجار وروبرت المتصارعين في الغدير من أجل المرأة التي يدّعي كلاهما محبّته لها، لكني أوكدُ لك أن رجالًا غيرهما قاتلوا أيضًا، وكنتُ منهم. أصبتُ بسهم في الفخذ وبآخر في القدم، وقُتِلَ حصاني تحتي لكني واصلتُ القتال. ما زلتُ أذكر لهفتي على العثور على حصانٍ آخر، فلم أكن أملك مالًا لشراء واحد، ودون حصانٍ لا أعودُ فارسًا. هذا هو الشّيء الوحيد الذي جالَ ببالي في الحقيقة، ولم أزل الضّربة التي أسقطتني. سمعتُ حوافر وراء ظهري وفكرتُ: حصان! لكن قبل أن ألفت ارتطم شيء برأسي وأسقطني في النّهر، حيث كان يُفترض أن أغرق، وبدلًا من ذلك أفقتُ لأجد نفسي على (جزيرة الهدوء). قال لي الأخ الكبير إن القَد جرفني إليهم عاريًا كيوم مولدي، ولا أستطيعُ أن أتصوّر إلّا أن أحدًا وجدني في المياه الضّحلة فجردني من درعي وخذائي وسراويلي قبل أن يدفعني إلى المياه الأعماق، ولذا أحسب أن من الملائم أنني بدأت حياتي الثّانية بالطريقة ذاتها. بعدها أمضيث الأعوام العشرة الثّالية في صمت».

قالت بريان: «مفهوم». لا تدري لِمَ يحكي لها كلّ هذا أو إن كان هناك شيء آخر يُمكنها أن تردّ به.

- «حقاً؟»، ومال الأخ الكبير واضعاً يديه الكبيرتين على رُكبتيه، وتابِع: «إذا كان هذا صحيحاً فدعك من مهفتك هذه. كلب الضيد مات، وعلى كلِّ حالٍ لم تكن سائزاً ستارك معه من الأصل. وبالنسبة إلى الوحش الذي يعتمر خوذته فسيقع ويُشَنَّق. الحروب تكاد تضع أوزارها، وهؤلاء الخارجون عن القانون لن يستطيعوا العيش في زمن السلام. راندل تارلي يَلاحِقهم من (بركة العذارى)، ووالدر فراي من (الثوأميتين)، وثقمة لورد شاب جديد في (داري)، رجل ورع مؤكَّد أنه سيُعيد الأمور إلى نصابها السليم في أراضيه. عودي إلى ديارك يا بنيّتي. إن لك دياراً، وهذا أكثر مما يستطيع كثيرون أن يقولوا في هذه الأيام السوداء. ثم إن لك أباً نبيلًا لا ريب أنه يحبك. فكُري في حزنه إذا لم ترجعي إليه. ربما يأخذون إليه سيفك وثرسك بعد سقوطك، بل وربما يُعلِّقهما في بهوه ويتطلَّع إليهما بفخر... لكن إذا سألتَه فإنني أعلم أنه سيقول لك إنه يُؤثر أن تكون معه ابنته الحيّة لا ثُرسها المحظَّم».

أغرورقت عينا بريان بالذموع، وقالت: «ابنته. هذا ما يستحقه، ابنة تُعْثِي له وتُنْشُر البهجة في بهوه وتحمل له أحفاده. ويستحق ابناً أيضاً، ابناً قوياً شهفاً يَكْرُم اسمه. جالادون غرق حين كان في الثامنة وكنت في الرابعة، وأليسين وآريان مائتا في المهد. أنا الولد الوحيد الذي سمحت له الآلهة بالبقاء، المسخ الذي لا يصلح لأن يكون ابناً أو ابنة». لحظتها انصبت كل شيء من بين شفتي بريان وتدفق كالدم الأسود من جرح الخيانات والخطبات، رونيت الأحمر وورده، اللورد رنلي يرقص معها، الزهان على بتولتها، الذموع المريرة التي ذرفت لها ليلة تزوج مليكها مارجري تايرل، الالتحام الجماعي في (جسر العلقم)، معطف قوس قزح الذي تاهت به فخزا، الظل في شراذق الملك، موت رنلي بين ذراعيها، (ريقرزن) والليدي كاتلين، الرحلة في (الثالوث)، مبارزة جايمي في الغابة، الممثلون الشفاحون، جايمي يصيح: صفير، جايمي في الحوض في (هارنهال) والبخار يتصاعد من جسده، مذاق دم فارجو هوت حين قضمت أذنه، جثث الذب، وثبة جايمي إلى الزمال، الرحلة الطويلة إلى (كينجز لاندنج)، سائرا ستارك، العهد الذي أخذته على نفسها لجايمي، العهد الذي أخذته على نفسها لليدي كاتلين، (حافظ العهد)، (وادي الغسق) و(بركة العذارى)، ديك الرشييق و(الرأس المتصدع) و(قلعة الهمس)، الرجال الذين قتلتهم...

أنهت كلامها قائلة: «يجب أن أعتز عليها. ثقة آخرون يبحثون عنها، وكلهم يسعى إلى القبض عليها وبيع الملكة إياها. يجب أن أعتز عليها أولاً كما وعدت جايمي. لقد سقى الشيف (حافظ العهد). يجب أن أحاول أن أنقذها... أو أموت وأنا أحاول».

- «ألف سفينة!». كان شعر الملكة الصغيرة منفوشاً أشعث، وجعل ضوء المشاعل وجنتاها تبدو أن متورّدتين كأنها أثت لتوها من حزن رجل. «جلالة الملكة، يجب الرّد عليهم بغنف!». رئت كلمتها الأخيرة على عوارض الشقف وترّد صداها في قاعة العرش الفسيحة.

جالسة على مقعدها الذهبى والقرمزي العالى عند قاعدة العرش الحديدى، أحشت سرسى بالشّد يزداد في غنقها، وفكرت: يجب. تتجرّأ وتقول لي يجب. كم تتوق إلى صفع ابنة تايرل على وجهها. حريّ بها أن تكون على زكبتها تتوشل منى العون، وبدلاً من ذلك تقلّ حياءها وتخير ملكتها الشرعية بما عليها أن تفعله.

قال السير هاريس سويفت لاهتًا: «ألف سفينة؟ مؤكّد أن هناك خطأ. ليس في البلاد لورد يملك ألف سفينة». أئده أورتون ميريويزر قائلاً: «أحمق مرعوب ما أحصى ضعف العدد، أو أن حقلة راية اللورد تايرل يكذبون علينا ويهؤلون أعداد العدو كي لا نحسبهم متهاونين».

يُلقي ضوء المشاعل المثبتة على الجدار الخلفي ظل العرش
الحديدي الطويل الشائك حتى منتصف المسافة إلى الباب، بينما
يغيب طرف القاعة البعيد في الظلام، ولا تشغل سرسي إلا
بالظلال كأنها تنغلق عليها أيضًا. أعدائي في كل مكان
وأصدقائي معدومو الفائدة. ما عليها إلا أن تلقي نظرة على
مستشاريها لتعلم هذا. وحدهما اللورد كايبرن وأوران ووترز
يبدوان مستيقظين، في حين يقف الآخرون مشوشين مرتبكين
بعد أن دق زسل مارجري أبوابهم وأيقظوهم من النوم. في
الخارج الليل أسود ساكن، والمدينة والقلعة نائمتان، وهنا يبدو
بوروس بلاونت ومربن ترانت نائمين أيضًا ولكن على أقدامهما،
وحتى أوزموند كلبلاك يتنأب. لكن ليس لوراس، ليس فارس
الزهور. كان واقفًا وراء أخته الصغيرة، ظل شاحب يستريح
على وركه سيف طويل.

رد أوران ووترز على أورتون ميريويدر قائلاً: «نصف عدد
السفن ما زال يعني أنها خمسمئة يا سيدي. فقط (الكرمة) تملك
قوة كافية في البحر لمواجهة أسطول بهذا الحجم».

سأله السير هاريس: «وماذا عن الدرمونات الجديدة؟ سفن
الحديديين الطويلة لا يمكن أن تصمد أمام درموناتنا بالتأكيد.
(مطرقة الملك روبرت) أقوى سفينة حربية في (وستروس)
بأسرها».

قال ووترز: «كانت كذلك. (الجميلة سرسي) ستكون نظيرتها حالما تكتمل، و(اللورد تايوين) سيكون حجمها ضعف الاثنتين. لكن نصف السفن فقط جاهز، ولا واحدة منها طاقمها كامل، وحتى عندئذ ستظل الأعداد ضدنا إلى حد كبير. السفينة الطويلة التقليدية صغيرة الحجم مقارنة بقوادسنا، هذا صحيح، لكن الحديديين لديهم سفن أكبر أيضًا. (الكراكن العظيم) سفينة اللورد بالون وسفن الأسطول الحديدي الحربية مبنية للمعارك لا الغارات، وتضاهي قوادسنا الأقل شأنًا في السرعة والقوة، وأكثرها أطقمه وربابنته أفضل. الحديدئون يقضون حياتهم كلها في البحر».

كان على روبرت أن يُظهر (جزر الحديد) بعدما تمرّد بالون جراجوي عليه. لقد حطّم أسطولهم وأحرق بلداتهم واقتحم قلعته، لكن بعد أن أركفهم سمح لهم بالتهوؤ من جديد. كان عليه أن يصنع جزيرة أخرى من جماجمهم. هذا ما كان أبوها ليفعله، لكن روبرت لم يتمتع قط بالإرادة التي يفترض أن يملكها الملوك ليحفظ السلام في البلاد. قالت: «الحديدئون لم يجسروا على الإغارة على (المرعى) منذ كان داجون جراجوي جالسًا على كرسي حجر اليم. لماذا يفعلون هذا الآن؟ ما الذي شجّعهم؟».

قال كايرن الواقف مخبئًا يديه داخل كُفيه: «ملكهم الجديد، أخو اللورد بالون الملقّب بعين الغراب».

قال المايستر الأكبر پايسل: «غربان الجيف ثقيم ولائمها من لحم الموتى والمحتضرين ولا تُهاجم الحيوانات السليمة المعافاة. نعم، سيُتخّم اللورد يورون معدته بالذهب والغنائم، لكن حالما نتحرّك ضده سيرجع إلى پايك كديدن اللورد داجون في عصره».

قالت مارجري تايرل: «أنت مخطئ. المغيرون لا يهاجمون بكل هذه القوة. ألف سفينة! اللورد هيويت واللورد تشستر قُتلا، وكذا ابن اللورد سيري ووريته. سيري نفسه قُرَّ إلى (هايجاردن) بما تبقى له من سفن، واللورد جريم سجين في قلعته. ويلاس يقول إن الملك الحديدي نَصَب أربعة لوردات جُددًا من رجاله بدلًا منهم».

ويلاس، العاجز. هو الملووم على هذا. ذلك الأبله مايس تايرل ترك الدفاع عن (المرعى) بين يدي ابنه الثعس الضعيف. «الرحلة من (جزر الحديد) إلى (الثروس) طويلة. كيف قطعت ألف سفينة كل تلك المسافة دون أن يراها أحد؟».

أجابت مارجري: «ويلاس يعتقد أنهم لم يتحرّكوا بمحاذاة الساحل، بل ابتعدوا عن اليابسة وتوغّلوا في (بحر الغروب)، ثم عادوا وانقضّوا من الغرب».

الأرجح أن العاجز لم يضع رجالًا في أبراج الحراسة، والآن يخشى أن نعلم هذا. الملكة الصغيرة تختلق الأعذار لأخيها. أحسّت سرسي بجفاف فمها، فقالت لنفسها: أريد كأسًا من نبيذ (الكرمة) الذهبي. إذا كانت خطوة الحديديين التالية أن يأخذوا (الكرمة) فربما يُصيب العطش البلاد كلها عفا قريب. «قد تكون لستانيس يد في هذا. بالون جرايچوي عرض على أبي جلقا، وربما عرض أخوه واحدًا على ستانيس».

قَظَب يايسل جبينه متسائلًا: «وما الذي يجنيه اللورد ستانيس من...».

- «يجني موطئًا آخر لقدمه، وهناك الغنائم أيضًا. ستانيس يحتاج إلى الذهب لينقذ مرتزقته أجورهم، وبالإغارة على الغرب يأمل أن يصرف انتباهنا عن (دراجونستون) و(ستورمز إند)». أوما اللورد ميريويدر برأسه، وقال: «تشتيت انتباه. ستانيس أمكر مما حسبنا. ذكاء من جلالتك أن تستشفي حيلته».

قال پايسل: «اللورد ستانيس يُكافح لكسب الشماليين إلى صفوقه، وإذا صادق الحديدئين فلا أمل له...».

قاططته سرسي متسائلة كيف يُمكن لرجلٍ عليمٍ مثله أن يكون بهذا الغباء: «الشماليون لن يقبلوه. اللورد ماندرلي قطع رأس فارس البصل ويديه كما أكد لنا آل فراي، وثقة نصف ستة من اللوردات الشماليين الآخرين الذين انضموا إلى اللورد بولتون. عدوٌ عدوي صديقي. إلى من إذن يلجأ ستانيس إلا أعداء الشمال من الحديدئين والهمج؟ لكن إذا كان يحسب أنني سأقع في الفخ فهو أكثر منك حُمقًا»، وعادت تلتفت إلى الملكة الصغيرة قائلة: «(جزر الثروس) تنتمي إلى (المرعى). جريم وسيري والبقية مقسمون على الولاء لـ (هايجاردن)، وعلى (هايجاردن) أن تردّ على هذا العدوان».

قالت مارجري تايرل: «(هايجاردن) سترث. ويلاس أرسل خبرًا إلى لايتون هايتاور في (البلدة القديمة) ليحرص على تشديد دفاعاته، وجارلان يحشد الرجال لاسترداد الجزر، لكن الجزء الأكبر من قوّتنا مع أبي. يجب أن نبعث له برسالة في (ستورمز إند) على الفور».

- «ونرفع الحصار؟». لا تروق سرسي وقاحة مارجري. تقول لي على الفور: هل تحسبني وصيقتها؟ «لا شكّ لديّ في أن اللورد ستانيس سيُسّر لهذا. ألم تُصغي يا سيّدتني؟ إذا نجح في صرف انتباهنا عن (دراجونستون) و(ستورمز إند) إلى تلك الضخور...».

شهقت مارجري، وقالت: «صخور؟ هل قالت صاحبة الجلالة إنها صخور؟».

وضع فارس الزهور يده على كتف أخته قائلاً: «بعد إذن جلالتك، من تلك الضخور المزعومة يَهْدَد الحديدُيون (الكرمة) و(البلدة القديمة)، فمن معاقل (الثروس) يستطيع المُغيرون الإبحار في (المائدر) إلى قلب (المرعى) ذاته كما اعتادوا قديماً، وبعدي كاف من الرّجال بإمكانهم تهديد (هايجاردن) نفسها».

قالت الملكة بمنتهى البراءة: «حقاً؟ إذن على أخويك الشّجاعين طردهم من على تلك الضخور، وسريعاً».

قال السير لوراس: «كيف تقترح الملكة أن يفعل ذلك بلا سفن كافية؟ ويلاس وجارلان يقدران على حشد عشرة آلاف رجل في غضون أسبوعين، وضعف هذا العدد خلال دورة قمر، لكنهم لا يستطيعون المشي على الماء يا صاحبة الجلالة».

ذكرته سرسي قائلةً: «(هايجاردن) تستقرّ أعلى (المائدر). أنتم وأتباعكم تملكون ألف فرسخٍ من السّاحل. أليس هناك صيادون؟ ألا توجد قوارب نزهة أو عتارات أو قوادس نهريّة أو زوارق؟».

أجاب السير لوراس: «هناك الكثير».

- «إذن فمن المفترض أن يكفي هذا لحمل جيش عبر مساحة صغيرة من المياه في رأيي».

- «وعندما تنقُض السفن الطويلة على أسطولنا البائس بينما يقطع تلك «المساحة الصغيرة من المياه»، فما الذي نريدنا صاحبة الجلالة أن نفعله عندها؟».

/اغرقوا/. «(هايجاردن) تملك الذهب أيضًا. لكم إذن في استئجار قراصنة من وراء (البحر الضيق)».

رَدّ لوراس باحتقار: «تعين قراصنة من (مير) و(ليس)؟ خُتالة القُدن الخُزّة؟».

وقح كأخته. قالت بعذوبة سامّة: «من المؤسف أن علينا جميعاً التّعامل مع الخُتالة بين الحين والآخر. هل لديك فكرة أفضل؟».

- «وحدها (الكرمة) تملك السفن الكافية لاستعادة مصب (المندر) من الحديديين وحماية أخوي من سفنهم الطويلة خلال العبور. أتوسل إلى جلالتك أن ترسلني إلى (دراجونستون) وتأمري اللورد ردواين بالإبحار في الحال».

على الأقل يتمتع بعقل كاف لأن يتوسل. يملك باكستر ردواين منتي سفينة حربية وخمسة أضعافها من القراقير وأكواج الثبيذ والقوادم التجارية وسفن صيد الحيتان، على أن ردواين مخيم عند أسوار (دراجونستون)، والجزء الأكبر من أسطوله مشغول بنقل الرجال عبر (الخليج الأسود) من أجل الهجوم على معقل الجزيرة، والبقية تجوب (خليج السفن الفارقة) إلى الجنوب، حيث يحول وجودها وحده دون إمداد (ستورمز إند) بالمؤن من البحر.

قال أوران ووتيز متميزًا غيظًا من اقتراح السير لوراس: «إذا أبحرت سفن اللورد ردواين فكيف ننقل المؤن إلى رجالنا في (دراجونستون)؟ دون قوادم (الكرمة) كيف نستمر في حصار (ستورمز إند)؟».

- «يُمكن استئناف الحصار لاحقًا بعد...».

قاطفته سوسي: «(ستورمز إند) أعلى قيمة مئة مئة من (الثروس)، و(دراجونستون)... ما دامت (دراجونستون) في يدي ستانيس باراثيون فستبقى سيقًا مصلًا على رقبة ابني. سنسمح للورد ردواين وأسطوله بالإبحار عند سقوط القلعة»، ونهضت الملكة قائلة: «هذا الاجتماع انتهى. أيها المايستر الأكبر يايسل، أريد كلمة معك».

جفل العجوز كأن صوتها أيقظه بخلم ما من شبابه، لكن قبل أن يقوم تقدّم لوراس تايرل بخطى سريعة لدرجة أن الملكة تراجعت مذعورة، وكانت على وشك أن تصيح في السير أوزموند أن يدافع عنها عندما جثا فارس الزهور على زكبه أمامها قائلاً: «جلالة الملكة، اسمحي لي بالاستيلاء على (دراجونستون)».

ارتفعت يد أخته إلى فمها، وقالت: «لوراس، لا». تجاهل السير لوراس مناشدتها، وتابع: «تجوبع (دراجونستون) حتى تخضع سيستغرق نصف عام كما ينوي اللورد ياكستر أن يفعل. كلّفيني بالقيادة يا صاحبة الجلالة. ستكون القلعة ملكك خلال أسبوعين ولو اضطررت إلى أن أهدمها بيدي».

لا أحد أعطى سرسي هدية بهذه الحلاوة منذ هرغت إليها سائزا ستارك لثفّصح لها عن خطط اللورد إدارد، فقالت وقد سرّتها رؤية وجه مارجري الذي أمتقع: «شجاعتك تحبس أنفاسي يا سير لوراس. لورد ووترز، هل أيّ الذرمونات الجديدة صالح للإبحار؟».

- «(الجميلة سرسي) يا جلالة الملكة. إنها سفينة سريعة، وقويّة مثل سميتها الملكة».

- «رائع. فلتحمل (الجميلة سرسي) فارس الزهور إلى (دراجونستون) على الفور. سير لوراس، القيادة لك. عدني بأنك لن ترجع قبل أن تكون (دراجونستون) لتومن».

رَدّ: «سأفعلها يا جلالة الملكة»، ونهَضَ.

لثقت سرسي على كلتا وجنتيه، ولثقت أخته أيضًا وهمست لها: «إن لك أخًا بأسلاً»، ولكن إمّا أن مارجري لم تجد الكياسة لتردّ وإمّا أن الخوف سلبها القدرة على الكلام.

كانت ساعات عدّة لا تزال تفصلهم عن الفجر عندما خرجت
سرسی من باب الملك وراء العرش الحديدي، يتقدّمها السير
أوزموند بمشعل ويمشي كايبرن إلى جوارها، في حين جدّ
يايسل الشير ليلحق بهم، وقال لاهثًا: «بعد إذن صاحبة الجلالة،
الشُّبَّان يُبالِغون في جراءة تهم ولا يَفْكَرون أبدًا إلّا في أمجاد
المعركة وليس في أخطارها. السير لوراس... خطّته هذه
محفوفة بالمخاطر. مجرّد الهجوم على أسوار
(دراجونستون)...».

- «... شجاعة بالغة».

- «... شجاعة، نعم، ولكن...».

- «لست أشك في أن فارس الزهور سيكون أول رجل يبلغ
الشرفات». وربما أول من يسقط. الثغل المجدور الذي تركه
ستانيس للدفاع عن قلعته ليس بطل مباريات غريبًا وإنما قاتل
مخضرم، وإن شاءت الآلهة فسيُعطي السير لوراس النهاية
المجيدة التي يبدو أنه يُريدها. بفرض أن الفتى لن يفرق في
الطريق. ليلة البارحة هبت عاصفة أخرى عاتية، وانهمز المطر
الأسود مدرّازًا طيلة ساعات. أولن يكون ذلك محزنًا؟ الفرق
نهاية تقليدية. السير لوراس يشتهي المجد كما يشتهي الرجال
الحقيقيون النساء، وأقل ما تستطيع الآلهة فعله أن تمنحه ميتة
تليق بالأغاني.

لكن مهما حدث للفتى في (دراجونستون) فالملكة الفائزة. إذا
أخذ لوراس القلعة فتلك ضربة موجعة لستانيس ويستطيع
أسطول ردواين الإبحار لمواجهة الحديديين، وإذا أخفق
فستحرص على أن يتحقّل نصيب الأسد من اللوم. لا شيء يُفقد
البطل بريقه كالفشل. وإذا عات محمولًا على ثرسه مغطى بالدم
والمجد فسيكون السير أوزني موجودًا لمواساة أخته في
فجيعتها.

لم تُعد سرسي قادرةً على كتمان الضحكة، ومن بين شفتيها تفجرت لتتردد على جدران الزواق.

حذق المايستر الأكبر پايسل إليها بفم مرتخ، وسألها: «جلالة الملكة، لماذا... لماذا تضحكين؟».

أجابَت مضطربةً: «كي لا أبكي. إن قلبي يتفجر حبًا للسير لوراس وإقدامه».

تركت المايستر الأكبر على السلالمة الملتفة مفكرةً بحسم: لم يُعد لهذا الرجل نفع البتة. يبدو أن پايسل لا يفعل شيئًا في الفترة الأخيرة إلا ابتلاءها بالتحذير والاعتراض، حتى إنه اعترض على التفاهم الذي توصلت إليه مع الشيتون الأعلى، محملًا إليها بعينين منطفئتين دامتيتين حين أمزته بإعداد الأوراق الضرورية ومثرثًا عن التاريخ الشحيق، إلى أن بتزت سرسي كلامه قائلةً بحزم: «عهد الملك ميجور انتهى وكذلك مراسيمه. الآن عهد الملك تومن وعهدي». كان الأفضل لي أن أتركه يضحك في الزنازين السوداء.

قال اللورد كايرن وهم يعبرون فوق الخندق الجاف الذي يَطوَّق (حصن ميجور): «إذا سقط السير لوراس فستحتاج صاحبة الجلالة إلى فارس آخر جدير بالكرس الملكي».

أيدته قائلةً: «يجب أن يكون أحدًا فائقًا، أحدًا شابًا وسريًا وقويًا ينسي تومن السير لوراس تمامًا. لا بأس بشيء من البسالة، لكن يجب ألا يمتلئ عقله بالأفكار الحمقاء. هل تعرف رجلًا كهذا؟».

أجاب كايرن: «للأسف لا، لكنني أفكر في نصير من نوع آخر. ما يفتقر إليه من البسالة سيرده عشرة أضعاف بالإخلاص. سيحمي ابنك ويقتل أعداءك ويحفظ أسرارك، وما من رجل حي يستطيع الضمود أمامه».

- «هذا ما تقوله أنت. الكلام هواء. في الوقت المناسب
يُمكنك الإقصاد عن رجلك المثالي هذا وسنرى إن كان كما
وعدت».

تلاًلاً الاستمتاع في عيني اللورد كايرن وهو يقول: «سيُفُتُون
عنه، أقسم لك. هل لي أن أسأل عن الذرع؟».

- «طلبث ما أخبرتني به. صانع السلاح يحسبني مجنونة،
يؤكد لي أن لا رجل بالقوة الكافية للحركة والقتال بكل هذا
المعدن الثقيل»، ورمقت سرسي المايستر منزوع السلسلة،
وأردفت: «حاول أن تخدعني وستموت صارخاً. لا بُد أنك تعي
ذلك».

- «دائماً يا جلالة الملكة».

- «عظيم. لا تقل المزيد في هذا الضدد».

- «الملكة حكيمة. هذه الجدران لها أذان».

- «صحيح». أحياناً في الليل تسمع سرسي أصواتاً خافتة،

حتى في مسكنها ذاته، فتقول لنفسها: إنها فئران داخل الجدران
لا أكثر.

إلى جوار فراشها وجدت شمعةً مشتعلةً، لكن نار المستوقد
انطفأت ولا ضوء آخر، ثم إن الغرفة باردة أيضاً. خلعت سرسي
فستانها تاركةً إياه يتكؤم على الأرض ودخلت تحت الأغطية،
وعلى الجانب الآخر من الفراش تحرّكت تاينا وغمغمت بنعومة:
«جلالة الملكة، ما الساعة؟».

- «ساعة البومة».

على الرغم من أن سرسي تنام غالباً بمفردها فإنها لم تحب هذا قَط. أقدم ذكرياتها عن اقتسام الفراش مع چايمي حين كان كلاهما صغيراً للغاية ولا أحد يستطيع التمييز بينهما، ولاحقاً بعد الفصل بينهما عرقت سلسلة من وصيفات الفراش والرُفِيقَات، أكثرهن فتيات من سيئها، بنات قُرسان بيت أبيها وحقة رايته، لكن ولا واحدة منهن أرضتها، وقليلات بقين مدةً طويلةً. غادرات صغيرات جميعهن، مخلوقات باكية مضجرة لا تكف عن حكاية القصص ومحاولة الحيلولة بيني وبين چايمي. ومع ذلك مرّت عليها ليالٍ في أعماق (الضخرة) السوداء كانت لثَرَجِب فيها بدفنهن إلى جوارها. الفراش الخالي فراش بارد.

لا سيّما هنا. هذه الغرفة باردة، وزوجها الملوكي المأفون مات تحت هذه المظلة تحديداً. روبرت باراثيون الأول، عسى ألا يأتي ثاني أبداً. رجل بليد سكّير غاشم. فليترّد بُكاؤُه في دركات الجحيم. تاينا تُدقّ الفراش أفضل من روبرت كثيراً، ولا تُحاول أبداً أن تفتح ساقي سرسي بالإكراه، وفي الفترة الأخيرة تُشارك الملكة فراشها أكثر من زوجها اللورد ميريويدر، ولا يبدو أن أورتون يمانع... أو يمانع لكنه أعقل من أن يبوح بهذا.

- «قلقْتُ حين استيقظتُ ولم أجِدكِ»، غمغمت الليدي ميريويدر وهي تعتدل جالسةً وتستند إلى الوسائد، وقد تشابكت الأغطية حول خصرها. «هل من خطبٍ ما؟».

أجابت سرسي: «لا، كلُّ شيءٍ على ما يرام. غداً سيُبحر السير لوراس إلى (دراجونستون) ليظفر بالقلعة ويُطلق أسطول ردواين ويُنهب رجولته لنا جميعاً». حكّت للمايريّة كلُّ ما جرى في ظلّ العرش الحديدي المتقلقل، ثم قالت: «من دون أخيها الشجاع ملكتنا الصغيرة تكاد تكون عاريةً. إن معها خُرَاسها بالتأكيد، لكنني أرسلُ قائدهم هنا وهناك في أنحاء القلعة. إنه رجل ثرثار على شترته الطويلة سنجاب، والسناجب تفرُّ من الأسود. ليس باستطاعته تحذّي العرش الحديدي».

قالت الليدي ميريويدر محدّرة: «مارجري حولها رجال مسلّحون آخرون. لقد كوّنت صداقات كثيرة في البلاط، وهي وبنات عمومته الصغيرات لهن معجبون جميعاً».

ردّت سرسي: «لا يَقلِّقني قليلون من خاطبي الود، أمّا الجيش المعسكر عند (ستورمز إند)...».

- «ماذا تنوين أن تفعل يا جلالة الملكة؟».

وجدت سرسي السؤال مباشراً على نحو لا يروقها، فقالت: «لماذا تسألين؟ أمل أنك لا تُفكرين في إطلاع ملكتنا الصغيرة المسكينة على تأملاتي الفارغة».

- «مستحيل. أنا لست تلك الفتاة سينل».

لا ترغب سرسي في التفكير في سينل. لقد رأت فضلي بالخيانة. سانزا ستارك فعلت المثل، ومن قبلها ميلارا هينرسيون وجاين فارمان الشمينة في صباهن. لم أكن لأدخل تلك الخيمة إطلاقاً لولاهما، لم أكن لأسمح لماجي الضفدعة بتذوّق غدي في قطرة من الدّم. «سأحزن كثيراً إذا خُنت ثقتي يا تايانا. لن أجد خياراً إلا إعطاء اللورد كايبرن إيالك، لكنني أعلم أنني سأبكي».

- «لن أعطيك سبباً للبكاء أبداً يا جلالة الملكة، وإذا فعلت فما عليك إلا أن تقولي وسأسلم نفسي إلى كايبرن. أريد فقط أن أكون قريبة منك، أن أخدمك بأي وسيلة تطلبين».

- «وما المكافأة التي تتوقعينها لقاء هذه الخدمة؟».

قالت تايانا: «لا شيء. يُسعدني فقط أن أسعدك»، واعتدلت على جانبها وبشرتها الزيتونية تلتمع في ضوء الشمعة. ثدياها أكبر من ثديي الملكة وثلثاهما حلمتان سوداوان كبيرتان. إنها أصغر مني، وثدياها لم يبدأ في الارتخاء بعد. تساءلت سرسي كيف ستشعر إذا قبّلت امرأة أخرى، ليس بخفة على الوجنة على سبيل الكياسة كما تفعل بنات الأعيان، وإنما على الشفتين مباشرة، وشفتا تايانا ممتلئتان للغاية. تساءلت عن شعورها إذا مضت هاتين الحلمتين، إذا مدّدت المايرية على ظهرها وفتحت ساقها واستعملتها استعمال الرجل للمرأة، استعمال روبرت لها حين كان يسكر دون أن تستطيع إزاحته من فوقها بيديها أو بفمها.

كانت تلك أسوأ الليالي طرًا، عندما تتمدد تحته عاجزة بينما يقضي وطره منها وقد فاحت منه رائحة اللبذ وراخ يخور كالخنازير البرية. عادةً كان يتدحرج من فوقها ويغيب في النوم ما إن يفرغ ويتعالى غطيطة قبل أن تجفّ نطفته على فخذيها، وبعدها كانت تشعر بالألم دافقًا، تتوجّع بين ساقها ويتوجّع ثدياها من هرسه إياهما. المرة الوحيدة التي جعلها تبتل كانت ليلة زفافهما.

في بداية زواجهما كان روبرت وسيقًا كفايةً، طويل القامة قويًا متين البنيان، لكن شعره أسود غزير، كثيف على صدره وخشن حول عاتقه. أحيانًا عندما يلجها كانت الملكة تفكر: الرجل الخطأ عاد من معركة (الثالوث). في السنوات القليلة الأولى، وقت أن اعتاد أن يعتليها أكثر، كانت تغلق عينيها وتظاهر بأنه ريجار، إذ لم تستطع التظاهر بأنه جايمي لأنه كان مختلفًا للغاية وغير مألوف، وحتى رائحته ذاتها خطأ.

بالنسبة إلى روبرت لم تحدث تلك الليالي قط. مع مجيء الصباح لم يكن يتذكر شيئًا، أو هكذا أرائها أن تعتقد. ذات مرة في عام زواجهما الأول أعربت سرسي عن استيائها في الصباح التالي، وقالت شاكية: «لقد ألمتني»، فلاح عليه الخجل، وبنبرة عابسة واجمة قال: «لم يكن هذا أنا يا سيديتي، بل الثبيذ. إنني أشرب الكثير من الثبيذ»، كأنه طفل ضيَّط يسرق كعكات الثُّفاح من المطبخ. وليزدرد روبرت اعترافه مَدَّ يده إلى قرن المزر، وإذا رفعه إلى فمه حطمت قرننها هي على وجهه بقوة كسرت قطعة من إحدى أسنانه، وبعد سنوات في أثناء مأدبة سمفته يقول لخدمة إنه كسر سنه في التحام جماعي، فقالت لنفسها: لم يكذب. زواجنا كان كالقتال في التحام جماعي.

على أن البقية كلها أكاذيب. إنها مقتنعة بأنه كان يذكر ما يفعله بها ليلاً. كانت ترى هذا في عينيه، لكن الأسهل أن يدعي النسيان من أن يواجه خزيه. في أعماقه كان روبرت باراثيون جبانًا. مع الوقت قلت هجماته عليها، فخلال العام الأول تعود أن يأخذها مرة كل أسبوعين على الأقل، وقرب النهاية لم يقد يأخذها ولو مرة في العام، لكنه لم يتوقف تمامًا، وعاجلاً أم آجلاً كانت تأتي دائماً ليلة يُسرف فيها في الشرب ويرغب في ممارسة حقوقه. ما كَلَّه بالعار في نور النهار منحّه المُتعة تحت جُبح الظلام.

قالت تاينا ميريويدز: «جلالة الملكة، على وجهك نظرة غريبة. هل أنت بخير؟».

أجابت شاعرةً بالجفاف في حلقها: «كنت فقط... أتذكر. أنت صديقة طيبة يا تاينا. لم أحظ بصديقة طيبة منذ...».

قاطعتها دقات قوية على الباب.

ثانية؟ جعلها إلحاح الدُّقَات ترتجف. هل حاجتنا ألف سفينة أخرى؟ ارتدت معطف نوم وذهبت ترى من الطارق، فوجدته حارساً قال لها: «اغفري لي إزعاجك يا جلالة الملكة، لكن الليدي ستوكوورت في الأسفل تطلب لقاءك».

قالت سرسي بحدة: «في هذه الساعة؟ هل فقدت فاليس عقلها؟ قل لها إنني خلدت إلى النوم، قل لها إن أهل (الثروس) يذبحون، قل لها إنني أمضيث نصف الليل مستيقظة. سأراها غداً».

رَدَّ الحارس بتردد: «يعد إذن جلالتك، إنها... إنها ليست في حالة جيدة، إذا كنت تفهمين ما أعنيه».

عقدت سرسي حاجبيها. لقد افترضت أن فاليس هنا لتخبرها بأن برون مات. قالت: «ليكن. علي أن أرتدي ثيابي. خذها إلى غرفتي الشمسية واجعلها تنتظر». عندما بدأت الليدي ميريويدر تنهض لتذهب معها منعتها الملكة قائلة: «لا، ابقِي. على واحدة منا على الأقل أن تظفر بالقليل من الراحة. لن أتأخر».

وجدت وجه الليدي فاليس مكدوماً متورماً وعينيها محمرّتين من الدُموع، وشفتها السفلي مشقوقة وثيابها متسخة ممزقة، فقالت سرسي إذ أشارت لها بدخول غرفتها الشمسية وأغلقت الباب: «بحق الآلهة، ماذا حدث لوجهك؟».

لم يبدُ على فاليس أنها سمعت السؤال، وقالت بصوت راجف: «قتله! زحماك يا أمنا، لقد... لقد...»، وانهارت باكية وجسدها كله يرتعد.

صبت سرسي كأساً من النبيذ وأخذتها إلى المرأة الباكية قائلة: «اشربي هذا، النبيذ سيهدئك. نعم، اشربي أكثر. كُفي عن البكاء وأخبريني ماذا تفعلين هنا».

تطلب الأمر بقية الإبريق كي تستطيع سرسي أخيرًا استخلاص الحكاية الحزينة من الليدي فاليس، وبعد أن عرفت أنها لم تدرك هل تضحك أم تتور. ردت: «نزال فردي». أما من أحد في (الممالك السبع) يُمكنني الاعتماد عليه؟ أنا الوحيدة في (وستروس) التي تملك شيئًا من العقل؟ «تقولين لي إن السير بالمان تحدي برون في نزال فردي؟!».

- «قال إن المسألة ستكون ببسيطة، قال إن الزُمح سلاح الفُارس، وإن ببرون ليس فارسًا حقيقيًا. بالمان قال إنه سيُسقطه من فوق حصانه ويُجهز عليه وهو مذمذمذ هول على الأرض».

برون ليس فارسًا حقيقيًا، هذا صحيح. برون قاتل عركته المعارك. زوجك القميص كتب شهادة وفاته بنفسه. «خطة رائعة. هل لي أن أعلم كيف فشلت؟».

- «ببرون غرس زُمحه في صدر ححصان بالمان المسكين. بالمان... انسحقت ساقاه عندما سقط الحصان فوقه. كان ضراخه يُثير الشفقة...».

كانت سرسي لتقول: المرتزقة لا يعرفون الشفقة. «طلب منك أن تُرتبًا لحادثة صيد. سهم طائش، سقطة من فوق حصان، خنزير برّي غاضب... الوسائل عدّة لموت رجلٍ ما في الغابة، لكن ولا واحدة منها تتضمن الزُمح!».

بدا على فاليس أنها لن تسمعها إذ واصلت: «لما حاولت أن أهرع إلى بالمان ضربني برون في... في... في وجهي! لقد جعل زوجي يعترف. بالمان كان يصرخ سائلًا المايستر فرنكن أن يأتي ويُعالجه، لكن المرتزق... لقد... لقد... لقد...».

- «يعترف؟». لا تُعجب سرسي هذه الكلمة. «مؤكد أن السير بالمان الشجاع صار لسانه».

- «برون غرس خنجرًا في عينه وقال لي إن عليّ أن أغادر (ستوكوورث) قبل مغيب الشمس وإلا أصابني المثل، قال إنه سيذوّرنني على الحاحاحامية إذا أراذني أيّ من رجاله. عندما أمرت بالقبض على برون قال أحد قُرسائه بوقاحة إن عليّ أن أفعل ما يقوله اللورد ستوكوورث. دعاه باللورد ستوكوورث!»، وأطبقت الليدي فاليس على يد الملكة متابعَةً: «يجب أن تُعطيني قُرسائًا يا جلالة الملكة، منة فارس! وزُماة أيضًا لاستعادة القلعة. (ستوكوورث) لي! إنهم لم يسمحوا لي بجمع ملابسي حتى! قال برون إنها ملابس زوجته الآن، كلّ ملابسي الححرير والمخمل».

أسمالك أقلّ مشكلاتك الآن. سحبت الملكة أصابعها من قبضة المرأة الأخرى الرطبة، وقالت: «طلبث منكما أن تُخيدا شمعة للمساعدة على حماية الملك، وبدلًا من هذا سكبتما عليها جرّة من الثار الشعواء. هل ذكر الأحمق بالمان اسمي؟ قولي لي إنه لم يفعل».

لعت فاليس شفتيها قائلة: «كان... كان يتألم، ساقاه انكسرتا. برون قال إنه سيتعامل معه برحمة، ولكن... ماذا سيحدث لأأمي المسكينة؟».

أظنّ أنها ستموت. «ماذا تحسبين؟». ربما مائت الليدي تاندا بالفعل، فبرون لا يبدو من الرجال الذين يبذلون جهدًا في رعاية امرأة عجوز مكسورة الورك.

- «يجب أن تُساعديني. أين أذهب؟ ماذا أفعل؟».

كأدت سرسي تقول: ربما يُمكنك أن تتزوَّجني فتى القمر، إنه أقرب في التهريج إلى زوجك الزاحل. لا تستطيع المجازفة بحرب على أعتاب (كينجز لاندنج) الآن. هكذا قالت: «الأخوات الضامات يُرْحَبن بالأرامل دوماً. إن حياتهن حياة هادئة، حياة من الصَّلاة والثَّأْمُل والأعمال الصَّالحة، ويمنحن الأحياء المواساة والموتى السَّلام». ولا يتكلَّمُن. لا يُمكنها أن تتزك المرأة تجوب (الممالك الشَّبع) ناشرة الحكايات الخطرة.

إلا أن فاليس صفت أذنيها عن كلمة العقل، وقالت: «كلُّ ما فعلناه فعلناه في خدمة جلالتك. نفخر بإخلاصنا. لقد قلت...».

قاطعتها سرسي: «أذكر»، وأجبرت نفسها على الابتسام مردفة: «ستبقين هنا معنا يا سيِّدتي إلى أن يحين الوقت ونستطيع استرداد قلعتك. دعيني أصبُّ لك كأس نبيذ أخرى، سيِّعينك على الثَّوم. أنت متعبة وسقيمة القلب، هذا واضح. عزيزتي المسكينة فاليس. نعم، اشربي».

بينما عملت ضيفتها على الإبريق ذهبت سرسي إلى الباب ونادت وصيفتيها. قالت لدوركاس أن تجد لها اللورد كايبرن وتأتي به في الحال، وأرسلت جوسلين سويفت إلى المطابخ قائلة: «أحضري خُبْزًا وجبنةً وفطيرة لحم وبعض الثَّفَّاح، ونبيذًا أيضًا. إننا ظمآنان».

وصل كايبرن قبل الطَّعام، وكانت فاليس قد تجرَّعت ثلاث كؤوس أخرى حينئذ وبدأ رأسها يميل على صدرها، وإن ظلت تنقبه من حينٍ إلى آخر وتنتحب. انتحلت الملكة بكايبرن جانبًا وأخبرته بحماقة بالمان، ثم إنها قالت: «لا يُمكنني أن أترك فاليس تنشر الحكايات في المدينة. لقد أفقدها الحزن صوابها. أما زلت محتاجًا إلى امرأة من أجل... عملك؟».

- «نعم يا جلالة الملكة. محرَّكات الذُّمى اسئنزفن تماها».

- «خُذها إذن وافعل بها ما شئت، لكن ما إن تنزل إلى

الرُّنازين السُّوداء... هل عليَّ أن أقول المزيد؟».

- «لا يا صاحبة الجلالة، مفهوم».

ردّت الملكة: «عظيم»، وعادت ترسم الابتسامة على وجهها قائلة: «عزيزتي فاليس، المايستر كايبرن هنا. سيساعدك على الراحة».

قالت فاليس بإبهام: «أوه، أوه، جيد».

حين انغلق الباب وراءهما صبت سرسي لنفسها كأسًا أخرى، وقالت: «إنني محاطة بالأعداء والبله». لا تستطيع حتى الثقة بلحمها ودمها، ولا بجايمي الذي كان يصفها الآخر. كان يُفترض أن يكون سيفي وثرسي، ذراعي اليمين القويّة. لماذا يصرّ على مضايقتي؟

برون ليس أكثر من مصدر إزعاج محدود حقًا. إنها لم تعتقد قط أنه يؤوي العفريت، ثم إن أخاها الصغير الشانه أذكى من أن يسمح للوليس بإطلاق اسمه على نفلها المأفون عالقًا أن ذلك سيحتلب عليها غضبة الملكة بكل تأكيد. الليدي ميريويدر أشارت إلى هذا وكانت محقّة. من شبه الأكيد أن الإهانة من صنع المرتزق نفسه، وتستطيع سرسي أن تتخيّله يشاهد ابن زوجته المتفضّن المتورّد يرضع من أحد ضرعي لوليس الممتلئين وفي يده كأس من الثّبيذ وعلى وجهه ابتسامة صفيقة. ابتسم كما تشاء أيها السير برون، فقريبًا ستصرخ. استمتع بزوجتك البلهاء وقلعتك المسروقة بينما تستطيع. عندما يحين الوقت سأسحقك كأنك ثّبابة. ربما عليها أن تُرسل لوراس تايرل ليسحقه إذا عادَ بوسيلة ما حيًا من (دراجونستون). كم سيكون هذا لذيذًا. إذا شاءت الآلهة سيقتل كلاهما الآخر على غرار السير أريك والسير إريك. وبالنسبة إلى (ستوكوورث)... لا، لقد سنقت التفكير في (ستوكوورث).

كانت تاينا قد عادت تغيب في النوم حين رجعت الملكة إلى الغرفة ورأسها يدور. نبيذ كثير جدًا ونوم قليل جدًا. ليس كل ليلة تستيقظ موتين على أخبار مزعجة كهذه. على الأقل إيقاظي ممكن. كان شكر روبرت ليمنعه من التهوض، ناهيك بالحكم، ولوقع على كاهل جون آرن أن يتعامل مع كل هذا. يسرّها أن تعتقد أنها ملك أفضل من روبرت.

بدأت السماء خارج الثافة ثنير بالفعل، وجلست سرسي على الفراش إلى جوار الليدي ميريويدر مصفية إلى أنفاسها الهادئة تشاهد ثدييها يرتفعان وينخفضان. هل تحلم بـ(مير) أم بحبيبها ذي الثدبة، الرجل الخطر فاحم الشعر الذي لا يقبل الرّفص؟ إنها واثقة تمامًا بأن تاينا لا تحلم باللورد أورتون.

وضعت سرسي يدها على ثدي المرأة الأخرى، بنعومة في البداية، تكاد لا تلمسه، تشغّر بدفنه تحت كفها وبجلده الأملس كالساتان، ثم إنها اعتصرتة برفق ثم حرّكت أنملة إبهامها بخفة على الحلمة الذاكنة الكبيرة، جيئةً وذهابًا وحيئةً وذهابًا إلى أن شعرت بها تنتصب، ولما رفعت عينيها وجدت عيني تاينا مفتوحتين، فسألتها: «هل يعجبك هذا؟».

أجابّت الليدي ميريويدر: «نعم».

- «وهذا؟»، وقرّصت سرسي الحلمة جاذبة إياها بشدة ولاوية إياها بين أصابعها.

أطلقت المايترية شهقة ألم، وقالت: «إنك تؤلميني».

قالت: «إنه الثبيذ فحسب. شريث إبريقًا على العشاء وآخر مع الأرملة ستوكوورث. كان يجب أن أشرب لأهدئها». ولوت حلمة تاينا الأخرى وشدتها إلى أن شهقت، فأضافت: «أنا الملكة، وأريد أن أمارس حقوقي».

- «افعلي ما تشائين». شعر تاينا أسود كشعر روبرت، حتى بين ساقيهما، وعندما مشتها هناك وجدت الشعر مبللاً تماماً بينما كان شعر روبرت خشناً جافاً. قالت المايروية: «أرجوك استمري يا مولاتي، افعلي ما تشائين بي، أنا ملكك».

ولكن ما فعلته كان بلا جدوى. أيّا كان ما شعر به روبرت في الليالي التي أخذها فيها لم تشعر به هي، لم تجد متعة... أمّا تاينا فوجدت. حلمتها ماستان سوداوان، وفرجها زلق ساخن. كان روبرت ليحبك... لمدة ساعة. وضعت الملكة إصبعها في المستنقع المايروي، ثم آخر، وحزكتها إلى الداخل والخارج متابعة في سريرتها: لكن حالما يفرغ لذته في داخلك كان ليتذكر اسمك بصعوبة.

أرادت أن ترى إن كان الأمر سهلاً مع امرأة مثلما كان دوماً مع روبرت، وفكرت واحة إصبعها ثالثاً في (مير): عشرة آلاف من أطفالك ماتوا في كفي يا جلالة الملك. بينما تغط في النوم كنت ألعق أطفالك من على وجهي وأصابعي واحداً تلو الآخر، كل أولئك الأمراء الشاحبين اللزجين. أخذت حقوقك يا سيدي، لكن في الظلام كنت أكل ورثتك. ارتعدت تاينا وشهقت قائلة شيئاً ما بلغة أجنبية، ثم ارتعدت ثانية وقوست ظهرها وصرخت، ففكرت الملكة: كأن أحداً يمزقها إرباً، وللحظة تركت نفسها تتخيل أن أصابعها أنياب خنزير بري تشق جسد المايروية من الخصر إلى العنق.

وبلا جدوى.

لم تشعر سرسي بأي لذة إلا مع جايمي.

حين حاولت أن تسحب يدها أمسكتها تاينا ولحمت أصابعها قائلة: «ملكتي الجميلة، كيف أمثلك؟»، وحزكت يدها على جانب سرسي ومشتها بين الشاقين مضيئة: «أخبريني بما تريد مني يا حبيبتي».

أجابَت سرسي: «اتزكيني»، وتدحرجت مبتعدةً وسحبت
الأغطية على جسدها مرتجفةً. كان الفجر يَبْزُغُ وقريبًا سيأتي
الضّباح ويُنسى كلُّ هذا.
كان شيئًا لم يكن.

جايمي

أصدرت الأبواق دويًا نحاسيًا شقَّ هواء الفسق الأزرق الساكن، فهتَّ جوزمين يكدون على قدميه بلا إبطاء وهرغ يلتقط حزام سيف سيده.

فكَّر جايمي: غريزة الضبي يقظة، وقال له: «الخارجون عن القانون لا ينفخون في الأبواق ليعلنوا عن مجيئهم. لن أحتاج إلى سيفي. هذا ابن خالي، حاكم الغرب».

كان الخيالة يترجلون عندما خرج من خيمته، نصف دسّية من الفرسان وأربعون من الجنود والرؤماة الزاكبين، ولقّا رأى جايمي هدّر رجل أشعث يرتدي الحلقات المعدنية المذهبة ومعطفًا من فرو الثعالب: «جايمي! تبدو مهزولًا للغاية، وترتدي الأبيض! وأطلقت لحيتك أيضًا!».

- «هذه؟ مجرّد زغب مقارنةً بلبدتك يا ابن الخال». تلتحم لحية السير داقن المنتفشة مع شاربهِ الكَث على جانبي وجهه بكثافة الأحراش، ومقا يلتحمان بالدغل الأصفر المتشابك فوق رأسه، والذي ضغطته الخوذة التي يخلعها. في مكان ما وسط كلّ هذا الشعر يكفن أنف أفطس وعينان جذبتان بلون البندق. «هل سرق أحد الخارجين عن القانون موساك؟».

بالنسبة إلى رجلٍ أسدي السَّحنةِ مثله، فلداقن لانستر نيرة
مستكىنة غريبة، وقد أجاب: «أقسمت ألا أقض شعري حتى أثار
لأبي، لكن الذئب الصغير نال من كارستارك أولاً وسلبني
انتقامي»، وناول أحد المرافقين خوذته ومزَّر أصابعه في شعره
الذي سواه الفولاذ الثقيل، وتايغ: «أحب أن يكون شعري طويلاً
بعض الشيء. الليل أصبح أشدَّ برودةً، والقليل من الثمو على
الوجه يُساعد على تدفئته، أجل، ثم إن العفة جُنا اعتادت أن
تقول دوفا إن لي ذقناً كقالب القرميد»، وأمسك چايمي من
ذراعيه قائلاً: «خفنا عليك بعد (الغابة الهامسة). سمعنا أن ذئب
ستارك الرَّهيب نهش غنقك».

- «وهل ذرفت الذمع المرير من أجلي يا ابن الخال؟»
- «نصف (لانسيورت) رثى لك، النصف الأثوي»، وانتقلت
نظرة السير داقن إلى جدعة چايمي، فقال: «الامر صحيح إذن،
الأوغاد بتروا يد سيفك».

- «لدي واحدة جديدة من الذهب. ثمة إيجابيات كثيرة في
كون المرء بيد واحدة. الآن أشرب أقل خشية أن أسكب التبيذ،
ونادراً ما أنزع إلى حك مؤخرتي في البلاط».

- «نعم، صحيح. ربما علي أن أجعلهم يقطعون يدي أيضاً،
وضحك ابن خاله، وتساءل: «أهي كاتلين ستارك من قطعتها؟».

- «فارجو هوت». من أين تأتي هذه الحكايات؟

قال السير داقن: «الكوهوري؟»، وبصق مواصلاً: «هذه له
ولكل رفاقه الشجعان. قلت لأبيك إنني سأبحث له عن
الإمدادات لكنه رفض وقال إن بعض المهام يليق بالأسود، أمَّا
الإمدادات فالأفضل تركها للكباش والكلاب».

يعلم چايمي أن هذه كلمات اللورد تايوين تحديداً، بل ويكاد
يسمع صوت أبيه يقولها. «ادخل يا ابن الخال. يجب أن نتكلم».

كان جاريت قد أشعل النار في المستودعات وبُعثت جمراتها المتوهجة بالأحمر الحرارة في خيمة جايمي. خلع السير داقن معطفه وألقاه إلى ليو الصغير، وسأله بخشونة: «أنت من آل ياير يا فتى؟ إن لك شكلاً أعجف».

- «أنا ليو ياير، بعد إذن سيدي».

- «لقد هُزمت أخاك اللعين في التحام جماعي ذات مرة. الأحقق الأعجف شعرَ بالمهانة حين سألته إن كانت هذه أخته التي ترقص عارية على ثرسته».

- «هذا رمز عائلتنا. ليست لنا أخت».

- «مؤسف. رمزكم له تديان جميلان، لكن من الرجل الذي يختبئ وراء امرأة عارية؟ كلما هويث بضربة على ثرس أخيك شعرث بالخسة».

كانت بيا تُتَبَّل لهما التَّبِيذ وتُقْلَبه في قَدَرٍ بملعقة، وقال جايمي لداقن ضاحكاً: «كفى، دعه وشأنه. أريد أن أَلَمَ بما سأجده في (ريقررن)».

هَرُ ابن خاله كتفيه مجيباً: «الحصار مستمر. السمكة السوداء جالس داخل القلعة ونحن جالسون خارجها في معسكراتنا. مسألة مملة للغاية إذا أردت الحقيقة»، وجلس على كرسي متابعاً: «ينبغي أن يشرّ تلي غارة ليذكّرنا جميعاً بأننا ما زلنا في حرب. سيكون لطفاً منه أن يُخَلِّصنا من بعض أبناء فراي أيضاً. رايمان كبداية. إنه سكران أغلب الوقت. أوه، وإدوين. ليس بليذا كأبيه لكنه مفعم بالكراهية كما يُفعم البثور القيح. وكذا عزيزنا السير إمون... لا، اللورد إمون وليحمننا (الشبعة)، يجب ألا ننسى لقبه الجديد... سيّد (ريقررن) لا يفعل شيئاً إلا محاولة إخباري بكيفية إدارة الحصار، يريدني أن أستولي على القلعة دون أن أتلّفها، بما أنها مقرّ لورديته الجديد».

سأل جايمي بيا: «هل سخن التَّبِيذ؟».

أجابَت الفتاة مغظيةً فمها: «نعم يا سيدي».

قَدَّم بِكَ التَّبِيذَ عَلَى صَحْفَةٍ ذَهَبِيَّةٍ، وَخَلَعَ السَّيْرَ دَاقْنَ قَفَّازَهُ
ثُمَّ تَنَاوَلَ كَأْسًا قَائِلًا: «شُكْرًا يَا فَتَى. مَنْ أَنْتَ؟».

- «جُوزَمِينَ يَكْلُدُونَ، بَعْدَ إِذْنِ سَيِّدِي».

قَالَ جَايَمِي: «بِكَ مِنْ أَبْطَالِ مَعْرَكَةِ (الْهَرِّ الْأَسْوَدِ)، قَتَلَ
فَارْسِينَ وَأَسْرَ اثْنَيْنِ غَيْرَهُمَا».

- «لَا بُدَّ أَنْكَ أَخْطَرُ مِمَّا تَبْدُو يَا فَتَى. أَهَذِهِ لَحْيَةٌ أَمْ أَنْكَ
نَسِيتَ غَسْلَ وَجْهِكَ مِنَ الْوَسْخِ؟ زَوْجَةُ سَتَانِيْسَ بَارَاثِيُونُ لَهَا
شَارِبٌ أَكْثَفُ مِنْ هَذَا. كَمْ يَسْنُوكَ؟».

- «خَمْسَةٌ عَشَرَ عَامًا أَيُّهَا الْفَارْسِ».

قَالَ السَّيْرُ دَاقْنَ سَاخِرًا: «أَتَعْرِفُ أَفْضَلَ مَا فِي الْأَبْطَالِ يَا
جَايَمِي؟ كُلُّهُمْ يَمُوتُونَ مَبَكَّرًا وَيَتَزَكُّونَ لِبَقِيَّتِنَا مَزِيدًا مِنَ النِّسَاءِ»،
وَأَلْقَى كَأْسَهُ لِلْمُرَافِقِ قَائِلًا لَهُ: «أَمْلَأْهَا ثَانِيَةً وَسَادِعُوكَ بِالْبَطْلِ
أَيْضًا. إِنِّي ظَمَأَنٌ».

رَفَعَ جَايَمِي كَأْسَهُ بِئْسَرَاهُ وَرَشَفَ مِنْهَا لِيَنْتَشِرَ الذَّفَاءُ فِي
صَدْرِهِ، وَقَالَ: «كَنتَ تَتَكَلَّمُ عَنْ أَبْنَاءِ فَرَايَ الَّذِينَ تُرِيدُ مَوْتَهُمْ؛
رَايْمَانُ وَإِدَوِينُ وَإِمُونٌ...».

قَالَ دَاقْنَ: «وَابْنُ الْعَاهِرَةِ وَالِدِرُ رِيْقَرَزُ. يَكْرَهُ أَنْهُ نَغْلٌ وَيَكْرَهُ
كُلَّ مَنْ لَيْسَ وَكَذَلِكَ. لَكِنَّ السَّيْرَ يَرُوْنِ يَبْدُو رَجُلًا طَيِّبًا، لَا بِأَسَ
بِالْإِبْقَاءِ عَلَيْهِ، وَعَلَى النِّسَاءِ أَيْضًا. سَمِعْتُ أَنَّنِي سَأَتَزَوَّجُ إِحْدَاهُنَّ.
رَبِّمَا كَانَ حَرِيًّا بِأَبِيكَ أَنْ يَسْتَشِيرَنِي بِشَأْنِ هَذِهِ الزَّيْجَةِ
بِالْمُنَاسَبَةِ. كَانَ أَبِي يَتَّفَقُ مَعَ يَاقَسْتَرِ رِدَوَايْنِ قَبْلَ (أَوَكْسَكُرُوسِ)،
هَلْ تَعْلَمُ هَذَا؟ رِدَوَايْنِ لَهُ ابْنَةٌ حَسَنَاءٌ مَهْرُهَا غَالٍ...».

رَدَّ جَايَمِي ضَاحِكًا: «دَسْمِيرَا؟ هَلْ تَحُبُّ النَّمْشَ؟».

- «إِذَا كَانَ خِيَارِي بَيْنَ بَنَاتِ فَرَايَ وَالنَّمْشِ... يَصِفُ فَتَيَاتِ
اللُّورِدِ وَالِدِرُ يُشَبِّهُنَ بَنَاتِ عَرَسٍ».

- «يَصِفُهُنَّ فَقَطْ؟ أَشْكُرُ بِخَتِكَ الشَّعِيدِ إِذْنًا. لَقَدْ رَأَيْتُ عَرُوسَ
لَانْسَلِ فِي (دَارِي)».

- «أمي البوابة، لترحمنا الآلهة. لم أصدق أن لانسل اختارها. ما خطب ذلك الضبي؟».

أجاب چايمي: «أصبح متديثًا، لكن ليس هو من اختارها. أم الليدي أميري من عائلة داري، وارتأى عثنا أنها سئساعد لانسل على كسب رعايا (داري)».

- «كيف؟ بمضاجعتهم؟ هل تعرف لماذا يلقَّبونها بأمي البوابة؟ لأنها ترفع شبكتها الحديدية لكل فارس يمرُّ بها. خيرٌ للانسِل أن يجد صانع سلاح يدقُّ له خوذةً بقرنين».

- «لن يكون ذلك ضروريًا. ابن عثنا ذاهب إلى (كينجز لاندنج) ليحلف اليمين كأحد رجال الشيتون الأعلى المسلَّحين». ما كانت دهشة أكبر لتلوح على وجه السير داقن لو أن چايمي قال له إن لانسل قرَّر أن يُصبح قردًا، وقال: «حقًا؟ أنت ثمارحني. لا بدَّ أن أمي البوابة أكثر شبهاً ببنات عرس مما سمعتُ ما دامت قد دفعت الضبي إلى هذا!».

حين استأذن چايمي في الانصراف من الليدي أميري كانت تبكي بهدوءٍ انفضاض زواجها بينما تسمح للسير لایل كراكهول بمواساتها، لكن دموعها لم تُزعجه نصف إزعاج النظرات القاسية على وجوه أقاربها الواقفين في الساحة. قال لداقن: «أمل أنك لا تنوي أن تحلف يمينًا بدورك يا ابن خالي. آل فراي حشاسون عندما يتعلَّق الأمر باتفاقات الرُواج، وأكره أن تُخَيِّب أملهم ثانية».

أطلق السير داقن نحيبًا هازئًا، وقال: «سأتزوَّج بنت عرس وأضاجعها، لا تقلق، إنني أعلم ما جرى لروب ستارك. لكن مما أخبَرني به إدوين فالأفضل لي أن أختار واحدةً لم تُزهر بعد، وإلا فغالبًا سأجدُ والدر الأسود قد سبقني إليها. أراهن أنه افترش أمي البوابة، وأكثر من ثلاث مرَّات. ربما يُفسِّر هذا تدثُّن لانسل ومزاج أبيه».

- «رأيت السير كيفان؟».

- «نعم. مَرَّ بنا هنا في طريقه إلى الغرب. سألته أن يُعيننا على الاستيلاء على القلعة، لكن كيقان رفض تمامًا. طيلة الوقت الذي أمضاه هنا كان عابثًا، يتكلم بكياسة كافية لكن باردة. أقسمتُ له أنني لم أطلب قُطْ أن أكون حاكم الغرب، أن ذلك الشرف ينبغي أن يكون له، فأعلن أنه لا يكرُّ لي ضفينَّة، وإن لم تقل نبرته هذا على الإطلاق. بقي ثلاثة أيام وبالكد قال لي ثلاث كلمات. ليته ظَلَّ معنا. كنتُ محتاجًا إلى نصيحته، وما كان أصدقائُنَا أبناء فرأي ليجرؤوا على إزعاج السير كيقان كما يُزعجونني».

قال چايمي: «أخبرني».

- «أريد أن أفعل، لكن أين أبدأ؟ بينما أبني المدكات وأبراج الحصار نصبت رايمان فرأي مشنقة، وكلَّ يومٍ عند الفجر يأتي يادميور تلي ويضع أنشودة حول غنقه ويهتد بشنقه ما لم تستسلم القلعة، لكن الشمكة السوداء لا يُلقى بالآ لهذه المسرحية، ومع حلول المساء يُنزلون اللورد إدميور ثانية. هل تعلم أن زوجته حامل؟».

لم يكن چايمي يعلم هذا. «إدميور ضاجعها بعد الزفاف الأحمر؟».

- «بل كان يُضاجعها في أثناء الزفاف الأحمر. روزلين صغيرة حسناء، لا تمتُ بصلية لبنات عرس بتاتًا، والغريب أنها مولعة يادميور. يروين قال لي إنها تُصلي لإنجاب فتاة».

تأمل چايمي في هذا لحظة، ثم قال: «ما إن يُولد لإدميور ابن لن يعود اللورد والدر محتاجًا إلى إدميور نفسه».

- «هذا رأيي أيضًا. عثنا الكريم إم... آه، اللورد إمون بالأحرى... يُريد أن يشنق إدميور في الحال. وجود سيّد من آل تلي لـ(ريقرزن) يكاد يُكذّره بقدر احتمال مولد واحد آخر. كلّ يوم يُناسِديني أن أجعل السير رايمان يُغلّق تلي من رقبتة، ولا أدري كيف أقنعه. وفي تلك الأثناء يشدّ اللورد جاون وسترلينج كُفي الآخر. السيّد زوجته مع السمكة السوداء داخل القلعة، بالإضافة إلى ثلاثة من أولاده ذوي الأنوف السائلة، ويخشى حضرة اللورد أن يقتلهم تلي إذا شنق آل فراي إدميور. إحداهم ملكة الذئب الصغير».

يظنّ جايمي أنه التقى جاين وسترلينج من قبل، وإن كان لا يتذكّر شكلها. لا بدّ أنها رائعة الجمال ما دامت استحققت مملكةً كاملةً. قال لابن خاله مؤكّدًا: «السير برايندن لن يقتل أطفالًا، إنه ليس سمكةً سوداء لتلك الدرجة». الآن بدأ يستوعب سبب عدم سقوط (ريقرزن) بعد. «حدّثني عن تجهيزاتك يا ابن الخال».

- «إننا نطوّق القلعة. السير رايمان ورجال فراي معسكرون شمال (الجلمود)، وجنوب (الفرع الأحمر) يجلس اللورد إمون مع السير فورلي پرستر وقلول جيشك القديم، بالإضافة إلى لوردات الثّهر الذين انضمّوا إلينا بعد الرّفاف الأحمر. ليس لديّ ما يمنع أن أقول إنهم مجموعة كئيبة، صالحون للوجوم في خيامهم ولكن ليس أكثر من هذا. معسكري أنا بين الثّهرين، قبالة الخندق وبوّابة (ريقرزن) الرّئيسة. لقد ألقينا سلسلة عبر (الفرع الأحمر) في اتجاه المجري. مانفريد ياو وراينارد روتيجر مسؤولان عن الدّفاع عنها كي لا يهرب أحد بالقارب، وأعطيتهما شباكًا أيضًا للصيد، فهذا يُساعد على إطعامنا».

- «هل نستطيع تجويع القلعة؟».

هَزَّ السَّيْرُ دَاقِنَ رَأْسَهُ نَفِيًّا، وَأَجَابَ: «السَّمَكَةُ الشُّودَاءُ طَرَدَ
جَمِيعَ الْأَقْوَاهِ عَدِيمَةَ الْجَدْوَى مِنَ الْقَلْعَةِ وَاقْتَلَعَ كُلَّ نَبْتَةٍ تُؤْكَلُ
فِي الزَّيْفِ الْمُحِيطِ. إِنْ مَعَهُ مَوْئًا تَكْفِي لِطَعَامِ الرِّجَالِ وَالْخِيُولِ
طِيلَةَ عَامَيْنِ».

- «وَبِالنِّسْبَةِ إِلَى مَوْئِنَا نَحْنُ؟».

- «مَا دَامَتْ فِي الثَّهْرَيْنِ أَسْمَاكَ فَلَنْ نَجُوعَ، وَإِنْ كُنْتُ لَا أَدْرِي
كَيْفَ سَنُطْعِمُ الْخِيُولَ. أَلْ فَرَايَ يَنْقَلُونَ الطَّعَامَ وَالْعَلْفَ مِنْ
(الثَّوَامَتَيْنِ)، لَكِنْ السَّيْرُ رَايْمَانٌ يَدَّعِي أَنَّ مَا لَدَيْهِمْ لَيْسَ كَافِيًّا
لِاقْتِسَامِهِ مَعَنَا، وَلِذَا فَعَلِينَا الْحَصُولَ عَلَى إِمْدَادَاتِنَا بِأَنْفُسِنَا.
نِصْفُ الرِّجَالِ الَّذِينَ أُرْسِلَهُمُ لِلْعَثُورِ عَلَى طَعَامٍ لَا يَرْجِعُونَ.
بَعْضُهُمْ يَتَهَرَّبُ، وَغَيْرُهُمْ نَجَدُهُمْ يَتَعَقَّنُونَ تَحْتَ الْأَشْجَارِ وَحَوْلَ
أَعْنَاقِهِمْ حَبَالٌ».

- «صَادَفْنَا بَعْضَهُمْ أَوَّلَ مَنْ أَمَسَ». وَجَدَهُمْ كَشَافَةً أَدَامَ
مَارِيرَانَ مَسُوئِي الْوَجْهِ مَشْنُوقِينَ مِنْ شَجَرَةٍ تَفَّاحٍ، وَقَدْ جُرِّدَتْ
الْجُمُثُ مِنْ ثِيَابِهَا تَمَاقًا وَذُشْتُ تَفَّاحَةٌ فِي فَمِ كُلِّ مِنْهَا. لَا أَحَدٌ
مِنْهُمْ كَانَتْ فِي جَسَدِهِ جُرُوحٌ، وَوَاضِحٌ أَنَّهُمْ اسْتَسَلَّمُوا، وَقَدْ
أَشْعَلَ هَذَا غَضَبَةَ الْغُفْرِ الْقَوِي الَّذِي أَقْسَمَ عَلَى الْإِنْتِقَامِ الدَّامِي
مِنْ كُلِّ مَنْ يُقَلِّقُ رِجَالًا مُحَارِبِينَ هَكَذَا لِيَمُوتُوا كَالْخَنَازِيرِ.

قَالَ السَّيْرُ دَاقِنَ عِنْدَمَا حَكَى لَهُ چَايْمِي: «رَبِّمَا فَعَلَهَا خَارِجُونَ
عَنِ الْقَانُونِ وَرَبِّمَا لَا. مَا زَالَتْ هُنَاكَ جَمَاعَاتٌ مِنَ الشَّمَالِيِّينَ فِي
هَذِهِ الْأَنْحَاءِ، وَرَبِّمَا رَكَعَ لَوَرْدَاتِ (الْغَالُوتِ) هُؤُلَاءِ، لَكِنِّي أَظُنُّ أَنَّ
قُلُوبَهُمْ لَا تَزَالُ... ذَنْبِيَّةٌ».

رَمَقَ چَايْمِي مُرَافِقِيهِ الضَّغِيرَيْنِ الَّذِينَ يَحُومَانِ قُرْبَ
الْمُسْتَوْقِدَاتِ مُتَظَاهِرَيْنِ بِأَنَّهُمَا لَا يَسْمَعَانِ. لِيُؤَيِّسَ بِأَيِّرٍ
وَجَارِيَتِ بِأَيِّجَ كِلَاهُمَا مِنْ أَبْنَاءِ لَوَرْدَاتِ الثَّهْرِ، وَقَدْ أَمَسَى چَايْمِي
مَوْلَعًا بِالْإِثْنَيْنِ وَيَكْرَهُ أَنْ يُعْطِيَ السَّيْرَ إِلَيْنِ إِيَاهُمَا. «الْحَبَالُ
تُوحِي بِأَنَّ هَذَا عَمَلُ دُونْدَارِيُونِ».

- «سَيِّد البرق ليس الوحيد الذي يعرف كيف يعقد أنشودة.
لا تجعلني أتكلّم عن اللورد بريك. إنه هنا، إنه هناك، إنه في كلّ
مكان، لكن حين تُرسِل رجالًا لمطارَدته يتبخّر كقطرات الندى.
لوردات النّهر يُساعدونه، إياك أن تشكّ في هذا، رغم أنه من
لوردات (الثّخوم) الملاعين. في يوم تسمع أنه مات، وفي الثّالي
يقولون إنه لا يُقتل»، ووضع السير داقن كأسه مواصلاً:
«كشّفتي يبلّغونني بمشاهدة نيرانٍ مشتعلة في البقاع العالية
ليلاً. يظنّون أنها إشارات... كأن هناك حلقةً من المراقبين في كلّ
مكانٍ حولنا. ثم إن هناك نيراناً في القرى أيضاً. إله جديد ما...».
لا، بل إله قديم. «ثوروس مع دونداريون، ذلك الزّاهب
المايري البدين الذي اعتاد أن يشرب مع روبرت». كانت يده
الذهبيّة على الطّاولّة، فمضّها چايمي وشاهد ذهبها يلتصع في
ضوء المستوقّعات الخافت مردفاً: «سنتعامل مع دونداريون إذا
اضطررنا، لكن يجب أن يأتي الشمكة السوداء أولاً. لا بُدّ أنه
يعلم أن قضيتّه خاسرة. هل حاولت التّفاؤُض معه؟».

- «السير رايمان حاول، ركب إلى القلعة شبه سكران ورفع
عقيرته ملقياً التّهديدات، فظهر الشمكة السوداء في الشّرفة
فقط ليقول إنه لن يُبذد كلاماً حسناً على رجلٍ كريحه، ثم غرس
سهماً في كفل حصان رايمان، فأسقطه الحصان في الوحل
وضحك بقوة لدرجة أنني كدتُ أبلّ سراويلى. لو كنتُ أنا
داخل القلعة لصوّبتُ السّهم إلى حنجرة رايمان الكاذبة».

زّد چايمي بابتسامّة خفيفة: «سأضغّ واقياً على غنقي عندما
أتفاؤُض معه. إنني أنوي أن أعرض عليه شروطاً سخية». إذا
استطاع إنهاء هذا الحصار دون إراقة دماءٍ فلن يقول أحد إنه
حمل السّلاح ضد عائلة ثلي.

- «هنيئاً لك بالمحاولة يا سيدي، وإن كنتُ أشكّ في أن الكلام
سيُجدي نفعا. يجب أن نفتح القلعة».

في وقت ما ليس بعيد كان چايمي ليحطّ على التّصوّف نفسه بلا تردّد. إنه يعلم أنه لا يستطيع البقاء هنا عامين كاملين حتى يَجْوَغَ السمكة السوداء ويُرْغِمه على الاستسلام. قال للسير داثن: «أيّا كان ما سنفعله فعلينا أن نتعجّل. إن مكاني في (كينجز لاندنج) مع الملك».

قال ابن خاله: «أجل. مؤكّد أن أختك محتاجة إليك. لماذا صرّقت كيقان؟ حسبتها ستجعله يد الملك».

- «لقد رفض اليدويّة». لم يكن أعمى مثلما كنت.

- «المفترض أن يكون كيقان حاكم الغرب، أو أنت. لا أنكر أنني ممتنّ لهذا الشّرف بالطبع، لكن عقنا في ضعف سيّئ وأكثر خبرة بالقيادة. أمل أنه يعلم أنني لم أطلب هذا إطلاقاً».

- «إنه يعلم».

- «وكيف حال سرسي؟ جميلة كالعادة؟».

- «متألّقة». مخادعة. «ذهبيّة». زائفة كالذهب القشرة. ليلة البارحة حلم بأنه ضبطها تُضاجع فتى القمر، فقتل المهزّج وحظّم أسنان أخته بيده الذهبيّة كما فعل جريجور كليجاين بالمسكيّة ييا. في أحلامه لچايمي دوفا يدان، إحداها من ذهب لكنها تعمل بكفاءة الثّانية تمامًا. «كلّما عَجَلْنَا بالفروغ من مسألة (ريقرزن) عَجَلْتُ بالعودة إلى سرسي».

أما ماذا سيفعل حينها فلا يدري.

تكلّم مع ابن خاله ساعة أخرى قبل أن يستأذن حاكم الغرب في الانصراف، ولما غادر ركّب چايمي يده الذهبيّة وارتدى معطفه البني ليتمشّى بين الخيام.

الحقيقة أنه يحب هذه الحياة، ويشعر براحة أكبر كثيرًا وسط الجنود في الميدان من البلاط، ورجاله يبدون مرتاحين معه أيضًا. عند واحدة من بؤر النار عرض عليه ثلاثة من زماة الثشائية نصيحا من أرنب بزّي اصطادوه، وعند أخرى طلب فارس شاب نصيحته في أفضل وسيلة للدفاع عن نفسه ضد مطرقة حربية، وعلى ضفة النهر شاهد غشالتين تتنازلان في المياه الضحلة فوق أكتاف جنديين. كانت الفتاتان نصف ثملتين نصف عاريتين، تضحكان وتضرب كلتاهما الأخرى بمعطف مطوي بينما تشجعهما دسته من الرجال. راهن چايمي بنجمة نحاسية على الشقراء التي تركب راف المعسول، وخسرها عندما سقط الاثنان وسط البوص.

على ضفة النهر الأخرى تعوي الذئاب، وتهب الرياح متخللة مجموعة من أشجار الضفاف جاعلة أغصانها تتلوى وتتهامس. وجد چايمي السير إلين يابن يشحذ سيفه العظيم، فقال له: «هيا»، ونهض الفارس الضامت وعلى شفثيه ابتسامة رفيعة. إنه مستمتع بهذا، يطيب له أن يمتهنني كل ليلة، بل وقد يسره أكثر أن يقئلني. يحب أن يعتقد أنه يتحسن، لكن التحسن بطيء وليس بلا ثمن، فتحت الفولاذ والضوف والجلد المقوى جسد چايمي لانستر لوحة من الجروح والتدوب والكدمات.

اعترض حارس طريقهما وهما يقودان حصانيهما إلى خارج المعسكر، فرئت چايمي على كتف الزجل بيده الذهبية قائلاً: «ابق يقظًا. ثمة ذئاب في الجوار».

ركبا في الاتجاه المعاكس بمحاذاة (الفرع الأحمر) نحو أطلال قرية محترقة مرًا بها هذا الأصل، وهناك رقصا رقصة منتصف الليل وسط الحجارة المسوذة والجمرات القديمة الباردة. لفترة قصيرة كان التفوق لچايمي، وسمح لنفسه بأن يحسب أن مهارته القديمة تعود إليه، وربما تكون الليلة ليلة ذهاب يابن إلى فراشه مكدومًا مدفي.

وكان السير إلين سمع أفكاره. بحركة كسول تفادى ضربة
چايمي الأخيرة وكّرّ عليه بهجمة مضادة دفقته دفقا إلى النهر،
حيث انزلق حذاؤه من تحته في الوحل، فانتهى به الأمر على
زكبتيه، سيف الفارس الضّامت على خلقه وسيفه هو ضائع
وسط أعواد البوص. في نور القمر تبدو آثار الجُدري على وجه
پاين كبيرة كفؤّات البراكين، وأصدر الرّجل صوت الطقطقة
إياه الذي ربما يكون ضحكة، وحزك سيفه إلى أعلى على غنق
چايمي إلى أن استقرّ رأسه بين شفتيه، وعندئذ فقط تراجع
وأغمّد فولاده.

قال چايمي لنفسه وهو ينفذ الظّمي عن يده الذهبية: كان
خيّرًا لي أن أتحدّى راف المعسول وعلى ظهري عاهرة. جزء منه
يريد انتزاع هذا الشّيء والثّطويح به في النّهر. يده بلا جدوى،
وئسراه ليست أفضل كثيرًا. كان السير إلين قد عاد إلى
الحصانين تاركًا إياه ينهض بنفسه. على الأقل لم تزل لي قدمان.
كان اليوم الأخير من رحلتهم باردًا عاصفًا، ثُصرّصر الرّيح بين
الفروع العارية في الغابة البئيّة الجرداء وثجّير أعواد البوص
على الانحناء بشدّة بطول (الفرع الأحمر)، وعلى الرغم من
ارتدائه معطف الخرس الملكي الشّتوي الضّوف شعر چايمي
بأسنانها الحديدية تنهش جسده إذ ركب إلى جوار داقن ابن
خاله. في وقت متأخر من الأصيل أبصروا (ريقررن) ترتفع على
الرّأس الأرضي الضيّق حيث يتلاقى (الجلمود) و(الفرع الأحمر).
تبدو قلعة آل ثلي كسفينة حجريّة عظيمة مقدّمتها موجهة
صوب المصب، وقد غمر الضّوء الذهبى الأحمر أسوارها المبنية
بالحجر الرّملي فبدت أعلى وأغلظ مما يذكّر چايمي، ففكّر بكآبة:
لن تتقرّ هذه المهمة بسهولة. إذا رفض الشّمكة السوداء الإصغاء
فلن يجد خيارًا إلا الحنث في قسّمه لكاتلين ستارك، فقسمه
لملكه يأتي أولًا.

وجد السلسلة عبر النهر والمعسكرات الثلاثة الكبيرة لجيش المحاصرين كما وصف ابن خاله تماقا. معسكر السير رايمان فراي شمال (الجلمود) هو الأوسع مساحةً والأقل تنظيمًا، وفوق الخيام ترتفع مشنقة رمادية ضخمة بحجم المقذاف، وعلى منصتها يقف شبح وحيد يحيط بفنقه حبل. /دميور تلي. أحس جايمي بطعنة من الشفقة في قلبه. أن يجعلوه يقف هكذا يومًا وراء يوم بتلك الأنشطة حول عنقه... الأفضل أن يقطعوا رأسه ويفرغوا من الأمر.

وراء المشنقة تنتشر فوضى الخيام وبؤر النار. كان صفار لوردات وفُرسان آل فراي قد نصبوا شراذقاتهم براحة في اتجاه المنبع بعيدًا عن حفر المراحيض، وفي اتجاه المصب زرائب وعربات يد وعربات ثيران. قال السير داثن: «السير رايمان لا يريد أن يُصيب الملل فتيته، فيعطيهام عاهرات ومصارعة ديوك وصيد الخنازير البرّية، بل وحصل لنفسه على مغرًا! عفتنا جلبت وات ذا الابتسامة البيضاء من (لانسپورت)، صدق أو لا تُصدق، فكان على رايمان أن يكون له مغنيه الخاص أيضًا. ألا يمكننا الاكتفاء بسدّ النهر وإغراقهم جميعًا يا ابن العمة؟».

رأى الزّامة يتحرّكون وراء الشّرافات في شرفات القلعة وفوقهم تخفق رايات عائلة تلي، سمكة الترويت الجريئة على خلفيتها المخططة بالأحمر والأزرق. على أن أطول أبراج القلعة يعلوه علم مختلف، علم أبيض طويل يُزَيِّنُه ذئب ستارك الزّهيب. قال جايمي لابن خاله: «أول مرّة رأيث (ريفرزن) كنت مرافقًا أخضر كغشب الضيف. أرسلني العجوز سمنر كراكهول لأوضّل رسالة أكّد أنه لا يستطيع أن ياتمن عليها غداً، فأبقاني اللورد هويستر أسبوعين بينما يفكر مليًا في الرد، وأجلسني إلى جوار ابنته لايسا عند كلّ وجبة».

- «لا عجب أنك انضمت إلى الحرس الملكي. كنت لأفعل

المثل».

- «أوه، لايسا لم تكن مخيفةً لهذه الدرجة». الحقيقة أنها كانت فتاةً حسناء رقيقةً لها غمازتان وشعر كستنائي طويل. وإن كانت خائفةً، تميل إلى الضمت بلسان معقود وبين الحين والآخر القهقهة، ليس فيها لسان لهب واحد من نار سرسي. بذت أختها الكبيرة أكثر إثارةً للاهتمام، ولو أنها كانت موعودةً لصبي ما من الشمال هو وريث (وينترفل)... لكن في تلك السن لم تكن أي فتاةٍ لثثير نصف اهتمام جايمي بشقيق هوستر الشهير الذي نال المجد في أثناء قتاله ملوك البنسات التسعة في (الأعتاب). على المائدة تجاهل لايسا المسكينة وألخ على برايندن تلي أن يحكي له عن ميليز الوحش والأمير الأبنوسي. وقتها كان السير برايندن أصغر مني الآن، وكنت أصغر من بك.

تقع أقرب مخاضة عبر (الفرع الأحمر) في اتجاه المنبع، وليبلغوا معسكر السير داقن كان عليهم أن يمرؤوا من معسكر إمون فراي بشرادقات لوردات الثهر الذين ركعوا وقبلوا من جديد في سلام الملك. لاحظ جايمي رايات لايتشستر وفانس وروت وجودبروك، وجوز بلوط آل سمولفورد وعذراء اللورد يايبر الزاقصة، لكن الرايات التي لم يرها هي ما أثارت اهتمامه. لا أثر لنسر ماليستر الفضي، أو لحصان براكن الأحمر، أو صفصافة رايجر، أو ثعباني يايچ المصفورين مغا. جميع هؤلاء جذدوا ولاءهم للعرش الحديدي، إلا أن أحدًا منهم لم يأت للانضمام إلى الحصار. يعلم جايمي أن آل براكن يُقاتلون آل بلاكوود، أمّا الباقيون...

أصدقاءنا الجدد ليسوا أصدقاءً على الإطلاق، إخلاصهم ضحل. لا بُدَّ من الظفر بـ(ريقرزن)، وقربنا. كلما طال الحصار تشجّع متمردون آخرون على شاكلة تاي توس بلاكوود.

عند المخاضة أطلق السير كينوس الكايسي دفقةً من بوق هيروك. هذا كفيل بإخراج الشمكة السوداء إلى الشرفات. قاذ السير هيوجو والسير درموت جايمي عبر النهر خائضين في المياه البنية المحمّرة الموحلة وقد رفعوا راية الخرس الملكي البيضاء وراية وعل وأسد تومن لتخفقا في الزّيح، وتبغتهم بقية الزّكب بلا إبطاء.

تردّدت أصوات المطارق الخشبية في معسكر لانستر حيث يرتفع بُرج حصار جديد، وقد وقف بُرجان آخران مكتملين وكلّ منهما نصف مغطى بجلد الخيل الخام، وبينهما يستقرّ مدكّ دُوار مصنوع من جذع شجرة وله رأس مقوّى بالنّار ومعلّق بالسلاسل تحت سقف خشبي. يبدو أن ابن خالي لم يتوانَ في عمله.

سأله بك: «أين تريد خيمتك يا سيّدي؟».

- «هناك، فوق هذا المرتفع»، وأشار بيده الذهبية -مع أنها ليست مناسبة لهذا- وأضاف: «المون هناك، خطوط الخيول هناك. سنستخدم المراحيض التي تكوّن ابن خالي بحفرها لنا. سير أدام، افحص محيطنا واحرص على ملاحظة أيّ نقاط ضعف». لا يتوقّع جايمي هجوعاً، لكنه لم يتوقّع (الغابة الهامسة) كذلك.

سأله داقن: «هل أستدعي بنات عرس لمجلس الحرب؟».

أجاب جايمي: «ليس قبل أن أتكلّم مع الشمكة السوداء»، وأشار إلى جون بتلي الحليق قائلاً: «ارفع راية سلام واحمل رسالةً إلى القلعة. بلّغ السير برايندن تلي أنني أرغب في الحديث معه مع أول خيوط الضّوء غداً. سأذهب إلى حافة الخندق وأقابله على الجسر المتحرّك».

لاح الانزعاج على بك، وقال: «سيّدي، الزّمانة يُمكنهم أن...».

ترجّل جايمي قائلاً: «لن يفعلوا. انضّبوا خيمتي وارفعوا رايتي». وسنرى من يأتي جرّياً ويأتيّ سرعة.

لم يتطلّب الأمر طويلاً. كانت بيا تُحاول إشعال النار في فحم المستوقد، فذهب بك يُساعدها. في الفترة الأخيرة كثيراً ما يخلد چايمي إلى النوم على صوت جماعهما في زكن الخيمة. بينما يحلّ جاريت مشابك واقى ساقيه انفتحت الخيمة، وقالت عمة چايمي بصوت جهير: «وصلت أخيزا؟». كانت تحتلّ الباب بالكامل، وقد حدّق زوجها ابن فراي من ورائها. «تأخّرت. ألن تُعاقب عمتك الشمينة العجوز؟»، وفتحت ذراعيها فلم تتزك له خياراً إلا عناقها.

في شبابها كانت چنا لانستر امرأة متناسقة الجسد يبدو نهداها دوماً على وشك الخروج من صدارها، أمّا الآن فالشكل الوحيد الذي يثّخذه جسدها هو المرثع، ولها وجه عريض أملس وغنق كعمود وردي غليظ وئديان هائلان، وفي بدنها لحم يكفي لضنع اثنين من زوجها. احتضنها چايمي بطاعة وانتظر أن تُقرص أذنه كما تعودت أن تفعل طيلة حياته، لكنها أحجّت عن ذلك اليوم، وبدلاً منه طبعت قبلة ناعمة مبتلة على كل من وجنتيه، ثم قالت: «أسفة لخسارتك».

رَدّ: «لديّ يد جديدة مصنوعة من الذهب»، وأراها إياها. قالت الليدي چنا بحدة: «جميل. هل سيصنعون لك أباً من الذهب أيضاً؟ تايوين الخسارة التي قصدها». أعلن زوجها: «رجل كتايوين لانستر لا يأتي إلا مرّة كل ألف عام». إمون فراي رجل عصبيّ الطباع له يدان متوتّرتان، ولكان وزنه ثقيلًا لو ارتدى ثياباً مبتلة والحلقات المعدنية، لكنه أشبه بعود من البوص يرتدي الضوف وليس له ذقن يُذكر، وهو عيب جعله بروز تفاعلة خلقه يبدو أكثر سخافة. قبل بلوغه الثلاثين كان يصف شعره قد سقط، والآن وهو في الستين تبقت له شعيرات محدودة.

قالت الليدي چنا بعد أن صرفَ چايمي پيا ومُرافقيه: «بلغتنا حكايات عجيبة في الفترة الأخيرة. المرء يكاد لا يدري ماذا يُصدّق. أحقيقي أن تيريون قتلَ تايوين أم أن هذا افتراء أذاغته أختك؟».

- «حقيقي». كان وزن يده الذهب قد بدأ يُضايقه، فبدأ يحلّ الأحزمة التي تُثَبَّتُها إلى معصمه.

قال السير إمون: «أن يرفع الابن يده ضد أبيه... عمل وحشي. هذه أيام سوداء في (وستروس). إنني أخشى علينا جميعًا بعد رحيل اللورد تايوين».

ردّت چنا: «كنت تخشى علينا جميعًا وهو موجود»، وأراخت عجيزتها الكبيرة على أحد الكراسي، فضرّت تحت وزنها على نحو مزعج، واستطردت: «حدّثنا عن ابننا كليوس وطريقة موته يا ابن أخي».

حلّ چايمي آخر الأحزمة ووضع يده جانبًا قائلاً: «هاجقنا خارجون عن القانون وشئتهم السير كليوس، لكن هذا كلّفه حياته». أثّته الأكذوبة بسهولة، ورأى أنها سرّتهما بالفعل.

- «كان فتى شجاعًا، لطالما قلتُ هذا، الشجاعة في دمه». عندما يتكلّم السير إمون تلتمع على شفّتيه رغوة وردية باهتة من جزاء الثبغ الفُر الذي يحبّ أن يَمْضُغه.

أعلنت الليدي چنا: «المفترض أن يدقن رُفاته تحت (الضخرة) في (قاعة الأبطال). أين قبره؟».

لا قبر له. الممثلون الشفّاحون جُردوا جثّته من كلّ شيء وتركوا لحمه وليمةً لغريبان الجيف. أجاب كاذبًا: «إلى جوار جدول. عندما تضع هذه الحرب أوزارها سأجد المكان وأرسله إلى الوطن». الرُفات هو الرُفات، وما أسهل العثور عليه هذه الأيام.

قال اللورد إمون: «هذه الحرب...»، وتنحنح لتتحرك تفاحة حلقه إلى أعلى وأسفل، وتايغ: «لا بُدَّ أنك رأيت آلات الحصار، المدكات والمقاذيف والأبراج. لن يصلح هذا يا جايمي. داقن يُريد هدم أسواري وتحطيم بوابتي، يتكلّم عن القار المشتعل وإحراق القلعة، قلعتي!»، ودش يده في كَفّه وأخرج زَقًا رفقه في وجه جايمي موأصلًا: «إنّ معي المرسوم الموقع من الملك، من تومن. انظر، ها هو ذا الختم الملكي، الوعل والأسد. أنا سيّد (ريقرزن) الشرعي، ولن أسمح بتحويلها إلى أطلال محترقة». قالت زوجته محتدّة: «أوه، ضع هذا الشيء الشخيف جانبا. ما دام الشمكة السوداء داخل (ريقرزن) يُمكنك أن تمسح مؤخرتك بهذه الورقة التي لم تنفعنا بشيء». على الرغم من كونها من آل فراي طيلة خمسين عامًا تظلّ الليدي چنا إلى حدّ كبير ابنة لانستر. ابنة لانستر كبيرة الحجم للغاية. «جايمي سيستلمك القلعة».

قال السير إمون: «بالثأكيد. سير جايمي، ثقة السيّد والدك بي كانت في محلّها، ستري. إنني أنوي أن أكون حازمًا لكن عادلاً مع أتباعي الجدد. بلاكوود وبراكين وجيسون ماليستر وقانس ويايبر، كلهم سيتعلّمون أن إمون فراي مولى عادل... وأبي أيضًا، نعم. إنه سيّد (المعبر)، لكنني أنا سيّد (ريقرزن). صحيح أن واجب الابن أن يُطيع أباه، لكن على حامل الرّاية أن يُطيع موله».

أوه، بحقّ الآلهة. «أنت لست موله أيها الفارس. اقرأ الوثيقة. لقد مُنحت (ريقرزن) وأراضيها ودخولها لا أكثر، لكن بيتر بايلش هو سيّد أراضي (الثالوث) الأعلى. (ريقرزن) ستخضع لحكم (هارنهال)».

لم يسرْ رثه اللورد إمون، فقال محتجًا: «(هارنهال) خراب، مسكونة وملعونة، وبايلش... إنه عذاد غملة، ليس لورد حقيقيًا، ميلاده...».

- «إذا لم تكن راضيًا عن هذه الترتيبات فإذهب إلى (كينجز لاندنج) واطرح الأمر على أختي الجميلة». لا شك لديه في أن سرسي ستلتهم إمون فراي حيًا وتسلّك أسنانها بعظامه. ما لم تكن مشغولة بمضاجعة أوزموند كيتلبلاك.

أطلقت الليدي چنا نخيرًا ساخرًا، وقالت: «لا داعي لإزعاج جلالته بهذا الهراء. إم، هلّا خرجت تشمّ الهواء؟». - «أشمّ الهواء؟».

- «أو تبوّل إذا أردت. أنا وابن أخي لدينا أمور عائلية نتناقش فيها».

احتقن وجه اللورد إمون، وقال: «نعم، المكان دافئ هنا. سأنتظر في الخارج يا سيّدتى. أيها الفارس»، وطوى حضرة اللورد وثيقته وانحنى لچايمي وخرج من الخيمة.

ليس احتقار إمون فراي عسيرًا. لقد وصل إلى (كاسترلي روك) في سنّ الزابعة عشرة ليتزوّج لبؤة يكبرها مؤتين. اعتاد تيريون أن يقول إن اللورد تاويين قلب معدته على سبيل هديّة الرّفاف. وچنا لعبت دورًا أيضًا. يذكّر چايمي مآدب كثيرة جلس خلالها إمون لعبت بطعامه بوجوم في حين تتبادل زوجته المزاح البذيء مع أيّ فارس جالس إلى يسارها وتتخلّل محادثاتهما انفجارات الضّحك المدوّي. لكنها أنجبت لفراي أربعة أبناء، أو على الأقل تقول إنهم أبناؤه. لا أحد في (كاسترلي روك) يملك شجاعة التّلميح إلى غير هذا، لا سيّما السير إمون.

لم يكد الرّجل يُغادر حتى دوّرت السيّدة زوجته عينيها في محجريهما باستياء قائلة: «زوجي وسيّدي. فيم كان أبوك يفكّر حين قلّده سيادة (ريقررن)؟».

- «أظنّ أنه كان يفكّر في أبناك».

- «أنا أيضًا أفكّر فيهم. إم سيكون لورد سيّئًا للغاية. ربما يُبلي تاي بلاءً أحسن إذا كان عاقلًا وتعلّم مني لا من أبيه»، وتلقّت عفته متسائلة: «هل عندك نبیذ؟».

وجدَ چایمی إبریقًا وصبَّ لها بید واحدة قائلاً: «ماذا تفعلین هنا یا سیدتی؟ کان علیک أن تبقي في (کاسترلي روك) حتى ينتهي القتال».

- «ما إن سمعَ إم بأنه أصبح من اللوردات أصرَّ على أن يأتي في الحال ويتسلَّم مقرَّه»، وجرَّعت الليدي چنا من نبيذها ومسحت فمها بكفِّها، ثم قالت: «کان على أبیک أن يمنحنا (داري). کلیوس تزوَّج واحدةً من بنات الحارث كما تذكِّر، وأرملته الثکلی غاضبة لأن ابنيها لم يُمنَّحا أراضی السید والدها. أمي البوابة تنتمي إلى عائلة داري من جانب أمِّها فحسب، وچاین أرملة ابني خالتها، أخت الليدي ماريا الشقيقة».

ذكَّرها چایمی قائلاً: «أخت أصغر، ثم إن تاي سیحظى بـ(ریقرزن)، غنيمة أعظم من (داري)».

- «غنيمة مسمومة. سلالة الذکور في عائلة داري باذت، أمَّا في عائلة ثلي فلا. ذلك الأبله السير رايمان يضع أنشوطه حول غنق إدمیور لكنه یأبی أن یثنِّقه، وثمة سمكة ترویت تنمو في بطن روزلین فراي. لن یأمن أحفادي في (ریقرزن) أبداً ما دام وریث من آل ثلي حیًا».

یعلم چایمی أنها لیست مخطئة، فقال: «إذا أنجبت روزلین فتاة...».

- «... فیمكنها أن تتزوَّج تاي، شریطة أن یقبل اللورد والدر. نعم، فکُرت في هذا. إلا أن احتمال أن تلد صبیا قائم بالقدر نفسه، وسیُعقِّد قضیبه الضَّغیر الأمور. وإذا خرج السير برايندن حیًا من هذا الحصار فربما تجده میالاً إلى أخذ (ریقرزن) باسمه... أو باسم روبرت آرن الضَّغیر».

یذكِّر چایمی روبرت الضَّغیر في (کینجز لاندنج)، لا یزال یرضع من تديي أمِّه في سنِّ الرَّابعة. «آرن لن یعيش حتى یُنجب، وما حاجة سید (الغش) إلى (ریقرزن)؟».

- «ما حاجة رجل يملك جرّة من الذهب إلى أخرى؟ البشر جشعون. كان على تايوين أن يمنح كيقان (ريقرزن) وإم (داري). كنت لأقول له هذا لو كلّف نفسه عناء سؤالي، لكن منذ متى يستشير أبوك أحداً في شيء إلا كيقان؟»، وأطلقت عقمته تنهيدة عميقة، وأضافت: «لا ألوم كيقان على رغبته في مقرّ أكثر أمناً لابنه، إنني أعرفه جيّداً».

- «شئان بين ما يرغب فيه كيقان وما يرغب فيه لانسِل». أخبرها بقرار لانسِل أن يتخلّى عن زوجته وأراضيه ولورديته من أجل القتال في سبيل العقيدة المقدّسة، ثم قال: «إذا كنت لا تزالين راغبة في (داري) فاكثبي لسرسي واعرضي عليها الأمر». لوحت الليدي چنا بكأسها استهانة، وقالت: «لا، فات أوان هذا. إم يخال أنه سيحكم أراضِي النهر، ولانسِل... أظنّ أنه كان علينا أن نتوقّع هذا منذ زمن. الحياة لحماية الشيتون الأعلى لا تختلف عن الحياة لحماية الملك رغم كلّ شيء. أخشى أن كيقان سيفضب كما غضب تايوين عندما وضعت في رأسك أن تخدم في الحرس الملكي. على الأقل سيبقى مارتن وريثاً لكيقان. يمكنه أن يزوّجه أمي البوّابة بدلاً من لانسِل، ليحمنا (الشبعة) جميعاً»، وعادت تتنهد ثم قالت: «وعلى ذكر (الشبعة)، لم تسمح سرسي للعقيدة بحمل السلاح مجدّداً؟».

هزّ چايمي كتفيه مجيئاً: «أنا واثق بأن لديها أسباباً».

رَدَّت الليدي چنا: «أسبابًا؟»، وأطلقت صوتًا بذيئًا، وأردفت: «خيرٌ لنا أن تكون أسبابًا وجيهةً. الشيوف والثجوم أزعجوا آل تارجارين أنفسهم. الفايح ذاته تعاملٌ بحذرٍ مع العقيدة كي لا تُعارضه، ولما مات إجون وتمزّد اللوردات على ابنيه كانت كلتا الجماعتين في قلب هذا التمزّد. اللوردات الأكثر تديّنًا أيّدوهم، وكثيرون من العوام، وأخيرًا اضطرّ الملك ميجور إلى وضع مكافأة على رؤوسهم، فدفعَ تئينا مقابل رأس كلٍّ واحدٍ من أبناء الفحارب لم يرجع عن تمزّده، وأيلاً فضيًا مقابل فروة رأس كلٍّ ضعلوك، إذا كنتَ أذكرُ التاريخ الذي تعلّمته. قُتِلَ آلاف، لكن آلافٍ غيرهم ظلّوا يجوبون البلاد بتحدٍّ، إلى أن قتلَ العرش الحديدي ميجور ووافقَ الملك جهيرس على العفو عن كلٍّ من يتخلّى عن القتال».

قال معترفًا: «نسيثٌ أغلب هذا».

رَدَّت عفتة: «أنت وأختك»، وأخذت جرعةً أخرى من التبيذ، وسألته: «أصحيح أن أباك كان مبتسمًا فوق تابوته؟».

- «كان يتعفّن فوق تابوته، وجعلَ هذا فمه يلتوي».

- «أهذا كلُّ ما هنالك؟». بدا إن الإجابة أحرزتها. «يقول كثيرون إن تايوين لم يبتسم قطّ، لكنه ابتسم حين تزوّج أمك، وحين جعله إيرس يده. ولما انهارَ (بهو تاربك) على رأس تلك الحقيرة المتأمرة الليدي إيلين، قال تايج إنه ابتسم حينها أيضًا... وابتسم يوم مولدك يا چايمي، رأيث هذا بعيني. أنت وسرسي كنتما متورّدين معالّين ومتماثلين... باستثناء بين الشاقين طبعا. يا لرناتكما القويّة!».

قال چايمي بابتسامةٍ واسعة: «اسمعوا زئيرنا. ينقُص أن تقولي لي إنه أحبُّ الضحك كثيرًا أيضًا».

- «لا، تايوين لم يكن يعق بالضحك. لقد سمع كثيرين يضحكون من جدك»، وقظبت عقته جبينها مستطردة: «أؤكّد لك أن مهزلة الحصار هذه ما كانت لتسرّه. كيف تنوي أن تضع حدًا لها الآن وقد أصبحت هنا؟».

- «سأتفاوض مع الشمكة السوداء».

- «لن ينجح هذا».

- «أنوي أن أعرض عليه شروطًا جيّدة».

- «الشروط تتطلب الثقة. آل فراي اغتالوا ضيوقًا تحت سقفهم، وأنت... لا أقصد إساءةً يا حبيبي، لكنك قتلت ملكًا معيّنًا أقسمت على حمايته».

- «وسأقتل الشمكة السوداء إذا لم يستسلم». خرجت نبرته أكثر خشونةً مما انتوى، لكنه ليس في مزاج يسمح بالقاء إيرس تارجارين في وجهه.

سألته بتهكم: «كيف؟ بلسانك؟ ربما أكون عجوزًا بدينةً، لكن ما في رأسي مخ لا جبنه يا چايمي، وكذا الشمكة السوداء. التهديدات الفارغة لن تُعَبِّط همتَه».

- «ويم تنصحين؟».

هزّت كتفها ببطء، وقالت: «إم يريد أن يُقطع رأس إدميور، وربما يكون محقًا على سبيل التغيير. السير رايمان جعلنا أضحوكةً بمشنگته إياها. عليك أن تُري السير برايندن أن لتهديداتك أنيابًا».

- «ربما يُقوّي قتل إدميور عزيمة السير برايندن».

- «العزيمة شيء لم يفتقر إليه برايندن الشمكة السوداء قط. كان بإمكان هوستر تلي أن يخبرك بهذا»، وأفرغت الليدي چنا ما تبقى من البيض في جوفها، وأردفت: «طيب، لن أجرؤ أبدًا على إخبارك بكيفية خوض الحروب، إنني أعرف منزلي... على عكس أختك. أصحیح أن سرسي أحرقت (القلعة الحمراء)؟».

- «(برج اليد) فقط».

دوّرت عَقْمَه عينيها، وقالت: «كان خيزًا لها أن تُبقي على
البرج وتُحرق اليد. هاريس سويقت؟! إذا كان هناك رجل جديدًا
برمزه فهو السير هاريس. وجايلز روزي، ليحمنّا (الشبعة)،
حسبته مات منذ زمن. ميريويدر... أبوك تعود دعوة جدّه
بالفقهه، أريدك أن تعلم. قال تايوين إن الشيء الوحيد الذي
يصلح له ميريويدر هو القهقهة لدعابات الملك. حضرة اللورد
ظَلَّ يَفْهَمُه حتى تُفِي على ما أذكر. سرسي وضعت نغلاً ما في
المجلس أيضًا، ورجلاً وضيغًا في الحرس الملكي، وسمحت
للعقيدة بالتسلّح، والبراقوسيون يطالبون بسداد ما لهم من ديون
في جميع أنحاء (وستروس). ما كان شيء من هذا ليحدث لو
أنها تحلّت بالعقل وجعلت عَمَك كيقان اليد».

- «السير كيقان رفض المنصب».

- «هذا ما قاله، لكنه لم يذكّر السبب. أشياء كثيرة لم يقلها،
رفض أن يقولها»، ورسقت الليدي جنا الامتعاض على ملامحها،
وتابعت: «لطالما فعل كيقان ما يُطلب منه، وليس من طباعه أن
يُولي الواجب ظهره. في الأمر شيء ما خطأ، باستطاعتي أن
أشقه».

- «قال إنه متعب». وقالت سرسي وهما واقفان عند نعيش
أبيهما إنه يعرف بأمرهما.

زمت عَمْتَه شفيتها قائلة: «متعب؟ أظن أنه حقّه. كان صعبًا
على كيقان أن يعيش حياته كلّها في ظِلّ تايوين، صعبًا على
إخوتي جميعًا. الظلّ الذي ألقاه تايوين كان طويلًا أسود، واضطرّ
كلّ منهم إلى المعاناة حتى يجد بصيصًا من الشّمس لنفسه.
تايجت حاول أن يستقلّ بذاته، لكنه لم يستطع قَطّ أن يُضاهي
أباك، وأفضى هذا إلى جعله أكثر غضبًا مع مرور السنين. أمّا
جيريون فاكتفى بالشّخيرة. كان أفضل له أن يسخر من اللعبة
من أن يلعبها ويخسر. لكن كيقان رأى طبائع الأمور مبكّرًا، فصنع
لنفسه مكانًا إلى جانب أبيك».

سألها چايمي: «وانت؟».

- «لم تكن لعبةً للفتيات. كنتُ أميرة أبي الغالية... وأميرة تايوين أيضًا، إلى أن خيبت أمه، وأخي لم يتعلم أن يحب مذاق خيبة الأمل إطلاقًا»، ونهضت عفته مستطردة: «لقد قلتُ ما جئتُ لأقوله ولن آخذ المزيد من وقتك. افعل ما كان تايوين ليفعله».

سمع چايمي نفسه يسألها: «هل أحببته؟».

حدجته عفته بنظرة غريبة، وقالت: «كنتُ في السابعة حينما أقنع والد فراي السيد والدي بإعطاء إم يدي، ابنه الثاني وليس وريثه حتى. أبي نفسه كان ابنًا ثالثًا، والإخوة الصغار يشتهون رضا إخوتهم الأكبر. فراي استشعر نقطة الضعف تلك فيه، ولم يقبل أبي لسبب أفضل من إرضائه. أعلّنت خطبتي في أثناء مأدبة حضرها نصف الغرب، وضحكت إيلين تاريك وخرج الأسد الأحمر غاضبًا من القاعة، أما الآخرون فائعقدت أسنتهم. وحده تايوين جروًا على الاعتراض على الزيجة. كان صبيًا في العاشرة. شحب وجه أبي حتى أصبح كالحليب، وارتعش والد فراي»، وابتسفت مواصلة: «كيف يُمكنني ألا أحبه بعد هذا؟ لكن هذا لا يعني أنني وافقتُ على كل ما فعله أو استمتعتُ كثيرًا بضحبة الرجل الذي صارَه... لكن كل فتاة صغيرة تحتاج إلى أخ كبير يحميها، وتايوين كان كبيرًا حتى في صغره»، وزفرت متسائلة: «من سيحمينا الآن؟».

قبلها چايمي على وجنتها، وقال: «لقد خلف ابنًا».

- «نعم، وهذا أخشى ما أخشاه في الحقيقة».

أدهشه تعليقها الغريب، فسألها: «وماذا تخشين؟».

قالت جاذبةُ أذنه: «چايمي يا عزيزي، أنا أعرفك منذ كنت
ترضع من ثديي جوانا. إنك تبتسم كجيريون وثقايل كتايچ،
وفيك القليل من كيغان أيضًا، وإلا ما كنت لترتدي هذا
المعطف... لكن تيريون هو ابن تايوين لا أنت. قلّك هذا ذات
مرّة في وجه أبيك فقضى نصف عامٍ لا يكلمني. الرجال حمقى
كبار صاخبون حقًا، حتى من يجود بهم الدهر كلّ ألف عامٍ».

قِطَّة القنوات

استيقظت قبل شروق الشمس في الغرفة الصغيرة تحت الإفريز، التي تتقاسمها مع ابنتي بروسكو. كات أول من يصحو دوّماً. تحت الأغطية مع تاليا وبريا دافئ مريح، وباستطاعتها أن تسمع أنفاسهما الهادئة المنتظمة، وحين تحرّكت واعتدلت جالسة تبحث عن خُفيها تمتعت بريا بشكوى ناعسة وانقلبت على جانبها. اقشعرّ جلد كات من جزاء البرد المنبعث من الجدران الحجر الزمادية، فأسرعت ترتدي ثيابها في الظلام، وبينما تضع سترتها على جسدها فتحت تاليا عينيها، وقالت لها: «كات، كوني طيبة واجلبي لي ثيابي». تاليا فتاة خرقاء، جسدها جلد على عظم ومرفقاها بارزان، ودائماً تشتكي من البرد.

أحضرت لها كات ملابسها فارتدتها تحت الأغطية، ومما سحبتا الأخت الكبيرة من الفراش وقد راحت بريا تُهمهم بالتهديدات الناعسة.

حين نزلت ثلاثتهن السُّلم من الغرفة الواقعة تحت الإفريز كان بروسكو وابناه قد خرجوا بالفعل إلى القارب في القناة الصغيرة وراء المنزل. زعق بروسكو في الفتيات أن يسرعن مثلما يفعل كل صباح، وساعد ابناه تاليا وبريا على ركوب القارب، أمّا كات فمهمتها أن تحلّ الحبل الذي يربطه بالدعامة، ثم تُلقي الحبل لبريا وتدفع القارب مبعدة إياه عن المرسى بحذائها. بدأ كلا ابني بروسكو الشجذيف بالعصا، وجزت كات ووثبت فوق الفجوة التي أخذت تتسع بين المرسى والقارب.

يَعْدُهَا لَمْ يَعُدْ هُنَاكَ مَا تَفْعَلُهُ إِلَّا الْجُلُوسُ وَالتَّثَاؤُبُ لَوْ قَبْتُ طَوِيلَ بَيْنَمَا يَمْضِي بِهِمْ بَرُوسْكَو وَابْنَاهُ فِي عَتَمَةٍ مَا قَبْلَ الْفَجْرِ عِبْرَ شَبَكَةٍ مِنَ الْقَنَوَاتِ الصَّغِيرَةِ. يَبْدُو هَذَا النَّهَارُ نَادِرًا، مَعْتَدِلَ الْبَرُودَةِ صَافِيَا سَاطِعًا، بَيْنَمَا الْمَعْتَادُ أَنْ (بِرَاقُوسَ) لَا تَعْرِفُ إِلَّا ثَلَاثَةَ أَنْوَاعٍ فَقَطْ مِنَ الطُّقْسِ. الضُّبَابُ سَيِّئٌ، وَالْمَطَرُ أَسْوَأُ، وَالْمَطَرُ الْمَتَجَمِّدُ الْأَسْوَأُ، لَكِنْ كُلُّ فِتْرَةٍ طَوِيلَةٍ يَأْتِي صَبَاحٌ يَطْلُعُ فِيهِ الْفَجْرُ وَرَدِيًّا وَأَزْرَقٌ وَيَكُونُ هَوَاؤُهُ مَنَعَشًا مَالِحًا، وَتِلْكَ أَكْثَرُ أَيَامِ تَحِبُّهَا كَاتُ.

حِينَ بَلَغُوا الْمَجْرَى الْمَائِي الْعَرِيضَ الْمُسْتَقِيمَ الْمَسْمُومَ (الْقَنَاةَ الطَّوِيلَةَ) انْعَطَفُوا جَنُوبًا نَحْوَ سُوقِ الْأَسْمَاكِ، وَقَدْ جَلَسَتْ كَاتُ مَرْتَبَعَةً سَاقِيهَا تُقَاوِمُ التَّثَاؤُبَ وَتُحَاوِلُ أَنْ تَتَذَكَّرَ تَفَاصِيلَ حُلْمِهَا. مَرَّةً أُخْرَى أَحْلَمَ بِأَنِّي ذُنْبَةٌ. أَكْثَرُ مَا تُذَكِّرُهُ الرِّوَانِحُ؛ الْأَشْجَارُ وَالثَّرْبَةُ وَإِخْوَتَهَا فِي الْقَطِيعِ وَالْخِيُولِ وَالْغَزْلَانِ وَالْبَشَرِ، كُلٌّ مِنْهَا غَيْرُ الْأُخْرَى، وَرَائِحَةُ الْخَوْفِ الْقَوِيَّةِ اللَّاذِعَةِ الَّتِي لَا تَخْتَلِفُ أَبَدًا. فِي بَعْضِ اللَّيَالِي تَكُونُ أَحْلَامُ الذُّنَابِ شَدِيدَةً الْجَلَاءِ لِدَرَجَةٍ أَنَّهَا تَظَلُّ تَسْمَعُ غَوَاءَ إِخْوَتِهَا حَتَّى وَهِيَ تَسْتَيْقِظُ، وَفِي مَرَّةٍ زَعَمْتُ بَرِيًّا أَنَّهَا كَانَتْ تُزْمَجِرُ فِي نَوْمِهَا وَتَتَلَوَّى تَحْتَ الْأَغْطِيَةِ، فَحَسَبْتُهَا كَذِبَةً سَخِيفَةً إِلَى أَنْ قَالَتْ تَالِيَا الْكَلَامَ نَفْسَهُ.

أَخْبَرَتِ الْفَتَاةُ نَفْسَهَا: لَا يَجْدُرُ بِي أَنْ أَحْلَمَ أَحْلَامَ الذُّنَابِ. إِنَّمَا الْآنَ قِطْعَةٌ لَا ذُنْبَةَ، قِطْعَةٌ الْقَنَوَاتِ. أَحْلَامُ الذُّنَابِ تَنْتَمِي إِلَى آرِيَا سَلِيلَةٍ عَائِلَةٍ سِتَارَكْ، وَلَكِنْ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ كُلِّ مُحَاوَلَاتِهَا مَا زَالَتْ لَا تَسْتَطِيعُ تَخْلِيصَ نَفْسِهَا مِنْ آرِيَا. لَا فَرْقَ بَيْنَ نَوْمِهَا تَحْتَ الْمَعْبَدِ أَوْ فِي الْغُرْفَةِ الصَّغِيرَةِ تَحْتَ الْإِفْرِيزِ مَعَ ابْنَتِي بَرُوسْكَو، فَلَمْ تَزَلْ أَحْلَامُ الذُّنَابِ تُطَارِدُهَا لِيَلَا... وَأَحْيَانًا أَحْلَامُ أُخْرَى أَيْضًا.

أحلام الذئاب هي الجيدة، ففيها تكون سريعة قويّة، تنقُص على قرائسها وفي أعقابها قطيعها. الخلم الآخر هو ما تكرهه، الخلم الذي لها فيه ساقان بدلاً من أربع وتمشي متعثرة في أرض يباب ملأى بالأوحال والذماء والثيران. دانقا ثمطر السماء في ذلك الخلم وتسمع ضراخ أمها، لكن وحشاً برأس كلب يُعيقها عن الذهاب لإنقاذها. في ذلك الخلم تبكي دوماً كأنها فتاة صغيرة مذعورة. القِطط لا تبكي أبداً، ولا تبكي الذئاب. إنه مجرّد خلم سخيّف.

أخذت (القناة الطويلة) قارب بروسكو إلى أسفل قباب (قصر الحقيقة) الثحاسيّة الخضراء وأبراج عائليّتي پرستاین وآنطاریون الطويلة المربّعة، قبل أن يمرّ من إحدى قناطر نهر المياه العذبة الرّماديّة الهائلة إلى المنطقة المعروفة باسم (بلدة الغرين)، حيث المباني أصغر حجماً وأقلّ فخامة. في وقتٍ لاحقٍ من النهار ستختنق القناة بالقوارب الأفعوانيّة والضنادل، لكن الآن في ظلمة ما قبل الفجر لا يتحرّك في المجرى المائي غيرهم تقريباً. يحبّ بروسكو أن يصل إلى سوق الأسماك قبل أن يهدر (المارد) معلّناً شروق الشّمس ويتردّد صوته المدوّي عبر الهور خافتاً بعيداً ولكن مسموعاً بما فيه الكفاية لإيقاظ المدينة النائمة.

عندما ربط بروسكو وابناه القارب عند سوق الأسماك كان المكان يعجّ بباعة الزنجة وأسماك القُد والمحار وأم الخُلول، وبالفُكلاء والظُهاء وبائعات الخُردة وبخارة القوادس، يساوم بعضهم بعضًا بأصوات عالية بينما يفحصون صيد الضباح. سار بروسكو من قارب إلى قارب ملقيًا نظرةً على الأصداف بأنواعها، وبين الحين والآخر ينقُر على برميل أو قفص بعصاه، ويقول: «هذا، نعم». طق طق. «هذا». طق طق. «لا، ليس هذا. هذا». طق. قلما يتكلّم بروسكو، وتقول تاليا إن أباه يبخل بكلامه كما يبخل بنقوده. المحار وأم الخُلول والشراطين وبلح البحر والحلزونات وأحيانًا القريدس... يشتري بروسكو كل شيء حسب ما يبدو الأفضل هذا اليوم، وعلى الآخرين حمل الأقفاص والبراميل التي نقرَ عليها إلى القارب، فبروسكو يعاني ألما في ظهره ولا يستطيع أن يحمل شيئًا أثقل من دورقٍ من المزر البني.

دائمًا تفوح من كات رائحة السمك والملح لدى بدء رحلة عودتهم إلى البيت، لكنها اعتادتها تمامًا حتى إنها لم تُعَد تشفها تقريبًا، كما أنها لا ترى ما يعيبها في هذا العمل، وعندما تُؤلمها عضلاتها من الزّفع أو يتوجّع ظهرها من وزن برميلٍ تقول لنفسها إن قوّتها تزداد.

بمجرّد تحميل جميع البراميل والأقفاص على القارب دفعه بروسكو من جديد وعادَ بهم أبناه إلى (القناة الطويلة)، في حين جلست برّا وتاليا عند المقدّمة تتهاقسان. تعلم كات أنهما تتكلّمان عن فتى برّا الذي تتسلّق إلى سطح المنزل لثقايله بعد خلود أبيها إلى النوم.

حين أرسلها إلى المدينة قال لها الرّجل الطيّب أمّا: «تعلّمي ثلاثة أشياء جديدة قبل أن تعودى إلينا»، وهذا ما تفعله دائمًا. أحيانًا لا يكون ما تتعلّمه أكثر من ثلاث كلمات جديدة من البرافوسية، وأحيانًا تعود بحكايات من البحارة عن الأشياء الغريبة العجيبة الحادثة في العالم الواسع البليل حول (برافوس)، عن الحروب وأمطار الضّفادع والثّنانين الوليدة. أحيانًا تتعلّم ثلاث ذعابات جديدة أو ثلاث أحاجي جديدة أو حيل هذه الثّجارة أو غيرها، وكلّ فترة طويلة تعرف سرًا ما.

(برافوس) مدينة من الأسرار، مدينة ضبابٍ وأقنعة وهمسات، وجودها ذاته ظلّ سرًا طيلة قرنٍ كامل كما تعلّمت الفتاة، وموقعها ظلّ خفيًا ثلاثة أضعاف هذه المدة. قال لها الرّجل الطيّب: «القدن الثّسع الحُزة بنات (فاليريا) التي كانت، لكن (برافوس) طفلتها الثّغلة التي فرّت من البيت. نحن شعب هجين، أولاد الرّقيق والعاهرات واللّصوص، وأتى أسلافنا من عشرات البلدان إلى هذا الملاذ ليهربوا من سادة الثّنانين الذين استعبدوهم، ومعهم أتى عشرات الآلهة، لكن هناك إلها واحدًا يشتركون فيه جميعًا».

- «هو ذو الوجوه العديدة».

- «والأسماء العديدة. في (كوهور) هو الكبش الأسود، وفي (يي تي) أسد اللّيل، وفي (وستروس) الغريب. كلّ البشر يحنون له في النهاية، سواء أكانوا يعبدون الآلهة السّبعة أم إله الضّياء أم القمر أم الإله الغريق أم الرّاعي الأعظم. كلّ البشر ينتمون إليه... وإلاّ لكان في مكانٍ ما من العالم قوم يحيون إلى الأبد. هل تعرفين قومًا يحيون إلى الأبد؟».

فُتجيب الفتاة: «لا. كلّ البشر يُدرّكهم الموت».

دومًا تجد كات الرّجل الطيّب في انتظارها حينما تعود إلى المعبد فوق الهضبة ليلة اسوداد القمر، ودومًا يسألها: «ما الذي تعلّمته ولم تكوني تعلمينه لَمّا تركيننا؟».

- «أعلم ما يضعه يكو الضّرير في الصّلصة الحارّة التي يستخدمها مع محاره. أعلم أن الممّطين في (القنديل الأزرق) سيعرضون (سيّد الملامح الأليمة) وأن الممّطين في (السّفينة) ينوون الرّد بـ(سبعة ملاحين سكارى). أعلم أن بائع الكتب لوثو لورنل ينام في منزل الرّبّان الثّاجر موريدو پرستاین متى خرج الرّبّان الثّاجر الثّبيل إلى رحلة في البحر، ومتى عادت سفينته (الثّعلبة) إلى الوطن غادر لوثو».

- «جيد أن تعلمي هذه الأشياء. ومن أنت؟».

- «لا أحد».

- «تكذّبين. أنت كات قطة القنوات، إنني أعرفك جيّدًا. اذهبي ونامي أيتها الضّغيرة، فغدا عليك أن تخدمي».

- «كلّ البشر واجبههم الخدمة». وهذا ما تفعله ثلاثة أيام من كلّ ثلاثين. عندما يسودّ القمر لا تكون أحدًا، مجرّد خادمة للإله عديد الوجوه ترتدي الأبيض والأسود. تمشي إلى جوار الرّجل الطيّب في الظّلام العطر حاملّة مصباحها الحديد، وتغسل الموتى وتفرد ثيابهم وتُحصى مالهم، وأحيانًا تعود إلى مساعدة أوما في المطبخ مقطّعة الفطر الأبيض الكبير ونازعة أشواك الشمك... لكن فقط حين يسودّ القمر، أمّا بقيّة الوقت فهي فتاة يتيمة تنتعل حذاء ممزّقًا أكبر من قدميها وترتدي معطفًا بنيًا مهترئ الحاشية، وتصيح: «بلح بحر وحلزون وأمّ الخلول!» بينما تدور بعربتها في (ميناء راجمان).

تَعلَم أن القمر سيكون أسود اللّيلة، فليلة أمس لم يكن أكثر من شظية صغيرة في السماء، وما إن يراها الرّجل الطيّب سيسألها: «ما الذي تعلّمته ولم تكوني تعلمينه لَمّا تركينا؟». أعلّم أن برّيا ابنة بروسكو تلتقي فثى على الشّطح عندما ينام أبوها. تاليا تقول إن برّيا تتزكّه يتحشّسها مع أنه مجرّد جرد شطوح، والمفترض أن جميع جردان الشّطوح لصوص. على أن هذا شيء واحد، وستحتاج كات إلى شينين آخَرين، لكنها ليست قلقة، فعند الشّفن أشياء جديدة تتعلّمها طيلة الوقت.

حين عادوا إلى المنزل ساعدت كات ابنتي بروسكو على تفريغ القارب من البضائع، وقسم بروسكو وابنتاه الأصداف على ثلاث عربات ورضوها على طبقات من الطّحالب البحريّة، ثم قال بروسكو للفتيات كما يفعل كلّ صباح: «عُدن عندما تبعن كلّ شيء»، وخرجت ثلاثتهن يُنادين على الضّيد. ستذهب برّيا بعربتها إلى (الميناء الأرجواني) لتبيع ما معها للبخّارة البراقوسيين الذين ترسو سفنهم هناك، وتاليا إلى الأزقة المحيطة بـ(بركة القمر) أو تدور بين المعابد على (جزيرة الآلهة)، في حين اتّجهت كات إلى (ميناء راجمان) كما تفعل تسعة أيام من كلّ عشرة.

وحدهم البراقوسيون من (البلدة الغارقة) و(قصر أمير البحر) مسموح لهم باستخدام (الميناء الأرجواني)، أما السفن الآتية من الفدن الثمان أخوات (براقوس) فتستخدم (ميناء راجمان) الأكثر تواضعًا واضطرارًا واثسًا، كما أنه أعلى صخبًا أيضًا، إذ يزدحم البخارة والشجار من عشرات البلاد على أرصفته وفي أزقته مختلطين بمن يخدمونهم ويحتالون عليهم. إنه أكثر مكان تحبه كات في (براقوس)، إذ تحلو لها الضوضاء والزوايح الغربية ورؤية السفن التي وصلت مساء أمس ومعرفة تلك التي أقلعت. يروقه البخارة أيضًا؛ التايروشيون المجععون بأصواتهم الجهورية وشواربهم المصبوغة، واللايسينيون الشقر الذين يحاولون دومًا بخس أسعارها، لكنها تُفضل بني (جزر الضيف) ببشرتهم الملساء القاتمة كخشب الشاج، الذين يرتدون معاطف من الزيش الأحمر والأخضر والأصفر ويركبون سفنًا بجعية رائعة طويلة الضواري بيضاء القلوع.

وأحيانًا ثقابل وستروسيين أيضًا، بخارة وملاحين من قراقير (البلدة القديمة)، والقوادس التجارية من (وادي الغسق) و(كينجز لاندنج) و(بلدة الثوارس)، وأكواج التبيذ كبيرة البطون من (الكرمة). تعرف كات الفرادفات البراقوسية لبلح البحر والحلزون وأم الخلول، غير أنها تُنادي على بضاعتها في (ميناء راجمان) بلغة التجارة، لغة الأرصفة والمراسي وحانات البخارة، وهي فوضى خشنة من الكلمات والجمل من لغات عدة تصحبها إشارات وإيماءات أكثرها مهين، وتلك أكثر ما يروق كات. أي رجل يضايقها من شأنه أن يرى الثينة أو يسمع نفسه يوصف بقضيب الحمار أو فرج الثاقة. «ربما لم أر ناقة من قبل، لكنني أعرف فرج الثاقة حين أشفه».

كل فترة طويلة يُغضب قول كهذا أحدهم، لكنها تكون جاهزةً بسكينها الرقيق الذي تُحافظ على حدّته الشديدة وتعرف كيف تستخدمه أيضًا، كما أراها روجو الأحمر ذات أصيل في (الميناء السعيد) بينما ينتظر فروغ لانا. علّمها روجو كيف تُخبّئه في كمّها وتُخرجه عندما تحتاج إليه، وكيف تشقّ كيس نقود بنعومة وسرعة تُسقطان منه العملات كلّها قبل أن يلحظ صاحبها. مفيد أن تتعلّم هذا -كما أكّد الرّجل الطيّب نفسه- لا سيّما ليّلا حين يخرجُ مُبارزو البراقو وجرذان الشطوح.

كُنت كات صداقاتٍ على الأرصفة، وأصداقًاؤها عثّالون وممثّلون وضّاع حبال وفصلحو أسرع وأصحاب حانات وخقّارون وخبّازون وشخّاذون وعاهرات. منها يشترون أم الخُلول والحلزون، ولها يحكون قصصًا حقيقيةً عن (براقوس) وأكاذيب عن حيواتهم، ويضحكون من نُطقها عندما تُحاول أن تتكلّم البراقوسيّة، لكنها لا تدع هذا يُزعجها أبدًا، وبدلًا من ذلك تُريهم الثينة وتقول لهم إنهم فروج نوق، وهو ما يجعل ضحكهم يَدوّي أكثر. علّمها جايلورو دوتار أغاني بذيئة، وأخبرها أخوه جايلينو بأفضل البقاع لصيد تعاين الماء، وأراها ممثّلو (السفينة) كيف يقف البطل ولقنوها خطاباتٍ من (أغنيّة الروين) و(الفاتح وزوجتاه) و(سيّدة الثّاجر الشّبكة)، وعرضَ عليها كويل -الرّجل الضّغير حزين العينين الذي يُؤلف المسرحيّات الهزليّة البذيئة لـ(السفينة)- أن يُعلّمها كيف تُقبّل النساء، لكن تاجانارو لطفه بسمكة قد ووضّع نهايةً لهذا، بينما علّمها كوزومو الحاوي خفّة اليد. يستطيع كوزومو أن يبتلع الفرنان ويُخرجها من أذنيه قائلاً: «إنه السّحر»، فترثّ كات: «لا، الفأر كان في كمّك طوال الوقت. لقد رأيته يتحرّك».

«مُحَارَ وَأُمُ الْخُلُولِ وَحُلُوزُونَ» الْكَلِمَاتُ السَّحَرِيَّةُ، وَكُلُّ
الْكَلِمَاتِ السَّحَرِيَّةِ الْجَيِّدَةِ فَمَنْ شَانَهَا أَنْ تَأْخُذَهَا إِلَى أَيِّ مَكَانٍ
تَقْرِيْبًا. لَقَدْ صَعَدَتْ إِلَى مَتَوْنٍ شَقِيٍّ مِنْ (لَيْسَ) وَ(الْبَلَدَةُ الْقَدِيْمَةُ)
وَ(مِيْنَاءُ إِيْبَنٍ) وَبَاغَتْ مُحَارَهَا عَلَى سَطُوْحَهَا، وَفِي بَعْضِ الْأَيَّامِ
تَمُرُّ بِعَرَبِيَّتِهَا عَلَى بَرْوَجِ الْأَثْرِيَاءِ وَتَعْرُضُ أُمُ الْخُلُولِ الْمَخْبُوزَةَ عَلَى
الْحَرَسِ الْوَاقِفِيْنَ عَلَى الْأَبْوَابِ، وَفِي مَرَّةٍ نَادَتْ عَلَى بَضَاعَتِهَا
عَلَى دَرَجَاتِ (قَصْرِ الْحَقِيْقَةِ)، وَلَمَّا حَاوَلَ بَائِعٌ مَتَجَوَّلٌ آخَرَ أَنْ
يَطْرُذَهَا قَلَبَتْ عَرَبِيَّتَهُ وَبَعَثَتْ مُحَارَهُ عَلَى الْأَرْضِ. يَشْتَرِي مِنْهَا
مَأْمُورُو الْجَمَارِكِ فِي (الْمَرْقَأِ الْمَرْتِعِ)، وَكَذَا مَجْدُفُو (الْبَلَدَةِ
الْفَارَقَةِ) الَّذِينَ تَبْزُزُ قِيَابَهُمْ وَأَبْرَاجَهُمُ الْمَغْمُورَةَ مِنْ مِيَاهِ الْهَوْرِ
الْخَضِرَاءِ، وَفِي مَرَّةٍ عِنْدَمَا أَرْقَدَ التَّزْيِيفُ الْقَمْرِيُّ بَرِيًّا فِي فِرَاشِهَا
دَفَعَتْ كَاتَ عَرَبِيَّتِهَا إِلَى (الْمِيْنَاءِ الْأَرْجَوَانِيِّ) لِبَيْعِ الشَّرَاطِيْنِ
وَالْقَرِيْدَسِ لِمَلَّاحِي قَارِبِ نُزْهَةِ أَمِيرِ الْبَحْرِ الْمَغْطَى مِنْ أَقْصَاهُ
إِلَى أَقْصَاهُ بِرَسُومِ الْوُجُوهِ الضَّاحِكَةِ، وَفِي أَيَّامٍ أُخْرَى تَتَّبِعُ نَهْرَ
الْمِيَاهِ الْعَذْبَةِ إِلَى (بَرْكَةِ الْقَمْرِ)، حَيْثُ تَبِيعُ لِمُبَارِزِي الْبَرَاثَةِ
الْمَخْتَالِيْنَ فِي حَرِيْرِهِمُ الْمَخْظُوطِ وَحَقْلَةِ الْمَفَاتِيْحِ وَالْقُضَاةِ الَّذِينَ
يَرْتَدُّونَ الْمَعَاطِفَ الْبَيْئَةَ وَالزَّمَادِيَّةَ الْبَاهِتَةَ، لَكِنَّا دَوَقْنَا تَعُودَ إِلَى
(مِيْنَاءِ رَاجِمَانِ).

«مُحَار وأُم الخُلُول وحِلْزُون!»، صاحت الفتاة دافعةً عربيتها على الأرصفة. «بلح بحر وقريدس وحِلْزُون!». جاءت قِطَّة برتقالية مُمسِخة تمشي وراءها وقد اجتذبتها الضياع، وبعد مسافة ظهرت قِطَّة ثانية، واحدة رمادية حزينة ممزَّعة بالأوساخ ذيلها قصير. تحبُّ القِطط رائحة كات، وفي بعض الأيام تجد دُستةً منها ماشيةً وراءها قبل مغيب الشَّمس. من حين إلى آخر تُلقِي لها كات محارةً وتُشاهد لتري مَنْ يظفر بها، وقد لاحظت أن أكبر القِططة حجبًا نادرًا ما يربح، وغالبًا تذهب الغنيمة إلى القِطط الأصغر الأسرع بنحولها وشراستها وجوعها. مثلي. قِطَّها المفضل عجوز له أذن مقضومة يُذكِّرها بقِطَّ آخر اعتادت مطارِدته ذات يوم في (القلعة الحمراء). لا، كانت تلك فتاة ما أخرى ليست أنا.

رأت كات أن سفينتين من التي كانت هناك البارحة رحلتا، لكن خمسًا جديدات جنن، هي قرقور صغير اسمه (القرد الثحاسي)، وسفينة صيد حيتان إيبينيزية تفوح منها روائح القطران والدم وزيت الحيتان، وكوجان باليان من (ينتوس)، وقادس أخضر رشيق من (قولانتيس القديمة). توقفت كات عند قدم كل لوح عبور تُنادي على أم الخُلُول والمحار، مرَّة بلُغة التُّجارة ومرَّة بعامية (وستروس). سبَّها أحد أفراد الطاقم على سفينة صيد الحيتان بصوت مدو أخاف قِططها، وسألها أحد الملاحين الينتوشيين كم تُريد مقابل المحارة التي بين ساقِها، لكنها وجدت حُظًا أفضل عند الشفن الأخرى، والتهم مساعد زُبَّان على متن القادس الأخضر يُصف دُستةً من المحار وحكى لها كيف قتل القراصنة اللايسينيون الزُبَّان عندما حاولوا الاستيلاء على سفينتهم قُرب (الأعتاب)، وأضاف: «كان ذلك الوغد سان ومعه (ابن الأم العجوز) وسفينته الكبيرة (قاليريان). لقد قررنا منهم، ولكن بالكاد».

أُتُّضِح أن القرقور الصَّغير (القرد الثَّحاسي) من (بلدة الثَّوارس)، وقد سعدَ طاقمه الؤستروسي للكلام مع أحدِ بالُّغة العاميَّة. سألها أحدهم عَمَّا أَفْضَى بفتاةٍ من (كينجز لاندنج) إلى بيع بلح البحر على أرصفة المواني في (براقوس)، فقُضت عليهم حكايتها، وقال لها واحد آخر: «سنبقى هنا أربعة أيام وأربع ليالٍ طويلة. أين يجد المرء القليل من الثَّسلية؟».

أخبرتهم كات: «الممثلون في (السَّفينة) سيُقدِّمون (سبعة ملاحين سكارى)، وهناك عراك ثعابين الماء في (القبو المرقط) عند بؤابة (البلدة الغارقة)، أو إذا أردتم فيمكنكم الذَّهاب عند (بركة القمر) حيث يتنازل مُبارزو البراقو ليلاً».

قال بخار آخر: «نعم، لا بأس بهذا، لكن ما يُريده وات حقًا هو امرأة».

- «أفضل العاهرات في (الميناء السَّعيد)، حيث ترسو (السَّفينة)»، وأشارت في اتِّجاه المكان. بعض عاهرات أرصفة المواني متوحَّشات، وأحيانًا لا يدري البخارة الآتون لتوهم من البحر من منهن كذلك. سقرون أسوأهن، ويقول الجميع إنها سرقت وقتلت دسنةً من الرِّجال ودحرجت جثثهم إلى القنوات لثطيم ثعابين الماء، والابنة السَّكيرة لئنة العريكة عندما تكون مفيدة فقط وليس حين تشرب، وجاين القرحة في الحقيقة رجل. «اسألوا عن مري. اسمها الحقيقة ميرالين، لكن الكل يدعوها بمري، وهي مريحة حقًا». تشتري مري دسنةً من المحار كلَّما ذهبت كات إلى الماخور وتتقاسمه مع فتياتها، ويثفق الجميع على طيبة قلبها، «ثم إن لي أكبر تديين في (براقوس) كلَّها»، كما يحلو لمري نفسها أن تتباهى.

فتياتها أيضًا لطيفات؛ بعائي الخجول وزوجة البحار، ويانا ذات العين الواحدة التي ترى مستقبلك في قطرة من الدم، ولانا الصغيرة الحسنة، وحتى آسادورا الإيبينيزية ذات الشارب. ربما لا يكن جميلات حقًا، لكنهن يترققن بها. أكّدت كات لرجال (القرد الثحاسي) قائلة: «كلّ العثّالين يذهبون إلى (الميناء السعيد). مري تقول: الفتيان يفرغون أحمال السفن وفتياتي يفرغن أحمال من يبحرون بها».

- «وماذا عن العاهرات الممتازات اللاتي يفتنون عنهن؟»، سألتها أصغر القردة، صبي أحمر الشعر منقش الوجه لا يمكن أن تزيد بسئه على السادسة عشرة. «أهن جميلات كما يقولون؟ أين أجد واحدة منهن؟».

نظر إليه رفاقه البحارة وضحكوا، وقال أحدهم: «بحقّ الجحائم الشبع يا فتى، ربما يستطيع الزّيان أن يحضل لنفسه على محظية، لكن فقط إذا باع السفينة اللعينة. هذا النوع من الفروج للوردات وأمتالهم وليس لنا».

محظيات (براقوس) شهيرات في جميع أنحاء العالم، يُقْنِي
عنهن المطربون، ويُغْدِق عليهن الضّاعة وِضّاع الجواهر بالهدايا،
ويتوشل الجرفيئون شرف أن يكن زبائنهم، ويدفع الأمراء الثّجار
أسعارًا فلكيّة كي يتأبطن أذرعهم في الحفلات والمآدب
وعروض الممثلين، ويقتل بعض مبارزي البراقو بعضًا باسمهن.
أحيانًا بينما تدفع عربتها بطول القنوات تلمح كات إحداهن مازّة
في قارب أو في طريقها إلى أمسيّة مع عشيقٍ ما. لكل محظيّة
صندلها الخاص وخدمها الذين يُبحرون بها إلى مواعيدها.
الشّاعرة في يدها كتاب دوما، وظلّ القمر لا ترتدي إلّا الأبيض
والفضي، ومملكة البحار لا تُرى أبدًا من دون وصيفاتها عرائس
البحر، أربع عذراوات في ريعان الإزهار يحملن ذيل قُستانها
ويضفّفن شعرها. كل محظيّة أروع جمالًا من الأخرى، وحتى
الليدي الملتمة جميلة، وإن كان من تتخذهم غشاقًا فقط يرون
وجهها.

قالت كات للبخّارة: «بعث ثلاثة حلزونات لمحظيّة. نادّتنني
وهي تنزل من صندلها». كان بروسكو قد شدّد عليها ألا تُخاطب
أي محظيّة ما لم تُبادرها المحظيّة بالكلام أولًا، لكن المرأة
ابتسقت لها ونقذتها أجرها فضّة تفوق قيمة الحلزونات بعشرة
أضعاف.

- «من هي؟ ملكة الحلزونات؟».

أجابتهن: «اللؤلؤة السوداء». تدّعي مري أن اللؤلؤة السوداء
أشهر المحظيات جميعًا، وقالت المرأة لكات: «إنها سليلة
الثّنانين. اللؤلؤة السوداء الأولى كانت ملكة قُرصانة اتّخذها
أمير وستروسي عشيقّة وأنجب منها ابنة كبرت لتُصبح محظيّة،
ثم تبعتها ابنتها وابنة ابنتها، وهكذا دواليك حتى اللؤلؤة
السوداء الحاليّة. ماذا قالت لك يا كات؟».

ردّت الفتاة: «قالت: سأخذ ثلاثة حلزونات، وسألّتنني: هل

معك صلصة حارّة أيتها الضّغيرة؟».

- «وماذا قلت؟».

- «قلت: لا يا سيّدتى، ولا ثنّادىنى بالصّغيرة، إن اسمى كات. المفترّض أن تكون معى صلصة حارّة. يكو معى، ويبيع ثلاثة أضعاف ما يبيعه بروسكو من المحار».

حكّت كات عن اللؤلؤة السوداء للرّجل الطيّب أيضًا، وقالت له: «اسمها الحقيقى بيليجير أوثيريس». كان هذا واحدًا من الأشياء الثلاثة التى تعلّمتها.

قال الكاهن برفق: «صحيح. أمّها كانت بيلونارا، لكن اللؤلؤة السوداء الأولى كان اسمها بيليجير أيضًا».

على أن كات تعرف أن رجال (القرد الثّحاسى) لن يأبھوا لاسم أم محظيّة، وبدلًا من ذلك سألتهم عن أخبار (الممالك الشّيع) والحرب.

أجاب أحدهم ضاحكًا: «الحرب؟ أيّ حرب؟ ليست هناك حرب».

وقال آخر: «ليس فى (بلدة الثّوارس) وليس فى (الوادي). اللورد الصّغير أبقانا بمنأى عنها مثلما فعلت أمّ».

مثلما فعلت أمّ. سيّدة (الوادي) أخت أمّها. «الليدى لايسا. هل...».

- «... ماثت؟»، أنهى الفتى ذو النّمش الممتلئ رأسه بالمحظّيات سؤالها. «نعم، قتلها مغنيّها».

- «أوه». لا يعنى الأمر لى شيئًا. قُطّعت القنوات لم تكن لها حالة قُطّعت. رفعت كات عربتها ودفعتها بعيدًا عن (القرد الثّحاسى) لتتهدّ على حجارة الرّصف، وناذت: «محار وأم الخلول وحلزون! محار وأم الخلول وحلزون!». باغت أكثر ما معها من أم الخلول للعثّالين الذين يُفرغون حمولة كوج الثّبيذ الكبير الآتى من (الكرمة)، والبقية للرّجال الذين يصلحون قادشا تجاريًا من (مير) دكّته العواصف.

على مسافة أبعد على الرّصيف وجَدَت تاجانارو جالسا مسندا ظهره إلى دعامة إلى جوار كاسو ملك الفقمات، وابتاع منها الرّجل بعض بلح البحر، ونبخ كاسو وتركها تهزّ زعنفته. استحثّها تاجانارو قائلاً وهو يمتصّ بلح البحر من الصّدف: «تعالى واعملى معي يا كات». إنه يبحث عن شريك جديد منذ غرست الابنة الشّكيرة سكّينها في يد ناربو الضّغير. «سأنقذك أجراً أكثر من بروسكو ولن تكون رائحتك كالشّمك».

ردّت: «كاسو يحبّ رائحتي»، ونبخ ملك الفقمات كأنه موافق. «ألم تتحسّن يد ناربو؟».

قال تاجانارو متذمّراً بين بلحتين: «ثلاثة من أصابعه لا تنعني. ما فائدة نشالٍ لا يستطيع استخدام أصابعه؟ ناربو كان بارعاً في النّشل وليس كذلك في اختيار العاهرات».

- «مِري تقول المثل». شعرت كات بالخزن. لقد أحبّت ناربو الضّغير على الرغم من كونه لثّماً. «ماذا سيفعل؟».

- «يقول إنه سيعمل على مجذاف. يظنّ أن إصبعين كافيان لهذا، وأمير البحر يبحث دائماً عن ملاحين جدد. قلّ له: لا يا ناربو، هذا البحر أبعد من عذراء وأقسى من عاهرة. أفضل لك أن تقطع يدك وتتسوّل. كاسو يعرف أنني محقّ، أليس كذلك يا كاسو؟».

نبخ كلب البحر وابتسقت كات، وألقت له حلزونا آخر قبل أن تذهب في حال سبيلها.

كان الثَّهَارُ قُرْبَ آخِرِهِ عِنْدَمَا بَلَغَتْ كَات (الْمِيْنَاءُ الشَّعِيْدُ) قُبَاةَ
مَرْسَى (الشَّفِيْنَةُ)، وَقَدْ جَلَسَ عِدَدٌ مِنَ الْمُمَثِّلِيْنَ أَعْلَى الشَّفِيْنَةِ
الضُّخْمَةِ الْمَانِلَةِ يُقَرِّضُونَ قَرِيْبَةً نَبِيْذٌ مِنْ يَدٍ إِلَى يَدٍ، لَكِنْ حِيْنَ رَأَوْا
عَرَبَةً كَات نَزَلُوا لِيَشْتَرُوا بَعْضَ الْمَحَارِ. سَأَلْتَهُمْ عَنْ أَخْبَارِ عَرْضِ
(سَبْعَةِ مَلَّاحِيْنَ سَكَارَى)، فَهَزُّ جَوْسِ الْمَكْتَنِبِ رَأْسَهُ مَجِيْبًا:
«كُوِيْنَسُ ضَبْطُ الْآكُو فِي الْفِرَاشِ مَعَ سَلُوِي أَخِيْزًا، وَتَبَارَزُ الْاِثْنَانِ
بِسَيْفِيْ مُمَثِّلِيْنَ ثُمَّ تَرَكَانَا. يَبْدُو أَنَّنَا سَنَكُونُ خَمْسَةُ مَلَّاحِيْنَ
سَكَارَى فَقَطِ اللَّيْلَةَ».

أَعْلَنَ مِيْرْمَلُو: «سَنَبْذُلُ قَصَارَى جِهْدِنَا لِنُعَوِّضَ غِيَابَ الْمَلَّاحِيْنَ
بِالشُّكْرِ. أَنَا عَنْ نَفْسِيْ قَادِرٌ عَلَى هَذَا».

أَخْبَرَتْهُمْ كَات: «نَارِبُو الصَّغِيْرُ يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ مَلَّاحًا. إِذَا
حَصَلَتْهُمْ عَلَيْهِ تُصْبِحُونَ سَيِّئَةً».

قَالَ لَهَا جَوْسُ: «الْأَفْضَلُ أَنْ تَذْهَبِي إِلَى مِرِي. تَعْلَمِيْنَ كَيْفَ
تَكُونُ عِنْدَمَا لَا تَأْكُلُ الْمَحَارَ».

لَكِنْ حِيْنَ دَخَلَتْ كَات الْمَاخُورَ وَجَدَتْ مِرِي جَالِسَةً بَعِيْنِيْنَ
مَقْمُضَتَيْنِ تُصْغِي إِلَى دَارِيُونِ الَّذِي يَعْزِفُ عَلَى قِيْثَارَتِهِ الْخَشْبِيَّةِ.
كَانَتْ يَانَا مَوْجُودَةً أَيْضًا، تُضَفِّرُ شَعْرَ لَانَا الذَّهْبِيَّ الطَّوِيلَ
الْجَمِيْلَ. /غَنِيَّةٌ حُبِّ سَخِيْفَةٍ أُخْرَى. دَائِمًا تَتَوَسَّلُ لَانَا إِلَى
الْمَطْرَبِ أَنْ يُغَلِّيَ لَهَا أَغَانِيَّ الْحُبِّ السَّخِيْفَةِ. إِنَّهَا أَصْفَرُ الْعَاهِرَاتِ
سَيِّئًا، فِي الرَّابِعَةِ عَشْرَةَ فَقَطْ، وَتَعْلَمُ كَاتُ أَنَّ مِرِي تَطْلُبُ مُقَابَلَهَا
ثَلَاثَةَ أَضْعَافٍ مَا تَطْلُبُهُ ثَمْنًا لِلْفَتِيَّاتِ الْآخَرِيَّاتِ.

أغضبتها رؤية داريون الجالس هناك مختالاً، يرمي لانا بنظرات الشهوة بينما تتراقص أصابعه على أوتار القيثارة. تُسقيه العاهرات المغني الأسود، مع أن الشواد يكاد يغيب عنه تماماً الآن، فبالمال الذي يجنيه من غنائه حوّل الغراب نفسه إلى طاووس. اليوم يرتدي معطفاً مترقفاً من المخمل المبطن بالفرو وسترة مخططة بالأبيض والأرجواني الفاتح وسراويل مبارزي البراقو المبرقشة، لكنه يملك معطفاً حريراً أيضاً، وواحدًا من المخمل الخمري المبطن بقماش الذهب. الأسود الوحيد في ثيابه حذاؤه، وسمفته كات يقول للانا إنه ألقى البقية كلها في قناة، وأعلن: «لقد ضقت ذرعاً بالظلام».

بينما يُغني داريون عن ليدي سخيصة ألفت نفسها من فوق برج سخييف لأن أميرها السخيف مات فكّرت الفتاة: إنه رجل في عرس الليل. المفترض أن تذهب الليدي وتقتل من قتلوا أميرها وأن يكون المغني على (الجدار). مع بداية تردّد داريون إلى (الميناء الشعيد) كادت آريا تسأله أن يأخذها معه وهو عائد إلى (القلعة الشرقية)، ثم إنها سمفته يُخير بثاني بأنه لن يعود أبداً، ويقول: «أسرة ضلبة وسمك قد مملح وحراسة بلا نهاية، هذا هو (الجدار). ثم إن (القلعة الشرقية) ليست فيها واحدة ينصف جمالك. كيف يمكنني أن أترككِ؟». سمفته كات يقول الكلام نفسه للانا، ولواحدة من عاهرات (المقططة)، بل وللعندليب ليلة غلى في (دار القناديل الشبعة).

ليتني كنت هنا يوم ضربه الشممين. ما زالت الحادثة تُضحك عاهرات مري، وتقول يانا إن الضبي الشممين أحمر كالبنجر كلما لمستته، لكن حين بدأ يُثير المتاعب جعلتهم مري يجزونه إلى الخارج ويلقونه في القناة.

كانت كات تُفكر في الصبي السمين وتذكر إنقاذها إياه من تيرو وأورييلو عندما وجدت زوجة البخار إلى جوارها تُغمغم بنعومة بعامية (وستروس): «يُعْثِي أغاني جميلة. لا بد أن الآلهة تحبه ما دامت أنعمت عليه بهذا الصوت وهذا الوجه الوسيم».

فكرت آريا: إنه وسيم الوجه وقبيح القلب، لكنها لم تقلها. في مرة تزوج داريون زوجة البخار التي لا تُضاجع إلا من يتزوجونها. أحيانًا يشهد (الميناء السعيد) ثلاثة أو أربعة زفافات في الليلة، وغالبًا ما يُؤدّي الزّاهب الأحمر البشوش السّكير إزيليّو الطّقوس، وإن لم يكن هو فايوستس الذي كان في الماضي سيتون في (سبت ما وراء البحر)، وفي حال غياب الزّاهب والسّيتون تهرع إحدى العاهرات إلى (السّفينة) لتأتي بأحد الممثلين. دائمًا تُزعم مري أن الممثلين زهبان أفضل من الزّهبان، خصوصًا ميرملو.

الزّفافات صاحبة مرحة وتندقق فيها أنهار التّبيذ، وكلّما تمرّ كات في أثناء أحدها بعربتها تصرّ زوجة البخار على أن يبتاع زوجها الجديد بعض المحار لتقويته من أجل إتمام الزّيجة. إنها فتاة طيبة ضحوك، وإن خطر لكات أن فيها شيئًا من الحزن أيضًا.

تقول العاهرات الأخريات إن زوجة البخار تزور (جزيرة الآلهة) في أيام إيناع زهرتها وتعرف كلّ الآلهة المقيمة هناك، بما فيها تلك التي نسيّتها (براقوس). يقلن إنها تذهب للضّلاة من أجل زوجها الأول، زوجها الحقيقي الذي ضاع في البحر حين كانت فتاة في سنّ لانا، وقالت يانا العوراء التي تعرفها منذ فترة أطول من الأخريات: «تظنّ أنها إذا وجدت الإله السّليم فسيرسل الرّيح لتدفع إليها بحبيبها القديم، لكنني أصلي ألا يحدث هذا أبدًا. لقد مات حبيبها وتذوّقت هذا في دمها. إذا عاد إليها فسيعود جثّة».

كانت أغنية داريون في نهايتها أخيرًا، وإذ تلاشت النغمات الأخيرة في الهواء تنهدت لانا ووضع المغني قيثارته جانبًا وجذب الفتاة إلى حجره، وما إن بدأ يُدغِغها حتى رفعت كات صوتها قائلة: «معي محار إذا كان أحد يُريد»، فانفتحت عينا مري من فورها، وقالت: «عظيم. هاتيه أيتها الصغيرة. يانا، أحضري الخبز والخل».

حين خرجت كات من (الميناء السعيد) ومعها ضرة ممتلئة بالثقود وعربة خالية إلا من الملح والطحالب كانت الشمس الحمراء المنتفخة عالقة في السماء وراء صف من الضواري. خرج معها داريون أيضًا، إذ كان قد وعد بالغناء في الخان المسقى (ثعبان الماء الأخضر) هذا المساء، كما قال لها وهما مشيان جنبًا إلى جنب، وأضاف متباهيًا: «كلما غنيث هناك أعوذ بالفضة، وفي بعض الليالي يحضر ربابنة وملاك». عبرا الجسر الصغير وشقًا طريقهما في شارع خلفي ملتو وقد بدأت الظلال تستطيل، وواصل داريون: «قريبًا سأغني في (الميناء الأرجواني)، وبعده في (قصر أمير البحر)». كانت عربة كات تُقعقع على حجارة الرصف مصدرًا موسيقاها الخاصة، والمغني يتابع: «البارحة أكلت الزنجة مع العاهرات، لكن خلال عام سأكل الشراطين الإمبراطورية مع المحظيات».

قالت كات: «ماذا حدث لأخيك؟ ذلك الشمين، هل وجد سفينة ذاهبة إلى (البلدة القديمة)؟ قال إنه كان من المفترض أن يُبحر على متن (الليدي أوشانورا)».

- «كلنا كذلك. إنه أمر اللورد سنو. قلت لسام أن يتزك العجوز، لكن الأحقق البدين لم يُصغ»، والتمغ ضوء الشمس الفاربة الأخير في شعر داريون إذ أضاف: «فات أوان ذلك».

قالت كات إذ خطوا إلى عتمة رُقاقي صغير ملتو: «بالضبط».

لدى عودتها إلى منزل بروسكو كان ضباب المساء يحتشد فوق القناة الصغيرة. ركنت عربتها ووجدت بروسكو في حجرته، وبقوّة وضعت صرّة الثّقود على الطاولة أمامه، ثم إنها وضعت الحذاء أيضًا.

رَبَّت بروسكو على الصرّة، ثم قال: «عظيم، لكن ما هذا؟».

- «حذاء».

قال بروسكو: «العثور على الأحذية الجيدة صعب، لكن هذا صغير للغاية على قدمي»، ورفع فردة ورزّ عينيه يتفحصها.

- «القمر سيكون أسود الليلة».

رَدّ بروسكو: «خير لك أن تذهبي للصلاة إذن»، وأزاح الحذاء جانبًا وضَبّ العملات ليحصيها مضيّفًا: «قالار دوهايرس».

قالار مورجوليس.

ارتفع الضباب من كلّ جهة حولها بينما تقطع شوارع (براقوس)، ولدى دخولها من مصراع باب (دار الأبيض والأسود) المنحوت من خشب الويروود كانت ترتجف بعض الشيء. شموع قليلة مشتعلة هذا المساء، يتذبذب لهبها كالشهب، وفي الظلام كلّ الآلهة غرباء.

في الأقبية حلّت معطف كات المهترئ وخلعت شترة كات البنيّة ذفرة الزّائحة وركلت حذاء كات المبقّع بالملح وتجرّدت من ثياب كات الداخليّة، ثم استحقت بالماء والليمون لتغسل عن جسدها رائحة قذرة القنوات، وحين خرجت وقد نظّفت نفسها بالصابون وفرّكت جلدها حتى تورّد والتصقّ شعرها بوجنتيها لم تُعد كات موجودة. ارتدت ثوبًا نظيفًا وانتعلت حُفّين ناعمين من القماش، ثم ذهبت إلى المطبخ لشطّلب القليل من الطعام من أوما. كان الكهنة والفاعاونون قد أكلوا بالفعل، لكن الظّاهية أبقت لها قطعة من سمك القد المحمّر اللّذيذ والقليل من اللّفت الأصفر المهرّوس. التهفت طعامها بنهم وغسلت الطبق، ثم ذهبت تُعاون اللّقيطة على إعداد عقاقيرها.

أغلب دورها إحضار ما تطلبه اللقيطة، فتصعد سُلماً لتجد الأعشاب وأوراق الأشجار. قالت لها اللقيطة وهي تطحن القليل منها في الهاون: «خلو الكرى أطف الشموم. بضع حبات تجعل نبضات القلب الشريعة تتباطأ وتوقف اليد عن الارتجاف وتجعل المرء يشفر بالهدوء والقوة. رشّة واحدة تمنح المرء ليلة من النوم العميق بلا أحلام، وثلاث رشّات تجلب النوم الذي لا ينتهي أبداً. الطعم حلو للغاية، ولذا فمن الأفضل استخدامه في الكعك والفطائر والخمور المحلاة بالعسل. هاك، يمكنك أن تشمّي رائحته الخلوة»، وتركبتها تشمّم ثم أرسلتها تصعد السلم لتجد قارورة زجاجيّة حمراء. «هذا شمّ أقسى، لكنه بلا طعم أو رائحة، ومن ثمّ إخفاؤه أسهل. يُسّمونه دموع ليس، ويُذوّب في الثّبيذ أو الماء ليجعل أمعاء المرء ومعدته تتأكل ويقتله كأنه مرض في هذه الأعضاء. تشمّميه»، فتنشّقت آريا ولم تشمّ شيئاً. ثم إن اللقيطة وضعت الذمّوع جانباً وفتحت جرّة حجريّة منتفخة قائلة: «هذا المعجون متبل بدماء البازيليسق، يُعطى اللحم المطبوخ رائحة مشهيّة، لكن إذا أكل أفضى إلى جنون عنيف في الإنسان والحيوان. ستجدين الفأر يُهاجم الأسد إذا ذاق دماء البازيليسق».

مضغت آريا شفتها متسائلة: «هل يصلح مع الكلاب؟».

أجابّت اللقيطة: «مع كلّ حيوان حار الدّماء»، وصففتها.

رفعت يدها إلى وجهها شاعرة بالذهشة أكثر من الألم،

وقالت: «لماذا فعلت هذا؟».

- «آريا سليفة عائلة ستارك هي من تمضغ شفتها متى فكّرت.

هل أنت آريا سليفة عائلة ستارك؟».

ردّت غاضبة: «أنا لا أحد. من أنت؟».

لم تتوقع أن تُجيبها اللقيطة، لكنها فعلت. «وُلِدْتُ طفلةً وحيدةً في عائلة عريقة وكنت وريثة أبي الثبيل. مائت أمي في صغري ولا أذكرها، وحين كنت في السادسة تزوج أبي ثانية، وعاملتني زوجته الجديدة بطيبة إلى أن أنجبت ابنةً من لحمها ودمها، وعندها أرادتني أن أموت كي ترث ابنتها ثروة أبي. كانت لتسعى إلى عطية الإله عديد الوجوه، ولكنها لم تتحمل التضحية التي كان ليطلبها منها، وبدلاً من ذلك خطر لها أن تُسَمِّني بنفسها. تركني الشُّم كما ترينني الآن لكنني لم أمت، ولما أخبرَ المُعالجون في (بيت الأيدي الحمراء) أبي بما فعلته جاء هنا وقَدَّم قُرباناً، عارضاً ثروته بأكملها ومعها أنا، وأجاب هو ذو الوجوه العديدة نِعاءه وجيء بي إلى المعبد لأُخدم، وتلقت زوجة أبي الهدية».

تفرّست آريا فيها بحذر سائلة: «أهذه حكاية حقيقة؟».

- «فيها حقيقة».

- «وأكاذيب أيضاً؟».

- «هناك نقيض للحقيقة، وهناك مبالغة».

كانت تُراقب وجه اللقيطة طيلة الوقت وهي تحكي قصتها، إلا أن أمارة لم تظهر على وجه الفتاة الأخرى. قالت لها: «الإله عديد الوجوه أخذ ثلثي ثروة أبيك وليس كلها».

- «بالضبط، هذه هي المبالغة».

ارتسفت على وجه آريا ابتسامة عريضة، ثم إنها أدركت أنها تبتسم فقرضت وجنتها، وقالت لنفسها: تحكّمي في وجهك. ابتسامتي خادمتي، ويجب أن تأتي بأمرى فقط. «وما الكذبة؟».

- «لا كذبة. لقد كذبت بشأن الكذب».

- «حقاً؟ أم أنك تكذبين الآن؟».

لكن قبل أن تُجيبها اللقيطة دخل الرجل الطيب الحجرة مبتسماً، وقال: «غدت إلينا».

- «القمر أسود».

- «نعم. ما الأشياء الثلاثة الجديدة التي تعلّمتها ولم تكوني تعلمينها لقا تركيننا؟».

كاذت تقول: أعلم ثلاثين شيئًا جديدًا، وأجابّت: «ثلاثة من أصابع ناربو الصغير لا تتثنى، ويريد أن يصبح ملاحًا».

- «جيد أن تعلمي هذا. وماذا أيضًا؟».

استرجعت أحداث يومها في رأسها، ثم قالت: «كوينس وآلاكو تشاجرا وتركنا (السفينة)، لكنني أظن أنهما سيعودان».

- «تظنين فقط أم تعلمين؟».

قالت مضطربة على الرغم من يقينها: «أظن فقط». الممثلون يحتاجون إلى كسب رزقهم كغيرهم، وكوينس وآلاكو لا يصلحان كفاية لـ (القنديل الأزرق).

قال الرجل الطيب: «بالضبط. والشئ الثالث؟».

هذه المرة أجابت بلا تردد: «داريون مات، المغلي الأسود الذي ينام في (الميناء السعيد). كان متهزئًا من حرس الليل في الحقيقة. أحدهم ذبحه وألقاه في القناة، لكنه احتفظ بحذائه».

- «العمور على الأحذية الجيدة صعب».

قالت محاولة الحفاظ على جمود ملامحها: «بالضبط».

- «ثرى من فعل هذا؟».

- «آريا سليلة عائلة ستارك». كانت ثراقب عينيه وفمه وعضلات فكه.

- «تلك الفتاة؟ حسبتها غادرت (براقوس). من أنت؟».

- «لا أحد».

ردّ: «تكذابين»، والتفت إلى اللقيطة قائلاً: «خلقي جاف. أسدي لي صنيغًا واجليبي لي كوبًا من الثيبذ وحليتنا دافئًا لصديقتنا آريا التي رجعت إلينا على غير توفّع».

في طريقها عبر المدينة تساءلت آريا عما سيقوله الرّجل الطيّب عندما تُخبره بأمر داريون. ربما يغضب منها، أو ربما يَسُرُّ لأنها أعطت المغني هديّة الإله عديد الوجوه. عشرات المرات دوّرت هذا الحديث في مخيلتها كممثلٍ في مسرحيّة، لكن ما لم يخطر لها هو الحليب الدّافئ!

حين وصل الحليب شربته آريا، وكانت له رائحة محروقة بعض الشيء وخلف في فمها مذاقًا مُرًا. قال لها الرّجل الطيّب: «اذهبي إلى النوم الآن أيتها الصّغيرة. غداً واجبك أن تخدمي».

ليلتها حلقت من جديد بأنها ذئبة، لكن حلمها هذا كان مختلفًا عن الأحلام الأخرى. في هذا الحلم لم يكن لها قطيع، وراحت تمضي وحيدة، تجري فوق أسطح المباني وتمشي بصمت على ضفاف قناة متربّصة بظلال في الضباب. ولقا استيقظت في الضّباح الثّالي وجَدّت نفسها عمياء.

سامويل

(ريح القرفة) سفينة بجعيّة من (بلدة الأشجار الطويلة) في (جزر الصّيف)، حيث الرّجال سود والنّساء لعوبات والآلهة ذاتها غريبة، وليس على المتن سبتون يقودهم في صلاة الجنازة، فوقعت المهمة على عاتق سامويل تارلي في مكان ما عند ساحل (دورن) الجنوبي المتلّطي بالشّمس.

ارتدى سام ثيابه السوداء الثّقيلة من أجل الثّأبين، على الرغم من حرارة الأصيل ورطوبته وغياب نفحات الرّيح إلّا قليلاً. استهلّ كلامه قائلاً: «كان رجلاً صالحاً»... لكن ما إن خرجت الكلمات من فمه حتى علم أنها خطأ. «لا، بل كان رجلاً عظيمًا. كان مايستر من (القلعة)، مسلسلًا ومحلّقًا، وأخًا في حرس اللّيل شيمته الإخلاص. حين وُلِدَ أطلقوا عليه اسم بطل مات في ريعان الشّباب، ومع أنه عاش طويلًا جدًا فحياته لم تكن أقلّ بطولة. لم يكن هناك رجل أكثر منه حكمة أو حنانًا أو طيبة. لقد عرف (الجدار) دسّته من القادة الذين أتوا وذهبوا خلال سنين خدمته، لكنه كان موجودًا دومًا ليسديهم النّصيحة، بل وكان ناصحًا لملوك أيضًا. كان بإمكانه أن يكون هو نفسه ملكًا، لكن لقا عرضوا عليه الثّاج قال إن عليهم أن يُعطوه لأخيه الصّغير. كم رجلاً يُمكنه أن يفعل شيئًا كهذا؟». أحسّ سام بالعبرات تترقرق في عينيه، فأدرك أنه لا يقدر على الاستمرار طويلًا، وختم بقوله: «كان من دم الثّنين، لكن نيرانه همدت. كان إيمون تارجارين، والآن انتهت حراسته».

تمتعت جيلي بَعده وهي تُهزّز الرّضيع بين ذراعيها: «والآن انتهت حراسته»، ورُدّدت كوچا مو الكلمات بلُغة (وستروس) العاميّة ثم كزرتها بلُغة الضّيف لزوندو وأبيها وبقية الطّاقم المجتمع. طأطأ سام رأسه وانفجّر في البكاء، نحيبه عالٍ عنيف لدرجة هزّت جسده كلّهُ، فذهبت جيلي إليه ووقفت إلى جواره تاركة إياه يبكي على كفها، وقد اغرورقت عيناها بالذّموع أيضًا.

الهواء رطب دافئ ساكن تمامًا، و(ريح القرفة) طافية على صفحة بحر أزرق عميق بعيدًا تمامًا عن اليابسة. قال زوندو: «سام الأسود قال كلمات جيّدة. الآن نشرب لحياته»، وزعق بشيء ما بلُغة الضّيف، فجيء بيرميل من الرّم المتبل إلى مؤخرة السفينة، وفُتِح ليشرّب الحاضرون كوبًا في ذكرى التّنين العجوز الكفيف الذي لم يعرفه الطّاقم إلّا فترة قصيرة، لكن بني (جزر الضّيف) يُوقّرون المسّئين ويحتفون بموتاهم.

لم يشرب سام الرّم من قبل، ووجد الشّراب غريبًا مسكّرًا، خلّوا في البداية لكنه يترك على اللّسان مذاقًا ناريًا لسع فمه. كم هو متعب. كلّ عضلة في جسده تؤلمه، وثقّة آلام أخرى في مواضع لم يكن يعلم أن فيها عضلات، وزكبتاه متخشّبتان، ويداه تُغطّيهما قروح جديدة ورّقع لزجة رطبة من الجلد حيث انفتحت القروح القديمة، وإن كان يبدو أن الشّراب والحزن مغا يزيحان ألمه. قال لجيلي بينما يرشّفان من الرّم فوق سلوقيّة (ريح القرفة) العالية: «لو استطعنا فقط أن نأخذه إلى (البلدة القديمة) فلربما أنقذه رؤساء المايسترات. مُعالجو (القلعة) هم الأفضل في (الممالك السّبع) كلّها. لفترةٍ حسيث... أمِلث...».

في (برافوس) بدا تماثل إيمون للشفاء ممكنًا، وخُيِّلَ إلى سام أن حديث زوندو عن الثنائين يكاد يُعيد العجوز إلى طبيعته. ليلتها أكلَ كلَّ لُقمة وضعها سام أمامه، وقال: «لا أحد بحث عن فتاة قَطُّ. كان الموعد أميرًا لا أميرة. اعتقدتُ أنه ريجار... الذُخان كان من الحريق الذي التهم (قلعة الضيف) يوم مولده، والملح من دموع من بكوا الموتى. كان يشاركني اعتقادي في صغره، وإن بات لاحقًا على قناعة بأن الثبوءة تتحقق في ابنه لا فيه هو، ذلك أن مذبذبًا شوهد فوق (كينجز لاندنج) ليلة حبَلت إليا بإجون، وريجار كان واثقًا بأن النجم النازف ما هو إلَّا مذبذب. كم كنا حمقى إذ خلنا أنفسنا آيةً في الحكمة! الخطأ ناجم عن الترجمة. الثنائين ليست ذكورا أو إناثًا، وقد رأى بارث حقيقة هذا، وإنما هكذا لحظةً وهكذا لحظةً، كاللهب دائمة الثقلب. اللغة ضللتنا جميعًا طيلة ألف عام. دئيرس هي الموعودة المولودة وسط الملح والذُخان، والثنائين تُبِت هذا». بدا أن مجرّد الكلام عنها يجعله أقوى. «يجب أن أذهب إليها، يجب! ليتني كنتُ أصغر عشرة أعوام فقط».

كان العجوز عاقد العزم حتى إنه صعد على لوح العبور إلى متن (ريح القرقة) على قدميه بعد أن اتفق سام على رحلتهم. قبلها كان سام قد أعطى زوندو سيفه وغمده بالفعل، تعويضًا لوكيل الزبان الكبير عن المعطف الزيش الذي تلف حين نجده من الفرق. الشيء الوحيد ذو القيمة الذي تبقى لهم بعدها هو الكتب التي أتوا بها من أقبية (القلعة السوداء)، وقد تخلّى سام عنها بكآبة، ورّد عندما سأله زوندو عن سبب عبوسه: «كان المفترض أن نأخذها إلى (القلعة)»، ولما ترجم الوكيل ردّه ضحك الزبان، ثم قال له زوندو مترجمًا: «كاهورو مو يقول إن الرجال الزماديين سيحصلون على هذه الكتب، لكن الفرق أنهم سيشترونها الآن من كاهورو مو. المايسترات يدفعون فضة جيّدة مقابل الكتب التي ليست عندهم، وأحيانًا الذهب الأحمر والأصفر».

أراد الزبان سلسلة إيمون أيضًا، إلا أن سام رفض وشرح أنه عار عظيم أن يتخلّى أيّ مايستر عن سلسلته، واضطرّ زوندو إلى تكرار هذا الجزء ثلاث مرّات حتى قبل كاهورو مو، ولدى إبرام الاتفاق لم يقد سام يملك إلا حذاءه وثيابه السوداء وملابسه التحتيّة والبوق المكسور الذي وجدّه چون عند (قبضة البشر الأوائل). قال لنفسه: لم أملك الخيار، لم تكن نستطيع البقاء في (براغوس)، وما لم نلجأ إلى الشرقة أو الشحاذة فلم يكن هناك سبيل آخر لدفع ثمن الرحلة. كان ليعدّ التكلفة رخيصة حتى إذا دفعوا ثلاثة أضعاف لو أنهم فقط نجحوا في أخذ المايستر إيمون بأمان إلى (البلدة القديمة).

غير أن الرّحلة إلى الجنوب كانت عاصفة، وخصفت كلّ هبة
ريّح من قوّة العجوز ومعنويّاته. في (ينتوس) طلب أن يأخذه
سام إلى الشّطح ليرسم له صورةً للمدينة بكلماته، لكنها كانت
آخر مرّة يبرح فيها فراش الزّبان، وسرعان بعدها ما بدأ عقله
يتوه من جديد، ولدى مرور (ريّح القرقة) بـ(البرج النّازف)
لقدخل ميناء (تايروش) كان إيمون قد كّف عن الكلام عن
محاولة العثور على سفينة تحمله شرقًا، وبدلًا من ذلك تحوّل
كلامه إلى (البلدة القديمة) ورؤساء المايسترات في (القلعة)،
وقال: «يجب أن تُخبرهم يا سام، يجب أن تُخبر رؤساء
المايسترات، يجب أن تجعلهم يفهمون. الرّجال الذين كانوا في
(القلعة) وقت وجودي هناك ماتوا منذ خمسين عامًا. أولئك
الآخرون لم يعرفوني قطّ. رسائلي... لا بُدّ أنهم حسبوها في
(البلدة القديمة) هزيان شيخ فقد عقله. يجب أن تُقنعهم بما
فشلت في إقناعهم به. أخبرهم يا سام... أخبرهم بالوضع على
(الجدار)... الجثث الحيّة والمُشاة البيضاء والبرد الرّاحف...».

وعده سام قائلًا: «سأفعل، سأضمّ صوتي إلى صوتك أيّها
المايستر. كلانا سيُخبرهم، نحن الاثنان معًا».

رَدَّ العجوز: «لا، يجب أن تُخبرهم أنت. أخبرهم. النبوءة...
حلم أخي... الليدي مليساندرا أساءت تفسير العلامات.
ستانيس... ستانيس في عروقه القليل من دماء التئين، نعم،
وأخواه أيضًا. رايل ابنة إج الصغيرة، ورثوها عن طريقها... أم
أبيهم... اعتادت أن تُناديني بالعم المايستر في طفولتها. تذكرت
هذا فسمحت لنفسي بالأمل... ربما أردت أن... كلنا نخدع أنفسنا
عندما نريد أن نُصدق شيئًا، بالذات مليساندرا على ما أظن.
الشيف ليس سليقًا، يجب أن تعلم هذا... ضوء بلا حرارة...
سحر فارغ... الشيف ليس سليقًا، ولا يمكن للضوء الزائف إلا أن
يتوغل بنا في الظلمات أكثر يا سام. دنيرس أملنا. أخبرهم بهذا
في (القلعة)، اجعلهم يُصفون. يجب أن يُرسلوا إليها مايستر. لا
يُد من نُصح دنيرس وتعليمها وحمايتها. طيلة هذه الأعوام
عشت وانتظرت وراقبت، ثم يأتي اليوم المنتظر وقد طعنت في
السُن. إنني أحتضر يا سام». سألت الدُموع من عيني إيمون
البيضاوين مع هذا الاعتراف، وتابَع: «لا يُفترض أن يُخيف
الموت عجوزًا مثلي، لكنه يُخيفني. أليس هذا سخيفًا؟ إنني
أعيش في ظلام دامس، فلم أخشى الظلام؟ ورغم ذلك لا
أستطيع إلا أن أتساءل عما سيأتي عندما يتسرب الدُفء كله من
جسدي. هل سأحتفل إلى الأبد في بهو (الأب) الذهبي كما يقول
الشيتونات؟ هل سأتكلم مع إج ثانيةً وأجد داريون سليقًا سعيدًا
وأسمع أختي ثَغْثيان لأطفالهما؟ ماذا لو كانت الحقيقة عند سادة
الخيول؟ هل سأركب في سماء الليل إلى الأبد على صهوة جواد
من لهب؟ أم سأعود ثانيةً إلى وادي الآلام هذا؟ من يدري حقًا؟
من اجتاز جدار الموت ليرى؟ فقط الجثث الحية، ونحن نعلم
ماهيته، نحن نعلم».

لم يجد سام إلا القليل ليقوله ردًا، لكنه واسب العجوز قدر المستطاع، ثم جاءت جيلي بعدها وغدت له أغنيّة بلا معنى تعلّمها من بعض زوجات كراستر الأخريات، لكنها جعلت العجوز يبتسم وساعدته على الخلود إلى النوم.

كان هذا واحدًا من آخر أيامه الجيدة، وبعدها قضى العجوز فترات أطول في النوم أكثر من اليقظة، وقد تمّد تحت كومة من الأغطية الفرو في قمرة الرّبان. أحيانًا كان يُتمّيم في نومه، وحين يستيقظ يطلب سام قائلًا بإصرار إن عليه أن يُخبره بشيء، لكن في أغلب الأحيان كان ينسى ما أراد أن يقوله لدى وصول سام، وحتى حينما يتذكّر كان كلامه مرتبكًا مشوشًا. تكلم عن أحلام لكنه لم يذكر الحالم، وتكلم عن شمعة زجاجية غير قابلة للإشعال وبيضات لا تفقس، وقال إن أبا الهول هو الأحجية لا صانع الأحاجي (أيًا كان ما يعنيه ذلك)، وطلب من سام أن يقرأ له من كتاب للشيتون بارث الذي أحرقت كتاباته في عهد بيلور المبارك، وفي مرّة استيقظ باكيا وولول: «لا بد أن تكون للتئين ثلاثة رؤوس، لكني أكثر هزما ووهنا من أن أكون أحدها. كان يجب أن أكون معها لأريها الطريق، لكن جسدي خائني».

إذ شقت (ريح القرفة) طريقها عبر (الأعتاب) صار المايستر إيمون ينسى اسم سام أكثر الوقت، وأحيانًا حسبه أحد إخوته الموتى.

أعلى السلوقيّة بعد رشفة أخرى من الرّم قال لسام لجيلي: «كان أضعف من أن يحتمل رحلة طويلة كهذه. كان على جون أن يتوقّع هذا. إيمون كان غمره منه واثنين عام، وما كان يجب إرساله إلى البحر على الإطلاق. لو ظلّ في (القلعة السوداء) فلربما عاش عشرة أعوام أخرى».

- «أو لكأنت المرأة الحمراء قد أحرقتة». حتى هنا على بُعد ألف فرسخ من (الجدار) تعرض جيلي عن لفظ اسم الليدي مليساندرا. «لقد أرادت دم الملوك من أجل نيرانها. قال كانت تعلم هذا، وكذا اللورد سنو، ولذا جعلاني آخذ ابن دالا وأترك ابني في مكانه. المايستر إيمون نام ولم يصح ثانية، لكن لو مكث هناك لأحرقتة».

فكر سام ببؤس: ما زال سيحترق. الفرق أن عليّ أنا أن أفعلها الآن. اعتاد آل تارجارين دوماً إطعام النار بموتاهم، لكن كاهورو مو لم يسمح بإشعال محرقة جنازة على متن (ريح القرفة)، فوُضع جثمان إيمون في برميل من رم الثوت الأسود لحفظه حتى تبلغ السفينة (البلدة القديمة).

واصلت جيلي: «في الليلة السابقة لموته سألتني أن أتركه يحمل الضبي. خشيت أن يسقطه لكنه لم يفعل، بل هزهزه ودندن له أغنية، ورفع ابن دالا يده ومش وجهه وشد شفته بطريقة جعلتني أحسبه يؤلمه، لكن العجوز ضحك فقط». وملست على يد سام مردفة: «يمكننا أن نسقي الصغير مايستر إذا أردت، عندما يكبر، ليس الآن، لكن يمكننا هذا».

- «مايستر ليس اسقا، لكن يمكننا أن نسقيه إيمون».

فكرت جيلي لحظة، ثم قالت: «دالا ولدته في أثناء المعركة بينما تُغلي الشيوف حولها. يجب أن يكون هذا اسمه، إيمون وليد المعركة، إيمون أغنية الفولاذ».

اسم ربما يعجب أبي نفسه، اسم محارب. في النهاية الضبي ابن مانس رايدر وحفيد كراستر، وليس في عروقه قطرة من دماء سام الجبانة. «نعم، ليكن هذا اسمه».

وعذته قائلة: «عندما يبلغ الثانية وليس قبل هذا».

خطر لسام أن يسأل: «أين الضبي؟». بين الرّم والأسى استغرق كل هذه المدة حتى أدرك أن الرضيع ليس مع جيلي. - «مع كوجا. طلبت منها أن تأخذه قليلاً».

- «أوه». كوجا مو ابنة الزبان، أطول قامّة من سام وممشوقة القوام كالحرية ولها بشرة ملساء كالكهرمان الأسود المصقول. تقود الفتاة زماة السفينة الخمر أيضًا، وتحمل قوسًا مزدوج المنحنى من خشب القلب الذهبي بإمكانها أن تُطلق منه السهام حتى مسافة أربعمئة ياردة، وحين هاجمهم القراصنة في (الاعتاب) أرذت سهام كوجا ستة منهم في حين سقطت سهام سام في الماء. الشّيء الوحيد الذي تحبّه كوجا أكثر من قوسها هو هزهرة ابن دالا على زكبتها والغناء له بلغة الضيف، وقد أصبح الأمير الهمجي محبوب جميع نساء الطاقم، ويبدو أن جيلي تأتمنهن عليه كما لم تأتمن أيّ رجل على الإطلاق.

قال سام: «هذا لطف من كوجا».

- «كنت أخافها في البداية. إنها سوداء جدًا وأسنانها كبيرة وبيضاء جدًا، فخشيْتُ أنها مسخ أو وحش ما، لكنها ليست كذلك. إنها طيبة وأحبها».

- «أعرف هذا». الرّجل الوحيد الذي عرفته جيلي معظم حياتها كان كراستر المخيف، أمّا بقية عالمها فإناث. الرّجال يُخيفونها والنساء لا. إنه يفهم هذا. في (هورن هيل) كان سام يُفضّل ضحبة الفتيات أيضًا وعاملته أخواته بطيبة، وعلى الرغم من أن الفتيات الأخريات كن يسخرن منه أحيانًا فتجاهل الكلمات القاسية كان أسهل من الضربات واللطمات التي تلقّاها من صبية القلعة. حتى هنا والآن على متن (ريح القرفة) يشعر سام بالارتياح لكوجا مو أكثر من أبيها، ولو أن الشيب ربما يكون أنها تتحدّث العاميّة ولا يتحدّثها هو.

همست جيلي: «وأحبك أيضًا يا سام. وأحبّ هذا الشراب، إن مذاقه كالنّار».

نعم، شراب يليق بتئين. فرغ كوباهما فذهبت سام إلى
البرميل وملاهما ثانية. رأى أن الشمس انخفضت في الغرب
وتضخمت إلى ثلاثة أضعاف حجمها، وقد جعل نورها الضارب
إلى الخمرة وجه جيلي يبدو مخضبا بالأحمر. شربا كوبا لكوجا
مو وواحدًا لابن دالا وواحدًا لابن جيلي على (الجدار)، وبعدها
لم يكن هناك مفر من أن يشربا كوبين لإيمون سليل عائلة
تارجارين، ثم قال سام متنشقا: «عسى (الأب) أن يحكم عليه
بالعدل». كانت الشمس قد أوشكت على الغياب تماقا حين فرغا
من المايستر إيمون، ولم يتبق إلا خط أحمر رفيع يتوهج في
الأفق الغربي كشق طويل في السماء. قالت جيلي إن الشراب
يجعل السفينة تميد بها، فساعدها سام على نزول السلم إلى
مسكن النساء تحت المقدمة.

ثقة مصباح معلق داخل باب القمرة مباشرة، وقد اصطدم
رأسه به وهو يدخل، فقال: «أوا!»، وقالت جيلي: «هل جرحت؟
دعني أري»، ومالت عليه...
... وقبلته على فمه.

ووجد سام نفسه يُقبِّلها أيضًا. قال لنفسه: لقد حلفت اليمين، لكن يديها كانتا تشدان معطفه الأسود وتحلان أربطة سراويله، فقطع القبلة قائلاً: «لا يمكننا»، إلا أن جيلي ردت: «بل يمكننا»، ومرة أخرى غطت ثغره بثغرها. من حولهما دارت (ريح القرفة)، وذاق سام طعم الزم على لسان جيلي، وإذا بثدييها عاريان ويتحشسهما. ثانية قال لنفسه: لقد حلفت اليمين، لكن إحدى حلمتيها وجدت طريقها إلى ما بين شفتيه. كانت وردية منتصبّة، وحين مضها ملأ لبنها فمه ممتزجاً بمذاق الزم، ولم يتذوق سام في حياته كلّها شيئاً بهذا الجمال أو الحلاوة أو الزوعة. فكّر: إذا فعلت هذا فلست أفضل من داريون، لكنه يشغّر بمتعة أعجزته عن التوقف. وفجأة كان ذكره خارج سراويله منتصباً كسارية وردية غليظة، يبدو سخيلاً للغاية حتى إن سام كان ليضحك، لكن جيلي دفعته على ظهره فوق سريرها القش ورفعت ثورتها حول فخذيها وأنزلت نفسها عليه مطلقاً آهة ناعمة، وكان هذا أفضل وأفضل من حلمتيها، وقال سام لنفسه شاهقاً: إنها مبتلة للغاية. لم أعرف قط أن امرأة يمكن أن تبتل هكذا هناك. همست منزلةً إلى أعلى وأسفل: «أنا زوجتك الآن»، وتأوّه سام وقال في أعماقه: لا، لا، لا يمكن أن تكوني زوجتي، لقد حلفت اليمين، حلفت اليمين، لكن الكلمة الوحيدة التي بدرت منه هي «نعم».

بعدها غابت في النوم مطوّقة إياه بذراعيها ورأسها على صدره. يحتاج سام إلى النوم أيضًا، لكنه تمل بالزم ولبن الأم وجيلي. يعلم أن عليه أن يعود إلى سرير المعلق في قمرة الزجال، غير أنه شعور رائع أن تلتصق به هكذا، وبشكل ما لا يقوى على الحركة.

دخل آخرون القمرة، رجال ونساء، وسمعهم يُقَبِّل بعضهم بعضًا ويضحكون ويتطازحون الغرام. بنو (جزر الضيف)، هكذا يعلنون الجداد، يرثون على الموت بالحياة. قرأ سام هذا في مكان ما منذ فترة طويلة، ويتساءل إن كانت جيلي تعرفه، إن كانت كوچا مو قد أخبرتها بما تفعله.

تنشم عبير شعرها وحنق إلى المصباح المتأرجح بالأعلى مفكرًا: (العجوز) نفسها لا تستطيع أن تخرجني بأمان من هذا المأزق. أفضل ما يستطيع أن يفعله الآن أن ينسل مبتعدًا ويلقي نفسه في البحر. إذا غرق فلن يعلم أحد أبدًا أنني أخزيك نفسي وحنثت بقسمي، وستجد جيلي لنفسها رجلًا أفضل ليس جبانًا بديئًا.

استيقظ في اليوم التالي في سريره المعلق في قمرة الرجال على صوت زوندو يجار بشأن الزبح، وظل وكيل الزبان يزعق: «الزبح تهب! الزبح تهب! استيقظ واعمل يا سام الأسود! الزبح تهب!». ما يفتقر إليه زوندو من مفردات عامية (وستروس) يعوّضه بصوته الجهوري. نهض سام من سريره وشعر بالندم في الحال. رأسه كأنه سينفلق، وأحد القروح في كفه انفتح ليلاً، ويحش كأنه على وشك التقيؤ.

لكن زوندو بلا رحمة، ولم يستطع سام إلا أن يرتدي ثيابه السوداء بصعوبة. وجدها على الأرض تحت السرير المعلق في كومة رطبة، وتشقّمها ليرى مدى سوء رائحتها، فاستنشق روائح الملح والبحر والقطران والأشعة المبتلة والعفن الفطري والفاكهة والأسماك وزم الثوت الأسود، وتوابل غريبة وأخشابًا عجيبة، وقدرا وقيزا من عرق جسده الجاف، لكن في ملابسه رائحة جيلي أيضًا، رائحة شعرها النظيفة ورائحة لبنها الخلوة، ولذا ارتداها مسرورًا. كان ليدفع ثمنًا كبيرًا مقابل جورب جاف ثقيل، إذ بدأ نوع ما من الفطر ينمو بين أصابع قدميه.

لم يكن صندوق الكتب كافيًا على الإطلاق كئمن رحلة لأربعة من (براقوس) إلى (البلدة القديمة)، على أن (ريح القرقة) تعاني نقصًا في الأيدي العاملة، وهكذا وافق كاهورو مو على أن يأخذهم على المتن شريطة أن يعملوا في الطريق، ولما احتج سام قائلاً إن المايستر إيمون ضعيف للغاية والضبي ما زال رضيعًا وجيلي مرعوبة من البحر، ضحك زوندو وزد: «سام الأسود رجل كبير بدين، سام الأسود سيعمل لأربعة».

الحقيقة أن سام أخرج لدرجة أنه يشك في قيامه بعمل فرد واحد جيد، لكنه يحاول رغم ذلك، فينظف سطح السفينة ويحكه بالحجارة، ويسحب سلاسل الرسو، ويلف الحبال، ويصطاد الجرذان، ويرتق القلوع الممزقة، ويسد الثغرات في الخشب بالقطران المغلي، وينزع أشواك السمك ويقطع الفواكه للظاهي. وجيلي أيضًا تحاول، كما أنها أبرع منه في لف حبال الأشرعة، وإن كان منظر المياه الخالية يجعلها تغلق عينيها من حين إلى حين.

جيلي، ماذا أفعل مع جيلي؟

هذا النهار طويل لزج، وجعله رأس سام الذي لم يكف عن الذق أطول وأطول. شغل نفسه بالحبال والأشرعة والواجبات الأخرى التي كلفه بها زوندو، وحاول ألا يتزك عينيه تخوناته وتذهبان إلى برميل الرّم الذي يحوي جثة المايستر إيمون... أو إلى جيلي. لا يستطيع أن يواجه الفتاة الهمجية الآن بعد ما فعلاه ليلة البارحة. حين تصعد إلى الشطح ينزل، حين تذهب إلى الأمام يذهب إلى الخلف، حين تبتسم له يُشيع بوجهه شاعرًا بالثعاسة. كان يجتر بي أن أثب في البحر وهي نائمة. لقد كنت جبانًا دومًا، لكنني لم أكن حائنًا بالقسم حتى الآن.

لو لم يَمُت المايستر إيمون لسأله سام ماذا يفعل. لو كان چون سنو على متن السفينة، أو حتى پيب وجين، للجأ إليهم، لكن بدلاً منهم هناك زوندو. لن يفهم زوندو ما أقوله، أو إذا فهم لقال لي أن أنكح الفتاة ثانية. «ينكح» هي أول كلمة تعلمها زوندو من اللغة العامية، ومفهوم بقولها جدًا.

من حُسن حظّه أن (ريح القرفة) سفينة كبيرة، أمّا على متن (الظائر الأسود) فكانت جيلي لتلحق به وتُحاصره في غضون لحظات. في (الممالك السبع) تُسمّى مراكب أهل (جزر الضيف) السفن البجعية، لقلوعها البيضاء المنتفخة وتمائيل مقدماتها التي يتخذ أكثرها أشكال طيور. على الرغم من كبر أحجامها تركب السفن البجعية الأمواج برشاقة تخضها وحدها من دون الفلك، وما دامت تدفعها ريح سريعة قويّة تستطيع (ريح القرفة) أن تسبق أيّ قادم، وإن كانت تعجز تمامًا عند سكون الأجواء... ثم إن على السفينة مواضع عدّة يستطيع أن يختبئ فيها الجبان.

قُرب نهاية عمله حوَصر سام أخيرًا. كان ينزل شلّقا عندما أطبق زوندو على ياقته قائلا: «سام الأسود يأتي مع زوندو»، وجزّه عبر سطح السفينة وألقاه عند قدمي كوجا مو.

بعيدًا إلى الشمال يلوح سديم غامض منخفض في الأفق، وقد أشارت كوجا إليه قائلة: «هذا ساحل (دورن). رمال وصخور وعقارب، ولا بقعة صالحة للرّسو بطول مئة فرسخ. يُمكنك أن تسبح إلى هناك إذا أردت ثم تمشي إلى (البلدة القديمة). عليك أن تقطع الصحراء الشاسعة وتتسلّق بعض الجبال وتسبح في (التورنتين)، أو يُمكنك أن تذهب إلى جيلي».

- «لست تفهمين. ليلة أمس...».

- «... كَرَمْتما مَيْتَكما والآلهة التي خَلَقْتكما. زوئِدو فَعَلَ
المِثْل. كان الظفل معي، ولولا هذا لكنت معه. أنتم معشر
الوستروسيين تصمون الغرام بالعار. ليس في الغرام عار. إذا
كان سيتوناتكم يقولون هذا فلا بُدَّ أن آلهتكم شياطين. في
جُزْرنا نفهم أكثر منكم. الآلهة وهبت لنا سيقانًا تجري بها وأنوقًا
نشمُّ بها وأيادي نتلَمَس ونتحشس بها. ما الإله المتوخش
المجنون الذي يُعطي المرء عَيْنين ويقول له إن عليه أن يُغْلِقهما
حتى يموت ولا يَنْظُر أبدًا إلى ما في العالم من جمال؟ إله
وحش، شيطان من الظلام»، ووضعت كوجا يدها بين ساقي
سام مضيفة: «الآلهة وهبت لك هذا لسبب أيضًا، من أجل... ما
الكلمة الوستروسيّة؟».

ساعدَها زوئِدو قائلاً: «التكاح!».

- «نعم، من أجل التكاح، للإمتاع وإنجاب الأطفال. لا عار في
هذا».

قال سام متراجفاً: «لقد حلفت يمينًا. لن أَتَّخِذَ لِنَفْسِي زوجةً
أو أنجب أولادًا. قلتُ هذه الكلمات».

- «جيلي تعرف الكلمات التي قلتها. إنها طفلة في بعض
الثواحي، لكنها ليست عمياء، تعلم لِمَ ترتدي الأسود وسبب
ذهابك إلى (البلدة القديمة)، وتعلم أنها لا تستطيع الاحتفاظ بك.
إنها تريدك فترةً قصيرةً لا أكثر. لقد فقدت أباهَا وزوجها وأمَّها
وأخواتها، فقدت بيتها وعالمها. ليس عندها الآن إلَّاك والصَّغير،
فانْهَبْ إليها أو اسبح».

رمقَ سام الشَّديم الذي يُعَلِّم السَّاحل البعيد بيأس عالقًا أنه لا
يستطيع أن يسبح هذه المسافة.

وهكذا ذهب إلى جيلي، وقال لها: «ما فعلناه... لو أنني
أستطيع الزواج لفضَّلْتُك على أيِّ أميرةٍ أو ابنة أعيان، لكنني لا
أستطيع. إنني ما زلتُ غُرايًّا. لقد حلفت اليمين يا جيلي، ذهبتُ
مع جون إلى الغابة وقلتُ الكلمات أمام شجرة قلوب».

قالت جيلي ماسحةً الذمّوع عن وجنتيه: «الأشجار تحزّسنا،
في الغابة ترى كلّ شيء... لكن لا توجد أشجار هنا. فقط الماء يا
سام، فقط الماء».

النَّهار بارد غائم بليلى. طيلة الصُّباح هطَلَت الأمطار بلا انقطاع، وحتى عندما توقَّفت أخيرًا بعد الظُّهيرة رَفَضَ السَّحاب أن ينقشع ولم يروا الشَّمس مرَّة. طقس رديء لهذه الدَّرَجَة تكفَّل بثبط الملكة الصَّغيرة نفسها عن الخروج، وبدلًا من ركوب الخيل مع دجاجاتها وحاشيتهن من الخرس والمعجبين قَضَت النَّهار كلُّه في (قفص العذراوات) مع الدَّجاجات في الاستماع إلى غناء الشَّاعر الأزرق.

لم يكن نهار سرسى أفضل كثيرًا، ثم حُلَّ المساء. إذ استحالَت السَّماء من الزَّمادي إلى الأسود أخبروها بأن (الجميلة سرسى) عادت محمولةً على تيار المساء، وبأن أوران ووترز في الخارج يَطلبُ مقابَلَتها.

سمحت له الملكة بالدُّخول في الحال، وما كادَ يخطو إلى غُرفتها الشَّمسيَّة حتى علقت أنه يحمل نبأ سارًا، وبابتسامٍ عريضة قال لها: «(دراجونستون) لك يا جلالة الملكة».

رَدَّت: «رائع»، والتقطت يديه ولتفتته على الخَدَّين، ثم قالت: «أعرفُ أن تومن سيَسُرُّ أيضًا. معنى هذا أننا نستطيع إطلاق أسطول اللورد ردواين وطرِد الحديدِيَّين من (الثروس). مع وصول كلِّ غُداٍ جديد تبدو الأخبار الآتية من (المرعى) أكثر مدعاةً للقلق، فمن الواضح أن الحديدِيَّين ليسوا قانعين بصخورهم الجديدة، إذ شثوا غاراتٍ قويَّة على ضفاف (الماندر) وتمادوا إلى حَذِّ مهاجمة (الكرمة) والجُزر الأصغر التي تُحيط بها. لم يكن آل ردواين قد أبقوا أكثر من دسْتة من السفن الحربيَّة في مياههم، وكلُّها حُظِّم أو أُسِر أو أغرق، والآن ثَقَّة تقارير تقول إن ذلك الرِّجل المجنون الذي يُسمِّي نفسه يورون عين الغراب يُرسِل سفنًا طويلةً عبر (النَّهر الهامس) نحو (البلدة القديمة) نفسها.

أخبرها اللورد ووترز: «اللورد ياكستر كان يُحمّل المؤمن من أجل رحلة العودة عندما أقلت (الجميلة سرسي)، وأتصوّر أن أسطوله الأساسي في البحر بالفعل الآن».

قالت الملكة: «لنأمل أن يتمتعوا برحلة سريعة وطقيس أفضل من اليوم»، وسحبت ووترز ليجلس على مقعد النافذة إلى جوارها، وسألته: «هل ندين بالشكر للسير لوراس على هذا التصرف؟».

اختلفت ابتسامته، وأجاب: «هذا ما سيقوله بعضهم يا صاحبة الجلالة».

رمقته بفضول متسائلة: «بعضهم ولكن ليس أنت؟».

قال ووترز: «لم أر فارساً أشجع منه، لكنه حوّل ما كان يمكن أن يكون نصراً بلا دماء إلى مذبحة. لقد مات ما يقرب من ألف رجل، أكثرهم من رجالنا، وليسوا جميعاً مجرد جنود تقليديين يا جلالة الملكة، بل منهم فرسان ولوردات صغار، الأفضل والأشجع».

- «والسير لوراس نفسه؟».

- «سيصبح الأول بعد ألف. لقد حملوه إلى داخل القلعة بعد المعركة، لكن إصاباته بليغة وفقد دماء كثيرة لدرجة أن المايسترات يرفضون أن يعلّقوا له العلق».

- «أوه، هذا محزن. قلب تومن سينكسر. إنه معجب للغاية بفارس الزهور الباسل».

قال أميرالها: «والعامة أيضًا. في أنحاء البلاد كلها ستبكي الفتيات حين يموت لوراس».

تعلم الملكة أنه ليس مخططًا. يوم أبحر السير لوراس احتشد ثلاثة آلاف من العامة عند (بوابة الظمي) لتوديعه، ولم يُفَضَّ المنظر إلَّا إلى إفعام نفسها بالازدراء. أرادت أن تُصرخ فيها قائلةً إنهم خراف، أن تُخبرهم بأن كلَّ ما سينالونه منه لن يتجاوز ابتسامةً ووردةً، وبدلًا من ذلك أعلنته أشجع فارس في (الممالك الشيع) وابتسقت فيما قدَّم له تومن سيفًا محلَّى بالجواهر يحمله في المعركة. عانقه الملك أيضًا، وإن لم يكن هذا الجزء من ترتيب سرسي، لكنه لم يَغْدِ يهْم، وبإمكانها أن تكون كريمة. لوراس تايرل يُحتَضِر.

أمزته سرسي قائلةً: «أخبرني. أريد أن أعرف كلَّ ما حدث، من البداية إلى النهاية».

كانت الغرفة قد أظلمت لدى فروغه من الزاوية، فأشعلت الملكة بعض الشموع وأرسلت دوركاس إلى المطابخ لتجلب لهما القليل من الخبز والجبنه مع اللحم البقري المسلوق بالفجل الحار، وبينما تناولا الغشاء طلبت من أوران أن يحكي الحكاية ثانية كي تتذكَّرها بجميع تفاصيلها بشكلٍ سليم. «... فلست أريد أن تسمع غاليتنا مارچري هذا الخبر من غريب. سأخبرها بنفسِي».

قال ووترز مبتسقا: «جلالتك في غاية اللطف». ابتسامة خبيثة. الحقيقة أن أوران لا يُشبه الأمير ريجار بالقدر الذي حسبته في البداية. إن له شعرا أشبه به، ولكن كذا نصف العاهرات في (ليس) إذا صدقت الحكايات. ريجار كان رجلا، أمَّا هذا فصبيٌّ مكر لا أكثر غير أنه مفيد على طريقته.

وجدت مارچري في (قفص العذراوات) تشرب الثيبذ وتُحاول أن تفهم قواعد لعبة جديدة ما من (قُولانتيس) مع بنات عمومته الثلاث. على الرغم من تأخر الساعة أدخلها الخُرَّاس في الحال، وخاطبت مارچري قائلةً: «جلالة الملكة، الأفضل أن تسمعي الخبر مني. أوران عاد من (دراجونستون). أخوك بطل».

- «لطالما عرفت هذا». لم تُلح دهشة على مارچري. ولم تندهش؟ لقد توقّعت هذا منذ اللحظة التي توشل لوراس فيها القيادة. لكن لدى انتهاء سرسي من القصة كانت الذمّوع تلتمع على وجه الملكة الصغيرة. «ردواين جعل عُقال مناجم يحفرون نفقًا تحت سور القلعة، لكن فارس الزهور رأى تقدّم العمل بطيئًا للغاية. لا ريب أنه كان يُفكّر في معاناة قوم السيّد والدك في (الثروس). اللورد ووترز يقول إنه أمر بالهجوم خلال أقلّ من نصف يوم من تولّيه القيادة، بعد أن رفض أمين قلعة اللورد ستانيس عرضه تسوية الحصار بالئزال الفردي بينهما. كان لوراس أول من يعبر الثغرة عندما حطم المدكّ بؤابة القلعة، ويقولون إنه انطلق داخلًا فم التئين مباشرة وقد ارتدى الأبيض ولوّح بكّرتة الشائكة حول رأسه مقتلاً ذات اليمين وذات اليسار».

عندئذ كانت مجا تايرل تبكي جهّذا، وسألت: «كيف مات؟ من قتله؟».

أجابَت سرسي: «هذا الشرف ليس لرجل واحد. السير لوراس أصيب بسهم في الفخذ وآخر في الكتف، لكنه واصل القتال ببسالة على الرغم من الدّم الشائل منه. بعدها أصيب بضربة من هراوة كسّرت بعض ضلوعه، ثم... لا، أريد أن أعفيك من معرفة أسوأ ما حدث».

قالت مارچري: «أخبريني، هذا أمر».

أمر؟ صمّت سرسي وهلة، ثم قرّرت أن تتغاضى عن هذا، وقالت: «المُدافعون تقهقروا إلى الحصن الداخلي ما إن سقط الشور، وقاد لوراس الهجوم هناك أيضًا. لقد غمّروه بالرّيت المغلي».

امتقع وجه الليدي آلا حتى صار كالظباشير، وهرعت تُغادر الغرفة.

وأصَلت سرسي: «المايسترات يفعلون كل ما بالإمكان كما أُنذ لي اللورد ووترز، لكنني أخشى أن حروق أخيك فادحة»، وأخذت مارجري بين ذراعيها ثواسيها مضيئة: «لقد أنقذ البلاد»، ولما قبِلت الملكة الصغيرة على وجنتها تذوّقت ملوحة دموعها، ثم أردقت: «سيدر ج چایمی جميع مآثره في (الكتاب الأبيض)، وسيُفني المطربون عنه لآل فام».

تملّصت مارجري من حضنها بغنْف كاذ يُسقط سرسي، وقالت: «الاحتضار ليس موثًا».

- «نعم، لكن المايسترات يقولون...».

- «الاحتضار ليس موثًا!».

- «أردت فقط أن أعفك من...».

- «أعرف ما تريدین. أخزجی».

الآن تعلمین یم أحسست ليلة مات جوفري. حدث سرسي رأسها ووجهها قناع من الكياسة الباردة، وقالت: «ابنتي العزيزة، إنني حزينة للغاية من أجلك. سأتركك لحزنك».

لم تظهر الليدي ميريويزر ليلتها، وجفا جنب سرسي عن الفراش ولم تستطع الثوم، وبينما تغطّ جوسلين سويفت إلى جوارها فكّرت: لو رأني اللورد تايوين الآن لعرف أن له وريثًا، وريثًا جديرًا بـ(الصخرة). قريبًا ستذرف مارجري الدموع المريرة التي كان عليها أن تذرفها من أجل جوفري، وربما يبكي مايس تايرل أيضًا، لكنها لم تُعطه سببًا لخصامها، فما الذي فعلته على كل حال أكثر من تشريف السير لوراس بعفتها؟ لقد طلب القيادة جاثيًا على زكبتة على مرأى من نصف البلاط.

عندما يموت علي أن ابني له تمثالًا في مكان ما وأشيع له جنازة لم تشهد لها (كينجز لاندنج) مهيلاً. سيروق هذا العوام، وتومن أيضًا. بل وربما يشكرني مايس أيضًا، ذلك المسكين. وبالنسبة إلى السيدة والدته فإذا شاءت الآلهة سيقولها الخبر.

كان هذا أجمل شروق رآته سرسي منذ سنوات، وسرعان ما ظهرت تايئا واعترفت بأنها أمّصت اللّيل في مواساة مارچري ورفيقاتها وشاركتهن الشرب والبكاء وحكاية القصص عن لوراس، وإن ارتدت الملكة ثيابها من أجل البلاط قالت لها: «مارچري ما زالت مقتنعة بأنه لن يموت. إنها تنوي إرسال ما يسترها الخاص للعناية به، وبنات عمومتها يُصلّين طلبًا لرحمة (الأم)».

قالت سرسي: «أنا أيضًا سأصلّي. غداً تعالى معي إلى (سيت بيلون) وسنُشعل مئة شمعة لفارس الزهور الباسل»، ثم التفتت إلى وصيفتها قائلة: «دوركاس، أحضري لي تاجي، التاج الجديد إذا سمحت». إنه أخف من القديم، مصنوع من الذهب المغزول الباهت المرّض بالزّمُرد الذي يَبْزُق حين تُدير رأسها.

قال السير أوزموند عندما أدخلته جوسلين: «هناك أربعة أتوا بشأن العفريت هذا الضّباح».

- «أربعة؟». أدهش هذا الملكة على نحو سار. ثمة سلسلة متواصلة من المُخبرين الذين يأتون إلى (القلعة الحمراء) زاعمين أن لديهم معلومات عن تيريون، لكن أربعة في يوم واحد عدد غير معتاد.

أجاب أوزموند: «أجل. أحدهم معه رأس لك».

- «سأراه أولاً. خُذه إلى غُرفتي الشّمسية». أرجو ألا يكون هناك خطأ هذه المرّة، أرجو أن أنال ثأري أخيرًا ليرقُد جوفري في سلام. يقول الشّيتونات إن الرّقم 7 مقدّس عند الآلهة، وربما يكون هذا الرّأس الشّابيع الدّواء الذي تبتغيه روحها.

اتَّضح أن الرّجل تايروشي قصير ممتلئ يَبُلُّ وجهه العرق، وله ابتسامة متملّقة لزجة ذكّرتها بفارس، ولحية مشعّبة مصبوغة بالوردي والأخضر. لم يُعجِب الرّجل سرسي بمجرّد النّظر، لكنها مستعدّة للتّغاضي عن عيوبه إذا كان رأس تيريون داخل هذا الضّندوق الذي يحمله بالفعل. الضّندوق من خشب الأزر المزخرف بنقش من العاج يُصوّر نباتات متسلّقة وأزهارًا، وله مفصلات وأقفال من الذهب الأبيض، منظره جميل حقًا، لكن الملكة لا تكثرث إلّا لما قد يكون في داخله. إنه كبير كفايةً على الأقل. رأس تيريون كان كبيرًا على نحوٍ شاذٍ بالنّسبة إلى شخصٍ صغير ناقص الثّمو.

انحنى التايروشي بشدّة مغمغمًا: «صاحبة الجلالة، أرى أن ما يُحكى عن جمالك صادق. حتى وراء (البحر الضيق) سمعنا عن براعة حُسنك والحُزن الذي يَفزّق قلبك المرهف. لا أحد يستطيع أن يُعيد إليك ابنك الشّجاع، لكن أُملي أن أقدم لك على الأقل بلسما لألمك». ووضع يده على ضّندوقه مضيقًا: «أيتك بالعدالة، أيتك برأس قالونكارك».

بعثت الكلمة القاليريّة القديمة رعدةً في جسدها، وإن استشعرت وخز الأمل أيضًا، وأعلنت: «العفريت لم يَفد أخِي، إن كان كذلك من الأصل، ولن أنطق اسمه. لقد كان اسمًا ساميًا ذات يوم، قبل أن يَلوّته».

- «في (تايروش) ندعوه بنِي اليدين الحمراءوين للذّماء الشّائلة من بين أصابعه، دماء ملك ودماء أب. يقول بعضهم إنه قتل أمّه أيضًا ممزّقًا رحمها بمخالبه ليخرج».

يا للهراء. «صحيح. إذا كان رأس العفريت في هذا الضّندوق فسأرفعك إلى اللوردية وأهبّ لك أراضٍ خصبةً وقلاعًا». الألقاب أرخص من الثّراب، وأراضٍ الثّهر ملأى بالقلاع المتهذّمة الواقفة في غزلتها وسط حقول مهجورة وقرى محروقة. «إن بلاطي ينتظرني. افتح الضّندوق ولنز».

فتَحَ التايروشي الصندوق بحركة مسرحية وتراجع مبتسماً، وفي الداخل كان رأس قزم مستقرًا على طبقة من المخمل الأزرق الناعم ينظر إليها.

ألقت سرسي نظرة طويلة، ثم قالت وفي فمها مذاق مرير: «هذا ليس أخي». أظن أنني بالغت في الأمل، خصوصًا بعد لوراس. الآلهة ليست بذلك الكرم أبدًا. «هذا الرجل عيناه بنيتان. تيريون كانت له عين سوداء وعين خضراء».

- «العينان، بالضبط... جلالة الملكة، عينا أخيك... تعفنتا بعض الشيء، فسمح لنفسني باستبدالهما بالزجاج... لكن لونه خطأ كما تقولين».

لم يفلح قوله إلا في زيادة حنقها، وردت: «ربما تكون عينا رأسك من الزجاج، أما عينا أنا فلا. في (دراجونستون) كراجل (65) أشبه بالوفريت من هذا المخلوق. إنه أصلع وفي ضعف بس! أخي! ماذا حدث لأسنانه؟».

انكمش الرجل من الغضب في صوتها، وقال: «كان لديه طقم ممتاز من الأسنان الذهبية يا جلالة الملكة، لكننا... يؤسفني...».

- «أوه، لم تأسف بعد، لكنك ستفعل». حربي بي أن أمر بإعدامه حنقًا. فلينازع محاولًا التقاط أنفاسه بينما يسوّد وجهه مثل ابني الجميل. كانت الكلمات على شفتيها بالفعل.

- «خطأ غير مقصود. كل الأقزام متشابهون، و... لا بد أن جلالتك لاحظت أنه بلا أنف...».

- «إنه بلا أنف لأنك قطعته!».

صاح: «لا!»، لكن جبهته المتصببة عرقًا وشت بكذب إنكاره.

ردت سرسي: «نعم»، وتسَلَّلت عذوبة سامة إلى نبرتها إذ أردقت: «على الأقل فكّرت في هذا. آخر أحقق جاءني حاول إقناعي بأن ساحرًا متجولًا أنيئه من جديد. على كل حال يبدو لي أنك مدين لهذا القزم بأنف. عائلة لانستر تشدد ديونها، وكذا ستفعل أنت. سير مرين، خذ هذا المحتال إلى كايبرن».

أخذ السير مرين ترأنت التايروشي من يده وسحبّه وهو لا يزال يصيح محتجًا، وحين خرجا التفتت سرسي إلى أوزموند كتلبلاك قائلة: «سير أوزموند، أبعد هذا الشيء عن نظري وأدخل الثلاثة الآخرين الذين يدعون معرفتهم بمكان العفريت». - «حاضر يا جلالة الملكة».

لكن للأسف اتضح أن ثلاثة المدّعين ليسوا ذوي جدوى أكثر من التايروشي. قال أحدهم إن العفريت مختبئ في ماخور بـ(البلدة القديمة) ويخدم الرّجال بفمه، وهي صورة طريفة لكن سرسي لم تُصدّقها لحظة. الثاني زعم أنه رأى القزم في عرض ممثلين في (براقوس)، والثالث أكّد أن تيريون أصبح ناسكًا في أراضي الثّهر ويعيش فوق ثلّ مسكون ما. أجابت الملكة كلّاً منهم بالوعد نفسه: «إذا تفضّلت بقيادة مجموعة من فرساني الشّجعان إلى هذا القزم فستلقّى مكافأة سخية، شريطة أن يكون العفريت حقًا... وإن لم يكن هو... إن فرساني لا صبر لهم على الخداع أو الحمقى الذين يرسلونهم لمطاردة الأشباح. قد تفقد لسانك»، وبهذه الشرعة فقد الثلاثة ثقتهم فجأة وقال كلّ منهم إنه ربما رأى قزمًا آخر ما.

لم تكن سرسي تُدرك أن هناك أقزامًا كثيرين هكذا، وقالت متذمّرة مع خروج آخر المُخبرين: «هل اجتاع هؤلاء الوحوش المشوّهون العالم؟ كم يُمكن أن يكون عددهم؟».

قالت الليدي ميريويدز: «أقلّ مما كان. هل لي بشرف اصطحاب جلالتك إلى البلاط؟».

- «إذا كان يُمكنك احتمال الملل. روبرت كان أحرق في معظم الأشياء، لكنه أصاب في شأن واحد. حكم المملكة عمل متعب».

- «يَحْزِنُنِي أَنْ أَرَى جَلَالَتَكَ مُثْقَلَةً بِالْهَمِّ. رَأَيْتُ أَنْ تَهْزِي وتَلْعَبِي وتَتَزَكِّي سَمَاعَ الْإِلْتِمَاسَاتِ الْمُتَعَبَةِ لِيَدِ الْمَلِكِ. يُمَكِّنُنَا أَنْ نَتَنَكَّرَ فِي هَيْئَةِ خَادِمَتَيْنِ وَنَقْضِي الْيَوْمَ وَسْطَ الْعَامَةِ وَنَسْمَعَ مَا يَقُولُونَهُ عَنْ سَقُوطِ (دِرَاجُونِسْتُون). إِنِّي أَعْرِفُ الْخَانَ الَّذِي يُقَالُ فِيهِ الشَّاعِرُ الْأَزْرَقُ حِينَ لَا يَكُونُ فِي حَضُورِ الْمَلِكَةِ الصَّغِيرَةِ، وَأَعْرِفُ قَبُورًا مَعِيْنًا يُكْوَلُ فِيهِ سَاحِرُ الرُّصَاصِ إِلَى ذَهَبٍ وَالْمَاءِ إِلَى نَبِيذٍ وَالْفَتَيَاتِ إِلَى فَتْيَةٍ. رُبَّمَا يُلْقِي تَعَاوِيْذَهُ عَلَيْنَا. هَلْ يُسَلِّي جَلَالَتَكَ أَنْ تَكُونِي رَجُلًا لَيْلَةً؟».

لَوْ كُنْتُ رَجُلًا لَأَرَدْتُ أَنْ أَكُونَ جَائِمِي، لَوْ كُنْتُ رَجُلًا لَحَكَمْتُ هَذِهِ الْبِلَادَ بِاسْمِي بَدَلًا مِنْ اسْمِ تَوْمن. قَالَتْ عَالِمَةٌ مَا تُرِيدُ تَائِنَا أَنْ تَسْمَعَهُ: «بَشْرَطُ أَنْ تَبْقِيَ امْرَأَةً. أَنْتِ شَرِيْرَةٌ لِإِغْرَائِي هَكَذَا، لَكِنْ أَيْ مَلِكَةٍ أَنَا إِذَا تَرَكْتُ مَمْلَكَتِي بَيْنَ يَدَيِ هَارِيْسِ سَوِيفَتْ الرَّاَجَفَتَيْنِ؟».

مَضَتْ تَائِنَا شَفَتِيهَا قَائِلَةً: «جَلَالَتَكَ دَعُوبٌ لِلْغَايَةِ».

رَدَّتْ سَرْسِي: «نَعَمْ، وَمَعَ نَهَايَةِ الْيَوْمِ سَأُنْدِمُ عَلَى هَذَا، وَتَأْبِطُ ذِرَاعَ الْيَدِي مِيرِيوِيْذِرَ مُضِيْفَةٍ: «هَلْقِي».

كَانَ جَالَابَارُ شَوْ أَوَّلَ الْمَلْتَمْسِيْنَ يَوْمَهَا كَمَا يَلِيْقُ بِمَقَامِهِ كَأَمِيرٍ مُنْفِيٍّ، لَكِنْ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ مَظْهَرِهِ الْفَاخِرِ فِي مَعْطَفِهِ الرِّيشِ الرَّاهِي لَمْ يَأْتِ الرَّجُلَ إِلَّا لِيشْحَذَ. تَرَكَتْهُ سَرْسِي كَعَادَتِهِ يَلْتَمِسُ الرِّجَالَ وَالسَّلَاحَ لِاسْتِرْدَادِ (وَادِي الزُّهْرَةِ الرُّرْقَاءِ)، ثُمَّ قَالَتْ: «جَلَالَتَهُ يَخُوضُ حَرْبًا بِالْفِعْلِ أَيُّهَا الْأَمِيرُ جَالَابَارُ، وَلَيْسَ عِنْدَهُ رِجَالٌ يَسْتَفْنِي عَنْهُمْ لِحَرْبِكَ الْآنَ. رُبَّمَا الْعَامُ الْمُقْبِلُ». هَكَذَا أَجَابَهُ رُوبَرْتُ دُومًا. الْعَامُ الْمُقْبِلُ سَتَقُولُ لَهُ: «لَنْ يَحْدُثَ»، لَكِنْ لَيْسَ الْيَوْمَ. إِنْ (دِرَاجُونِسْتُون) لَهَا.

جاء اللورد هالايين من رابطة الخيميائيين ليطلب الإذن ليايرومانسراته في محاولة إفقاس أيّ بيضات تنانين تظهر في (دراجونستون) ما دامت الجزيرة قد عادت آمنة إلى الأيدي الملكية، فقالت له الملكة: «لو كانت بيضات كهذه تبقت لباعها ستانيس لينفق على تمرّده»، وإن أحجقت عن إضافة أنها خطة جنونية. منذ نفق آخر تنانين آل تارجارين انتهت كل المحاولات المشابهة بالموت أو المصائب أو المهانة.

مثلت أمامها مجموعة من الثّجار الذين توشلوا إلى العرش أن يتوسّط لهم عند مصرف (براقوس) الحديدي، فالبراغوسيون يطالبون بسداد الديون واجبة الدّفع ويرفضون منح أيّ قروض جديدة. قالت سرسي لنفسها: نحن محتاجون إلى مصرفنا الخاص، مصرف (لانسيورت) الذهبي. ربما تستطيع أن تفعل ذلك عندما تؤمّن عرش تومن، أمّا في الوقت الزّاهن فليس بإمكانها إلّا أن تقول للثّجار أن يرثوا لفرابي (براقوس) مالهم.

وصل وفد العقيدة بقيادة صديقها القديم الشيتون راينارد، وقد رافقه سئة من أبناء المحارب عبر المدينة. مقّا يصنعون سبعة، وهو رقم مقدّس مبشّر بالخير، وهكذا يفعل الشيتون الأعلى -أو الغصفور الأعلى كما لقّبه فتى القمر- كلّ شيء بالشّيعات. يتمنطق الفرسان بأحزمة سيوف مخطّطة بألوان العقيدة السّبعة، ويُرّين البلور قبائع سيوفهم الطويلة وريشات خوذاتهم العظيمة، ويحملون ثروسًا لوزيّة الشكل من طراز لم يَعد شائعًا منذ غزوة إجون عليها شعار لم يَر في (الممالك السّبع) منذ قرون؛ سيف بألوان قوس قزح يلتصع على خلفيّة مظلمة. ما يقرب من مئة فارس أتوا بالفعل ليتعهدوا بحيواتهم وسيوفهم لأبناء المحارب طبقًا لتقارير كايرن، ومزيد منهم يجيء كلّ يوم. أسكزتهم الآلهة جميعًا. من كان ليتخيّل أن في البلاد كلّ هذه الأعداد؟

أكثرهم قُرسان حراسة وقُرسان متجولون، لكن منهم كريمي
المحتد كذلك، من أبناء أصغر ولوردات صغار ومستئين يبتغون
الثوبة عن خطايا قديمة... ثم إن هناك لانسل أيضًا. لقد حسبت
أن كايرن يمزح عندما أخبرها بأن المغفل ابن عمها تخلّى عن
قلعته وأراضيه وزوجته وعاد إلى المدينة لينضمّ إلى جماعة
أبناء الفحارب النّبيلة العظيمة، لكن ها هو ذا مع الحمقى
المتدّينين بالفعل.

لا يروق سرسي هذا على الإطلاق، ولا يسرّها استمرار تشدّد
الغصفور الأعلى وتكرّانه على الإطلاق. سألت الشيتون راينارد:
«أين الشيتون الأعلى؟ لقد استدعيته هو».

انتحلّ الشيتون راينارد نبرة أسفةً مجيئة: «صاحب القداسة
الأعلى أرسلني بدلًا منه وطلب مني أن أخبر جلالتك بأن الآلهة
أرسلته يكافح الشرور».

- «كيف. بالتبشير بالعفة في (شارع الحرير)؟ هل يظنّ أن
الضلاة على العاهرات ستعيد إليهن عذريّتهن؟».

ردّ راينارد: «أجسادنا شكّلها أبونا وأهنا الإلهان كي يتزاوج
الذكر والأنثى لإنجاب أولاد شرعيّين. من الرذيلة والإثم أن تبيع
النساء أعضاءهن المقدسة بالمال».

لربما كان هذا الرأي المحقّل بالثقوى أكثر إقناعًا لو أن الملكة
لا تعلم أن للشيتون راينارد صديقات معيّنات في كلّ ماخور
ب(شارع الحرير). لا شكّ أنه قرّر أن تردّده تغريد الغصفور
الأعلى أفضل من تنظيف الأرضيات. قالت له: «لا تحاول أن
تعظني. أصحاب المواخير يشتكون، ولهم الحق».

- «إذا تكلم الأثمون فلم يُصفي إليهم الضالّحون؟».

رَدَّت الملكة بلا موازنة: «هؤلاء الأثمون يُغَدُّون الخزانة الملكية، بينساتهم ندفع أجور ذوي المعاطف الذهبية ونبني القوادم للدفاع عن سواحلنا. ويجب وضع التجارة في الاعتبار أيضًا. إذا خَلَّت (كينجز لاندنج) من المواخير فستذهب السفن إلى (وادي الفسق) أو (بلدة الثوارس). صاحب القداسة الأعلى وعذتي بالسلام في شوارعِي، والعهر يُساعد على حفظ السلام. العامة المحرومون من العاهرات يجنحون إلى الاغتصاب. فليلتزم صاحب القداسة الأعلى من الآن فصاعدًا بالصلاة في الشيت حيث ينتمي».

توقَّعت الملكة أن تسمع من اللورد جايلز أيضًا، لكن بدلًا منه ظهر المايستر الأكبر يايسل بوجه مريد ونبرة اعتذارية يُخبرها بأن روزبي أوهى من أن يبرح فراشه، وأضاف: «يَحْزِنُنِي أن أقول إن اللورد جايلز سيلحق بأسلافه الثباء قريبًا. عسى (الأب) أن يَحْكُمَ عليه بالعدل».

إذا مات روزبي فسيحاول مايس تايرل والملكة الصغيرة فرض جارت السمين عليّ مجددًا. قالت بتبؤم: «اللورد جايلز مصاب بهذا الشعال منذ سنين ولم يَقْطُلْهُ. لقد ظَلَّ يَسْغُلُ خلال نصف حُكم روبرت وطيلة حُكم جوفري. إذا كان يُحتَضَرُ الآن فالسبب الوحيد أن أحدًا يُريد موته».

حملق المايستر الأكبر يايسل إليها مذهولًا، وقال: «جلالة الملكة، ممن قد يُريد موت اللورد جايلز؟».

- «وريثه ربما». أو الملكة الصغيرة. «امرأة ما نبذها في الماضي». مارجري ومايس وملكة الأشواك، لم لا؟ جايلز في طريقةهم. «عدو قديم، عدو جديد، أنت».

امتّع وجه العجوز وتلعثم قائلاً: «جلالة الملكة تمزح. لقد... لقد سقيت حضرة اللورد مسهلاً للبطن وعلقت له العلق وعالجته بالكفادات والأنقعة... الرذاذ يريحه بعض الشيء، وخلو الكرى يخفف غنف شعاله، لكنني أخشى أن قطعاً من الزنتين تخرج مع الدّم الآن».

- «بغض النظر عن هذا، ستعود إلى اللورد جايلز وتبلغه بأني لا أسمح له بالموت».

انحنى پايسل بجمود قائلاً: «كما تأمر صاحبة الجلالة». جاء المزيد منهم، والمزيد، والمزيد، كل ملتصق أكثر إثارة للملل من سابقه. ليلتها، بعد أن رحل جميعهم أخيراً وجلست تتناول غشاءً بسيطاً مع ابنها قالت له: «تومن، عندما تُصلي قبل اللّوم اشكر (الأم) و(الأب) لأنك ما زلت طفلاً. الملك عمل شاق، وأؤكد لك أنك لن تحبه. إنهم ينقرونك كسرّب من الغربان، كلّ منهم يرغب في قطعة من لحمك».

قال تومن بنبرة حزينة: «حاضر يا أمّاه». كان قد بلغها أن الملكة الصغيرة أخبرتّه بما جرى للسير لوراس، وقال السير أوزموند إن الضبي بكى. إنه صغير. حين يبلغ سنّ جوف سيكون قد نسي شكل لوراس. واصل ابنها: «لكنني لا أمانع أن ينقروني. المفترض أن أذهب معك إلى البلاط كلّ يوم لأنصت. مارچري تقول...».

بحذّة قاطفته سرسي: «... أكثر من اللازم. مقابل نصف جروت سيسرّني أن أقطع لسانها».

صاح تومن فجأة وقد احتقن وجهه المستدير الصغير: «إياك أن تقولي هذا! دعي لسانها وشأنه، إياك أن تلمسيها. أنا الملك لا أنت».

حدّقت إليه مشدوّهة، وقالت: «ماذا قلت؟».

- «أنا الملك، أنا من آمرُ بقطع الألسنة لا أنت. لن أسمح لك بإيذاء مارچري، لن أسمح. أخرج عليك أن تفعلي ذلك».

أَمْسَكَتْهُ سِرْسِي مِنْ أُذُنِهِ وَجَرَّتْهُ صَارِخًا إِلَى الْبَابِ حَيْثَ يَقِفُ
السَّيْرُ بُوْرُوسُ بِلَاوْنَتِ حِرَاسَةً، وَقَالَتْ: «سَيْرُ بُوْرُوسُ، جَلَالَةُ
الْمَلِكِ نَسِيَ نَفْسَهُ. مِنْ فَضْلِكَ خُذْهُ إِلَى مَسْكَنِهِ وَائْتِ بِبَايْتِ.
أَرِيدُ أَنْ يَجْلِدَ تَوْمَنْ الضُّبِّيَ بِنَفْسِهِ هَذِهِ الْمَرَّةَ، وَأَنْ يَسْتَمِرَّ حَتَّى
تَنْزِفُ فَلَقَتَا مَوْخَرْتَهُ. إِذَا رَفَضَ جَلَالَتَهُ أَوْ اعْتَرَضَ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ
فَاسْتَدْعِ كَايْبِرْنَ وَقُلْ لَهُ أَنْ يَقْطَعَ لِسَانَ بَايْتِ لِيَتَعَلَّمَ جَلَالَتَهُ ثَمَنْ
قَلَّةَ الْأَدَبِ».

نَفَخَ السَّيْرُ بُوْرُوسُ رَامِقًا الْمَلِكَ بَارْتِيَاكُ، وَقَالَ: «كَمَا تَأْمُرِينَ.
تَعَالِ مَعِيَ يَا جَلَالَةُ الْمَلِكِ إِذَا سَمَحْتَ».

مَعَ حُلُولِ اللَّيْلِ عَلَى (الْقَلْعَةِ الْحُمْرَاءِ) أُوقِدَتْ چُوسَلِينَ نَارًا
فِي مَسْتَوَقْدِ الْمَلِكَةِ بَيْنَمَا أَشْعَلَتْ دُورْكَاسُ الشُّمُوعَ إِلَى جِوَارِ
الْفِرَاشِ. فَتَحَتْ سِرْسِي الثَّافِذَةَ طَلِبًا لِنَسَمَةِ هَوَاءٍ، فَرَأَتْ أَنَّ
الشَّحْبَ عَازَتْ تَحْتَشِدُ مَوَارِيءَ الثُّجُومِ، وَتَمْتَمَتْ دُورْكَاسُ: «لَيْلَةٌ
مُظْلِمَةٌ يَا جَلَالَةُ الْمَلِكَةِ».

فَكَّرَتْ: نَعَمْ، لَكِنْ لَيْسَتْ بِمُظْلِمَةٍ (قِفْصُ الْعِذْرَاوَاتِ) أَوْ
(دِرَاجُونَسْتُونِ) حَيْثُ يَنْطَرِحُ لُورَاسُ تَايِرْلَ مَحْرُوقًا يَنْزِفُ، أَوْ
فِي الرُّنَازِينَ السُّودَاءِ تَحْتَ الْقَلْعَةِ. لَا تَدْرِي الْمَلِكَةُ لِمَ خَطَرَ لَهَا
هَذَا بَعْدَ أَنْ عَزَمَتْ عَلَى عَدَمِ التَّفْكِيرِ فِي فَالِيسِ ثَانِيَةً. نَزَالَ
فِرْدِي. كَانَ عَلَى فَالِيسِ أَنْ تَكُونَ أَعْقَلُ مِنْ أَنْ تَتَزَوَّجَ مَهْزَجًا
مِثْلَهُ. الْأَخْبَارُ مِنْ (سِتُوكُورْتِ) أَنَّ الْيَدِي تَانْدَا مَاتَتْ بِبَرْدٍ فِي
الضُّدْرِ أَفْضَى إِلَيْهِ وَرُكْهَا الْمَكْسُورُ، وَأُعْلِنَتْ لُولِيسُ الْبُلْهَاءُ سَيِّدَةً
عَلَى (سِتُوكُورْتِ) وَالسَّيْرُ بَرُونُ سَيِّدَهَا. تَانْدَا مَاتَتْ وَجَايِلُزُ
يَمُوتُ. جَيِّدٌ أَنْ فَتَى الْقَمَرِ لَمْ يَزَلْ مَعَنَا وَإِلَّا خَرِمَ الْبِلَاطُ
الْمَهْزَجِينَ بِالْكَامِلِ. ابْتَسَمَتِ الْمَلِكَةُ إِذْ أَرَاخَتْ رَأْسَهَا عَلَى
الْوَسَادَةِ، وَقَالَتْ لِنَفْسِهَا: حِينَ لَثْمَتْ وَجَنَّتْهَا تَذَوَّقْتُ الْمِلْحَ فِي
رَمُوعِهَا.

رَأَتْ خُلُقًا قَدِيمًا فِيهِ ثَلَاثُ فَتَيَاتٍ يَرْتَدِينَ الْمَعَاطِفَ الْبَنِيَّةَ
وَحِيزِبُونَ لَهَا لُغْدَ وَخِيْمَةَ تَعْبِقُ بِرَائِحَةِ الْمَوْتِ.

كانت خيمة الحيزبون قائمة ذات سقف مدبب طويل، ولم
ثُرد سرسي أن تدخلها مثلما لم تُرد وهي في العاشرة، لكن
الفتاتين الأخرتين كانتا ثراقبانها ولم تستطع التراجع. في الخلم
كن ثلاثا كما كن في الواقع. تخلفت جاين فارمان السمينية عن
رفيقتها كما فعلت دوما، وإنها لأعجوبة أن الفتاة قطعت كل
هذا الشوط معهما من الأصل، أمّا ميلارا هيذرسيون فكانت أكبر
سبّا وأجراً وتتحلى بنوع منقش من الحُسن. بعد أن تسَلن من
أسرّتهن وارتدين معاطف من الخيش ورفعن قلنسواتها عبّرت
الفتيات الثلاث مضمار النزال وسعين إلى العزّافة. كانت ميلارا
قد سمعت الخادّات يتهاَمسن عن قُدرتها على إلقاء اللعنات
على المرء أو جعله يقع في الحُب واستدعاء الشياطين والتنبؤ
بالمستقبل.

في الواقع كانت الفتيات مبهورات طائشات، يمضين
متبادلات الهمس شاعرات بحماسة تُكافئ خوفهن، لكن الخلم
كان مختلفاً. في الخلم كانت الشراذقات مظلمة، والفُرسان
والخدم الذين مَرّن بهم من ضباب. جالت الفتيات فترةً طويلةً
قبل أن يجدن خيمة الحيزبون، وحين بلغتها كانت المشاعل كلها
تتذبذب توطئةً للانطفاء. شاهدت سرسي ثلاثتهن متلاصقات
يتهاَمسن، فحاولت أن تقول لهن: عُدن، ارحلن، لا شيء لكن هنا،
إلا أن صوتاً لم يَخْرُج منها رغم أن فاها تحرّك.

سبقت ابنة اللورد تايوين رفيقتها إلى الدُخول من سديلة الخيمة، تتبعها ميلارا وراءها مباشرة، وفي النهاية جاين فارمان التي حاولت الاختباء وراء الآخرين كعادتها الدائمة. في الداخل أفعقت هواء الخيمة الرّوائح؛ القرقة وجوز الطّيب، والفلفل أحمره وأبيضه وأسوده، وحليب اللّوز والبصل، والقرنفل وحشيشة الليمون والرّعفران الثمين، وتوابل أخرى أغرب وأندر. الضّوء الوحيد كان ينبعث من مستوقد حديدي على شكل رأس بازيليسق، ضوء أخضر خافت جعل حوائط الخيمة تبدو باردة مئة تتعفن. هل كانت تبدو هكذا في الواقع أيضًا؟ لم تستطع سرسي أن تتذكّر.

في الخلم كانت المشعوذة نائمة كما وجدنها في الواقع، وأرادت الملكة أن تصيح: نَعْنِها وشأنها. أيتها الحمقاوات الضّغيرات، إياكن وإيقاظ مشعوذة نائمة، لكن بلا لسانٍ لم يكن بمقدورها إلا أن تُشاهد الفتاة تنتزع معطف العزّافة وتُركل فراشها قائلة: «استيقظي، نريد قراءة طالعنا».

حين فتحت ماجي الضّفدعة عينيها أطلقت جاين فارمان صريحا مرعوبا وفرت من الخيمة مندفعة إلى اللّيل في الخارج من جديد. جاين الضّغيرة البدينة الحمقاء الجبّانة، شاحبة الوجه مكتنزة خائفة من كلّ ظل. لكنها كانت الحكيمة بيننا. ما زالت جاين تعيش على (الجزيرة القصية)، وقد تزوّجت أحد حملة راية أخيها اللورد وأنجبت دسنة من الأطفال.

كانت عينا المرأة صفراوين وتُحيط بهما قشرة شيء كرية.
في (لانسپورت) أشيع أنها كانت شابة جميلة عندما عاد بها
زوجها من الشرق مع شحنة من الثوابل، لكن الزمن والشّر تركا
آثارهما عليها. كانت قصيرة ممتلئة، في وجهها ثآليل ولها لُغد
متفُضن مخضّر، وقد سقطت أسنانها جميعا وتدلّى ثدياها حتى
رُكبتيهما. إذا وقفت قريبا منها فبإمكانك أن تشم رائحة المرض،
لكن حين فتحت فمها كانت لأنفاسها رائحة غريبة قويّة كريهة،
وبهمسة مبحوحة قالت للفتاتين: «ارخلا».

قالت لها سوسي الصغيرة: «جننا لأجل قراءة طالعنا».

نعبت العجوز ثانية: «ارخلا».

قالت ميلارا: «سمعنا أنك ترين القُد. نريد فقط أن نعرف
الرّجلين اللذين سنتزوّجهما».

ومرّة ثالثة نعبت ماجي: «ارخلا».

ولو كان للملكة لسان لصرخت: أصفيا إليها. ما زالت فرصة
الهرب سانحة. اهزبا أيتها الحمقاوان!

وضعت الفتاة ذات الخُصلات الذهبية يديها على وركيها
قائلة: «اقرئي طالعنا وإلا نهبث إلى السيّد والدي وجعلته يأمر
بجلدك لو قاحتك».

وأضافت ميلارا متوسّلة: «أرجوك، أخبرينا بمستقبلنا فقط ثم
سنرحل».

تمتقت ماجي بصوتها العميق الرّهيب: «بعض من هنا بلا
مستقبل»، ثم إنها سحبت معطفها حول كتفيها وأشارت إلى
الفتاتين بالاعتراب، وقالت: «أقبلا إذن ما نمتما لن ترخلا. أنتما
حمقاوان. نعم، أقبلا، يجب أن أذوق دمكما».

شحب وجه ميلارا لكن سرسي حافظت على رباطة جأشها،
فاللبوة لا تخاف الضفدعة مهما كانت عجوزًا قبيحة. كان عليها
أن ترحل، كان عليها أن تُصغي، كان عليها أن تفرّ، وبدلاً من ذلك
أخذت الخنجر الذي ناولتها ماجي إياه ومزّرت النّصل الحديدي
الملتوي على أنملة إبهامها، ثم فعلت المثل مع ميلارا.

في الخيمة الخضراء المعتمدة بدا الدّم أقرب إلى الأسود من
الأحمر، وقد ارتعش فم ماجي الخالي من الأسنان لمراه،
وهمست: «ناوليني يدك»، فلما فعلت سرسي امتصّت العزّافة
الدّم من إصبعها بلّية لينة كثرة طفل حديث الولادة، ولا تزال
الملكة تُذكر كم كان قمها غريبًا باردًا.

ما إن شربت الحيزبون حتى قالت: «لك ثلاثة أسئلة. لن
ثعّجبك إجاباتي. سلي أو ارحلي».

فكرت الملكة الحاملة: ارحلي، الزمي الضمت واهزي، لكن
الفتاة كانت أقلّ عقلًا من أن تخاف.

سألت: «متى سأتزوّج الأمير؟».

- «لن تتزوّجيه أبدًا، ستتزوّجين الملك».

تحت خُصلاتها الذهبية التوت ملامحها حيرة، وطيلة سنوات
بعدها فسرت الكلام بأنها لن تتزوّج ريجار إلا بعد موت أبيه
إيرس.

سألت سرسي الصغيرة: «لكنني سأكون الملكة؟».

التمغ الحقد في عيني ماجي الصفراوين إذ أجابت: «ملكة
ستكونين، إلى أن تأتي أخرى أصغر منك وأجمل، لثطّيح بك
وتسلبك كلّ ما تعذّينه عزيزًا».

ومضّ الغضب على وجه الفتاة، وقالت: «إذا حاولت سأجعل
أخي يقتلها». حتى في ذلك الحين لم تتوقّف تلك الطفلة
العنيدة، فما زال لها سؤال أخير، لمحة أخرى من حياتها الآتية،
وهكذا سألت: «هل سأنجب والملك أطفالًا؟».

- «أوه، أجل. سئة عشر له وثلاثة لك».

وجدت سرسي الجواب بلا معنى. كان إبهامها يؤلمها حيث جرحته ودمها يقطر على البساط. أرادت أن تطلب تفسيرًا، لكنها فرغت من أسئلتها.

على أن العجوز لم تفرغ منها، وتابعت: «ذهبية ستكون تيجانهم وذهبية أكفانهم، وحين تفرق دموعك سيظوق القالونكار جيدك الأبيض الشاحب بيديه ويخنقك حتى الموت». قالت الفتاة الذهبية التي لم تفهم النبوة: «ما هو القالونكار؟ وحش ما؟ أنت كذابة وضفدعة مغطاة بالثآليل وهمجية عجوز كريهة الرائحة، ولا أصدق كلمة مما تقولين. هيا بنا يا ميلارا، إنها لا تستحق أن نسمعها».

ردت صديقتها بإصرار: «إن لي ثلاثة أسئلة أيضًا، ولقا شدتها سرسي من ذراعها تملصت وعادت تلتفت إلى الشمطاء سائلة بالندفاع: «هل سأتزوج جايمي؟».

فكرت الملكة شاعرة بالغضب منها حتى الآن: أيتها البلهاء، جايمي لا يدري أن لك وجودًا أصلًا. آنذاك كان أخوها يعيش فقط للشيوخ والكلاب والخيول... ومن أجلها، توأمته.

أجابت ماجي: «ليس جايمي ولا أي رجل غيره. بكارتك سيفضها الذود. إن موتك هنا الليلة أيتها الصغيرة. هل تشقين أنفاسها؟ إنها دانية للغاية».

قالت سرسي: «الأنفاس الوحيدة التي نشقها أنفاسك». على الطاولة قرب مرفقها كان برطمان فيه عقار تخين ما، فاختطفته وألقته في عيني العجوز. في عالم الواقع صرخت الحيزيون فيهما بلغة أجنبية غريبة ما وصبت عليهما لعناتها إذ قرّتا من الخيمة، لكن في الحلم تبدد وجهها وذاب مستحيلًا إلى خيوط من الضباب الرمادي، ثم لم يتبق منه إلا عينان صفراوان ضيقتان، عينا الموت.

سمعت الملكة من يقول: سيَطُوق القالونكار جيدك بيديه، لكنه لم يكن صوت العجوز، وبرزت اليدان من غيوم حلمها والتفتا حول عنقها، يدان غليظتان قويّتان يطفو فوقهما وجهه الناظر إليها شززا بعينيه غير المتماثلتين. حاولت الملكة أن تصيح: لا، لكن يذي القزم انغرسنا أكثر في لحم رقبتها خانقتين مقاومتها، وراحت تركز وتصرخ بلا طائل، وسرعان ما صارت تُصدر الصّوت ذاته الذي خرج من ابنها، صوت الامتصاص الرّفع الشّنيع الذي صاحب آخر أنفاس يلفظها جوف في ذنياه. استيقظت شاهقة في الظلام لتجد دثارها معقودا حول عنقها، فانتزعته سرسي بغنف مرقه واعتدلت جالسة تلهث، وقالت لنفسها: حلم، حلم قديم ودار معقود، هذا كل ما هنالك. هذه الليلة أيضًا تقضيها تايئا مع الملكة الصغيرة، وبدلاً منها تنام إلى جوارها دوركاس. هزتها سرسي من كتفها بخشونة قائلة: «استيقظي واعثري على يايسل. أظنه سيكون مع اللورد جايلز. أحضره في الحال»، فنهضت دوركاس شبه نائمة ونزلت من الفراش لتقطع الغرفة مترنحة وتبحث عن ثيابها، وقد احتكت قدمها الحافيتان بالحصائر.

يَعدّ عَصُورٍ دَخَلَ المَيسِترَ الأكبرَ يَيسلَ يَجُرُّ قَدَمِيهِ وَوَقَفَ
أَمَامَهَا بِرَأْسِ مَحْتِي، يَطْرَفُ بِعَيْنِيهِ ثَقِيلَتِي الجَفْنَيْنِ وَيَقَاوِمُ
الثَّأُوبَ، وَيَبْدُو كَأَن وَزْنَ سِلْسِلَةِ المَيسِترِ الضَّخْمَةِ حَوْلَ غُنْقِهِ
الْمَتَهَذَّلِ يَسْحِبُهُ سَحْبًا إِلَى الْأَرْضِ. كَانَ يَيسلَ عَجُوزًا طِيلَةَ
مَعْرِفَةِ سَرَسِي بِهِ، وَلَكِنَّهُ شَهِدَ زَمَنًا تَمَتَّعَ فِيهِ بِالْبَهَاءِ أَيْضًا، إِذْ
تَعَوَّدَ ارْتِدَاءَ الْأَقْمَشَةِ الْفَاخِرَةِ وَأَحَاطَ بِهِ طَايِعٌ مِنَ الْجَلَالِ وَمَيِّزَتُهُ
كِيَاسَةُ مَنقُطَعَةِ النُّظِيرِ، وَمَنْخَتُهُ لَحِيَتُهُ الْبِيضَاءُ الْهَائِلَةُ سَمَتِ
الْحِكْمَةِ... إِلَّا أَنَّ تِيرِيونَ حَلَقَ لَحِيَتَهُ، وَمَا نَبِثَ مِنْهَا مِنْ جَدِيدٍ
يُثِيرُ الشَّفَقَةَ، مَجْرَدَ رُقْعٍ قَلِيلَةٍ مِنَ الشَّعْرِ الْهَشِّ لَا تُخْفِي إِلَّا
الْقَلِيلَ مِنَ الْجِلْدِ الْوَرْدِيِّ الزَّخْوِ تَحْتَ ذَقْنِهِ الْمَتَدَلِّي. لَيْسَ هَذَا
رَجُلًا وَإِنَّمَا أَطْلَالُ رَجُلٍ. الزُّنَازِينَ السُّودَاءُ سَلَبَتُهُ مَا فِيهِ مِنْ قُوَّةٍ،
هِيَ وَمُوسَى الْقَزَمُ.

بَادَرَتْهُ سَرَسِي سَائِلَةً: «كَمْ سِنُوكَ؟».

- «أَرْبَعَةٌ وَثَمَانُونَ عَامًا، بَعْدَ إِذْنِ صَاحِبَةِ الْجَلَالَةِ».

- «كَنْتُ أَفْضَلَ رَجُلًا أَصْفَرًا».

لَعَقَ شَفَتَيْهِ قَائِلًا: «كَنْتُ فِي الثَّانِيَةِ وَالْأَرْبَعِينَ فَقَطْ عِنْدَمَا
اسْتَدْعَانِي مَجْمَعُ الْمَيسِترَاتِ. كَايْتُ كَانَ فِي الثَّمَانِينَ حِينَ
اخْتَارُوهُ، وَإِلِينْدُورُ كَانَ فِي الثَّاسِعَةِ وَالثَّمَانِينَ. كِلَاهُمَا سَحَقَتْهُ
أَعْبَاءُ الْمَنْصَبِ وَمَاتَ فِي غَضُونِ عَامٍ مِنْ تَرْقِيَتِهِ، وَخَلَقَهُمَا
مِيرِيونُ فِي سِنِّ السَّادِسَةِ وَالسَّتِينَ، لَكِنَّهُ مَاتَ بِالْبَرْدِ فِي طَرِيقِهِ
إِلَى (كِينْجَزْ لَانْدِنْج)، وَبَعْدَهَا طَلَبَ الْمَلِكُ إِجُونُ مِنْ (الْقَلْعَةِ) أَنْ
تُرْسِلَ رَجُلًا أَصْفَرًا، فَكَانَ أَوَّلُ مَلِكٍ خَدَمْتُهُ».

وَتَوَمَّنَ سَيَكُونُ الْآخِيرَ. «أَحْتَاجُ إِلَى عَقَارٍ مِنْكَ، شَيْءٌ
يُسَاعِدُنِي عَلَى النَّوْمِ».

- «كَأْسٌ مِنَ الثَّبِيدِ قَبْلَ النَّوْمِ غَالِبًا مَا...».

- «إِنِّي أَشْرَبُ الثَّبِيدَ أَيُّهَا الْأَبْلَهُ الْقَمِيءُ. أَرِيدُ شَيْئًا أَقْوَى،
شَيْئًا لَا يَجْعَلُنِي أَحْلَمَ».

- «صَاحِبَةُ... صَاحِبَةُ الْجَلَالَةِ لَا تُرِيدُ أَنْ تَحْلُمَ؟».

- «ماذا قلت لتوي؟ هل وهنت أذنك كقضيبك؟ أيمكنك أن تصنع لي عقازا كهذا أم أن علي أن أمر كايرن بتصحيح فشل آخر لك؟».

- «لا، ليس هناك داعٍ لتدخل هذا ال... لتدخل كايرن. نوم بلا أحلام. ستحصلين على عقارك».

قالت: «عظيم. يُمكنك أن تذهب»، لكن إذ التفت نحو الباب استوقفته متسائلة: «شيء آخر. ما الذي تُدرسه (القلعة) بخصوص التنبؤ؟ هل التكهّن بالغد ممكن؟».

تردّد العجوز، وتحششت يده صدره بحركة عفوية كأنها أرادت التملّيس على اللّحية التي زالت، وبتؤدة ردّد: «هل التكهّن بالغد ممكن؟»، ثم إنه قال: «ربما. ثقة تعاويذ معينة في الكتب القديمة... لكن ربما على جلالتك أن تسألي: هل ينبغي التكهّن بالغد؟ وعلى هذا أرى بلا. خيرٌ للإنسان أن يظلّ بعض الأبواب مغلقًا».

- «أحرص على إغلاق بابي عندما تُخرج». كان يجدر بها أن تعلم أن إجابته ستكون عديمة الفائدة مثله.

في الصّباح الثّالي تناولت إفطارها مع تومن، وقد بدا الضّبي خاضعا للغاية. واضح إذن أن جلده پايت آتى أكله. أكلا البيض المقلّي والخبز المحقّر واللّحم المقدّد والقليل من البرتقال الذّموي الذي وصل حديثًا على سفينة من (دورن). صاحبت ابنها هُيرراته، وإذ توثّبت ولعبت حول قدميه أحشت سرسي بشيء من الثّحشن. لا أنى سيمش تومن ما دمّت حيّة. ستقتل نصف لوردات (وستروس) وعامتها كافّة إذا كان ذلك ما يتطلّبه الحفاظ على سلامته. بعد الأكل قالت للضّبي: «أذهب مع جوسلين»، ثم إنها أرسلت تستدعي كايرن، ولما جاء سألته: «أما زالت الليدي فاليس حيّة؟».

- «حيّة، نعم، لكن ربما لا تكون... مستريحة».

غمغمت سرسي: «مفهوم»، وفكرت برهة قبل أن تردف: «هذا الرجل برون... لا أستطيع أن أقول إن فكرة وجود عدو بهذا القرب تُعجبني. إن قوته كلها مستمدة من لوليس، فإذا كشفنا عن أختها الكبيرة...».

قال كايبرن: «للأسف أخشى أن الليدي فاليس لم تُعد قادرة على حكم (ستوكوورث)، أو على إطعام نفسها حتى. يسؤني أن أقول إنني تعلّمت الكثير منها، لكن الدروس لم تكن بلا مقابل. أمل أنني لم أتجاوز تعليمات جلاتك».

- «نعم». أيّا كان ما انتوّته فقد فات أوانه، ولا جدوى من إطالة التفكير فيه. الأفضل أن تموت، فليست تريد أن تواصل الحياة من دون زوجها. على الرغم من سذاجته بدت الحمقاء مغرمة به. «ثمة مسألة أخرى. ليلة أمس رأيت خلقًا مخيفًا».

- «شيء يُصيب البشر كلهم من حين إلى آخر».

- «الخلم يخض ساحة زرتها في طفولتي».

- «ساحرة غابات؟ أكثرهن غير مؤذيات، يعرفن القليل من

العلاج بالأعشاب والقبالة، لكن فيما عدا هذا...».

- «كانت أكثر من ذلك. نصف أهل (لانسپورت) اعتادوا

الذهاب إليها من أجل الثمائم والعقاقير. كانت أمّ أحد اللوردات

الضغار، تاجر تري رقاه جذي، وقد وجدها أبو هذا اللورد بينما

يتاجر في الشرق. قال بعضهم إنها ألقت عليه تعويذة، مع أن

الأرجح أن التعويذة الوحيدة التي احتاجت إليها كانت بين

فخذيها. لم تكن بشعة الخلقة دائمًا، أو هكذا قالوا. لا أذكر

اسمها. كان اسقًا شرقيًا طويلًا غريبًا، لكن العامة تعودوا دعوتها

بماجي».

- «مايجي؟».

- «أهكذا يُنطق؟ كانت المرأة تمتض قطرة ديم من إصبعك

وتخبرك بما يُخبئته مستقبلك».

- «الشحر الذموي أكثر أنواع الشعوذة سوادًا، ويقول بعضهم إنه الأقوى كذلك».

قالت سرسي التي لا تريد أن تسمع هذا: «هذه المايجي تنبأت بأشياء معينة. في البدء ضحكنا منها، لكنها... تنبأت بموت واحدة من رفيقات فراشي. وقت الثبوءة كانت الفتاة في الحادية عشرة، في صحة ممتازة كفهرة وأمنة في (الصخرة)، لكنها سقطت بعد فترة قصيرة في بئر وغرقت». توشلت ميلارا إليها ألا تتكلما أبدًا عما سمعته تلك الليلة في خيمة المايجي. إذا لم نتكلّم عما حدث فسرعان ما ننساه، وعندها سيكون مجرّد خلم سيئ رأيناه. الأحلام السيئة لا تتحقّق أبدًا. كانت كلتاهما صغيرة، فبدأ الكلام أقرب إلى الحكمة.

سألها كايبرن: «أما زلت حزينّة على صديقة طفولتك؟ أهذا ما يُزعجك يا جلالة الملكة؟».

- «ميلارا؟ لا. إنني أذكر شكلها بالكاد. غير أن... المايجي علّمت كم طفلًا سأنجب، وعلّمت بأمر نفول روبرت، قبل سنوات من إنجابه أولهم علّمت. لقد وعدتني بأنني سأصير ملكة، لكنها قالت إن ملكة أخرى ستأتي...». /صغر و/جمل. «... ملكة أخرى ستسلبني كلّ ما أحبّ».

- «وترغبين في تحاشي تحقّق هذه الثبوءة؟».

أكثر من أيّ شيء. «أهذا ممكن؟».

- «أوه، نعم. لا تشكّي في هذا أبدًا».

- «كيف؟».

- «أظنّ أن جلالتك تعرف الجواب».

وهي تعرفه بالفعل. كنث أعرفه طيلة الوقت، حتى في الخيمة. «إذا حاولت سأجعل أخي يَقُتلها».

إلا أن معرفة ما عليها أن تفعله شيء ومعرفة كيف تفعله شيء آخر. إنها لا تستطيع الاعتماد على جايمي. أفضل الحلول أن يفتك بها مرض مفاجئ، لكن الآلهة نادرًا ما تكون بذلك الكرم. كيف إذن؟ سكين؟ وسادة؟ كوب من آفة القلوب؟ كل هذه الخيارات يتضمّن مشكلات. حين يموت رجل مسنّ في نومه لا يفكر أحد في الأمر مزّتين، لكن العثور على فتاة في السادسة عشرة ميتة في فراشها سيفضي بكل تأكيد إلى أسئلة تتعذر إجابتها، ثم إن مارجري لا تنام بمفردها أبدًا، وحتى مع احتضار السير لوراس ما زال الحرس المسلّحون حولها ليل نهار. لكن لكل سيف حذّان. الرجال أنفسهم الذين يحرسونها يمكن استغلالهم في الإطاحة بها. يجب أن يكون الدليل دامغًا لدرجة ألا يجد السيّد والد مارجري ذاته خيارًا غير الموافقة على إعدامها، ولن يكون ذلك سهلًا. ليس واردًا أن يعترف عشاقها عالمين أن معنى هذا قطع رؤوسهم مع رأسها، ما لم...

في اليوم التالي وجدت الملكة أوزموند كيتلبلاك يُبارز أحد الثوّامين ردواين في السّاحة. لا تدري أيّهما، إذ لم تتمكن قط من التمييز بينهما. شاهدت المبارزة فترة، ثم نادى السير أوزموند، وقالت له: «تمشّ معي واصدّقني القول. لا أريد زهوًا فارغًا أو كلامًا عن أن أيّ ابن كيتلبلاك أفضل ثلاث مرّات من أيّ فارس آخر. الكثير يعتمد على إجابتك. أخوك أوزني، ما مدى براعته في استخدام الشيف؟».

- «إنه بارع. لقد رأيته. ليس قويًا مثلي أو مثل أوزفريد، لكنه سريع القتل».

- «إذا دعت الحاجة، فهل يستطيع أن يهزم السير بوروس بلاونت؟».

أطلق السير أوزموند ضحكة مكتومة، وقال: «بوروس الكرش؟ كم سيئه؟ أربعون عامًا؟ خمسون؟ إنه نصف ثمل نصف الوقت، وبدين حتى وهو مفيق. إذا كان يستسيغ القتال من قبل فلم يغد يفعل. أجل يا جلالة الملكة، إذا كان قتل السير بوروس مطلوبًا فأوزني كفيل بهذا بسهولة. لماذا؟ هل ارتكب بوروس خيانة ما؟».

أجابت: «لا»، لكن أوزني ارتكبتها.

(65). الكراجل مخلوقات أسطورية ذات مظهر مشوه مخيف مصورة في منحوتات عذة، وبالأخص على الجدران الخارجية لعدد من كنائس العصور الوسطى، حيث تتخذ شكل ميزاب ناتئ. (المترجم).

پریان

صادقوا أولى الجُثث على بُعد ميلٍ من مفترقِ الطُّرق.
كان الرّجل يتأرجح من فرع شجرة ميتة ما زال جذعها
المتفحّم يحمل ندوب صاعقة البرق التي قتلتها، وقد أدّت
الغريبان عملها في وجهه، والتهفت الذّئاب وليمةً من لحم ساقيه
حيث تتدليّان قُرب الأرض، فلم يتبقّ أسفل الرُّكبتين إلّا العظم
والأسمال... بالإضافة إلى فردة حذاءٍ ممضوغة تمامًا ويكاد
يُغطّيها الظّمي والعقن.

سأل بودريك: «ما هذا الذي في فمه؟».

اضطّرت پریان إلى استجماع أطراف شجاعته لتلقي نظرة.
وجه الرّجل رمادي وأخضر وفظيع، وفمه مفتوح منتفخ إذ دس
أحدهم صخرة بيضاء محرّزة بين أسنانه، صخرة أو...
قال الشيتون ميريبولد: «إنه ملح».

بعد خمسين ياردةً أبصروا الجثة الثانية. كان أكلو الجيف قد
سحبوها أرضاً، وما تبقى منها مبعثر على الأرض تحت حبلٍ بالٍ
مربوط حول فرع شجرة زردار. كانت پریان لتمرّ بها دون أن
تلاحظ، لولا أن كلب التقط رائحتها ووثب بين الحشائش
ليتشمّمها من كعب.

سأل السير هايل: «ماذا وجدت يا كلب؟»، وترجّل ولحق
بالكلب، ثم عادَ بخوذة قصيرة لا تزال تحوي جمجمة الميت
بالإضافة إلى القليل من الذّيدان والخنافس، وأعلن: «فولاذ
جيد، ليس منبجعا لهذه الدرجة، ولو أن الأسد فقدَ رأسه. يود،
هل تريد خوذة؟».

- «ليس هذه، إن فيها دوذا».

- «يمكنك أن تغسلها من الدّود يا فتى. إنك شديد الحساسية

كالبنات».

قالت له پریان عابسةً: «إنها كبيرة عليه للغاية».

- «سيكبر حتى ثنأسيه».

قال يودريك: «لا أريدها»، فهدّ السير هایل كتفيه وألقى الخوذة ذات ريشة الأسد المكسورة وسط الحشائش، ونبح كلب وذهب يرفع ساقه على الشجرة.

بعد ذلك لم تكد مئة ياردة تمرّ بلا جثث مدلاة من أشجار القران وجار الماء والزّان والبتولة والأرز والذردان، ومن أشجار الضفصاف العجوز الرّغبة وأشجار الكستناء المهيبة. كلّ رجلٍ حول رقبتِه أنشودة معلقة من حبلٍ من القنب، وكلّ رجلٍ فمه محشوٌ بالملح. يرتدي بعضهم معاطف رماديّة أو زرقاء أو قرمزيّة، وإن أبهتتها الشّمس والأمطار لدرجة تُصْفَب التّمييز بين لونٍ وآخر، وعلى صدور بعضهم شارات مخيطة، ورأت بريان فؤوسًا وسهامًا وعدّة أسماك سلمون وشجرة صنوبر وورقة سنديان وخنافس وديوكّا ورأس خنزير بزي ونصف دسّية من الزّماح الثلاثيّة. رجال مكسورون، قلوب عشرة جيوش أو أكثر، قُضالة اللوردات.

بعض الموتى أصلع وبعضهم ملتج، وبعضهم شاب وبعضهم عجوز، وبعضهم قصير وبعضهم طويل، وبعضهم بدين وبعضهم نحيل، لكن مع انتفاخ الجثث وتآكل الوجوه وتعفّنها يتشابه الجميع. على مشانق الأشجار كلّ البشر إخوة. قرأت بريان هذه المقولة في كتاب ما، وإن نسيت اسمه.

هايل هنت هو من أعرب عمّا أدركوه جميعًا إذ قال: «هؤلاء هم الرّجال الذين أغاروا على (الملاحات)».

قال ميريبولد الذي كان صديق سيتون البلدة الشّيخ: «عسى (الأب) أن يحكم عليهم بالعذاب».

لا تهّم هويّاتهم بريان بقدر ما يهّمها من شنقهم. يُقال إن الأنشودة وسيلة الإعدام المثاليّة عند بريك دونداريون وجماعته من الخارجيين عن القانون، وإذا كان من يُسمّى سيّد البرق شانقهم حقًا فربما يكون قريبًا.

نبح كلب، فتلفت السيتون ميريبولد حوله بتجهم، وقال: «هَلَّا جئنا الخطي؟ الشمس موشكة على الغروب، والجثث ضحية رديئة ليلاً. هؤلاء كانوا رجالاً قساةً خطرين في حياتهم، وأشك أن الموت جعلهم ألطف معترًا».

علق السير هايل: «أخالفك الرأي. إنهم بالضبط النوع الذي يُحسِّن الموت طباعه كتمزًا»، على أنه همز حصانه وتحرك بسرعة أكبر.

على مسافة أبعد بدأت الأشجار تقل، ولكن ليس الجثث. أفسحت الغابة الطريق للحقول الموحلة وفروع الشجر للمشائق، وحلقت سحابات من الغريان صارخة مع دنو المسافرين ثم عادت تستقر على الجثث ما إن مروا. ذكرت بريان نفسها قائلة: كانوا رجالاً أشرارًا، وعلى الرغم من هذا أحزنها المشهد. أرغمت نفسها على النظر إلى كل رجل بدوره باحثة عن وجوه تألفها، وخطر لها أنها تعرّفت بعض من رأتهم في (هارنهال)، إلا أن حالتهم جعلت الثيق عسيرًا. لا أحد من المشنوقين يعتمر خوذة على شكل رأس كلب، لكن قلة منهم تعتمر خوذات من شئ الأنواع، وإن جرد أكثرهم من الأسلحة والأروع والأحذية قبل إعدامهم.

عندما سأل يودريك عن اسم الخان الذي يأملون قضاء الليل فيه، انتهر الشيتون ميريبولد الفرصة بحماسة -ربما ليصرف تفكيرهم عن الخزّاس المريعين على جانب الطريق- وقال: «يُسَمِّيهِ بعضهم (الخان القديم). ثَمَّةُ خان كان قائماً هناك عدَّةَ مئاتٍ من السنين، ولو أن الخان الموجود حالياً بُني في عهد جهيرس الأول، الملك الذي شَقَّ (طريق الملوك)، ويُقال إن جهيرس وملكته اعتادا التَّوَمَ هناك خلال رحلاتهما، وهكذا ظَلَّ المكان معروفاً فترةً باسم (خان الثَّاجين) تكريماً لهما، إلى أن شَيَّدَ أحد أصحابه بُرج جريس وغيَّرَ الاسم إلى (خان قارع الجرس). بعدها انتقلَ المكان إلى فارس مُعاق اسمه چون هِدَل الفارع اشتغلَ في الحدادة حين تقدَّمت به الشُّرُّ ولم يَعد يقوى على القتال، فصنَّعَ لافتةً جديدةً للسَّاحة، تَتَّيَّنُ ثَلَاثِي الرُّؤُوسِ من الحديد الأسود علَّقه من سارية خشبيَّة. كان التَّئِينُ كبير الحجم لدرجة أنه تَكوَّن من عدَّة قطعٍ رُبطت معاً بالحبال والأسلاك، وحين تهبُّ الرِّيح كان يُضَلَّصَل ويرنُّ، فاشتَهَرَ الخان في كلِّ مكانٍ باسم (التَّئِين الرُّنَّان)».

سأل يودريك: «أما زالت لافتة التَّئِين موجودة؟».

أجاب الشيتون ميريبولد: «لا. عندما تقدّم ابن الحدّاد في السنّ بدوره تمزّد ابن نغل لإجون الزّارع على أخيه الشرعي واتخذ لرمزه تئيّنا أسود. وقتها كانت هذه الأراضي تنتمي إلى اللورد داري، وكان حضرة اللورد مخلصًا للملك لأقصى درجة، فأغضبه منظر التئين الأسود وقطع الشارية الخشب وحطّم اللّافّة وألقاها في النّهر. بعدها بسنوات كثيرة جرّفت المياه أحد رؤوس التئين إلى (جزيرة الهدوء)، ولو أن خمرة الضّدّ كانت قد صبّفته عندئذٍ. لم يعلّق صاحب الخان لافّة أخرى، ونسي النّاس التئين وأصبحوا يدعون المكان بـ(خان النّهر). آنذاك كان (الثالوث) يتدقّق أسفل الباب الخلفي، وينصف الغُرف كان مبنيا فوق المياه مباشرة. يقولون إن الضيوف كان بإمكانهم صيد أسماك الترويت من نوافذ غرفهم بالضنانير. كان هناك مرسى عبّارة أيضًا، ليستطيع الضيوف العبور إلى (بلدة اللورد هاروواي) و(الأسوار البيضاء)».

قالت بريان: «لقد تركنا (الثالوث) في الجنوب وركبنا شمالًا وغربًا... ليس نحو النّهر بل بعيدًا عنه».

- «أجل يا سيّدتى. مجري النّهر تبدّل. كان هذا منذ سبعين عامًا، أم أنها ثمانين؟ وقتها كان جدّ العجوز ماشا هيل يملك المكان، وهي من حكّت لي تاريخه كلّهُ. امرأة طيبة ماشا، مولعة بالثبغ المُرّ وكعك العسل. عندما لا تكون عندها غرفة شاغرة لي كانت تتركني أنام إلى جوار المستوقّد، ولم تُؤدّعني قطّ دون أن تُعطيني خبزًا وجبنة وبعض الكعكات البائتة».

سأله يودريك: «أهي صاحبة الخان الآن؟».

- «لا. لقد شنّقها الأسود. سمعتُ أن بعد رحيلهم حاول أحد أبناء إخوتها إعادة فتح الخان من جديد، لكن الحروب جعلت سفر العاقمة على الطّرق محفوفًا بالأخطار، فلم يأت زبائن كثيرون. جلب الرّجل عاهرات، لكن حتى هذا لم ينفعه. سمعتُ أن أحد اللوردات قتله أيضًا».

رسم السير هایل تعبيرًا ساخرًا على وجهه، وقال: «لم أتخيل قَطُّ أن امتلاك خانٍ من شأنه أن يكون خطرًا مميّثًا هكذا». رَدَّ الشيتون ميريبولد: «الخطر أن تكون من أولاد العامة وقت أن يلعب اللوردات لعبة العروش، أليس كذلك يا كلب؟»، فنبَحَّ الكلب مؤيّدًا.

سأل يودريك: «إذن هل للخان اسم الآن؟».

- «العامة يُسمّونه خان مفترق الطرق. الأخ الكبير أخبرني بأن اثنتين من بنات إخوة ماشا هيل أعادتَا فتح المكان للزّبان»، ورفع الشيتون نثوته مضيّقًا: «بمشيئة الآلهة سيكون الدّخان المرتفع من وراء المشنوقين من مداخن الخان».

قال السير هایل: «يمكنهم أن يُسمّوا المكان خان المشانق!». بأيّ اسم الخان كبير، يرتفع ثلاثة طوابق فوق الطّرق الموحلة، وجدرانه وشرفاته ومداخله من حجر أبيض ناعم يلتصق بشحوبٍ شبحي تحت السماء الزّمادية. الجناح الجنوبي مشيّد فوق دعائم خشبيّة ثقيلة أعلى مساحةٍ غائصة مشقّقة من الحشائش والغشب البني الميت، وثقّة اسطبل بسقيف من القشّ وبرج جرس ملحقان بالجانب الشمالي، والمكان كلّهُ محاط بسورٍ واطنٍ من حجارة بيضاء مكشّرة تنمو عليها الظّحالب بكثافة.

على الأقل لم يحرقه أحد. في (الملاحات) لم يجدوا إلا الموت والذمار. لدى وصول بريان ورفاقها بالعبارة من (جزيرة الهدوء) كان الناجون قد هربوا والموتى فُوروا الثراب، لكن جثة البلدة نفسها تبقى متفحمة لم تدفن، ما زالت في الهواء رائحة الدخان، ويكاد صياح النوارس المحلقة بالأعلى يكون بشرًا كأنه نواح أطفال ضاعوا من أهاليهم. حتى القلعة بدت كثيبة مهجورة. رمادية هي كرماد البلدة المحيطة بها، وتتكون من حصن مربع محاط بسور ومشيد بحيث يطل على الميناء. وجدت بريان والآخرين المكان مغلقًا بإحكام إذ قادوا دوابهم من العبارة، ولا شيء يتحرك في الشرفات إلا الزايات، واستغرق الأمر ربع ساعة من نباح كلب وطرق السيّتون ميريبولد البوابة الأمامية بنبؤته قبل أن تظهر امرأة من فوقهم لتسألهم عما يريدون.

عندئذ كانت العبارة قد رحلت وبدأت السماء تمطر، ورفع ميريبولد صوته مجيبًا: «أنا سيّتون من العقيدة يا سيّدتى الكريمة، وهؤلاء مسافرون شرفاء. نسألکم المأوى من المطر ومكانًا إلى جوار النار الليلة».

على أن مناشدته لم تؤثر في المرأة، وردّت: «أقرب خان عند مفترق الطرق إلى الغرب. لا نريد أغرابًا هنا، ارحلوا»، وما إن غابت لم تفلح صلوات ميريبولد أو نباح كلب أو سباب السيل هائل في إعادتها، وفي النهاية أمضوا الليل في الغابة تحت سقف صنعوه من الغصون المجدولة.

لكن في خان مفترق الطرق حياة. حتى قبل بلوغهم البوابة سمعت بريان صوت الدقّ خافتًا لكن ثابتًا وله رنين قولاذي.

قال السير هایل: «ورشة. إمّا أن عندهم حدّادًا وإمّا أن شبح صاحب الخان القديم يصنع تليًا حديدًا آخر»، وهمز حصانه مضيقًا: «أمل أن عندهم طبّاخًا شبعًا أيضًا. دجاجة مشوية ناضجة كفيلة بجعل كلّ شيء على ما يُرام».

ساحة الخان بحر من الأوحال البئيرة التي مضت حوافر خيولهم. رنين الفولاذ أعلى هنا، ورأت بريان وهج الورشة الأحمر عند طرف الاسطبل القصي وراء عربة ثيران لها عجلة مكسورة. رأت أحصنة في الاسطبل أيضًا، وصبيًا صغيرًا يتأرجح على سلسلة المشنقة البالية الضدنة التي ترتفع فوق الشاحنة، وقد وقفت أربع فتيات في شرفة الخان الأمامية يشاهدنه. أصغرن العارية لا تتجاوز العامين، وأكبرهن -التي تبلغ التاسعة أو العاشرة- تقف ضامّة الصغيرة بذراعيها حمايةً. ناداهن السير هایل قائلاً: «أيتها الفتيات، أسرعن ونادين أمكن».

وثب الضبي من السلسلة وهرع إلى الاسطبل، في حين وقفت الفتيات الأربع متمللمات، وبعد وهلة قالت إحداهن: «ليست لنا أمهات»، وأضافت أخرى: «كانت لي واحدة لكنهم قتلوها»، ثم تقدّمت أكبر الأربعة دافعة الصغيرة وراءها، وسألت: «من أنتم؟».

- «مسافرون شرقاء نبحث عن مأوى. اسمي بريان، وهذا هو السيتون ميريبولد المعروف في أراضي النهر، والضبي هو مرافقي يودريك پاين، والفارس هو السير هایل هنت».

توقفت الذقات فجأة، وتطلّعت إليهم الفتاة الواقفة في الشرفة بحذر لا تتحلّى به إلا طفلة في العاشرة، ثم قالت: «أنا وילו. هل تريدون أسرة؟».

ترجل السير هایل مجيبًا: «أسرة ومزّزا وطعامًا ساخنًا. هل أنت صاحبة الخان؟».

هزّت رأسها نفيا، وقالت: «إنها أختي جاين، لكنها ليست هنا. ليس عندنا ما نأكله إلا لحم الخيل، ولا توجد عاهرات إذا كنتم قد جيئتم من أجلهن، أختي طردتهن. لكن عندنا أسرة، بعضها محشو بالزيش لكن أغليها بالقش».

قال السير هایل: «وكلّها تسكنه البراغيث لا شك».

- «هل معكم مال تدفعون به؟ فضة؟».

ضحك السير هایل، وقال: «فضة؟ للمبيت ليلة وفخذ حصان؟ هل تحاولين سرقتنا أيتها الصغيرة؟».

- «ستدفعون بالفضة، أو يمكنكم الثوم في الغابة مع الموتى»، ورمقت ويلو الحمار وما على ظهره من براميل وخزّم متسائلة: «أهذا طعام؟ أين حصلتهم عليه؟».

أجاب ميريبولد: «(بركة العذارى)»، ونبح كلب.

سأل السير هایل: «أتستجوبون ضيوفكم جميعًا بهذه الطريقة؟».

- «لا يأتينا ضيوف كثيرون منذ بدأت الحرب. أكثر من على الطريق هذه الأيام عسافير أو أسوأ».

ردّت بريان: «أسوأ؟».

قال صوت صبي من الاسطبل: «لصوص وقطّاع طرق».

والتفتت بريان فرأت شبكا.

رنلي. لا ضربة من مطرقة كانت لثريديها بهذه القوة. شهقت:

«سيّدي؟».

أزاح الضبي خُصلة نافرة من الشعر الأسود عن عينيه قائلاً:

«سيّدك؟ إنني مجرّد حدّاد».

تبينت بريان أنه ليس رنلي حقًا. رنلي ميت، رنلي مات بين ذراعي رجلًا في الحادية والعشرين. هذا مجرّد صبي. صبي يشبه رنلي عندما زار (تارث) أول مرّة. لا، أصغر. فكّه مرتع أكثر وحاجباه أكثف. رنلي كان نحيلًا ممشوقًا، أمّا هذا الضّبي فله الكتفان الثقيلتان والذّراع اليمنى مفتولة العضلات التي كثيرًا ما تُرى في الحدّادين. يرتدي منزّرًا جلدّيًا طويلًا لكن صدره عارٍ تحته، ويُغطّي زغب داكن وجنتيه وذقنه، وشعره كتلة سوداء غزيرة تنمو متجاوزةً أذنيه. شعر الملك رنلي كان أسود فاحقًا كهذا، لكنه حرص دومًا على غسله وتمشيّطه وتصفيفه. أحيانًا كان يُقَصّره وأحيانًا يتزكّه ينسدل على كتفيه أو يربطه وراء رأسه بشريط ذهبي، لكنه لم يكن قَطّ ملبّدًا أو مبلّلًا بالعرق. وعلى الرغم من أن لون عينيه كان هذا الأزرق العميق نفسه، فإنهما كانتا دائمتين دافئتين مرخبتين ضاحكتين، في حين تنضح عينا الضّبي بالغضب والارتياب.

رأى الشّيتون ميريبولد هذا أيضًا، فقال: «لا نقصد أدّى يا فتى. وقت امتلاك ماشا هيل هذا الخان كانت تُطعمني كعكّ العسل دومًا، وأحيانًا تُعطيني فراشًا إذا لم يكن المكان ممتلئًا». ردّ الضّبي: «لقد ماتت، الأسود شتقوها».

قال السير هایل هنت: «يبدو أن الشّنق الرّياضة المفضّلة هذه الأيام. ليتني أملك أرضًا في هذه الأنحاء. كنت لأزرع القُنب وأبيع الحبال وأجني ثروة».

سألّت بريان الفتاة ويلو: «هؤلاء الأطفال، أهمّ... إخوتك وأخواتك؟ أقاربك وأولاد عمومتك؟».

قالت ويلو محدّقةً إليها بنظرة تحفظها عن ظهر قلب: «لا، إنهم فقط... لا أدري... أحيانًا يأتي بهم العساقيرون، وهناك آخرون يأتون من تلقاء أنفسهم. ما دمت امرأة فلم ترتدين ثياب الرّجال؟».

أجابها الشيتون ميريولد: «الليدي بريان فتاة مُحاربة في مهمة، لكنها تحتاج الآن إلى فراش جاف وناوٍ تتدفقُ بها، ونحن أيضًا. عظامي العجوز تُنبئني بأن المطر سيعاود الشقوط قريبًا. هل عندكم عُرف لنا؟».

قال الضبي الحذاء: «لا»، وقالت الفتاة ويلو: «نعم». تبادل الاثنان نظرة، ثم دبّدت ويلو بقدمها قائلة: «إن معهم طعامًا يا جندي. الضغار جائعون»، وأطلقت صفيحًا فخرج مزيد من الأطفال كأنما بفعل السحر. زحف صبيان شعث الشعر يرتدون الأسمال خارجين من تحت الشرفة، وظهرت صبايا كامنات في الثوافذ المطلّة على الساحة، قد حملَ بعضهم نُشابيات ملقمة جاهزة للإطلاق.

قال السير هايل: «يُمكنهم تسميته خان النُشابية».

فكرت بريان: خان اليتامى اسم أجدر.

قالت ويلو: «وات، ساعدهم على ربط الخيول. ويل، ضع هذه الصخرة، إنهم لم يأتوا لأذيتنا. تانسى، پايت، أسرع يا حضار حطب للنار. چون يني، ساعد الشيتون على إنزال الحمولة. سأخذهم إلى عُرفهم».

في النهاية أخذوا ثلاث عُرفٍ متجاورة في كلٍّ منها فراش بحشيشٍ من الزَّيش ووعاء قضايا وناقذا، وفي عُرفا بريان مستوقداً أيضاً، فدفعت بضعا بنسات إضافية من أجل الحطب. بينما تفتح النافذا سألها يودريك: «هل سائنا في عُرفتكَ أم عُرفا السير هائل؟»، فأجابته: «لسنا في (جزيرة الهدوء). يملكنا أن تنام معي». في اليوم الثالي تنوي أن يتحرك الاثنان وحدهما. الشيتون ميريبول سيثجه إلى (نوتن) و(ريقريند) و(بلدا اللورد هاروواي)، لكن بريان لا ترى جدوى من أن تتبعه فترة أطول. إن معه كلب رفيقاً، والأخ الكبير أقنعها بأنها لن تجد سائنا ستارك على ضفاف (الثالوث). «أنوي أن أستيقظ قبل شروق الشمس والسير هائل لا يزال نائفاً». لم تُسامحه بريان على (هايجاردن)... وكما قال هنت بنفسه، إنه لم يقسيم على شيء بخصوص سائنا.

- «أين سنذهب أيتها الفارس؟ أعني يا سيديتي؟».

لا تملك بريان إجابة جاهزة. إنهما عند مفترق الطرق حرفياً، المكان الذي يتقاطع فيه (طريق الملوك) و(الطريق العالي) وطريق النهر معاً. (الطريق العالي) يأخذهما شرقاً عبر الجبال إلى (وادي آرن)، حيث كانت خالة سائنا تُحكم حتى موتها، وإلى الغرب طريق النهر الذي يمضي بمحاذاة (الفرع الأحمر) إلى (ريقرزن) وعمّ أمّ سائنا المحاضر وإن كان حياً، أو يملكهما أن يسلكا (طريق الملوك) إلى الشمال ويمرّا بـ(الثوأميتين) إلى منطقة (العنق) بمستنقعاتها ومياهها الآسنة، وإذا استطاعت أن تجد وسيلةً لاجتياز (خندق كايلن) ومن يسيطر عليها الآن فسيأخذهما (طريق الملوك) حتى (وينترفيل) نفسها.

أو يُمكنني أن أسلك (طريق الملوك) إلى الجنوب، أن أعود
خلسةً إلى (كينجز لاندنج) وأُعرّف بفشلي للسير چايمي وأُعيد
إليه سيفه، ثم أجد سفينةً تحملني إلى (تارث) كما أوعِزَّ إليّ
الأخ الكبير. فكرةٌ مريرة، لكن جزءًا منها يحثُّ إلى (بهو المساء)
وأبيها، وثقةٌ جزء آخر يتساءل إن كان چايمي سيؤاسيها إذا
بكت على كتفه. هذا ما يُريده الرجال، أليس كذلك؟ نساء
رقيقات الحاشية مهيضات الجناح يحتجن إلى حمايتهم؟
- «أيتها الفارس، سيّدتِي، سألتكِ أين سنذهب».
- «إلى القاعة العامة لتناول العشاء».

كانت القاعة العامة تعجُّ بالأطفال. حاولت پريان أن تُحصيهم،
لكنهم لا يقفون ثابتين ولو لحظةً، فعذت بعضهم مرّتين أو ثلاثًا
وبعضهم لم تعذه على الإطلاق، وفي النهاية استسلمت. كانوا قد
دفعوا الموائد مفاً مكوّنين ثلاثة صفوفٍ طويلة، والضّبية الأكبر
سنًا يجزّون الذّكك بصعوبةٍ من المؤخّرة. «الأكبر سنًا» معناها
أنهم في العاشرة أو الثانية عشرة. جندي أقربهم إلى الرّجولة،
لكن ويلو هي من تصيح بالأوامر كأنها ملكة في قلعتها والأطفال
الآخرون خدّمها فحسب.

لو أنها رفيعة النّسب لكانت القيادة من صفاتها الطّبيعيّة
والإنّعان من طباع البقيّة. تساءلت پريان إن كانت ويلو أكثر مما
تبدو. الفتاة أصغر سنًا وملامحها أكثر تقليديّة من أن تكون
سائزًا ستارك، لكنها في الشّئ المناسبة لأن تكون الأخت
الصّغيرة، وحتى الليدي كاتلين نفسها قالت إن آريا تفتقر إلى
جمال أختها. شعرها بئي، عيناها ببئتان، نحيلة... أيّمكن أن
تكون هي؟ تذكّر پريان أن شعر آريا ستارك بئي، لكنها ليست
متأكّدة من لون عينيها. بئي وبئي، أليس كذلك؟ أيّمكن أن
يُضح أنها لم تُمت في (الملاحات)؟

في الخارج يتلاشى ضوء النهار، وفي الداخل جعلتهم ويلو
يُشعلون أربع شموعات من الشَّحم وقالت للفتيات أن يحافظن
على تأجج نار المستوقد. ساعد الضبية يودريك يابن على إنزال
حمولة الحمار ودخلوا حاملين سمك القد المملح والضأن
والخضراوات والمكشرات وقوالب الجبنة، في حين ذهب
الشبتون ميريبولد إلى المطبخ ليتولَّى إعداد الثريد، وقال لأحد
الضببية الصغار: «للأسف نفذ بُرتقالي، وأخشى أنني لن أرى
بُرتقالة أخرى قبل الربيع. هل أكلت البُرتقال من قبل يا بُني؟ هل
اعتصرت واحدة وامتنصت عصيرها؟»، فلما هزَّ الطفل رأسه
نفيا نفَس الشبتون شعره قائلاً: «سأجلب لك واحدة إذن عندما
يأتي الربيع إذا كنت صبيًا طيبًا وساعدتني على تقليب الثريد».

خلع السير هایل حذاءه ليندُق قدميه عند النار، وحين
جلست بريان إلى جواره أشار برأسه إلى طرف القاعة القصي
قائلاً: «ثقة يقع دم هناك على الأرض حيث يتشقم كلب. لقد
نُظِّفت لكن الدَّم تخلَّل الخشب ولا يمكن الخلاص منه».

ذكرته قائلة: «هذا هو الخان الذي قتل فيه ساندور كليجاين
ثلاثة من رجال أخيه».

- «صحيح، ولكن من يدري إن كانوا أول من ماتوا هنا... أو
آخريهم؟».

- «أأنت خائف من أطفال قلائل؟».

- «أربعة قلائل، عشرة كثرة، وهؤلاء حشد. المفترض أن يُلَفَّ
الأطفال بالقماط ويُعلَّقوا على الحائط إلى أن تنبت للفتيات
أثناء ويبدأ الفتية حلاقة ذقونهم».

- «أشعر بالأسف من أجلهم. كلهم فقدوا أمهاتهم وآباءهم،
وبعضهم رأهم يقتلون».

دور هنت عينيه في محجريهما باستخفاف قائلاً: «نسيث
أنني أكلّم امرأة. إن لك قلباً ليثاً كثر يد الشيتون. أيمن أن في
مكان ما في أعماق مَبارزتنا أم تتوق إلى إنجاب الأطفال؟ ما
ترغبين فيه حقاً هو رضيع جميل متورّد يرضع من ثدييك»،
وابتسم السير هایل ابتسامة عريضة مضيئة: «سمعت أنك
تحتاجين إلى رجل لأجل هذا، ويُفَضَّل أن يكون زوجاً. لم لا
يكون أنا؟».

- «إذا كنت ما زلت تأمل أن تفوز برهانك...».

- «ما أريد الفوز به أنت، ابنة اللورد سلوين الحية الوحيدة.
لقد عرفت رجالاً تزوّجوا البلهاوات والرّضيعات في سبيل غنائم
بغش مساحة (تارت). لست رنلي باراثيون، أعترف بهذا، لكنني
أتمنّع بفضيلة وجودي على قيد الحياة. ربما يقول بعضهم إنها
فضيلتي الوحيدة. الزّواج سينفع كلينا، الأراضي لي وقلعة ملأى
بهؤلاء لك»، ولوّح هنت بيده نحو الأطفال مردفاً: «أو كُذِّ لك
أنني قادر. لقد أنجبت نغلة واحدة على الأقل على حدّ علمي. لا
تقلقي، لن أبتليك بها. آخر مرّة ذهبت لزيارتها سكبت أمها عليّ
مرجلاً من الحساء».

قالت والأحمر يزحف على غنقها: «أبي في الرّابعة والخمسين
فقط، ليس أكبر من الزّواج ثانية وإنجاب ابن من زوجته
الجديدة».

- «هذه مخاطرة... إذا تزوّج أبوك ثانية، وإذا كانت زوجته
خصيبة، وإذا أنجبت ابناً. لقد راهنت على ما هو أسوأ».

- «وخسرت الرّهان. مارس ألعابك مع واحدة غيري أيها
الفارس».

- «تقول هذا الفتاة التي لم تلعب مع أحد قط. حالما تفعلين
سيتغير رأيك. في الظلام ستكونين جميلة كأي امرأة أخرى. إن
شفتيك مخلوقتان للقبلات».

- «إنهما شفتان. الشّفاه كلّها واحدة».

قال هنت بمرح: «وكل الشفاه مخلوقة للقبلات. لا تُنزلي مزلاج باب غرقتك الليلة وسأنسل إلى فراشك وأثبت لك حقيقة ما أقوله».

رثت بريان: «وإذا فعلت فسثغائر مخصيًا»، ونهضت مبتعدة عنه.

متجاهلاً الفتاة الصغيرة التي تحبو عارية على المائدة، سأل الشيتون ميريبولد إن كان يمكنه أن يقود الأطفال في صلاة، فأجابته ويلو بالإيجاب رافعة الصغيرة قبل أن تبلغ الثريد، وهكذا حنوا رؤوسهم معًا وشكروا (الأب) و(الأم) على نعمتهما... جميعهم باستثناء الضبي الحذاء فاحم الشعر، الذي جلس عاقدا ذراعيه على صدره يحدق إليهم عابسا فيما يصلون. ليست بريان الوحيدة التي لاحظت، وبعد الصلاة تطلع الشيتون ميريبولد عبر المائدة متسائلا: «ألا تحب الآلهة يا بُني؟».

قال جندري: «ليس آلهتكم»، ونهض فجأة مستطرذا: «عندي عمل»، وخرج دون لقمة طعام.

سأل هايل هنت: «هل يحب إلها آخر؟».

بصوت رفيع أجاب صبي هزيل في السادسة أو نحوها: «إله الضياء».

ضربته ويلو بملعقة، وقالت: «بن ذو الفم الكبير، هناك طعام، عليك أن تأكله لا أن تُزعج ضيوفنا بكلامك».

انقَضَ الأطفال على الغشاء كما تنقُض الذئاب على غزالة جريحة، يتشاجرون على سمك القد ويمزقون خبز الشعير ويتثرون الثريد في كل مكان، وحتى قالب الخبنة الضخم لم ينج منهم طويلاً. قنعت بريان بالسمك والخبز والجزر، بينما أطعم الشيتون ميريبولد كلب لقمتين مقابل كل لقمة لنفسه. في الخارج بدأ المطر يسقط، وفي الداخل طقطقت النار وملأت القاعة العامة أصوات المضغ وضرب ويلو الأطفال بملعقتها. علّق السير هایل قائلاً: «ذات يوم ستصبح هذه الفتاة زوجة مخيفة لرجل ما، صبي الحذاء المسكين على الأرجح».

- «المفترض أن يأخذ إليه أحدهم القليل من الطعام قبل أن ينفد».

- «أنتِ أحدهم».

لقت شريحة من الخبنة ورغيفاً من الخبز وتقاحة مجففة وقطعتين من سمك القد المقلي بمنديل مرّيع، ولقا نهض يودريك ليتبعها إلى الخارج قالت له أن يجلس ويأكل، وأضافت: «لن أتأخر».

كان المطر ينهمر بغزارة على الساحة، ففطت بريان الطعام بطيئة من معطفها، وإذ مرّت بالاسطبل صهل بعض الخيول، فقالت لنفسها: هي أيضاً جائعة.

وجدت جندري في ورشته عاري الجذع تحت متزره الجلد، يهوي بالمطرقة على سيف كأنه يتمنى لو أنه عدو، وقد سقط شعره المبلل عن آخره بالفرق على جبهته. راقبته فترة مفكرة: إن له عيني رنلي وشعره ولكن ليس بنيانه. اللورد رنلي كان أقرب إلى الزشاقة من القتال العضلات... على عكس أخيه روبرت صاحب القوة الشهيرة.

لم يرها جندري واقفة هناك حتى توقف يمسح جبهته، فسألها: «ماذا تريدين؟».

أجابت: «أحضرت لك غشاءك»، وفتحت المنديل ليرى -

- «لو أردت طعامًا لأكلت».

- «على الحداد أن يأكل ليحافظ على قوّته».

- «أأنت أمي؟».

قالت واطعة الطعام: «لا. من أمك؟».

- «ولم تريد أن تعرفي؟».

- «أنت مولود في (كينجز لاندنج)». لكنته تجعلها واثقة

بهذا.

قال: «أنا وكثيرون غيري»، وغمس السيف في حوض من

ماء الأمطار ليطفئ ناره، فهسهس الفولاذ الشاخن غاضبًا.

سألته بريان: «كم سيك؟ أما زالت أمك حيّة؟ وأبوك، من

كان؟».

ردّ: «ثلاثين أسئلة كثيرة»، ووضع سيفه مضيقًا: «أمي مائت

وأبي لم أعرفه قط».

- «أنت نغل إنن».

اعتبر كلامها إهانة، وقال حانقًا: «أنا فارس. هذا السيف

سيكون لي ما إن أفرغ منه».

لماذا يعمل فارس في ورشة حدادة؟ «إن لك شعرا أسود

وعينين زرقاوين، وولدت في ظلّ (القلعة الحمراء). ألم يعلّق

أحد على وجهك من قبل؟».

- «وما عيب وجهي؟ إنه ليس قبيحا كوجهك».

- «لا بُدّ أنك رأيت الملك روبرت في (كينجز لاندنج)».

هزّ كتفيه قائلا: «أحيانا، في المباريات من بعيد، ومرة في

(سيت بيلون). ذوو المعاطف الذهبية دفعونا لتفسيح له الطريق.

في مرة أخرى كنتُ ألعبُ قرب (بوابة الظمي) وهو عائد من

الصّيد. كان سكران تماما وكاد يدعسني بحصانه. كان سكيّزا

بديئا، لكن ملكا أفضل من ابنه».

انقضّ الأطفال على الغشاء كما تنقضّ الذئاب على غزالة جريحة، يتشاجرون على سمك القد ويمزقون خبز الشعير وينثرون الثريد في كل مكان، وحتى قالب الجبنة الضخم لم ينج منهم طويلاً. قنعت بريان بالشمك والخبز والجزر، بينما أطعم الشيتون ميريبولد كلب لقمتين مقابل كل لقمة لنفسه. في الخارج بدأ المطر يسقط، وفي الداخل طقطقت النار وملأت القاعة العامة أصوات المضغ وضرب ويلو الأطفال بملعقتها. علّق السير هایل قائلاً: «ذات يوم ستصبح هذه الفتاة زوجة مخيفة لرجل ما، صبي الحداد المسكين على الأرجح».

- «المفترض أن يأخذ إليه أحدهم القليل من الطعام قبل أن ينفد».

- «أنت أحدهم».

لقت شريحة من الجبنة ورغيفاً من الخبز وتفاحة مجففة وقطعتين من سمك القد المقلي بمنديل مرّيع، ولقا نهض يودريك ليتبعها إلى الخارج قالت له أن يجلس ويأكل، وأضافت: «لن أتأخر».

كان المطر ينهمر بغزارة على الشاحة، فغطت بريان الطعام بطيية من معطفها، وإذ مرّت بالاسطبل صهّل بعض الخيول، فقالت لنفسها: هي أيضاً جائعة.

وجدت جندري في ورشته عاري الجذع تحت منزره الجلد، يهوي بالمطرقة على سيف، كأنه يتمنى لو أنه عدوّ، وقد سقط شعره المبلّل عن آخره بالفرق على جبهته. راقبته فترة مفكّرة: إن له عيني رنلي وشعره ولكن ليس بنيانه. اللورد رنلي كان أقرب إلى الزشاقة من انفثال العضلات... على عكس أخيه روبرت صاحب القوة الشهيرة.

لم يزها جندري واقفة هناك حتى توقّف لمسح جبهته، فسألها: «ماذا تريد؟».

أجابته: «أحضرت لك غشاءك»، وفتحت المنديل ليرى.

ليسا ابنيه. ستانيس قال الحقيقة يوم التقى رنلي. جوفري
وتومن لم يكونا ابني روبرت قَط، أما هذا الضبي... بدأت بريان
تتكلم قائلة: «اسمعني...»، إلا أنها سمعت كلب ينبح بصوت عالٍ
هائج، فقالت: «أحدهم قادم».

قال جندري بلا مبالاة: «أصدقاء».

سألته بريان: «أصدقاء من أي نوع؟»، وذهبت إلى باب
الورشة ثلقي نظرة عبر المطر.

هز كتفيه مجيبًا: «ستلتقيهم قريبًا».

فكرت بريان إذ دخل أول الخيالة الشاحنة خائضًا في برك
الوحل: ربما لا أريد أن ألتقيهم. تحت طقطقة المطر ونباح
الكلب سمعت الضلصلة الخافتة الصادرة من سيوفهم وقمصانهم
المعدنية أسفل معاطفهم المهترئة، وعدتهم واحدًا تلو الآخر. 2،
4، 6، 7. وشت الطريقة التي يركب بها بعضهم بكونهم جرحى،
ثم جاء آخرهم الضخم الذي يعادل اثنين من الآخرين معًا في
الحجم، حصانه منهك دأب ويترنّج تحت ثقل راكبه. كان الخيالة
جميعهم يرفعون قلنسواتهم لتقيهم من جلدات المطر، جميعهم
باستثنائه هو، فلاح وجهه العريض الحليق الشاحب كالذيدان
ووجنتاه المستديرتان اللتان تُغطّيهما القروح المفتوحة.

حبست بريان أنفاسها واستلّت (حافظ العهد)، وفكرت جافلة
خوفًا: كثيرون للغاية، عددهم كبير جدًا، ثم إنها قالت بصوت
خفيض: «جندري، ستحتاج إلى سيف ودرع. هؤلاء ليسوا
أصدقاء، ليسوا أصدقاء أحد».

قال الضبي: «عمّ تتكلمين؟»، وجاء يقف إلى جوارها حاملًا
مطرقتة.

سطع البرق في الجنوب بينما يترجل الخيالة، ولينصف لحظة استحال الظلام إلى نهار، لتلتحم فأس بالأزرق الفضي ويتوهج الضوء على القمصان المعدنية والذروع، وتحت قلنسوة الخيال القائد القائمة لمحت بريان خطفا حديديا وصفين من الأسنان الفولاذ، قم كلب يزمرجر.

رأى جندري أيضًا الخوذة، فقال: «هو».

- «ليس هو، بل خوذته». حاولت بريان أن تمنع الخوف من التسلسل إلى صوتها، لكنها وجدت قمها جافًا كالثراب. إن لديها تخمينًا لا بأس به على الإطلاق بخصوص من يعتمر خوذة كلب الصيد. فكرت: الأطفال.

انفتح باب الخان بقوة وخرجت ويلو إلى المطر رافعة
نشابية، وصاحت الفتاة في الوافدين لكن الرعد هزم في الساحة
طاغيا على كلامها، وإذ خفت سمعت بريان من يعتمر خوذة
كلب الصيد يقول: «أطلقني علي سهما وسأدش هذه النشابية في
كشك وأنكحك بها، ثم سأقتلع عينيك وأجعلك تأكلينهما».

دفع الغضب في صوت الرّجل وبلو إلى التّراجع خُطوةً مرتجفةً، وثانيةً فكّرت بريان بيأس: سبعة. تعلم أن لا فرصة لها في الثّغلب على سبعة. لا فرصة ولا خيار.

خرجت إلى المطر حاملاً (حافظ العهد)، وقالت: «دعوها وشأنها. إذا أردتم أن تغتصبوا أحداً فجزّبوني».

التفت إليها الخارجون عن القانون في آن واحد. ضحك أحدهم، وقال آخر شيئاً بلغة تجهلها بريان، وصدر من الضخم ذي الوجه الأبيض العريض هسيســـــــــــــــــــــــــــــــــــــس محمل بالغل، ثم انفجر الرجل الذي يعتمد خوذة كلب الصيد ضاحكاً، وقال: «إنك أقبح مما أذكر. أوثر أن أغتصب حصانك».

قال أحد الجرحى: «الأحصنة، هذا ما نريد، أحصنة جديدة والقليل من الطعام. هناك خارجون عن القانون يُطارِدُوننا. أعطونا أحصنتكم وسنذهب، لن نُؤذِيكم».

اختطف المجرم معتمر خوذة كلب الصيد فأشأ حربية من
سرجه قائلاً: «تباً لهذا. أريد أن أقطع ساقيهما اللعينتين. سأضعها
على جدعتيهما لشاهدي أغتصب فتاة الثشائية».

قالت بريان باستهزاء: «بماذا؟ شاجويل قال إنهم بتروا ذكرك
مع أنفك».

أرادت أن تستقره، ونجحت.

جائزاً بالشئائم انقضّ عليها، ثنر قدماه ماء البرك الأسود إذ
ركض نحوها، في حين ظلّ الآخرون في أماكنهم ليتفرّجوا على
العرض كما أملت أن يفعلوا. وقفت بريان ثابتة كالحجر تنتظر.
الشاحة مظلمة، والوحل زلق تحت الأقدام. الأفضل أن أتركه
يهاجمني. بمشيئة الآلهة سيزل ويسقط.

ولم تشأ الآلهة، لكن سيفها كان جاهزاً. خمس خطوات، أربع
خطوات، الآن، وفلق (حافظ العهد) الهواء مرتفعاً يصدّ
انقضاضته، وارتطم الفولاذ بالفولاذ إذ شقّ نصلها أسماه
وقميصه المعدني في اللحظة نفسها التي هوت فيها فأسه،
فالتوت إلى الجانب وسدّت ضربة أخرى إلى صدره بينما
تراجع.

وتبعها متعزّزاً ينزف ويهدر ثائراً: «عاهرة! مسخ! حقيرة!
سأعطي كلبى إياك لينكحك أيتها الحقيرة!». دازت فأسه في
أقوايس قاتلة، ظلّ أسود غاشم يصطبغ بالفضي كلما ومض
البرق. لا تحمل بريان ثرساً تصدّ به الضربات، ولا تستطيع إلا
التملص منه مندفعة في هذا الاتجاه أو ذاك لتتفادى رأس الفأس
الهاوي عليها. مرّة انزلق كعبها في الوحل وكادت تسقط، لكنها
استعادت توازنها بوسيلة ما، ولو أن الفأس كشطت كتفها
اليسرى مخلّفة حريقاً من الألم. صاح أحد الآخرين: «أصبت
الحقيرة!»، وقال آخر: «لنّ كيف سترقص الآن».

ورقّصت بريان شاعرةً بالرّاحة لاكتفائهم بالمشاهدة. أفضل لها أن يشاهدوا من أن يتدخّلوا، فليس بمقدورها أن تُقاتل سبعة بمفردها على الرغم من إصابات واحد أو اثنين منهم. السير جودوين العجوز في قبره منذ سنين، لكنها سمعته يهمس في أذنها: سيخس الرجال قدرك دومًا، وستجعلهم كبرياؤهم يرغبون في هزيمتك سريعًا خشية أن يقال إن امرأةً أرهقتهم ودوّختهم. اتزكيهم يستهلكون طاقتهم في الهجمات الضّارية بينما تدّخرين طاقتك. انتظري وراقبي يا فتاة، انتظري وراقبي. وانتظرت بريان، وشاهدت، تتحرّك إلى الجانب، ثم إلى الخلف، ثم إلى الجانب ثانية، تُشدّ ضربةً إلى وجهه، إلى ساقيه، إلى ذراعيه، والآن صارت ضرباته أبطأ إذ ثقلت فأسه، ودفعته بريان إلى الدوران ليكون المطر في عينيه ثم أسرعَت تتراجع خطوتين، ورفع فأسه مرّةً أخرى لاعنًا وكزّ عليها، وانزلت قدمه في الوحل...

... ووثبت ثقباه واكلتا يديها على مقبض سيفها. وضفته انقضاضته المباشرة عند رأس السيف بالضبط، وانغرس (حافظ العهد) في القماش والمعدن والجلد والمزيد من القماش، وغاض في أحشائه وانبتق من ظهره مصدرًا صوتًا خشنًا إذ احتك بعموده الفقري. سقطت فأسه من أصابع ارتخت، وتصادم الاثنان ليضرب وجه بريان خوزة رأس الكلب وتشرّع ببرودة المعدن المبتل على وجنتها. سأل المطر على الفولاذ أنهازًا، وحين سطع البرق من جديد لمحت الألم والخوف والذهول الخالص عبر فتحتي الرؤية. همست له: «صغير»، ودوّرت نصلها بقسوة أرسلت في جسده الرعدة، وتراخى وزنه الثقيل عليها، وذفعةً واحدةً أصبح ما تحتضنه هناك تحت المطر الأسود جثةً. تراجعت وتركته يسقط...

... وارتطم بها العضاض صارخًا.

سَقَطَ عَلَيْهَا كَتِيهُورٌ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْتَلِّ وَاللَّحْمِ الْأَبْيَضِ
كَالْحَلِيبِ، يَرْفَعُهَا فِي الْهَوَاءِ ثُمَّ يَرْمِيهَا عَلَى الْأَرْضِ بِمَنْتَهَى
الْعُنْفِ لِتَحْظَ فِي بَرَكَةِ وَيْتَنَاطَرُ الْمَاءُ دَاخِلًا أَنْفَهَا وَعَيْنَيْهَا. أَفْرَغَتْ
الضُّدْمَةُ كُلَّ مَا فِي صَدْرِهَا مِنْ هَوَاءٍ، وَضَرَبَتْ رَأْسَهَا حَجْرًا شَبِهَ
مَدْفُونٌ بِصَوْتِ حَادٍ، وَلَمْ تَجِدْ وَقْتًا إِلَّا لِتَقُولَ: «لَا»، قَبْلَ أَنْ
يَسْقُطَ فَوْقَهَا لِيَفْوَصَ بِهَا وَزَنَهُ أَكْثَرَ فِي الْوَحْلِ. امْتَدَّتْ إِحْدَى
يَدَيْهِ إِلَى شَعْرِهَا تَسْحَبُ رَأْسَهَا إِلَى الْخَلْفِ، وَالْأُخْرَى إِلَى غُنْقِهَا.
لَمْ تَجِدْ (حَافِظَ الْعَهْدِ) مَعَهَا إِذْ أَقْلَعَتْهُ قَبْضَتُهَا، وَلَا تَمْلِكُ إِلَّا يَدَيْهَا
تَصُدُّهُ بِهِمَا، لَكِنْ حِينَ لَكَمَتَهُ فِي وَجْهِهِ فَكَانَهَا لَكَمَتِ كَرَّةً مِنَ
الْعَجِينِ الْأَبْيَضِ الْمَبْتَلِّ، وَأَجَابَ لَكَمَتِهَا مَهْسَهْسًا فِي وَجْهِهَا.

ضَرَبَتْهُ مَرَّةً أُخْرَى وَأُخْرَى وَأُخْرَى بِكَعْبِ يَدِهَا فِي عَيْنِهِ، فَبَدَأَ
كَأَنَّهُ لَا يَشْفُرُ بِضَرْبَاتِهَا. خَمَشَتْ مَعْصَمِيهِ، لَكِنْهُ أَحْكَمَ قَبْضَتَهُ
عَلَيْهَا مَعَ أَنَّ الذَّمَاءَ سَالَتْ مِنَ الْجُرُوحِ الَّتِي خَلَفَتْهَا أَظْفَارُهَا. إِنَّهُ
يَسْحَقُهَا، يَخْنُقُهَا. دَفَعَتْ كَتْفِيهِ، لَكِنْهُ ثَقِيلٌ كَالْحَصَانِ، زَحْزَحَتْهُ
مُسْتَحِيلَةً. عِنْدَمَا حَاوَلَتْ أَنْ تَضْرِبَهُ بِزُكَيْبَتِهَا بَيْنَ سَاقِيهِ لَمْ تَنْجَحْ
إِلَّا فِي إِصَابَةِ بَطْنِهِ، وَأَطْلَقَ الْعَضَّاضُ صَوْتًا كَقَبَاعِ الْخَنَازِيرِ
وَمَرْقِ خُصْلَةٍ مِنْ شَعْرِهَا.

خنجري. تشبعت بريان بالخاطر بيأس. دشت يدها بينهما وراحت أصابعها تحفر تحت لحمه الخائق الكريه، تبحث وتبحث إلى أن وجدت المقبض أخيرًا. أغلق العضاض كلتا يديه على عنقها وبدأ يضرب رأسها بالأرض. ومض البرق مجددًا، هذه المرة داخل جمجمتها، لكن أصابعها انقبضت بوسيلة ما وجذبت الخنجر من غمده. اعتلاؤه إياها هكذا يحول دون أن ترفع الثصل وتطعنه به، فسحبته بقوة على بطنه بالعرض، وتفجر شيء دافئ بليل بين أصابعها. هسهس العضاض ثانية بصوت أعلى، وتخلّى عن رقبتها فقط ليلاكمها في وجهها، وسمعت بريان عظامًا تتهشم وأعماها الألم لحظة. عندما حاولت أن تشق لحمه بخنجرها ثانية انتزعته من يدها وهوى بزكبته على ساعدها كاسرًا إياه، ثم عاد يطبق على عنقها ويحاول اجتثائه من كتفيها.

سمعت بريان كلب ينبح والرجال يصيحون حولها، وبين قصفات الرعد سمعت الفولاذ يقارع الفولاذ، ففكرت: السير هایل، السير هایل انضم إلى القتال، لكن كل هذا بدا بعيدًا لا يهم. عالمها الآن يقتصر على اليدين اللتين تُظَوِّقان عنقها والوجه الذي فوقها. سأل المطر على قلنسوته إذ مال عليها أكثر، تفوح من أنفاسه رائحة بغيضة كالجينة العفنة.

كان صدر بريان مشتعلًا نازًا والعاصفة وراء عينيها ثعمية والعظام يطحن بعضها بعضًا في داخلها. فغر العضاض فاه بألساع مستحيل، ورأت أسنانه الصفراء المعوجة المدببة، ولما انغلقت على لحم وجنتها اللدن شعرت بها بالكاد، وأحسّت بدوامة تحملها غائصة في الظلام. لا يمكن أن أموت الآن، ما زال هناك شيء عليّ أن أفعله.

انتزع العَضاض فمه المليء بالذماء واللحم، وبصق وابتسم
ابتسامة عريضة ثم عاد يغرس أسنانه المدببة في لحمها، وهذه
المرة مضغه وابتلقه. قالت لنفسها مدركة ما يفعله: إنه يأكلني،
إلا أن طاقة لم تتبق فيها لثقاومه. شعرت كأنها طافية فوق
نفسها، تُشاهد هذا الرعب كأنه يحدث لامرأة أخرى، لفتاة حمقاء
حسبت نفسها فارشا. سينتهي الأمر قريباً، وعندها لن يهم إذا
أكلني. ألقى العَضاض رأسه إلى الوراء فاتحاً فمه ليعوي، ثم
أخرج لسانه، لساناً مدبباً يقطر منه الدّم، أطول من أي لسان
طبيعي، وقد راح ينزلق خارجاً من فمه أحمر مبتلاً لامعاً، منظره
قبيح شنيع، وقبيل أن يطويها الظلام فكَرت بريان: لسانه طوله
قدم كامل، يكاد يُشبه السيف.

جايمي

للدَّبُوس الذي يُقَبِّت معطف السير برايندن ثلي شكل سمكة سوداء من الشَّبَج والذَّهَب، وقميصه المعدني رمادي كتيب، ومعه يرتدي قُفَّازين وصفائح تقي ساقيه وزكبتيه وغنقه وكتفيه، جميعها من الفولاذ الأسود، وليس منها ما هو حالك كالنُّظرة على وجهه إذ انتظرَ جايمي لانستر عند طرف الجسر المتحرِّك، وحده على صهوة جوادٍ كستنائي يكسوه الأحمر والأزرق.

هذا الرَّجل لا يحبُّني. لثلي وجه صخري عميق الشَّجاعيد لَوَحته الزَّيْح تحت شَعْره الشَّائب اليباس، لكن جايمي ما زال يرى الفارس العظيم الذي فتنَ مُرافقًا صغيرًا بحكايات عن ملوك البنسات الثَّسع ذات يوم. طقطقت حوافر أوثر على ألواح الجسر المتحرِّك، وعلى متنه جايمي الذي فكَّر مليًا في ارتداء درعه الذَّهبيَّة أم البيضاء في هذا اللِّقاء، وفي النِّهاية اختار شِترَةً من الجِلد ومعطفًا قرمزيًا.

توقَّف على بُعد ياردة من السير برايندن وحنى رأسه للعجوز فقال ثلي: «قاتل الملك».

اختياره أن يكون هذا اللَّقب أول ما يَخْرُج من فمه يقول الكثير، غير أن جايمي عزم على تمالك أعصابه، وأجاب: «السَّمكة السُّوداء، أشكرك لمجيئك».

قال السير برايندن: «أفترض أنك أتيت لتفي بقسمك لابنة أخي. أذكر أنك وعدت كاتلين بإعادة ابنتيها مقابل حرِّيتك»، وتقلَّص فمه مضيقًا: «لكنني لا أرى الفتاتين. أين هما؟».
أجب أن يجعلني أقولها؟ «ليستا معي».

- «مؤسف. هل ترغب في استئناف حبسك إذن؟ ما زالت زنزانتك القديمة متاحة، وفرشنا حصار جديدة على الأرض».

ووضعتم دلوًا جديدًا أتبرَّزُ فيه أيضًا لا شك. «أشكر لك مراعاتك أيها الفارس، لكن أخشى أن عليَّ أن أرفض. أفضل راحة سرادقي».

- «بينما تستمتع كاتلين براحة قبرها؟».

كان ليقول: لم تكن لي يد في موت الليدي كاتلين، وابنتاها اختفتا قبل أن أصل إلى (كينجز لاندنج)، وكان على لسانه أن يذكر بريان والشيف الذي أعطاها إياه، لكن الشمكة السوداء كان يرميه بالنظرة عينها التي رماه بها إدارد ستارك لحظة أن رآه على العرش الحديدي ودماء الملك المجنون على سيفه. «أتيث أتكلّم عن الأحياء لا الموتى، عمّن لا داعي لموتهم لكنهم سيموتون...».

- «... ما لم أسلمكم (ريقرزن). هل ستهذد بشنق إدميور الآن؟». تحت حاجبيه الكثيفين كانت عينا ثلي حجزًا وهو يقول: «ابن أخي محكوم عليه بالموت مهما فعلت، فاشئقوه وافزعوا من الأمر. أظن أن إدميور سئم من الوقوف على هذه المشنقة كما سئم من رؤيته عليها».

رايمان قرأ أحق كبير. واضح تمامًا أن تمثيلته مع إدميور والمشنقة نجحت فقط في جعل الشمكة السوداء يتعنت أكثر. «إنك تحتجز الليدي سيبيل وسترلينج وثلاثة من أولادها. سأعيد ابن أخيك مقابلهم».

- «كما أعدت ابنتي الليدي كاتلين؟».

لم يسمح چايمي لنفسه بأن يستفز، وقال: «امرأة عجوز وثلاثة أطفال لقاء سيّدك، هذه صفقة أفضل من أي شيء كنت تأمله».

ابتسم السير برايندن بقسوة قائلاً: «لست تفتقر إلى الجرأة يا قاتل الملك، لكن إبرام الصفقات مع الحائنين في أيماهم كالبناء على الزمال المتحرّكة. كان على كات أن تكون أعقل من أن تعق بأمثالك».

كاذب چايمي يقول: لقد وثقت بتيريون. العفريت أيضًا خدعها، لكنه زوّ: «وعودي لليدي كاتلين كانت تحت تهديد السيف». - «وقسمك لإيرس؟».

أجاب شاعرًا بأصابعه الشُّبْحِيَّة تختلج: «لا صلة لإيرس بهذا. هل سثبايل أولاد وسترلينج يادميور؟».

- «لا. مليكي ائتمني على ملكته وأقسمت على الحفاظ على سلامتها. لن أسلمها إلى آل فراي ليشنقوها».

- «الفتاة نالت عفوًا. لن يمسها سوء، لك كلمتي».

قال السير برايندن: «كلمة شرف؟»، ورفع حاجبه مضيئًا: «هل تعرف ما الشرف أصلاً؟».

حصان. «سأقسم لك على ما تشاء».

- «اعفني يا قاتل الملك».

- «هذا ما أريد أن أفعله. أنزل راياتك وافتح بوابتك وسأمنح

رجالك حياتهم. من يرغب منهم في البقاء في (ريقرزن) وخدمة اللورد إمون فليفعل، وللباقيين أن يذهبوا حيث يريدون، وإن كنت أطلب أن يُسلموا أسلحتهم ودروعهم».

- «ثرى ما المسافة التي سيقطعونها وهم غزل قبل أن

يهاجمهم «الخارجون عن القانون»؟ إنك لن تجرؤ على السماح لهم بالانضمام إلى اللورد بريك، وكلانا يعلم هذا. هل ستستعرضونني في (كينجز لاندنج) لأموت مثل إدارد ستارك؟».

- «سأسمح لك بالالتحاق بخرس الليل. نغل ند ستارك القائد

على (الجدران الآن)».

ضيّق الشمكة السوداء عينيه قائلاً: «أهذا أيضًا من ترتيب

أبيك؟ أذكر أن كاتلين لم تتق بهذا الضبي قَط كما لم تتق بتيون جرايجوي، ويبدو أنها كانت محققة بشأن الاثنين. لا أيها الفارس، لا أظن. سأموث دافنا بعد إذنك وفي يدي سيف تسيل عليه دماء الأسود الحمراء».

- «دماء ثلي حمراء أيضًا. إذا لم تُسلم القلعة فعلي أن أقتحمها. سيموت مئات».
- «مئات من رجالي وآلاف من رجالك».
- «ستهلك الحامية عن آخرها».
- «أعرف هذه الأغنية. هل تُغنيها على لحن (أمطار كاستامير)؟ رجالي يؤثرون الموت واقفين يُقاتلون على أن يموتوا راكعين بفأس الجلاد».
- الحوار لا يمضي على ما يُرام إطلاقًا. «لا جدوى من هذا التّحذي أيها الفارس. الحرب انتهت ومات ذئبكم الصغير».
- «اغتيال في انتهاك لجميع شرائع الضيافة».
- «هذا عمل فراي لا عملي».
- «سفه كما تشاء، لكن رائحة تايوين لانسستر تفوح منه».
- لم يستطع جايمي أن ينكر هذا، وقال: «أبي أيضًا مات».
- «عسى (الأب) أن يحكم عليه بالعدل».
- يا لها من فكرة مريعة. «لو استطعت بلوغ روب ستارك في (الغابة الهامسة) لقتلته، لكن بعض الحمقى اعتزّضوا طريقي. هل يهم كيف مات الضبي؟ إنه ما زال ميتًا، ومعه مائت مملكته».
- «لا بد أنك أعمى علاوة على عاهتك أيها الفارس. ارفع عينيك وسترى أن الذئب الرّهيب لا يزال يخفق فوق جذرائنا».
- «لقد رأيته، يبدو وحيّدًا. (هارنهال) سقطت، وكذا (سيجارد) و(بركة العذارى)، وآل براكن ركعوا ويحاصرون تاييتوس بلاكوود في (شجرة الغدقان). يايبر، قانس، موتون، جميع حملة رايتكم استسلموا ولم يبق إلا (ريقرزن). إن معنا عشرين ضعف أعدادكم».
- «عشرون ضعفًا من الرّجال تعني عشرين ضعفًا من الطّعام. ما أخبار مؤنكم يا سيّدي؟».

- «تكفي لأن تبقى هنا حتى نهاية الزمن إذا لزم الأمر، بينما تتصوّرون أنتم جوعًا وراء أسواركم». نطقَ چایمی الكذبة بكلّ ما استطاع من جرأةٍ متمثّلاً ألا تخونه ملامحه.

على أنها لم تنطلي على الشمكة السوداء الذي قال: «حتى نهاية زمنكم ربما. مؤننا وفيرة، ولو أنني أخشى أننا لم نترك الكثير في الحقول للزائرين».

- «نستطيع الإتيان بالطعام من (الثوأميتين)، أو عبر الثلال من الغرب إذا دعت الحاجة».

- «كما تقول. مُحال أن أشكّك في كلمة فارس شريفٍ مثلك». أغضبَ التهكّم في نبرته چایمی، فقال: «هناك طريقة أسرع لتسوية المسألة. نزال فردي، نصيري ضد نصيرك».

قال السير برايندن ضاحكًا: «كنت أتساءل متى ستبلّغ هذه النقطة. من سيكون؟ الغفر؟ أدام ماربراند؟ والدر فراي الأسود؟»، ومالَ إلى الأمام مضيّفًا: «ولم لا يكون النزال بيننا نحن أيها الفارس؟».

لكان ذلك قتالًا رائعًا في الماضي، حكايةٌ يَفْخَرُ عنها المغنّون. «عندما أطلقت الليدي كاتلين سراحي جعلتني أقسم على عدم حمل السلاح ضد آل ستارك أو تلي ثانية». - «قسم ملائم للغاية أيها الفارس».

أربّذ وجهه، وسأل: «هل تنعتني بالجبن؟». أجاب الشمكة السوداء: «لا، أنعتك بالعجز»، وأشار برأسه إلى يد چایمی الذهبية مردفًا: «كلانا يعلم أنك لا تستطيع القتال بهذه».

رَدَّ: «إن لي يدين»، وهمس صوت في داخله: هل تُفَرِّط في حياتك من أجل الكبرياء؟ «ربما يقول بعضهم إن معاقًا وعجوزًا نذین متاليين. حلّني من قسَمي لليدي كاتلين وسأواجهك سيفًا بسيف. إذا فزْتُ فـ(ريقرزن) لنا، وإذا قتلتني فسنرفع الحصار».

عاد السير برايندن يضحك، وقال: «على الرغم من ترحيبي بفرصة أخذ سيفك الذهبي منك واقتلاع قلبك الأسود به، فعودك بلا قيمة. لن أجنّي شيئاً من موتك إلا متعة قتلك، ولن أخاطر بحياتي في سبيل ذلك... مع أنها مخاطرة محدودة».

من حسن حظ جايمي أنه لا يحمل سيفاً، وإلا لكان استلّه، ولو لم يقتله السير برايندن لأرداه الزّمانة على الأسوار بكل تأكيد. «هل من أيّ شروط يُمكن أن تقبلها؟».

قال السير برايندن: «منك؟»، وهزّ كتفيه مجيباً: «لا».

- «لماذا خرجت تتكلّم معي إذن؟».

- «الحصار ممّل لدرجة مميتة. أردت أن أرى جدعتك هذه وأسمع ما لديك من ذرائع تُبْزِر بها أحداث جرائمك، لكنها أوهى مما أملت. دائماً تُخَيِّب الأمل يا قاتِل الملك»، ودار الشّمْكة السوداء بحصانه وخبّ عائداً إلى (ريقرزن)، ونزلت الشّبكة الحديدية بعد دخوله بسرعة وانغرست أطرافها المدببة بعمق في الأرض الموحلة.

دور جايمي رأس أوثر استعداداً لرحلة العودة الطويلة إلى خطوط حصار جيش لانستر وقد شعر بالأعين المسلّطة عليه، أعين رجال ثلي في الشرفات وأعين رجال فراي عبر النهر. إن لم يكونوا غمياً فلا بُدّ أنهم راوه يلقى عرضي في وجهي. لا مناص من اقتحام القلعة. طيب، ما أسهل أن يحنث قاتِل الملك في يمين أخرى. مزيد من الخراء في الدلو. قرّر جايمي أن يكون أول رجل يتسلّق إلى الشرفات. وببدي الذهبية هذه سأكون أول من يموت على الأرجح.

في المعسكر أمسك ليو الصغير لجام حصانه فيما ساعده بك على التّزول، فسأل نفسه: أيجسبونني عاجزاً لدرجة احتياجي إلى من يعينني على التّرجل؟

سأله السير داقن ابن خاله: «كيف أبليت يا سيّدي؟».

- «لا أحد أصاب كفل حصائي بسهم، لكن فيما عدا هذا لم يميّزني الكثير عن السير رايمان»، وتجهّم جايمي مضيقًا: «والآن لا مفرّ من أن يزداد (الفرع الأحمر) خمرَةً». ثمّ نفسك على هذا أيها الشمكة السوداء. لم تتزك لي خيارات كثيرة. «اجمع مجلس الحرب. السير أدام والغفر وفورلي پرستر، ولوردات النهر أيضًا... والأصدقاء أولاد فراي، السير رايمان واللورد إمون وأيًا كان من يريدون حضوره».

اجتمعوا سريعًا. جاء اللورد پاير وكلا اللوردين قانس للكلام نيابةً عن لوردات (الثالوث) الثائبين الذين سيختبر ولاؤهم خلال فترة قصيرة، في حين مثل الغرب كلّ من السير داقن والغفر القوي وأدام ماربراند وفورلي پرستر، وانضمّ إليهم اللورد إمون فراي وزوجته، وقد اتّخذت الليدي چنا كرسيّها بنظرة تتحدّى أيّ رجل هناك أن يحتجّ على وجودها، فلم يفعل أحد. أرسل آل فراي والدر ريفرز المسقى والدر الثقل، ومعه إدوين أكبر أبناء السير رايمان، وهو رجل شاحب ناحل له أنف مضغوط وشعر داكن هزيل. تحت معطف أزرق من صوف الجملان يرتدي إدوين شترّة ممتازة التفصيل من جلد العجول الرمادي مزينة بزخارف لولبيّة منقّقة، وقد أعلن: «سأتحدّث نيابةً عن عائلة فراي. أبي متوغّك هذا الضباح».

أطلق السير داقن نخيرًا ساخرًا، وقال: «أهو سكران أم يشغر بالغيثان فحسب من نبيذ ليلة البارحة؟».

قال إدوين الذي له قم البخلاء القاسي الخبيث: «لورد جايمي، أجب أن اتحلّ هذه الجلافة؟».

سأله جايمي: «أهذا صحيح؟ هل أبوك سكران؟».

زّم فراي شفّتيه ورمق السير إلين پاين الواقف عند سديلة الخيمة بقميصه المعدني الضدّي وسيفه البارز من وراء كتفه النّحيلة، ثمّ قال: «إنه... أبي معتلّ البطن يا سيّدي. النّبيذ يُساعده على الهضم».

عَلَّقَ السِير داقن: «لَا بُدَّ أَنْ مَا يَهْضُمُهُ مَامُوثَ لَعِينِ إِذْنِ»،
فَضَحَكَ الْغُفْرَ وَقَهَقَهُتِ اللَّيْدِي جُنَا.

قَالَ جَايْمِي: «كُفَى. هُنَاكَ قَلْعَةٌ عَلَيْنَا أَنْ نَنْظُرَ بِهَا». أَوْقَاتِ
اجْتِمَاعِ أَبِيهِ بِمَجْلِسِهِ كَانَ يَتَزَكَّ قَادَتَهُ يَتَكَلَّمُونَ أَوَّلًا، وَقَدْ انْتَوَى
أَنْ يَحْذُو حَذْوَهُ، فَسَأَلَهُمْ: «كَيْفَ نَتَصَرَّفُ؟».

أَجَابَ اللُّورْدُ إِمُونُ فَرَايَ بِإِلْحَاحٍ: «تُشْنِقُ إِدْمِيُورَ تَلِيَّ كِبْدَايَةَ.
سَيُعْلَمُ هَذَا السِيرُ بِرَايْنَدِنَ أَنَّنَا نَعْنِي مَا نَقُولُ. إِذَا أَرْسَلْنَا رَأْسَ
السِيرِ إِدْمِيُورَ إِلَى عَمِّهِ فَرِيْمَا يَدْفَعُهُ هَذَا إِلَى الْإِسْتِسْلَامِ».

- «بِرَايْنَدِنَ الشَّمْكَةَ الشُّودَاءَ لَا يُدْفَعُ إِلَى شَيْءٍ بِهَذِهِ
الْبَسَاطَةِ»، قَالَ كَارِيلُ قَانَسِ سَيِّدِ (اسْتِرَاحَةُ عَابِرِي السَّبِيلِ) ذُو
الْمَلَامِحِ الْكُتَيْبَةِ، الَّذِي تُقْطِئِي وَحْمَةً قَانِيَةً يُصَفُّ غُنْقُهُ وَجَانِبِ
وَجْهِهِ. «أَخُوهُ نَفْسَهُ لَمْ يَسْتَطِيعْ أَنْ يَدْفَعَهُ إِلَى فِرَاشِ الرُّوْجِيَّةِ».
هَزَّ السِيرُ داقنَ رَأْسَهُ الْأَشْعَثَ قَائِلًا: «يَجِبُ أَنْ نَقْتَحِمَ الْأَسْوَارَ
كَمَا أَقُولُ مِنَ الْبِدَايَةِ. أَبْرَاجُ حِصَارِ سَلَالِمٍ، مِثْلُكَ نَخْتَرِقُ بِهِ
الْبُؤَابَةَ، هَذَا مَا نَحْتَاجُ إِلَيْهِ».

قَالَ الْغُفْرُ: «سَأَقْوُدُ الْهَجُومَ. نَجْعَلُ الشَّمْكَةَ يَذُوقُ الْفُؤْلَازَ
وَالثَّارَ، هَذَا رَأْيِي».

زَدَّ اللُّورْدُ إِمُونُ بِاسْتَهْجَانٍ: «هَذِهِ أَسْوَارِي، وَهَذِهِ بُؤَابَتِي الَّتِي
تُرِيدُونَ اخْتِرَاقَهَا»، وَأَخْرَجَ وَثِيقَتَهُ مِنْ كَمِّهِ مُضِيقًا: «الْمَلِكُ
تُومَنُ نَفْسَهُ مِنْخَنِ...».

قَاطَعَهُ إِدْوِينُ فَرَايَ بِحِدَّةٍ: «كُلُّنَا رَأَيْنَا وَرَقَّتَكَ يَا عَمِّي. لِمَ لَا
تُثْرِي الشَّمْكَةَ الشُّودَاءَ إِيَّاهَا عَلَى سَبِيلِ التَّغْيِيرِ؟».

قَالَ أَدَامُ مَارْبِرَاندُ: «اِقْتَحَامُ الْأَسْوَارِ سَيَكُونُ عَمَلًا دَامِيًا.
أَقْتَرَحُ أَنْ نَنْتَظِرَ لَيْلَةً يَغِيبُ فِيهَا الْقَمَرُ وَتُرْسِلَ دَسْتَةٌ مِنْ رِجَالِنَا
الْمُنْتَقِينَ عَبْرَ النَّهْرِ بِقَارِبٍ مَكْتُومِ الْمَجَازِيفِ. يُمَكِّنُهُمْ أَنْ يَتَسَلَّقُوا
الْأَسْوَارَ بِالْحَبَالِ وَالْخَطَّاطِيفِ وَيَفْتَحُوا الْبُؤَابَةَ مِنَ الدَّخْلِ.
سَأَقْوُدُهُمْ بِنَفْسِي إِذَا أَرَادَ الْمَجْلِسُ».

أعلن الثَّغل والدريقرز: «حماقة. السير برايندن ليس بالرجل الذي تنطلي عليه تلك الحيل».

أيده إدوين فراي قائلا: «السمة السوداء هو العقبة. إن ريشة خوذته سمة سوداء تجعل تمييزه من بعيد سهلاً. أقترح أن نَقْرَب أبراج الحصار من القلعة ونملأها بالزُمامة ونتظاهر بالهجوم على البوابة، وسيدفع هذا السير برايندن إلى الشرفات بخوذته. فليَلُوث كل راج سهامه بالفضلات ويجعل تلك الخوذة هدفه. ما إن يموت السير برايندن حتى تُصيح (ريقرز) لنا».

رَدَّ اللورد إمون بنبرة حادة: «لي، (ريقرز) لي!».

ازدادت وحمة اللورد كاريل قتامة، وقال: «هل ستكون الفضلات مساهمتك يا إدوين؟ لا أشك في كونها شقاً قاتلاً». قال الغفر: «السمة السوداء يستحق ميتة أنبل، وأنا من سيعطيه إياها»، ودق الطاولة بقبضته مردفاً: «سأتحداه في نزال فردي. ليكن بالهراوة الشائكة أو الفأس أو السيف الطويل، لا فرق، سأفتك بالعجوز».

خاطبه السير فورلي پرستر قائلا: «ولم يتنازل ويقبل التحدي أيها الفارس؟ ماذا سيجني من قتال كهذا؟ هل سترفع الحصار إذا فاز؟ لا أصدق ذلك، ولن يصدق هو. النزال الفردي لن يُعمر شيئاً».

قال نوربرت قانس سيّد (أترانتا): «إنني أعرف برايندن تلي منذ كنا مرافقين معا في خدمة اللورد داري. بعد إذنكم أيها السادة، دعوني أذهب وأتحدث معه وأحاول أن أجعله يفهم موقفه اليائس».

رَدَّ اللورد پاير: «إنه يفهمه جيّداً». للرجل قامة قصيرة وجسد ممتلئ وساقان مقوّستان وشعر أحمر ثائر، وهو أبو أحد مرافقي چايمي كما يشي الشبه الجلي بينهما. «الرجل ليس غيباً يا نوربرت. إن له عينين... وعقلاً أكبر من أن يستسلم لأمتال هذين»، ولوّح بيده بقطاظة نحو إدوين فراي ووالدريقرز.

غاضبًا قال إدوين: «إذا كان اللورد يايپر يُلقِّح إلى...». - «لستُ ألقِّح يا فراي، بل أقول ما أعني مباشرة كرجل صادق، لكن ماذا تعرف أنت عن الصادقين؟ إنك ابن عرس خائن كذاب كجميع ذويك. أحبُّ أن أشرب كوبًا من البول على الثقة بكلمة أيِّ فراي»، ومال يايپر عبر المائدة متابعًا: «أين مارك؟ أجبني. ماذا فعلتم بابني؟ لقد كان ضيفًا في زفافكم اللعين». قال إدوين: «وسيظلُّ ضيفنا المكزَّم إلى أن تُثبت ولاءك لجلالة الملك تومن».

- «خمسة فرسان وعشرون جنديًا ذهبوا مع مارك إلى (الثوأميتين). أهم ضيوفكم أيضًا يا فراي؟». - «بعض الفرسان ربما. الآخرون نالوا ما استحقوا. خيرٌ لك أن تصون لسانك الخائن يا يايپر، ما لم تكن تريد أن يرجع إليك وريثك قطعًا».

فكَّر چايمي: لم يحدث هذا في مجلس أبي قُط، وهبَّ يايپر بجسده الصغير مزمجزًا: «قُل هذا مجذِّدًا بسيف في يدك يا فراي، أم أنك تُقاتِل بالفضلات فقط؟».

شحب وجه إدوين الممصوص، وإلى جواره نهَض والدر ريفرز قائلاً: «إدوين ليس رجل قتال... لكنني كذلك يا يايپر. إذا كان لديك المزيد من التعليقات فاخرج معي وألقها».

قال چايمي: «هذا مجلس حرب وليس حربًا. فليجلس كلاكما»، ولقَّا لم يتحرَّك أحدهما صاخ: «الآن!».

جلس والدر ريفرز، أمَّا اللورد يايپر فلم يخف بهذه الشهولة، وهمهم بشتيمة ما ثم خرج من الخيمة بخطوات واسعة، فسأل السير داقن چايمي: «هل أرسل وراءه رجالًا يجزُّونه ويعودون به يا سيدي؟».

قال إدوين فراي: «أرسل السير إين. لسنا محتاجين إلا إلى رأسه».

التفت كاريل فانس إلى جايمي قائلاً: «اللورد بايبر تكلم بدافع الخزن. مارك ابنه البكر، والفرسان الذين ذهبوا معه إلى (الثوأميتين) أبناء إخوة وعمومة جميعاً».

علق إدوين فراي: «تعني أنهم خونة ومرتدون».

حدّثه جايمي بنظرة باردة، وقال «(الثوأمتان) انضمّا إلى قضية الذئب الصغير أيضاً، ثم خُنتموه، وهو ما يجعل خيانتكم أقبح من خيانة بايبر مرّتين». استمتع بمرأى ابتسامة إدوين الرّقيقة تذبذب وتموت، وقال لنفسه: احتملك ما يكفي من اللصاح اليوم، ثم أعلن: «انتهينا. راجعوا استعداداتكم أيها الشّادة. سنهجم مع أول خيوط الضّوء».

كانت الرّياح تهبّ من الشّمال عندما غادر القادة الخيمة. حتى هنا تتناهى إلى أنف جايمي رائحة معسكر فراي الثّنية على ضفّة (الجلمود) الأخرى، وعبر الماء يقف إدميور ثلي بسحنة مكفهرة فوق المشنقة الرّماديّة الطويلة وحول رقبتة جبل.

كانت عمّته آخر المغادرين، وفي أعقابها زوجها إمون الذي قال معترضاً: «سيدي، هذا الهجوم على مقرّي... يجب ألا تُنفّذه»، وازدرد لعايه لتحرك تفّاحة حلقه إلى أعلى وأسفل، وتابع: «يجب ألا تفعلها. إنني... إنني أمنعك». كان يَمْضغ الثّبغ المرّ ثانية كما تنم الرّغوة الوردية الملتصقة على شفّتيه. «القلعة ملكي. إن معي الوثيقة الموقّعة من الملك، من تومن الصغير. أنا سيّد (ريقرزن) الشرعي و...».

قاطعته الليدي چنا: «لست كذلك ما دام إدميور ثلي حيّاً. إنه ضعيف القلب والعقل، أعلم هذا، لكنه حيّ ولا يزال يُشكّل خطراً. ماذا تنوي أن تفعل يا جايمي؟».

الشّمكة السوداء الخطر لا إدميور. «اتركي إدميور لي. سير لايّل، سير إلين، تعاليا معي من فضلكما. حانّ الوقت لأن أزور تلك المشنقة».

(الجلمود) أعمق وأسرع جريانًا من (الفرع الأحمر)، وأقرب مخاضة تبعد عذة فراسخ في اتجاه المنيع. كانت العبارة قد تحركت حاملةً والدر ريقرز وإدوين فراي لتوها عندما وصل جايمي ورفيقاه إلى النهر، وإذ انتظروا عودتها أخبرهم جايمي بما يريد، وبصق السير إلين في الماء.

حين نزل ثلاثتهم من العبارة على الضفة الشماليّة عرضت تابعة معسكرات سكرانة على الغفر أن ثقتعه بفمها، فقال السير لایل دافقا إياها نحو السير إلين: «مئعي صديقي»، وضاحكة أخذت المرأة خطوةً لثقبيل پاين على فمه، ثم إنها رأت عينيه وانسحبت منكشّة على نفسها.

الممرّات بين بؤر الثار من الظمي البئي الخام المختلط بروث الخيل، وتحمل آثار الحوافر والأحذية على حدّ سواء، وفي كلّ صوب رأى جايمي بُرجي عائلة فراي الثوأمين على الزايات والثروس، أزرق على رمادي، ومعهما رموز عائلات أدنى شأنًا مقسمة على الولاء لـ (المعبر)، كبَلَشون⁽⁶⁶⁾. عائلة إرينفوردمذراة عائلة هاي وغصينات نبتة الذبق الثلاث رمز عائلة كارلتون. لم يمز وصول قاتل الملك مرور الكرام، إذ توقفت عجوز تبيع الخنازير الصغيرة من سلّة تُحذق إليه، وجنا فارس له وجه يشبه مألوف على زكبتة، واستدار جُنديّان يتبولان في حفرة ينظران قبلًا كلاهما الآخر، وناداه أحدهم: «سير جايمي»، لكنه واصل طريقه دون أن يلتفت. حوله لمح وجوه رجال بذل أقصى جهده ليقثلهم في (الغابة الهامسة) حيث قاتل آل فراي تحت راية ذئب روب ستارك الزهيب، وشعر بيده الذهبيّة المعلقة إلى جانبه ثقيلة.

شراق رايمان فراي المستطيل هو الأكبر والأوسع في المعسكر، وتتخذ جذرائه الرمادية المصنوعة من قماش القنب شكل مربعات مخرطة مفا لتشبه الأحجار، بينما تحاكي قفّاه (الثوأميتين). أبعد ما يكون الثوْغك، كان السير رايمان يستمتع بوقته، إذ سمعت من داخل الخيمة ضحكات امرأة ثملة ممتزجة بأنغام أوتار قيثارة خشبية وصوت مغنٍ. سأتعامل معك لاحقًا أيها الفارس. كان والدر ريفرز واقفًا أمام خيمته المتواضعة يتكلم مع جنديين، يحمل ثرسه رمز عائلة فراي بألوان معكوسة، وثقة شريط أحمر مائل إلى اليسار على البرجين. عبس الثغل حين رأى چايمي، فقال لنفسه: يا لها من نظرة باردة شكّاقة. هذا الرجل أخطر من أي من إخوته الشرعيين.

ترتفع المشنقة عشرة أقدام عن الأرض، وقد وقف اثنان من حاملي الجراب عند قاعدة سلالهما، وقال أحدهما لچايمي: «لا تستطيع أن تصعد دون إذن السير رايمان».

رئت چايمي على مقبض سيفه قائلاً: «هذا يقول إنني أستطيع. السؤال الآن، هل علي أن أخطو فوق جثتك؟».

وانزاح الرجلان.

فوق المشنقة يقف سيّد (ريفرزن) رامقًا الكؤة الأفقية تحته، قدماه سوداوان مغلفتان بالظمي وساقاه عاريتان، ويرتدي صدره حريئة مئسخة يلوح عليها أحمر وأزرق عائلة تلي، وثحيط بغنقه أنشودة من القنب. لدى سماع خطوات چايمي رفع إدميور رأسه ولعق شفّتيه الجافتين المشققتين، وغمغم بدهشة: «قايل الملك؟»، ولما رأى السير إلين اتسعت عيناه، وقال: «الشيف أفضل من الحبل. افعلها يا باين».

قال چايمي: «كما سمعت اللورد تلي يا سير إلين، افعلها».

بكلتا يديه سحب الفارس الضّامت سيفه العظيم، سيفه الطويل الثقيل المتناهي في الحدة بقدر ما يسمح الفولاذ التقليدي. تحرّكت شفتا إدميور المشققتان بلا صوت، وإنّ رفع السير إلين الثّصل أغلق عينيه، ووضع يمين يده خلفه وراء الضّربة.

سمعوا من يصيح: «لا! توقّف! لا!»، وظهّر إدوين فراي لاهثًا يقول: «أبي قادم بأقصى سرعة. جايمي، يجب...».

- «يناسبني أكثر أن تخاطبني بـ«سيدتي» يا فراي، وخير لك أن تتجنّب استخدام «يجب» في أيّ كلام تُوجّهه إليّ».

صعد السير رايمان سلال المشنقة بخطوات ثقيلة وفي ضحبه بغّي شعرها بلون القشّ سكرانة ومعه، أربطة فستانها من الأمام لكن أحدهم حلّها حتى الشّرة، فتدلّى نهذاها الكبيران الثّقيلان وظهرت حلمتاها البليّتان الكبيرتان، وقد استقرّت على رأسها بانحراف دائرة رفيعة من البرونز المطّرق منقوشة عليها حروف بأبجدية قديمة وثبّرت منها سيوف سوداء صغيرة. حين رأت المرأة جايمي ضحكت، وقالت: «من هذا بحقّ الجحائم الشيع؟».

ردّ جايمي بكياسة باردة: «حضرة قائد الحرس الملكي. الشّؤال نفسه لك يا سيّدتي».

- «سيّدتك؟ لست سيّدة، أنا الملكة».

- «سيّد هس أختي أن تسمع هذا».

قالت: «اللورد رايمان تؤجني بنفسه»، وهزّت وركيها الكبيرين مضيفة: «أنا ملكة العاهرات».

لا، أختي الجميلة تحمل هذا اللّقب أيضًا.

أخيرًا استطاع السير رايمان أن يتكلّم، فقال: «أخبرني أيتها القذرة، اللورد جايمي لا يريد أن يسمع هراء مومس». ابن فراي هذا رجل غليظ البنية عريض الوجه صغير العينين وذقنه طريّ لحيم، ومن أنفاسه تفوح رائحة الثّبيذ والبصل.

سأله چايمي بهدوء: «هل تصنع الملكات يا سير رايمان؟ غباء، غباء لا يقلُّ عما تفعله باللورد إدميور».

- «لقد حذّرت الشمكة السوداء، قلتُ له إن إدميور سيموت ما لم تستسلم القلعة، وأمرتُ ببناء هذه المشنقة لأريهم أن السير رايمان فراي لا يلقي تهديدات فارغة. في (سيجارد) فعلَ ابني المثل مع ياتريك ماليستر واستسلم اللورد جيسون، ولكن... الشمكة السوداء رجل بارد. لقد رفض، ف...».

- «... فشنت اللورد إدميور؟».

احتقن وجه الرجل، وقال: «السيد جدّي... إذا شنقناه فسنخسر رهيئتنا أيها الفارس. هل فكّرت في هذا؟».

- «فقط الأحقق يلقي تهديدات ليس مستعدًا لتنفيذها. هب أني هذّدتك بالضرب ما لم تخرس ثم تكلمت، فماذا تحسبني سأفعل؟».

- «أيها الفارس، أنت لا تف...».

وضربه چايمي. كانت الضربة بظهر يده الذهبية، لكنها دفعت السير رايمان إلى الثعثر إلى الورااء ساقطًا بين ذراعي عاهرته، ثم قال چايمي: «إن لك رأسًا سميرًا يا سير رايمان، وغنقًا غليظًا أيضًا. سير إلين، بكم ضربة يمكنك أن تقطع هذا الغنق؟».

رفع السير إلين يده واضعًا إصبعًا واحدًا على أنفه.

ضحك چايمي، وقال: «خيلاء فارغة. أقولُ إنها ثلاث ضربات».

خزّ رايمان فراي على زكبتيه قائلاً: «لم أفعل شيئًا...».

- «... إلّا الشرب ونكاح العاهرات، أعرف».

- «أنا وريث (الثوأميتين). لا يمكنك...».

قاطعه چايمي: «لقد حذّرتك من الكلام»، وشاهد وجه الرجل يمتقع مفكرًا: سكير وأبله وجبان. خيّر لال فراي أن يموت هذا قبل اللورد والدر وإلا انتهى أمرهم. «يمكنك الانصراف أيها الفارس».

- «الانصراف؟».

- «كما سمعتني، ارحل».

- «ولكن... أين أذهب؟».

- «إلى الجحيم أو إلى الوطن، كما تُقْضَل. احرص على عدم وجودك في المعسكر عند شروق الشمس. يُمكنك أن تأخذ ملكة العاهرات معك، ولكن ليس تاجها هذا»، ثم التفت جايمي عن السير رايمان إلى ابنه قائلاً: «إدوين، إنني أسلمك قيادة أبيك. حاول ألا تكون غيبًا ومثله».

- «لن يكون هذا عسيرًا يا سيدي».

- «أرسل خبرًا إلى اللورد والدر. التاج يَطلُب جميع شجنائه»، ولوّح جايمي بيده الذهبية مستطرذا: «سير لایل، اجلبه».

كان إدميور ثلي قد تهاوى على وجهه فوق المشنقة حينما قطع سيف السير إلين الحبل، الذي ظلّت قطعة منه طولها قدم مدلاة من الأنشودة المحيطة برقبته، فشذها الغُفر ليوقفه على قدميه، ثم قال ضاحكًا بسخرية: «سمكة بمقود، منظر لم أزه من قبل قَطْ».

أفسح لهم رجال فرای الطريق، وكانت مجموعة من الآخرين قد ازدحمت عند قاعدة المشنقة، منها دسته من تابعات المعسكرات على درجاتٍ مختلفة من الفوضى، ولاحظ جايمي رجلًا يحمل قيثارة خشبية، فقال له: «أنت، أيها المغلي، تعال معي».

رفع الرّجل قَبْعته قائلاً: «أمر سيدي».

لم يلفظ أحد كلمةً فيما ساروا إلى العبارة وفي أثرهم مغلي السير رايمان، لكن إذ تحرّكوا مبتعدين عن ضفّة (الجلمود) نحو الجانب الجنوبي أطبق إدميور ثلي على ذراع جايمي متسائلًا: «لماذا؟!».

اللانستر يُشدّد ديونه، ولم تتبقّ لي غُملة إلّاك. «اعتبرها

هدية زفاف».

رمقه إدميور بعينين حذرتين، وردّد: «هدية... زفاف؟».
- «قيل لي إن زوجتك حسناء. لا بدّ أن تكون كذلك كي
تضاجعها في أثناء اغتيال أختك وملكك».
لعق إدميور شفّتيه، وقال: «لم أعرف. كان خارج الغرفة
عازفو كمنجة...».

- «والليدي روزلين كانت ثلهيك».
- «إنها... لقد جعلوها تفعلها، اللورد والدر والآخرون. روزلين
لم تُرد أن... لقد بكّت، لكنني حسيت السّبب...».
- «منظر ذكرك الهائل؟ نعم، إنني واثق بأن شيئًا كهذا سيجعل
أي امرأة تبكي».
- «إنها تحمل طفلي».

لا، بل إن ما ينمو في بطنها موتك.
في سرادقه صرفّ چايمي السير لایل والسير إلين، لكنه أبقى
على المغنّي قائلاً: «ربما أحتاج إليك بعد قليل. ليو، سخّن ماء
لحمام ضيفي. بيا، جدي له ثيابًا نظيفة، لا شيء عليه أسد إذا
سمحت. بك، نبىذ للورد ثلي. أنت جانع يا سيدي؟».
أوما إدميور برأسه إيجابًا، لكن الشك لم يبرح عينيه.
استقرّ چايمي على كرسيّ بينما استحمّ ثلي الذي زالت
القذارة عن جسده في سحابات سوداء، وقال له: «بعد أن تأكل
سيصحبك رجالي إلى (ريقرزن)، وما يحدث عندئذ يتوقّف
عليك».

- «ماذا تعني؟».

- «عمك رجل عجوز. شجاع، نعم، لكن أفضل سنين حياته
انقضى. خير ما يأمله الشمكة السوداء الآن ميتة مشرّقة... أمّا
أنت فما زالت أمامك سنوات يا إدميور. أنت سيّد عائلة ثلي
الشّرعي لا هو، والمفترض أن يطيعك عمك. مصير (ريقرزن)
بين يديك».

حملق إليه إدميور مردّدًا: «مصير (ريقرزن)».

- «سَلِّمِ القلعة ولن يموت أحد. يستطيع رعاياك الرّحيل في سلام أو البقاء لخدمة اللورد إمون، وسيُسَقَّح للسير برايندن بالالتحاق بحرس اللّيل مع كلّ رجلٍ من الحامية يختار الانضمام إليه. أنت أيضًا إذا كان (الجدار) يستهويك، أو يُمكنك الذهاب إلى (كاسترلي روك) باعتبارك أسيري وتستمتع بكلّ شبل الرّاحة التي تليق برهينة بمنزلتك. سأرسل زوجتك إليك إذا أردت، وإذا أنجبت صبيًا فسيخدم عائلة لانستر كوصيف ومُرافق، وعندما ينال الفُروسيّة ستهب له بعض الأراضي. وإذا أنجبت روزلين بنتًا فسأعرض على أن يكون مهرها لائقًا عندما تَبْلُغ سنّ الرّواج. أنت نفسك من الممكن أن تنال إطلاق سراحٍ مشروط ما إن تنتهي الحرب، وما عليك إلّا تسليم القلعة».

رفع إدميور يديه من الحوض وشاهد الماء يجري بين أصابعه متسائلًا: «وإذا لم أسلمها؟».

أيجب أن تجعلني أقولها؟ كانت پيا واقفة عند سديلة الخيمة حاملة ثيابًا، وكان مرافقوه والمغني يصفون أيضًا. فليسمعوا، فليسمع العالم كله، لا يهم. أرغم چايمي نفسه على الابتسام، وقال: «لقد رأيت أعدادنا يا إدميور، رأيت الشلال والأبراج والمقاذيف والمدكات. إذا ألقِث الأمر فسنلقي ابن خالي جسرًا على خندقكم ويحطم بؤابتكم. مئات سيموتون، أكثرهم من رجالكم. موجة الهجوم الأولى ستتكون من حقلة رايتكم السابقين، وهكذا سيبدأ يومكم بقتل آباء وإخوة الرجال الذين ماتوا في سبيلكم في (الثوامتين). الموجة الثانية ستكون من رجال فراي، فلست أعاني نقصًا فيهم، وسيتبعهم جنودي الغريثون عندما تنفذ سهام زماتكم ويصير فرسانكم عاجزين عن رفع سيوفهم من فرط الإنهاك. ثم لما تسقط القلعة سيقتل كل من فيها، ستنبح حيواناتكم وتذمر أكلة آلهتكم وتحترق حصونكم وأبراجكم. سأهدم أسواركم وأحوّل مجرى (الجلمود) ليغمر الأطلال، وحين أفرغ لن يعرف أحد أن قلعة كانت قائمة هناك ذات يوم»، ونهض چايمي مضيقًا: «قد تضع زوجتك مولودها قبل ذلك. أتوقّع أنك ستريد طفلك، وسأرسله إليك حين يُولد... بالمنجنيق».

تلا الضمت كلامه. جلس إدميور في حوضه، وضمت پيا الملابس إلى صدرها، وشدّ المغني وترًا في قيثارته، وفرغ ليو الصغير رغيفًا من الخبز البانت ليصنع طبقًا متظاهرا بأنه لم يسمع. بالمنجنيق. لو أن عفته هنا الآن فهل كانت لتصرّ على أن تيريون هو ابن تايوين؟

أخيرًا عثر إدميور تلي على صوته، وقال: «يُمكّني أن أخرج من هذا الحوض وأقتلك حيث تقف يا قاتل الملك».

ردّ چايمي: «يُمكّني أن تُحاول»، فلما لم يتحرّك إدميور قال: «سأتركك تستمتع بطعامك. أيها المغني، سلّ ضيفنا بينما يأكل. مؤكّد أنك تعرف الأغنية».

- «أغنية الأمطار إياها؟ أجل يا سيدي، أعرفها».
بدا أن إدميور رأى الرجل للمرة الأولى، وقال: «لا، ليس هو.
أبعده عني».
قال چايمي: «إنها مجرّد أغنية، ولا يمكن أن يكون صوته
بهذا الشوء».

(66) البلشون طائر طويل الشاقين شهير بصوته العذب، ويعزف أيضًا
باسم مالك الحزين. (المترجم).

كان المايستر الأكبر يايسل عجوزًا منذ عرقته، وإن يبدو كأنه شاخ مئة عام أخرى خلال الليالي الثلاث الماضية. استغرق الرجل أبديةً ليركع ثانيًا زكبيته المتيبستين أمامها، ولمّا فعل لم يستطع الثهوض من جديد إلى أن سحبته السير أوزموند بقوة ووقفه.

تمغنت فيه سرسى باستياء قائلة: «اللورد كايرن أبلغني بأن اللورد جايلز لفظ شعلاته الأخيرة».

- «نعم يا جلالة الملكة. لقد بذلت أفضل ما في وسعي لأخفف عنه شكرات الموت».

قالت الملكة: «حقًا؟»، والتفتت إلى الليدي ميريويدز تسألها: «ألم أقل إنني أريد روزي حيا؟».

- «بلى يا جلالة الملكة».

- «سير أوزموند، ماذا تذكر عن تلك المحادثة؟».

- «أنك أمرت المايستر الأكبر يايسل بإنقاذ الرجل يا صاحبة الجلالة، كلنا سمعنا».

انفتح فم يايسل وانغلق، ثم قال: «يجب أن تعلم مولاتي أنني فعلت كل ما في الإمكان لإنقاذ الرجل المسكين».

- «كما فعلت مع جوفري؟ ومع أبيه زوجي الحبيب؟ روبرت كان من أقوى الرجال في (الممالك السبع)، ومع ذلك فقدته بسبب خنزير بزي. أوه، ودعنا لا ننسى جون آرن. لا شك أنك كنت لتقتل ند ستارك أيضًا لو تركته لك فترة أطول. أخبرني أيها المايستر، هل تعلمت في (القلعة) أن تتنصل من مسؤولياتك وتخلق الخجج؟».

ردّ الرجل الهرم وقد أجفلته نبرتها: «لا أحد كان يستطيع أن يفعل المزيد يا جلالة الملكة. لقد... لقد خدمت دوما بإخلاص».

- «عندما أشرت على الملك إيرس أن يفتح بواباته عند اقتراب جيش أبي، أكانت تلك فكرتك عن الخدمة بإخلاص؟».
- «هذا... لقد أسأت التقدير...».
- «أكانت تلك نصيحة سديدة؟».
- «مؤكد أن صاحبة الجلالة تعلم...».
- «ما أعلمه أنك كنت أقل نفعا من فتى القمر عندما سقم ابني، ما أعلمه أن الثاج في حاجة ماسة إلى الذهب واللورد الخازن مات».
- انتهز الأحمق المسن الجزء الأخير من ردها قائلا: «س... سأصنع قائمة بالرجال الصالحين لشغل مكان اللورد جايلز في المجلس».
- قالت سرسي التي وجدت اقتراحه طريقا: «قائمة. يمكنني أن أتخيل نوع القائمة التي ستمدني بها، قائمة بالشيوخ والحمقى الجشعين وجارث الشمين»، وزقت شفيتها مضيفة: «إنك تقضي أوقاا طويلة في ضحبة الليدي مارجري في الفترة الأخيرة».
- «نعم، نعم، إنني... الملكة مارجري مضطربة للغاية بسبب السير لوراس، وأزود جلالته بعقاقير النوم و... أنواع أخرى من الأدوية».
- «لا ريب. أخبرني، هل ملكتنا الصغيرة هي من أمرتك بقتل اللورد جايلز؟».
- اثسعت عينا المايستر الأكبر پايسل حتى صارتا كبيضتين مسلوقتين، وقال: «ققتل؟ لا يُعقل أن جلالته تعتقدين... لقد مات بالشعال، أقسم بكل الآلهة أنني... جلالته لا يمكن أن... إنها لم تكن ضغينة للورد جايلز. لماذا ترغب الملكة مارجري في...».
- «... موته؟ لتزرع وردة أخرى في مجلس تومن بالتأكيد. أنت أعمى أم مرتيش؟ روزبي كان يعترض طريقها فوضفته في قبره... وأنت تسثرت عليها».

رَدَّ الرِّجْل بِقِيَمٍ يَرْتَعَشُ: «جلالة الملكة، أقسم لك أن اللورد جايلز مات بالشعال. لطالما كان إخلاصي للثَّاج والبلاد... وعائلة لانستر».

بهذا التَّرتيب؟ كان خوف يايسل صريحا ملموشا. لقد نضج بما فيه الكفاية. حان الوقت لاعتصار الثمرة وتذوق عصيرها. «إذا كنت مخلصا كما تدَّعي فلماذا تكذب علي؟ لا تُحاول الإنكار. لقد بدأت تتراقص حول العذراء مارجري قبل ذهاب السير لوراس إلى (دراجونستون)، فاعفني من المزيد من حكاياتك الخيالية عن رغبتك في مواساة زوجة ابننا في حزنها. لماذا تتردّد إلى (قفص العذراوات) بهذه الكثرة؟ مؤكّد أن الشَّيب ليس أحاديث مارجري المضجرة. هل تُخطب وُدَّ سيِّتتها ذات الوجه المجذور إياها؟ تُداعب الليدي بولوار الصغيرة؟ هل تلعب لحسابها دور الجاسوس وتُخبرها بما أفعله لتستغله في مكايدها؟».

- «إنني... إنني أطيع. المايستر يُقسم على الخدمة...».

- «المايستر الأكبر يُقسم على خدمة البلاد».

- «يا صاحبة الجلالة، إنها... إنها الملكة...».

- «أنا الملكة».

- «أعني... أنها زوجة الملك، و...».

- «أعرف من هي. ما أريد أن أعرفه هو سبب حاجتها إليك.

هل زوجة ابننا مريضة؟».

رَدَّد: «مريضة؟»، وشَدَّ العجوز الشَّيء الذي يُسمِّيه لحيّة، رَقَعَ الشَّعر الأبيض الخفيف الثَّابت من اللُّغد الوردي المتهذّل تحت ذقنه، وقال: «ليست مريضة يا جلالة الملكة، ليس بالضبط. إن قَسَمي يمنعني من الإفصاح...».

- «قَسَمك لن يكون مصدر عزاء كبير في الرُّنازين السوداء.

سأسمع منك الحقيقة أو أكبِّلك بالشلاسل».

خَرَّ يائِسل على زُكُبتيه قائلاً بضراعة: «أتوسِّلُ إليك... لقد كنتُ رجل السيّد والدك، وصديقاً لك في مسألة اللورد آرن. لن أحتمل البقاء في الزُّنازين، ليس ثانية...».

- «لماذا تستدعيك مارچري؟».

- «إنها ترغب في... إنها... إنها...».

- «قلها!».

جفَل هامشاً: «شاي القمر، شاي القمر من أجل...».

- «أعرف فيم يُستخدَم شاي القمر». هكذا / إذن. «ليكن. انهض

على هاتين القدمين الواهنتين وحاول أن تتذكَّر كيف تكون

رجلاً». حاول يائِسل الثهوض بفسر لكنه استغرق وقتاً طال

حتى أمّرت السير أوزموند مضطرةً بأن يسحبه ثانية، ثم قالت:

«بالنسبة إلى اللورد جايلز فلا ريب أن (الأب في الأعلى)

سيحكم عليه بالعدل. ألم يترك أولاداً؟».

- «لا أولاد من ضلبي، لكن هناك ربيباً...».

- «... ليس من دمه»، ولوحت سرسي بيدها متجاهلةً هذا.

وأردفت: «جايلز كان يعرف بحاجتنا الملحة إلى الذهب. لا شك

أنه أخبرك برغبته في ترك كل أراضيه وثروته لتومن». سيساعد

ذهب روزبي على إنعاش خزانهم، ويمكنها أن تهب قلعة

(روزبي) وأراضيها لأحد رجالها مكافأة على خدمته الوفية.

اللورد ووترز ربما. منذ فترة وأوران يُلَفَّح إلى حاجته إلى مقر

فدون مقر ليست لورديته إلا لقباً فارغاً. تعلم سرسي أن عينه

على (دراجونستون)، لكن طموحه أكبر من اللازم هنا، أمّا

(روزبي) فأنسب لمولده ومنزلته.

كان يائِسل يقول: «اللورد جايلز أحبّ جلالة الملك حباً جفاً،

ولكن... ربيبه...».

- «... سيتفهم بالتأكيد ما إن يسمعك تتكلّم عن أمنيّة اللورد

جايلز الأخيرة. اذهب ونفّذ هذا».

قال المايستر الأكبر پايسل: «كما تأمر جلالة الملكة»، وكاد يتعثر في ثوبه مع استعجاله الخروج.
أغلقت الليدي ميريويدر الباب وراءه، ثم التفتت إلى الملكة قائلة: «شاي القمر. يا لحماقتها. لماذا تفعل شيئًا كهذا وتُخاطر بنفسها؟».

- «الملكة الصغيرة لها رغبات تومن أصغر من أن يُشبعها». هذا الخطر قائم دومًا عندما تتزوج امرأة بالغة طفلًا. وقائم أكثر إذا كانت أرملة. ربما تَزْعُم أن رنلي لم يمسها قط، لكني أرفض أن أصق هذا. النساء لا يشربن شاي القمر إلا لسبب واحد، أما العذراوات فلا يحتجن إليه على الإطلاق. «مارجري خائت ابني. إن لها عشيقًا. هذه خيانة عظيمة عقوبتها الموت». أملها الآن أن تعيش أم مايس تايرل الشَّمطاء المتفُضنة لتشهد المحاكمة. بإصرارها على زواج تومن ومارجري في الحال حكمت الليدي أولينا على وردتها الغالية بسيف الجلاد. «جايمي أخذ السير إلين پاين معه. أظن أن علي أن أجد عدالة ملك جديدًا يقطع رأسها».

اقترح أوزموند كِتْلَبلاك بابتسامة واسعة تلقائية: «سأفعلها أنا. مارجري لها غنق جميل، صالح لأن ييثره سيف حاد بسهولة».

قالت تاينا: «نعم، لكن لتايرل جيشًا عند (ستورمز إند) وآخر في (بركة العذاري). هم أيضًا يحملون سيوفًا حادة».

أنا محاصرة بالورود. وهذا مزعج حقًا. إنها لم تزل محتاجة إلى مايس تايرل وإن لم يكن إلى ابنته. حتى هزيمة ستانيس على الأقل، ثم لن أحتاج إلى أحد منهم. لكن كيف تُخلّص نفسها من الابنة دون أن تفقد الأب؟ قالت: «الخيانة هي الخيانة، لكن يجب أن تُبرهن عليها، وأن يكون البرهان ملموسًا أكثر من شاي القمر. إذا ثبتت خيانتها فعلى السيّد والدها نفسه أن يُدينها وإلا أصبح عارها عاره».

مضغ كليلاك طرف شاربِه قائلا: «يجب أن نضبطهما متلبسين بفعلتهم».

- «كيف؟ إنها تُصب أعين كايبرن ليل نهار، وخدمها يأخذون مالي ولا يأتوننا بغير الثفاهات، لكن أحدا لم يرَ عشيقها هذا. الأذان خارج بابها تسمع غناء وضحكا ونميمة، لا شيء مفيدا». قالت الليدي ميريويدز: «مارجري أمكر من أن تُضبط بهذه السهولة. إن نساءها أسوار قلعتها، يَتمن معها ويَليسنها ثيابها ويَصَلين معها ويقرأن معها ويَخطن معها، وعندما لا تَخْرُج لركوب الخيل أو الضيد بالضقور تلعب (تعالَ إلى قلعتي) مع أليسين بولوار الصغيرة، وفي حضور الرجال تكون معها سبتتها أو بنات عمومتهما».

قالت الملكة بإصرار: «لا بُدَّ أنها تُخلّص نفسها من دجاجاتها أحيانا»، ثم إن فكرةً خطرت لها بغتة، فأضافت: «ما لم تكن رفيقاتها جزءا من الأمر أيضًا... ليس جميعهن ربما ولكن بعضهن».

قالت تاينا بريبة: «بنات العمومة؟ ثلاثهن أصغر من الملكة وأكثر براءة».

- «فاجرات متنكرات في عفة العذارى، وهو ما يجعل خطاياهن صادمة أكثر. سيكُلل أسماءهن العار». فجأة تكاد الملكة تتذوق ملامح الخطئة. «تاينا، السيد زوجك كبير قضاتي. يجب أن يتناول كلاهما الغشاء معي الليلة تحديدا». عليها أن تُسارع بالتنفيذ قبل أن يعرّ لمارجري أن تعود إلى (هايجاردن) أو تُبجر إلى (دراجونستون) لتقف مع أخيها الجريح على باب الموت. «سأمز الظهارة بشواء خنزير برّي لنا، وبالطبع يجب أن نستمع إلى الموسيقى لئساعدنا على الهضم».

لم تتوان تاينا عن إدراك التلميح، فقالت: «موسيقى، بالتأكيد».

- «أذهبي وأخبري السيد زوجك ورثبي مجيء المغني. سير أوزموند، لا تذهب، هناك تفاصيل كثيرة نتكلم عنها. سأحتاج إلى كايرن أيضًا».

للأسف اتضح أن المطابخ تفتقر إلى الخنازير البرية في الوقت الحالي، ولا وقت يكفي لإرسال صيادين إلى الغابة، فبدلاً من ذلك ذبح الظهارة إحدى خنزيرات القلعة وقدموا لهم لحمها متبلاً بالقرنفل ومسقى بالعسل والكرز المجفف. ليست الوجبة التي أرادتها سرسي، لكنها تدبرت أمرها بها، وبعدها أكلوا الثفاح المخبوز مع الجبنة البيضاء اللاذعة. تلذذت الليدي تاينا بكل قضة، على عكس أورتون ميريويدر الذي ظل وجهه المستدير شاحباً مبقعاً بالبثور من طبق المرق إلى طبق الجبنة، وأفرط في الشراب وظل يختلس النظرات إلى المغني.

أخيراً قالت سرسي: «مؤسف للغاية رحيل اللورد جايلز، ولو أنني أظن أن أحداً منا لن يفتقد شعاله».

- «نعم، نعم، أظن هذا».

- «سنحتاج إلى خازن جديد. لو لم تكن الأوضاع مضطربة في (الوادي) لأرسلت أستدعي بيتر بايلش، ولكن... أفكر في تجربة السير هاريس في المنصب. لا يمكن أن يبلي بلاء أسوأ من جايلز، وعلى الأقل لا يسفل».

قالت تاينا: «السير هاريس يد الملك».

السير هاريس رهينة، وحتى هذا ليس فقالاً فيه. «آن أوان أن يكون لتومن يد أقوى».

رفع اللورد أورتون عينيه عن كأسه قائلاً: «أقوى، بالتأكيد»، وتردد لحظة قبل أن يسأل: «من...».

- «أنت يا سيدي. إن اليدوية في دمك. جذك حل محل أبي نفسه كيد إيرس». لا شك أن استبدال تايوين لانستر بأوين ميريويدر كان أشبه باستبدال جواد حربي بحمار، لكن أوين كان رجلًا في شتاء الغمر عندما رُقاه إيرس، وديغا لم يأت بالنتائج المنشودة، أمّا حفيده فأصغر، و... وله زوجة قوية. مؤسف أن تايينا لا يمكن أن تشغل منصب يد الملك. إنها تفوق زوجها رجولة ثلاث مرّات، ثم إنها مصدر تسلية أفضل كثيرًا، لكنها مولودة في (مير)، علاوة على كونها أنثى، ولذا فلا مفر من الاكتفاء بأورتون. «لا شك لدي في أنك أقدر من السير هاريس». محتويات وعاء فضلاتي أقدر من السير هاريس. «هل توافق على الخدمة؟».

- «أنا... نعم، بالطبع. جلالتك تُسبغين عليّ شرفًا عظيمًا». شرفًا أعظم مما تستأهل. قالت: «لقد خدمتني باقتدار في منصب كبير القضاة يا سيدي، وستستمر في فعل هذا خلال... الأوقات العصيبة التي تنتظرنا»، ولما رأت أن ميريويدر أدرك ما تُؤوّه به التفثت الملكة تبتسم للمغني قائلة: «وأنت أيضًا يجب أن تُكافأ على الأغاني الجميلة التي غنيتها لنا بينما نأكل. لقد أنعمت عليك الآلهة بموهبة رائعة».

انحنى المغني مجيبًا: «لطف من جلالتك أن تقولي هذا». قالت سرسي: «ليس لطفًا بل مجرد شهادة بالحقبة. تايينا قالت لي إنك تُسمّى الشاعر الأزرق».

- «نعم يا صاحبة الجلالة». حذاء المطرب من جلد العجول اللّين، وسراويله من الضّوف الأزرق النّاعم، والشترة التي يرتديها من الحرير الأزرق الباهت المشرّط بالسّاتان الأزرق اللّامع، بل ويصنّف شعره بالأزرق أيضًا على غرار أهل (تايروش)، وشعره هذا طويل مجفّد ينسدل على كتفيه وتفوح منه رائحة تشي بأنه مغسول بماء الورد. ماء ورد أزرق لا ريب. على الأقلّ له أسنان بيضاء. أسنانه نضيدة وليس فيها اعوجاج على الإطلاق.

- «أليس لك اسم آخر؟».

اصطبغت وجنتاه بشيء من الوردى إذ أجاب: «في صفري كان اسمي وات. اسم لا بأس به لصبيّ من الأرياف، لكنه أقلّ جدارة بمفن».

لهيئي الشّاعر الأزرق لون عيني روبرت ذاته، ولهذا السّبب وحده كرهته. «من السّهل أن أرى سبب كونك مغنيّ الليدي مارچري الأثير».

- «جلالة الملكة لطيفة، تقول إنني أمّتها».

- «أوه، إنني واثقة. هل لي أن أرى عودك؟».

- «كما تأمر صاحبة الجلالة». تحت كياسته كانت لمحة خافتة من الثّوثر، وإن ناولها عوده على الرغم من هذا، فلا أحد يرقّض للملكة طلبًا.

داعبت سرسي وتزا وابتسمت للثّغمة، ثم قالت: «صوت جميل وحزين كالخب. أخبرني يا وات... أول مرّة أخذت مارچري إلى الفراش، أكان هذا قبل زواجها بابني أم بعده؟».

للحظة لم يبدّ أنه فهم، ولمّا فعل اتّسعت عيناه، وقال: «معلومات جلالتي مغلوبة. أقسم لك أنني لم...».

صاحت سرسي: «كاذب!»، وضربت المغنيّ في وجهه بالعود بقوة فجّرت الخشب إلى شظايا، ثم قالت: «لورد أورتون، استدع خرسي وخذ هذا المخلوق إلى الزّنازين».

قال أورتون ميريويدر بوجه بلّله غرق الخوف: «هذه الـ...
أوه، المخزاة... كيف جرؤ على إغواء الملكة؟».
- «أخشى أن العكس حدث، لكنه يظلّ خائنًا. فليُغَرِّقْ للورد
كايرن».

امتقع وجه الشاعر الأزرق، وقال والذم يقظر من شفته حيث
مرّقها العود: «لا، إني لم...»، ولقا أطبق ميريويدر على ذراعه
صرخ: «زحماك يا أمنا، لا!».
قالت له سرسي: «لست أمك».

حتى في الرُنازين السوداء لم تتل منه إلّا الإنكار والتضرع
والاسترحام، ولم يمض وقت طويل حتى سألت الذماء على
ذقنه من أسنانه المحظمة وبلّ سراويله الرُرقاء الداكنة ثلاث
مرّات، وعلى الرغم من كلّ هذا أصرّ الرّجل على أكاذيبه.
سألت سرسي: «أيمكن أنه المغني الخطأ؟».

- «كلّ شيء ممكن يا جلالة الملكة. لا تخافي، سيعترف
الرّجل قبل أن تنتهي الليلة». هنا في الرُنازين يرتدي كايرن
الضوف الخشن ومئزر حدّادٍ جلدّيّ، وقد خاطب الشاعر الأزرق
قائلًا بنبرة رفيقة مهمومة: «أعتذر إذا عاملك الخراس بخشونة.
إنهم يفتقرون إلى الكياسة للأسف. لسنّا نريد منك إلّا الحقيقة».
قال المغني منتحبًا والقيود الحديدية تُثبّته إلى الجدار
الحجري البارد بقوة: «لقد قلت الحقيقة».

- «ونحن نعرف أنك لم تقلها». كان كايرن يمسك بيده
موسى تلتمع حافتها بخفوت في ضوء المشاعل، وبها قطع ثياب
الشاعر الأزرق إلى أن صار عاريًا إلّا من حدائه الأزرق طويل
الغنق، ووجدت سرسي مرأى الشعر البني بين ساقيه طريقًا.
قالت امرأة: «أخبرنا كيف كنت تُرّفه عن الملكة الصغيرة».
- «لم... لقد غيّث، هذا كلّ شيء، غيّث وعزفت. ستُخبرك
رفيقاتها. إنهن معها طوال الوقت، بنات عمومته».

- «وكم منهن واقعت؟».

- «ولا واحدة. إنني مجرّد مغنٍّ. أرجوك».

قال كايبرن: «جلالة الملكة، ربما غنى هذا المسكين فقط لمارجري بينما تستضيف عشاقًا آخرين».

- «لا، أرجوك. إنها لم... لقد غنيّت، غنيّت فقط...».

مَرَّ اللورد كايبرن يده على صدر المغني قائلاً: «هل تأخذ حلمتيك في قمها عندما تتطازحان الغرام؟»، والتقط واحدة بسبّابته وإبهامه ولواها متابعًا: «بعض الرّجال يستمتع بهذا، حلماتهم حساسة كالنساء»، وومضت الموسيقى وصرخ المغني، وعلى صدره ذرقت عين حمراء مبتلة الدّم.

شعرت سرسي بالغثيان، وأراد جزء منها أن تغلق عينيه، أن تشيح بوجهها، أن تضع حدًا لهذا، لكنها الملكة وهذه خيانة. ما كان اللورد تايوين ليشيح بوجهه.

في النهاية حكى الشاعر الأزرق قصّة حياته كلّها منذ يوم ميلاده الأول. كان أبوه متعهد تموين سفن ونشأ وات على هذه الجرفّة، لكنه اكتشف في صباه أنه أكثر مهارة في صنع الأعواد من البراميل، ولقا بلغ الثّانية عشرة هرب لينضمّ إلى فرقة من الموسيقيّين سمع أداءهم في مهرجان، وجاب نصف أنحاء (المرعى) قبل مجيئه (كينجز لاندنج) على أمل أن يجد حظوة في البلاط.

قهقه كايبرن قائلاً: «حظوة؟ أهكذا تُسمّيها النساء الآن؟ أخشى أنك وجدت قدرًا كبيرًا للغاية منها يا صديقي... ومن الملكة الخطأ. الملكة الحقيقيّة تقف أمامك».

نعم. تلوم سرسي مارجري تايرل على هذا. لولاها فلربما عاش وات حياةً طويلةً مثمرةً، يردّد أغانيه ويضاجع راعيات الخنازير وبنات الفزارعين. تأمرها أرغمني على هذا. لقد لوّثتني بخيانتها.

قبل مطلع الفجر كانت الدماء تملأ حذاء المغني الأزرق طويل
الغنق، وأخبرهما كيف ثداعب مارچري نفسها بينما تُشاهد بنات
غمومتها يفتننه بأفواههن، وفي أوقات أخرى يغني لها فيما
تشبع شهواتها مع عشاق آخرين. سألت الملكة: «من هم؟»، فذكر
المأفون وات أسماء السير تالاد الطويل ولامبرت ترنبري
وجالابار شو والثوامين ردواين وأوزني كتبلاك وهيو
كليفتون... وفارس الزهور.

أثار هذا استياءها. إنها لا تجرؤ على تلويث اسم بطل معركة
(دراجونستون)، ثم إن لا أحد يعرف السير لوراس سيصدق
هذا. كذلك، لا يمكن أن يكون الثوامان ردواين جزءًا من الأمر،
فدون (الكرمة) وأسطولها لا أمل للبلاد في الخلاص من يورون
عين الغراب ورجاله الحديديين الملاعين. «لست تلفظ إلا أسماء
رجال رأيتهم في مسكنها. تريد الحقيقة!».

- «الحقيقة». نظرت إليها وات بالعين الزرقاء الواحدة التي
تركها له كايبرن، وبقيت الدماء من الفتحات التي كانت أسنانه
تحتلها، وقال: «ربما... أسأت التذكُّر».

- «لم يكن لهوراس وهوبر دور في الأمر، أليس كذلك؟».

- «بلى، ليس هما».

- «وبالنسبة إلى السير لوراس فأنا واثقة بأن مارچري تجشم
نفسها عناء كبيرًا لإخفاء ما تفعله عن أخيها».

- «نعم، الآن أذكر. في مرة اختبأت تحت الفراش حين أتى
السير لوراس لزيارتها. قالت لي: يجب ألا يعرف أبدًا».

- «أفضل هذه الأغنية على الأخرى». فلتتذك اللوردات الكبار خارج الأمر، هذا أفضل. أما الآخرون... السير تالاد كان فارساً متجوّلاً من قبل، وجالابار شو شحاذ منفي، وكليفتون الوحيد المذكور من حرس الملكة الصغيرة. وأوزني أساس المسألة كلها. «أعرف أنك مرتاح أكثر الآن وقد قلت الحقيقة. عليك أن تتذكّرها عندما تمثّل مارجري للمحاكمة. إذا بدأت تكذب ثانية...».

- «لن أفعل، سأقول الحقيقة، وبعدها...».

- «سيُسقح لك بالانضمام إلى حرس الليل، لك كلمتي»، والتفتت سرسي إلى كايرن قائلة: «احرص على تنظيف جروحه وتضميدها، واسقه حليب الخشخاش لتخفيف الألم». ردّ كايرن: «جلالتك شديدة اللطف»، وأسقط الموسى الدامية في دلو من الخل، وقال: «ربما تتساءل مارجري أين ذهب شاعرها».

- «المغثون يروحون ويأتون، إنهم شهيدون بهذا».

صعدت سرسي درجات الرُنازين السوداء الحجرية القائمة لاهئة، وقالت لنفسها: يجب أن استريح. الحصول على الحقيقة عمل مضمّن، كما أنها تخشى الخطوة التالية. لا بد أن أكون قويّة. لا أفعل ما أفعله إلّا في سبيل تومن والبلاد. مؤسف أن ماجي الضفدعة ماثت. بول على نبوءتك أيتها العجوز. ربما أكبر الملكة الصغيرة سنًا، لكنها لم تكن أجمل مني قط، وقريبًا ستموت.

كانت الليدي ميريويدر منتظرة في غرفة نومها. ما زال الليل حالكا، أقرب إلى الفجر من الفسق، وجوسلين ودوركاس كلتاها نائمة، ولكن تاينا التي سألتها: «أكان الأمر شنيقا؟».

- «لن تتصوّري. أحتاج إلى الثوم لكن أخشى أن أحلم».

ملست تاينا على شعرها قائلة: «كل هذا من أجل تومن».

ردّت سرسي: «أعلم، أعلم أنه كذلك»، وارتجفت مردفة:

«خلقي جاف. كوني خلوة وضبي لي قليلاً من الثبيذ».

- «إذا كانت هذه مشيئتك. لا أبغي إلا أن ألبسها».

كاذبة. إنها تعلم ما تبغيه تايئا. ليكن إذن. ما دامت المرأة مفتونة بها فسيُساعدُها افتتانها على ضمان إخلاصها وزوجها، وفي عالم زاخر بالخيانة يستحق هذا بضع قبلات. ليست أسوأ من أكثر الرجال. على الأقل خطر الحمل منها غير وارد.

ساعدتها الثبيذ ولكن ليس كفايةً، وإذ وقفت الملكة في الثافذة حاملة كأسها قالت متذمرة: «أشعر بأنني ملوثة».

قالت الليدي ميريويدر: «الاستحمام كفيّل بعلاج هذا يا جميلتي»، وأيقظت دوركاس وجوسلين وأرسلتهما تجلبان ماءً ساخنًا، وبينما ملأتا الحوض ساعدت الملكة على خلع ثيابها، فحلت أربطة فستانها بأصابع رشيقة وأنزلته عن كتفها برفق، ثم إنها خلعت فستانها بدورها وتركته يتكوّم على الأرض.

نزلت الاثنتان في الحوض معًا، وتمدّدت سرسي على ظهرها بين ذراعي تايئا، وقالت للمايرية: «لا بُدّ من إعفاء تومن من معرفة أسوأ التفاصيل. ما زالت مارجري تأخذه كلّ يوم إلى الشّيت ليطلبًا من الآلهة أن تشفي أخاها». لا يزال السير لوراس متشبّثًا بالحياة على نحوٍ مزعج. «إنه مغرم ببنات عمومته أيضًا. سيشقّ عليه أن يفقدهن جميعًا».

اقتрحت الليدي ميريويدر قائلة: «ربما لا تكون ثلاثتهن مذنبات، ربما لم تشترك واحدة منهن مع الأخريات. إذا أخزاها وأغتاها ما رآته...».

- «... فربما يُمكن إقناعها بالشهادة على البقية. نعم، ممتاز، لكن أيّهن البرينة؟».

- «آلا».

- «الخجول؟».

- «هكذا تبدو، لكن فيها خبثًا أكثر من الخجل. اتزكّيها لي يا جميلتي».

- «بكل سرور». اعترف الشاعر الأزرق وحده لن يكفي أبدًا،
إذ إن دأب المغنيين أن يكسبوا رزقهم بالكذب، لكن ألا تايرل
ستساعدنا كثيرًا إذا استطاعت تاينا أن تجعلها تعترف. «السير
أوزني أيضًا سيعترف، ويجب إفهام الآخرين أن من خلال
الاعتراف وحده يمكنهم أن ينالوا عفو الملك والذهاب إلى
(الجدار)». سيجد جالابار شو الحقيقة جذابة، ولو أنها أقل ثقة
بلا الآخرين، وإن كان كايرن يجيد الإقناع...

كان الفجر يبرِّغ على (كينجز لاندنج) عندما خرجتا من
الحوض وقد ابيضَّت بشرة الملكة وتجلَّدت من انغمارها الطويل
في الماء. قالت لتاينا: «ابقي معي، لا أريد أن أنام وحدي»، ثم
إنها ردَّت دعاءً قبل أن تدخل تحت الأغطية، تُناشد (الأم)
الأحلام الطيبة.

على أن دعاءها كان مضيعةً لأنفاسها، فكالاعتاد صمت الآلهة
أذناها. حلقت سرسي بأنها في الزنازين السوداء من جديد، لكن
الفرق هذه المرة أنها هي المقيدة بالسلاسل إلى الجدار بدلًا من
المغني. كانت عاريةً والذم يقطر من طرفي ثدييها حيث مرق
العفريت حلمتيها بأسنانه، وقالت له متوسلةً: «أرجوك، أرجوك،
ليس أطفال، لا تؤذي أطفال، لكن تيريون اكتفى بالنظر إليها
شزًا. هو أيضًا كان عاريًا، يغطِّي جسده شعر خشن يجعله يبدو
أقرب إلى قرد من إنسان، وقال لها: «ستريتهم يتوجون
وستريتهم يموتون»، ثم أخذ ثديها النازف في فمه وبدأ يمض،
وسرى الألم فيها كسكين ساخن.

استيقظت مرتعدة بين ذراعي تاينا، وقالت: «حلم سيئ. هل
صرخت؟ أسفة».

- «في نور النهار تتحوَّل الأحلام إلى تراب. أهو القزم مرَّة
أخرى؟ لماذا يخيفك ذلك الرجل الصغير السخيف هكذا؟».

- «سيقثلني. إنها نبوءة منذ كنت في العاشرة. أردت أن
أعرف من سأزوِّج، لكنها قالت...».

- «من قالت؟».

- «المايجي». تدققت منها الحكاية وهي لا تزال تسمع ميلارا هينرسيون تقول مصرّة إن امتناعهما عن الكلام عن الثبوءة سيحول دون تحقيقها. لكنها لم تصف في البئر، بل صاحت وصرخت. «تيريون هو القالونكار. هل تستخدمون هذه الكلمة في (مير)؟ إنها قاليرئة فُصحى، تعني الأخ الصغير». كانت قد سألت الشبثة سارانيلا عن الكلمة بعد غرق ميلارا.

التقطت تاينا يدها وملست عليها قائلة: «كانت امرأة مفعمة بالكُره، عجوزًا مريضة قبيحة، وكنت أنت صغيرة جميلة مفعمة بالحياة والكبرياء. قلت إنها عاشت في (لانسيورت)، أي أنها سمعت بالتأكيد بمولد القزم وكيف قتل أمك. تلك المخلوقة لم تجسر على ضربك بيدها نظرًا لمقامك، فسعت إلى جرحك بلسان الحية».

أهذا ممكن؟ كم تريد سرسي أن تُصدق هذا. «لكن ميلارا ماثت كما قالت الثبوءة، ولم أتزوج الأمير ريجار، وجوفري... القزم قتل ابني أمام عيني».

قالت الليدي ميريويدز: «ابن واحد، لكن لك آخر جميلًا قويًا، ولا أذى سيمشه أبدًا».

- «مستحيل ما دمت على قيد الحياة». مجرّد القول جعلها تُصدق. في نور النهار تتحوّل الأحلام إلى ثراب، نعم. في الخارج تسطع شمس الصباح متخللة سديقا من الشحاب، وخرجت سرسي من تحت الأغطية قائلة: «سأفطر مع الملك هذا الصباح. أريد أن أرى ابني». لا أفعل ما أفعله إلا في سبيله. ساعدها تومن على استعادة رباطة جأشها. لم تحش به غالينا نفيسًا من قبل كهذا الصباح إذ راح يثرثر عن هيرراته وهو يصبّ العسل على قطعة من الخبز الأسمر الشاخن، وقال لها: «السير پاونس اصطاد فأرًا، لكن الليدي ويسكرز سرقت منه».

لم أكن قُطْ بهذه العذوبة أو البراءة. كيف يأمل أن يقوى على حكم هذه البلاد القاسية؟ تريد الأم في داخلها أن تحميه، والملكة في داخلها تعلم أن عليه أن يصير أقوى وإلا التهقه العرش الحديدي لا محالة. قالت له: «على السير ياونس أن يتعلم أن يدافع عن حقوقه. في هذا العالم يقع الضعفاء ضحايا للأقوياء طوال الوقت».

فكر الملك في قولها وهو يلحق الغسل من على أصابعه، ثم قال: «لما يعود السير لوراس سأتعلم القتال بالزُمح والسيف والكرة الشائكة مثله».

قالت الملكة: «ستتعلم القتال ولكن ليس من السير لوراس. إنه لن يعود يا تومن».

- «مارجري تقول إنه سيعود. نحن نُصلي من أجله، نسأل (الأم) أن ترحمه و(الفحارب) أن يعطيه القوة. إينور تقول إن هذه أصعب معارك السير لوراس».

ملّست على شعره، على الخصل الذهبية التي تُذكرها كثيرًا بجوف، وسألته: «هل ستقضي بعد الظهر مع زوجتك وبنات عمومته؟».

- «ليس اليوم. قالت إن عليها أن تصوم وتظهر نفسها». تصوم وتظهر نفسها... أوه، من أجل عيد (العذراء). لقد مرّت سنوات منذ كان على سرسي الاحتفال بهذا العيد الديني تحديدًا. تزوّجت ثلاث مرّات ولا تزال تُريدنا أن نعتقد أنها بكر. سترتدي الملكة الصغيرة ثيابًا بيضاء محتشمة وتقود دجاجاتها إلى (سيت بيلور) لتضيء الشموع البيضاء الطويلة عند قدمي (العذراء) وتعلق أكاليل من الزقوق حول عنقها المقدّس. بعض دجاجاتها على الأقل. في عيد (العذراء) تُمنع الأمهات والأرامل والعاهرات على خذ سواء من دخول الشيتات، وكذا الرجال، خشية تدنيس ترانيم البراءة المقدّسة. وحدهن العذراوات مسموح لهن...

- «هل قلت شيئاً خطأ يا أمي؟».

قَبِلْتُ سرسي جبهة ابنها، وقالت: «بل قلت شيئاً في غاية الحكمة يا عزيزي. والآن اذهب والعب مع قِططك».

بعدها استدعت السير أوزني كتلبلاك إلى غُرفتها الشَّمسية، فجاء متبخترًا يتصبَّب غرقًا من الثَّدريب في السَّاحة، وبينما جثا أمامها جرَّدها من ملابسها بنظراته كما يفعل دومًا.

- «انهض أيها الفارس وتعالَ اجلس إلى جوارِي. لقد أسديتني صنيغًا شجاعًا من قبل، لكن الآن لديَّ مهمَّة لك تتطلَّب صلابَةً أكثر».

- «نعم، وأنا لديَّ شيء ضلَب لك».

ردَّت: «يجب أن تُرجى ذلك»، ومزَّرت أناملها بخفَّة على ندوب وجهه متابعَةً: «أتذكَّر العاهرة التي أصابتك بهذه الثَّدوب؟ سأعطيك إياها عندما تعود من (الجدار). هل تحبُّ هذا؟».

- «أريدك أنت».

كانت إجابته الضَّحيحة، فقالت: «أولًا عليك أن تعترف بخيانتك. من شأن ترك خطايا المرء تتعقَّن في داخله أن يُسَقِّم روحه. أعرفُ أن الحياة مع ما اقترفت صعبة عليك، وحينَ الوقت لأن تُخلِّص نفسك من عارك».

بدا أوزني حائرًا إذ قال: «عاري؟ لقد قلت لأوزني إن مارچري تُعابِثني فقط، ولا تُتْرَكُني أفعل أكثر من...».

بتزَّت سرسي عبارته: «شهادة منك أن تحميها، لكنك فارس أنبل من أن تُواصل الحياة مع جريمتك. لا، يجب أن تأخذ نفسك إلى (سيت بيلور الكبير) اللَّيلة تحديداً وتتكلم مع الشَّيتون الأعلى. حين تكون ذنوب المرء بهذا السَّواد لا يستطيع إلَّا صاحب القداسة الأعلى نفسه إنقاذه من عذاب الجحيم. أخبره كيف كنت تُضاجع مارچري وبنات عمومته».

حملقَ إليها سائلًا: «ماذا؟ بنات عمومته أيضًا؟».

أجابت وقد حزمت أمرها: «مجا وإلينور فقط وليس آلا». هذه التفصيلة الصغيرة ستجعل القصة أكثر قابلية للتصديق. «آلا اعتادت الجلوس باكية تتوشل إلى الأخريات أن يتوقفن عن المعصية».

- «مجا وإلينور فقط أم مارجري أيضًا؟».

- «مارجري أيضًا بكل تأكيد. إنها وراء الأمر بزمنته».

أخبرته بكل ما تفكر فيه، وإذا أنصت أوزني زحف الفهم بتؤدة على وجهه، ولقا فرغت قال: «بعد أن تقطعي رأسها أريد أن أنال تلك القبلية التي لم تمنحني إياها».

- «لك أن تنال كل ما ترغب من قبل».

- «ثم (الجدران)؟».

- «لفترة قصيرة. تو من ملك غفور».

حك أوزني وجنته اللديبة قائلاً: «عادةً عندما أكذب بخصوص امرأة أقول أنا إنني لم أضاجعها وتصّر هي على العكس. هذا... إنني لم أكذب على سيبتون أعلى من قبل! أظن أن المرء يذهب إلى جحيم ما لهذا، إلى واحدة من الجحائم السيئة».

اندهشت الملكة. آجر ما توقعته من أحد الإخوة كتلبلاك هو الثقوى. «هل ثرقض أن تطيعني؟».

قال أوزني متحسّساً شعرها الذهبي: «لا. المسألة أن أفضل الأكاذيب يحوي شيئاً من الحقيقة... إنها تُعطيها نكهة إن جاز التعبير، وأنت تريدني أن أعترف بأنني ضاجعت ملكة...».

كادت تصفعه على وجهه... كادت، لكنها قطعت شوفاً طويلاً بالفعل وهناك الكثير على المحك. لا أفعل ما أفعله إلا في سبيل تو من. دورت رأسها والتقطت يذي السير أوزني ولثقت أصابعه الضلبة الخشنة من حمل الشيوف. روبرت كانت يداه كهاتين.

طوّقت سرسي عُنقه بذراعيها، وبصوتٍ مبحوح همست: «لا أريد أن يُقال إنني جعلتك تكذب. أعطني ساعةً ثم قابلني في غرفة نومي».

قال أوزني: «انتظرنا بما فيه الكفاية»، ودش أصابعه في صدر قُستانها وشدّه ممزّقًا الحرير بصوتٍ مرتفع حتى إن سرسي خشيت أن يُصف قاطني (القلعة الحمراء) سمعوه، ثم إنه أضاف: «اخلعي البقيّة قبل أن أمزّقها أيضًا، لكن يمكنك الاحتفاظ بالتّاج. إنني أحبّك بالتّاج».

الأميرة في البرج

سجنها سجنٌ مترف.

وجدت أريان في هذا سلوانًا، فلم يجشم أبوها نفسه كل هذا العناء ويؤقر لها جميع وسائل الراحة في محبسها لو أنه حكم عليها بالموت ميتة الخونة؟ مئة مرة قالت لنفسها: لا يمكن أنه ينوي أن يقئلني. القسوة ليست من طباعه. أنا دمه ونسله، وريثته، ابنته الوحيدة. إذا لزم الأمر سثلقي نفسها على عجلتي مقعده المتحرك وتعترف بغلطتها وتتوسل غفرانه، وستبكي أيضًا، وحين يرى الذموع تسيل على وجهها سيسامحها.

لكنها لا تحش بالثقة نفسها بقدرتها على أن تسامح نفسها. خلال الرحلة الطويلة الجافة من (الدم الأخضر) إلى (صنسيين) استجذت أسرها قائلة: «أريو، لم أرد قط أن يصيب الفتاة أذى، صدقني»، فلم يرد هوتا إلا بزمجرة، وشعزت أريان بغضبه. لقد فلت منه النجم المظلم، العضو الأخطر على الإطلاق في مجموعتها الصغيرة من المتآمرين، ضل مطارديه جميعًا واختفى في الصحراء العميقة والذماء ثلوت سيفه.

قالت أريان والفراسخ تمر: «أنت تعرفني أيها القائد، تعرفني منذ صغري، ودائما حميتني كما حميت السيدة والدتي منذ جئت معها من (نورقوس الكبرى) لتكون حارسها في هذا البلد الغريب. إنني محتاجة إلى مساعدتك. لم تكن نيتي أن...».

قاطعها أريو هوتا بملامح من حجرة: «نيتك لا تهتم يا أميرتي الصغيرة، فقط ما فعلت. أسف، لكن لأميري الأمر وعلى هوتا الطاعة».

توقّعت آريان أن يأخذها إلى مقعد أبيها العالي تحت القُبّة
الرّجّاج المطلّية بالرّصاص في (برج الشّمس)، لكن بدلًا من ذلك
أخذها هوتا إلى (برج الحربة)، ووضّعها تحت وصاية ريكاسو
قهرمان أبيها والسير مانفري مارتل أمين القلعة. قال لها الأول:
«أرجو أن تُسامحي عجزًا أعمى ومثلي على عدم الضّعود معك
أيتها الأميرة. هاتان الشّاقان لا تُصلحان لتسلّق الدّرجات
الكثيرة. ثمة غُرقة مجهزة لك سيصحبك إليها السير مانفري
لتنظري استدعاء الأمير».

- «تعني غضبة الأمير. هل سيحبس أصدقائي هنا أيضًا؟»
افترقت آريان عن جارين ودراي والبقية بعد القبض عليهم،
ورفض هوتا أن يخبرها بما سيحدث لهم، ولم يقل بخصوص
هذه المسألة إلّا: «القرار للأمير». على أن السير مانفري كان أكثر
تعاؤنًا، فأجابها: «لقد أخذوا إلى (بلدة الأخشاب) وسيُنقلون
بالسفينة إلى (جاستون جراي) إلى أن يُقرّر الأمير دوران
مصيرهم».

(جاستون جراي) قلعة قديمة متهذّمة قابضة على صخرة في
(بحر دورن)، معتقل كئيب مخيف لا يرسل إليه إلّا أسوأ
المجرمين ليتعفّنوا ويموتوا. قالت آريان مشدوهة: «هل ينوي
أبي أن يقتلهم؟! إنهم لم يفعلوا ما فعلوه إلّا محبةً لي. إذا كان
أبي يريد الدّم فليكن دمي».
- «كما تقولين أيتها الأميرة».
- «أريد أن أتكلّم معه».

قال السير مانفري: «هكذا حسّب»، وأخذها من ذراعها
وساقها صاعدًا الشّلال، إلى أعلى وأعلى حتى تقطعت أنفاسها.
يرتفع (برج الحربة) مئة وخمسين قدمًا، وتقع زنزانتها قرب
القمة. ومثّت آريان كلّ باب مرّا به متسائلة إن كانت إحدى
أفاعي الرّمال حبيسةً في الدّاخل.

بعد أن أغلق بابها وأوصد استكشفت آريان بيتها الجديد.
الفرقة واسعة جيدة التهوية، ولا تفتقر إلى سبل الراحة، فعلى
الأرض بسط مايرئة، وثقة نبذ أحمر تشربه وكُتب تقرأها، وفي
أحد الأركان تستقر طاولة سايقاس منمقة بقطع منحوتة من
العاج والجُزء -ولو أن لا أحد هناك يلعب معها إذا أرادت أن
تلعب- وهناك أيضًا فراش بحشية من الزيش، ومرحاض بمقعد
من الرُخام تُعطره سلة ملأى بالأعشاب، كما أن المناظر من هنا
خلابة، إذ تطل على الشرق نافذة ترى منها الشمس تُشرق من
وراء البحر، وتتيح لها أخرى أن تنظر إلى (برج الشمس)
بالأسفل، بالإضافة إلى الأسوار الملتفة و(البوابة الثلاثية).

استغرق الاستكشاف وقتًا أقل مما كانت لتقضيه في عقد
أربطة صندلها، لكنه نجح على الأقل في الحيلولة دون انهمار
دموعها فترةً. وجدت آريان حوضًا وإبريقًا من الماء الفاتر
وغسلت يديها ووجهها، لكن مهما فركت نفسها فلن يمكنها
تنظيفها من الكُزن. أريس، فارسي الأبيض. ملأت الذموع
عينها، وفجأة انفجرت في البكاء وزج النحيب جسدها كله
رجًا. تذكرت كيف شقت فأس هوتا الثقيلة لحمه وعظمه، وكيف
طار رأسه ودار في الهواء. لماذا فعلتها؟ لماذا قرطت في
حياتك؟ لم أقل لك أن تفعلها، لم أرغب في هذا، أردت فقط...
أردت... أردت...

ليلتها بكت حتى النوم... للمرة الأولى وإن لم تكن الأخيرة.
حتى في أحلامها لم تجد سلاقا. حلقت بأريس أوكهارت يمشد
جسدها، يبتسم لها، يقول لها إنه يحبها... لكن طيلة الوقت
كانت الشهام منفوسة فيه وتبكي جروحه دقا محيلة أبيضه إلى
أحمر. جزء منها كان يدرك أن هذا كابوس حتى في أثنائه،
وأخبرت الأميرة نفسها: كل هذا سيختفي حين يطلع الضبح،
لكن الضبح طلع وهي لا تزال في زنزانتها، ولا يزال السير أريس
ميثا، ومارسلا... لم أرد هذا قط، لم أرده. لم تكن نيتي أن يمش
الفتاة سوء، لم أرد لها إلا أن تكون ملكة. لو لم نتعرض للخيانة...
قال هوتا إن أحدهم وشى، ولم تزل الذكرى تفضيها، ولقد
تشبثت أريان بهذا الغضب وأزكت به النار في قلبها. الغضب
أفضل من الدموع، أفضل من الأسى، أفضل من الندم. أحدهم
وشى، أحد وثقت به، ومن جزاء هذا مات أريس أوكهارت، قتلته
همسة الخائن كما قتلته فأس قائد الحرس، والدم الذي سأل
على وجه مارسلا من صنع الخائن أيضا. أحدهم وشى، أحد
أحبته، وهذا أبلغ الجروح قاطبة.

وجدت صندوقا من خشب الأرز مليئا بثيابها عند قدم
الفراش، فخلعت ملابسها التي وشخها السفر ونامت بها ثم
ارتدت أكثر غلالة كاشفة وجدتها، خيوطا من الحرير تغطي كل
شيء ولا تخفي شيئا. ربما يعاملها الأمير دوران كأنها طفلة، إلا
أنها تأبى أن تلبس ثياب طفلة، وتعلم أن ما ترتديه سيزعج أباه
حين يأتي يؤبّخها على الهرب بمارسلا، بل وتعتمد على هذا. إذا
كان علي أن أزحف وأبكي فليزعج هو أيضا.

توقّعت أن يأتيها اليوم، لكن حين انفتح الباب أخيرًا لم يظهر إلاّ خدمها بوجبة منتصف النهار. سألتهم: «متى أرى أبي؟»، لكن أحدًا لم يُجبها. قَدّموا لها جدّيًا مشويًا بالليمون والعسل، ومعه ورق عنب محشوًا بخليط من الرّيب والبصل وعيش الغراب وفلفل الثّين الحريّف. في طريقهم إلى (جاستون جراي) يأكل أصدقاء آريان بسكويت الشّفن واللّحم البقري المملّح، فقالت: «لست جائعة. خذوا هذا وانتوني بالأمير دوران»، لكنهم تركوا الطّعام ولم يأت أبوها، وبعد مدّة أضعف الجوع تصميمها، فجلست وأكلت.

ما إن أكلت آريان لم تجد ما تفعله. دارت في بُرجها مرّة وثلاثًا وتسعًا، وجلست إلى طاولة السايكاس وحزّت فيلًا بفتور، واستراحت على المقعد المجاور للنافذة وحاولت أن تقرأ كتابًا إلى أن تشوّشت الكلمات وأدرّكت أنها تبكي مجذّذا. آريس أيها العزيز، فارسي الأبيض، لماذا فعلتها؟ كان يجب أن تستسلم. حاولت أن أقول لك لكن الكلام احتبس في فمي. أيها الأحمق الشجاع، لم تكن نيتي أن تموت، أو لمارسلا أن... أوه، بحقّ الآلهة، تلك الصغيرة...

في النّهاية عادت إلى فراشها. كان العالم قد أظلم، ولا شيء تفعله إلاّ النّوم. أحدهم وشى، أحدهم وشى. جارين ودراي وسيلقا الرّقطاء أصدقاء طفولتها، أعزاء عندها كابنة عمّها تايين، ولا تُصدّق أن أحدهم قد يشي بها... لكن هكذا لا يتبقّى إلاّ النّجم المظلم فقط، وإذا كان هو الخائن فلم انقلب بسيفه على المسكينة مارسلا؟ أراد أن تقتلها بدلًا من أن تُثوّجها. هذا ما قاله في (شانديستون)، قال إنني هكذا سأنال الحرب التي أريدها. لكن لا يُعقل أن دايين الخائن. إذا كان السير جيرولد الشّم في العسل حقًا، فلم انقلب بسيفه على مارسلا؟

أحدهم وشى. أيمكن أنه السير آريس؟ هل تغلب إحساس
الفارس الأبيض بالذنب على شهوته؟ هل أحب مارسلا أكثر منها
وخان أميرته الجديدة تكفيًا عن خيانتها أميرته القديمة؟ هل
أحس بالعار مما فعله لدرجة أنه فضل التفريط في حياته على
ضفاف (الذم الأخضر) على العيش ومواجهة الخزي؟

أحدهم وشى. حين يأتي أبوها يراها ستعرف من. على أن
الأمير دوران لم يأت في اليوم التالي ولا التالي، وترك الأميرة
وحدها تذرع الغرفة وتبكي وتلعق جراحها. في ساعات النهار
تحاول أن تقرأ، لكن الكتب التي تركوها لها مملّة حدّ الموت؛
كتب تاريخ قديمة ثقيلة، وكتب جغرافيا وخرائط مزوّدة
بحواشٍ، ودراسة جافّة كالثراب عن قوانين (دورن)، ونسخة من
(النجمة الشباعية) و(سير السيتونات الغلا)، ومجلّد ضخّم عن
الثنائين جعلها بوسيلة ما أقلّ تشويقًا من سمندل الماء. كانت
أريان لتدفع ثمنًا باهظًا لقاء نسخة من (عشرة آلاف سفينة) أو
(أحباب الملكة نايميريا)، لقاء أيّ شيء يشغل بالها ويجعلها
تهرب من برّجها ساعة أو ساعتين، لكنهم حرموها تلك التسلية.
عليها فقط أن تنظر من نافذتها لترى القبة العظيمة المبنية
بالذهب والزجاج الملون بالأسفل حيث يجلس أبوها قلقًا. قريبًا
سيستدعي.

الرُّؤَاة الوحيدون المسموح بدخولهم عليها خدمها؛ بورس
يشعر فكّه القصير الخشن، وتيموث الطويل الذي يشغ اعتدًا،
والأختان مورا وميلي، وسدرا الصغيرة الحسناء، وبيلاندر
العجوز التي كانت رفيقة فراش أمّها. يأتونها بالوجبات،
ويبتذلون أغطية سريرها، ويفرغون وعاء الفضلات تحت
مرحاضها، لكن لا أحد منهم يخاطبها. عندما تطلب مزيدًا من
الثبيذ يذهب تيموث ويجلبه، وإذا رغبت في أكلة مفضلة -الثين
أو الرّيتون أو الفلفل المحشو بالجبنة- فما عليها إلّا أن تُخبر
بيلاندرًا فثلبّي طلبها. تأخذ مورا وميلي ملابسها المتسخة
وتعودان بها نظيفة طيبة الرائحة، وكلّ يومين يأتونها بحوض
استحمام وتغسل سدرا الصغيرة الخجول ظهرها بالصابون
وتمشّط شعرها.

إلّا أن أحدًا منهم لا ينبس لها ببنت شفة، ولا يتعطفون عليها
حتى ياخبارها بما يجري في العالم خارج قفصها المبني بالحجر
الرّملي. في يوم سألت بورس: «هل قبضوا على النّجم المظلم؟
أما زالوا يطاردونه؟»، لكن الرّجل أولاها ظهره وابتعد، فصاحت
فيه آريان بحدّة: «هل أصابك الضّمم؟ ارجع وأجبني، هذا أمر»،
لكن جوابه الوحيد كان صوت باب ينغلق.

في يوم آخر حاولت ثانية قائلة: «تيموث، ماذا حدث للأميرة
مارسلا؟ لم أقصد قُط أن يُصيبها الأذى». آخر مرّة رأت الأميرة
الأخرى كانت في طريق العودة إلى (صنسيين). كانت مارسلا
أضعف من أن تركب حصانًا فوضعوها في هودج، وقد صُفد
رأسها بالحرير حيث جرحها النّجم المظلم واثّقت عيناها
الخضراوان بالخمى. «قل لي إنها لم تُقت، أتوشل إليك. ما
الضرر من معرفتي؟ أخبرني كيف حالها»، غير أن تيموث امتنع
عن الإجابة.

وبعد بضعة أيام قالت آريان: «بيلاندر، إذا أحببت أمي يومًا فأشفيقي على ابنتها المسكينة وأخبريني متى ينوي أبي أن يأتي ويراني، أرجوك، أرجوك»، لكن بيلاندر أيضًا فقدت لسانها.

أهذه فكرة أبي عن التعذيب؟ ليس الحديد الشاخن أو المخلعة وإنما ببساطة - الصمت؟ لم يدهشها أن ينحو دوران مارتل هذا النحو حتى إنها ضحكت رغما عنها. يظن نفسه قطنا بينما يتصرف بضعف لا أكثر. قررت أن تستمتع بالهدوء، أن تستغل الوقت في التعافي وشدّ أزر نفسها استعدادًا لما سيأتي.

تعلم أن لا جدوى من الإسهاب في التفكير في السير آريس، وبدلاً من ذلك جعلت نفسها تفكر في أفاعي الزمال، بالذات تايين. تحب آريان بنات عفا الثغلات جميعهن، من أوبارا العنيفة صعبة المراس إلى لوريذا أصغرهن التي تبلغ السادسة فحسب، ولكنها أحبّت تايين أكثر من الأخريات دوفا، الأخت الجميلة التي لم تحظّ بها قط. لم تكن الأميرة قريبة من أخويها، بما إن كوينتن غائب في (يرونوود) منذ سنين وتريستان صغير للغاية. لا، لطالما كانت هي وتايين، ومعهما جارين ودراي وسيلقا الرّقطاء. أحيانًا كانت نيم تنضمّ إليهم في لعبهم، وتُحاول ساريلا دوفا أن تُقجم نفسها حيث لا تنتمي، لكن أغلب الوقت كانت ضحبتهم من خمسة. في مسابح ونوافير (الحدائق المائية) لعبوا، وتعلّمت هي وتايين القراءة معًا، وركوب الخيل معًا، والرّقص معًا، ولقّا كانتا في العاشرة سرقت آريان إبريق نبيذ وسكّرت الاثنتان معًا. كانتا تتقاسمان الطعام والشرير والخلي، وكان يُمكن أن تتقاسما رجلهما الأول أيضًا لولا أن هياج دراي جعله يقذف على أصابع تايين لحظة أن سحبت ذكره من سراويله. يدها خطرَتان. جعلتها الذكرى تبتسم.

كلّما فكّرت الأميرة في بنات عمّها افتقدتھن أكثر. على حدّ علمي ربما يكن تحتي مباشرة. ليلتها جرّبت أريان الدقّ على الأرضيّة بكعب صندلھا، وحين لم یجبھا أحد مالت من النافذة ونظّرت إلى أسفل، فرأت نوافذ أخرى أصغر من نافذتها، بعضها ليس أوسع من فتحة رماية. نادّت: «تايين! تايين، هل أنت هنا؟ أوبارا؟ نيم؟ هل تسمعني؟ إلاريا؟ هل من أحد؟ تايين؟». قضّت الأميرة نصف اللیل مطلّة من النافذة تُنادي حتى بُحّ صوتها، لكن لا أحد أجابها، وأخافها هذا لأقصى حد. لو كانت أفاعي الرّمال مسجونات في (برج الحربة) لسمعنها بالتأكيد، فلم لم یجبن؟ إذا آذاهن أبي فلن أسامحه أبدًا أبدًا.

بعد مضيّ أسبوعين على هذا المنوال شارف صبرها على اللّفاد، وقالت لبورس بأقوى نبرة أمرة لديها: «سأتكلّم مع أبي الآن. ستأخذني إليه»، فلم يأخذها إليه، وقالت لتيموث: «أنا مستعدّة لرؤية الأمير»، لكنه التفت عنها كأنه لم يسمع. في الصّباح الثّالي كانت أريان منتظرةً إلى جوار الباب عندما انفتح، واندفعت متجاوزةً بيلاندرا ليتحظّم طبق البيض المتبل الذي تحمله على الجدار، لكن الحرس أمسكوها قبل أن تبتعد ثلاث ياردات. هم أيضًا تعرفهم، لكنهم صفّوا آذانهم عن توشلاتها وجرّوها إلى زنزانتها راكلةً محاولةً التملّص.

قَزَرَت آريان أن عليها أن تكون أكثر مكرًا. أفضل آمالها سِدرًا، فالفتاة صغيرة غريرة ساذجة، وتذكر الأميرة أن جارين تباهى بمضاجعتها مرّة. هكذا، وقت حقامها الثّالي، وبينما تغسل سِدرًا ظَهرها بالصّابون، بدأت تتكلّم عن كلّ شيء ولا شيء، وقالت: «أعلم أنّك مأمورة بعدم الكلام معي، لكن لا أحد أمّري بعدم الكلام معك». تكلمت عن خزّ الثّهار وما تناولته اللّيلة السّابقة على العشاء وكيف أصبحت بيلاندرا المسكينة بطيئة متخشّبة الحركة. لقد سلّح الأمير أوبرين كلًّا من بناته كي لا يكن عزلاوات أبدًا، لكن سلاح آريان مارتل الوحيد مكرها، ولذا ابتسمت وتودّدت ولم تطلّب من سِدرًا شيئًا في المقابل، لا كلمة ولا إيماءة.

في اليوم الثّالي على العشاء عادت تُثرثر فيما قدّمت الفتاة الطّعام، وهذه المرّة دبّرت ذريعةً للكلام عن جارين، ولدى سماع اسمه رفعت سِدرًا عينيها بخجلٍ وكادت تُسكّب الثّبيد الذي تصبّه. هكذا / إذن؟

خلال حقامها الثّالي تكلمت عن أصدقائها المسجونين، خصوصًا جارين، وقالت للخادمة: «هو أكثر من أخشى عليه. الأيتام أحرار بالسّليقة، يعيشون للتّجوال. جارين يحتاج إلى ضوء الشّمس والهواء الطّلق. إذا حبسوه في زنزانية حجريّة رطبة فكيف يعيش؟ لن يحتمل عامًا في (جاستون جراي)». لم تردّ سِدرًا، لكن آريان رأت شحوب وجهها عندما نهضت من الحوض، وكانت الفتاة تعصر الإسفنجة بقوة جعلت الصّابون يسيل على البساط المايري.

وعلى الرّغم من هذا مرّت أربعة أيّام أخرى وحقّامان إضافيّان قبل أن تصير الفتاة لها. بعد أن رسّمت آريان صورةً حيّةً لجارين يُلقي نفسه من نافذة زنزانيته ليذوق الحرّيّة مرّة أخيرة قبل أن يموت—بعدها همست سِدرًا أخيرًا: «أرجوك، يجب أن تُساعدني، أرجوك لا تُتركه يموت».

ردت هامة: «لا يمكنني أن أفعل شيئاً ما دمت حبيسة هنا.
أبي يرفض أن يراني. أنت الوحيدة التي تستطيع إنقاذ جارين.
هل تحبينه؟».

همست سيدرا بخجل: «نعم. لكن كيف أساعدك؟».
قالت الأميرة: «يمكنك أن تهزبي رسالة مني. هلا فعلت هذا؟
هلا خاطرت... من أجل جارين؟».

اتسعت عينا سيدرا وأومات برأسها إيجاباً.
فكرت آريان بظفر: الآن عندي غداف، لكن إلى من أرسله؟
الوحيد من رفاقها في المؤامرة الذي قر من شباك أبيها هو
النجم المظلم، لكن من الوارد بشدة أن السير جيرولد قد سقط
بالفعل، وإن لم يكن فمؤكد أنه هرب من (دورن). بعده خطرت
لها أم جارين وأيتام (الذم الأخضر). ليس هم، لا. يجب أن يكون
أحدًا ذا سلطة حقيقية، أحدًا لم يلعب دورًا في مؤامرتنا ولكن
ربما يكون لديه سبب للتعاطف معنا. فكرت في مناشدة أمها،
لكن الليدي ميلاريو بعيدة في (نورقوس)، ثم إن الأمير دوران
لم يصغ إلى السيدة زوجته منذ سنوات. ولا هي أصفت إليه.
إنني محتاجة إلى لورد، إلى واحد عظيم بما يكفي لإرغام أبي
على إطلاق سراحني.

أقوى لوردات (دورن) أندرز يرونوود، صاحب الذم الملكي
وسيد (يرونوود) وحاكم (الطريق الحجري)، لكن آريان أعقل
من أن تطلب العون من الرجل الذي ربي أخاها كوينتن. لا.
السير ديزيل دالت أخو دراي تطلع في الماضي إلى الزواج بها،
لكنه أوفى من أن يعارض أميره، كما أن قدرة فارس (غابة
الليمون) على تخويف لورد صغير لا تعني أنه يملك قوة التأثير
على أمير (دورن). لا. والشيء نفسه ينطبق على أبي سيلقا
الرقطاء. لا. قررت آريان أخيرًا أن لها أملين حقيقيين اثنين؛
هارمن أولر سيد (هضبة الجحيم) وفرانكلين فاوولر سيد (قلعة
السماء) وحاكم (ممر الأمير).

يقول القتل الدورني: يصف آل أولر أنصاف مجانين، والنصف الآخر أسوأ. إلاريا ساند ابنة اللورد هارمن الطبيعية، وهي وصغيراتها حبيسات مع بقية أقاعي الزمال. لا بُدَّ أن هذا أغضب اللورد هارمن، وآل أولر خطرون عند الغضب. ربما أخطر من اللازم. والأميرة لا ترغب في تعريض المزيد من الأنفس إلى الخطر.

قد يكون اللورد فاوُلر خيارًا أسلم. الرُّجل ملقَّب بالضَّقر العجوز، ولم يثفق قطَّ مع أندرز يرونوود، فبين العائلتين صفائن منذ ألف عام، منذ انحاز آل فاوُلر إلى آل مارتل بدلًا من آل يرونوود في حرب نايميريا، والثَّوَّامان فاوُلر صديقان شهيران لليدي نيم أيضًا، ولكن ما وزن هذا عند الضَّقر العجوز؟

تحيرت آريان أياها بينما تجهَّز رسالتها السريَّة. بدأتها بقولها: «أعطِ الرُّجل الذي يُسلِّمك هذه الرِّسالة مئة أيلٍ فضيٍّ»، فهذا تضمن توصيل الرِّسالة. كتبت مكانها وتوشلت التَّجدة، وأضافت: «لن أنسى من يُنقذني من هذه الرُّنْزانة أيا كان عندما أتزوِّج». وهذا كفيل بجعل الأبطال يهرعون إلَيَّ. ما لم يكن الأمير دوران قد حرقها الميراث فإنها تظلُّ وريثة (صنسيين) الشرعيَّة، أي أن مَنْ يتزوَّجها سيحكم (دورن) إلى جوارها ذات يوم. ليس بإمكان آريان إلَّا أن تُصلي أن يكون منقذها أصغر من المسنين الذين عرضهم أبوها عليها على مرَّ السنين. حين رفضت آخرهم قالت له: «أريدُ زوجًا لم تسقط أسنانه».

لم تجرؤ على طلب ورق خشية إثارة شكوك سجنانيها، فخطت آريان رسالتها على هامش صفحة قطعتها من (النَّجمة الشباعيَّة)، ووضعتها في يد سيدرا يوم الحقام الثَّالي قائلة لها: «ثقة مكان مجاور لـ (البوابة الثلاثيَّة) تأخذ منه القوافل المؤمن قبل عبور الزِّمال العميقة. اعثري على مُسافر مثجه إلى (ممر الأمير) وعديه بمئة أيلٍ فضيٍّ إذا وضع هذه الرِّسالة في يد اللورد فاوُلر».

خَبَات سِدْرَا الرِّسَالَة فِي صَدْر قُسْتَانَهَا، وَقَالَتْ: «سَافَعْلُ،
سَاجْدُ أَحَدًا قَبْلَ مَغِيبِ الشَّمْسِ أَيْتَهَا الْأَمِيرَة». -
«عَظِيم. غَدَا أَخْبِرْنِي مَاذَا فَعَلْتِ».

لَكِن الْفَتَاة لَمْ تَرْجِعْ فِي الْيَوْمِ الثَّالِي وَلَا الَّذِي تَلَاه، وَلَقَا حَانَ
مَوْعِدُ اسْتِحْمَامِ آرِيَانِ أَتَتْ بَدَلًا مِنْهَا مَوْرَا وَمِيلِي وَمَلَأَتَا حَوْضَهَا
وَوَسَلَتَا ظَهْرَهَا وَمَشَّطَتَا شَعْرَهَا. سَأَلْتَهُمَا الْأَمِيرَة: «هَلْ سِدْرَا
مَرِيضَةٌ؟»، فَلَمْ تُجِيبَا، وَلَمْ يَجُلْ بِخَاطَرِهَا إِلَّا أَنَّهَا ضَبِطَتْ. هَلْ
مِنْ تَفْسِيرٍ آخَرَ؟ لَيْلَتَهَا نَامَتْ بِالْكَادِ خَشِيَّةٌ مَا قَدْ يَحْدُثُ.

فِي الصُّبْحِ الثَّالِي عِنْدَمَا جَاءَهَا تَيْمُوثُ بِإِفْطَارِهَا طَلَبَتْ أَنْ
تَرَى رِيكَاسُو بَدَلًا مِنْ أَبِيهَا. وَاضَحَ أَنَّهَا لَا تَسْتَطِيعُ إِجْبَارَ الْأَمِيرِ
دُورَانَ عَلَى رُؤْيَيْتِهَا، لَكِن مُؤَكَّدٌ أَنَّ مَجْرَدَ قَهْرْمَانٍ لَنْ يَتَجَاوَلَ
اسْتِدْعَاءَ وَرِثَةِ (صَنْسِيرِ) الشَّرْعِيَّةِ.

لَكِنَّهُ فَعَلَ، وَحِينَ رَأَتْ تَيْمُوثَ الْمَرْءَ الثَّالِيَةَ سَأَلَتْهُ: «هَلْ
أَخْبَرْتَ رِيكَاسُو بِمَا قُلْتَهُ؟ هَلْ أَخْبَرْتَهُ بِأَنِّي أُحْتَاجُ إِلَيْهِ؟»، فَلَقَا
لَمْ يُجِيبَا الرَّجُلَ اخْتَطَطَتْ آرِيَانُ بِرَيْقِ الثَّبِيدِ وَسَكَبَتْهُ عَلَى رَأْسِهِ،
وَتَرَاوَجَعَ الْخَادِمُ مَغْمُورًا بِالْأَحْمَرِ وَوَجْهَهُ قَنَاعٌ مِنَ الْكِرَامَةِ
الْجَرِيحَةِ. أَبِي يَنْوِي أَنْ يَتَزَكَّنِي هُنَا أَتَعَفَّنْ، أَوْ أَنَّهُ يُخَطِّطُ
لِتَزْوِيجِي بِعَجُوزٍ أَحْمَقٍ مَقَرَّرٌ وَسَيَتَزَكَّنِي حَبِيسَةً حَتَّى الْإِضْجَاعِ.
تَرَعَّرَعَتْ آرِيَانُ مَارْتِلَ مَتَوَقَّعَةٍ أَنَّهَا ذَاتَ يَوْمٍ سَتَتَزَوَّجُ وَاحِدًا
مِنْ كِبَارِ اللُّوردَاتِ مِنْ اخْتِيَارِ أَبِيهَا، وَتَعَلَّمَتْ أَنَّ لِهَذَا تَحْيَا
الْأَمِيرَاتِ... وَلَوْ أَنَّ أَحَدًا لَا يُنْكِرُ أَنَّ عَقْمَهَا أَوْبَرِينَ كَانَتْ لَهُ وَجْهَةٌ
نَظَرٌ مُخْتَلَفَةٌ، إِذْ قَالَ الْأَفْعَوَانُ الْأَحْمَرُ لِبَنَاتِهِ: «إِذَا أَرَدْتِ الزَّوْاجَ
فَتَزَوَّجِي، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فَيَلْنِ الْفَتَاةَ حَيْثُ تَجِدْنَهَا، فَلَيْسَ مِنْهَا فِي
هَذَا الْعَالَمِ إِلَّا الْقَلِيلُ. لَكِن أَوْصِيكِ بِخَسَنِ الْاِخْتِيَارِ. إِذَا وَجَدْتِ
إِحْدَاكُنْ نَفْسَهَا مَعَ أَحْمَقٍ أَوْ غَاصِبٍ فَلَا أَرِيدُهَا أَنْ تَتَطَّلَعَ إِلَيَّ
لَاخْلِصَهَا مِنْهُ. لَقَدْ أُعْطِيَتِكَنِ الْأَدَوَاتُ الَّتِي تُتِيحُ لَكِن أَنْ تَفْعَلْنَ
هَذَا بِأَنْفُسِكُنَّ».

على أن الحرّية التي سمح بها الأمير أوبرين لتغلاته لم يكن فيها نصيب لوريعة الأمير دوران الشرعيّة. يجب أن تتزوّج آريان، وقد قبلت هذا. كانت تعلم أن دراي يُريدها، وكذا أخوه ديزيل فارس (غابة اللّيمون)، وديمون ساند أقدم على طلب يدها بالفعل، إلّا أن ديمون نفل، والأمير دوران لم يُردها أن تتزوّج دورنيا.

وقبلت آريان هذا أيضًا. في أحد الأعوام جاء أخو الملك روبرت لزيارتهم وبذلت كلّ ما في وسعها لإغرائه، لكنها كانت فتاة صغيرة وبدا أن محاولاتها مع اللورد رنلي أثّرت حيرته أكثر من إلهاب رغبته. لاحقًا، حين طلب هوستر ثلي أن تذهب إلى (ريقرزن) وتلتقي وريعه، أشعلت شمعة لـ(العذراء) شكرًا، لكن الأمير دوران رفض الدّعوة. كانت الأميرة لتضع ويلاس تايرل نفسه في الاعتبار على الرغم من ساقه الكسيحة، لكن أباهما أن يُرسلها إلى (هايجاردن) لتلتقيه، فحاولت الذهاب رغمًا عنه بمساعدة تايين... إلّا أن الأمير أوبرين قبضَ عليهما في (قايث) وأعادتهما، وفي العام نفسه حاول الأمير دوران أن يخطبها لبن بيزبوري، وهو لورد بسيط في الثّمانين من العمر على الأقل، أعمى وسقطت أسنانه.

ثوْفِي بيزبوري بَعْدَ بَضْعَةِ أَعْوَامٍ، وَوَأَسَاها هَذَا بَعْضُ الشَّيْءِ
فِي مَحْنَتِهَا الْحَالِيَّةِ، فَلَا يُمكن إجبارها على الرُّواجِ بِهِ ما دَامَ قَدْ
مَاتَ... كما أَنَّ سَيِّدَ (المعبر) تَزَوَّجَ مَجْذَذاً، وَلِذا فَهِيَ آمِنَةٌ مِنْهُ
أَيْضاً. لَكِنْ إِلْدَنُ إِسْتَرْمُونْتِ ما زالَ حَيًّا أَعْزَبَ، وَكَذلكَ اللُّوردُ
رُوزِي وَاللُّوردُ جِرَانْدِيسُون. يُدْعَى جِرَانْدِيسُونُ بَنِي اللُّحْيَةِ
الشَّائِبَةِ، لَكِنْ حِينَ التَّقَتِهُ كَانَتْ لَحِيَّتُهُ قَدْ صَارَتْ ناصِعَةً البَيَاضِ،
وَفِي مَادِبَةِ الاسْتِقْبَالِ غابَ فِي الثُّومِ بَيْنَ طَبَقِي السَّمَكِ وَاللَّحْمِ.
تَحْذَاهَا جَارِينُ أَنَّ تَرْبِطَ عُقْدَةٍ فِي لَحِيَّتِهِ دُونَ أَنَّ ثَوَّقَظَهُ لَكِنْ
أَرِيانُ امْتَنَعَتْ، إِذْ بَدَأَ جِرَانْدِيسُونُ رَجُلًا طَيِّبًا، أَقَلَّ شَكْوَى مِنْ
إِسْتَرْمُونْتِ وَأَفْضَلَ صَحَّةً مِنْ رُوزِي، غَيْرَ أَنَّها ما كَانَتْ لَتَتَزَوَّجَهُ
أَبْداً. حَتَّى لو وَقَفَ هُوتَا وَرائِي بِفَأْسِهِ.

لَمْ يَأْتِ أَحَدٌ يَتَزَوَّجُها فِي اليَوْمِ الثَّالِي أَوْ الثَّالِي، وَلَا عَادَتْ
سِدْرا. حَاوَلْتُ أَرِيانَ الطُّفْرَ بِمُورًا وَمِيلِي بِالطَّرِيقَةِ نَفْسِها وَلَكِنْ
بِلا طائِلٍ. رِيما هُناكَ أَمَلٌ إِذا اسْتَطَاعَتْ أَنَّ تَتَكَلَّمَ مَعَ إِحْداهِما
بِمُفْرَدِها، لَكِنْ الْأَخْتَيْنِ مَعًا جِدَارٌ مَصْمُوتٌ.

وَالآنَ تَكَادُ الْأَمِيرَةُ تُرْخَبُ بِلَمْسَةِ مِنَ الْحَدِيدِ الشَّاخِنِ أَوْ لَيْلَةٍ
عَلَى الْمِخْلَعَةِ، فَالوَحْدَةُ عَلَى وَشَكِّ إِصَابَتِها بِالْجَنُونِ. أَسْتَحْقُ
فَأْسَ الْجَلَادِ لَمَّا اقْتَرَفْتُ، لَكِنْ حَتَّى هَذَا يَأْبَاهُ عَلَيَّ، وَيُؤَثِّرُ أَنَّ
يَسْجُنَنِي وَيَنْسَى أَنَّنِي كَانْتُ لِي وَجُودٌ يَوْمًا. تَسَاءَلْتُ إِنْ كَانَ
الْمَايسْتَرُ كَالِيُوتِ يَخْطُبُ بَيانًا بِتَسْمِيَةِ أَخِيها كُويِنْتِنِ وَرِيثِ
(دُورن).

واحدًا تلو الآخر مرّت الأيام، أيام طويلة كثيرة لدرجة أن آريان لم تغد تدري منذ متى وهي حبيسة، ووجدت نفسها تقضي أوقاتًا أطول وأطول في الفراش، إلى أن بلغت حدّ عدم القيام منه على الإطلاق إلّا لقضاء حاجتها. كلّ وجبة يجلبها الخدم لا تُقش حتى تبزّد، وتنام آريان وتصحو وتنام ثانية وتصحو شاعرةً بإرهاقٍ يحول دونها والثھوض. تُصلي (الأم) طالبةً الرّحمة ولـ(المحارب) طالبةً الشّجاعة، ثم تعود إلى النّوم. تحلّ وجبات طازجة محلّ القديمة ولا تزال لا تأكلها، وفي مرّة أحسّت فيها بالقوّة على غير العادة حملت الطّعام إلى النّافذة ورمته في السّاحة كي لا يُغريها بأكله، فأرهبها المجهود وعادت إلى الفراش ونامت نصف يوم كاملًا.

ثم أتى يوم وهزّتها يد خشنّة من كفها ثوقظها، وقال صوت تعرفه منذ الطفولة: «أميرتي الضّغيرة، انهضي وارتي ثيابك. الأمير يطلّبك».

كان آريو هوتا صديقها القديم وحاميتها واقفًا فوقها، ويخاطبها! ابتسمت آريان ناعسةً. جميل أن ترى هذا الوجه يتجاعده وندوبه وتسمع الصّوت العميق الغليظ واللّكنة النورقوشية الثّقيلة. سألته: «ماذا فعلتم بسدرا؟».

أجاب هوتا: «الأمير أرسلها إلى (الحدائق المائيّة)، سيخبرك بهذا، لكن أولاً عليك أن تفتسلي وتأكلي».

لا بُدّ أنها تبدو في حالة مزريّة. نهضت آريان من الفراش بضّعف هريرة وليدة، وقالت له: «قلّ لمورا وميلي أن تُجهّزا حقاقًا، واجعل تيموث يجلب لي طعامًا. لا شيء ثقيلًا، القليل من الحساء البارد والخُبز والفاكهة».

قال هوتا: «حاضر»، وفي حياتها لم تسمع آريان صوتًا أعذب.

انتظر القائد في الخارج بينما اغتسلت آريان وشففت شعرها وأكلت قليلاً من الجبنة والفواكه وشربت القليل من النبيذ لثهدئ معدتها. إنني خائفة، للمرة الأولى في حياتي أشعر بالخوف من أبي. أضحكها الخاطر حتى خرج النبيذ من أنفها. لقد حان وقت ارتداء ملابسها اختارت فستاناً من الكتان العاجي على كفيها وصدره زخرفة على شكل فروع كرم وعناقيد عنب أرجوانية، ولم تضع خلياً. يجب أن أكون محتشمة متواضعة مبدية الندم، يجب أن ألقى نفسي على قدميه وإلا فربما لا أسمع صوت إنسان ثانية أبداً.

كان الفسق قد حل عندما استعدت للخروج. حسبت آريان أن هوتا سيقودها إلى (برج الشمس) لتسمع حكم أبيها، لكنه أخذها بدلاً من ذلك إلى غرفة الأمير الشمسية، حيث وجد دوران مارتل جالساً إلى طاولة سايقاس، وقد أراح ساقيه القوسيتين على مسند مزود بوسائد وراح يتلاعب بفيل من الجزع بيديه المحمرتين المتورمتين. بدا الأمير في أسوأ حالٍ رآته عليها، وجهه شاحب منتفخ ومفاصله ملتهبة لدرجة أن مجرّد النظر إليها ألقها. رؤيته هكذا جعلت قلب آريان ينفطر من أجله... وعلى الرغم من هذا لم تستطع أن تبعث نفسها على الزكوع والثوئل كما انتوت، وبدلاً من ذلك قالت: «أبي».

حين رفع رأسه ينظر إليها رأت عينيه ملبدتين بالآلم، فتساءلت آريان في نفسها: هل القوس الشيب أم أنا؟ تتمم واضحاً فيله: «قوم غرباء ماكرون هؤلاء القولانتينيون. لقد زرت (قولانتيس) مرّة في طريقي إلى (نورقوس)، حيث التقيت ميلاريو أول مرّة. كانت الأجراس تدقّ والذبية ترقص على الدرجات. أريو يذكر هذا اليوم».

ردّ أريو هوتا بصوته العميق: «أذكره. رقصت الذبية ودقّت الأجراس، وارتدى الأمير الأحمر والذهبي والبرتقالي، وسألتني سيّدتي عن هويّة هذا الرجل المتألق».

ابتسم الأمير دوران بشحوب، وقال: «اتركنا أيها القائد». دقّ هوتا الأرض بكعب قأسه ودار على عقبيه وانصرف، ولما صار الاثنان وحدهما قال أبوها: «أمرتهم بوضع طاولة سايقاس في غرفتك».

- «ومع من كان يفترض أن لعب؟». لماذا يتكلم عن لعبة؟ هل أفقده الثقرس صوابه؟

- «مع نفسك. أحياناً الأفضل أن تدرسي اللعبة قبل أن تلعبها. ما مدى معرفتك باللعبة يا أريان؟». - «أعرفها بما يكفي لأن ألعبها».

قال: «ولكن ليس بما يكفي لأن تربحي. لقد أحب أخى القتال في حد ذاته، لكني لا أخوض إلا الألعاب التي أستطيع أن أربحها»، وتفرد في وجهها مدة طالت قبل أن يردف: «لماذا؟ أخبريني يا أريان، أخبريني لماذا».

- «من أجل شرف العائلة». أغضبتها نبوة أبيها الحزينة المتخاذلة الضعيفة، وأرادت أن تزعق فيه: أنت أمير! المفترض أن تثور ثورتك! «خنوعك يخزي (دورن) بأسرها يا أبت. أخوك ذهب إلى (كينجز لاندنج) بدلاً منك وقتلوه!».

- «أتظن أنني لا أعرف هذا؟ أوبرين معي كلما أغمضت عيني».

قالت جالسة قبالة أبيها إلى طاولة السايقاس: «يقول لك أن تفتحهما لا شك».

- «لم أسمح لك بالجلوس».

- «استدع هوتا إذن واجعله يجلدني لوقاحتي. أنت أمير (دورن)، تستطيع أن تفعل ذلك»، ومشيت إحدى قطع السايقاس، الحصان الثقيل، وسألته: «هل قبضتم على السير جيرولد؟».

هز رأسه نفياً، وقال: «ليتنا فعلنا. كنت حمقاء عندما جعلته جزءاً من خطتك. النجم المظلم أخطر رجل في (دورن)، وكلاكما أذانا بشدة».

سألته آريان متخوفة من الإجابة: «مارسلا، هل...».

- «... مائت؟ لا، ولو أن النجم المظلم بذل أفضل ما لديه ليقتلها. الأعين كلها كانت على فارسك الأبيض، ولذا فلا أحد متأكد مما حدث بالضبط، لكن يبدو أن حصانها جفل من حصانه في اللحظة الأخيرة، وإلا لكان قد قطع قمة رأس الفتاة. الضربة التي أصابتها شقت خذها حتى العظم وبتزت أذنها اليمنى. استطاع المايستر كاليوت إنقاذ حياتها، لكن لا كقادة أو شربة من شأنها علاج وجهها. كانت ريبتي يا آريان، مخطوبة لأخيك وتحت حمايتي. لقد لظخت شرفنا جميعا».

قالت آريان بإصرار: «لم تكن نيتي أن يمشها أذى. لو لم يتدخل هوتا...».

- «... لكنك قد توجت مارسلا ملكة لبدء تمرد ضد أخيها، وكانت لتفقد حياتها بدلاً من أذنها».

- «فقط إذا خسرنا».

- «إذا؟ تعنين عندما. (دورن) أقل بلد مأهول بالسكان في (الممالك السبع). لقد سرّ التئين الصغير أن يهول أعدادنا حين ألف كتابه ليضيف على غزوته مزيداً من المجد، وسرنا أن نروي البذرة التي زرغها وندع أعداءنا يتصوّرون أننا أقوى مما نحن في الواقع، لكن الحري بالأميرة أن تعرف الحقيقة. الشجاعة بديل رديء للأعداد، ولا أمل لـ (دورن) في الانتصار في حرب ضد العرش الحديدي وحدها، ومع ذلك ربما يكون هذا ما أوصلتنا إليه بالفعل. أئشغرين بالفخر؟»، ولم يعطها الأمير فرصة للإجابة إذ سأل: «ماذا أفعل بك يا آريان؟».

أراد جزء منها أن يقول: سامحني، لكن كلامه أصابها بجرح غائر، فقالت: «ما تفعله دانقا، لا شيء».

- «إنك تُصعّبين عليّ ابتلاع غضبي».

ردّت: «الأفضل أن تكفّ عن الابتلاع إذن وإلا اختنقت به».

ولمّا لم يردّ الأمير قالت: «أخبرني كيف علمت بخطتي».

- «أنا أمير (دورن)، الناس يسعون إلى حظوتي». /
أحدهم وشى. «كنت تعلم ومع ذلك تركتنا نرحل بمارسلا،
فلم؟».

- «كانت هذه غلطتي، وثبت أنها غلطة فادحة. أنت ابنتي يا
أريان، الفتاة الصغيرة التي اعتادت أن تهرع إلي إذا جرحت
رُكبته. وجدتُ تصديق تأمرِك ضدي صعباً، وكان يجب أن أعرف
الحقيقة».

- «والآن تعرفها. أريدُ أن أعرف مَنْ أبلغَ عني».

- «كنتُ لأريد المثل لو أنني في مكانك».

- «هل ستُخبرني؟».

- «لا أستطيعُ التفكير في سبب يدفعني إلى ذلك».

- «أتحسب أنني لا أقدر على اكتشاف الحقيقة وحدي؟».

قال الأمير دوران: «لك أن تُحاولي، ولكن حتى ذلك الحين
عليك ألا تتقي بأحد منهم... والقليل من الزينة شيء مفيد
للأميرات»، وزفر مضيئاً: «خُيبتُ أُملي يا أريان».

- «هكذا يقول الغراب للغُداف. إنك تُخيب أُملي منذ سنوات
يا أبي». لم تكن تقصد أن تُخاطبه بهذه الفظاظَة، لكن الكلام
انسكب منها رغماً عنها. ها قد قلتها.

- «أعرف. أنا شديد الخُنع والضعف والحرص، متساهل
للغاية مع أعدائنا. على أنك في حاجة إلى شيء من هذا
التساهل تحديداً كما يبدو لي. الأحرى بك أن تتوشلي مغفرتي
بدلاً من محاولة استفزازي أكثر».

- «لا أطلبُ التساهل إلا مع أصدقائي».

- «يا لئيلك».

- «ما فعلوه كان بدافع محبتهم لي، ولا يستحقُّون الموت في
(جاستون جراي)».

- «يتصاذف أنني أوافقك. باستثناء النجم المظلم لم يكن رفاقك في المؤامرة أكثر من أطفال حمقى، لكنها لم تكن مجرد مباراة سايقاس غير مؤذية. أنت وأصدقائك ارتكبتم خيانة. كان بإمكانني أن أضرب أعناقهم».

- «كان بإمكانك لكنك لم تفعل. داین ودالت وسانتاجار... لا، لست تجرؤ على معاداة تلك العائلات».

- «ما أجرؤ عليه لا تتخيلينه... لكن دعك من هذا حالًا. السير أندراي أرسل إلى (نورقوس) ليخدم السيدة والدتك ثلاثة أعوام. جارین سيقضي العامین التاليين في (تايروش)، وأخذت مالا ورهائن من أهله الأيتام. الليدي سيلقا لم تتلق عقابا مني، لكنها في سن الزواج، وأرسلها أبوها إلى (الحجر الأخضر) لتتزوج اللورد إسترمونت. وبالنسبة إلى آريس أوكهارت فقد اختار مصيره ولاقاه بشجاعة. فارس في الخرس الملكي... ماذا فعلت معه؟!».

- «ضاجعته يا أبي. أنت أمرتني بتسليّة ضيوفنا الكرام على ما أذكر».

احتقن وجهه، وسألها: «أهذا كل ما تطلبه الأمر؟».

- «قلت له إن مارسلا ستسمح لنا بالزواج فور تتويجها. لقد أرادني زوجة له».

قال أبوها: «إنني واثق بأنك تفانيت في منعه من الحنث في يمينه».

هذه المرة احتقن وجهها هي. لقد استغرق إغراؤها السير أريس نصف عام، وعلى الرغم من ادعائه أنه عرف نساء أخريات قبل انخراطه في الخرس الملكي فالطريقة التي تصرف بها لم تنم عن هذا إطلاقًا. لمساته كانت خرقاء، وقبلاته متوترة، وأول مرة في الفراش معًا أفرغ لذته على فخذاها بينما تقوده إلى داخلها بيدها. الأسوأ أن الخزي التهمه التهامًا، ولو نالت تنيًا ذهبيًا كل مرة همس فيها: «لا يجذر بنا أن نفعل هذا»، لصارت أثرى من آل لانستر. هل انقض على أريو هوتا أملا في إنقاذي أم فعلها للفرار مني وغسل عاره بدمائه؟ سمعت نفسها تقول: «لقد أحبني ومات من أجلي».

- «إذا كان هذا صحيحًا فربما يكون أول كثيرين. أنت وبنات عمك أردتن الحرب، وقد تنلن رغبتكن. ثقة فارس آخر في الخرس الملكي يدنو من (صنسيين) بينما نتكلم. السير بالون سوان قادم إلي برأس الجبل. حقة رايتي يُعطلونه ليكسبوا لي بعض الوقت. آل وايل جعلوه يقضي ثمانية أيام في الصيد والقنص على (طريق العظام)، واللورد يرونوود احتفى به أسبوعين كاملين حين خرج من الجبال. في الوقت الزاهن هو في (الزبوة)، حيث رثبت الليدي چورداين مباريات على شرفه، ولقا يصل إلى (ثل الأشباح) سيجد الليدي تولاند عازمة على الثفوق عليها. لكن عاجلاً أو آجلاً سيبلغ السير بالون (صنسيين)، وحين يفعل سيتوقع أن يرى الأميرة مارسلا... والسير أريس أخاه المحلف. ماذا نقول له يا أريان؟ هل أخبره بأن أوكهارت مات في حادثة صيد أم سقط على سلالم زلقة؟ ربما كان السير أريس في (الحدائق المائية) وانزلق على الزخام وصدم رأسه وغرق؟».

قالت آريان: «لا. قُل إنه مات مدافعًا عن أميرته الصغيرة، قُل للسير بالون إن النجم المظلم حاول أن يَقْتُلها فاعترض السير أريس طريقه وأنقذَ حياتها». هكذا ينبغي أن يموت فُرسان الحرس الملكي، تضحيةً بحياتهم في سبيل من أقسموا على حمايتهم. «ربما يشكُّ السير بالون كما شككت أنت حين قتل آل لانستر أختك وطفليها، لكنه لن يجد دليلًا...».

- «... حتى يتكلم مع مارسلا، أم أن على الطفلة الشجاعة أن تتعرض لحادثة مأساوية أيضًا؟ معنى ذلك الحرب. لا كذبة سننقذ (دورن) من غضبة الملكة إذا ماتت ابنتها وهي في عنايتي».

قالت آريان لنفسها وقد أدركت الموقف: إنه محتاج إليّ. لهذا أرسل يستدعيني.

- «يمكنني أن أُملي على مارسلا ما تقوله، ولكن لم أفعل ذلك؟».

تموَّج الغضب على وجه أبيها إذ قال: «إنني أحذرك يا آريان، لقد نفذ صبري».

- «علي؟». ليست هذه عادته. «مع اللورد تايوين وآل لانستر تعاقبت بحلم بيلور المبارك، أمًا مع دمك فلا».

- «إنك تخلطين بين الضبر والحلم. لقد عملت على إسقاط تايوين لانستر منذ يوم أخبروني بما جرى لإليا وطفليها. كان أُملي أن أجُرده من كل نفيس لديه قبل أن أقتله، لكن يبدو أن ابنه القزم سلبني تلك المسرة، ولو أنني أجذ قليلًا من العزاء في حقيقة أنه مات ميتةً قاسيةً على يدي الوحش الذي أنجبه من ضلبيه. على كلِّ حال، اللورد تايوين يعوي في الجحيم... وآلاف سيلحقون به قريبًا إذا استحال حماقتك إلى حرب»، وكثر أبوها كأن مجرَّد نطق الكلمة يُوجعه، وسألها: «أهذا ما تريدن؟».

قالت الأميرة رافضةً أن يُرهبها: «أريد إطلاق سراح بنات عمي، أريد الثأر لأبيهم، أريد حقوقي».

- «حقوقك؟!».

- «(دورن)».

- «ستحصلين على (دورن) عندما أموت. أنت متشوقة لهذه الدرجة للخلاص مني؟».

- «عليّ أن أسألك السؤال ذاته يا أبت. أنت من يحاول الخلاص مني منذ أعوام».

- «غير صحيح».

- «حقًا؟ هلأ سألنا أخي؟».

- «تريستان؟».

- «كوينتن!».

- «ماذا عنه؟».

- «أين هو؟».

- «مع جيش اللورد يرونوود على (طريق العظام)».

- «أنت ثجيد الكذب يا أبي، أعترف بهذا. لم يرف لك جفن حتى. كوينتن ذهب إلى (ليس)».

- «ما الذي وضع هذه الفكرة في رأسك؟».

- «صديق أخبرني». هي أيضًا تستطيع الاحتفاظ بأسرارها.

- «صديقك كذب. لك كلمتي، أخوك لم يذهب إلى (ليس)،

أقسم بالشمس والحربة والآلهة الشبعة».

لكن أريان لا تنخدع بهذه البساطة، وهكذا قالت: «هل ذهب إلى (مير) إذن؟ أو (تايروش)؟ أعلم أنه في مكان ما وراء (البحر الضيق)، يستأجر المرتزقة لسرقة حقي الشرعي».

أريد وجه أبوها، وقال: «هذا الارتياب لا يُشرفك يا أريان. المفترض أن يكون كوينتن هو من يتأمر ضدي. لقد صرفته من البلاط وهو مجرد طفل أصغر من أن يفهم احتياجات (دورن). أندرز يرونوود كان أبًا له أكثر مني، ومع ذلك يظل أخوك وفيًا مطيعًا».

- «ولم لا؟ إنك تفضله ولطالما فعلت. إنه يشبهك ويُفكر مثلك، وتنوي أن تُعطيه (دورن). لا تُحاول الإنكار، لقد قرأت رسالتك». ما زالت الكلمات مشتعلة كالنار في ذاكرتها. «كتبت له: ذات يوم ستجلس حيث أجلس وتُحكّم (دورن) كلَّها. أخبرني يا أبي، متى قرّرت أن تحرمي ميراثي؟ يوم وُلِدَ كوينتن أم يوم وُلِدْتُ؟ ماذا فعلت لأجعلك تكرهني هكذا؟».

على الرغم من غضبها كانت في عيني أريان دموع. قال الأمير بصوت رقيق للغاية محمّل بالأسى: «لم أكرهك قط. أريان، أنت لا تفهمين».

- «هل تُنكر أنك كتبت تلك الرسالة؟».

- «لا. كان هذا في بداية ذهاب كوينتن إلى (يرونوود). نعم، كانت نيتي أن يخلفني، أمّا أنت فكانت لديّ خطط أخرى لك».

قالت ساخرة: «أوه، نعم، ويا لها من خطط. جايلز روزبي، بن بيزبوري الأعمى، جرانديسون ذو اللحية الشائبة. هذه هي خططك!»، ولم تُعطه فرصة للردّ إذ واصلت: «أعرف أن واجبي أن أنجب وريثًا لـ (دورن) ولم أنتس هذا البُتّة. كنت لا تزوّج وبكل سرور، لكن الزيجات التي عرضتها عليّ كانت مهينة. كل واحدة منها بمثابة بصفة. إذا أحببتني حقًا فلم تعرضني على والدر قراي؟!».

- «لأنني علمت أنك ستُرفّضينه. كان يجب أن يراني الناس أحاول أن أجد لك زوجًا حالما بلغت سنًا معينة خشية إثارة الشكوك، لكنني لم أجروا على أن أعرض عليك رجلًا تقبلينه. لقد كنت موعودةً يا أريان».

موعودة؟ حدّقت إليه آريان مندهشةً، وقالت: «ماذا تعني؟
أهذه كذبة أخرى؟ لم تذكّر قط...».

- «الاتفاق أبرم سرًا. كنت أنوي أن أخبرك حين تكبرين...
حين تبلغين، ولكن...».

- «أنا في الثالثة والعشرين، امرأة بالغة منذ سبع سنوات».

- «أعرف. إذا حجبث عنك الحقيقة طويلاً فالسبب كان
حمایتك فقط. آريان، إن طبيعتك... بالنسبة إليك الأسرار مجرد
حكايات مثيرة تهمسين بها لجارين وتايين في الفراش ليلاً.
جارين ثرثار ككلّ الأيتام، وتايين لا تخفي شيئاً عن أوبارا
والليدي نيم، وإذا علقتا... أوبارا مغرمة بالتبّيد، ونيم قريبة
للفاية من الثوأمين فاوّلر، ولقن كان الثوأمين ليبوحا بالسر؟ لم
أستطع أن أجازف».

شعرت بالحيرة والارتباك. موعودة، كنت موعودة. «من هو؟
لكن كنت مخطوبة طيلة هذه الأعوام؟».

- «لا يهم، لقد مات».

ضاعف هذا حيرتها مرارًا، وقالت: «المسئون ضعفاء للفاية.
كيف مات؟ بورك مكسور أم البرد أم القرس؟».

أجاب الأمير دوران: «بقدر من الذهب المصهور. نحن الأمراء
نرسم خططنا بعناية ثم نحطّمها الآلهة»، ولوّح بيده المحمّرة
الملتّهية بتعب مردفًا: «(دورن) ستكون لك، إنني أعطيك كلمتي
إذا كان ما زال لها معنى عندك، أمّا أخوك كوينتن فعليه أن
يسلك دريًا أصعب».

رمقته آريان بشكّ قائلة: «وما هذا الطريق؟ ما الذي تخفيه؟
لينيّذني (الشبعة)، لقد ضقت ذرعا بالأسرار. أخبرني بالبقية يا
أبي... أو سمّ كوينتن وريثك واستدع هوتا وفأسه ودعني
أموت إلى جوار بنات عمي».

رَدَّ أبوها عابثًا: «هل تعتقدين حقًا أنني أستطيع إيذاء بنات أخي؟ أوبارا ونيم وتايين لا يعوزهن شيء إلا الحرّية، وإلاريا وبناتها مقيمات بسعادة في (الحدائق المائية). دوريا تمشي هنا وهناك مسقطّة البرتقال من الأشجار بكرتها الشائكة، وإليا وأوبلا أصبحتا رُعب المسابح»، وتنهد ثم واصل: «لم يمض زمن طويل منذ كنت تلعبين في تلك المسابح. اعتدت أن تركبي على كتفي فتاة أكبر سنًا... فتاة طويلة لها شعر أصفر خفيف...».

- «چاين فاوُلر، أو أختها چينيلين». مرّت أعوام منذ فكّرت أريان في هذا. «أوه، وفرايني. كان أبوها حدّادًا وشعرها بنيًا. لكن جارين كان رفيقي المفضّل. لا أحد استطاع هزيمتنا وأنا راكبة على كتفيه، حتى نيم وتلك الفتاة التايروشيّة ذات الشعر الأخضر».

- «تلك الفتاة التايروشيّة ذات الشعر الأخضر كانت ابنة الأركون. كان يُفترض أن أرسلك إلى (تايروش) بدلًا منها لتخدمي الأركون كساقية وتلتقي خطيبك سرًّا، لكن أمك هذّبتني بإيذاء نفسها إذا سرقت أحدًا آخر من أطفالها، ولم... لم أقو على أن أفعل ذلك بها».

حكايته تزداد غرابة. «هل ذهب كوينتن إلى (تايروش) إذن؟ ليتوّد إلى ابنة الأركون خضراء الشعر؟».

التقط أبوها إحدى قطع السايقاس قائلاً: «يجب أن أعرف كيف عرفت بوجود كوينتن خارج البلاد. أخوك ذهب مع كليتوس يرونوود والمايستر كدري وثلاثة من أفضل فرسان اللورد يرونوود الشبان في رحلة طويلة محفوفة بالمخاطر ربما لا يجد في نهايتها ترحيبًا. لقد ذهب لي جلب لنا بغية قلوبنا».

ضيقت عينيها متسائلة: «وما بغية قلوبنا؟».

بصوت خافت كأنه يخشى أن أحدًا يتنصّت عليهما أجاب: «الثّار، العدالة»، ودش الأمير دوران الثّين المنحوت من الجُرع في كفّها بيده الملتهبة، وأضاف: «الثّار والذّم».

إليني

دوّرت الحلقة الحديدية ودفعت الباب صانعة فرجة صغيرة
لا أكثر، وقالت: «غصفوري الجميل، هل تسمح لي بالدخول؟»
أجابتها جرتشل العجوز وهي تفرّك يديها: «احذري يا سيّدتى،
حضرة اللورد ألقى المايستر بوعاء الفضلات».
- «ليس هناك ما يلقيني به إذن. أليس عندك عمل؟ وأنت يا
مادى، هل أغلقت الثوابذ وأسدت الستائر؟ هل غطيت الأثاث
كله؟».

ردّت مادى: «نعم يا سيّدتى».
قالت إليني: «الأفضل أن تتأكّدي»، ودخلت غرفة النوم
المظلمة مردفة: «هذه أنا يا غصفوري الجميل».
تنشق أحدهم في الظلام، وسألها: «أأنت وحدك؟».
- «نعم يا سيّدى».
- «اقتربي إذن، أنت فقط».

أغلقت إليني الباب بإحكام. فلتتنصّت مادى وجرتشل كما
ثريدان، لكن الباب من خشب الشنديان المصمت وشمكه أربع
بوصات، ولن تسمعاً شيئاً. لا بأس، فلئن كانت جرتشل تصون
لسانها فمادى تنشر النميمة بلا حياء.

سألها الضبي: «هل أرسلك المايستر كولمون؟».
أجابّت كاذبة: «لا، سمعت أن سيّدى متوغّك». بعد حادثة
وعاء الفضلات هرع المايستر إلى السير لوثور برون، ثم جاءها
الفارس قائلاً: «إذا أقنعت سيّدتى بالقيام من الفراش فلن أضطرّ
إلى جرّه منه عنوة».

قالت لنفسها: لا يمكننا أن نسمح بهذا. حين يُعامل روبرت بخشونة فغالبا ما تُصيبه نوبة الرّجفة. سألت اللورد الصّغير: «أنت جائع يا سيّدي؟ هل أرسل مادي تُحضّر توتّا وقشدة أو القليل من الخبز الدافئ والزّبدة؟». متأخّرا جدّا تذكرت أن لا خبز دافئا عندهم، فالمطابخ أغلقت بالفعل والأقران باردة. إذا أذى إشعال قُرن إلى نهوض روبرت من الفراش فالأمر يستحقّ. قال اللورد الصّغير بنبرة مشاكسة حادة: «لا أريد طعاما. سأبقى في الفراش اليوم. يمكنك أن تقرأي لي إذا أردت». بسبب الستائر الثقيلة المسدلة على النّوافذ كانت الغرفة مظلمة كأنه اللّيل، فقالت إليني: «الظلام شديد هنا، لا يصلح للقراءة. هل نسي غصفوري الجميل ما سنفعله اليوم؟». - «لا، لكنني لن أذهب. أريد أن أبقى في الفراش. أقرأي لي عن الفارس المجنّح».

الفارس المجنّح هو السير آرئيس آرن، وتقول الأسطورة إنه طرد البشر الأوائل من (الوادي) وطار إلى قمّة (زُمح العملاق) على متن صقر ضخم ليقتل ملك الجرافن. هناك منة قضية عن مغامراته، وروبرت الصّغير يحفظها كلّها عن ظهر قلب ويستطيع حكايتها بحذاقيرها من الذاكرة، لكنه يحب أن تُقرأ له رغم ذلك. قالت إليني للّصبي: «يجب أن نذهب يا عزيزي، لكني أعدك بأن أقرأ لك حكايتين عن الفارس المجنّح عندما نصل إلى (بوّابات القمر)».

رَدّ من فوره: «ثلاث حكايات». مهما عرضت عليه يرغب روبرت دومّا في المزيد.

- «ثلاث حكايات. هل لي أن أدع الشّمس تُدخّل؟».

- «لا، الضّوء يؤلّم عيني. تعالي إلى الفراش يا إليني».

لكنها ذهبت إلى النّافذة رغم ذلك، دائرة حول وعاء الفضلات المحظّم الذي تشمّه أفضل مما تراه، وقالت: «لن أفتحها عن آخرها، فقط بما يكفي لرؤية وجه غصفوري الجميل».

قال متنشّقا: «ليكن».

الشتائر من القطيفة الزرقاء، وقد أزاخت إحداها مسافة لا تريبو على طول إصبع وربطتها، لتسبح ذرات الثراب في عمود من ضوء الشمس، وتلوح ألواح زجاج الثافذة الصغيرة ذات الشكل الماسي المكتسية بالضيق. مسحت إليني إحداها بكعب يدها بما يكفي لرؤية ورقة السماء الصافية ونصوع الأبيض على جانب الجبل. (الغش) متدثرة بمعطف من الجليد، وقمة (زمح العملاق) بالأعلى مدفونة بالثلوج الكثيفة.

حين التفثت كان روبرت آرن جالسا مسندا ظهره إلى الوسائد وينظر إليها. سيد (الغش) وحامي (الوادي). تحت الخصر يغطيه دثار من الضوف، وفوقه لا يرتدي شيئا، صبي شاحب شعره طويل كالفتيات. لروبرت ذراعان وساقان طويلة نحيلة وصدر لئن مقعر وبطن صغير وعينان محمّرتان دامعتان دوما. لا حيلة له في هذا. لقد وُلِدَ صغيرا سقيما. «تبدو قويا للغاية هذا الصباح يا سيدي». يحب الضبي أن يُقال له كم هو قوي. «هل أجعل مادي وجرتشل تحضران ماء ساخنا للاستحمام؟ ستدعك مادي ظهرك وتغسل شعرك لتذهب في رحلتك بمظهر نظيف يليق بك كلورد. أن يكون هذا لطيفا؟».

- «لا. أنا أكره مادي. إن لها ثُلولة على عينها وتدعكني بشدة تؤلمني. مامي لم تؤلمني بينما تُحَمّمني قَطْ».

- «سأقول لمادي ألا تدعك غصفوري الجميل بشدة. عندما تستحم وتنتعش ستتحسن».

- «قلّك لا حقام. رأسي يؤلمني للغاية».

- «هل أحضر لك قماشة دافئة تضعها على جبهتك؟ أو كوبا من نبيذ الثوم؟ القليل فقط. ميا ستون تنتظرنا في (سماء) وستستاء إذا يمت وتركتها منتظرة. أنت تعلم كم تحبّك».

رد روبرت: «أنا لا أحبها. إنها فتاة البغال لا أكثر»، وتنشق متابعًا: «المايستر كولمون وضع شيئًا كريهاً في حليبي ليلة أمس، لقد تذوّقته. قلتُ له إنني أريد الحليب الخلو لكنه رفض، حتى عندما أمرته! أنا اللورد، وعليه أن يفعل ما أقوله له. لا أحد يفعل كما أقول».

- «سأتكلّم معه، لكن فقط إذا نهضت من الفراش. الطقس جميل في الخارج يا غصفوري الجميل والشمس ساطعة، يوم مثالي لنزول الجبل. البغال منتظرة في (سماء) مع ميا...». ارتعش فمه وبدا كأنه سيجهش بالبكاء إذ قال: «أكره تلك البغال ورائحتها الكريهة. في مرّة حاول واحد أن يعضّني! قلبي لميا تلك إنني سأبقى هنا. لا أحد يستطيع أن يؤذيني ما دمْتُ هنا. (الغش) منيعة!».

- «ومن قد يرغب في إيذاء غصفوري الجميل؟ لورداتك وفُرسائك يهيّمون بك والعامة يهتفون باسمك». إنه خائف، وله حق. منذ سقطت السيّدة والدته والضّبي معرّض عن مجرّد الوقوف في الشّرفة، وخطورة الطريق من (الغش) إلى (بؤابات القم) كفيلة بإرهاب أيّ أحد. كان قلب إليني بين قدميها حين صعدت مع الليدي لايسا واللورد پيتر، والجميع مثفقون على أن الثّزول أكثر إزعاجًا لأنك تنظر إلى أسفل طيلة الوقت، وميا تحكي عن لوردات عظام وفُرسان شجعان امتقّعت وجوههم وبلّوا أنفسهم على الجبل. ولا أحد منهم كان مبتلى بداء الرّجفة.

على أن الثَّلَكُؤْ لن ينفع. على أرض الوادي ما زال الخريف
لابثًا، لكن الشتاء أطبق على قمم الجبل، وقد نجوا بالفعل من
ثلاث عواصف ثلجية وعاصفة أخرى جليدية أحالت القلعة إلى
بلور منذ أسبوعين. ربما تكون (الغش) منيعة، لكنها ستصبح
مسدودة أيضًا عمًا قريب، والطريق إلى أسفل يزداد خطورة كل
يوم. أكثر خدم القلعة وجنودها غادروا بالفعل، ولم يتبق هنا
بالأعلى إلا دسته منهم للعناية باللورد روبرت.

قالت برفق: «غصفوري الجميل، الثُزول سيكون ساژًا للغاية،
سترى. السير لوثور سيكون معنا، وميا أيضًا. بغالها صعدت
ونزلت هذا الجبل ألف مرة».

رَدَّ بإصرار: «أكرة البغال، إنها بغیضة. قلث لك إن واحدًا
حاول أن يعصني وأنا صغير».

تعلم إليني أن روبرت لم يتعلم الزكوب كما ينبغي. البغال أو
الخيول أو الحمير، لا فرق، كلها عنده وحوش مخيفة لا تختلف
عن الثنائين أو الجرافن. لقد جيء به إلى (الوادي) لَمَّا كان في
السَّادسة، وقد ركب موشدا رأسه بين تديي أمه المليئين باللبن،
ومنذ ذلك الحين لم يبرح (الغش) مرة.

لكن عليهم أن يذهبوا قبل أن يُغلق الجليد القلعة تمامًا، فلا
أحد يدري إلى متى سيستمز الطقس الضحو. قالت إليني: «ميا
ستمع البغال من الغض، وسأكون راكبة وراءك مباشرة. إنني
مجرد فتاة، لسث شجاعة أو قويَّة مثلك. إذا كان باستطاعتي
أن أفعلها فمؤكد أنك تستطيع أيضًا يا غصفوري الجميل».

قال اللورد روبرت: «أستطيع أن أفعلها، لكنني أختار ألا
أفعل»، ومسح أنفه السائل بظهر يده مواصلًا: «قولي لميا إنني
سأبقى في الفراش. ربما أنزل غدا إذا شعرث بتحشن. اليوم بارد
للفاية في الخارج ورأسي يؤلمني. يمكنك أن تشربي الحليب
الخلو أيضًا، وسأقول لجرتشل أن تُحضِر لنا قُرص عسل. سننام
ونتبادل القبلات ونلعب، وستقرأين لي عن الفارس المجنح»

- «سافعل، ثلاث حكايات كما وعدت... حين تَبْلُغ (بِوَأَبَات القم)». يكاد صبر إليني ينفد، وقالت لنفسها مذكّرة: يجب أن نذهب وإلا سنكون فوق مستوى التلوج عند الغروب. «اللورد نستور يُجهّز ماديةً للترحيب بك، خساء فطر ولحم غزلان وكعكات. لست تُريد تخييب أمله، أليس كذلك؟».

- «هل ستكون كعكات ليمون؟». يحب اللورد روبرت كعكات الليمون، ربما لأن إليني تحبها.

- «كعكات ليمون ليمونية كلها ليمون، ويمكنك أن تأكل منها كما تشئت».

- «مئة؟ هل يمكنني أن أكل مئة؟».

قالت: «إذا أردت»، وجلست على طرف الفراش ومُست على شعره الناعم الطويل مفكّرة: شعره جميل حقًا. اعتادت الليدي لايسا تمشيطة بنفسها كلّ ليلة وقضه عندما يطول، لكن بعد سقوطها أصيبت روبرت بنوبات رجفة عنيفة متى دنا منه أحدهم بمقص، فأمرهم بيتر بأن يتزكوا شعره ينمو. لفت إليني خُصلةً حول إصبعها متسائلة: «والآن هل ستقوم من الفراش وتتركنا نلُيسك؟».

- «أريد مئة كعكة ليمون وخمس حكايات!».

أريد أن أصفعك على مؤخرتك مئة مرّة وأطمك على وجهك خمس مرّات. لم تكن لتجرؤ على التصرّف بهذه الطريقة لو كان بيتر هنا. الحقيقة أن اللورد الصغير يخشى زوج أمه لدرجة لا بأس بها. أرغفت إليني نفسها على الابتسام قائلة: «كما يرغب سيدي، لكن لا شيء من هذا قبل أن تغتسل وترتدي ثيابك وتبدأ الثزول. هيا قبل أن يمرّ الضباح»، وأمسكته بحزم من يده وسحبته من الفراش.

لكن قبل أن تستدعي الخادمتين طوّقها العصفور الجميل
بذراعيه الناحلتين وقبّلها. كانت قُبلة صبي صغير خرقاء، وكلّ
ما يفعله روبرت آرن أخرق. *إذا أغلقت عيني فيمكنني التّظاهر
بأنه فارس الزّهور.* ذات مرّة أعطى السير لوراس سانزا ستارك
وردة حمراء، لكنه لم يقبّلها... ولا أحد من آل تايرل سيقبّل
إليني ستون أبدًا. على الرغم من جمالها فإنها في النهاية ابنة
حرام.

إذ مسّت شفّتا الصّبي شفّتيها وجدت نفسها تُفكّر في قُبلة
أخرى، ولا تزال تُذكر كيف شعرت حين انضغط فمه القاسي على
فمها، وقد أتى سانزا في الظّلام بينما تملأ الليران الخضراء
السّماء. *أخذ أغنيّة وقُبلة (67) ولم يتّرك لي إلّا معطفًا داميًا.*

لا يهتم. ذلك الزّمن انتهى، وكذا سانزا.
أبعدت إليني اللورد الصّغير قائلة: «كفى. يُمكنك أن تُقبّلني
تانيّة عندما نصل إلى (بوابات القمر)، بشرط أن تفي بكلمتك».
كانت مادي وجرتشل منتظرتين في الخارج، ومعهما المايستر
كولمون الذي غسّل شعره من الفضلات وبذل رداءه، وظهر أيضًا
تيرانس وجايلز مرافقا روبرت اللذان بإمكانهما دوماً أن يشمّا
رائحة المتاعب.

قالت إليني للخادمتين: «اللورد روبرت أقوى الآن. أحضرا
ماءً ساخنًا لحقّامه لكن احرصا على ألا يسفّعه، ولا تشذا شعره
في أثناء تمشيّط غقده لأنّه يكره هذا». أطلق أحد القرافقين
ضحكةً شبه مكتومة، إلى أن قالت: «تيرانس، جهّز ثياب ركوب
حضرة اللورد وأثقل معاطفه. جايلز، يُمكنك تنظيف وعاء
الفضلات المكسور».

رَدّ جايلز جرافتون بامتعاض: «لستُ عاملة نظافة».

قال المايستر كولمون: «افعل كما تأمر الليدي إليني وإلا أخبرث لوثور برون»، ثم قطع الزواق مع إليني ونزل معها السلالم الملتفة، حيث قال لها: «أنا ممتن لتدخلك يا سيديتي. إنك قادرة على التعاقل معه»، وتردد لحظة قبل أن يسألها: «هل لاحظت رجفة وأنت معه؟».

- «كانت أصابعه ترتجف بعض الشيء حين أمسكت يده، هذا كل شيء. يقول إنك وضعت شيئًا كريهاً في حليبهِ».

ردد كولمون: «شيئًا كريهاً؟»، وحنق إليها وتحركت تفاحة خلقه إلى أعلى وأسفل، ثم أردف: «وضعت فقط... هل ينزف من أنفه؟».

- «لا».

غمغم: «جيد، هذا جيد»، وصلصت حلقات سلسلته بخفوت إذ أوما برأسه الثابت من رقبتة الطويلة الرفيعة لدرجة سخيفة، وقال: «التزول... سيديتي، قد يكون الأضمن أن أخلط لحضرة اللورد القليل من حليب الخشخاش. هكذا تستطيع ميا ستون أن تربطه على ظهر أكثر بغالها تباتًا بينما يغيب في الشبات».

- «لا يمكن أن ينزل سيّد (الفش) جبله مربوطًا كجوالٍ من الشعير». إليني متيقنة من هذا، إذ حذرًا أبوها من أن يدعوا مبلغ هشاشة روبرت وجبته يغدو معرفة مشاعًا. ليت هُنا، كان ليعلم ماذا نفعل.

غير أن بيتر بايلش بعيد على الجانب الآخر من (الوادي)، يحضر زفاف اللورد لايونل كوربراي، وهو أرمل تجاوز الأربعين من العمر وبلا أطفال، وسيتزوج ابنة قوية البنية في السادسة عشرة لأحد ثجار (بلدة الثوارس) الأغنياء. رثب بيتر الزيجة بنفسه، ويقال إن مهر العروس باهظ، ولا بُد أنه كذلك بالفعل بما أنها من أولاد العائمة. سيحضر أتباع كوربراي الزفاف، بالإضافة إلى اللوردات واكسلي وجرافتون وليندرلي، وبعض اللوردات الصغار والفرسان ملاك الأراضي... واللورد بلمور الذي تصالح مع أبيها في الفترة الأخيرة، في حين من المتوقع أن يتجنب لوردات البيان الآخرون الزفاف، ولذا فحضور بيتر ضروري.

تعي إليني كل هذا جيدًا، لكن معناه وقوع عبء إنزال الغصفور الجميل بأمان إلى سفح الجبل على عاتقها هي. قالت للمايستر: «اسقي حضرة اللورد كوتا من الحليب الخلو، سيمنعه من الارتجاف خلال رحلة التزول». ردّ كولمون معترضًا: «لقد شرب واحدًا قبل أقل من ثلاثة أيام».

- «وأراد آخر ليلة البارحة، لكنك رفضت».

- «لأن وقتًا كافيًا لم يمض. لست تفهمين يا سيّدتني. كما أخبرت اللورد الحافظ، رشّة واحدة من خلو الكرى مع الحليب تمنع الرّجفة، لكن الجسد لا يتخلّص منه، ومع الوقت...».

- «الوقت لن يهتم إذا أصابت حضرة اللورد نوبة وسقط من فوق الجبل. لو أن أبي هنا فأنا واثقة بأنه كان ليقول لك أن تحافظ على هدوء اللورد روبرت بأيّ ثمن».

- «إنني أحاول يا سيّدتني، لكن الثّوبات تزداد غنقًا، ودمه خفيف للغاية حتى إنني لم أغد أجرو على أن أعلق له العلق. خلو الكرى... أنت واثقة بأنه لم ينزف من أنفه؟».

- «كان يتنشق، لكنني لم أر دمًا».

- «يجب أن أتكلّم مع اللورد الحافظ. هذه المأدبة... ثرى أمن الحكمة أن يحضرها بعد مجهود التّزول؟».

طمأنته قائلة: «لن تكون مأدبة كبيرة. أربعون ضيفًا على الأكثر. اللورد نستور وأهل بيته وفارس البوّابة وبضع لوردات أدنى شأنًا وحاشيتهم...».

- «تعلمين أن اللورد روبرت لا يحبّ الغرباء، وسيكون هناك شرب وضوضاء... وموسيقى. الموسيقى تُخيفه».

قالت مصحّحة: «الموسيقى تُهدّئه، خصوصًا القيثارة الشامية. ما لا يُطيقه هو الغناء منذ قتل ماريليون أمّه». نطقت إليني هذه الكذبة مرارًا لدرجة أنها تتذكّر الموقف هكذا أغلب الوقت بالفعل، أمّا ما حدث حقًا فلم يَعد أكثر من حلم سيئ يَقلق منامها أحيانًا. «اللورد نستور لن يسمح بالغناء خلال المأدبة. ستكون هناك نايات وكمنجات فحسب للرّقص». ماذا تفعل عندما يبدأ عزف الموسيقى؟ سؤال مزعج لقلبها عدّة إجابات عنه. سانزا تحبّ الرّقص، لكن إليني... «اسقه كوبًا من الحليب الخلو قبل أن نذهب وآخر في أثناء المأدبة ولن تقع متاعب».

قال: «ليكن»، وعندما توقّفا عند قاعدة الشلالم أضاف: «لكن يجب أن يكون الأخير لمُدّة نصف عامٍ على الأقل».

ردّت: «يَحسن أن تقترح هذا على اللورد الحافظ»، وفتحت الباب وخرجت تقطع الشاحة. تعلم إليني أن كولمون لا يريد إلا الأفضل لغهده، لكن الأفضل لروبرت الضّبي والأفضل للورد أرن ليسا الشّيء ذاته دومًا. هذا ما قاله بيتر وهذه هي الحقيقة. لكن المايستر كولمون مهتمّ بالضّبي فقط، أمّا أنا وأبي فعلى كاهلنا هموم أكبر.

يكسو الثلج القديم السّاحة، وتتدلى كتل الجليد كجراب من
البُور من الشرفات والأبراج. (الغش) مبنية بأحجار بيضاء
ناعمة، وقد جعلها غطاء الشتاء أكثر بياضًا. جميلة للغاية، منيعة
للفاية. ليس بمقدورها أن تحبّ هذا المكان مهما حاولت. حتى
قبل رحيل الحرس والخدم كانت القلعة تبدو خالية كمقبرة،
وبدّت كذلك أكثر بعد رحيل بيتر بايلش. لا أحد يُقْني هنا منذ
ماريليون، ولا أحد يضحك بصوت عالٍ، وحتى الآلهة نفسها
صامتة. في (الغش) سبت لكن لا سبتون، وأيكة آلهة لكن لا
شجرة قلوب. كثيرًا تُفكّر: لا أدعية تُجاب هنا، وإن كانت أحيانًا
تُشعر بوحدة تحدو بها إلى المحاولة. لا يُجيبها هنا إلا الرّيح،
تهفّ بلا نهاية حول الأبراج البيضاء الرّفيعة الشّبعة وترجّ (باب
القمر) متى هبت. وسيكون الوضع أسوأ في الشّتاء. في الشّتاء
سيكون هذا سجنًا أبيض باردًا.

ومع ذلك تكاد فكرة الرّحيل تُخيفها مثلما تُخيف روبرت،
والفرق أنها تُجيد إخفاء خوفها. قال أبوها إن لا شيء يُخجل
في الشعور بالخوف، إن الخجل يأتي فقط من إبدائه، وأضاف:
«كلّ البشر يتعايشون مع الخوف». ليست إليني واثقة بأنها
تعتقد ذلك، فلا شيء يُخيف بيتر بايلش. لم يقل هذا إلا
لِيشجّعني. عليها أن تكون شجاعة في الأسفل، حيث فرصة
افتضاح أمرها أكبر كثيرًا جدًّا. كان أصدقاء بيتر في البلاط قد
أبلغوه بإرسال الملكة رجالًا يبحثون عن العفريت وسانزا ستارك،
وقد ذكرت نفسها وهي تنزل سلّفا حجريًا متجلّدًا: سأفقد رأسي
إذا اكتشفوا هويّتي. يجب أن أكون إليني طيلة الوقت، قلبًا
وقالبًا.

وجدت لوثور برون في غرفة الرافعات يُساعد مورد السجّان
واثنين من الخدم على رَض صناديق الملابس ولقائف الأقمشة
في سثة دلاء ضخمة من خشب الشنديان، كلٌ منها يتسع لثلاثة
رجال. الرافعات ذات الشلاسل أسهل وسيلة لبلوغ القلعة
الفرعية (سماء) الواقعة أسفلهم بسُمنة قدم، وإلا فعليك أن
تنزل المدخنة الحجرية الطبيعية من القبو التحتي. /و تُفارركما
غادرَ ماريليون والليدي لايسا من قبله.

سألها السير لوثور: «هل قام الضبي؟».

- «إنه يستحم. سيكون مستعدًا خلال ساعة».

- «لنأمل هذا. ميا لن تنتظر بعد انتصاف النهار». ليست في

غرفة الرافعات تدفئة، فخرجت كل كلمة منه مصحوبةً بالبخار.

- «ستنتظر، يجب أن تنتظر».

- «لا تكوني متأكدةً هكذا يا سيديتي. الفتاة نفسها يُصف بغلة.

أظن أنها تُفَضِّل تركنا جميعًا نموت جوعًا قبل أن تُعرَض

حيواناتها للخطر». ابتسم حين قال هذا، ففكرت: *دائمًا يبتسم*

عندما يتكلّم عن ميا ستون. ميا أصغر كثيرًا من السير لوثور،

لكن حين كان أبو إليني يتوسط في زواج اللورد كوربراي وابنة

التاجر أخبرها بأن الفتيات الشابات يكن أسعد دائمًا مع الرجال

الأكبر، وقال: «البراءة والخبرة تصنعان زيجةً مثاليةً».

تساءلت إليني عن رأي ميَا في السير لوثور. بأنفه العريض وفكّه المرثع وشعره الضوفي الأشيب لا يمكن وصف برون بالوسامة، لكنه ليس قبيحًا كذلك. وجه تقليدي لكنه صادق. على الرغم من تقليده الفُروسيّة فالسير لوثور وضع المولد للغاية. في ليلة أخبرها بأنه قريب لآل برون أولاد (الغور البئي)، وهم عائلة قديمة من الفُرسان من (الرأس المتصدّع)، وباح لها قائلاً: «ذهب إليهم عندما مات أبي، لكنهم ازدروني وقالوا إنني لست من دمهم». لم يقل ما جرى بعدها، وذكر فقط أنه تعلم كل ما يعرفه عن السلاح بالطريقة الضعبة. إنه رجل هادئ حين يكون مفيقًا، لكنه لا يفتقر إلى القوة. ويترى يقول إنه مخلص ويثق به كثيرًا. تحسب إليني أن برون زوج لا بأس به لفتاة نغلة كميا ستون. ربما كان الأمر ليختلف لو أن أباهَا اعترفَ بها، لكنه لم يفعل، ومادي تقول إنها ليست عذراء أيضًا.

التقط مورد سوطه وهوى بضربة، وتحرك أول زوجين من الثيران بتناقل في دائرة لتدور الزافعة، وانحلت السلسلة مصلصلة إذ احتكت بالحجر، وتأرجح الذلو السنديان إذ بدأ نزوله الطويل إلى (سما). ثيران مسكينة. قبل أن يغادر مورد سيذبحها ويتزكها للضقور، وما يتبقى منها عند إعادة فتح (العش) سيُشوى من أجل مائدة الزبيع، هذا إذا لم يفسد. تدعي جرتشل العجوز أن مخزونها وافراً من اللحم المتجمد يعد بربيع من الرّخاء.

قال السير لوثور: «سيّدتي، الأفضل أن تعلمي أن ميَا لم تصعد وحدها. الليدي ميراندا معها».

- «أوه». لم تصعد الجبل لمجرد أن تنزله ثانية؟ ميراندا رويس ابنة اللورد نستور، وكانت غائبة في المرة الوحيدة التي زارت فيها سانزا (بوابات القمر) في الطريق إلى أعلى مع الليدي لايسا واللورد بيتر، لكنها سمعت الكثير عنها من جنود وخادمات (الغش). مائت أمها منذ زمن طويل، ولذا تتولى الليدي ميراندا أعمال قلعة أبيها، ويُشاع أن وجودها يجعل المكان أكثر نشاطًا بكثير من غيابها، وقد نبه بيتر إليني قائلاً: «عاجلاً أو آجلاً ستلتقين ميراندا رويس، وعندما تفعلين فعليك بالحدز. إنها تحب لعب دور البلهاء المرححة، لكنها في أعماقها أمكر من أبيها. صوني لسانك في حضورها».

سأصونه، لكنني لم أتوقع أن أفعل بهذه السرعة. «سيفرح روبرت». الضبي يحب ميراندا رويس. «بعد إذنك أيها الفارس، يجب أن أنهي حزم أغراضي». وحدها صعدت الدرج إلى غرفتها للمرة الأخيرة. كانت الثوافذ قد أوصدت وأسدلت ستائرهما وغُطي الأثاث، وقد نُقل بعض حاجياتها بالفعل وخُزنت البقية. تقرّر أن تبقى جميع ملابس الليدي لايسا المفضلة من الحرير والشميت، وكذا كل ثوب من الكتان الشفاف والمخمل الفاخر والتطريز الفخم وشرائط الزينة المايرية. هناك بالأسفل على إليني أن ترتدي ثياباً متواضعة تليق بفتاة متواضعة. لا يهم. لم أجرؤ على ارتداء أفضل الثياب هنا أيضاً.

كانت جرتشل قد خلعت ملاءات الفراش ووضعت عليه بقية ملابسها. تحت ثورتها ترتدي إليني بالفعل جوربًا طويلًا من الضوف مع طبقتين من الثياب الداخلية، والآن أضافت شترًا من صوف الجمالان ومعطفًا من الفرو مزودًا بقلنسوة ثبتته بدبوس على شكل طائر محاك مطلي بالمينا كان هدية من بيتر. لفت عنقها بوشاح أيضًا، ودست يديها في قفازين من الجلد المبطن بالفرو يتماشيان مع حذاءها، ولما ارتدت كل شيء أحست كأنها بدينة مكسوة بالفرو كذب صغير. ذكرت نفسها قائلة: على الجبل سيكون هذا من دواعي سروري. ألقت نظرة أخيرة على الغرفة قبل أن تخرج مفكرة: كنت آمنة هنا، لكن بالأسفل...

حين عادت إليني إلى غرفة الزافعات وجدت ميا ستون منتظرة بصبر نافد مع لوثر برون ومورد. لا بد أنها صعدت في الدلو لتري ما يؤخرنا. على الرغم من تحولها تبدو ميا متينة كسراويل الزكوب الجلد التي ترتديها تحت قميص من الحلقات المعدنية المفضضة، ولها شعر أسود كجناح الفداف، قصير وأشعث لدرجة أن إليني تظن أنها تقطعه بالخنجر لا المقص. أفضل ملامح ميا عيناها الزرقاوان الكبيرتان. من الممكن أن تبدو حسناء إذا ارتدت ثياب الفتيات. وجدت إليني نفسها تتساءل إن كان السير لوثر يحبها أكثر وهي ترتدي الحديد والجلد أم يحلم بها مرتدية الحرير وشرائط الزينة. تحب ميا أن تقول إن أباه كان كبشًا وأُمها بومة، لكن إليني سمعت القصة الحقيقية من مادي، والآن تنظر إليها مفكرة: نعم، هاتان عيناها، ولها شعره أيضًا، الشعر الأسود الكثيف الذي اشترك فيه مع رلي.

سألته الثغلة: «أين هو؟».

- «حضرة اللورد يستحم ويرتدي ثيابه».

- «يجب أن يُسرّع. الطقس يزداد برودةً، ألا تشعّرين به؟
يجب أن نتجاوز (ثلج) قبل غروب الشمس».
- «ما مدى سوء الزّيح؟».

ردّت ميا: «يُمكن أن تكون أسوأ... وستكون كذلك بعد هبوط
الظّلام»، وأزاحت خُصلةً نافرةً عن عينها مضيئةً: «إذا قضى
وقتًا أطول في الاستحمام فسنبقى حبيسين هنا طيلة الشّتاء
ولا شيء نأكله إلّا بعضنا بعضًا».

لم تدرِ إليني بِمَ تردّ، لكن لحسن الحظّ أعفاها وصول روبرت
آرن، وقد ارتدى اللورد الضّغير المخمل الأزرق السماوي وسلسلةً
من الذهب والضّفير ومعطفاً أبيض من فرو الدّبية، ورفع كلّ من
مُرافقيه أحد طرفيه ورائه كي لا يجرّه على الأرض. اصطحبهم
المايستر كولمون مرتدياً معطفاً رمادياً خفيفاً مبظّلاً بفرو
السّناجب، ولحقّت بهم جرتشل ومادي.

جبنَ روبرت لقاً شعزّ بالزّيح على وجهه، وإن حالّ وقوف
تيرانس وجايلز ورائه دونه والفاران، وسألته ميا: «هَلَا نزلت
معي يا سيّدي؟».

فكّرت إليني: لهجتها جافّة للغاية. كان يجدر بها أن تُحييه
بابتساميّة وتقول له كم يبدو قويّاً شجاعاً.

قال اللورد روبرت: «أريدُ إليني. لن أذهب مع غيرها».
- «الذّلو يسع ثلاثة».

- «أريدُ إليني فقط. أنتِ رائحتكِ سيّئة كالِبغال».
ردّت ميا بلا تعبير على وجهها: «كما ترغب».

بعض سلاسل الّرافعات مربوط بسلاسل من الخيزران، وبعضها بالذّلاء السّنديان القويّة التي يفوق أكبرها إليني طولًا وثّحيط بأضلاعه البنيّة الذّاكنة حلقات من الحديد تُثَبَّتُها مقار، وعلى الرّغم من هذا كان قلبها بين قدميها إذ التقطت يد روبرت وساعدته على الدّخول. ما إن انغلقت الكوّة وراءهما أحاط بهما الخشب من كلّ جانب ولم يبق إلّا أعلاهم مفتوحًا. قالت لنفسها: هكذا أفضل، فلا يُمكننا النّظر إلى أسفل. تحتها ليس هناك إلّا (سماء) والسماء، سُمُنة قديم كاملة من السماء، وللحظة وجدت نفسها تتساءل كم من الوقت استغرق سقوط هذه المسافة خالتها وماذا كانت آخر فكرة تدور بخلدها إذ اندفع الجبل إلى أعلى يستقبلها. لا، يجب إلّا أفكر في هذا، يجب!

زعم السّير لوثور: «هيا!»، ودفع أحدهم الذّلو بقوة ليتأرجح ويميل ويحتك بالأرض ثم يتدلى خُذاً. سمعت إليني كُرباج مورد يشقّ الهواء وصلصلة السّلسلة، ثم بدأ الذّلو ينزل بهما بحركات مضطربة متشجّة أولًا ثم برفق أكثر. رأت وجه روبرت شاحبًا وعينيه منتفختين، لكن يديه ظلّتا ثابتتين. تقلّصت (الفش) من فوقهما، وجعلت زنازين السماء في المستويات الأدنى القلعة تبدو كقرص عسل من أسفل، ففكرت إليني سامعة صفير الرّيح حول الذّلو: قرص عسل من الجليد، قلعة من الثّلج. بعد نزولهما مئة قدم أصابت الذّلو هبة مباغطة جعلته يميل إلى الجانب ودوّرته في الهواء، ثم صدّته بقوة بوجه الجبل الصّخري لتنهال عليهما شظايا الجليد والثّلج ويصرّ السّنديان.

شهق روبرت وتشبّث بها دافئًا وجهه بين تدييها، فقالت إليني شاعرةً به يرتجف: «سيّدي شجاع. أنا خائفة للغاية حتى إنني أكاذ أعجز عن الكلام، أمّا أنت فلا».

شعرت به يومئ برأسه، وقال لصدرها بفخر: «الفارس المجنّح كان شجاعًا، وأنا كذلك. إنني من آل آرّن».

سألته: «هَلَّا تَمَسَّكَ بِي غُصْفُورِي الْجَمِيل بِقُوَّةٍ؟»، ولو أن الضَّيبي كان متمسِّكًا به بشدَّةٍ بالفعل لدرجة أنها تستطيع التقاط أنفاسها بالكاد.

همسَ: «إذا أردت»، وعلى هذه الحال واصلًا الطريق المباشر إلى (سما) بالأسفل.

حين انفتحت كُوَّة الدُّلو ليُخْرِجَا داخل القلعة الفرعية فكَّرت إليني: وصف هذا المكان بالقلعة كوصف بركةٍ على أرض المرحاض بالبحيرة. ليست (سما) أكثر من جدارٍ هلالِي الشكل من الحجارة القديمة غير المملَّطة يحتوي إفريرًا صخريًا ومدخل كهف كبير. في الدَّاخل مخازن وأسطبلات وقاعة طويلة طبيعية والدُّعامات المنحوتة التي تقود إلى (العش)، وفي الخارج تتناثر على الأرض الحجارة والجلاميد المكسورة، ويمكن صعود الجدار على منحدراتٍ من الثُّرْبَة المكوَّمة. على ارتفاع سُمُنة قدمٍ بالأعلى تبدو (العش) صغيرةً للغاية حتى إنها تستطيع إخفاءها بيدها، لكن بعيدًا بالأسفل يمتدُّ (الوادي) ذهبيًا وأخضر.

داخل القلعة الفرعية ينتظرهم عشرون بغلاً مع اثنين من سائقي البغال والليدي ميراندا رويس، وقد اتَّضح أن ابنة اللورد نستور قصيرة ممثلة في سنِّ ميا ستون، ولكن لئن كانت ميا نحيلة متينة البنيان فميراندا لينة الجسد وطيبة الرائحة، ولها وركان عريضان وخصر ثخين ونهدان عامران، وتصنع خُصلها الكستنائية الغزيرة إطارًا حول وجنتين مستديرتين وفم صغير وعينين بليّتين مرحتين. حين خرج روبرت بحذرٍ من الدُّلو ركعت في زقعةٍ من الخُلج ولثمت يده وخذيه، وقالت: «كم كبرت يا سيّدي!».

قال روبرت مسرورًا: «حقًّا؟».

ردّت الليدي كاذبة: «قريبًا ستصير أطول مني»، ونهضت نافضة الثلج عن ثورتها، وبينما عاد الدلو يرتفع إلى (الغش) خاطبت إليني قائلة: «ولا بُد أنك ابنة اللورد الحافظ. لقد سمعتُ أنك جميلة، والآن أرى صحة هذا».

انحنت إليني، وقالت: «لطف من سيّدتي أن تقول هذا». ضحكت الفتاة الأكبر سنًا قائلة: «لطف؟ اللطف ممل. إنني أطمح إلى الإثارة. يجب أن تُفصحي لي عن أسراركَ كلّها في الطريق إلى أسفل. هل تسمحين لي بأن أدعوك يا إليني؟».

- «إذا أردتِ يا سيّدتي». لكنكِ لن تنالي مني أسرارًا.

- «أنا «سيّدتي» في (بوابات القمر)، لكن هنا على الجبل تستطيعين دعوتي براندا. كم سيّك يا إليني؟».

- «أربعة عشر عامًا يا سيّدتي». كانت قد قرّرت أن تكون إليني ستون أكبر من سانزا ستارك.

- «راندا. كان مئة عام مرّت منذ كنتُ في الرابعة عشرة. كم كنتُ بريئة. أما زلت بريئة يا إليني؟».

تورّد وجهها، وقالت: «لا يجذر بك... نعم، بالطبع».

سألته الليدي ميراندا مداعبة: «تدخرين نفسك للورد روبرت؟ أم أن هناك مرافقًا غيورًا يحلم بمحاسنك؟».

أجابّت إليني: «لا»، في حين قال روبرت: «إنها صديقتي. ليس لتيرانس وجايلز أن ينالاها».

عندئذ كان دلو ثانٍ قد وصل وخط برفقي على كومة من الثلج المتجلد، وخرج المايستر كولمون مع الفراققين تيرانس وجايلز، ثم وصل الثالث بمادي وجرتشل مع ميا ستون. لم تُبَدِّ الفتاة الثغلة وقتاً قبل أن تتولَّى القيادة، وقالت لسائقي البغال الآخرين: «لسنا نريد أن نعلق هنا على الجبل. سأخذ اللورد روبرت ورفاقه. أوسي، ستنزل بالسير لوثر والآخرين، لكن اتركني أسبقك بساعة. كاروت، أنت المسؤول عن الضاديق والأقفاص»، والتفتت إلى روبرت آرن متسائلة: «أيّ بغل ستركب اليوم يا سيدي؟».

- «كلها كربه الرائحة. سأركب الزمادي ذا الأذن المقضومة. أريد أن تركب إليني معي، وميراندا أيضاً».

- «ليكن، أينما اتسع الطريق كفاية. هلمّ يا سيدي، لنضعك على ظهر بغلك. في الهواء رائحة تلج».

مَرَّ يَصِفُ ساعة آخر قبل أن يستعدّوا للتحرك، ولما امتطى جميعهم البغال ألقت ميا ستون أمراً حازماً ففتح اثنان من جنود (سماء) البوابة. قادتهم ميا إلى الخارج ووراءها مباشرة اللورد روبرت متدثراً بمعطف فرو الذببة، وتبعتهما إليني وميراندا رويس، ثم جرتشل ومادي، ثم تيرانس ليندرلي وجايلز جرافتون، وفي النهاية المايستر كولمون الذي يقود بغلاً ثانياً محملاً بصناديق الأعشاب والعقاقير.

وراء الجدار تهبّ الرّيح بحدّة، إذ إنهم فوق مستوى الأشجار هنا ومكشوفون لعوامل الثّعرية. أحسّت إليني بالامتنان لارتدائها ثياباً ثقيلة، وقد راح معطفها يخفق بإزعاج من ورائها ودفعت هبة مفاجئة قلنسوتها. ضحكت، لكن أمامها بيضع ياردات رأت اللورد روبرت يتوثر، وقال: «الطقس بارد للغاية. يجدر بنا أن نعود وننتظر أن يدفأ».

قالت له ميا: «سيكون أدفاً على أرض الوادي يا سيدي.

سترى حين نصل».

ردّ روبرت: «لا أريد أن أرى»، لكن ميا لم تُعِره انتباهًا.
طريقهم سلسلة متعرجة من الدّرجات الحجريّة المنحوتة في
جانب الجبل، لكن البغال تحفظ كلّ بوصة منه، وقد سرّ هذا
إليني. هنا وهناك الحجارة محطّمة من ضغط فصولٍ لا تُحصى
جمّدتها وأذابتها مرازًا، وعلى جانبي الطريق تكسو الصّخور زقع
الثلج البيضاء لدرجة تُعمي. الشّمس ساطعة والسّماء زرقاء،
وبالأعلى صقور تدور راكبةً الرّيح.

هنا حيث الجرف شديد التّحدّر تلتفّ الدّرجات جيئةً وذهابًا
بدلًا من التّزول إلى أسفل مباشرةً. سانزا ستارك صعّدت الجبل
لكن إليني ستون تنزله. وجذّت خاطر غريبًا. تذكّر أن في رحلة
الصّعود نُبّهتها ميا إلى إبقاء عينيها على الطريق أمامها، وقالت:
«انظري إلى أعلى لا أسفل»... لكن ذلك ليس ممكنًا في أثناء
التّزول. يُمكنني أن أغلق عيني. البغل يعرف الطّريق وليس
محتاجًا إليّ. على أن ذلك بدا كشيء تفعله الفتاة الخائفة سانزا،
أمّا إليني فامرأة أكبر سنًا وتتحلّى بشجاعة الثّغول.

في البداية تحرّكوا في طابور فردي، لكن بعد فترة اتّسع
الطّريق بما يكفي لركوب اثنين جنبًا إلى جنب، فلاحقت بها
ميراندا رويس، وببساطة قالت كأنهما جالستان ثمارسان أشغال
الإبرة مع سيّتتهما: «جاءتنا رسالة من أبيك. يقول إنه في طريق
العودة، ويأمل أن يرى ابنته العزيزة قريبًا. كتب أن لايونل
كوريرا يبدو مسرورًا بعروسه، وأكثر سرورًا بالقهر. أمل أن
يتذكّر اللورد لايونل من يأخذ منهما إلى الفُراش. اللورد بيتر
يقول إن الليدي واينوود حضرت مأدبة الرّفاف مع فارس
(النّجوم الثّسع) لدهشة الجميع».

- «آنيا واينوود؟ حقًا؟». يبدو إذن أن عدد لوردات البيان انخفض من سئة إلى ثلاثة. يوم نزل بيتر بايلش الجبل كان واثقًا بكسب سايموند تميلتون إلى صفه، ولكن ليس الليدي واينوود. سألت: «أهناك المزيد؟». (الغش) مكان موحش للغاية، وإليني متشوقة إلى أي أخبار من العالم الخارجي مهما كانت بسيطة تافهة.

- «ليس من أهلك، لكن طيوزا أخرى وصلت إلينا. الحرب مستمرة في كل مكان إلا هنا. (ريقرزن) استسلمت، لكن (دراجونستون) و(ستورمز إند) ما زالتا صامدتين متمسكتين باللورد ستانيس».

- «كانت حكمة من الليدي لايسا أن ثبقينا خارج الصراع». منحتها ميراندا ابتسامة خبيثة صغيرة، وقالت: «نعم، سيُدتنا الكريمة كانت آية في الحكمة»، واعتدلت في جلستها مردفة: «أيجب أن تكون البغال نحيلة سيئة المزاج؟ ميا لا تُطومها كفاية. ركوب البغال الشمينة مريح أكثر. هل علمت أن هناك سيتون أعلى جديدًا؟ أوه، وخرس الليل لهم قائد صبي الآن، ابن نغل ما لإدارد ستارك».

اندفعت تسأل مندهشة: «چون سنو؟».

- «سنو؟ نعم، لا بُد أن اسمه سنو على ما أظن».

لم تُفكر في چون منذ دهر. إنه مجرّد أخ غير شقيق، ومع ذلك... بعد موت روب وبران وريكون لا يبقى لها إخوة إلا چون سنو. والآن أنا نغلة أيضًا، مثله تمامًا. أوه، كم سيكون جميلًا أن أراه مرّة أخرى. لكن بالطبع لا يمكن أن يحدث ذلك أبدًا، فإليني ستون ليس لها إخوة شرعيّون أو غير شرعيّين.

تايقت ميراندا رويس غير مدركة ما يجول ببالها: «ابن عمومنا يون البرونزي أقام التحاقًا جماعيًا في (رونستون)، واحدًا صغيرًا للمرافقين فحسب. كان الغرض أن يفوز به هاري الوريث، وقد فعل».

- «هاري الوريث؟».

- «ريبب الليدي واينوود، هارولد هاردينج. أظن أن علينا أن ندعوه بالسير هاري الآن. يون البرونزي قلده الفروسيّة».

- «أوه». شعزت إليني بالحيرة. لماذا يكون ريبب الليدي واينوود وريثها؟ إن لها أبناء من ذريتها، أحدهم فارس (البوابة الدّامية) السير دونل. إلّا أنها لم ترغب في أن تبدو حمقاء، فاكثفت بقول: «أتمنى أن يُعيت جدارته بالفروسيّة».

قالت الليدي ميراندا ساخرة: «أتمنى أن يُصاب بالجذري. إن له ابنة نغلة من إحدى بنات العوام. كان السيّد والدي يأمل أن يُزوّجني هاري، لكن الليدي واينوود رفضت تمامًا. لا أدري إن كانت قد جذتني غير لائقة أم السّبب مهري فحسب»، وزفرت مضيفة: «إنني في حاجة إلى زوج آخر فعلاً. كان لي واحد لكنني قتلتَه».

سألته إليني مصدومة: «حقاً؟!».

«أوه، نعم، لقد مات فوقّي، في داخلي في الحقيقة. أمل أنك تعرفين ما يحدث في فراش الزوجية، أليس كذلك؟». فكَرت في تيريون وفي كلب الضيد وقبلته وأومات برأسها إيجاباً، ثم قالت: «لا بدّ أن هذا كان فظيلاً يا سيّدي، أن يموت، أعني هناك... بينما... بينما...».

- «... ينكحني؟»، وهزت ميراندا كتفيها قائلة: «كان هذا مزعجاً بالتأكيد، ناهيك بافتقاره إلى الكياسة. إنه لم يتحلّل بلطف أن يزرع طفلاً في داخلي حتى. المسئون تُطفثهم ضعيفة، وهأنذا أرملة لكن مستعقلة بالكاد. كان يُمكن أن يجد هاري زوجة أسوأ بكثير، وأتصوّر أنه سيفعل. على الأرجح سيُزوّجه الليدي واينوود إحدى حفيداتها أو حفيدات يون البرونزي».

قالت إليني متذكّرة تحذير ييتر: «كما تقولين يا سيّدي».

- «راندا. هيا، يُمكنك أن تقوليه. راندا».

- «راندأ».

- «هذا أفضل. أخشى أن علي أن أعتذر إليك. أعرف أنك ستحسبيني فاسقة، لكنني ضاجعت ذلك الفتى الوسيم ماريليون. لم أكن أعلم أنه وحش. كان غناؤه جميلاً ويستطيع أن يفعل أحلى الأشياء بأصابعه. ما كنت لأخذه إلى الفراش إطلاقاً لو عرفت أنه سيدفع الليدي لايسا من (باب القمر). إنني كمبدأ- لا أضاجع الوحوش»، وتفرّست ميراندا في وجه إليني وصدرها، وتابعت: «أنت أجمل مني، لكن تديي أكبر. المايسترات يقولون إن الأتداء الكبيرة لا تدّر لبناً أكثر من الصغيرة، لكنني لا أصدق هذا. هل عرفت مَرُضعة بتدبين صغيرين من قبل؟ تدياك كبيران بالنسبة إلى فتاة في سنّك، لكن ما داما تديي نغلة قلن أشغل بالي بهما»، ودنت أكثر ببغلها سائلة: «هل تعلمين أن عزيزتنا ميا ليست بكزّا؟».

تعلم. ذات مرّة حين جلبت لهم ميا المؤمن من أسفل همست لها مادي البدينة بالشر. «مادي أخبرتني».

- «طبقاً أخبرتلك. إن لها قفاً كبيراً كفخذيها، وفخذاها هائلتان! مايكل ردقورت هو من فعلها معها. كان مرافق لين كوربراي وقتها، مرافقاً حقيقياً وليس كالجلف الذي يرافق السير لين الآن ويقولون إنه قبله في سبيل المال فحسب. مايكل كان أفضل مبارز شاب في (الوادي) كلّها، وشهفاً... أو أن هذا ما حسبته المسكينة ميا إلى أن تزوّج واحدة من بنات يون البرونزي. إنني واثقة بأن اللورد هورتون لم يُعطه خياراً، لكنه ما زال تصرّفاً قاسياً في حقّ ميا».

قالت إليني: «السير لوثور مغرم بها»، ورمقت فتاة البغال التي تسبقهما بعشرين درجة مضيفة: «أكثر من مغرم».

رفعت ميراندا حاجباً متسائلة: «لوثور برون؟ هل تعرف؟»، ولم تنتظر جواباً، وأردفت: «لا أمل لهذا المسكين. أبي حاول تزويج ميا لكنها ترفضهم جميعاً. إنها نصف بغلة».

رغمًا عنها وجَدَت إليني نفسها تحشُّ بالوَدِّ نحو الفتاة الأخرى. إنها لم تحظْ بصديقة تتبادل معها القيل والقال منذ جين يوول المسكينة. سألت الفتاة التي تكبرها سنًا وتبدو عليمَةً بالعالم: «هل تظنّين أن السير لوثور يحبّها كما هي في الحلقات المعدنية والجلد أم يحلم بها ترفل في الحرير والمخمل؟».

- «إنه رجل، أي أنه يحلم بها عارية».

تُحاول أن تجعل وجهي يتورّد ثانيةً.

لا بُدَّ أن الليدي ميراندا سمعت أفكارها، إذ قالت: «إنك تتخضّبين بدرجة جميلة من الوردي حقًا. عندما يتورّد وجهي أبدو كتفّاحة، لكنه لم يتورّد منذ سنوات»، ومالت عليها متسائلة: «هل ينوي أبوك الزواج ثانيةً؟».

- «أبي؟». لم تفكّر إليني في ذلك، وبشكل ما وثرتها الفكرة، ووجدت نفسها تتذكّر التعبير على وجه لايسا آن إذ هوت من (باب القمر).

قالت ميراندا: «كلّنا نعلم كم كان مخلصًا لليدي لايسا، ولكن لا يجوز أن يظلّ حزينًا عليها إلى الأبد. إنه في حاجة إلى زوجة شابة حسنة تفسل أحزانه. أظنّ أنه يستطيع اختيار من يشاء من نصف عذارى (الوادي) الثبيلات، فهل من زوج أفضل من لوردنا الحافظ الجريء؟ وإن كنت أتمنى لو أن له اسفًا أفضل من الإصبع الصغير. صغير لأيّ درجة؟ هل تعرفين؟».

عادَ وجهها يتورّد، وقالت: «إصبعه؟ لا... إنني لم...».

أطلقت الليدي ميراندا ضحكةً صاخبةً دفعت ميا ستون إلى النّظر إليهما من فوق كتفها، وقالت: «لا عليك يا إليني، إنني واثقة بأنه كبير بما فيه الكفاية».

مزوا من تحت قنطرة نحتتها الرّيح، حيث تتدلى كتل الجليد من الحجارة الشّاحبة ويَقْطُر منها الماء عليهم. على الجانب الآخر يضيق الطّريق وينحدر بحذّة لمئة قدم أو أكثر، فتراجعت ميراندا مرغمةً وسلّمت إليني القيادة لبغلها، ودفعتها شدّة انحدار هذه المرحلة من الرّحلة إلى الثّشبث بسترجها بقوة. الذّرجات هنا متآكلة بفعل حدوات كلّ البغال التي وطأتها، إلى أن أصبحت تُحاكي سلسلة من الثّجاويف الحجرية الضّحلة التي يملأ الماء قيعانها ملتصقا بالذهبي في شمس الأصيل. إنه ماء الآن، لكن مع حلول الظّلام سيتحوّل كلّهُ إلى جليد. انتبهت إليني إلى أنها تحبس أنفاسها فأطلقتها. الآن ثوبك ميا ستون واللورد روبرت على بلوغ القمّة الصّخرية المستدقة التي يستوي عندها المنحدر من جديد، فحاولت أن تنظر إليهما وإليهما فقط قائلةً لنفسها: لن أسقط، بغل ميا سيعبر بي. صدحت الرّيح من حولها وهي تنزل متخبّطة درجة درجة، وبدا لها كأن هذا الجزء استغرق غمزا كاملا.

وفجأة صارت في قاع المنحدر مع ميا واللورد الصّغير المنكمش تحت قمّة صخرية محرّزة. أمامهم يمتدّ سناد حجري مرتفع ضيق يكسوه الجليد، وإذا سمعت إليني الرّيح تُصرخ وشعرت بها تشدّ معطفها تذكّرت هذه البقعة من رحلة الصّعود، وقد أخافتها حينئذٍ وثخيفها الآن. كانت ميا تقول للورد روبرت بنبرة مرحة: «إنه أوسع مما يبدو، عرضه ياردة وطوله ليس أكثر من ثمان ياردات، هذا لا شيء».

ردّد روبرت: «لا شيء»، وكانت يده ترتجف.

أوه، لا، أرجوك، ليس هنا، ليس الآن.

- «الأفضل أن نقود البغال مترجلين. بعد إذن سيدي ساعبر ببغلي أولاً ثم أعود لأعبر بك»، لكن اللورد روبرت لم يجب وظلَّ يُحدِّق إلى السَّناد الضيق بعينه المحمَّرتين، فوعده ميا قائلة: «لن أتأخَّر يا سيدي»، وإن شكَّت إليني في أن الضبي سمعها من الأصل.

حين خرجت الثَّغلة ببغلا من تحت القمَّة المستدقَّة أطبقت عليها الرِّيح بأسنانها، وارتفع معطفها يتلوى ويَرفرف في الهواء، وترنَّحت ميا وبدأ لأقلَّ من لحظة أن الرِّيح سئلقيها في الهاوية، لكنها استعادت توازنها بوسيلة ما وواصلت طريقها.

أمسكت إليني يد روبرت المقفَّزة لتمنعه من الارتجاف، وقالت: «غصفوري الجميل، إنني خائفة. أمسك يدي وساعدني على العبور. أعلم أنك لست خائفاً».

رمقها ببؤبؤين كثقبيين داكنين في عينين مثنَّعتين مبيضتين كالبيض، وقال: «لست خائفاً؟».

- «ليس أنت. أنت فارسي المجنَّح أيها السير الغصفور الجميل».

همس روبرت: «الفارس المجنَّح كان يستطيع الطيران».

ردَّت: «أعلى من الجبال»، واعتصرت يده.

كانت الليدي ميراندا قد انضمت إليهما عند القمَّة المستدقَّة، ولما رأت ما يحدث ردَّت: «كان يستطيع الطيران حقاً».

قال اللورد روبرت: «السير الغصفور الجميل»، وأدركت إليني أنها لا تستطيع انتظار رجوع ميا، وهكذا ساعدت الضبي على التَّرجل، وببيدين متعانقتين خرجا إلى السَّناد الحجري العاري بمعطفين يخفقان ويتلويان من ورائهما، لا يُحيط بهما إلَّا الهواء الفارغ والسَّماء، وعلى الجانبين الأرض بعيدة بعيدة، وتحت أقدامهما جليد وحجارة مكشورة تنتظر أن يتعثَّر فيها أحدهم ويلتوي كاحله. كانت الرِّيح تعوي بشراسة، ففكرت سائرا: كأنه صوت نذب، نذب شبحي جبار كالجبال.

ثم إذا بهما على الجانب الآخر. ضحكت ميا ستون ورفعت
الضبي محتضنة إياه، فقالت لها إليني: «احتوسي، يمكنه أن
يؤذيك عندما يُلَوِّح بأطرافه. لست تظنين هذا لكنه يستطيع».
وجدا مكانًا له في صدع في الصخر يقيه من الريح الباردة،
واعتنت إليني به حتى انقضت الرّجفة، فيما عادت ميا لمساعدة
الآخرين على العبور.

في (ثلج) وجدوا بغالًا جديدة في انتظارهم، ووجهة ساخنة
من يخبئ الماعز والبصل. أكلت إليني مع ميا وميراندا، وقالت
لها الثانية: «أنت شجاعة علاوة على حسنك».

جعلت المجاملة وجهها يتورّد مجددًا، وقالت: «لا، لست
شجاعة. كنت خائفة. لا أظن أنني كنت لأقوى على العبور دون
اللورد روبرت»، والتفتت إلى ميا ستون قائلة: «كدت تسقطين».
ردّت ميا التي نزل شعرها على وجنتها مخفيا عينها: «أنت
مخطئة. إنني لا أسقط أبدًا».

- «قلت كدت. لقد رأيتك. ألم تكوني خائفة؟».

هزت ميا رأسها نفيا مجيبة: «أذكر رجلًا يلقيني في الهواء
وأنا صغيرة للغاية، يقف طويلًا كالسماء ويلقيني عاليًا جدًا
فأشعر كأنني أطيّر، وكلانا يضحك، يضحك بقوة لدرجة أنني
أكاد لا أستطيع التقاط أنفاسي، وأخيرًا يتعالي ضحكي حتى
إنني أبلل ثيابي، فيجعله هذا يضحك أكثر وأكثر. لم أشعر
بالخوف قطّ بينما يلقيني، وكنت أعرف أنه سيكون موجودًا
دومًا ليلتقطني»، وأزاحت شعرها الثافر متابعة: «وفي يوم لم
يُعد موجودًا. الرّجال يأتون ويذهبون، يكذبون أو يموتون أو
يتزكونك. لكن الجبل ليس رجلًا، والحجارة ابنة الجبل. إنني
أثق بأبي وأثق ببغالي ولن أسقط»، ووضعت يدها على صخرة
محرّزة ونهضت مستطردة: «أنها طعامكما. ما زال طريقنا
طويلًا وأشم رائحة عاصفة».

بدأت الثلوج تسقط لدى خروجهم من (حجر)، أكبر وأدنى القلاع الفرعية الثلاث التي تدافع عن الطريق إلى (الغش). كان الغسق ينتشر وقتها، واقترحت الليدي ميراندا أن يعودوا أدراجهم ويقضوا الليل في (حجر) ثم يستأنفوا النزول مع شروق الشمس، إلا أن ميا رفضت قائلة: «ربما يكون غمق الثلوج خمسة أقدام عندها، وستكون الدرجات خداعة حتى بالنسبة إلى البغال. الأفضل أن نواصل الطريق. سنتحرّك ببطء». وقد كان. أسفل (حجر) الدرجات أعرض وأقلّ انحدارًا، تتخلّل أشجار الصنوبر والحارس الطويلة التي تكسو منحدرات (زُمح العملاق) السفلى، كما يبدو أن بغال ميا تعرف كل جذر وصخرة في الطريق إلى أسفل، وكل ما تنساه الذواب تتذكره الفتاة.

كان يُصف الليل قد مرّ بالفعل عندما أبصروا أضواء (بوّابات القمر) من خلال الثلج المتساقط، وكانت المرحلة الأخيرة من رحلتهم الأكثر هدوءًا وسلاّمًا. سقط الثلج بوتيرة ثابتة مغلّفًا العالم بالأبيض، وغاب الفصفور الجميل في النوم فوق سرجه وراخ يتمايل إلى الأمام والخلف مع حركة بغله، وحتى الليدي ميراندا بدأت تتعاب وتشتكي من الإرهاق، وقالت لإليني: «جهّزنا مساكن لكم جميعًا، لكن يمكنك أن تشاركيني فراشي الليلة. إنه يسع أربعة».

- «سيكون هذا من دواعي شرفي يا سيّدتى».

- «رأى. اعتبري نفسك محظوظة لأنني متعبة. لست أريد إلا الخلود إلى النوم، لكن عادةً عندما تشاركني الفتيات الفراش فعليهن أن يدفعن ضريبة الوسادة ويخبرنني بالأشياء المثيرة التي فعلنها».

- «وماذا لو لم يفعلن أشياء مثيرة؟».

أجابت ميراندا: «عليهن إذن أن يعترفن بالأشياء المثيرة التي يُردن أن يفعلنها. ليس أنت بالطبع. إنني أرى عفتك بمجرد النظر إلى وجنتيك المتورّدتين هاتين وعينيك الزرقاوين الكبيرتين»، وعادت تتعأب، ثم أضافت: «أمل أن قدميك دافقتان. أكره رفيقات الفراش بارديات الأقدام».

حين وصلوا إلى قلعة أبيها أخيرًا كانت الليدي ميراندا قد أخذها الوسن أيضًا وإليني تحلم بالفراش قائلة لنفسها: سيكون فراشا بحشية من الزيش، ناعما ودافئا ووثيذا وعليه كومة من الأغطية الفرو. سأرى خلعا جميلا ولما أستيظ سأسمع كلابا تنبح ونسوة يتبادلن التهمة عند البئر وسيوقا تصل في الشاحة، ولاحقا سئقام مأدبة فيها موسيقى ورقص. كم تحن إلى الضياح والضحك بعد صمت (الفش) المميت.

لكن بينما ترجل الزاكبون عن بغالهم خرج أحد خُزاس بيتر من الحصن قائلاً لها: «ليدي إليني، اللورد الحافظ في انتظارك». سألته مبغوتة: «هل عاذ؟».

- «في المساء. ستجدينه في البرج الغربي».

الساعة أدنى إلى الفجر من الفسق وأكثر أهل القلعة نيام، ولكن ليس بيتر بايلش الذي وجذته إليني جالسا إلى جوار نار تظطيق ويشرب الثببذ المتبل الساخن مع ثلاثة رجال لا تعرفهم. نهضوا جميعا لدى دخولها، وابتسم لها بيتر بدفء قائلاً: «إليني، تعالي وقبلي أبالي».

عانقته بطاعة وطبقت قبلة على خذه، ثم قالت: «أسفة لتطفلي يا أبي. لم يخبرني أحد بأن معك رفاقا».

- «لست تتطفلين أبدا يا خلوتي. كنت أحكي لهؤلاء الفرسان الكرام لتؤي عن ابنتي المطيعة».

قال فارس شاب أنيق ينسدل شعره الأشقر الكثيف متجاوزا كتفيه: «مطيعة وجميلة».

- «أجل»، قال الفارس الثاني، وهو رجل متين البنيان له لحية كثة وخطها الشيب وأنف أحمر منتفخ تلوح زُرقة عروقه المكسورة ويدان خشتان كبيرتان كأفخاذ الخنازير. «لم تذكر هذا الجزء يا سيدي».

- «كنت لأفعل المثل لو كانت ابنتي، تحديدًا في وجود أمثالنا من الأجلاف»، قال الفارس الثالث ذو القامة القصيرة والقوام النحيل والابتسامة المعوجة والأنف المدبب والشعر البرتقالي الثائر.

ضحكت إليني، وقالت مداعبة: «أنتم أجلاف؟ حسبث ثلاثكم فرسانًا باسليين».

قال بيتر: «هم فرسان، أمّا بسالتهم فما زالَ عليهم إثباتها، لكن لنأمل خيذا. اسمحي لي بتقديم السير بايرون والسير مورجارت والسير شادريك. أيها الفرسان، هذه إليني ابنتي الطبيعية شديدة الذكاء... والتي يجب أن أتحدث معها إذا تفضّلتُم وسمحتم لنا».

انحنى الفرسان الثلاثة وانسحبوا، ولو أن الطويل الأشقر لثم يدها قبل أن يغادر، ثم سألت إليني بعدما انغلق الباب: «فرسان متجولون؟».

- «فرسان جائعون. رأيت أن الأفضل أن يحيط بنا المزيد من المسلّحين. الأيام تزداد إثارة للاهتمام يا خلوتي، وعندما تُثير الأيام اهتمام المرء فلا شيء اسمه الإسراف في الحماية. (ملك البحار) رجعت إلى (بلدة الثوارس)، وأوزويل العجوز عاد بيضع حكايات».

لم تسأله عن كنه تلك الحكايات، فلو أرادها بيتر أن تعلم لأخبرها. قالت: «لم أتوقع عودتك بهذه السرعة. إنني مسرورة لأنك أتيت».

رَدَّ: «ما كنت لأخمن هذا من قبلتك»، وجذبها إليه وأمسك وجهها بيديه وقبّلها على شفتيها طويلاً، ثم قال: «هذه هي القبلة التي تقول للمرء: مرحباً بعودتك. احرصي على هذا المرة القادمة».

قالت شاعرة بالحمرة تصبغ وجهها: «نعم يا أبي».

قال وقد قرّر الثغاضي عن قبلتها الفاترة: «لن تُصدّقي نصف ما يجري في (كينجز لاندنج) يا خلوتي. سرسي تزلّ من حماقة إلى أخرى بمساعدة مجلسها المكوّن من الضمّ والبله والغمي. لطالما توقّعت أن تُفقر البلاد وتُدمر نفسها، لكنني لم أخال قُط أن تفعلها بهذه السرعة! أمر مزعج حقاً. لقد أملت أن أحظى بأربعة أو خمسة أعوام لأزرع بعض البذور وأترك بعض الثمار ينضج، لكن الآن... من الجيّد أنني أتغذى على الفوضى. أخشى أن القدر القليل من السّلام والنّظام اللذين تركهما لنا الملوك الخمسة لن يدوما طويلاً في ظلّ الملكات الثلاث».

رُدت حائرة: «الملكات الثلاث؟».

اختار بيتر ألاّ يفسّر، وبدلاً من ذلك ابتسم قائلاً: «جلبت لفتاتي الغالية هديّة».

تساوى سرور إليني بدهشتها، وسألته: «أهو قُستان؟». كانت قد سمعت أن في (بلدة الثّوارس) خياطات بارعات، كما أنها سنّت من ارتداء الثّياب الثّقليديّة.

- «شيء أفضل. حقني ثانية».

- «جواهر؟».

- «لا جوهرة تُداني جمال عيني ابنتي».

- «ليمون؟ هل عثرت على ليمون؟». لقد وعدت الغصفور

الجميل بكعك الليمون، وكعك الليمون يتطلّب ليموناً.

سحبها بيتر بايلش من يدها وأجلسها في حجره قائلاً:

«اثققت لك على زيجة».

- «زيجة...». شعرت بحلقها يضيق. إنها لا تريد الزواج ثانية، ليس الآن، وربما أبدًا. «لست... لا يمكنني أن أتزوج. أبي، إنني...»، ورمقت إليني الباب لتستوثق من إغلاقه، ثم همست: «إنني متزوجة بالفعل، أنت تعرف هذا».

وضع بيتر إصبعًا على شفثيها يسكتها، وقال: «القزم تزوج ابنة ند ستارك لا ابنتي، لكن بغض النظر عن هذا، هذه مجرد خطبة، أما الزواج فعليه أن ينتظر إلى أن ينتهي أمر سرسي وتترقّل سانزا، ثم إن عليك أن تلتقي الفتى وتحظي بقبوله. الليدي واينوود لن تجعله يتزوج رغم إرادته، وقد شدّدت على هذا بمنتهى الحزم».

تساءلت إليني عاجزة عن التصديق: «الليدي واينوود؟ لماذا تزوج أحد أبنائها ب... ب...».

- «...نغلة؟ بدايةً أنت ابنة اللورد الحافظ، لا تنسي. واينوود عائلة عريقة للغاية وأبيرة للغاية، وإن لم تكن بالثراء الذي يحسبه المرء، كما اكتشفت عندما بدأت شراء ديونها. على أن هذا لا يعني أن الليدي أنيا قد تبيع ابنا لها مقابل الذهب، أما إذا كان ربييتا... هاري الشاب مجرّد ابن عمومة، والقهر الذي عرضته على حضرة الليدي أكبر من الذي قبضه لا يونل كوربراي لتوّه. كان يجب أن يكون كذلك كي تخاطر ياغضاب يون البرونزي، لأن هذه الزيجة تُفسد خططه. أنت موعودة لهاري هاردينج يا خلوتي، شريطة أن تظفري بقلبه الغرير... وهو ما لن يستعصي عليك».

- «هاري الوريث؟». حاولت إليني أن تتذكّر ما أخبرتها به ميراندا عنه على الجبل، ثم قالت: «لقد قلّد الفروسيّة، وله بنت نغلة من فتاة من العاقّة».

- «وطفل آخر في الطريق من واحدة أخرى. لا شك أن هاري يُجيد الإغواء. شعره رملي ناعم وعيناه زرقاوان عميقتان وتظهر غمازاته حين يبتسم، ويُقال لي إنه شهم للغاية أيضًا»، وداعبها بيتر بابتسامة متابعًا: «نغلة أو غير نغلة يا خلوتي، عندما تُعلن الخطبة ستكونين محظ حسد كل فتاة من الثلاء في (الوادي)، وبعض بنات أراضي النهر و(المرعى) أيضًا».

حائرة سألته إليني: «لماذا؟ السير هارولد... كيف يكون وريث الليدي واينوود؟ أليس لها أبناء من دمها؟».

أجاب بيتر: «ثلاثة، وبنات وأحفاد أيضًا».

سألته إليني ورائحة التبيذ في أنفاسه تتناهى إلى أنفها ممتزجة بجوز الطيب والقرنفل: «ألن يسبقوا هاري؟ لا أفهم».

- «ستفهمين. أنصتي»، والتقط بيتر يدها ومزج إصبعه بخفة على راحتها مردفًا: «اللورد جاسير آرن، لنبدأ به. إنه أبو جون آرن، وقد أنجب ثلاثة أولاد، ابنين وبنثًا. كان جون الأكبر، فورث (العش) واللورديّة، وتزوّجت أخته أليس السير إليس واينوود عمّ الليدي واينوود الحاليّة»، وارتسم الامتعاض على وجهه إذ تابع: «إليس وآليس، أليس هذا طريقًا؟ ابن اللورد جاسير الأصغر، السير رونل آرن، تزوّج فتاة من عائلة بلمور، لكنه لم يُعاشرها إلا مرّة أو مرّتين قبل أن يموت بمرض في البطن. كان ابنه إلبرت يُولد في فراش بينما يُحتضّر رونل المسكين في فراش آخر في غرفة مجاورة. أنتِ منتبهة يا خلوتي؟».

- «نعم، كان هناك جون وآليس ورونل، لكن رونل مات».

- «عظيم. والآن، چون آرن تزوج ثلاث مّرات، لكن أول زوجتين لم تُنجبا له أطفالًا، ولذا ظلّ إلبرت ابن أخيه وريثه سنوات طويلة. في تلك الأثناء كان إليس يمارس واجباته الزوجية مع آليس التي وضعت طفلًا كل عام، وأنجبت له تسعة أولاد، ثماني فتيات وصبيًا عزيزًا واحدًا اسمه هو الآخر جاسير، ثم مائت وقد خازت قواها. كان جاسير الضبي غافلًا عن الجهود البطولية التي بذلت من أجل المجيء به إلى الحياة، وفي سنّ الثالثة رفضه حصان في رأسه، وبعدها بفترة قصيرة فتكّ الجُدري باثنتين من أخواته تاركًا ست أخوات. الكُبرى تزوجت السير دينس آرن، ابن عمومة بعيد لسادة (الغش). لعائلة آرن فروع عدّة مبعثرة هنا وهناك في (الوادي)، كلّها يتحلّى بالكبرياء ويعوزه المال، باستثناء فرع آرن في (بلدة الثوارس) الذي تمتّع أولاده بالعقل وتزوجوا ثُجّازًا. إنهم أغنياء لكنهم يفتقرون إلى الطّباع الحميدة، ولذا لا يتكلّم أحد عنهم. كان السير دينس ينحدر من أحد الفروع الفخور الفقيرة... لكنه كان مُنازلًا ذائع الصّيت أيضًا ووسيقًا وشجاعًا وينضح كياسةً، وتمتّع كذلك باسم آرن السّحري الذي جعله زوجًا مثاليًا لأكبر فتيات واينوود. هكذا يكون أولادهم من آل آرن وورثة (الوادي) الثّالين إذا أصاب إلبرت سوء، وما حدث أن الملك المجنون إيرس أصاب إلبرت. هل تعرفين هذه القصة؟».

تعرفها. «الملك المجنون قتله».

- «بالفعل، وسرعان ما ترك السير دينس زوجته الخبلى ابنة واينوود ليذهب إلى الحرب. مات دينس في معركة الأجراس بجرعة مفرطة من الشجاعة وضربة فأس، وحين أبلغوا زوجته بموته ماتت بدورها من الحزن وتبعها ابنها حديث الولادة بعد فترة قصيرة. لا يهم. كان جون آرن قد حصل لنفسه على زوجة شابة في أثناء الحرب، زوجة يثق بخصوبتها. إنني واثق بأن أمله كان كبيرًا، لكن علينا يعلم أن كل ما ناله من لايسا كان الإجهاض والإملاص وغصفورنا الجميل المسكين. وهو ما يعيدنا إلى بنات إليس وآليس الخمس المتبقيات. الكبرى شوها الجدري الذي قتل شقيقتها، فأصبحت سبته. واحدة أخرى أغواها مرتزق، فطردها السير إليس وانضمت إلى الأخوات الضامات بعد أن مات نغلها في بطنها. الثالثة تزوجت سيد (جزيرة الثلثين) لكن اتضح أنها عاقر. الرابعة كانت في طريقها إلى أراضي النهر لتتزوج واحدًا من أبناء عائلة براكن عندما اختطفها قبيلة الرجال المحروقين. هكذا تبقى الصغرى التي تزوجت فارسًا من ملأك الأراضي في خدمة آل واينوود، وأنجبت له ابنًا سمته هارولد ثم ماتت»، ودور بيتر يدها وطبع قبلة خفيفة على معصمها، وسألها: «أخبريني إذن يا خلوتي، ما الذي يجعل هاري الوريث إذن؟».

اتسعت عيناها، وقالت: «إنه ليس وريث الليدي واينوود، بل وريث روبرت. إذا مات روبرت...».

قاطعها بيتر مقوَّسًا حاجبه: «عندما يموت روبرت. عصفورنا الجميل الشجاع صبي سقيم بشدَّة. إنها مسألة وقت لا أكثر. عندما يموت روبرت يُصبح هاري الوريث اللورد هارولد حامي (الوادي) وسيد (العش). حملة راية جون آرن لن يحبوني أبدًا، ولا روبرت الشخيف الزاجف، لكنهم سيحبُّون صقرهم الضَّغير... وحين يجتمعون معًا لحضور زفافه وتخرجين بشعرك الكستنائي الطويل مرتديَّة معطف عذراء لونه أبيض ورمادي ومطرز على ظهره الذئب الذهيب... عندها سيتعهد كلُّ فارس في (الوادي) بسيفه ليستردَّ لك حقك بالميلاد. هذه إذن هداياي لك يا عزيزتي سانزا... هاري، و(العش)، و(وينترفل). ألا يستحقُّ هذا قبلة أخرى؟».

(67). الواقع أن تلك القبلة التي سقاها القراء «ألا قبلة» لم تُحدث، ولدى سؤال المؤلف عن هذا التناقض أجاب بأن سانزا راوية لا يُعتمد عليها في هذه الحالة، وأنه يتزك التفسير للقارئ كما يراه. (المترجم).

بريان

قالت لنفسها: هذا حلم شريد، لكن إذا كان خلقاً فلم الألم الممض؟

كف المطر عن الهطول، إلا أن العالم بأكمله بليل. تشعر بمعطفها ثقيلًا كقميصها المعدني، والحبل الذي يُكَبَّل رُسغيها متشبع تمامًا بالماء الذي جعله أضيق وأضيق، ومهما دُورت يديها لا تستطيع تخليص نفسها منه. لا تفهم من قيدها ولم، وحاولت أن تسأل الظلال فلم تُجبها. ربما لم تسمعها، ربما لا تكون حقيقة من الأصل. تحت طبقات الضوف المبتل والحلقات المعدنية التي بدأ الضدأ يأكلها بشرتها ملتهبة محمومة، وتتساءل بریان إن كان كل هذا خلقاً محضاً تمخضت عنه الخُقى.

تحتها حصان، وإن كانت لا تذكر أنها امتطته، وقد انطرحت على وجهها فوق عجيزته كأنها جوال من الشوفان وقيد رُسفاها وكاحلاها مغا. الهواء رطب، والأرض مستترة بالضباب، ورأسها يدق مع كل خطوة، وتسمع أصواتًا لكنها لا ترى إلا الثرية تحت حوافر الحصان. في داخلها أشياء مكسورة، وتحش بوجهها متورماً وبدم لزج على وجنتها، وكل رجّة أو ردّة تطعن ذراعها وتشول فيها الألم. تسمع يودريك يناديها كما لو أنه في مكان بعيد، ما برح يردد: «أيتها الفارس، أيتها الفارس، سيّدتى، أيتها الفارس، سيّدتى». صوته خافت عصي على السمع، وفي النهاية لم تغد تسمع إلا الضمت.

حلقت بنفسها في (هارنغال)، في جَبِّ الذَّبِّ من جديد، وهذه المرة كان العضاض من يَواجهها، ضخم أصلع أبيض كالذيدان، وفي وجنتيه القروح المفتوحة. عارياً انقضَّ عليها، يَذَلِّك غَضوه ويصُرُّ بأسنانه المدببة، وفَزَّت منه بريان صائحة: «سيفي، (حافظ العهد)، أرجوكم»، لكن المتفَرِّجين لم يجيبوا. كان رنلي هناك، ومعه ديك الرُشيق وكاتلين ستارك، وأتى شاجويل وبيج أيضاً، والجثث المشنوقة من الأشجار بوجناتها الغائصة وألسنتها المنتفخة ومحاجر عيونها الخالية. ولولت بريان زُعْباً لمرآها، وأطبَّق العضاض على ذراعها وشذَّها إليه وقضمَ قطعة من وجهها، وسمعت نفسها تصرخ: «چايمي، چايمي!».

حتى في أعماق الخلم لازمتها الآلام. وجهها ينبض، وكثفها تنزف، وأنفاسها ثَوَجَع، والآلم يثْقَد في ذراعها كالبرق.

صاحت طالبة مايستر، فأجابتها صوت فتاة: «ليس هناك مايستر، فقط أنا».

أبحث عن بنت، بنت رقيقة النَّسب في الثالثة عشرة لها عيان زرقاوان وشعر كستنائي. تمتعت: «سيديتي؟ ليدي سانزا؟».

ضحك رجل، وقال: «تظنك سانزا ستارك».

- «لا يمكنها أن تستمرَّ هكذا طويلاً، ستموت».

- «ويقلُّ عدد الأسود واحداً. لن أبكيها».

سمعت بريان أحدهم يُضَلِّي فخطرَ لها أولاً أنه الشيتون ميريبولد، لكن الكلمات خطأ. الليل مظلم ومفعم بالأهوال، وكذلك الأحلام.

في غابة موحشة يركبون، مكان مظلم صامت رطب يتراش فيه شجر الصنوبر ويتلاصق، والأرض ليئة تحت حوافر الحصان، والآثار التي تتركها وراءها تمتلئ بالدماء. إلى جوارها يركب اللورد رنلي وديك كراب وقارجو هوت، ومن خلق رنلي يسيل الدم، ومن أذن الكبش الممزقة ينز القيح. سألت بريان: «أين سنذهب؟ إلى أين تأخذونني؟»، ولم يجبها أحد. وكيف يجيبون؟ إنهم موتى جميعًا. أيعني هذا أنها ميتة أيضًا؟

كان اللورد رنلي يسبقها، مليكها الياسم الجميل يقودها عبر الأشجار، ورفعت بريان عقيرتها تقول له كم تحبه، لكن حين التفّت يرمقها عابسا رأت أنه ليس رنلي أصلا، فرنلي لم يكن يعبس قط. فكّرت: لطالما ابتسم لي... ولو أن...

بصوت هاميس حائر قال رنلي: «يا للبرودة»، وتحرك ظل لا يلقيه رجل، وتدفقت دماء سيدها الجميل من فولاذ واقى عنقه الأخضر لثغرق يديها. كان رجلا دافئا، إلا أن دماؤه باردة كالجليد. ليس هذا حقيقيا، إنه حلم سيئ آخر، وقريبا سأصحو.

توقّف حصانها فجأة، وأطبقت عليها أيد خشنه. رأت خيوط ضوء الأصيل الأحمر تتخلل غصون شجرة، وحصائا يبحث بسنابكه وسط الأوراق الميتة عن ثمارها الشاقطة، ورجالا يتحرّكون على مقربة منها ويتكلمون بأصوات خفيضة، عشرة رجال أو اثني عشر رجلا وربما أكثر. لم تتعرّف بريان وجوههم، وكانت على الأرض وظهرها يستند إلى جذع شجرة.

قال صوت الفتاة: «اشربي هذا يا سيّدتى»، ورفعت كوبا إلى شفّتها. كان المذاق قويا كريها، فبصقت بريان ما شربته، وقالت: «ماء، أرجوك، ماء».

ردّت الفتاة: «الماء لن يُساعدك على احتمال الألم، أمّا هذا فسيساعد... بعض الشيء»، وعادت ترفع الكوب إلى شفّتها.

حتى الشرب يؤلم. سأل التبيذ على ذقنها وقطرَ على صدرها،
ولمّا فرغ الكوب أعادت الفتاة ملأه من قربة، وجرغت بريان
التبيذ حتى لفظته رغفا عنها، وقالت: «كفى».

- «أكثر. إن ذراعك مكسورة وبعض ضلوعك تصدّع، اثنان
وربما ثلاثة».

- «العضاض»، قالت بريان متذكّرة ثقله فوقها وكيف ارتطفت
رُكبتَه بصدرها.

- «أجل، وحش حقيقي».

تذكّرت كلّ شيء؛ البرق من فوق والظمي من تحت، ورنين
قطرات المطر الخافت على فولاذ خوذة كلب الضيد الأسود،
والقوّة الغاشمة في يدي العضاض. فجأة لم تُعدّ تحتمل قيودها
وحاولت التملّص من الحبل، غير أن هذا لم يفض إلا إلى إيلاها
أكثر. معصماها مقيّدان بإحكام شديد، وعلى الحبل دم جاف.
سألت مرتعدة: «هل مات؟ العضاض، هل مات؟». الآن تذكّر
أسنانه تُمزّق لحم وجهها، وفكرة أنه لا يزال طليقًا يتنفس في
مكانٍ ما تجعلها تريد أن تصرخ.

- «مات. جندري غرس رأس حربة في مؤخرة عنقه. اشربي
يا سيّدتي وإلا صبّته في حلقك».

وشربّت بريان، وبين رشفتين همست: «إنني أبحث عن
بنت». كاذت تقول: /أختي. «بنت رفيعة النسب في الثالثة عشرة
لها عينان زرقاوان وشعر كستنائي».

- «لست هي».

نعم. ترى بريان هذا. الفتاة نحيلة لدرجة أنها تبدو كأنها
تُعاني جوعًا مزمنًا، وتجدل شعرها البني في ضفيرة، ونظرة
عينها أكبر من سيئها. شعر بُني وعينان بُنيّتان وملامح تقليديّة.
إنها وילו لكن أكبر بسنّة أعوام. «أنت الأخت، صاحبة الخان».
زرّت الفتاة عينها مجيبة: «ربما. ماذا لو أنني هي؟».

سألته بريان: «ما اسمك؟»، وقرقرت معدتها فخشيت أن تتقيأ.

- «هيل، مثل ويلو، جاين هيل».

- «جاين، حلّي وثاقي، أرجوك، أشفقي عليّ. الحبل يكشط جلد معصمي ويدميهما».

- «ليس مسموحاً لي. ستبقين مقيدةً حتى...».

- «... حتى تقفين أمام سيّدتني». كان رنلي واقفاً وراء الفتاة،

يُزيح شعره الأسود عن عينيه. ليس رنلي، بل جندري. «سيّدتني تريدك أن تدفعي ثمن جرائمك».

- «سيّدتني». كان الثبيذ يُدير رأسها ويجعل التفكير صعباً.

«قلب الحجر. أهي من تعني؟». إنها المرأة التي ذكرها اللورد راندل في (بركة العذارى). «الليدي قلب الحجر؟».

- «بعضهم يدعوها بهذا وبعضهم بأسماء أخرى؛ الأخت

الضامّة، أم القسوة، الشّثاقّة».

الشّثاقّة. حين أغلقت بريان عينيها رأت الجُمث تتأرجح من

الفروع البنيّة الجرداء بوجوه مسوّدة منتفخة، وفجأةً استبدّ بها خوف عارم، وقالت: «بودريك، مُراققي، أين بودريك؟ والآخرون... السير هايل والسّيتون ميريبولد وكلب. ماذا فعلتم بكلب؟».

تبادل جندري والفتاة نظرةً، وكافحت بريان لتنهض،

واستطاعت أن ترفع زُكبةً واحدةً قبل أن يُميد بها العالم، وقُبيل أن تبتلعها الظّلمة سمعت جندري يقول: «أنت التي قتلت الكلب يا سيّدتني».

ثم إذا بها في (قلعة الهمس) من جديد، تقف بين الأطلال
وئواجه كلارنس كراب. كان ضخمًا شرشًا ويمتطي ثورًا برّيًا
شعره أكثر شعنا منه، وراخ الحيوان يضرب الأرض ببرائنه
بغضب حافزًا فيها أخاديد عميقة. لكراب أسنان مدببة، ولما
مدّت يدها إلى سيفها تمتشقته وجذت العمد خاليًا، وإذ انقضّ
السير كلارنس صاحت: «لا!». ليس هذا عدلًا. إنها لا تستطيع
القتال دون سيفها السحري، السيف الذي أعطاها السير جايمي
إياه، وفكرة أن تخذله كما خذلت اللورد رنلي تجعلها تريد
الانفجار في البكاء. «سيفي، أرجوكم، يجب أن أجد سيفي».
أعلن صوت: «تريد سيفها».

- «وأنا أريد أن تمض لي سرسي لانستر قضيب، وماذا في
هذا؟».

- «جايمي سقاه (حافظ العهد)، أرجوكم!». إلا أن الأصوات
لم تُصغ، وكّر كلارنس كراب عليها كالزعد وأطاح برأسها،
وغاضت بريان في ظلمة أعمق.

حلقت بنفسها ممددة في قارب ورأسها يتوشد ججر أحدهم
وحولهما من كل جانب ظلال، رجال يخفون وجوههم
بالقلنسوات ويرتدون الحلقات المعدنية والجلد ويسلكون بهما
نهرًا يكسوه الضباب بمجاذيف مكتومة. كانت ملتهبة تتصّيب
غرقًا، ولكن بوسيلة ما ترتجف أيضًا. الضباب مليء بالوجوه،
وهمست أشجار الضفصاف على الضفاف: المليحة، لكن البوص
رَدّ: المسخ، المسخ. ارتعشت بريان، وقالت: «أسكتوها، فليسكنها
أحد».

عندما استيقظت المرة الثالثة كانت جاين ترفع كوبًا من
الخساء الشاخن إلى فمها. مرق بصل. شربت منه ما استطاعت،
إلى أن احتبست قطعة من الجزر في خلقها وكادت تخلقها،
وكان الشعال عذابًا. قالت الفتاة: «تمهلي».

قالت بصوت مصحوب بالصَّفير: «جندري، يجب أن أتكلَّم مع جندري».

- «لقد عادَ أدراجهُ عند النَّهر يا سيِّدتي، رجِعْ إلى ورشته، إلى ويلو والصُّغار ليحميهم».

لا أحد يستطيع حمايتهم. بدأت تُسفل ثانية، فقال أحدهم: «آه، اتزكّيتها تختنق ووقري لنا الحبل»، وتحرك أحد الظلال ودفع الفتاة جانبًا. رآته يرتدي الحلقات المعدنية الضدّة ويتمنطق بحزام مطّعم بالحديد، ومن وركيه يتدلّى سيف طويل وخنجر، وقد التصقَ بكتفيه معطف أصفر ضخم مئسّخ ومشبّع بالماء، ومن هاتين الكتفين يرتفع رأس كلب من الفولاذ يَكشُر عن أنيابه.

وأنت بريان، وقالت: «لا لا، أنت ميت، لقد قتلتك». ضحك كلب الضيد، وزدّ: «العكس هو الصحيح. أنا من سيقتلك. كنث لأفعلها الآن لولا أن سيِّدتي ترغب في رؤيتك مشنوقة».

مشنوقة. زلزلتها الكلمة خوفًا. نظرت إلى الفتاة جابن مفكّرة: إنها أصغر من أن تكون بهذه القسوة، وشهقت قائلة لها: «العيش والملح. الخان... الشيتون ميريبولد أطعم الأطفال... لقد أكلنا عيشًا وملحًا مع أختك...».

قالت الفتاة: «لم يَغد حقّ الضيافة يعني الكثير منذ عادت سيِّدتي من الرِّفاف. بعض المتدلّين عند النَّهر حسبوا أنفسهم ضيوقًا أيضًا».

وقال كلب الضيد: «ونحن حسبنا شيئًا آخر. أرادوا أسرّة فأعطيناهم الأشجار».

أضاف ظلُّ آخر بعين واحدة يعتمر خونةً مستديرةً صدئة: «عندنا أشجار أكثر من الأسرّة، دائمًا عندنا أشجار أكثر».

لَمَّا حَانَ وَقْتُ التَّحَرُّكِ مَجْدِّدًا وَضَعُوا عَلَى رَأْسِهَا غُطَاءً مِنَ
الْجِلْدِ بِلَا فَتَحَتَيْنِ لِلرُّؤْيَى، وَكَتَمَ الْجِلْدُ الْأَصْوَاتَ الْمَحِيطَةَ بِهَا.
ظَلَّ مَذَاقُ الْبَصْلِ عَلَى لِسَانِهَا لَانْغًا كَمَعْرِفَتِهَا بِفِشْلِهَا. يَنْوُونَ
سَنْقِي. فَكَّرَتْ فِي جَايَمِي وَفِي سَانِزَا وَفِي أَبِيهَا فِي (تَارْت)،
وَامْتَنَّتْ لَوْجُودِ الْغُطَاءِ عَلَى وَجْهِهَا إِذْ أَخْفَى الذَّمُوعَ الْمَتَرَقِرَّةَ
فِي عَيْنَيْهَا. بَيْنَ الْحَيْنِ وَالْآخِرِ تَسْمَعُ الْخَارَجِينَ عَنِ الْقَانُونِ
يَتَكَلَّمُونَ دُونَ أَنْ تُقَيِّزَ مَا يَقُولُونَهُ، وَبَعْدَ فِتْرَةٍ سَلَّمَتْ نَفْسَهَا إِلَى
الْإِنْهَاكِ وَحَرَكَةِ حَصَانِهَا الْبَطِينَةِ الرَّتِييَةِ.

هَذِهِ الْمَرْءَةُ حَلَمَتْ بِنَفْسِهَا فِي الْوَطَنِ فِي (بَهُو الْمَسَاءِ). مِنْ
نَوَافِذِ بَهُو أَبِيهَا الطَّوِيلَةِ الْمَقْنِظَةِ رَأَتْ الشَّمْسَ تَبْدَأُ رَحْلَةَ
الْمَغِيبِ، وَقَالَتْ لِنَفْسِهَا: كُنْتُ أَمْنَةً هُنَا، كُنْتُ أَمْنَةً.

كَانَتْ تَرْتَدِي الْحَرِيرَ الْمَطْرُزَ، قُسْتَانًا أَزْرَقَ وَأَحْمَرَ مَرْتِعَ النُّقْشِ
تُرَيِّنُهُ الشَّمُوسُ الذَّهَبَ وَالْأَهْلَةَ الْفَضَّةَ. عَلَى بَدَنِ فَتَاةٍ أُخْرَى كَانَ
لِيَبْدُو قُسْتَانًا جَمِيلًا، أَمَّا عَلَيْهَا هِيَ فَلَا. كَانَتْ فِي الثَّانِيَةِ عَشْرَةَ،
خَرَقَاءَ مَتَوَثِّرَةً، تَنْتَظِرُ لِقَاءَ الْفَارِسِ الشَّابِّ الَّذِي اتَّفَقَ أَبُوهَا عَلَى
زَوَاجِهَا بِهِ، الْفَتَى الَّذِي يَكْبُرُهَا بِسِتَّةِ أَعْوَامٍ وَمِنْ الْمَوْكَدِ أَنَّهُ
سَيُصْبِحُ بَطْلًا بَعِيدَ الضِّيئِ ذَاتَ يَوْمٍ. كَمْ تَخْشَى مَجِيئَهُ. تَدِيَاهَا
صَغِيرَانِ لِلغَايَةِ، وَيَدَاهَا وَقَدِمَاهَا كَبِيرَةٌ لِلغَايَةِ، وَشَعْرُهَا لَا يَنْفُكُ
يَنْفَرُ، وَفِي الْبُقْعَةِ الْغَائِرَةِ إِلَى جَوَارِ أَنْفِهَا بَثْرَةٌ. وَعَدَهَا أَبُوهَا
قَائِلًا: «سَيُعْطِيكَ وَرْدَةً»، لَكِنِ الْوَرْدَةُ لَا جَدْوَى مِنْهَا، لَا يُمَكِّنُهَا أَنْ
تَحْتَمِيَ بِوَرْدَةٍ. مَا تُرِيدُهُ سَيْفٌ. (حَافِظُ الْعَهْدِ). يَجِبُ أَنْ أَعْثَرَ
عَلَى الْفَتَاةِ، يَجِبُ أَنْ أَعْثَرَ عَلَى شَرْفِهِ.

أخيراً انفتح الباب ودخل خطيبها بهو أبيها بخطوات واسعة. حاولت أن تُكَيِّيه كما أملي عليها، فقط لتتدفَّق الدماء من قمها. كانت قد قضفت لسانها بينما تنتظر، وبصقته عند قدمي الفارس الشاب ورأت الاشمئزاز على ملامحه. بنبرة ساخرة قال لها: «بريان المليحة. لقد رأيت خنازير أجمل منك»، وألقى الوردة في وجهها، وإذا ابتعدت تمؤجت الجرافن على معطفه وتشوّشت واستحالت إلى أسود. أرادت أن تصيح: جايمي! جايمي، غد إليّ! إلا أن لسانها كان على الأرض إلى جوار الوردة ثلّظحه الدماء.

واستيقظت بريان فجأة تلهث.

لم تدري أين هي. الهواء بارد ثقيل ويعبق بروائح الثرية والذود والعفن، وهي مستلقية على سرير من القش تحت كومة من جلود الغنم، فوق رأسها صخور ومن الجدران تبرز جذور والضوء الوحيد في المكان ينبعث من شمعة من الشحم يتصاعد دُخانها وتُحيط بها بركة شمع ذائب.

أزاحت الأغطية، ورأت أن أحدهم جرّدها من ثيابها ودرعها، وبدلاً منها ترتدي الآن قميصاً طويلاً من الصوف البني، خفيفاً لكن مفسولاً حديثاً. كان ساعدها مثبتاً بجبيرة ومربوطاً بالكثان، وأحشت بأحد جانبي وجهها مبتلاً يابساً، ولما مشته وجذت ضمادة رطبة تُغطّي وجنتها وفكّها وأذنها. العضاض...

نهضت بريان على قدمين من ماء وبرأس خفيف كالهواء، وتساءلت: «هل من أحد هنا؟».

تحرك شيء ما في إحدى الفجوات الظليلة وراء الشمعة، رجل عجوز أشيب يرتدي الأسمال. سقطت الأغطية التي التحف بها إلى الأرض، واعتدل جالساً وفرك عينيه قائلاً: «ليدي بريان؟ لقد أفرعني. كنت أحلم».

لا، كنت أنا الحالمة. «ما هذا المكان؟ أهذه زنازة؟».

- «كهف. كالجرذان علينا أن نهرع إلى جحورنا حين نخرج الكلاب تتشقم آثارنا، والكلاب تزداد عددًا كل يوم». يرتدي الزجل بقايا مهترئة لثوب طويل قديم كان لونه أبيض وورديًا، وشعره طويل شائب متلبّد، ويَقْطِي زغب خشن جلد وجنتيه وذقنه المتهذّل. سألها: «أأنت جائعة؟ هل تستطيعين أن تشربي كوبًا من الحليب بلا قيء؟ ربما القليل من الخُبْز والعسل؟».

- «أريد ملابسي وسيفي». دون قميصها المعدني تُشْفِر كأنها عارية، وتريد (حافظ العهد) إلى جانبها. «طريق الخروج، أرني طريق الخروج». أرض الكهف ثراب وحجارة، خشنة تحت أخمضي قدميها، وحتى الآن تُشْفِر بالدّوار كأنها طافية. كان الضّوء المتذبذب يلقي ظلالًا غريبة، ففكرت: أرواح القتلى ترقص حولي، تختبئ كلّما التفّتْ أنظر إليها. في كلّ ناحية ترى فجواتٍ وصدوعًا وشروخًا، لكن لا سبيل إلى معرفة الطريق الذي يأخذها إلى الخارج، أو الطريق الذي يتوغّل بها في الكهف أكثر أو يقودها إلى نهاية مسدودة. كلّها أسود كالقار.

سألها سجانها: «هل تسمحين بأن أتحنّس جبهتك يا سيّدتني؟». يده نديبة يابسة الجلد، لكنها رقيقة على نحو غريب، وقد أعلن بصوت منكّه بلكنات الفدن الخُرّة: «زالت الحُقَى. عظيم. حتى البارحة كان ملمس جلدك كأنه مشتعل نازًا، وخشيت جارين أن نفقدك».

- «جارين. الفتاة الطويلة؟».

- «هي بالضبط، ولو أنها لا تُضاهيك في الطول يا سيّدتني. يدعونها بجارين الفارعة. هي التي جبّزت ذراعك وضقّدت بهراة أيّ مايستر. لقد بذلت كلّ ما استطاعت لعلاج وجهك أيضًا، غسّلت الجروح بالمِزر المغلي لثوقف الثّعْفَن، لكن رغم ذلك... عضة الإنسان شيء قذر. إنني واثق بأنها كانت السبب في الحُقَى»، ومسّ الأَشِيبَ وجهها المضقّد مردقًا: «اضطّررنا إلى قطع القليل من اللحم. أخشى أن وجهك لن يعود جميلًا».

لم يكن كذلك قَطُّ. «أتعني الدوب؟».

- «سَيِّدتي، ذلك المخلوق مضغٌ يصف وجنتك».

جفّلت بريان رغماً عنها. حين سألت السير جودوين أن يَعْلَمَها القتال بالسيف قال لها محدّراً: كلُّ فاريس يحمل ندوب المعارك. / هذا ما تُريدين يا بنيتي؟ على أن قيّم السلاح العجوز كان يقصد إصابات السيوف، وما كان ليتوقّع أسنان العضاض المدبّبة مطلقاً. «لماذا تُجبرون عظامي وتغسلون جروحي إذا كنتم تنتوون شنقي؟».

قال: «لماذا حقّاً؟»، ونقلَ بصره إلى الشّمعَة كأنه لم يَعد يطيق النّظر إليها، وتابع: «قيلَ لي إنك قاتلتِ بشجاعة عند الخان. لم يكن يجدر بليم أن يتزك مفترق الطّرق. كانت تعليماته أن يبقى قريباً متوارياً، وأن يأتي في الحال إذا رأى الدّخان يتصاعد من المدخنة... لكن حين بلغه خبر برؤية كلب (الملاحات) المسعور يشق طريقه شمالاً بمحاذاة (الفرع الأخضر) ابتلع الطّعم. كنا نلاحق تلك المجموعة منذ فترة طويلة جدّاً... ومع ذلك كان عليه أن يكون أكثر حيطةً. هكذا مرّ نصف يوم قبل أن يدرك أن الممثلين استخدّموا جدولاً لإخفاء آثارهم وداروا من ورائه، ثم ضاع منه المزيد من الوقت في الدّوران حول فرقة من فرسان فراي. لولاك لما وجدَ ليم ورجاله في الخان إلّا الجثث عندما عابوا. لهذا ضفدت جاين جروحك ربما. أيّا كان ما فعلته غير هذا فقد كسبت هذه الجروح بشرف وفي سبيل أفضل الغايات».

أيّا كان ما فعلته غير هذا. «وما الذي تحسبونني فعلته؟ من أنتم؟».

- «كنا رجال الملك حين بدأنا، لكن رجال الملك يحتاجون إلى ملك، ونحن لا ملك لنا. كنا إخوة أيضاً، لكن أخوتنا انفصفت غراها. الحقيقة أنني أجهل من نحن أو إلام نشجه. لا أدري إلّا أن الطّريق مظلم، والثيران لم تُرني ما يقبع في نهايته».

أعرف ما في نهايته. لقد رأيت الجئت على فروع الأشجار.
رئدت بريان: «الثيران»، وفجأة فهت، فقالت: «أنت الزاهب
المايري، الساحر الأحمر».

خفض عينيه إلى توبه المهترئ وابتسم بكآبة قائلاً: «المدعي
الوردي بمعنى أدق. أنا (ثوروس) الذي كان من (مير)، نعم...
زاهب سيئ وساحر أسوأ».

- «أنت تتركب مع دونداريون سيّد البرق».

- «البرق يسطع ويخفت ثم ينطفئ تمامًا، وكذا البشر. لقد
انطفأت نار اللورد بريك في هذا العالم، والآن يقودنا ظل أكثر
جهامة في مكانه».

- «كلب الصيد؟».

زَمَّ الزاهب شفّتيه مجيئًا: «كلب الصيد مات وذِفَن».

- «لقد رأيته في الغابة».

- «خلم حَقَى يا سيّدتى».

- «قال إنه سيّشئقني».

- «حتى الأحلام تكذب. سيّدتى، متى أكلت آخر مرّة؟ مؤكّد
أنك تتضوّرين جوعًا».

أدركت أنها كذلك حقًا، وأحشت بخواء معدتها، فقالت:
«الطعام... سأرحّب بالطعام، شكرًا».

- «وجبة إذن. اجلسي. سنتكلّم أكثر، لكن الوجبة أولاً.
انتظري هنا»، وأشعل ثوروس فتيلًا من شمعة زائبة واختفى
في فجوة سوداء تحت إفريز صخري، ووجدت بريان نفسها
بمفردها في الكهف الصغير. لكن إلى متى؟

ذرعت المكان باحثة عن سلاح. كان أيُّ سلاحٍ ليصلح؛ عصا أو هراوة أو خنجر، لكنها لم تجد إلا الضخور. ناسبت إحداها يدها تمامًا... ثم إنها تذكرت (قلعة الهمس) وما جرى لشاجويل حين حاول القتال بحجرٍ ضد سكّين، ولما سمعت خطوات الرّاهب العائدة تركت الصخرة تسقط على أرض الكهف وجلست من جديد.

رجع ثوروس حاملاً خُبْزًا وجبنةً ووعاءً من اليخنة، وقال لها: «آسف، آخِر حليبنا حمضٌ والعسل كلّه نفذ. الطعام أصبح شحيحاً، لكن هذا سيُشبعك».

كانت اليخنة باردةً مليئةً بالدهون والخُبز جامداً والجبنة أكثر جموداً، وفي حياتها كلّها لم تتذوّق بريان شيئاً بهذه اللّذازة. سألت الرّاهب بينما تمسح ثمالة اليخنة بالخُبز: «هل رفاقي هنا؟».

- «الشيتون أطلق سراحه وذهب في حال سبيله. لم يكن الرّجل مؤذياً. الآخران هنا، ينتظران الحكم».

قطّبت وجهها قائلةً: «الحكم؟ يودريك يابن مجرّد صبي».

- «يقول إنه مرافق».

- «أنت تعرف كم يحب الضّبية الثّباهي».

- «مرافق العفريت. لقد قاتل في معركةٍ باعترافه، بل ويقول

إنه قتل كذلك».

- «إنه صبي. أشفقوا عليه».

قال ثوروس: «سيّدتي، لا أشك في أن الرّأفة والرّحمة والمغفرة ما زال لها وجود في مكانٍ ما في (الممالك السّبع)، لكن لا تتطلّعي إليها هنا. هذا كهف لا معبد. حين يُرغم النّاس على المعيشة كالجرذان في الظّلام تحت الأرض قسرعان ما تنفد منهم الشّفقة كما ينفد الحليب والعسل».

- «والعدالة؟ أيّمكن العثور عليها في كهف؟».

ابتسم ثوروس بشحوب قائلا: «العدالة. إنني أذكر العدالة. كان لها مذاق سار. العدالة كانت بُغيتنا وقت أن قادتنا بريك، أو هكذا أخبرنا أنفسنا. كنا رجال الملك، فُرساء وأبطالاً... لكن بعض الفرسان قلبه مظلم ومفعم بالأهوال يا سيديتي. الحرب تُحيلنا جميعاً إلى وحوش».

- «هل تقول إنكم وحوش؟».

- «أقول إننا بشر. لست الوحيدة المثخنة بالجراح يا ليدي بريان. بعض إخوتي كانوا رجالاً صالحين حين بدأنا، وبعضهم كانوا... لنقل إنهم كانوا أقل صلاحاً. ولو أن هناك من يقولون إن بداية الرجل لا تهتم، وإنما نهايته فقط. أظن أن الشيء نفسه ينطبق على النساء»، ونهض الزاهب مردفاً: «أخشى أن وقتنا مفا انتهى. إنني أسمع إخوتي قادمين. سيُدتنا تطلبك».

سمعت بريان وقع أقدامهم ورأت ضوء مشعل يتذبذب في الممر، وقالت: «ذكرت أنها ذهبت إلى (الشوق القصية)».

- «بالفعل، وعادت ونحن نائمون. إنها لا تنام أبداً».

قالت لنفسها: لن أخاف، لكن أوان ذلك فات بالفعل، فوعدت نفسها: لن أدعهم يرون خوفي.

أتاها أربعة، رجال قساة وجوههم تعبنة يرتدون الحلقات والصفائح المعدنية والجلد، وقد تعرّفت أحدهم، الأعور الذي رآته في أحلامها.

كان أكبر الأربعة حجماً يرتدي معطفاً أصفر رثاً متسخاً، وخاطبها قائلاً: «هل استمتعت بالطعام؟ أتمنى هذا. إنها آخر وجبة ستأكلينها». له شعر بُني ولحية وعضلات مفتولة وأنف انكسر والتحم على نحو سيئ. فكّرت بريان: /عرف هذا الرجل، وقالت له: «أنت كلب الضيد».

ابتسم بأوسع كاشفاً منظر أسنانه المعوجة النخرة الشنيع، ورّد: «أظن أنني هو بما أن سيديتي قتلت السابق»، ودور رأسه وبصق.

قالت متذكّرة وميض البرق والوحل تحت قدميها: «رورج هو من قتلث. لقد أخذ الخوذة من على قبر كليجاين وأنت سرقتها من جثته».

- «لم أسمعہ يعترض».

شهق ثوروس فزعًا، وسأل: «أهذا صحيح؟ خوذة رجل ميت؟ هل انحدرنا لهذه الدرجة؟».

أجابته الرجل الكبير عابثًا: «إنه فولاذ جيّد».

قال الزّاهب الأحمر: «لا شيء جيّدًا في هذه الخوذة أو في الرّجلين اللّذين اعتادا اعتمارها. ساندور كليجاين كان رجلًا معذبًا، ورورج وحشًا في هيئة إنسان».

- «لست مثلهما».

- «لماذا تُري العالم وجههما إذن؟ هذا وجه شرّس شائه مزمجر... أهذا من تريد أن تكون يا ليم؟».

- «منظرها سيُخيف أعدائي».

- «منظرها يُخيفني أنا».

قال ذو المعطف الأصفر: «أغمض عينيك إذن»، ثم لوّح بيده بحذّة مستطرذًا: «أحضروا العاهرة».

لم ثقاوم بريان. إنهم أربعة وهي واهنة وجريحة وعارية تحت القميص الضّوف الطّويل. اضطرّت إلى حني عنقها كي لا يختبط رأسها بالسّقف إذ ساقوها في الممرّ المتعرج، ثم ارتفع الطّريق أمامهم بحذّة وانعطف مرّتين قبل أن يخرّجوا إلى كهف أكبر مليء بالخارجين عن القانون.

في منتصف الأرضيّة حفرة نار يصبغ نّخانها الهواء بالأزرق، وقد تلمّص الرّجال قُرب النّار مدقّتين أنفُسهم من برد الكهف، ووقف آخرون عند الحوائط أو جلسوا مرّبعين الشّيقان على أسرّة من القش. رأت نساء أيضًا، بل وبضعة أطفال يختلسون النّظر من وراء تنانير أمهاتهم. الوجه الوحيد الذي تعرّفته بريان هو وجه جاين هيل الفارعة.

على الجانب الآخر من الكهف طاولة منصوبة في صدع في الصخر، ووراءها تجلس امرأة ترتدي الزمادي وتُخفي قلنسوة معطفها وجهها، وفي يدها تاج هو دائرة رفيعة من البرونز الذي تبرز منه سيوف حديدية صغيرة، وكانت المرأة تتفرس فيه وتتحسس أصابعها النصال كأنها تختبر حدتها، وتحت القلنسوة تلتمع عيناها.

الزمادي لون الأخوات الضامتات، وصيفات (الغريب). أحشت بريان بالقشعريرة تسري على عمودها الفقري، وقالت لنفسها: قلب الحجر.

قال الرجل الكبير: «ها هي ذي يا سيديتي».

أضاف الأعور: «أجل، عاهرة قاتل الملك».

سألت جافلة: «لماذا تنعتني بهذا؟».

- «لو نلت أيلاً فضّاً كل مرة نطقت فيها اسمه لصرت ثرياً كأصدقائك أولاد لانستر».

- «كان هذا مجرّد... لستم تفهمون...».

قال الكبير ضاحكاً: «حقاً؟ أظن أننا نفهم تمامًا. رائحة الأسود فائحة منك أيتها السيدة».

- «غير صحيح».

تقدّم واحد آخر من الخارجين عن القانون، رجل أصغر سنّاً يرتدي سترة من جلد الأغنام مبقّعة بالشحم، وفي يده (حافظ العهد)، وقد قال بلكنة يكسوها صقيع الشمال: «هذا يقول إنه صحيح»، ثم سحب الشيف من غمده ووضع أمام الليدي قلب الحجر. في ضوء بؤرة النار بدت تموجات النصل الحمراء والشداء كأنها تتحرّك، لكن المرأة ذات المعطف الزمادي سلّطت نظراتها على القبيعة وحدها، على رأس الأسد الذهبي ذي العينين الياقوت المتألقتين كنجمتين حمراوين.

قال ثوروس المايري: «هناك هذه أيضًا»، وسحب من كُمه رَقًا وضعه إلى جوار السيف مضيئًا: «الورقة تحمل ختم الملك الضبي وتقول إن حاملها مكلف منه».

وضعت الليدي قلب الحجر السيف وقرأت الرسالة. قالت بريان: «لقد أعطيت السيف لهدف وجيه. السير چايمي حلف يمينًا لكاتلين ستارك...».

قاطعها الكبير ذو المعطف الأصفر: «لا بُدَّ أن هذا كان قبل أن يذبحها أصدقاؤه. كلنا يعرف قاتل الملك وأيمانه».

فكرت بريان: لا فائدة. لا شيء أقوله سيقتنعهم، إلا أنها اندفعت رغم ذلك تقول: «لقد وعد الليدي كاتلين بابنتيها، لكن لدى بلوغنا (كينجز لاندنج) كانتا قد رحلتا. چايمي أرسلني أبحث عن الليدي سانزا...».

سألها الشمالي الشاب: «وإذا عثرت على الفتاة فماذا كنت ستفعلين بها؟».

- «أحميها، أخذها إلى مكان آمن».

ضحك الكبير متسائلًا: «أين؟ زنازة سرسي؟».

- «لا».

- «أنكري كما شئت. السيف يقول إنك كاذبة. هل يفترض أن نصدق أن آل لانستر يعطون أعداءهم سيوفًا مرسعة بالذهب والياقوت؟ أن قاتل الملك أرادك أن تخفي الفتاة عن توأمتها؟ وأظن أنك تحملين الورقة المذيلة بختم الملك الضبي تحسبًا لأن تحتاجي إلى مسح مؤخرتك بها؟ ثم إن هناك رفيقك...»، والتفت الكبير وأشار، فانشقت صفوف الخارجين عن القانون وجيء بأسيرين آخرين، وقال لليدي قلب الحجر: «الضبي كان مرافق العفريت يا سيديتي، والآخر واحد ملعون من قرسان راندل تارلي اللعين».

تلقي هائل هنت ضرباً مبرحاً لدرجة أنها كادت لا تتعرف وجهه المتورم، وإذ دفعوه تعثر وكادت يسقط، لكن يودريك أمسكه من ذراعه، ولقا رأى الضبي بريان قال ببؤس: «أيتها الفارس، أعني يا سيديتي، أنا آسف».

ردت بريان: «ليس هناك ما تأسف له»، والتفتت إلى قلب الحجر قائلة: «أيًا كانت الخيانة التي تحسبيني ارتكبتها يا سيديتي فلم يكن ليودريك والسير هائل دور فيها».

قال الأعور: «إنهما أسدان، وهذا يكفي. أقول أن يشنقا. تارلي شنق عشرين من رجالنا، وأن أوان أن نشنق أحداً من رجاله».

منح السير هائل بريان ابتسامة منطفئة، وقال: «سيديتي، كان حرثاً بك أن تتزوجيني عندما عرضت عليك، والآن أخشى أنك ستموتين عذراء وأني سأموث فقيرًا».

قالت بريان بضراعة: «أطلقوا سراحهما».

لم تُجب المرأة ذات المعطف الزمادي، بل أمعنت النظر إلى السيف والورقة والثاج البرونز والحديد، وأخيراً رفعت يدها تضعها تحت فكها وأمسكت رقبتها بإحكام كأنها تريد أن تخلق نفسها، لكنها بدلاً من ذلك تكلمت... صوتها متقطع، مكسور، معذب، ويبدو كأنه يخرج من خلقها لا قمها، جزء منه نعيب، جزء منه صغير، جزء منه خشخشة الموت. لغة الملعونين.

قالت بريان: «لا أفهم. ماذا قالت؟».

أجاب الشمالي الشاب ذو الشجرة الجلد: «سألت عن اسم سيفك هذا».

- «حافظ العهد».

هسهست المرأة من بين أصابعها، عيناها خفرتان حمراوان مثقبتان في الظلال... وتكلمت ثانية.

- «تقول لا، تقول إن عليك أن تشفيه ناقض العهد، إنه مصنوع للخيانة والغيلة. تشفيه الصديق الغادر، مثلك».

- «بمن غدرت؟».

قال الشمالي: «بها. أيمكن أن سيّدتني نسيت أنها أقسمت على خدمتها؟».

ثقة امرأة واحدة أقسمت لها عذراء (تارث) على الخدمة، فقالت: «مستحيل. لقد مائت».

تمتعت جاين هيل الفارعة: «ما عاذ الموت وحقّ الضيافة يعنيان الكثير كالسابق».

خفضت الليدي قلب الحجر قلنسوتها وحلّت الوشاح الضوف الزمادي عن وجهها. شعرها جاف متقصف أبيض كالعظم، وجبهتها مزيج من الأخضر والزمادي ومبقعة بشروخ الثحلّ البنية، ولحم وجهها شرائط متهتكة من عينيها إلى فكّها، بعض شقوقه عليه قشرة من الدماء الجافّة، وبعضها مفتوح يكشف الجمجمة من تحته.

وجهها، وجهها كان قويًا وسيّما، وجلدها أملس ناعما. ملأت الذمّوع عيني بريان، وقالت: «ليدي كاتلين؟ قالوا... قالوا إنك مُت».

قال ثوروس المايري: «إنها ميتة. آل فراي شقّوا حلقةا من الأذن إلى الأذن. حين وجدناها على ضفّة النهر كانت ميتة منذ ثلاثة أيام. توشل إليّ هاروين أن أعطيها قُبلة الحياة، لكن وقتًا طويلًا جدًا كان قد مضى. رفضت أن أفعلها ثانية، فوضع اللورد بريك شفّتيه على شفّتيها بدلًا مني وانتقل لهب الحياة إليها منه، و... نهضت. فليحمنّا إله الضياء، لقد نهضت!».

أما زلت أحلم؟ أهذا كابوس آخر ولدته أسنان العضاض؟ «لم أحنها قط، قل لها هذا. أقسم بالآلهة السبعة، أقسم بسيفي».

وضع الشيء الذي كان كاتلين ستارك يده على حلقه ثانية وضمت أصابعه الشقّ الطويل الفظيع في عنقه، وخرج منه المزيد من الكلمات المخنوقة، ثم قال الشمالي لبريان: «تقول إن الكلام هواء، تقول إن عليك إثبات إخلاصك».

- «كيف؟».

- «بسيفك. تُسقينه (حافظ العهد)؟ سيّدتي تقول أن تحفظني عهدك لها إذن».

- «ماذا تريد مني؟».

قال الكبير: «تريد ابنها حيًا أو مَن قتلوه موتى. تريد أن تُطعم الغربان كما فعلوا في الرّفاف الأحمر، آل فراي وآل بولتون، نعم. هؤلاء سنُعطيها العدد الذي ترغبه منهم. كلّ المطلوب منك جايمي لانستر».

جايمي. كان الاسم سكيًا يتلوّى في بطنها. «ليدي كاتلين، إنني... لست تفهمين. جايمي... لقد أنقذني من الاغتصاب حين أسرنا الممثلون الشّفاّحون، ولاحقًا عادَ من أجلي ووثبَ في جُبّ الذّبّ وهو أعزل... أقسم لك أنه لم يَغْدِ الرّجل الذي كانه. لقد أرسلني أبحث عن سائزًا لأحميها، ولا يمكن أنه لعبَ دورًا في الرّفاف الأحمر».

انغرست أصابع الليدي كاتلين في خلقها، وخرجت منها الكلمات مخشخشةً مخنوقةً مكسورةً، تتدفّق جدولًا باردًا كالجليد، ثم قال الشّمالي: «تقول إن عليك أن تختاري. خُذي السيف واقبلي قاتِل الملك وإلا شُقت كخائنة. تقول إمّا السيف وإمّا الأنشودة. تقول اختاري، فهيا اختاري».

تذكّرت بريان خلماها وانتظارها في بهو أبيها الرّجل الذي كانت ستترجّفه. في الخلم قطعت لسانها بأسنانها. وكان فمي مليئًا بالدم. التقظت نفسي مهتزًا، وقالت: «لن أختار».

رأى صمت طويل، ثم تكلمت الليدي قلب الحجر ثانية، وهذه المرّة فهقت بريان ما قالته بصوت كالنّعيب. كانتا كلمتين لا أكثر: «اشئقوهم جميعًا».

قال الكبير: «كما تأمرين يا سيّدتي».

عادوا يُقَيِّدون رُسْفِي بِرِيان بِالْحَبَالِ وَسَاقُوهَا مِنَ الْكَهْفِ
صَاعِدِينَ مَمْرًا حَجْرِيًّا مَتَعَزِّجًا إِلَى الشَّطْحِ. رَأَتْ مِنْدَهْشَةً أَنَّ
الضَّبَاحَ طَلَعَ فِي الْخَارِجِ، وَقَدْ تَخَلَّلَتْ خِيُوطُ ضَوْءِ الْفُجْرِ
الشَّاحِبِ الْأَشْجَارَ. أَشْجَارٌ كَثِيرَةٌ جَدًّا يَنْتَقُونَ مِنْهَا. لَنْ يَضْطَرُّوا
إِلَى اخْتِذَا بَعِيدًا.

وَلَمْ يَفْعَلُوا. تَحْتَ صَفْصَافَةٍ مَلْتَوِيَةٍ وَضَعَ الْخَارِجُونَ عَنِ
الْقَانُونِ أَنْشُوطَةً حَوْلَ غَنْقِهَا وَشَدُّوهَا بِأَحْكَامٍ وَأَلْقَوْا طَرَفَ
الْحَبْلِ الْآخَرَ مِنْ فَوْقِ أَحَدِ الْفُرُوعِ. أَعْطَوْا هَايِلَ هَنْتَ وَيُودْرِيكَ
يَايِنَ شَجَرَتِي دَرْدَارَ، وَكَانَ السَّيْرُ هَايِلَ يَصِيحُ قَائِلًا إِنَّهُ سَيَقْثُلُ
چَايْمِي لَانَسْتَرِ، لَكِنْ كَلْبُ الضَّيْدِ لَطَقَهُ عَلَى وَجْهِهِ فَأَخْرَسَهُ. كَانَ
قَدْ اعْتَمَرَ الْخُوْذَةَ ثَانِيَةً، وَقَالَ لَهَا: «إِذَا كَانَتْ هُنَاكَ جَرَائِمُ ثَرِيدِينَ
الاعْتِرَافِ بِهَا لَأَلْهَتِكَ فَالآنَ الْوَقْتُ الْمُنَاسِبُ».

- «يُودْرِيكَ لَمْ يُؤْذِيكُمْ قَطُّ. سَيَدْفَعُ أَبِي قَدِيَّتَهُ. (تَارْت) تُسَمِّي
جَزِيرَةَ الصَّفِيرِ. أَرْسَلُوا يُودْرِيكَ مَعَ رُفَاتِي إِلَى (بَهُو الْمَسَاءِ)
وَسَتَنَالُونَ صَفِيرًا وَفَضَّةً، أَيَّا كَانَ مَا تُرِيدُونَ».

قَالَ كَلْبُ الضَّيْدِ: «أَرِيدُ أَنْ تَعُودَ إِلَيَّ زَوْجَتِي وَابْنَتِي. هَلْ
يَسْتَطِيعُ أَبُوكَ إِعَادَتَهُمَا لِي؟ إِنْ لَمْ يَسْتَطِيعْ فَلْيَذْهَبْ إِلَى الْجَحِيمِ
إِذَنْ. سَيَتَعَفَّنُ الضَّبِي إِلَى جَوَارِكِ وَسَتَنْهَشُ الذَّنَابَ عِظَامَكُمَا».

سَأَلَهُ الْأَعُورُ: «هَلْ تَنْوِي أَنْ تُشْنِقَ الْحَقِيرَةَ يَا لَيْمَ أَمْ تُقْتُلُهَا
بِكَلَامِكَ؟».

اِخْتَطَفَ كَلْبُ الضَّيْدِ طَرَفَ الْحَبْلِ مِنَ الرَّجُلِ الَّذِي يُمَسِّكُهُ
قَائِلًا: «لَنْزِ إِنْ كَانَتْ تُجِيدُ الرِّقْصَ»، وَشَدَّ الْحَبْلَ.

شعرت بريان بالقئب يضيق منغرسًا في جلدها دافعا ذقنها
إلى أعلى. كان السير هایل يلعنهم بأطايب الألفاظ، ولكن ليس
الضبي، إذ لم يرفع يودريك عينيه عن الأرض، حتى عندما
افترقت قدماه عنها. إذا كان هذا خلعا آخر فحان الوقت لأن
أصحو، وإن لم يكن فهذه ساعة مماتي. لم تر إلا يودريك
والأنشودة حول عنقه الرفيع ورعشة ساقيه. انفتح قمها، وكان
يودريك يركل، يختنق، يموت. امتصت بريان الهواء بيأس بينما
يخنقها الحبل خنقا، تتألم كما لم تتألم من قبل قط.
ثم إنها صرخت بكلمة.

الشَيْتة مويل عجوز شمطاء ملامحها حاذة كالفأس وفمها مزموم باستنكار دائم. فكّرت سرسى: أراها لا تزال محتفظة بغشاء يكارتها، ولو أنه الآن يابس ضلب كالجلد المقوى. يصحب المرأة سثة من فرسان الشيتون الأعلى الذين يحملون الثروس ذات الشكل اللوزي، المزينة بسيف قوس قزح رمز جماعتهم الوليدة من جديد.

قالت سرسى الجالسة عند قاعدة العرش الحديدي مرتدية الحرير الأخضر وشرائط الزينة الذهبية: «أيتها الشيتة، أخبري صاحب القداسة الأعلى بأننا مستاءون منه. إنه يتعدى حدوده». كان الزمرد يلتصع على أصابعها وفي شعرها الذهبي، وأعين البلاط والمدينة عليها، وهي تعتزم أن تُريهم وجه ابنة اللورد تايوين. مع بلوغ هذه المهزلة نهايتها سيعلمون أن لهم ملكة حقيقية واحدة فقط. لكن علينا أولاً أن نرقص ونرقص ولا نُفوّت خطوة. «الليدي مارجري زوجة ابني المخلصة الرقيقة، رفيقته وشريكة حياته. لم يكن لصاحب القداسة الأعلى الحق في أن يضع يداً عليها أو يحتجزها وبنات عمومتها الضغيرات العزيزات علينا جميعاً. أطلبكم بإطلاق سراحهن».

لم يهتز التعبير الضارم على وجه الشيتة مويل، وقالت: «سأنقل كلام جلالتك إلى صاحب القداسة الأعلى، لكن يؤسفني أن أقول إن إطلاق سراح الملكة الصغيرة ورفيقاتها ليس ممكناً إلى أن وما لم تثبت براءتهن».

- «براءتهن؟ ما عليك إلا أن تُنظري إلى وجوههن الجميلة لتري كم هن بريئات».

- «كثيراً ما يخفي الوجه الجميل قلباً مليئاً بالخطايا».

تكلّم اللورد ميريويدر من مكانه على طاولة المجلس متسائلاً: «ما الجرم الذي اتّهمت به أولئك الصّغيرات ومن اتّهمهن؟».

أجابّت الشّيطة: «مجا تايرل وإلينور تايرل متّهمتان بالفسق والخلاعة والثّأمر على ارتكاب الخيانة العظمى، وآلا تايرل متّهمة بشهادة عارهما والثّسّثر عليه. الملكة مارجري متّهمة بكلّ هذا أيضاً، بالإضافة إلى الزّنى والخيانة العظمى».

وضعت سرسي يدها على صدرها قائلة: «أخبريني من ينشر هذه الافتراءات عن زوجة ابني! لا أصدّق كلمة من هذا. ابني الغالي يحبّ الليدي مارجري بكلّ قلبه، ولا يمكن أن تكون قاسية خذاعة هكذا».

- «المدّعي فارس من أهل بيتك. السير أوزني كتلبلاك اعترف بمعرفته الحميمة بالملكة للشّيتون الأعلى نفسه أمام مذبح (الأب)».

على طاولة المجلس شهقّ هاريس سويفت وأشاح المايستر الأكبر بايسل بوجهه، وامتلاً الهواء بالظّنين كأن في قاعة العرش ألف دثور. بدأت بعض الليديّات في الشّرفة ينسحبين، يتبعهنّ صفّ من اللوردات والفرسان الصّغار من مؤخّرة القاعة. تركّهم ذوو المعاطف الذهبية يخرجون، لكن الملكة كانت قد أمّلت على السير أوزفريد أن يسجّل أسماء كلّ من يفز. فجأة لم يعد عبير وردة تايرل إلخاذا كما كان.

قالت الملكة: «لا أنكر أن السير أوزني شابّ له شهواته، لكنه فارس مخلص رغم هذا. إذا قال إنه ضالغ في... لا، مستحيل. مارجري عذراء!».

- «ليست عذراء. لقد فحصتها بنفسى نزلًا عند رغبة صاحب القداسة الأعلى. غشاء بكارتها مفضوض. سؤكّد الشّيتة آجلانتين والشّيتة ميليسنت هذا، علاوةً على نستيريكا سبيتة الملكة مارچري، التي احتجّزت في صومعة توبة بسبب الدّور الذي لعبته في عار الملكة. فحصنا الليدي مّجا والليدي إلينور أيضًا، ووجدنا بكارة الاثنتين مفضوضة».

تعالى طنين الذّبابير لدرجة أن الملكة استطاعت سماع أفكارها بالكاد. أتمنى أن الملكة الصغيرة وبنات عمومتهاستمتعن برحلات ركوب الخيل.

ضرب اللورد ميريويدر الطاولة بقبضته قائلاً: «الليدي مارچري خلقت أيمانًا مقدّسةً تُؤكّد غزيرتها لصاحبة الجلالة ووالدها الزّاحل، وهناك شهود كثيرون على هذا، كما شهد اللورد تايرل أيضًا على براءتها، بالإضافة إلى الليدي أولينا التي نعلم جميعًا أنها فوق مستوى الشّبهات. هل تريدوننا أن نصدّق أن كلّ هؤلاء كذبوا علينا؟».

ردّت الشّيتة مويل: «ربما خدعوا أيضًا يا سيّدي، ليست عندي بيئة على هذا. أستطيع فقط أن أقسم على صحة ما اكتشفته بنفسى حين فحصت الملكة».

كانت صورة هذه الحيزبون العجوز المتجهمّة تضع أصابعها المتغضّنة في فرج مارچري الوردي الصّغير طريفةً لدرجة أن سرسي كادت تضحك. قالت: «إننا مصّرون على أن يسمح صاحب القداسة الأعلى لمايستراتنا بفحص زوجة ابني للبتّ في صحة هذه المطاعن. أيها المايستر الأكبر پايسل، ستصحب الشّيتة مويل إلى سبت المحبوب بيلور وترجع إلينا بحقيقة بتولة مارچري».

كان لون وجه پايسل يحاكي الحليب الخائر، ففكرت الملكة:
في اجتماعات المجلس لا تصفت الأحقق العجوز المأفون أبدًا،
لكن الآن عندما أريده أن يلفظ بضع كلمات يفقد القدرة على
الكلام. ثم إن العجوز نطق أخيرًا، وبصوت راجف قال: «ليس
هناك داع لأن أفحص... أعضاءها الحميمة. يحزنني أن أقول
إن... الملكة مارچري ليست بكزا. لقد طلبت مني أن أعد لها
شاي القمر، ليس مزة بل عذة مژات».

الهدير الذي تبع قوله كان ما أملتة سرسي لانستر بالضبط.
حتى دقات الحاجب الملكي بعصاه على الأرض لم تفلح في
إسكات الضخب، وتركته الملكة يغمرها بضع لحظات مستطعمة
خزي الملكة الصغيرة، ولقا طال مدة كافية نهضت بملامح
حجرية وأمرت ذوي المعاطف الذهبية بإخلاء القاعة، وقالت
لنفسها بجنل: انتهى أمر مارچري تايرل. أحاط بها فرسانها
الببيض إذ خرجت من باب الملك وراء العرش الحديدي؛ بوروس
بلاونت ومرين ترانت وأوزموند كيتلبلاك، آخر الباقيين من رجال
الحرس الملكي في المدينة.

كان فتى القمر واقفًا وراء الباب ممسكًا خُشخيشته ويحملك
إلى الفوضى بعينيه المستديرتين الكبيرتين. ربما يكون مهزّجًا،
لكنه صادق في تهريجه. كان على ماجي الضفدعة أن ترتدي
ثياب المهزّجين أيضًا لجهلها بالغد. تدعو سرسي الآلهة أن
المحتالة العجوز تصرخ في قرار الجحيم. الملكة الأصفر التي
تنبأت بمجيئها أنطوت صفحتها، وإذا كان يمكن أن تخيب هذه
الثبوءة فالبقية أيضًا ستخيب. لا أكهان ذهبية، لا قالونكار. أخيرًا
تحزرت من نعيك الحاقد.

تبعها باقي أعضاء مجلسها الصغير إلى الخارج، وقد بدا هاريس سويفت دانتًا وتعثر عند الباب وكان يسقط لولا أن أوران ووترز أمسكه من ذراعه، وحتى أورتون ميريويندر لاح عليه الثوثر إذ قال: «العامة شغوفون بالملكة الصغيرة. لن يتذكروا شيئًا كهذا يمر مرور الكرام. أخشى ما قد يحدث يا جلالة الملكة».

قال اللورد ووترز: «اللورد ميريويندر محق. بعد إذن صاحبة الجلالة، سأطلق بقية ذرموناتنا. منظرها في (النهر الأسود) وراية الملك تومن تخفق فوقها سيذكر المدينة بمن يحكم هنا، بالإضافة إلى الحفاظ على سلامتها إذا بدأ الغوغاء الشعب من جديد».

ترك أوران البقية بلا ذكر. حالما تخرج الذرمونات إلى الماء ستستطيع منع مايس تايرل من العودة بجيشه عبر النهر، تماها كما منع تيريون ستانيس من قبل. ليست لـ(هايجاردن) قوة خاصة بها في هذا الجانب من (وستروس)، ويعتمد آل تايرل على أسطول ردواين العائد في الوقت الزاهن إلى (الكرمة). أعلنت الملكة: «خطوة سيّدة. إلى أن تمرّ هذه العاصفة أريد أن تجهّز سفنك بأطقمها وتخرج إلى النهر».

كان وجه السير هاريس سويفت شاحبًا مخضًا بالغرق حتى إنه بدا على وشك فقدان الوعي إذ قال: «حين يبلغ الخبر اللورد تايرل لن تكون لغضبته حدود. ستسيل الدماء في الشوارع...».

قالت سرسي لنفسها متأقلة: فارس الدجاجة الضفراء. حربي بك أن تتخذ دودة رمزًا لك أيها الفارس. بالنسبة إليك الدجاج أشجع من اللازم. إذا كان مايس تايرل لا يستطيع الهجوم على (ستورمز إند)، فكيف تخاله يجسر على مهاجمة الآلهة؟ لقد فرغ من ترثرته قالت: «يجب ألا يبلغ الأمر حد إراقة الدماء. سأذهب إلى (سيت بيلور) لأتكلّم مع الملكة مارجري والشيتون الأعلى. أعلم أن تومن يحب الاثنيين، ولا ريب أنه سيرغب في أن أقيم السلام بينهما».

رثت السير هاريس على جبهته بكفه المخملي مجفّفًا عرقه، وقال: «السلام؟ إذا كان السلام ممكناً... هذه شجاعة بالغة منك».

قالت الملكة: «ربما يكون ضروريًا أن تُعقد محاكمة ما تدحض هذه الافتراءات والأكاذيب الوضيعة وثري العالم أن مارجري بالبراءة التي نعرفها عنها حقًا».

قال ميريويندر: «أجل، لكن ربما يرغب الشيتون الأعلى في محاكمة الملكة بنفسه كما اعتادت العقيدة محاكمة الناس قديمًا».

هذا ما آمله. ليس واردًا أن تنظر محكمة كتلك بعين العطف إلى الملكة الخائنة التي فتحت ساقبها للمغنيين ودنّست طقوس (العذراء) المقدّسة لثواري عارها. «المهم أن نكتشف الحقيقة، إنني واثقة بأننا جميعًا مثفقون على هذا. والآن أيها الشادة أرجو أن تُعذروني، يجب أن أذهب لأرى ابني، فلا ينبغي أن يكون وحده في وقت كهذا».

كان تومن يصطاد القطط حين عادت أمه إليه. تحب
الهريرات مطاردة الفأر الذي صنفته له دوركاس من قصاصات
الفرو وربطته بخيط طويل في طرف صئارة قديمة، ولا يحب
الضبي شيئاً أكثر من جژه على الأرض بينما تتوثب هريراته
محاولة الظفر به. بدت عليه الدهشة عندما رففته سرسي بين
ذراعيها وقبلته على جبهته، وسألها: «لماذا ثقبلي نتي يا أماه؟ ولم
تبيكين؟».

أرادت أن تقول له: لأنك آمن، لأن لا أذى سيصيبك أبداً. «أنت
مخطئ. الأسد لا يبكي أبداً». سيكون هناك وقت فيما بعد
لإخباره بأمر مارجري وبنات عمومته. «ثقة أذن أريدك أن
توقعها».

لأجل خاطر الملك لم تضع الملكة الأسماء على أذن
الاعتقال، فذيلها تومن بتوقيعه خالية وضغط ختمه في الشمع
الذافي بسعادة كعادته، وبعدها صرفته سرسي مع جوسلين
سويقت.

وصل السير أوزفريد كتبلاك بينما يجف الحبر الذي كتبت به
سرسي الأسماء بنفسها؛ السير تالاد الطويل وچالابار شو
وهاميش ذو القيثارة وهيو كليفتون ومارك مالندور وبايارد
نوركروس ولامبرت ترنبري وهوراس ردواين وهوبر ردواين،
بالإضافة إلى ريفي معين اسمه وات ويدعو نفسه بالشاعر
الأزرق.

- «كثيرون جذا»، قال السير أوزفريد مقلباً الأذن بحذر من
الكلمات كأنها صراصير تزحف على الورق. لا أحد من الإخوة
كتبلاك يقرأ.

- «عشرة. تحت قيادتك سئة آلاف من ذوي المعاطف الذهبية، عدد يكفي للقبض على عشرة على ما أظن. ربما قرَّ بعض الأذكىء منهم بالفعل إذا تناهت الأخبار إلى مسامعهم في الوقت المناسب. إن حدث هذا فلا يهٲ، سيجعلهم غيابهم يبدون مذنبين أكثر. السير تالاد ساذج نوعا وربما يحاول مقاومتكم. احرص على عدم موته قبل أن يعترف، ولا تؤذي أيًا من الآخرين. قد يكون بينهم أبرياء». من المهم للغاية أن تجد المحكمة الثوأمين ردواين متهمين زورًا، إذ سيبرهن هذا على عدل الأحكام الصادرة على الآخرين.

قال السير أوزفريد: «سنقبض عليهم جميعا قبل شروق الشمس يا جلالة الملكة»، وتردَّد لحظة قبل أن يردف: «هناك زحام خارج باب (سيت بيلور)».

- «زحام من أي نوع؟». أي شيء غير متوقَّع يثير فيها غريزة الحذر، وتذكَّرت ما قاله اللورد ووترز عن الشَّغب. لم أضع ردة فعل العائمة في الاعتبار. مارجري كانت حيواناتهم الأليفة. «كم؟».

- «منة أو نحوها. يزعمون مطالبين الشيتون الأعلى بالإفراج عن الملكة الصغيرة. يمكننا أن نطردهم إذا أردت».

- «لا، دعهم يزعمون إلى أن تُبَحَّ أصواتهم. زعيقهم لن يؤثِّر على الغصفور. إنه لا يُصغي إلَّا إلى الآلهة». في تخيم الزعاع الغاضبين على عتبة باب صاحب القداسة الأعلى سخرية قدرية معينة، إذ رفعه زعاع مشابهون إلى اعتمار الثَّاج البلوري. الذي باعه من فوره. «العقيدة لها فرسانها الآن، فلندافعوا هم عن الشيت. أوه، وأغلق بوابات المدينة أيضًا. لا أحد يدخل (كينجز لاندنج) أو يخرج منها دون إذني إلى أن تُسَوَّى هذه المسألة تمامًا».

قال السير أوزفريد: «كما تأمرين يا صاحبة الجلالة»، وانحنى ثم ذهب يجد أحدًا يقرأ له الأذن.

لدى غروب الشمس يومها كان المتهمون بالخيانة جميعًا رهن الاعتقال. انهار هاميش ذو القيعارة عندما أتوا يقبضون عليه، وجرح تالاد الطويل ثلاثة من ذوي المعاطف الذهبية قبل أن يقهره الآخرون، وأمرت سرسي بوضع الثوأمين ردواين في مسكن مريح في بُرج وإرسال البقية إلى الرُنازين.

أخبرها كايرن حين أتى لزيارتها ليلتها: «هاميش يُعاني صعوبة في التنفس ويطلب مايستر».

ردّت: «قل له إن واحدًا سيذهب إليه ما إن يعترف»، وفكّرت لحظة ثم أضافت: «إنه أكبر سنًا من أن يكون واحدًا من العشاق، لكن لا شك أن مارجري جعلته يعزف ويُغني لها بينما تستضيف رجالًا آخرين. سنحتاج إلى تفاصيل».

- «سأعينه على تذكرها يا جلالة الملكة».

في اليوم التالي ساعدتها الليدي تاينا ميريويدر على ارتداء ثيابها من أجل زيارتهما الملكة الصغيرة، وقد قالت لها سرسي: «لا شيء مترفًا أو زاهي الألوان. الأنسب أن أرتدي شيئًا محتشمًا داكنًا للشيتون الأعلى. غالبًا سيجعلني أصلي معه»، وفي النهاية انتقت فستانًا من الضوف الناعم كساها من الرقبة إلى الكاحلين، على صدره وكفّيه القليل من فروع الكرم الصغيرة المطرزة بخيوط ذهبي يُخفّف جهامة خطوطه بعض الشيء. الأفضل أن لونه البني سيساعد على إخفاء الوسخ إذا ركبت. «بينما أواسي زوجة ابني ستتكلّمين مع بنات عمومتهما الثلاث. اربحي ألا إذا استطعت، لكن توخّي الحذر في ما تقولين. ربما لا تكون الآلهة الوحيدة التي تسمعكما».

لطالما قال چايمي إن أصعب جزء من أي معركة هو الذي يسبقها مباشرة في أثناء انتظار بدء المعركة. حين خرجت سرسي رأت السماء غائمة كثيبة، ولما كانت لا تستطيع المجازفة بالتعرض إلى وابل من المطر ودخول (سيت ييلور) مبتلة ملطخة بالأوساخ فقد قرّرت ركوب الهودج. لحراستها أخذت عشرة من رجال لانستر وبوروس بلاونت، بعد أن قالت للسير أوزموند: «ربما لا يملك دهماء مارچري الذكاء الكافي للتمييز بين كَيْتْلَبلاك وآخر، ولا يُمكنني أن أدعك ترفع سلاحك ضد العوام. الأفضل أن تبقى بعيدًا عن الأنظار فترة».

إذ شقّتا طريقهما عبر (كينجز لاندنج) خامر تايئا شكّ مفاجئ، وقالت بخفوت: «هذه المحاكمة، ماذا لو طالبت مارچري بحسم براءتها من ذنبها عن طريق الثّال؟».

داعبت ابتسامة شفّتي سرسي، وأجابّت: «باعتبارها الملكة فلا بُدّ من أن يدافع عن شرفها أحد رجال الكرّس الملكي. كلّ طفل في (وستروس) يعلم أن الأمير إيمون الفارس الثّنين ناصر أخته الملكة نييرس في مواجهة اتّهامات السير مورجيل... لكن مع إصابة السير لوراس فأخشى أن دور الأمير إيمون سيقع على عاتق أحد إخوته المحلّفين»، وهزّت كتفيها مواصلة: «لكن من؟ السير أريس والسير بالون بعيدان في (دورن)، وچايمي في (ريقرزن)، والسير أوزموند شقيق الرّجل الذي يثّهما، وهكذا لا يتبقى إلّا... أوه، ويلي...».

قالت الليدي تايئا ضاحكة: «بوروس بلاونت وميرين ترانت».

- «نعم، والسير ميرين متوَعك منذ فترة. ذكّرني بأن أقول له هذا عندما نعود إلى القلعة».

- «سأفعل يا جميأتي»، والتقطت تايئا يدها وقبّلتها مردفة: «آمل ألا أسيء إليك أبدًا. إنك رهيبة حين تُستّارين».

- «كُلُّ أُمٍّ تَفْعَلُ الْمِثْلَ لِحِمَايَةِ أَطْفَالِهَا. مَتَى تَنْتَوِينِ الْمَجِيءَ بِابْنِكَ إِلَى الْبِلَاطِ؟ اسْمِهِ رَاسِلٌ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ يُمَكِّنُهُ أَنْ يَتَمَرَّنَ مَعَ تَوْمَنْ».

- «سَيَتَحَقَّقُ الضُّبِّي لِهَذَا، أَعْرِفُ... لَكِنْ الْأُمُورُ مُضْطَرِبَةٌ لِلْغَايَةِ الْآنَ، وَخَطَرٌ لِي أَنْ الْإِنْتِظَارَ أَفْضَلَ إِلَى أَنْ يَمُرَّ الْخَطَرُ».

- «عَمَّا قَرِيبٍ. أُرْسِلِي خَبْرًا إِلَى (الطَّائِلَةِ الطَّوِيلَةِ) وَقُولِي لِرَاسِلٍ أَنْ يَحْزِمَ أَفْضَلَ سِتْرَاتِهِ وَسَيْفَهُ الْخَشْبِيَّ. صَدِيقٌ صَغِيرٌ جَدِيدٌ هُوَ بِالضُّبُطِ مَا سَيُعِينُ تَوْمَنْ عَلَى نَسْيَانِ خَسَارَتِهِ بَعْدَ أَنْ يَطِيرَ رَأْسُ مَارْجَرِي».

نَزَلْنَا مِنَ الْهُودَجِ تَحْتَ تِمْنَالٍ بِلُورِ الْمُبَارَكِ، وَشَرَّتِ الْمَلِكَةُ لِرُؤْيَا الشَّاحَةِ نَظِيفَةٍ مِنَ الْعِظَامِ وَالْقَذَارَةِ. صَدَقَ قَوْلُ السَّيْرِ أَوْزْفَرِيدٍ، فَالزَّحَامُ لَيْسَ شَدِيدًا أَوْ قَوْضُومًا كَزَحَامِ الْعَصَافِيرِ، وَقَدْ وَقَفَ الْمُحْتَشِدُونَ فِي مَجْمُوعَاتٍ صَغِيرَةٍ يَرْمُقُونَ بَابَ (الشَّيْتِ الْكَبِيرِ) بِوُجُوهٍ، حَيْثُ يَقِفُ ضَفٌّ مِنَ الشَّيْتُونَاتِ الْمُبْتَدئينِ حَامِلِينَ الثَّيَابِيَتِ. لَا قَوْلَانِ. لَيْسَتْ وَائِقَةٌ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَكْمَةٌ بِالْغَةِ أَمْ بِلَاهَةٍ مَفْرُطَةٍ.

لَمْ يُحَاوِلْ أَحَدٌ اعْتِرَاضَ طَرِيقَهُمَا، وَانْزَاحَ لِهَمَا الْعَاقَةُ وَالْمُبْتَدئونُ إِذْ مَرَّتَا، وَبِمَجْرَدِ دُخُولِهِمَا اسْتَقْبَلَهُمَا ثَلَاثَةٌ مِنَ الْفُرْسَانِ فِي (بُهِوِ الْقِنَادِيلِ)، يَرْتَدِي كُلُّ مِنْهُمْ مَعْطَفَ أَبْنَاءِ الْفُحَارِبِ ذِي أَلْوَانِ قَوْسٍ قَزَحٍ. قَالَتْ لَهُمْ سَرَسِي: «أَنَا هُنَا لِرُؤْيَا زَوْجَةِ ابْنِي».

أَجَابَهَا أَحَدُهُمْ: «صَاحِبُ الْقِدَاسَةِ الْأَعْلَى كَانَ يَتَوَقَّعُ حُضُورَكَ. أَنَا السَّيْرِ ثِيُودَانُ الصَّادِقِ، الْمَعْرُوفُ سَابِقًا بِاسْمِ السَّيْرِ ثِيُودَانِ وَلِز. أَرْجُو أَنْ تَتَفَضَّلِي مَعِي يَا صَاحِبَةُ الْجَلَالَةِ».

كَانَ الْغُصْفُورُ الْأَعْلَى عَلَى زُكْبَتِيهِ كَالْعَادَةِ، هَذِهِ الْمَرَّةُ يُصَلِّي عِنْدَ مَذْبَحِ (الْأَبِ)، وَلَمْ يَقْطَعْ صَلَاتَهُ لَدَى اقْتِرَابِ الْمَلِكَةِ، بَلْ جَعَلَهَا تَنْتَظِرَ بِصَبْرِ يَكَادُ يَنْفَدُ حَتَّى فَرَعٌ، وَعِنْدَهَا فَقَطْ نَهَضَ وَانْحَنَى لَهَا قَائِلًا: «جَلَالَةُ الْمَلِكَةِ، هَذَا يَوْمٌ حَزِينٌ».

- «حزين للغاية. هل لنا الإذن في الكلام مع مارجري وبنات عمومته؟». اختارت أن تثبّع أسلوبًا حليقًا متواضعًا، فهذا أكثر ما يصلح مع رجلٍ مثله.

- «إذا أردت. تعالي إليّ بعدها يا بنيّتي. يجب أن نُصليّ مغًا». الملكة الصغيرة حبيسة أعلى أحد أبراج (السّبت الكبير) الرّفيعة، زنزانتها طولها ثمانية أقدام وعرضها سِتّة، ولا أثاث فيها إلّا سرير من القشّ ودكّة للضّلاة، بالإضافة إلى إبريق ماء وتُسخة من (النّجمة الشّباعيّة) وشمعة لقراءتها على ضوئها، والثّافذة الوحيدة ليست أوسع كثيرًا من فتحة رماية.

وجدت سرسي مارجري حافيةً ترتجف، ترتدي ثوبًا من الخيش على غرار الأخوات المبتدئات، وشعرها متشابك وقدماهما مئسختان. ما إن صارتا وحدها قالت لها الملكة الصغيرة: «لقد أخذوا ثيابي. كنتُ أرتدي قُستانًا من الحرير العاجي صدره مزّين بلألئ المياه العذبة، لكن الشّيتوات وضعن أيديهن عليّ وجردوني من ثيابي كلّها. فعُلم المثل مع بنات عمومتي أيضًا. مجّا دفعت إحداهن وسط الشّموع وأشعلت النّار في ثوبها، لكنني أخشى على آلا. لقد شحبت وجهها كالحليب ومنقها خوفها من مجرّد البكاء».

- «الصغيرة المسكينة». ليست في المكان مقاعد، فجلست سرسي إلى جوار الملكة الصغيرة على سريرها، وقالت: «الليدي تاينا ذهبت تتكلّم معها لتجعلها تعلم أنّها لم تُنس».

قالت مارجري مغتاضة: «إنه يرقّض أن يتزكّني أراهن حتى، وفصل كلّ واحدة منا عن الأخريات. إلى أن جئت لم يكن مسموحًا لي بزوّار إلّا الشّيتوات. واحدة منهن تأتي كلّ ساعة لتسألني إن كنتُ أرغب في الاعتراف بفسوقي. حتى الثّوم حرمني إياه، ويوقظني ويطلبين باعترافي. ليلة البارحة اعترفت للشّيتة أونلا برغبتني في خرق عينيها».

مؤسف أنك لم تفعلي. كان إعماء سبعة عجوز مسكينة كفيلاً
ياقناع القصفور الأعلى بذنبك بالتأكيد. «إنهن يستجوبن بنات
عمومتك بالطريقة نفسها».

- «عليهن اللعنة إذن، فليذهبن إلى الجحائم الشيع. ألا رقيقة
خجول. كيف يفعلن بها هذا؟ ومجا... أعرف أن ضحكتها
صاخبة كعاهرة على أرصفة الميناء، لكنها ما زالت بنتاً صغيرة
في قلبها. إنني أحبهن وهن يحبّني. إذا كان هذا القصفور يريد
أن يجعلهن يكذبن بشأني...».

- «أخشى أنهن متهومات أيضاً، ثلاثهن».

امتنع وجه مارجري، وقالت: «بنات عمومتي؟ ألا ومجا بالكاد
أكبر من طفلتين. جلالة الملكة، هذا... هذا قبح. هل ستخرجيننا
من هنا؟».

رذت بصوت مفعم بالأسى: «ليتني أقدر. صاحب القداسة
الأعلى أمر فرسانه الجدد بحراستكن. لتحريركن علي إرسال
ذوي المعاطف الذهبية وتدنيس هذا المكان المقدس بالقتل».
والتقطت سرسي يدي مارجري متابعة: «لكنني لم أضيع الوقت
سدى. لقد جمعت كل من ذكر السير أوزني أنهم عشاقك. إنني
واثقة بأنهم سيشهدون لصاحب القداسة الأعلى ببراءتك
ويقسمون عليها في محاكمتك».

كان في نبرة الفتاة خوف حقيقي الآن وهي تقول:
«محاكمتي؟ أوجب أن تكون هناك محاكمة؟».

قالت سرسي: «كيف ستثبتين براءتك دونها؟»، واعتصرت يد
مارجري مطمئنة، وأردفت: «من حقلك أن تقرري نوع المحاكمة
بالطبع. إنك الملكة، وفرسان الحرس الملكي مقسمون على
الدفاع عنك».

فهفت مارجري في الحال، فقالت: «محاكمة بالثزال؟ لكن
لوراس مصاب، وإلا لكان...».

- «إن له سئة إخوان».

حدّقت مارچري إليها، ثم سحبت يديها قائلة: «أهذه مزحة؟ بوروس جبان، ومرين عجوز وبطيء، وأخوك مُعاق، والآخران في (دورن)، وأوزموند من عائلة كِتْلَبلاك اللّعيّنة. لوراس له أخوان لا سِتّة. ما دامت المحاكمّة بالثّزال فأريدُ أن يُناصِرني جارلان».

- «السير جارلان ليس غُضوّا في الخرس الملكي. عندما يكون شرف الملكة مثار خلاف يفرض القانون والغرف أن يكون نصيرها من سبعة الملك المحلّفين. أخشى أن الشّيتون الأعلى سيصُرّ». سأحرّض على هذا.

لم تردّ مارچري في الحال، لكن عينيها البنيّتين ضاقتا شكّا، وأخيرا قالت: «بلاونت أو ترانت، لا مفرّ من أن يكون النصير أحدهما. سيُعجّبك هذا، أليس كذلك؟ أوزني كِتْلَبلاك يستطيع تمزيق أيّهما إربّا».

بحقّ الجحائم الشّبع. تظاهرت سرسي بالألم قائلة: «أنت مخطئة في حقّي يا ابنتي. لست أريدُ إلّا...».

- «... ابنك، لك وحدك. لن تكون له زوجة لا تكرهينها أبداً. وأنا لست ابنتك والشّكر للآلهة. اتزكيني».

- «إنك تتكلّمين بحماقة. أنا هنا لمساعدتك فقط».

- «لمساعدتي على الذهاب إلى قبري. طلبت منك أن ترحلي. هل ستجعليني أناذي سجاناتي ليجزّنك إلى الخارج أيتها الحقيرة الشّريّة المتأمرة الكريهة؟».

لملقت سرسي ثورتها بكرامة، وردّت: «لا بُدّ أن الموقف يُخيفك بشدّة. سأغفرُ لك ما قلّته». هنا، كما في البلاط، لا يدري المرء إن كان أحدهم يتنصّت. «كنتُ لأخاف أيضاً لو أنني في مكانك. المايستر الأكبر يايسل أقزّ بتزويدك بشاي القمر، والشّاعر الأزرق... لو كنتُ في مكانك يا سيّدتي لطلبث من (العجوز) الحكمة ومن (الأم) رحمتها. أخشى أنك قد تصيرين في حاجة ماشّة إلى الاثنتين قريبتا».

اصطحبت أربع سيتوات ذابلات الملكة إذ نزلت سلالم البُرج، وقد بدت كل من الحيزبونات أوهن من الأخرى. حين بلغن الأرض واصلن الطريق إلى أسفل في قلب (تل قيزينيا)، وانتهت الدرجات تحت الأرض بمسافة طويلة، حيث يُضيء صف من المشاعل المتذبذبة ردهة طويلة.

وجدت السيتون الأعلى منتظرا إياها في غرفة اجتماعات صغيرة شباعية الجوانب، غرفة تقليدية متواضعة جدرانها الحجرية عارية من الظلاء وفيها طاولة خشبية غير متقنة الضنع وثلاثة مقاعد ودكة صلاة. على الجدران نُقشت وجوه (الشبعة)، وقد عدت سرسي الثقوش بدائية قبيحة، ولو أن فيها قوة معينة، خصوصا في العين الكروية المصنوعة من الجرع والفلكيت وحجارة القمر الصفراء، والتي تبعث الحياة في الوجوه بشكل ما.

قال السيتون الأعلى: «تكلّمت مع الملكة».

قاومت الرغبة في أن تقول: أنا الملكة، ورثت: «نعم».

- «كل البشر يرتكبون الذنوب، حتى الملوك والملكات. أنا نفسي ارتكبت ذنوبا ونلت المغفرة. لكن لا مغفرة دون اعتراف، والملكة تُرْفَض أن تعترف».

- «ربما تكون بريئة».

- «ليست بريئة. السيتوات الموقرات فحصنها ويشهدن بانفضاض غشاء بكارتها. لقد شربت شاي القمر لثقل ثمره زناها في رحمها، وثقة فارس أقسم على سيفه بمعرفته الحميمة بها وبائنتين من بنات عمومته. يقول إن آخرين عاشروها أيضا، وذكر أسماء رجال كثر، منهم الوضع ومنهم عالي المقام».

- «ذوو المعاطف الذهبية أخذوهم جميعًا إلى الرّنازين. واحد فقط خضع للاستجواب حتى الآن، مطرب اسمه الشّاعر الأزرق. وما قاله مزعج. على الرغم من هذا أدعو الآلهة أن تُعَبّت براءة زوجة ابني عند متولها للمحاكمة»، وتردّدت سرسي لحظةً، ثم قالت: «تومن يحبّ ملكته الصّغيرة كثيرًا يا صاحب القداسة، وأخشى أن يكون إصدار حكم عادل عليها من قبله أو قبل لورداته صعبًا. ربما الأفضل أن تتولّى العقيدة المحاكمة؟».

شكّك الفُصفور الأعلى يديه قائلاً: «خطرت لي الفكرة ذاتها يا صاحبة الجلالة. كما سلبت ميجور المتوحّش العقيدة سيوفها حرقنا جهيرس الفصلح موازين العدل، لكن من يصلح حقًا للحكم على ملكة إلا (الشّبعة في الأعالي) والمقسمون على خدمتهم على الأرض؟ ستتولّى محكمة موقرة من سبعة قضاة القضيّة، ثلاثة من جنسك الأنثوي، عذراء وأم وعجوز. من أجد منهن بالحكم على آثام النساء؟».

- «سيكون هذا أفضل، لكن لا شك أن لمارجري الحق في المطالبة بإثبات ذنبها أو براءتها بمحاكمة بالثّزال، وفي تلك الحالة يجب أن يكون نصيرها من حرس تومن الشّبعة».

- «فرسان الحرس الملكي يخدمون كفناصرين شرعيّين للملك والملكة منذ عهد إجون الفاتح. صوت الثّاج والعقيدة واحد في هذه المسألة».

دفنت سرسي وجهها بين يديها متظاهرةً بالخزن، ولمّا رفعت رأسها ثانية التمقت عبرة في عينها، وقالت: «هذه أيام حزينة بالفعل، لكن يسرّني أن أجدنا على وفاق تام. أعرف أن تومن كان لي شكرك لو أنه هنا. أنا وأنت يجب أن نُعثر على الحقيقة معًا».

- «سنفعل».

- «يجب أن أرجع إلى القلعة. يعدّ إذنك سآخذ السير أوزني كتليلاك معي. سيُريد أعضاء المجلس الصغير استجوابه وسماع اتّهاماته بأنفسهم».

رَدّ الشّيتون الأعلى: «لا».

مجَرَّد كلمة، كلمة واحدة صغيرة، غير أنها بمثابة ماء متلج قذقه في وجهها. حدّقت إليه وقد اهتَزَّت ثقتها قليلاً، وقالت: «سنحتجز السير أوزني في مكان آمن، أعدك».

- «إنه محتجز في مكان آمن هنا. تعالي، سأريك».

شعرت سرسي بأعين (الشّبعة) ترمقها، أعين من اليشب والقلّكيت والجُرع، وسرت في جسدها رعدة خوف مباغته باردة كالجليد، لكنها قالت لنفسها: أنا الملكة، ابنة اللورد تايوين، وبتَرُدُّ تبغته.

لم يكن السير أوزني بعيداً. توقّفا عند غُرفة مظلمة مغلّقة بباب حديديّ ثقيل، وأخرج الشّيتون الأعلى مفتاحاً والتقط مشعلًا من على الجدار ليضيء الغُرفة من الداخل قائلاً: «بُعدك يا جلالة الملكة».

في الداخل كان أوزني كتليلاك معلّقاً عارياً من السّقف، يتأرجح من سلسلتين حديديّتين ثقيلتين، مجلّوداً تكاد ضربات الشّوط تكشف لحم ظهره وكتفيه كلّهُ وتتقاطع الجروح على ساقيه ومؤخرته.

لم تحتمل الملكة النّظر إليه، والتفتت إلى الشّيتون الأعلى قائلة: «ماذا فعلتم؟!».

- «سعيّنا إلى معرفة الحقيقة بكلّ جدّيّة».

- «لقد قال الحقيقة، أذاك بإرادته الخِرة واعترف بخطاياهِ».

- «نعم، فعلَ هذا. لقد سمعْتُ اعترافات رجالٍ كثيرين يا صاحبة الجلالة، لكن نادراً ما سمعْتُ رجلاً مسروّراً بذنوبه لهذه الدرجة».

- «لقد جلدتموه!».

- «لا توبة دون ألم. لا يجذر بامرئ أن يستغني عن ضربات الشياط كما أخبرث السير أوزني. إنني نادراً ما أشعر بقربي من الإله كما أشعر حين أجلّد تكفيّزاً عن خطاياي، ولو أن أسوأ خطاياي ليس بسواد خطاياها».

قالت متلعثمة: «لكنك تُبشّر برحمة (الأم)...».

- «وسيتذوّق السير أوزني هذا اللبن العذب في العالم الآخر. مكتوب في (النجمة الشباعية) إن الآلهة تغفر الذنوب كلّها ولكن لا بُدّ من عقاب المرء على ما يقترفه من جرائم. أوزني كتلبلاك مذنب بالخيانة والقتل، وعقوبة الخيانة الموت».

إنه مجرّد راهب، لا يمكنه أن يفعل هذا. «ليس للعقيدة أن تُحكّم على أحد بالموت مهما كانت جريرته».

ببطء ردّد الشيتون الأعلى الكلمات وازناً إياها: «مهما كانت جريرته»، ثم أردف: «الغريب يا جلالة الملكة أنه كلّما أخلصنا في جلد السير أوزني تغيّرت جرائمه. الآن نريدنا أن نُصدّق أنه لم يلمس مارجري تايرل بتاتاً، أليس كذلك يا سير أوزني؟».

فتح أوزني كتلبلاك عينيه، ولقا رأى الملكة واقفةً أمامه لعق شفّيه المتورّمتين، وقال: «(الجدار)، لقد وعدتني بـ(الجدار)».

قالت سرسي: «إنه مجنون، قدتموه إلى الجنون».

سأل الشيتون الأعلى بصوت حازم واضح: «سير أوزني، هل لك معرفة حميمة بالملكة؟».

صلصلت القيود بخفوت إذ تلوّى أوزني، وأجاب: «أجل، هذه الملكة، هي الملكة التي نكحتها، التي أرسلتني لقتل الشيتون الأعلى السابق. لم يكن له خرس. دخلت وهو نائم وخنقته بالسادة».

ودارت سرسي على عقبيها تجري.

حاول الشيتون الأعلى الإمساك بها، لكنه مجرّد عُصفور عجوز وهي اللبوة ابنة (الضخرة). دفعته جانبًا واندفعت من الباب صافقة إياه وراءها بصوت صახب. الأخوان كتلبلاك، احتاج إلى الأخوين كتلبلاك. سارسل أوزفريد بذوي المعاطف الذهبية وأوزموند بالحرس الملكي، وما إن يحزروه سينكر أوزني كل شيء وأخلض نفسي من هذا الشيتون الأعلى كما تخلصت من سلفه. اعترضت الشيتوات المسنّات الأربع طريقها ومذن أيديهن المتفضّنة محاولات القبض عليها، لكنها أسقطت إحداهن على الأرض وخمشت أخرى على وجهها واستطاعت بلوغ السلالم. في منتصف الطريق إلى أعلى تذكرت تاينا ميريويدر وتعثرت لاهة. لينقذني (الشبعة). تاينا تعرف كل شيء. إذا أخذوها أيضًا وجلدوها...

جزت حتى صحن الشيت لكنها لم تستطع الابتعاد أكثر من هذا. هناك نسوة ينتظرنها، المزيد من الشيتوات والأخوات الضامات أيضًا، أكثر شبابًا من الشمطاوات الأربع بالأسفل. صاحت متراجعة: «أنا الملكة. سأقطع رؤوسكن لهذا، سأقطع رؤوسكن جميعًا. اتركنني أمز»، وبدلاً من ذلك وضعن أيديهن عليها. جزت سرسي إلى مذبح (الأم)، إلا أنهن أمسكن بها هناك، نحو عشرين منهن، وجزرنها راکلة على سلالم البرج من جديد، وداخل زنزانتها ثبتتها ثلاث أخوات صامتات بينما جزدتها سبعة اسمها سكوليرا من كل ما تلبسه، بما فيه ثيابها الداخلية، وألقت لها سبعة أخرى ثوبًا من الخيش. ظلت الملكة تصرخ فيهن: «لا يمكن أن تفعلن هذا. إنني من آل لانستر. اتركنني. سيقثلكن أخي، سيشقّكن چايمي من الحلق إلى الفرج. اتركنني! أنا الملكة!».

قالت السبعة سكوليرا: «على الملكة أن تُصلي»، قبل أن يتزكّنها عارية في الزنزانة الباردة الموحشة.

ليست سرسي خائفةً كما رجى تايرل لترتدي الثوب الحقيق
وتستسلم للشجن. سأعلمهن معنى حبس الأسد في قفص.
مرقت الثوب مئة قطعة، والتقطت إبريق الماء وهشمته على
الحائط، ثم فعلت المثل بوعاء الفضلات، فلما لم يأت أحد بدأت
تدق الباب بقبضتيها. خُزّاسها بالأسفل في الشاحة، عشرة من
رجال لانستر والسير بوروس بلاوننت. حالما يسمعون سيأتون
لإطلاق سراحى، وسأجرّ الغصفور الأعلى الملعون إلى (القلعة
الحمراء) مكبلاً بالسلاسل.

عند الباب وعند النافذة صرخت وركلت وعوّت حتى بُحَ
صوتها، ولم يردّ عليها أحد، ولم يأت ينقذها أحد. بدأت الزنّانة
تظلم وتزداد برودةً، وأخذت سرسي ترتجف. كيف يتزكّنى
هكذا دون نار؟ إننى ملكتهن. بدأ اللّدم يسوارها على تمزيق
الثوب الخيش. على الشرير القش في الزكن دثار من الضوف
البني الخفيف الخشن، لكنه كل ما لديها، وقد انكمشت سرسي
على نفسها تحته لثوقف رجفتها، ولم يمض وقت طويل قبل أن
تغيب في نوم مرهق.

ثم إذا بيد ثقيلة تهزّها، واستيقظت في زنّانة سوداء كالقار
لتجد امرأةً قبيحةً ضخمةً تركع إلى جوار الشرير حاملةً شمعةً.
سألتها الملكة: «من أنت؟ هل جئت لإطلاق سراحى؟».

- «أنا الشيتة أونلا، جنث أسمعُ اعترافك بالقتل والزنى».

ضربت سرسي يدها مزيحةً إياها، وقالت: «سأقطع رأسك.
إياك أن تلمسيني، ابتعدي».

نهضت المرأة قائلةً: «جلالة الملكة، سأعودُ بعد ساعة. ربما
تكونين مستعدةً للاعتراف حينها».

ساعة تلو الساعة تلو الساعة. هكذا مرّت على سرسي لانستر أطول ليلة في حياتها باستثناء ليلة زفاف جوفري. خلقها مسحوج من فرط الضياح لدرجة أنها تبتلع ريقها بصعوبة، وبرودة الزّنزانة تُجمّد. كانت قد حطّمت وعاء الفضلات، فاضطرّت إلى القرفصة في زكن لتقبّل وثشاهد البول يسيل على الأرض. كلّما أغلّقت عينيها تجد أونلا فوق رأسها من جديد، تهزّها وتسالها إن كانت تريد الاعتراف بخطاياها.

لم يجلب لها النهار راحةً. مع شروق الشمس أثّتها الشّيتة مويل بوعاء من عصيدة رمادية مسيخة، فالقته سرسي على رأسها، لكن حين أتيتها بإبريق ماء جديد لم يتزك لها عطشها الشديد خيازا إلا الشرب، ولما أتيتها بتوب آخر رمادي رقيق زنيخ الزائحة تناولته وغظت به غريها، وليلتها عندما عادت مويل أكلت الخبز والشمك وطلبت نبيذاً، لكن نبيذاً لم يظهر، فقط الشّيتة أونلا في زيارتها المحسوبة بالسّاعة تسأل الملكة إن كانت مستعدة للاعتراف.

بينما بدأت شريحة السّماء الزّفيعة خراج نافذتها تُظلم ثانية تساءلت سرسي في قرارة نفسها: كيف يحدث هذا؟ لم لم يأت أحد ينتزعني من هنا؟ لا تُصدّق أن يتخلّى الأخوان كتحلبلاك عن شقيقهما. وأعضاء مجلسها، ماذا يفعلون؟ رعايد وخنوة. حين أخرج من هنا سأمز بضرب أعناقهم جميعها وأجذ رجالاً أفضل يحلّون محلّهم.

ثلاث مرّات يومها ترامى إلى مسامعها صياح بعيد من السّاحة، لكن الرّعاع كانوا يهتفون باسم مارجري لا اسمها. قُرب فجر اليوم الثّالي فيما تعلق سرسي ما تبقى من الثريد في قاع الوعاء انفتح باب الزّنزانة بلا سابق إنذار ودخل اللورد كايبرن. بذلت أقصى جهدها كي لا تُلقي نفسها بين ذراعيه، وهمست: «كايبرن، أوه، يا للآلهة، كم أنا سعيدة لرؤية وجهك. خذني إلى البيت».

- «لن يُسَمَّح بذلك. سَتُمَثِّلِينَ أمامَ محكمةٍ موقَّرةٍ من سبعة قضاةٍ بتهمةٍ الاغتيال والخيانة والزنى».

كانت سرسي مرهقةً للغاية حتى إن الكلام بدا لها فارغًا في البداية، وقالت: «تومن. أخبرني بأمر ابني، ألا يزال الملك؟».

- «بلى يا صاحبة الجلالة. إنه بسلام وخير، آمن وراء جدران (حصن ميجون) ويحميه الخرس الملكي، لكنه يَشْغُر بالوحدة والاضطراب، ويسأل عنك وعن ملكته الصغيرة. لم يُخبره أحد بعد...».

- «... أزميتي؟ وماذا عن مارجري؟».

- «سَتُمَثِّلُ للمحاكمة أيضًا أمام القضاة أنفسهم. لقد سلَّمتُ الشاعِر الأزرق إلى الشيتون الأعلى وفقًا لأوامرك. إنه هنا الآن في مكانٍ ما بالأسفل. هامسوي أخبروني بأنهم يجلدونه، لكنه حتى الآن يَغْثِي الأغنية الجميلة نفسها التي لَقَّاه إياها».

فكَّرت بذهنٍ خدرٍ من جزاء الحاجة إلى الثوم: الأغنية الجميلة نفسها. وات، اسمه الحقيقي وات. إذا شاءت الآلهة سيموت وات بضربات الكرّاج تاركًا مارجري بلا سبيلٍ إلى دحض شهادته. «أين قُرسائي؟ السير أوزفريد... الشيتون الأعلى سيقتل أخاه أوزني. لا بُدَّ أن يتحرَّك ذوو المعاطف الذهبية...».

- «لم يَغْدِ أوزفريد كتلّلاك يقود حرس المدينة. الملك نخاه من منصبه وعيّن قائد (بؤابة التّئين) في مكانه، اسمه همفري ووترز».

كانت سرسي منهكةً للغاية، ولا شيء من هذا له معنى. «لماذا فعلَ تومن هذا؟».

- «اللّوم ليس على الضبي. حين يضع مجلسه مرسومًا أمامه يَدَيِّله بتوقيعه ويمهّره بختمه».

- «مجلسي... من... من فعلَ هذا؟ أنت؟».

- «لقد ضرفت من المجلس للأسف، لكنهم يسمحون لي بالاستمرار في العمل مع هامسي الخصي في الوقت الحالي. البلاد يحكمها السير هاريس سويفت والهايستر الأكبر پايسل، وقد أرسلنا غداً إلى (كاسترلي روك) داعين عك إلى العودة إلى البلاط وتولي الوصاية على العرش. إذا كان سيقبل فالأفضل أن يُسرّع. مايس تايرل تخلى عن حصار (ستورمز إند) ويزحف على المدينة بجيشه، ورائد تارلي في الطريق من (بركة العذارى) أيضاً».

- «هل وافق اللورد ميريويدز على هذا؟».

- «ميريويدز استقال من منصبه في المجلس وقرّ عائداً إلى (الطاولة الطويلة) مع زوجته التي كانت أول من أبلغنا نبأ... الاتهامات... ضد جلالتي».

- «تركوا تاينا تذهب إذن». هذا أفضل شيء سمعته منذ قال الشيتون الأعلى لها لا. كان يمكن أن تحكم تاينا عليها بالهلاك. «وماذا عن اللورد ووترز؟ شفنه... إذا جلب أطقمها إلى اليابسة فسيكون معه رجال يكفون ل...».

- «بمجرد أن بلغت أخبار أزمة جلالتي الحالية النهر رفع اللورد ووترز قلوعه وأنزل مجاذيفه وأخذ أسطوله إلى البحر. السير هاريس يخشى أنه ينوي الانضمام إلى اللورد ستانيس، وپايسل يعتقد أنه مبحر إلى (الأعتاب) ليكون قرصاناً».

- «كلّ ذرموناتى الجميلة». كاذت سرسي تضحك. «اعتاد أبى أن يقول إن الثغول مخادعون بالفطرة. ليتنى أصغيث إليه»، وارتجفت مضيفة: «لقد ضعّت يا كايبرن».

زّد: «لا»، والتقط يدها مواصلاً: «ما زال الأمل باقياً. لجلالتي الحق في إثبات براءتك بالثّزال، ونصيرك جاهز يا مولاتي. لا أمل لرجل في (الممالك الشّبع) بأسرها في الضمود أمامه. إذا أقيت الأمر فقط...».

هذه المرة ضحكّت. كان الأمر طريقًا، طريقًا على نحو رهيب، طريقًا على نحو بشع. «الآلهة تُحيل آمالنا وخططنا جميعًا إلى دُعابات. لي نصير لا يقوى رجل على هزيمته لكنني ممنوعة من استخدامهِ. أنا الملكة يا كايبِرِن، وليس لأحد أن يُدافع عن شرقي إلّا أخ محلّف في الحرس الملكي».

مأّت الابتسامة على وجه كايبِرِن، وقال: «مفهوم. إنني حائر يا جلالة الملكة، ولا أدري بِم أنصحك...».

حتى في حالة الإرهاق والخوف هذه تعلم الملكة أنها لا تستطيع ائتمان محكمة من العصافير على مصيرها، ولا يُمكنها الاعتماد على تدخّل السير كيغان بعد ما قيلَ بينهما في لقائهما الأخير. يجب أن تكون محاكمةً بالقتال، لا سبيل آخر. «كايبِرِن، لأجل حُبك لي أتوسّل إليك أن تبعث برسالة من أجلي. أُرسل غداً إن استطعت، وإن لم تستطع فأرسل خيلاً. يجب أن تُرسل إلى أخي في (ريقرزِن). أخبره بما جرى واكتب... اكتب...».

- «نعم يا جلالة الملكة؟».

لعلّت شفّتها مرتعدةً، ثم قالت: «تعال في الحال. ساعدني. أنقذني. إنني محتاجة إليك الآن كما لم أحتج إليك من قبل قط. أحبك، أحبك، أحبك. تعال في الحال».

- «كما تأمرين. «أحبك» ثلاث مرّات؟».

- «ثلاث مرّات». يجب أن تُؤثّر فيه. «سيأتي، أعلم أنه سيأتي، يجب أن يأتي. چايمي أملي الوحيد».

قال كايبِرِن: «مولاتي، هل... نسيت؟ السير چايمي فقدَ يد سيفه. إذا ناصرك وخسر...».

... فسُغار هذا العالم معاً كما جُئناه معاً. «لن يخسر، ليس

چايمي، ليس وحياتي على المحك».

جايمي

كان سيّد (ريقرزن) الجديد غاضبًا إلى حدّ الارتجاف وهو يقول: «لقد خدعنا، هذا الرّجل تلاعب بنا!»، وتطايّر اللّهاب الوردي من فمه إذ أشار بإصبعه إلى إدميور تلي متابعًا: «سأقطع رأسه! أنا الحاكم في (ريقرزن)، مرسوم الملك يقول إنني...».

قاطفته زوجته: «إمون، حضرة القائد على دراية بمرسوم الملك، السير إدميور على دراية بمرسوم الملك، غفّال الاسطبلات على دراية بمرسوم الملك».

- «أنا اللورد، وأريد أن يُقطع رأسه!».

- «بأيّ جريمة؟». على الرغم من هزاله يبدو إدميور أكثر وقارًا من إمون فراي، وقد ارتدى سراويل زرقاء ومعطفًا مبطنًا من الضّوف الأحمر على صدره تطريز لسمة الترويت الواثبة، وانتعل حذاءً من الجلد الأسود، وغسل شعره الكستنائي وهذّبه وشدّب لحيته الحمراء بعناية. «لقد فعلت كلّ المطلوب مني».

لم يكن جايمي لانستر قد نام منذ فتحت (ريقرزن) بوابتها، وأحسّ برأسه يدقّ إذ قال: «أوه؟ لا أذكر أنني طلبت منك أن تترك السير برايندن يهذب».

- «طلبت مني أن أسلم القلعة لا عمي. لماذا ألام إن كان رجالك هم من تركوه ينسلّ من بين صفوفهم؟».

لم تُرض الإجابة جايمي، وسأل مبدئيًا حنقه: «أين هو؟». لقد فتّش رجاله (ريقرزن) ثلاث مرّات ولم يجدوا للسير برايندن تلي أثرًا.

- «لم يذكّر لي أين سيذهب».

- «وأنت لم تسأله. كيف خرج؟».

أجاب إدميور مبتسماً: «الشّمك يعوم، حتى الشّمك الأسود».

راودت چايمي رغبة شديدة في أن يَلِكْمه في فمه بيده الذهبية، قبضع أسنانٍ مفقودة كفيّلة بوضع حدٍّ لابتساماته هذه. بالنسبة إلى رجلٍ سيقضي ما تبقى له من عُمرٍ سجينًا يبدو إدميور ثلي مسرورًا للغاية بنفسه. هكذا خاطبه قائلاً: «عندنا تحت (كاسترلي روك) دياميس⁽⁶⁸⁾ تنضغط على جسد المرء بضيق بؤة مدّعة، لا يمكنك أن تدور فيها أو تجلس أو تمد يدك إلى قدميك حين تبدأ الجرذان تقضم أصابعهما. هل ترغب في إعادة النّظر في هذه الإجابة؟».

اختفت ابتسامة إدميور، وقال: «لقد أعطيتني كلمتك بأنني سأعامل بتكريم يليق بمقامي».

ردّ چايمي: «وهكذا سثعامل. فرسان أنبل منك ماتوا متوجّعين في تلك الأياميس، وعدة لوردات عظام أيضًا، ناهيك بملك أو اثنين إن كنت أذكر ما تعلّمته من التاريخ. يمكن لزوجتك أن تنزل بالذيّماس المجاور لك إذا أردت، فلست أرغب في التّفريق بينكما».

قال إدميور عابثًا: «لقد خرج عومًا حقًا». للزّجل عينا أخته كاتلين الزّرقاوان، وفيهما يرى چايمي الازدراء نفسه الذي رآه من قبل في عينيها. «رفعنا شبكة (بوابة الماء) الحديدية، ليس عن آخرها، نحو ثلاثة أقدام فقط، ما يكفي لترك ثغرة تحت الماء بينما تظلّ البوابة تبدو مغلقة. عمّي سباح قوي، وبعد حلول الظّلام خرج من تحت الشبكة».

وسبح من تحت السلسلة بالطريقة نفسها لا ريب. ليلة بلا قمر
وخراس ضجرون وسمكة سوداء في نهر أسود يحملها التيار
بهديء نحو المصب. لو سمع روتيجر أو ياو أو أحد رجالهما
المياه تتناثر لعزوا الصوت إلى سمكة ترويت أو شلحفاة. كان
إدميور قد انتظر أغلب النهار قبل أن ينزل راية ذئب ستارك
الزهيب دلالة على الاستسلام، ومع فوضى تسليم القلعة لم
يعرف جايمي أن السمكة السوداء ليس ضمن الأسرى إلا صباح
اليوم التالي.

ذهب إلى النافذة وتطلع إلى النهر الذي تتلأأ أشعة الشمس
على صفحته في هذا النهار الخفيفي الضحو، وفكر: ربما يكون
السمكة السوداء قد ابتعد عشرة فراسخ بالفعل.

قال إمون فراي بإصرار: «يجب أن نعثروا عليه».

ردّ جايمي بثقة لا يشعّر بها: «سنعثّر عليه. لقد أرسلت كلاب
صيد وصيادين يقتفون أثره بالفعل». يقود السير أدام ماربراند
البحث على ضفة النهر الجنوبية، ويقوده السير درموت ابن
(الغابة المطيرة) على الشماليّة. كان جايمي قد فكر في
الاستعانة بلوردات النهر أيضًا، لكن الأرجح أن يساعد قانس
ويايبر ومن هم على شاكلتهما السمكة السوداء على الهرب بدلًا
من تقييده بالأصفاد. إجمالًا لا يرى أملًا، لكنه قال: «ربما يراوغنا
بعض الوقت لكنه سيظهر في النهاية».

- «وماذا لو حاول أن يأخذ قلعتي؟».

- «إن معك حامية قوامها مئتا رجل». حامية أكبر من اللازم
في الحقيقة، لكن اللورد إمون ينزع إلى القلق دومًا. على الأقل
لن تواجهه مشكلة في إطعامها، إذ ترك السمكة السوداء
(ريقرزن) مزودة بفائض من المؤن، تمامًا كما ادّعى. «بعد ما
تجشّمه السير برايندن كي يتزكنا أشك في أنه سيعود». ما لم
يكن على رأس جماعة من الخارجين عن القانون. ما لا يشك
فيه هو نيّة السمكة السوداء استكمال القتال.

قالت الليدي چنا لزوجها: «هذا مقرّك وعليك الحفاظ عليه.
إن لم تكن تستطيع هذا فأضرم فيه النار وارجع إلى
(الضخرة)».

فرك اللورد إمون فمه ليَلطّخ الثّبع المقرّ يده بالأحمر اللّزج،
وقال: «بالثّاكيد. (ريقرزن) لي، ولا أحد سيأخذها مني أبدًا»،
وحدج إدميور ثلي بنظرة ربيّة أخيرة بينما سحبته الليدي چنا
من الغرفة الشّمسيّة.

لقا صارا وحدهما سأل چايمي إدميور: «هل من شيء آخر
ترغب في إخباري به؟».

قال ثلي: «هذه غُرقة أبي الشّمسيّة. من هنا حكم أراضي
النّهر بالعقل والعدل. كان يحثّ الجلوس عند تلك الثّافذة.
الإضاءة جيّدة هناك، ومتى رفع ناظرينه عن عمله كان يرى النّهر،
ولمّا تتعب عيناه كان يجعل كات تقرأ له. في مرّة بنيث قلعة من
القوالب الخشب مع الإصبع الضّغير، هناك إلى جوار الباب. لن
تعلم أبدًا كم تُغثيني رؤيتك في هذه الغُرقة يا قاتل الملك، لن
تعلم أبدًا كم أحتقرك».

لكنه مخطئ في هذا. قال چايمي: «لقد احتقّرتني رجال
أفضل منك يا إدميور»، ونادى أحد الحرس وأمره قائلًا: «خُذ
حضرة اللورد إلى برجه واحرص على إطعامه».

وخرج سيّد (ريقرزن) صامثًا. غدا سيبدأ رحلته غربًا،
وسيقود السير فورلي پرستر حراسته المؤلّفة من مئة رجل
منهم عشرون فارسًا. يحسّن أن أضعف هذا العدد. قد يُحاول
اللورد بريك تحرير إدميور قبل أن يبلّغوا (الثّاب الذهبی). لا
يريد چايمي أن يضطرّ إلى أسر ثلي للمرّة الثّالثة.

عادَ إلى مقعد هوستر ثلي والتقط خريطة (الثّالوث) وسوّاها
بيده الذهبیّة متسائلًا: أين أذهب لو كنت الشّمكة السوداء؟

ظهر حارس عند الباب المفتوح قائلًا: «حضرة القائد، الليدي
وسترلينج وابنتها منتظرتان في الخارج كما أمرت».

أزاح جايمي الخريطة، وقال: «أدخلهما». على الأقل لم تختف الفتاة أيضًا. كانت جاين وسترلينج ملكة روب ستارك، الفتاة التي كلّفته كل شيء، وإذا كان في بطنها ذنب فهي أخطر من السمكة السوداء.

لا تبدو جاين خطيرة. فتاة غضة هي، لا تتجاوز الخامسة أو السادسة عشرة من العمر، وتبدو أقرب إلى الخرق من الزانة، ولها وركان قويّان وثديان بحجم تفاحتين وشعر بني ضارب إلى الحمرة وعينا طبية بئيتان رقيقتان. حساء كفاية بالنسبة إلى طفلة، لكنها ليست فتاة تستحقّ خسارة مملكة من أجلها. رأى وجهها منتفخًا وقشرة جرح على جبهتها تخفيها خصلة من شعرها جزئيًا، فسألها: «ماذا حدث لك؟».

أشاحت الفتاة بوجهها، وقالت أمّها بحزم: «لا شيء». المرأة صارمة الملامح، ترتدي فستانًا من المخمل الأخضر وثحيط بغنقها الطويل الرقيق قلادة من الأصداغ الذهبية. «رفضت التخلي عن الثاج الذي أعطاه المتمرّد إياه، وحين حاولت أن أخذه منها قاومتني الطفلة العنيدة».

قالت جاين باكية: «كان ملكي. لم يكن لك حق. روب جعلهم يصنعونه من أجلي. لقد أحببته!».

رفعت أمّها يدها تصفعها، لكن جايمي اعترض طريق الليدي سيبل وقال لها محدّزًا: «إياك وهذا»، ثم أردف: «فلتجلس كلتاكما»، فانكشفت الفتاة على مقعدها كحيوان خائف، في حين جلست أمّها بجمود رافعة رأسها باعتداد. سألهما: «هل تشربان نبيذًا؟»، فلم تُجب الفتاة، أمّا أمّها فقالت: «لا، شكرًا».

غمغم جايمي: «كما تريدن»، والتفت إلى الفتاة قائلاً: «أسف لخسارتك. الضبي كان شجاعًا، أعترف بهذا. ثمة سؤال يجب أن أقيه عليك... هل تحملين طفله يا سيّدتني؟».

هبت جاين من مقعدها، وكانت لتهرع هاربة من الغرفة لولا أن الحارس على الباب أمسك ذراعها، وبينما قاومت ابنتها محاولة الإفلات أجابت الليدي سيبل: «ليست حاملاً، لقد تيقّنت من هذا كما طلب مني السيد والدك».

أوما جايمي برأسه. لم يكن تايوين لانستر بالرجل الذي يُفعل تفصيلاً كهذه. قال للحارس: «اترك الفتاة. فرغت منها في الوقت الحالي»، وإذ أسرع جاين تنزل السلالم تطلّع إلى أمّها، وقال: «عائلة وسترلينج نالت العفو، وأخوك رولف نُصّب سيّداً على (كاستامير). ماذا تريد من غير هذا؟».

- «السيد والدك وعدني بزيعة لائقة لجاين وأختها الصغيرة، وعد بأن يكون زوج كلّ منهما من اللوردات أو ورثتهم لا الأبناء الأصغر أو فرسان أهل بيتهم».

من اللوردات أو ورثتهم، بالتأكيد. وسترلينج عائلة عريقة فخور، لكن الليدي سيبل نفسها وليدة عائلة سپايسر، وتنحدر من ذرّة تجار ناسبوا من هم أعلى منهم مقاماً. كانت جدّتها عزّافة شبه مجنونة من الشرق على ما يذكّر، وآل وسترلينج فقراء. في مسار الأحداث الطبيعي لكان الأبناء الأصغر أفضل ما تأمله ابنتا سيبل سپايسر، لكن جزءة كبيرة من ذهب لانستر كفيلة بجعل أرملة متمرّدة ميت جذابة لأحد اللوردات. قال جايمي: «ستحصلين على الزيجتين، لكن يجب أن تنتظر جاين سنتين كاملتين قبل أن تتزوّج ثانية». إذا تزوّجت الفتاة من جديد بعد فترة قصيرة وأنجبت ابناً فمن المحتم أن يتهاقس بعض الناس قائلين إن الذئب الصغير هو الأب.

ذكرته الليدي وسترلينج قائلةً وفي نبرتها لمحة من التأنيب: «إن لي ابنتين أيضًا. رولام معي، لكن راينالد كان قارشا وذهب مع المتمردين إلى (الثوأميتين). لو عرفت ما سيحدث هناك لما سمحت له بالذهاب على الإطلاق. لم يكن راينالد يعلم شيئًا عن... التفاهم مع السيد والدك. ربما يكون أسيرًا في (الثوأميتين)».

أو ربما يكون ميتًا. لم يكن والد فراري ليعلم بأمر هذا «التفاهم» أيضًا. «سأستعلم عنه. إذا كان السير راينالد أسيرًا فسندفع قديته».

- «السيد والدك ذكر ترتيب زيجة له أيضًا، بعرويس من (كاسترلي روك). قال إن راينالد سينال منه جوي إذا سار كل شيء كما نأمل».

حتى من القبر ما زالت يدا اللورد تايوين الميتينتان تُحزكاننا جميعًا. «جوي ابنة عمي الزاحل جيريون الطبيعية. يمكن عقد الخطبة إذا أردت، لكن على الأزواج أن ينتظر. جوي كانت في التاسعة أو العاشرة عندما رأيتها آخر مرة».

بدت الليدي سيبيل كأنها ابتلعت ليمونة وهي تقول: «ابنته الطبيعية؟! أتريد ابناً لعائلة وسترلينج أن يتزوج نغلة؟!».

- «ليس أكثر مما أريد أن تتزوج جوي ابن حقيرة متآمرة خائنة. إنها تستحق أفضل». كان ليسعد چايمي لحظتها أن يخلق المرأة بقلادة الأصداف المحيطة بغنقها. جوي طفلة رقيقة وإن كانت وحيدة، وكان أبوها عم چايمي الأثير. «ابنتك برقبة عشر منك يا سيديتي. سثفادرون مع إدميور والسير فورلي غدا، وحتى ذلك الحين خير لك أن تغربي عن وجهي»، وزعق مناديا حارشا، وذهبت الليدي سيبيل بشفتين مزمومتين عن آخرهما. تساءل چايمي رغما عنه عن قدر ما عرفه اللورد جاون عن تأمر زوجته. وما قدر ما نعرفه نحن الرجال أبدا؟

حين رحل إدميور وآل وسترلينج ذهب معهم أربعمئة رجل،
ففي اللحظة الأخيرة قرّر چايمي مضاعفة الحراسة مرّة أخرى،
وركب معهم بضعة أميال ليتحدّث مع السير فورلي پرستر. على
الرغم من وجود رأس ثور على سترته الطويلة وقرنين على
خوذته لا يبدو على السير فورلي أنه يمثّ بأيّ صلة للثيران، فهو
رجل قصير نحيل خشن، وبأنفه الضيق ورأسه الأصلع ولحيته
البنيّة المنقطة بالزّماذي يبدو أقرب إلى صاحب خان من فارس.
قال له چايمي مذكّراً: «لسنا نعرف مكان السمكة السوداء، لكن
إذا استطاع تحرير إدميور فسيُفعل».

كأكثر أصحاب الخانات ليس السير فورلي بأحمق، وقد
أجاب: «لن يحدث يا سيّدي. سيسبقنا الكشافة في أثناء الرّحف
وسنُخصّن معسكراتنا ليلاً. انتقيث عشرة رجال للبقاء مع ثلي
ليل نهار، أفضل رجالي من زّماة القوس الطويل. إذا حادّ قدها
واحداً عن الطريق سيُطلقون عليه سهاقاً يكفي ريشها لجعل أمّه
نفسها تحسبه إوزة».

- «عظيم». يخبّذ چايمي أن يصل ثلي إلى (كاسترلي روك)
سالقا، إلّا أن موته أفضل من هربه. «الأفضل أن تضع بعض
الزّماة قُرب ابنة اللورد جاون أيضاً».

قال السير فورلي مندهشاً: «ابنة جاون؟ إنها...».

- «... أرملة الذّئب الصغير، وأخطر مرّتين من إدميور إذا
هربت منا».

- «كما تقول يا سيّدي، سنضعها تحت المراقبة».

اضطرّ چايمي إلى المرور خبيثاً بآل وسترلينج في طريق العودة إلى (ريقرزن). أوماً له اللورد جاون بتجهّم إذ رآه، لكن الليدي سيبيل رمقته بعينين من جليد، في حين لم تزه چاين أصلاً. كانت الأرملة راكبة بعينين مطرقتين، وقد رفعت قلنسوة معطفها الذي تلوح من تحت طياتها الثقيلة ثياب أنيقة لكن ممزّقة. مرّقتها بنفسها علامة على الجداد. لا يمكن أن هذا مرّ أقها. وجد نفسه يتساءل إن كانت سرسي ستشقّ قُستانها إذا أتاها نبأ موته ذات يوم.

لم يَعد إلى القلعة مباشرةً، بل عبّر (الجلمود) مرّة أخرى ليزور إدوين فراي ويُناقش معه نقل شجناء جدّه الكبير. كان جيش فراي قد بدأ يحلّ معسكراته خلال ساعات من استسلام (ريقرزن)، وراح حقله راية اللورد والدر ومُحاربوه غير النظاميّين يقتلعون الخوازيق من الأرض استعداداً للزّحيل. رأى رجال فراي الباقيين يحلّون معسكرهم أيضًا، لكن إدوين كان مع عمّه الثّفل في شِرادق الثّاني.

وجدَ الاثنين مائتين فوق خارطة يتجاذلان بانفعال، لكنهما بترا كلامهما لدى دخول چايمي، وقال ريقرز بكياسة باردة: «حضرة القائد»، لكن إدوين اندفع يقول: «دم أبي على يدك أيها الفارس».

أدهش هذا چايمي بعض الشيء، وتساءل: «كيف؟».

- «أنت الذي أرسلته إلى الدّيار، أليس كذلك؟».

كان على أحدهم أن يفعل. «هل وقع للسير رايمان سوء؟».

قال والدر ريقرز: «شوق مع مجموعته كلّها. الخارجون عن القانون هاجموهم على بُعد فرسخين من (الشوق القصيّة)».

- «دونداريون؟».

- «هو أو ثوروس أو تلك المرأة قلب الحجر».

قَطَّبَ چایمی وجهه. رایمان فرای کان أبله وچیانًا وسکیزًا،
ولیس واردًا أن یفتقدہ أحد کھیزًا، بالذات أهله من آل فرای. إذا
كانت عینا إدوین الجاققان قرینةً فحتى أبناؤہ أنفسہم لن
یحزنوا علیہ طویلًا. ولو... هؤلاء الخارجون عن القانون
یزدادون جراءةً ما داموا قد شنقوا وریث اللورد والدر علی بُعد
أقل من یوم من (الثوأمین). «کم رجلًا کان مع السیر
رایمان؟».

أجاب ریقرز: «ثلاثة فرسان ودسته من الجنود. کانہم کانوا
یعرفون أنه عائد إلى (الثوأمین) بحراسة خفیفة».
التوی فم إدوین، وقال: «أراهن أن لأخی یذا فی هذا. لقد
سمح للخارجین عن القانون بالهرب بُعد أن قتلوا میریت وییتر،
وهذا هو الشبب. بموت أبینا لا یبقى إلای بین والدر الأسود
و(الثوأمین)».

قال والدر ریقرز: «لا دلیل لدیك علی هذا».
- «لست محتاجًا إلى دلیل، إننی أعرف أخی».
رَدَّ ریقرز بإصرار: «أخوك فی (سیجارد). أتى له بأن یعرف
بعودة السیر رایمان إلى (الثوأمین)؟».
أجاب إدوین بمرارة: «أحدہم أبلغه. إن له جواسیسہ فی
معسكرنا، لك أن تتق بهذا».

وأنت لك جواسیسك فی (سیجارد). یعرف چایمی أن
العداوة بین إدوین ووالدر الأسود عمیقة، لكنه لا یبالی مقدار
ذرة بخلافة أيہما لجذہما الأكبر فی سیادة (المعبر).

قال بنبرة جافة: «إذا سمحتما لی بالشطفل علیكما فی
خزنكما، ثقة أمور أخرى علینا تسویتها. لدى عودتكما إلى
(الثوأمین) أرجو منكما إبلاغ اللورد والدر بأن الملك تومن
یطلب جميع الأسرى الذین أخذتموہم فی الزفاف الأحمر».

رَدَّ السیر والدر عابثًا: «هؤلاء الأسرى قیّمون أيها الفارس».
- «لم یکن جلالته لیطلبہم لو أنهم بلا قيمة».

تبادل فراي وريقرز نظرة، ثم قال إدوين: «سيتوقع السيد جدي تعويضًا عن هؤلاء الأسرى».

وسيناله ما إن تنبت لي يد جديدة. قال بكياسة: «كلنا لنا توقعاتنا. أخبرني، هل السير راينالد وسترلينج بين هؤلاء الأسرى؟».

قال إدوين هازنًا: «فارس الأصداف؟ ستجد الأسماك تتغذى عليه في قاع (الفرع الأخضر)».

أضاف والد ريفرز: «كان في الساحة عندما خرج رجالنا لقتل الذئب الزهيب. طالبه والن بسيفه فسلمه يانعان، لكن حين بدأ زمة الثشائية إطلاق سهامهم على الذئب انتزع قأس والن وأطلق سراح الوحش من الشبكة التي ألقيها عليه. والن يقول إنه أصيب بسهم في كتفه وآخر في بطنه، ومع ذلك استطاع بلوغ أعلى الشور وإلقاء نفسه في النهر».

قال إدوين: «ترك أثرًا من الدّم على الشلال».

سأل چايمي: «هل عثرتُم على جثته بعدها؟».

- «عثرنا على ألف جثة بعدها. بعدما يقضون بضعة أيام في

مياه النهر يبدون متشابهين جميعًا».

علق چايمي: «سمعتُ المثل عن المشنوقين»، ثم انصرف.

بحلول الصباح التالي لم يتبق من معسكر فراي إلا الذباب وروت الخيول ومشنقة السير رايمان المرتفعة بكآبة على ضفة (الجلمود). أراد ابن خاله أن يعرف ماذا يفعل بها وبمعدّات الحصار التي بناها، المدكّات والشلّاحف⁽⁶⁹⁾ والأبراج والمجانيق، واقترح داقن أن يجرّوا كل هذا إلى (شجرة الغدقان) لاستخدامه هناك، لكن چايمي قال له أن يضرّم النار في كل شيء بدايةً بالمشنقة، وأضاف: «أنوي أن أتعامل مع اللورد تايتوس بنفسه. لن يتطلّب الأمر أبراج حصار».

ابتسم داهن ابتسامة عريضة من تحت لحيته الكثّة، وقال:
«نزال فردي يا ابن العقّة؟ لا يبدو هذا عدلاً. تابتوس شيخ
طاعن في السن».

شيخ طاعن في السن له يدان.

ليلتها تقاتل مع السير إلين ثلاث ساعات. كانت واحدة من
أفضل لياليه، فلو كان قتالهما حقيقياً لفتك به يابن مرّتين، أمّا
المعتاد فأن يموت ستّ مرّات على الأقل، وفي بعض الليالي
يكون الأمر أسوأ. أعلن جايمي: «إذا استمررت على هذا المنوال
سنة أخرى فربما أصير ببراءة بك»، فأصدر السير إلين صوت
الظّقطّة إياه الذي يعني أنه يضحك. «هلمّ، لنشرب المزيد من
نبيذ هوستر تلي الأحمر الممتاز».

أمسى النّبيذ جزءاً من طقوسهما اللّيلية. السير إلين نديم
الشّراب المثالي، إذ لا يُقاطعه أبداً أو يُخالفه أو يشتكي أو
يطلب خدمات أو يحكي قصصاً طويلة لا غاية منها. كلّ ما
يفعله هو الشّرب والإنصات.

قال چايمي بينما يملأ كأسيهما: «حريّ بي أن أقطع السنة
أصدقائي جميعًا، وأهلى أيضًا. كم ستكون سرسي الضامّة
رائعة، ولو أنني سأفتقذ لسانها حين أقبّلها»، ورشّف من الثّبيذ
الأحمر القاني. كان خلّوا قويًا، وقد دقّاه إذ ابتلعه. «لا أذكّر متى
بدأنا الثّقيل، لكنه كان بريثا في البداية، ثم لم يَعد كذلك»،
وأفرغ باقي الثّبيذ في جوفه ووضع كأسه جانبًا مضيّقًا:
«أخبرني تيريون ذات مرّة بأن أكثر العاهرات لا يُقبّلن زبائنهن،
قال إنهن يُضاجعنك حتى العمى، لكنك لن تشغُر بشفاهن على
شفتيك أبدًا. هل تحسب أن أختي تُقبّل كِتلبلاك؟». لم يُجب
السير إلين، فتابع چايمي: «لا أظنّ أنه يليق بي أن أقتل أخي
المحلّف. عليّ أن أخصيه وأرسله إلى (الجدار). هذا ما فعلوه
بلوكامور الشّهواني. بالطبع ربما لا يتقبّل كِتلبلاك الإخصاء
ببساطة، ويجب وضع أخويه في الاعتبار أيضًا، فالإخوة
خطرون أحيانًا. يَعد أن أعدم إجون غير الجدير السير تيرانس
توين لنومه مع عشيقته بذلّ إخوة توين قصارى جهدهم لقتله،
ولكن بفضل الفارس التّئين لم يكن قصارى جهدهم كافيًا، وإن
لم يكن للثّواني في المحاولة. كلّ هذا مدوّن في (الكتاب
الأبيض)، كلّ شيء باستثناء ما أفعله بسرسي».

مرّر السير إلين يده على خلقه.

قال چايمي: «لا. تومن فقدّ أخاه والرّجل الذي يحسبه أباه.
إذا قتلت أمّه سيكرهني... وستجد زوجته الصّغيرة الجميلة
وسيلةً لضبّ هذه الكراهية في مصلحة (هايجاردن)».

ابتسم السير إلين بطريقة لم تُرقّ چايمي، فقال لنفسه:
ابتسامة قبيحة وروح قبيحة، وقال للرّجل: «إنك تتكلّم كثيرًا».

في اليوم التالي رجع السير درموت اين (الغابة المطيرة) خاوي الوفاض، ولدى سؤاله عما وجدته أجاب: «الذئاب، مئات من تلك الحيوانات اللعينة». بسبب الذئاب فقد حارسين عندما خرجت من الظلام لتفترسهما. «رجلان مسلحان يرتديان الحلقات المعدنية والجلد المقوي، ولم يخيفا الوحوش على الإطلاق. قبل أن يموت جايت قال إن القطيع تقوده ذئبة هائلة الحجم، ذئبة رهيبة على حد تعبيره. هاجمت الذئاب الملعونة صفوف خيولنا أيضًا وقتلت جوادي المفضل».

قال چايمي: «ربما تتكفل حلقة من النار حول معسكركم ليلاً يبعداها...» ولو أنه يتساعل. هل يمكن أن تكون ذئبة السير درموت الزهية الذئبة نفسها التي نهشت چوفري قرب مفترق الطرق؟

ذئاب أو لا ذئاب، أخذ السير درموت خيولاً جديدةً ومزيداً من الرجال في الصباح التالي لاستئناف البحث عن برايندن تلي. بعد ظهر اليوم نفسه أتى لوردات (الثالوث) چايمي يطلبون إذنه في العودة إلى أراضيهم، ومنحهم إياه. أراد اللورد يايپر أن يعرف ما سيحدث لابنه مارك، فوعده چايمي قائلاً: «سأدفع فدية جميع الأسرى».

إذ غادر لوردات أراضي النهر تخلف كاريل قانس ليقول: «لورد چايمي، يجب أن تذهب إلى (شجرة الغدقان). تاييتوس لن يستسلم أبداً ما دام چوئوس على أبوابه، لكنني أعلم أنه سيركع لك»، فشكره چايمي على نصيحته.

كان الغفر القوي الزاحل التالي، وقد أراد العودة إلى (داري) ليقاتل الخارجين عن القانون كما وعد، وقال: «لقد قطعنا نصف البلاد اللعينة، ومن أجل ماذا؟ كي تجعل إدميور تلي يُبَلِّل سراويله؟ لا أغنية في هذا. أريد أن أقاتل! أريد كلب الصيد يا چايمي، هو أو لورد (الثخوم)».

- «رأس كلب الضيد لك إذا استطعت أن تقطعه، لكن عليك أن تقبض على بريك دونداريون حيًا كي يؤخذ إلى (كينجز لاندنج). يجب أن يراه ألف من الناس يموت وإلا فلن يظل ميثا». فدمدم الغفر معترضًا لكنه وافق في النهاية، وفي اليوم التالي رحل مع مرافقه وجنوده، بالإضافة إلى جون بتلي الحليق الذي قرّر أن مطاردة الخارجين عن القانون خير من العودة إلى زوجته الشهيرة بدمامتها، والتي يفترض أن لها اللحية التي يفتقر إليها بتلي.

ما زال على جايمي أن يتعامل مع الحامية، وقد أقسم رجالها عن آخرهم أنهم لا يعلمون شيئًا عن خطط السير برايندن أو أين ذهب. قال إمون فراي يالحاح: «كاذبون»، لكن جايمي لا يحسب هذا، ورّد: «إذا لم تُطلع أحدًا على خططك فلا يمكن أن يخونك أحد». فاقترحت الليدي چنا إخضاع عددٍ من الرجال للاستجواب، لكنه رفض قائلاً: «لقد وعدت إدميور بأن تُغادر الحامية بسلام إذا استسلم».

قالت عمّته: «وكانت هذه شهامة منك، لكن ما نحتاج إليه هنا هو القوة وليس الشهامة».

سلي إدميور عن شهامتي، سليه عن المنجنيق. بشكلٍ ما لا يحسب جايمي أن المايسترات سيخلطون بينه وبين الأمير إيمون الفارس الثّين حين يدّونون سيرته، وعلى الرغم من ذلك يحش بقناعة عجيبة. الحرب ثوبك على وضع أوزارها. (دراجونستون) سقطت ولا شك أن (ستورمز إند) ستلحق بها عمّا قريب، وهنيئًا لستانيس بـ(الجدار)، فلن يحبه الشماليون أبدًا أكثر مما أحبه لوردات أراضي العواصف، وإذا لم يبطش به رويس بولتون فسيندمره الشتاء.

ولقد قام بدوره هنا في (ريقرذن) دون أن أن يحمل السلاح ضد آل ستارك أو ثلي، وما إن يَعرثر على الشمكة السوداء سيكون خُزًا في العودة إلى (كينجز لاندنج) حيث ينتمي. مكاني مع مليكي، مع ابني. ثرى هل يريد تومن أن يعرف ذلك؟ من شأن الحقيقة أن تُكَلِّف الضبي عرشه. هل تُؤثِّر أن تحظى بآب أم كُرسِيّ يا فتى؟ يتمنى جايمي لو يعرف الجواب. إنه يحب وضع ختمه على الأوراق حقًا. ربما لا يُصدِّقه الضبي من الأصل طبقًا، إذ ستقول سرسي إنه يكذب. أختي الجميلة المخادعة. عليه أن يجد طريقة لانتزاع تومن من برائتها قبل أن يتحوّل إلى جوفري آخر، وبينما يفعل هذا عليه أن يجد للضبي مجلسًا صغيرًا جديدًا أيضًا. إذا أزيحت سرسي فربما يُوافق السير كيقان على أن يكون يد تومن. وإن لم يقبل فلا بأس، (الممالك السبع) لا تفتقر إلى الرجال القادرين. فوري پرستر اختيار جيّد، أو رولاند كراكهول، وإذا دعت الحاجة إلى رجل غير غربي لإرضاء آل تايرل فماتيس روان متاح دائمًا... أو حتى بيتر بايلش. الإصبع الصغير وديع بقدر ما هو ذكي، لكن مولده أكثر تواضعًا من أن يُهدّد أيًا من كبار اللوردات، إذ إن لا جُند تحت إمّرتة. اليد المثالي.

رحلت حامية ثلي في الصّباح الثّالي بعد تجريدّها من السلاح والذّروع، وقد سُمِحَ لكلّ رجلٍ بطعامٍ يكفي ثلاثة أيام والثّياب على ظهّره، بعد حلفه يمينًا مغلّظةً بعدم رفع السلاح ضد اللورد إمون أو عائلة لانستر أبدًا.

قالت الليدي چنا: «إذا كنت محظوظًا فربما يصون رجل واحد من كلّ عشرة يمينه».

- «جيّد. أفضل أن أواجه تسعة رجالٍ على عشرة، فربما كان العاشر قاتلي».

- «سيفُتلك التسعة الآخرون بالشرعة نفسها».

- «أفضل من أن أموت في الفراش». / أو في المرحاض.

اختارَ رجلان ألا يرحلا مع الآخرين. فضّل السير دزموئد جرل -قيّم سلاح اللورد هوستر العجوز- ارتداء أسود خرس الليل، وكذا السير روبن رايجر قائد الخرس في (ريقرّرن)، وقال جرل: «هذه القلعة بيتي منذ أربعين عامًا. تقول إن لي حُرّيّة الرّحيل، ولكن إلى أين؟ إنني أكبر سنًا وأكثر بدائيّة من أن أصير فارسًا متجوّلًا، لكنهم يَرحّبون بالزّجال دومًا على (الجدران)».

على الرغم من أنزعاجه البالغ قال چايمي: «كما ترغبان»، وسمح للزّجلين بالاحتفاظ بأسلحتهما ودروعهما، وكلفّ دستة من رجال جريجور كليجاين باصطحابهما إلى (بركة العذارى). عهدَ إلى رافورد الملّقب بالمعسول بالقيادة، وقال له: «أحرص على بلوغ الأسيرين (بركة العذارى) دون أن يُصيّهما أذى، وإلا لبدا ما فعله السير جريجور بالكبش كذعابة مرحة مقارنة بما سأفعله بك».

مرّت أيام أخرى، وجمع اللورد إمون (ريقرّرن) كلّها في السّاحة، قوم اللورد إدميور وقومه، وكلّمهم لما يقرّب من ثلاث ساعات عن المتوّقع منهم الآن وقد صار سيّدهم ومولاهم، ملوّحًا بين الحين والآخر بورقته فيما أصفى غُمال الاسطبلات والخادّيات والحدّادون بصمتٍ واجمٍ وسقط عليهم جميعًا مطر خفيف.

كان المغني مع المنصتين، هذا الذي أخذه چايمي من السير رايمان فراي، وقد وجده واقفًا تحت باب مفتوح حيث لا يُبلّله المطر. قال الرّجل: «كان جديرًا بحضرة اللورد أن يحترف الغناء. هذه الخطبة أطول من أغنيّة شعبية من (الثخوم)، ولا أظنّه توقّف يلتقط أنفاسه».

ضحك چايمي رغما عنه، وقال: «اللورد إمون ليس في حاجة إلى التّنفس ما دام يستطيع المضغ. هل سؤلّف أغنيّة عن هذه الخطبة؟».

- «واحدة طريفة، سأسقيها (كلام مع الأسماك)».

- «فقط لا تُغنيها على مسمع من عفتي». لم يُلَقِ چایمی للزجل بالآ من قبل. إنه صغير الحجم، ويرتدي سراويل خضراء بالية وشتره مهترنة لونها الأخضر أفتح درجة ومرقعة بقطع من الجلد البني، وله أنف طويل حاد وابتسامة واسعة طليقة، وينسدل شعره البني الخفيف حتى ياقته ملبداً مٹسٹھا. في الخمسين من العمر على الأقل، مطرب متجول أكلت عليه الحياة وشربت. سألہ چایمی: «ألم تكن رجل السير رايمان لقا وجدتك؟».

- «لمدة أسبوعين فقط».

- «كنت لأحسبك رحلت مع آل فراي».

قال المغني مشيرًا برأسه إلى اللورد إمون: «هذا من آل فراي، وهذه القلعة تبدو مكانًا لطيفًا مريحًا لقضاء الشتاء. وات ذو الابتسامة البيضاء عادَ إلى دياره مع السير فورلي، فخطر لي أن أرى إن كنت أستطيع الظفر بمكانه. وات يتمتع بتلك الثيرة العالية العذبة التي لا أمل لأمتالي في مضاهاتها، لكنني أعرف ضعف ما يعرفه من الأغاني البذيئة، بعد إذن سيدي».

قال چایمی: «هذا كفيل بجعلك تُعجب عفتي للغاية. إذا كنت تأمل أن تقضي الشتاء هنا فاحرص على أن يسر غناؤك الليدي چنا، فهي المهمة».

- «وليس أنت؟».

- «مكاني مع الملك. لن أمكث هنا طويلاً».

- «يُؤسفني أن أسمع هذا يا سيدي. إنني أعرف أغاني أفضل من (أمطار كاستامير). كان يُمكنني أن أغني لك... أوه، أغاني من شتى الأصناف».

- «مزة أخرى. ما اسمك؟».

رفع المغني قبضته مجيبًا: «توم ابن (الجداول الشبعة)، بعد إذن سيدي، لكن أكثر الناس يدعونني بتوم أبي الشبعات».

- «غناء جميلًا يا توم يا أبا الشبعات».

ليلتها حلمٌ چايمي بنفسه في (سپت بيلور) الكبير، ما زالَ واقفاً يحرسُ جثةَ أبيه. كان السّپت ساكناً مطلقاً إلى أن برزت امرأة من قلب الظلال ومشت الهوينى نحو النّعش، فسألها: «أختاه؟».

غير أنها لم تكن سرسي. كانت مسربةً بالزّماذي، أخنًا صامتةً
تخفي قلنسوة ولتام ملامحها، لكنه رأى ضوء الشّموع المنعكس
في يركتي عينيها الخضراوين. قال: « أيتها الأخت، ماذا تريدان
مني؟»، وتردّدت أصداء كلمته الأخيرة في جنبات البيت، مني-
مني-مني-مني-مني-مني-مني-مني-مني-مني-مني-مني.

رَدَّتْ: «لَسْتُ أَخْتَكِ يَا جَائِمِي»، وَرَفَعَتْ يَدًا شَاحِبَةً نَاعِمَةً وَأَنْزَلَتْ قَلَنْسُوتَهَا مَتَسَانِلَةً: «هَلْ نَسِيتَنِي؟».

كيف أنسى أحدا لم أعرفه قَطُّ؟ احتبست الكلمات في خلقه.
إنه يعرفها بالفعل، لكن زمنا طويلا مضى...

- «هل ستنسى السيد والدك أيضًا؟ ثرى هل عرفتَه بحقَّ يومًا؟». عيناها خضراوان، وشعرها ذهب مغزول، ولا يستطيع تخمين سنّها. في الخامسة عشرة أو الخمسين. ارتقت الدرجات لتقف إلى جوار النعش قائلة: «لم يتحمل قط أن يضحك منه الناس. هذا أكثر شيء كرهه».

- «مَنْ أَنْتِ؟». يَجِبُ أَنْ يَسْمَعَهَا تَقُولُهَا.

- «الشؤال هو مَنْ أنت؟».

- «هذا خلم».

قالت: «أهو كذلك؟»، وابتسمت مضيئة: «أحصى يدك يا صغيري».

واحدة. يد واحدة مطبقة بإحكام على مقبض سيفه، واحدة فقط. «في أحلامي لي يدان اثنتان دوماً». رفع ذراعه اليمنى وحذق غير قادر على الاستيعاب إلى قُبْح عاهته.

- «كلنا يحلم بما لا يستطيع أن يحظى به. تايوين حلم بأن يصير ابنه قارشًا عظيمًا وتصير ابنته ملكة، حلم بأن يكونا قوئين شجاعين جميلين لا يضحك منهما أحد أبدًا».

- «أنا فارس، وسرسي ملكة».

سالت دمة على وجنة المرأة، وعادت ترفع قلنسوتها وأولته ظهرها. ناداها چايمي، لكنها كانت تبتعد بالفعل، تهمس تئورتها بتهويده إذ تكنس الأرض بنعومة. أراد أن يصيح: لا تتركيني، لكنها -بالطبع- تركتهم منذ زمن طويل فعلاً.

استيقظ في الظلام مرتجفًا ليجد الغرفة باردة كالجليد. بقوة أزاح الأغشية بجدة يد سيفه، ورأى أن نار المستوقد همدت والثافذة انفتحت. قطع الغرفة دامسة الظلام ليفلق مصراعها، لكن حين بلغها داست قدمه الحافية شيئًا مبتلًا، فتراجع چايمي مذعورًا لحظة، وأول ما جال بباله أن هذا دم، ولكن لما كان الدم بهذه البرودة.

كان الثلج ينجرف من الثافذة.

بدلًا من إغلاق المصراعين فتحهما عن آخرهما، ورأى الساحة بالأسفل مغطاة بدثار أبيض خفيف يزداد سمكًا بينما يشاهد، وقد اكتست شرافات الشرفات بالبياض أيضًا. سقطت ثدف الثلج بصمت ودفع الهواء بعضها من الثافذة ليزوب على وجهه، وفي هذه اللحظة استطاع چايمي أن يرى أنفاسه.

تلوج في أراضى النهر. ما دام الثلج يسقط هنا فمن الوارد أنه يسقط على (لانسپورت) و(كينجز لاندنج) أيضًا. الشتاء يزحف على الجنوب ويصف مخازننا خاو على عروشه. إذا كانت هناك محاصيل غير محصودة في الحقول حتى الآن فهي هالكة. لا مزيد من الزرع ولا أمل في حصاد أخير. وجد نفسه يتساءل عما سيفعله أبوه لإطعام البلاد، قبل أن يتذكر أن تايوين لانسستر مات.

حين بزغ الضبح كان الثلج عميقًا تفوص فيه القدم حتى الكاحل، وأعمق في أكمة الآلهة حيث تراكم تحت الأشجار. عاد المرافقون وغقال الاسطبلات والوصفاء الثبلاء إلى طفولتهم من جديد متأثرين بالثعويذة البيضاء الباردة، وخاضوا حربًا بكرات الثلج في الشاحات والشرقات، وسمعهم چايمي يضحكون. في وقت لم يمض عليه زمن طويل كان ليصنع كرات الثلج مع أفضلهم ليرمي تيريون بها عندما يمر أو يضع واحدة في ظهر قستان سرسي. لكنك تحتاج إلى يدين لتصنع كرة ثلج جيدة.

دق أحدهم الباب، فقال: «انظر من الطارق يا بك».

كان مايستر (ريقرزن) العجوز، يحمل رسالة بيده المتغضنة، وقد بدا وجه قايمان شاحبًا كالثلوج المتساقطة. قال چايمي: «أعرف، وصل غداف أبيض من (القلعة). الشتاء هنا».

رد المايستر: «لا يا سيدي، الرسالة من (كينجز لاندنج). سمحت لنفسي بأن... لم أكن أعرف...»، وناولته الرسالة.

قرأها چايمي وهو جالس على الكرسي المجاور للثافة مغمورًا بضوء الصباح الأبيض البارد. كانت كلمات كايرن مقتضبة وفي الضميم، وكلمات سرسي محمومة ملتهبة. تعال في الحال. ساعدني. أنقذني. إنني محتاجة إليك الآن كما لم أحتج إليك من قبل قط. أحبك، أحبك، أحبك. تعال في الحال.

كان قايمان يحوم قرب الباب، وشعر چايمي بك يرقبه أيضًا، وبعد فترة صمت طالت تساءل المايستر: «هل يرغب سيدي في الرد؟».

حظت رقاقة ثلج على الورقة، وإذ ذابت بدأ الحبر يتلخخ، ثم عاد چايمي يطوي الرسالة بكل ما تتيح يده الواحدة من إحكام، وناول بك إياها مجيبًا: «لا، ألقها في النار».

(68) الذيماس زنزانة تعذيب رأسية شديدة الضيق لا يمكن الوصول إليها إلا من فتحة في السقف، وكانت شائعة الاستخدام في قلاع القرون الوسطى. (المترجم).

(69) الشلحفاة واحدة من أنظمة الوقاية في الحروب القديمة، يرفعها الجنود فوق رؤوسهم في أثناء الهجوم على بوابات القلاع أو المدن لحمايتهم من الشهام وغيرها، على غرار صدفة الشلحفاة. (المترجم).

أخطر مرحلة من الرحلة كانت الأخيرة. تمامًا كما حذروهم في (تايروش)، وجدوا (بوغاز ردواين) يعج بالشفن الطويلة. في غياب القوة الأساسية لأسطول (الكرمة) على الجانب الآخر من (وستروس)، نهب الحديدئون (مرقا ريام) واستولوا على (بلدة العنب) و(ميناء نجم البحر)، مستخدمين إياهما كقاعدتين لاقتناص الشفن المثجّة إلى (البلدة القديمة).

ثلاث مرّات شوهدت الشفن الطويلة من منصّة المراقبة، إلّا أن اثنتين منها كانتا وراءهم بمسافة طويلة وسرعان ما سبقتهما (ريح القرفة)، أمّا الثالثة فظهرت قرب الغروب لتعرض سبيلهم إلى (النهر الهامس)، ولما أبصروا مجاذيفها ترتفع وتنخفض ماخضة المياه الثحاسيّة ومحيلة لونها إلى الأبيض، أرسلت كوجا مو زماتها إلى أعلى بأقواسهم العظيمة المصنوعة من خشب القلب الذهبي، والتي يمكنها إطلاق الشهام على مدى أبعد وإصابة الأهداف بدقّة أكبر من أقواس خشب الطقسوس الدورنيّة نفسها. انتظرت كوجا حتى دخلت السفينة الطويلة حيّز المئتي ياردة قبل أن تلقى أمر الإطلاق، وأطلق سام سهامه مع الآخرين، لكنه يحسبها بلغت الهدف هذه المرّة. لم يتطلّب الأمر أكثر من وابل واحد، وانحرفت السفينة الطويلة إلى الجنوب بحثًا عن فريسة أكثر وداعة.

كانت السماء تتشّح بزرقة الغسق العميقة إذ دخلوا (النهر الهامس)، وقد وقفت جيلي عند المقدّمة حاملة الرضيع وتتطلّع إلى قلعة قائمة فوق الجروف، فأخبرها سام: «إنها (الأبراج الثلاثة)، مقرّ عائلة كوستاين». مرسومة على خلفيّة من نجوم المساء بينما تتذبذب أضواء المشاعل في نوافذها، تصنع القلعة منظرًا مبهرًا، وإن أحزن سام لأن رحلتهم تُشارف على الانتهاء. قالت جيلي: «عالية للغاية».

- «انتظري حتى تري (البرج العالي)».

بدأ طفل دالا يبكي، ففتحت جيلي شترتها وألقته ثديها، وبينما أرضعته ابتسقت ومأست على شعره البني الناعم. ففكر سام: أصبحت تحبه مثلما أحبت الآخر الذي تركته. يأمل أن تحنو الآلهة على كلا الطفلين.

كان الحديدئون قد توغلوا في مياه (النهر الهامس) المحمية، وبحلول الصباح إذ استمرت (ريح القرفة) في طريقها إلى (البلدة القديمة) بدأت ترتطم بالجثث الطافية المحمولة إلى البحر. بعض الجثث عليه جماعات من الغربان طارت متذمرة بصخب حين أزعجها مرور السفينة البجعية بأطوافها المنتفخة الشنيعة، وعلى الضفاف ظهرت الحقول المحروقة والقرى المتفحمة، وتناثرت المراكب المحظمة في المياه الضحلة وعلى الامتدادات الرملية المرتفعة، الأشيع بينها السفن التجارية وقوارب الصيد، لكنهم رأوا سفنًا طويلة مهجورة أيضًا، وخطام ذرمونتين كبيرتين، وقد احترقت إحداها حتى حُط الماء ولاحت في جانب الثانية فجوة كبيرة حيث ذك بدنها.

قال زوندو: «معركة هنا. ليس من وقت طويل».

- «من المخبول الذي يغير على هذه المقربة من (البلدة القديمة)؟».

أشار زوندو إلى سفينة طويلة شبه غارقة في المياه الضحلة، من مؤخرتها تتدلى بقايا راية مهترئة ملطخة بالشخام، وعليها رمز لم يره سام من قبل على الإطلاق؛ عين حمراء بؤبؤها أسود تحت تاج من الحديد الأسود يحمله غرابان. سأل سام: «راية من هذه؟»، لكن زوندو هز كتفيه دلالة على جهله.

طلع النهار التالي باردًا ضبابيًا، وبينما تمرّ (ريح القرفة) بقرية صيد منهوبة أخرى خرج قادس حربي من الضباب متجهًا صوبهم بتؤدة. تحمل السفينة اسم (القناصة) مكتوبًا بالظلاء وراء تمثال مقدّمة لفتاة ممشوقة القوام ترتدي أوراق الشجر وتلوح بحربتها مهذّدة. بعد لحظة ظهر قادسان أصغر حجمًا على جانبيها كزوجين متماثلين من كلاب الصيد يتحرّكان في أعقاب سيّدهما، وتنفس سام الضعداء لمرأى أسد ووعل الملك تومن على القوادس الثلاث فوق بُرج (البلدة القديمة) الأبيض المدرّج بقمّته الثاريّة.

زّبان (القناصة) رجل طويل القامة يرتدي معطفًا رماديًا كالذّخان حاشيته على شكل أسنة لهب من الساتان الأحمر، وقد حانى (ريح القرفة) بقادسه ورفع مجانيفه وصاح أنه قادم إلى متنها، وبينما تبادل زّماته وزّامة كوجا مو النظرات عبر مساحة الماء الضيقة عبر الرّجل مع نصف دسّة من الفرسان وحيًا كاهورو مو بإيماءة من رأسه وطلب أن يرى مخازنه، فتشاور الأب والابنة فترة وجيزة ثم وافقا.

بعد انتهاء التفتيش قال الزّبان: «تقبّلوا اعتذاري. يؤسفني أن يتعرّض الثّزاء لفضاظة كهذه، لكنها خير من دخول الحديديّين (البلدة القديمة). قبل أسبوعين فقط استولى بعض هؤلاء الأوغاد الملاعين على سفينة تجارية من (تايروش) في البوغان وقتلوا رجالها وارتدوا ثيابهم واستخدموا الأصباغ التي وجدوها لتلوين لحاهم بعشرات الألوان. ما إن يجتازوا الأسوار كانوا ينتوون إشعال النار في الميناء وفتح البوّابة من الداخل بينما تكافح الحريق، وكانت خطّتهم لتنجح لولا أن (سيّدة البرج) اعترضت طريقهم. زوجة وكيل زّبانها تايروشيّة، فلما رأى اللّحي الخضراء والأرجوانيّة حيّاهم بلغة (تايروش)، ولم يستطع أحد منهم أن يردّ عليه».

قال سام مفزوعًا: «لا يمكن أنهم ينوون الإغارة على (البلدة القديمة)!».

رمقه زَبَان (القناصة) بفضولٍ قائلاً: «هؤلاء ليسوا مجرّد مُغيرين. لطالما أغارَ حديدّيو الميلاد أينما استطاعوا، يُهاجمون على حين غرّة من البحر ويسرقون الذهب ويختطفون الفتيات ثم يرحلون، لكن نادرًا ما يزيد عدد سفنهم الطويلة على واحدة أو اثنتين، ولا يزيد أبدًا على ستّة. الآن تبتلينا منات من سفنهم التي تُبحر من (جزر الثروس) وبعض الضُخور المحيطة بـ(الكرمة). لقد استولوا على (الشرطان الحجري) و(جزيرة الخنازير) و(قصر عروس البحر)، وثقّة أوكار أخرى لهم على (صخرة الحدوة) و(مهد الثُغول). دون أسطول اللورد ردواين نفتقر إلى السفن الكافية لردعهم».

اندفع سام يقول: «وماذا يفعل اللورد هايتاور؟ اعتادَ أبي أن يقول إنه ثريٌّ كآل لانستر، وتحت إمرته ثلاثة أضعاف سيوف حملة راية (هايجاردن) الآخرين».

قال الزَبَان: «وأكثر إذا جئِد كُناسة الشّوارع، لكن الشّيوف لا تُصلح في مواجهة الحديدّيين ما لم يكن حاملوها يمشون على الماء».

- «لا بُدَّ أن يفعل (البرج العالي) شيئًا!».

- «بالثّأكيد. اللورد لايتون حبس نفسه على قفّة بُرجه مع العذراء المجنونة ويستشير كُتب الثّعاويذ. ربما يستطيع أن يحشد جيشًا من الأعماق... وربما لا. بيلور ييني القوادس، وجونثور مسؤول عن الميناء، وجارث يَدْرِب المجنّدين الجُد، وهمفري ذهب إلى (ليس) لاستئجار القراصنة. إذا استطاع الطّفر بأسطولٍ مناسب من العاهرة أخته قريبًا نشرع في الرّذ على الحديدّيين بالمثل، لكن حتى ذلك الحين فأفضل ما في وسعنا أن نحمي الثّهر وننتظر أن تُطلق الملكة الحقيرة في (كينجز لاندنج) سراح أسطول اللورد باكستر».

صدقت المرارة في نبرة الزَّبان سام بقدر ما صدقته أقواله،
وبينما ابتعدت (القنّاصة) وأختها فكرت: إذا خسرت (كينجز
لاندنج) كلّ من (البلدة القديمة) و(الكرمة) فستنهار البلاد
بأكملها.

جعله هذا يتساءل إن كانت (هورن هيل) آمنة حقًا. أراضي
عائلة تارلي تقع وسط تلال كثيفة الغابات على بُعد مئة فرسخ
شمال شرق (البلدة القديمة) وبعيدًا عن أي ساحل، وهكذا
يُفترض أن تكون بمنأى تمامًا عن متناول الحديديّين والشفن
الطويلة، حتى مع غياب أبيه الذي يُقاتل في أراضي النهر
والحراسة الخفيفة على القلعة. لا شك أن الذئب الصغير اعتقد
أن الشيء نفسه ينطبق على (وينترفيل) حتى الليلة التي تسبق
فيها ثيون المارق أسواره. لا يستطيع سام احتمال فكرة أنه ربما
قطع بجيلي وصغيرها كلّ هذا الطريق الطويل ليحميهما من
الأذى، فقط ليتخلى عنهما في غمار الحرب.

ظلّ يُصارع شكوكه وثورارعه طيلة ما تبقى من الرحلة
ويتساءل ماذا يفعل. قد يمكنه إبقاء جيلي معه في (البلدة
القديمة)، فأسوار المدينة أقوى كثيرًا من أسوار قلعة أبيه،
وهناك آلاف يُدافعون عنها، على عكس القلعة التي لا بُدّ أن اللورد
راندل تركها في (هورن هيل) عندما زحف على (هايجاردن)
لتلبية استدعاء اللورد ولي أمره. لكن إذا أبقاها فعليه أن يخفيها
في مكان ما، ذلك أن (القلعة) لا تسمح للمبتدئين بالاحتفاظ
بزوجات أو خليات، ليس جهازًا على الأقل. ثم إنني إذا بقيت
مع جيلي فترة أطول فكيف سأجد القدرة على تركها؟ عليه أن
يتزكها... إنا هذا وإنا أن يتهزّب من خدمته. لقد حلف اليمين.
إذا تهزّب فسأدفع الثمن برأسي، وكيف يساعد شيء هكذا
جيلي؟

فَكَرَّ فِي أَنْ يَتَوَسَّلَ إِلَى كَوْجَا مُو وَأَبِيهَا أَنْ يَأْخُذَا الْفَتَاةَ
الْهَمْجِيَّةَ مَعَهُمَا إِلَى (جُزْرِ الضَّيْفِ). عَلَى أَنَّ ذَلِكَ الطَّرِيقَ لَهُ
أَخْطَارُهُ أَيْضًا، فَحِينَمَا تَرْحَلُ (رِيحُ الْقَرْفَةِ) مِنْ (الْبَلَدَةِ الْقَدِيمَةِ)
فَعَلَيْهَا أَنْ تَعْتَبَرَ (بُوغَازُ رِدَوَايْنِ) ثَانِيَّةً، وَهَذِهِ الْمَرْةَ رُبَّمَا لَا يُحَالِفُهَا
الْحَظُّ. مَاذَا لَوْ خَمَدَتِ الرِّيحُ وَوَجَدَ طَاقِمُ السَّفِينَةِ نَفْسَهُ عَاجِزًا
عَنِ الْحَرَكَةِ؟ إِذَا صَحَّتِ الْحِكَايَاتُ الَّتِي سَمِعَهَا فَسُئِلَتْ عَنْهَا
جِيلِي وَيَجْعَلُونَ مِنْهَا قِئَةً أَوْ زَوْجَةً مُلْحِيَّةً، وَعَلَى الْأَرْجَحِ
سَيَرْمُونَ الرُّضِيعَ فِي الْبَحْرِ خِلَاصًا مِنْ إِزْعَاجِهِ.

أَخِيرًا حَزَمَ سَامُ أَمْرِهِ. يَجِبُ أَنْ تَكُونَ (هُورُنْ هِيلْ). مَا إِنْ
تَبْلُغَ (الْبَلَدَةَ الْقَدِيمَةَ) سَأَسْتَأْجِرُ عَرَبَةً وَخِيُولًا وَأَأْخُذُهَا إِلَى هُنَاكَ
بِنَفْسِي. بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ يُمَكِّنُهُ الْإِسْتِثْقَاقُ مِنْ دِفَاعَاتِ الْقَلْعَةِ
وَحَامِيَتِهَا، وَإِذَا لَمْ يُعْجِبْهُ أَيُّ شَيْءٍ يَرَاهُ أَوْ يَسْمَعُهُ فَسَيَعُودُ
أَدْرَاجَهُ بِجِيلِي إِلَى (الْبَلَدَةِ الْقَدِيمَةِ).

وَصَلَوْا إِلَى (الْبَلَدَةِ الْقَدِيمَةِ) ذَاتَ صَبَاحٍ بَارِدٍ رَطْبٍ كَثِيفٍ
الضُّبَابِ لِدَرَجَةٍ أَنْ مَنَارَةَ (الْبَرْجِ الْعَالِي) الْجُزْءَ الْوَحِيدَ الْمُرَآيَ مِنْ
الْمَدِينَةِ. عَبْرَ الْمِينَاءِ تَمْتَدُّ سِلْسَلَةٌ رَابِطَةٌ دَسْتَتَيْنِ مِنَ السَّفْنِ
الثَّقِيلَةِ النَّخْرَةِ، وَوَرَاءَهَا مَبَاشِرَةٌ صَفٌّ مِنَ السَّفْنِ الْحَرَبِيَّةِ الَّتِي
تَقُودُهَا ثَلَاثُ ذَرْمُونَاتٍ كَبِيرَةٍ وَسَفِينَةٌ قِيَادَةُ اللَّورْدِ هَايْتَاورِ
الْهَائِلَةِ ذَاتِ الشُّطُوحِ الْأَرْبَعَةِ الْمَسْقَاةِ (بَشْرَفِ الْبَلَدَةِ الْقَدِيمَةِ).
ثَانِيَّةً خَضَعَتْ (رِيحُ الْقَرْفَةِ) لِلتَّفْتِيشِ، وَهَذِهِ الْمَرْةَ كَانَ جُونْتُورُ
ابْنُ اللَّورْدِ لَا يَتَوَنَّهُ هُوَ مِنْ صَعْدِ إِلَى مَتْنِهَا مُرْتَدِّيًا مُعْطَفًا مِنْ
قُمَاشِ الْفَضَّةِ وَبِرَّةٍ رَمَادِيَّةٍ مِنَ الصُّفَانِحِ الْمَعْدَنِيَّةِ الْمَطْلِيَّةِ بِالْمِينَا.
دَرَسَ السَّيْرَ جُونْتُورُ فِي (الْقَلْعَةِ) سَنِيًّا عَدَّةً وَيَجِيدُ لُغَةَ الضَّيْفِ،
فَذَهَبَ مَعَ كَاهُورُو مُو إِلَى قَمَرَةِ الرُّبَّانِ لِيَتَشَاوَرَا عَلَى أَنْفَرَادِ.

استغلّ سام هذا الوقت في شرح نيّاته لجيلي، وقال: «أولاً (القلعة) لأقدّم لهم رسائل جون وأخبرهم بوقاة المايستر إيمون. أظنّ أن رؤساء المايسترات سيُرسلون عربةً لنقل جثمانه. ثم سأرتّب لأن تأخذك عربة تجرّها الخيول إلى أمّي في (هورن هيل). سأعود في أسرع وقت ممكن، لكن ربما لا يكون هذا قبل الغد».

رَدّت: «الغد»، وأعطته قبلةً للحظّ.

أخيرًا خرج السير جونثور وأعطى إشارةً بفتح السلسلة كي تدخل (ريح القرفة) إلى المرسى، وانضمّ سام إلى كوجا مو وثلاثة من زماتها قرب لوح العبور بينما ربط بنو (جزر الضيف) السفينة وقد عادوا يتألقون في معاطفهم الزيش التي لا يرتدونها إلّا على اليابسة، فشعر وهو واقف إلى جوارهم بانعدام هندامه وقد ارتدى سراويله السوداء الفضفاضة ومعطفه الباهت وانتعل حذاءه المبقّع بالملح. سأل كوجا: «كم ستبقون في المرسى؟».

- «يومين أو عشرة، من يدري؟ ما سيستغرقه إفراغ مخازننا وملؤها ثانية»، وأضافت كوجا بابتسامة واسعة: «ويجب أن يزور أبي المايسترات الزماديين أيضًا. إن معه كتبًا يبيعهم إياها».

- «هل يُمكن أن تبقى جيلي على المتن حتى أرجع؟».

أجابّت: «يُمكن لجيلي أن تبقى كما شاءت»، ووكّرت سام بإصبعها في بطنه مردفةً: «إنها لا تأكل كثيرًا كبعض الناس». رَدّ بلهجة دفاعيّة: «لم أغد بالبدانة نفسها كما كنت». تكفّلت بهذا الرّحلة جنوبًا، كلّ نوبات الحراسة ولا شيء يؤكل إلّا الفواكه والأسماك، وأهل (جزر الضيف) يحثّون الفواكه والأسماك.

تبع سام الزّامة نازلاً اللّوح، لكن بمجرّد أن أصبحوا على اليابسة افتزقوا وذهب كلّ منهم في حال سبيله. يأمل أنه ما زال يذكّر كيف يصل إلى (القلعة)، ف(البلدة القديمة) متاهة، ولا وقت لديه لضلال الطّريق.

جعلت رطوبة النّهار حجارة الرّصف مبتلة زلقة تحت قدميه والأزقة ملتحفة بالضباب والغموض، وقد تحاشاها سام قدر الإمكان والتزم الطّريق الذي يمضي متمفجاً بمحاذاة (نهر اليتع) في قلب المدينة القديمة. أحسّ بالشّور لوجود أرض ثابتة تحت قدميه من جديد بدلاً من سطح سفينة يتمايل، لكن المشي أصابه بالاضطراب رغم ذلك، إذ شعر بالأعين تُنظر إليه من الشرفات والتّوافذ وثراقبه من المداخل المظلمة. على متن (ريح القرفة) كان يعرف كلّ وجه، أمّا هنا فكّلما التفت يرى غريباً آخر. الأدهى فكرة أن يراه أحد يعرفه، فاللورد راندل معروف في (البلدة القديمة) لكن أهلها لا يحبّونه كثيراً. لا يدري سام أيّهما أسوأ، أن يتعرّفه أحد أعداء السيّد والده أم أحد أصدقائه، وهكذا رفع قلنسوة معطفه وجذّ الخُطى.

على جانبي بوّابة (القلعة) تمثالان أخضران شامخان لأبي الهول وأم الهول، لكلّ منهما جسم أسد وجناحاً نسر وذيل أفعى، وبَعدهما تقع (دار الكتبة) التي يأتيها أهل (البلدة القديمة) بحثاً عن معاونين يَكُتُبون وصاياهم ويقرأون رسائلهم، وقد جلس عدد من المُعاونين الصُّجّرين في أكشاكٍ مفتوحة ينتظرون الرّبائن. في أكشاكٍ أخرى تُباع الكتب وتُشترى، فتوقّف سام عند واحد يبيع الخرائط وراجع خارطة مرسومة باليد لـ(القلعة) ليتحقّق من الطّريق الأقصر إلى (بهو القهرمان).

يتفرّع الطريق حيث يمتطي تمثال الملك داïرون الأول
حصانه الحجري الطويل راقفا سيفه في اتجاه (دورن)، وقد
جثم نورس على رأس التئين الصغير واثنان آخران على نصله.
سلك سام الفرع الأيسر الذي يمضي بحذاء النهر، وعند (مرسى
البكائين) شاهد اثنين من المعاوين يساعدان عجوزًا على
ركوب قارب سيحمله في رحلة قصيرة إلى (الجزيرة الدامية)،
وبعده ركبت أم شابة بين ذراعيها رضيع بالك لا يكبر ابن جيلي
كثيرًا، في حين خاض فساعد طاه ما في المياه الضحلة تحت
المرسى يجمع الضفادع، وهرغ طابور طويل من المبتدئين
الضغار نحو الشيتري. كان علي أن آتي هنا حين كنت في سنهم.
لو هريث واثخذت اسقا مستعازًا لاختفيث وسط المبتدئين
الآخرين وتظاهز أبي بأن يكون ابنه الوحيد. أشك في أنه كان
ليجشم نفسه عناء البحث عني ما لم آخذ بغلة أركبها. عندها
كان ليطار دني بلا هواة، ولكن من أجل البغلة فقط.

خارج (بهو القهرمان) كان الموجهون يُثبِتون مُعاونا أكبر سنًا
إلى هيكل تشهير⁽⁷⁰⁾، وشرح أحدهم السبب للمعاوين
المنتظرين رجم الشجين بالخضراوات الفاسدة قائلا: «يسرق
الطعام من المطابخ». حدج جميعهم سام بنظرات الفضول إذ مرّ
بهم بخطى سريعة ومعطفه الأسود منتفخ من ورائه كشراع
السفينة.

وراء الباب وجد بهوا أرضيته حجرية ونوافذه عالية مقنطرة،
يجلس في أقصاه رجل ذو وجه ممصوص على منصة مرتفعة
يُدَوِّن شيئًا ما في دفتر بريشته، ورغم أنه يرتدي ثياب
المايسترَات الرُماديّة فلا تُحيط بـغنقه سلسلة. تنحنح سام،
وحيّاه قائلا: «طاب يومك».

رفع الرّجل عينيه وبدا أن ما رآه لا يُعجبه إذ قال: «رائحة
المبتدئين تفوح منك».

رَدَّ سام: «أَملُ أن أكون منهم قريبًا»، وأخرج الرسائل التي أعطاه چون سنو إياها متابعًا: «جئتُ من (الجدار) مع المايستر إيمون، لكنه مات خلال الرحلة. إذا كان يُمكن أن أتكلّم مع القهرمان...».

- «اسمك؟».

- «سامويل، سامويل تارلي».

حَظَّ الرّجل الاسم في دفتره ولوّح بريشته نحو دكّة عند الحائط، وقال: «اجلس. سنناديك حين نريدك». وجلس سام على الدّكّة.

جاء آخرون وذهبوا. سلّم بعضهم رسائل وغادروا، وتكلّم بعضهم مع الرّجل على المنصّة ثم سمّح لهم بالدّخول من الباب ورائه وصعدوا سلّمًا ملتقًا، وانضمّ آخرون إلى سام على الدّكّة في انتظار مناداة أسمائهم. عدتْ مَن تُودوا أتى بعده، وهو شبه متأكّد من هذا، وبعد تكراره للمرّة الرّابعة أو الخامسة نهض سام وقطع البهو سائرًا الرّجل: «هل سأظلّ منتظرًا طويلًا؟».

- «القهرمان رجل مهم».

- «لقد قطعك طريقًا طويلًا من (الجدار)!».

- «إذن فلا مشكلة في أن تنتظر فترة أطول قليلًا»، ولوّح الرّجل بالريشة مضيّقًا: «إلى الدّكّة هناك، تحت النّافذة».

عاد سام إلى الدّكّة، ومَرّت ساعة أخرى. وصل آخرون وتكلّموا مع الرّجل على المنصّة وانتظروا دقائق قليلة ثم دخلوا، ولم يكلّف الحاجب نفسه مجرّد النّظر إلى سام طوال هذا الوقت. انقشع الضّباب في الخارج مع مرور النّهار الثّقيل البطيء وتسَلَّل نور الشّمس الشّاحب من النّوافذ، ووجد سام نفسه يتفرّج على ذرّات الغبار تُرقص في خيوط الضّوء. تضاءل مرّة ثم أخرى، وداعب قرحًا مفتوحًا في راحة يده، ثم إنه أرجع رأسه إلى الوراء وأسبل جفنيه.

لا بُدَّ أنه غفا، فإذا بالحاجب الجالس على المنضّة يُنادي اسقأ،
فَهَبَ سام واقفًا ثم عادَ يجلس لقا أدرك أنه ليس اسمه.
قال صوت من جواره: «عليك أن ترشو لوركاس بنس وإلا
ظلت جالسا هنا ثلاثة أيام. ماذا يفعل حرس الليل في
(القلعة)؟».

المتكلّم شاب نحيل مشيق وسيم، يرتدي سراويل من جلد
الطّباء وسترّة جلديّة خضراء ضيّقة مطعّمة بالحديد، وله بشرة
بلون المزر البنيّ الفاتح وشعر أسود قصير ينسحب عند مقدّمة
رأسه فوق عينيه السوداوين الكبيرتين.
رَدَّ سام: «حضرة القائد يَرَقُم القلاع المهجورة ويُعيد فتحها.
نحتاج إلى المزيد من المايسترات للعناية بالغدقان... هل قلت
بنس؟».

- «بنس واحد يكفي. مقابل أيل فضي سيحملك لوركاس إلى
القهرمان بالأعلى على ظهره. إنه مُعاون منذ خمسين عامًا
ويكره المبتدئين، تحديداً المبتدئين أبناء الثّبلاء».
- «وما أدراك بأنني من أبناء الثّبلاء؟».
- «بالطريقة نفسها التي تدري بها أنني نصف دورني». قيلت
الإجابة بابتسامة ولكنة دورنيّة خفيفة.
دَسَّ سام يده في جيبه يبحث عن بنس، وقال: «أأنت
مبتدئ؟».

- «مُعاون. اسمي أيراس، لكن بعضهم يدعوني بأبي الهول».
هَزَّ الاسم سام، وقال باندفاع: «أبو الهول الأحجية لا صانع
الأحاجي. هل تعرف معنى هذا؟».
- «لا. أهذه أحجية؟».

- «ليتنى أعرف. أنا سامويل تارلي، سام».
- «أهلاً بك. وما شأن سامويل تارلي عند المايستر الرّئيس
ثيوبولد؟».

سأله سام حائزًا: «أهو القهرمان؟ المايستر إيمون قال إن اسمه نورن».

- «لم يَعد كذلك منذ قمرين. هناك واحد جديد كل سنة، يشغل المنصب بالاقتراع من بين رؤساء المايسترات. أكثرهم يعُده واجبًا لا يُشكر عليه يُعْظله عن عمله الحقيقي. هذا العام سحب المايستر الرئيس والجريف الحجر الأسود، لكن عقل والجريف يتوه كثيرًا، فتطوُّع ثيوبولد بقضاء مَُدته بدلًا منه. إنه رجل قُط لكنه صالح. هل قلت المايستر إيمون؟».

- «نعم».

- «إيمون تارجارتين؟».

- «في السابق. أكثرنا كان يدعوه يايمون فقط. لقد ثوَّقني خلال الرُّحلة إلى الجنوب. كيف تعرفه؟».

- «وكيف لا؟ إنه لم يكن أكبر مايستر على قيد الحياة فقط، بل أكبر رجل في (وستروس)، وشهد تاريخًا أكثر مما تعلم المايستر الرئيس بيرستان في حياته كلَّها. كان ليحكى لنا الكثير والكثير عن عهد أبيه وعقده. هل تعلم كم كان عُمره؟».

- «مئة عام واثنان».

- «وماذا كان يفعل في البحر في سيئه تلك؟».

تأمل سام السؤال وهلة متسائلاً كم يجذر به أن يقول. أبو الهول الأحجية لا صانع الأحاجي. أيمن أن المايستر إيمون كان يعني أبا الهول هذا؟ لا يبدو ذلك محتملاً. بترؤد بدأ يشرح: «حضرة القائد سنو صرفه لإنقاذ حياته»، ثم إنه تحدت بارتباك عن الملك ستانيس ومليساندرا الآشايية ناوياً أن يكفي بهذا القدر، لكن شيئاً قاد إلى آخر ووجد نفسه يحكي عن مانس رايدر والهجم ودماء الملوك والثنانين، وقبل أن يدري ما يجري تدفقت البقية كلها منه... الجثث الحية على (قبضة البشر الأوائل)، (الآخر) على حصانه الميت، اغتيال الثب العجوز في (قلعة كراستن)، جيلي وهروبهما، (وايتري) وبول الضغير، ذو اليدين الباردتين والغدقان، انتخاب جون قائداً، (الطائر الأسود)، داريون، (براقوس)، الثنانين التي رآها زوندو في (كارت)، (ريخ القرفة) وكل ما همس به المايستر إيمون قرب النهاية. أحجم فقط عن ذكر الأسرار التي أقسم أن يحفظها إزاء بران ستارك ورفاقه وتبديل جون سنو الطفلين، وختم حكايته قائلاً: «دنيرس هي الأمل الوحيد. إيمون قال إن على (القلعة) أن ترسل إليها مايستر في الحال ليعود بها إلى (وستروس) قبل قوات الأوان».

أصغى أيراس باهتمام شديد، يحدق بين الحين والآخر لكن لا يضحك أو يقاطعه أبداً، وحين فرغ سام من ساعده برفق بيد بئنة نحيلة، وقال: «وقر بنسك يا سام. لن يصدق ثيوبولد نصف هذا الكلام، لكن هناك آخرين قد يصدقونه. هلا أتيت معي؟».

- «أين؟».

- «للكلام مع أحد رؤساء المايسترات».

قال المايستر إيمون: يجب أن تخبرهم يا سام، يجب أن تخبر رؤساء المايسترات، وهكذا رد سام: «ليكن». يمكنه أن يعود إلى القهرمان غداً وفي يده بنس. «هل سنبعد كثيراً؟».

- «ليس المكان بعيدًا، (جزيرة الغدقان)».

لم يحتاجا إلى ركوب قارب لبلوغ (جزيرة الغدقان)، إذ يربطها جسر متحرك خشبي بالي بالضفة الشرقية، وبينما عبرا فوق مجرى (نهر البتع) البطيء قال له أيراس: «(المغدفة) أقدم مباني القلعة. يُقال إنها كانت في عصر الأبطال معقل لورد قُرصان استقرّ هنا ليسطو على السفن التي تُدخل النهر».

رأى سام الطحالب والنباتات المعترشة تُغطّي الجدران، والغدقان تذرّع الشرفات بدلًا من الزُمامة. هذا الجسر المتحرك لم يرفع منذ سنين عصية على الحُسيان.

داخل القلعة الأجواء معتمة مائلة إلى البرودة، وفي الساحة شجرة ويروود عتيقة تحتلّها منذ بدأ بناء هذه الأحجار، تكسو الوجه المنقوش على جذعها الطحالب الأرجوانية الثقيلة نفسها التي تتدلى من فروعها الشاحبة، وقد بدا يُصف غصونها ميثًا، وإن ظهرت في بقاع أخرى بضع أوراق حمراء لا تزال تحفّ. هناك تحبّ الغدقان الجثوم، والشجرة ملأى بها، وثمرّة المزيد منها في الثوافذ المقنطرة بالأعلى وفي كلّ أنحاء الساحة، وعلى الأرض تتناثر فضلاتها. إذ قطعاً الساحة ضرب أحدها الهواء بجناحيه فوقهما وسمع سام بعض الغدقان الأخرى ينعب لبعض. قال له أيراس: «مسكن المايستر الرئيس والجريف في البرج الغربي، تحت المغدفة البيضاء. الغدقان البيضاء وال سوداء تتشاجر كأهل (دورن) و(الثخوم) ولذا يُفرّقون بينها».

تساءل سام: «هل سيفهم المايستر الرئيس والجريف ما أخبره به؟ قلت إن عقله يتوه كثيرًا».

أجاب أيراس: «تمرّ عليه أيام جيّدة وأخرى سيئة، لكنك لست ذاهبًا لرؤية والجريف»، وفتح باب البرج الشمالي وبدأ يصعد الدّرج، وتبعه سام سامعًا الخفقات والتمتمات من أعلى، وهنا وهناك صرخة غاضبة كأن الغدقان تشتكي من إقلاق راحتها.

عند قمة السلالم يجلس شاب أشقر شاحب في سن سام خارج باب من الشنديان والحديد، يُخدق بتركيز إلى لهب شمعة بعينه اليمنى، وقد توازت اليسرى تحت خُصلة من الشعر الأشقر المائل إلى الرمادي. سأله أليراس: «عم تبحث؟ قدرك؟ حتفك؟».

التفت الأشقر عن الشمعة طارقًا بعينه، وقال: «عن النساء العاريات. من هذا؟».

- «سام، مبتدئ جديد جاء للقاء المشعوذ».

قال الأشقر متذمّرًا: «لم تُعد (القلعة) كما كانت. هذه الأيام تقبل أي شيء؛ الكلاب السوداء والدورنيين وزعاة الخنازير والمُعاقين ومعتلي العقول، والآن هذا الحوت الذي يتردي الأسود. وأنا الذي كنت أحسب اللويثانات رماديّة». من على أحد كتفيه تنسدل حرمة قصيرة مخططة بالأخضر والذهبي، وملامحه وسيمة للغاية، ولو أن عينيه خبيتان وفمه قاس.

يعرف سام هذا الشاب، وقد خاطبه قائلاً: «ليو تايرل». مجرد لفظ الاسم أشعره بأنه لا يزال صبيًا في السابعة على وشك أن يُبلّ ثيابه الداخليّة. «أنا سام من (هورن هيل)، ابن اللورد راندل تارلي».

قال ليو: «حقًا؟»، ورمقه بنظرة أخرى، ثم أردف: «أظنك هو. أبوك قال لنا جميعًا إنك مُث، أم أن هذا ما كان يأمله فقط؟»، وأضاف بابتسامة واسعة: «أما زلت جبانًا؟».

أجاب سام كاذبًا: «لا». هكذا أمّره جون. «لقد ذهبنا وراء (الجدار) وخضت معارك، ويُلقّبونني بسام القاتل». لا يدري لم قالها، لكن الكلمات تدفقت منه رغما عنه.

ضحك ليو، لكن قبل أن يردّ انفتح الباب من ورائه، ودمدم الرجل الواقف على عتبته: «ادخل أيها القاتل، وأنت أيضًا يا أبا الهول، الآن».

قال أليراس: «سام، هذا هو المايستر الرئيس ماروين».

حول عُنُق ماروين الغليظ سلسلة من عدّة معادن، لكن فيما عدا هذا يبدو الرّجل أقرب إلى بلطجي ميناء من مايستر، فرأسه كبير للغاية بالنسبة إلى بدنه، والطريقة التي يبرز بها إلى الأمام من بين كتفيه، بالإضافة إلى فكّه العريض، تجعله يبدو كأنه على وشك اجتثاث رأس أحدهم من رقبتة، وعلى الرغم من قامته القصيرة وقوامه الممتلئ فله صدر عريض وكتفان قويّتان، وبطن مستدير ضلب كالحجر يضغط على أربطة شترته الجلديّة التي يرتديها بدلًا من ثياب المايسترات. من أنفه ومنخريه ينبت الشّعر الأبيض الخشن الثّائر، وله جبهة ناتئة وأنف انكسر أكثر من مرّة، ويَبْقُع الثّبغ الفُرّ أسنانه بالأحمر، ويداه أكبر يدين رَأهما سام على الإطلاق.

حين ترّدّد سام أطبقت إحدى هاتين اليدين على ذراعه وشدّته عبر الباب إلى غرفة مستديرة واسعة مكتظة بالكتب والمخطوطات المتناثرة على الطّاولات والمرصوفة على الأرض في أكوام ترتفع أربعة أقدام. تُغطّي المعلّقات الباهتة والخرائط المهترئة الجدران الحجريّة، وفي المستوقّد نار مشتعلة تحت مرجلي ثحاسي تفوح منه رائحة شيء محروق. بعيدًا عن هذا ينبعث الضّوء الوحيد في المكان من شمعة سوداء طويلة في منتصف الغرفة.

ضوء الشّمعة ساطع على نحو مزعج، وثقة شيء عجيب فيها، إذ إن لهبها لا يتذبذب، حتى عندما صفق المايستر الرّئيس ماروين الباب بقوة طيّرت الأوراق الموضوعة على الطّاولات القريبة. ثم إن للضّوء تأثيرًا غريبًا على الألوان كذلك، فالأبيض ناصع كالثلج الطّازج، والأصفر يتألّق كالذهب، والأحمر استحال إلى لهب، لكن الظّلال سوداء حالكة لدرجة أنها تبدو كتقوّب في العالم. وجدّ سام نفسه يحمّلق إلى الشّمعة. طولها ثلاثة أقدام، ورفيعة كالسيف، ومحزّزة ملتوية، وسوادها لامع. قال سام: «أهذا...»

- «... زُجاج بُركاني»، قال الرّجل الآخر في الغُرفة، شاب
شاحب لحيم له كتفان مستديرتان ويدان طريّتان وعينان
ضيّقتان، وثلّوث رداءه بقع الطّعام.

قال المايستر الرّئيس ماروين: «سقه زُجاج التّئين»، ورمق
الشّمعة السّوداء لحظةً، ثم أردف: «يشتعل ولكن لا يُستهلك».
سأله سام: «ما الذي يُغذي اللّهب؟».

جلس ماروين على كرسيّ قائلًا: «وما الذي يُغذي نيران
التّنانين؟ كلّ الشحر القاليري جذوره ضاربة في الدّم أو النّار.
كان بإمكان سحرة المعقل الخر أن يروا عبر الجبال والبحار
والصحاري بوحدة من هذه الشّموع الرّجاجة، وكانوا يجلسون
أمامها ويدخلون أحلام المرء ويمنحونه رؤى ويكلّم بعضهم
بعضًا ونصف العالم يفصل بينهم. أتظنّ هذا مفيدًا أيها القاتل؟».
- «لن نعود في حاجة إلى الغدقان».

قال المايستر الرّئيس: «بعد المعارك فقط»، وقشّر ورقة من
حزمة من الثّبغ المُزّ ودشها في فمه وشرع يمضغها مستطرّدًا:
«أخبرني بكلّ ما قلته لأبي الهول الدورني. إنني أعرف الكثير
منه بالفعل، ولكن ربما فائني بعض التّفاصيل الصّغيرة».

ليس هذا رجلًا يُرقض له طلب. تردّد سام لحظةً، ثم عاد
يحكي حكايته فيما أصغى ماروين وأليراس والمبتدئ الآخر، ثم
قال: «المايستر إيمون اعتقد أن نبوءة تتحقّق في دنيرس
تارجارين... هي وليس ستانيس أو الأمير ريجار أو الأمير
الصّغير الذي هشموا رأسه على جدار».

قال ماروين: «سيؤلّد وسط الملح والدّخان تحت نجم ينزف. أعرف هذه الثبوءة»، ودور رأسه وبصق كتلة من البلغم الأحمر على الأرض، ثم واصل: «ولا أثقّ بها. قديما كتب جورجان ابن (جيس القديمة) أن الثبوءة مثلها مثل مرآة مخادعة، تأخذ عضوك في قمها وتأخذ أنت تتأوه استمتاعًا مفكّرًا كم أن هذا جميل ممتع رائع... ثم تنفلق أسنانها وتستحيل تأوّهاتك إلى صريخ. قال جورجان إن تلك طبيعتها، إن الثبوءة ستقضم عضوك كلّ مرّة»، ولاك تبغه قليلًا، ثم أضاف: «ومع ذلك...».

وقف أليراس إلى جوار سام قائلًا: «كان إيمون ليذهب إليها لو تمثّع بالقوّة. أرادنا أن نرسل إليها مايستر ينصحها ويحميها ويُعيد لها أمانة إلى الوطن».

هزّ ماروين كتفيه، وقال: «حقًا؟ لعلّ من الخير إذن أنه مات قبل أن يبلغ (البلدة القديمة)، وإلا فربما اضطرت الخراف الزماديّة إلى قتله، وكان ذلك ليزعج أعزّاءنا العجائز المساكين». سأل سام مصدومًا: «قتله؟ لماذا؟».

ردّ ماروين: «لو أخبرتك فربما يضطّرون إلى قتلك أيضًا، وابتسم ابتسامة بشعة لتسيل غصارة الثّيب المرّ الحمراء من بين أسنانه، وقال: «من تحسبه قتل الثّنانين كلّها آخر مرّة؟ قتلة الثّنانين الأشاوس المسلّحون بالسيوف؟»، وبصق ثم تابع: «العالم الذي تبنيه (القلعة) لا مكان فيه للسّحر أو الثّنبؤ أو الشّموع الرّجائيّة، ناهيك بالثّنانين. سل نفسك لماذا سمح لإيمون تارجارين بتبديد حياته على (الجدار) في حين كان الواجب أن يرقى إلى مايستر رئيس. دماؤه السّبب. لم يستطيعوا أن يتقوا به أكثر مما يستطيعون الثقة بي».

سأله أليراس أبو الهول: «ماذا ستفعل؟».

- «سأخذ نفسي إلى (خليج الثُحاسين) بدلًا من إيمون.
السّفينة البجعيّة التي حملت القاتل كفيلة بتلبية حاجتي. لا شك
أن الخراف الرّماديّة سترسل رجلها على قادس. إذا كانت الزّياح
مواتيّة فسأسبقه إلى دنيرس»، ورمقَ ماروين سام مقظبا وجهه،
وقال: «أنت... أنت عليك أن تبقى وتكوّن سلسلتك. لو كنت
مكانك لفعلتها سريعا. سيأتي وقت تكون فيه حاجة إليك على
(الجدار)»، والتفت إلى المبتدئ الشّاحب قائلاً: «جد حَجيرة
جافّة للقاتل. سينام هنا ويُساعدك على العناية بالفدقان».
متلعثقا قال سام: «للكن... رؤساء المايسترات الآخرون...
القهرمان... ماذا أقول لهم؟».

- «قُل لهم كم هم خُكماء صالحون، قُل لهم إن إيمون أمرك
بوضع نفسك في أيديهم، قُل لهم إنك حلمت دوما بأن تستطيع
ذات يوم تكوين السّلسلة وخدمة الصالح العام، إن الخدمة أرفع
شرف والطّاعة أسمى فضيلة. لكن لا تقل شيئا عن الثبوءة أو
الثنائين ما لم تكن تحبّ الشّم في طعامك»، واختطفَ ماروين
معطفا جلدًا مئسّخًا من على مشجب قُرب الباب وربّطه بإحكام
قائلاً: «اعتني به يا أبا الهول».

زدَ أليراس: «سأفعل»، لكن المايستر الرّئيس كان قد خرج
بالفعل، وسمعوا حذاه يدقّ السّلالم.
سأل سام حائزا: «أين ذهب؟».

أجابته أليراس: «إلى الميناء. المشعوذ ليس رجلا يؤمن
بتضييع الوقت»، وابتسم مستطرذا: «عندي اعتراف. لقائنا لم
يكن ضدفة يا سام. المشعوذ أرسلني لألحقك قبل أن تتكلّم مع
ثيوبولد. كان يعلم بمجيئك».
- «كيف؟».

أشار أليراس برأسه إلى الشّمعة الرّجائيّة، فحدّق سام إلى
اللّهب الباهت الغريب لحظة، ثم طرّف بعينه وأشاح ببصره.
كان الظّلام يحلّ خارج الثّافذة.

قال الشاب الشّاحب: «ثقة خجيرة نوم شاعرة تحت
خجيرتي في البرج الغربي، وفيها سلام تقود إلى مسكن
والجريف مباشرة. إذا كان نعيم الغدقان لا يُزعجك فإنها تطلّ
على منظر جيّد لـ(نهر البتّع). هل يُناسبك هذا؟».

- «أظنّ». عليه أن ينام في مكان ما على كلّ حال.

- «سأجلب لك بعض الأغذية الصّوف. الجدران الحجريّة
تُبزّد ليلاً، حتى هنا».

- «أشكرك». في هذا الشاب الشّاحب اللّحيم شيء ما لا
يروقه، لكن سام لا يرغب في أن يبدو فظاً، فأضاف: «اسمي
ليس القايل حقاً. أنا سام، سامويل تارلي».

قال الآخر: «أنا يايت، كفتى الخنازير».

(70). هيكل التشهير أداة كانت تُستخدم منذ العصور الوسطى وخلال
عصر النهضة للعقاب البدني، عبارة عن ألواح خشبيّة كبيرة منبّتة معاً
بحيث يعجز المقيّد إليها عن تحريك قدميه، وأحياناً كانت توضع قيود
للأيدين والرّأس أيضاً. (المترجم).

في تلك الأثناء على الجدار...

لا بُدَّ أن بعضكم يقول الآن: «مهلاً، انتظر لحظة، انتظر لحظة، انتظر لحظة! أين داني والثنائين؟ أين تيريون؟ لقد رأينا جون سنو بالكاد. لا يمكن أن يكون هذا كل شيء...».

بالطبع لا. هناك المزيد في الطريق، كتاب آخر بحجم هذا الكتاب.

لم أُنس أن أكتب عن الشخصيات الأخرى. بالعكس تمامًا، كتبت الكثير عنها، صفحات وصفحات وصفحات، فصولًا والمزيد من الفصول. كنت ما زلت أكتب حين اتضح لي أن الرواية أصبحت أطول من أن تُنشر في كتاب واحد... ولم أكن قد دنوت من النهاية بعد. لحكاية القصة التي أريد أن أحكيها كان عليّ أن أقسم الكتاب إلى اثنين.

أبسط طريقة لفعل ذلك أن آخذ ما لديّ وأشطره عند المنتصف وأنهى بعبارة «يَتبع»، لكن كلما أطلت التفكير في هذا شعرت بأن الأصلح للقارئ أن يكون كتابًا يحكي القصة الكاملة لنصف الشخصيات بدلًا من نصف قصة كل الشخصيات، وهكذا قرّرت أن أسلك هذا السبيل.

تيريون وجون وداني وستائيس ومليساندرا وداقوس سيوورث وجميع الشخصيات التي تحبونها أو تحبّون أن تكرهوها سيعودون العام المقبل -كما أمل بشدة- في «رقصة مع الثنائين»، وهو الكتاب الذي سيتركز على الأحداث على (الجدار) وعبر البحر، تمامًا كما ركّز الكتاب الحالي على (كينجز لاندنج).

جورج ر. ر. مارتن

يونيو/حزيران 2005

مُلحق (١)
الملوك وبلاط كل منهم
الملكة الوصيّة على العرش



سرسي لانستر الأولى، أرملة (الملك روبرت باراثيون الأول)،
الملكة الأم، حامية البلاد، سيّدة كاسترلي روك، الملكة الوصيّة
على العرش،

- أولاد الملكة سرسي:

- (الملك جوفري باراثيون الأول)، مات مسموماً في

مأدبة زفافه، صبي في الثانية عشرة،

- الأميرة مارسلا باراثيون، فتاة في التاسعة، ربيبة الأمير

دوران مارتل في صنسيير،

- الملك تومن باراثيون الأول، ملك صبي في الثامنة،

- قِططه، السير ياونس، الليدي ويسكرن بوتس،

- شقيقا الملكة سرسي:

- السير جايمي لانستر، توأمها، لقبه قاتِل الملك، قائد

الحرس الملكي،

- تيريون لانستر ولقبه العفريت، مَثم ومدان باغتيال

الملك وقتل الأقربين،

- يودريك يابن، مُرافق تيريون، صبي في العاشرة،
- أعمام وأخوال الملكة سرسي وأولادهم:
- السير كيقان لانستر، عمّها،
- السير لانسل، ابن السير كيقان، مُرافق الملك روبرت وعشيق سرسي سابقًا، نُصِبَ سيّدًا على داري حديقًا،
- (ويلم)، ابن السير كيقان، قُتِلَ في ريفوردن،
- هارتن، ابن السير كيقان، مُرافق،
- جاني، ابنة السير كيقان، فتاة في الثالثة،
- الليدي چنا لانستر، عمّة سرسي، زوجة إمون فراي،
- (السير كليوس فراي)، ابن چنا، قتله الخارجون عن القانون،
- السير تايوين فراي، يُسمّى تاي، ابن كليوس،
- ويلم فراي، ابن كليوس، مُرافق،
- السير لايونل فراي، ابن الليدي چنا الثاني،
- (تيون فراي)، ابن چنا، قُتِلَ في ريفوردن،
- والدر فراي ولقبه والدر الأحمر، أصغر أبناء الليدي چنا، وصيف في كاسترلي روك،
- تايرك لانستر، ابن عمّ سرسي الراحل تايجت،
- الليدي إرميساند هايفورد، زوجة تايرك الطّويلة،
- جوي هيل، ابنة جيريون عمّ الملكة سرسي المفقود الثّغلة، فتاة في الحادية عشرة،
- سيرينا لانستر، ابنة ستافورد خال سرسي الراحل،
- هاريل لانستر، ابنة ستافورد خال سرسي الراحل وأخت سيرينا،
- السير داقن لانستر، ابن خالها ستافورد،

- السير داميون لانستر، ابن خؤولة بعيد، زوج شيرا كراكهول،

- السير لوشن لانستر، ابنتهما،

- لانا، ابنتهما، زوجة اللورد أنتاريو جاست،

- الليدي مارجو، ابن خؤولة أبعد، زوجة اللورد تاييتوس بيك،

- مجلس الملك تومن الصّغير:

- (اللورد تايوين لانستر)، يد الملك،

- السير جايمي لانستر، قائد الخرس الملكي،

- السير كيقان لانستر، قِيم القوانين،

- قارس ولقبه الخصي، ولي الهامسين،

- الهايستر الأكبر پايسل، مستشار ومعالج،

- اللورد هايس تايرل، اللورد هائيس روان، اللورد

باكستر ردواين، مستشارون،

- خرس تومن الملكي:

- السير جايمي لانستر، القائد،

- السير مرين ترانت،

- السير بوروس بلاونت، أعفي من منصبه ثم أعيد إليه،

- السير بالون سوان،

- السير أوزموند كيتلبلاك،

- السير لوراس تايرل، فارس الزهور

- السير آريس أوكهارت، مع الأميرة مارسلا في دورن،

- أهل بيت سرسي في كينجز لاندنج:

- الليدي جوسلين سويقت، رفيقتها،

- سينل ودوركاس، رفيقتها في الفراش وخادمتها،

- لوم، لستر الأحمر، هوك ولقبه ساق الحصان، ذو الأذن القصيرة، يوكنز، خُرَّاس،

- الملكة مارچري

- الملكة مارچري سليفة عائلة تايرل، فتاة في السادسة عشرة، أرملة الملك چوفري باراثيون الأول ومن قبله اللورد رنلي باراثيون،

- بلاط مارچري في كينجز لاندنج:

- مايس تايرل، سيّد هايجاردن، أبوها،

- الليدي آليري سليفة عائلة هايتاور، أمّها،

- الليدي أولينا تايرل، جدّتها، أرملة مسنة لقبها ملكة الأشواك،

- أريك وإريك، حارسا الليدي أولينا، توأمان طولهما سبعة أقدام لقبهما شمال ويمين،

- السير جارلان تايرل، أخو مارچري ولقبه الهمام،

- الليدي ليونيت، زوجته، سليفة عائلة فوسواي،

- السير لوراس تايرل، أصغر إخوتها، فارس الزهور، أخ محلّف في الحرس الملكي،

- رفيقات مارچري:

- بنات عمومتهما، مِجا وآلا وإلينور تايرل،

- خطيب إلينور، آلن أمبروز، مرافق،

- الليدي أليسين بولوار، فتاة في الثامنة،

- ميريديث كرين، أو ميري،

- الليدي تاينا ميريويزن

- الليدي أليس جريسفورد،

- الشّيعة نستيريكا، أخت في العقيدة،

- باكستر ردواين، سيّد الكرمة،

- ابنه الثَّوَامان، السير هوراس والسير هوبس،
- المايستر بالابان، معالجه ومستشاره،
- مائيس روان، سيّد البستان الذهبي،
- السير ويلام ويذرز قائد حرس مارچري،
- هيو كليفتون، حارس شاب وسيم،
- السير پورتيفر وودرايت وأخوه السير لوكانتين،
- بلاط سرسي في كينجز لاندنج:
- السير أوزفريد كتبلاك والسير أوزني كتبلاك، أخوان
- أصغر للسير أوزموند كتبلاك،
- السير جريجور كليجاين ولقبه الجبل راكب الخيول،
- يحتضر متألقاً بجرح مسموم،
- السير أدام ماربراند، قائد حرس المدينة في كينجز
- لاندنج «ذوو المعاطف الذهبية»،
- جالابار شو، أمير وادي الزهرة الحمراء، منفي من جزر
- الضيّف،
- جايلز روزبي، سيّد روزبي، مصاب بشعال مزمن،
- أورتون ميريويزن، سيّد الطاولة الطويلة،
- تاينا، زوجته، امرأة من مير،
- الليدي تاندا ستوكوورث،
- الليدي فاليس، ابنتها الكبرى ووريثتها،
- السير بالمان بيرش، زوج الليدي فاليس،
- الليدي لوليس، ابنتها الصغرى، حُبلى وضعيفة العقل،
- السير برون فارس الثَّهر الأسود، زوج الليدي لوليس،
- مرتزق سابق،
- (شاي)، تابعة معسكرات تخدم كرفيقة فراش لوليس،
- ماتت خنقاً في فراش اللورد تايوين،

- المايستر فرنكن، في خدمة الليدي تاندا،
- السير إلين باين، عدالة الملك، جلّاد،
- رينيفر لونجووترز، رئيس مُشرقي السّجّانين في زنازين القلعة الحمراء،
- روجن، مُشرف سجّانين في الزّنازين السوداء،
- اللورد هالاين اليايرومانسر، صاحب حكمة من رابطة الخيميائيّين،
- نوهو ديميتيس، مبعوث من مصرف براقوس الحديدي،
- كايرن، نكرومانسر، مايستر سابق من القلعة، لاحقًا عضو في رفقة الشّجعان،
- فتى القمر، المهزّج الملكي،
- بايت، صبي في الثّامنة، كبش فداء الملك تومن،
- أورموند ابن البلدة القديمة، عازف القيثارة والمغني الملكي،
- السير مارك مالدور، الذي فقدَ قردًا ونُصف ذراع في معركة النّهر الأسود،
- أوران ووترز، نغل دريفتمارك،
- اللورد أليساندر ستيدمون ولقبه عاشق البنسات،
- السير رونيت كوننجتون ولقبه رونيت الأحمر، فارس وكر الجرافين،
- السير لامبرت ترنبيري، السير درموت ابن الغابة المطيرة، السير تالاد ولقبه الطّويل، السير بايارد نوركروس، السير بونيفر هاستي ولقبه الصّالح، السير هيوغو فانس، فرسان مقسمون على الولاء للعرش الحديدي،

- السير لايل كراكهول ولقبه الغفر القوي، السير آلن ستاكسير، السير جون بتلي ولقبه جون الحليق، السير ستفون سويقت، السير همفري سويقت، فرسان مقسمون على الولاء لكاسترلي روك،

- جوزمين بكلدون، مرافق ومن أبطال معركة النهر الأسود،

- جاريت پايج وليو پاير، مرافقان ورهينتان،

- أهل كينجز لاندنج:

- الشيتون الأعلى، أبو المؤمنين وصوت الآلهة الشبعة على الأرض، رجل عجوز واهن،

- الشيتون توربرت، الشيتون راينارد، الشيتون لوشن، الشيتون أوليدون أعضاء في مجلس القائتين، يخدمون الآلهة الشبعة في سبت بيلور الكبير،

- الشبثة مويل، الشبثة أجلانتين، الشبثة هيلسنت، الشبثة أونلا، عضوات في مجلس القائتين، يخدمن الآلهة الشبعة في سبت بيلور الكبير،

- «العصافير»، أكثر البشر تواضعًا، مخلصون في إيمانهم،

- شاتايا، مالكة ماخور مكلف،

- أليايا، ابنتها،

- دانسي، هاري، من فتيات شاتايا،

- رايلا، خادمة، خدقت الليدي سائزا ستارك حديدًا،

- توبهو موت، من أساتذة الحدادة،

- هاميش ذو القيثارة، مطرب مسن،

- ألاريك الأيزيني، مطرب كثير الثجوال،

- وات، مطرب يُطلق على نفسه لقب الشاعر الأزرق،

- السير ثيودان وِلز، فارس متدين، عُرف لاحقًا باسم السير
ثيودان الصّالح.

راية الملك تومن عبارة عن وعل باراثيون المتوّج، أسود
على ذهبي، وأسد لانستر، ذهبي على قرمزي،
يتصارعان.

الملك على الجدار



ستانيس باراثيون الأول، الابن الثاني للورد ستفون باراثيون
والليدي كاسانا سليلة عائلة إسترمونت، سيّد دراجونستون،
يُسَمّي نفسه ملك وستروس،

- الملكة سيليس سليلة عائلة إسترمونت، زوجته، حاليًا
في القلعة الشرقيّة على البحر،

- الأميرة شيرين، ابنتهما، فتاة في السابعة،

- ذو الوجه المرقّع، مهرّج شيرين الأبله،

- إدريك ستورم، ابن أخيه النّفل، ابن الملك روبرت من

الليدي ديلينا فلورنت، صبي في الثانية عشرة، على

متن پرندوس المجنون في البحر الضيّق.

- السير أندرو إسترمونت، ابن خال الملك ستانيس، من

رجال الملك، يقود خُرّاس إدريك،

- السير جيرالد جاور، لويس ولقبه الشّقاك، السير

تريستون ابن هضبة تالي، أوامر بلاكبري، من رجال

الملك خُرّاس إدريك وخماته،

- بلاط ستانيس في القلعة السوداء:

- الليدي هليساندرا الآشايّة ولقبها المرأة الحمراء، من

راهبات راهلور إله الضّياء،

- مائس رايدى ملك ما وراء الجدار، أسير ومحكوم عليه بالموت،
- ابن رايدر من زوجته (دالا)، وليد بلا اسم بعد، «الأمير الهمجي»،
- جيلي، مَرضعته، فتاة همجيّة،
- ابنها، وليد آخر بلا اسم بعد، من أبيها (كراستر)،
- السير ريتشارد هورپ، السير جاستن ماسي، السير كلايتون سوجن، السير جودفري فارنج ولقبه قَايِل العمالقة، اللورد هاروود فل، السير كورليس بني، من رجال الملكة وقُرسانها،
- دقان سيوورث وبريان فارنج، مُرافقان ملكيان،
- بلاط ستانيس في القلعة الشرقيّة:
- السير داقوس سيوورث ولقبه فارس البصل، سيّد الغابة المطيرة، أميرال البحر الضيق، يد الملك،
- السير أكسل فلورنت، عم الملكة سيليس، أبرز رجال الملكة،
- سالادور سان، من ليس، قُرصان، زَبان قاليريان وأسطول من القوادس،
- حامية ستانيس في دراجونستون:
- السير رولاند ستورم ولقبه نغل الثَّغريدة، من رجال الملك، أمين القلعة في دراجونستون،
- المايستر ييلوس، معالج ومعلّم ومستشار،
- «سجّان الثَّريد» و«سجّان السُّلق»، سجّانان،
- اللوردات المقسمون على الولاء لدراجونستون:
- مونتريس فيلاريون، سيّد القُد والجُزر وحاكم دريفتمارك، صبي في السّادسة،
- دورام بار إمون، سيّد الرّأس الحاد، صبي في الخامسة عشرة،

- حامية ستانيس في ستورمز إند:
- السير جيلبرت فارنج، أمين القلعة في ستورمز إند،
- اللورد إلود ميدون نائب السير جيلبرت،
- المايستر جون، مستشار السير جيلبرت ومعالجه،
- اللوردات المقسمون على الولاء لستورمز إند:
- إلدون إسترمونت، سيّد الحجر الأخضر، خال الملك ستانيس، خال أبي الملك تومن الكبير، صديق حذر للآثنين،
- السير إيمون، ابن اللورد إلدون ووريته، مع الملك تومن في كينجز لاندنج،
- السير آلن، ابن السير إيمون، أيضًا مع الملك تومن في كينجز لاندنج،
- السير لوماس، أخو اللورد إلدون، خال الملك ستانيس ومناصره في ستورمز إند،
- السير أندرو، ابن السير لوماس، يحمي إدريك ستورم في البحر الضيق،
- لستر موريجن، سيّد غش الغربان،
- اللورد لوكوس تشيترينج ولقبه لوكوس الصغير، شاب في السادسة عشرة،
- داقوس سيوورث، سيّد الغابة المطيرة،
- ماريا، زوجته، ابنة نجار،
- (دايل وآلارد وماتوس وماريك)، أبناؤهما الأربعة الأكبر، فقداهم في معركة النهر الأسود،
- دقان، مرافق مع الملك ستانيس في القلعة السوداء،
- ستانيس، صبي في العاشرة، مع الليدي ماريا في رأس الغضب،
- ستفون، صبي في السادسة، مع الليدي ماريا في رأس الغضب،

اتخذ ستانيس لرايته رمز قلب إله الضياء الثاري، وهو
قلب أحمر محاط باللهب البرتقالي على خلفية صفراء،
وفي داخل القلب وعل بارائيون المتوج بلون أسود.

ملك الجزر والشمال



ينحدر آل جرايجوي من الملك الأشيب الذي عاش في عصر الأبطال، وتقول عنه الأساطير إنه لم يحكم الجزر الغربية فحسب، بل البحر نفسه كذلك وتزوج عروس بحر. لآلاف الشنين شكل مغيرو جزر الحديد -الذين أطلق عليهم ضحاياهم لقب «الرجال الحديديين» زعبًا مقيمًا عبر البحار، فقد أبكروا لمسافات بعيدة حتى ميناء إيبين وجزر الضيف، وتباهوا بشراستهم في المعارك وخزياتهم المقدسة. كان لكل واحدة من جزر الحديد «ملك ملحي» و«ملك صخري»، وكان هؤلاء ينتخبون ملك الجزر الأعلى من بينهم، إلى أن جعل الملك أورون انتقال العرش بالوراثة عندما اغتال بقية الملوك أثناء اجتماعهم للانتخاب، ثم قضى على سلالة أورون كلها بعد ألف عام عندما اكتسح الأنداليون جزر الحديد، وصاهر آل جرايجوي الغزاة كما فعل عدد من سادة الجزر الآخرين.

بسط الملوك الحديديون سيطرتهم لمسافات تجاوزت جزر الحديد نفسها بكثير، وأقاموا ممالك كاملة على اليابسة بالشيف والثار، حتى إن الملك كوريد كان يتفاخر بأن أوامره تسري «حيثما يشم الناس المياه المالحة أو يسمعون تلاطم الأمواج». في القرون التالية فقد أبناء كوريد الكرامة والبلدة القديمة وجزيرة الذبية ومساحة كبيرة من الساحل الغربي، ومع ذلك ظل الملك هارن الأسود مسيطرًا على الأراضي الواقعة بين الجبال من العنق وحتى النهر الأسود خلال حروب الغزو، لكن بعد مصرعه مع أبنائه في سقوط هارنغال منح إجون تارجارين أراضي النهر لعائلة تلي، وسمح للوردات جزر الحديد الناجين بإحياء تقليدهم القديم واختيار من يحكمهم، فاختروا اللورد فيكون جرايچوي ابن پايك.

سبق أن قاد بالون جرايچوي سيد جزر الحديد تمردًا على العرش الحديدي، أخمده الملك روبرت باراثيون الأول وإدارد ستارك سيد وينترفيل، لكن في خضم الفوضى التي تبعت موت روبرت نصب اللورد بالون نفسه ملكًا ثانية وأرسل سفنه الطويلة تهاجم الشمال.

(بالون جرايچوي)، تاسع من يحمل هذا الاسم منذ الملك الأشيب، ملك جزر الحديد والشمال، ملك الملح والصخر، ابن رياح البحر، سيد حصاد پايك، مات ساقطًا من علي،
- أرملة الملك بالون، الملكة ألانيس سليلة عائلة هارلو،
- أولادهما:

- (رودريك)، قُتل خلال تمرد بالون الأول،
- (مارون)، قُتل خلال تمرد بالون الأول،
- آشا، ابنتهما، زُبان الزبح السوداء وغازية ربوة الغابة،
- ثيون، يُسمي نفسه أمير وينترفيل، يُسميه الشماليون ثيون المارق،

- إخوة الملك بالون الأشقاء وغير الأشقاء:

- (هارلون)، مات بالذاء الأرمد في شبابه،
- (كوينتون)، مات في طفولته،
- (دونل)، مات في طفولته،
- يورون ولقبه عين الغراب، زئان الضمت،
- فيكتاريون، الزئان قائد الأسطول الحديدي، سيّد النّصر الحديدي،
- (يوريجون)، مات بجرح بليغ،
- آرون، من زهبان الإله الفريق،
- روس ونورجن، اثنان من مُعاونيه، «الزّجال الفرقى»،
- (روبن)، مات في طفولته،
- أهل بيت الملك بالون في پايك:
- المايستر ويندامير، معالج ومستشار،
- هيليا، راعية القلعة،
- مُحاربو الملك بالون والمقسمون له:
- داجمر ولقبه ذو الفك المفلوق، زئان ثمالة البحر، يقود الحديديّين في مرثع تورين،
- ذو السن الرّقام، زئان سفينة طويلة،
- أولر وسكايت، ملاحان ومُحاربان،
- المطالبون بكُرسى حجر اليم في انتخاب الملك في ويك القديمة:
- جيلبرت فارويند، سيّد المنارة الوحيدة،
- أنصار جيلبرت: أبناؤه جايلز ويجون ويون،
- إريك آيرونميكرو ولقبه محطّم السّنادين وإريك العادل،
- عجون، زئان ومُغير ذائع الصيت سابقًا،
- أنصار إريك: أحفاده أوريك وثورمور وداجون،
- دنستان دروم، دروم الكبير، اليد العظميّة، سيّد ويك القديمة،

- أنصار دنستان: ابناه دينس ودوتل، وأندريك اللا مبتسم، رجل عملاق،
- آشا جرايجوي، ابنة بالون جرايجوي الوحيدة، زَبان
الزَّيح السوداء،
- أنصار آشا: كارل البكر، تريستيفر بوتلي، السير هاراس
هارلو،
- ربانة آشا وداعموها: اللورد رودريك هارلو، اللورد بيلور
بلاكتايد، اللورد ملدريد مرلين، هارموند شارپ،
فيكتاريون جرايجوي، أخو بالون جرايجوي، سيّد النّصر
الحديدي، الزَّبان قائد الأسطول الحديدي،
- أنصار فيكتاريون: رالف ستونهاوس الأحمر، رالف
الأعرج، نيوت الحلاق،
- ربانة فيكتاريون وداعموه: هوتو هارلو، ألّفن شارپ،
فرالغ القوي، رومني ويقر، ويل همبل، لينوود تاوئي
الصّغير، رالف كنينج، مارون قولمارك، جورولد
جودبران
- طاقم سفينة فيكتاريون: وولف ذو الأذن الواحدة،
راجنور بايك،
- رفيقة فيكتاريون في الفراش امرأة سمراء خرساء بلا
لسان، هديّة من أخيه يورون،
- يورون جرايجوي ولقبه عين الغراب، أخو بالون
جرايجوي، زَبان الضّمت،
- أنصار يورون: جرموند بوتلي، اللورد أوركوود سيّد
أوركمونت، دونور سولتكليف،

- ربابنة يورون وداعموه: توروولد ذو السن البنية، جون
ماير ذو الوجه المسحوب، رودريك المولود خزا،
الملّاح الأحمر، لوكاس كود الأعسر، كويلون همبل،
هارن النصف هور، كيميت يايك الثغل، ذو اليد
الحجر، رالف الرّاعي، رالف سليل لوردزيورت،

- طاقم سفينة يورون: كراجورن،
-حملة راية بالون، لوردات جزر الحديد:

في يايك:

- (ساوان بوتلي)، سيّد لوردزيورت، أغرقه يورون عين
الغراب،

- تريستيفز، ابنه الثاني ووريثه الشرعي، طرده عمّه،
- سايموند وهارلون وقيكون وبيناريون، أبناؤه الأصغر،
مطرودون أيضًا،

- جرموند، أخوه، نُصِبَ سيّدًا على لوردزيورت،
- ابنا جرموند، بالون وكويلون،
- سارجون ولوسيمور، أخوا ساوان غير الشقيقين،
- وكس، صبي أخرس في الثانية عشرة، ابن سارجون
الثغل، مرافق ثيون جرايجوي،
- والدون وينش، سيّد غابة الحديد،

في هارلو:

- رودريك هارلو ولقبه القارئ، سيّد هارلو، سيّد البروج
العشرة، زعيم عائلة هارلو في هارلو،
- الليدي جوينيس، أخته الكبيرة،
- الليدي ألانيس، أخته الصغيرة، أرملة الملك بالون
جرايجوي،

- سيجفريد هارلو ولقبه سيجفريد ذو الشعر الفضي،
عمّه الكبير، سيّد بهو هارلو،

- هوتو هارلو ولقبه هوتو الأحذب، مقره بُرج البريق، ابن عمومة،

- السير هاراس هارلو ولقبه الفارس، فارس الحديقة الزمادية، ابن عمومة،

- بورموند هارلو ولقبه بورموند الأزرق، سيّد ثل هاريدان، ابن عمومة،

- حملة راية اللورد رودريك والمقسمون له:

- مارون قولمارك، سيّد قولمارك،

- ماير، ستون تري، كنينج،

- أهل بيت اللورد رودريك:

- ذات الثلاث أسنان، وكيلته، امرأة عجوز،

في بلاكتايد:

- بيلور بلاكتايد، سيّد بلاكتايد، زبّان طيّار الليل،

- بن بلاكتايد الأعمى، من زهبان الإله الغريق،

في ويك القديمة:

- دنستان دروم، دروم الكبير، زبّان الزّاعد،

- نورن جودبراذن، سيّد الحجر المهشّم،

- ستونهاوس الكبير،

- تارل ولقبه تارل الغارق ثلاثًا، من زهبان الإله الغريق،

في ويك الكبرى:

- جورولد جودبراذن، سيّد هامرهورن،

- أبناؤه، جرايدون وجورموند وجران، توائم،

- ابنتاه، جايزلا وجوين،

- الهايستر مورنميون معلّم ومعالج ومستشار،

- تريستون فارويند، سيّد رأس الفقّعات،

- سيار الكبير،

- ابنه ووريته، ستيفاريون،

- ملدريد مرلين، سيّد بلدة الحصى،

- في أوركمونت:
- أوركوود سيّد أوركمونت،
 - اللورد تاوئي،
- في جُرف الملح:
- اللورد دونور سولتكليف،
 - اللورد سندرلي،
- في الجُزر والضُخور الأصغر:
- جيلبرت فارويند، سيّد المنارة الوحيدة،
 - الثورس الزّمادي العجوز من زهبان الإله الغريق.
- راية آل جرايجوي عبارة عن كراكن ذهبي على خلفيّة سوداء،
وكلماتهم: «نحن لا نزرع».

ملحق (٢)
عائلات أخرى صغيرة وكبيرة

عائلة آرن



تنحدر عائلة آرن من ملوك الجبال والوادي، وهي واحدة من أقدم وأنقى شلالات الثبلاء الأنداليين. لم تُشارك عائلة آرن في حرب الملوك الخمسة، واحتفظت بقوّاتها للدّفاع عن وادي آرن. راية آل آرن عبارة عن قمر وصقر أبيضين على خلفية ذات لون أزرق سماوي، وكلماتهم: «سامون كالشرف».

روبرت آرن، سيّد الغش، حامي الوادي، سمّته أمّه حاكم الشرق الشرعي، صبي سقيم في الثامنة، يُسمّى أحيانًا الغصفور الجميل،

- أمّه، (الليدي لايسا سليفة عائلة ثلي)، أرملة اللورد جون آرن، مائت مدفوعة من باب القمر،

- زوج أمّه، بيتر بايلش ولقبه الإصبع الصّغير، سيّد هارنغال، سيّد الثالوث الأعلى، اللورد حافظ الوادي،

- إليني ستون، ابنة اللورد بيتر الطّبيعيّة، فتاة في الثالثة عشرة، هويّتها الحقيقيّة سانزا ستارك،

- السير لوثور برون، مرتزق في خدمة اللورد بيتر، قائد عرس الغش،

- أوزويل، جُندي عجوز في خدمة اللورد بيتر، يُسمّى أحيانًا كِتْلَبلاك،
- أهل بيت اللورد روبرت في الغُش:
- ماريليون، مطرب شاب وسيم أثير عند الليدي لايسا ومُتهم بقتلها،
- المايستر كولمون، مستشار ومعالج ومعلم،
- مورد، سَجّان غاشم له أسنان من الذهب،
- جرتشل ومادي وميلا، خادِمات،
- حملة راية اللورد روبرت، لوردات الوادي:
- اللورد نستور رويس، وكيل الوادي الأعلى وأمين قلعة بؤابات القمر،
- السير ألبان ابن اللورد نستور ووريثه،
- ميراندا وتُسمّى راندا، ابنة اللورد نستور، أرملة بعد زيجة قصيرة،
- أهل بيت اللورد نستور:
- السير ماروين بلمور قائد الكرّس،
- ميا ستون، سائقة وراعية بغال، ابنة الملك روبرت باراثيون الأول الثغلة،
- أوسي وكاروت، سائقا بغال،
- لايونل كوربراي، سيّد بيت القلوب،
- السير لين كوربراي، أخوه ووريثه، حامل الشّيف الشّهير سيّدة البؤس،
- السير لوكاس كوربراي، أخوه الأصغر،
- جون ليندرلي، سيّد غابة الثّعابين،
- تيرانس، ابنه ووريثه، مُرافق شاب،
- إدموند واكسلي، فارس ويكندن،
- جيرولد جرافتون، سيّد بلدة الثّوارس،
- جايلز، ابنه الأصغر، مُرافق،

- تريستون سندرلاند، سيّد الثلاث أخوات،
- جودريك دورل، سيّد الأخت العذبة،
- رولاند لونجثورپ، سيّد الأخت الطويلة،
- أليساندور تورنت، سيّد الأخت الصغيرة،
- لوردات البيان، حفلة راية عائلة آرن المتضافرون دفاغا
عن اللورد روبرت:
- يون رويس ولقبه يون البرونزي، سيّد رولستون، من
الفرع الرئيس لعائلة رويس،
- السير أنداس ابن يون البرونزي الحي الوحيد، وريث
رولستون،
- أهل بيت يون البرونزي:
- المايستر هليويج، معلّم ومعالج ومستشار،
- الشيتون لوكوس،
- السير سامويل ستون ولقبه سام ستون القوي، قيم
الشلاح،
- حفلة راية يون البرونزي والمقسمون له:
- رويس كولدووتر، سيّد غدير الماء البارد،
- السير دامون شفت، فارس بُرج الثوارس،
- أوثر توليت، سيّد الوادي الرّمادي،
- أنيا واينوود، سيّدة السّنديانة الحديدية،
- السير مورتون، ابنها الأكبر ووريثها،
- السير دونل، ابنها الثاني، فارس البوّابة،
- والاس، ابنها الأصغر،
- هارولد هاردينج، ربيبها، مُرافق شاب يُسمّى غالبًا هاري
الوريث،
- بنيدار بلمور، سيّد الأغرودة،
- السير سايموند تمپلتون، فارس الثّجوم الثّسع،
- (ايون هنتر)، سيّد بهو القوس الطويل، ماث قريبًا،

- السير جيلوود، ابن اللورد إيون الأكبر ووريثه، الآن يُسمّى اللورد هنتر اليافع،
- السير إيوستس، ابن اللورد إيون الثاني،
- السير هارلان، ابن اللورد إيون الأصغر،
- أهل بيت اللورد هنتر اليافع:
- المايستر ويلامن، مستشار ومعالج ومعلم،
- هورتون ردفورت، سيّد ردفورت، تزوّج ثلاث مّرات،
- السير جاسپر، السير كرايتون، السير جون، أبناؤه،
- السير مايكل، ابنه الأصغر، فارس مستجد، زوج يسيلا رويس ابنة رونستون،
- زعماء قبائل جبال القمر:
- شاجا بن دolf زعيم الغربان الحجرية، حاليًا يقود جماعةً في غابة الملوك،
- تيميت بن تيميت، زعيم الزّجال المحروقين،
- تشلا بنت تشيك، زعيمة الأذان السوداء،
- كراون بن كالون زعيم إخوة القمر.

عائلة فلورنت



آل فلورنت أولاد قلعة المياه الوضاء من حقلة راية عائلة تايرل، على الرغم من أسبقية حقهم في هايجاردن استنادًا إلى صلة دم بينهم وبين عائلة جارندر التي حكم ملوكها المرعى قديمًا. لدى اندلاع حرب الملوك الخمسة تبع اللورد ألستر فلورنت آل تايرل في إعلانهم تأييد الملك رنلي، لكن أخاه السير أكسل اختار الملك ستانيس، الذي خدعه أعوامًا كأمين القلعة في دراجونستون، وقد كانت سيليس ابنة أخيها وما زالت ملكة ستانيس. بعد موت رنلي عند ستورمز إند انضم آل فلورنت لستانيس بقوتهم كلها، وهم أول من يفعل هذا من حقلة راية رنلي. نصب ستانيس اللورد ألستر يدا له، وأعطى أخا زوجته السير إمري فلورنت قيادة أسطوله، وفي معركة النهر الأسود ضاع كلا الأسطول والسير إمري، وعد الملك ستانيس جهود اللورد ألستر للتفاوض على السلام خيانة، وأعطى الزاهبة الحمراء مليساندرا إياه لثحرقة كقربان لراهلور.

رمز عائلة فلورنت عبارة عن ثعلب يطل برأسه من حلقة من الزهور.

(ألستر فلورنت)، سيد قلعة المياه الوضاء،

- زوجته، الليدي ميلارا، سليلة عائلة كرين،

- أولادهما:

- أليكاين، وريث قلعة المياه الوضاء،

- ميليسا، زوجة اللورد راندل تارلي،

- ريا، زوجة اللورد لايتون هايتاون،

- أخواه:

- السير أكسل، أمين قلعة دراجونستون،

- (السير ريام)، مات حين سقط من فوق حصان،

- ابنة السير ريام، الملكة سيليس، زوجة الملك ستانيس،

- ابن السير ريام الأكبر ووريثه، (السير إمري)،

- ابن السير ريام الثاني، السير إين،

- السير كولين،

- ابنة السير كولين، ديلينا، زوجة السير هوسمان

نوركروس،

- ابن ديلينا، إدريك ستورم، ابن غير شرعي للملك روبرت،

- ابن ديلينا، أليستر نوركروس،

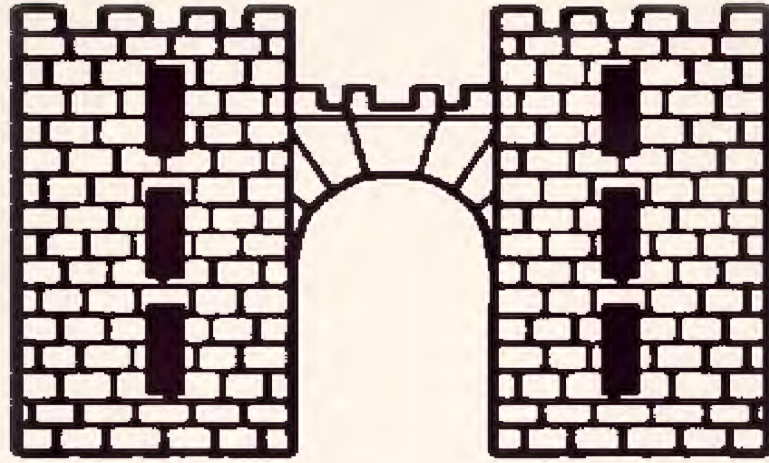
- ابن ديلينا، دنلي نوركروس،

- ابن كولين، المايستر أوم في خدمة أولك القديمة،

- ابن كولين، ميريل، مرافق في الكرمة،

- أخته، وايلين، زوجة ريتشارد كرين.

عائلة فراي



يتمتع آل فراي بالقوة والثراء وعددٍ وفير من الأولاد، وهم حملة راية عائلة ثلي ومقسمون على الولاء لريقرزن، وإن كانوا لا يلتزمون دائمًا بأداء واجبهم، فحين قاتل روبرت باراثيون ريجار تارجارين في معركة الثالوث لم يصل رجال فراي إلا بعد انتهاء القتال، ومنذ ذلك الحين لقب هوستر ثلي اللورد والدر باللورد فراي الممتلكي. لم يوافق اللورد فراي على دعم روب ستارك إلا بعد أن وافق روب ستارك على خطبة واحدة من بناته أو حفيداته، ووعد بأن يتزوجها حين تنتهي الحرب، ثم عندما تزوج جاين وسترلينج بدلًا من ذلك تأمر آل فراي مع رووس بولتون واغتالوا الذئب الصغير وأتباعه في الحادثة التي صارت معروفة باسم الزفاف الأحمر.

والدر فراي، سيد المعبر،

- من زوجته الأولى، (الليدي پيرا) سليلة عائلة رويس:

- السير ستقرون، وريث الثوأميتين،

- زوجته (كورينا سوان)، مائت بمرض مزمن،

- ابن ستقرون الأكبر، السير رايمان،

- ابن رايمان، إدوين، زوج چانيس هنتر،

- ابنة إدوين، والدا، فتاة في الثامنة،

- ابن رايمان، والد، لقبه والدر الأسود،
- ابن رايمان، (بيتر)، لقبه بيتر ذو الذمامل، زوج ميليندا كارون،
- ابنة بيتر، پيرا، فتاة في الخامسة،
- زوجته (جين ليدن)، مائت حين سقطت من على حصان،
- ابن ستقرون، (إجون)، أبه ملقب بذي الجلاجل،
- ابنة ستقرون، (مايجل)، مائت أثناء الوضع،
- السير دافين قانس،
- ابنة مايجل، ماريان، عذراء،
- ابن مايجل، والدر قانس، مرافق فارس،
- ابن مايجل، ياتريك قانس،
- زوجته (مارسلا واينوود)، مائت أثناء الوضع،
- ابن ستقرون، والتون، زوج ديانا هاردينج،
- ابن والتون، ستفون، لقبه الخلو،
- ابنة والتون، والدا، لقبها والدا الحسناء،
- ابن والتون، برايان، مرافق فارس،
- السير إمون، زوج چنا سليلة عائلة لانستر،
- ابن إمون، (السير كليوس)، زوج چين داري، قتله الخارجون عن القانون قُرب بركة العذارى،
- ابن كليوس، تاويين، مرافق فارس في الحادية عشرة،
- ابن كليوس، ويلم، وصيف في آشمارك،
- ابن إمون، السير لايونل، زوج ميليسا كراكهول،
- ابن إمون، (تيون)، قتله ريكارد كارستارك وهو أسير في ريقردن،
- ابن إمون، والد، لقبه والدر الأحمر، وصيف في كاسترلي روك،
- السير إينس، زوج (تيانا وايلد)، مائت أثناء الوضع،

- ابن إينس، إجون وليد الدّم، خارج عن القانون،
- ابن إمون، ريجار زوج چين بيزبوري،
- ابن ريجار، روبرت، صبي في الثالثة عشرة،
- ابنة ريجار، والدا، فتاة في العاشرة، لقبها والدا البيضاء،
- ابن ريجار، جونوس، صبي في الثامنة،
- پريان، زوجة السير ليڤلين هاي،
- ابن پريان، السير هاريس هاي،
- ابن هاريس، والدر هاي، صبي في الزابعة،
- ابن پريان، السير دونل هاي،
- ابن پريان، السير آلين هاي، فراق فارسي،
- من زوجته الثانية، (الليدي كايرينا) سليلة عائلة سوان:
- السير چارد، ابنهما الأكبر، زوج (آليس فراي)،
- ابن چارد، (السير تايتوس)، زوج زوي بلينتري، قتله
- ساندور كليجاين خلال الزفاف الأحمر،
- ابنة تايتوس، زيا، فتاة في الزابعة عشرة،
- ابن تايتوس، زاكري، صبي في الثانية عشرة، يتدرب في
- سيت البلدة القديمة،
- ابنة چارد، (كايرا)، زوجة جارس جودبروك، قُتِلَت خلال
- الزفاف الأحمر،
- ابن كايرا، والدر جودبروك، صبي في التاسعة،
- ابنة تايتوس، چين جودبروك، فتاة في السادسة،
- الشيتون لوسيون، يخدم في سيت بيلور الكبير في
- كينجز لاندنج،
- من زوجته الثالثة، (الليدي أماري) سليلة عائلة كراكهول:
- السير هوستين، ابنهما الأكبر، زوج بيلينا هاويك،
- ابن هوستين، السير آروود، زوج ريلا رويس،
- ابنة آروود، ريلا، فتاة في الخامسة،
- ابنا آروود الثوأم، أندرو وآلين، في الثالثة،

- الليدي لايتين، زوجة اللورد لوشياس قايرن،
- ابنة لايتين، إيانا، زوجة السير جون وايلد،
- ابن إيانا، ريكارد وايلد، في الرابعة،
- ابن لايتين، السير ديمون قايرن،
- سايموند، زوج بيثاريوس البراڤوسية،
- ابن سايموند، أليساندر، مغنّ،
- ابنة سايموند، ألكس، فتاة في السابعة عشرة،
- ابن سايموند، برادامان صبي في العاشرة، نشأ في
براڤوس ربيّاً للتّاجر أورو تندايريس،
- السير دانويل، زوج وايناڤري وِنت،
- (وُلِدَ أبناؤهما إمّا موتى أو ماتوا في المهد)،
- (ميريت)، زوج ماريا داري، ماتَ شتقاً في الحجر العتيق،
- ابنة ميريت، أميري، تُسَمَّى آمي، أرملة في السادسة
عشرة، كانت زوجة (السير يايث فارس الفرع الأزرق،
قتله السير جريجور كليجاين)،
- ابنة ميريت، والدا، لقبها والدا السّميّنة، فتاة في
الخامسة عشرة،
- ابنة ميريت، ماريسا، فتاة في الثالثة عشرة،
- ابن ميريت، والدر، لقبه والدر الصّغير، صبي في الثّامنة،
ينشأ في وينترفل كريبب الليدي كاتلين ستارك،
- (السير جريمي)، مات غرقاً، كان زوج كارولي واينوود،
- ابن جريمي، ساندور، صبي في الثّانية عشرة، مُرافق
السير دونل واينوود،
- ابنة جريمي، سينثيا، فتاة في الثّاسعة، ربيبة الليدي أنيا
واينوود،
- السير رايموند، زوج بيوني بيزبوري،
- ابن رايموند، روبرت، في السادسة عشرة، يتدرّب في
قلعة البلدة القديمة،

- ابن رايموند، مالوين، في الخامسة عشرة، يتدرب لدى
خيميائي في ليس،
- ابنتا رايموند الثوأم، سيرا وسارا، فتاتان في الزابعة
عشرة،
- ابنة رايموند، سوسي، في السادسة، لقبها النحلة
الصغيرة،
- من زوجته الزابعة، (الليدي أليسا) سليفة عائلة بلاكوود:
- لوثر، ابنهما الأكبر، لقبه لوثر الكسيح، زوج ليونلا
ليفورد،
- ابنة لوثر، تايسين، فتاة في الشابعة،
- ابنة لوثر، والدا، فتاة في الزابعة،
- ابنة لوثر، إمبريلي، فتاة في الثانية،
- السير جاموس، زوج سالي يايج،
- ابن جاموس، لقبه والدر الكبير، صبي في الثامنة، ينشأ
في وينترفيل كريبب الليدي كاتلين ستارك،
- ابنا جاموس الثوأم، ديكون وماثوس، في الخامسة،
- السير والن، زوج سيلوا يايج،
- ابن والن، هوستر، صبي في الثانية عشرة، مرافق السير
ديمون يايج،
- ابنة والن، هاريان، تُسمى مري، فتاة في الحادية عشرة،
- الليدي موريا، زوجة السير فليمنت براكس،
- ابن موريا، روبرت براكس، في التاسعة، ينشأ كوصيف
في كاسترلي روك،
- ابن موريا، والدر براكس، صبي في السادسة،
- ابن موريا، جون براكس، صبي في الثالثة،
- تايता، لقبها تايता العذراء، في التاسعة والعشرين،
- من زوجته الخامسة، (الليدي ساريا) سليفة عائلة وونت:
- لا أولاد،

- من زوجته السادسة، (الليدي بتاني) سليفة عائلة روزبي:
- السير پروين، ابنهما الأكبر،
- السير (بنفري)، ابن اللورد والدر السادس عشر، مات بجرح أصابه خلال الزفاف الأحمر، زوج جيانا فراي، ابنة عمه،
- ابنة بنفري، دِلا، لقبها دِلا الصفاء، في الثالثة،
- ابن بنفري، أوزموند، صبي في الثانية،
- إلياستر ويلامن، يخدم في قلعة القوس الطويل،
- أوليقان مرافق في خدمة روب ستارك،
- روزلين، فتاة في السادسة عشرة،
- من زوجته السابعة، (الليدي أنارا) سليفة عائلة فارنج:
- أروين، فتاة في الرابعة عشرة،
- وندل، ابنهما الأكبر، صبي في الثالثة عشرة، ينشأ في سيجارد كوصيف،
- كولمان موعود بالخدمة في العقيدة، في السابعة،
- والتير، يُسقى تير، صبي في العاشرة،
- إلمان خطيب آريا ستارك، صبي في التاسعة،
- شيري، فتاة في السادسة،
- من زوجته الثامنة، (الليدي جويثيوس) سليفة عائلة إرينفورد:
- لا أولاد بعد،
- أولاد اللورد والدر غير الشرعيين من أقهار مختلفات:
- والدر ريقرن، لقبه والدر الثغل،
- ابن والدر الثغل، السير إيمون ريقرن
- ابنة والدر الثغل، والدا ريقرن
- إلياستر ملويس، يخدم في روزبي،

- چين ريقون مارتن ريقون رايچر ريقون روتل ريقون
ميلارا ريقون آخرون.

عائلة هايتاور



آل هايتاور أولاد البلدة القديمة من أعرق عائلات وستروس الكبرى وأكثرها إباءً، وتنحدر أصولهم من البشر الأوائل. قديماً كانوا ملوكاً يحكمون البلدة القديمة والأنحاء المحيطة بها منذ فجر العصور، ورُخّبوا بالأنداليين بدلاً من مقاومتهم، ولاحقاً خضعوا لملوك المرعى متخليين عن تيجانهم وإن احتفظوا بجميع امتيازاتهم العتيقة. على الرغم من سطوتهم وثرانهم الفاحش لطالما فضّل لوردات البرج العالي التجارة على القتال، ونادراً ما لعبوا دوراً كبيراً في حروب وستروس. كان آل هايتاور عاملاً سياسياً في إنشاء القلعة وما زالوا يحمونها حتى اليوم، ولحصافتهم ورقيتهم كانوا دوماً زعاةً للعلم والعقيدة، ويُقال إن بعضاً معيّنًا منهم اشتغل أيضاً في الخيمياء واليايرومانسي والأكرومانسي وغيرها من فنون السحر.

رمز عائلة هايتاور برج أبيض مدرّج متوّج بالنار على خلفيّة بلون الدخان، وكلماتهم: «نُشير الطريق».

لايتون هايتاور، صوت البلدة القديمة، سيّد المرفأ، سيّد البرج العالي، حامي القلعة، منارة الجنوب، يُسقى شيخ البلدة القديمة،

- الليدي ريا سليلة عائلة هايتاور، زوجته الزابعة،

- أكبر أبناء اللورد لايتون ووريثه، السير بيلور ولقبه بيلور
البشوش، زوج روندا روان،

- ابنة اللورد لايتون، مالورا ولقبها العذراء المجنونة،

- ابنة اللورد لايتون، أليري، زوجة اللورد مايس تايرل،

- ابن اللورد لايتون، السير جارت ولقبه الفولاذ الرّمادي،

- ابنة اللورد لايتون، دينيس، زوجة السير دزموند ردواين،

- ابنها، دينس، مُرافق،

- ابنة اللورد لايتون، لايلا، زوجة السير جون كويس،

- ابنة اللورد لايتون، أليسين، زوجة اللورد آرثر أمبرون،

- ابنة اللورد لايتون، لينيس، زوجة اللورد جورا مورمونت،

والآن كبيرة محظيات تريجار أورمولن في ليس،

- ابن اللورد لايتون، السير جونثون زوج جاين فوسواي

من فرع عائلة فوسواي الأخضر،

- ابن اللورد لايتون الأصغر، السير همفري،

- حملة راية اللورد لايتون:

- تومن كوستاين، سيّد الأبراج الثلاثة،

- أليسين بولوان سيّدة الثّاج الأسود، فتاة في الثّامنة،

- مارتن مالدون سيّد الثّجود،

- وارن بيزبوري، سيّد ربوة العسل،

- برانستون كاي، سيّد بهو عبّاد الشّمس،

- أهل البلدة القديمة:

- إما، ساقية في الرّيشة والدّورق، حيث النّساء شبقات

وخمر الثّقاح قويّة للغاية،

- روزي، ابنتها، فتاة في الخامسة عشرة ستتكلف بكارتها

تئينا ذهبيا،

- رؤساء المايسترات في القلعة:

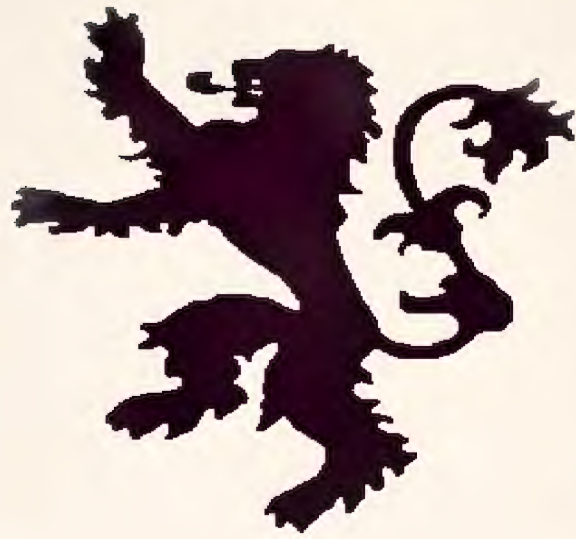
- المايستر الرّئيس نورن، قهرمان العام الحالي، خاتمه

وصولجانه وقناعه من معدن الإلكترولوم،

- المايستر الرئيس ثيوبولد، قهرمان العام المقبل، خاتمه وصولجانه وقناعه من الرصاص،
- المايستر الرئيس إيرون المعالج، خاتمه وصولجانه وقناعه من الفضة،
- المايستر الرئيس ماروين ولقبه ماروين المشعوز، خاتمه وصولجانه وقناعه من الفولاذ القاليري،
- المايستر الرئيس بيرستان، المؤرخ، خاتمه وصولجانه وقناعه من النحاس،
- المايستر الرئيس قايلين ولقبه الخل، الفلكي، خاتمه وصولجانه وقناعه من البرونز،
- المايستر الرئيس ريام، خاتمه وصولجانه وقناعه من الذهب الأصفر،
- المايستر الرئيس والجريفي، عجوز تائه العقل، خاتمه وصولجانه وقناعه من الحديد الأسود،
- جالارد، كاستوس، زارابلو، بنيدكت، جاريزون، نايموس، سيثريس، ويليفر، مولوس، هارودون، جايني، أجريقان، أوكلي، كلهم رؤساء مايسترات،
- مايسترات ومعاونو ومبتدئو القلعة:
- المايستر جورمون، يخدم غالبًا في مكان والجريفي،
- أرمن ويسمى المعاون، معاون في سلسلته أربع حلقات،
- أليراس ولقبه أبو الهول، معاون في سلسلته ثلاث حلقات، قوأس بارع،
- روبرت فراي، في السادسة عشرة، معاون في سلسلته حلقتان،
- لوركاس، معاون في سلسلته تسع حلقات، في خدمة القهرمان،
- ليو تايرل ولقبه ليو الكسول، مبتدئ من الثبلاء،
- مولاندر مبتدئ مولود بقدح معوجة،

- يات، يعتني بؤد فان الماستر الرئيس والجريف، مبتدى
غير واعد،
- ررون، مبتدى صغير.

عائلة لانستر



يبقى آل لانستر أولاد كاسترلي روك أقوى المؤيدين لدعوى الملك تومن للعرش الحديدي، ويأتي نسبهم من جهة الإناث من لان الأريب، الفحتال الذي عاش في عصر الأبطال، وقد جعلهم ذهب كاسترلي روك والثاب الذهبي أثرى العائلات الكبرى. راية آل لانستر عبارة عن أسد ذهبي على خلفية قرمزية، وكلمااتهم: «اسمعوا زئيري».

(تايوين لانستن)، سيد كاسترلي روك، حامي لانسيورت، حاكم الغرب، يد الملك، قتله ابنه القزم في مرحاضه، - أولاد اللورد تايوين:

- سرسي، توامة جايمي، الآن سيّدة كاسترلي روك،

- جايمي، توأم سرسي ولقبه قاتل الملك،

- تيريون ولقبه العفريت، قزم وقاتل أقربين،

- إخوة اللورد تايوين وأولادهم:

- السير كيثان لانستر، زوج دورنا سليلة عائلة سويفت،

- الليدي چنا، زوجة إمون فراي، الآن سيّد ريفرز،

- ابن چنا الأكبر، (السير كليوس فراي)، زوج چاين سليلة

عائلة داري، قتله الخارجون عن القانون،

- ابن كليوس الكبير، السير تايوين فراي ويُسمّى تاي،
الآن وريث ريقرتن،
- ابن كليوس الثاني، ويلم فراي، مرافق،
- ابن چنا الثاني، السير لايونل فراي،
- ابن چنا الثالث، (تيون فراي)، قُتِلَ وهو أسير في
ريقرتن،
- ابن چنا الأصغر، والدر فراي ولقبه والدر الأحمر، وصيف
في كاسترلي روك،
- وات ذو الابتسامة البيضاء، مطرب في خدمة الليدي
چنا،
- السير تايجت لانستر، ماث بالجدري،
- تايرك، ابن تايجت، مفقود ويُخشى أنه ماث،
- الليدي إرميساند هايفورد، زوجة تايرك الطفلة،
- (جيريون لانستر)، مفقود في البحر،
- جوي هيل، ابنة جيريون الثغلة، فتاة في الحادية عشرة،
- أهل اللورد تايوين المقرَّبون الآخرون:
- (السير ستافورد لانستر)، ابن عم اللورد تايوين وأخو
زوجته، قُتِلَ في معركة أوكسكروس،
- سيرينا ومارييل، ابنتا ستافورد،
- السير داقن لانستر، ابن ستافورد،
- السير داميون لانستر، ابن عم، زوج شيرا كهراكهول،
- ابنتهما، السير لوشن،
- ابنتهما، لانا، زوجة أنتاريو جاست،
- الليدي مارجو، ابنة عمومة، زوجة اللورد تايوتوس بيك،
- أهل بيت اللورد تايوين في كاسترلي روك:
- المايستر كرايلن، معالج ومعلّم ومستشار،
- فايلان قائد الحرس،
- السير بنيدكت بلوم، قيّم السلاح،

- وات ذو الابتسامة البيضاء، مطرب،
- حملة راية ومقسمون على الولاء، لوردات الغرب:
- دامون ماربراند، سيّد آشمارك،
- السير أدام ماربراند، ابنه ووريثه، قائد حرس المدينة في كينجز لاندنج،
- رولاند كراكهول، سيّد كراكهول،
- أخو رولاند، (السير برتون)، قتله الخارجون عن القانون،
- ابن رولاند ووريثه، السير تايبولت،
- ابن رولاند، السير لايل ولقبه الغفر القوي،
- ابن رولاند الأصغر، السير مرلون،
- سياستون فارمان، سيّد الجزيرة القصية،
- جاين، أخته، زوجة السير جاريث كليفتون،
- تايروس براكس، سيّد وادي القرون،
- السير فليمنت براكس، أخوه ووريثه،
- كوينتن بانفورت، سيّد بانفورت،
- السير هاريس سويفت، حمو السير كيقان،
- ابن السير هاريس، السير ستفون سويفت،
- ابنة السير ستفون، جوانا،
- ابنة السير هاريس، شيرل، زوجة السير ملوين سارسفيلد،
- ريجينارد إسترن، سيّد ويندهول،
- جاون وسترلينج، سيّد الجرف،
- زوجته، الليدي سيبيل سليلة عائلة سپايسر،
- أخوها، السير رولف سپايسر، نُصِبَ حديثًا سيّدًا على كاستامير،
- ابن عفا، السير سامويل سپايسر،
- أولادهما:
- السير راينالد وسترلينج،

- چاين، أرملة روب ستارك،
- إلينا، فتاة في الثانية عشرة،
- رولام، صبي في التاسعة،
- اللورد سلموند ستاكسبير،
- ابنه، السير ستفون ستاكسبير،
- ابنه الثاني، السير آلن ستاكسبير،
- تيرانس كنينج، سيّد كايس،
- السير كينوس الكايسي، فارس في خدمته،
- اللورد أنتاريو جاست،
- اللورد روبن مورلاند،
- الليدي أليسين ليفورد،
- لويس ليدن، سيّد الوكر العميق،
- اللورد فيليب بلوم،
- أبناؤه، السير دنيس بلوم، السير بيتر بلوم، السير
- هاروين بلوم ولقبه الحجر الضلب،
- اللورد جاريسون پرستر،
- السير فورلي پرستر، ابن عمه،
- السير جريجور كليجاين ولقبه الجبل راكب الخيول،
- ساندور كليجاين، أخوه،
- السير لورنت لورك، فارس من مُلّاك الأراضي،
- السير جارت جرينفيلد، فارس من مُلّاك الأراضي،
- السير لايموند فيكاري، فارس من مُلّاك الأراضي،
- السير راينارد روتيغر، فارس من مُلّاك الأراضي،
- السير مانفريد ياو، فارس من مُلّاك الأراضي،
- السير تايبولت هيذرسيون، فارس من مُلّاك الأراضي،
- (ميلارا هيذرسيون)، ابنته، غرقت في بئر وهي ربيبة
- في كاسترلي روك.

عائلة مارتل



كانت دورن آخر الممالك الشّيع التي أقسمت على الولاء للعرش الحديدي. يُقَيِّز النّسب والعادات والتّاريخ الدورنيّين عن سائر الممالك الأخرى، وحين اندلعت حرب الملوك الخمسة لم تُشارك دورن فيها. بعد خطبة مارسلا باراثيون للأمير تريستان أعلنت صنسيير تأييدها الملك چوڤري واستدعت راياتها.

راية عائلة مارتل عبارة عن شمس حمراء تخرقها حربة ذهبية، وكلماتهم «لا ننحني، لا نخضع، لا ننكسر».

دوران نايميروس مارتل، سيّد صنسيير، أمير دورن،

- زوجته، ميلاريو، من مدينة نورقوس الحرّة،

- أولادهما:

- الأميرة أريان، وريثة صنسيير،

- جارين، أخو أريان في الرّضاعة، من أيتام الدّم الأخضر.

- الأمير كوينتن، فارس مستجد، ربيب منذ الطّفولة للورد

يرونود سيّد يرونود،

- الأمير تريستان، خطيب مارسلا باراثيون،

- أخوا الأمير دوران:

- (الأميرة إليا)، اغتُصبت وقُتِلت خلال نهب كينجز

لاندنج،

- (ريبنس تارجارين)، ابنتها الصغيرة، قُتِلت خلال نهب كينجز لاندنج،

- (اجون تارجارين)، رضيع، قُتِلت خلال نهب كينجز لاندنج،

- (الأمير أوبرين) ولقبه الأفعوان الأحمر، قتلَه السير جريجور كليجاين في محاكمة بالثزال،

- إلاريا ساند، خلية الأمير أوبرين، ابنة اللورد هارمن أولر الطبيعية،

- أفاعي الزمال، بنات أوبرين الثغلات:

- أوبارا، في الثامنة والعشرين، ابنة أوبرين من عاهرة في البلدة القديمة،

- نايميريا ولقبها الليدي نيم، في الخامسة والعشرين، ابنة أوبرين من امرأة نبيلة من قولانتيس،

- تايين، في الثالثة والعشرين، ابنة أوبرين من سبته،

- ساريللا، في التاسعة عشرة، ابنته من تاجرة، زُبان قبلة الزيش،

- إليا، في الرابعة عشرة، ابنته من إليا ساند،

- أوبلا، في الثانية عشرة، ابنته من إليا ساند،

- دوريا، في الثامنة، ابنته من إليا ساند،

- لوريزا، في السادسة، ابنته من إليا ساند،

- بلاط الأمير دوران في الحدائق المائية:

- آريو هوتا، من نورقوس، قائد الخرس،

- المايستر كاليوت، مستشار ومعالج ومعلم،

- نحو سئين من الأطفال من علية القوم والعامة، أبناء

وبنات لوردات وفُرسان وأيتام وثنجار وحرفيين وفلاحين، أرباؤه،

- بلاط الأمير دوران في صنسيرا:

- الأميرة مارسلا باراثيون، ربيبتة، خطيبة الأمير تريستان

- السير آريس أوكهارت، حارس مارسلا الشّخصي،
- روزاموند لانستر، رفيقة فراش مارسلا ووصيفتها، ابنة عمومة بعيدة،
- الشّيطة إجلائتين،
- المايستر مايلز، مستشار ومعالج ومعلّم،
- ريكاسو، قهرمان صنسبير، عجوز كفيف،
- السير مانفري مارتل، أمين القلعة في صنسبير،
- الليدي آليس ليديبرايت، اللورد الخازن،
- السير جاسكوين ابن الدّم الأخضر، حارس الأمير تريستان الشّخصي،
- بورس وتيموث، خادمان في صنسبير،
- بيلاندرا ويسدرا والأختان مورا وميلي، خادمتان في صنسبير،
- حملة راية الأمير دوران، لوردات دورن:
- أندرز يرونوود، سيّد يرونوود، حاكم الطّريق الحجري، صاحب الدّم الملكي،
- السير كليتوس، ابنه، معروف بعينه الكسول،
- المايستر كدري، معالج ومستشار ومعلّم،
- هارمن أولر، سيّد هضبة الجحيم،
- إلاريا ساند، ابنته الطّبيعيّة،
- السير أولويك أولر، أخوه،
- ديلون أليرون، سيّدة عطية الآلهة،
- السير ريون، ابنه ووريثه،
- السير ديمون ساند، ابن ريون الطّبيعي، نغل عطية الآلهة،
- داجوس مانوودي، سيّد مقبرة الملك،
- بورس وديكون، ابناه،
- السير مايلز، أخوه،

- لارا بلاكموث، سيّدة بلاكموث،
- جينيسا، ابنتها ووريثتها،
- بيروس، ابنها، مُرافق،
- نايملا، سيّدة تل الأشباح،
- كوينتن كورجايل، ابن حجر الزّمل،
- السير جوليان، ابنه الأكبر ووريثه،
- السير أرون، ابنه الثاني،
- السير ديزيل دالت، فارس غابة الليمون،
- السير آندراي، أخوه ووريثه ويسمّى دراى،
- فرانكلين فاوّل، سيّد قلعة السماء، لقبه الضّقر العجوز
- حاكم ممر الأمير،
- جاين وجينيلين، ابنتاه الثّوأم،
- السير سايمون سانتاجار، فارس الغابة الرّقطاء،
- سيلقا، ابنته ووريثته، تُسمّى سيلقا الرّقطاء بسبب
- نمشها،
- إدريك داين، سيّد ستارفول، مُرافق،
- السير جيرولد داين ولقبه الثّجم المظلم، فارس
- الضّومعة العالية، ابن عمّه وحامل رايته،
- تريبور جورداين، سيّد الرّبوّة،
- ميريا، ابنته ووريثته،
- تريموند جارجالن، سيّد ساحل الملح،
- دايرون قايت، سيّد الكتّبان الحمراء.

عائلة ستارك



يعود نسب آل ستارك إلى براندون البئاء وملوك الشَّتاء القدامى، ولآلاف الشنين حكموا من مقرهم في وينترفيل كملوك في الشَّمال، إلى أن اختارَ تورين ستارك -الملك الذي ركع- أن يُقسم على الولاء لإجون التَّين بدلاً من مُواجهته في المعركة. حين أعدم الملك جوفري اللورد إدارد ستارك تخلى الشماليون عن ولائهم للعرش الحديدي وأعلنوا روب ابن اللورد إدارد ملكاً في الشَّمال، وخلال حرب الملوك الخمسة انتصرَ روب في كلِّ معاركه، لكن آل فراي وآل بولتون خانوه واغتالوه في الثَّوَّامتين في زفاف خاله.

راية آل ستارك عبارة عن ذئب رهيب رمادي على خلفية بيضاء ثلجية، وكلماتهم: «الشَّتاء قادم».

(روب ستارك)، الملك في الشَّمال، ملك الثَّالوث، سيِّد وينترفيل، أكبر أبناء اللورد إدارد ستارك والليدي كاتلين سليلة عائلة ثلي، شاب في السادسة عشرة يُسقى الذئب الصَّغير، اغتيل في الزَّفاف الأحمر،

- (جراي ويند)، ذئبه الزَّهيب، قُتل في الزَّفاف الأحمر،

- إخوته الأشقاء:

- سانزا، أخته، زوجة تيريون لانستر،

- (ليدي)، ذئبتها الزَّهِيبة، قُتِلَتْ في قلعة داري،
- آريا، فتاة في الحادية عشرة، مفقودة ويُعتَقَد أنها ماثت،
- نايميريا، ذئبتها الزَّهِيبة، تجوب أراضي النُّهر،
- براندون ويُسمَّى بران، طفل مُعاق في الثَّاسعة، وريث وينترفِل، يُعتَقَد أنه ماث،
- سَم، ذئبه الزَّهيب،
- رفاق بران وحَماته:
- ميرا ريد، فتاة في السَّادسة عشرة، ابنة اللورد هاولاند
- ريد سيِّد قلعة المياه الزَّماديَّة،
- جوجن ريد، أخوها، في الثَّالثة عشرة،
- هودون عامل اسطبل بسيط العقل، طوله سبعة أقدام،
- ريكون، طفل في الرَّابعة، يُعتَقَد أنه ماث،
- شاجيدوج، ذئبه الزَّهيب، أسود وشرس،
- رفيقة ريكون، أوشا، همجيَّة أسيرة سابقة في وينترفِل،
- أخوه الثُّفل غير الشَّقِيق، جون سنو، أخ في حرس اللَّيل،
- جوست، ذئب جون الزَّهيب، أبيض وصامت،
- المقسمون لروب على الولاء:
- (دونل لوك، أوين نوري، داسي مورمونت، السير وندل
- ماندرلي، روبن فلينت)، قُتِلوا في الرِّفاف الأحمر،
- هالس مولين، قائد الحرس، ينقل زفات اللورد إدارد
- ستارك إلى وينترفِل،
- چاكس، كوينت، شاد، حرس،
- أعمام وأحوال روب:
- بنجن ستارك، أصغر أعمامه، قُتِلَ في جولة وراء الجدار
- ويُعتَقَد أنه ماث،
- (لايسا آرن)، خالته، سيِّدة الغش، زوجة اللورد جون
- آرن، ماثت سقوطًا من علي،

- ابنهما، روبرت آن، سيّد الغُثى وحامي الوادي، صبي سقيم،

- إدميور ثلي، سيّد ريقَرَن، خاله، أسير في الزّفاف الأحمر،

- الليدي روزلين سليفة عائلة فراي، عروس إدميور،

- السير برايندن ثلي ولقبه الشمكة السوداء، عمّ أمّه، أمين القلعة في ريقَرَن،

- حقلة راية الذّئب الضّغير، لوردات الشّمال:

- رووس بولتون، سيّد معقل الخوف، المارق،

- (دومريك)، ابنه الشرعي ووريثه، مات بمرض في البطن،

- رامزي بولتون (رامزي سنو سابقًا)، ابن رووس الطّبيعي

ويُسمّى نغل بولتون، أمين القلعة في معقل الخوف،

- والدر فراي ووالدر فراي ويسقيان والدر الضّغير

ووالدر الكبير، مرافقا رامزي،

- (ريك)، جندي معروف برائحته الكريهة، قُتل في أثناء

انتحاله شخصيّة رامزي،

- «آريا ستارك»، أسيرة اللورد رووس، فتاة زائفة

مخطوبة لرامزي،

- والتون ولقبه ذو الشّاقين الفولاذ، قائد حرس رووس،

- بث كاسل، كايرا، تورنيپ، يالا، باندي، شايرا، يالا،

العجوز نان، نسوة من وينترفيل أسيرات في معقل

الخوف،

- جون أومبر ولقبه جون الكبير، سيّد المستوقّد الأخير،

أسير في التّوأمتين،

- (جون) ولقبه جون الضّغير، ابن جون الكبير ووريثه،

قُتل في الزّفاف الأحمر،

- مورس ولقبه آكل الغُراب، عم جون الكبير، أمين القلعة

في المستوقّد الأخير،

- هوثر ولقبه باقر العاهرة، عم جون الكبير، أيضًا أمين القلعة في المستوقد الأخير،
- (ريكارد كارستارك)، سيّد كارهولد، قُطِعَ رأسه لارتكابه الخيانة وقتل الأسرى،
- (إدارد)، ابنه، قُتِلَ في الغابة الهامسة،
- (تورين)، ابنه، قُتِلَ في الغابة الهامسة،
- هاريون، ابنه، أسير في بركة العذارى،
- أليس، ابنة اللورد ريكارد، فتاة في الخامسة عشرة،
- عم ريكارد، أرنولف، أمين القلعة في كارهولد،
- جالبارت جلوفر، سيّد ربوة الغابة، أعزب،
- روبرت جلوفر، أخوه ووريثه،
- زوجة روبرت، سيبيل سليلة عائلة لوك،
- طفلاهما:

- جاون، صبي في الثالثة،
- إرينا، رضيعة،
- ربيب جالبارت، لارنس سنو، ابن (اللورد هالس هورنوود) الطبيعي، صبي في الثالثة عشرة،
- هاولاند ريد، سيّد قلعة المياه الزماديّة، من شعب المستنقعات،
- زوجته، جيانا، من شعب المستنقعات،
- طفلاهما:

- ميرا، صيّادة شابة،
- جوجن، صبي موهوب البصيرة الخضراء،
- وايمان هاندولي، سيّد الميناء الأبيض، شديد البدانة،
- السير وايليس هاندولي، ابنه الأكبر ووريثه، بدين جدًا،
- أسير في هارنغال،
- زوجة وايليس، ليونا سليلة عائلة وولفيلد،
- واينافريد، ابنتهما، فتاة في التاسعة عشرة،

- وايللا، ابنتهما، فتاة في الخامسة عشرة،
- (السير وندل ماندري)، ابنه الثاني، قُتِلَ في الرُفَاف
الأحمر،
- السير مارلون ماندري، ابن عمه، قائد الحامية في
الميناء الأبيض،
- المايستر ثيومور، مستشار ومعالج ومعلم،
- مِج مورمونت، سيّدة جزيرة الذّبية،
- (داسي)، ابنتها الكبرى ووريثتها، قُتِلَت في الرُفَاف
الأحمر،
- أليسين، لايرا، جوريل، ليانا، بناتها،
- (جيور مورمونت)، أخوها، قائد حرس الليل، اغتاله
رجالها،
- السير جورا مورمونت، ابن اللورد جيور، سيّد جزيرة
الذّبية الشرعي سابقًا، فارس مدان ومنفي،
- (السير هلمان تولهارت)، سيّد مرتّع تورين، قُتِلَ في
وادي الفسق،
- (بنفريد)، ابنه ووريثه، قتله الحديدئون على الساحل
الحجري،
- إدارا، ابنته، أسيرة في مرتّع تورين،
- (ليوبولد)، أخوه، قُتِلَ في وينترفيل،
- زوجة ليوبود، بيرينا سليلة عائلة هورنوود، أسيرة في
مرتّع تورين،
- ابناهما براندون وبيرين، أيضًا أسير في مرتّع تورين،
- رودريك ريزويل، سيّد القُدران،
- باريري داستن، ابنته، سيّدة بلدة الزّوابي، أرملة (اللورد
ويلام داستن)،
- هاروود ستاوت، من أتباعه، لورد صغير من بلدة
الزّوابي،

- (بثاني بولتون)، ابنته، زوجة اللورد رووس بولتون الثانية، ماتت بالحمى،
- روجر ريزويل، ريكارد ريزويل، رووس ريزويل، أبناء عمومته وحقلة رايته المشاكسون،
- (كلاي سروين)، سيد سروين، قُتِلَ في وينترفيل،
- جونل، أخته، عذراء في الثانية والثلاثين،
- لייسا فلينت، سيّدة قلعة الأرملة،
- أوندرولو، سيد القلعة العتيقة، عجوز،
- هيوغو وول ولقبه الدلو الكبير، زعيم عشيرته،
- بارندون نوري ولقبه النوري، زعيم عشيرته،
- تورين ليدل ولقبه اليلد، زعيم عشيرته.

عائلة تلي



كان اللورد إدمين تلي سيّد ريقّرزن من أوائل لوردات النهر الذين أقسموا على الولاء لإجون الفاتح، وكافأه إجون المظفر بتنصيبه حاكماً على جميع أراضي نهر الثالوث.

راية آل تلي عبارة عن سمكة ترويت فضية واثبة على خلفية متموجة من الأزرق والأحمر، وكلماتهم: «العائلة، الواجب، الشرف».

إدميور تلي، سيّد ريقّرزن، أخذ أسيرًا في أثناء زفافه وسجين لدى آل فراي،

- الليدي روزلين سليفة عائلة فراي، عروس إدميور الشابة،

- (الليدي كاتلين ستارك)، أخته، أرملة اللورد إدوارد ستارك سيّد وينترفل، قُتِلَت في الزفاف الأحمر،

- (الليدي لايسا آرن)، أخته، أرملة اللورد جون آرن سيّد الوادي، ماتت مدفوعةً من الغش،

- السير برايندن تلي ولقبه السمكة السوداء، عم إدميور، أمين القلعة في ريقّرزن،

- أهل بيت اللورد إدميور في ريقّرزن:

- المايستر قايمان، مستشار ومعالج ومعلم،

- السير دزموند جرل، قيّم السلاح،

- السير روبن رايجر، قائد الحرس،
- ليو الطويل، إلوود، دلب، حرس،
- أوثيرايدس واين، وكيل ريقرتن،
- حملة راية إدميور، لوردات الثالوث:
- تاييتوس بلاكوود، سيّد شجرة الغدقان،
- (لوكاس)، ابنه، قُتِلَ في الرُفّاف الأحمر،
- جونوس براكن، سيّد الشّياج الحجري،
- جيسون هاليستر، سيّد سيجارد، سجين في قلعته،
- باتريك، ابنه، سجين مع أبيه،
- السير دينس هاليستر، عمّ اللورد جيسون، رجل في حرس اللّيل،
- كليمنت يايپر، سيّد قلعة العذراء الوردية،
- ابنه ووريثه، السير هارك يايپر، أخذَ أسيرًا في الرُفّاف الأحمر،
- كاريل قانس، سيّد استراحة عابري الشّبيل،
- ابنته الكبّرى ووريثته، ليان،
- ابنتاه الضّغيرتان، رياتا وإمفيريا،
- نوربرت قانس، سيّد أترانتا الأعمى،
- ابنه الأكبر ووريثه، السير رونالد قانس ولقبه السيئ،
- أبناؤه الأصغر، السير هيوغو، السير إليري، السير كيرث، المايستر جون،
- تيومار سمولوود، سيّد بهو البلوط،
- زوجته، الليدي راقبلا سليلة عائلة سوان،
- ابنتهما، كاريلين،
- ويليام موتون، سيّد بركة العذارى،
- شيلا وِنت، سيّدة هارنهل المنخّاة،
- السير ويليس وود، فارس في خدمتها،
- السير هالمون يايچ،

عائلة تايرل



صعد آل تايرل إلى السلطة كؤكلاء لملوك المرعى، الذين ضفت أملاكهم الشهول الخصبة في الجنوب الغربي من تخوم دورن والنهر الأسود وحتى سواحل بحر الغروب. يأتي نسب آل تايرل من جهة الإناث من جارت جرينهاند، ملك البشر الأوائل البستاني الذي ارتدى تاجاً من أوراق الشجر والزهور واستغل خصوبة الأرض وزرعها حتى ازدهرت، وعندما مات الملك من التاسع -آخر ملوك عائلة جاردنر- في معركة حقل النيران، سلم وكيله هارلن تايرل قلعة هايجاردن إلى إجون الفاتح وأقسم له على الولاء، فمنحه إجون القلعة وحكم المرعى.

أعلن اللورد مايس تايرل تأييده الملك رنلي في بداية حرب الملوك الخمسة وزوجه ابنته مارجري، وبعد موت رنلي تحالفت هايجاردن مع عائلة لانستر، وخطبت مارجري للملك جوفري. راية آل تايرل عبارة عن وردة ذهبية على خلفية بلون أخضر كالغشب، وكلماتهم: «ننمو بقوة».

مايس تايرل، سيد هايجاردن، حاكم الجنوب، حافظ التخوم، عاهل المرعى الأعلى،

- زوجته، الليدي أليري، سليفة عائلة هايताور من البلدة القديمة،

- أبناؤهما:

- ويلاس، الابن الأكبر، وريث هايجاردين،
- السير جارلان، لقبه الهمام، الابن الثاني،
- زوجته، الليدي ليونيت، سليلة عائلة فوسواي،
- السير لوراس، فارس الزهور، الابن الأصغر، أخ محلف في الحرس الملكي،

- مارجري، ابنتهما، فتاة في الرابعة عشرة من العمر،

- رفيقات مارجري:

- بنات عمومتهما مجا وآلا وإلينور
- خطيب إلينور، آلن أمبروز، مرافق،
- الليدي أليسين بولوار، فتاة في الثامنة،
- ميريديث كرين، تُسقى ميري،
- تاينا المايرتة، زوجة اللورد أورتون ميريويدز،
- الليدي آليس جريسفورد،
- الشبيبة نستيريكا، أخت في العقيقة،
- أمه الأرملة، الليدي أولينا، سليلة عائلة ردواين، لقبها ملكة الأشواك،

- أختاه:

- مينا، زوجة باكستر ردواين، سيّد الكرمة،

- أولادهما:

- السير هوراس ردواين، توأم هوبر، يُسقى هورور
سُخريّة،

- السير هوبر ردواين، توأم هوراس، يُسقى سلوبر
سُخريّة،

- دسميرا ردواين، فتاة في السادسة عشرة،

- جانا، زوجة السير جون فوسواي،

- أعمامه وأولادهم:

- أخو أبيه، جارت، لقبه الشمين، وكيل هايجاردين،

- ابنه غير الشرعيين، جارس وجارت فلاورن
- السير مورين، قائد حرس البلدة القديمة،
- ابن مورين، (السير لوثور)، زوج الليدي إلين نوريدج،
- ابن لوثور، السير ثيودور، زوج الليدي ليا سيري،
- ابنة ثيودور، إلينور،
- ابن ثيودور، لوثور مرافق،
- ابن لوثور، المايستر مدويك،
- ابنة لوثور، أولين، زوجة السير ليو بلاكبار،
- ابن مورين، ليو، لقبه ليو الكسول،
- أخو أبيه، المايستر جورمون، دارس في القلعة في
البلدة القديمة،
- ابن عمه، (السير كوينتن)، مات في آشفورد،
- ابن كوينتن، السير أوليمر، زوج الليدي لايسا ميدون،
- ابنا أوليمر، رايموند وريكارد،
- ابنة أوليمر، ميجا،
- ابن عمه، المايستر نورموند، في خدمة الثاج الأسود،
- ابن عمه، (السير فيكتور)، قتله الفارس الباسم رجل
أخوة غابة الملوك،
- ابنة فيكتور، فيكتاريا، تزوجت (اللورد جون بولوان)،
ماتت بحرق صيفية،
- ابنتهما، الليدي أليس بولوان فتاة في الثامنة،
- ابن فيكتور، السير ليو، تزوج الليدي آليس بيزبوري،
- ابنتا ليو، آلا وليونا،
- أبناء ليو، لايونل ولوكاس ولورنت،
- أهل بيته في هايجاردن:
- المايستر لوميس، مستشار، مُعالج، معلّم،
- إيجون فيرويل، قائد الحرس،
- السير قورتيمر كرين، قيّم السلاح،

- برمیل الرُبدة، نكّات ومهزّج مفرط البدانة،
- اللوردات حقلة رايته:
- راندل تارلي، سيّد هورن هيل،
- ياكستر ردواين، سيّد الكرمة،
- أروين أوكهارت، سيّد السّنديانة القديمة،
- مائيس روان، سيّد البستان الذهبي،
- آلستر فلورنت، سيّد قلعة المياه الوضّاءة، متمزّد يدعم
- ستائيس باراثيون،
- لايتون هايتاور صوت البلدة القديمة وسيّد المرفأ،
- أورتون ميريويدز سيّد الطاولة الطويلة،
- اللورد آرثر أمبروز.
- فرسانه والمقسّمون له:
- السير مارك مولندون شلّ في معركة النّهر الأسود،
- السير جون فوسواي، من فرع الثّقّاحة الخضراء من
- عائلة فوسواي،
- السير تانتون فوسواي، من فرع الثّقّاحة الحمراء من
- عائلة فوسواي.

ملحق (٣)

متمردون ومجرمون

عوام وإخوة محلفون

لوردات صغار ومتجولون وعامة

- السير كرايتون لونجبو والسير إيليفر المفلس، فارسان متجولان وبطلان،
- هيبالد، تاجر جبان بخيل،
- السير شادريك ابن الوادي الظليل ولقبه الفأر المجنون، فارس متجول في خدمة هيبالد،
- بريان وثسقى عذراء تارث وبريان المليحة، عذراء في مهمة،
- اللورد سلوين نجم المساء، سيد تارث، أبوها،
- (بن بوشي الكبير)، السير هایل هنت، السير هارك مالندور، السير إدموند أمبروز، (السير ريتشارد فارو)، (ويل اللقلق)، السير هيو بيزبوري، السير رايموند نايلاند، هاري سوير، السير أوين إنشفيد، روبن بوت، خابطو وژها الشابقون،
- رينفريد ريكر، سيد وادي الغسق،
- السير روفوس ليك، فارس بساق واحدة في خدمته، أمين قلعة الثبة في وادي الغسق،
- ويليام موتون، سيد بركة العذارى،
- إلينور ابنته الكبرى ووريثته، في الثالثة عشرة،
- راندل تارلي، سيد هورن هيل، يقود قوات الملك تومن على ضفاف الثالوت،
- ديكون، ابنه ووريثه، مرافق صغير،
- السير هایل هنت، فارس في خدمة عائلة تارلي،

- السير آلن هنت، ابن عم السير هایل، أيضًا في خدمة عائلة تارلي،
- ديك كراب ولقبه ديك الزشيق، من آل كراب أولاد الرأس المتصدع،
- إيوستس برون، سيّد عربن داير،
- بينارد برون، فارس الغور البئي، ابن عمه،
- السير روجر هوج، فارس قرن الخنزيرة،
- الشيتون ميريبولد، سبتون حافي القدمين،
- كلبه، كلب،
- الأخ الكبير، من جزيرة الهدوء،
- الأخ ناربرت، الأخ جيلام، الأخ راوئي، إخون تائبون على جزيرة الهدوء،
- السير كوينسي كوكس، فارس الملاحات،
- في خان مفترق الطرق:
- جاين هيل ولقبها جاين الفارعة، فتاة طويلة شائبة في الثامنة عشرة،
- ويلو، أختها، تُعاقب بالضرب بالملعقة،
- تانسي، پايت، جون يني، بن، أيتام في الخان،
- جندي، صبي حدّاد وابن غير شرعي للملك روبرت باراثيون الأول، يجهل أصله،
- في هارنغال:
- رافورد ولقبه راف المعسول، فم الخراء، دانسن، من رجال الحامية،
- بن ذو الإبهام الأسود، حدّاد وصانع سلاح،
- پيا، خادمة كانت حسناء،
- المايستر جوليان، معالج ومعلّم ومستشار،
- في داري:

- الليدي آميري فراي ولقبها آمي البؤابة، أرملة شهوانية
شابة مخطوبة للانسل لانستر،
- أم الليدي آميري، الليدي ماريا سليلة عائلة داري، أرملة
ميريت فراي،
- أخت الليدي آميري، ماريسا، فتاة في الثالثة عشرة،
- السير هاروين بلوم ولقبه الحجر الضلب، قائد الحامية،
- المايستر أوتومون معالج ومعلم ومستشار،
- في خان الزجل الزاكع:
- شارنا، صاحبة الخان، طاهية وقابلة،
- زوجها وتسميه زوجي،
- الضبي، من يتامى الحرب،
- هوت ياي، ابن خباز يتيم.
- خارجون عن القانون ورجال مكسورون
(بريك دونداريون)، سيد المرفأ الأسود السابق، قُتل ست
مرات،
- إدريك داين، سيد ستارفول، صبي في الثانية عشرة،
مرافق اللورد بريك،
- القناص المجنون من الشيت الحجري، حليفه أحياناً،
- ذو اللحية الخضراء، مرتزق تايروشي، صديقه غير
الموثوق به،
- أنجاي القواس، راج من ثخوم دورن،
- ميريت ابن بلدة القمر، واتي الطحان، مج فتاة
المستنقعات، جون ابن قرية نوتن، خارجون عن
القانون في جماعته،
- الليدي قلب الحجب امرأة تخفي ملامحها، تسمى أحياناً
أم القسوة والأخت الضامطة والشناقة،
- ليم ويسمى ليم ذو المعطف الليموني، جندي سابق،
- ثوروس المايري، راهب أحمر،

- هاروين، الشمالي ابن هالن، خدم اللورد إدارد ستارك
سيّد وينترفل سابقًا،
- جاك المحفوظ، رجل مطلوب، تُنقّصه عين،
- توم ابن الجداول الشبعة، مطرب سيّئ الشمعة، لقبه
توم سبعة أوتار وتوم أبو الشبعات،
- لوك الزّاجح، نوتش، مودج، ديك الحليق، خارجون عن
القانون،
- ساندور كليجاين ولقبه كلب الصّيد، حارس الملك
جوفري الشّخصي سابقًا، ثم أخ محلّف في الخرس
الملكي، شوهد آخر مرّة محمومًا يَحْتَضِر على ضفّة
الثّالوث،
- (فارجو هوت)، من مدينة كوهور الحُرّة، لقبه الكبش،
قائد مرتزقة ألغ، قتله السير جريجور كليجاين في
هارنهال،
- رجاله في رفقة الشّجعان، جماعة المرتزقة المعروفة
أيضًا باسم الممثّلين الشّفّاحين:
- أورزويك ولقبه الوفي، نائبه،
- (الشّيتون أوت)، شنقه اللورد بريك دونداريون،
- تيميون الدورني، زولو السّمين، رورج، العضّاض، ييج،
شاجويل المهزّج، توج جوث الإيبينيزي، مشتّون
وهاربون،
- في ماخور الثّفّاحة في الشّيت الحجري:
- تانسي، مالكة المكان حمراء الشّعر،
- أليس، كاس، لانا، جايزين، هيلي، بلّا، بعض خوخاتها،
- في بهو البلوط، مقر عائلة سمولوود:
- الليدي راقيلّا، من عائلة سوان سابقًا، زوجة اللورد
ثيومار سمولوود،
- هنا وهناك:

- اللورد لايموند لايتشستر، رجل مسنٌ خَفَّ عقله، هزم
السير ماينارد عند الجسر ذات مرّة،
- وكيله الشاب، المايستر روون،
- شبح القلب العالي،
- سيّدة الأوراق،
- الشّيتون في ساليّدانس.

إخوة حرس الليل المحلفون

جون سنو، نغل وينترفل، قائد حرس الليل الثامن والتسعون
بعد التسعمئة،

- جوست، ذئبه الزهيب الأبيض،

- وكيله، إديسون توليت ولقبه إد الكتيب،

رجال القلعة السوداء:

- بنجن ستارك، الجوال الأول، مفقود منذ فترة طويلة
ويعتقد أنه مات،

- السير وينتون ستاوت، جوال مسن تائه العقل،

- كدج ذو العين البيضاء، بدويك ولقبه العملاق، ماثان،

دايوين، جارت جرايفيذر أولمر ابن غابة الملوك،

إلرون، يايير ويسمى بيب، جرن ولقبه الثور، برنار

ويسمى برنار الأسود، جودي، تيم ستون، جاك بولوار

الأسود، جيوف ولقبه الشنجا، بن الملتحي، جواله،

- باون مارش، قيم الوكلاء،

- هوب ذو الثلاثة أصابع، وكيل وكبير الظهارة،

- (دونال نوي)، حذاء وصانع سلاح بذراع واحدة، قتله

ماج الجبار عند البوابة،

- أوين ولقبه الجحش، تيم الفتته، كوجن، دونل هيل

ولقبه دونل المرح، ليو الأعسر، جيرن، ويك المهزول،

وكلاء،

- أوثيل يارويك، البئاء الأول،

- ذو النعل الواحد، هالدر ألبت، كجج، بئائون،

- كونواي وجورن، مجئدان متجولان،

- السيتون سلادون، رجل دين سكير،

- السير أليسر ثورن، قيم السلاح السابق،

- اللورد جانوس سلينت، قائد حرس المدينة السابق في كينجز لاندنج، سيّد هارنغال لفترة وجيزة،
- المايستر إيمون (تارجارين)، معالج ومستشار، عجز كفيف في المئة والاثنيين من الغمر،
- وكيل إيمون، كلايداس،
- وكيل إيمون، سامويل تارلي، بدين ومحب للقراءة،
- إميت الحديدي، من رجال القلعة الشرقيّة سابقًا، قيّم السلاح،
- هارث ولقبه الجواد، الثوّامن أرون وإمريك، ساتان، روبن النّطاط، مجنّدون تحت التّدريب،
- رجال برج الظلال:
- السير دينس ماليستر، قائد القلعة،
- وكيله ومُرافقه، والاس ماسي،
- المايستر مولين، معالج ومستشار،
- (كورين ذو النّصف يد)، كبير الجوّالة، قتله جون سنو وراء الجدار،
- إخوان برج الظلال:
- (المرافق دالبريدج، إيجن)، مرافقان، قتيلا في الممر الصّادح،
- ثعبان الحجر جوّال، مفقود في الممر الصّادح،
- رجال القلعة الشرقيّة على البحر،
- كوتر بايك، قائد القلعة،
- المايستر هارميون، معالج ومستشار،
- ذو الأسماك المالحة العجوز زبّان الطائر الأسود،
- السير جلندون هيويت، قيّم السلاح،
- إخوان القلعة الشرقيّة:
- داريون، وكيل ومطرب،
- في قلعة كراستر (الخونة):

- ديرك، الذي قتل مضيفه كراستر،
- أولو الأبتس، الذي قتل قائده اللورد مورمونت،
- جارت جرينواي، ماوني، جروبن، آلان ابن روزبي،
جؤالة سابقون،
- كارل ذو القدم المعوجة، أوس اليتيم، بيل الفتمتم،
وكلاء سابقون.

الهمج

أو شعب الأحرار

مانس رايدن ملك ما وراء الجدار، أسير في القلعة
الشوداء،

- (دالا)، زوجته، مائت في أثناء الوضع،

- ابنهما حديث الولادة، وليد المعركة، بلا اسم بعد،

- قال، أخت دالا الصغيرة، «الأميرة الهمجية»، أسيرة في
القلعة الشوداء،

- زعماء الهمج وقادتهم:

- (هارما) ولقبها رأس الكلب، قُتِلَت عند الجدار،

- هاليك، أخوها،

- سيّد العظام ولقبه ذو القميص الفخشيخس سُخريّة،

قائد فرقة حربيّة، أسير في القلعة الشوداء،

- ((إيجريت))، زوجة حربة شائبة، حبيبة چون سنو، قُتِلَت

خلال الهجوم على القلعة الشوداء،

- رايك، لقبه ذو الحرية الطويلة، من فرقته،

- راجوايل، لاينل، من فرقته،

- (ستير)، ماجنر ثن، قُتِلَ خلال الهجوم على القلعة
الشوداء،

- سيجورن، ابن ستير، ماجنر ثن الجديد،

- تورموند، ملك اليتع في البهو القائي، ألقابه بليّة

العماليق، المهدان نافخ البوق، وكاسر الجليد، وأيضًا

قبضة الرعد، زوج الذببة، كليم الآلهة، وأبو الجيوش،

- أبناؤه، توريج الطويل، تورويند المروّض، دورموند،

درين، وابنته، موندا،

- (أورل ولقبه أورل الثّس)، مبدل جلدة قتله چون سنو

في الممر الضّاح،

- ماج مارتون دوه ويج، لقبه ماج الجبان، ملك العمالقة،
- قارامير، لقبه ست جلود، سيد لثلاثة ذئاب وقط ظل
وذئ ثلوج،
- البكاء، مغير وقائد فرقة حربية،
- (الفين قاتل الغربان)، قتله كورين ذو النصف يد رجل
حرس الليل،
- (جارل)، مغير شاب، حبيب قال، مات سقوطا من على
الجدار،
- جريج الثيس، إروك، كورت، بودجر، دل، بثرة الكبير،
دان القنبي، هنك ذو الذقة، لن، توفينجر، ذو الإبهام
الحجري، هجانة،
- (كراستر)، سيد قلعة كراستر الذي لا يركع لأحد،
- جيلي، ابنته وزوجته،
- ابنها حديث الولادة، بلا اسم بعد،
- ديا، فيرني، بلا، ثلاث من زوجاته التسع عشرة.

ملحق (٤)
وراء البحر الضيق
الملكة وراء البحر



دنيرس تارجارين الأولى، غاليسي الدوثرافي، تُسَمَّى دنيرس
وليدة العاصفة، التي لم تحترق، أم الثنائين، آخر من تبقى من
أولاد الملك إيرس تارجارين الثاني وأرملة الدوثرافي كال
دروجو،

- تنانينها الثامون: دروجون، قسيريون، ريجال،

- حرسها الملكي:

- السير جورا مورمونت، سيد جزيرة الذببة السابق، منفي
لإتجاره بالزقيق،

- چوجو، كو وخیال دم، الشوط،

- أجو، كو وخیال دم، القوس،

- راكارو، كو وخیال دم، الأراخ،

- بلواس القوي، عبد خصي سابق في حلبات القتال
بميرين،

- مرافقه المسن، أريستان، لقبه ذو اللحية البيضاء، رجل

من وستروس،

- وصيفتها:

- إيرى، فتاة من الدوثرافي، في الزابعة عشرة،
- جيگوي، فتاة من الدوثرافي، في الخامسة عشرة،
- جروليو، زبّان الكوج العظيم بالريون، ملاح في خدمة
إليريو موياتيس،
- أهلها الزاحلون:
- (ريجار)، أخوها، أمير دراجونستون وورث العرش
الحديدي، قتله روبرت باراثيون في معركة الثالوث،
- (رينس)، ابنة ريجار من إليا الدورنيّة، قُتِلت خلال نهب
كينجز لاندنج،
- (إجون)، ابن ريجار من إليا الدورنيّة، قُتِل خلال نهب
كينجز لاندنج،
- (قسيرس)، سقى نفسه الملك قسيرس الثالث، لقبه
الملك الشخاذ، قُتِل في قايس دوثراف على يد غال
دروجو،
- (دروجو)، زوجها، غال الدوثرافي العظيم، لم يهزم قط
في معركة، مات متأثراً بجرح،
- (رييجو)، ابن دتيرس وغال دروجو الجهيضم، قُتِل في
الزحم على يد ميري ماز دور،
- أعداؤها المعروفون:
- غال پونو، گو دروجو السابق،
- غال جهاگو، گو دروجو السابق،
- ماجو، خيال دمه،
- خالدو گارث، جماعة من الذجالين،
- پيات پري، دجال گارثيني،
- الزجال الاسفون، جماعة من المغتالين الكارثينيين،
- تحالفاتها غير المضمونة في الماضي والحاضر:
- زارو زون داگسوس، أمير تاجر من گارث،
- كويت، أسرة ظلال مقلعة من آشي،

- إيلريو موياتييس، ماجستر من مدينة ينتوس الحرة،
- رثب زواج دنيرس بغال دروجو،
- في أستايور:
- كرازنس مو نوكلون، تاجر رقيق ثري،
- أمته، ميسانداي، فتاة في العاشرة، من شعب ناث
- المسال،
- جرازدان مو أولهور، تاجر رقيق عجوز فاحش الثراء،
- عبده، كليون، جزار وطبخ،
- الذودة الزمادي، خصي من المطهرين،
- في يونكاي:
- جرازدان مو إران مبعوث ونبيل،
- ميرو البراقوسي، لقبه نغل المارد، قائد الأبناء الثانيين،
- جماعة خرة،
- بن يلوم البئي، رقيب في الأبناء الثانيين، مرتزق مختلط
- النسب،
- يرنفال نا غزن، مرتزق جيسكاري، قائد غربان العاصفة،
- جماعة خرة،
- سالور الأصلع، مرتزق كارثيني، قائد غربان العاصفة،
- داريو نهارييس، مرتزق تايروشي مبهزج، قائد غربان
- العاصفة،
- في ميرين:
- أوزناك زو پال، بطل من المدينة.

تسري دماء التئين في عروق آل تارجارين الذين ينحدرون
من كبار لوردات معقل قاليريا الحُر القديم، ويتبدى ميراثهم في
جمالهم الأخاذ (الذي يقول بعض الناس إنه غير بشري)، والأعين
ذات اللون الأرجواني أو النيلي أو البنفسجي، والشعر الذهبي
الفضي أو الأبيض كالبلاتين. قَرَّ أسلاف إجون التئين من هلاك
قاليريا والفوضى والمذابح التي تبغته واستقرّوا في
دراجونستون، الجزيرة الصخرية الواقعة في البحر الضيق، ومن
هناك أبحر إجون مع أخته لغزو القمالك السبع. للحفاظ على
الدم الملكي وصيانة نقائه، غالباً ما اتّبع آل تارجارين التقليد
القاليري القديم وزوّجوا الأخ أخته، وقد تزوّج إجون نفسه
أخته وأنجب أبناء من كليهما.

راية آل تارجارين عبارة عن تئين أحمر ذي ثلاثة رؤوس
-يرمز لإجون وأخته- على خلفية سوداء، وكلماتهم: «النار
والدم».

في براقوس

فيريجو أنتاريون، أمير بحر براقوس،

- كارو قولنتين، مبارز براقوس الأول، حارسه،
- بيليجير أوثيريس ولقبها اللؤلؤة السوداء، محظية من
سلالة الملكة القرصانة ذات الاسم نفسه،
- الليدي المثلثة، ملكة البحار ظل القمر ابنة الغسق،
العندليب، الشاعرة، محظيات شهيرات،
- ترنيسيو تيريس، الزئبان التاجر مالك القاليون ابنة
المارد،

- يوركو ودينيو، ابناه،

- موريدو پرستاین، الزئبان التاجر مالك الثعلبة،
- لوئو لورنل، تاجر كتب ومخطوطات قديمة،
- إزيلينو، راهب أحمر سكير،
- الشيتون إيوستس، معزول ومطروء،
- تيرو وأوربيلو، مبارزا براقو،
- بكو الضريس، تاجر أسماك،
- بروسكو، تاجر أسماك،
- ابنتاه، قاليا وبريا،

- ميرالين وثسقى مري، مالكة الميناء الشعيد، ماخور قرب
ميناء راجمان،

- زوجة البخان عاهرة في الميناء الشعيد،
- لانا، ابنتها، عاهرة صغيرة،

- بثناني الخجول، يانا العوراء، أسادورا الإيبيزيّة، من
عاهرات الميناء الشعيد،

- روجو الأحمر، جيلورو دوتان، جيلينو دوتان مؤلف
يدعى كويل، كوزومو الحاوي، من مرتادي الميناء

الشعيد،

- تاجانارو، نَشال ولص في الميناء،
- كاسو، ملك الفقمات، كلب بحر مدرّب،
- ناربو الصّغير، شريكه أحيانًا،
- ميرملو، جوس المكتّتب، كوينس، آلاكو، سلوي، ممثّلون
- يعملون كلّ ليلة في السفينة،
- سقرون، عاهرة قاتلة،
- الابنة الشّكيرة، عاهرة متقلّبة المزاج،
- جاين القرحة، عاهرة غير موثوق بجنسها،
- الرّجل الطيّب، اللّقيطة، خادمان للإله عديد الوجوه في
- دار الأبيض والأسود،
- أوما، طاهية المعبد،
- الرّجل الوسيم، الرّجل البدين، اللورد الصّغير، ذو
- الوجه الضّارم، ضيق العينين، الرّجل المهزول، خدم
- سرّيون لذي الوجوه العديدة،
- آريا سائلة عائلة ستارك، فتاة تحمل غملةً من الحديد،
- معروفة أيضًا بأسماء آري ونان وبنت عرس
- والكتكوت وملحة وكات،
- كاهورو مو، من بلدة الأشجار الطويلة في جزر الصّيف،
- رَبّان ربح القرقة،
- كوجا مو، ابنته، رامية حمراء،
- زوندو دورو، وكيل رَبّان على متن ربح القرقة.

شكر وتقدير

كان هذا الكتاب مصيبة.

مزة أخرى أتوجه بشكري وتقديري إلى صاحبات الأنفس الشجاعة، محرراتي: نيتا توبليب وجوي تشامبرلين وجين جونسون، وبالذات آن لزي جرويل لنصائحها وروحها المرحية وصبرها البالغ.

الشكر أيضًا لقزائي على رسائلهم اللطيفة المشجعة، وعلى صبرهم كذلك. أحيي بشكل خاص كلًا من لودي ذي القبضات الثلاث، وپود الأرنب الشيطاني، وتريبلا وداچ الملكين الثافهين، وكارس العذبة بنت الجدار، ولانستر قاتل الشناجب، وبقية أخوة اللا رايات، تلك الرفقة الشكيرة شبه المجنونة من الفرسان الشجعان والليديوهات الجميلات، الذين يقيمون أفضل الحفلات خلال المهرجان العالمي للخيال العلمي عاqa بعد عام بعد عام. ودعوني أطلق الثفير أيضًا لإليو وليندا اللذين يبدو أنهما يعرفان الممالك الشيع أفضل مما أعرفها ويساعداني على اتساق التفاصيل. إن موقعهما وفهرسهما عن وستروس مسرة وأعجوبة.

وشكرًا إلى والتر جون ويليامز على قيادتي عبر بحار أكثر ملوحة، وساج ووكر على العلق والخمى والعظام المكسورة، وياتي نيجل على الـ«HTML» وتدوير الثروس ونشر أخباري بسرعة، وإلى ميلندا سنودجراس ودانييل إبراهيم لخدماتهما التي تعدت حدود الواجب. إنني لا أتقدم إلا بالقليل من العون من أصدقائي.

ولا كلمات ثوفي حق ياريس التي كانت موجودة في الأيام الجيدة والسئنة ومع كل صفحة. كل ما يمكن أن يقال إنني لم أكن لاستطيع غناء هذه الأغنية من دونها.

كلمة المُترجم

قد يبدو غريبًا أن تجد كلمة المُترجم في نهاية الكتاب لا بدايته، لكن هذا الجزء من السلسلة غير معتاد في حدّ ذاته، ولمّا كانت هناك معلومات عن الرّواية ربما يرغب القارئ العربي في معرفتها، فقد وجدتُ أن إيرادها في البداية سيحرق عددًا من الأحداث ويُفسد ما ارتأى المؤلّف أن يتزكّه للنهاية، وهكذا فضّلتُ أن أذكرها هنا لمن يُريد الاطّلاع عليها بعد الفروع من قراءة النصّ.

يقول جورج ر. ر. مارتن إن الكتاب في رأيه نوعان؛ الأول يُشبّهه بالمهندس المعماري حين يُخطّط لكل شيء مسبقًا قبل الشروع في بناء المنزل، فيعرف كم غرفة سيضمّ وطراز السطح وأماكن الأسلاك والمواسير في الجدران، أي أن هناك تصميمًا كاملًا للبناء كلّ قبل أن تُصبّ الأساسات ويُدقّ أول مسمار. النوع الثاني هو البستاني الذي يحفر في الأرض حفرة ويغرس فيها بذرة ويسقيها عالمًا نوعها وما إن كانت بذرة فانتازيا أم غموض أم غيرهما، لكن مع بروز الثبته من الثربة واستمراره في سقيها لا يدري البستاني كم سيكون فيها من غصون وأوراق، ويكتشف هذا شيئًا فشيئًا مع نموّها.

ينتمي مارتن في كتابته الرّوائية إلى النوع الثاني، وأكبر دليل على هذا في ما يخصّ «أغنية الجليد والنّار» أنه حسب الفكرة تُصلح قصّة قصيرة حين جالت بباله للمزّة الأولى في صيف عام 1991، ثم بدأ يستكشفها أكثر فأكثر فوجدّها تُصلح لثلاثيّة الرّوايات الملحميّة التي كان يرغب في كتابتها منذ سنوات عمله في هوليوود، وبعدها «كبرت الحكاية» كما قال مستعيرًا مقولة تولكين عن تجربته المشابهة حين بدأ يكتب «سيد الخواتم»، فتحوّلت الثلاثيّة إلى خماسيّة ثم إلى سداسيّة، وفي النهاية إلى سباعيّة.

نُشِرت «وليمة للغربان» في أكتوبر/تشرين الأول 2005، بعد خمسة أعوام وشهرين من الجزء السابق، وقد نجم هذا عن تغيير خطة مارتن في أثناء الكتابة. في البداية كانت نيّته أن يُطلق على الكتاب الزايع عنوان «رقصة مع الثنائين»، وأن تبدأ الأحداث بعد خمس سنوات من «عاصفة الشيوف»، وكان من أسبابه أن تكون الشخصيات الصغيرة قد تقدّمت في العمر بعض الشيء، على أن مارتن اكتشف خلال عملية الكتابة نفسها أن هذا سيقوده إلى الاعتماد أكثر من اللازم على الاسترجاع (Fkashback) في سبيل حكاية ما جرى في تلك السنوات الخمس، وبعد عام أو نحوه من الكتابة قرّر أن يتخلّى عن جزء كبير من المكتوب ويبدأ من جديد، هذه المرّة مواصلاً الأحداث من حيث انتهت في «عاصفة الشيوف»، وقد أعلن قراره هذا في المهرجان الدولي للخيال العلمي بفيلا دلفيا في 2001.

علاوة على هذا، كان مارتن قد بدأ يُقدّم أحداثاً من وجهات نظر شخصيات جديدة لا تظهر إلّا في فصلٍ أو اثنين، ثم إنه كتب فصلاً تمهيدياً وقع في مئتين وخمسين صفحة، إلّا أنه حذف معظمه لاحقاً ووزّع ما تبقى على أحداث الرواية، التي أدرك قرب اكتمالها أنها أطول كثيراً من «عاصفة الشيوف»، ولما أخبر ناشره بهذا طلب منه أن يقسمها جزأين، ثم اقترح صديقه المؤلف دانييل إبراهيم أن يقسمها حسب الشخصيات والأماكن، بحيث يتلو الكتاب الثالي أيضاً أحداث الجزء الثالث مباشرة مع شخصيات أخرى وفي أماكن مختلفة، وهو ما وجدّه مارتن مقبولاً، وإن أدّى إلى المزيد من التأخير في النشر من أجل تنسيق الأحداث بين الكتابين.

تعدُّ «وليمة للمُغربان» أول جزء من السلسلة يصل إلى قائمة النيويورك تايمز للأعلى مبيعًا، وقد رُشّحت كأفضل رواية لجائزتي «هيوغو» و«كويل» وجائزة الفانتازيا البريطانية في عام 2006، وُترجمت حتى الآن إلى أكثر من عشرين لغة. أمّا في مسلسل «Game of Thrones» المقتبس من «أغنية الجليد والنار» فقد غاب السواد الأعظم من الكتاب عن الأحداث، وما تبقى قُدّم على الشاشة بشكلٍ مختلف كثيرًا. كـمترجم، كانت قراءة روايات «أغنية الجليد والنار» والمتعة الشديدة الذي وجدتها فيها هي الفيصل في اتّخاذ قرار ترجمتها إلى العربية، وهذه الترجمة التي بين يديك الآن هي نتاج عمل شهور طويلة مرهقة لتقديم عالم جورج مارتن المعقّد وشخصياته المتشابكة للقارئ العربي بأفضل شكل ممكن.

المؤلف

جورج ر. ر. مارتن



عشر سنوات قضاها جورج ريتشارد رايموند مارتن في العمل في هوليوود، واشترك خلالها في كتابة وإنتاج عدد من المسلسلات التليفزيونية المعروفة في عقد الثمانينات، منها «Beauty and the Beast» و«The Twilight Zone»، لكن مع مجيء العام 1994 كان مارتن قد ضاق ذرعًا برفض القائمين على الاستوديوهات الكبيرة المستمر للمشاريع التي يقدمها لهم للإنتاج في التليفزيون أو السينما -بزعم أن الأفكار التي يطرحها شديدة الضخامة وستكلف مبالغ كبيرة جدًا لا قبل لهم بإنفاقها- وقال إنه اكتفى تمامًا من القيود التي تفرضها التكاليف على الإنتاج، ومن ثم قدرة الشاشة على تقديم ما يرغب فيه حقًا على المستوى المطلوب، بينما يستطيع على الصفحة المطبوعة أن يحكي كل ما يريده من قصص بكل التفاصيل التي تتفق عنها مخيلته النشطة. هكذا اتخذ مارتن القرار بأن يترك العمل في هوليوود ويعود إلى تأليف الكتب

وتقديم أفكاره كلها فيها، حيث لا توجد عقبات إنتاجية أو مالية تعوقه عن بناء العوالم الضخمة التي يتخيلها وتقديمها بأدق وأصغر تفاصيلها.

وُلد مارتن في سبتمبر 1948 في ولاية نيو جيرسي لأب من أصول إيطالية يعمل في تفريغ وتحميل البضائع على السفن وأم من أصول أيرلندية، وفي عائلة تملك جذورًا إنجليزية وألمانية وفرنسية، وهو ما يفسر شغفه الشديد بالتاريخ الأوروبي، خصوصًا حقبة العصور الوسطى التي استلهم منها الكثير في كتاباته. يقول مارتن إن طفولته كلها كانت تتلخص في الذهاب إلى المدرسة والعودة إلى المنزل، ومشاهدة السفن التي تتوافد على ميناء نيوآرك من جميع أنحاء العالم من نافذة غرفته الصغيرة، واضعًا قائمة بأعلام الدول التي يراها ويحلم بأن يزورها ذات يوم، وكان هذا ما شجعه على القراءة بنهم شديد على سبيل زيارة تلك الدول في خياله، قبل أن يتجه إلى الكتابة في سن صغيرة، حيث بدأ يبيع القصص التي يكتبها لأطفال الحي مقابل بنس لل قصة، وأحيانًا ما كان يقرأ عليهم هذه القصص كذلك.

ظل مارتن شغوفًا بالقراءة والكتابة، وخلال دراسته الثانوية أضاف قصص الكومكس إلى هواياته، حتى صارت لديه مجموعة ضخمة منها، وهو ما شجعه على كتابتها كذلك، وفي سنة 1970 اشترت مجلة «Galaxy» منه واحدة من تلك القصص، لتصبح أول عمل احترافي يُنشر له على الإطلاق. ثم التحق مارتن بجامعة نورثوسترن في ولاية إلينوي ليحصل على درجتي البكالوريوس والليسانس في الصحافة، وخلال دراسته الجامعية كان من النشطاء المعارضين لحرب فيتنام.

عمل مارتن أستاذًا للصحافة في الجامعة لفترة واصل فيها نشر قصصه ومقالاته في الصحف والمجلات المختلفة، وأخيرًا في سنة 1976 نشر مجموعته القصصية الأولى «أغنية ليل»

التي فازت بجائزة «Locus Poll» كأفضل مجموعة قصصية لهذا العام، ثم في العام التالي نشر روايته الأولى بعنوان «موت الضياء» التي رُشحت لجائزتي «Hugo» و«British Fantasy Award» كأفضل رواية، وُترجمت إلى تسع لغات.

مع حلول سنة 1979 كان مارتن قد تفرغ للكتابة تمامًا، وواصل نشر مجموعاته القصصية ورواياته، التي تضمنت «أغاني النجوم والظلال» و«التنين الجليدي» و«في الأراضي المفقودة»، ليحصد المزيد من الجوائز الأدبية المرموقة عن أعماله المختلفة، والتي بلغ عددها حتى الآن 21 جائزة بخلاف الترشيحات، غير أن روايته الرابعة التي نشرها سنة 1983 بعنوان «المعركة الأخيرة» لاقت فشلًا ذريعًا في المبيعات على الرغم من إشادة النقاد بها، حتى أنه قال إنه «دُمّر مسيرته المهنية كروائي في ذلك الحين». لكن سرعان ما تعافى مارتن من هذه العقبة واتجه إلى العمل في هوليوود، وفي الآن نفسه واصل كتابة القصص والروايات، لتبلغ حصيلته منها حتى الآن 18 رواية ومجموعة قصصية لا تتضمن سلسلته الأشهر «أغنية الجليد والنار» والكتب الأخرى التي تدور أحداثها في عالمها.

يقول مارتن إن تركه لهوليوود كان من أفضل القرارات التي اتخذها في حياته، ويقرّ بأن هوليوود كانت كفيلة بتدمير سلسلة «أغنية الجليد والنار» تمامًا لو كان قدمها للاستوديوهات الكبيرة لتحولها إلى سلسلة أفلام سينمائية ضخمة، بدلًا من شبكة «HBO» التي حولتها إلى مسلسل «Game of Thrones»، والذي يعمل عليه كمشرف ومنتج تنفيذي وشارك في كتابة عدد من أهم حلقاته، وإن توقف عن الكتابة للمسلسل بعد موسمه الرابع، ويعيش حاليًا في ولاية نيو مكسيكو مع زوجته الثانية باريس متفرغًا لكتابة الجزئين السادس والسابع من سلسلته، واللذين ينتظرهما القراء في جميع أنحاء العالم على أحر من الجمر.

المترجم
هشام فهمي



درس الأدب الإنجليزي والترجمة في جامعة الإسكندرية،
وعمل مترجمًا وكاتبًا في عددٍ من الصحف والمجالات والمواقع،
وترجم عددًا من الأعمال لكُتّاب عالميين، منها «الهوبيت»
لتولكين، «فرانكنشتاين» لماري شلي، «1408» لستيغن كينج،
«الناجي الأخير» و«أغنية المهد» لتشاك پولانك، و«المحيط في
نهاية الدرب» لنيل جايمان، و«حرب الفن» لستيغن پرسفيلد.

موقع المترجم: www.hishamfahmy.com

شكر من المترجم

امتنان أعجز عن وصفه للشجرة العطرة الليدي ريندا الوكيل.
شكرًا على الدعم المعنوي والعملي قبل وطيلة شهور العمل على
هذا الكتاب. من يكُتب أو يُترجم وله قارئة مثلك محظوظ.

وشكر خاص جدًا للأصدقاء من حول العالم في
«SchwiftySquwad» على مساعداتهم في الصعوبات
اللغوية وشرح وجهات النظر المختلفة في بعض الأحداث
ومناقشتها وتحليلها، وهو ما ساهم كثيرًا في إخراج الترجمة
بأفضل شكل ممكن.

وأخيرًا، قرّرت أن أترك للمنظرين والاكاديميين مسألة أحقية
إهداء المترجم ترجمته إلى أحد، فهذه أمور لا تشغلنا كثيرًا هنا
في وستروس، وعن نفسي أحب أن أهدي هذه الترجمة إلى
روح الراحل الجميل الدكتور أحمد خالد توفيق، الرجل الذي
تعلمت منه الكثير والكثير، ودومًا كنت به أسعد وله قلبي
يطرب.